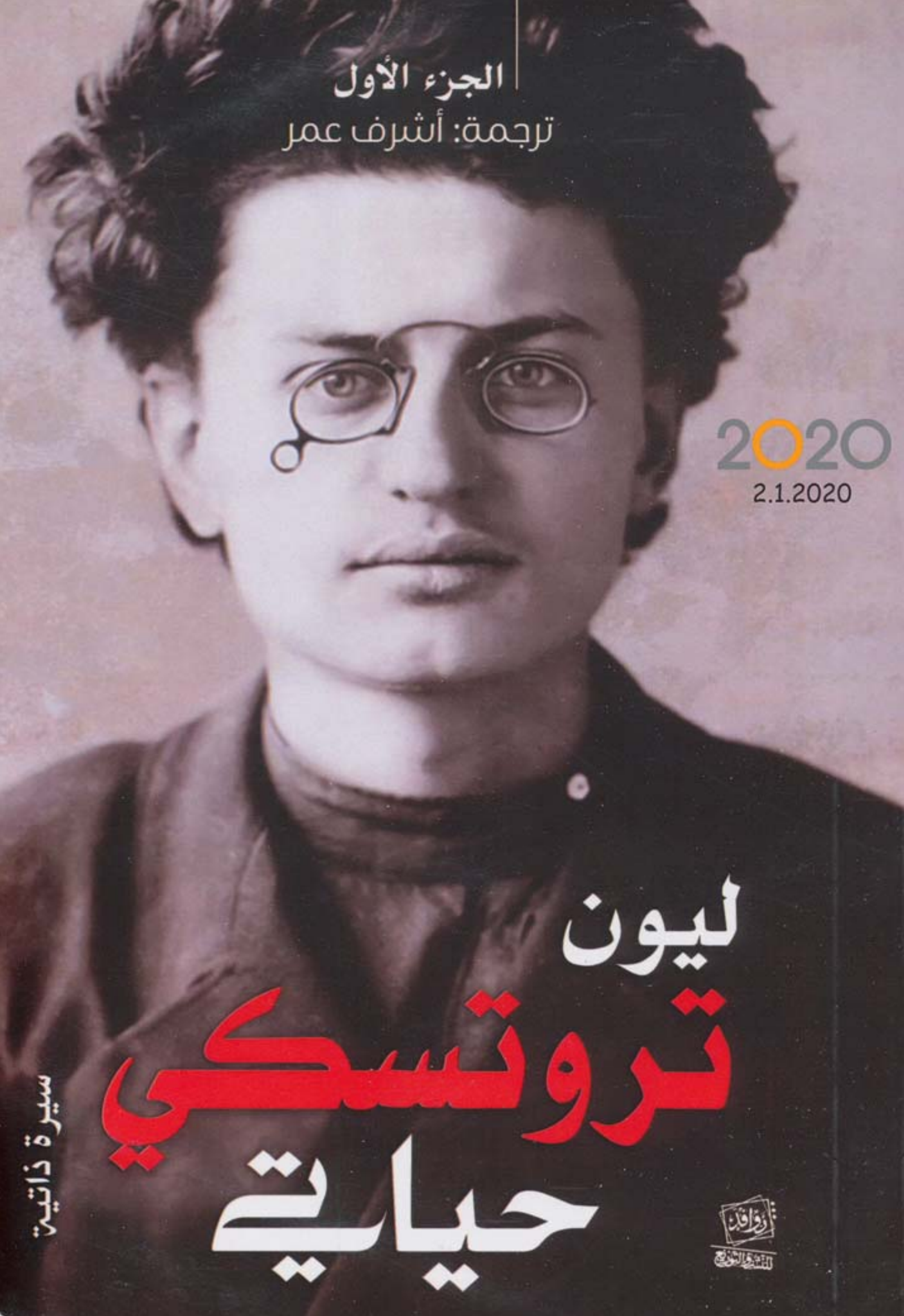

الجزء الأول

ترجمة: أشرف عمر

2020

2.1.2020

ليون تروتسكي

حياتي

سيرة ذاتية

روافد للنشر والتوزيع

ليون تروتسكي

حياتي

سيرة ذاتية
الجزء الأول

ترجمة أشرف عمر

مقدمة المترجم:

سيرة ذاتية للأمل

حين شرع الثوري الروسي ليون تروتسكي (1879 – 1940)، أحد أبرز قيادات الثورة الروسية عام 1917، في كتابة سيرته الذاتية عام 1929، استقرَّ على عنوان "حياتي: محاولة في كتابة سيرة ذاتية" من ضمن عدة اختيارات، جاء من أبرزها: "نصف قرن: 1879 – 1929"، و"في خدمة الثورة: تجربةٌ في السيرة الذاتية"، و"حياة نضال: السيرة الذاتية لثوري"، و"أن تحيا هو أن تناضل: السيرة الذاتية لثوري".

كَتَبَ تروتسكي هذه السيرة عن نفسه من منفاه في تركيا، استنادًا إلى العديد من المسودات الخاطفة عن حياته للنشر في الصحف. ويغطي الكتاب، الذي نُشِرَ لأول مرة عام 1930، ونقدمه هنا للقارئ العربي مُترجَمًا عن النسخة الإنجليزية الصادرة عن دار Pathfinder Press الأمريكية، فترات نشأة تروتسكي وشبابه، وبدايات نضاله السياسي ومنفاه الأول إلى سيبيريا ثم هروبه إلى أوروبا، وعبر ثورة 1905، مرورًا بنضاله من المنفى الثاني في أوروبا، وصولًا إلى ثورة 1917 وما تلاها من حربٍ شنَّها جنرالاتٌ روس مدعومين بجيوشٍ أوروبية جرَّارة، وحتى نضاله ضد الستالينية، وطرده من الحزب الشيوعي ونفيه خارج البلاد للمرة الثالثة.

يتمتَّع هذا الكتاب بقيمةٍ أدبية رفيعة لما يتناوله من حياةِ ثوريٍّ برز اسمه في صدارة الكثير من الأحداث التاريخية التي غيَّرت وجه العالم في عصره. ويتميَّز كذلك بأسلوبٍ أدبي ممتع، ليس فقط لأن هذه سيرةٌ ذاتية هي بطبيعة الحال ضربٌ من ضروب الأدب، بل أيضًا لأن هكذا أسلوب هو ما اعتاد المؤلف الكتابة به في أغلب أعماله —التاريخية والسجالية علىٰ الأقل. نجد بين طيَّات هذا الكتاب الكثير من السرد التاريخي، والشروح الفلسفية، والرؤىٰ والتصوُّرات الشخصية والسياسية، والسجالات النظرية التي لا يخلو بعضها من حِدَّة. لكنه يظل مع ذلك كتاب سيرة ذاتية، إذ كانت هذه العناصر مُكوِّناتٍ رئيسية لحياة المؤلف الشخصية الواعية حتىٰ اغتياله عام 1940 علىٰ يد أحد عملاء الستالينية في المكسيك.

رغم الحجم الكبير له، كان من الممكن أن يُصدِر المؤلف كتابه بحجمٍ أكبر بكثير ربما يصل إلىٰ الضِعف، فما أكثر المواضع التي يختتم فيها تروتسكي قوله بأن "المجال لا يتسع هنا لذلك وسأخصِّص كتابًا آخر لهذا الأمر". عمدتُ إلىٰ إدخال الكثير من الهوامش الإضافية مُرفَقَةً ببعض الإشارات الأدبية والسياسية والأحداث التاريخية التي كان مُتعارَف عليها في عصر الكاتب والتي ربما طواها الزمن، سعيًا لتقديم أوضح صورة قدر الإمكان لحياة المؤلف والسياق السياسي والتاريخي الذي عاش فيه.

ونظرًا للسنوات الإحدىٰ عشرة الفاصلة بين هذه السيرة الذاتية واغتيال المؤلف (من 1929 إلىٰ 1940)، بما اشتملت عليه تلك الفترة من أحداثٍ ثريةٍ بالسياقات والتفاصيل في حياة تروتسكي، أرفقت كذلك مُلحقًا في نهاية الكتاب هو في الأصل ترجمة عربية لمقدمةٍ مكتوبة للنسخة الإنجليزية من الكتاب، كَتَبَها في أكتوبر 1969 الشيوعي الأمريكي جوزيف هانسن، أحد أفراد طاقم السكرتارية الخاص بالمؤلف في المكسيك من 1937 إلىٰ 1940. لعل هذا المُلحَق يسهم في رسم صورة لجانبٍ من حياة المؤلف في ما بعد إصدار سيرته.

•

دفاعًا عن الثورة الروسية

ارتبط اسم ليون تروتسكي بكافة المحطات الرئيسية للثورة في روسيا، سواء الثورة الأولىٰ عام 1905 التي أجهزت عليها القيصرية بالقمع والاعتقال والنفي والإعدامات، أو ثورة العام 1917 التي انتصرت علىٰ القيصرية وظلَّت تنبض بالحياة طيلة سنوات حتىٰ صعدت الستالينية علىٰ أنقاضها في منتصف العشرينيات.

منذ حياته السياسية المبكرة، ظلَّ المؤلف يدافع عن الثورة الاشتراكية، بالنضال السياسي والنظري والأدبي، كحلٍّ جذريٍّ وحيد لمعاناة عشرات الملايين من الفلاحين والعمال والمُهمَّشين الروس من الاستغلال والاضطهاد والقمع. أخذ يخوض في سجالاتٍ نظريةٍ

وسياسية أولًا ضد الأفكار الإصلاحية التي دعت للمواءمة مع النظام القيصري، راعي الإقطاع والرأسمالية، وإدخال إصلاحات فيه لا إسقاطه، وثانيًا ضد أفكار وممارسات الإرهاب الفردي التي تستبدل نضال الجماهير ولا تؤدي في نهاية المطاف إلا إلىٰ توطيد أركان النظام.

برز ليون تروتسكي في ثورة 1905 كقائدٍ ورئيسٍ مُنتَخَب لسوفييت مدينة بطرسبورج (عاصمة روسيا آنذاك)، ذلك المجلس الذي أسَّسه العمال من مندوبين اختاروهم بالانتخاب من مواقع العمل والأحياء كجهازٍ قيادي وتنظيمي للثورة. مُنِيَت هذه الثورة بالهزيمة إثر الضربات القاضية التي سدَّدتها لها القيصرية، وبحلول منتصف العام 1907 بات من الواضح أن هذه الموجة من الثورة قد انتهت بالكامل. كان المؤلف وقتذاك في منفاه السيبيري، الذي تمكَّن من الهرب منه إلىٰ أوروبا، ليواصل النضال بقلمٍ في يده؛ يكتب ويحرِّر ويصدر الصحف، ويسعىٰ جاهدًا للحفاظ علىٰ تراث الثورة المهزومة واستخلاص خبراتها من أجل المستقبل، محاولًا أيضًا الاشتباك في المعارك الصغيرة التي أخذت في التصاعد شيئًا فشيئًا بعدما ابتلعت الجماهير مرار الهزيمة.

واصَلَ تروتسكي هذا النضال بدأبٍ وثبات من منفاه الأوروبي، بينما كانت النضالات في الداخل الروسي تتكثَّف في الأفق في مسارٍ يُنبِئ بثورةٍ علىٰ الأبواب (بالأخص في الفترة من 1912 إلىٰ 1914)،

إلىٰ أن اندلعت الحرب العالمية الأولىٰ لتقطع هذا المسار وتُشوِّش الجماهير وتُلطِّخ الأجواء بصبغةٍ قومية سَمَحَت للقيصرية الروسية – كما لأغلب دول أوروبا– بتدشين حملاتٍ من القمع تكبت بها النضالات الجماهيرية.

انخرط المؤلف في النضالات المحلية للحلقات والأحزاب الثورية في أغلب البلدان التي مرَّ عليها. لكن المنفىٰ لم يكن يعني أن المؤلف كان بعيدًا عن مُتناوَل القمع، إذ لاحقته الشرطة السرية القيصرية أينما كان، وأخذت في أكثر من بلدٍ تُحرِّض السلطات المحلية علىٰ معاقبته وطرده. ونتيجةً لذلك، كما نتيجةً لنشاطه الثوري بالطبع، حُكِم عليه غيابيًا بالسجن في ألمانيا عام 1915، وفي العام التالي طُرِدَ من فرنسا، فرَحَلَ إلىٰ إسبانيا، التي طُرِدَ منها هي الأخرىٰ في العام نفسه متجهًا إلىٰ نيويورك حيث مَكَثَ هناك فترةً وجيزةً حتىٰ تمكَّن من العودة إلىٰ روسيا بعدما أطاحت الثورة بالقيصر ورجاله في فبراير 1917.

لدىٰ عودته، قابَلَ المؤلف ترحيبًا واسعًا في أوساط الثوار، علىٰ خلفية سمعته كقائدٍ لسوفييت العاصمة في الثورة الأولىٰ ونضاله المتواصل مذاك الحين، لكنه قوبِلَ أيضًا بتوجُّسٍ حذِر من الإصلاحيين الذين أرادوا توقيف الثورة عند حدِّ إسقاط القيصر دون استكمالها لتضرب الأسس الطبقية لكافة مظالم المجتمع الروسي. ولم تمض إلا بضعة أشهر حتىٰ انتُخِبَ ثانيةً رئيسًا لنفس السوفييت

الذي تشكَّل من جديد في 1917 استنادًا لخبرات الثورة الأولىٰ، والذي احتذت به كافة المدن الروسية لتأسيس سوفيتاتها. قاد تروتسكي الثورة الروسية، دعايةً وتحريضًا، جنبًا إلىٰ جنب مع لينين وغيرهما الكثيرين، حتىٰ تمكَّنَت السوفييتات من الاستيلاء علىٰ السلطة بزعامة الحزب البلشفي في أكتوبر.

ترأس تروتسكي الوفد الروسي في مفاوضات بريست ليتوفسك، كمُفوَّضٍ للشئون الخارجية، من أجل انسحاب روسيا من الحرب العالمية، كمطلبٍ شعبي نادت به الثورة. خاض في هذه المفاوضات بعضًا من أقوىٰ السجالات وأشدِّها حدَّة ضد أباطرة وجنرالات ودبلوماسيي أكبر قوىٰ أوروبا الإمبريالية، دفاعًا عن ثورة وعمال وفلاحي روسيا في تحقيق السلام. وبعدما وضعت الحرب العالمية أوزارها، بما تكبَّدَته روسيا من خسائر فائقة لأجل أن تنعم بالسلام، دعمت أوروبا جنرالات القيصر السابق بجيوشٍ كبرىٰ (في ما عُرِفَ إجمالًا بالجيش الأبيض) لسحق السوفييتات في حربٍ أهلية استمرت من العام 1918 إلىٰ 1921. وفي مواجهة الغزو الأجنبي، توجَّه المؤلف لبناء جيش الجمهورية السوفييتية.

لم تكن لدىٰ تروتسكي خبرةٌ عسكرية تُذكَر إلا من خلال عمله كمراسلٍ صحفي أثناء الحرب العالمية. واجَهَته الكثير من المصاعب في التقنيات والتدريبات العسكرية اللازمة للعمال والفلاحين المُتطوِّعين في الجيش الأحمر الوليد. ومن أجل مواجهة جيوشٍ مركزيةٍ

جرَّارة فائقة العسكرة، أدخَلَ تروتسكي انضباطًا صارمًا داخل الجيش في مراحل لاحقة من بنائه. لكن هذا الانضباط لم يكن مبنيًا قط علىٰ الولاء الأعمىٰ أو الخوف من بطش القيادات أو المنطلقات الوطنية المجردة، بل علىٰ التماسك السياسي علىٰ قيم ومبادئ الثورة الاشتراكية والحماس الشعبي للدفاع عنها. أمضىٰ تروتسكي السنوات الثلاث لهذه الحرب في ما عُرِفَ بـ"قطار الحرب"؛ يجول جبهات القتال جيئةً وذهابًا، ويلتقي الضباط والجنود في كلِّ كتيبةٍ؛ يخطب فيهم ويُحدِّثهم ويناقشهم. وفي القطار، يعقد الاجتماعات ويُجري الاتصالات ويكتب ويحرر ويصدر منشورات الجيش وصحيفته السياسية. يسرد المؤلف في هذا الكتاب عددًا كبيرًا من القصص التفصيلية لفِرَقٍ من الجنود أرعبهم القتال وزعزع عزيمتهم، لكنهم يتقدَّمون في صدارة القتال دفاعًا عن الثورة بعد نقاشه هو والضباط معهم. النقاش والإقناع والتماسك السياسي، كان هذا هو الأولوية الأولىٰ في بناء الجيش الأحمر وسبيله في تحقيق الانتصار تحت قيادة تروتسكي.

في كافة مراحل حياته، تصدَّر تروتسكي الدفاع عن الثورة، ووَهَبَ لذلك عمره بأكمله منذ بدأ النضال السياسي في 1897 (كان في الثامنة عشر من عمره). كان ذلك دفاعًا سياسيًا عنها كخيارٍ لابد منه حتىٰ في أقسىٰ فترات الركود الجماهيري، ودفاعًا سجاليًا ضد خصومها وأولئك الذين ابتغوا تبديدها بمجرد أن بدأت، ودفاعًا عسكريًا حين

تطلَّب الأمر ذلك خلال ثلاث سنواتٍ من الحرب الأهلية، وحتىٰ دفاعًا تاريخيًا لم يتوان عنه بقية حياته في مواجهة تزييفات وافتراءات الستالينية.

"الثورة الدائمة" في مواجهة الستالينية

أُنهكَت الجماهير الروسية، لا سيما طليعتها العمالية الثورية، إنهاكًا شديدًا جراء سنوات الحرب العالمية والدمار الاقتصادي المُصاحب لها، ثم حرب التصدي لجيوش أوروبا والمزيد من الدمار الاقتصادي، فضلًا عن أن أعدادًا كبيرة من العمال الواعين سياسيًا الذين قادوا طبقتهم في الثورة‹هم أنفسهم لقوا حتفهم خلال الحرب الأهلية. أصابت الثورة حالةٌ من الركود علىٰ خلفية هذا الوضع الجاثم. وزاد الوضع سوءًا علىٰ خلفية سلسلة الهزائم التي مُنِيَت بها الثورات في أوروبا –الأكثر تقدُّمًا من روسيا بالطبع– في الفترة من 1918 إلىٰ 1923. وبينما كانت الاشتراكية في روسيا، الوليدة من دمارٍ اقتصادي يكاد يكون شاملًا، تنتظر انتصار ثورات أوروبا –ولا سيما في ألمانيا– فقد أدَّت هذه الهزائم إلىٰ حالةٍ من العزلة في مواجهة عالمٍ من الرأسمالية المُعادية.

ولَّدَ هذا الوضع الخانق خيارين أمام الاشتراكية في روسيا؛ إما الحفاظ علىٰ مبادئها واستكمال بنائها انتظارًا لموجة ثورية مقبلة في أوروبا (اندلعت موجات لاحقة بالفعل وأجهضتها الستالينية نفسها)،

وإما مواكبة التنافس الرأسمالي العالمي والتحوُّل إلىٰ سياساتِ نفس استغلال جماهير العاملين ومراكمة الأرباح، لكن باسم "الدولة الاشتراكية". هذا هو السياق الذي سيطَرَ فيه ستالين وزمرته علىٰ السلطة السياسية بعد لينين، وقد تبنوا الخيار الثاني في ردِّ فعلٍ انهزامي وانتهازي علىٰ انعزال الثورة الروسية.

بلوَرَت الستالينية نفسها في ما عُرِفَ بنظرية "الاشتراكية في بلدٍ واحد"، التي جادلت بأن من الممكن بناء جزيرةٍ اشتراكية معزولة دون أن تمتد الثورة في بقية أرجاء البحر الرأسمالي. لكن هذه "الجزيرة الاشتراكية" وجدت نفسها بطبيعة الحال في مواجهةٍ تنافسية مع البلدان الرأسمالية التي تتفوَّق عليها اقتصاديًا وعسكريًا بمراحل فائقة. وبينما تخلَّت هذه النظرية عن البُعد الأممي للاشتراكية، واعتبرته حاجةً زائدة لا ضرورةً تفرض نفسها، وبالتالي عمدت إلىٰ المواءمة مع العالم الرأسمالي من حولها ومواكبة التنافس معه، فقد وجدت نفسها في مسارٍ لابد لها فيه ليس فقط من اتباع نفس آليات النظام الرأسمالي في توليد الأرباح وفي شكل السلطة والحكم، بل تكثيف هذه الآليات أضعافًا بحيث تستطيع عدو المسافة الطويلة التي تفصلها عن بقية الرأسمالية المتنافِسة معها. فكفَّت الجزيرة عن أن تكون "اشتراكية".

في مواجهة ذلك، كانت نظرية "الثورة الدائمة" لتروتسكي هي ما حافظت علىٰ التراث والجوهر الثوريَّين للاشتراكية، تلك النظرية التي

تمحوَرَت أفكار ونظريات المؤلف حولها وفي اتساقٍ معها. بلوَرَ المؤلف هذه النظرية في صورةٍ واضحة لأول مرة في العام 1906، على خلفية مسارات ثورة 1905 والعلاقات الطبقية في روسيا، وكذلك علاقة روسيا بأوروبا وبقية العالم الرأسمالي. قامت النظرية على مُقوِّمتين رئيسيَّتَين؛ أولًا أن المطالب الديمقراطية والوطنية المُلِحَّة في البلدان المتأخرة مثل روسيا لا يمكن تحقيقها بشكلٍ كامل في ثورةٍ إلا تحت قيادة الطبقة العاملة للجماهير، حتى وإن كانت تُمثِّل أقليةً في المجتمع. البرجوازية من ناحية، نظرًا لطبيعة مصالحها ونشأتها منذ البداية في البلدان المتأخرة على يد الدولة الإقطاعية، وكذلك ارتباطها برأس المال الأجنبي، فإنها أول من يخون هذه المطالب حتى وإن كانت هي أيضًا تسعى إليها. رعبها من حركة الجماهير أكبر من رغبتها في أي تحرُّرٍ ديمقراطي. الفلاحون هم أيضًا لا تتوفَّر لديهم الإمكانات الطبقية التي تؤهِّلهم لقيادة ثورة من هذا النوع، إذ ينقسمون حسب الملكية إلى مُعدَمين لا يمتلكون شيئًا، ومُستأجِرين، ومُلَّاك صغار، وآخرون ذوي ملكيةٍ كبيرة، فضلًا عن أن نمط الإنتاج الموسمي الذين يعيشون فيه يفرض عليهم العزلة ويُبدِّد القدرة لديهم على تنظيم حركتهم. في المقابل، رأى تروتسكي أن الطبقة العاملة وحدها، بقدراتها التنظيمية وقوة تأثير حركتها على توليد الأرباح في المجتمع، هي القادرة على قيادة الثورة حتى من أجل مطالب ذات طابع ديمقراطي ووطني.

لكنه رأىٰ أيضًا أن ثورةً ديمقراطية وطنية بقيادة الطبقة العاملة ستفتح الباب علىٰ مصراعيه للمواجهة بين هذه الطبقة والرأسمالية، ولن تتمكَّن حينها الطبقة العاملة من الحفاظ علىٰ المكتسبات الديمقراطية والوطنية وإرسائها إلا بتسديد ضرباتٍ قاضية لعلاقات الملكية الرأسمالية؛ أي بالقضاء علىٰ الرأسمالية نفسها، وإلا لن تنتزع أيَّ ديمقراطيةٍ علىٰ الإطلاق. هذا ما جرىٰ بصورةٍ عملية في الثورة الروسية. وقفت البرجوازية ضد المطالب الديمقراطية والوطنية بعد إسقاط القيصر في فبراير 1917. رفضت البرجوازية المطلب الوطني بالانسحاب روسيا من الحرب الدموية لما تجنيه قطاعاتٌ مهمة فيها من أرباحٍ من جرائها. تصدَّت البرجوازية للمطالبات العادلة بتوزيع الأرض علىٰ الفلاحين لما يربطها بالإقطاع من علاقاتٍ وثيقة. ورأت في الديمقراطية العمالية الوليدة في الثورة أكبر تهديدٍ لها، وأخذت تضغط لتجويع الشعب بغرض تركيعه. كانت المواجهة في هذه الثورة –شأنها في ذلك شأن الكثير من الثورات الاجتماعية العميقة عبر التاريخ– بهذه المُباشَرة؛ إما القضاء علىٰ الرأسمالية للحفاظ حتىٰ فقط علىٰ الديمقراطية والمطالب الوطنية، وإما الاستسلام لضغوط الرأسمالية وكأن ثورة لم تقم من الأصل.

عبَّر تروتسكي عن هذا المفهوم، حين كَتَبَ أن الثورة الدائمة هي "ثورةٌ وطنية ترفع البروليتاريا إلىٰ سدَّة الحكم وتفسح المجال أمام إنضاج الثورة الديمقراطية إلىٰ ثورة اشتراكية". كان هذا هو

الاستخلاص النظري للمسار الذي اتخذته ثورة 1917، ذلك المسار الذي عارضه مَن يصفهم تروتسكي برجال "الصف الثاني" بعد لينين حتىٰ في آتون الثورة نفسها بدعوىٰ عدم جاهزية الطبقة العاملة لذلك في المرحلة الديمقراطية من الثورة (أما ستالين، فظلَّ صامتًا تمامًا، ويخلو كلُّ ما كُتِبَ عنه من ذِكر أيِّ إسهامٍ له في ذلك الجدال الذي استمر طيلة أشهر حول هذه القضية أثناء الثورة).

المُقوِّمة الثانية لنظرية الثورة الدائمة تتلخَّص في أن هذه الثورة الديمقراطية، التي من أجل حفاظها علىٰ مكتسباتها الديمقراطية والوطنية نضجت إلىٰ ثورةٍ اشتراكية، لا يمكن أن تنجو لفترةٍ طويلة دون أن انتصار سلسلة من الثورات في أوروبا المتقدمة. ظلَّ المؤلف علىٰ مدار سنوات، بعد انتصار أكتوبر 1917، يُكرِّر بلا كلل أنه "لا يمكن أن نحتفظ بالديمقراطية (ولا حتىٰ الديمقراطية!)، إلا إذا قامت الثورة في أوروبا". كان لينين علىٰ اتفاقٍ تام مع هذا البُعد الأممي في نظرية تروتسكي، وأعلن في عشرات المناسبات أنه "لا يمكن للاستعمار العالمي في أيِّ ظروف وبأيِّ شرط أن يعيش جنبًا إلىٰ جنب مع الجمهورية السوفييتية. إن الصراع حتمي علىٰ هذا الصعيد"، أو "إما أن تندلع الثورة في البلدان الأخرىٰ، أي في البلدان الأكثر تقدُّمًا في الاتجاه الرأسمالي، رأسًا أو علىٰ الأقل بسرعةٍ عظيمة، وإما أن يكون مصيرنا الهلاك".

سارت الستالينية في المسار المعاكس لكل ذلك، واستدعىٰ مسارها الجديد ممارسةً ديكتاتورية شديدة القمع داخل الحزب، وفي السوفييتات والنقابات؛ ديكتاتورية الحزب علىٰ الطبقة العاملة، ضد أي رمزٍ للمعارضة. امتلأت السجون بالكوادر الثورية والعمالية المُعارِضة التي كانت لها أدوارٌ مهمة في قيادة الثورة قبل بضع سنوات. وأخذ ستالين يعزل ويطرد ويستبدل المعارضين بآخرين موالين للمسار الجديد الذين انقلب علىٰ البلشفية وتراث لينين الثوري في الحزب. ساعدته في ذلك الأوضاع الخانقة الجائمة علىٰ روسيا، والتي حالت دون ردعٍ حاسمٍ له من أسفل. وكذلك ساعده بالطبع منصبه كأمينٍ عام للحزب (كان لينين مُصرًّا في وصيته السياسية الأخيرة قبيل وفاته علىٰ عزل ستالين من هذا المنصب)، إذ عمل من خلال هذا المنصب علىٰ تكديس الحزب بأعدادٍ هائلة من الأعضاء غير الواعين سياسيًا والذين لم تكن لهم مشاركةٌ تُذكَر في الثورة، بل انصاعوا بكلِّ هدوءٍ للقيادة الستالينية.

دفاعًا عن إرث لينين

لم يكن بمقدور الستالينية تبرير ضيق أفقها وسيطرتها الخانقة واستئثارها بالسلطة إلا من خلال زعم الاستناد إلىٰ إرث اللينينية، بالطبع بعد تزييفه لردم الفجوة بين بيروقراطية الأولىٰ وثورية الثانية. كان لزامًا علىٰ الستالينية وفق ذلك أن تحذف من التاريخ وتُزوِّر فيه ما

يتناقض مع إستراتيجيتها الجديدة آنذاك -أي أن تُزوِّره بالكامل تقريبًا. ولأن السياسة والنظرية والتاريخ لا ينفصلون، بل يُشكِّلون سويًا كلًّا واحدًا، فصار من الضروري أن تمتد أذرع التزييف من نظرية الاشتراكية في بلدٍ واحد، التي أُلصِقَت بالماركسية لصقًا مُبتَذلًا، إلىٰ التاريخ نفسه، لتحذف وتُشوِّه، وتقتطع من السياقات، وتخفي ما قد ينفي عنها إرثها اللينيني المزعوم.

صوَّرَت الستالينية ممارسات لينين الماركسية علىٰ أنها مجموعةٌ من الشعارات والنصوص الجوفاء المُقتَطَعة من السياق التي يكفي فقط الجهر بها عاليًا حتىٰ يقود الثوريون الجماهير. وصوَّرَت الحزب البلشفي علىٰ أنه مجموعةٌ مُختارة من صفوة الثوريين الذين لا مثيل لهم، وليس حزبًا جماهيريًا عريضًا خاض النضال بدأبٍ وصبر علىٰ مدار سنواتٍ طوال حتىٰ أثبت استحقاقه قيادة الجماهير في الثورة. وصوَّرَت عملية بناء هذا الحزب علىٰ أنها تاريخٌ من الانشقاقات والصراعات المريرة التي حسمها لينين في غمضة عين، وليس عبر خوضٍ عميقٍ في النقاش والسجال عبر ديمقراطية مركزية تحفظ وحدة الحزب. وحوَّلَت الكومنترن (المنظمة العالمية التي تأسَّست في فترة النهوض الثوري بعد انتصار ثورة روسيا وجمعت مندوبي الأحزاب الشيوعية الثورية لبحث تكتيكات النضال عالميًا) إلىٰ مدرسةٍ يُلقِّن فيها الأستاذ السوفييتي الستاليني رفاقه الشيوعيين أجندته الخاصة،

الّتي لم تخدم سوىٰ الأهداف التنافسية للاتحاد السوفيتي في عهد ستالين وكذلك توازنات علاقاته مع دولٍ خارجية.

والحقيقة أن الصورة التي أخذت الستالينية تُرسِّخها للينين، باعتباره معصومًا من الخطأ، لم تكن فقط تعبيرًا عن فهمٍ مرتبك للتجربة اللينينية، التي ارتكزت في أغلب محطاتها علىٰ خوض المعارك وتصويب الأخطاء بآلياتٍ ديمقراطية، بل لقد عبَّرت عن تراثٍ مناقضٍ تمامًا. كانت الستالينية أقرب إلىٰ إعلاء لينين إلىٰ منزلة الآلهة، وكان ذلك أكبر تشويه له، وأسوأ تدمير لتلك النسخة التي تداولتها أجيالٌ لاحقة من الشيوعيين عبر العالم عن لينين، إذ يُفرِّغ هذا الإعلاء التجربة اللينينية من مضمونها الجدلي، ويضع محلَّها كتلةً صمَّاء من احتكارية الصواب المنزوعة من سياقها التاريخي. كانت هذه الصورة ضرورية للستالينية منذ مراحل صعودها المبكر؛ فمن أجل إضفاء المعصومية حول أتباعه كان لابد من تقديس لينين نفسه – مع بعض التزييف بالطبع.

هذه الصورة الستالينية للينين هي ما كان تروتسكي يبتغي تبديدها في الكثير من كتاباته –لكن جاء ذلك هنا في كثيرٍ من المواضع من زاوية علاقته به، نظرًا للطبيعة الأدبية الخاصة لهذا الكتاب. لعلَّ أفضل تعبير عن هذه الصورة هو ما كَتَبَه المؤلف نفسه، حيث: "نفس لينين هذا هو الذي تُصوِّره أدبيات رجال الصف الثاني بما يشبه هالة النور التي اعتاد رسامو أيقونات سوزدال إحاطة رؤوس المسيح والحواريين بها، فبدلًا

من الصورة المثالية التي يبتغون تقديمها، تجد نفسك أمام "كاريكاتور"، تمامًا كما يحاول رسامو الأيقونات الارتقاء فوق أنفسهم لكن في النهاية لا يعكسون إلا أذواقهم الخاصة، وبالتالي لابد أن يرسموا الصور المثالية التي يتخيَّلونها هم".

لكن دفاع تروتسكي في هذا الكتاب عن علاقته بلينين، منذ التقىٰ به للمرة الأولىٰ في لندن عام 1900 حتىٰ وفاته عام 1924، لم يأتِ علىٰ سبيل فضِّ التشويهات التي لحقت بالمؤلف بأنه كان ندًّا معاديًا للينينية بقدر ما كان دفاعًا عن لينين نفسه وعن إرثه الثوري.

في كافة القضايا الإستراتيجية الكبرىٰ، في الحرب والنضال والثورة، كان لينين وتروتسكي علىٰ وفاقٍ كامل، علىٰ عكس الهوة الكبرىٰ التي فصلت لينين عن "رجال الصف الثاني" في هذه القضايا. لنا أن نُعدِّد هنا قائمة طويلة من هذه القضايا، حيث المواقف الإستراتيجية الكبرىٰ (الموقف من مشاركة القيصرية في الحرب العالمية الأولىٰ 1914، والموقف من المناشفة والثوريين الاشتراكيين عام 1917، وقضية الانتفاضة المُسلَّحة عام 1917، والسياسات الاقتصادية الجديدة 1921، والقوميات المُضطهدة التابعة لروسيا سابقًا، وقضايا الأممية الشيوعية)، وصولًا إلىٰ القضايا التكتيكية التي ربما تبدو أقل شأنًا (البناء الاقتصادي لروسيا السوفييتية، ومناورات الحرب الأهلية، وغير ذلك). لكن رغم إجلال

المؤلف الفائق للينين وعزيمته الهائلة وصوابيته الإستراتيجية، لم يجعل منه فردًا فوق التاريخ أو استثناءً فريدًا فيه.

سيرة "موضوعية"

نظرًا لارتباط شخص المؤلف هذا الارتباط الوثيق بالثورة الروسية، وبالهدف الذي مَنَحَ حياته اللاحقة له، ألا وهو الإبقاء علىٰ الماركسية الثورية حيةً في مواجهة الانحرافات والتزييفات، فقد جاء توضيحه الحقائق عن نفسه في هذه السيرة ليس كدفاع شخصي بقدر ما كان دفاعًا عن حقائق التاريخ. ولعلَّ هذا ما يُمثِّل أهم ملامح الموضوعية في هذا الكتاب "الذاتي"، إذ يتناول المؤلف شخصه في إطار "الموضوع"، ولا يعلو بنفسه فوق سياق التاريخ في صورةٍ مُجرَّدة مُعلَّقة في الفراغ، بل يُبرِّر ذاته ويعزوها إلىٰ عوامل التاريخ ودوافعه.

يكتب المؤلف: "ماذا عن مصيرك الشخصي؟ هذا سؤالٌ آخر يتردَّد علىٰ مسامعي، سؤالٌ يمتزج فيه الفضولُ بالسخرية ... ليس بوسعي أن أحدِّد مسار العملية التاريخية بمقياس مصيري الشخصي. بل علىٰ العكس؛ إنني أقدِّر قدري موضوعيًا، وأعيشه ذاتيًا، تمامًا كما هو مرتبطٌ بصورةٍ متشابكة ومُعقَّدة بمسار التطوِّرِ الاجتماعي".

وبصدد الدفاع عن التاريخ، لم يكن هذا الكتاب هو الوحيد الذي تضمَّن هذا الغرض، بل أن أغلب ما كَتَبَه المؤلف منذ منتصف

العشرينياتُ حتىٰ وفاته قد وَضَعَ ذلك هدفًا مركزيًا فيه، وبوصلةً يسترشد بها في الاشتباك مع مجريات النضال والثورة في العالم (الصين 27 – 1925، ومكافحة الفاشية في أوروبا العشرينيات، وإسبانيا 1936، وغير ذلك). تأتي مؤلَّفاتٌ مثل "تاريخ الثورة الروسية" و"دروس ثورة أكتوبر" في مقدمة هذه الأعمال. لكن ما يُبرِز هذا الكتاب بالذات في هذا الشأن بالتحديد هو أنه يشتمل في معظمه علىٰ ما لا يُتاح له مجالٌ في كتب التاريخ والتحليل السياسي وكذلك في الأعمال النظرية: ما وراء الكواليس، والمواقف الشخصية، والذكريات المشتركة مع آخرين، والحكي الذاتي، والانطباعات النفسية في خضم كل ذلك. لم يكن من الممكن، علىٰ سبيل المثال في كلاسيكية "تاريخ الثورة الروسية"، أن يصف الكاتب انطباعه وشعوره الشخصي تجاه كرينسكي، الذي تولَّىٰ حكومةً مؤقتة بعد إسقاط قيصر روسيا، وقتما شنَّ الجنرال القيصري كورنيلوف عصيانًا محاولًا الإطاحة به واستعادة أركان النظام. لا مجال في كتابٍ كهذا يسمح بالتعبير عمَّا اختَلَجَ في صدر المؤلف من ضغينةٍ تجاه كرينسكي، حتىٰ حينما كان يُوجِّه فيه البحَّارة الثوريين (من محبسه الذي زُجَّ فيه بأمرٍ من كرينسكي نفسه) بالدفاع عن كرينسكي ضد كورنيلوف.

قد يُفاجَأ المُطَّلِع علىٰ مؤلَّفات تروتسكي بكمٍّ هائلٍ من التفاصيل الدقيقة التي ذكرها المؤلف لأول مرة فقط في هذا الكتاب، إلىٰ درجةٍ قد تبدو فيها أعماله الأخرىٰ –من حيث تفصيلها السردي– قمةَ جبلٍ

ترسخ قاعدته علىٰ امتدادٍ واسع تحت الماء. لكن، بالإضافة إلىٰ أن لكلِّ مقامٍ مقال، وأن أعماله الأخرىٰ لم تكن تسمح بورود تفاصيل ذات طابع شخصي فيها، يبدو أن المؤلف كان حريصًا بشكلٍ عام علىٰ فصلِ ما هو سياسي عمَّا هو شخصي وذاتي، رغم اعتقاد البعض أن الكثير من الكواليس الشخصية كانت لتدعم موقفه السياسي حال تناولها بالذكر، ورغم أنه تعرَّض -فضلًا عن القمع السياسي المباشر- للكثير من التنكيل الشخصي والمكائد والمؤامرات علىٰ يد خصومه، بما يتضمَّن اغتيال ابنه وحرمان ابنته من العلاج إثر إصابتها بالسُل، وغير ذلك. هذا ملمحٌ آخر لـ"موضوعية" الحكي الذاتي في هذا الكتاب.

لعلَّ المُطَّلِع علىٰ مسار حياة تروتسكي ونضاله، مِمَّا كتبه آخرون عنه ولو عارضًا، يلاحظ هذه السمة لدىٰ المؤلف. فالكثير من خصومه سابقًا صاروا بعد ذلك حلفاءً له دون ضغينةٍ أو رفضٍ مُسبَّق علىٰ أساس شخصي (زينوفيف مثلًا في منتصف العشرينيات في المعارضة ضد الستالينية). ولوقتٍ طويل لم تمنعه مصاهرة كامينيف له من شنِّ حربٍ نظرية ضد الخط السياسي الذي انتهجه مُتذيِّلًا ستالين، كما لم تكن لصداقته الوطيدة بفتىٰ البلشفية الذهبي، بوخارين، علاقةٌ تُذكَر بالنديَّة السياسية. والاحترام البالغ الذي كنَّه للكثير من خصومه السياسيين (مارتوف وبليخانوف مثلًا) لهو خير دليل علىٰ الفصل الحاد لتروتسكي بين السياسي والشخصي.

نجده في هذا الكتاب يقول: "أعتقد أن بإمكاني حقًا أن أقول إنني، في كل المواقف السياسية، لم أولي الاعتبارات الشخصية أي دورٍ علىٰ الإطلاق. وعلاوة علىٰ ذلك، كانت جسامة المهام أكبر بكثيرٍ من أن تسمح لي بوضع مثل هذه الأمور الهامشية في الاعتبار. وبناءً عليه، كنت كثيرًا ما أدهس أصابع التحيُّزات الشخصية، والمفاخرات التافهة، والمحسوبيات الودية. أما ستالين، فقد اختار بعنايةٍ أولئك المدهوسة أصابعهم، وكان لديه الوقت والمصلحة الشخصية لفعلِ ذلك".

لا يرسم المؤلف لنفسه في هذا الكتاب صورة الثوري المُنزَّه عن الأخطاء، بل يعترف في بعض المواضع بأخطاءٍ وقع فيها –أغلبها ذت طابع تكتيكي في ما يتعلَّق بالسياسة.

أملٌ في المستقبل

علىٰ مدار سنواتٍ طوال في ظلِّ الحكم القيصري لروسيا، كان تروتسكي من ضمن المُستَهدَفين بالقمع والملاحقة. اعتُقِل وحُوكِم ونُفِيَ مرتين، ثم عادة ليعتلي السلطة علىٰ رأس ثورةٍ جماهيرية أطلق عليها أعداؤها في الداخل والخارج، علىٰ سبيل السخرية، "ثورة لينين وتروتسكي"، لكنهم كانوا صائبين في جانبٍ كبير من هذه التسمية ، فبينما كان لينين هو المُنظِّر الأيديولوجي والقائد الحزبي للثورة، كان

تروتسكي مُحرِّضها العملي وقائدها السياسي والعسكري جنبًا إلىٰ جنبٍ معه.

مرةً أخرىٰ يتعرَّض تروتسكي بعد سنوات الثورة والسلطة للنبذ والطرد والنفي، والملاحقة الستالينية عبر أوروبا، ثم المحاكمة الغيابية والحكم بالإعدام ضمن قائمةٍ حَجَزَ مكانه فيها علىٰ رأسها، في سلسلة الإعدامات التي شنَّها ستالين علىٰ رفاقه السابقين، أواخر الثلاثينيات، ليُخلي الساحة من أيِّ معارضةٍ تُذكَر. مستوياتُ قمعٍ أعنف وأبشع من تلك التي طارده بها زبانية القيصر، وصلت في نهاية المطاف إلىٰ اغتياله.

في مواجهة الهزائم، والتنكيل والانتقام، ظلَّت إرادة تروتسكي صلبةً، بل وأصقلها كلُّ ذلك بمزيدٍ من القوة. ظلَّ متمسِّكًا بأملٍ لا يخبو في مستقبل التغيير، وثقةً لا تحيد في قدرة الجماهير علىٰ ذلك، مهما طال أمدُ التراجع والركود وهيمنة الاستبداد والرجعية. لم يكن ذلك أملًا مُجرَّدًا أو تفاؤلًا مُعلَّقًا في الفراغ، بل كان أملًا مبنيًا علىٰ أساس فهمٍ عميق لمُحرِّكات التاريخ وديناميته وتناقضاته التي من المُحال أن تجعله ثابتًا. كان أمله مبنيًا علىٰ أساس التحليل والفهم وقبول الحقائق، لا تجاهلها أو إنكارها. في فترات الصعود الجماهيري كانت تكتيكات القيادة والتصعيد نصب عينيه، وفي فترات التراجع لم يتردَّد في شنِّ النضال مرةً بعد أخرىٰ من أجل إحياء الحركة الجماهيرية شيئًا فشيئًا ضد الظلم والإفقار والاستبداد.

كان استثنائيًا في فِكره ونضاله وإرادته، وتركَّزَت فرادته في إدراك الأخطاء وتصويبها وتعميم خبرة التجارب الثورية واستخلاص أسسها النظرية. لكن ذلك لم يضعه فوق التاريخ، بل في خضم مجرياته، ناهضًا بدورٍ مهم سعيًا لتوجيهها نحو تطهير مستقبل البشرية من مظاهر الاضطهاد والقهر.

أشرف عمر

سبتمبر 2018

"حياتي": محاولة في كتابة سيرة ذاتية

مقدمة المؤلف

إن عصرنا هذا ثريٌّ بالذكريات، ربما أكثر من أي عصرٍ مضىٰ. ذلك لأن في جعبته الكثير ليُحكىٰ. وكلما كان العصرُ غنيًا بتغيراتٍ حادةٍ ودرامية، زاد الاهتمام بتاريخه. لم يكن من الممكن، مثلًا، أن تولد فنون رسم المساحات الطبيعية في الصحراء. و"التقاطع" بين عصرَين إنما ينمِّي الرغبة في النظر إلىٰ الماضي الذي ولَّىٰ بعيدًا مِن أعينِ مَن صنعوه أو شاركوا فيه بحيوية. ولعل هذا هو سبب النمو الهائل في أدبِ الذكريات منذ أيام الحرب الأخيرة، وربما هو نفسه ما يبرِّر هذا الكتاب أيضًا.

والحقيقة الكامنة وراء ظهور هذا الكتاب إلىٰ العالم هي توقف الحياة السياسية النشطة للمؤلف، والقسطنطينية هي واحدة من محطات هذا التوقف غير المُتوقَّع، لكن أيضًا غير العارض في حياتي. أمكث هنا، ليس للمرةِ الأولىٰ، صبورًا في انتظار ما هو قادم. إن حياة الثوري مستحيلةٌ دون قدرٍ معينٍ من "القدرية"، فبطريقةٍ أو بأخرىٰ أثبت هذا الفاصل الزمني في القسطنطينية أنه الأنسب والأجدر بأن ألقي فيه نظرةً علىٰ الماضي قبل أن تسمح لي الظروف بالانطلاق للمستقبل.

في البداية، كتبت عدة مسودات خاطفة في سيرتي الذاتية للنشر في الصحف، وفكَّرت أن أترك الأمر يجري علىٰ هذا النحو. وهنا، أود من ملجأي هذا أن أقول أنني لم أكن قادرًا علىٰ تصوُّر الشكل الذي ستخرج به هذه المسودات إلىٰ العلن. لكن كل عملٍ له منطقه الخاص. لم أكن لأتخذ هذه الخطوة إلا بعد أن انتهيت بالفعل من هذه المقالات، ثم قررت أن أكتب كتابًا أتناول فيه سيرتي الذاتية بمنطقٍ مختلفٍ وفي نطاقٍ أوسع، فشرعت في إنجازِ هذا العمل بأكمله من جديد. ولعل النقطة الوحيدة المشتركة بين المقالات الصحفية الأصلية وهذا الكتاب هي أن كلًا منهما يناقش الموضوع نفسه، لكن فيما عدا ذلك فهما مختلفان تمام الاختلاف.

تناولت بمزيدٍ من التفصيل والتدقيق الفترة الثانية من الثورة السوفييتية، تلك الفترة التي تزامنت مع مرض لينين وبداية الحملة ضد التروتسكية. وكما أحاول أن أثبت في هذا الكتاب، لم يكن الصراع الذي شنَّه رجال الصف الثاني علىٰ السلطة مجرد صراعٍ شخصيٍ، بل أنه فصلٌ سياسيٌ جديد من الرِدة الرجعية ضد أكتوبر، ومن الإعداد المحموم للترميدور. ومن هنا تأتي الإجابة بشكل طبيعي علىٰ السؤال الذي طالما وُجِّه لي - كيف فقدت السلطة؟

إن سيرةً ذاتية لسياسيٍ ثوري لابد حتمًا أن تتطرَّق لسلسلةٍ كاملةٍ من القضايا النظرية المُتعلِّقة بالتطوُّر الاجتماعي في روسيا، كجزءٍ من تطوُّر البشرية ككل، كما لابد أن تتناول بشكل خاص تلك الفترات

الحاسمة التي يُطلَق عليها "ثورات". بالطبع لم أتمكَّن في هذه الصفحات من تناول المشكلات النظرية المُعقَّدة لنقدها جوهريًا. وما يسمىٰ بنظرية الثورة الدائمة، التي اضطلعت بدورٍ كبير في حياتي الشخصية، والتي صارت حقيقةً جاسدةً في بلدانِ الشرق، لا يُذكر في هذا الكتاب إلا فقط بالإشارة. ربما لن يرضي هذا القرَّاء، لكنني أقول إن تناول جوهر مشكلة الثورة جديرٌ بأن يؤسِّس كتابًا مستقلًا، أحاول فيه بلورة الاستنتاجات النظرية الأساسية من خبرات العقود الماضية.

قد يرىٰ كثيرون، ممن لا يسير هذا الكتاب علىٰ هواهم أو هوىٰ أحزابهم، أن ما عمدت إلىٰ سرده يفتقر إلىٰ ما يلزم من الموضوعية. حتىٰ المقتطفات التي نُشِرَت في بعض الصحف قد أثارت بعض الاستهجان. هذا أمرٌ حتمي الحدوث. ليس لديّ أدنىٰ شكٍ في أنني إذا كنت قد نجحت في تقديم سيرتي الذاتي ولو حتىٰ في هيئةِ مجموعةٍ من الصور التي تُجسِّد كل لحظةٍ في حياتي، وهو ما لم أنتو فعله علىٰ الإطلاق بالطبع، لكانت ستتردَّد أصداء نفس المناقشات التي بدأتها الصدامات المشروحة في هذا الكتاب.

هذا الكتاب ليس صورةً كاملةً محايدةً لحياتي، لكنه جزءٌ مُكوِّنٌ لها أستكملُ فيه النضال الذي كرَّست له حياتي بأكملها. أكتب لأحكي، لكن أيضًا لأشخِّص وأقيِّم. أكتب لأروي، لكن أيضًا لأدافع عن نفسي، بل حتىٰ لأهاجم في أغلب الأحوال. يبدو لي أن هذه هي

الطريقة الوحيدة لكتابة سيرة ذاتية موضوعية على مستوى أعلى، مستوى أكثر ملائمةً للتعبير عن الشخصية والظروف والعصر.

والموضوعية هنا ليست تلك اللامبالاة المُدعية التي يُقدِّم بها المنافقون، في حديثهم عن الأصدقاء والأعداء، بشكل غير مباشرٍ، ما لا يجدونه ملائمًا تقديمه بشكلٍ مباشر. موضوعيةٌ من هذا النوع ليست إلا حيلةً تقليدية لست بحاجةٍ إليها. وبما أنني أقدمت على الكتابة عن نفسي - إذ لم ينجح أحدٌ حتى الآن في تقديم سيرته الذاتية دون الكتابة عن نفسه - فليس هناك ما يدعونني لإخفاء عواطفي وضغائني، حبي وكراهيتي.

هذا كتابٌ سجاليّ. إنه يعكس ديناميّة هذه الحياة الاجتماعية التي قامت بكاملها على قاعدةٍ من التناقضات. وقاحة التلميذ في وجه أستاذه في المدرسة، ووخزات الحقد خلف أقنعة المجاملات في الصالونات، والتناحر المسعور في كل روافد الفن والرياضة والعلم النظري والتطبيقي، والصراع اليومي المستعر في الصحف، وإضرابات العمال، وإطلاق النار على المتظاهرين، والعبوات المتفجرة التي يقذفها الجيران المتحضرون على بعضهم، وألسنة نيران الحرب الأهلية التي لم تضع أوزارها قط على كوكبنا - كل تلك الأمور إنما هي أشكالٌ مختلفةٌ من "السجالات" الاجتماعية التي تتراوح بين ما هو معتادٍ ومستمرٍ وطبيعي، وفي الأغلب غير ملحوظ رغم حضوره المُكثَّف، وما هو استثنائيٍ وعنيفٍ ومتفجِّر. هذا هو العصر الذي نشأنا

جميعًا فيه. تنفسناه وترعرعنا به. كيف يمكن أن نكف عن السجال إذا أردنا في يومِنا هذا أن نكون صادقين لهذا العصر؟

لكن هناك معيارٌ أكثر مبدئيةً في هذا الأمر؛ وهو ذلك الذي يتعلَّق بصراحة الضمير في سرد الحقائق. وكما يضع النضال الثوري في اعتباره إحداثيات الوقت والمكان، لابد للعمل السجالي أن يراقب النسب بين الغايات والبشر. آمل أن أكون قد فعلت ذلك ليس فقط علىٰ المستوىٰ الكلي الإجمالي، بل أيضًا علىٰ صعيد التفاصيل الدقيقة.

في بعض الحالات القليلة، قمت بسرد أحاديثٍ في شكل حوار، فلن يطلب أحدٌ تقريرًا حرفيًا بمحادثاتٍ جرت منذ سنواتٍ طوال، وأنا في كل الأحوال لا أدَّعي مثل هذه الدقة في الحوارات التي يتخذ بعضها طابعًا رمزيًا. ورغم ذلك، يمر جميعنا بلحظاتٍ في حياته تنطبع فيها محادثاتٌ معينةٌ في ذاكرته بشكلٍ راسخ. ولقد كنت عادةً ما أردِّد هذا النوع من المحادثات لأصدقائي الشخصيين والسياسيين، وبفضل ذلك ترسَّخت هذه المحادثات بصورةٍ أعمق في ذاكرتي. بالطبع أقصد هنا تلك المحادثات ذات الطابع السياسي.

يَجدُر بي هنا أن أذكر أنني اعتدت أن أثق في ذاكرتي. هذه شهادتي لنفسي، شهادة أثبتها الواقع بعدما اجتازت اختباره بنجاح. وإذا كانت ذاكرتي بالأماكن، ناهيكم عن ذاكرتي الموسيقية، ضعيفة للغاية، وذاكرتي البصرية وكذلك اللُغوية متواضعة، فإن ذاكرتي بالأفكار تُعتبر

أعلىٰ من المتوسط. أضيفوا إلىٰ ذلك أن الأفكار المطروحة في هذا الكتاب، وكذلك تطوُّرها والنضال في سبيلها، يعتلون مكانةً أهم من أي شيءٍ آخر.

صحيحٌ أن الذاكرة ليست مجموعة من الحسابات الآليّة الجاهِزة، وأنها ليست فاترة في المقام الأول، لكنها نادرًا ما تلفظ أحداثًا أو عوارض غير موائمة للغريزة الحيَّة التي تسيطر عليها، والتي عادةً ما يكون الطموح هو مكوِّنها الأساسي. ويتعلَّق هذا الأمر في الأغلب بالنقد "التحليلي النفسي"، الذي أحيانًا ما يكون بارعًا ومفيدًا، لكن غالبًا متقلبٌ واعتباطيّ.

وغنيٌ عن القول أنني أتحقق باستمرار من ذاكرتي بالدلائل المُوَثَّقة. ورغم صعوبة ظروف عملي، فيما يخص البحث في المكتبات والأراشيف، تمكَّنت من التحقُّق من كافة الوقائع والتواريخ التي لزمتني في هذا العمل.

بدأت، منذ العام 1897، في النضالِ بقلمٍ في يدي. ومنذ ذلك الحين وقد شقَّ هذا النضال دربًا لا يكاد ينقطع علىٰ مدار اثنين وثلاثين عامًا. كان الصراع الداخلي في الحزب، والذي بدأ في 1903، ثريًا بالأحداث والوقائع الشخصية. لم يكن أيٌ منَّا بمقدوره صد ضربات الآخر، وقد ترك خصومي ندوبهم تطبع نفسها علىٰ أجسادِهم. ومنذ ثورة أكتوبر، اعتلىٰ تاريخ الحركة الثورية مكانةً هامة لدىٰ الدارسين الشباب في السوفييت، كما في مؤسساتٍ أخرىٰ أيضًا.

صار بالإمكان البحث عن أي شيءٍ في أراشيف الثورة، أو أراشيف إدارة الشرطة القيصرية، ومن ثَم نشره مصحوبًا بشروحاتٍ واقعية مُفصَّلة. وفي السنواتِ الأولىٰ، حين لم تكن ثمة حاجة لإخفاء شيءٍ، كان هذا العمل البحثي والدراسي يجري بما يمليه الضمير اليقظ، فصدرت أعمالُ لينين وبعضٌ من أعمالي، من دارِ النشر التابعة للدولة، مصحوبةً بملاحظاتٍ من عشرات الصفحات في كل مجَّلدٍ تضمَّن موادًا توثيقيَّةً هامة عن أنشطة المؤلفَين وعن الكثير من أحداث الفترات اللاحقة. كل ذلك ساهم بشكلٍ كبير في تسهيل عملي، وعلىٰ الأخص في التأكُّد من صحة التسلسل الزمني للوقائع، أو علىٰ الأقل الوقائع الأهم.

لا أنكر أن حياتي لم تتخذ مسارًا منتظمًا، لكن أسباب ذلك لا تتعلَّق بي بقدرِ ما تتعلَّق بظروف الزمن. بالطبع كانت بعض الخصائص والسمات الشخصية، جيِّدةً كانت أو سيِّئة، لازمة لمثل هذا العمل، وتلك الخصائص ربما تنزوي تمامًا في ظل ظروفٍ تاريخيةٍ مُغايرة، مثلها في ذلك مثل الكثير من النزعاتِ والأهواء التي لا تتطلبها البيئة الاجتماعية. ومن ناحيةٍ أخرىٰ، ربما تتقدَّم اليوم إلىٰ الصدارةِ خصائص أخرىٰ كانت مكبوتة من قبل. وفي كل الأحوال، يرتقي ما هو موضوعي علىٰ ما هو ذاتي، وفي التحليل الأخير فإن الظروف الموضوعية هذه هي صاحبة القرار.

تُعتَبر حياتي الفكرية، منذ أن بدأت حين كنت في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمري، نضالًا متصلًا في سبيل أفكارٍ مُحدَّدة. أما حياتي الشخصية، فلم تحظ بأحداثٍ تستحق الاهتمام في حدِ ذاتها، فكل ما مررت به كان مرتبطًا بالنضال الثوري، بل أيضًا اكتسب أهميته منه. لكن هذا تحديدًا ما يطرح الكثير من المصاعب، إذ أثبتت كافة أحداث حياتي الشخصية أنها متشابكةٌ في نسيجٍ واحدٍ مع الأحداث التاريخية علىٰ نحوٍ لا ينفصم. لكن هذا الكتاب ليس كتابًا تاريخيًا؛ إذ لا يتناول الأحداث وفق أهميتها الموضوعية، بل وفق ارتباطها بحياتي الشخصية. لذلك من الطبيعي هنا أن يفتقر سرد بعض الأحداث في فتراتٍ زمنيةٍ مُعيَّنة إلىٰ بعض التفاصيل اللازمة في عمل تاريخي. وكان عليّ في نفس الوقت أن أضع خطًا فاصلًا بين السيرة الذاتية وتاريخ الثورة، لكن كان عليّ أيضًا أن أضع بين يدي القارئ قاعدةً من حقائق التطوُّر الاجتماعي، بالطبع دون أن أسمح بأن تتوه قصة حياتي في الأحداث التاريخية. وهكذا أعرض في هذا الكتاب إطارًا عامًا للأحداث الكبرىٰ المعروفة للقارئ كتذكيرٍ بها وبتسلسلها التاريخي.

أبلغ عامي الخمسين في الوقت الذي يصدر فيه هذا الكتاب، ويتزامن هذا التاريخ مع ذكرىٰ ثورة أكتوبر، وليستخلص المتصوِّفة والمتلاعبون بالأرقام ما يشاءون من استنتاجات. أنا نفسي لم ألاحظ هذه الصدفة الفريدة إلا بعد ثلاث سنوات من ثورة أكتوبر. عشت حتىٰ التاسعة من عمري في قريةٍ صغيرةٍ نائية. درست في المدرسة لمدة

ثمانِ سنوات. أُلقِيَ القبض عليّ بعدما تركت المدرسةَ بعامٍ واحد. وككثيرين مثلي في ذلك الزمن، كانت الجامعة بالنسبةِ لي هي السجن وسيبيريا والمنفىٰ الأجنبي. قضيت في سجون القيصر أربعة أعوام علىٰ فترتين. وفي المنفىٰ القيصري قضيت عامين في المرةِ الأولىٰ، ثم بضعة أسابيعٍ في المرةِ الثانية. هربت من سيبيريا مرتين. وكمهاجرٍ أجنبي، قضيت اثنىٰ عشر عامًا في عددٍ من البلدان الأوروبية إلىٰ جانب الولايات المتحدة - عامين قبل ثورة 1905، وما يقرب من عشرة أعوامٍ بعد هزيمتها. وفي 1915، خلال الحرب، حُكِمَ عليّ غيابيًا بالسجن في ألمانيا الهوهنزلرنية، وفي العام التالي طُرِدت من فرنسا وإسبانيا، وبعد فترةٍ قصيرةٍ في سجن مدريد، وشهرٍ تحت مراقبة الشرطة في كاديز، رُحِّلت إلىٰ الولايات المتحدة. كنت هناك حين اندلعت ثورة فبراير. وفي طريقي من نيويورك، أُلقت القوات البريطانية القبض عليّ في مارس 1917، فقضيت شهرًا في معسكرِ اعتقالٍ في كندا. شاركت في ثورتي 1905 و1917، وانتُخِبت رئيسًا لسوفييت مندوبي عمال سان بطرسبورج في 1905، ثم مرة أخرىٰ في 1917. شاركت بحيويةٍ في ثورة أكتوبر، وكنت عضوًا في الحكومة السوفييتية. وكمفوَّضٍ للشئون الخارجية، أجريت مفاوضات السلام في بريست ليتوفسك مع مندوبي ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية وتركيا وبلغاريا. وكمفوَّضٍ لشئون الحرب والبحرية، كرَّست من عمري خمس سنوات في تنظيم الجيش الأحمر وإعادة بناء البحرية الحمراء.

وأضفت إلىٰ ذلك في عام 1920 توجيه وقيادة نظام السكك الحديدية.

باستثناء سنوات الحرب الأهلية، كان العمل الأدبي والحزبي هو المكوِّن الأساسي لحياتي. في 1923، بدأت دار النشر التابعة للدولة في إصدار أعمالي الكاملة، ونجحت بالفعل في تجميع ثلاثين مجلَّدًا، بالإضافة إلىٰ الخمسة مجلَّدات في الأمور العسكرية كانت قد صدرت مُسبقًا، ثم انقطع النشر في 1927 حين بلغت الهجمة علىٰ التروتسكية أوجها.

وفي يناير 1928، أمرت الحكومة السوفييتية الحالية بنفيي، فقضيت عامًا علىٰ الحدود الصينية، ثم انتقلت إلىٰ تركيا في فبراير 1929، والآن أكتب هذه السطور من القسطنطينية.

حتىٰ في هذه النبذة المُختَصرةِ، لم يكن مسار حياتي رتيبًا بأي حالٍ من الأحوال. بل علىٰ العكس تمامًا؛ فبالنظر إلىٰ القدر الهائل من التحوُّلات والانعطافات، والصراعات الحادة، وموجات الصعود والهبوط، يمكنني القول أن حياتي كانت تعج بـ"المغامرات". لكن لابد هنا أن أقول أن ما مِن شيءٍ مشتركٍ بيني وبين الباحثين عن المغامرة. ولعلني محافظٌ ومدققٌ بعض الشيء في عاداتي، فأميل إلىٰ تقدير النظام والالتزام. وأضيف هنا أنني في الحقيقة لا أتحمَّل البعثرة أو الفوضىٰ، فلطالما كنت تلميذًا مجتهدًا ودقيقًا، وحافظت علىٰ هاتين الخصلتين طيلة حياتي بأسرها. خلال سنوات الحرب الأهلية،

حين قطعت مسافاتٍ تتعدَّىٰ الدوران حوْل الأرض بمراتٍ عديدة، كان يسرَّني للغاية أن أرىٰ كل سياجٍ جديدٍ من ألواح الصنوبر المقطوعة بدقة. أما لينين، الذي عَرِفَ شغفي هذا بالدقة، فكان أحيانًا ما يمازحني علىٰ ذلك بطريقةٍ ودية. إن كتابًا بارعًا يجد المرء فيه أفكارًا جديدة، وقلمًا ماهرًا يستخدمه المرء في تقديم أفكاره للآخرين، كانا ولا يزالان بالنسبةِ لي أعظم منتجات الثقافة البشرية قيمةً ومكانةً. لم أقلع يومًا عن رغبتي في الدراسة، وفي مراتٍ كثيرة في حياتي شعرت أن الثورة تتخلَّل عملي المنظم، فقد قضيت ثُلث قرنٍ من حياتي الواعية في نضالٍ ثوريٍ متواصل، وإذا قُدِّرَ لي أن أعيشه من جديد لكنت بلا تردُّد سأتخذ نفس المسار.

إنني مضطرٌ لكتابة هذه السطور كمهاجرٍ، للمرة الثالثة، بينما يملأُ أصدقائي المقرَّبون بقاع المنفىٰ وسجون الجمهورية السوفييتية التي اضطلعوا بأدوارٍ حاسمة في تأسيسها. بعضٌ من هؤلاء الأصدقاء تردَّدوا، وبعضهم انسحبوا، وآخرون استسلموا للعدو. بعضهم فعل ذلك بعد أن استنفذوا أنفسهم تمامًا، وآخرون بعد أن فشلوا في إيجادِ أي طريقٍ للخروج من متاهةِ الظروف المُعقَّدة التي وجدوا أنفسهم فيها، وغيرهم بسبب ما تعرَّضوا له من انتقامٍ مباشر. لقد شهدت مثل هذا الفرار الجماعي من لواء الثورةِ مرتين؛ الأولىٰ بعد انهيار الثورة والأخرىٰ مع بداية الحرب العالمية. وهكذا فإنني أعلم جيدًا، من واقع خبرتي، حركة التاريخ في المد والجزر، هذه الحركة التي تحكمها

قوانينها الخاصة، والتي لن يُعجِّل نفاذ الصبر من تغييرها. لقد أُعتدت ألا أنظر إلىٰ أفق التاريخ مِن منطلق مصيري الشخصي، فالواجب الأول علىٰ الثوري إنما يكمن في فهم التسلسل السببي للأحداث وتحديد موقعه في هذا التسلسل. وفي الوقت نفسه، لا يمكن بلوغ أعظم قدرٍ ممكنٍ من الرضا الشخصي إذا حصر الثوري مهامه في حدودِ اليوم الراهن.

ليون تروتسكي - 1929

الفصل الأول

يانوفكا

عادةً ما يُنظر لمرحلة الطفولة باعتبارها أسعد فترة في حياة الإنسان. هل هذا صحيحٌ دائمًا؟ كلا، قليلون فقط من يحظون بطفولةٍ سعيدة، وإضفاء المثاليةِ بهذا الشكل على مرحلة الطفولة يتولَّد بالأساسِ من الأدب القديم لأولئك المتميزين اجتماعيًا. والطفولة الآمنة الصافية، في منزلٍ من الترف والثراء، إنما ترسم صورةَ روضةٍ مشمسةٍ في بداية طريق الحياة. وقد أضفى نبلاء الأدب، وكذلك أتباعهم الذين يمجدونهم، قداسةً وطوباوية على هذه الصورة الأرستقراطية البحتة عن الطفولة. أما أغلبية الشعب، إذا استعادوا الماضي في أذهانهم، فعلى العكس لا يجدون إلا طفولةً من الظلام والجوع والعوز. الحياة تضرب الضعفاء، وهل هناك من هو أضعف من طفل؟

لم أعانِ في طفولتي جوعًا أو بردًا، فقد عاشت عائلتي حياةً مقتدرةً في الوقت الذي جئت فيه إلى هذه الدنيا. لكنه كان ذلك الاقتدار الصارم لعائلةٍ أفلتت لتوها من الفقر وليس لديها أي نيَّةٍ للوقوف في منتصف الطريق. كانوا يفعلون كل ما في وسعهم لمواصلة العمل والادخار، ولم يهيئ ذلك للأطفال إلا حياةً متواضعة. لم نكن نعرف العوز، لكننا أيضًا لم نعرف مكارم الحياةِ وإترافها. لم تكن طفولتي

كروضةٍ مشمسة كما هو حال الأقلية الضئيلة، لكنها أيضًا لم تكن ككهفٍ موحش من الجوع والعنف والبؤس كما هو حال الأغلبية الساحقة. كانت فقط طفولة رمادية لعائلةٍ في شريحةٍ دُنيا من الطبقة الوسطىٰ، قضيتها في قريةٍ منغلقةٍ غامضة، حيث الطبيعة الواسعة والأخلاق والرؤىٰ والمصالح الضيقة الخانقة.

أما المناخ الروحي الذي أحاط سنواتي المبكرة، فقد كان مختلفًا تمامًا عن ذلك الذي مررت به لاحقًا في حياتي الواعية. كان المناخان عالمَين متمايزَين تمامًا عن بعضهما، لا تفصل بينهما عقودٌ من الزمن وبلدانٌ بعيدة فحسب، بل أيضًا أحداثٌ هائلة وتحوُّلاتٌ داخليةٌ ربما تكون أقل وضوحًا، لكن أهم في تشكيل شخصية المرء وفرديته. حين بدأت أكتب هذه المذكرات، بدا لي كثيرًا أنني لا أكتب عن طفولتي الخاصة، بل عن رحلةٍ طويلةٍ إلىٰ ماضٍ بعيد. وحين حاولت أن أكتب حكايتي بصيغة الغائب، وجدت أن هذا النموذج لن يضيف إلا نكهةً من خيالٍ كان لزامًا عليّ أن أتجنبه بأي ثمن.

وعلىٰ الرغم من التناقض بين العالمين، مضت شخصيتي عبر قنواتٍ خفيَّةٍ من عالمٍ إلىٰ الآخر. وهذا، بصفةٍ عامة، هو سبب اهتمامِ الناسِ بالسيَر والسيَر الذاتية لأولئك الذين، لسببٍ أو لآخر، احتلوا مجالًا أوسع في حياةِ المجتمع. لذا سأحاول أن أحكي قصة طفولتي بشيءٍ من التفصيل، دون أي محاولة لتحديد أو توقُّع المستقبل مُسبَّقًا،

أي دون انتقاء حقائق تناسب تعميمات المستقبل؛ فقط سأروي ما حدث كما هو محفوظٌ في ذاكرتي.

أحيانًا ما أتذكر نفسي أرضع من ثدي أمي، وربما يكون الأمر مجرَّد أنني أطبِّق علىٰ نفسي ما أراه في الأطفال الرُضَّع. لكن لا يزال لديّ مشهدٌ خافتٌ يعلق في ذاكرتي تحت شجرةِ تفاحٍ في حديقة حين كنت أبلغ عامًا ونصف من عمري، إلا أن هذه الذكرىٰ مشكوكٌ فيها. لكن الحدث الذي أتذكره جيدًا هو حين كنت مع أمي في بوبرينيتز لزيارة العائلة "ز"، حيث كانت هناك صبيَّةٌ صغيرة لها من العمر عامان أو ثلاثة. كنَّا نلعب سويًا؛ أنا العريس وهي العروس، بينما كان بقية الأطفال يلعبون في الردهة. وقف صبيٌ منهم، متسمِّرًا في ذهول، إلىٰ جانبِ خزانةٍ ذات أدراج، وجاءت ربة البيت مع أمه، ونظرت الأم إليه، ثم إلىٰ بركةٍ صغيرةٍ بجانبه، ثم إليه مرة أخرىٰ، وهزَّت رأسَها مُوَبِّخَةً إياه: "ألا تخجل من نفسك؟"، فنظر الصبي لأمِه، ثم إلىٰ نفسه، ثم إلىٰ البركة، وكأنه شيئًا لا يعنيه في الأمرِ كله.

ثم قالت ربة البيت: "لا عليكِ، الأطفال يلعبون منذ وقتٍ طويل".

لم يبدو علىٰ الصبي خجلٌ ولا أسف. كم كان يبلغ من العمر؟ عامان، أو ربما ثلاثة.

ربما كان ذلك هو الوقت الذي خطوت فيه عن غير قصدٍ علىٰ أفعىٰ سامة في الحديقة. صرخت مربيتي حين رأت ذلك: "احترس يا ليوفا"[1]، مشيرةً إلىٰ جسمٍ لامعٍ في العشب. ظننتها علبةً صغيرة، فقلت لها: "هذه علبة صغيرة مدفونة في الأرض"، فأمسَكَت مربيتي، التي لم تكن تناهز السادسة عشر بعد، بعصا في يدها، وبدأت تضرب بها علىٰ الأرض. تمدَّدَت العلبة فجأة وصارت أفعىٰ، وسمعت فحيحها حين بدأت تزحف علىٰ العشب. صرخت المربية "تعال تعال"، وأمسكتني من يدي وجرت سريعًا، وبالطبع كان من الصعب عليّ أن أجري بهذه السرعة. ثم بعد ذلك أخبرت الجميع بقصة العلبة التي تحوَّلت فجأة إلىٰ أفعىٰ.

أتذكر أيضًا مشهدًا حدث في مطبخ بيتنا. لم يكن أبي وأمي في البيت، فقط الطبَّاخ والمربية وبعض الضيوف. أما أخي الأكبر، أليكساندر، الذي كان يقضي أيام العطلة معنا في البيت، فوقف علىٰ مجرفةٍ خشبية وأخذ يتمايل عليها راقصًا. توسلت إليه أن يدعني أفعل

---

[1] – الاسم الأصلي الكامل لتروتسكي هو ليف دافيدوفيتش برونشتاين، واسم والده هو دافيد ليونتييفيتش برونشتاين. أما ليوفا فهو واحدٌ من صيغ التصغير لاسم ليف، والتي تعني حرفيًا كلمة "أسد". اعتاد الإنجليز والفرنسيون نطق اسمه "ليون"، أما الألمان ف"ليو". وفي الصفحات التالية سيكرر المؤلف اسمه "ليف دافيدوفيتش"، وكذلك في الاقتباسات والمقتطفات من مذكرات زوجته.

مثله، لكنني وقعت وأخذت في البكاء. احتضنني أخي وقبّلني وحملني بين ذراعيه خارج المطبخ.

كنت في حوالي الرابعةِ من عُمري حين حملني أحدهم واضعًا إياي علىٰ ظهر فرسٍ رماديٍ كبير، مطيعٍ كالأغنام، بلا لجامٍ ولا سرج. مددت ساقيَّ مباعدًا بينهما، وتشبثت في عنق الفرس بكلتا اليدين. سار بي الفرسُ بهدوءٍ وخِفة إلىٰ شجرةِ إجاصٍ ومشىٰ تحت فروعها، فاصطدمت بفرعٍ كبير زحزحني إلىٰ ردف الفرس، ومن ثم انزلقت فوقعت علىٰ الأرض. لم أدرك ما حدث، ولم يصبني أذىٰ، لكنني ارتبكت بشدة.

لم أحظ بأي دُمىٰ جاهزة في طفولتي، لكن ذات مرة أحضرت أمي لي حصانًا من الورق المُقوَّىٰ وكرةً من خاركوف. كنت ألعب مع أختي الصغرىٰ بدُمىٰ صنعناها بأنفسنا. وذات مرة صنعت العمة فينيا والعمة رايسا، أختا أبي، دُمىٰ من خرقٍ من القماش، ورسمت العمة فينيا أعينهم وأنوفهم وأفواههم بقلمٍ رصاص. كانوا رائعين. يمكنني تذكرهم حتىٰ يومنا هذا. وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء، قطع إيفان فاسيلييفيتش، الذي عمل ميكانيكيًا لدىٰ أبي، الدُمية الكبيرة. تركت مسقط رأسي في المدينة اليهودية الصغيرة في محافظة بولتافا، مع والديّ، حين سافرا للبحث عن الرزق في سهول الجنوب. كان هناك في ذلك الوقت حوالي 40 تجمعًا زراعيًا يهوديًا في محافظات خيرسون وإيكاترينوسلاف، بتعدادٍ سكاني يبلغ حوالي 25 ألف نسمة.

وكان المزارعون اليهود متساوين تمامًا مع الفلاحين الآخرين، ليس فقط على مستوى الحقوق القانونية، لكن أيضًا فيما يتعلَّق بالملكية. وهذا هو الوقت الذي تمكَّن فيه أبي من الارتقاء اجتماعيًا بكدٍ لا يعرف الكلل وباكتنازِ كل قرشٍ يقع تحت يديه.

حين آن أوان التحاقي بالمدرسة الثانوية، اكتشفنا أنني لا أزال أصغر من سن القبول، فما كان من أهلي إلا أن غيَّروا سنة ميلادي في شهادةِ الميلاد من 1879 إلىٰ 1878، لذا كان لديّ دائمًا تاريخان مُسجَّلان؛ تاريخ الميلاد الرسمي والتاريخ الذي شهدته عائلتي.

في السنوات التسع الأولىٰ من حياتي، لم أكد أخرج من القرية. جاء اسمها -يانوفكا- مشتقًا من اسم مالكها، يانوفسكي، الذي باع أراضيها كاملةً. ارتقىٰ هذا المالك القديم في صفوف الجيش من القواعد الدنيا حتىٰ صار عقيدًا، ومنحه القيصر أليكساندر الثاني أراضٍ شاسعة من السهوب غير المأهولة؛ ألف فدان في محافظة خيرسون. بنىٰ لنفسه كوخًا طينيًا مسقوفًا بالقش، ومثله الكثير من البنايات الريفية البدائية. لم تزدهر زراعته، وبعد وفاته انتقلت عائلته إلىٰ بولتافا. ابتاع والدي مائتي وخمسين فدانًا من يانوفسكي، واستأجر ربعمائة غيرهم. أتذكَّر أرملة العقيد جيدًا، كانت عجوزًا ضئيلة، تأتي مرةً أو مرتين في العام لتحصيل الإيجار وللاطمئنان علىٰ أن الأمور تجري علىٰ ما يُرام. كنَّا نرسل عربتنا الربيعية إلىٰ المحطة ونجلب لها كرسيًا إلىٰ مُقدِّمته حتىٰ تتمكَّن من الترجُّل بسهولة. كنَّا نقدِّم لها الدجاج والمرقة

والبيض المسلوق. كنت أسير مع أختي في الحديقة، فتخدش هي الراتنج بأصابعها الذابلة كي تقدِّم لها أشهىٰ وأطيب لحمٍ في العالم.

زادت محاصيل والدي، وكذلك قطيع الماشية والأحصنة، حتىٰ أنه حاول تربية قطيعٍ صغيرٍ من أغنام المرينوس، لكن باءت هذه المغامرة بالفشل. علىٰ أيةِ حال، كان هناك الكثير من الخنازير. وكانوا يتجوَّلون بحريةٍ في أرجاء المكان، يرعون وينامون ويأكلون، حتىٰ دمَّروا الحديقةَ بالكامل. كان والدي يعتني بممتلكاته جيدًا، لكن بأسلوبٍ عفا عليه الزمن. كانت العين المُجرَّدة كافية لإدراك الربح أو الخسارة، ولهذا السبب بالذات كان من الصعب حساب مقدار ثروته بالتحديد. كانت كل ممتلكاته إما علىٰ الأرض، أو في الحقل، أو في المخازن حيث تُحفَظ في صويعمات أو تخرج توًا في طريقها إلىٰ الميناء. أحيانًا، في أثناء تناول الشاي أو العشاء، كان والدي يصيح فجأةً: "تعال واكتب. تلقيت 1300 روبل من التاجر، أعطيت منها 600 لأرملة العقيد، و400 لديمبوفسكي. دوِّن عندك أيضًا أنني أعطيت ثيودوسيا أنطونوفنا 100 روبل حين كنت في إليزافيتجراد الربيع الماضي". هكذا كان يحفظ سجلاته. إلا أنه علىٰ أيةِ حال ظلَّ يصعد إلىٰ أعلىٰ بعنادٍ ومثابرة.

عشنا في المنزل الطيني الصغير الذي بناه العقيد. كانت أعدادٌ لا حصرَ لها من أعشاش العصافير مستقرةً في السقفِ المنصوبِ قشًا، وكذلك في المرازيب. أما الحوائط، فكانت تعج بالشقوقِ من الجهةِ

الخارجية بحيث يمكن أن تأوي العشرات من الأفاعي. أحيانًا كنَّا نظن هذه الأفاعي ثعابين سامة، فنغلي المياه ونصبَّها في الشقوق، لكن دون جدوىٰ. ومع هطول الأمطار، كان السقف المنخفض يُسرِّب مياهًا غزيرة، بالأخص في الردهة حيث توضع الأواني والأقراء علىٰ الأرض المُتسِخة حتىٰ تمتلئ. كانت الغرف صغيرة، والنوافذ معتمة، والأرضية في غرفتيّ النوم وغرفة الأطفال كانت من الطين. كانت مرتعًا للبراغيث. بينما تميَّزت غرفة الطعام عن ذلك بأرضيتها الخشبية التي تُفرَك مرةً أسبوعيًا بالرملِ الأصفر. أما أرضية الغرفة الرئيسية، التي كانت تحتكر اسم "الصالون"، فكانت مدهونةً رغم مساحتها ذات الثمانية ياردات. كانت أرملة العقِيد تجلس هناك.

سنطٌ أصفر، وزهورٌ بيضاء وحمراء، وفي الصيف كرمةٌ مُتسلِّقة، كل ذلك كان حول الدار. لم تكن الباحة الخلفية مُسوَّرةً قط. بنىٰ والدي منزلًا بسقفٍ قرميدي للمطبخ والخدم. إلىٰ جانبه كان هناك مخزن الحبوب الخشبي "الصغير"، ووراءه مباشرةً كان المخزن "الكبير". وحتىٰ وراء هذا "الكبير"، كان هناك المخزن "الجديد". هذه المخازن جميعها كانت مسقوفةً بأعوادِ القصبِ، والأرضية من الحجر كي لا ترشح ماءً يفسد الحبوب. وحين يشتد الطقس حرًا أو بردًا، كان الكلاب والخنازير والدجاج يحتمون تحت أسقف هذه المخازن. وهناك، وجدت الدجاجات مكانًا آمنًا لوضع بيضها. اعتدت أن أجمع هذا البيض؛ أزحف علىٰ صدري بين الأحجار التي

كانت المسافات بينها ضيقة للغاية بحيث لا تستوعب شخصًا بالغًا يحشر نفسه فيها. كانت اللقالق تعشّش كل عام على سقفِ المخزن "الكبير"، يرفع كلٌ منها منقاره الأحمر إلىٰ السماء إذ يبتلع ضفدعًا أو أفعىٰ. مشهدٌ مُفزِع. كانت أجسامهم تتلوَّىٰ من المنقار حتىٰ المعدة، كما لو أن الثعبان يأكل اللقلق من أحشائه.

كانت المخازن مُقسَّمة إلىٰ صويعمات تحوي قمحًا ناضجًا، وشعيرًا شائكًا، ودقيقًا ناعمًا، وبذورَ كتانٍ ليّنة، وشوفانًا، ولِفتًا. وحين كان الأطفال يلعبون "الغُمَيضة" كان يُسمَح لهم، خاصةً إذا كانوا ضيوفًا متميِّزين، بالدخول لأيٍ من المخازن للاختباء. كنت أزحف بين الأحجار إلىٰ داخل صويمعة لأتسلَّق أعلىٰ تلة القمح ثم أنزلق إلىٰ الجانب الآخر. كنت أغطس في القمح بذراعيّ حتىٰ الكوعين، وساقيّ حتىٰ الركبتين، وكثيرًا ما كانت قمصاني وأحذيتي تمتلئ بالحبوب. كان أحدهم يغلق باب المخزن بقفلٍ من الخارج دون أن يُحدِث جلبةً، وفقًا لقواعد اللعب. كنت أتمدَّد علىٰ الأرضيةِ الباردة، تغمرني الحبوب، أتنفَّس غبارها، وأسترق السمع إلىٰ سينيا أو أختي ليزا أو أيٍ من يجري هنا أو هناك في الباحة؛ يجدون الآخرين ولا يعثرون عليّ وأنا مُغطىٰ بقمحِ الشتاء.

الإسطبل، وحظيرة الأبقار، وزريبة الخنازير، وبيت الدجاج، كانت كلها تقع علىٰ الجانب الآخر من الدار. كانت كلها مبنية بالطين والقش والأغصان. كان البئر يقع علىٰ مسافةِ مائة ياردة فقط من الدار، وهناك

كان حوضٌ كبيرٌ يروي حدائق الفلاحين. كانت سيول الربيع تكسح السد كل عام، وهكذا كان لابد أن يُبنىٰ سنويًا من الطين والقش والأغصان. وأعلىٰ التلة هناك، كانت تقف الطاحونة - حظيرةٌ خشبية تحتوي علىٰ مُحرِّكٍ بخاري بقوة عشرة أحصنة، واسطوانتي طحن. هنا، خلال سنوات طفولتي الأولىٰ، كانت أمي تقضي معظم ساعات عملها اليومي. لم تكن الطاحونة تخدم أهل القرية فحسب، بل كل القرىٰ المجاورِة أيضًا. كان الفلاحون يجلبون حبوبهم من علىٰ مسافة عشرة أو خمسة عشر كيلومترات، ويدفعون ما يكافئ عُشر ثمن الكمية المُراد طحنها. وعندما يحل الصيف، في ذروة موسم درس الحنطة، كانت الطاحونة تعمل ليلَ نهار، وحين تعلَّمت الكتابة والحساب بدأت أوزن حبوب الفلاحين وأحسب سعر الدرس. وحين ينتهي موسم الحصاد، تُغلَق الطاحونة. ولاحقًا، صار هناك مُحرِّكٌ ثابتٌ في مبنىٰ جديد، كما بُنِيَ بيتٌ جديدٌ بالطوب وله سقفٌ من الصفيح بدلًا من البيت القديم المبني من الطين. لكن حدث كل ذلك حين كنت في السابعة عشر من عمري. وخلال عطلة الصيف الأخيرة لي في يانوفكا، اعتدت أن أحسب المسافة الفاصلة بين النوافذ ومساحات الأبواب في بيتنا الجديد، لكنني لم أتمكَّن قط من توصيل الخطوط ببعضها. لم أعش قط في ذلك المنزل، إنه الآن مدرسةٌ سوفييتية.

كان علىٰ الفلاحين في الأغلب أن ينتظروا أمام الطاحونة لأسابيعٍ كي ينتهوا من درس حنطتهم. هؤلاء الذين يعيشون في الجوار، كانوا

يتركون أكياسهم في الطابور ويعودون أدراجهم إلىٰ ديارهم، أما أولئك القادمون من مسافاتٍ بعيدة فكانوا يقضون أيام انتظارهم في عرباتهم الخشبية، وحين يهطل المطر يبيتون في الطاحونة. وذات يومٍ، فَقَدَ أحد الفلاحين لجامًا كان له، وقال آخر إنه رأىٰ صبيًا يحوم في الجوار حول حصانٍ قريب. هرع الفلاحون إلىٰ عربة أبيه، وفتَّشوا في القش فوجدوا اللجام. أما أبو الصبي، فخرجَ عابس الوجه في مقابل الحشد المُحتشِد، وأقسَمَ بالصليبِ أن الملعون النذل الصغير فعل فعلته دون أن يعلم هو شيئًا، وأنه سيُنزِل عليه أشد عقاب. لكن ما مِن أحدٍ صدَّقه، لذا أمسك الفلاح بابنه وأخذ يجلده باللجام المسروق. كنت أشاهد ما يجري من وراء ظهور الكبار. أخذ الصبي يصرخ ويُقسِم ألا يسرق ثانيةً. وظلَّ الفلاحون واقفين، غير مبالين بصراخ الصبي. أشعلوا سجائرهم، وتمتموا من وراء لحاهم بأن الأب يخدعهم بضربِ ابنه فقط لحِفظ ماءِ الوجه، بينما هو أيضًا يستحق الجلد.

خلف زرائب الحيوانات، كانت هناك حظيرتان بطولِ مائتي قدم لكلٍ منهما؛ واحدةٌ من أعوادِ القصب، والأخرىٰ من القش، وكلاهما علىٰ شكلِ سقفٍ مُجملَن دون جدران. كانت أكياس الحبوب تُحزَم في هذه الحظائر، وهناك أيضًا كان الرجال يعملون بغرابيلٍ ومناخل في أجواءٍ عاصفة، وأحيانًا حتىٰ في أجواءٍ مطيرة. وخلف هاتين الحظيرتين، كانت تقع حظيرة أبقارٍ ذات جدرانٍ مبنيَّةٍ فقط من الطين والروث.

ارتبطت طفولتي بأسرها ببيت العقيد الطينْي، وبالأريكة القديمة البالية في غرفة الطعام. كانت هذه الأريكة مكسوَّةً لتبدو كالخشب الأحمر، وعليها كنت أجلس لتناول الشاي، والغداء، والعشاء أيضًا. هناك كنت ألعب بالعرائس مع أختي، ولاحقًا صرت أجلس للقراءة عليها. تمزَّقت كسوتها في موضعين؛ الثقب الأصغر إلىٰ جانب الكرسي الذي اعتاد إيفان فاسيلييفيتش الجلوس عليه، والأكبر إلىٰ جوار أبي. كان إيفان فاسيلييفيتش ليقول: "هذه الأريكة بحاجةٍ إلىٰ كسوةٍ جديدة".

فترد أمي: "إنها بحاجةٍ إلى كسوةٍ جديدة منذ زمنٍ طويل. لم نغيِّر كسوتها منذ قُتِلَ القيصر".

فيقول أبي مُبرِّرًا نفسه: "لكن، أتعلم؟ حين يسافر المرء إلىٰ تلك المدينة الملعونة، يهرع هنا وهناك، وعربات الأجرة تكلِّف مالًا، فسرعان ما يفكِّر في العودة علىٰ الفور إلىٰ الحقل وينسىٰ ما جاء في الأصل لشرائه".

كانت هناك عارضةٌ خشبيةٌ خشنة وغير ذات طلاء تمتد عبر السقف المنخفض وتهبط إلىٰ أسفل لتجد مستقرًا لها بين الكثير من الأغراض المتنوِّعة: أطباق، ومؤن محفوظة من الهرة، خيوط، وعبوات حبر مقفولة بإحكام، وحامل أقلام يستقر عليه قلمٌ قديمٌ صدئ. لم تكن هناك الكثير من الأقلام في يانوفكا، ومرَّت عليّ أوقاتٌ صنعت فيها لنفسي أقلامًا من الخشب، باستخدام سكين المطبخ،

لأنسخ رسوم الأحصنة في أعداد مجلةٍ قديمة تُدعىٰ "فيلد". وتحت السقف مباشرةً، حيث تنتصب المدخنة واجدةً لرأسها مخرجًا منه، كانت تعيش الهرة. هناك ربَّت أطفالها، وبشجاعةٍ كانت تقفز لأسفل حاملةً إياهم بأسنانها حين ترتفع درجة الحرارة في مخدعها. وكان إذا زارنا ضيفٌ طويل، يصدم رأسه بالعارضة الخشبية لدىٰ نهوضه من علىٰ الطاولة، لذا اعتدنا الإشارة إلىٰ أعلىٰ قائلين: "احترس لرأسك".

الشيء الأكثر إدهاشًا في الردهة كان ذلك البيانو الصغير القديم الذي احتل حوالي رُبع مساحتها. لازلت أتذكَّر متىٰ ظهر هذا البيانو في بيتنا. كانت زوجة إقطاعي مُفلِس، عاشت علىٰ مسافة حوالي خمسة عشر ميلًا من بيتنا، قد انتقلت إلىٰ المدينة وأخذت تبيع أثاث بيتها. اشترينا منها الأريكة، وثلاثة كراسي خشبية، والبيانو الصغير المتهالِك ذا الأوتار المُمَزَّقة الذي ظلَّ هكذا لسنواتٍ طوال. اشتراه أبي بستة عشر روبلًا وجلبه إلىٰ يانوفكا علىٰ ظهرِ عربة. وجدنا فيه فأرين نافقَين حين فتحناه لإصلاحه في الورشة. ظلَّ هناك لعدة أسابيع من الشتاء. نظَّفه إيفان فاسيليفيتش، وألصَقَ الأجزاء المُفكَّكة فيه، ثم لمَّعه ووضع أوتارًا جديدة ثم ضَبَطَ نغماته. استُبدِلَت كافة المفاتيح، فصار صوته يرن في الردهة. كان الصوت واهنًا، لكن لا يُقَاوم. نقل إيفان فاسيليفيتش أصابعه الساحرة من مفاتيح الأكورديون إلىٰ البيانو، وأخذ يعزف الكامارينسكايا، والبولكا، وماين ليبر

أوجستين[2]. بدأت أختي الكبرىٰ دروسًا في الموسيقىٰ، بينما كان أخي الأكبر قد تعلَّم بعض دروس الكمان لبضعة أشهرٍ في إليزافيتجراد، وكان يعزف أحيانًا. بدأت أعزف بإصبعٍ واحدٍ علىٰ كمان أخي. لم تكن أذني موسيقية، فظلَّ حبي للموسيقىٰ يائسًا دون أن يعبِّر عن نفسه.

في الربيع، كانت باحة الدار تتحوَّل إلىٰ بحرٍ من الأوحال. كان إيفان فاسيلييفيتش ليصنع لنفسه حذاءً خشبيًا أو آخر جلدي، وكنت أضحك حين أراه يتقافز علىٰ ارتفاعِ قدمٍ أو أكثر فوق طوله الفارع كي لا يخطو في الوحل. أحيانًا كان يظهر في المشهد صانع السروج، الذي يبدو أن أحدًا لم يعرف اسمه. كان قد تجاوَزَ الثمانين من عمره، وخَدَمَ لخمس وعشرين سنةً في جيش نيقولا الأول. كان ضخمًا، عريضَ المنكبين، بساقين ثقيلتين، يمشي متثاقلًا عبر الاسطبل الذي اعتاد بطبيعة الحال العمل داخله. ظلَّ يشكو طوال عشرة أعوام: "ساقاي تضعفان". لكن، علىٰ العكس، كانت يداه اللتان تفوحان برائحة الجلد أقوىٰ من كمَّاشة. أتذكَّر أظافره الأشبه بالمفاتيح العاج في البيانو، كانت أطرافها حادة للغاية.

سألني ذات مرة: "هل تود أن آخذك لرؤية موسكو؟". بالتأكيد كنت أحب ذلك! ثم لفَّ رقبتي بيديه، واضعًا إبهاميه خلف أذناي،

---

[2] – الكامارينسكايا والبولكا هما رقصتان شعبيتان في روسيا، و"ماين ليبر أوجستين" أغنية شعبية فيينية. (المترجم)

ورفعني لأعلىٰ. ضغطت أظافره المخيفة علىٰ رقبتي، فركلته بقدمي، فأنزلني، لكنني لم أجر هاربًا. صعد الرجل العجوز إلىٰ العلية، وقال: "مرحبًا!"، ثم قال لي: "انظر ماذا وجدت هنا". تشكَّكت في أنها خدعة، فتردَّدت في الصعود. اتضح أن الطحَّان الشاب كونستانتين كان برفقة الطبَّاخة كاتي في العلية. كان الاثنان رائعَين؛ مُبتهِجين دائمًا ودؤوبين في العمل. كانت أمي تسألهما: "إذن متىٰ تتزوَّجان؟"، فيجيب كونستانتين: "ولماذا نتزوَّج؟ الحياة تسير بصورةٍ جيدة هكذا. الزواج يُكلِّف عشرة روبلات، وأنا أريد أن أبتاع حذاءً جديدًا لكاتي".

بعد انقضاء الصيف الحار وذروة موسم الحصاد، يأتي الخريف بحمولته السنوية من الأشغال الشاقة، حيث موسم درس الحنطة الذي يجري العمل فيه علىٰ قدمٍ وساق. ينتقل مركز النشاط إلىٰ أرض الدرس وراء الحظائر، علىٰ بعدِ حوالي رُبع ميلٍ من المنزل. تحوم سحابةٌ من الغبار فوق موقع العمل. تئن اسطوانة الدَرَّاسة، بينما يجلس الطحَّان فيليب إلىٰ جانبها مرتديًا نظاراتٍ تحمي عينيه، ولحيته السوداء مُغطاةٌ بالغبار الرمادي. يحمل الرجال حِزمًا من أكياس الحبوب من علىٰ العربات، ليأخذها هو دون حتىٰ أن ينظر إليها؛ يجمعها سويًا، ثم يهزُّها ليُفرِّغ ما فيها في الدَرَّاسة؛ وكل ذراعٍ فيها يزمجِر ككلبٍ في فمه عظمة. تقذف الدَرَّاسة بالقشور والقش هكذا كيفما اتفق، بينما ينهمر الهشيم في أنبوبةٍ جانبية. كنت أقف علىٰ الجرَّافة في ذيل الدَرَّاسة ممسكًا بالعنان، فيصيح أبي: "احترس ألا

تقع"، لكنني لا أنفك أذهب إلىٰ هناك للمرة العاشرة. أقع بالفعل علىٰ القش تارة، وعلىٰ الهشيم أخرىٰ. يكوِّن الغبار، من فرطِ كثافته، طبقةً سميكةً علىٰ الأرضية، والمُحرِّك يتأوَّه، والقشور تعلق بالقميص الذي أرتديه وتتسلَّل إلىٰ أنفي فأعطس مرارًا. يصيح أبي: "مهلًا يا فيليب، لا تُسرِع"، إذ تزمجِر الدَرَّاسة بعنف. انزلقت الجرَّافة ووقعت بكل ثقلها علىٰ إصبعي. كان الألمُ شديدًا حتىٰ جعل رأسي يدور. أدرت ظهري للرجال حتىٰ لا يراني أحدهم أبكي، ثم هرعت إلىٰ البيت. صبَّت أمي علىٰ يدي ماءً باردًا، ووضعت رباطًا علىٰ إصبعي، لكن الألم لم يزُل. تقيَّح الجرحُ وظلَّ هكذا لأيامٍ من العذاب.

بعد ذلك، تتكدَّس حِزَمٌ من أكياس القمح في المخازن والسقائف مُغطاةً بقطعٍ من القماش المشمَّع. غالبًا ما كان أبي يُمسِك بالغربال بنفسه ليشرح للرجال كيف يُقلِّبون الطارة حتىٰ يتخلَّصون من القش، وكيف بدفعةٍ خاطفةٍ يُفرِّغون القمح النظيف في الأكياس والأجولة دون أن يتركوا ولو حبةً واحدة. وهناك في المخازن يعمل المُغربلون، حيث يحتمون من الرياح حال هبَّت. القمح الآن نظيف وجاهز للسوق.

والآن، جاء دور التُجَّار الذين أتوا بميزانٍ وأثقالٍ نحاسية في صناديقٍ كبيرة؛ عاينوا القمح ووزنوه وحدَّدوا سعرًا، وبالطبع تضمَّن هذا فصالًا مع أبي. عاملناهم باحترامٍ بالغ وبكرمٍ وافر؛ قدَّمنا لهم الشاي والكعك، لكن لم نبع لهم شيئًا. كان هؤلاء تجارًا صغار، لكن

أبي، إذ أنمىٰ تجارته، فصار يتعامل مع تاجرٍ كبيرٍ في نيقولايف. كان يقول: "دعوه بعض الوقت. بقاؤه لن يكلِّفنا شيئًا".

بعد أسبوع، يصل خطابٌ، أو في بعض الأحيان برقيةٌ، من نيقولاييف، لعرضِ خمسة كوبيكات إضافية للبود الواحد من القمح، وهذا يعني ألف روبل كما قال أبي، وهذا لا يتكرَّر كثيرًا بالطبع. لكن أحيانًا كان العكس هو ما يحدث حين ينهار السعر. كانت القوىٰ الخفية للسوق جاسدةً في كل مكان، حتىٰ في يانوفكا. يعود أبي من نيقولاييف، ويقول مُتجهِّمًا: "يبدو أن.. ما اسم هذا البلد؟ آه، الأرجنتين، قد أرسلت الكثير من القمح هذا العام".

كان الشتاء موسمًا صافيًا في الريف، حيث يسود الهدوء كل شيءٍ فيما عدا الورشة والطاحونة. كوقودٍ للمدفأة، كنَّا نحرق الأغصان التي يجلبها الخَدَم في حِزمٍ ضخمة. كنت أستمتع بإطعام المدفأة الأغصان في فمها، وأراها تحترق داخله. ذات مرةٍ، جاء العم جريجوري، فوجدني مع أختي الأصغر في وسط غرفة الطعام التي عُبِّئت بدخانٍ المدفأةِ الأزرق. فُزِعت حين سمعت صياحه. أحيانًا كنَّا نبقىٰ وحدينا في البيت في أيامِ الشتاء، خاصةً في غيابِ أبي وانشغال أمي بكل الأعمال التي تقع بالتالي علىٰ كاهلها وحدها. وفي الغسق، كنت أجلس مع أختي الصغرىٰ علىٰ الأريكة مُلتصقَين ببعضِنا، خائفَين من أن نتحرَّك. وذات ليلةٍ، أتىٰ عملاقٌ يسبح في ظلامِ غرفة الطعام قادمًا من الصقيع بالخارج، يجر قدميه ذات الحذاءِ الضخم، ملتحفًا

بمعطفٍ هائلٍ ذي ياقةٍ كبيرة، وعلىٰ رأسه قبعةٌ عظيمة الحجم. يداه مدفونتان في قفازٍ واسع، ورقاقات ثلجٍ تعلق بلحيته وشاربه. هَدَرَ صوته في الظلام: "مساء الخير". كنَّا خائفين حتىٰ من أن نرد، وكلٌ منَّا يعتصر الآخر ذعرًا في ركن الأريكة. ثم أشعل الوحش المخيف عودَ ثقابٍ ورأينا وجهه أخيرًا؛ كان أحد جيراننا.

أحيانًا لم تكن الوحدة في غرفة الطعام مُحتَمَلة. كنت أفر إلىٰ الصالة الخارجية وأفتح الباب الأمامي رغم البرد، ثم أعتلي الحجر الكبير أمام العتبة، وأصرخ في الظلام: "ماشكا، ماشكا! تعالِ إلىٰ غرفة الطعام"، تكون ماشكا حينها مشغولةً في المطبخ، أو في حجرة الخَدَم، أو في أي مكانٍ آخر. تأتي أمي أخيرًا، ربما من الطاحونة، وتشعل مصباحًا وتوقد النار في السَمَاوَر[3].

كنَّا نجلس عادةً في غرفة الطعام حتىٰ يتسلَّل النومُ إلينا. كان الكثيرون يجيئون ويذهبون من وإلىٰ غرفة الطعام؛ يتبادلون مفاتيح، ويتفقون علىٰ أعمال، ويُحدِّدون ما سيفعلونه في اليوم التالي. كنت أنا وأختي الصغرىٰ أوليا، وأختي الكبرىٰ ليزا، والمربية كذلك، نعيش حياتنا الخاصة المستقلة عن الكبار، لكنهم كانوا يخنقونها في أحيانٍ كثيرة.

---

[3] – السَمَاوَر: وعاء نحاسي يُستَخدَم لغلي الماء وإعداد الشاي، وبه صنبورٌ قرب قاعدته لسكب الشاي. يشيع استخدامه في روسيا وأوروبا الشرقية وتركيا وإيران. (المترجم)

حين كنت أغمز لأختي الصغيرة، تشرع في الضحك بصوتٍ خفيض، فينظر إليها الكبار بلا مبالاة. أغمز ثانيةً، فتكبت هي ضحكتها تحت المشمَّع على الطاولة، فأصدم رأسها عليها. كنت أكرِّر ذلك كثيرًا، حتى أختي الكبرى صارت تفعل الأمر نفسه، رغم أنها كانت آنذاك في الثالثة عشر من عمرها، تتراوح بين الأطفال والكبار. وكنت حين يخرج ضحكي عن السيطرة، أنزل تحت الطاولة وأزحف بين سيقان الكبار الجالسين إليها، ثم أهرع إلى غرفتي وقد أخطو على ذيلِ الهرة من دون قصد. بعد ذلك أرجع إلى غرفة الطعام، وأعود الكرَّة من جديد. كانت أعصابي ترتخي ارتخاءً تامًّا حين تعلو قهقهاتي، حتى لا أتمكَّن من الإمساك بكوبٍ فارغ. رأسي وشفتاي وقدماي، كل بوصةٍ في جسمي كانت تهتز بالضحك. كانت أمي لتسألني: "ما خطبك؟"، فيلتقي العالمان - أعلى الطاولة وأسفلها - للحظةٍ عابرة عند هذا السؤال. كان الكبار ينظرون لصغارهم بأعينٍ متسائلة تكون ودودةً أحيانًا، وحانقةً غالبًا. ثم تعلو ضحكاتنا مرةً أخرى على حين غرة. تُخفِض أوليا رأسها تحت الطاولة مجددًا، وأُلقي بنفسي على الأريكة، وتعض ليزا شفتها العليا، وتتسلَّل المربية خارجةً من الباب.

يصيح الكبار: "اذهبوا إلى النوم".

لكننا لا نفعل ما نؤمر به. كنَّا نختبئ في الأركان، خائفين حتى من النظر إلى بعضنا البعض. كان يأتي أحدهم ليحمل ليزا ويأخذها لتنام، لكنني عادةً كنت أنام على الأريكة، ثم يأتي أحدهم ليحملني بين

ذراعيه إلىٰ غرفتي. وربما في هذه اللحظة كنت أصرخ إذ أتخيَّل نفسي أركض من كلابٍ متوحِّشةٍ تهاجمني، أو أن فحيح ثعابينٍ أسمعه من تحتي، أو أن قطَّاع طرقٍ يخطفونني في الغابة. كانت كوابيسي الطفولية في تلك اللحظات تفرض نفسها علىٰ واقع الكبار. كانوا يُطمئونني في الطريقِ إلىٰ السرير، ثم يربت أحدهم علىٰ جسدي الصغير ويطبع قُبلةً علىٰ وجنتي. هكذا كان الحال؛ من الضحكِ إلىٰ النوم، ثم من الكوابيسِ إلىٰ اليقظة، ثم إلىٰ النومِ علىٰ فراشٍ وثيرٍ من الريش في الغرفة الدافئة.

كان الشتاء موسمًا عائليًا بامتياز، فبالكاد كان أبي وأمي يغادران المنزل، ويعود أخي الأكبر وأختي الكبرىٰ من مدرستيهما في رأس السنة. وفي أيام الأحد، كان إيفان فاسيلييفيتش يأتي نظيفًا حليقًا، وفي يديه مقصٌ ومشط، ليقص أولًا شعرَ أبي، ثم ساشا، ثم شعري.

كان ساشا يطلب منه: "هل يمكنك أن تقص لي قَصَّة دي لا كابول؟"، فينظر إليه الجميع، فيقول إنه في إليزافيتجراد كان حلاقٌ قد قصَّ له هذه القَصَّة، لكن في اليوم التالي وبَّخَه المراقب في المدرسة بشدة.

بعد الانتهاء من الحلاقة، نجلس لتناول العشاء؛ أبي وإيفان فاسيلييفيتش علىٰ الكرسيَّين ذوي الأذرع المتواجهين علىٰ طرفيّ الطاولة، ونحن - الأطفال - علىٰ الأريكة، وأمي في مواجهتنا مباشرةً. كان إيفان فاسيلييفيتش يتناول الطعام معنا حتىٰ تزوَّج. في الشتاء، كنَّا

نأكل ببطء، ونظلُ نتحدَّث بعد الانتهاء من الطعام، بينما يدخِّن إيفان فاسيلييفيتش وينفث حلقاتٍ مُكتمِلةً من الدخان. أحيانًا كان ساشا أو ليزا يأخذان في القراءةِ بصوتٍ مرتفع، ويقوم أبي ليُطعِم المدفأة بعض الأغصان الإضافية. ونادرًا في تلك الأمسيات ما كنت أتبارىٰ مع أختي في ورق اللعب، وكنَّا نزعجهم في أثناء ذلك بكثيرٍ من الضوضاء والضحك، وأحيانًا ببعض الشجار بيننا. كنَّا نجد من الممتع أن نغش أبي في اللعب، إذ لم يكن يلعب بانتباه، ويضحك حين يخسر. وفي المقابل، كانت أمي أفضل منه في اللعب، وبتركيزٍ أكثر، فيما كانت تراقب ساشا لترىٰ إن كان يغشها.

كانت يانوفكا تبعد عن أقرب مكتب بريد بحوالي ثلاثة وعشرين كيلومترًا، وعن السكك الحديدية بخمسة وثلاثين تقريبًا. ومن هناك، تفصلنا مسافةٌ كبيرة عن المكاتب الحكومية والمحال التجارية والمركز الحضري نفسه، ومسافةٌ أكبر عن العالم الواسع بأحداثه الجسام. كانت الحياة في يانوفكا محكومةً بالإيقاع الرتيب للكدح في الحقول. ما من شيءٍ قد يكون ذا أهميةٍ بقدر سعر الحبوب في السوق العالمي. لم نكن نرىٰ أية صحف أو مجلات في الريف تلك الأيام. لم يحدث أن رأيت هذه الأشياء إلا حين دخلت المدرسة الثانوية. وكنَّا نتلقىٰ الخطابات فقط في مناسباتٍ خاصة. أحيانًا كان جارٌ لنا يجد خطابًا مُرسَلًا إلينا في بوبرينيتز، ويحمله في حقيبته لأسبوعٍ أو اثنين. كان الخطاب حدثًا، أما البرقية فكارثة. قال لي أحدٌ ما إن البرقيات تأتي

عبر الأسلاك، لكنني شاهدت بأم عينيْ رجلًا علىٰ ظهرِ حصانٍ يُحضر من بوبرينيتز برقيةً دَفَعَ أبي من أجلها روبلين وخمسين كوبيك، ناهيكم عن أن البرقية ليست إلا قصاصة من الورق مثلها مثل الخطاب. كانت هناك كلماتٌ مكتوبةٌ عليها بقلمٍ رصاص. هل نفختها الريح نحونا عبر سلك؟ قيل لي إنها تأتي بالكهرباء، وهذا ما زاد الطين بلة. ذات مرةٍ، شَرَحَ لي العم أبرام الأمر بعنايةٍ، قائلًا: "التيار يأتي عبر السلك، ويضع علاماتٍ علىٰ شريط، ردِّد ما قلته"، فردَّدت: "تيار عبر سلك. علامات علىٰ شريط".

"هل فهمت؟".

"نعم فهمت، لكن كيف يخرج الخطاب من كل هذا؟".

"الخطاب يأتي بشكلٍ منفصل".

حيَّرني هذا الرد لوهلةٍ، فسألت: "ولماذا يحتاجون تيارًا إذا كان الخطاب يأتي في يدِ رجلٍ علىٰ ظهرِ حصان؟". هنا، بدأ العم ينفذ صبره، فصاح: "أوه! دع الخطاب وشأنه الآن"، ثم قال: "أنا أكلمك عن البرقيات، فتعود بنا إلىٰ الخطابات!". وهكذا ظلَّ السؤالُ دون إجابة.

كانت امرأةٌ من بوبرينيتز، تُدعىٰ بولينا بيتروفنا، تأتي لقضاءِ بعض الوقت معنا. كانت ترتدي أقراطًا طويلة، وأتذكَّر أن جبهتها كانت مُجعَّدة. رجعت بها أمي ذات مرةٍ إلىٰ بوبرينيتز واصطحبتني معها.

وحين مُررنا بالرابية التي عندها نكون قد اجتزنا أحد عشر كيلومترًا، ظَهَرَ صفٌ من أعمدة التلغراف وهذه الأسلاك مُعلَّقة بينها. سألت أمي: "كيف تأتي البرقيات؟"، فردَّت بقلةِ حيلة: "اسأل بولينا بيتروفنا وهي ستشرح لك".

فأوضحت بولينا: "العلامات علىٰ الشريط تعبِّر عن حروف، وموظف البرق ينسخ الحروف علىٰ ورقة، والورقة تُرسَل بواسطة رجلٍ علىٰ ظهر حصان".

علىٰ الأقل كان هذا مفهومًا لي.

لكنني لم أكتف بذلك، فسألت ناظرًا إلىٰ الأسلاك: "وكيف يتحرَّك التيار دون أن يراه أحد؟".

فأجابت: "التيار يتدفَّق بالداخل. كل هذه الأسلاك مثل الأنابيب، والتيار يجري عبرها من داخلها".

كان هذا أيضًا مفهومًا لي، فارتضيت بهذه الإجابة لفترةٍ طويلةٍ لاحقة. بدا لي التيار الكهرومغناطيسي، الذي شرحه لنا مُدرِّس الفيزياء بعد ذلك بحوالي أربعة أعوام، أقل منطقيةً بكثير.

عاش أبي وأمي حياةً شاقة لم تخل من خلافات، لكنها كانت سعيدةً في مجملها. كانت أمي من عائلةٍ من سكَّان البلدة الذين ينظرون بتعالٍ للفلاحين ذوي الأيدي الخشنة. أما أبي، فكان في شبابه أنيقًا رائعًا، ذا وجهٍ رجولي ينضح بالحيوية. نَجَحَ في جمع كل ما يقع تحت

يديه، ليتمكَّن لاحقًا من شراء يانوفكا بكاملها. أما السيدة التي أُخِذَت من المدينة للعيش في السهولِ المعزولة، فقد وجدت من الصعب عليها التكيُّف مع الظروف الصعبة للعمل في الحقول، لكنها لم تتخل قط عن أعمالها طيلة خمسة وأربعين عامًا. ومن الأطفال الثمانية الذين أنجبتهم، نجا أربعة فقط. كنت أنا الخامس في الترتيب. مات أربعة بعد فتراتٍ قصيرة من ولادتهم لإصابتهم بالديفتريا والحمىٰ القرمزية، وكانت تلك حالات وفاةٍ غير ملحوظة، تمامًا كحيوات الأربعة الناجين. أخذت الأرض والماشية والدواجن كل وقت الأبوين اللذين لم يُتح لهما وقتٌ كبيرٌ للاعتناء بأبنائهما. توالت المواسم والفصول لتنحي الرعاية الأسرية جانبًا. لم يشعر الأبناء بالحنان، خاصةً في السنواتِ المبكرة من حياتهم، لكن كانت هناك علاقة قوية من الرفاقية بين أبي وأمي.

بمجرد أن تجتاز أمي عتبة الدار، عائدةً من الطاحونة، مُغطاةً بالغبار الأبيض، كان أبي يصيح: "اجلب لأمك كرسيًا".

وكانت هي قبلَ أن تطأ قدماها الدار تصيح آمرةً ماشكا: "اوقدي النار علىٰ السَمَاوَر بسرعة. سيدك سيعود من الحقل قريبًا".

كان أبي بلا شك متفوقًا علىٰ أمي، سواء في الثقافة أو في الشخصية. كان أكثر تحفُّظًا وأكثر لباقةً. كانت عيناه ثاقبتَين، للأشياء وللناسِ علىٰ حدٍّ سواء. كانا يشتريان القليل جدًا من الأغراض، خاصةً خلال السنوات الأولىٰ من حياتي، فقد كانا يعرفان كيف

يدَّخران كل بنس. لم يخطئ أبي قط فيما كان يشتريه: ملابس، قبعات، أحذية، أحصنة، ماكينات؛ كان دائمًا يعرف أين يضع ماله. قال لي ذات مرةٍ: "أنا لا أحب المال"، هكذا كما لو كان يعتذر عن بخله، ثم: "لكنني أحبه قليلًا حين يختفي تمامًا. من السيء أن تحتاج المال ولا تجده". كان يتحدَّث بخليطٍ ركيك من الروسية والأوكرانية، مع أن الأوكرانية هي ما كانت غالبة. كان يقيِّم الناسَ من خلال تصرفاتهم، ووجوههم وعاداتهم. وكانت أحكامه دائمًا في محلها.

قال لأحد الضيوف مرةً: "لا أحب تلميذك هذا. اعترف، ألا تظن أنت نفسك أنه أحمق؟". شعرنا بالحرج لأجل هذا الضيف، لكننا كنَّا نعلم في قرارةِ أنفسنا أن أبانا علىٰ حق. ومن مجرد زيارةٍ لعائلةٍ في منزلها، لخَّص أبي لنا وضعهم الأسري كاملًا بمنتهىٰ الصحة والدقة.

بعد حملِ كل هؤلاء الأطفال، وكل هذا الجهد الجهيد الذي كانت تبذله في الطاحونة والحقل وغيرهما، سقطت أمي مريضةً، وذهبت لزيارةِ طبيبٍ في خاركوف. كانت تلك الرحلة حدثًا كبيرًا أعددنا له الكثير من التجهيزات. ذهبت أمي بإمداداتٍ من المال، والزبد، والرقائقِ المُحلَّاة، والدجاج المقلي، ونحو ذلك. كان أمامها الكثير من التكاليف؛ زيارة الطبيب وحدها تكلَّفَت ثلاثة روبلات. كان أبي وأمي يتحدَّثان دائمًا عن ذلك لبعضهما وللضيوف بتعبيرٍ علىٰ وجهيهما يوحي باحترامهما البالغ لمنافع العلم، كما يوحي أيضًا بالندمِ علىٰ التكلفة الباهظة، وبفخرهما أن تمكَّنا من دفع هذا المبلغ

غير المسبوق. انتظرنا عودة أمي بفارغ الصبر، وعادت بثوبٍ جديدٍ بدا أعظم شأنًا من أن ترتديه في غرفة الطعام في يانوفكا.

حين كنَّا أطفالًا صغار، كان أبي أهدأ وألطف معنا من أمي، التي كانت في أغلب الأوقات تفقد أعصابها في تعاملها معنا، وأحيانًا دون سببٍ يُذكر، كما لو كانت تُخرِج فينا إجهادها وكدحها وكدر إخفاقاتها ربما. كنَّا دائمًا نجد من الأنسب طلب ما نريد من أبي وليس أمي. لكن مع مرور السنين، صار أبي أكثر صرامةً، ويرجع هذا بالأساس إلىٰ المصاعب التي واجهها في الحياة، حيث الانشغالات التي تزايدت مع تنامي أعماله، ومن ثم جاءت الأزمة الزراعية في ثمانينيات القرن التاسع عشر لتزيد الطينة بلةً، ناهيكم عن الإحباطات التي عايشها مع أبنائه.

كانت أمي تحب القراءة في الشتاء، حين يجتاح الثلج يانوفكا قادمًا من كل جانبٍ من السهل، ليرتفع إلىٰ مستوىٰ النوافذ. كانت تجلس علىٰ مقعدٍ ذي ذراعين في غرفة الطعام، وتُمدِّد ساقيها علىٰ مقعدٍ آخر أمامها. وحين يتزايد سقوط الثلج، كانت تجلس علىٰ مقعدِ أبي إلىٰ جوارِ النافذة الصغيرة التي صار الثلج يحشو حوافها، وتقرأ بهمسٍ مسموعٍ من روايةٍ بالية جلبتها من المكتبة في بوبرينيتز، متتبعةً الأسطر بإصبعها. كانت أحيانًا تتعثَّر في قراءةِ بعض الجمل الطويلة، وأحيانًا كانت ملحوظةٌ يُدلي بها أحدُنا تسقط ضوءًا جديدًا بالكامل علىٰ

القصة التي هي بصددها. لكنها علىٰ أيةِ حال تستمر في القراءة بمثابرةٍ وبلا كلل، وكنَّا نسمع همسها الرتيب علىٰ بُعدٍ من الردهة الأمامية.

تعلَّم أبي كيف يتهجَّأ الحروف عجوزًا، علىٰ الأقل من أجل أن يتمكَّن من قراءةِ عناوين كتبي. تابعته بحماسةٍ في برلين، في العام 1910، حين حاول بتحفُّظٍ أن يفهم كتابي عن الاشتراكية الديمقراطية الألمانية.

اندلعت ثورة أكتوبر حين كان أبي بالفعل قد صار ميسورًا غنيًا. توفيت أمي في العام 1910، لكن أبي عاش ليشهد حُكم السوفييتات. وفي أوار الحرب الأهلية، التي كانت مستعرةً بصورةٍ خاصة في الجنوب وصاحبتها الكثير من التغييرات في الحكومة، اضطر الرجلُ العجوز أن يقطع مئات الأميال سيرًا علىٰ الأقدام ليأوي إلىٰ أوديسا. كانت قوات الحرب الأحمر تمثِّل تهديدًا له لأنه غني، بينما اضطهده الحرس الأبيض لأنه أبي. وبعد أن أجلت القوات السوفييتية الجيش الأبيض من الجنوب، تمكَّن من المجيء إلىٰ موسكو. كان مفوَّض الشعب لشئون الزراعة آنذاك، تزيوروبا، يستمتع بالحديثِ معه حولَ مواضيع زراعية. مات أبي بالتيفوس في ربيع 1922، بالضبط في الوقت الذي كنت أقرأ فيه تقرْيري أمام المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية.

أهم مكان في يانوفكا كان هو الورشة، حيث عمل إيفان فاسيليفيتش جريبين. جاء إلىٰ العمل حين كان في العشرين من عمره،

في نفس العام الذي وُلِدت فيه. كان ينادي جميع الأطفال بـ"حضرتك"، أما نحن فكنَّا نقول له "أنت". وحين جاء وقت تسجيله بالخدمة العسكرية، ذهب أبي معه وقدَّم رشوةً لأحدٍ هناك فظلَّ جريبين في يانوفكا. كان أنيقًا رائعًا، وموهوبًا. كان شاربه أسود مائل إلىٰ الحُمرة، ولحيته مُهذَّبة علىٰ الطراز الفرنسي، وكانت معارفه التقنية شاملة؛ كان يُفكِّك المُحرِّكات ويبنيها من جديد، ويُصلِح الساعات، ويصنع عرباتٍ للتجوُّل، ويضبط نغمات البيانو، ويُنجِّد الأثاث، ويُركِّب أجزاء الدرَّاجة أو يصنعها من جديد. تعلَّمت قيادة الدرَّاجات، حين كنت بين المدرسة التمهيدية والابتدائية، علىٰ واحدةٍ من صنعه. كان جيراننا الألمان يجلبون محاريثهمْ كي يصلحها، ويدعونه ليذهب معهم لشراء آلةٍ لدرس الحنطة أو مُحرِّكٍ بخاري. كان الناس يأتون لأبي طلبًا لنصيحته في الزراعة، ولإيفان فاسيلييفيتش في الميكنة. كان هناك أيضًا معاونون له وصبيةٌ يتدرَّبون علىٰ يديه ويساعدونه في الورشة. وكنت أنا، من زوايا عدة، تلميذًا ضمن هؤلاء.

كان يُسمَح لي أحيانًا بدق المسامير أو تركيب البراغي. كنت أسعد بهذا العمل وبتأثيره المباشر علىٰ يديّ. كنت أحاول أحيانًا طحن ومزج بعض المواد لاستخدامها في التلوين، بواسطة حجرٍ دائريٍ ناعم، لكنني سرعان ما أشعر بالتعب، وأظل أسأل ما إذا كان العمل قد انتهىٰ أم ليس بعد. كان إيفان فاسيلييفيتش يُقلِّب المزيج الكثيف

بإصبعه، ثم يهز رأسه أن ليس بعد، فأطلب من أحد الصبية أن يأخذ الحجر ويقوم بما أفعل.

كان إيفان فاسيلييفيتش يجلس أحيانًا علىٰ صندوقٍ في الركن خلف طاولة العمل، فيما تظل واحدةٌ من أدواته في يده. يُدخِّن ويُحدِّق في الفراغ؛ ربما يتأمَّل شيئًا أو يتذكَّر أمرًا، أو ببساطة يسترخي دون أن يُفكِّر في شيء. اعتدت في مثل ذلك الوقت أن أجلس إلىٰ جواره، وبرفقٍ ألفُّ شاربه الكستنائي الكثيف حول إصبعي، أو أتفحَّص يده، تلك اليد الحرفية الأصيلة التي لا تخطئ. كان جلد يديه مُغطىٰ تقريبًا ببقعٍ سوداء دقيقة انطبعت عليها من أحجار الطحن. كانت أصابعه عنيدة كالجذور، لكن ليست مُتحجِّرة، بل مطواعة مرنة، وعريضة عند الأطراف، وإبهامه يميل إلىٰ الخلف علىٰ هيئة قوس. كان كل إصبعٍ واعيًا بذاته؛ يتعايش ويتصرَّف من تلقاءِ نفسه، لكن كلهم معًا كانوا يشكِّلون وحدةَ عملٍ واحدة متجانسة. كنت لا أزال صغيرًا، لكنني كنت أدرك جيدًا أنٍ ما من يدٍ أخرىٰ يمكن أن تقبض بين أصابعها مطرقةً أو كماشةً مثلما تفعل هذه اليد. كانت ندبةٌ غائرة تلف إبهامه اليسرىٰ في شكلٍ دائري. في يوم ولادتي، أوشك إيفان فاسيلييفيتش أن يقطعها بالخطأ بضربةٍ من بلطةٍ صغيرة في يده الأخرىٰ. تعلَّقت الإبهام بالإصبع بجزءٍ صغيرٍ متصلٍ من الجلد. رآه أبي حينها وهو علىٰ وشك قطع هذا الجزء الجلدي واستئصال الإبهام بالكامل، فصاح فيه: "انتظر، لا تفعل. سيلتئم إصبعك وينمو من جديد".

فسأله، وقد نحّىٰ البلطةَ جانبًا: "سينمو مجددًا، هل تعتقد ذلك؟".
لكن الإصبع نما مجددًا بالفعل، وصار يستخدمه جيدًا، إلا أنه لم يعد كأخيه في اليد الأخرىٰ.

صنع إيفان فاسيلييفيتش ذات مرةٍ بندقية خرطوش من بندقية بيردان بالية، ثم مارَسَ مهاراته في الرماية. حاول الجميع إطفاء شمعةٍ بالتصويبِ علىٰ فتيلها من مسافاتٍ متباينة. لم يفلح أحدٌ في ذلك. وبينما مرَّ بهم أبي، رَفَعَ البندقيةَ إلىٰ كتفه، فارتعشت يده ممسِكةً إياها دون ثبات، لكنه نجح من أول محاولة. كان نظره حادًا، وإيفان فاسيلييفيتش كان يعلم ذلك جيدًا. كانت علاقتهما ببعضٍ ودودة دون وقوعِ أية مشادات، مع أن أبي كان أحيانًا يوبِّخ العاملَ الآخر حال لاحَظَ خللًا هنا أو هناك.

لم أكن أجلس في الورشة عاقدًا ذراعيّ دون عملٍ أقوم به. كنت أسحب مقبض المنفاخ الذي صنعه إيفان فاسيلييفيتش لغرضٍ يقوم به، فيما كانت المروحة مخفيةً في العليَّة، وقد فوجئ الجميع حين رأوها لأولِ مرةٍ. كنت أقلِّب المخرطة حتىٰ يرهقني التعب، خاصةً حين أخرط كرات الكروكيت من خشب السنط. كانت كل مناقشة مع إيفان فاسيلييفيتش في الورشة أكثر إثارةً مما قبلها. لم يكن الانضباط سائدًا دائمًا هناك، أو بالأحرىٰ لم يكن سائدًا هناك علىٰ الإطلاق. كانت الآفاق تتفتَّح أمامي هناك في كل ساعةٍ أقضيها معه. أما فوما، فقد كان يحكي قصصًا عن الأرض التي عمل فيها سابقًا، وعن مغامراته

مع السادة والسيدات هناك. لابد أن أقول إن دور فوما لم يكن أساسيًا في الورشة. وفيليب، الطحَّان، كان يستطرد في الحكي عن الحياة في الجيش. وإيفان فاسيليفيتش كان يطرح أسئلةً تارةً، ويقاطعهم تارةً أخرى، أو يُكمِل حكاياتهم.

أما ياشكا، الإطفائي، فكان عابسًا فظًا ذا شعرٍ أحمر، في الثلاثين من عمره، ولم يستمر في وظيفةٍ لفترةٍ طويلة. كان أحيانًا يختفي في الربيع، أو في الخريف، ويعود بعد ستة أشهر. لم يكن يشرب كثيرًا، بل دائمًا وطوال الوقت. كان شغوفًا بالصيد، لكنه باع بندقيته من أجل الشراب.

جاءت المربية ماشكا وقالت لنا: "وصل إجنات خاصتنا، لكن دونكا ليست هنا. عادت لتقضي العيد مع أهلها".

كنَّا نُلقِّب الإطفائي إجنات بـ"إجنات خاصتنا"، للتفريق بينه وبين أحدبٍ يحمل نفس الاسم. ذهب "إجنات خاصتنا للتسجيل في الخدمة العسكرية، وقاس إيفان فاسيلييفيتش بنفسه عرض صدره وقال: "لن يقبلونه في الجيش بأي حال"، وأودعته لجنة الفحص في المستشفى لمدة شهرٍ كامل لإجراء كشوفاتٍ طبية. وهناك، تعرَّف إجنات إلى عاملٍ من المدينة، ومن ثم جرَّب حظه لاحقًا في العمل في أحد المصانع هناك. وحين عاد، كان يرتدي حذاءً مدينيًا ومعطفًا من جلد الغنم مُزخرَفًا بألوانٍ مختلفة. قضى إجنات طوال اليوم الذي عاد

فيه في الورشة يحكي للرجال عن المدينة وعن العمل وظروفه، والآلات، والأجور، وكل ما شهده هناك.

تأمَّلَ فوما طويلًا، ثم قال: "بالطبع، فهذا مصنع".

ثم ردَّ فيليب: "المصنع يختلف عن الورشة"، فنظر الجميع وكأنهم يُفكِّرون فيما هو أبعد من الورشة.

سأل فيكتور والاهتمام باديٌ عليه: "هل هناك الكثير من الآلات في المدينة؟".

فأجابه إجنات: "وكأنها غابةٌ من الآلات".

استمعت إليهم بآذانٍ صاغية، وارتأيت في مخيلتي مصنعًا فيه كثير من آلاتٍ بدت كأشجارِ غابةٍ كثيفة؛ آلاتٌ علىٰ اليمين وآلاتٌ علىٰ اليسار، وإلىٰ الأمام والخلف، وفي كل مكان. وفي منتصف الصورة، تخيَّلت إجنات بحزامٍ جلديٍ ضيق حول خصره. عاد إجنات من المدينةِ ممسكًا بساعةٍ مرَّرها بين الرجال في الورشةِ من يدٍ ليد. وحين التقىٰ أبي، سار الاثنان في الساحةِ بينما كنت معهما، أهرولِ تارةً إلىٰ جانبِ أبي، وتارةً إلىٰ جانب إجنات.

سأله أبي: "حسنًا، وكيف تعيش هناك؟ هل تشتري اللبن والخبز؟ هل استأجرت غرفةً؟".

فأجابه إجنات: "المؤكَّد هو أن عليك شراء كل شيءٍ بلا استثناء. لكن الأجور ليست كما هي هنا".

"أعلم أنها ليست نفسها، لكنها تذهب جميعًا في شراء الطعام".

فأجاب إجنات بنبرةٍ شجاعة: "كلا، تمكّنت على مدار ستة أشهر من ادخارِ مبلغٍ من المال ابتعت به بعض الملابس وساعة. ها هي في جيبي"، وأخرجها من جيبه مرةً أخرىٰ. لم يقل أبي شيئًا، لكنه بعد فترةٍ من الصمت سأله:

"هل كنت تشرب يا إجنات؟ لابد أن الأمر لم يكن صعبًا في وجود الكثيرين ممن يمكن أن يرشدوك إلىٰ طريقِ الخمر".

"ولماذا أشرب؟ لم أكن أفكِّر في الفودكا حتىٰ".

وهنا، ظهرت أمي، وسألته: "وهل ستأخذ دونكا معك إلىٰ هناك يا إجنات؟".

فظهرت علىٰ وجهه ابتسامةٌ توحي بشعوره بالذنب ولم يرد.

فردَّت أمي نيابةً عنه: "فهمت، الآن فهمت"، وتابَعَت قائلةً: "إذن فقد وجدت ثمة عاهرةً في المدينة! اعترف أيها النذل". وهكذا رَحَلَ إجنات مرةً أخرىٰ عن يانوفكا.

كان محظورًا علينا، نحن الأطفال، الذهابُ إلىٰ غرفة الخَدَم، لكن من قد يمنعنا حقًا من ذلك؟ كان هناك دائمًا ما هو جديد هناك. كان الطبَّاخة امرأةً ذات وجنتين عاليتين تغمرا أنفها. أما زوجها، فكان رجلًا عجوزًا مُصابًا بالشللِ في جانبٍ من وجهه. وكانت لديهما طفلةٌ

جميلة في الثامنة من العمر لها عينان زرقاوتان وشعرٌ أشقر. اعتادت هذه الصغيرة أن ترىٰ أباها وأمها يتشاجران إلىٰ الأبد.

في أيام الأحد، كانت الفتيات تجلسن لاصطياد القمل من شعرِ الأولاد، أو من شعرهن. وعلىٰ كومةٍ من القش في غرفة الخَدَم، كانت الأختان تاتيانا الكبرىٰ وتاتيانا الصغري تجلسان جنبًا إلىٰ جنب، ويجلس بينهما صبي الاسطبل، أفاناسي، وهو ابن المتعهِّد بود، وأخو الطبَّاخ باراسكا، ماثلًا برأسه في مواجهة تاتيانا الكبرىٰ.

كان أفاناسي هذا ذو الشعر الأحمر، بالاشتراكِ مع صبيٍ آخر يُدعىٰ موتوزوك، يضايقاني كثيرًا. وإذا صادَفَ أن أتيت أثناء إعداد السجق أو العصيدة، كانا يصيحان بضحكٍ صاخب: "تعال يا ليوفا وتناول عشاءك معنا"، أو "لماذا لا تطلب من أمك أن تعطينا قطعةً من الدجاج يا ليوفا؟". كنت أشعر بالحرج دون أن أرد. وفي عيدِ الفصح، تعوَّدَت أمي أن تخبز الكعك وتلوِّن البيض لهم. وكانت العمة رايسا فنانةً في تلوين البيض. وفي أحد الأعياد، جلبت معها سلةً من البيض المُلوَّن من جروموكلي، ومنحتني منهم بيضتين. اعتدنا أن نُدحرِج البيض خاصتنا علىٰ مزالقٍ في القبو لنرىٰ أيهما أقوىٰ. وذات مرةٍ، لم يتبق في النهايةِ إلا أفاناسي وأنا.

قلت له: "أليست جميلة هذه البيضة؟"، فردَّ بشيءٍ من اللا مبالاة: "بلىٰ، إنها جميلة"، ثم: "دعنا نرىٰ أيهما أقوىٰ".

لم يكن بوسعي أن أرفض التحدي، فأصابها أفاناسي فتشقَّقت قشرتها، ومن ثم قال: "إذن فهذه لي"، فأعطيته إياها طواعيةً، وشرعنا نفعل الشيء نفسه مع بيضةٍ أخرىٰ. فاز أفاناسي مرةً أخرىٰ وأخَذَ البيضةَ الثانية.

التقط أفاناسي البيضتين غنيمةً له وذَهَبَ دون أن ينظر خلفه. نظرت إليه في دهشةٍ وكنت علىٰ وشكِ البكاء بعد أن شعرت بقلةِ حيلتي.

في الورشةِ، والمطبخ، والباحة الخلفية، كانت الحياة مختلفةً تمامًا، من حيث رحابتها وتنوُّعها، عن تلك التي عشتها مع عائلتي. شريط الحياة لا ينتهي، ولم أكن آنذاك إلا في بداياته الأولىٰ. لم يكن أحدٌ يلحظ وجودي حين كنت صغيرًا، فكانت الألسنة تُطلَق بحريةٍ، خاصةً في ظل غيابِ إيفان فاسيلييفيتش والمتعهِّد اللذين كانا مواليَين للأسياد. وفي الورشةِ أو في المطبخ، كنت أرىٰ أبوايَ وأقاربي وجيراني بعينٍ مختلفةٍ مما يقول الناسُ من حولي. ستظل الكثير من المحادثات التي اخترقت أذنيَّ حين كنت صغيرًا عالقةً في ذاكرتي طالما حييت. وربما أرست الكثيرُ منها أساسات مواقفي تجاه المجتمعِ اليوم.

الفصل الثاني

جيراننا ومدرستي الأولى

علىٰ بُعد كيلومترٍ أو ما يزيد من يانوفكا، وقعت أراضي وأملاك آل ديمبوفسكي. استأجرَ أبي منهم بعض قطع الأراضي، وكان مرتبطًا بهم بالكثير من الأعمال. كانت المالكة هي ثيودوسيا أنطونوفنا، تلك المرأة البولندية العجوز التي عملت في السابق مربيةً. بعد وفاة زوجها الغني الأول، تزوَّجَت مدير أعمالها، كاسيمير أنطونوفيتش، الذي كان يصغرها بعشرين عامًا. لم تعش ثيودوسيا أنطونوفنا مع زوجها الثاني إلا بضع سنوات، فاستمر هو بعد وفاتها في إدارة الأراضي والممتلكات. كان كاسيمير أنطونوفيتش رجلًا طويلًا ذا لحيةٍ، وكان صاخبًا يثير البهجةِ من حوله. كان أحيانًا يحتسي الشاي معنا علىٰ الطاولة البيضاوية الكبيرة، وبضجيجٍ كبير يشرع في سردِ نفس الحكاية السخيفة مرارًا، مُكرِّرًا نفس الكلمات، مُشدِّدًا عليها بطقطقة أصابعه.

كان لدىٰ كاسيمير أنطونوفيتش بعض خلايا النحل علىٰ مسافةٍ كبيرةٍ من الاسطبل وحظائر الأبقار، فالنحل لا يحتمل رائحة الأحصنة. كان النحل يصنع العسل من أشجار الفاكهة، والسنط الأبيض، واللِفت الشتوي، والحنطة السوداء. ومن وقتٍ لآخر، كان يجلب معه طبقَين يغطيهما بمنديلين وفي كلٍ منهما قطعٌ من شمعٍ يسيل منه عسلٌ ذهبيٌ صافٍ.

وذات يومٍ، ذهبت مع إيفان فاسيليفيتش إلىٰ كاسيمير أنطونوفيتش لنجلب بعض أزواجٍ من الحمام لنربيهم. وفي غرفةٍ في زاويةِ المنزل الفارغ الكبير، قدَّمَ لنا الشاي والعسل والزبد وخثارة اللبن في أطباقٍ كبيرةٍ رطبة. جلست أشرب الشاي من صحنِ الفنجان أستمع إلىٰ محادثتهما سويًا. همست إلىٰ إيفان فاسيليفيتش: "ألن نتأخر هكذا؟"، فردَّ: "لا، انتظر قليلًا. لابد أن نتمهَّل بعض الوقت حتىٰ يستقر الحمام في العليَّة. إنهم لا يزالون في الأعلىٰ كما ترىٰ". سئمت الانتظار، وفي النهاية صعدنا أعلىٰ مخزن الحبوب، حاملين فانوسًا للإنارة. صاح كاسيمير أنطونوفيتش ناحيتي: "خُذ حذرك الآن". كانت العليَّة طويلةً ومُظلِمة، وعوارضها الخشبية تتقاطع في كل اتجاه. شممت رائحةً قويةً لفئرانٍ وطيورٍ ونحل، وكانت خيوط العنكبوت في كل ركنٍ وزاوية.

كان بإمكان الكثيرين في ذلك الوقت، ببعضِ الدهاء، حتىٰ وإن كان دهاءً إجراميًا، أن يُحوِّلوا قرشًا ممسوحًا إلىٰ ثرواتٍ طائلة. وقد شبَّ الجيل الثاني من هؤلاء كشريحةٍ أرستقراطية، ببعض المعرفة بالفرنسية، وبغرفٍ للعب البلياردو في منازلهم المترفة. ومن ثم اندلعت الأزمة الزراعية في الثمانينيات، تلك التي حملتها إليهم المنافسة العابرة للأطلسي، لتضربهم بلا شفقة، فأخذوا في التساقط كأوراقِ شجرٍ ذابلة. أما الجيل الثالث، فكان كثيرٌ ممن ينتمون له

أنصاف فاسدين، وأوغاد لا قيمة لهم، وعَجَزَة فاشلين، وغير متزنين، وغير ناضجين.

تجسَّدَت ذروة الانهيار الأرستقراطي في عائلة غيرتوبانوف. كانت قريةٌ كبيرةٌ ومقاطعةٌ بأكملها تحملان اسم هذه العائلة. الريف بأسره كان ملكًا لهم في وقتٍ من الأوقات. لكن لم يتبق في حوزة الوريث الأكبر سوىٰ ألف فدان فقط، وحتىٰ تلك الأفدنة كانت تُرهَن مرارًا. استأجَرَ والدي هذه الأرض، وكان الإيجار يودع في البنك مباشرةً. عاش غيرتوبانوف علىٰ كتابةِ العرائض والشكاوىٰ والخطابات للفلاحين. وحين كان يأتي لزيارتنا، كان يسرق مكعبات السكر في أكمامه، وكذلك زوجته كانت تفعل الأمر نفسه، وبشفتين يسيل عليهما اللعاب كانت تحكي لنا قصصًا عن شبابها، وأقنانها الذين خدموها، والبيانو الضخم الذي اعتادت اللعب عليه، وحريرها وعطورها. شبَّ ولداها أُميَّين تقريبًا، وكان أصغرهما، فيكتور، صبيًا لدينا في الورشة.

عائلةٌ يهوديةٌ أخرىٰ من مُلَّاك الأراضي كانت تعيش علىٰ بُعدِ حوالي سبعة كيلومترات من يانوفكا. كان لقبهم يبدأ بحرفِ الميم وينتهي بالمقطع "سكي". كانوا غريبي الأطوار؛ مجانين في الأغلب. كان والدهم، مويسي خاريتونوفيتش، يبلغ الستين من عمره، وكان مُتميِّزًا بتلقيه تعليمًا أرستقراطيًا. كان يتحدَّث الفرنسية بطلاقة، ويلعب علىٰ البيانو، ويعرف شيئًا ما عن الأدب. كانت يده اليسرىٰ ضعيفة،

لكن اليمنىٰ كانت مناسبة بما يكفي ليلعب في حفلٍ موسيقي، كما قال هو بنفسه. كانت أظافره الطويلة المُهمَلة تُصدِر صخبًا كصخبِ الصنجات لدىٰ لعبه علىٰ البيانو الصغير لدينا في المنزل؛ يبدأ بـ"بولينيز" لأوجينسكي، ثم ينتقل علىٰ نحوٍ غير ملحوظٍ إلىٰ "رابسودي" لليزست، وفجأةً يجنح إلىٰ "مايدن براير". ولم تكن محادثاته تقل شرودًا عن موسيقاه. كان كثيرًا ما يتوقَّف في وسط اللعب لينهض ويذهب إلىٰ المرآة. ثم، إن لم يكن أحدٌ في الجوار، يرمض لحيته برماد سيجارته من كل الجوانب، ظنًّا أن هذا سيجعلها أنيقةً مُهندَمة. كان يُدخِّن بلا توقُّف، ويتنهَّد كما لو كان يكره التدخين. لم يكن يُكلِّم زوجته لخمسة عشر عامًا.

كان ابنه، ديفيد، في الخامسة والثلاثين آنذاك. وكان علىٰ الدوامِ يضع ضمادةً علىٰ جانبٍ من وجهه تظهر من فوقها عينه حمراء مُرتَجِفةً. ذات مرةٍ، حاول الانتحار، لكنه فشل. حين كان في الخدمة العسكرية، ردًّ إهانة الضابط الذي ضربه بصفعةٍ علىٰ وجهه، ثم هَرَعَ إلىٰ الثكنة وأمسَكَ بندقيته وأطلق النارَ علىٰ نفسه. اخترقت الرصاصة خدَّه، ولهذا السبب ظلَّ يضع هذه الضمادة البيضاء الأبدية. وَقَعَ الجندي المُذنِب تحت تهديد الإحالة إلىٰ المحكمة العسكرية، لكن ربَّ العائلةِ المُبجَّل، خاريتونوفيتش الكبير، كان لا يزال حيًا وقتذاك، وهو الغني النافذ المستبد - والأُميّ - وحَشَدَ كل من في الريف ليشهدوا بأن حفيده ليس مسئولًا عن تصرُّفاته - بغرض تبرئته بالطبع.

ربما ليس ذلك بعيدًا عن الحقيقة بأي حال! ومذاك الوقت يعيش ديفيد بخدٍّ مثقوب وشهادة اختلال عقلي.

كانت هذه العائلة في مسارِ انحدارها في الوقت الذي عرفتهم فيه لأولِ مرة. خلال سنوات طفولتي المبكرة، اعتاد مويسي خاريتونوفيتش أن يأتي لرؤيتنا في عربةٍ فاخرة تجرها خيولٌ قوية. وحين كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري، ذهبت لزيارتهم مع أخي الأكبر. كانت لديهم حديقةٌ واسعة يولونها عنايةً فائقة، وفيها -صدقًا- طواويس تتجوَّل هنا وهناك. رأيت هذه المخلوقات العجيبة لأولِ مرةٍ في حياتي هناك، بتيجانها على رؤوسها المتقلِّبة، وأذيالها الكبيرة الجميلة، والنتوءات التي تملأ سيقانها. اختفت الطواويس بعد ذلك بأعوامٍ قليلة ومعها الكثير من الأشياء الأخرى؛ انهار سورُ الحديقة، ودمَّرَت الماشية الزهور وأشجار الفاكهة فيها. ثم جاء مويسي خاريتونوفيتش إلى يانوفكا، وحاول ولداه جاهدين أن ينهضوا بأملاكهم، لكن هذه المرة كفلاحين وليس كأسياد.

قال الرجل لأبي ذات مرةٍ: "سنشتري جيادًا كبيرةً وننقلها في الصباح، مثل جيادك تمامًا يا برونشتاين". لكن أبي ردَّ عليه: "لن تفلح في هذا الأمر". أُرسِلَ ديفيد إلى السوق في إليزافيتجراد لشراء "الجياد الكبيرة". سارَ في السوقِ يُقيِّم الجياد ويُقلِّبهم بين عينيه، واختار ثلاثةً منهم، وعاد إلى المنزل في المساء. كان المنزل يعج بالضيوف في ملابسٍ صيفيةٍ خفيفة. ذهب أبرام، أخو ديفيد، إلى السقيفةِ بمصباحٍ في

يده ليلقي نظرةً علىٰ الجياد، وتبعه جمعٌ من النساء والصغار. أحسَّ ديفيد فجأةً أنه تحت الضوء، فأخَذَ يسترسل في محاسنِ كل حصان، خاصةً ذلك الذي قال عنه إنه يشبه سيدةً شابة. هَرَشَ أبرام لحيته وقال: "الجياد علىٰ ما يُرام".وانتهىٰ الأمرُ بنا إلىٰ نزهةٍ قصيرة. أخَذَ ديفيد فيها نعلَ شابةٍ جميلة، وملأه بالجعة، ورفعه إلىٰ شفتيه.

صاحت الشابة: "أنت لن تفعل ذلك، صحيح؟"، وقد احمرَّ وجهُها إما دهشةً أو فرحة.

فردَّ بطلُنا: "لم أخش أن أطلِق النارَ علىٰ نفسي"، ثم علىٰ الفورِ سَكَبَ ما في النعلِ إلىٰ بلعومه.

فقالت أمه، الصامتة عادةً: "أنت لا تكف أبدًا عن إذلالِ نفسك". كانت امرأةً كبيرةً مُترهِّلةً من فرطِ ما وَقَعَ علىٰ كاهليها من أعباءٍ منزلية.

وذات مرةٍ سأل أبرام أبي، محاوِلًا التظاهر بالفطنة: "هل هذا قمحٌ شتوي؟".

فأجابَ أبي: "كلا، إنه قمحٌ ربيعي بالطبع".

"هذا قمحُ نيكوبول، أليس كذلك؟".

"أقولُ لك إنه قمحٌ ربيعي".

"أعرف هذا، لكن أي نوعية؟ نيكوبول أم جريكا؟".

فردَّ أبي: "لسببٍ ما لم أسمع قط عن قمح نيكوبول هذا. ربما يزرعه البعض، لكن قمحي قمحٌ ربيعي ساندومير".

لم تفلح جهود الابنَين في النهوضِ بشيء، وبعد عامٍ واحد استأجَرَ أبي الأرض منهم مرةً أخرىٰ.

كان السُكَّان الألمان يُشكِّلون مجموعةً منفصلة. كان من بينهم رجالٌ أغنياءٌ حقًا وقفوا في مهبِّ الأزمة أكثر صمودًا من غيرهم. كانت علاقاتهم العائلية أكثر صرامةً، ونادرًا ما كانوا يُرسِلون أولادهم للدراسة في المدينة، أما بناتهم فكنَّ عادةً يعملن في الحقول. كانت منازلهم مبنيةً من الطوبِ والأسقف الحديدية المطلية بالأخضر والأحمر، وكانت أحصنتهم تُعلَف جيدًا، وعلىٰ ظهورها سروجٌ متينة وتجر عرباتٍ ربيعية كنَّا نُطلِق عليها "العربات الألمانية". كان جارنا الألماني الأقرب هو إيفان إيفانوفيتش دورن، وكان رجلًا سمينًا نشيطًا يرتدي حذاءً منخفضًا دون جوربٍ في قدميه، وله وجهٌ عدواني يعلوه شعرٌ رمادي. كان دائمًا يقود عربةً ذات طلاءٍ لامع تجرها فحولٌ سوداء ترعد حوافرها علىٰ الأرض حين تهم بالعدو.

كان هناك كثيرون من أشباه هذا الرجل، ولعل أبرزهم كان فالز فاين، ملك الغنم، "كانيتفيرستان"[4] السهول.

---

[4] - Kannitverstann - قصة قصيرة للمؤلِّف الألماني يوهان بيتر هيبِل، في العام 1808. تحكي القصة عن شابٍ ألماني من بلدةٍ في إقليم بادن فورتيمبورج كان في زيارةٍ

حين يتجوَّل المرء في الحقول، كان ليمر بقطيعٍ هائلٍ من الغنم. لمن هذه الأغنام؟ فتأتي الإجابةُ دائمًا: فالز فاين. تقابل عربةً تحمل تلًا من القش، لمن هذه العربة؟ فالز فاين. هرمٌ من الفراء علىٰ زلَّاجةٍ؛ إنه لفالز فاين. طابورٌ من الإبل يباغتك بهديره؛ وحده فالز فاين هو من يمتلك إبلًا. استورَدَ فالز فاين فحولًا من أمريكا، وثيرانًا من سويسرا.

عمل جدُّ هذه العائلة، الذي كان يُدعىٰ في وقته فالز -دون فاين- راعيًا في أراضي الدوق أولدنبرج. وأولدنبرج هذا قد مُنِحَ مبلغًا كبيرًا من الحكومة لتربية أغنام المارينو. لكن تراكَمَت علىٰ الدوق ديونٌ هائلة دون أن يفعل شيئًا، فاشترىٰ فالز الأغنام ورعاها، كراعٍ وليس كدوق. تنامت قطعانه، وكذلك مراعيه وأعماله. وتزوَّجت ابنته مربي غنمٍ يُدعىٰ فاين، وهكذا اتحدت السلالتان الرعويتان. كان اسم فالز فاين يتردَّد كوقعِ حوافر قطيعٍ من عشرة آلاف رأس عند المسير، كثغاءِ غنمِ هذا القطيع في صوتٍ واحد، كصفيرِ راعٍ في السهولِ يحمل عصاه علىٰ ظهره، كنباحِ كلابه ينظمون القطيع. كانت السهول تنطق اسمه مع كل زفيرٍ في حرِّ الصيفِ وبردِ الشتاء.

لأمستردام، وكان كلما سأل عن مالكِ بيتٍ أو قاربٍ، قيل له "كانيتفيرستان"، وهي في الأصل الهولندي "Ik kan niet verstaan" - أي "لا أفهم". لكنه ظنَّ أن شخصًا يُدعى "كانيتفيرستان" موجودٌ بالفعل ويملك كل هذا. ولما مرَّ بجنازةٍ وسأل عن الميت، قيل له أيضًا "كانيتفيرستان"، فاعتقد أن صاحب كل هذه الأملاك قد رَحَل. (المترجم)

ولَّت خمس سنواتٍ من عمري ماضيةً وراء ظهري. كنت أكتسب بعض الخبرة في الحياة. وهذه الحياة مليئةٌ بالغرائب التي لا تكف عن تخليقها وتوليفها في كل ركنٍ ضيقٍ غامض كما علىٰ الساحة العالمية بنفسِ القدر. أغرقتني الأحداث واستغرقتني واحدةٌ تلو الأخرىٰ.

كانت ثمة فتاةٌ قد أُحضِرَت بعد لدغها ثعبانٌ في الحقل. كانت تنتحب. ربطوا فوق ركبتها ضمادةً بإحكام، وأغرقوا ساقها الملدوغ في برميلٍ من اللبن الحامض. ومن ثم ذهبوا بها إلىٰ المستشفىٰ في بوبرينيتز. عادت بعد ذلك وباشرت عملها في الحقل. كانت ترتدي جوربًا طويلًا، ولم يكن أحدٌ يدعها سوىٰ بـ"السيدة".

ذكر خنزير قَضَمَ رجلًا في جبهته وكتفيه وذراعيه. كان ذلك خنزيرًا جديدًا جاءوا به لتحسين نسل القطيع. كان الرجلُ ميتًا من الخوف، وأخذ يبكي كالطفل. أخذوه هو أيضًا إلىٰ المستشفىٰ.

عاملان كانا واقفَين عند حمولةٍ من حِزَمِ أجولةٍ من الحبوب قاما ضد بعضهما بالمناجل. شهدت بعيني هذه الواقعة. سَقَطَ أحدُهما يتأوَّه والمنجل إلىٰ جانبه.

كل هذه الأحداث وقعت في غضونِ صيفٍ واحد. ولم يكن صيفٌ يمر دون أحداثه الخاصة.

وفي ليلةٍ خريفيةٍ، هبَّ إعصارٌ عنيف واجتاح البُنىٰ الخارجية للطاحونة ورمىٰ بها في المستنقع. فَسَدَت الحبوب، وأُطيحَ بالجدران

العريضة كأشرعةٍ خفيفةٍ في قلبِ عاصفة. ظَهَرَ المُحرِّك وحجر الطحن، وغيرهما من معدات الطاحونة، واقفين بصورةٍ صارخةٍ وسط الركام. ومن تحتِ الأنقاضِ، كانت فئران الطاحونة وقوارضها تهرع بين الحينِ والآخر هنا وهناك.

كنت أذهب خلسةً إلىٰ الحقول لاصطياد المرموط[5]، وبإحكامٍ وتؤدة، لكن ليس ببطء، أسكب الماء في الجُحر، وأنتظر ظهور أنف المرموط الأشبه بأنفِ الفأر، والعصا في يدي. كان مرموطٌ كبيرٌ عجوز يقاوم لفترةٍ طويلةٍ رافضًا الخروج من جُحره، لكن دلوًا آخر كان كفيلًا بإجباره علىٰ الاستسلام وإخراجه لملاقاةِ مصيره. كان علىٰ المرء أن يقطع كفوف المرموط الصريع ويُعلِّقها في خيطٍ، إذ كانت الزيمستفو[6] تدفع كوبيك واحد عن كل مرموط. كانوا في البدايةِ يطالبون بتسليم الذيول، لكن فلاحين ماكرين تعلَّموا كيف يصنعون عشرة ذيول من فروةِ مرموطٍ واحد، لذا صارت الزيمستفو تطالب بالكفوف. كنت أعود إلىٰ المنزل مُبلَّلًا ومُتسخًا، في حين لم تكن مثل هذه المغامرات

---

5 – حيوانٌ من القوارض، وهو الأكبر في فصيلة السنجابيات. يعيش في الحجور ويتواجد في مناطقٍ كثيرٍ في نصف الكرة الشمالي. (المترجم)

6 – منظمةٌ ريفيةٌ مُنتَخَبَة مسئولةٌ عن إدارة شئون المقاطعات الريفية.

مُحبَّذةً لدىٰ عائلتي بالطبع. كانوا يُفضِّلون لو أنني أجلس علىٰ الأريكة في غرفةِ الطعام وأرسم أوديب وأنتيجون[7].

وذات يومٍ كنت عائدًا مع أمي علىٰ زلَّاجةٍ من بوبرينيتز، التي كانت أقرب مدينة لنا. حلَّ عليّ النُعاس من تأثيرِ الثلوج التي حَجَبَت عني رؤية الطريق، والخمودِ من سير الزلَّاجة. وحين انعطَفَ السائق، انقلَبَت الزلَّاجة وسقطت علىٰ وجهي في كومةٍ كبيرةٍ من القش الذي غطاني وكاد يخنقني. سمعت صرخةَ أمي، لكن لم أستطع الرد. وكان السائق، الشاب ذا الوجه العريض المحمر، الجديد في العمل لدىٰ عائلتي، هو من رَفَعَ القش عني. عدنا إلىٰ مقاعدنا وواصلنا المسير. لكنني بدأت أشكو من رعشةٍ تزحف علىٰ ظهري لأعلىٰ ولأسفل. استغرَبَ السائق ذو اللحية والوجه الحمراوين: "رعشة!"، لافتًا وجهه إليّ كاشفًا عن أسنانه البيضاء الصارمة. فقلت له بينما كنت أنظر لفمه: "نعم، أنت تعرف، رعشة". فضحك وقال: "إنها لا شيء. سنصل إلىٰ هناك قريبًا"، وغَمَزَ الحصان الخفيف ليُسرِع.

وفي الليلة التالية، اختفىٰ هذا السائق نفسه، ومعه الحصان الخفيف. كان ذلك حدثًا جللًا. تشكَّلَت علىٰ الفورِ فرقةٌ من الرجال بزعامةِ أخي الأكبر للبحث عنه. امتطىٰ أخي حصانه متوعدًا السائق

---

7 – شخصيتان أسطوريتان في الميثولوجيا الإغريقية. كان أوديب ملكًا حقَّق عن طريق الخطأ نبوءةً تقول إنه سيقتل أباه ويتزوَّج أمه، التي أنجبت منه أنتيجون (أخته وابنته)، جالبًا الدمار لعائلته ومدينته. (المترجم)

بأقسىٰ العقاب. قال أبي بعبوسٍ: "حريٌّ بك أن تُمسِك به". مرَّ يومان ولم يعد الرجال، وحين عادوا ألقىٰ أخي باللائمةِ علىٰ الضبابِ الذي حالَ دون الإمساك بسارقِ الحصان. يا له من ماكر ذلك اللص ذي الأسنان البيضاء!

أصابتني الحمىٰ، ورقدت بسببها في الفراش. كان ذراعيّ وساقاي مُتورِّمين، وشعرت أنني حبيسٌ بين الجدران والسقف، وما من مفرٍ من هذه الآلام لأنها تتولَّد من الداخل. كنت أشعر وكأنني راقدٌ علىٰ جمر. كان حلقي يؤلمني بشدة؛ حدَّقَت أمي النظر داخله، وكذلك أبي، وتبادلا نظراتٍ مُقلِقة، ثم دَهَنَت أمي مرهمًا عليه. قالت: "أخشىٰ أن يكون ليوفا مُصابًا بالديفتريا".

ردَّ عليها إيفان فاسيلييفيتش: "إذا كان حقًا كذلك، لكان مُتمدِّدًا علىٰ نقَّالةٍ منذ زمن".

فهمت بصورةٍ ضبابيةٍ أن التمدُّد علىٰ نقَّالةٍ يعني الموت، كما حَدَثَ مع أختي الصغيرة روزوتشكا. لكنني لم أُصدِّق أنني أنا من يتحدَّثون عنه فيما كنت أنصت بهدوءٍ لأحاديثهم. في النهايةِ قرَّروا نقلي إلىٰ بوبرينيتز. لم تكن أمي أرثوذكسيةً مُتديِّنة، لكنها لم تكن أيضًا تسافر للمدينة في أيامِ الأحدِ قط، فكان إيفان فاسيلييفيتش هو من رافَقَني إلىٰ هناك. قصدنا منزلَ تاتيانا، خادمتنا السابقة التي تزوَّجَت هناك. لم يكن لديها أطفال، وبالتالي لم يكن ثمة خوفٌ من انتقالِ العدوىٰ. فَحَصَ الطبيب شاتونوفسكي حلقي، وسجَّلَ حرارتي،

وكالعادة أكَّدَ أن الوقت لا يزال مبكرًا لتحديدُ أي شيء. أعطتني تاتيانا زجاجةً بداخلها كنيسة كاملة من ألواحٍ ضئيلة وعيدان دقيقة. لم تعد ساقاي وذراعي يؤلمانني. شُفِيت. متىٰ حَدَثَ هذا؟ ليس قبل وقتٍ طويلٍ من تدشين عهدٍ جديدٍ في حياتي.

ذات مرةٍ، جاء عمي أبرام، ذلك العجوز المُتبجِّح الأناني الذي كان يتجاهل الأطفال لأسابيع وكأنهم غير موجودين، وناداني في لحظةِ صفاءٍ وسألني: "الآن أخبرني، أي عامٍ هذا الذي نحن فيه؟ آه، أنت لا تعرف؟ إنه العام 1885. كَرِّر هذا واحفظه لأنني سأسألك مرةً أخرىٰ". لم أفهم معنىٰ السؤال. قالت بنت عمي الهادئة أولجا: "نعم، إنه العام 1885، وبعد يأتي العام 1886"، وهذا ما لم أستطع تصديقه مطلقًا. إن كنَّا نعترف بأن للزمن اسم، فلابد أن هذا الاسم – 1885 – سيلازمه إلىٰ الأبد، أي علىٰ مدارِ زمنٍ طويل؛ طويل جدًا، تمامًا مثل الحجر الكبير علىٰ عتبةِ الدار، مثل الطاحونة، وفي الحقيقة مثلي أنا أيضًا. أما بيتيا، الأخت الصغرىٰ لأولجا، فلم تكن تعرف من تُصدِّق. كان ثلاثتنا، أولجا وبيتيا وأنا، مرتبكين من فكرة دخولِ عصرٍ جديدٍ تلك، كما لو كان أحدٌ قد فَتَحَ أمامنا بابًا يطل بنا علىٰ غرفةٍ فارغةٍ مُظلِمة تتردَّد فيها أصواتٌ عاليةٌ غريبة. أذعنت في النهاية لما قالوا وانحاز الجميع إلىٰ صف أولجا. وهكذا كانت 1885 هي السنة الأولىٰ التي تُسجَّل في وعيي، ولترسي فيه نهايةً لعصرٍ غير مؤرَّخٍ وغير مُحدَّد الملامح، ذلك الذي عاثت فيه الفوضىٰ في حياتي السابقة؛ منذ

هذه اللحظة أصبحت عارفًا بالتسلسل الزمني. كنت في السادسة من عمري آنذاك، وكان ذلك هو عام تلف المحاصيل، والأزمات، والقلاقل العمالية الأولىٰ في روسيا. لكن الاسم الغامض لهذه السنة هو ما صَدَمَني، وبقلقٍ أخذت أُخمِّن ماهية العلاقة الخفية بين الزمن والأرقام. ثم بعد ذلك جاءت سلسلةٌ من السنواتِ التي سارت ببطءٍ في البداية ثم أسرع فأسرع. لكن ظلَّت 1885 واقفةً بين أخواتها كالكبيرةِ في قبيلتها. كانت إيذانًا بعصرٍ كامل جديد.

الواقعة التالية كانت هي الأخرىٰ بارزةً في طفولتي. تسلَّقت ذات مرةٍ مقعد السائق في عربةِ أمتعتنا، وجذبت اللجام بينما كنت أنتظر أبي. انطلقت الأحصنة الشابة عبر أراضي آل ديمبوفسكي، ومرَّت كالبرقِ بالمنزلِ والاسطبلِ والحديقة، وعبر حقلٍ وعرٍ. كان الصراخ من ورائي وقناةٌ كبيرةٌ من أمامي. توقَّفَت الأحصنة فجأةً علىٰ حافةِ القناة تمامًا وبالضبط. جاء السائق يجري من الخلف، وتبعه أبي مع اثنين أو ثلاث من العمال. كانت أمي تصرخ، وأختي الكبيرة تلوي يديها قلقًا. ظلَّت أمي تصرخ حتىٰ حين كنت أهرع إليها. أما أبي، الذي بدا شاحبًا كالأموات، فعاتبني بصفعتين علىٰ وجهي. لم أشعر بالإهانة حتىٰ - رغم استثنائيتها.

لابد أنه كان في نفس العام حين رافقت أبي في رحلةٍ إلىٰ إليزافيتجراد. بدأت الرحلة في الفجر وسرنا ببطء، ومن بوبرينيتز

أطعمنا الأحصنة. وصلنا فشيفايا[8] في المساء. كنَّا ندعوها فشيفايا نظرًا لقذارتها. قضينا ليلتنا هناك حتىٰ فجر اليوم التالي، إذ كان من المعروف أن هناك لصوصًا في هذه الضاحية. لم تترك أي عاصمةٍ في العالم، ولا حتىٰ باريس ولا نيويورك، ذلك الانطباع الذي حَفَرَته في ذهني مدينة إليزافيتجراد بأرصفتها، وشرفاتها، ومحالها، والأسطح الخضراء لبيوتها، ورجال شرطتها، وبالوناتها الحمراء. كنت أفغر فاهي لساعاتٍ طوال، بعينين مفتوحتَين علىٰ وسعيهما، في وجه الحضارة هناك.

بدأت دراستي في العام التالي. وفي صباح أحد الأيام، بعدما استيقظت واغتسلت علىٰ عجل - المرء دائمًا يغتسل علىٰ عجلٍ في يانوفكا - ذهبت إلىٰ غرفة الطعام، مُتطلِّعًا لليوم الجديد؛ إلىٰ الفطور في المقامِ الأول، حيث الشاي باللبن والكعك بالزبد. وجدت أمي برفقةِ رجلٍ غريب؛ نحيلٌ تعلو وجهه ابتسامةٌ صفراء، ومُجامِلٌ بإفراطٍ إلىٰ حدِّ التذلُّل. نظرت أمي والغريب ناحيتي بنظرةٍ من تلك التي تفهم منها أنك أنت موضوع الحديث.

قالت: "تعالَ يا ليوفا، صافح مُعلِّمَك". نظرت إليه بشعورٍ من الخوف، لكن من دونِ اهتمامٍ أيضًا. حيَّاني المُعلِّم بالطريقة ذاتها التي يُحيي بها كل مُعلِّمٍ تلميذه المستقبلي في حضورِ والديه. دبَّرت أمي كل

---

8 - تعني بالروسية "قذر".

شيءٍ مُسبَقًا، بروبلاتٍ عديدة وأكياسِ دقيقٍ، كي يرشدني المُعلِّم إلىٰ مدرسته الصغيرة حيث تعلَّمت الروسية، والحساب، والعهد القديم بالأصل العبري. احتسيت معهما الشاي باللبن شاعرًا أنني أتذوَّق التغيير المقبل في مصيري.

وفي يومِ الأحدِ التالي، أخذني أبي إلىٰ العمة راشيل، في مستعمرة جروموكلي، جالبًا معه حمولةً كبيرةً تتضمَّن أجولةً من دقيقِ القمح، ودقيقِ الشعير، وحبوب الدخن.

كانت جروموكلي تبعد عن يانوفكا بخمسة كيلومترات تقريبًا. وكان الطريق إلىٰ هذه المستعمرة يمر بوادٍ؛ المستعمرة اليهودية علىٰ أحد طرفيه، والألمانية علىٰ الطرفِ الآخر. كانت الاثنتان تقفان في تضادٍ صارخٍ أمام بعضهما. في القطاع الألماني، كانت البيوت أنيقةً، أغلبها مسقوفٌ بالقرميد وبعضها بالبوص. كانت الأحصنة كبيرة، والأبقار عفية. أما في القطاع اليهودي، فكانت المنازل صغيرةً مُهلهَلة، والأسقف متداعية، والأبقار عجفاء.

من الغريب أن مدرستي الأولىٰ لم تترك لديّ إلا فقط القليل للغاية من الانطباعات والصور: السبورة الحجرية التي سطرت عليها لأول مرة الحروف الأبجدية الروسية، سبَّابة المُعلِّم النحيلة حين يكتب، قراءة العهد القديم، معاقبة واحدٍ من الأولاد لسرقته - كلها مقاطع ضبابية دون صورةٍ واضحةٍ واحدة. ربما الاستثناء الوحيد من هذا كله هو زوجة المُعلِّم، تلك المرأة الطويلة التي اعتادت اقتحام

حياتنا المدرسية من وقتٍ لآخر، ودائمًا علىٰ نحوٍ غير مُتوقَّع. وذات مرةٍ، جاءت في أثناء الحصة، وشكت لزوجها أن الدقيق الجديد له رائحةٌ غريبة، وحينما دنا بأنفه الحاد إلىٰ حفنةِ الدقيق في يدها، قذفته بالكامل في وجهه. كانت تلك فكرتها عن الدعابة. ضحك الأولاد والبنات، وكان هو وحده من بدا عليه الهم. أشفقت عليه، وهو الواقف في وسطِ الفصلِ بوجهٍ يكسوه غبار الدقيق.

عشت مع العمة راشيل الطيبة دون أن أعيها تمامًا. أما العم أبرام، فكان يُعامل أبناء إخوته وأخواته بلا مبالاةٍ تامة. وكل فترةٍ طويلة كان يناديني ويدعوني لحساءٍ نخاعٍ، ويقول: "لن آخذ عشرة روبلات مقابل الحساء".

كان البيت في مدخلِ المستعمرة تقريبًا، وعلىٰ الطرف الآخر منها كان يعيش يهودي طويل رفيع أسمر قيل إنه سارقُ أحصنةٍ وإنه يقوم بأعمالٍ مشبوهة. كان لديه ابنة، وهي الأخرىٰ كانت لها سمعةٌ مريبة. وليس بعيدًا عن سارق الأحصنة كان يعيش صانعُ القبعات المنكفئ دومًا علىٰ أدواته - شابٌ يهودي بلحيةٍ حمراء كأنها النار.

كانت زوجة صانع القبعات تأتي للمُفتِّش الرسمي في المستعمرة، الذي كان دائمًا يقضي وقته لدىٰ العم أبرام في منزله، لتشكو من ابنة سارق الأحصنة التي تسرق زوجها. من الواضح أن المُفتِّش لم يقدم أي مساعدةٍ إزاء هذا الأمر. ولدىٰ عودتي من المدرسةِ ذات ظهيرةٍ، رأيت حشدًا من الناس يسحبون امرأةً شابة عبر الشارع - كانت تلك

ابنة سارق الأحصنة. كانوا يصيحون، ويصرخون، ويبصقون عليها. حُفِرَ هذا المشهد التوراتي في ذاكرتي للأبد. وبعد سنواتٍ عدة، تزوَّجَ العم أبرام هذه الشابة، وحينذاك كان والدها قد نُفِيَ إلىٰ سيبيريا بقرارٍ من المستعمرة كعنصرٍ غير مرغوبٍ فيه من المجتمع.

وكانت مربيتي السابقة، ماشا، تعمل في منزل العم أبرام. كنت أجري إليها في المطبخ مرارًا إذ كانت تُمثِّل بالنسبةِ لي رابطتي الحية بيانوفكا. كانت تستقبل أحيانًا زوَّارًا يأتون إليها، ولم يكن بعضهم ودودين، فكانت تبعدني عن المكان بلطف. وفي أحد الصباحاتِ المُشرِقة، علمت ضمن بقية الأولاد في المستعمرة أن ماشا وضعت مولودًا. كنَّا نهمس لبعضنا بذلك في السر ونحن سعداء. وبعد أيامٍ معدودة، جاءت أمي من يانوفكا وذهبت إلىٰ المطبخ لترىٰ ماشا ورضيعها. تسلَّلت خلف أمي. كانت أمي تضع منديلًا علىٰ رأسها يتدلَّىٰ حتىٰ أعلىٰ عينيها، وعلىٰ منضدةٍ كان الرضيع مستلقيًا علىٰ جنبه. نظرت أمي إلىٰ ماشا، ثم إلىٰ الرضيع، ثم هزَّت رأسها بعتابٍ ولم تقل شيئًا. ظلَّت ماشا صامتةً وعيناها لأسفل، ثم نظرت إلىٰ الرضيع وقالت: "انظري كيف يضع يده الصغيرة علىٰ خده كالكبار".

قالت أمي: "أتشفقين عليه؟".

فردَّت ماشا بنبرةٍ ماكرة: "كلا، إنه جميل".

مات الرضيع بعد ذلك بأسبوع، بنفسِ الغموضِ الذي جاء به إلىٰ عالمنا.

غالبًا ما كنت أترك الدراسة وأعود إلىٰ قريتي وأظلُّ هناك لأسبوعٍ في كل مرة. لم يكن لي أصدقاءٌ من بين زملاءِ المدرسة، إذ لم أكن أتحدَّث اليدش. استمر الموسم الدراسي بضعة أشهر فقط، وربما يكون هذا سببًا في ندرة ذكرياتي عن تلك الفترة، لكنها علىٰ أيةِ حال كانت كافيةً لأتعلَّم من شوفر - كان هذا هو اسم المُعلِّم في مستعمرة جروموكلي - القراءة والكتابة، اللتين كانتا خير عوضٍ لي في حياتي اللاحقة، ولهذا السبب أتذكَّر مُعلِّمي الأول بامتنان.

بدأت أشق طريقي عبر السطور. كنت أنسخ الأبيات، وأكتب بعضها بنفسي. ولاحقًا، أطلقت مجلةً صغيرةً مع بنت عمي سينيا. إلا أنه كان طريقًا شائكًا. نادرًا ما كنت أبرع في الكتابة، وذات مرةٍ حين كنت جالسًا بمفردي في غرفةِ الطعام، بدأت أدوِّن بعض الكلمات التي سمعتها من قبل في الورشة وفي المطبخ، والتي لم أسمعها قط من عائلتي، في مخطوطةٍ مطبوعة. أدركت أنني أفعل شيئًا لا ينبغي عليّ فعله، لكن الكلمات استدرجتني وجذبتني فقط لأنها محظورة. قرَّرت أن أُخفي الورقة الصغيرة في علبة كبريتٍ صغيرة وأن أحرقها خلف الاسطبل. لكن حين لم أكن قد انتهيت بعد من قائمة الكلمات تلك، دخلت أختي الكبرىٰ الغرفة وثار فضولها. أطبقت علىٰ الورقة، لكن أمي جاءت بعد أختي وطالبت الاثنتان بأن أريهما ما كتبته. رميت

الورقة خلف الأريكة متحرِّقًا بالعار. حاولت أختي أن تلتقطها، لكنني صرخت: "سأجلبها بنفسي". زحفت تحت الأريكة، وحين وصلت أناملي للورقة مزَّقتها إربًا. لم يكن ليأسي ودموعي حدود.

لعل ذلك كان في أسبوع عيد الميلاد للعام 1886، لأنني كنت بالفعل أعرف الكتابة آنذاك، حين دخلت فرقةٌ من المُمَثِّلين الشعبيين غرفةَ الطعام في إحدىٰ الأمسيات بينما كنَّا نحتسي الشاي. كان ذلك مُفاجئًا إلىٰ درجةِ أنني تقوقعت علىٰ الأريكةِ خائفًا. هدأت بعدها واستمعت بعنايةٍ لعرض "القيصر ماكسيميليان"[9]. كانت تلك المرة الأولىٰ التي يتكشَّف فيها أمامي هذا العالم المُبهِر؛ عالمٌ كاملٌ تحوَّل إلىٰ عرضٍ مسرحي. دُهِشت حين عرفت أن من كان يلعب الدور الرئيسي هو العامل بروخور، وهو جنديٌّ سابق. وفي اليوم التالي، ذهبت بعد الغداء، وفي يدي ورقةٌ وقلمُ رصاص، إلىٰ مسكن الخَدَم، وتوسَّلت إلىٰ من كان هناك لأن يملوا عليّ نص العرض لأدوِّنه.

لم يكن بروخور يرغب في ذلك، لكنني تضرَّعت وتوسَّلت ولم أدعه في سلامٍ قط. وفي النهاية، جلسنا في ركنٍ مريحٍ أمام النافذة، وبدأت أُسجِّل قوافي "القيصر ماكسيميليان" مُستنِدًا إلىٰ حافةِ النافذة. ولم تمر سوىٰ خمس دقائق حتىٰ ظَهَرَ أبي عند الباب ورأىٰ هذا

---

[9] – عرضٌ غنائي راقص شعبي انتشر في القسم الأوروبي من روسيا من القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن العشرين. (المترجم)

المشهد، فأمَرَني بصرامةٍ: "ليوفا، إلىٰ غرفتك". قضيت طيلة فترة بعد الظهيرة أبكي علىٰ الأريكة.

أَلَّفت أبياتَ شعرٍ؛ سطورٌ واهنة ربما أظهرت حبي المبكر للكلمات لكنها بالقطع لم تفضِ إلىٰ أي مستقبلٍ شعري. علمت أختي الكبرىٰ بأبياتي، ومن خلالها علمت أمي كذلك، ومن خلال أمي علم أبي. كانوا يطلبون مني أن أتلو هذه الأشعار أمام الضيوف. كان ذلك مُحرِجًا للغاية، فكنت أرفض دائمًا، لكنهم كانوا يلحون عليّ في فعلِ ذلك؛ بلطفٍ في البداية ثم بالأمر، ثم في النهاية بالتهديد. أحيانًا كنت أهرب، لكن الكبار كانوا يعرفون كيف يحصلون علىٰ ما يريدون. وبدموعٍ في عينيّ كنت أنصاع وأقرأ أبياتي بخجلٍ من سطوري المُستَعارة وقوافيَّ المكسورة.

تذوَّقت من ثمار المعرفة، فصارت الحياة تتكشَّف أمامي، ليس فقط يومًا بعد آخر، بل كل ساعة. ومن علىٰ الأريكةِ المُمَزَّقة في غرفةِ الطعام، كانت خيوطٌ تمتد إلىٰ عوالمٍ أخرىٰ. افتتحت القراءة عصرًا جديدًا في حياتي.

الفصل الثالث

أوديسا: عائلتي ومدرستي

في العام 1888، بدأت أحداثٌ كبرىٰ تفرض نفسها في حياتي. ذهبت للدراسة في أوديسا، وحدث ذلك كالتالي: جاء ابن خالتي، موِيسي فيليبوفيتش شبينتزر، وكان في الثامنة والعشرين من عمره آنذاك، لقضاء الصيف معنا في القرية. كان شابًا ذكيًا ورقيقًا، وقد مُنِعَ بسببِ جُرمٍ سياسيٍ بسيط من دخول الجامعة بعد تخرُّجه في المدرسة الثانوية. كانت لديه مهاراتٌ صحفية بارزة، وأتىٰ إلىٰ الريف بغرض الاستشفاء من السُل.

كان مونيا، كما كانوا يُطلِقون عليه، فخر والدته وأخواته العديدات، نظرًا لمواهبه وقدراته المُتنوِّعة، علاوة علىٰ شخصيته الفريدة. كانت عائلتي تعامله بنفس الاحترام، وكان الجميع مسرورون بمجيئه. وبالطبع كنت أُكِن نفس هذا الشعور تجاهه. حين دَخَلَ مونيا غرفة الطعام، كنت علىٰ عتبة غرفتي، وكنت مُحرَجًا من القدوم إليه بسبب ثقبين في حذائي. لم يكن هذا ينم عن فقر، فعائلتي كانت بالفعل ميسورة الحال في ذلك الوقت، بل كان بسببِ التقاليد الريفية غير المُبالية بشيء، وبسببِ المعايير المتدنية في بيتنا.

قال موِيسي فيليبوفيتش: "مرحبًا يا فتىٰ. تعال هنا".

فقلت: "مرحبًا"، لكنني لم أتزحزح عن مكاني. أوضحوا للضيف، بضحكٍ يُخالجه الذنب، السبب وراء بقائي هكذا دون حراك، فأعفاني بمرحٍ من هذا الحرج إذ حَمَلَني عبر العتبة واحتضنني بدفءٍ ومودة.

كان مونيا محور اهتمام العائلة في أثناء العشاء. قدَّمَت له أمي أشهىٰ المأكولات، وسألته ما إذا كان استمتع بوجبته، وعن أطباقه المُفضَّلة علىٰ المائدة. وفي الليل، بعدما سيقت البهائم إلىٰ حظائرها، قال لي مونيا: "تعال، لنجلب بعض الحليب الطازج. هات معك بعض الأكواب... الآن يا عزيزي، يجب أن تُمسِك الكوب بأصابعك من الخارج، لا من الداخل".

تعلَّمت من مونيا الكثير من الأشياء التي لم أكن أعرفها من قبل: كيف أمسك كوبًا، وكيف أغسلها، وكيف أنطق بعض الكلمات، ولماذا يُعد الحليب الطازج مفيدًا للصدر. كان يتمَّشىٰ كثيرًا ويكتب كثيرًا. علَّمني الحساب وقواعد اللغة الروسية استعدادًا للالتحاق بالمدرسة. كان يبهجني، لكن يربكني أيضًا في الوقت نفسه، فقد كنت أشعر فيه بعناصر الحضارة المدينية الغريبة عليّ.

كان مونيا ودودًا مع أقاربه القرويين. كان تارةً يمزح ضاحكًا بصخب، وتارةً أخرىٰ يُهمهِم بصوتٍ خفيض. وفي بعض الأحيان كان يبدو مُتجهِّمًا، وعلىٰ المائدة يجلس صامتًا كالغارق في التأمل. أحيانًا كانت نظراته مُقلِقة، ويسأله من حوله إذا كان ثمة أمرٌ قد أزعجه.

فيجيب باختصارٍ شديد وكأنه يتملَّص من أمرٍ ما. ساقني حدسي إلىٰ السببِ وراء هذه التقلُّبات المزاجية فقط مع نهاية فترة مكوثه معنا. كان مونيا منزعجًا من الأساليب الفجة التي تعج بالظلم في القرية. ولم يكن ذلك لأن عمه أو عمته كانا قاسيَين إلىٰ هذا الحد، بل بسبب طبيعة العلاقات السائدة مع الفلاحين والعاملين، تلك العلاقات التي لم تكن إطلاقًا أسوأ منها في القرىٰ الأخرىٰ. لكن هذا لا يعني أن لم يكن هناك اضطهاد. حين جاء الناظر وضرب الراعي بالسوط لأنه تأخَّر في إيداع الأحصنة في الاسطبل، شَحَبَ مونيا واستهجن ذلك هامسًا بين أسنانه: "يا للعار!". شاطرته هذا الإحساس، لكنني لا أعرف ما إذا كنت سأشعر بذلك حقًا إن لم يقل هو ما ظننت أنني أريد قوله. لكنه علىٰ أية حال، دفعني عن غير قصدٍ للإحساس بذلك، وهذا وحده كافٍ ليغرس فيَّ شعورًا بالامتنان له طوال حياتي.

كان مونيا علىٰ وشكِ الزواجِ من ناظرة مدرسة للفتيات اليهوديات. لم يكن أحدٌ يعلم من هي، لكن الجميع افترضوا أنها لابد أن تكون امرأةً استثنائية، فهي ناظرةُ مدرسةٍ وعروس مونيا. قررت عائلتي إرسالي إلىٰ أوديسا في الربيع التالي، وهناك أعيش مع آل شبينتزر، وأنتظم في المدرسة. صنع لي خيَّاط القرية ثوبًا جديدًا، ومُلِئت عربةٌ بأوعيةٍ من الزبد، وبرطماناتٍ من المربىٰ، وغيرها من الهدايا للأقارب في المدينة. كان الوداع طويلًا؛ بكيت بغزارة، وكذلك أمي وأخواتي أيضًا، وللمرةِ الأولىٰ شعرت بالمعزَّة التي أكنها في قلبي

ليانوفكا بكل ما فيها. قدنا العربة عبر السهل إلىٰ المحطة، وظللت أبكي حتىٰ وصلنا إلىٰ الطريق الرئيسي.

أخذنا القطار من نوفي بوج إلىٰ نيقولاييف، وهناك استقللنا سفينةً بخارية. بعثت صفارة الإنذار قشعريرةً علىٰ ظهري، وبدت كأنها نداء الحياة الجديدة. لم نكن قد وصلنا إلىٰ البحر بعد، فقد كنَّا لا نزال نُبحِر في نهر بوج. كانت أمورٌ عظيمةٌ في انتظاري بالتأكيد: رصيف الميناء، وسائق العربة، وحارة بوكروفسكي، وبيتٌ كبيرٌ قديم حيث مدرسة الفتيات وناظرتها. أحسست وكأنني في معرضٍ فحصٍ شامل من كل جانبٍ وزاوية. في البداية جاءت امرأةٌ شابة، ثم أمها، وقبَّلاني علىٰ جبهتي ووجنتيّ. داعبني مويسي فيليبوفيتش كعادته، سائلًا عن يانوفكا وأهلها، وحتىٰ عن البقرات التي ألفها. بالنسبةِ لي، لم تكن البقرات ذات أهميةٍ تُذكَر، فكان من المُحرِج أن أناقش أمرها في هذه الصحبة من صفوة القوم. لم يكن منزلهم كبيرًا، وأعدوا ركنًا في غرفة الطعام، وراء ستارةٍ، ليكون غرفةً لي. وهناك قضيت السنوات الأربع الأولىٰ من حياتي المدرسية.

وجدت نفسي فجأةً في قبضةٍ من الانضباط الصارم كنت فقط قد رأيت لمحةً منه حين كان مويسي فيليبوفيتش لدينا في القرية. لم يكن النظام مُتزمّتًا، لكن منضبطًا بحيث كان شديدًا عليّ في البدايةِ فقط. كان لزامًا عليّ أن أذهب إلىٰ الفراش في التاسعةِ مساءً، بل وتقدَّم توقيت النوم بعد أن دخلت المدرسة. كانوا يُذكِّرونني بين الحين

والآخر ألا أنسىٰ قول "صباح الخير"، وأن أحافظ علىٰ نظافة يديّ وأظافري، وألا آكل بالسكين، وألا أتأخر عن المدرسة، وأن أشكر الخَدَم، وألا أتحدَّث عن الناسِ من وراء ظهورهم. علمت في ذلك الوقت أن عشرات الكلمات التي كنت أتحدَّثها في القرية، والتي بدت لي روسيةً بما لا يدع مجالًا للشك، إنما هي مصطلحاتٌ أوكرانية. كل يومٍ قضيته هناك كانت تتكشَّف أمامي أبعادٌ وجوانب جديدة في البيئة الثقافية أكبر وأعظم بما لا يُقاس بالسنوات التسع الأولىٰ من حياتي. وحتىٰ بريق السوق في القرية بدأ يخفت ويفقد سحره أمام تعاويذ الأدب الكلاسيكي وفتنة المسرح.

صرت واحدًا من سكَّان الحضر، لكن في بعض الأحيان كانت القرية تستيقظ في وعيي وتجذبني نحوها كجنةٍ مفقودة، فيأسرني الشوق إليها، وأظل أكتب الرسائل لأمي علىٰ زجاج النوافذ، أو ببساطة أبكي دافنًا وجهي في الوسادة.

كانت الحياة في بيتِ مويسي فيليبوفيتش متواضعة، فلم يكن لدىٰ رب البيتِ الكثير ليُلبِّي احتياجات العائلة، ولم يكن لديه عملٌ ثابت. كان يترجم التراجيديا الإغريقية مصحوبةً بتعليقاتٍ يكتبها، ويكتب قصصًا للأطفال، ويعكف علىٰ دراسة جوليوس شلوسر وغيره من المؤرخين، ويساعد زوجته في إدارة المدرسة. وفيما بعد، أنشأ دارَ نشرٍ صغيرة نمت بصعوبةٍ بالغة في سنواتها الأولىٰ لتنهض وتشق طريقها شيئًا فشيئًا، وفي خلال عشر أو اثني عشرة سنة صار هو الناشر الأول في

الجنوب الروسي كله. عشت مع هذه العائلة لمدة ست سنوات، وكانت هذه هي السنوات التي ركَّزَ مويسي فيليبوفيتش عمله فيها علىٰ دار النشر. صرت معتادًا علىٰ أدوات الطباعة والتجليد والتبويب وترتيب الأوراق وخلافه. كان التدقيق اللغوي هو وقتي المُفضَّل في اليوم. وحبي الشغوف بالأوراق لدىٰ خروجها للتو من المطبعة له جذوره بالطبع في سنوات طفولتي تلك.

وكما هو الحال دائمًا في البيوتِ البرجوازية، لا سيما البرجوازية الصغيرة، لم يكن للخدم دورٌ ملحوظٌ في تلك السنوات من حياتي. اعتبرتني المُربية الأولىٰ، داشا، موثوقها السري الذي تبوح له بأسرارها وتأتمنه عليها. بعد الغداء مباشرةً، كان الجميع يروحون في قيلولةٍ بينما أذهب خلسةً إلىٰ المطبخ. وهناك، كانت داشا تحكي لي عن حياتها وحبها الأول. وبعد داشا، جاءت مُطلَّقةٌ يهودية تُدعىٰ جيتومير. كانت تذم طليقها قائلةً: "يا له من وغد". بدأت أُعلِّمها كيف تقرأ، فصارت تقضي كل يومٍ نصف ساعةٍ علىٰ الأقل علىٰ منضدتي، تحاول اختراق هذا العالم الغامض من أبجدياتٍ تتألَّف منها الكلمات.

بعد ذلك، جاءت مُرضِعةٌ في خدمةِ طفلٍ رضيعٍ في البيت. كنت أكتب الخطابات لأجلها، وكانت تشكو مشكلاتها لزوجها الذي كان في أمريكا آنذاك. وبناءً علىٰ طلبها، كنت أكتبها بصيغٍ قاتمة، مضيفًا: "طفلنا هو النجم الوحيد اللامع في سماء حياتي المُعتِمة". كانت تفرح كثيرًا بما أكتب، حتىٰ أنني كنت أعيد قراءة الخطاب بصوتٍ مرتفع

ويخالجني شعورٌ بالرضا، رغم المواضع المُتعلِّقة ببعض الأمورِ الخاصة، مثل إرسال دولارات أو ما شابه، والتي كانت تُحرِجني بعض الشيء. ثم تقول لي:

"والآن، خطابٌ آخر".

فأسألها: "لمن؟"، فقط كي أستعد للإبداع في مهمتي الجديدة.

فترد: "إلىٰ ابن عمي".

تمحوَرَ هذا الخطاب أيضًا حول حياتها المُظلِمة، لكن ما من شيءٍ قيلَ فيه عن نجومٍ تبعث علىٰ الأمل، بل وانتهىٰ باقتراحِ أن يزورها إن هو رغب في ذلك. وما إن ترحل المُرضِعة، حتىٰ تظهر تلميذتي - المُربية - التي من الواضح أنها كانت تتصنَّت علينا، وتهمس بشيءٍ من السخط: "لكنه بأيِ حالٍ من الأحوال ليس ابن عمها"، فأسألها: "من هو إذن؟"، فتجيب: "مجرد شخصٍ ما".

أُتيحَت لي بعض الفرص كهذه لأتأمَّل تعقيدات العلاقات الشخصية.

وفي العشاء، قالت لي فاني سولومونوفا وعلىٰ وجهها ابتسامةٌ غريبة: "أتريد المزيد من الحساء، أيها المؤلف؟".

فاندهشت، وسألتها بحذر: "ماذا؟".

فردَّت: "لا، لا شيء، أنت فقط تكتب الخطابات لأجل المُرضِعة، إذن أنت مؤلف. كيف تكتب هذا، أليس شيئًا من قبيل "نجمٍ في سماء

حياتي المُعتِمة"؟ أنت حقًا مؤلف". وحينها، لم تستطع كبت ضحكها أكثر من ذلك، فانفجرت في القهقهة.

فيتدخَّل مويسي فيليبوفيتش قائلًا: "إنها كتابةٌ جيدة. لكن، أتعلم؟ لا ينبغي أن تكتب الخطاب لأجلها بعد الآن، دع فاني تفعل ذلك بنفسها".

إلا أن هذا الجانب المُدهِش في حياتي، والذي لم يكن يُعتَرَف به في المنزل أو في المدرسة، لم يتلاشىٰ بسبب مثل هذه الملاحظة أو ذاك التحذير، بل أثبت أنه أقوىٰ من كل ذلك، حتىٰ في نفسِ صبيٍ لم يكد يناهز بعد العشرة أعوام. وفي نهاية المطاف، ما لا يجد لنفسه مجالًا في فصل المدرسة، أو عبر باب المنزل، يشق لنفسه طريقًا إلىٰ المطبخ.

طُبِّقَ القانون الذي يُحدِّد نسبة قبول التلاميذ اليهود في مدارس الدولة فقط بعشرةٍ في المائة من إجمالي التلاميذ، في العام 1887. ذهبت كل الجهود سُدىٰ للتسجيل في مدرسةٍ عادية، اللهم إلا تضمَّن التسجيل رشوةً مُعتبَرة. وتختلف المدرسة الألمانية عن العادية في غياب اللغات القديمة، مثل اليونانية، عن مناهجها، وفي المنهج الأكبر في الرياضيات والعلوم الطبيعية واللغات الحديثة. كان قانون العشرة بالمائة يُطبَّق أيضًا علىٰ المدارس الألمانية، لكن أعداد المُتقدِّمين كانت أقل في هذه المدارس، مما أتاحَ بالطبع فرصةً أكبر للقبول فيها. ولفترةٍ طويلةٍ، اشتعلت الجدالات في المجلات والصحف حول مزايا التعليم الكلاسيكي التقليدي في مقابل التعليم الألماني. تمسَّكَ

المُحافِظون بالتعليم الكلاسيكي آخذين في امتداحِ المنافع من مستوىٰ انضباطه - من المُرجَّح أنهم كانوا راسخين علىٰ هذا الموقف علىٰ أملِ أن المواطن الذي يطيق تعلُّم اليونانية في طفولته لابد أنه سيتحمَّل القيصرية طوال حياته المقبلة. أما الليبراليون علىٰ الجانبِ الآخر، فقد فضَّلوا التعليم الألماني، دون أن يحجدوا نظيره الكلاسيكي أو يتنكروا منه، إذ تُعتبَر الكلاسيكية بمثابة حاضنةٍ لليبرالية، وكلٌ منهما ترجع جذوره إلىٰ عصرِ النهضة. وحين صرت علىٰ وشكِ دخولِ المدرسة، خمدت هذه السجالات في الصحف، وكأن قرارًا قد صَدَرَ ليضع لها حدًا.

وفي الخريف، خضت اختبار القبول في مدرسة سان بول، واجتزته بدرجاتٍ متوسطة. لم يكن هذا كافيًا، فنسبة العشرة بالمائة كان تعني صرامةً في اختيار المقبولين، ما قد يتطلَّب بالطبع رشوةً لإدراج اسم التلميذ في قائمة المقبولين. تقرَّر قبولي في الفصل التمهيدي المُلحَق بالمدرسةِ كمعهدٍ خاص. صحيحٌ أن التلاميذ اليهود كانوا ينتقلون من هنا إلىٰ الصف الأول وفقًا لدرجاتهم، لكن الأمرَ كان يتطلَّب عادةً توصيةً من الخارج.

كان مدرسة سان بول في الأصلِ معهدًا ألمانيًا، فقد تأسَّسَ من قِبَلِ الأبرشية اللوثرية لخدمة السكَّان الألمان في أوديسا وفي الجنوب الروسي بشكلٍ عام. ومع أن سان بول كان لها كافة الحقوق التي تمنحها الدولة في التعليم، كان لزامًا علىٰ التلاميذ، لأن هذه المدرسة

تتضمَّن صفوفًا ستة فقط، أن ينتقلوا لاستكمال الصف السابع في أخرىٰ، من أجل القبولِ بعد ذلك في الجامعة. من الواضح أن أحد أهداف ذلك كان محو ما يتبقىٰ من الروح الألمانية خلال العام الدراسي الأخير. لكن هذه الروح كانت بالفعل تخبو عامًا بعد آخر في سان بول نفسها. كان الألمان يُشكِّلون أقل من نصف إجمالي التلاميذ، وكذلك كان المُدرِّسون الألمان يُسرَّحون شيئًا فشيئًا.

الأيام الأولىٰ من الدراسة كانت أيامًا بائسةً بحق، لكن بعد ذلك جاءت أيام السرور. بدأت حياتي المدرسية بزيٍ أنيق، مرتديًا قبعةً صفراءَ الحواف عليها شارةٌ تتضمَّن الرمز المونوجرامي المُعقَّد للمدرسة بين ورقتي شجر، وعلىٰ ظهري حقيبةٌ جلدية، ممسِكًا بكتبٍ ذات أغلفةٍ برَّاقة، وعلبة أقلامٍ تحتوي عددًا من الأقلام الرصاص المُدبَّبة وحاملَ أقلامٍ وممحاة. وأثناء التنقُّل من البيتِ إلىٰ المدرسةِ والعكس، كنت أجيءُ وأذهبُ عبر شارع أوسبينسكي بهذه الحمولةِ التي أثارت إعجابي، سعيدًا بأن المسافة إلىٰ المدرسةِ ليست بأي حالٍ قصيرة. بدا لي أن المارة يُحدِّقون النظر، أحيانًا بدهشةٍ وأحيانًا أخرىٰ بحسدٍ، في معداتي المُدهِشة تلك. كنت أستطلع نظرات كل من أصادفه في الطريق بثقةٍ، وبشغفٍ أيضًا. ثم، فجأةً، توقَّف أمامي فتىٰ نحيلٌ طويل كان في حوالي الثالثة عشر من عمره، ومن الواضح أنه كان صبيًا في ورشةٍ أو ما إلىٰ ذلك، إذ كان يحمل أداةً معدنيةً في يده، ومن علىٰ بُعدِ خطوتين أو ثلاث مني، أرجَعَ رأسه بعنفٍ للوراء قليلًا،

حاشدًا ما في فمه من لعاب، وبَصَقه علىٰ كتفِ معطفي الجديد، ثم مضىٰ دون كلمةٍ واحدة، وفي عينيه نظرةُ احتقارٍ صوبي. ما الذي دفعه لفعلِ ذلك؟ عرفت السبب الآن. هذا الصبي المكفهِر المُفقَر رث الثياب ذو الحذاء البالي من دونِ جوربَين، الذي كان عمله أن يقوم بمهامٍ قذرة لأسياده الذين يتباهىٰ أبناؤهم كلٌ بزيه المدرسي، هذا الصبي كان قد وَجَدَ فيّ متنفَّسًا لشعوره بالاحتجاج الاجتماعي. لكن وقتذاك لم أكن بالطبع مهتمًا بمثل هذه التعميمات. مسحت كتفي بأوراق شجر، بينما كنت أغلي في داخلي من هذه الإهانة التي وقفت أمامها مكتوف اليدين، وواصلت مسيري إلىٰ المدرسة مُغتمًّا وفي مزاجٍ عكِر.

كانت اللطمة الثانية في انتظاري في المدرسة نفسها. صاح الأولاد: "بيتر بافلوفيتش، هذا ولدٌ آخر من الفصل التمهيدي يرتدي الزي المدرسي". ما معنىٰ هذا؟ اتَضَحَ أن الفصل التمهيدي كان منفصلًا تمامًا عن المدرسة، ويُحظر علىٰ تلاميذه حظرًا صارمًا ألا يرتدوا الزي المدرسي الخاص بسان بول. أوضَحَ لي بيتر بافلوفيتش، وهو ذلك المراقب المدرسي ذو اللحية قاتمة السواد، أن عليّ أن أنزع الشارة من علىٰ القبعة، ومشبك الحزام المعدني، وأن أضع أزرارًا عاديةً بدلًا من الأزرار ذات النسر المطبوع علىٰ كلٍ منها. تلك كانت نائبتي الثانية.

لم تُعطىٰ أي حصصٍ في ذلك اليوم في المدرسة. تجمَّع الطلاب الألمان، والكثيرون غيرهم، في الكنيسة الأبرشية التي حملت

المدرسة اسمها، ووجدت نفسي تحت إشرافِ صبيٍ سمين رسب في الامتحانات ليعيد العام الدراسي التمهيدي، فكان يعرف النظام المُتَّبَع جيدًا. أجلسني في الكنيسة علىٰ مقعدٍ بجواره.

كانت تلك هي المرة الأولىٰ التي أسمع فيها آلةً تُعزَف، وكان صوتها يرتجف. ثم ظَهَرَ رجلٌ طويلٌ حليق يرتدي معطفًا أبيض طويلًا، ترَدَّدَت أصداءُ صوته في أرجاءِ الكنيسةِ كسلسلةٍ من الموجات. أبرزت الغرابة البادية في كلماته عظمة خطابه بعشرة أضعافها. سألت صديقي كارلسون: "من هذا الذي يتحدَّث؟"، فأجاب: "إنه راعي الأبرشية، القس بينيمان نفسه. إنه حكيمٌ جدًا، أكثر رجلٍ حكيمٍ في أوديسا".

"ماذا يقول؟".

فردَّ كارلسون بحماسةٍ أقل: "حسنًا، كما تعرف، يقول الكلام المُعتاد. لكني أقول لك لابد أن تجتهد في دراستك، عليك أن تكون نشيطًا مثل زملائك". لكن اتضح أن هذا الصبي عظيم الصدغ، شديد الإعجاب ببينيمان، كان أكسل من في الفصل وأكثرهم إثارةً للمتاعب.

جاء اليوم الثاني برغدٍ أسلاني عن متاعبِ اليوم قبله. أظهرت تفوُّقي في الحساب، ونسخت الدرس جيدًا من علىٰ السبورة في دفتري، وامتدحني المُعلِّم روديينكو أمام الفصل بأجمعه، وأعطاني درجاتي كاملةً. صالَحَني هذا مع الأزرار العادية علىٰ معطفي.

كان مدير المدرسة، كريستيان كريستيانوفيتش شوانيباخ، يُدرِّس الألمانية لفصول المبتدئين. كان مسئولًا أنيقًا اكتسب مكانته هذه فقط لأنه زوج أخت بينيمان نفسه. حين جاء إلىٰ فصلنا، بدأ أولًا يتفحَّص أيادي التلاميذ. وجد يديَّ نظيفتين. ثم، حين نسخت الدرس بالضبط وتمامًا كما كُتِب علىٰ السبورة، صاح بصوتٍ جهوري معلنًا أنني أستحق الدرجة النهائية. وهكذا بعد اليوم الفعلي الأول في المدرسة، عدت مُحمَّلًا بدرجاتٍ نهائيةٍ، فحملتها في حقيبتي الجلدية ككنزٍ نفيسٍ هرولت به إلىٰ حارة بوكروفسكي، مُتعطِّشًا لما سألقاه من مجدٍ في البيت.

ها قد صرت تلميذًا. كنت أستيقظ باكرًا، وأحتسي شاي الصباح في عجلةٍ من أمري، وآخذ معي علبةً بها غداء اليوم في جيبِ معطفي، وأهرع إلىٰ المدرسة كي أصل في وقت صلاة الصباح. لم أكن بليدًا قط. أجلس هادئًا أمام منضدتي، وأسمع بانتباهٍ وأنسخ الدرس بعنايةٍ في دفتري. كنت أستذكر دروسي بدأبٍ في البيت، وأخلد إلىٰ النوم في الساعةِ المُحدَّدَة، لأهرع في الصباحِ التالي من الشاي إلىٰ المدرسة خوفًا من أن أتأخَّرَ علىٰ الصلاة. عبرت من صفٍ إلىٰ آخر دون صعوبةٍ تُذكَر. وكلما كنت أصادف مُعلِّمًا في الشاع، كنت أنحني بكل احترامٍ ممكن.

لم تكن نسبة غريبي الأطوار قليلةً بين الناس بشكلٍ عام، لكنها كانت عاليةً بصورةٍ خاصة بين المُعلِّمين. في مدرسة سان بول، كان

مستوىٰ المُعلِّمين أعلىٰ من المتوسط المألوف في المدارس. كانت مكانة المدرسة نفسها عالية، من دون سببٍ وجيهٍ لذلك. كان النظام منضبطًا وصارمًا، وسنةً تلو أخرىٰ كانوا يُضيِّقون الخناق أكثر فأكثر، خاصةً بعدما تولَّىٰ نيقولاي أنطونوفيتش كامينسكي بدلًا من شوانيباخ. كان فيزيائيًا، وذا مزاجٍ كارهٍ للبشر، لم يكن ينظر قط لمن يُحادثه، فيما كان يمر في الأروقة والفصول بحذاءٍ مطاطي دون أن يلفت النظر. كان يتحدَّث بصوتٍ مرتفعٍ وأجشٍ بدا مخيفًا حتىٰ دون أن يصيح قاصدًا ذلك. بدا كامينسكي، ظاهريًا، ضيق الصدر، وكان دائمَ الشعورِ بسخطٍ داخلي. وكان سلوكه تجاه حتىٰ أفضل التلاميذ سلوكًا مُتحفِّزًا. وكان هذا سلوكه معي أيضًا في إحدىٰ الوقائع.

وبصفته فيزيائيًا، اخترع كامينسكي جهازًا خاصًا كي يشرح لنا قانون بويل لمقاومة الغازات. وبعد كل تجربةٍ، ينهض أحد التلاميذ متسائلًا: "ومن إذن اخترع هذا الجهاز؟"، فيجيب كامينسكي بصوتٍ مرتفعٍ جليدي: "أنا صنعته". فيتبادل بعض التلاميذ النظرات متعجِّبين من ذلك.

بعدما حلَّ كامينسكي محل شوانيباخ، القرار الذي جاء علىٰ سبيل إضفاء مزيدٍ من الصبغةِ الروسية علىٰ المدرسة، عُيِّنَ مُعلِّمُ الأدب، أنطون فاسيليفيتش كريجانوفسكي، مفتشًا للمدرسة. كان رجلًا ذا لحيةٍ حمراء، لاهوتيًا سابق، ومحبًا للمواهب وذا ميلٍ طفيفٍ تجاه

الليبْرالية، كان بارعًا مخادعًا، قادرًا علىٰ إخفاء نواياه وراء ستارٍ من العطفِ والرقة.

لكن بمجرد أن تولَّىٰ منصب المفتش، صار قاسيًا مُتعنتًا، وميَّالًا إلىٰ المحافظة. كان يُدرِّس الروسيةَ ابتداءً من الصفِ الأول حتىٰ الأخير، وكان دائم الإشارةِ إلىٰ حبي للغة وإجادتي لقواعدها، وقد جعل من الثابت في حصته أن يتلو كتاباتي بصوتٍ مرتفعٍ للفصل كله، مانحًا إياي الدرجةَ النهائية.

أما مُعلِّم الرياضيات، يورتشينكو، فقد كان قصيرًا ثخينًا، باردًا، وداهية. كان يُعرف باسم "بايندبوجينك"، والتي تعني في العامية الأوديسية "سائق الشاحنة". كان ينادي علىٰ جميع الطلاب، حتىٰ وإن كان في الصفِ الأول، بـ"حضرتك"، ولم يكن يتنوَّق كثيرًا في تعبيراته. لكن، رغم فظاظته التي أكسبته قدرًا من الاحترام، تلاشت هيبته مع الوقت بعد أن علم الأولاد أنه يتلقىٰ رشاوَىٰ. وهذا لا يعني أن المُعلِّمين الآخرين لم تحُم حولهم الشكوك إزاء تلقيهم رشاوَىٰ بهذا الكيف أو ذاك.

مُعلِّم الرياضيات الثاني، زلوتشانسكي، كان علىٰ النقيض التام من يورتشينكو، إذ كان نحيفًا، ذا شاربٍ بدا كحزمةٍ من الأشواك علىٰ وجهٍ أخضرٍ مائلٍ إلىٰ الصُّفرة، كانت عيناه كَدِرتَين، وحركاته متثاقلة كما لو كان قد استيقظ للتو فقط. كان يسعل بحدة، ويبصق علىٰ أرضية الفصل. شاع عنه أن كانت له قصة حبٍ تعيسة دفعته للإسراف في

الشراب. ومع أنه لم يكنْ مُعلِّمًا سيئًا، كان يسرح بناظريه إلىٰ ما وراء التلاميذ، والرياضيات؛ إلىٰ ما وراء الدراسة والمدرسة. وبعد عدة سنوات، شقَّ حلقه بموسىٰ حلاقة.

كانت علاقتي بكلاهما سلسةً وسعيدة، إذ كنت قويًا في هذه المادة. وحين وصلت إلىٰ الصف الأخير في المدرسة، كنت أنوي التخصُّص في الرياضيات العليا.

وأما مُعلِّم التاريخ، فكان ليوبيموف؛ رجلًا ضخمًا مهيبًا بنظاراتٍ ذات إطارٍ ذهبي علىٰ أنفٍ رفيع، وبوجهٍ رجولي تُغلِّفه لحيةٌ شابة. وفقط حين كان يبتسم تتكشَّف ضحالته فجأةً أمام الأولاد جميعًا، فقط من ابتسامةٍ يتكشَّف خجله وضعف إرادته، ويتكشَّف أنه مُمَزقٌ من الداخل يخشىٰ أن يعرف الناس عنه شيئًا ما.

غرقت في دراسة التاريخ باهتمامٍ متزايدٍ لكن مُشتَّتٌ بعض الشيء. وتدريجيًا، وسَّعت دوائر دراساتي، متخليًا عن المناهج الرسمية الفقيرة بينما استعنت بالمناهج الجامعية ومجلدات شلوسر. ولا شك في أن كان هناك عنصرٌ مُمتِعٌ في ولعي بالتاريخ. حفظت الكثير من الأسماء والتواريخ غير الضرورية عن ظهرِ قلب، مع أنها كانت حقًا تُثقِل ذاكرتي، حتىٰ أدهش المُعلِّم ليوبيموف بين الحين والآخر. لم يكن ليوبيموف مُنسجِمًا مع التلاميذ في فصله. أحيانًا كان فجأةً يشتعل غضبًا في أثناء الحصة، وينظر بحنقٍ حوله في كل اتجاه، بعد أن تلتقط أذناه همسةً يظنها إساءةً لشخصه، ومن ثم ينتبه كل من في الفصل له

والدهشة تسيطر عليهم. عمل ليوبيموف من قبل في مدرسةٍ للفتيات، وهناك أيضًا لوحِظت تصرُّفاته الغريبة. انتهىٰ به الحال أن شَنَقَ نفسه من النافذة في إحدىٰ نوبات الجنون.

مُعلِّم الجغرافيا، جوكوفسكي، كان يخشاه الجميع أكثر مما يخشون النار. كان يسحق الأولاد كما اللحم في مجزرٍ آلي. كان من عادته أن يطالب في الفصلِ بصمتٍ مُطبِق لا تشوبه ولو همسة. وفي بعض الأحيان، كان في أثناء تلاوته الدرس ينظر شزرًا لتلميذٍ أصدر صوتًا من بعيد، كطيرٍ جارحٍ صوب فريسته. كان الجميع يعلم ما تعنيه هذه النظرة: ألا تُحدِث صوتًا، بل ألا تتنفَّس إذا أمكنك هذا. أتذكَّر ذات مرةٍ أن أرخىٰ عنان قواعده الصارمة، حتىٰ أنني ظننت أن هذا يوم عيد ميلاده أو شيءٌ من هذا القبيل. قام أحد الأولاد وقال شيئًا شخصيًا له، إذ لم تكن له علاقةٌ بالدرس. فتقبَّل جوكوفسكي الأمر علىٰ مضض. كان هذا حدثًا في حد ذاته. ثم علىٰ الفور نَهَضَ فاكير، المتملِّق، بابتسامةٍ لزجة، وقال: "من المعروف أن ليوبيموف لا يحب جوكوفسكي"، فانفعلَ جوكوفسكي: "ما هذا؟ اجلس". وفجأة حلَّ علىٰ الفصل ذلك الصمتُ المُطبِق الذي لا يُعرَف إلا في حصة الجغرافيا. جلس فاكير كما لو كان قد تلقىٰ ضربةً طرحته علىٰ مقعده، وحاصرته نظرات الاشمئزاز والتوبيخ من كل جانب. فقال، محاولًا استمالة قلب المُعلِّم: "أقسم لك أن هذه هي الحقيقة"، في حين لم يكن له أي مكانةٍ تُذكَر لدىٰ جوكوفسكي.

مُعلِّم الألمانية كان ستروف، ذلك الرجل الضخم ذو الرأس الكبيرة واللحية الطويلة التي تكاد تلامس خصره. كان يتحرَّك بجسده الثقيل كوعاءٍ من العطف تتفرَّع منه أطرافٌ طفولية. كان ستروف رجلًا أمينًا؛ كان يتألَّم لفشل بعض تلاميذه، ويشاركهم أفراحهم، ويقنعهم. كان يحاول أقصىٰ ما عنده ألا يترك أيًا من تلاميذه يعيد عامه الدراسي. كان هو من سعىٰ ليحظىٰ ابن أخي الطبَّاخ لديه في المنزل، فاكير، بقبولٍ في المدرسة، لكن اتضح أن الصبي لم يكن موهوبًا ولا جذَّابًا ولا ذكيًا. ستروف كان شخصًا طريفًا، وبشكلٍ عام كان متعاطفًا.

أما مُعلِّم الفرنسية، فكان جوستاف ساmoيلوفيتش برناند. كان سويسريًا ذا شخصيةٍ ضحلة كما لو أن مكبسًا عملاقًا ضغطها حتىٰ صارت مُسطحةً تمامًا. كان ذا بقعةٍ صلعاءٍ صغيرة في رأسه، وشفتين رفيعتين زرقاوتين لا تنمان عن أدبٍ أو تهذيب، وأنفٍ حادٍ، وندبةٍ كبيرة مريبة علىٰ جبهته اتخذت شكل الحرف X. لم يكن برناند محبوبًا من أيٍ من التلاميذ، وكان لهذا سببٌ وجيه. كان يعاني دومًا من عُسر الهضم، لذا كان من المعتاد أن نراه يبتلع حبوبًا علاجية في أثناء الحصة. كان يعتبر كل تلميذٍ عدوًا شخصيًا له. أما الندبة علىٰ جبهته، فكانت مصدرَ إلهامٍ للكثير من التخمينات. قيل إن جوستاف في شبابه دخل في عراكٍ، وإذ تمكَّن منه خصمه، رَسَمَ صليبًا ملتويًا علىٰ جبهته بسكينٍ في يده. تنحت هذه السردية جانبًا بعد ذلك ببضعة أشهر، لتحل محلها أخرىٰ مفادها أن لم يكن ثمة عراك، بل أنه خَضَعَ لعمليةٍ

جراحية انتُزِعَ فيها جزءٌ من الجبهة لإصلاحِ أنفه. كان الأولاد يُدقِّقون في أنفه خلسةً وهم حريصون ألا ينتبه إليهم، وأكثرهم مغامرةً أكدوا أنهم لاحظوا آثارَ غرزٍ. ثم قال البعض أن الندبة نتيجة حادثةٍ سقط فيها برناند في طفولته من أعلىٰ الدرج. لكن هذا التفسير أيضًا كان مرفوضًا نظرًا لركاكته، والأهم من ذلك أن كان من المستحيل فعلًا تخيُّل أن برناند كان من قبل طفلًا.

الحاجب الأساسي في المدرسة، والذي لم يكن دوره هيِّنًا في حياتنا جميعًا، كان الألماني أنطون المعروف برباطة جأشه، والمُمَيَّز بسوالفه الرمادية المُلفِتة. إذا تعلَّق الأمر بالتأخُّر عن موعد المدرسة أو الاحتجاز العقابي لأحد التلاميذ بعد انتهاء اليوم الدراسي، لم تكن مهمة أنطون سوىٰ إجراءٍ روتيني. لكنه كان لطيفًا، وكان من الضروري الحفاظ علىٰ علاقةٍ ودودةٍ معه. كان موقفي تجاهه هو موقفٌ من اللا مبالاة، وكذلك كان موقفه تجاهي أيضًا، إذ لم أكن من ضمن زبائنه المُعتادين. كنت أصل المدرسةَ في الموعد المُحدَّد، جالبًا معي أدواتي وكتبي ودفاتري، وكنت أحفظ بطاقتي المدرسية دائمًا في الجيب الأيسر لمعطفي. لكن عشرات التلاميذ كانوا يوميًا تحت جناح أنطون، الذي لم يجد أي مانعٍ في أن يشملهم بعطفه وإحسانه بكل طريقةٍ ممكِنة. في كل واقعةٍ كان خير سندٍ لنا في مدرسةِ سان بول. تخيَّلوا دهشتنا حين علمنا، لدىٰ عودتنا من العطلة الصيفية، أن الرجل

العجوز أطلقَ النارَ علىٰ ابنة حاجبٍ آخر في الثمانية عشر من عمرها، فزُجَّ به في السجن.

علىٰ هذا المنوال كانت الحياة المدرسية تجري بانتظامٍ تتخلَّله كوارث فردية وشخصية تدمغ انطباعاتٍ مُبالَغة، كعويلٍ في قبوٍ مهجور.

كان هناك ملجأ أيتام ملتحقًا بكنيسةِ سان بول. كان يحتل ركنًا من ساحة الكنيسة. كان الأولاد نزلاء المجأ يظهرون في الساحةِ مرتدين دنيمًا أزرق، ووجوههم يكسوها الغم، يذهبون ويجيئون ويصعدون الدرج متثاقلي السيقان. ورغم أن الساحة كانت أرضًا مشتركة ومفتوحة للجميع، وأن ملجأ الأيتام لم يكن بأي حالٍ مفصولًا عنها، كان التلاميذ والأيتام يشكلون عالَمَين مُنفصِلَين تمامًا. حاولت مرةً أو مرتين أن أتحدَّث مع هؤلاء الأولاد في الدنيمِ الأزرق، لكنهم كانوا يردُّون عليّ بخشونةٍ وكأنهم مُكرَهين علىٰ الرد، ثم يهرعون مباشرةً إلىٰ ملجأهم. كانوا خاضعين لأوامرٍ صارمة بعدم الاختلاط بالتلاميذ. كنت ألعب في هذه الساحة لسبع سنواتٍ متصلة، ولم أعرف اسم أيٍ منهم قط. ربما كان علينا أن نفترض أن القس بينيمان كان يُنزِل عليهم بركته في بدايةِ كل عام، حتىٰ ينعزلون تمامًا عن تلاميذ المدرسة.

وإلىٰ جوار ملجأ الأيتام، كانت هناك صالة الألعاب الرياضية المُعقَّدة والممتلئة بالحلقاتِ، والأعمدة، وسلالم الأراجيح العمودية والمائلة، والقضبان المتوازية، وهلمجرا. بعد انضمامي للمدرسةِ

بفترةٍ قصيرة، أردت تقليد حيلةٍ نفَّذها أمامي أحد الأطفال من ملجأ الأيتام. تسلَّقت السلم العمودي وعلَّقت نفسي في الهواء متشبِّثًا بطرفِ حذائي في الدرج الأعلىٰ من السلم بحيث تدلَّىٰ رأسي للأسفل. تمكَّنَت يداي من الإمساك بدرجٍ سفلي، وحرَّرت قدماي متوقِّعًا أن أقفز في حلقةٍ نصف دائريةٍ لأهبط علىٰ الأرض في وثبةٍ واحدة. لكنني فشلت في تحرير يديّ في الوقتِ المناسب، وهكذا ارتطم جسدي بعنفٍ في السلم. شعرت بصدري كما لو تحطَّم، وكنت أتنفَّس بصعوبة، فتلوَّيت علىٰ الأرضِ مثل الدودة محاوِلًا الإمساك بسيقان الأولاد من حولي، ثم فقدت الوعي. ومنذ تلك اللحظة وأنا أتوخىٰ الحذر في كل حركةٍ في صالة الألعاب.

لم تكن حياتي رياضية، ولم أقضها في الشوارع والأسواق، ولم تحتل الأنشطةِ خارج المنزل حيِّزًا كبيرًا منها. لكنني عوَّضت هذه النقائص في العطلات التي قضيتها في القرية. بدت لي المدينة مبنيةً في الأساس بغرض الدراسة والقراءة، ومشاجرات الصبية في الشوارع شيئًا مُخزيًا، رغم أن لم يكن هناك افتقارٌ لأسباب الشجار.

كان طلاب المدارس العادية، نظرًا للشارات والأزرار الفضية التي تُرصِّع معاطفهم، يُلقَّبون بـ"السلمون"، بينما يُطلَق علىٰ طلاب المدارس الألمانية "الرنجة" نظرًا لأزرارهم النحاسية. وذات مرةٍ، حين كنت عائدًا إلىٰ المنزل عبر شارع يامسكايا، دنا مني صبيٌ طويلٌ كان تلميذًا في مدرسةٍ عادية، وظلَّ يسألني ساخرًا: "بماذا تحشون

الرنجة؟"، وإذ لم يتلق مني إجابةً، دفعني بكتفه بقوة. فسألته بأقصىٰ ما توصَّلت له من احترامٍ وكياسة: "ماذا تريد مني؟"، ففوجئ الصبي بردةِ فعلي، وتردَّدَ للحظةٍ ثم سألني:

"هل لديك نبلة؟".

فتعجَّبت: "نبلة! وما هي النبلة؟".

فأخرج الصبي بصمتٍ من جيبه أداةً صغيرةً تتألَّف من رباطٍ مطاطي علىٰ عصا ذات فرعين، وقطعةٍ معدنيةٍ صغيرة، وقال: "من النافذة أقتل الحمام علىٰ السطح ثم أقليه". نظرت إلىٰ رفيقي الجديد بدهشةٍ بالغة، فتلك الهواية لم تكن فقط غير مألوفةٍ في ضواحي المدينة، بل أنها أيضًا لم تكن لائقةً ولا مقبولة.

كثيرٌ من الأولاد كانوا يذهبون للبحر أو للصيد وسط الأمواج، لكنني لم أكن أعرف هذه المتع. والغريب أن البحر لم يكن جزءًا من حياتي خلال تلك الفترة، مع أنني قضيت سبعة أعوام علىٰ ساحله. وطيلة هذه المدة لم أستقل قاربًا في البحر قط، ولم أذهب للصيد قط، ولم أكن أرىٰ البحرَ إلا في رحلاتي من وإلىٰ القرية. وحين ظهر كارلسون ذات مرةٍ بأنفٍ تنسلخ من عليه طبقةٌ من الجلد من حرقة الشمس، ومَدَحَ في صيدِ أسماك الشوب من علىٰ متنِ قاربٍ صغير، بدت لي هذه المتعة التي أخذ يصفها بحماسةٍ بعيدةً وغريبة، ولم يكن

لها أيُ وقعٍ في نفسي علىٰ الإطلاق. لابد أن ذلك الصيَّاد الشغوف لم يكن قد استيقظ في روحي بعد.

حين كنت في الصف الإعدادي، جمعتني صداقةٌ حميمة مع كوستيا، وهو ابن طبيبٍ معروف. كان كوستيا أصغر مني بسنة، وبالتالي بدا أصغر حجمًا علاوة علىٰ مظهره الهادئ، لكنه رغم ذلك كان محتالًا بعينين ضئيلتين حريصتين. كان يعرف المدينةَ جيدًا، وفي هذا الصدد كان متفوِّقًا عني بمراحل. لم يكن متميِّزًا في دراسته، بينما كنت أنا أحافظ علىٰ أعلىٰ الدرجات دائمًا. وفي منزله، لم يكن كوستيا له حديثٌ إلا عن صديقه الجديد. ونتيجةً لذلك، جاءت أمه، وكانت امرأةً ذابلةً ضئيلةَ الجسد، إلىٰ فاني سولومونوفا تطلب أن يذاكر الولدان سويًا. ووفِقَ علىٰ هذا الطلب، ومن ثم تشاركنا معًا نفس المنضدة لعامين أو ثلاث، إلىٰ أن تخلَّف كوستيا عامًا دراسيًا، فانفصلت دراسةُ كلٍ منَّا عن الآخر، لكن علاقتنا استمرت في السنوات اللاحقة.

كانت لكوستيا أختٌ أكبر منه بعامين تقريبًا تدرس في مدرسةٍ عادية للفتيات. والفتاة كانت لها صديقاتٌ بالطبع. والصديقات كان لهن إخوة. وهؤلاء كانوا يحومون حول صديقات أخواتهم. تولَّدَ بين كل هؤلاء عالمٌ صغيرٌ من العواطف والغيرة والرقص والألعاب، والأحقاد والعداوات أيضًا، وكان مركز هذا العالم يتمحور حول عائلةِ تاجرٍ ثري كانت شقته في نفس البيت ونفس الطابق الذي عاشت فيه عائلة كوستيا. كانت الأروقة بين الشقق تفيض إلىٰ نفس الشُرفةِ المُطلة علىٰ الباحة

الخلفية للمنزل. وفي هذه الشُرفة كانت تُعقَد شتىٰ أنواع الاجتماعات، سواء تلك العارضة أو غيرها. وفي بيت التاجر، كان المناخ مختلفًا تمامًا عمَّا اعتدت عليه في منزلِ آل شبينتزر. هناك، كان الصبية والفتيات يمارسون فنون المغازلة تجاه بعضهم برعايةٍ من ابتساماتٍ توزِّعها سيدات المنزل علىٰ الجميع. وفي خضمِ أي محادثةٍ، كان يتضح بسهولة أيٌّ منهم يهتم بمن علىٰ وجه التحديد. كنت أشعر بالازدراءِ تجاه مثل هذه الأمور، لكنه كان شعورًا زائفًا ومنافقًا.

ذات مرةٍ قالت لي ابنة التاجر ذات الأربعة عشر ربيعًا: "حين تقع في الحب مع أيٍ من كان، لابد أن تقول لي". فقلت لها بفخرِ رجلٍ يعرف قيمة نفسه: "بإمكانني أن أعدك بذلك، إذ أنني لست في مرمىٰ هذا الخطر" - كنت وقتذاك في الصف الثاني.

بعد ذلك بأسبوعين تقريبًا، نظَّمَت الفتيات عرضًا مسرحيًا صامتًا، وفيه كانت الأخت الصغرىٰ ترفع يديها لتقوم بدورِ الليل، إذ حملت شالًا أسود كبير منثورةً عليه نجوم مصنوعة من ورقٍ فضي. حينها، قالت لي الأخت الكبرىٰ: "انظر كم هي جميلة"، دافعةً إياي برفقٍ كي تلفت انتباهي. نظرت إليها، ووافقتها من قلبي، ثم اتخذت قراري وعقدت العزم علىٰ أن أفي بوعدي. ولم يمر وقتٌ طويل حتىٰ بدأت الأخت الكبرىٰ تجتر مني الإجابات: "أليس لديك ما تريد أن تخبرني به؟"، فنظرت لأسفل وقلت: "بلىٰ".

فسألت: "من هي إذن؟".

لكن لساني ظلَّ معقودًا، فاقترحَت أن أخبرها بأولِ حرفٍ من اسمها. علىٰ الأقل سهَّل هذا من أمري بعض الشيء. كانت الأخت الكبرىٰ اسمها آنا، والصغرىٰ بيرثا. وهكذا أجبتها بالحرف الأبجدي الثاني.

فتعجَّبَت: "ب؟"، ومن الواضح أن نالَ الإحباطُ منها، وانتهت المحادثة عند هذا الحد.

في اليوم التالي كنت في طريقي إلىٰ كوستيا لنذاكر سويًا. وحين كنت أعبر الرواق الطويل في الطابق الثالث، لاحظت أن الأختين جالستان في الشُرفةِ مع أمهما. وعلىٰ بُعدِ خطواتٍ قليلةٍ منهن، شعرت أن عيونهن تخترقني بنظراتٍ ساخرة. لم تبتسم الأخت الصغرىٰ، بل أدارت وجهها عني بتعبيرٍ ينم عن لامبالاةٍ مخيفة. أقنعني هذا علىٰ الفور أنني تعرَّضت للخيانة. صافحتني الأم والأخت الكبرىٰ بأسلوبٍ غريب كأنما تقولان لي: "حسنًا أيها الفرخ الصغير، الآن عرفنا ما يكمن تحت هذه الجدية المُقنَّعة"، ومدت الأخت الصغرىٰ يدها دون أن تنظر لي. ثم ذهبت تصاحبني نظراتهم الحادة، وشعرت بسهامهم القاتلة في ظهري. بعد ذلك قرَّرت أن أقطع علاقتي بهذه العشيرة الغدَّارة؛ أن أنساهم تمامًا وأن أنتزعهم من قلبي. وساعدتني في ذلك فترة العطلة التي سرعان ما جاءت بعد هذا الموقف بوقتٍ قصير.

ما لم يكن مُتوقَّعًا بالنسبةِ لي هو أن أُصيبَ بقصرِ النظر. ذهبت إلىٰ طبيب عيون، وأعدَّ لي نظارةً طبية. لم يخدش هذا كبريائي علىٰ

الإطلاق، بل على العكس؛ أمدتني النظارةُ بالشعورِ بقيمةٍ إضافية لشخصي. كنت أنتظر، بشعورٍ من الرضا العميق، ظهوري مرةً أخرى في يانوفكا مرتديًا إياها، لكنها كانت بمثابة ضربةٍ قويةٍ بالنسبةِ لأبي. اعتقد أنها مُكلِّفةٌ، وأنني لا أرتديها إلا على سبيل التأنُّق، وطالبني بخلعها على الفور. ذهبت احتجاجاتي ضد هذا القرار سُدى، في حين أنني لم أكن دونها أستطع قراءة ما يُكتَب على السبورة، ناهيكم عن الإشارات واللافتات في الشوارع. وهكذا لم أكن أرتديها في يانوفكا إلا خلسةً. هذا لا يعني أنني كنت في القريةِ شجاعًا ومُغامِرًا. خلعت عباءة الالتزامات الصارمة في المدينة، وكنت أذهب وحدي إلى بوبرينيتز على ظهر الحصان، وأعود في نفسِ اليوم مع حلولِ الليل. ورحلةٌ كهذه كانت تبلغ خمسين كيلومترًا. وفي بوبرينيتز، كنت أستعرض نظارتي على الملأ، ولم يكن لديّ أدنى شكٍ في الانطباع الذي تُولِّده.

خلت بوبرينيتز إلا من مدرسةٍ واحدة محلية للفتيان، والمدرسة الثانوية الأقرب للفتيان كانت في إليزافيتجراد، على بُعدِ خمسين كيلومترًا. لكن كانت هناك مدرسةٌ ثانوية للفتيات في بوبرينيتز، وخلال العام الدراسي كانت الفتيات يجدن أصدقاءً لهن من بين فتيان المدرسة المحلية. لكن في الصيف كانت الأمور تختلف تمامًا عن ذلك، إذ يعود فتيان المدرسة الثانوية من إليزافيتجراد، بأزياءٍ مدرسيةٍ أروع وأكثر أناقةً تدفع فتيان المدرسة المحلية إلى الخلفية. كان الصراعُ مريرًا على هذا

الصعيد. وفي خضمه، تسلَّح فتيان مدرسة بوبرينيتز ليس فقط بالعصي والحجارة، بل في بعضِ الأحيان بالسكاكين أيضًا. وذات مرةٍ حين كنت أجلس علىٰ فرعِ شجرةِ توتٍ كبيرة آكل ما نضج من ثمارها، قذفني أحدهم بحجرٍ من وراء سور فأصابني في رأسي. لكن هذه ليست إلا واقعة بسيطة ضمن حربٍ لم تخلُ من دماء، تخلَّلتها الهدنة فقط عند رحيلِ أبناءِ الطبقةِ المتميِّزة عن بوبرينيتز.

أما في إليزافيتجراد، فكانت الأمورُ مختلفة، إذ هيمن طلاب المدرسة الثانوية علىٰ الشوارعِ والقلوب. لكن الطلاب الجامعيين كانوا يأتون في الصيفِ من خاركوف وأوديسا، وغيرهما من المدن البعيدة، ويزيحون كل أثرٍ لفتيان الثانوية. كانت الحربُ ضاريةً هنا أيضًا في إليزافيتجراد، لكنها كانت بوسائلٍ معنويةٍ وروحية.

في الريف، كنت ألعب الكروكيت والتسعة أقماع[10] علىٰ رهاناتٍ يُتفق عليها قبل اللعب، بينما كنت أعامل الفتيات بتكبُّرٍ. وهناك تعلَّمت قيادة الدرَّاجةِ علىٰ واحدةٍ صنعها إيفان فاسيليفيتش بالكامل، ومن ثم تجرَّأت لاحقًا علىٰ قيادة الدرَّاجة في مضمارِ أوديسا للسباقات، علاوة علىٰ أنني في القرية كنت أقود عربةٍ بعجلتين يجرُّها فحلُ خيل. كان هناك في ذلك الوقت عددٌ لا بأس به من الأحصنة في يانوفكا. وذات مرةٍ، عرضت علىٰ عمي، صانع الجعة، أن آخذه في

---

[10] - لعبة بريطانية أشبه بالبولينج، تكون فيها الأقماع والكرة من الخشب. (المترجم)

جولةٍ بالعربة. لم يكن ميَّالًا لمثل تلك المغامرات، فسألني بحذرٍ: "ألن تقذفني العربة؟"، فأجبته: "وكيف يحدث هذا يا عمي؟"، ومن ثم جلس خلفي بتنهيدةٍ وديعة لا تخلو من ارتياب. قطعت الطريق عبر الوادي، ثم مررت بالطاحونة، وشققت طريقي تحت المطر الصيفي المُنعِش. كان الفحل الكستنائي يتوق للمساحات الواسعة المفتوحة، ومن الواضح أنه انزعج في أثناء صعود التل، فانطلق بأقصىٰ سرعته. جذبت اللجامَ ضاغطًا بقدميَّ علىٰ القضيب الحاجز، فارتفع جسدي بحيث لم يتمكَّن عمي من رؤيةِ ما يجري. لكن الفحلَ كان قد اتخذ قراره وشرع في تنفيذه بمطلق الحرية. كان فقط في عامه الرابع آنذاك. كان في حالةٍ شديدةِ الانزعاج، فأَخَذَ يجرُّ العربة كقطٍ يحاول إفلات ذيله من علبةِ قصديرٍ مربوطةٍ فيه. شعرت أن عمي في الخلفِ تخلَّص من سيجارته، فقد كانت أنفاسه عاليةً متسارعة، وكان علىٰ وشكِ تحذيري. هدأت وتنامت ثقتي وأنا ممسكٌ باللجام، فأرخيته قليلًا، وبدأت أُطمئِنُ الفحلَ، معاتبًا إياه بسماحةٍ: "لا تلعب الآن يا فتىٰ"، بينما كان يحاول العدو مجددًا. أرخيت ذراعيَّ، وشعرت أن عمي قد هدأ وأشعل سيجارةً أخرىٰ. فزت بالتحدي، مع أن دقات قلبي كانت متسارعة ربما أكثر من قلبِ الفحل.

وبالعودة إلىٰ المدينة، أحنيت رقبتي مرةً أخرىٰ لنير الانضباط الذي لا يرحم. لكن لم يكن الأمر شاقًا بهذا القدر. تمارين وألعاب رياضية، ثم إلىٰ الكتب والدفاتر، وأحيانًا إلىٰ المسرح، وهكذا.

صحيحٌ أنني أذعنت للمدينة، لكنني لم أكد أتواصل معها قط. مرَّت حياة المدينة أمامي دون أن تلمسني، ولم يتوقَّف الأمرُ عليّ فحسب، بل أن الكبار أيضًا كانوا بالكاد يُخرِجون رؤوسهم من النوافذ. ربما كانت أوديسا أكثر مدينة اضطهادًا في روسيا المقموعة. أبرز من كان هناك هو المُحافِظ، الأميرال السابق زيليوني الثاني، الذي جَمَعَ بين السلطة المُطلَقة والمزاج المُشتعِل. كان الأوديسيون يتهامسون فيما بينهم بحكاياتٍ لا حصر لها عنه. وفي ذلك الوقت صَدَرَ كتابٌ كبير كُرِّسَ بكامله لسردِ المآثرِ البطوليةِ للأميرال زيليوني الثاني. لم أره إلا مرةً واحدة، ومن ظهره فقط. لكن ذلك كان كافيًا لي. كان واقفًا في عربته، وقد انتَصَبَ عوده بكامله، وشَرَعَ يُوزِّع لعناته علىٰ الناس بصوتٍ غليظٍ أجش، رافعًا قبضته مُتوعِّدًا إياهم. عَبَرَ في عربته أمام صفٍ من رجال الشرطة الذين رفعوا أياديهم أمام جباههم تحيةً له، إلىٰ جانبِ حرَّاسٍ خلعوا قبعاتهم تعظيمًا لشأنه. أحكمت حزم حقيبتي وأسرعت عائدًا إلىٰ المنزل. كلَّما أردت أن أجتر من ذاكرتي مشهد روسيا الرسمية في سنواتِ شبابي المبكرة، أرتأي ظهر هذا المُحافِظ وقبضته في الهواء، ويتردَّد في أذني سُبابه المُقذِع الذي قلَّما وُجِدَ في المعاجم.

الفصل الرابع

الكتب والصراعات الأولى

طوال حياتي قبل المعترك السياسي، ليس خلال فترة المدرسة فحسب بل طوال فترة شبابي، لم تكن الطبيعة والأشخاص، بالنسبةِ لي، يحتلون مكانةً أرفع من الكتب والأفكار. ورغم نشأتي الريفية، لم تسترع الطبيعة اهتمامي، بل بدأت ألتفت إليها في سنواتٍ لاحقة بعدما ولَّت طفولتي وسنواتِ شبابي المبكرة. ولزمنٍ طويل، ظل الناسُ يعبرون في ذهني كأطيافٍ غير متمايزة، فبحثت في كتبي علَّني أجد نفسي ومستقبلي.

بدأت قراءاتي الأولىٰ في 1887، بعد وصول مويسي فيليبوفيتش إلىٰ يانوفكا، جالبًا معه حزمةً من الكتب التي تضمنت بعض كتابات تولستوي الشعبية. في البداية كانت القراءة واجبًا أكثر منها متعة. كل كتابٍ جديد جلب معه عقباتٍ جديدة، ككلماتٍ غير مألوفة، أو علاقاتٍ إنسانيةٍ غير مفهومة، أو ذلك الغموض الذي يفصل الخيال عن الواقع. عادةً لم أكن أجد أحدًا ليجيب علىٰ أسئلتي، لذا كنت أبدأ في الكتابِ، ثم أتخلىٰ عنه، ثم أبدأه من جديد، فيختلط لديّ إحساس الفرح بالمعلوم بالخوف من المجهول. ربما يمكنني تشبيه تجربتي في القراءة خلال تلك الفترة بقيادةِ عربةٍ ليلًا في السهول: صريرُ العجلات، وضجيجُ أصواتٍ يقاطع كلٌّ منها الآخر، ومشاعلُ علىٰ الطريق تبدِّد

قليلًا من الظلام؛ كل شيءٍ يبدو مألوفًا، لكن يظل المعنىٰ غائبًا رغم ذلك. مذا يحدث؟ من يقود العربة؟ وماذا تحمل؟ أين تتجه، إلىٰ الأمام أم إلىٰ الخلف؟ كل شيءٍ غير واضح، وما من أحدٍ يوضِّح لي الأمور غير العم جريجوري الذي يقول: "إنهم سائقون يحملون قمحًا".

في أوديسا، كانت خيارات الكتب أكثر تنوعًا. وقد أثارَ ذلك انتباهي وعاطفتي. التهمت الكتب بشراهةٍ لا تنطفئ جذوتها، وصار لابد عليّ أن أخرج بين الحينِ والآخر لأتمشَّىٰ قليلًا. وأثناء سيري، كنت أجول داخل رأسي في ما قرأت، لأهرع بعد ذلك عائدًا إلىٰ البيت لاستئناف القراءة. وفي المساء كنت أتوسَّل كي يُسمَح لي لأبقىٰ مستيقظًا لرُبع ساعةٍ أخرىٰ، أو حتىٰ لخمسِ دقائق، لأنتهي من فصلٍ في كتاب. بالكاد كانت تمر ليلةٌ دون نزاعٍ من هذا النوع.

هذا الجوع الذي أوقِظَ في نفسي، لأرىٰ وأعرف وأستوعب، وجد ضالته في الابتلاع النَهِم لمطبوعاتٍ وقعت بين يدي طفلٍ لم يتجرَّع من كأسِ الخيال اللفظي إلا للتو فقط. كل شيءٍ عشته في حياتي اللاحقة، سواء كان مثيرًا أو مخيفًا أو سعيدًا أو بائسًا، كان موجودًا في ما قرأت، خلال فترةِ شبابي المبكرة، كلمحةٍ أو وعدٍ أو رسمٍ خفيفٍ خجول بقلمٍ رصاص أو ألوانٍ مائية.

خلال السنوات الأولىٰ من إقامتي في أوديسا، كانت القراءة بصوتٍ عالٍ في المساء، بعد الانتهاء من فروضي المدرسية حتىٰ أخلد

إلىٰ النوم، تمنحني أسعد أوقات اليوم؛ أسعد ساعة أو ربما أسعد نصف ساعة.

كان مويسي فيليبوفيتش يقرأ بوشكين أو نيكراسوف؛ نيكراسوف في أغلبِ الأوقات. لكن حين يحين الوقت، كانت فاني سولومونوفا تقول: "هيا إلىٰ النوم يا ليوفا"، فأنظر بعينين مُتوسِّلتين لها، فيقول مويسي: "حان وقت النوم يا فتىٰ"، فأتضرَّع إليه من أجل خمس دقائق أخرىٰ، فيمنحني إياها. بعد ذلك أقبِّلهما قُبلة النوم، وأشعر كما لو أن قراءات الليل لا تزال تتردَّد في ذهني، لكنني أغُط في النومِ بمجرد أن أضع رأسي علىٰ الوسادة.

جاءت فتاةٌ في عامها الدراسي الأخير بالمرحلة الثانوية، قريبةٌ لنا من بعيد، تُدعىٰ صوفيا، لقضاءِ بضعة أسابيع في منزل شبينتزر حتىٰ تُشفىٰ عائلتها من عدوىٰ الحمىٰ القرمزية. كانت فتاةً متنوِّرةً وقارئةً جيدة، غير أنها افتقرت إلىٰ الأصالةِ والشخصية، فبهتت صورتها في عقلي بعد ذلك. لكنني أُعجَبت بها بشدة، وكنت أكتشف كل يومٍ في مخزونها معارفًا جديدة وسماتٍ جديدة. وعلىٰ العكس، بدوت أمام نفسي تافهًا غير ذي قيمة. كنت أساعدها في بعضِ الأمورِ البسيطة، كنسخِ جدول الأمتحانات الخاص بها أو ما إلىٰ ذلك. وفي المقابل، حين كان الكبار يأخذون قيلولتهم بعد الغداء، كانت تقرأ لي بصوتٍ عال. ولم يمض وقتٌ طويل حتىٰ بدأنا سويًا في تأليفِ قصيدةٍ ساخرةٍ بعنوان "رحلةٌ إلىٰ القمر". في هذه القصيدة كانت هي من تفوَّقَت في التأليف. واستلزم

الأمر مني وقتًا طويلًا حتىٰ صرت أدلي ببعض الاقتراحات المتواضعة لتلتقف هي الأفكار "وهي طائرة"، وتطوِّرها، وتُدخِل عليها مُنوَّعاتٍ، وتنظم القوافي دون جهدٍ يُذكَر. وحين انتهت الستة أسابيع وعادت صوفيا إلىٰ بيتها، أحسست وكأني غدوت أنضج وأوعىٰ.

من بين أبرز أصدقاء العائلة كان رجلٌ يُدعىٰ سيرجي إيفانوفيتش سيتشيفسكي؛ صحفيًا عجوزًا وشخصيةً رومانسيةً حالِمة، كان يُعرَف في جنوب روسيا بسمعةٍ ترقىٰ إلىٰ منزلةِ شكسبير. كان رجلًا موهوبًا، لكن مدمنٌ علىٰ الخمر. وبسبب هذه النقيصة، كان موصومًا بالعار في أعين الناس، وحتىٰ في أعين الأطفال. كان يعرف فاني سولومونوفا منذ كانت شابةً يافعة، وكان يدعوها "فانيوشكا". تعلَّق بي سيرجي إيفانوفيتش منذ لقائنا الأول. وبعد أن سألني عمَّا أدرس في المدرسة، طلب مني العجوز أن أكتب ورقةً أقارن فيها مسرحية بوشكين "الشاعر وبائع الكتب"، بمسرحية نيكراسوف "الشاعر والمواطن". حبست أنفاسي حين سمعت هذا الطلب، فلم أكن قد قرأت العمل الثاني قط، والأهم من ذلك هو أن ما ضايقني كان أن عرفت أن سيتشيفسكي مؤلف. بدت لي كلمة "مؤلف" وكأنها تُنطَق من سموٍ متعال. قال لي سيرجيْ إيفانوفيتش: "سنقرأه علىٰ أية حال"، وبدأ علىٰ الفور في القراءة. قرأ بطريقةٍ رائعة، ثم قال: "هل تفهم هذا؟ حسنًا، ضعه إذن في ورقتك". أجلسوني علىٰ مكتبٍ، وأعطوني مسرحيتيّ بوشكين وينكراسوف، وورقًا وحبرًا.

قلت لفاني سولومونوفا بهمسٍ تراجيدي: "أقسم لكِ أنني لا أستطيع الكتابة في هذا الأمر. ماذا عساي أن أكتب هنا؟". فمسحت بيدها على رأسي وقالت: "ألست متحمسًا لهذا؟ اكتب تمامًا كما فهمت. هذا كل ما في الأمر".

كانت يدها حنونةً تمامًا كصوتها. طمأنتها، أو بالأحرى وضعت غروري المذعور تحت السيطرة، وبدأت الكتابة. وبعد ساعةٍ، استُدعيت لأريهم النتيجة. عرضت عليهم ورقةً طويلةً مكتوبةً من أولها إلى آخرها، ووضعتها بين يدي "المؤلف" وأنا أرتجف كما لم أفعل قط حتى في المدرسة. مرَّ سيرجي إيفانوفيتش بعينه على بعضةِ أسطر في صمتٍ، ثم صاح لفاني سولومونوفا، لافتًا عينيه اللامعتين إليّ: "فقط استمعي إلى ما كتبه. إنه فتى ذكي، أقسم أنه كذلك". ثم قرأ: "عاش الشاعر في طبيعته التي أحبَّها، والتي تردَّدَ كل صدى لها، بهجةً وبؤسًا على السواء، بين جدرانِ قلبه". أليس هذا رائعَ الجمال؟ "تردَّدَ كل صدى لها"، فقط استمعي إلى هذا: "بهجةً وبؤسًا على السواء بين جدرانِ قلبه". نُقِشَت كلماتُ ذلك اليوم في عقلي حتى أنني لازلت أتذكَّرها منذ ذلك الحين.

وفي العشاء، ظلَّ سيرجي إيفانوفيتش يمرح ويداعبنا بمزاحٍ ونكات، وأخَذَ يسبح في ذكريات الماضي، ويحكي قصصًا، مستلهِمًا إياها من قدح الفودكا في يده والذي كان دومًا تحت الطلب. كان يرمقني بين الفينةِ والأخرى عبر الطاولة، ويقول: "أين تعلَّمت الكتابة

بهذه الروعة؟ أين حقًا؟ لابد أن أعطيك قُبلة"، ثم ينهض، ماسحًا شاربه بعنايةٍ بمنديلٍ في يده، وبخطواتٍ مُهتَزةٍ يقطع رحلته حول الطاولة. كنت جالسًا وكأنني أنتظر وقعةً كارثية؛ وقعةً مُضحِكةً حقًا، لكن كارثية في الوقت نفسه. فهَمَسَ لي مويسي فيليبوفيتش: "قم واذهب إليه يا ليوفا". وبعد العشاء، تلىٰ علينا سيرجي إيفانوفيتش، من ذاكرته، جزءًا من القصيدة الساخرة "حلم بوبوف". كنت أركِّز ناظري علىٰ ذلك الشارب الرمادي الذي تفلت من بين شعراته تلك الكلمات المُضحِكة. لم تُنزِل ثمالة "المؤلف" من رِفعَته في عيني. للأطفال قدرةٌ عجيبةٌ علىٰ التجريد.

كنت أحيانًا ما أذهب للتنزه مع مويسي فيليبوفيتش في المساءِ قبل أن يحل الظلام، وحين يكون في مزاجٍ رائق كنَّا نتحدَّث في الكثير من الأمور المتنوِّعة. ذات مرةٍ، قصَّ عليّ حكاية أوبرا فاوست التي أحبَّها كثيرًا. ولأنني تابعت حكايته ببالغ الاهتمام، تمنَّيت أن أسمعها في يومٍ من الأيام في المسرح. ومن تغيُّرٍ في نبرةِ صوته، توقَّعت أن الحكاية تقترب من منعطفٍ دقيق. أزعجني تردُّده، وبدأت أخشىٰ ألا يريد أن يصل بي إلىٰ نهاية الحكاية. لكنه سرعان ما استعاد هدوءه واستطرد: "ثم وُلِدَ صبيٌ لجريتشين قبل الزواج". حلَّ علىٰ كلانا شعورٌ طيبٌ حين اجتزنا هذه النقطة التي وصلت الحكاية بعدها بأمانٍ إلىٰ خاتمتها.

أصابني المرض، ورقضت في الفراشِ بضمادةٍ علىٰ حلقي. ولمواساتي في مرضي، أعطوني رواية تشارلز ديكنز "أوليفر تويست".

أربكتني ملاحظة الطبيب في هذه الرواية بأن المرأة في المستشفىٰ ليس في إصبعها خاتم زواج.

سألت مويسي فيليبوفيتش: "ماذا يعني ذلك؟ ما شأن خاتم الزواج بذلك؟".

فردَّ عليّ بتردُّدٍ: "أوه! الناس غير المتزوِّجين ببساطة لا يرتدون خاتم زواج".

تذكَّرت جريتشين، وصار قدرُ أوليفر تويست يُنسَج في مخيِّلتي حول خاتمٍ؛ خاتم ليس موجودًا من الأصل. أصبح العالم المُحرَّم للعلاقات الإنسانية يتبلور في وعيي بشكلٍ متقطِّعٍ من الكتب، ومما كنت أسمعه يُقال بصورةٍ عارضةٍ أمامي - عادةً علىٰ نحوٍ فظٍّ وجاف - والآن عبر الأدب صار يُعمَّم ويتسامىٰ رافعًا نفسه إلىٰ منزلةٍ نبيلة.

في ذلك الوقت، كان الرأيُ العام مُثارًا حول مسرحية تولستوي "قوة الظلام" التي كانت قد صدرت للتو. ناقشها القراء بجديةٍ بالغة، لكن لم يتمكَّنوا من الوصول إلىٰ أي استنتاجٍ مُحدَّد. نجح بوبدونوستزيف[11] في حثِّ القيصر أليكساندر الثالث علىٰ حظرِ عرضِ المسرحية. كنت أعلم أن مويسي فيليبوفيتش وفاني سولومونوفا قرءا المسرحية في الغرفةِ المجاوِرة بعدما ذهبت إلىٰ النوم. سمعت همهماتهما. سألتهما: "هل أقرأها أيضًا؟"، فجاء الرد: "لا، عزيزي،

---

[11] - انظر الفصل السادس. (المترجم)

لازلت صغيرًا علىٰ ذلك"، وبدا ردًا قاطعًا حتىٰ أنني لم أسعَ لمجادلته. في الوقت نفسه، لاحظت أن المجلَّد الرفيع الجديد وجد لنفسه مكانًا في رفِّ الكتب المألوف. كنت أنتهز فرصة غيابهما عن المنزل حتىٰ أقرأ مسرحية تولستوي علىٰ دفعاتٍ مُعتجِّلة. تأثَّرت بها بصورةٍ أقل كثيرًا مما خاف من أرادا فرض وصايتهما عليّ. لم تطبع المشاهد المأساوية في هذه المسرحية، مثل مشهد خنق الطفل أو المحادثة حول صرير العظام، نفسها في عقلي كحقائق، مُروِّعةٍ بالطبع، بل كتأليفٍ أدبي؛ خدعةٍ مسرحية. وبعبارةٍ أخرىٰ، لم أكن قد فهمت هذه المشاهد تمام الفهم.

وخلال عطلةٍ قضيتها في الريف، وبينما كنت أستكشف رفًّا عاليًا تحت السقفِ مباشرةً، رأيت كتابًا جَلَبَه أخي الأكبر من إليزافيتجراد. فتحته، فشعرت علىٰ الفور بشيءٍ ما استثنائيٍ وسري. كان ذلك تقريرًا لمحكمةٍ عن قضيةِ قتلٍ كانت فيها فتاةٌ صغيرةٌ ضحيةً لجريمةٍ جنسية. قرأت الكتيب، الذي تناثرت عبر صفحاته الكثير من التفاصيل الطبية والقانونية، بعقلٍ مُستثار ومُستنفَر، كما لو أنني ليلًا في قلبِ غابةٍ أتعثَّر بأشجارها الأشبه بأشباحٍ تحت ضوء القمر الخافت، لا أجد منفذًا للهروب. النفسية البشرية، ذلك النظام المُحكَم الدقة الذي يقف حارسًا في وجه الصدمات القاسية التي تأتي قبل أوانها، لديه بالتأكيد كوابحه كما لديه مُحفِّزاته، خاصةً في مرحلة الطفولة.

كانت زيارتي الأولىٰ للمسرح حين كنت في المرحلةِ الإعدادية. كانت تجربةً لا مثيل لها، ولا يمكن لكلماتٍ أن تصفها. ذهبت في مرافقة حارس المدرسة، العم جريجوري خولود، لمشاهدةِ عرض أوكراني. جلست شاحبَ الوجه كورقةٍ بيضاء، تمامًا كما وصف العم جريجوري بعد ذلك لفاني سولومونوفا، وحلَّت عليّ بهجةً فاقت قدرتي علىٰ الفرح. لم أبرح مقعدي في أثناء الاستراحات، حتىٰ لا يفوتني شيء - والعياذ بالله. انتهت المسرحية بعرضٍ هزلي بعنوان "مستأجر يحمل ترومبون"، كان من شأنه أن يُلطِّف التوتُّر الدرامي بضحكٍ صاخب. كنت أترنَّح من فرطِ الضحك علىٰ المقعد؛ أميل برأسي إلىٰ الخلف ثم مجددًا أركِّز ناظريَّ علىٰ خشبة المسرح. وفي المنزل، حكيت قصة هذا العرض مرارًا بمزيدٍ من التفاصيل في كل مرة، آملًا أن أبعث علىٰ الضحك كما فعلت في أثناءِ العرض، لكن ما أحبطني هو أن ذهبت محاولاتي سُدىٰ. سألني مويسي فيليبوفيتش: "يبدو أن مسرحية نازار ستودوليا لم تعجبك، أليس كذلك؟". أحسست هذه الكلمات خارجةً من فمه مصحوبةً ببعض العتاب. فكَّرت في مآسي نازار، وقلت: "أبدًا، إنها رائعة".

قبل أن أنتقل إلىٰ الصف الثالث، قضيت فترةً قصيرةً خارج أوديسا، في المنزل الصيفي لعمي المهندس. وهناك، حضرت مسرحًا للهواة كان طالبٌ من مدرستنا، يُدعىٰ كروجلياكوف، يلعب فيه دورَ خادمٍ. كان كروجلياكوف صبيًا نحيلًا ومنمشًا، ذا عينين تنمان عن

الذكاء، لكن صحته كانت متدهورة للغاية. ارتبطت به بشدة، وتوسَّلت إليه كي ألعب معه دورًا مسرحيًا. اخترنا مسرحية "الفارس البخيل" لبوشكين. أخذت دورَ الابن، بينما أخذ هو دورَ الأب. تقبَّلت توجيهاته بصدرٍ رحب، وقضيت أيامًا كاملةً أتعلَّم وأحفظ نصوص المسرحية. يا لها من متعةٍ لذيذة! لكن، سرعان ما ذهب كل شيءٍ أدراج الرياح؛ اعترض والدا كروجلياكوف علىٰ نشاطه المسرحي ومنعاه من ممارسته حفاظًا علىٰ صحته. وحين بدأ العام الدراسي الجديد، لم يحضر الصبي إلا بضعة أسابيع فقط. كنت أحاول دائمًا اللحاق به بعد المدرسة حتىٰ نحظىٰ بمناقشةٍ أدبيةٍ في طريقنا إلىٰ البيت. اختفىٰ كروجلياكوف بعد ذلك بفترةٍ قصيرة، وعلمت أنه مريض. وبعد بضعة أشهر، جاء إلينا نبأ وفاته.

أسَرَني سحرُ المسرحِ بتعويذته لعدة سنوات. ولاحقًا، صرت مولعًا بالأوبرا الإيطالية، التي كانت في ذلك الوقتِ عروسَ أوديسا. وفي الصف السادس، بدأت أعطي دروسًا خصوصية في المسرح. ولأشهرٍ عديدة، ظللت مغرمًا في الخفاءِ بالكولوراتورا سوبرانو[12]، ولطالما كان اسم جيسيبينا أوجيت يجول في خاطري، تلك التي بدت وكأنها هبطت للتو من السماء إلىٰ خشبة مسرح أوديسا.

---

[12] – دربٌ من الغناء في الأوبرا. (المترجم)

لم يكن مسموحًا لي بقراءة الصحف، لكن هذه القاعدة لم تكن صارمةً إلىٰ هذا الحد، بل تراجَعَت تدريجيًا مع الوقت حتىٰ انتزعت هذا الحق، خاصةً قراءة أعمدة التسلية. كان المسرح، لا سيما الأوبرا، هو مركز اهتمام صحافة أوديسا، وكانت الانقسامات والخلافات في الرأي تتحدَّد بشكلٍ رئيسي علىٰ أساس المرجعيات المسرحية. كان هذا هو المجال الوحيد الذي سُمِحَ فيه للصحف بالنقاشِ الحر.

في تلك الأيام، لَمَعَ نجم دوروشيفيتش، الكاتب البارز لأعمدة التسلية. وفي غضونِ وقتٍ قصير، صار قدوةً لأهل المدينة، رغم أن من ضمن أعماله كانت هناك بعض الأعمدة التافهة. لكنه بلا شك كان موهوبًا، وبمقالاته الجريئة، التي بدت بريئةً حقًّا؛ كان يضخ هواءً نقيًا في أجواء أوديسا الخانقة في ظل سيطرة عمدة المدينة، زيلينوي الثاني. كنت أبحث مباشرةً عن اسم دوروشيفيتش بمجرد أن أفتح صحيفة الصباح. وصار هذا الشغف بمقالاته أمرًا شائعًا بين الآباء "المعتدلين"، وحتىٰ أبنائهم الذين لم يصبحوا "معتدلين" مثلهم بعد.

منذ طفولتي، كان حبي للكلمات والمفردات يضرب بجذورٍ تزداد ثباتًا في أعماقي. وفي عينيَّ، كان المؤلِّفون والصحفيون والفنانون وكأنما يسعون لعالمٍ أكثر جاذبيةً من أيٍ من غيره؛ عالمٍ لصفوةٍ مُختارة.

في الصف الثاني، عملنا علىٰ تدشين مجلةٍ أدبية. تحدَّثت مع مويسي فيليبوفيتش كثيرًا حول هذا الموضوع، حتىٰ أنه هو من اقترح اسم "القطرة" لهذه المجلة، علىٰ أساسِ أن تلامذة الصف الثاني في

مدرسة سان بول صاروا الآن يساهمون بـ"قطرةٍ" في بحرِ الأدب. كتبت قصيدةً عن هذه الفكرة ونُشِرَت كافتتاحيةٍ لعدد المجلة الأول. كانت هناك الكثير من القصائد والقصص الأخرىٰ، أغلبها بقلمي. أحد زملائنا الرسَّامين قام بتزيين الغلاف بتصميمٍ زخرفي، واقترح آخر أن نعرض "القطرة" علىٰ كريجانوفسكي. تولَّىٰ هذه المهمة صبيٌّ كان يعيش في منزلِ كريجانوفسكي نفسه. كنَّا معه، وقد أدَّىٰ مهمته ببراعة؛ نهض وسار إلىٰ مكتب المُعلِّم ممسكًا "القطرة" بإحكام، وانحنىٰ احترامًا له، ثم عاد إلىٰ مقعده بعد أن وضع العدد بين يديه. حبسنا أنفاسنا بينما كان ينظر إلىٰ الغلاف. التوَت قسماتُ وجهه قليلًا، مما بدا علىٰ شاربه ولحيته وحاجبيه، ثم بدأ يقرأها في صمت. كان الصمت مُطبِقًا علىٰ الغرفة؛ فقط حفيف الأوراق. نهض الرجلُ من علىٰ مكتبه، وقال بصوتٍ مرتفع: "قطرة صغيرة نقية.. هذه قصيدة جيدة، أليس كذلك؟"، فرددنا جميعًا في نفسٍ واحد: "بلىٰ". فقال: "أجل، قد تبدو جيدة، لكن المؤلِّف لا يعرف شيئًا عن نظمِ الشعر. الآن أخبرني، ما هي تفعيلة الشعر؟"، موجهًا لي السؤال وكأنه خمَّن من نفسه صاحب الاسم المستعار. فقلت صراحةً: "لا أعرف". فردَّ: "إذن، سأخبرك". وشرع كريجانوفسكي في شرحِ خبايا النظم الشعري لصبيان الصف الثاني، متجاوزًا عن الكثير من دروسِ النحو وبناء الجملة. ثم قال: "أما عن المجلة، فمن الأفضل ألا تكترثوا بها أو ببحرِ الأدب هذا، فقط اعتبروها كتابَ تدريباتٍ لكم". لابد أن أوضِّح

هنا أن المجلات المدرسية كانت محظورةً من الأصل في ذلك الوقت. وفي النهاية، وصلت هذه المعضلة إلىٰ حلٍ لم يكن مُتوقَّعًا؛ انقطع حبلُ دراستي السلمي الهادئ بفصلي من مدرسةِ سان بول.

منذ أيام طفولتي، خضت في حياتي الكثير من الصراعات، التي نبعت من - وكأن قاضيًا يتحدَّث هنا - النضال ضد الظلم. نفس هذا الدافع هو ما كان يُحدِّد صداقاتٍ أصنعها وأخرىٰ أتخلَّىٰ عنها. يستلزم الخوض في كل هذه الفصول مجالًا أفسح كثيرًا، لكنني سأذكر هنا حالتين كانتا مهمتين بدرجةٍ كبيرة.

اندلع صراعي الأكبر حين كنت في الصف الثاني، مع المعلم برناند، الذي كنَّا نلقِّبه بـ"الفرنسي"، رغم أنه كان في الحقيقة سويسريًا. كانت اللغة الألمانية تتنافس في المدرسة، بقدرٍ ما، مع الروسية. علىٰ الجانبِ الآخر، لم تكن اللغة الفرنسية في نفس المرتبة مع الألمانية والروسية، فأغلب الصبية كانوا يتعلَّمون الفرنسية لأول مرةٍ في المدرسة، في حين كان ذوو الأصول الألمانية منهم يجدون فيها صعوبةً كبيرة. شنَّ برناند حربًا ضروسًا ضد الألمان. كانت ضحيته المُفضَّلة صبيًا يُدعىٰ فاكير. وكان فاكير تلميذًا متواضعَ القدرات، حتىٰ أن الكثير منَّا، إن لم نكن كلنا، اعتقد أنه لم يكن يستحق حتىٰ أدنىٰ الدرجات التي كان برناند يمنحها إياه. وذات يومٍ، كان برناند غاضبًا أكثر من أي وقتٍ مضىٰ، وكأنه قد تناوَلَ للتو جرعةً مُضاعفة من أقراص عُسر الهضم.

هَمَسَ الصبية، مُتغامزين لبعضهم البعض: "لنُقِم حفلةً عليه".
كانت مثل هذه الحفلات عادةً ما يُرتَّب لها من قبل، بالأخص علىٰ شرفِ مُدرِّس الرسم، الذي كان مكروهًا لغبائه الحقود. وإقامة حفلة كانت تعني أن نتتبَّع خطواتِ المُدرِّس بينما يغادر الفصل بصوتِ عواءٍ مكتوم من أفواهِنا المُغلَقة، حتىٰ لا يُعرَف من بالضبط الذي يُصدِر الصوت. أُقيمَت حفلةٌ أو اثنتان علىٰ برناند، لكنه تعامَلَ مع الأمرِ بتسامح - لأنه كان خائفًا. وفي هذه المرة تحديدًا، حشدنا كل شجاعتنا. وبمجرد أن وضع "الفرنسي" كتابه التدريسي تحت إبطه، انطلق العواء المكتوم من أقصىٰ طرفٍ في الفصل، ليتمدَّد في موجةٍ متتابِعة إلىٰ المناضد في مقدمته. من جانبي، فعلت كل ما في وسعي في هذه الحفلة. أما برناند، الذي كان قد تجاوَزَ بالفعل عتبة الباب، فاستدار علىٰ الفور، ووقَفَ في وسط الفصل، في مواجهةِ أعدائه، وقد صار وجهه باهتًا وعيناه ترشق نارًا، لكن دون أن ينطق ببنتِ شفة. الصبية خلف مناضدهم، خاصةً في المقاعد الأمامية، ادعوا البراءة. أما أولئك الجالسون في الخلف، فأبدوا انشغالهم بأدواتهم وكأن شيئًا لم يحدث. وبعدما حدَّق برناند النظر فينا لنصف دقيقة، التفت إلىٰ الباب بغضبٍ، حتىٰ أن ذيل معطفه رفرف كشراعِ مركب، وتبعه هذه المرة عواءٌ مجهولٌ أعلىٰ حتىٰ آخر الرواق.

وقبل أن تبدأ الحصة، جاء إلىٰ الفصل كلٌ برناند، ومراقب الفصل ماير، الذي كان يُعرَف بين الصبية بـ"الكبش" بسبب عينيه المُتورِمَتين

وجبهته العريضة القوية وعقلة الخدِر. أخذ شوانيباخ يتلو علينا ما يشبه خطابًا افتتاحيًا، مُدقِّقًا علىٰ نحوٍ مُبالَغ في تصريفات الأسماء والأفعال الروسية. زَفَرَ برناند تنهيدة الانتقام، بينما حدَّق ماير في وجوه التلاميذ بعينين جاحظتين، ونادىٰ علىٰ أسماءِ بعضهم قائلًا: "لابد أنكم أنتم أيضًا اشتركتم في ذلك". دافَعَ بعض الصبية عن براءتهم، فيما ظلَّ آخرون صامتين. واختيرَ عشرة أو خمسة عشر صبيًا لمعاقبتهم بحرمانهم من وجبة الغداء، وأن يظلُّوا مُحتجَزين؛ بعضهم لساعةٍ والبعض الآخر لساعتين بعد انقضاء اليوم الدراسي. أما باقي الصبية، فسُمِحَ لهم بالمغادرة إلىٰ بيوتهم، وكنت أنا من بينهم، رغم أنني رأيت نظرةَ تحديقٍ غير مريحة من برناند لي أثناء النداء علىٰ قائمةِ الأسماء. لم أفعل شيئًا كي يُعفىٰ عني، ولم أُتَّهَم بشيء. إلا أنني عدت من المدرسة بإحساس ندمٍ كما لو أن البقاء مع الأولاد المُعاقَبين يمكن اعتباره وقتًا ظريفًا!

وفي الصباح التالي، حين كنت في طريقي إلىٰ المدرسة، كانت واقعة الأمس قد اختفت تقريبًا من ذهني. أوقفني صبيٌ من المُعاقَبين عند البوابة، وقال لي: "انظر، أنت في ورطة. بالأمس اتهمك دانيلوف أمام ماير. وماير استدعىٰ برناند، ثم جاء الناظر، وكلهم كانوا يُحقِّقون فيما إذا كنت أنت زعيم الحفلة".

وَقَعَ قلبي في ركبي. وفي نفس اللحظة، ظهر المراقب العام، بيتر بافلوفيتش، وقال لي: "اذهب إلىٰ الناظر". لقد انتظرني عند مدخل

المدرسة ليقول لي ذلك، كما أن النبرة التي حدَّثني بها لم تكن تُبشِّر إلا بسوء. سألت حاجبًا بعد آخر حتىٰ وصلت في النهاية إلىٰ الرواق الطويل الذي تتواجد فيه غرفة الناظر، وهناك وقفت أمام الباب مباشرةً. عَبَرَ الناظر أمامي، ورمقني بنظرةٍ مُفاجئة تنبئ بخطرٍ، ثم هزَّ رأسه. وقفت في مكاني نصف ميت نصف حي. خَرَجَ الناظر من غرفته مرةً أخرىٰ فقط ليقول "حسنًا، حسنًا"، فأدركت أن الأمر ليس "حسنًا" علىٰ الإطلاق. وبعد بضع دقائق، خَرَجَ المُدرِّسون من غرفتهم المجاورة ليهرع أغلبهم إلىٰ الفصول دون حتىٰ أن يلاحظ أيٌّ منهم وجودي. انحنيت لكريجانوفسكي، لكنه لم يرد سوىٰ بتكشيرةٍ كما لو أنه يقول: "أوقعت نفسك في ورطةٍ أيها الصبي. أنا آسفٌ لأجلك، لكن هذا هو القدر". ثم جاء برناند أمامي مباشرةً، وأحنىٰ لحيته الصغيرة الخبيثة ناحيتي، ثم قال مُلوِّحًا بذراعيه: "التلميذ النجم في الصف الثاني منبوذٌ أخلاقيًا"، ثم التفت عني وذهب. وبعد دقائق، جاء "الكبش"، وقال بنوعٍ من الرضا: "هذا أنت وهذا صنفك"، وبعد صمتٍ قصير: "سنُلَقِّنك درسًا". وها هنا بدأ عذابي الأكبر. أُلغِيَت الحصة في الفصل، الذي حُرِمت من دخوله بالطبع، إذ جاء برناند والمفتش، والناظر كامينسكي، وشكَّل ثلاثتهم لجنةً للتحقيق مع الصبية في قضية هذا "المنبوذ أخلاقيًا".

بدأ الأمر كله، كما اتضح لاحقًا، بشكوىٰ تقدَّم بها أحد المُعاقَبين لماير في أثناء احتجازه بعد انقضاء اليوم الدراسي: "هذه عقوبةٌ غير

عادلة. من أصدَرَ الضجيج الأكبر ذَهَبَ طليقًا. برونشتاين هو من حرَّضَ الأولاد، وهو من فَعَلَ ذلك، وسُمِحَ له بالعودة إلىٰ بيته. كارلسون سيقول لك ذلك أيضًا".

فردَّ عليه ماير: "لا أصدِّق ذلك. برونشتاين ولدٌ مُهذَّب".

لكن كارلسون أيَّد الاتهام ضدي، وهكذا أيضًا فَعَلَ غيره من بعض الصبية. استدعىٰ ماير برناند، وسارت العدوىٰ بين الأولاد في الوشايةِ ضدي، وهكذا صار عشرة أو اثنىٰ عشر تلميذًا، من إجمالي التلاميذ في الفصل، يؤكِّدون هذا الاتهام المنسوب إليّ.

بدأ الوشاة يبحثون في الذاكرة: قبل عامٍ برونشتاين قال شيئًا عن الناظر، وبرونشتاين شارك في "الحفلة" علىٰ زيمجوردسكي، وفاكير، الذي كان سببًا أساسيًا في كل ذلك، قال: "بكيت لأن جوستاف سمويلوفيتش أعطاني أقل الدرجات، وجاء إليّ برونشتاين وربَتَ علىٰ كتفي وقال: لا تبكي يا فاكير، سنكتب خطاب شكوىٰ للمفتش العام، وهو سيطرد برناند من المدرسة".

"تكتب لمن؟".

"المفتش العام".

"هكذا إذن! وماذا قلت أنت؟".

"لم أقل شيئًا بالطبع".

دانيلوف التقط خيط الحكاية وأخذ يحيك منها أخرىٰ جديدة، فقال: "هذا صحيح. اقترح برونشتاين كتابة خطابٍ للمفتش العام، علىٰ ألا يوقِّع عليه، كي لا يُفصَل من المدرسة، بل أن يكتب كلٌ منَّا حرفًا في هذا الخطاب".

فقال برناند: "الآن فهمت. كل واحدٍ منكم يكتب حرفًا".

استُجوِبَ جميع الأولاد علىٰ حدٍّ سواء. بعضهم أنكر كل ما قيل بصورةٍ قاطعة؛ سواء ما حدث بالفعل أو ما لم يحدث قط. أحدهم كان كوستيا، أخذ يبكي لرؤية صديقه المُفضَّل، الطالب النجم، يتعرَّض لمثل هذه الخيانة الموصومة بالعار. أدان الوشاة كل من أنكر التهم باعتبارهم أصدقاءً لي. ساد الذعر أجواء الفصل، وظلَّ أغلبية الأولاد صامتين دون أن ينطقوا بشيء. للمرةِ الأولىٰ قاد دانيلوف أوركسترا الاتهامات؛ للمرةِ الأولىٰ والأخيرة يتزعَّم شيئًا من الأصل. كنت أقف في الرواق إلىٰ جانب غرفة الناظر، بجوار خزانةٍ صفراء اللون، كرجلٍ ارتكَبَ جريمةً نكراء في حق الدولة. وفي نفس المكان، جيئ بالشهودٍ لمواجهة المتهم. وفي نهاية المطاف، قيل لي أن أعود إلىٰ البيت.

"اذهب واخبر والدَيك أن يأتيا إلىٰ هنا".

"لكنهما في الريف".

"إذن قُل ذلك لأولياء أمرك هنا".

حتىٰ قبل ذلك بيومٍ واحدٍ فقط، كنت أعتلي منزلةَ الطالبِ النابغ التي لا ينازعني فيها أحد، بفارقٍ كبيرٍ عمَّن بعدي. حتىٰ ماير لم يكن يشك فيَّ ولو للحظةٍ. أما اليوم، أقف مطأطئ الرأس، بينما دانيلوف، المعروف ببلادته وشقاوته، يهين كرامتي أمام الفصل كله وأمام المسئولين بالمدرسة. ماذا حدث؟ هل تسرَّعت حين هرعت إلىٰ مساعدةِ طالبٍ مظلوم، لم يكن صديقي ولم أكن حتىٰ متعاطفًا معه؟ لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بمثل هذه التعميمات وأنا في طريقي عبر زقاق بوكروفسكي. وبوجهٍ عابسٍ وقلبٍ مذعور، وبسيلٍ من الدموع، أخذت في سردِ ما حدث. حاول أوصيائي مواساتي بقدرٍ ما استطاعوا، رغم ما بدا عليهما من بالغ القلق. ذهبت فاني سولومونوفا لمقابلة الناظر، والمفتش كريجانوفسكي، ويورتشينكو، وحاولت أن توضح لهم وتقنعهم، مستندةً إلىٰ خبرتها كمُدرِّسة. حدث كل هذا دون علمي، فقد كنت جالسًا في غرفتي، وأمامي علىٰ المنضدة الكتب والدفاتر لم أفتحها. مرَّت أيامٌ دون أن أعلم ماذا سيحدث وكيف سينتهي الأمر. قال الناظر: "سيُعقَد اجتماعٌ لمجلس المُدرِّسين للنظر في المسألة برمتها". هذا أيضًا لم يكن ينبئ بخير.

عُقِدَ الاجتماع، وذهب مويسي فيليبوفيتش ليعرف القرار، بينما ظللت منتظرًا في غرفتي يثيرني قلقٌ عميق كما لم أشعر لاحقًا في محكمة القيصر نفسه[13].

ظلَّ كل شيءٍ كما هو، مألوفًا وطبيعيًا؛ وقع الخطوات على الدرج المعدني، وغرفة الطعام المفتوحة. وفجأةً، ظهرت فاني سولومونوفا من غرفةٍ أخرىٰ، وبرفقٍ أزحت الستار. "مفصول". قالها مويسي فيليبوفيتش بصوتٍ أنهكه الإحباط. صُدِمَت فاني سولومونوفا: "مفصول؟". فردَّ مويسي فيليبوفيتش بصوتٍ لا يزال خفيضًا: "نعم، مفصول". لم أقل شيئًا، فقط حدَّقت النظر في مويسي فيليبوفيتش وفاني سولومونوفا، وانسحبت إلىٰ ما وراء الستار. وخلال الصيف، في زيارةٍ إلىٰ يانوفكا، تصف فاني سولومونوفا المشهد: "حين سمع هذه الكلمة، شحب وجهه إلىٰ درجةٍ أقلقتني عليه". لم أبك، لكنني صُدِمت.

في مجلسِ المُدرِّسين، نوقشت ثلاث درجاتٍ من العقوبة: إلغاء الحق في الالتحاق بأي مدرسةٍ أخرىٰ، أو إلغاء الحق في الالتحاق مجددًا بمدرسة سان بول، أو مع الإبقاء علىٰ الحق في الالتحاق بها مرةً أخرىٰ. اختاروا في النهاية العقوبة الأخيرة الأكثر تساهلًا. ارتجفت حين فكَّرت في وقع هذا الخبر علىٰ والديّ. فعل أوصيائي ما في وسعهم لتخفيف الصدمة. كتبت فاني سولومونوفا خطابًا طويلًا

---

13 – انظر الفصل الخامس عشر. (المترجم)

لأختي الكبرى، مصحوبًا بتعليماتٍ لكيفية إخبارهما بذلك. مكثت في أوديسا حتى نهاية العام الدراسي، ومن ثم عدت للبيت في العطلة الصيفية كما المعتاد. وخلال الأمسيات الطويلة، وبينما كان أبي وأمي نائمَين، كنت أحكي لأختي وأخي الأكبر كيف حدث كل ذلك، وأجسِّد مواقف المُدرِّسين والتلاميذ. كانت ذكرياتهما عن المدرسة لا تزال حية. وفي الوقت نفسه، كانا يعتبران أنهما أرفع مقامًا مني، أنا المفصول من المدرسة، والآن صار يهزَّان رأسيهما، ثم ينفجران في الضحك على قصتي. ومن الضحك انتقلت أختي إلى البكاء؛ بكت بحرقةٍ وغزارة، ورأسها مسنودٌ إلى المنضدة. قرَّرا أن أبتعد عن المنزل لأسبوعٍ أو اثنين، وحينها تتولَّى أختي مهمة إخبار أبي بكل شيء. كانت هي نفسها مُرتَعِبةً من هذه المهمة، فبعد الفشل الأكاديمي الذي مُنِيَ به أخي الأكبر، ركَّزَ أبي كل طموحه عليّ. بدت السنوات الأولى مُبشِّرةً لتلبية آماله، ثم فجأةً تحطَّمَ كل شيء.

ولدى عودتي إلى البيت مع صديقٍ لي يُدعى جريشا، حفيد الموسيقي الأيمن مويسي خاريتونوفيتش، أدركت على الفور أن كل شيءٍ صار معروفًا للجميع. رحَّبَت أمي بجريشا بمنتهى الود والألفة، لكن تظاهَرَت بأنها لا تراني على الإطلاق. في المقابل، تعامَلَ أبي وكأن شيئًا لم يحدث. لكن، بعد مضي بضعة أيام، وبينما كان يسترخي في الردهة بعد عودته من الحقل، قال لي فجأةً، في حضورِ أمي: "أرني إذن كيف أطلقت ذاك الصفير في وجه الناظر. هكذا؟ بإصبعين في

فمك؟"، وانفجَرَ في الضحك، بينما أمي، التي أصابتها الدهشة، ظلَّت تحرِّك عينيها منه إليّ، والعكس، وعلىٰ وجهها ابتسامةٌ تختلج بالغيظ؛ كيف يمكن أن يتحدَّث بهذه الخِفةِ عن مثلِ هذه الكارثة؟ ابتلع أبي فكرة أن فلذة كبده، رغم ألمعيته كطالبٍ نابغ، تجرَّأ علىٰ الصفير لكبار المسئولين في المدرسة. حاولت سُدىٰ أن أقنعه بأن ما من صفيرٍ في الأمرِ برمته، وإنما عواءٌ بريءٌ تمامًا لم يصدر مني وحدي. لكنه أصرَّ علىٰ أنه كان صفيرًا. وانتهىٰ الأمر بأن ذرفت أمي سيلًا من الدموع.

بالكاد بذلت مجهودًا من أجل الاستعداد للامتحانات. ما جرىٰ أفقدني فعلًا كل اهتمامي بالدراسة. كنت قد قضيت صيفًا سخيفًا مُرهِقًا، وعدت إلىٰ أوديسا ليلة الامتحان، لكن حتىٰ حينها لم أتمكَّن من الاستذكار جيدًا. ربما بذلت الجهد الأكبر في مذاكرة اللغة الفرنسية وقتذاك. وفي الامتحان، حَصَرَ برناند نفسه في بعض الأسئلة الخاطفة، ومُدرِّسون آخرون قدَّموا أسئلةً أقل. في النهاية، قُبِلت في الصف الثالث، وهناك قابلت مرةً أخرىٰ أغلب الأولاد سواء ممن خانوني أو ممن دافعوا عني أو ممن ظلوا علىٰ الحياد. كان من شأن ذلك أن يُحدِّد علاقاتي الشخصية لفترةٍ طويلةٍ من الزمن؛ قطعت علاقتي ببعض الصبية تمامًا، وفي المقابل صرت أكثر ودًا وقربًا من أولئك الذين دعَّموني خلال تلك اللحظات العصيبة.

كانت تلك، إن صَحَّ القول، أول تجربة سياسية أخوضها في حياتي. تمخَّضت عن هذه التجربة هذه المجموعات علىٰ الترتيب: الوشاة

والحاقدون في جانب، والشجعان الصادقون في جانبٍ آخر، والمُحايدون المُتردِّدون ككتلةٍ مُترنِّحةٍ في الوسط. ظلَّت هذه المجموعات الثلاث كما هي في السنوات اللاحقة، ثم قابلتهم مرارًا وتكرارًا في حياتي، في خلال الكثير من الظروف المختلفة.

لم تكن الثلوج قد أُزيحَت بالكامل بعد من الشوارع، رغم أن الجو صار دافئًا بعض الشيء. كانت سطوح المنازل والأشجار والعصافير، كل ذلك يشي بقدومِ الربيع. وكان الصبي في الصف الرابع في طريقه للعودة إلىٰ البيت، وضد كل اللوائح المدرسية، يحمل حزامًا في يده لأن مشبكه قد تمزَّق. بدا المعطف الطويل ثقيلًا ولا نفع منه؛ كان يعصر الجسم عرقًا، ولم يتسبَّب إلا في مزيدٍ من الإرهاق. صار الصبي يرىٰ كل شيءٍ بعينٍ جديدة، وبهذه العين يرىٰ نفسه في المقامِ الأول. حفَّزَ الربيعُ شعورًا لديه أقوىٰ بما لا يُقاس من المدرسة والمفتش وشنطة الكتب والأدوات المُعلَّقة كيفما اتفق علىٰ ظهره، شعورًا أقوىٰ من الدراسة والشطرنج وتناول العشاء، وحتىٰ أقوىٰ من القراءة والمسرح. باختصار، كان شعورًا أقوىٰ من كل مجريات الحياة اليومية. استولىٰ هذا الشعور غير المفهوم، الذي يأمر فيُطاع، بل ويرتقي فوق الفرد، علىٰ وجدان الصبي، مخترقًا جسده حتىٰ نخاع عظمه، وأسَرَه بحلاوةِ ألمٍ مرير.

جاء إلىٰ البيت برأسٍ مُشوَّش، وموسيقىٰ حزينة تُعزَف بين جدران معبده. ألقىٰ بكتبه وأدواته علىٰ المنضده، واستلقىٰ علىٰ الفراش لا

يكاد يدرك ما يفعله، وبدأ في البكاء دافنًا رأسه في الوسادة. وليجد مبررًا لدموعه المُنهمِرة، أخذ يستدعي مشاهد حزينة من الكتب ويجتر أخرىٰ من حياته، كما لو كان يغذي موقد روحه بوقودٍ بائسٍ جديد، فبكىٰ وبكىٰ، بدموعٍ شوقٍ ربيعية. كان آنذاك في الرابعة عشر من عمره.

منذ طفولته، كان يعاني مرضًا شخَّصَه الأطباء في شهاداتهم الرسمية بأنه التهابٌ حادٌ في القناة الهضمية، ولم يفارقه طوال حياته. كان يتناول الدواءَ، في الأغلب، ويتبع حميةً غذائيةً خاصة. الصدمات العصبية كان لها تأثيرٌ علىٰ الهضم بالطبع. في الصف الرابع، صار المرض حادًا إلىٰ درجةٍ عرقلت دراسته، وبعد شوطٍ طويلٍ من العلاج لم يُكتَب له النجاح، فقرَّر الأطباء أن الصبي لابد أن يمكث في الريف فترةً طويلة.

استقبلت قرار الأطباء بفرحٍ لا ندم. لكن كان لابد من نيل موافقة والديّ. وما كان ضروريًا أيضًا هو أن يمكث معي مُدرِّسٌ في الريف حتىٰ لا يضيع عليّ عامٌ دراسي. كان هذا يعني تكلفةً إضافية، وهم لا يحبون التكاليف الإضافية في يانوفكا. لكن، دُبِّر الأمر في نهايةِ المطاف، بمساعدةٍ من موِيسي فيليبوفيتش. جاءوا بمُدرِّسٍ يُدعىٰ "جي"؛ رجلًا ضئيلَ الجسد له عرفٌ هائلٌ من الشعر فوق رأسه الرمادي من الجانبين. كان كثير الكلام؛ ثرثارًا، يفتقر بوضوحٍ إلىٰ الشخصية، واحدًا من أولئك الذين لم يُكمِلوا تعليمهم ولم ينجحوا أبدًا في حياتهم. كان يكتب نثرًا، وعلاوة علىٰ ذلك له قصيدتان

منشورتان في صحيفةٍ محلية. كان عددا الصحيفة يرافقاه دائمًا في كل مكان، وكان يسرُّه للغاية أن يريهما لكل من يقابله. كانت علاقتي به متكرِّرة التفجُّر، دائمة النزوع لأن تصبح سيءٍ لأسوأ. في البداية، أسَّسَ صلته بي بألفةٍ متنامية، مُصرًّا في كل مناسبة علىٰ أن نصير صديقين. وللتأكيد علىٰ هذا الغرض، عَرَضَ عليّ صورةً لامرأةٍ تُدعىٰ كلوديا، وأخذ يصف ما بدا أنه تعقيداتٌ في العلاقةِ بينهما، ثم فجأة يتراجع عن كل ذلك ويطالبني بسلوكٍ محترمٍ يليق بالأستاذ من تلميذه. وصل هذا الأداء المتناقض إلىٰ نهايةٍ لكن بطريقةٍ سيئة، إذ كانت هناك الكثير من الشجارات العنيفة، ثم القطيعة التامة بيننا. لم تمر هذه الفترة التي قضاها هذا المُدرِّس معي دون أثر. فها هو رجلٌ بشعرٍ رمادي يأتمنني علىٰ أسرار علاقته بامرأةٍ تبدو في صورتها مهيبةً جديرةً بالاحترام. جعلني هذا أشعر بأنني فجأةً كبرت في السن.

في الصفوفِ التالية في المدرسة، انتقل تدريس الأدب من كريجانوفسكي إلىٰ جاموف. وجاموف هذا كان لا يزال شابًا، له شعرٌ كثيف، وسمينٌ بعض الشيء. وعلاوة علىٰ ذلك، كان ضيق الأفق، واهتمامه بالمادة التي يدرِّسها محدودٌ للغاية. تابعنا في المذاكرة فصلًا تلو الآخر، فيما لم يكن جاموف دقيقًا وكان لينهي مراجعة أوراقنا هكذا بدون اهتمام. وذات مرةٍ في الصف الخامس، كان علينا كتابة أربعة أوراق في الأدب. بدأت أهتم بهذا الغرض ببالغ العناية، فلم أقرأ المصادر التي دلَّنا عليها فحسب، بل استعنت أيضًا ببعض الكتب

الأخرىٰ؛ أنسخ الحقائق والتراكيب، وأغيِّر وأقولِب الجمل التي أسرت خيالي، وعملت بشكلٍ عام بحماسةٍ متَّقِدةٍ لم تتورَّع عن الانتحال البريء لبعض العبارات. كان هناك أيضًا بعض الأولاد القليلين الذين لم يعتبروا الكتابة مجرد مهمة مقيتة.

انتظر تلاميذ الصف الخامس تقييم أعمالهم؛ بعضهم بأملٍ وآخرون بخوف. لكن الدرجات لم توضع قط، والشيء نفسه حدث في الربع الثاني من العام الدراسي. وفي الربع الثالث، سلَّمت ورقةً ملأت حشية كاملة. مرَّ أسبوعٌ، ثم آخر، ثم أسبوعٌ ثالث، ولا أثر لأي نتيجة. بحذرٍ لفتنا نظر جاموف لهذا، فراوَغَ في إجابته محاولًا التملُّص منَّا. وفي الحصة التالية، طرح يابلونوفسكي السؤال صراحةً علىٰ جاموف: ما السبب وراء إخفاء مصير أوراقنا؟ وماذا حدث لهم؟ فنهَرَه جاموف بحدةٍ آمرًا إياه أن يصمت. لكن يابلونوفسكي لم يستسلم، فنهض من مقعده عاقدًا حاجبيه وبدأ يتقدَّم نحو منضدة المُدرِّس رافعًا صوته وظلَّ يردِّد أن "من المستحيل أن يمضي الأمر هكذا".

فردَّ عليه جاموف: "مرةً أخرىٰ أقول لك: ابق صامتًا واجلس". لكن يابلونوفسكي لم يستجب لأمره، فصاح جاموف: "اخرج من الفصل". لم تكن علاقتي بيابلونوفكسي ودودةً، فقد علَّمتني الواقعة الخاصة ببرناند في الصف الثاني أن أكون أكثر احتراسًا وحذرًا. لكن هنا، شعرت أن ليس باستطاعتي أن أظل صامتًا، فصحت: "أنطون ميخائيلوفيتش جاموف، يابلونوفسكي محق، ونحن جميعًا نؤيده".

تردَّدَ النداءُ في كل الفصل: "إنه محق. إنه محق"، فبدا جاموف في البداية وقد أُخِذَ علىٰ حين غرة، لكنه سرعان ما تعافىٰ من المفاجأة، وصاح بغضبٍ وبأعلىٰ صوته: "أنا أعلم ما أفعله ومتىٰ... أنا لا آخذ أوامري منكم. أنتم تخرقون القواعد". لابد أننا طرقنا وترًا حسَّاسًا.

صاح ولدٌ ثالث: "ما نريده هو أن نرىٰ أوراقنا. هذا كل شيء"، فاستشاط جاموف غضبًا وصاح: "يابلونوفسكي، أنت مطرودٌ من الفصل". لم يتزحزح جاموف عن موقفه. فردَّدَ الأولاد في جنبات الفصل همسًا: "اخرج. اخرج من الفصل". فهزَّ يابلونوفسكي كتفيه متنهِّدًا، رافعًا بؤبؤ عينيه إلىٰ أعلىٰ، راكلًا الأرض بحذائه، وغادر الفصل دافعًا الباب بكل قوته من وراء ظهره.

وفي بداية فترة الاستراحة، وجدنا كامينسكي وقد دخل الفصل بحذائه المطاطي الذي لا يُسمَع له وقع خطىٰ. كان ذلك فألًا سيئًا. أطبق الصمتُ علىٰ الفصل. وبصوتٍ أجش عالٍ علىٰ نحوٍ مُصطَنَع، كما لو أنه صادرٌ من فمِ شخصٍ مخمور، عَمَدَ إلىٰ توبيخنا متعمِّدًا التهديد بالفصل من المدرسة، وأعلن أن يابلونوفسكي معاقبٌ بالاحتجاز الانفرادي لأربعٍ وعشرين ساعة، وأنا أيضًا كذلك لنفس المدة، وثالثنا لمدة اثنىٰ عشرة ساعة. كانت تلك هي العثرة الثانية في طريقي الأكاديمي. لم تُسفِر هذه المسألة عن أية عواقبٍ إضافية. أما جاموف، فلم يعطنا أوراقنا رغم كل شيء. ومن جانبنا، حاولنا نسيان الأمر برمته.

كان ذلك هو العام الذي توفىٰ فيه القيصر. بدا الحدث هائلًا إلىٰ درجةٍ يصعب تصديقها، لكن أيضًا بدا حدثًا بعيدًا كزلزالٍ في بلدٍ آخر. لم يثر فيّ، ولا في أيٍ ممن حولي، أية عواطف تجاهه، وكذلك كان الحال مع موته. حين وصلت إلىٰ المدرسة في الصباحِ التالي، بدا المكان كله في قبضةِ ذعرٍ لا حد له، ولا سبب له أيضًا. كان الأولاد يقولون لبعضهم "القيصر مات"، ولا يدرون ما يمكن قوله بعد ذلك أو كيف يعبِّرون عن مشاعرهم، إذ لم يكن أيٌ منهم يدرك كنه هذا الشعور من الأصل. لكنهم أدركوا أن ما من حصصٍ ستُعقَد في هذا اليوم، وكانوا مسرورين بهذه النتيجة دون أن يُظهِروا ذلك، خاصةً أولئك الذين لم يقوموا بفروضهم المدرسية أو من كانوا خائفين من استدعائهم لهذا السبب. أرشد الحاجب كل من يدخل المدرسة إلىٰ القاعةِ الكبيرة حيث يجري الإعداد للقداس. قال القس بضع كلماتٍ من قبيل: الأطفال يحزنون حين يموت والدهم، فما بالكم بما يشعرون من أسىٰ لفقدان أبي الشعب بأسره! لكن، ما كان هناك أي أسىٰ يُذكر. استمر القداس رتيبًا ومرهِقًا، وأُمِرنا جميعًا بوضع شريط حدادٍ حول الذراع الأيسر وتغطية شارة القبعة بشاشٍ أسود.

في الصف الخامس، كان الأولاد يتبادلون أطراف الحديث عن دخول الجامعة واختيار التخصُّصَات وغير ذلك. وتركَّزَ القدرُ الأكبر من النقاشات علىٰ اختبارات القبول التنافسية، وتعنُّت أساتذة سان بطرسبورج تجاه المُتقدِّمين، والأسئلة الصعبة الخدَّاعة، والمُتخصِّصين

الذين من شأنهم تدريب المُتقدِّمين علىٰ نماذج الاختبارات. ومن بين التلاميذ الأكبر سنًا، كنّا نعرف بعضًا ممن كانوا يذهبون إلىٰ سان بطرسبورج عامًا بعد آخر؛ يرسبون في الاختبارات، ثم يستعدون مجددًا، ويخوضون الغمار مرةً أخرىٰ، وهكذا. كان مجرد التفكير في هذه التجربة المستقبلية يُجمِّد قلوب الكثير من الأولاد حتىٰ قبل عامين من حلول الوقت.

أما الصف السادس، فقد مرَّ بسلامٍ دون وقائع خاصة. كان الجميع يتوقون للفرار من كدحِ المدرسة في أقرب وقتٍ ممكن. أُعِدَّت اختباراتُ القبولِ بالجامعة بكل فخامةٍ وأبهة في القاعة الكبرىٰ، بمشاركة أساتذة جامعيين أُرسَلوا من السلطات التعليمية خصيصًا لهذا الغرض. كان الناظر ليفتتح القاعة، ثم باحتفاءٍ وإجلال يفتح الطرد الذي استلمه من المفتش العام والذي يتضمَّن أوراق الاختبار. هذا التوتُّر العالق في الأجواء يدفع المرء للاعتقاد بأن هذه المهمة تفوق قدراته بمراحل. لكن اعتباراتٍ أخرىٰ تكشف عن أن هذا الخوف مُبالَغ فيه إلىٰ حدٍ كبير. فمع وشوك الساعتين المُخصَّصَتين للاختبار علىٰ الانتهاء، يساعد المُدرِّسون أنفسهم التلاميذ في خداعِ يقظة السلطات المحلية، فمثلًا، بعد أن فرغت من ورقتي، لم أسلِّمها علىٰ الفور، بل بقيت في القاعة، وبموافقةٍ ضمنيةٍ من المراقب كريجانوفسكي، شرعت في مساعدة أولئك الذين يواجهون صعوباتٍ في الاختبار.

وأما الصف السابع، فكان صفًا تكميليًا، ولم يكن هناك صفٌ سابعٌ في سان بول، فاستلزم الأمر بالتالي الانتقال إلىٰ مدرسةٍ أخرىٰ. في هذه الفترة الانتقالية، وجدنا أنفسنا مواطنين أحرارًا. ولمناسبة استلام شهادات الدبلوما، ارتدىٰ كلٌ منَّا ما يروق له من ملابسٍ مدنية. ذهبت مجموعةٌ كبيرةٌ منَّا تتسلَّىٰ في الحديقة الصيفية، حيث كانت هناك مغنيات يُقِمن عرضًا علىٰ مسرحٍ مكشوف، وحيث كان محظورًا علىٰ الطلاب الدخول. كنَّا نرتدي أربطةَ عنقٍ، وأخذنا ندخِّن السجائر، فيما كانت هناك زجاجتا جعة علىٰ الطاولة أمامنا. كان كلٌّ منَّا، في قريرة نفسه، خائفًا مما جرؤنا عليه. وما أن فتحنا الزجاجة الأولىٰ، حتىٰ ظهر أمام الطاولة فجأةً مراقب المدرسة، فيلهلم، المعروف باسم "النعجة" لصوته الأشبه بالثغاء. نهضنا بحكم العادة بينما كانت قلوبنا تقفز من صدورنا. لكن كل شيءٍ سار بصورةٍ لطيفة. قال فيلهلم، بمسحةٍ من الندمِ في صوته، مصافحًا إيانا بسماحةٍ: "أنتم هنا بالفعل!". وفوجئنا بأحد زملائنا، وكان أكبرنا سنًا، يدعوه بلا مبالاة لقدحٍ من الجعة معنا. كان هذا تماديًا بلا شك. اعتذر فيلهلم ببعض التعالي، وودَّعنا في عجلةٍ من أمره، وذهب يبحث عن غيرنا من الأولاد الذين غامروا بتخطي العتبة المحظورة. هجمنا علىٰ الجعة، لكن بحذرٍ مُضاعَف هذه المزة.

بالطبع كانت هناك الكثير من المباهج خلال السنوات السبع التي قضيتها في المدرسة، ابتداءً من المرحلة الإعدادية. لكن يبدو أنها لم تكن وفيرةً المآسي. ظلَّ اللون الذي يصبغ ذكريات المدرسة رماديًا

قاتمًا، إن لم يكن أسود تمامًا. وطوال فترات الحياة المدرسية، كان نظام الشكليات الرسمية منعدِم الروح هو المسيطر. من الصعب أن أسمي مُدرِّسًا واحدًا كان له تأثيرٌ حقيقي عليّ طيلة تلك السنوات. إلا أن مدرستنا لم تكن الأسوأ علىٰ الإطلاق، بل أنها بالتأكيد علَّمتني بعض الأمور الهامة: المعارف المبدئية، وعادات العمل المنهجي، والانضباط الشامل. كل ذلك انعكس بالإيجاب علىٰ حياتي اللاحقة. غير أن نفس المدرسة غرست فيّ ما هو مناقضًا بالكليَّةِ للغرض المباشر الذي ابتغته - بذورَ العداءِ للنظامِ القائم، تلك التي بُذِرَت في أرضٍ لم تكن بأي حالٍ قاحلة.

الفصل الخامس

الريف والمدينة

قضيت الأعوام التسعة الأولىٰ في حياتي، متصلةً دون انقطاع، في الريف. وخلال الأعوام السبعة بعد ذلك، كنت أعود إلىٰ هناك كل صيف، وأحيانًا في عيديّ الميلاد والفصح. كنت مرتبطًا بيانوفكا بصورةٍ وثيقة، وكذلك بكافة ضواحيها المجاورة، حتىٰ بلغت الثامنة عشر من العمر. خلال طفولتي المبكرة، كان تأثير الريف هائلًا في حياتي. لكن، خلال الفترة اللاحقة، كان علىٰ هذا التأثير أن يدافع عن نفسه في مواجهة التأثيرات المتنوعة للمدينة، وفي نهاية المطاف أُجبِرَ علىٰ الاستسلام.

جعلني الريف علىٰ درايةٍ بالزراعة، والطواحين، والماكينات الأمريكية. جعلني علىٰ صلةٍ قريبةٍ من الفلاحين؛ أولئك الذين كانوا يعيشون في الجوار واعتادوا الذهاب إلىٰ الطاحونة، وغيرهم ممن كانوا يأتون من الضواحي الأوكرانية القريبة بمناجلهم علىٰ أكتافهم وأكياسهم علىٰ ظهورهم. تلاشت معظم حياة الريف من ذاكرتي، أو علىٰ الأقل أُزيحَت إلىٰ اللاوعي. لكنها تصعد مجددًا في كل منعطفٍ جديد، أحيانًا لتُقدِّم لي يد العون. وضعني الريف أيضًا وجهًا لوجهٍ مع أشكالٍ شتىٰ من تفسُّخِ وانحلالِ الطبقات العليا وجشع وأطماع الرأسماليين. كَشَفَ أمامي فظاظة الكثير من جوانب العلاقات

الإنسانية، وكثَّفَ مشاعري تجاه الجانب الآخر من الثقافة الريفية، التي كانت من قبلِ أكثر تقدمًا وأكثر تناقضًا.

في أثناء عطلتي الأولىٰ، طَبَعَ التنافر بين الريف والمدينة نفسه في ذهني. كنت أنتظر رحلتي إلىٰ المنزل بفارغِ الصبر، وكان قلبي يقفز فرحًا. اشتقت لرؤية كل شيءٍ مرةً أخرىٰ، وأن يراني الجميع مرةً أخرىٰ. التقاني والدي في نوفي بوج. عرضت عليه تقرير المدرسة، وبفخرٍ أظهرت له الدرجات المرتفعة التي أحرزتها، موضحًا له أنني أخيرًا انتقلت للصفِ الأول ولابد أن أرتدي زيًا مدرسيًا كاملًا الآن. استقللنا عربةً مُغطاة في الليل، وقادنا بها عاملٌ طحَّان جلس مكان الحوذي. في السهول الواسعة، وبالأخص في الوديان، شعرنا بتيارِ هواءٍ باردٍ مُشبَّعٍ بالضباب، ما دفع والدي لأن يلفني بعباءةٍ قوزاقية كبيرة. كنت منتشيًا بالتغيُّرات من حولي، وبالرحلة التي نقطعها سويًا في العربة، وبالذكريات والانطباعات الجديدة التي تتولَّد لديّ. كنت أثرثر كثيرًا عن المدرسة، ثم عن المراحيض والحمامات العامة، لأنتقل فورًا إلىٰ الحديث عن صديقي كوستيا، والمسرح، وهكذا. كان والدي يستمع لما أحكي، تارةً مستيقظًا وأخرىٰ نصف نائم، ثم يضحك قليلًا، فيما كان السائق الشاب يهز رأسه من وقتٍ لآخر، ويلفت إلىٰ أبي قائلًا: "يا لها من حكاية".

غلبني النوم بحلول الصباح، لأستيقظ لدىٰ وصولنا إلىٰ يانوفكا. بدا دارنا أصغر مما كان عليه بالنسبةِ لي في الماضي، وخبز القمح

المنزلي رماديًا، وروتين الريف ككل مألوفًا رغم اغترابي عنه. حيكت لأمي وأخواتي عن المسرح، لكن ليس بنفس التفصيل كما فعلت مع والدي. وفي الورشة، التقيت فيكتور وديفيد؛ وجدتهما قد تغيَّرا كثيرًا حتىٰ أنني بالكاد عرفتهما، إذ صارا أكبر وأقوىٰ. وهكذا أيضًا نظرا إليّ بكل ما لحق بي من تغيُّرات. منذ البداية، ناداني بـ"حضرتك"، ما اعترضت عليه علىٰ الفور، فردَّ ديفيد: "حسنًا بما أناديك إذن؟ أنت رجلٌ متعلِّمٌ الآن". في أثناء فترة غيابي، تزوَّج إيفان فاسيلييفيتش. أُعيدَ بناء مطبخ الخَدَم ليصير دارًا له، بينما بُنِيَ كوخٌ آخر وراء الورشة وصار هو المطبخ.

كل ذلك لم يكن مهمًا. نشأ في داخلي شيءٌ كالجدار يفصلني عن الأشياء التي أسرت طفولتي. بدا كل شيءٍ مألوفًا، لكن في نفس الوقتِ مختلفًا وغريبًا. بدت الأشياء والناس في صورةٍ مغايرة لما كانوا عليه من قبل. بالتأكيد تغيَّرت بعض الأمور خلال سنةٍ كاملةٍ من الغياب، لكن أمورًا أخرىٰ بدت مختلفةً بصورةٍ أكبر فقط لأنني صرت أراها بعينٍ مختلفة. بعد عودتي الأولىٰ إلىٰ القرية، بدأت أترعرع بمعزلٍ عنهم. في البداية، تجلَّىٰ هذا الانفصال في الكثير من الأمور البسيطة، التي تكاد تكون تافهة، لكن مع مرور السنين، اتخذ الحال منحىً أبعد وأكثر جديَّة.

سرعان ما ألقت التأثيرات المتناقضة للريف والمدينة بظلالها علىٰ فترة حياتي المدرسية. في المدينة، كانت علاقاتي بمن حولي من

الناس أكثر ثباتًا مما شعرت حينها. وباستثناء القليل من الصراعات، التي اتسم بعضها بالعنف، مثل تلك التي نشبت مع مُعلِّميّ الفرنسية والروسية، كنت ملتزمًا بسلامٍ بالضوابط العائلية والمدرسية. ولا يعود ذلك فقط لنمطِ الحياةِ في منزل آل شبينلزر، الذي كانت فيه الصرامة والمعايير الراقية في العلاقات الشخصية هي القاعدة، بل أيضًا لنظامِ الحياة في المدينة نفسها. والأكيد هو أن تناقضات المدينة لم تكن أقل تأثيرًا من تلك السائدة في الريف، هذا إن لم تكن أكثر تأثيرًا، رغم كونها أكثر تنكُّرًا وانتظامًا واحتواءً. يتواصل الناسُ من مختلفِ الطبقات في المدينة فقط في إطار علاقات عملهم، أما خارج هذا الإطار فلا أثر لعلاقةِ أيٍ منهم بالآخر. وعلىٰ العكس من ذلك، يعيش الجميع في الريف علىٰ مرأىٰ بعضهم بشكلٍ مفتوح. العلاقة بين السيد والخادم تتجسَّد ظاهرةً كزنبركٍ يشهر نفسه من أريكةٍ بالية.

كان سلوكي في الريف يغلُب عليه المشاكسة والنزوع إلىٰ العراك؛ بعبارةٍ أخرىٰ كان سلوكٌ غير متزن. مرَّت أوقاتٌ كثيرة تشاجرت فيها حتىٰ مع فاني سولومونوفا، التي كانت أحيانًا، لدىٰ زياراتها لنا في يانوفكا، تنحاز بحرصٍ إلىٰ جانب أمي وأخواتي. أما في المدينة، فصارت علاقتي بها ودودةً، بل رقيقةً وحنونة إن صح القول. أحيانًا ما كانت تنشب مثل هذه الشجارات من أمورٍ لا توصف إلا بالتافهة، وفي أحيانٍ أخرىٰ كانت تندلع من أمورٍ أهم.

ارتديت ذات مرةٍ بدلةَ بحّارٍ مغسولةً ونظيفة، بحزامٍ جلدي ذي مشبكٍ نحاسي، وقبعةً بيضاء ذات شارةٍ صفراء لامعة، فشعرت ببساطة أنني أبدو مذهلًا فعلًا، وذهبت لأريهم جميعًا ما أرتديه. اصطحبني والدي إلىٰ الحقل في يومٍ كان حصاد قمح الشتاء في ذروته. كان رئيس الحصّادين، أرخيب، الذيَ عادةً ما كان يرمقني بنظرةٍ متجهِّمةٍ، لكن عطوفة في الوقت نفسه، يتزعَّم مجموعةً من أحد عشر حصّادًا واثنىٰ عشرة امرأةً يجمعن ما يحصده الرجال. إثنىٰ عشر منجلًا كانوا يحصدون أعواد القمح ويمزِّقون معه الهواء القائظ. كانت قدميّ أرخيب ملفوفتين بقطعٍ من القماش مربوطةٍ بزرٍ قوي. وكانت النساء الإثنىٰ عشرة يرتدين تنانير مُمَزَّقة، وقمصانًا من قطنٍ خام غير مُبيَّض. ومن مسافةٍ أبعد، كان بإمكان المرء أن يسمع صوت مناجل الحصد كما لو أنها ترن في الهواء.

قال والدي: "حسنًا، حسنًا. دعونا نرىٰ كيف سيكون حال القمح هذا الموسم"، والتقفَ منجلَ أرخيب وأخذ مكانه. كنت أنظر إليه بإثارةٍ وفضول. تحرَّك بضع حركاتٍ مألوفةً وبسيطة كما لو كان يعمل بالفعل، لكنه كان فقط يستعد للعمل. كانت خطواته خفيفة ومتردِّدة وكأنه يبحث عن موضعٍ أفضل ليضرب بمنجله. كان يهوي بالمنجلِ ببساطة دون اختيال، حتىٰ أن بدا أنه لا يُحكِم قبضته عليه بما فيه الكفاية. إلا أنه كان يقطع من أسفل وبهدوءٍ واتزان، ومع كل حصدةٍ خاطفة يتردَّد فيَ الآذان صوتٌ مُمَيَّز علىٰ يسراه. نظر أرخيب بطرفِ

عينه وكأنه يؤكد مهارة أبي. أما الآخرون، فكانوا متباينين في ردة فعلهم، إذ بدا بعضهم متعاطفًا كما لو كانوا يظنون أن الرجل العجوز ليس أكثر من مبتدئ، بينما آخرون غير مبالين بالأمر برمته، ولسان حالهم يقول إنه ليس إنجازًا كبيرًا أن يحصد المرء زرعه وأن يتظاهر بالعمل وسط حصَّاديه. ربما لم أترجم أفكارهم بكلماتٍ دقيقة، لكن المؤكد هو أن لديّ إداركًا عميقًا بالميكانيكا المُعقَّدة للعلاقات بينهم.

وبعدما غادر والدي إلىٰ حقلٍ آخر، شرعت في استخدام المنجل. "اضرب تحت كعبك يا فتىٰ. تحت كعبك. حرِّر أصابع قدميك. لا تضغط عليها". لكن من فرط إثارتي لم أفهم ما يعني "تحت كعبي هذا"، وفي الضربةِ الثالثة غرست أصابع قدمي في الأرض. "إذا استمررت علىٰ هذا النحو ستدمِّر المنجل"، هذا ما قاله أرخيب. ثم قالت امرأةٌ اسودَّ وجهها من الغبار: "حريٌّ بك أن تتعلَّم من والدك"، قالتها وفي عينيها نظرة استحقارٍ هازئة. غادرتهم مسرعًا، بينما لم تزل القبعة ذات الشارة الصفراء علىٰ رأسي الذي يتصبَّب عرقًا من تحتها. سمعت أيضًا أحد الحصَّادين يقول من وراء ظهري: "اذهب وكُل الكعك مع أمك". كان ذلك هو موتوزكا. كنت أعرف هذا الحصَّاد ذا الوجه الأسود من حذائه. كان ذلك عامه الثالث في يانوفكا. كان فطنًا؛ داهية، وسليط اللسان. ذات مرةٍ، بعد عامٍ من هذا الموقف، قال كلامًا بذيئًا، لكن ملائمًا تمامًا، علىٰ أسياده، علىٰ مسمعٍ مني. كنت أتذكَّر

دائمًا كيف كان ذكيًا، وجريئًا، لكن سلاطة لسانه بلا حياء أو حدود كانت تجعلني أغلي غضبًا، عاجزًا عن فعلِ شيء.

كنت أود ولو قلت شيئًا أكسبه به إلىٰ صفي، أو علىٰ النقيض من ذلك أن أُخضِعه بعبارةٍ آمرةٍ حادة، لكنني لم أدرِ ماذا أقول.

لدىٰ عودتي من الحقل، وجدت أمام عتبة دارنا امرأةً حافية القدمين، كانت جالسةً علىٰ الأرض متكأةً علىٰ الحائط. بدا أن لم يكن لديها ما يكفي من جرأةٍ للجلوسِ علىٰ حجر العتبةِ نفسها. كانت أمًا لطفلٍ ذي إعاقةٍ عقليةٍ يرعىٰ الغنم، يُدعىٰ إيجانتكا، وقد سارت علىٰ قدميها سبعة كيلومترات لنيل روبل واحد كان مستحقًا لها. لكن لم يكن أحدٌ في الدار، فصار عليها أن تنتظر حتىٰ المساء. ضاق صدري بالنظرِ إلىٰ هذا التجسيد الحي للفقر والخضوع.

لم تكن الأحوال أفضل في العام التالي، بل ساءت إلىٰ حدٍ كبير. كنت عائدًا إلىٰ الدار بعد مباراةِ كروكيت حين قابلت والدي في باحةِ الدار، وكان هو عائدًا لتوه من الحقل مُنهكًا وفي مزاجٍ سيء يكسو الغبار وجهه. وكان فلاحٌ أبقعٌ ضئيل الجسد يتبعه متثاقلَ الخطىٰ، حافي القدمين، وقد اسوَدَّ كعباه تمامًا. ظلَّ يردِّد: "بالله عليك اعطني بقرتي"، قاسمًا بأنه سيفعل أي شيءٍ ليبقيها بعيدةً عن الحقل. ردَّ عليه والدي: "ربما تأكل بقرتك بعشرة كوبيكات قمح، لكنها ستدمِّر عشرة روبلات منه". ظلَّ الفلاح يتضرَّع له، وفي توسُّلاته شعرت بكراهيةٍ دفينة. غَرَسَ هذا المشهد حزنًا عميقًا في قلبي. تحوَّل المزاج اللطيف

الذي جئتُ به من ساحة الكروكيت، التي تحاوطها أشجار الإجاص من كل ناحية، إلىٰ إحساسٍ ثقيلٍ باليأس. سبقت والدي إلىٰ غرفة نومي، واستلقيت مُمَدِّدًا جسدي علىٰ الفراش، واستسلمت للبكاء، رغم كوني كبيرًا في السنةِ الدراسيةِ الثانية آنذاك. عَبَرَ والدي من الردهة إلىٰ غرفة تناول الطعام، والفلاح الضئيل يتبعه حتىٰ الباب. سمعت أصواتهم، ثم غادرَ الفلاح. جاءت أمي من الطاحونة؛ عرفتها علىٰ الفور من صوتها، ثم سمعت أصوات الصحون التي تُعَد للغداء، ثم صوت أمي يناديني.

لم أرد، واستمررت في البكاء. بدا البكاء ممتعًا بقدرٍ ما. ثم انفتح البابُ ومالت أمي نحوي.

"ما الخطب يا ليوفوتشكا؟".

لم أرد، فهمست لأبي بكلامٍ لم أتبيَّنه.

"هل أنت منزعجٌ بشأن ذلك الفلاح؟ لكننا رددنا إليه بقرته ولم نُغرِّمه".

فقلت لها من تحت الوسادة: "لست منزعجًا بهذا الشأن"، شاعرًا بالخجلِ من سبب دموعي.

فكرَّرَت أمي في تأكيدٍ مرةً أخرىٰ: "نحن لم نُغرِّمه شيئًا".

كان أبي هو من قال لها ما خمَّن أنه سبب دموعي؛ لاحَظَ الكثير فقط بلمحةٍ خاطفة.

ذات يومٍ، حين كان أبي غائبًا عن المنزل، جاء رقيبٌ من الشرطة؛ إنسانٌ وقح وجشع ومُتكبِّر، وطالبَ بتصاريح عملِ العمال، فوجَدَ اثنين منهم متأخرَين عن التجديد. استدعىٰ العاملَين صاحبا التصاريح المتأخرةِ من الحقل وأعلن أنهما رهن الاعتقال، وأنهما سيُرحَّلان إلىٰ بلديهما كمسجونَين. كان أحدُهما رجلًا عجوزًا ذا رقبةٍ بُنيةٍ ذابلة تغوص في الثنايا والتجاعيد، والآخر كان ابن أخيه. ارتميا علىٰ رُكُباتهم علىٰ الأرضِ الترابية، وظلَّا يردِّدان: "كن رؤوفًا بنا. لا تدمِّرنا يا سيدي". أخذ الرقيب السمين الغارق في عرقه يلعب في سيفه، وشرب بعضًا من اللبن الذي جاءوا له به من القبو، ثم ردَّ: "أنا لا أرؤف بحالِ أحدٍ إلا في أيام العيد، وهذا يومُ عمل". شعرت كما لو أنني أجلس علىٰ جمرةٍ مُتقدةٍ، وبصوتٍ مرتبِك انزلقت من لساني بضع كلماتٍ احتججت بها علىٰ هذا الوضع. فقال لي الرقيب بصرامةٍ مُتعمَّدة: "من الأفضل أن تدعك وشأنك أيها الفتىٰ"، بينما لوَّحت أختي الكبرىٰ بإصبعها مُحذِّرةً إياي، ثم غادَرَ الرقيب مع العاملَين.

في أثناء إجازاتي، كنت أساهم في ضبط وتسجيل الحسابات، بحيث يمكن أن أحل محل أخي وأختي في ذلك لاحقًا. كنت أسجِّل أسماء العمال، وشروطَ توظيفهم، والأجور التي يتقاضونها عينًا أو نقدًا. أحيانًا أيضًا كنت أساعد والدي في دفعِ أجورِ العمال، وفي أثناء ذلك حدث كثيرًا أن كانت بيننا عباراتُ لطفٍ عابرة لم تُكبَت إلا بسبب حضور العمال معنا. لم يكن هناك أي غشٍ في تسجيلِ

الحسابات، لكن شروط العمل كانت تُفسَّر وتُطبَّق بقسوة، بينما كان العمال، خاصةً الأكبر سنًا منهم، يشعرون بأن الفتىٰ يقف إلىٰ جانبهم، وهذا ما أزعجَ والدي.

بعد ما قد يحدث بيننا من صدام، كنت أخرج ومعي كتاب ولا أعود أدراجي إلا في أثناء العشاء. في إحدىٰ تلك المرات، هبَّت عاصفةٌ في الحقول. كان هزيمُ الرعد يخرق أذنيّ، ومطر السهول يبقبق في الجداول. ظلَّ البرقُ يضوي في كل جانبٍ كما لو كان يقصد محاصرتي. كنت أركض بسرعةٍ وأنا غارقٌ في المياه، وحذائي ينبح كالكلبِ راكلًا المطر يمينًا ويسارًا، وقبعتي كالمزراب علىٰ رأسي. وحين عدْت إلىٰ المنزل، استُقبِلت بنظرةٍ من طرفِ العين وصمتٍ مُقلِق. أحضرت لي أختي ملابس جافة وشيئًا لآكله.

كان والدي يصطحبني عادةً عند عودتي إلىٰ المدينة بعد انقضاء الإجازة. وكقاعدةٍ مُتفق عليها، لم نكن نستأجر حمالًا قط، بل نحمل حقائبنا بأنفسنا؛ يحمل أبي أثقلها فيما كنت ألاحظ من منظرِ ظهره ويده المنتفخة أنه يُجهِد نفسه أكثر من المُحتَمَل. شعرت بالخجلِ منه، وكنت أحمل كل ما بإمكاني حمله. لكن، ذات مرة، حين كان معنا صندوقٌ ثقيلٌ مُحمَّلٌ بالهدايا للأقارب في أوديسا، استأجرنا حمَّالًا بالفعل. كان أبي بخيلًا في البقشيش، وطبعًا لم يكن الحمَّال راضيًا، فهزَّ رأسه بامتعاض. كنت دائمًا أنفق كل ما في محفظتي من مال في غمضة عين؛ أنظر في عينيّ الحمَّال خاشيًا أن أعطيه أقل مما يستحق.

هذه كانت ردة فعلٍ لازمتني من الحياة المنغلقة في موطني الريفي، واستمرت معي طوال حياتي.

في الريف، كما في المدينة، عشت في بيئةٍ برجوازيةٍ صغيرة، حيث يبذل من حولي جلَّ جهودهم من أجل الاستحواذ، وقد نأيت بنفسي عن ذلك تمامًا سواء في الريف الذي قضيت فيه طفولتي المبكرة، أو في المدينة حيث قضيت فترة شبابي. أفلتُّ من أسر غريزة الاستحواذ، وذلك المنظور البرجوازي الصغير وعادات الحياة المبنية عليه، وفعلت ذلك بدفعةٍ قويةٍ ولم أعد إليه قط.

علىٰ صعيد الدين والوطنية، لم يكن بين الريف والمدينة ثمة تناقض، بل علىٰ العكس؛ كانا يكمِّلان بعضهما في جوانب عدة. لم يكن هناك تقيُّدٌ صارمٌ بالدين في عائلة أبي؛ كانوا علىٰ الأقل يحافظون علىٰ المظاهرِ الدينية الخارجية بحكم العادة لا أكثر؛ يذهبون إلىٰ الكنيس في أيام الأعياد، وتكف أمي عن الخياطة في أيام السبت، علىٰ الأقل أمام الآخرين. لكن كل هذه المظاهر الاحتفالية بالالتزام بالدين كانت تتقلَّص مع مرور السنوات ونضوج الأطفال، ومع الازدهار المادي الذي شهدته عائلتي. لم يكن أبي يؤمن بالله منذ أيام شبابه، وفي السنواتِ اللاحقة تحدَّثَ عن الأمر علانيةً أمام أمي وأمامنا، بينما كانت أمي تتجنَّب الموضوع، لكن حين يقتضي الأمر ترفع عينيها إلىٰ السماء داعيةً الرب.

حين كنت في السابعة أو الثامنة من عمري، كان الإيمان بالله لا يزال مُعترَفًا به رسميًا في إطارِ العائلة. وفي إحدة المرات، سألني ضيفٌ كان والديّ يمتدحاني أمامه، وجعلاني أعرض عليه رسوماتي وألقي عليه ما أحفظ من أشعار، هذا السؤال: "ماذا تعرف عن الرب؟".

فأجبته دون تردُّد: "الرب هو واحدٌ من الرجال".

فردَّ: "كلا، الرب ليس رجلًا".

وسألته في المقابل: "ما هو الرب؟"، إذ لم أكن أعرف من دون البشر سوىٰ الحيوانات والنباتات. تبادل أبي وأمي والضيف نظراتٍ مصحوبةً بابتسامةِ حرجٍ، تمامًا كما يحدث دائمًا بين الكبار حين يبدأ صغارهم يهزُّون أكثر معتقداتهم رسوخًا.

قال الضيف: "الرب روح"، فجاء حينها دوري في الابتسام أمام الكبار، لكن هذه المرة بارتباكٍ، محاولًا الاستشفاف من وجوههم ما إذا كانوا يتحدَّثون بجديةٍ أم يمزحون. لكن، لا، لم تكن هذه مزحة. أحنيت رأسي أمام معرفتهم التي تفوقني بالتأكيد. سرعان ما اعتدت علىٰ فكرة أن الرب روحٌ بالفعل. وربطت الرب بروحي أنا، وأسميته "النفس"، وكنت بالطبع علىٰ درايةٍ بأن "النفس" - أقصد التنفُّس - ينتهي حين يجثم الموت. لكنني لم أكن أعلم بعد أن هذا المُعتَقَد موجودٌ بالفعل ويحمل اسم "المذهب الروحاني".

في إجازاتي الأولىٰ، حين كنت أستعد للنومِ علىٰ الأريكةِ في غرفةِ الطعام، دخلت ذات مرةٍ في مناقشةٍ عن الرب مع صديقي "ز"، الذي كان يزورنا في يانوفكا وينام علىٰ الأريكةِ أيضًا. في ذلك الوقت لم أكن واثقًا بعد فيما إذا كان الرب موجودًا حقًا أم لا، ولم أكن أقلِق نفسي بهذا الشأن كثيرًا، فلم أكن مهتمًا بالتوصُّل إلىٰ إجابةٍ مُحدَّدة.

سألت "ز" مستندًا فوق وسادتي: "إلىٰ أين تذهب الروح بعد الموت؟".

فجاء رده: "أين تذهب حين تنام؟".

فجادلته محاولًا البقاء مستيقظًا: "حسنًا، تظل موجودة".

فصعَّد هجمته طارحًا السؤال: "وأين تذهب روح الحصان حيث يسقط صريعًا؟".

كان هذا كافيًا بالنسبةِ لي، فرحت أغط في نومٍ عميق.

لم يكن الدين ملحوظًا بأيةِ درجةٍ في عائلة شبينتزر، إذا استثنينا بالطبع العمَّة العجوز التي ليست ذات أهميةٍ كبيرة. رغم ذلك، كان أبي يريدني أن أدرس العهد القديم، في دلالةٍ علىٰ واحدةٍ من وصاياته الأبوية، فبدأت بناءً علىٰ رغبته في حضورِ حصصٍ دينيةٍ خاصة من رجلٍ فقيهٍ في أوديسا. استمرت دراستي بضعة أشهر، ولم أثبت في خلالها إلا قليلًا من الإيمان بالموروث عن الأسلاف. وفي أحد شروحاته التي احتملت أكثر من معنىٰ بخصوص نصٍ دينيٍ كنَّا

نتناوله، تشجَّعت لطرحِ سؤالٍ لم يخرج من فمي إلا بكل حذرٍ وديبلوماسية: "إذا قبلنا، مثل البعض، بأن الرب ليس موجودًا، كيف أتي هذا العالم إلىٰ الوجود؟".

همهم المُدرِّس وقال: "يمكنك أن تطرح نفس السؤال عن الرب أيضًا". بهذه الطريقة الحاذقة، عبَّر الرجلُ عن نفسه بوضوح. أدركت أن فقيه الدين ليس مؤمنًا بوجود الرب، وهذا ما أنزلَ في عقلي أيَّما سكينة.

كانت التركيبة الدينية والعرقية في المدرسة الثانوية متنوعة بشدة، فكانت حصة الدين تُلقَىٰ بواسطة قسٍّ أرثوذكسي روسي، ثم كاهنٍ بروتستانتي، ثم قسٍّ كاثوليكي، ثم مربٍ يهودي، هكذا علىٰ التوالي. كان القس الروسي، ابن أخي المطران، الذي ذاع صيته بأن النساء تفضِّله، شابًا وسيمًا بصورةٍ مُذهلة، يشبه صور المسيح علىٰ غرار تلك الموجودة في حجرة الرسم. كان يرتدي نظاراتٍ ذهبية، وكان شعره ذهبيًا غزيرًا؛ كان باختصار أنيقًا بشكلٍ لا يُصدَّق. قبل حصة الدين، كان التلاميذ يُقسَّمون إلىٰ مجموعاتٍ مُنفَصِلةٍ تبعًا لمعتقداتهم الدينية؛ كل من ليس أرثوذكسيًا كان يغادر الفصل، أحيانًا تحت إشرافِ القس الروسي. في بعضٍ من تلك المرات، حين يغادر الأولاد الفصل، كان القس يسأل أحدهم، بتعبيرٍ خاصٍ يعج بالاحتقار الذي لا يُخفِّفه إلا بعض التسامح المسيحي المُصطَنَع: "إلىٰ أين تذهب؟".

فيجيب التلميذ: "نحن كاثوليك".

فيرد القس: "أوه! كاثوليك"، ثم يومئ برأسه: "فهمت، فهمت. وأنتم؟".

"نحن يهود".

"أوه! يهود، فهمت. يهود. حسنًا، حسنًا".

أما القس الكاثوليكي، فكان مثل ظلٍّ أسود؛ يدير عادةً ظهره لنا، ثم يختفي فجأة بصورةٍ مُبهَمة، حتىٰ أنني خلال تلك السنوات لم تسنح لي أية فرصة للنظر في وجهه الحليق. وكان رجلٌ حسن المحيا يُدعىٰ زيبجلمان هو من درَّسَ العهد القديم وتاريخ أمة اليهود للتلاميذ اليهوديين. هذه الحصص، التي كان تُقدَّم باللغةِ الروسية، لم يكن الأولاد يأخذونها بجديةٍ إطلاقًا.

لم تكن الفكرة الوطنية تحتل مكانًا مستقلًا في ذهني في تلك السنوات، وبالمثل لم يكن لها إلا تأثيرٌ محدودٌ في الحياة اليومية. صحيحٌ أن بعد قوانين 1881، التي قوَّضَت حقوق اليهود في روسيا، لم يكن والدي قادرًا بسببها علىٰ شراء المزيد من الأراضي التي كان توَّاقًا لها، لكنه علىٰ الأقل تمكَّنَ من استئجارها في الخفاء. لم تؤثر هذه القوانين علىٰ حياتي إلا نادرًا، فباعتباري ابنًا لمالكِ أراضٍ مُترَف، كنت أنتمي إلىٰ طبقةٍ متميِّزةٍ اجتماعيًا، لا إلىٰ المُضطهَدين. كانت اللغة الدارجة بين أفراد عائلتي هي الروسية الأوكرانية. وبسبب النسبة المُحدَّدة للتلاميذ اليهود في الالتحاق بالمدرسة، تأخرت عامًا كاملًا.

لكنني كنت دائمًا متفوِّقًا في الصف الدراسي، ولم أتأثر شخصيًا بالقيود التي تفرضها القوانين.

لم يكن في مدرستي ثمة تناحرٌ صريحٌ بين القوميات المختلفة. وإلىٰ حدٍ ما، كان التنوُّع بين العناصر القومية، ليس فقط بين التلاميذ، بل بين الأساتذة أيضًا، بمثابة توكيدٍ علىٰ سياسات عدم التناحر هذه. لكن رغم ذلك، كانت هناك شوفينيةٌ مكبوتة تطفو علىٰ السطحِ بين الحينِ والآخر. مُدرِّس التاريخ، مثلًا، ذلك المدعو ليوبيموف، عبَّرَ ذات مرة عن تعصُّبه الملحوظ حين سأل تلميذًا بولنديًا عن الاضطهاد الكاثوليكي للروس الأرثوذكس في روسيا البيضاء وليتوانيا. شحب وجه ميزكيفيك، الولد الأسمر الطويل الهزيل، ولم ينبت ببنت شفة، ثم قال ليوبيموف مستفزًا إياه، بتعبيرٍ عن سعادةٍ سادية: "حسنًا، لماذا لا تتكلَّم؟". فقال أحد الأولاد: "ميزكيفيك بولندي وكاثوليكي". فقال ليوبيموف مدعيًا الشعور بالمفاجأة: "أحقًا؟ نحن لا نفرِّق بين القوميات هنا".

آلمني بشدة أن أرىٰ هذا الموقف من قِبَلِ ذلك الوغد ليوبيموف الذي يخفي نذالته تجاه البولنديين، بقدرِ ما أوجعني حقد بيرناند اللئيم علىٰ الألمان، وهزة رأس القس الروسي حين يرىٰ اليهود. ربما كان هذا التميز ضد أصحاب القوميات المختلفة أحد الأسباب الكامنة وراء استيائي وسخطي علىٰ النظام القائم، لكنه رغم ذلك لم يكن يمثِّل إلا شكلًا من أشكالٍ عديدة للظلم الاجتماعي، ولم يكن

حتىٰ يحتل مرتبةً هامة ضمن قائمة المآسي التي شهدتها في سنواتي المبكرة.

هذا الشعور بسيادة العام علىٰ الخاص، والقانون علىٰ الحقائق، والنظرية علىٰ التجربة الشخصية، كان متأصلًا في ذهني في المراحل المبكرة من حياتي، بل واكتسبَ في السنواتِ اللاحقة قوةً متناميةً. كانت المدينة هي ما اضطلعت بالدورِ الرئيسي في بلورة هذا الشعور، الذي صار فيما بعد أساسًا لمنظوري الفلسفي في الحياة. كنت أغضب بشدة حين أسمع الأولاد الذين يدرسون الفيزياء والتاريخ الطبيعي يجترُّون مفاهيم خزعبلية عن يوم الاثنين "المنحوس"، أو عن أحد الكهنة هنا أو هناك. كنت أشعر بإهانةٍ لذكائي، وأكون علىٰ وشكِ القيامِ بأي تصرُّفٍ مجنون فقط لإثنائهم عن هذه الخرافات التي يتبجحون بها.

وبينما كان فلاحو يانوفكا يقضون ساعاتٍ طوال منهمكين في قياسِ مساحةِ حقلٍ علىٰ شكلٍ شبه منحرف، كنت أطبِّق نظرية إقليدس للحصول علىٰ إجابةٍ في دقيقتين فقط. لكن حساباتي لم تكن تطابق ما يتوصَّلون إليه بواسطة أساليبهم "العملية"، فيرفضون أخذها في الاعتبار. كنت أجلب كتاب الهندسة وأقسم باسم العلم أن أدهشهم وأقول لهم كلامًا قاسيًا علىٰ عدم تصديقهم الحسابات العلمية. رفضوا أن يروا نور العقل، وهذا ما قادني إلىٰ اليأس.

دخلت ذات مرةٍ في جدالٍ عبثي مع ميكانيكي القرية، إيفان فاسيلييفيتش، الذي أصرَّ علىٰ اعتقاده بأن بإمكانه صنع آلةٍ دائمةِ الحركة. بدا له قانون حفظ الطاقة فكرةً خيالية لا علاقة لها بمشكلته، أو كما قال: "هذا في الممارسة، وذاك في الكتاب". رفض عقلي أن يفهم، أو يتصالح مع، حقيقة أن الناس قد يرفضون الحقائق التي لا جدال عليها في مقابل تصديق أوهامٍ وخرافاتٍ سخيفة.

لاحقًا، صار الشعور بسيادة العام علىٰ الخاص جزءًا مُكمِّلًا لعملي السياسي والأدبي. التطبيق التجريبي الضحل، والعبادة المُتذلِّلة لحقائق ليست إلا من صُنع الخيال، كل ذلك كان مقيتًا بالنسبةِ لي. كنت أبحث عن القوانين ما وراء الحقائق. وبطبيعة الحال، قادني ذلك أكثر من مرةٍ إلىٰ تعميماتٍ مُتسرِّعَة وخاطئة، خاصةً في سنواتِ شبابي المبكرة حين كانت معرفتي المُستمَدَّة من الكتب وخبرتي المحدودة في الحياة غير كافيتَين بعد. لكن في كل مجال، شعرت أن بإمكاني أن أحكم وأتصرَّف فقط بمجرد أن أقبض بين يديَّ علىٰ خيطِ ما هو عام. نمت لديّ الراديكالية الاشتراكية الثورية، التي صارت فيما محورًا لحياتي برمتها، بالأساس من هذا العداء الفكري تجاه الواقعية النفعية المباشرة، وإزاء كل ما هو مُفرَّغٍ أيديولوجيًا وغير مُعمَّم نظريًا.

سأحاول هنا أن أنظر إلىٰ الوراء من بعيدٍ إلىٰ نفسي استذكارًا للماضي. كان الفتىٰ بلا شك طموحًا، وسريع الغضب، وربما كان

صعبَ المراس، لكنني لا أعتقد أنه كان يشعر بتميُّزٍ عن زملائه في الفصل حين التحق بالمدرسة.

بالطبع في القرية كانوا يقدِّمونه بفخرٍ للضيرف، فلم يكن أحدٌ يضاهيه، وأولاد المدينة الذي كانوا يأتون إلىٰ يانوفكا تميَّزوا عنه فقط بأنهم رياضيين؛ كانوا أكبر منه سنًا، ولم يكن الولد ينظر إليهم إلا من أسفل. في المقابل، كانت المدرسة ساحةً لصراعٍ مرير. ومنذ اللحظة التي وجد فيها نفسه الأول علىٰ صفه، بفارقٍ كبيرٍ عمن بعده، شَعَرَ الزائر الصغير من يانوفكا أن بإمكانه أن يبلي أفضل من غيره. والأولاد ممن أصبحوا أصدقاءً له صاروا معترفين بزعامته لهم. لم يكن ذلك من دون تأثيرٍ علىٰ شخصيته. أثنىٰ عليه أساتذته، وبعضهم، مثل كريجانوفسكي، كانوا يشيرون إليه باهتمامٍ خاص. بشكلٍ عام، كان الأساتذة يعاملونه جيدًا دون مصلحةٍ لهم في ذلك. أما الأولاد، فكانوا منقسمين إلىٰ أصدقاءٍ وأعداء.

لم يفتقر الفتىٰ إلىٰ النقد الذاتي؛ كان بعبارةٍ أخرىٰ من الصعب عليه أن يرضي نفسه. لم يكن مكتفيًا بما حظىٰ به من تأهيلٍ فكري، كما كان ساخطًا علىٰ بعضِ الخصائص في شخصيته. ومع الوقت، تفاقَمَ هذا الشعور بشكلٍ كبير. كان يلوم نفسه إذا ما كذب، أو يوبِّخ نفسه لأنه لم يقرأ بعد كل الكتب التي ذكرها آخرون أمامه بشكلٍ عارض. كان واضحًا أن هذا أقرب إلىٰ الخيلاء والغرور. كان طموحه لأن يصبح أفضل وأذكىٰ وأسمىٰ ثقافةً من غيره، ولأن يكتسب معرفةً

أوسع بالكتب، يُثقِل عقله وروحه علىٰ الدوام. كان يفكِّر في الغرضِ من حياةِ البشر، والغرضِ من وجوده هو نفسه.

ذات مساءٍ، توقَّفَ مويسي فيليبوفيتش أثناء مروره بي وسألني بتوقيرٍ مُصطَنَع: "ما فكرتك عن الحياة أيها الرجل العجوز؟". كان غالبًا ما يلجأ لهذا الأسلوب التهكمي بغرضِ السخريةِ والاستعلاءِ أيضًا. لكن هذه المرة بالذات شعرت أنني تعرَّضت للإهانة. نعم، بالتأكيد كنت أفكر في الحياة، لكنني فقط لم أكن أستطيع تطبيق ما أفكِّر فيه علىٰ مخاوفي الصبيانية مستقبلًا. لابد أن ناصحي هذا قد سمع بأفكاري. قال بنبرةٍ مغايرة: "لعلني طرقت وترًا حسَّاسًا"، ثم لَطَمَ كتفي برفقٍ وذهب إلىٰ غرفته.

هل كان لآل شبينتزر أية رؤىٰ سياسية؟ كانت لدىٰ فيليبوفيتش أفكارٌ ليبرالية معتدلة ذات توجهٍ إنساني، مُخضبةً ببعض الرؤىٰ الشعبوية والتولستوية، علاوة علىٰ بعض العواطف الاشتراكية الغامضة. لم تكن المواضيع السياسية تُناقش بصورةٍ مفتوحة قط، بالأخص في حضوري، ربما خوفًا من أن أقول شيئًا جديرًا باللوم في المدرسة أو أن أوقع بنفسي في مشكلة. وحين كان يُشار بشكلٍ عارضٍ إلىٰ حدثٍ سياسي في الحركة الثورية في أثناء مناقشةٍ بين الكِبار، مثل "كان ذلك في سنةِ اغتيال القيصر أليكساندر الثاني"، كان لذلك وقعٌ خاص، وكأنه حدثٌ في ماضٍ سحيق، أو وكأنما يقولون: "كان ذلك

في سنةِ اكتشافِ كولومبوس الأمريكتين". كانَ الناس في محيطي بعيدين عن السياسة.

خلال سنوات المدرسة، لم تكن لديّ أية أفكار سياسية، ولم تكن لديّ حتىٰ الرغبة في تبني بعضها. في الوقت نفسه، كانت الاجتهادات والتفاعلات في وعيي الباطن متأثرةً بروح المعارضة. كنت أكِنُّ كراهيةً عميقة للنظام القائم، للظلم والاستبداد. من أين جاء كل هذا في عقلي؟ لقد نَبَتَ من الظروف السائدة في ظل حكمِ أليكساندر الثالث، ووقائع الظلم في المدرسةِ وفي الشارع، ومن العلاقة الوثيقة بين الطلاب والعمال والخدم في الريف، ومن مناقشات الورشة، ومن قراءة قصائد نيكراسوف وكل الكتب الأخرىٰ، وبشكلٍ عام من المناخ الاجتماعي ككل في ذلك الوقت.

كشف مزاجي المعارض النقاب عن نفسه بصورةٍ قاطعة في علاقتي باثنين من زملائي بالفصل؟ رودزيفيتش وكولوجريفوف.

كان فلاديمير رودزيفيتش ابنًا لعقيدٍ في الجيش، وظلَّ الثاني علىٰ الفصل لفترةٍ من الوقت. أقنع والديه بالسماح له بدعوتي إلىٰ منزلهم في أحد أيام الأحد. استقبلاني بجفاءٍ إلىٰ حدٍ ما، لكن طبعًا بقدرٍ من الكياسة والاحترام. تحدَّثَ إليّ العقيد وزوجته بقليلٍ من الكلمات، كما لو كانا يختبراني. وخلال الساعات الثلاث أو الأربع التي قضيتها معهم، صادفت بعض الأمور التي بدت غريبةً ومقلِقةً لي، بل ومعاديةً حتىٰ. مثلًا، حدث أن انفتح نقاشٌ حول الدين وإجراءات السلطات،

فسادت نبرةٌ محافِظةٌ من التقوىٰ والورع أشعرتني بضيقٍ في صدري. لم يسمح والدا فلاديمير له بزيارتي، وانقطع حبلُ التواصل بيننا. وبعد اندلاع الثورة الأولىٰ في أوديسا، ذاع صيت عضوٍ في المائة السود يُدعىٰ رودزيفيتش، ربما كان واحدًا من أفراد العائلة نفسها.

أما كولوجريفوف، فربما كانت قصته أكثر إثارةً. التحق بالمدرسة في الصف الثاني، بعد عيدِ الميلاد، وكان بارزًا بين الأولاد؛ طويلًا وأخرقًا وغريبًا. كان بارعًا بصورةٍ لا تُصدَّق في حفظِ المواد الدراسية عن ظهرِ قلب؛ أي شيءٍ وكل شيء، وقتما يشاء. وبحلولِ نهايةِ الشهر الأول له في المدرسة، تحنَّطَ عقله من الحفظِ المستمر. وحين استدعاه مُدرِّس الجغرافيا ليتلو الخريطة موضوع الدرس، بدأ علىٰ الفور، دون حتىٰ أن ينتظر السؤال، قائلًا: "أنزل عيسىٰ المسيح أمره إلىٰ العالم...". لابد فقط أن أذكر هنا أن الساعة التالية بأكملها صارت درسًا في الدين.

وفي محادثةٍ مع كولوجريفوف، الذي كان يعاملني، باعتباري الأول علىٰ الصف، باحترامٍ جم، قلت بضعَ كلماتٍ أنتقد بها مدير المدرسة وشخصًا آخر. فسألني كولوجريفوف ساخطًا بجدية: "كيف تتحدَّث عن مدير المدرسة بهذه الطريقة؟". فرددت عليه مندهشًا بأكثر جديةً: "ولِمَ لا أتحدَّث عنه هكذا؟"، فقال: "لكنه مدير مدرستنا، والمدراء إذا قالوا لك أن تمشي علىٰ رأسك، فمن واجبك أن تفعل ذلك، لا أن تنتقدهم". ذُهِلت من صيغة هذا التعبير؛ لم يخطر

علىٰ بالي وقتها قط أن الفتىٰ يردِّد فقط ماً لابد أن يكون قد سمعه في بيته الإقطاعي. ورغم أن لم يكن لي بعد رؤاي الخاصة آنذاك، شعرت أن من المستحيل أن أقبل رؤىٰ معينة لمجرَّد أنها تتردَّد علىٰ مسامعي، بقدرِ ما هو من المستحيل أن آكل طعامًا نما فيه الدود.

وبالتوازي مع عداوتي الكامنة للنظام السياسي في روسيا، بدأت أبلوِر في مخيِّلتي صورةً مثاليةً عن العالم الخارجي في أوروبا وأمريكا. ومن لمامٍ من الأوصاف وشتاتٍ من الملاحظات، بدأت أتصوَّر ثقافةً ساميةً في نفسها تستوعب الجميع من دونِ استثناءات. اقتضىٰ منطقي الخاص أنه إذا صار أمرٌ مقبولًا علىٰ مستوىٰ الافتراض النظري، فلابد بالطبع، بناءً علىٰ ذلك، أن يكون قابلًا للتطبيق في الممارسة العملية. ومن هذا المنطلق، بدا من غير المعقول أن تشيع في أوروبا خرافاتٌ شبيهة، أو أن تحظىٰ الكنيسة بنفوذٍ كبير هناك، أو أن البيض في أمريكا يضطهِدون السود. كنت مُتشبِّعًا بهذه الصورة المثالية عن العالم الغربي، وحدث ذلك معي بصورةٍ تدريجيةٍ في بيئةٍ من المواطنة علىٰ النُسُق الليبرالي المختال بنفسه، بلْ واستمرت هذه الصورة معي خلال فترةٍ لاحقة بدأت فيها في بلورة رؤاي الثورية. ربما كنت لأشعر بمفاجأةٍ صادمة وقتذاك إذا نما إلىٰ علمي أن الجمهورية الألمانية، المُتوَّجة بحكومةٍ اشتراكيةٍ ديمقراطية، تقبل الملكيين في إطارها، بينما تدحض حق الثوريين في اللجوءِ إليها. لحسن الحظ، كفَّت الكثير من

الأمورِ عن إدهاشي منذ ذلك الوقت. هزمت الحياةُ المنطقَ في عقلي وعلَّمتني آليات الديالكتيك. حتىٰ هيرمان موللر لم يعد يدهشني.

الفصل السادس

الانفصال

استغرق تطوُّر الحياة السياسية في روسيا عقودًا من الزمن، ابتداءً من منتصف القرن الماضي. كانت ستينيات ذلك القرن، بعد حرب القرم، تمثَّل عصر التنوير القصير في روسيا. وخلال العقد التالي، سَعَت الإنتلجنسيا بكل جهدها لاستخلاص استنتاجاتٍ سياسيةٍ من نظريات التنوير. وبينما بدأ ذلك العقد بالتوجه إلىٰ الجماهير بالدعاية الثورية، انتهىٰ بالإرهاب. مرَّت السبعينياتِ في التاريخ كسنواتٍ تحمل بصمة تنظيم "نارونايا فوليا" (إرادة الشعب)، فيما انهمكت العناصر الأفضل في ذلك الجيل في حرب الديناميت. اعتلىٰ العدو مكانه وسيطر علىٰ مقاليد الأمور، فجاء العقد الجديد بالتفكك والتراجع والتشاؤم. وتحت غطاء الرجعية، ظلَّت الرأسمالية تعمل كالأعمىٰ لا يدري ما حوله. أما التسعينيات، فجاءت بالإضرابات العمالية والأفكار الماركسية، وبلغت هذه الموجة أوجها في العقد الأول من القرن الجديد، في 1905.

مرَّت الثمانينيات (من القرن التاسع عشر) حاملةً بصمة بوبدونوستزيف، النائب الأعلىٰ للمجمع المقدس، والعماد الكلاسيكي للسلطة الاستبدادية والاستقرار العام. اعتبره الليبراليون نموذجًا صافيًا للبيروقراطي الذي لا يعرف كيف تجري الحياة. لكن هذا لم يكن صائبًا

علىٰ الإطلاق. كان بوبدونوستزيف يقدِّر التناقضات الكامنة في أعماقِ الحياة العادية برصانةٍ وتعقُّلٍ أكبر وأكثر جديةً من الليبراليين. أدرك جيدًا أن بمجرَّد أن تتراخىٰ البراغي والمسامير، سيُمزِّق الضغط من أسفل البنية الاجتماعية برمتها، وسيُحطِّم ما يعتبره بوبدونوستزيف، والليبراليون كذلك علىٰ حدٍّ سواء، أعمدةً أساسيةً ترفع الثقافة والأخلاقيات الاجتماعية التي ستذهب، نتيجةً لذلك، أدراج الرياح. وفي مساره الخاص، كان بوبدونوستزيف يرىٰ الأمور ويدركها أعمق بكثيرٍ من الليبراليين. ولا يستحق الرجلُ اللومَ علىٰ كونِ العملية التاريخية أقوىٰ وأشد بأسًا من النظام البيزنطي الذي كان يدافع عنه بكل قوة، وهو الذي ألهَمَ ونَصَحَ وأرشَدَ أليكساندر الثالث ونيقولا الثاني.

في ذلك العقد الميت، حين اعتقد الليبراليون أن كل شيءٍ نُزِعَت منه الحياة، كان بوبدونوستزيف لا يزال يشعر تحت قدميه بأرضٍ مُشبَّعةٍ بقلقٍ وتذمُّرٍ تحتي. لم يكن مطمئنًا قط، حتىٰ في أكثر سنوات حكم أليكساندر الثالث استقرارًا. كَتَبَ ذات مرةٍ لأحد رجاله الموثوقين: "كان من الصعب، ولا يزال كذلك، الإقرار بأن الأمور ستمضي علىٰ هذا المنوال"، ثم أضاف: "العبء الذي يُثقِل روحي لا يتبدَّد، لأنني أرىٰ وأشعر كل ساعةٍ بقريحة الزمن وسط كل ما يحل علىٰ الناس... حين أقارن الحاضر بالماضي، أشعر أننا نعيش في عالمٍ غريب، حيث تعود كل الأمور أدراجها إلىٰ فوضىٰ بدائية شاملة، وأشعر أن لا حيلة لنا وسط كل هذا الهياج". عاش بوبدونوستزيف

ليشهد العام 1905، حين اندلعت القوىٰ "التحتية" التي طالما أثارت فزعه، وظهرت للمرةِ الأولىٰ تشققات عميقة في جدران الهيكل القديم بكامله.

يوافق العام 1891، الذي يُذكَر بجفاف المحاصيل وانتشار المجاعة، التاريخ الرسمي لنقطة الانهيار السياسي في البلاد. تمحوَرَ العقد الجديد حول القضية العمالية، ليس في روسيا وحدها، ففي العام 1901 اعتمد الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان برنامج إرفورت، وأصدر البابا ليو الثالث رسالته البابوية حول أحوال العمال، وصار فيلهلم مهووسًا بأفكارٍ اجتماعية لم تعدُ سوىٰ أن تكون مزيجًا من الجهل والرومانسية البيروقراطية. ضَمِنَ التقارب بين القيصر وفرنسا تدفُّق رؤوس الأموال إلىٰ روسيا. وجاء تعيين ويت وزيرًا للمالية إيذانًا بعهدٍ جديدٍ من الحمائية الصناعية. وهذه التطوُّرات العاصفة جلبت معها "قريحة الزمن" التي عذَّبَت بوبدونوستزيف بهواجس تبعث علىٰ الجنون.

بدأ التحوُّل السياسي تجاه الحركة الفعلية علىٰ الأرض وسط النخب المثقفة. ولجأ الشباب الماركسيون مرارًا وتكرارًا، وبعزمٍ قوي، للحركة. وفي الوقت نفسه، بدأت الحركة الشعبوية الهامدة تُظهِر إشاراتٍ علىٰ النهوضِ من جديد. وفي العام 1893، ظَهَرَ أولُ عملٍ ماركسي شرعي، بقلم ستروف. كنت آنذاك في الرابعة عشر من عمري؛ بعيدًا كل البُعدِ عن مثل هذه الأمور.

في العام 1894، مات أليكساندر الثالث، وكما هي العادة في مثل هذه الظروف، وَضَعَ الليبراليون آمالهم علىٰ دعمٍ من وريثِ العرش. لكن ردَّه سَحَقَ هذه الآمال. وفي خطبةٍ مُوجَّهةٍ لزعامات الزيمستفو، وَصَفَ القيصر الشاب طموحاتهم بوضعِ دستورٍ للبلاد بأنها "أحلامٌ واهمة". كنت في الخامسة عشر آنذاك، وبالطبع كنت أقف دون تحفُّظٍ إلىٰ جانبِ هذه "الأحلام الواهمة"، وليس في صفِ القيصر. كنت مؤمنًا، بدرجةٍ من الغموض والضبابية، بضرورةِ السعي نحو تطوُّرٍ تدريجي يدفع روسيا شيئًا فشيئًا إلىٰ جوارِ أوروبا المتقدمة، فيما لم تتجاوز أفكاري السياسية إلىٰ ما هو أبعد من ذلك.

ظلَّت أوديسا التجارية، تلك المدينة الصاخبة المُبَهرَجة متعدِّدة الأعراق، بدرجةٍ استثنائيةٍ، مُتخلِّفةً علىٰ الصعيد السياسي عن غيرها من المراكزِ الأخرىٰ. في سان بطرسبورج، وموسكو، وفي كييف، كانت هناك بالفعل آنذاك الكثير من الحلقات الاشتراكية في المؤسسات التعليمية. بينما لم تظهر أيٌّ منها في أوديسا. وفي 1895، توفىٰ إنجلز. عُقِدَت الكثير من الاجتماعات تأبينًا له في أوساط الطلاب في روسيا. صرت في السادسةِ عشر من عمري، لكنني لم أكن قد سمعت قط باسم إنجلز، وبالكاد كانت لديّ فكرةٌ عن ماركس، أو ربما لم تكن لديّ أيُ فكرةٍ علىٰ الإطلاق.

كان إطاري الفكري في فترةِ المدرسة معارضًا بشكلٍ عام، لكن لم يكن قد ارتسم بصورةٍ واضحةٍ بعد. في ذلك الزمان، لم تكن القضايا

الثورية مألوفةً بعد في الأوساط الواسعة للطلاب. كان البعض يتداولون همسًا أن هناك مجموعاتٍ تعقد اجتماعاتٍ في صالة الألعاب الرياضية الخاصة التي يديرها التشيكي نوفاك، وأنا هناك حملات اعتقالات جارية، وأن نوفاك الذي كان مدرِّسنا للألعاب الرياضية طُرِدَ من المدرسة ليحل محله ضابطٌ في الجيش. في البيئة المحيطة بمنزلِ آل شبينتزر، كان الاستياء يسود الأجواء، لكن النظام ظلَّ ثابتًا. لم يكن أكثرنا جرأةً يحلم بأكثرِ من دستورٍ جديد يمكن إقراره بعد عقودٍ من الزمن. أما في يانوفكا، فلم تكن مثل هذه الأمور تُذكَر من الأصل. وعند عودتي إلىٰ القرية، بعد تخرُّجي من المدرسة، حاملًا معي بعض الأفكار الديمقراطية الضحلة، تنبَّه والدي علىٰ الفور، ونهرني عنها قائلًا: "لن يحدث ذلك ولو حتىٰ بعد ثلاثمائة سنة". كان مقتنعًا بأن الجهود الإصلاحية ليست إلا عبث، وكان قلقًا بالطبع علىٰ ابنه. وفي العام 1921، حين جاء إليّ في الكرملين، بعدما أفلت بحياته من أهوال القتالِ بين الجيشين الأحمر والأبيض، سألته مازحًا: "أتذكُر حين كنت تقول إن النظام القيصري سيقبع في مكانه لثلاثةِ قرون أخرىٰ؟"، فابتسم الرجل العجوز بدهاءٍ وردَّ بالأوكرانية: "لنقل أنك علىٰ حقٍ هذه المرة".

في التسعينيات، بدأت التيارات التولستوية في الخمودِ بين نخب المثقفين، بينما غدت الماركسية تسيرُ قُدمًا، متفوِّقةً علىٰ الحركة الشعبوية. كانت الإصدارات من كل نوعٍ تعج بأصداءِ الصراعات

الأيديولوجية. وفي كل مكان كانت أحاديثٌ تجري عن الشبان الواثقين الذين يُطلقون علىٰ أنفسهم "ماديين". بدأت أدرك كل هذا للمرةِ الأولىٰ فقط في العام 1896.

شغلتني قضية الأخلاق الشخصية، وثيقة الصلة بالأيديولوجيا السلبية التي سادت خلال عقد الثمانينيات، في وقتٍ لم تكن مسألة "الحفاظ علىٰ الاستقلالية الذاتية" تُمثِّل بالنسبةِ لي فرضيةً نظريةً أكثر من كونها احتياجًا عضويًا لنموي الروحي. لكن مسألة "الحفاظ علىٰ الاستقلالية" هذه سرعان ما ارتبطت ببلورة منظوري الخاص عن العالمِ بشكلٍ عام، مما قادني بدوره إلىٰ المعضلة الأساسية: الشعبوية أم الماركسيةً؟ انهمكت في الصراع بين هذين التيارين، ولم يحدث هذا إلا بعد سنواتٍ طوال من الانفصال عن المفاهيم الفكرية الطاغية في الريف. في ذلك الوقت، كنت أتعرَّف للتو علىٰ أبجديات العلوم الاقتصادية، وكنت بصددِ البحثِ في عقلي عن إجابةٍ لسؤال ما إذا يتعيَّن علىٰ روسيا المضي في مرحلةِ الرأسمالية. كان الماركسيون من الجيلِ الأقدم وقتها قد وجدوا بالفعل طريقهم للوصول إلىٰ الطبقةِ العاملة، فصاروا بذلك اشتراكيين ديمقراطيين حقًا.

واجهت مفترق الطرق الأول في حياتي بينما كنت لا أزال غير مُسلَّحٍ سياسيًا بما يكفي حتىٰ لفتىٰ في السادسةِ عشر من عمره في ذلك الوقت. اصطدمت بالكثيرِ من الأسئلة دفعةً واحدة، دون أي ترتيبٍ أو نظام، وانغمست بدأبٍ بالغٍ في الدراسةِ بحثًا عن إجابات. الأمر الوحيد

المؤكد هو أن الحياة قد راكمت في وعيي حمولةً لا يُستهان بها من الاحتجاجِ علىٰ الأوضاع الاجتماعية. مِمَّ تألَّفَت هذه الحمولةِ إذن؟ من تعاطفٍ مع الكادحين والمطحونين، وسخطٍ علىٰ الظلم؛ ربما كان الأخير هو الإحساس الأقوىٰ. منذ طفولتي المبكرة، كانت أكثر أشكال الظلم واللا مساواة فظاظةً وقسوة تنضح أمامي في كافةِ جوانب الحياة اليومية. وغالبًا ما كان الظلم صفيقًا وفجًا، يدوس كرامةَ الإنسان تحت قدميه في كل خطوة. يكفي لي أن أتذكَّر جلد الفلاحين في القرية. وحتىٰ قبل أن أتبنىٰ أية نظريات، طَبَعَت كل هذه المشاهد نفسها بعمقٍ في ذهني، وكدَّسَت مخزونًا هائلًا من الانطباعاتِ التي تنتظر الانفجار في أيةِ لحظة. ربما بسبب ذلك بدا أنني تردَّدت لفترةٍ قبل التوصُّلِ إلىٰ الاستنتاجات الكبرىٰ التي كان لابد عليّ أن أستخلصها من الملاحظات التي تراكمت لديّ من الفترات المبكرة في حياتي. لكن ذلك لم يكن الجانب الوحيد من تطوُّري.

حين يمضي جيلٌ وينشأ آخر، يظل الموتىٰ متشبِّثين بالأحياء. كان هذا هو حال الثوريين الروس الذين ترعرعوا خلال فترةِ شبابهم المبكرة في ظل المناخِ القاسي الذي سادَ في الثمانينيات. لكن، علىٰ الرغم من الآفاق الكبرىٰ التي انتظرت العقائد الجديدة الناهضة، ظلَّ الماركسيون في الواقع أسرىٰ للمزاج الثمانينياتي المُحافِظ، عاجزين عن أخذِ زمامِ المبادرة، آخذين في الذبولِ والهمود إذا ما اصطدموا بعقباتٍ في طريقهم، يسيرون بالثورةِ إلىٰ مستقبلٍ غير مُحدَّدِ الملامح،

ينزعون في العمومِ لاعتبار الاشتراكية مهمةً تستلزم قرونًا من التطوُّرِ التدريجي البطيء.

في بيتٍ كالذي يعيش فيه آل شبينتزر، كان النقد السياسي يتردَّد بين الجدران بصخبٍ أكثر في السنوات السابقة، كما في السنواتِ اللاحقةِ بصورةٍ أكبر، لكن الفترةَ التي قضيتها معهم كانت هي الأكثر ركودًا علىٰ الإطلاق. لم أسمعهم قط يتحدَّثون في مواضيعٍ سياسية، كانوا يتملَّصون حتىٰ من القضايا السياسية الكبرىٰ. الأمر نفسه في المدرسة. لابد أنني، من دونِ شكٍ، تشرَّبت بقدرٍ كبيرٍ من مناخ الثمانينيات. وحتىٰ بعد ذلك، حين بدأت أفكاري الثورية تتخذ شكلًا مُحدَّدًا، كان موقفي في البداية لا يزال مُتشكِّكًا في أي حركةٍ من الجماهير، متخذًا في ذلك رؤيةً ثوريةً مُجرَّدةً مُستمَدةً فقط من الكتب، وبالتالي يغلب عليها التشكُّك. كان عليّ أن أكافح كل ذلك داخل نفسي، بالتفكيرِ والقراءةِ، وبالخبرةِ العملية بشكلٍ أساسي، حتىٰ تمكَّنت من هزيمةِ عناصر الجمودِ النفسي في داخلي.

رُبَّ ضارةٍ نافعة. ربما لم أكن لأتمكَّن من التعاطي مع المعضلات الرئيسية للحركة الجماهيرية علىٰ نحوٍ أكثر جديةً وملموسيةً وعمقًا، إلا بعد أن هزمت بالفعل هذا الجمود النفسي. هذه هي الثمرة التي جنيتها من صراعي الداخلي. كل ذلك كان مُجرَّد فصلٍ من قصتي التي لا يزال أمامها الكثير.

انتقلت إلىٰ الصف السابعٰ، ليس في أوديسا، بل في نيقولاييف. كانت مجرد بلدةٍ محلية، ومستوىٰ الدراسة كان أقل فيها. لكن العام الذي قضيته في هذه البلدة، 1896، كان بمثابة نقطةِ تحوُّلٍ في شبابي، إذ فَرَضَ عليّ التساؤل حول موقعي في المجتمعِ البشري. عشت في منزلٍ كان فيه الفتيان مسئولين عن أنفسهم، تجتذبهم أصداءُ حركةٍ جديدة وشيكة. كان ملحوظًا أنني كنت خصمًا عنيدًا في البداية "لليوتوبيا الاشتراكية" في كل المناقشات. كنت أظهر في ثوبِ المُتشكِّك الذي تجاوَزَ كل ذلك. تناولي للقضايا السياسية كان دائمًا يتسم بالتعفُّفِ الساخر. صاحبة المنزل الذي أقمت فيه كانت تنظر إليّ بإعجابٍ، حتىٰ أنها اعتبرتني مثالًا يُحتذىٰ به، ليس بالضرورة لأبنائها الذين كانوا أكبر مني قليلًا وأكثر ميلًا نحو اليسار. وعلىٰ ما أتذكَّر، كنت أسعىٰ لتفادي تأثير هؤلاء الاشتراكيين اليافعين عليّ، لكنه كان سعيًا عسيرًا مضنيًا من جانبي، وكانت الهزيمة من نصيبي في النهاية. استمرت هذه المعركة الخاسرة بضعة أشهر في مجملها، وخلُصَت إلىٰ أن أثبتت هذه الأفكار التي فاحت بها الأجواء من حولي أنها أقوىٰ مني، خاصةً أنني، في أعماقِ نفسي، لم أرغب في أفضلِ من أن أستسلم لها. بعد أشهرٍ عديدة في نيقولاييف، طرأت عليّ تغيُّراتٌ جذرية؛ تبرَّأت من فرضياتي المُحافِظة، وجنحت إلىٰ اليسار بجموحٍ أثار مخاوفَ بعضٍ من أصدقائي. كانت السيدة صاحبة المنزل تقول: "كيف حدث ذلك؟ وأنا التي كنت أعتبرك نموذجًا لأبنائي!".

أهملت دراستي، لكن مخزونَ المعارف الذي جُئت به من أوديسا مكَّنني من الحفاظِ علىٰ زعامتي الرسمية كطالبٍ مُتميِّز. كنت أتغيَّب عن المدرسة مرارًا، وذات مرةٍ جاء المفتش إلىٰ المنزل للتحقُّق من مسألة غيابي المستمر. شعرت بإهانةٍ من ذلك، لكن المفتش كان دمثًا خلوقًا، واكتفىٰ بأن كل شيءٍ علىٰ ما يُرام وأن غرفتي مُرتَّبَة بنظام، ومن ثم غادَرَ في سلام. في الواقع، تحت حشية فراشي كانت هناك الكثير من الكراسات السياسية السرية.

وبالإضافة إلىٰ هؤلاء الشبان الميَّالين للماركسية، قابلت أيضًا في نيقولاييف الكثيرَ من المنفيين السابقين الذين كانوا وقتذاك تحت رقابةِ الشرطة. كان هؤلاء رموزًا ثانوية في فترةِ تدهور الحركة الشعبوية. في ذلك الوقت، لم يكن الاشتراكيون الديمقراطيون عائدين من المنفىٰ، بل مُرسَلين إليه للتو. وقد أطلقت الحركتان المتلاقيتان في مفترق طرقٍ دوَّامات من القضايا النظرية. ابتعلتني هذه الدوَّامات لفترةٍ من الوقت. كانت رائحة التعفُّن تفوح من الشعبوية، بينما ظلَّت الماركسية أسيرةَ حدودها الضيقة. كنتِ أتحرَّق شوقًا في محاولاتي لفهم الأفكار التي لم يكن من السهل عليّ الإلمام بها. لم يكن أحدٌ حولي لإرشادي في ذلك. وكل نقاشٍ جديد كان يدفعني لاستنتاجٍ بائسٍ ومرير بأنني لازلت جاهلًا تمامًا.

صارت علاقتي وثيقةً بالبستاني التشيكي الأصل، شفيجوفسكي. كان هو أول عاملٍ أعرفه يشترك في الصحف، ويقرأ الألمانية، ويعرف

الكلاسيكيات، ويشارك في الجدالات بين الماركسيين والشعبويين. كانت حجرته في الحديقة مقرًا لاجتماعات الطلاب الزائرين، والمنفيين السابقين، والشباب في المنطقة. كان بإمكاني أن أحصل على أي كتبٍ محظورةٍ منه. كانت المحادثات بين المنفيين تتخللها أسماءٌ لأشخاصٍ مثل جليابوف، وبيروفسكايا، وفينجر، مِمَّن كان يُنظَر إليهم ليس كأبطالٍ وإنما كأناسٍ عاديين مألوفين للجمع المُجتمِع. كان إحساسي هو أنني أنضم لهم كحلقةٍ ضئيلةٍ في سلسلةٍ هائلةٍ عظيمة.

كنت أبتلع الكتب ابتلاعًا، أخشى ألا تكفي حياتي بأكملها لتجهيز نفسي للخوض في الحركة. كانت قراءاتي متوترةً، نافذةَ الصبر، وبغيرِ نظام. بعد الانتهاء من الإصدارات غير الشرعية للفترة السابقة، مررت على "المنطق" لجون ستيوارت ميل، وقبل أن أنهيه التقفت "الثقافة البدائية" لليبرت. بدا لي كتاب بنثام "النفعية" وكأنه الكلمة الأخيرة في الفكر الإنساني. ولأشهرٍ عديدة، كنت أعتبر نفسي بنثاميًا ملتزمًا. وعلى نفسِ المنوال، انتقلت إلى الجماليات الواقعية لتشيرنشفيسكي. ودون حتى أنه أفرغ من كتاب ليبرت، هرعت فورًا إلى ميجنيت في عمله حول تاريخ الثورة الفرنسية العظمى. كل كتابٍ كان بالنسبةِ لي كيانًا مستقلًا، دون أن يرتبطوا سويًا بأي نظامٍ مُوحَّد، ثم بدأت أسعى لبلورةِ نظامٍ على نحوٍ مُكثَّفٍ. وفي الوقتِ نفسه، جنحت إلى الماركسية لأنها بدت لي نظامًا متكاملًا في حد ذاته.

بدأت أقرأ الصحف، ليس كما كنت أقرأها في أوديسا، بل بعقلٍ سياسي. أما الصحيفة الأكثر موثوقية في ذلك الوقت، فكانت الصحيفة الليبرالية "روسكيا فيدوموستي"، التي صدرت في موسكو. كنَّا ندرسها، لا نقرأها فحسب، بادئين بالمقالات الأهون، ثم المقالات العلمية العميقة. كانت المراسلات الأجنبية، بالأخص تلك التي تُبعَث من برلين، تاجًا على رأسِ هذه الصحيفة. ومن هذه الصحيفة أيضًا، تمكَّنت من رسمِ صورةٍ للحياة السياسية في أوروبا الغربية، بالأخص فيما يتعلَّق بالأحزاب البرلمانية. من الصعب اليوم أن أصف الإثارة التي شعرنا بها ونحن نقرأ خطب بيبل، وحتىٰ خطب يوجين ريختر. لكنني حتىٰ اليوم لازلت أتذكَّر العبارة التي قَذَفَ بها داشينسكي في وجه الشرطة حين دخلوا مبنىٰ البرلمان: "إنني هنا أمثِّل ثلاثين ألفًا من عمال وفلاحي جاليسيا. من يجرؤ منكم أن يلمسني حتىٰ؟". كنَّا نتصوَّر الثائر الجاليسي كبطلٍ عملاق. لكن خشبة المسرح البرلمانية -للأسف- خدعتنا بقسوةٍ وغدر. انتصارات الاشتراكية الألمانية، والانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، والرايخسرات النمساوي المفتوح للجميع، كل ذلك أغرقنا تمامًا بحيث لم نكن حتىٰ نلتفت لمصائرنا الشخصية.

في تلك الأثناء، ساءت علاقتي بعائلتي. وفي إحدىٰ رحلات الوالد إلىٰ نيقولاييف لبيع المحصول، نما إلىٰ علمه أن صار لي أصدقاءٌ جدد ربما لا ينالوا رضاه. أحسَّ بالخطر، لكنه أَمَلَ في أن يُبعدني عنه

بسلطته الأبوية. جرت بيننا مشاهدُ عاصفة. دافعت عن استقلاليتي وحقي في اختيار طريقي بلا هوادة، وانتهىٰ الأمرُ بأن رفضت أن أتلقىٰ دعمًا ماديًا من البيت. غادرت مسكني وذهبت لأعيش مع شفيجوفسكي، الذي استأجَرَ الآن كوخًا واسعًا في بستانٍ آخر. صرنا نعيش 6 أفراد حياةً مشتركة. وخلال الصيف، انضم إلينا طالبان مُصابان بالسُل بحاجةٍ لهواءٍ نقي. بدأت في إعطاءِ دروسٍ خصوصية. كنَّا ننام دون أغطيةٍ علىٰ الأفرشة، ونأكل الطعام الذي نعده بأنفسنا. كنَّا نرتدي أثوابًا زرقاء، وقبعاتِ قشٍ دائرية. وسرت شائعةٌ في المدينة بأننا انضممنا إلىٰ منظمةٍ سرية. كنَّا نقرأ دون نظام، نجادل دون تحفُّظٍ، ونُحدِّق النظرُ في المستقبل أمامنا بشغفٍ وشوق. كنَّا سعيدين حقًا في خضم كل ذلك.

بعد فترةٍ من الوقت، نظَّمنا أنفسنا في مجموعةٍ تقوم علىٰ توزيع كتبٍ مفيدة علىٰ الناس. جمعنا الاشتراكات واشترينا بها طبعاتٍ رخيصةً، لكننا لم نستطع توزيعها. في بستانِ شفيجوفسكي، كان عاملٌ هناك يساعده، بالإضافة إلىٰ صبيٍ حرفي. ركَّزنا عليهما في المقامِ الأول جهودنا في التنوير. لكن اكتشفنا أن العامل كان مُخبِرًا متخفيًا دسَّته الشرطة بيننا خصيصًا لمراقبتنا. كان يُدعىٰ كيريل تخوزجيفسكي، وهو من وضع الصبي أيضًا علىٰ صلةٍ بالشرطة. وهذا الصبي سَرَقَ منَّا حزمةً كبيرةً من الكتب الشعبية وأخذها إلىٰ قسمِ الشرطة. كانت هذه

بدايةً منحوسة، لكننا كنَّا نطمح بعزمٍ إلىٰ تحقيقِ بعض النجاحات في المستقبل.

كتبت مقالةً سجاليةً، تناولت فيها الإصدار الماركسي الأول، لمجلةٍ شعبوية في أوديسا. عجَّت المقالة بعباراتٍ منسوخة، واقتباساتٍ، وحقدٍ بيِّن، أكثر مما قدَّمت مضمونًا. بعثت المقالة بالبريدِ للمجلة، وبعد أسبوعٍ سافرت إلىٰ هناك لأعرف مصيرها. نَظَرَ إليّ المُحرِّر، عبر نظَّارته السميكة بتعاطفٍ، فوجدَ شابًا يافعًا ذا رأسٍ مُغطىٰ بمكنسةٍ من الشعر، بينما لم ينبت في وجهه بعد أي أثرٍ للحية. لم تر المقالةُ النور، وكُتِبَ لي الفشلُ في نهايةِ الأمر.

أما في المكتبة العامة، فقد أحسسنا بالخطر حين قرَّرَ مجلس المدراء رفع الاشتراك السنوي من خمسة إلىٰ ستة روبلات في السنة. عكفنا لأسابيعٍ عديدة علىٰ التجهيز لاجتماعٍ عام لأعضاء المكتبة. أفرغنا ما في جعباتنا من أموال؛ الروبلات فوق أنصاف الروبلات، وموَّلنا اشتراك المزيد من الأعضاء الجذريين الذين لم يكن لديهم المبلغ المطلوب، والذين كان بعضهم أيضًا تحت سن العشرين المُشترَط في لائحة المكتبة. انعقد الاجتماع السنوي العام أخيرًا، وانقسم الحضور إلىٰ جناحين: الموظَّفون والمدرِّسون وملَّاك الأراضي الليبراليون من ناحية، ونحن الديمقراطيون من ناحيةٍ أخرىٰ. كان النصر حليفنا؛ أعدنا قيمة الاشتراك إلىٰ الروبلات الخمسة كما كانت، وانتخبنا مجلسًا جديدًا.

وفي خضم أنشطتنا، قرَّرنا إنشاء مدرسةٍ تعليمية علىٰ أساسِ توجيهاتٍ مشتركة اتفقنا عليها. كان هناك حوالي عشرين طالبًا، واتُفِقَ علىٰ أن أتولَّىٰ قسم علم الاجتماع. كان ذلك ذا وقعٍ رنَّان. استجمعت كل قواي في الإعدادِ لهذه الدورةِ الدراسية، لكن بعد محاضرتين قدَّمتهما بشكلٍ مُرضٍ، اكتشفت أن مصادري قد استُنفِذَت كاملةً. أما المحاضر الثاني، الذي تولَّىٰ دورةً دراسيةً عن الثورة الفرنسية العظمىٰ، فسرعان ما ارتبَكَ بمجرَّد أن بدأ محاضرته، فوَعَدَ بتقديمِ المحاضرة مكتوبةً بخطِ اليد. بالطبع فشل في الوفاءِ بوعده، وهكذا انتهت هذه المغامرة.

قرَّرت بعد ذلك، بمساعدة المحاضر الثاني، وهو الأكبر ضمن الإخوة سوكولوفسكي، أن أكتب عرضًا مسرحيًا. تركنا الكوخ الذي مكثنا فيه لفترةٍ من الوقت لهذا الغرض خصيصًا، وانتقلنا إلىٰ غرفةٍ لم نترك عنوانها لأحد. كان العرض مليئًا بالتيارات الاجتماعية علىٰ خلفية صراع الأجيال الجاري وقتها. اثنان من الممثلين كان دورهما يفترض أن ينظرا إلىٰ الماركسية بنصفِ ثقةٍ ونصف شك، وكانت شخصيةً الشعبوي واهنة القوىٰ، بينما تركَّزت كل الشجاعة والآمال في هذا العرض في الشبان الماركسيين الجدد. أما الجانب الرومانسي، فقد بَرَزَ في الحب الذي كنَّه ثوريٌ من الجيل الأقدم، سحقته الحياةُ سحقًا، لفتاةٍ ماركسيةٍ شابة، لكنها كانت تغيِّر الموضوع دائمًا للحديث بلا شفقةٍ عن فشل الشعبوية.

لم يكن الإعداد لهذا العرض عملًا مملًا علىٰ الإطلاق. في أوقاتٍ، كنَّا نكتب سويًا، ندفع ونُحمِّس بعضنا، ويصحِّح الواحد منَّا للآخر. وفي أوقاتٍ أخرىٰ، كانت الفصول تُقسَّم فيما بيننا، ويُكرِّس كلٌّ منَّا يومه لكتابة هذا المشهد أو ذاك العرض الفردي. لم نكن نفتقر قط للعروض الفردية. كان سوكولوفسكي يعود من عمله في المساء ليستكمل مراجعة الخُطب المُتذمِّرة للبطل السبعيني الذي سحقته الحياة. وكنت أنا أفعل الشيء نفسه بعد عودتي من الدروس الخصوصية أو من عند شفيجوفسكي. كانت ابنة صاحبة المنزل تضع لنا السماور لنشرب الشاي، وسوكولوفسكي يُخرِج من جعبته بعض الخبز والسجق. كان الممثِّلون يعملون في الليلِ بدأبٍ لا مثْيل له، في غرفةٍ يعزلها درعٌ غريبٌ غامضٌ عن العالم بأسره.

انتهينا من الفصل الأول من المسرحية، ووفَّرنا ستارةً تُسدَل بعد تقديمه، وكتبنا مسوداتٍ للفصول الأربع المتبقية. وكلما كنَّا نتوغَّل أكثر في المشاهد والفصول، نهدأ ونُهدِّئ من دأبنا في العمل. وبعد فترةٍ، توصَّلنا إلىٰ استنتاجٍ بأن لابد علينا أن نتخلَّىٰ عن غرفتنا الغامضة ونؤجِّل استكمال العرض إلىٰ مستقبلٍ قريب. أخذ سوكولوفسكي لفة المخطوطات إلىٰ مسكنٍ آخر. وفيما بعد، حين وجدنا أنفسنا في سجنِ أوديسا، حاول سوكولوفسكي عبر أقاربه أن يصل إلىٰ المخطوطات. ربما أوحىٰ له المنفىٰ، الذي كان من المُفترَض أن نُرسِلَ إليه، أنه سيكون مكانًا مثاليًا لاستئناف التأليف الدرامي. لكن، لم تكن هناك أية

مخطوطات؛ اختفت دون أثر. لعل أصحاب البيت الذي تُرِكَت فيه اعتبروا أن من الحصافة الإلقاء بها في النار، بعد أن أُلقيَ القبض على المؤلفين سيئي الطالع. أما الآن، فليس من الصعب عليّ أن أتصالح مع هذا الاحتمال شبه المؤكد، خاصةً أنني، طيلة حياتي التي كانت أبعد ما تكون عن السلاسة، فقدت مخطوطات أكثر وأرفع قيمةً بما لا يُقاس.

الفصل السابع

منظمتي الثورية الأولى

أ

في خريف 1896، زرت الريف، وانتهت الزيارة إلىٰ هدنةٍ موجزة. أراد أبي أن يراني مهندسًا، لكنني ترددت بين الرياضيات التي انجذبت لها بشدة، والثورة التي استولت شيئًا فشيئًا علىٰ عقلي. وفي كل مرة تُطرح هذه المسألة، تنشب أزمة عائلية حادة. بدا الجميع مُحبطين، وكانت أختي الكبرىٰ تأخذ في البكاء ولم يعلم أحد ما العمل حيال ذلك. أقنعني أحد أعمامي، الذي كان مهندسًا يمتلك مصعنًا في أوديسا وكان مقيمًا معنا في الريف، بأن آتي لزيارته في المدينة. كانت تلك علىٰ الأقل راحة مؤقتة من هذا الوضع البائس.

قضيت مع عمي بضعة أسابيع، وكنًّا نتناقش باستمرار حول الأرباح وفائض القيمة. كان عمي ماهرًا في جني الأرباح أكثر من تفسيرها. لكنني لم أتخذ أية خطوات للتسجيل في الدورة الدراسية للرياضيات في الجامعة. بقيت في أوديسا أبحث عن شيءٍ ما. في الحقيقة كنت أبحث عن نفسي. تعرَّفت بشكلٍ عارضٍ علىٰ بعض العمال، وحصلت علىٰ بعض الأدبيات غير الشرعية، وقدَّمت دروسًا خصوصية لعددٍ من التلاميذ، علاوة علىٰ بعض المحاضرات لطلاب المدرسة التجارية، كما تناقشت كثيرًا مع الماركسيين، فيما كنت لا

أزال أحاول التمسك بآرائي القديمة. رحلت إلىٰ نيقولاييف علىٰ متن آخرِ باخرة في الخريف، وبقيت هناك مع شفيجوفسكي في الحديقة.

عدنا إلىٰ ما كنَّا عليه. تناقشنا في الأعداد الأخيرة من المجلات الراديكالية وتجادلنا حول الداروينية. كنَّا نعد أنفسنا نظريًا بشكلٍ غامض.. وننتظر. لكن ما الذي دفعنا بشكل خاص للبدء في الدعاية الثورية؟ من الصعب الإجابة علىٰ هذا السؤال؛ فقد تولَّد هذا الدافع في داخلنا. لم يكن أحدٌ، في تلك الحلقات الفكرية التي انضممت إليها، يشرع في أيِ عملٍ ثوريٍ حقيقي، فأدركنا أن بين نقاشات الشاي التي لا تنتهي هذه والتنظيم الثوري هوَّةٌ سحيقة. أدركنا أيضًا أن التواصل مع العمال يتطلب أساليب سريّة و"تآمرية". كنَّا ننطق هذه الكلمة بجديَّةٍ شديدة، وبتوقيرٍ أحاطه قدرٌ كبيرٌ من الغموض. لم يكن لدينا أي شك في أننا سننتقل في النهاية من النقاشات حول طاولة الشاي إلىٰ "التآمر"، لكن لم يكن أيٌّ منَّا لديه تصوُّر مُحدَّد عن كيفية وتوقيت هذا التحوُّل. وعلىٰ سبيل تبرير تأخرنا في ذلك، اعتدنا أن نقول لأنفسنا أن علينا أولًا أن نستعد جيدًا، وعلىٰ أيةِ حال لم نكن مخططين في ذلك.

لكن المؤكد أن تغييرًا ما حدث في الأجواء من حولِنا دفعنا فجأةً لنخطو في طريق الدعاية الثورية. لم يطرأ هذا التغيير في نيقولاييف وحدها، بل عبر كافة أرجاء البلاد، بالأخص في العواصم. في 1896، اندلع إضراب عمال النسيج الشهير في سان بطرسبورج، وقد أعطىٰ

قبلة الحياة للْمثقفين. اكتسب الطلاب الشجاعة، ونفضوا من علىٰ أكتافهم غبار الركود. كانوا يأتون في الصيف، وفي رأس السنة، وفي عيد الفصح، إلىٰ نيقولاييف جالبين معهم حكاياتٍ عن التحركات في سان بطرسبورج وموسكو وكييف. طُرِدَ بعضهم من الجامعة، فصاروا كالأبطال علىٰ رؤوسهم هالات الفداء. وفي فبراير 1897، أحرقت طالبة، تُدعىٰ فيتروفا، نفسها حتىٰ الموت في قلعة بطرس وبولس، وكان لهذه المأساة، التي لم يكن لها أي تفسيرٍ واضح قط، وقعًا مؤثرًا في الجميع. عمَّت الاضطرابات الجامعات والمدن، وفي المقابل تزايدت حالات الاعتقال والنفي.

بدأت عملي الثوري مع مظاهرات فيتروفا. جرىٰ الأمر كما يلي؛ كنت أمشي في الشارع مع عضوٍ في مجموعتنا يُدعىٰ جريجوري سوكولوفسكي كان في مثل سني تقريبًا، قلت له: "لقد حان الوقت لنبدأ عملنا".

فقال: "نعم، لقد حان الوقت".

"لكن كيف؟".

"كيف؟ هذا هو السؤال".

"لابد أن نجد عمالًا، لا أن ننتظر أحدًا أو نطلب من أحد، بل نجد عمالًا، ونبدأ من هذه النقطة".

فقال سوكولوفسكي: "أعتقد أننا يمكن أن نجدهم. كنت أعرف حارسًا يعمل في شارع الذي تحيطه الأشجار، ينتمي لطائفة الإنجيليين. سأبدأ في البحث عنه".

ذهب سوكولوفسكي في نفس اليوم إلىٰ ذلك الشارع للبحث عن الرجل الإنجيلي، ولم يجده. لكنه وجد امرأةً تعرفه وكانت تنتمي لنفس الطائفة الدينية. ومن خلالها تعرَّف سوكولوفسكي في نفس اليوم علىٰ العديد من العمال، كان من بينهم كهربائيٌ يُدعىٰ إيفان أندرييفيتش موخين، صار بعد ذلك عضوًا بارزًا في منظمتنا. عاد سوكولوفسكي من رحلة بحثه متوهجًا بالحماس: "يا لهم من رجال. هؤلاء هم من نبحث عنهم".

خلال الأيام الخمسة أو الستة اللاحقة، كنَّا نجلس في حانة، كانت الموسيقىٰ فيها تغطي علىٰ ما دار بيننا من أحاديث. وعادةً ما كان موخين، الرجل النحيف ذو اللحية المُدبَّبة والنظرة الماكرة التي تثير القلق، ينظر إليّ بعينه اليسرىٰ نصف المفتوحة، يرقب وجهي الذي لم تنبت فيه لحيةٌ بعد. كان دائمًا يتوقف عن حديثه في فواصل زمنية محسوبة جيدًا، وأخذ يشرح لنا: "في هذا السياق، الأناجيل بالنسبةِ لي ما هي إلا شمَّاعة. لقد بدأت بالدين، ومن ثم انصرفت إلىٰ شئون

الحياة. شرحت ذات يوم الحقيقة كاملةً للستونديين[14] بحفنة من حبات الفاصولياء".

فسألته: "ماذا فعلت بحبات الفاصولياء؟".

أجابني على النحو التالي: "الأمر بسيط. وضعت حبة فاصولياء على الطاولة وقلت: "هذا هو القيصر". ومن حولها وضعت المزيد من الحبات: "هؤلاء هم الوزراء والأساقفة والجنرالات والنبلاء والتجار". كل ذلك في كومة صغيرة، أما الكومة الأخرى فتمثل الناس العاديين. ثم سألتهم: "أين القيصر؟" فأشاروا إلى المركز. فسألت مرةً أخرى: "أين الوزراء"، فأشاروا إلى حبات الفاصولياء حول القيصر تمامًا كما قلت لهم".

في هذه اللحظة توقف موخين لبرهة وأغلق عينيه تمامًا، واستطرد: "ثم خلطت كل حبات الفاصولياء معًا، وسألتهم مرةً أخرى: "أين القيصر؟ أين الوزراء؟"، فأجابونني: "لا يمكن إيجادهم هكذا!"، فقلت لهم: "هذا ما أقوله. لابد أن تتساوى جميع الحبات". أدهشتني هذه الحكاية كثيرًا.

---

14 – الستونديون – Stundists: طائفة مسيحية روسية ظهرت في العام 1860 على يد فلاحٍ يُدعى أونيشتشينكو في قرية أوسنوفا بالقرب من أوديسا. ترفض هذه الطائفة الهيمنة الكهنوتية، وجميع الشعائر الدينية الخارجية. (المترجم)

قال موخين، ناظرًا إليّ بكلتا عينيه بنبرةٍ مختلفةٍ هذه المرة: "لكن كيف نخلطهم؟ هذه هي المشكلة. اللعنة عليهم. إنهم ليسوا في الواقع مجرد حباتٍ من الفاصولياء، أليس كذلك؟"، وانتظر إجابتي.

انخرطنا منذ ذلك اليوم في العمل. لم يكن لدينا من هو أكبر منًّا ليرشدنا الطريق، ولم تكن خبرتنا تؤهلنا لشيء. واجهتنا الكثير من المصاعب التي كنًّا نرتبك أمامها. كانت الأمور تتطوَّر في أعقاب بعضها سريعًا.

بحلول نهاية القرن التاسع عشر، صار التطور الاقتصادي في روسيا يتحوَّل سريعًا ناحية الجنوب الشرقي. أُنشِئت مصانع كبيرة، واحدًا بعد الآخر، في الجنوب. وفي نيقولاييف وصل عدد عمال المصانع الجديدة في 1897 إلىٰ ثمانيةِ آلاف، بالإضافة إلىٰ ألفيّ عاملًا في مهنٍ أخرىٰ عديدة. كان المستوىٰ الفكري للعمال عاليًا نسبيًا، وكذلك مستوىٰ دخولهم، فيما كان عدد العمال الأميين محدودًا. أما المساحة التي شغلتها المنظمات الثورية لاحقًا، فقد كانت الطوائف الدينية هي ما ملأتها في ذلكٰ الوقت في أعقاب الحرب التي شنتها ضد الدين الرسمي. أما الشرطة السريَّة، فقد كانت في سُباتٍ عميق علىٰ خلفية الغياب الكامل لأي اضطرابات سياسية، وقد صبَّ ذلك في مصلحتنا بشكلٍ مباشر. إذا كانوا متيقظين بالفعل، لكانوا قد اعتقلونا خلال الأسابيع الأولىٰ من نشاطنا. لكننا استبقناهم واغتنمنا هذه الفرصة؛ ولم نوقظهم إلا بعد أن أيقظنا العمال.

حينما تعرَّفت علىٰ موخين وأصدقائه، قدَّمت لهم نفسي باسم لفوف. لم يكن من السهل عليّ أن أنطق بهذه الكذبة "التآمرية" الأولىٰ، بل في الحقيقة كان من المؤلم أن "أخدع" الناس الذين انتويت مشاركتهم النضال لأجل قضيةٍ عظيمة ونبيلة كتلك. علىٰ أيةِ حال، التصق اسم لفوف بي ومن ثم عوَّدت نفسي عليه.

اندفع العمال إلينا كما لو كانوا ينتظروننا منذ أمد. كانوا جميعًا يُحضِرون أصدقاءهم، وبعضهم أحضر زوجته، وانضم عددٌ قليلٌ من الرجال الكبار مصطحبين أبنائهم معهم. لم نكن نسعىٰ إليهم قط، بل هم من كانوا يبحثون عنَّا. كنَّا شبابًا غير متمرسٍ وغير ذي خبرة سرعان ما ابتلعتنا الحركة التي بدأناها وغمرتنا تمامًا. كل كلمة قلناها كانت تلقىٰ آذانًا صاغية، في اجتماعاتٍ سريَّةٍ حضرها عشرون أو خمسة وعشرون عاملًا في المنازلِ أو في الغابة أو علىٰ ضفةِ النهر. كان أغلب أعضاء المجموعة من العمالة الماهرة الذين تقاضوا أجورًا جيدة، كان يوم عملهم من ثمانِ ساعات بالفعل، فلم يكترثوا كثيرًا بالإضراب عن العمل، وكل ما أرادوه هو العدالة في العلاقات الاجتماعية. بعضهم كان معمدانيًّا، وآخرون كانوا ستونديين أو إنجيليين، لكن أيٌّ منهم لم يكن طائفيًا دوجمائيًّا. كانوا ببساطة ينفصلون عن الأرثوذكسية، وكانت المعمودية بالنسبةِ لهم مرحلةً مؤقتة في تطوُّرهم نحو الثورة. خلال الأسابيع الأولىٰ من النقاشات التي دارت بيننا، كان بعضهم لا يزال يستخدم بعض التعبيرات الطائفية، وغالبًا ما كان هؤلاء

يستخدمون أمثلةً من فترة المسيحيين الأوائل، لكن سرعان ما تخلوا عن هذه الطريقة في الحديث حين اكتشفوا أن ذلك لا يجعل منهم أكثر من أضحوكة لدىٰ الأعضاء الأصغر.

لازلت أتذكر حتىٰ يومنا هذا أبرز عناصر هذا التنظيم الصغير. كان هناك النجار كوروتكوف، بقبعته المستديرة، الذي لم يكف قط عن التحدث بالألغاز، كان مزوحًا ينظم أبياتًا ركيكة، لكنه ظل يقول بجديِّةٍ: "أنا عقلي"، يقصد "عقلاني". وحينما كان الجد تاراس سافيلييفيتش، الذي كان مسيحيًا إنجيليًا، يبدأ للمرة المائة في الحديث عن المسيحيين الأوائل، الذين كانوا يلتقون سرًا مثلنا، كان كوروتكوف يستوقفه مقاطعًا: "تبًا للاهوتك"، راميًا قبعته ناحية الأشجار بسخط، ينتظر بعض الوقت ثم يذهب ليبحث عنها هنا وهناك.

تأثر العمال كثيرًا بالأفكار الجديدة، حتىٰ أنهم بدأوا يكتبون أبياتَ شعرٍ عنها. كتب كوروتكوف "المسيرة البروليتاريِّة" التي بدأت بـ: "نحن الأول والآخر. نحن البدايات والخواتيم". أما نستيرينكو، الذي عمل نجارًا، والذي كان هو وابنه عضوين في مجموعة أليكساندرا لفوفنا سوكولوفسكايا، فقد ألَّفَ أغنيةً عن كارل ماركس بالأوكرانية غنيناها جميعًا معًا. إلا أن نستيرينكو انتهىٰ به الأمر إلىٰ خيانة المنظمة بإبلاغه عن كامل أعضائها.

عاملٌ آخر كان يُدعىٰ ييفيموف، كان عملاقًا أشقر ذا عينين زرقاوين، من عائلة موظف حكومي، لم يكن متعلمًا فقط، بل قارئًا جيدًا أيضًا، وعاش في عشوائيات المدينة. وجدته في مطعمٍ بائس يرعاه الصعاليك، عمل حمَّالًا في الميناء. لم يكن يشرب أو يدخِّن، وكان رجلًا مهذَّبًا خلوقًا. لابد أن كان هناك أمرٌ غامضٌ في حياته يفسِّر كآبته الدائمة العتيدة رغم أنه لم يكن يناهز الواحد وعشرين عامًا. سرعان ما أبلغني أنه يعرف بعض الأعضاء السريين في تنظيم نارودنيا فوليا، وعَرَضَ عليّ أن يعرِّفني إليهم. كنت أشرب معه الشاي في حضرة موخين، في تلك الحانة الصاخبة، ننتظر بينما يصم الضجيج آذاننا. وفي النهاية أشار لنا بعينيه إلىٰ رجلٍ ضخم قوي البنية بلحيةٍ خفيفةٍ علىٰ وجهه: "هذا هو".

جلس الرجل علىٰ طاولةٍ يشرب الشايَ وحده، ثم ارتدىٰ معطفه بحركةٍ آليةٍ. سأل موخين بصوتٍ خفيض: "هل هذا هو النارودني؟". رفض النارودني مقابلتنا متعللًا لييفيموف بعذرٍ غير مفهوم. لطالما كانت هذه الواقعة لغزًا غامضًا بالنسبةِ لي. أنهىٰ ييفيموف حياته خنقًا بغاز الفحم. من المُحتمَل أن هذا العملاق ذو العينين الزقاوين كان جاسوسًا متلصصًا، أو ربما حتىٰ أسوأ من ذلك.

عَمِلَ موخين كهربائيًا، وكان قد جهَّز مسكنه بنظامِ إشارةٍ معقَّد ينبهه في حال أغارت الشرطة عليه. ورغم أنه لم يكن يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، إلا أن عقله كان مليئًا بالحكمة وثريًا بخبرات

الحياة، حتىٰ أنه بدا لي أكبر كثيرًا من عمره، بالإضافة إلىٰ أنه كان يسعل دمًا إثر إصابته بالسلّ.

ظل موخين ثوريًا طوال حياته. قضىٰ فتراتٍ من حياته في المنفىٰ، ثم في السجن، ثم مرةً أخرىٰ في المنفىٰ. قابلته بعد ذلك بثلاثةٍ وعشرين عامًا في مؤتمر الحزب الشيوعي الأوكراني في خاركوف. أخذنا ننبش في ذكريات الماضي، ونستدعي المصائر التي آل إليها أعضاء المجموعة الذين اقترنّا بهم في فجر الثورة. انتُخِبَ موخين في هذا المؤتمر عضوًا في اللجنة المركزية للحزب. كان قطعًا يستحق هذا الشرف. لكن المرض باغته بعد فترةٍ قصيرة، ولم يُشف قط.

بعدما تعرَّفت علىٰ موخين لأولِ مرة، قدَّمني إلىٰ صديقٍ له يُدعىٰ بابينكو، وكان لديه بيتٌ صغيرٌ وأشجار تفاحٍ في باحته الخلفية. كان بابينكو كسيحًا، كان رجلًا رصينًا متزنًا، علَّمني أن أشرب الشاي بالتفاح بدلًا من الليمون. أُلقيَ القبض عليه، مع آخرين من أعضاء المجموعة، وقضىٰ بعض الوقت في السجن قبل أن يعود إلىٰ نيقولاييف مرةً أخرىٰ. فرَّقنا القدر، ولم أعرف عنه شيئًا إلا في العام 1925، حين قرأت في إحدىٰ الصحف أن عضوًا سابق في اتحاد العمال الروسي الجنوبي، يُدعىٰ بابينكو، يعيش في محافظة كوبان. كانت ساقاه في ذلك الوقت قد شُلَّت تمامًا. دبَّرت الأمر، في وقتٍ كنت أواجه مصاعبًا جمَّة في حياتي، لنقل الرجل للعلاج في إيسينتوكي، واستعاد الرجل قدرته علىٰ المشي. قمت بزيارته في مشفاه، ولم يكن

يعرف حتىٰ أن تروتسكي ولفوف هما نفس الرجل. شاء القدر أن نجلس سويًا مرةً أخرىٰ، نتحدَّث عن الماضي ونشرب الشاي بالتفاح. يمكنني أن أتخيَّل دهشته حين سمع أن تروتسكي كان مناهضًا للثورة.

ضمت المجموعة الكثير من الأشخاص المثيرين للاهتمام والذين يصعب حصرهم. كان الجيل الأصغر من العمال، الذين تدربوا في المدرسة الفنية لأحواض بناء السفن، مثقفين للغاية، ومجرد اقتراح صغير يدلي به المُحاضر كان كفيلًا بأن يلتقط هؤلاء العمال اتجاهه الفكري ككل. وجدنا أن العمال أكثر تأثرًا بالدعاية الثورية مما تمنيناه في أكثر أحلامنا تفاؤلًا. كنَّا منتشين بنشاطنا هذا ومندهشين مما أنجزناه. كنَّا نعرف، من الحكايات الثورية المُتداوَلة، أن العمال المكسوبين بالدعاية الثورية فرادىٰ قليلون. وبينما كان الثوري الذي يتمكَّن من كسب عاملين أو ثلاثة إلىٰ الاشتراكية يعتبر نفسه قد أنجز عملًا هائلًا، كنَّا نحن نجذب عمالًا ينضمون إلينا، أو علىٰ الأقل يريدون الانضمام، بأعدادٍ لا حصر لها. العجز الأساسي كان يكمن في عدد المُحاضرين وفي الأدبيات. كان المُحاضرون المتوافرون ينتزعون من بعضهم نفس النسخة المتسخة من البيان الشيوعي لماركس وإنجلز، تلك التي نُسِخَت بخط أكثر من يدٍ في أوديسا، بالكثير من الثغرات والتشوهات في النص.

سرعان ما بدأنا في إصدار أدبياتنا الخاصة، وكانت هذه بداية عملي الأدبي الحقيقي، ذلك الذي تزامن مع أنشطتي الثورية الأولىٰ.

كتبت بياناتٍ ومقالات، ونسختهم إلىٰ عدةِ نسخٍ بخط يدي باستخدام طريقة الهيكتوجراف. لم نكن نعلم في ذلك الوقت بوجود الآلات الكاتبة. كنت أنسخ البيانات بعنايةٍ فائقة كي يتمكَّن حتىٰ أقل العمال تعليمًا من قراءتها دون مشكلة. استغرقت عملية الطباعة البدائية هذه حوالي ساعتين للصفحةِ الواحدة. مرَّت عليّ أوقاتٌ لم يستقم فيها ظهري لأسبوعٍ كامل، ولم أكن أقطع عملي هذا إلا من أجل حضور الاجتماعات والنقاشات في المجموعاتِ المختلفة. يا لهذا الشعور الهائل بالرضا عن النفس ذلك الذي كان يلم بي حين تأتيني الأنباء من المصانع والورش بأن العمال قرأوا، بنهمٍ واهتمامٍ بالغ، هذه البيانات المنسوخة بالحبر الأرجواني، ليتناقلوها فيما بينهم بينما يتناقشون فيما جاء بين سطورها. كانوا يتصوَّرون كاتبها رجلًا غريبًا حازمًا، اخترق مصانعهم بطريقةٍ غامضة، وعَرِفَ ما يجري في الورش والعنابر، ليمرِّر بعدها بأربعٍ وعشرين ساعة ملاحظاته وتعليقاته علىٰ الأحداث في منشوراتٍ مطبوعةٍ لتوِّها بعناية.

في البداية، كنَّا نعد الهيكتوجراف، ونتجمع سويًا في بيتٍ واحدٍ من الأعضاء لنطبع البيانات. كان أحدنا يبقىٰ في باحة المنزل بالخارج ليراقب ما يجري وينبهنا إذا ما حلَّ خطر، ونكون وقتها قد زوَّدنا الموقد بالكيروسين، وأعواد الثقاب أمامه، مستعدين لإضرام النار في الأوراق والأدوات إذا ما جاءت الشرطة. كان كلُ شيءٍ بدائي تمامًا، لكن شرطة نيقولاييف لم تكن تفوقنا خبرة بأي حال. بعد ذلك نقلنا

ورشة الطباعة البدائية هذه إلىٰ منزلِ عاملٍ في أواسط عمره، كان قد فقدَ عينيه في حادثٍ تعرَض له في مصنعٍ كان يعمل فيه. وضع الرجل شقته تحت تصرفنا بلا تردد. كان يقول لنا بصوتٍ لا يخلو من ضحك: "كل مكان بالنسبةِ لرجلٍ أعمىٰ مثلي ليس إلا سجنًا". ومرةً بعد أخرىٰ، جمعنا في شقته إمدادًا كبيرًا من الأوراق والجليسرين والجيلاتين وغيرهم من لوازم الطباعة البدائية التي كنَّا نتبعها. كنَّا نعمل ليلًا، في غرفةٍ بائسةٍ قذرة ذات سقفٍ منخفض لا تفصله عن رؤوسنا إلا مسافة بسيطة. كنَّا نستخدم الموقد في طبخ خلطة الطباعة التي نصبَّها علىٰ صفيحة القصدير، وفيما كان الرجل الأعمىٰ صاحب المنزل يساعدنا، ظلَّ يتحرَّك في الغرفة شبه المظلمة بثباتٍ وثقةٍ أكثر مما فعلنا. كان عاملٌ شابٌ وعاملة يراقبانني بوقارٍ واحترام بينما كنت أسحب الصفحات المطبوعة لتوِّها من الهيكتوجراف، ويتبادلان نظراتٍ خاطفة فيما بينهما. إذا كان لأحدٍ أن يلقي نظرةً، بعينٍ "رصينة"، علىٰ أولئك الشباب الذين يهرعون ذهابًا ومجيئًا في حركاتٍ سريعةٍ حول هيكتوجرافٍ بائس في غرفةٍ تكاد تكون مظلمة، لما كان ليتخيَّل أبدًا أن سيصير بمقدورِهم يومًا ما أن يطيحوا بدولةٍ جبَّارةٍ ممتدةٍ لقرونٍ من الزمن. إلا أن هذا الوهم بات حقيقةً واقعةً في غضونِ جيلٍ واحدٍ فقط؛ فلم يفصل تلك الليالي المُضنية إلا ثمانِ أعوام عن ثورة 1905، وأقل من عشرين علىٰ ثورة 1917.

لم تولِّد الدعاية الشفهية لديّ نفس الشعور بالرضا الذي منحه إياي توزيع المنشورات في ذلك الوقت. لم تكن خبرتي تؤهلني بعد لإلقاء الخطب، ولم أكن أعرِف كيف أفعل ذلك علىٰ نحوٍ صحيح وفعَّال. لم نكن نلقي خطبٍ بالمعنىٰ الكامل للكلمة، والمرة التي ألقيت فيها خطبةً في ذلك الوقت كانت في الغابة في يومِ عيد العمال، وقد أخجلني ذلك كثيرًا، وبدت كل كلمة قلتها خاطئة بشكلٍ فظيع. لكن علىٰ الجانب الآخر، لم أكن بهذا السوء حين كنت أتحدَّث إلىٰ مجموعات التنظيم. كنَّا ندير عملنا الثوري بسرعةٍ بالغة، واعتبرنا ذلك قاعدةً ثابتة. كنت أذهب في المساء إلىٰ الميناء، أستقل الباخرة وأستلقي علىٰ متنها إلىٰ جوار المدخنة، مرتديًا معطفًا ثقيلًا يغطي أغلب جسدي، لأصحو في الصباح بعد الوصول إلىٰ أوديسا وأبحث عمن أعرِفهم هناك، ثم أعود في الليلة التالية كي لا أضيع أي وقتٍ في السفر. تزايدت علاقاتي في أوديسا بشكلٍ مفاجئ في ذلك الوقت. وذات مرة، قابلت عاملًا يرتدي نظارةً علىٰ أنفه عند مدخل المكتبة العامة، تبادلنا نظرةً سريعة وفهمنا. كان ذلك هو ألبرت بولياك، عامل الطباعة الذي نظَّم فيما بعد المطبعة المركزية الشهيرة للحزب. تعرَّفت عليه حين كانت منظمتنا في ذروة حيويتها. وبعد مقابلتنا الأولىٰ بأيامٍ قليلة، أحضرت إلىٰ نيقولاييف حقيبةَ سفرٍ مملوءةً بالأدبيات "غير الشرعية" من الخارج؛ كراساتٍ دعائية جديدة بأغلفةٍ ملوَّنة.

فتحنا الحقيبة، وجلسنا ننظر بسرورٍ إلىٰ هذا الكنز الذي صار بحوزتنا. لم يستغرق توزيع هذه الكراسات إلا وقتٍ قصيرٍ للغاية، وعلىٰ إثر ذلك توسَّع نفوذنا في الأوساط العمالية.

كنت قد علمت من بولياك أن الميكانيكي شريتسل، الذي انتحل شخصية مهندسٍ وحاول الانضمام إلىٰ مجموعتنا، كان مخبرًا للشرطة منذ فترةٍ طويلة. كان هذا الشريتسل غبيًا مزعجًا، وبشكل فطري هكذا قبل أن نعلم أنه مخبرٌ، لم نثق فيه قط. لكنه كان يعلم بعضًا منَّا. وحين باتت تصرفاته جنونيَّةً، هددناه بألا نتعامل معه مطلقًا، فغاب عنَّا لمدة حوالي ثلاثة أشهر، لكن حين أُلقيَ القبض علينا، رد لنا الصاع صاعَين بشهادته ضدنا.

أطلقنا علىٰ منظمتنا اسم "اتحاد العمال الروسي الجنوبي"، فيما كنَّا ننتوي ضم عمالٍ من مدنٍ أخرىٰ أيضًا، وقمت بصياغة لائحة التنظيم علىٰ أسسٍ اشتراكيةٍ ديمقراطية. حاولت السلطات تحجيم نفوذنا عن طريق إطلاق متحدثين باسمها وسط العمال. كنَّا نرد عليهم في اليوم التالي ببياناتٍ جديدة، وهذه السجالات التي دارت أمام أعين العمال أيقظتهم، وأيقظت معهم أعدادًا كبيرةً من المواطنين أيضًا. المدينة كلها كانت تتحدث عن أولئك الثوريين الذين يغمرون المصانع بمنشوراتهم، وصارت أسماؤنا تتردد علىٰ كلِ لسان، بينما ظلت الشرطة متأخرةً عنَّا كثيرًا. لم يصدقوا أن هؤلاء الشبان "الصعاليك" قادرين علىٰ تدشين مثل هذه الحملة السياسية الواسعة،

فيما راودهم الشكُّ بأننا نعمل بتوجيهٍ من بعض القادة الأكبر سنًا والأكثر خبرةً من ورائنا، وربما بعض المنفيين القدامىٰ. أمهلونا شهرين أو ثلاثة أشهر إضافية قبل أن يكتشفوا مجموعاتنا واحدةً تلو الأخرىٰ. وهكذا قررنا الرحيل عن نيقولاييف لبعضة أسابيع للتشويش عليهم. كان من المُفترض أن أذهب إلىٰ عائلتي في الريف، وأن تذهب سوكولوفسكايا إلىٰ أخيها في إيكاترينوسلاف، وهكذا. لكننا في نفس الوقت قررنا بحسمٍ ألا نهرب أو نختبئ إذا ما شنَّت الشرطة حملةَ اعتقالاتٍ لنا، بل أن ندعهم يلقون القبض علينا حتىٰ لا يقولون للعمال: "قياداتكم تخلَّت عنكم".

كان عليّ أن أرحل، فيما أصرَّ نستيرينكو علىٰ أن أسلِّمَه حزمةً من البياناتِ والأدبياتِ له يدًا بيد. اتفق معي علىٰ لقاءٍ في ساعةٍ متأخرةٍ من الليلِ خلف المدافن. كانت الثلوج كثيفةً تكسو الأرض بطبقةٍ سميكة، وكان القمر لامعًا برَّاقًا في السماء، وخلف المدافن امتدت صحراءٌ بيضاءٌ لا نهايةَ لها. وجدته في الموعد المُحدَّد وفي المكان المُتفق عليه. وبمجرد أن أخرجت حِزمة الأوراقِ من معطفي لأسلِّمها له، ظهر رجلٌ من بين المقابر واقتفىٰ أثرنا، ملامسًا نستيرينكو بمِرفَقه.

سألته مندهشًا: "من هذا؟".

فأجابني بينما كان ينظر للرجل من ورائنا: "لا أعلم". في نفس ذلك الوقت، كان نستيرينكو يعمل بالفعل مع الشرطة، لكننا لم يخطر ببالنا أي شكٍ فيه.

وفي 28 يناير 1898، شنَّت الشرطة حملة اعتقالاتٍ واسعة، فألقت القبض علىٰ مائتي شخص، وطبَّقت عقوبة الجلد. أحد المُعتَقلين كان جنديًا يُدعىٰ سوكولوف، ألقوه في السجن من الطابق الثاني، لكن لم يُصب إلا بكدماتٍ خطيرة، وآخر يُدعىٰ ليفاندوفسكي جنَّ جنونه، وضحايا آخرون كُثُر.

من بين المعتقلين، كان هناك كثيرون أُلقيَ القبض عليهم بالخطأ. وقليلون ممن وثقنا فيهم تخلوا عنَّا، وبعضهم خانونا. لكن علىٰ الناحيةِ الأخرىٰ، أظهرت بعض العناصر غير البارزةِ في صفوفنا قوةً وصلابةً كبيرتين. علىٰ سبيل المثال، كان هناك خرَّاطًا من أصلٍ ألماني يُدعىٰ أوجست دورن، كان في حوالي الخمسين من عمره، قضىٰ في السجن فترةً طويلةً لسببٍ غير معلوم، رغم أنه لم يزر مجموعتنا إلا مراتٍ قليلة. كان يتصرف بشكلٍ مبهر، وظلَّ ينشد أغانٍ ألمانية رائعة بعلو صوته. في الحقيقة لم تكن الأغاني متزمِّتةً دائمًا. كان يلقي النكات بالروسية بروحٍ شبابية مرحةً ظلَّ محافظًا عليها رغم سنه. وفي سجن موسكو الانتقالي، حيث اعتُقِلنا جميعًا في نفس الزنزانة، كان دورن يخاطب سَمَاوَر الشاي مازحًا، يطلب منه المجيء، ثم يقول: "ألن تأتي؟ حسنًا، إذن دورن سيأتي إليك". ورغم أنه كان يكرِّر هذه المزحة يوميًا، كنَّا نضحك عليها كل مرة وكأنه يقولها للمرةِ الأولىٰ.

تلقَت منظمة نيقولاييف ضربةً قاسمة، لكنها لم تنتهِ من الوجود، فقد حلَّ محلنا أناسٌ آخرون، بينما كان كلٌ من الثوريين والشرطة يزدادون خبرةً يومًا بعد الآخر.

الفصل الثامن

سجوني الأولى

اعتُقِلت خلال حملات يناير 1898، ليس في نيقولاييف، بل في أرض إقطاعي ثري يُدعىٰ سوكوفنين، حيث كان شفيجوفسكي يعمل بستانيًا. توقفت هناك في طريقي من يانوفكا إلىٰ نيقولاييف بحقيبةٍ تعج بالمخطوطات والرسوم والخطابات والمواد "غير الشرعية" من كلِ لون.

خبّأ شفيجوفسكي حِزَم الأوراق ليلًا في حفرة مع بعض ثمرات الكرنب، ومع طلوع الشمس، بينما كان ذاهبًا لزرع نباتاته، أخرجها من هناك وسلَّمها إليّ. في هذه اللحظة بالضبط اقتحمت الشرطة المكان فجأة. تمكَّن شفيجوفسكي أمره وخبّأ الحِزَم خلف برميل ماء في الردهة، وهمس لمدبرة المنزل، التي قدَّمت لنا الغداء تحت مراقبة الشرطة، بأن تأخذهم بعيدًا وتخبأهم جيدًا. قررت العجوز أن أفضل حل هو دفنهم في الحديقة تحت الثلوج. كنَّا علىٰ ثقةٍ تامة بأن هذه الأوراق لن تقع في يد أعدائنا. وعند حلول الربيع، ذابت الثلوج، ونما نجيلٌ أخضر جديد ليغطي حِزَم الأوراق التي انتفخت بعض الشيء بفعل أمطار الربيع.

كنَّا لا نزال في السجن ذلك الصيف. جاء عاملٌ ليحش النجيل، وبينما كان ولداه يلهوان في الحديقة، تعثرا في الحزِمَ وسلَّماها لوالدهما، الذي بدوره سلَّمها للإقطاعي صاحب الأرض. أما ذلك الإقطاعي، فقد فزع برؤية هذه الأوراق، فذهب علىٰ الفور إلىٰ نيقولاييف وسلَّمها لرئيس الشرطة السرية. كان خط اليد علىٰ المخطوطات دليلًا ضد الكثير من رجالنا.

لم يكن السجن القديم في نيقولاييف لائقًا بالسجناء السياسيين، خاصةً مع عددهم الكبير. زجوا بي في إحدىٰ الزنازين مع عامل تجليد كتب يُدعىٰ يافيتش. كانت الزنزانة كبيرة حقًا؛ قد تتسع لثلاثين شخصًا، وكانت خاوية تمامًا من أي أثاث، هذا علاوة علىٰ تدفئتها الضعيفة. كانت هناك فتحة مربعة كبيرة في الباب، تطل علىٰ ممر مفتوح يقود مباشرةً إلىٰ فناء السجن. كانت ثلوج يناير قارسةً قاسية. افترشت أرض الزنزانة بحشايا من القش لننام عليها ليلًا، وكانوا يأخذونها في السادسة صباحًا. كان عذابًا حقيقيًا أن ننهض صباحًا ونرتدي ملابسنا. كنت أجلس مع يافيتش علىٰ الأرض، مرتدين قبعتينا ومغطفينا وأحذيتنا المطاطية، ملتصقين ببعضنا ننحني باتجاه الموقد الذي كان بالكاد دافئًا، ننعس لساعتين أو أكثر كل مرة. كان هذا أسعد وقتٍ لنا في اليوم. لم نكن نُستدعىٰ للتفتيش، لذا كنَّا نجري من ركنٍ إلىٰ آخر في الزنزانة لتدفئة أنفسنا. تحدثنا عن الماضي معبرين عن آمالنا في المستقبل. وبدأت أُعلِّم يافيتش بعض العلوم.

مضت ثلاثة أسابيع علىٰ هذا النحو، ثم حدث تغيُّر مفاجئ. استُدعيت بكل أغراضي إلىٰ مكتب السجن، واستلمني اثنان من رجال الدرك شاهقي الطول، واقتاداني بالحصان إلىٰ سجنٍ في خيرسون. كان مبنىٰ السجن أقدم حتىٰ من سابقه. أما زنزانتي فكانت فسيحة، لكن لم يكن هناك إلا نافذة ضيقة لا تفتح، بقبضانٍ معدنية بالكاد يدخل الضوء من خلالها. كانت عزلة قاتمة وبائسة. لم يكن التمشي خارج الزنزانة مسموحًا به، ولم يكن هناك أي سجناء آخرين إلىٰ جواري. لم أكن أرىٰ أي شيء من نافذتي التي أُغلقت تمامًا في الشتاء. لم أتلق أي طرود من الخارج، ولم يكن لديّ شايٌ أو سكر. قدموا لي حساء المساجين ذات يوم للعشاء، بينما كان خبز الشعير مع الملح هو الوجبة المعتادة في الفطور والعشاء. فكرت مع نفسي كثيرًا فيما إذا كان يتوجَّب عليّ أن أزيد حصة الفطور علىٰ حساب حصة العشاء. وبدت جدالات الصباح لزيادة حصة الطعام خرقاء، بل إجرامية، في المساء؛ ففي العشاء كنت أكره الشخص الذي دلَّل نفسه هكذا في الفطور. لم أغيِّر ملابسي، وبقيت طيلة ثلاثة أشهر بنفس الملابس الداخلية، كما لم يكن لديّ أي صابون.

كان القمل يأكلني حيًا. عاهدت نفسي أن أقطع ألف ومائة وإحدىٰ عشر خطوة يوميًا في القطر المحيط بي. كنت في عامي التاسع عشر. أما العزلة التامة التي عشت فيها فكانت أسوأ ما شهدته في حياتي بعد ذلك في حوالي عشرين سجنًا. لم يكن في حوزتي أي كتب أو ورق

أو أقلام. ولم تكن هناك أية تهوية. الطريقة الوحيدة التي كنت أشعر بها بالنقاء النسبي لهواء الزنزانة كانت هي النظر في الكِشر الذي يلوي وجه نائب المأمور حين كان يأتي أحيانًا لزيارتي.

بقضمة واحدة من خبز السجن، كنت أؤلف أبيات شعرٍ بينما أسير ذهابًا وإيابًا في الزنزانة. حوَّلت الأغنية الشعبوية "دوبينوشكا" إلىٰ أغنية بروليتارية أسميتها "ماتشينوشكا"، وألَّفت "كامارينسكي" ثورية. ورغم رداءة ما صغت من أشعار، إلا أنها صارت لاحقًا رائجة بشدة. أُعيد طبع هذه الأشعار في كتب الأغاني عدة مرات حتىٰ يومنا هذا. مرَّت عليّ أوقاتٌ عانيت فيها المرض وحيدًا في الزنزانة، وفي مثل هذه الحالات كنت صارمًا مع نفسي بشكلٍ مبالغٍ فيه، ولم أتوقف عن المشي الألف والمائة والإحدىٰ عشر خطوة التي اعتدت عليها بحذاءٍ بات باليًا متهالكًا تمامًا.

وفي نهاية الشهر الثالث، حين كانت الوسائد المملوءة قشًا وخبز السجن والقمل هم العناصر الأساسية للوجود ليل نهار، ذات مساء جاء إليّ الحرَّاس بحزمةٍ كبيرة من الأغراض من العالم الآخر، هذا العالم الرائع فعلًا؛ كانت تلك ملابس جديدة، وأغطية، ووسادة، وخبزًا أبيض، وشاي، وسكر، ولحم خنزير، وطعامًا معلَّبًا، وتفاح، وبرتقال ملوَّن - نعم برتقال كبير لامع. وحتىٰ اليوم، بعد واحد وثلاثين عامًا، لازلت أعدِّد هذه الأشياء الرائعة بحنينٍ جامح، كنت أجبر نفسي علىٰ نسيان برطمان المربىٰ، والصابون، ومشط الشعر.

قال لي نائب المأمور: "أمك أرسلتهم"، ومن معرفتي المحدودة في تلك الأيام بقراءة أفكار الناس، يمكنني أن أقول من نبرته أنه قد تلقىٰ رشوة.

بعد فترة قصيرة، نُقِلت علىٰ متن باخرة إلىٰ أوديسا، حيث زجوا بي في الحبس الانفرادي في سجنٍ بُنِيَ قبل بضع سنين. بعد نيقولايف وخيرسون، بدا سجن أوديسا مكانًا مثاليًا؛ حيث توافرت وسائل التواصل مع البشر وظلت مستمرة، سواء من خلال الآلة الكاتبة، أو تبادل الملاحظات، أو "الهاتف"، أو الصياح عبر النوافذ. أرسلت أبياتي التي كتبتها في خيرسون إلىٰ جيراني الذين أرسلوا لي الأخبار في المقابل. ومن خلال النافذة، أخبرني شفيجوفسكي باكتشاف حقيبة الأوراق، كي أتجنب ما يمكن أن يحيكه لي المقدم دريمليوجا من أفخاخ. لابد أن أوضح هنا أننا في ذلك الوقت لم نكن نرفض بعد تقديم الأدلة، كما في السنوات اللاحقة.

اكتظ السجن بعد الاعتقالات الواسعة التي جرت في الربيع. وفي الأول من مارس 1898، وبينما كنت لا أزال في خيرسون، انعقد المؤتمر الأول للحزب الاشتراكي الديمقراطي في منسك وأقرّ بيانه التأسيسي. حضر المؤتمر تسعة رفاق، وأُلقِيَ القبض علىٰ معظمهم في موجة من الاعتقالات تلت اجتماعهم. وبعد بضعة أشهر، لم يتحدَّث أحدٌ عن المؤتمر بعد ذلك، رغم أن ما تلاه كان له تأثيرٌ علىٰ تاريخ البشر برمته. رسم هذا بيان المؤتمر مستقبل النضال السياسي كما

يلي: "كلما اتجهنا للشرق من أوروبا، تكون البرجوازية أكثر جُبنًا وغدرًا من الناحية السياسية، وبالتالي تتعاظم المهام السياسية والثقافية التي تواجه البروليتاريا". تتجلىٰ هنا المفارقة التاريخية الحادة في أن كاتب هذا البيان هو سيء الذِكر بيتر ستروف، الذي صار لاحقًا زعيمًا لليبرالية، ثم دعاويًا للرجعية الملكية والكهنوتية.

خلال الأشهر القليلة الأولىٰ من بقائي في سجن أوديسا، لم أتلق أي كتبٍ من الخارج، وهكذا ارتضيت بمكتبة السجن التي تألَّفت في معظمها من مجلاتٍ دينية وتاريخ محافِظة تغطي عهودًا من الزمن. درستها عن كثب، وتعرَّفت منها علىٰ كافة طوائف وهرطقات العصور القديمة والحديثة، وكل ما تتميز به الكنيسة الأرثوذكسية من خدمات، والجدالات الأهم التي تُساق ضد الكاثوليكية والبروتستانتية والتوليستوفية والداروينية. في مجلة "أرثوذكس"، قرأت: "يحب الوعي المسيحي العلوم الحقيقية، بما في ذلك العلوم الطبيعية كأهل الإيمان المثقفين". لابد أن معجزة حمار بلعام بن باعوراء الذي أخذ يتجادل مع صاحبه لا يمكن دحضها حتىٰ من وجهة نظر العلوم الطبيعية.

"أليست حقيقة، علىٰ سبيل المثال، أن الببغاوات والكناري بمقدورهم التكلم؟"، هذه الحُجة التي ساقها المطران نيكانور شغلت عقلي لأيامٍ عديدة، حتىٰ في أحلامي. كانت تصويرات الشياطين وكبيرهم، أمير الظلام، دائمًا مدهشةً بالنسبةِ لي، تحرف ذهني العقلاني إلىٰ هذه التفاهات المُقنَّنة منذ آلاف السنين. آل الوصف المفرط

للجنة، بالتفاصيل الدقيقة حول مكانها وتركيبها الداخلي، علىٰ نحوٍ كئيب بأن "موقعها ليس معروفًا بدقة بعد". كنت أكرِّر لنفسي، أثناء تناول الشاي أو العشاء أو حتىٰ أثناء السير، جملة "ما مِن معلوماتٍ دقيقة عن خط الطول الجغرافي للجنة السعيدة".

اغتنمت كل فرصة مُتاحة لأخوض خلافاتٍ لاهوتية مع الرقيب ميكلين، ذلك الطمَّاع الخبيث والكذَّاب حتىٰ النخاع، الذي كان شديد التدين والتعمُّق في الكتب المقدسة. اعتاد الرجل أن يهمهم بالتراتيل كلما هرع من زنزانة لأخرىٰ، بينما تجلجل مفاتيحه المتدلية كلما صعد الدرج الحديدي. كان يعظني قائلًا: "لأجل كلمةٍ واحدة؛ أم المسيح بدلًا من أم الرب، انفجرت بطن الزنديق آريوس". فأرد عليه: "لماذا إذن تظل بطون زنادقة اليوم سليمة بحالها؟"، فيجيبني بنبرةٍ هجومية: "هذا.. هذا عصر مختلف".

وصلتني، عن طريق أختي التي جاءت من الريف، أربع نسخ من الإنجليل بلغاتٍ مختلفة. قرأت الأناجيل، آية آية، بمعرفتي المحدودة التي اكتسبتها في المدرسة بالألمانية والفرنسية، إلىٰ جانب قراءاتي المتوازية بالإنجليزية والإيطالية، وفي أشهرٍ معدودة تمكَّنت من تحقيق تقدمٍ ممتاز في هذا الصدد. لكن لابد، رغم ذلك، أن أعترف هنا أن قدراتي اللغوية متواضعة للغاية، فحتىٰ اليوم لا أتقن لغة أجنبية واحدة، رغم أنني مكثت فتراتٍ في بلدانٍ أوروبية عديدة.

كان المسجونون يقابلون ذويهم في أقفاصٍ خشبية معزولة عن الزوار بحاجز شبكيٍ مزدوج. وحينما جاء والدي لزيارتي للمرة الأولىٰ، تصوَّر أنني أبقىٰ طيلة الوقت في هذا الصندوق الضيق. سيطرت عليه هذه الفكرة لدرجة أنه لم يقدر علىٰ التحدث مطلقًا، كان يرد علىٰ أسئلتي فقط بتحريك شفتيه اللتين هربت منهما الدماء في صمت. لن أنسىٰ وجهه أبدًا. أما والدتي، فجاءت علىٰ علمٍ مسبق بذلك، فكانت أهدأ كثيرًا.

كانت أصداء ما يحدث في العالم بالخارج تتردد داخل السجن. لم تمسنا حرب جنوب إفريقيا كثيرًا، حيث كنَّا لا نزال محليين بكل ما تحمله الكلمة من معنىٰ. كنَّا نميل إلىٰ تفسير الصراع بين البويريين والإنجليز بشكل أساسي علىٰ أنه مثالٌ علىٰ حتمية انتصار رأس المال الكبير علىٰ الصغير. أما قضية دريفوس، التي كانت في ذروتها آنذاك، فقد ألهبتنا بدراميتها. ذات مرة، وصلت شائعات تفيد بأن انقلابًا أعاد الملكية إلىٰ فرنسا مرة أخرىٰ. شعرنا بخزيٍ شديد. هرع الحرَّاس عبر الأروقة الحديدية، يصعدون وينزلون الدرج، محاولين إيقاف ضجيجنا وصياحنا. ظنوا أننا نحتج علىٰ طعامٍ لا يؤكل. لكن، كلا، كان ذلك هو الجناح السياسي داخل السجن يحتج بحماسةٍ ضد استعادة الملكية في فرنسا.

استعرت المقالات التي تناولت الماسونية في المجلات اللاهوتية اهتمامي بشدة. سألت نفسي؛ من أين نبعت هذه الحركة الغريبة؟

وكيف تفسرها الماركسية؟ قاومت نظرية المادية التاريخية لفترةٍ طويلة، بينما كنت متمسكًا بنظرية تعددية العوامل التاريخية، التي، كما نعرفها، تُعد حتىٰ اليوم النظرية الأكثر قبولًا في العلوم الاجتماعية. يعكس الناس، كعوامل في العملية التاريخية، الجوانب المختلفة من نشاطهم الاجتماعي، يضفون علىٰ هذا المنطق طابعًا اجتماعيًا فوقيًا، ومن ثم يفسرون نشاطهم، بخرافةٍ، باعتباره نتيجة للتفاعل بين القوىٰ المستقلة. من أين جاءت هذه العوامل، وفي ظل أي ظروف تطوَّرت في المجتمع البشري البدائي؟ لا تشغل النظرية الانتقائية الرسمية بالها بمثل هذه الأسئلة.

في زنزانتي، قرأت بسعادة بالغة مقالتين شهيرتين بقلم الماركسي الهيجلي العجوز أنطونيو لابريولا، وقد وصلت هاتان المقالتان إلىٰ السجن في نسختهما الفرنسية. وعلىٰ عكس أغلب الكُتَّاب الغربيين، برع لابريولا في الديالكتيك المادي، ورغم أنه كان بائسًا قليل الحيلة في السياسة، إلا أنه علىٰ الأقل كان بارعًا في فلسفة التاريخ. انطوىٰ شرحه الثري الرائع علىٰ بصيرةٍ شديدة العمق. قدَّم أعمالًا قصيرة، وبأسلوبٍ بديع، في نظرية تعددية العوامل التي كان مُفترض بها أن تقبع فوق قمة الأوليمب لتتحكم في أقدارِنا من أعلىٰ.

ورغم مرور ثلاثين عامًا من قرائتي مقالات لابريولا، تبقىٰ حججه راسخةً في ذاكرتي، وكذلك إصراره علىٰ أن "الأفكار لا تسقط من السماء". بعد لابريولا، بدا كل أنصار نظرية تعددية العوامل الروس،

مثل لافروف وميخائيلوفسكي وكارييف، منزوعي الفاعلية بالنسبةِ لي. وبعد عدة سنوات، كنت أشفق علىٰ الماركسيين الذين خضعوا لتأثير الأطروحة العقيمة التي قدمها البروفيسور الألماني ستاملر في "الاقتصاد والقانون". كانت تلك واحدة من محاولات لا حصر لها لتمرير التيار الهائل للتاريخ الطبيعي والبشري، من الأميبا إلىٰ الإنسان المعاصر اليوم وما بعده، عبر الحلقات المغلقة للتصنيفات الأبدية، تلك الحلقات التي لا وجود لها إلا في عقول المتحذلقين.

اهتممت في هذه الفترة بالتحديد بالماسونية. درست عن كثب كتبًا عن تاريخها، كتبًا أعطاها لي أقاربٌ وأصدقاءٌ في المدينة. لماذا بدأ تجارٌ وفنانون ومصرفيون وموظفون ومحامون، منذ الربع الأول من القرن السابع عشر، يطلقون علىٰ أنفسهم ماسونيين، ويحاولون إعادة إحياء طقوس نقابات القرون الوسطىٰ؟ ما غرض هذا التنكر الغريب؟ اتضحت لي الصورة تدريجيًا. كانت النقابة القديمة أكثر من مجرد منظمة للمنتجين؛ إذ كانت تنظم نمط حياة وأخلاقيات أعضائها أيضًا. احتضنت حياة السكان المدينيين تمامًا، خاصةً نقابات وطوائف أشباه الحرفيين وأشباه الفنانين في مهن البناء. وأدىٰ تداعي نظام النقابة إلىٰ أزمة أخلاقية في مجتمعٍ لم يكد ينهض من العصور الوسطىٰ. أما الأخلاقيات الجديدة، فبدأت تتشكَّل أبطأ بكثيرٍ من انهيار القديمة. وهنا تأتي المحاولة، الشائعة في التاريخ، للحفاظ علىٰ شكلٍ من الانضباط الأخلاقي، حين تكون أساساته الاجتماعية، التي هي في

هذه الحالة هي الأساسات الاجتماعية للنقابات الصناعية، قد قوَّضتها عمليات التاريخ. لكن الأساليب الأخلاقية القديمة في الحياة، التي يحاول الناس الحفاظ عليها فقط بغرض الحفاظ عليها، تكتسب معنىً جديدًا. في بعض روافد الماسونية، كما في النظام الاسكتلندي، تبرز عناصر واضحة للإقطاعية الرجعية.

صارت الماسونية، في القرن الثامن عشر، معبرةً عن سياسة نضالية في التنوير، كما في حالة "المُتنوِّرين"، الذين كانوا روَّادًا ثوريين تجاوزهم "الكاربوناريون" علىٰ يسارهم. ومن ضمن الماسونيين كان الملك لويس السادس عشر، والدكتور جيلوتين الذي اخترع المقصلة. في جنوبي ألمانيا، اتخذت الماسونية طابعًا ثوريًا صريحًا، حيث أُقيمت حفلة تنكرية في محكمة كاثرين الثانية تعكس التراتبية البيروقراطية والأرستقراطية.

رغم أننا، في يومِنا هذا المليء بصيحات الأزياء الجاهزة والرخيصة، ومن الصعب أن تجد أحدًا لا يزال يرتدي معطف جده مثلًا، إلا أن، في عالم الأفكار، لا تزال معاطف الأجداد وتنورات الجدَّات "موضة" رائجة. تنتقل الأفكار من جيلٍ إلىٰ جيل، مثلها في ذلك مثل وسائد الجدَّة وأفرشتها التي تفوح برائحة العفن. وحتىٰ أولئك الذين يُجبرون علىٰ تغيير جوهرهم، فإن آراءهم تُقحِم هذا الجوهر عُنوةً في قوالبٍ جديدة. لقد خطت الثورة في الصناعة خطواتٍ واسعة أكثر مما فعلت علىٰ صعيد الأفكار، وعلىٰ هذا الصعيد بالذات

لا تزال طريقة العمل بالقطعة مُفضَّلةً لدىٰ الهياكل الاجتماعية الجديدة. لذا فإن برلمانيي البرجوازية الصغيرة الفرنسيين لا يجدون طريقةً لخلق علاقاتٍ أخلاقية تربط الناس ببعضهم ضد فوضىٰ العلاقات الحديثة أفضل من ارتداء مرايلٍ بيضاء والإمساك ببوصلةٍ في يد وربما مسبارٍ في أخرىٰ. إنهم حقًا لا يُفكِّرون في بناءٍ جديد بقدر ما يبتغون العودة إلىٰ البرلمان القديم أو الوزارة.

من قواعد السجن أن علىٰ السجين أن يتخلىٰ عن كتاب التمارين القديم حين يستلم واحدًا جديدًا. استلمت كتابًا كبيرًا من ألف صفحة، خصَّصته لدراساتي في الماسونية، وأدخلت فيه بخطٍ دقيقٍ مقتطفاتٍ وفيرة من عديدٍ من الكتب، تخللتها الكثير من ملاحظاتي وانطباعاتي عن الماسونية، وكذلك عن المفهوم المادي للتاريخ. استغرقت في ذلك أفضل جزءٍ من السنة، حيث حرَّرت كل فصل بعناية بالغة، ونسخته علىٰ أوراق دفترٍ كان قد وصل إليّ عن طريق التهريب، ثم أرسلته لأصدقائي في الزنازين الأخرىٰ ليقرأوه. ابتدعنا من أجل ذلك نظامًا مُعقَّدًا أطلقنا عليه "الهاتف"، حيث يربط الشخص المُرسَل إليه - شريطة ألا تكون زنزانته بعيدة - ثِقلًا بخيطٍ طويل، ثم بقدر المُستطاع يُخرج ذراعه من نافذة الزنزانة ويؤرجح الخيطَ في حركةٍ دائريةٍ، أما أنا فأُخرِج عصا مكنستي كي يلتف الخيط حولها، ثم أسحب العصا إلىٰ زنزانتي وأربط المخطوطةَ بالخيط. أما إذا كان

المُرسل إليه في زنزانة بعيدة، فندبر هذه العُملية عبر سلسلة من المراحل تجعل الأمور بالطبع أكثر تعقيدًا.

وبحلول نهاية مدتي في سجن أوديسا، تحوَّل كتاب التمارين السمين هذا، الذي حَمَل توقيع الرقيب يوسوف، إلىٰ بئرٍ حقيقيٍ من المطالعة التاريخية والفِكر الفلسفي. لا أعلم ما إذا كان من الممكن طباعته اليوم كما كتبته وقتها. كنت أتعلم الكثير خلال تلك الفترة، في مجالاتٍ عدة، ومن بلدانٍ وعصورٍ عدة، وكنت حريصًا علىٰ أن أدلو علىٰ الفور بكل شيءٍ في عملي الأول هذا. لكنني أظن أن الأفكار والاستنتاجات الأساسية فيه كانت صائبة. شعرت، حتىٰ في تلك الفترة، أننا أقف متنصبًا علىٰ ساقيّ بحزم، وكلما تقدمت الدراسة شعرت بالمزيد من القوة.

إنني اليوم علىٰ استعدادٍ كامل لأن أبذل كل ما في وسعي لإيجاد هذه المخطوطة. أخذتها معي إلىٰ المنفىٰ الأول، رغم أنني توقفت حينها عن دراسة الماسونية واتجهت للاقتصاد الماركسي. وبعد هروبي إلىٰ الخارج، أرسلتها أليكساندرا لفوفنا عبر والديّ اللذين زاراني في باريس في 1903. وبعد ذلك، ذهبت في مهمة سريّة إلىٰ روسيا وتركت المخطوطة في جينيف ضمن ما تبقىٰ من أرشيفي المتواضع الذي رَقَدَ بسلامٍ قبل أوانه في أكنافِ أراشيف الإيسكرا. أما بعد هروبي الثاني من سيبيريا، حاولت استعادتها، لكن محاولاتي ذهبت سُدىٰ. لابد أن صاحبة السكن، التي أوصيناها بالعناية

بالأراشيف، قد استخدمتها في إشعال النار أو شيءٍ من هذا القبيل. لن أدخِّر أي جهدٍ لأبعث لهذه السيدة الفاضلة موبِّخًا إياها بشدة.

استفدت كثيرًا من الطريقة التي أجريت بها دراساتي في الماسونية، رغم محدودية المصادر التي كانت في متناول يدي في السجن. كنت في ذلك الوقت جاهلًا بالأدبيات الأساسية للماركسيين. كانت مقالات لابريولا فلسفية للغاية، وافترضت معرفةً لم أكن أملكها، وبالتالي فتحت لي بابًا بديلًا للتخمينات. انتهيت من قراءة هذه المقالات بحزمةٍ من الفرضيات تجوب رأسي ذهابًا إيابًا، لكن دراستي للماسونية وضعت هذه الفرضيات تحت الاختبار. لم أكتشف شيئًا جديدًا؛ فكافة الاستنتاجات المنطقية التي توصَّلت إليها كانت منذ أمدٍ بعيد قد دخلت حيِّز التنفيذ. التمست طريقي إلىٰ هذه الاستنتاجات بشكلٍ مستقل، وأعتقد أن هذا قد أثَّرَ علىٰ المسار العام لتطوري الفكري اللاحق. وفي كتابات ماركس وإنجلز وبليخانوف ومهرينج، وجدت توكيدًا علىٰ ما بدا لي في السجن مجرد تخمينٍ بحاجةٍ إلىٰ الإثبات والتبرير النظري. لم أستوعب المادية التاريخية هكذا مرةً واحدةً علىٰ نحوٍ دوجمائي، حيث تَجَلَّىٰ الديالكتيك أمامي لأول مرةٍ ليس كتعريفاتٍ مُجرَّدة، بل كواقعٍ حيٍ لاقيته في العملية التاريخية كما حاولت أن أفهمها.

في تلك الأثناء، كانت الثورة آخذةً في النهوض في كل أرجاء البلاد، بتفاعلاتٍ ديالكتيكية تاريخية أظهرت نفسها بشكلٍ مذهل علىٰ

مستوىٰ عملي ونطاق هائل. نفَّسَت الُحركة الطلابية عن نفسها في صورةِ مظاهراتٍ سرعان ما قمعها القوزاق بالسياط، فثار سخط الليبراليين مما تَعَرَّضَ له أبناؤهم. كانت الاشتراكية الديمقراطية تتوطَّد كشريكٍ في الحركة العمالية، فكفَّت الثورة عن أن تكون فقط مجرد هوايةٍ مميزةٍ لحلقات المثقفين. كانت أعداد المعتقلين من العمال تتزايد، وكان من الأسهل التنفُّس داخل السجن، رغم التكدُّس الكبير. وبحلول نهاية العام الثاني، أصدرت المحكمة حكمها في قضية اتحاد عمال الجنوب الروسي، حيث قضت علىٰ أربعة متهمين بالنفي إلىٰ شرقي سيبيريا لأربعة أعوام. بعد ذلك قضينا أكثر من ستة أشهر في سجن موسكو الانتقالي، واستغللت هذه الفترة في الدراسة النظرية المُكثَّفة، ثم سمعت للمرةِ الأولىٰ عن لينين، وعن كتابه الذي صدر لتوِّه عن تطور الرأسمالية في روسيا، والذي قرأته من الجلدة للجلدة. شرعت في الكتابة، وهرَّبت من داخل السجن كراسًا عن الحركة العمالية في نيقولايف، نُشِرَ فيما بعد في جينيف. قضيت فتراتٍ متقطعةً في سجونٍ أخرىٰ، ولم نصل منفانا إلا في خريف 1900.

الفصل التاسع

منفاي الأول

نزلنا إلىٰ نهر لينا مُبحِرين فيه بقليلٍ من الزوارق التي أقلَّت المنفيين تحت حراسة موكبٍ من الجنود، منجرفين ببطء مع التيار. كان الطقس باردًا في الليل، وبحلول الصباح كانت المعاطف الثقيلة التي ارتديناها قد اكتست بالثلوج. خلال الطريق، تُرِكَ بعض المنفيين في القرىٰ التي قُرِّر مُسبَّقًا أن يُنفوا إليها. وبقدر ما أتذكر، أخذت رحلتنا حوالي ثلاثة أسابيع قبل أن نصل إلىٰ قرية أوستكوت. تركوني هناك مع إحدىٰ السجينات التي كانت معاونة قريبة لي من نيقولاييف. احتلت أليكساندرا لفوفنا مكانةً شديدة الأهمية في اتحاد عمال جنوب روسيا. كانت لها سلطةٌ أدبيةٌ ومعنويةٌ فائقة اكتسبتها من إخلاصها الشديد للاشتراكية وإنكارها لأي طموح شخصي. لقد قرَّبنا العمل من بعضنا، وفي النهاية تزوجنا في السجن الانتقالي في موسكو.

تألفت القرية من حوالي مائة كوخ. اتخذنا أحد هذه الأكواخ مسكنًا لنا علىٰ حافة القرية، فيما كانت الغابة من أمامنا والنهر من خلفنا. في الشمال علىٰ طول نهر لينا، كانت هناك مناجم الذهب، وبدا أن انعكاسات الذهب تحوم حول النهر. لقد شهدت أوستكوت أيامًا من السرقات والجرائم والقتل، لكنها كانت هادئة حين حللنا عليها رغم كثرة المخمورين فيها. كان الزوجان صاحبا الكوخ الذي عشنا

فيه مدمني خمر أيضًا. كانت الحياة مظلمة ومكبوتة ومنعزلة تمامًا عن بقية العالم. في الليل، تملأ الصراصير الكوخ، بخشخشتها في الزحف علىٰ الطاولة وعلىٰ السرير، وعلىٰ وجوهنا حتىٰ. كان علينا، من حينٍ لآخر، أن نغادر الكوخ ليومٍ أو أكثر، ونترك الباب مفتوحًا علىٰ مصراعيه، في درجة حرارة 1 تحت الصفر.

في الصيف أحالت البراغيش حياتنا جحيمًا، ظلوا يلدغون بقرةً حتىٰ الموت بعد أن ضلت طريقها في الغابة. كان الفلاحون يرتدون علىٰ رؤوسهم قبعاتٍ من شِباكٍ من شعر الأحصنة المطليّ بالقير. وفي الربيع والخريف كانت القرية تُغمر بالأوحال. كانت القرية جميلة بالتأكيد، لكنني فقدت اهتمامي بها خلال تلك السنوات، وكنت أكره أن يضيع وقتي علىٰ التفكير فيها.

ورغم أنني عشت بين الغابة والنهر، إلا أنني بالكاد لاحظتهما، فقد كنت منشغلًا بكتبي وعلاقاتي الشخصية. كنت أدرس ماركس وأزيح الصراصير من علىٰ صفحات الكتب.

كان لينا هو الطريق الملاحي الأكبر للمنفيين. وأولئك الذين قضوا عقوبتهم يعودون جنوبًا أيضًا عن طريق النهر. لكن التواصل كان مستمرًا بين أكواخ المنفيين التي تزايدت مع صعود المد الثوري. تبادل المنفيون الخطابات مع بعضهم البعض، وتضمنت الكثير من هذه الخطابات بعض الدراسات والمقالات المطوَّلة. كان من السهل نسبيًا أن نحصل علىٰ إذنٍ من محافظ إركوتسك بالانتقال من مكانٍ

إلىٰ آخر. انتقلت مع أليكساندرا لفونفا إلىٰ مكانٍ يبعد أكثر من 260 كيلومتر شرقي نهر يليم، حيث كان لدينا بعض الأصدقاء. حصلت علىٰ وظيفة لبعض الوقت لدىٰ تاجر مليونير. كان يملك مخازن ومستودعات ومعارض لمنتجات الفراء منتشرة في أرجاء شاسعة تزيد في مساحتها علىٰ مساحة بلجيكا وهولندا مجتمعتين. كان تاجرًا ذا نفوذٍ هائل. كان يشير إلىٰ آلاف التونجسكيين لديه بـ"صغاري التونجسكيين". لم يكن يعرف كيف يكتب اسمه حتىٰ، وكان عليه أن يميزه بصليب. كان ينفق ببخلٍ شديد علىٰ ملبسه طوال العام، بينما يبدد عشرات الآلاف من الروبلات في المعرض السنوي في نيجني نوفجورود. عملت لديه لمدة شهر ونصف، ثم ذات يوم كتبت في فاتورة جنيهًا واحدًا بدلًا من بودًا واحدًا، وأرسلت الفاتورة إلىٰ مخزنٍ بعيد. دمَّر ذلك سمعتي لديه تمامًا، فسرَّحني من الوظيفة.

عدنا إلىٰ أوستكوت، وكان البرد قارسًا حيث انخفضت الحرارة إلىٰ درجاتٍ عديدة تحت الصفر. كان علىٰ الحوذي أن يزيل رقائق الثلج بين الفينة والأخرىٰ من علىٰ كمامات الأحصنة ونحن نتابع المسير. حملت ابنتي ذات الأشهر العشرة علىٰ ساقيَّ، وقد صنعنا قُمعًا من الفراء ووضعناه حول رأسها كي تتنفس من خلاله، وحين نتوقف في كل مرة نزيح هذا القمع عنها مرتعدين لنرىٰ ما إذا كانت لا تزال حية. إلا أنه رغم ذلك لم تصادفنا أي عراقيل خلال الرحلة. لم نمكث طويلًا

في أوستكوت، فبعد بضعة أشهر سمح لنا المحافظ بالانتقال جنوبًا إلىٰ منطقةٍ تُدعىٰ فيرخولينسك حيث يمكث بعض أصدقائنا.

كان الأرستقراطيون من المنفيين شعبويين قدامىٰ نجحوا بهذا القدر أو ذاك في تأسيس أنفسهم في السنوات التي قضوها في المنفىٰ. أما الشبيبة الماركسيون، فقد شكَّلوا لأنفسهم قسمًا متمايزًا. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلىٰ المنفىٰ، كان العمال المضربون، الذين كان أغلبهم أميين، ينفصلون بضربةٍ من القدر عن بقية الجماهير، وبدأوا في النزوح إلىٰ الشمال. كان المنفىٰ بالنسبة لهم مدرسةً ثرية للسياسة والثقافة العامة، بينما صارت الخلافات بين المثقفين أكثر مرارة بمشادات لا تنتهي علىٰ أمورٍ شخصية، كما هو الحال حين يُجبَر عددٌ كبيرٌ من الأشخاص علىٰ الاحتجاز في مكانٍ واحد. نشبت الكثير من الصراعات الخاصة، والتي كان لبعضها جانبًا من الرومانسية لم يخل من الدراما. وفي هذا الإطار حاول الكثيرون الانتحار. في فيرخولينسك، تناوبنا لحراسة طالبٍ من كييف، لاحظت كومة من الرقائق المعدنية اللامعة علىٰ طاولته، واكتشفنا لاحقًا أنه كان يصنع أعيرة من الرصاص لبندقيته. ذهبت حراستنا له هباءً، فقد وجَّه فوهة البندقية إلىٰ صدره وضغط علىٰ الزناد بقدمه. دفناه في صمتٍ أعلىٰ التلة. في ذلك الوقت كنَّا لا نزال نخجل من إلقاء الخطب، كما لو أنها ستخرج من أفواهنا مُفتعَلة أو زائفة. في كافة مستعمرات المنفيين، كانت هناك مقابر للمنتحرين. تأقلم بعض المنفيين مع السكان المحليين، بالأخص في المدن، بينما

وجد آخرون ضالتهم في الخمر. في المنفىٰ، كما في السجن، فقط العمل الفكري هو ما يمكن أن ينقذ المرء، وعليّ أن أعترف أن الماركسيين كانوا الوحيدين الذين فعلوا ذلك في ظل هذه الظروف.

وعلىٰ طريق لينا الأكبر، قابلت في ذلك الوقت دزرجينسكي ويورتسكي، وشبابًا ثوريين آخرين شاء لهم القدر أن يضطلعوا بأدوارٍ هامة في المستقبل. كنَّا ننتظر وصول بعضنا بلهفة. وفي ليلة ربيعية كاحلة الظُلمة، بينما كنَّا جالسين حول المشعل علىٰ ضفة نهر لينا، ألقىٰ دزرجينسكي واحدةً من قصائده بالبولندية. كان وجهه وصوته جميلين، لكن القصيدة كانت ركيكة بعض الشيء. لقد أثبتت حياة هذا الرجل أنها هي في حد ذاتها واحدة من أقسىٰ القصائد.

بعد وصولنا إلىٰ أوستكوت بفترة قصيرة، بدأت أساهم بمقالاتٍ لصحيفة إركوتسكية اسمها "فوستوتشنويي أوبوزرينيي" (النشرة الشرقية). كانت صحيفة شرعية محلية دشَّنها منفيون شعبيون قدامىٰ، لكنها وقعت أحيانًا تحت طائلة نفوذ الماركسيين. بدأت الكتابة كمراسل في القرية، وانتظرت أولىٰ مقالاتي بشغف. شجَّع المحرر إسهاماتي في الصحيفة، وسرعان ما بدأت أكتب في الأدب، كما في القضايا العامة أيضًا. فكرت ذات يوم في اسمٍ مستعارٍ لي، ففتحت القاموس الإيطالي واخترت أول كلمة وقعت عيني عليها: "ترياق – Antid Oto". وقَّعت مقالاتي لعدة سنوات بهذا الاسم، وشرحت لأصدقائي ببعض الدعابة أن ما أريده هو حقن "الترياق" الماركسي

في الصحف الشرعية. وبعد فترة، قفز أجري فجأة من كوبكين للسطر الواحد إلىٰ أربع كوبكات. كان هذا أفضل دليلٍ علىٰ النجاح. كتبت عن الفلاحين، وعن المؤلفين الكلاسيكيين الروس، وعن إبسن وهوبتمان ونيتشة ودي موباسان وأندرييف وجوركي. كنت أقضي ليلةً تلو الأخرىٰ أنقش مخطوطاتي محاولًا التوصُّل إلىٰ الفكرة أو التعبيرات الأنسب لها. أصبحت كاتبًا.

منذ عام 1896، حين حاولت تحاشي الأفكار الثورية، والعام التالي حين حاولت تجنب المبادئ الماركسية أيضًا، حتىٰ برغم أنني كنت لا أزال أقدم عملًا ثوريًا، إلا أنني قد ذهبت إلىٰ آفاقٍ بعيدة. كانت الماركسية، في الوقت الذي قضيته في المنفىٰ، هي بالأساس التربة التي نبتت عليها فلسفتي. كنت أحاول خلال منفاي التفكير فيما يُطلق عليه المعضلات "الأبدية" للحياة: الحب والموت والصداقة والتفاؤل والتشاؤم، وهكذا، من وجهة النظر الجديدة التي اكتسبتها. وفي فترات زمنية مختلفة، وكذلك في محيطات اجتماعية متنوعة، يحب المرء ويكره ويأمل بأشكالٍ متباينة. وتمامًا كما تغذي الشجرة أوراقها وأزهارها وثمارها بما تستخلصه من التربة بواسطة جذورها، يستمد الفرد غذاء وجدانه وأفكاره، حتىٰ تلك الأفكار الأكثر "جلالة"، من الجذور الاقتصادية للمجتمع. تمكَّنت في مقالاتي الأدبية خلال تلك الفترة من تطوير موضوعٍ واحدٍ فقط؛ ألا وهو العلاقات بين الفرد والمجتمع، ونُشِرَت هذه المقالات منذ وقتٍ ليس

ببعيد في مجلدٍ واحد. وحين ألقيت نظرةً علىٰ هذه المقالات مُجمَّعةً في المجلد، أدركت أنه، رغم أنها يمكن أن تُكتَب علىٰ نحو مختلفٍ اليوم، يجب الحفاظ علىٰ موضوعها الأساسي دون تغيير.

في ذلك الوقت، كانت الماركسية الروسية الرسمية، أو "الشرعية" كما يُطلق عليها، واقعةً في براثن أزمة عنيفة. يمكنني أن أرىٰ الآن، من خلال الخبرة الحقيقية نفسها، كيف خلقت المتطلبات الاجتماعية الجديدة لنفسها، بكل صفاقة، كسوةً فكرية من عباءة نظرية كان المقصود بها أمرٌ آخر. وحتىٰ تسعينيات القرن التاسع عشر، كان القسم الأكبر من الإنتلجنسيا الروسية راكدًا في النظرية الشعبوية برفضه التطور الرأسمالي وإضفاء المثالية علىٰ الملكية الفلاحية المشاعية للأرض.

كانت الرأسمالية في تلك الأثناء تتعهد للإنتلجنسيا بكل أشكال المباركات المادية والتأثير السياسي. وبنصل الماركسية الحاد قطعت الإنتلجنسيا البرجوازية الحبل السُرّي للشعبوية وخلَّصت نفسها من ماضٍ مقيت. هذا هو ما أدىٰ إلىٰ الانتشار السريع والظافر للماركسية خلال السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر.

لكن سرعان ما بدأت الماركسية تزعج الإنتلجنسيا نفسها بعد أن أنجزت ذلك. كان ديالكتيك الماركسية ملائمًا لهم في تفسير التقدم في أساليب التطور الرأسمالي، لكن أن يؤدي إلىٰ الرفض الثوري للنظام الرأسمالي برمته، فهذا ما اعتبروه عائقًا في طريقهم عفا عليه الزمن. ومع نهاية القرن، في الوقت الذي كنت فيه في السجن والمنفىٰ، كانت

الإنتلجنسيا الروسية تخوض في مرحلة نقد الماركسية، فقبلت التبرير التاريخي للرأسمالية، وتراجعت عن رفضها للرأسمالية بالأساليب الثورية. وفي هذا الطريق الملتوي، كانت الإنتلجنسيا الشعبوية القديمة، بوجدانها البالي، تتحوَّل ببطء إلىٰ الليبرالية البرجوازية.

وجدت الانتقادات الأوروبية للماركسية آذانًا صاغية في روسيا، بغض النظر عن نوعية هذه الانتقادات. ويكفي أن نشير إلىٰ أن إدوارد برنشتاين صار واحدًا من أكثر الكُتَّاب شعبية في إرشاد الطريق من الاشتراكية إلىٰ الليبرالية. أطاحت الفلسفة المعيارية بالديالكتيك المادي، معلنةً انتصارها بالمزيد والمزيد من الصياح. فيما كان الرأي العام البرجوازي، في مراحله التكوينية، في حاجة إلىٰ مفاهيم جامدة، ليحمي نفسه ليس فقط من طغيان البيروقراطية المستبدة، بل أيضًا من الثورية الجامحة للجماهير. ورغم أن كانط قد أطاح بهيجل، إلا أنه لم يصمد كثيرًا. وكذلك الليبرالية الروسية التي، رغم مجيئها المتأخر، استقام عودها منذ البداية علىٰ تربةٍ بركانية. إن الضرورة الحتمية قد منحتها أمانًا مجردًا للغاية لا يُعتمد عليه. كان بالتالي من الضروري اتباع تدابير أقوىٰ لمقاومة الجماهير الثورية. تحوَّل المثاليون المتعالون إلىٰ مسيحيين أرثوذكس. بدأ أستاذ الاقتصاد السياسي، بولجاكوف، بنقد الماركسية في المسألة الزراعية، ثم تحوَّل إلىٰ المثالية، وانتهىٰ به الحال قسيسًا. لكنه لم يصل إلىٰ هذه المحطة الأخيرة إلا بعد بضع سنين.

في السنوات الأولىٰ من القرْن العشرين كانت روسيا معملًا هائلًا للفكر الاجتماعي. وقد ساعدني عملي حول تاريخ الماسونية علىٰ إدراك المكانة الثانوية للأفكار في العملية التاريخية. كنت أردد خلف لابريولا: "الأفكار لا تسقط من السماء". ثم انتقل الأمر من مجال الدراسة النظرية المجرَّدة إلىٰ مسألة اختيار المسار السياسي. كما ساهمت المراجعات، التي كانت تجري علىٰ الماركسية في كل الاتجاهات، في بلورة عقلي وصقل أسلحتي، تمامًا كما فعلت مع الكثيرين غيري من الشبيبة الماركسيين. لقد كنَّا في حاجة إلىٰ الماركسية، ليس فقط لتخليص أنفسنا من الشعبوية التي مسحت بيدها برفقٍ علىٰ عقولنا، لكن أيضًا، في الحقيقة، لنشن حربًا ضروسًا لا هوادة فيها ضد الرأسمالية علىٰ أرضها. هذه الصراعات ضد المراجعين قد شدَّت عودنا سياسيًا، كما فعلت نفس الأمر تمامًا علىٰ المستوىٰ النظري. أصبحنا ثوريين بروليتاريين بحق.

خلال نفس الفترة، واجهنا الكثير من الانتقادات من علىٰ يسارنا. وفي واحدة من مستعمرات الشمال (فيلويسك علىٰ ما أتذكر) كان يعيش أحد المنفيين يُدعىٰ ماخايسكي، الذي سرعان ما صار اسمه شائعًا بين الجميع. بدأ ماخايفسكي كناقدٍ للانتهازية الاشتراكية الديمقراطية، وخصَّص مقالته المنضحة الأولىٰ لفضح انتهازية الاشتراكية الديمقراطية الألمانية، وبالفعل لاقت هذه المقالة رواجًا واستحسانًا في أوساط المنفيين. أما مقالته الثانية، فوجهها لنقد النظام

الاقتصادي عند ماركس، وختمها باستنتاجه المدهش أن الاشتراكية ما هي إلا نظام اجتماعي قائم علىٰ استغلال العمال بواسطة المثقفين المحترفين. دافع ماخايفسكي في مقالته الثالثة، بروح الفوضوية النقابية، عن رفض النضال السياسي. ولأشهرٍ عديدة، حظت أعمال ماخايفسكي بالاهتمام الأول لمنفيي لينا. قدمت لي هذه المقالات لقاحًا ناجعًا ضد الفوضوية، تلك النظرية الكاسحة في استنكارها الخطابي، لكن الجبانة والهامدة كالجثة في استنتاجها العملي.

قابلت للمرة الأولىٰ علىٰ الإطلاق فوضويًا حيًا في السجن الانتقالي في موسكو. كان مُدرِّسًا قرويًا يُدعىٰ لوزين، رجلًا متحفِّظًا صموتًا، بل قاسيًا حتىٰ. في السجن كان دائمًا يفضِّل البقاء مع الجنائيين، يستمع باهتمام لقصص سرقاتهم وقتلهم، فيما كان يتجنب النقاشات النظرية. لكنني ضغطت عليه ذات مرة ليخبرني كيف يمكن تنظيم خطوط السكك الحديدية في مجتمعات الإدارة الذاتية، فأجاب: "لماذا بحق الجحيم أريد من الأصل أن أسافر بالسكك الحديدية في ظل الفوضوية؟". كانت الإجابة كافية بالنسبة لي. حاول لوزين كسب العمال إلىٰ جانبه، واندلعت بيننا في ذلك حربٌ شعواء لم تخل من العداوة:

قطعنا الرحلة إلىٰ سيبيريا سويًا، وخلال فيضان نهر لينا قرر لوزين أن يعبره بقاربٍ. لم يكن الرجل رصينًا، وتحداني أن أشاركه هذا الأمر، فوافقت. كانت الحيوانات الميتة تطفو علىٰ سطح النهر الهائج، وكذلك

قطعٌ من الأحطاب السائبة. كانت هناك الكثير من الدوَّامات. عبرنا بسلام، لكن بالطبع ليس من دون لحظات خطيرة. امتدحني لوزين شفهيًا واصفًا إياي بـ"رفيق جيد"، أو شيءٍ من هذا القبيل، وصرنا أكثر ودًا فيما بيننا. إلا أنه قد نُقِلَ بعد ذلك بوقتٍ قصير إلىٰ مكانٍ أبعد في الشمال. وبعد عدة أشهر، طَعَنَ رئيس الشرطة بسكينٍ، لكن الجرح لم يكن غائرًا. وفي المحاكمة أعلن لوزين أن ما مِن شيءٍ شخصي ضد رئيس الشرطة، لكنه أراد من خلاله أن يضرب استبداد الدولة. ومن ثم حُكِمَ عليه بالأشغال الشاقة.

وبينما كانت النقاشات الساخنة تغلي في مستعمرات المنفىٰ النائية التي تكسوها الثلوج – نقاشات عن أمورٍ مثل تمايز الفلاحين الروس، والنقابات الإنجليزية، والعلاقة بين الضرورة الحتمية ومصالح الطبقة العاملة، وبين الماركسية والداروينية – اندلع صراعٌ من نوعٍ خاص في الأوساط الحكومية. وفي فبراير 1901، عَزَلَ المجمع المقدس ليو تولستوي.

صدر المرسوم في جميع الصحف معلنًا اتهام تولستوي بست جرائم: "1– رَفَضَ الرب الحي ومجَّد الثالوث المقدَّس. 2– أنكر كون المسيح الرب الإنسان الذي نهض من الموت. 3– أنكر العذرية والحبل بلا دنس الخطيئة قبل وبعد الميلاد. 4– لم يعترف بالحياة بعد الموت والجزاء علىٰ الخطايا. 5– أنكر إحسان الروح القُدُس. 6– سَخَرَ من سر القربان المقدَّس". كان المطران ذو اللحية الرمادية

بوبيدونوستزيف، والمطارنة الذين تزعمهم، والركائز الأساسية في الدولة الذين كانوا ينظرون إلينا نحن الثوريين كأنصاف مجانين متطرفين، إن لم نقل مجرمين - أما هم فكانوا ينظرون إلىٰ أنفسهم باعتبارهم الممثلين الشرعيين للفكر الرصين مرتكزين علىٰ أساسات الخبرة التاريخية للبشرية - كان هؤلاء هم من طالبوا هذا الفنان الواقعي العظيم بالإيمان بالحبل بلا دنس الخطيئة وبالروح القُدُس. كنَّا نقرأ قائمة "هرطقات" تولستوي مرة تلو الأخرىٰ، بنفس الاندهاش في كل مرة، ونقول لأنفسنا: كلا، نحن من نرتكز علىٰ الخبرة التاريخية للبشرية، نحن من نمثل المستقبل، أما هؤلاء الرجال الذين يقبعون علىٰ القمة فهم محض مجرمين، بل حتىٰ مجانين أيضًا. كنّا واثقين من أننا سنخرج بأفضل ما في هذه المصحَّة العقلية.

كان الهيكل القديم للدولة يتصدَّع في أعمدته الأساسية، فيما كان الطلاب هم زعماء النضال بنفاذ صبرهم الذي دفعهم لاتباع طرائق الإرهاب. وبعد عمليات الاغتيال التي نفذها كاربوفيتش وبالماشوف[15]، نهض المنفيون كما لو كانت أجراس الإنذار قد أفزعتهم. بدأت حينها الجدالات حول أساليب الإرهاب، وبعد بعض الترددات الفردية حسم الماركسيون من المنفيون موقفهم ضد الإرهاب. كنَّا نقول أن كيمياء مواد

---

[15] - في 1902، أطلق كاربوفيتش النار على وزير التعليم بوجوليبوف، بينما أطلق بالماشوف النار على وزير الداخلية.

التفجير لا يمكن أن تحل محل الحركة الجماهيرية. قد يفني الأفراد أنفسهم في نضالٍ بطولي، لكن هذا لن يُنهِض الطبقة العاملة إلىٰ الفعل المباشر، ومهمتنا ليست اغتيال وزراء القيصر بل الإطاحة الثورية بالقيصرية. ارتسم في هذه الجدالات الخط الفاصل بين الاشتراكيين الديمقراطيين والثوريين الاشتراكيين. وبينما تبلورت رؤاي النظرية في السجن، تعزَّزت عزيمتي السياسية في المنفىٰ.

مرَّ عامان علىٰ هذا النحو، وجرت الكثير من المياه في النهر في سان بطرسبورج وموسكو ووارسو، والحركة التي بدأت سرًا صارت تتوغل في شوارع المدن. في بعض المقاطعات، بدأ الفلاحون في التحرك، وانبثقت المنظمات الاشتراكية الديمقراطية حتىٰ في سيبيريا علىٰ طول خط السكك الحديدية السيبيرية. كانت هذه المنظمات علىٰ صلةٍ بي، وكتبت الكثير من التعليقات والأوراق لهم. وبعد ثلاث سنوات، عدت مجددًا إلىٰ صفوف النضال النشط.

لم يكن المنفيون يطيقون البقاء في أماكن الاحتجاز، وبدأت حملات هروب واسعة. كان علينا الانتظام في دورة تناوب فيما بيننا. وتقريبًا في كل قرية كان هناك فلاحون شبيبة تأثروا بالجيل الأقدم من الثوريين، كانوا يهرِّبون "السياسيين" سرًا، واحدًا بعد الآخر، في قوارب وزوارق وعربات بضاعة أو علىٰ زلّاجات. كانت الشرطة في سيبيريا قليلة الحيلة مثلنا، والاتساع الشاسع للبلاد كان لنا حليفًا بقدر ما كان

عدوًا. كان الأمر شديد الصعوبة أن يسلك المرء طريقًا للهروب دون أن يغرق في النهر أو يتجمَّد حتىٰ الموت في الغابات العتيقة.

انتشرت الحركة الثورية إلىٰ أرجاءٍ بعيدة، لكن كانت تفتقر إلىٰ الوحدة، فكل مقاطعة وكل مدينة كانت تخوض نضالها الخاص، أما القيصرية فقد كان لديها اليد العليا بوحدة وتماسك فعلها. صارت فكرة ضرورة تأسيس حزبٍ مركزي تختلج في عقول الكثير من الثوريين، وقد خصَّصت مقالة مطوَّلة لذلك، وأُرسَلَت نسخٌ منها للتوزيع في مستعمرات المنفيين، ونوقشت بشغف ونهم شديدين. كان يبدو لنا أن زملاءنا الاشتراكيين الديمقراطيين في روسيا وفي الخارج لم يلتفتوا بما فيه الكفاية لهذه القضية، لكنهم في الحقيقة كانوا يفكرون فيها ويتخذون خطواتٍ في سبيلها. وفي صيف 1902، تلقيت عددًا من الكتب، عبر طريق إركوتسك، من ضمنها آخر الإصدارات من الخارج مطبوعة علىٰ ورقٍ ناعمٍ للغاية. علمنا من خلال هذه الإصدارات أن هناك صحيفة ماركسية تصدر بالخارج، وهي الإيسكرا، تضع علىٰ عاتقها مهمة تأسيس منظمة مركزية للثوريين المحترفين يرتبطون فيها ببعضهم بانضباطٍ حديدي في الفعل. وصل إلينا أيضًا كتاب لينين الصادر في جينيف بعنوان "ما العمل؟" الذي خُصِّصَ حصريًا لتناول نفس القضية. بدت وقتها مقالاتي وكتاباتي ونداءاتي إلىٰ الاتحاد السيبيري علىٰ الفور وكأنها محلية وذات شأن

أقل في مقابل المهمة الهائلة الجديدة التي تواجهنا. كان عليّ أن ألتفت إلىٰ مجال آخر للنشاط. كان عليّ أن أهرب من المنفىٰ.

في ذلك الوقت كانت لدينا طفلتان، الصغرىٰ في شهرها الرابع. لم تكن الحياة في مثل هذه الظروف في سيبيريا سهلة علىٰ الإطلاق، وكان هروبي ليضع عبئًا مزدوجًا علىٰ كاهل أليكساندرا لفوفنا. لكنها علَّقت علىٰ ذلك بأربع كلمات: "يجب أن تفعل ذلك". لقد غطىٰ الواجب تجاه الثورة كل شيءٍ آخر بالنسبة لها، بالأخص الاعتبارات الشخصية. كانت هي أول من طرح فكرة هروبي حين أدركت هذه المهام الكبرىٰ الجديدة. لقد محت كل شكوكي.

لأيام عديدة بعد هروبي، كانت تخفي غيابي عن الشرطة. ومن الخارج، كنت بالكاد أتراسل معها. ثم أُرسِلت مرةً ثانية إلىٰ المنفىٰ، وبعد ذلك صرنا نتقابل علىٰ فترات زمنية متباعدة. فرَّقت الحياة بيننا، لكنها لم تمزِّق صداقتنا ولا أواصرنا الفكرية.

الفصل العاشر

هروبي الأول

كان الخريف يزحف إلينا، حاملًا معه وعورة الطرق، وللإسراع في هروبي قررنا ضرب عصفورين بحجرٍ واحد. وافق صديق فلاح أن يؤمِّن لي طريق الهروب من فيرخولينسك مع امرأة تُدعىٰ إ. ج. كانت تترجم أعمال ماركس. وفي الحقول، أخفانا الرجل ليلًا في عربته تحت حصيرةٍ وكومةٍ من القش، وكأننا مجرد حمولة بضائع. ولدرء الشبهات، تركنا دُمية في سريري كرجلٍ مريض لبضعة أيام. كان الرجل يُسرِع بالعربة في الصحاري السيبيرية حتىٰ بلغ حوالي 20 كيلومتر في الساعة. كنت أحصي مطبات الطريق ونتوءاته التي تؤلم ظهري بأنَّات مرافِقتي. وخلال الرحلة تبدلت الأحصنة مرتين. وقبل أن نصل إلىٰ السكك الحديدية، افترقت عن مرافِقتي حتىٰ يتحاشىٰ كلٌ منَّا ما يمكن أن يسببه الآخر من مصائب. وصلت إلىٰ عربة السكك الحديدية بأمان. وهناك أعطاني صديقٌ لي من إركوتسك حقيبة سفر بها قمصان وروابط عنق وغيرها من لوازم التحضر. وفي يدي، حملت "الإلياذة" في سداسية جرايديتش الروسية، أما في جيبي، فاحتفظت بجواز سفرٍ باسم "تروتسكي"، ذلك الاسم الذي كتبته عشوائيًا، دون حتىٰ أن أتخيَّل أنه سيلازمني بقية حياتي. اتبعت الخط السيبيري نحو الشمال، وسمحت لي شرطة المحطة بالعبور دون أن يسترعىٰ انتباههم أي شيء.

وفي المحطات الكثيرة طيلة الطريق، كانت نسوةٌ سيبيريات يبعن الدجاج المشوي ولحم الخنزير وزجاجات اللبن وحزمًا من الخبز. كانت كل محطة بمثابة معرضٍ للمنتجات السيبيرية. وخلال الرحلة كانت العربة تعج بالركاب الذين يشربون الشاي ويأكلون الكعك السيبيري الرخيص. كنت أقرأ الإلياذة، وأحلم بالحياة في الخارج. جرت عملية الهروب بسلاسةٍ وهدوء دون أي إغراء رومانسي، وذابت إلىٰ لا شيء سوىٰ شربٍ لا يتوقف لشايٍ لا ينفذ.

توقفت عند سمارا، حيث تمركزت هيئة تحرير الإيسكرا الداخلية في روسيا، متمايزةً عن هيئة التحرير في المهجر. كان كلير يترأس هيئة التحرير، وكان هذا هو الاسم الحركي الذي اتخذه المهندس كرجيجانوفسكي، الرئيس الحالي للجنة الدولة للتخطيط. كان هو وزوجته صديقان للينين، وكانا قد تعاونا معه عن قرب في النشاط الاشتراكي الديمقراطي في سان بطرسبورج في سنوات 1894 – 1895، وفي المنفىٰ السيبيري. وبعد هزيمة ثورة 1905، انسحب كلير، مع آلاف آخرين من الثوريين، من الحزب، وكمهندس احتل مكانة هامة في العالم الصناعي. أما الثوريون الذين استمروا سرًا في العمل، فكانوا دائمًا يشكون رفضه تقديم العون لهم، حتىٰ ولو بقدر تعاون بعض الليبراليين. وبعد فترة تتراوح بين عشر إلىٰ اثني عشرة سنة، انضم كرجيجانوفسكي مجددًا للحزب بعد أن اعتلىٰ السلطة.

كان هذا هو المسار الذي اتخذه الكثير من المثقفين الذين يشكّلون اليوم العمود الفقري لحكم ستالين.

في سمارا، انضممت رسميًا إلىٰ منظمة الإيسكرا باسم "القلم"، الذي أطلقه عليّ كلير إشادةً منه بنجاحاتي كصحفي في سيبيريا. كان من شأن هذه المنظمة أن تبني الحزب مرة أخرىٰ من جديد. لكن المؤتمر الأول للحزب، الذي عُقِدَ في مينسك عام 1898، قد فشل في تأسيس حزبٍ مركزي، فقد وأدت الاعتقالات الواسعة المنظمة الوليدة في مهدها، في حين لم تكن بعد قد تجذرت بما فيه الكفاية في أنحاء البلاد. بعد ذلك، استمرت الحركة الثورية في النمو في مراكز مبعثرة، لتُبقي علىٰ طابعها الإقليمي. وعلىٰ الفور، بات مستواها الفكري يتدهور، إذ عمد الاشتراكيون الديمقراطيون، في محاولاتهم لكسب الجماهير، إلىٰ دفع شعاراتهم السياسية إلىٰ الوراء، وهكذا تطورت المدرسة "الاقتصادوية" في السياسة الاشتراكية الديمقراطية. واكتسبت هذه المدرسة قوتها من الازدهار الصناعي وتصاعد الإضرابات العمالية. ومع اقتراب نهاية القرن، تطورت أزمة عميقة فاقمت التناقضات في كافة أرجاء البلاد، وأعطت للحركة السياسية دفعة قوية، فشنَّت الإيسكرا حملة شرسة ضد "الاقتصادويين" الإقليميين، ودافعت عن ضرورة تأسيس حزبٍ ثوريٍ مركزي. كانت هيئة تحرير الإيسكرا قد تأسست بالخارج، لتؤكد المنظمة، التي اختير أعضاؤها بعناية من بين من يُطلق عليهم الثوريين "المحترفين"، علىٰ

ثباتها الأيديولوجي، ولتتماسك فيما بينها بالوحدة في النظرية والممارسة العملية على السواء. وفي نفس الوقت، كان أغلب أنصار الإيسكرا من الإنتلجنسيا الذين ناضلوا من أجل السيطرة على اللجان الاشتراكية الديمقراطية المحلية، ومن أجل مؤتمر حزبي يؤكد انتصار أفكار وممارسات الإيسكرا. كانت تلك هي الخطوط العريضة لمنظمة ثورية، تطورت وصُقِلَت، تقدمت وتراجعت، لتصبح شيئًا فشيئًا أكثر ارتباطًا بجماهير العمال، ولتطرح أمامهم مهامًا بعيدة المدى، ولتطيح بعد خمسة عشر عامًا بالبرجوازية وتتولى السلطة.

وبناءً على طلبٍ من منظمة سمارا، زرت خاركوف وبولتافا وكييف، لمقابلة عددٍ من الثوريين، الذين انضموا للإيسكرا بالفعل، أو الذين على وشك الانضمام. وحين عدت إلى سمارا، كنت قد أجريت فقط القليل من هذه المقابلات، فالاتصالات بالجنوب كانت لا تزال غير فعَّالة، وفي خاركوف كانت العناوين خاطئة، أما في بولتافا وجدت نفسي في حلقة وطنية محلية. بات واضحًا أن رحلة واحدة إلى المحافظات لا يمكن أن تنجز شيئًا، وبالتالي لابد من عملٍ دؤوبٍ في ذلك. وفي تلك الأثناء، ألحَّ عليّ لينين، الذي كان على تواصل حي مع مكتب سمارا، للتعجيل من رحيلي إلى الخارج. أما كلير، فأمدني بالمال اللازم للرحلة، والمعلومات الضرورية لعبور الحدود النمساوية بالقرب من كامينيتز بودولسك.

انطلقَ القطار من محطة سمارا حاملًا معه مغامراتٍ مسلية. ولتفادي شرطة المحطة مرة ثانية، قررت مغادرة القطار في آخر لحظة ممكنة. كان مقعدي محجوزًا لي، أما حقيبتي فقد أحضرها لعربة القطار طالبٌ يُدعىٰ سولوفيوف، وهو اليوم واحدٌ من رؤساء نقابة النفط. كنت أتمشىٰ ذهابًا وإيابًا بسلامٍ بعيدًا عن المحطة، مراقبًا الساعة، وحين سمعت الجرس الثاني، أدركت أنني قد تأخرت، فهرعت إلىٰ المحطة بأسرع ما يمكن. أما سولوفيوف، الذي انتظرني في عربة القطار كما وعد، والذي قفز من القطار بعد أن بدأ بالفعل في التحرك، فكان مُحاطًا بشرطة المحطة وبعض موظفيها. وصلت بسرعة بالغة متقطعَ الأنفاس، وبالطبع أثار هٰذا المشهد الانتباه، وهددت الشرطة باتخاذ إجراء ضد سولوفيوف، لكن انتهىٰ الأمر بنكاتٍ أخذوا يسخرون بها منَّا.

وصلت إلىٰ الحدود بدون أية مشاكل. وفي المحطة الأخيرة سألني شرطي عن جواز سفري، واندهشت بشدة حين رأىٰ أوراقي التي لفَّقتها بنفسي مضبوطة تمامًا. كان فتىٰ يدرس الألعاب الرياضية هو من هرَّبني عبر الحدود. صار هذا الفتىٰ الآن كيميائيًا بارزًا ورئيسًا لأحد المعاهد العلمية في الجمهورية السوفييتية. لكنه كان يفضِّل الثوريين الاشتراكيين في رؤاه السياسية، وحينما عَرِفَ أنني أنتمي لمنظمة الإيسكرا، قال لي: "هل تعرف أن العدد الأخير من الإيسكرا نشر سجالاتٍ مخزية ضد الإرهاب؟". كنت علىٰ وشك أن أبدأ نقاشًا

نظريًا معه حين بدا عليه انفعالٌ مفرط، قائلًا: "لن أعبر بك الحدود". أذهلني قوله هذا، فلم أكن أتوقعه علىٰ الإطلاق، إلا أنه كان قولًا مشروعًا من جانبه. وبعد خمسة عشر عامًا، كان علينا النضال ضد سلطة الثوريين الاشتراكيين بالسلاح في أيدينا. لكن في ذلك الوقت، لم أكن مهتمًا بالأبعاد التاريخية. جادلته بأن من غير المنصف أن يعاقبني علىٰ مقالة مكتوبة في الإيسكرا، وصارحته في النهاية بأنني لن أتزحزح من مكاني إلا ومعي دليلٌ يرشدني الطريق، فتراجع الفتىٰ: "حسنًا، سأساعدك. لكن اخبرهم هناك أن هذه آخر مرة".

أوصلني مرافقي للمبيت في منزل تاجر مسافر، وكان من المفترض أن يعود صاحب المنزل في اليوم التالي. أتذكر أن كان عليّ دخول المنزل المغلق من النافذة. وفي الليل، استيقظت فجأة علىٰ وميض ضوءٍ، حيث انحنىٰ رجلٌ يرتدي قبعة سوداء مستديرة ناحيتي، ممسكًا شمعة في يدٍ، وعصا في الأخرىٰ. كان ظله الهائل يصل إلىٰ السقف زاحفًا نحوي. سألته بسخطٍ: "من أنت؟"، فقال: "يا سلام! يرقد في سريري ويسألني من أنا!". كان هذا هو صاحب المنزل. حاولت أن أشرح أنه ليس من المفترض أن يعود حتىٰ يوم غد، لكن محاولتي هذه لم تترك أي انطباع لديه. فرد سريعًا: "أعرف متىٰ يُفترض بي أن أعود". ازداد الموقف تعقيدًا. ثم استطرد: "فهمت الآن. هذه واحدة من نكات أليكساندر. لكنني سأتكلم معه في ذلك غدًا". انسجمت تمامًا مع هذه الفكرة بأن سبب المشكلة هو أليكساندر الغائب عنَّا

الآن، ثم قضيت الليلة مع التاجر صاحب المنزل الذي قدَّم لي الشاي بلطفٍ وسماحة.

وفي صباح اليوم التالي، جاء طالب الألعاب الرياضية بعد وقتٍ عصيبٍ شرحت فيه كل شيءٍ للتاجر الذي يستضيفني، فأوصلني الطالب إلىٰ المهرِّبين في قرية بارودي. قضيت النهار في اسطبل، وقدَّم لي الفلاح الأوكراني صاحب الاسطبل البطيخ. وفي الليل، قادني الرجل في عاصفةٍ من المطر عبر الحدود. قضينا الليل نخترق الظلام، تتعثر خطانا بين الفينة والأخرىٰ. ثم قال لي الرجل: "الآن اصعد علىٰ ظهري، المياه عالية". اعترضت علىٰ ذلك، فأصرَّ عليّ قائلًا: "لا يمكن أن تظهر علىٰ الناحية الأخرىٰ مبتلًا هكذا"، فأكملت رحلتي علىٰ ظهر الرجل، إلا أن ذلك لم يقي حذائي من الامتلاء بالمياه.

وبعد ربع ساعة تقريبًا، كنَّا نجفِّف أنفسنا في كوخٍ يهودي علىٰ الناحية النمساوية من بارودي. قال لي بعض الأشخاص هناك أن دليلي قد خاض بي الطريق وسط المياه عمدًا ليطالبني بالمزيد من المال. لكن هذا الفلاح الأوكراني نفسه قد حذَّرني لدىٰ مغادرته، بطريقةٍ ودية، من اليهود، الذين عادةً ما يريدون منك ثلاثة مرات أكثر مما تدين لهم. وبينما كانت أموالي تنفذ بسرعة، كان لا يزال أمامي حوالي ثمانية كيلومترات حتىٰ أصل إلىٰ محطة القطار. وعلىٰ طول كيلومتر أو اثنين علىٰ الحدود حتىٰ نصل إلىٰ الطريق الرئيسي، علىٰ أرضٍ افترشتها أوحال المطر، لم يكن السير صعبًا فقط، بل خطيرًا

أيضًا، وقد كنت أستُقل عربةً صغيرة ذات عجلتين مع سائق يهودي عجوز.

همهم السائق قائلًا: "يومًا ما سأفقد حياتي في هذا العمل".

فسألته: "لماذا؟".

فرد: "لأن الجنود حين يصيحون ولا ترد عليهم، يطلقون عليك النار. يمكنك أن ترىٰ مشاعلهم هناك. لحسن الحظ هذه ليلة جيدة".

ليلة جيدة فعلًا! ظلامٌ خريفي دامس، ومطرٌ يهطل علىٰ وجوهنا بلا انقطاع، ووحلٌ يتناثر رذاذًا من حوافر الحصان. كنَّا نصعد تلة، فانزلقت عجلات العربة، وبينما الرجل العجوز يحاول استرضاء الحصان بهمسٍ أجش، غاصت العجلات في الوحل، ومالت العربة أكثر فأكثر، وفجأة انقلبت. كان وحل أكتوبر عميقًا باردًا، سقطت أرضًا فغاص نصف جسدي فيه. وفي محاولتي للنهوض، فقدت نظارتي. لكن الأمر الأكثر إيلامًا كان ذلك العويل المفزع الذي سمعناه إلىٰ جانبنا تمامًا فور سقوطنا، كانت صرخة يأسٍ تستجدي الغوث، نداءً غامضًا إلىٰ السماء. ولعل من المنافي للعقل، في تلك الليلة المعتمة الغارقة في الأوحال، الإفصاح عن صاحب ذلك الصوت الغامض، ذلك الصوت المعبِّر للغاية رغم كونه ليس بشريًا.

تمتم السائق يائسًا: "سيدمرنا معه. سيدمرنا معه".

سألته خائفًا حتىٰ من أن أتنفس: "من هو؟".

فرد: "إنه الديك، لعنة الله عليه، الديك الذي أعطتني إياه سيدتي لآخذه إلىٰ الحاخام لذبحه يوم السبت".

استمر الديك في الصياح بصرخاتٍ منتظمة، والسائق يقول: "سيدمرنا معه. المخفر علىٰ بُعد مائتي خطوة فقط، سيهرع الجنود إلينا في أية لحظة".

فهمست له بغضبٍ: "اخنقه".

"من؟ الديك؟ أين أجده أصلًا؟ لابد أنه عَلِقَ تحت شيءٍ ما".

زحفنا سويًا، نزيح الوحل من حولنا بأيدينا، والمطر يهطل علينا دون توقف. لعنّا الديك، ولعنّا مصيرنا الأسود. وأخيرًا، حرَّر الرجل العجوز ذلك الكائن البائس من تحت بطانيتي، فتوقف عن الصراخ. رفعنا العربة معًا، واستكملنا مسيرنا. وفي المحطة، قضيت ثلاثة ساعات كاملة أجفف وأنظف نفسي قبل وصول القطار.

وبعدما غيَّرت نقودي، اكتشفت أنها لن تكفي للوصول إلىٰ زيوريخ، حيث كان من المفترض أن أقدِّم نفسي إلىٰ أكسيلورد، فابتعت تذكرةً إلىٰ فيينا علىٰ أن أدبِّر أمري هناك لرحلة أخرىٰ إلىٰ مقصدي.

أكثرَ ما أدهشني في فيينا هو أنني، رغم دراستي الألمانية في المدرسة، لم أتمكَّن من فهم أحد قط. تعامل معي معظم العابرين بنفس القدر من الصعوبة، إلا أنني استطعت أخيرًا أن أخبر رجلًا يرتدي قبعةً حمراء أنني أريد الذهاب إلىٰ مكتب "أربيتر زيتونج" (جريدة العمال).

قرَّرت ألا أشرح أمري لأحدٍ أدنىٰ شأنًا من زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي، فيكتور أدلر نفسه، وأن أقول له أن مصلحة الثورة الروسية تتطلب تواجدي فورًا في زيوريخ. وافق الرجل علىٰ إرشادي الطريق إلىٰ هناك، فمشينا حوالي ساعة، ثم اكتشفنا أن مكتب الجريدة قد انتقل إلىٰ عنوانٍ آخر منذ عامين كاملين، فمشينا حوالي نصف ساعة أخرىٰ. أخبرنا الحاجب أن مواعيد الزيارة انتهت، في حين لم يكن لديّ أي نقود أدفعها للرجل الذي دلَّني علىٰ العنوان، كما كنت جوعانًا بشدة، والأهم من ذلك أن عليّ أن أصل إلىٰ زيوريخ. ثم جاء رجلٌ محترمٌ لا يبدو عليه الود نازلًا من أعلىٰ الدرج، فقدَّمت نفسي له باستفسارٍ عن أدلر.

أجابني الرجل بصرامة: "هل تعرف أي يومٍ نحن؟".

لم أكن أعرف فعلًا أي يومٍ كنَّا، فقد أسقطت حساب الزمن في القطار، وفي العربة، وفي منزل التاجر، وفي الاسطبل الأوكراني، وفي صراع منتصف الليل مع الديك.

فاستطرد الرجل قائلًا: "اليوم هو الأحد"، وحاول أن يتجاوزني عابرًا.

فقلت: "لا يهم. أريد أن أرىٰ أدلر".

وهنا رد عليّ الرجل وكأنه يلقي أوامره علىٰ مفرزةٍ من الجنود في معمعان حرب: "أقول لك أن الدكتور أدلر لا يمكن أن يقابل أحدًا أيام الأحد".

ازداد إصراري، فقلت: "لكن هناك شأنًا هامًا أريده فيه"، فرد: "حتىٰ وإن كان هذا الشأن أهم بعشر مرات، ألا تفهم؟ حتىٰ وإن كنت تحمل نبأ اغتيال قيصرك، هل تسمعني؟ أو أن ثورة اندلعت في بلدك، هل تسمعني؟ حتىٰ ذلك لا يمنحك الحق في خرق إجازة الدكتور أدلر يوم الأحد".

كان هذا هو فريتز أوستيرليتز، الرجل الذي قال هوجو عنه أنه إذا تحدث انفجر الكلام من فمه برقًا.

كنت قد بدأت أُعجب بصوته المدوي كالرعد، لكنه كان يقول هراءً؛ فمن غير المعقول أن تعلو إجازة الأحد علىٰ متطلبات الثورة. لذا قررت ألا أستسلم. لابد أن أصل إلىٰ زيوريخ. محررو الإيسكرا ينتظرونني هناك. وعلاوة علىٰ ذلك، فقد هربت من سيبيريا، وهذا بالتأكيد أمرٌ علىٰ قدرٍ من الأهمية. وأخيرًا، وقفت أسفل الدرج مانعًا الرجل المحترم الصارم من الخروج، وهكذا حصلت علىٰ ما أريد. أعطاني أوستيرليتز العنوان، فذهبت إلىٰ بيت أدلر مصطحبًا معي الدليل الذي أرشدني الطريق.

ظهر في استقبالي رجلٌ قصيرٌ، بانحناءة حادة في ظهره بحيث يكاد يكون أحدبًا، وعينين منتفختين متشبثتين بوجهٍ أتعبه الزمن. في ذلك الوقت، كانت انتخابات البرلمان تجري في فيينا، وكان أدلر في اليوم السابق قد ألقىٰ العديد من الخطب في أكثر من اجتماع، فيما قضىٰ ليلته يكتب عددًا من المقالات والتوجيهات. نما كل ذلك إلىٰ علمي قبل لقائه بربع ساعةٍ فقط من خلال زوجة ابنه.

قلت له: "معذرةً علىٰ إزعاج استراحتك يا دكتور".

فرد عليّ: "تفضل تفضل"، هكذا بحدةٍ واضحة، لكن بنبرةٍ لم تخفني، بل شجعتني. كنت أرىٰ الذكاء ينبعث من كل جعدةٍ في وجه هذا الرجل.

قلت: "أنا روسي".

فرد: "لا داعي لتخبرني ذلك، كان الوقت كافيًا لأخمِّن".

وبينما كان يدرسني بنظراتٍ سريعة، أخبرته بما دار علىٰ مدخل مكتب الجريدة.

فسارع قائلًا: "فعلًا؟ هل أخبروك بذلك؟ من يا ترىٰ؟ رجلٌ طويل؟ هل كان يصيح؟ آه، نعم، لابد أنه أوستيرليتز. دعك من هذا. إذا أتيت بأي أخبار عن ثورة في روسيا، تعال واطرق بابي في أي وقت، حتىٰ في الليل"، ثم نادىٰ فجأة: "كاتيا، كاتيا"، فجاءت زوجة ابنه الروسية، وقال: "الآن ينسجم حديثنا أفضل".

وهكذا ضمنت رحلتي إلىٰ زيوريخ.

الفصل الحادي عشر

هجرتي الأولى

|

وصلت من زيوريخ إلىٰ لندن عبر باريس في خريف العام 1902.

وذات يوم في صباحٍ باكر، في أكتوبر علىٰ ما أتذكر، استقللت سيارة أجرة لجأتُ فيها لكافَّة أنواع الفنون الإيمائية للتفاهم مع السائق الذي أوصلني لعنوانٍ مكتوب علىٰ قصاصة من الورق. كنت أقصد منزل لينين، وكان قد قيل لي لدىٰ مغادرتي زيوريخ أن أطرق الباب ثلاث مرات. فتحت ناديجدا كونستانتينوفا الباب الذي ربما أيقظها طرقي عليه. كان الوقت باكرًا، ولم يكن أي شخص يعتاد علىٰ السلوك المتحضر إلا لينتظر بهدوءٍ في المحطة لساعة أو اثنين بدلًا من طرق باب منزلٍ غريب في هذه الساعة المبكرة. لكنني كنت لا أزال خاضعًا للقوىٰ التي اضطرتني لهذه الرحلة من فيرخولينسك، فبنفس هذه الطريقة الهمجية كنت قد أزعجت أكسيلورد من قبل في زيوريخ، لكن تلك المرة كانت في منتصف الليل وليس فجرًا كما في حالة لينين. لم يكن لينين قد نهض من علىٰ السرير بعد، وقد اختلط التعبير الودود البادي علىٰ وجهه بدهشة مُبرَّرة في الحقيقة. هكذا كان لقاؤنا الأول

وهكذا كانت محادثتنا الأولىٰ. كان فلاديمير إيليتش وناديجدا كونستانتينوفا[16] ينتظراني بعد أن عرفا بقدومي من خطاب كلير.

وجَّها لي التحية قائلين: "القلم وصل". وعلىٰ الفور أفرغت لهما قائمة من انطباعاتي المتواضعة عن روسيا: التواصل مع الجنوب ضعيف، والعنوان السري للإيسكرا في خاركوف خاطئ، ومحررو "العامل الجنوبي" يعارضون الاندماج، ومهمة عبور الحدود النمساوية تقع بين يدي طالب ألعاب رياضية يرفض مساعدة أنصار الإيسكرا. لم تكن هذه الحقائق في حد ذاتها تبعث علىٰ الأمل، لكن كان هناك إيمان كافٍ للحفاظ علىٰ هذا الأمل لا أن نتخلىٰ عنه.

وفي صباح نفس اليوم، أو اليوم التالي، مشيت مع فلاديمير إيليتش في جولة في لندن. ومن فوق جسرٍ، أشار لينين إلىٰ ويست مينيستر وعدد آخر من البنايات المعروفة. لا أتذكر الكلمات التي قالها بالضبط، لكن كان مفاد كلامه: "هذا ويست مينيسترهم الشهير"، و"هم" هنا بالطبع لا تعود إلىٰ الإنجليز، بل إلىٰ الطبقات الحاكمة.

هذا التضمين، الذي لم يقصد لينين التشديد عليه، بل جاء من أعماق هذا الرجل، وانعكس في نبرة صوته أكثر من أي شيء، كان دائم الحضور، سواء كان يتحدَّث عن كنوز الحضارة، أو عن المنجزات

---

[16] - اسم لينين الحقيقي كان فلاديمير إيليتش أوليانوف، أما نيقولاي لينين فقد كان اسمه الحزبي الذي يوقع به مقالاته. ومنذ ثورة 1917، صار من المألوف مناداته باسم فلاديمير إيليتش لينين. أما زوجته فاسم عائلتها كروبسكايا.

الحديثة، أو عن ثروات الكتب في المتحف البريطاني، أو عن الصحف الأوروبية الكبرىٰ، أو حتىٰ، بعد سنواتٍ لاحقة، عن المدفعية الألمانية، أو عن الطيران الفرنسي. إنهم يعرفون هذا أو يملكون ذاك، أو صنعوا هذا أو أنجزوا ذاك؛ لكن أي أعداءٍ هؤلاء الذين يتحدَّث عنهم؟ في عينيه، كان الظل غير المرئي للطبقات الحاكمة يكسو علىٰ الدوام الثقافة الإنسانية كلها، ذلك الظل الذي رآه حقيقةً ماثلة كسطوع الشمس.

لم يكن المعمار اللندني يسترعي انتباهي في ذلك الوقت. فبعدما انتقلت جسديًّا من فيرخولينسك إلىٰ بلدان ما وراء الحدود الروسية التي كنت أراها للمرة الأولىٰ في حياتي، استوعبت فيينا وباريس ولندن بشكل تلخيصي موجز، أما تفاصيل مثل قصر ويست مينيستر فكانت بالنسبة لي زائدة عمَّا هو ضروري. لكن ليس لهذا أخذني لينين في هذه الجولة الطويلة، بل كان هدفه هو التعرف عليّ بشكل أفضل ولكي يوجِّه إليّ بعض الأسئلة. ويجدر القول هنا أن كانت مطالعته لي دقيقة للغاية.

أخبرته عن النقاشات السيبيرية، خاصةً حول قضية تأسيس منظمة مركزية، وعن مقالي في هذا الموضوع، وعن الجدالات العنيفة مع الشعبويين القدامىٰ في إركوتسك، حيث قضيت بضعة أسابيع، وعن المقالات الثلاثة لماخايسكي، وهكذا. عَرِفَ لينين جيدًا كيف يستمع لكلام الآخرين.

"وكيف أبليتم في القضايا النظرية؟".

أخبرته أننا درسنا كتابه "تطور الرأسمالية في روسيا"[17] في السجن الانتقالي في موسكو، وأننا عكفنا على "رأس المال" لماركس، لكن توقفنا عند المجلَّد الثاني. كنَّا ندرس السجال بين برنشتاين وكاوتسكي بعناية، مستندين إلى المراجع الأصلية، فيما لم يكن هناك أيٌّ من أنصار برنشتاين بيننا. أما في الفلسفة، فقد أدهشنا كتاب بوجدانوف الذي مزج فيه الماركسية بنظرية المعرفة التي أرساها إرنست ماخ وريتشارد أفيناريوس. في ذلك الوقت كان لينين يظن أن نظريات بوجدانوف صحيحة، "لكن بليخانوف كان يشجب فلسفة بوجدانوف باعتبارها مثالية مقنَّعة". وبعد سنواتٍ لاحقة، خصَّص لينين مجلَّدًا كبيرًا[18] لمناقشة ماخ وأفيناريوس، والانتقادات التي عرضها في هذا العمل جاءت مطابقة لما طرحه بليخانوف.

---

17 - صدر كتاب "تطور الرأسمالية في روسيا" للينين في العام 1899، ويشغل هذا الكتاب المجلد الثالث بأكمله (535 صفحة) من الأعمال الكاملة للينين باللغة الإنجليزية. أنجز لينين هذا الكتاب أثناء وقوعه في قبضة الشرطة، أولًا في السجن ثم في سيبيريا. واستخدم 229 مرجعًا بالروسية، علاوة على 38 مرجعًا بلغات أخرى، مثل الألمانية والفرنسية والإنجليزية. (المترجم)

18 - المقصود هنا كتاب "المادية والمذهب النقدي التجريبي" للينين عام 1908. خلال هذه الفترة، نشب صراعٌ داخل الحزب البلشفي (انضم بوجدانوف إلى البلاشفة عام 1904)، بعد رفض الجناح الذي تزعمه بوجدانوف المشاركة في انتخابات مجلس الدوما والعمل في النقابات. ومن بين الأسلحة النظرية التي استخدمها لينين في السجالات خلال هذا الصراع كان سلاح الفلسفة، فكتب هذا الكتاب. وعلى حد وصف الكاتب الاشتراكي الثوري البريطاني توني كليف، في الجزء الأول من ثلاثيته عن لينين، فقد "استخدم لينين الفلسفة ضد بوجدانوف ورفاقه ليس فقط لتسوية الاختلافات داخل الحزب... لكن أيضًا لأنه رأى في المثالية الفلسفية

حكيت له أيضًا خلال محادثتنا كيف أُعجبَ منفيو سيبيريا بشدة بالقدر الهائل من البيانات الإحصائية التي تناولها في كتابه عن الرأسمالية الروسية. فأجابني بخجلٍ: "حسنًا، لم يُنجز كل ذلك مرة واحدة كما تعرف". من الواضح إنه سَعِدَ بالرفاق الشباب الذين قدَّروا المجهود الكبير الذي بذله في مؤلفه الأول في الاقتصاد. ناقشنا عملي المستقبلي فقط في إطاره العام جدًّا. افترضنا أنني سأظل وقتًا طويلًا بالخارج، وأن أتعرَّف علىٰ الأدبيات الراهنة، وأن نتناقش في بقية الأمور لاحقًا. علىٰ أي حال، نويت العودة إلىٰ روسيا في وقتٍ لاحق، بشكل غير شرعي، لمتابعة العمل الثوري.

أخذتني ناديجدا كونستانتينوفا إلىٰ منزلٍ علىٰ مسافة بضع بنايات، حيث عاشت فيرا زاسوليتش ومارتوف وبلومنفيلد، ومسئول طباعة الإيسكرا، وهناك خصصوا غرفةً لي. وفقًا للعادة الإنجليزية تقع الغرف فوق بعضها في ترتيبٍ عمودي، وليس في نفس الطابق، تمامًا كما في روسيا، حيث تحتل مالكة المنزل الطابق الأرضي، ويعيش المستأجرون كلٌّ في غرفة فوق الأخرىٰ. كانت هناك أيضًا غرفة مشتركة شربنا فيها القهوة ودخنّا وخضنا نقاشاتٍ لا تنتهي. وبفضل

الكانطية الجديدة خطرًا يهدد بقاء الماركسية خلال فترة الردة الرجعية... إلا أن هذا الكتاب افتقر تمامًا إلى أي صلة بالواقع الحي (ويكفي هنا مقارنته بـ"المذكرات الفلسفية" التي نجدها في المجلد 38 من الأعمال الكاملة له باللغة الإنجليزية). ومن اللافت للنظر أن لينين لم يشر إلى هذا الكتاب في أي من أعماله اللاحقة، ولا حتى في مراسلاته الغزيرة خلال العام 1909، على عكس ما اعتاد عليه في كل كتاباته الأخرى". (المترجم)

زاسوليتش بشكل أساسي ثم مارتوف، كانت هذه الغرفة دائمًا في حالة من الفوضىٰ العارمة، وقد وصفها بليخانوف بعد زيارته الأولىٰ لها أنها كـ"الوكر".

كان هذا هو الفصل الأول من الفترة مكوثي الوجيزة في لندن. أخذت أدرس أعداد الإيسكرا ومجلة زاريا، اللتين صدرا من نفس المكاتب. كانت تلك دوريات مذهلة جمعت بين العمق العلمي والشغف الثوري. كنت في الحقيقة مُغرمًا بالإيسكرا، وشعرت بالخجل من نفسي من تجاهلي السابق للإيسكرا محاولًا تجاوزها. شرعت بعد ذلك بفترة قصيرة في الكتابة للإيسكرا؛ تعليقاتٍ قصيرة في بادئ الأمر، ثم مقالات سياسية وافتتاحيات حتىٰ.

في ذلك الوقت، كنت قد ألقيت محاضرة في وايت تشابل، حيث خضت نزاعًا فكريًا مع بطريرك المهاجرين الروس تشايكوفسكي، والفوضوي تشيركيزوف، ورجلٍ عجوزٍ آخر. كنت في الحقيقة مذهولًا من الجدالات الطفولية التي ساقها هؤلاء الشيوخ الأفاضل في محاولاتهم لضرب الماركسية. أتذكر أنني عدت إلىٰ المنزل وكأنني أسبح في الهواء. وكان لندني عجوز يُدعىٰ أليكسييف هو وسيطي في التعامل مع وايت تشابل، ومع العالم الخارجي بشكل عام. كان الرجل مهاجرًا ماركسيًا لصيق الصلة بمحرري الإيسكرا. بدأ يعرِّفني بخفايا وألغاز الحياة الإنجليزية، وبشكل عام كان هو مصدري في كل شيء. كان يتحدَّث عن لينين باحترامٍ بالغ، فقال لي ذات مرة: "أعتقد

أن لينين أهم للثورة من بليخانوف". لم أذكر ذلك للينين بالطبع، لكنني قلته لمارتوف، فلم يصدر منه أي تعليق.

وفي يوم أحدٍ، ذهبت مع لينين وكروبسكايا لاجتماع اشتراكي ديمقراطي في كنيسة، حيث تناوبَت الخطب مع تلاوة التراتيل. كان المتحدث الرئيسي ملحِّنًا عاد لتوه من أستراليا. أخذ يتحدَّث عن الثورة الاجتماعية، ثم نهض الجميع وغنوا "يا أيها الرب القدير، لا تدع في الأرض المزيد من الملوك والأثرياء". لم أصدق عيني ولا أذني. وعندما خرجنا من الكنيسة، قال لينين: "هناك الكثير من العناصر الثورية والاشتراكية في أوساط البروليتاريا الإنجليزية، لكنهم ممتزجين بالأفكار المحافظة والدين والتحيُّزات الأخرىٰ، وغير قادرين علىٰ تجاوز تلك الأمور والتوحُّد".

وبعد حضور اجتماع الكنيسة، تناولنا الغداء في مطبخٍ صغير في شقة من غرفتين. مازحني أصدقائي كالعادة بشأن معرفتي طريق المنزل، إذ كنت سيئًا في تمييز الشوارع، وبنزوعي المعتاد للتفكير المنظَّم، أطلقت علىٰ هذا اسم "البلاهة الطوبوغرافية"[19]. لاحقًا صرت أبلي حسنًا في هذا الصدد، لكن هذا التحسُّن لم يكن إلا بمشقة بالغة.

---

[19] – الطوبوغرافيا: هي علم دراسة وبيان الملامح العامة لسطح الأرض ووصفها وتمثيلها على خرائط. (المترجم)

كانت معرفتي المتواضعة باللغة الإنجليزية، التي اكتسبتها في سجن أوديسا، قد انتعشت قليلًا خلال بقائي في لندن. كنت منغمسًا تمامًا في الشئون الروسية. وبينما لم تجذب الماركسية البريطانية اهتمامي، كان المركز الفكري للاشتراكية الديمقراطية في ذلك الوقت هو ألمانيا، حيث تابعنا عن كثب الصراع الجاري آنذاك بين الماركسيين "الأرثوذكسيين" و"المراجعين".

وفي لندن، كما في جينيف لاحقًا، كنت أقابل زاسوليتش ومارتوف أكثر كثيرًا من لينين. وحيث أننا عشنا في نفس المنزل في لندن، وتناولنا الطعام في نفس المطاعم في جينيف، كنت ألقىٰ زاسوليتش ومارتوف أكثر من مرة في اليوم الواحد، بينما كان لينين يعيش حياة ربّ الأسرة، وكل لقاءٍ معه، بجانب الاجتماعات الرسمية، لم يكن إلا حدثًا عابرًا. لم تكن العادات البوهيمية التي احتلت شأنًا كبيرًا في حياة مارتوف مألوفة لدىٰ لينين. كان يدرك جيدًا أن الوقت، سواء كان نسبيًّا أو مطلقًا، هو أعظم هبة. كان يقضي قدرًا كبيرًا من الوقت في مكتبة المتحف البريطاني، حيث يتابع دراساته النظرية ويكتب مقالاته للجريدة. وبمساعدته، سُمِحَ لي بدخول هذا الحرم أيضًا. كنت نهمًا للقراءة، وأتخمت نفسي بهذه الوفرة الرهيبة من الكتب. إلا أنني اضطررت لمغادرة القارة كلها بعد فترة قصيرة.

بعد محاضرتي "التجريبية" في ويست تشابل، أُرسِلت لتقديم سلسلة من المحاضرات في بروكسل ولييج وباريس. خُصِّصَت

محاضرتي للدفاع عن المادية التاريخية ضد انتقادات ما تُسمىٰ بـ"المدرسة الذاتية الروسية". كان لينين مهتمًّا بشدة بموضوعي هذا. قدمت له خلاصة تفصيلية للمحاضرة للاطلاع، فنصحني بمراجعتها من أجل النشر في العدد المقبل من زاريا. لكنني لم أجرؤ علىٰ الظهور بمقالة نظرية دقيقة جنبًا إلىٰ جنب مع بليخانوف والآخرين.

ومن باريس، استُدعيت إلىٰ لندن. كانوا يخططون لتهريبي إلىٰ روسيا مرة أخرىٰ، حيث شكت التقارير الروسية من نقص الرجال نتيجة حملة الاعتقالات الواسعة، وطالبت بعودتي. لم أكد أستقر في لندن حتىٰ تغيَّرت الخطة. أما دويتش، الذي عاش في لندن وعاملني بلطفٍ بالغ، فقد أخبرني لاحقًا كيف وقف ضد ذلك، محاججًا إياهم بأن "الشاب" (لم يكن لديه اسمٌ آخر لي) يحتاج البقاء بالخارج لفترة ليطور تثقيفه، وكيف اتفق لينين أيضًا معه في ذلك. بالطبع كانت احتمالية العمل في المنظمة الروسية للإيسكرا مُغريةً، إلا أنني كنت سعيدًا بالبقاء بالخارج لفترة أطول قليلًا. كانت الأحزاب الثورية تتصارع فيما بينها بشراسة علىٰ كسب جمهور الطلاب. وفيما يلي أعرض مقتطفًا من ذكريات تلك الفترة بقلم ناتاليا سيدوفا:

"تميَّز خريف 1902 بمحاضراتٍ كثيرة في الحي الروسي في باريس. في البداية جاء مارتوف إلىٰ مجموعة الإيسكرا، التي كنت أنتمي لها، ثم بعد ذلك لينين. كانت الحرب ضارية ضد "الاقتصادويين" والثوريين الاشتراكيين. دارت بعض الأحاديث في

مجموعتنا عن رفيقٍ شاب كان قد تمكَّن من الهروب من سيبيريا...
كنَّا نحن، الجيل الأصغر، مُغرمين بإيكاترينا ميخائيلوفنا، كنَّا نستمع إليها باهتمامٍ بالغ، متأثرين بها كثيرًا. وحينما ظهر ذلك الشاب الذي يكتب في الإيسكرا لأول مرة في باريس، طلبت مني إيكاترينا ميخائيلوفنا أن أجد له غرفةً قريبة يسكنها. كانت هناك واحدة بالفعل في المنزل الذي سكنت فيه، لكن الإيجار كان 12 فرنكًا شهريًّا، بينما كانت صغيرة وضيقة ومظلمة، تمامًا مثل الزنزانة. بدأت أصف الغرفة لها، فقاطعتني قائلةً: "كفىٰ وصفًا. ستفي بالغرض. دعيه يسكنها".

وبعدما استقر الرفيق الشاب (لم نكن نعرف اسمه بعد) في الغرفة، سألتني إيكاترينا ميخائيلوفنا: "هل يعد لمحاضرته؟".

فأجبتها: "لا أعرف، أظن ذلك.. كنت أصعد الدرج ليلة أمس فسمعته يصفِّر في غرفته".

فقالت: "إذن اخبريه أن يعمل بجهدٍ ولا يصفِّر".

كانت مهتمة للغاية بنجاحه؛ اهتمامًا لم أجد له مبررًا. لكن المحاضرة كانت جيدة وسَعِدَ الحضور بها، فقد فاق نصير الإيسكرا هذا كل التوقعات".

كنت مهتمًّا بأن أعرف عن باريس أكثر بكثير من لندن. كان ذلك بسبب تأثير ناتاليا سيدوفا عليّ. لقد وُلِدت وتربيت في الريف، لكن في باريس بدأت أقترب أكثر من الطبيعة، وهناك أيضًا رأيت الفن الحقيقي

وجهًا لوجه. تعلَّمت كيف أتذوق الرسوم والطبيعة بمشقة بالغة. كتبت سيدوفا في إحدىٰ مقالاتها لاحقًا:

"لقد عبَّر عن انبهاره العام بباريس بهذه الطريقة: "تشبه أوديسا، لكن أوديسا أفضل". هذا الاستنتاج السخيف لا يمكن تفسيره إلا بأن ليف دافيدوفيتش كان منغمسًا كليًّا في الحياة السياسية، ولم يكن بمقدوره رؤية أي شيء آخر إلا إذا فرض نفسه عليه. كان يتفاعل مع باريس وكأنها أمرٌ مزعجٌ لا فكاك منه. لم أتفق معه في تقديره هذا للمدينة، بل واغتظت منه قليلًا في ذلك".

نعم، هكذا بالضبط. كنت أدخل هذا العالم بموقفٍ عنيدٍ وعدائي. في البداية، كنت "أرفض" باريس، وحاولت حتىٰ أن أتجاهلها. كانت هذه، في الحقيقة، حالة صراع بربري للحفاظ علىٰ النفس. وشعرت أن من أجل التقرُّب من باريس وفهمها بشكل كامل، لا بد من بذل طاقة ذهنية جبَّارة، بينما كان لديّ عالم الثورة الخاص بي، وهذا العالم صارم تمام الصرامة ولا يطيق أي اهتمامات منافسة. بصعوبة، كنت أقترب من الفن بدرجةٍ ما. قاومت اللوفر ولوكسمبورج وغيرهما من المتاحف. بدا لي روبنز متخمًا ومتشبعًا للغاية، وبوفي دو شوفان زاهدًا باهتًا، بينما أزعجتني لوحات كاريير بغموضها والتباسها. الأمر نفسه كان ينطبق علىٰ النحت والمعمار. لكن في الحقيقة، كنت أقاوم الفن كما قاومت الثورة نفسها في حياتي من قبل، ثم الماركسية التي قاومتها لسنينٍ عدة، ولينين وأساليبه. اندلعت ثورة 1905 لتقطع ما أنجزته من

تقدم في مناجاتي لأوروبا وثقافتها، ولم أقترب من الفن إلا خلال منفاي الثاني من روسيا، رأيت أشياء وقرأت وكتبت عنها، لكني لم أتجاوز مطلقًا مرحلة التذوق الهاوي.

في باريس، سمعت جوريس. وقتئذٍ كان فالدك روسو رئيسًا للوزراء، وميلرند وزيرًا للاتصالات، والجنرال جاليفت وزيرًا للحرب. شاركت في مظاهرة للجيسديين وهتفت بانفعال مع بقية المشاركين بكل ما يذم ميلرند. لم يتبلور لدىٰ جوريس أي انطباعٍ عني في ذلك الوقت، وسيطر عليّ شعورٌ أنه عدو، بينما لم أقدِّر هذا الرمز المبهر إلا بعد سنواتٍ طوال، حتىٰ وإن ظل موقفي عدائيًا للجوريسية كما كان من قبل.

وافق لينين، بضغطٍ من الطلاب الماركسيين، علىٰ إلقاء ثلاث محاضرات عن المسألة الزراعية في المعهد العالي الذي أسسه في باريس الأساتذة المفصولون من الجامعات الروسية. طلب الأساتذة الليبراليون من لينين أن يُحجِم عن السجالات قدر المُستطاع، لكنه لم يعد بشيءٍ من هذا القبيل، بل بدأ محاضرته الأولىٰ في شرح الماركسية كنظرية ثورية، وبالتالي نظرية سجالية بالأساس. أتذكر أن فلاديمير إيليتش كان شديد الحماسة قبل محاضرته الأولىٰ، لكن بمجرد صعوده علىٰ المنصة سيطر علىٰ نفسه تمامًا، علىٰ الأقل في مظهره الخارجي. عبَّر الأستاذ جمباروف، الذي حضر المحاضرة، عن

انطباعه عن لينين، قائلًا لدويتشر: "إنه أستاذ مثالي". من الواضح أنه ظن في هذه الكلمات أقصىٰ مديح يمكن تقديمه.

وذات مرة قررنا اصطحاب لينين معنا إلىٰ الأوبرا. تولَّت سيدوفا كل الترتيبات المُتعلِّقة بالأمر، وذهب لينين إلىٰ مسرح الأوبرا الهزلي بنفس الحقيبة التي حملها معه في محاضراته. جلسنا إلىٰ جانب بعضنا، لينين وسيدوفا وأنا، ومارتوف أيضًا علىٰ ما أتذكر. ترتبط زيارتنا هذه للأوبرا بذكرياتٍ باهتةٍ في عقلي. كان لينين قد ابتاع في باريس حذاءً، لكنه اكتشف بعد ذلك أنه ضيقٌ للغاية. وكما شاء القدر، كنت وقتها في أمسّ الحاجة إلىٰ حذاءٍ جديد، فأعطاني لينين إياه. ظننت في البداية أنه يناسب مقاسي تمامًا، وبالفعل كان مريحًا في الطريق للأوبرا، لكن أثناء العرض بدأت الآلام، وفي طريق العودة عانيت العذاب منه، فأخذ لينين يلومني بلا رحمة، إذ كان قد مرَّ بنفس هذه الآلام من قبل لعدة ساعات.

ومن باريس، ذهبت في جولةٍ من المحاضرات لجاليات الطلاب الروس في بروكسل ولييج في سويسرا، وفي بعض المدن الألمانية أيضًا. استمعت في هايدلبرج إلىٰ العجوز كونو فيشر، لكن تعاليمه الكانطية لم تستَمِلني. كانت الفلسفة المعيارية غريبة علىٰ عقلي وكياني؛ كيف للمرء أن يفضِّل القشَ الأعجفَ الجاف علىٰ العشبِ الناعمِ الرطب إلىٰ جواره؟ أطلق الطلاب الروس علىٰ هايدلبرج اسم مركز المثالية الفلسفية، ومن بين هؤلاء الطلاب كان أفكسينتيف،

وزير الداخلية في حكومة كرينسكي لاحقًا. هناك، استخدمت كل ما في كنانتي من سهامٍ ونِصال في الدفاع عن الديالكتيك المادي.

|

الفصل الثاني عشر

مؤتمر الحزب والانشقاق

حين هاجر لينين للخارج في سن الثلاثين، كان في أوج نضجه. وسواء في روسيا، أو في حلقات الطلاب، أو بين المجموعات الاشتراكية الديمقراطية، أو في أوساط المنفيين، كان يحتل مكانةً أولىٰ. نجح لينين في إدراك قوته وبسط نفوذه، ببساطة لأن كل من قابلهم أو عمل معهم كانوا كذلك بوضوح. حينما غادر روسيا، كان في كامل عتاده النظري بمخزونٍ صلبٍ من الخبرة الثورية. أما في الخارج، فكان زملاؤه في الانتظار: مجموعة "تحرير العمل"، وعلىٰ رأسهم بليخانوف المحلل الماركسي المبهر، والمُعلِّم البارز لأجيالٍ عدة، والمنظِّر والدعاوي والخطيب الذي تمتَّع بسمعةٍ أوروبية واسعة وصلاتٍ أوروبية عديدة كذلك. وإلىٰ جانب بليخانوف، كان هناك أيضًا رمزان بارزان: زاسوليتش وأكسيلورد. أما زاسوليتش، فلم تعتلِ مكانتها في الصفوف الأولىٰ فقط بسبب ماضيها البطولي، لكن أيضًا بعقلها الثاقب، وخلفياتها المستفيضة، تاريخيًّا بالذات، وبصيرتها النفسية النادرة. وعن طريقها صارت "المجموعة" علىٰ تواصل مع العجوز إنجلز.

وعلىٰ عكس بليخانوف وزاسوليتش، اللذين كانا أقرب إلىٰ الاشتراكية اللاتينية[20]، قدَّم أكسيلورد أفكار وخبرات الاشتراكية الديمقراطية الألمانية للمجموعة. إلا أن بليخانوف في تلك الفترة كان قد بدأ يتراجع؛ والعامل الأساسي الذي كان يُضعِف قوته هو نفسه الذي وطَّدَ من بأس لينين - اقتراب الثورة. جرىٰ نشاط بليخانوف بأكمله خلال الأيام النظرية التمهيدية. كان دعاويًّا ماركسيًّا وسجاليًّا بامتياز، لكن ليس سياسيًّا ثوريًّا للبروليتاريا. وكلما اقترب ظل الثورة زاحفًا، انسحب البساط من تحت بليخانوف وصار ذلك أكثر وضوحًا. لم يستطع رؤية الأمر علىٰ هذا النحو، ولهذا كان شديد الانزعاج من الشباب.

كان لينين هو الزعيم السياسي للإيسكرا، بينما كان مارتوف يمثل قوتها الأدبية؛ فقد كان يكتب بسهولةٍ واستمرارية تمامًا كما يتكلم. لكن مارتوف، الذي عمل جنبًا إلىٰ جنب مع لينين كرفيق كفاحه الأقرب، بدأ يشعر بعدم الارتياح. كانا لا يزالان يناديان بعضهما بـ"حضرتك"، وبدأت حالة من البرود تزحف في علاقتهما المتبادلة. مارتوف عاش أكثر من ذلك بكثير في الحاضر؛ في أحداثه، في عمله الأدبي الحالي، في المشاكل السياسية المعاصرة، في الأخبار

---

[20] – لا تشير "الاشتراكية اللاتينية" هنا إلى بلدان أمريكا اللاتينية (الجنوبية)، بل تعني الاشتراكية التي تطورت في البلدان التي تتحدث اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية والتي تطوَّرت عنها، مثل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وغيرها. (المترجم)

والأحاديث، أما لينين من ناحيةٍ أخرىٰ، فرغم رسوخه الشديد في الحاضر، كان يحاول دائمًا كشف نقاب المستقبل. طوَّرَ مارتوف أفكارًا وفرضياتٍ ومقترحاتٍ بارعة لا تُعد ولا تُحصىٰ، إلىٰ درجة أنه كان حتىٰ ينساها علىٰ الفور، أما لينين فكان ينتظر الوقت الذي نحتاجها فيه. كان لينين أحيانًا يهز رأسه في انتباهٍ شديد من فرط براعة ودقة أفكار مارتوف. لم يكن الوقت قد أُتيحَ بعد لتتبلور الخطوط السياسية المختلفة؛ في حين لم يكن الاختلاف قد فرض نفسه بعد. لكن في وقتٍ لاحق، أثناء الانقسام في المؤتمر الثاني للحزب، انقسم أتباع الإيسكرا إلىٰ فصيلين؛ واحدٍ "صلب"، والآخر "ليِّن". كانت مثل هذه التسميات رائجة في البداية، إلا أنها قد أشارت، رغم عدم وجود انقسامات ملحوظة، إلىٰ اختلافات في وجهة النظر، وفي القدرة علىٰ الحسم، وفي الاستعداد لخوض الطريق حتىٰ النهاية.

وحتىٰ قبل الانقسام، وحتىٰ قبل المؤتمر نفسه، كان بالإمكان القول علىٰ لينين ومارتوف أن الأول "صلب" والآخر "ليِّن". وكلاهما عَرفَ ذلك جيدًا. كان لينين ينظر إلىٰ مارتوف، الذي كنَّ له تقديرًا بالغًا، بنظرةِ نقدٍ متشككةٍ إلىٰ حدٍّ ما، أما مارتوف، لدىٰ ملاحظته نظرة لينين، فكان يوجِّه ناظريه لأسفل محرِّكًا كتفيه النحيلين بعصبية. وحين يلتقيان أو يتحادثان بعدها، ينقشع الود والمزاح من حديثهما. وحين تتجاوز عينا لينين مارتوف أثناء الحديث، يحدِّق مارتوف بنظرةٍ ثابتة جامدة خلف نظارته الأنفية المتدلية التي لم تكن يومًا نظيفة. حدثني لينين عن

مارتوف بنبرةٍ غريبة في صوته: "من قال لك ذلك؟ يوليوس؟". كان ينطق اسم يوليوس بطريقةٍ خاصة، مع تشديدٍ طفيف وكأنه يحذرني منه: "رجلٌ جيد لا شك في ذلك، بل رجلٌ متميز، لكن ليِّنٌ للغاية". وفي نفس الوقت كان مارتوف واقعًا تحت تأثير فيرا إيفانوفا زاسوليتش، التي كانت تبعده عن لينين، ليس سياسيًّا بقدر ما كان نفسيًّا.

استحوذ لينين علىٰ الاتصالات مع روسيا بين يديه[21]، أما زوجته، ناديجدا كونستانتينوف كروبسكايا، فكانت سكرتيرة هيئة التحرير. كانت في القلب من العمل التنظيمي؛ كانت تستقبل الرفاق فور وصولهم، وترشدهم لدىٰ مغادرتهم، كانت تؤمِّن وسائل التواصل مع روسيا، وتقدم العناوين السرية، وتكتب الخطابات، وتعمل علىٰ تشفير وفك شفرات المراسلات. كانت غرفتها دائمًا تفوح برائحة الورق المُحترق الذي اعتادت تسخينه علىٰ النار لتتمكَّن من قراءته.

---

[21] – كتب المؤرخ البريطاني الراحل توني كليف في الجزء الأول من ثلاثيته عن لينين (بناء الحزب 1870 – 1914): "كان للمراسلات مع روسيا في تلك الفترة تأثيرٌ سلبيٌّ على الحالة العصبية للينين؛ حيث كان عليه أن ينتظر لأسابيع، وربما لشهور، حتى يتلقى ردودًا على خطاباته، في حالة من التجاهل تجعله يفتقر إلى المعلومات حول تقدم الأوضاع، واقعًا تحت تأثير شبح التوقعات بأن الأمور التنظيمية برمتها قيد الانهيار. كل ذلك تنافى بالكلية مع سمات لينين الشخصية. كانت رسائله إلى روسيا تعج بالرجاء من الرفاق من أجل الكتابة بدقة: "مرة أخرى، نتوسل إليكم جديًّا ونرجوكم أن تكتبوا بشكل أكثر دورية وبتفاصيل أكثر. افعلوا ذلك للتوّ في نفس اليوم الذي تستلمون فيه هذا الخطاب، ودون الوقوع في الأخطاء. أبلغونا باستلام الخطاب ولو بسطرين فقط". كان لينين يقضي لياليَ دون نوم بعد تلقي بعض الخطابات التي تنقل أخبارًا مثل: "سونيا صامتة كالقبر"، أو "لم يأتِ زارين للجنة في الوقت المحدد"، أو "ليس لدينا أي اتصال بالمرأة العجوز". (المترجم)

كانت كثيرًا ما تشكو، بطريقتها الرقيقة المليئة بالإصرار، من أن الناس لا يكتبون بما يكفي، أو أن الشفرات تلتبس عليهم، أو أنهم يكتبون بالحبر السري سطورًا تتقاطع فوق بعضها، وهكذا.

كان لينين يحاول، في العمل اليومي للنظم السياسي، أن يدير الأمور بأكبر قدر من الاستقلالية عن الأعضاء الأقدم، وأولهم بليخانوف، أولئك الذين خاض معهم صراعاتٍ مريرة، بالأخص في إعداد مسودة برنامج الحزب. تلقت مسودة لينين الأصلية رد فعلٍ سلبي من جانب جورجي فالينتينوفيتش بليخانوف، الذي علَّق عليها بطريقته الاستعلائية المميزة له التي لا تخلو من دعابة في مثل هذه الحالات، حيث جاءت مسودة لينين في مواجهة مسودته الخاصة. لكن لينين بالطبع لم يتوتر أو ينزعج من هذه الطريقة. أخذ هذا الصراع طابعًا دراميًّا بشكل كبير. أما زاسوليتش ومارتوف، فقد لعبا دور الوسيط؛ زاسوليتش في صف بليخانوف ومارتوف إلىٰ جانب لينين. اتخذ هذان الوسيطان موقفًا توفيقيًّا للغاية، لكنهما كانا صديقين. ووفقًا لما كتبته فيرا إيفانوفا في مذكراتها، فقد قالت ذات مرة للينين أن "جورجي (بليخانوف) كلب صيد؛ يمسك بالشيء، يهزه قليلًا، ثم يتركه، أما أنت فكلب بولدوج؛ تقبض علىٰ الشيء حتىٰ سكرة الموت". وحين كرَّرت هذه المحادثة لي لاحقًا، أضافت: "كان هذا امتداحًا في لينين، فأخذ يكرِّر: "سكرة الموت" بسرورٍ واضح". قالت

لي ذلك وهي تحاكي، بحسن نيِّة، نبرة لينين ولكنته (لم يكن ينطق حرف الراء بوضوح).

نشأت كل هذه الخلافات قبل وصولي من روسيا. لم أكن أرتاب في أي شيء، ولم أكن أعلم حتىٰ أن الحساسيات بين محرري الإيسكرا قد تفاقمت إلىٰ هذا الحد في ذلك الوقت. وبعد مجيئي بأربعة أشهر، كتب لينين إلىٰ بليخانوف:

"2 مارس 1903، باريس.

أقترح علىٰ كل أعضاء هيئة التحرير تعيين "القلم" عضوًا في الهيئة علىٰ قدم المساواة مع الأعضاء الآخرين. أعتقد أن تعيينه لا يتطلب مجرد أغلبية في التصويت، بل قرارًا جماعيًّا. نحن في حاجة ماسة لعضو سابع، من ناحية لتسهيل عمليات التصويت (ستة رقم زوجي)، ومن ناحية أخرىٰ كإضافة لقوانا المتواجدة بالفعل. لم ينفك "القلم" يساهم في كل عددٍ لشهورٍ عديدة الآن، يكتب للإيسكرا بأقصىٰ ما لديه من طاقة، يقدم المحاضرات (وحقق في ذلك نجاحًا مُبهِرًا). سيكون مفيدًا للغاية، بل ضروريًّا، في قسم المقالات والتعليقات علىٰ الأحداث اليومية. ولا جدال في أنه رجلٌ ذو قدراتٍ نادرة، لديه الطاقة ولديه القناعة، وسيتطور بشكل أكبر. أضف إلىٰ ذلك أنه، علىٰ صعيد الترجمات والأدب

الشعبي، سيقدر علىٰ فعل الكثير. أما بخصوص الاعتراضات المُحتمَلة:

1) كونه شابًّا. 2) رحيله إلىٰ روسيا، ربما في غضون فترةٍ قصيرة. 3) أسلوب كتابته الذي ينطبع عليه آثار التسلية والهزل، والذي يفرط في زخرفته، إلخ.

فردًّا علىٰ ذلك: 1) لا أقترح هنا أن يتولىٰ "القلم" منصبًا خاصًّا مستقلًّا، بل مجرد عضو في الهيئة التي سيكتسب فيها خبرته. لا شك أن لديه "غريزة" رجل حزبي، رجل تنظيمي، أما المعرفة والخبرة فهما قضية وقت. تعيينة ضروريٌّ لربطه بالهيئة وتشجيعه.

2) إن ارتبط "القلم" بصلةٍ وثيقة بكل عملنا، ربما لن يرحل إلىٰ روسيا في وقتٍ قريب. وإن رحل في وقتٍ قريب، فإن صلته المنظمة بالهيئة وعمله وفق توجيهاتها لن يخصم شيئًا، بل سيكون إضافة هائلة.

3) القصور في الأسلوب ليس أمرًا ذا شأن. سيتجاوز هذا الأمر. في الوقت الراهن، يقبل التعديلات والتصحيحات بصمت (ليس بسهولة كبيرة). ستكون هناك في الهيئة نقاشات وتصويتات و"توجيهات" أكثر تحديدًا وذات طابع إلزامي.

لتلخيص الأمر، أقترح 1) تصويت الستة أعضاء في الهيئة علىٰ التعيين الكامل لـ"القلم". 2) البدء، في حالة قبوله الانضمام، في العمل علىٰ الصيغة المحددة للعلاقات بين المحررين، وعلىٰ قواعد التصويت، وعلىٰ تحرير لائحة دقيقة. هذا ضروري لأنفسنا، وكذلك للمؤتمر.

ملحوظة: أعتبر رفض التعيين غير ملائم، بل ومحرج، إذ بات واضحًا لي أن "القلم" منزعجٌ بشدة - لم يُظهِر ذلك لي بشكل صريح - من وضعه هكذا في الهواء، ومن التعامل معه، كما يبدو له، كـ"شاب". إن لم نقبل "القلم" علىٰ الفور، ورحل هو إلىٰ روسيا في غضون شهر من الآن مثلًا، فإنني علىٰ قناعة بأنه سيُفسِّر هذا وكأنه إحجامٌ من جانبنا عن قبوله في هيئة التحرير، وبالتالي سيبتعد، وهذا لن يكون مرغوبًا علىٰ الإطلاق".

أقتبس هذا الخطاب، الذي اكتشفته مؤخرًا فقط، بكامله تقريبًا (باستثناء بعض المواضع ذات التفاصيل التقنية)، لأنه معبرٌ بشدة عن الوضع داخل هيئة التحرير، ومعبرٌ بشدة عن لينين، وعن موقفه تجاهي. وكما أشرت سابقًا، لم أكن علىٰ دراية بالصراع الجاري وراء الكواليس بخصوص انضمامي للهيئة. لكن فكرة لينين، بأنني "منزعجٌ بشدة" من عدم إدماجي في الهيئة، خاطئة، أو علىٰ الأقل لم تكن تعبر أبدًا عن إحساسي في ذلك الوقت. في الحقيقة، لم تشغل هذه الفكرة

بالي على الإطلاق، فموقفي تجاه الهيئة كان موقف الطالب من أساتذته. كنت فقط في الثالثة والعشرين من عمري، بينما كان أصغر المحررين هو مارتوف، الذي يكبرني بسبعة أعوام، ولينين نفسه كان يكبرني بعشرة. شعرت بسرورٍ بالغ تجاه الأقدار التي وضعتني على صلةٍ وثيقة بهذه المجموعة المتميزة من الناس. تعلّمت الكثير من كلِ واحدٍ فيهم، تعلّمت باجتهادٍ ودأب.

لكن، من أين جاء لينين بفكرة انزعاجي هذه؟ أعتقد أنها كانت خدعة تكتيكية بسيطة. الخطاب بكامله ينضح بالرغبة في الإثبات، وفي الإقناع، وفي نيل ما أراده لينين. أراد لينين عن عمد أن يخيف المحررين الآخرين بانزعاجي المُفترض وبنفوري المُحتمَل من الإيسكرا، واستخدم هذه الفكرة كحُجة إضافية لا أكثر. الأمر نفسه ينطبق على حجته بأنهم يشيرون إليّ باعتباري "شاب". كان هذا هو الاسم الذي ناداني به دويتش العجوز مرارًا، لكن لم يفعل أيٌّ منهم ذلك. وبالنسبة لدويتش، الذي لم يكن له أي تأثيرٍ سياسيٍ عليّ، ولم يكن بمقدوره ذلك، فقد كانت بيننا صداقة حقيقية. استخدم لينين هذه الحُجة فقط لمجرد أن يطبع في أذهان الأعضاء الأكبر ضرورة وضعي في الاعتبار كرجلٍ ناضجٍ سياسيًا.

وبعد عشرة أيام من خطاب لينين، كتب مارتوف إلى أكسيلورد:

"10 مارس 1903، لندن.

اقترح علينا فلاديمير إيليتش أن نضم "القلم"، الذي تعرفه، إلىٰ هيئة المحررين، علىٰ أن يتمتع بكامل الحقوق. يعكس عمله الأدبي موهبةً لا غبار عليها، وهو بالتأكيد رجلنا علىٰ مستوىٰ الفكر، كما يعترف بمصالح الإيسكرا، وله هنا في الخارج تأثيرٌ ذو شأن، بفضل بلاغته الاستثنائية. إنه يتحدَّث بشكلٍ رائع، وما من شيءٍ أفضل من ذلك. وفي هذا الصدد، لدىٰ فلاديمير إيليتش وأنا ما يكفي من الأسباب لإقناع أنفسنا بذلك. لديه المعرفة، ويعمل بجهدٍ لإثرائها. إنني أشارك في اقتراح فلاديمير إيليتش من دون أي تحفظ".

في هذا الخطاب، كرَّرَ مارتوف أصداء لينين، لكنه لم يعتمد نفس الحُجة الخاصة بشعوري بالانزعاج من شيءٍ ما. عشت مع مارتوف جنبًا إلىٰ جنب في نفس المنزل، فتوفرت لديه الفرصة ليراقبني عن قرب ليتحقق من أي رغبة نافذة الصبر من جانبي لأنضم إلىٰ هيئة التحرير.

لكن لماذا أصرَّ لينين بهذا الحرص علىٰ ضرورة ضمي لهيئة التحرير؟ لقد كان يريد ضمان أغلبية مستقرة، ففي عددٍ من القضايا الهامة انقسمَ المحررون إلىٰ مجموعتين متكافئتين: الأعضاء الأكبر (بليخانوف وزاسوليتش وأكسيلورد)، والأعضاء الأصغر (لينين ومارتوف وبوتريسوف). لم يكن لدىٰ لينين أي شك في أنني سأنحاز إليه في القضايا الأهم. وذات مرة، حين كان علىٰ لينين أن يعارض

بليخانوف، استدعاني وقال لي بشيءٍ من الدهاء: "دع مارتوف يتحدَّث. سيتعاطىٰ مع الأمر علىٰ نحوٍ سلس. أما أنت فستضرب مباشرةً". لكنه حين لاحظ نظرة الدهشة علىٰ وجهي، أضاف فورًا: "بالنسبةِ لي، فأنا أفضِّل الضرب مباشرةً. لكن مع بليخانوف، فمن الأفضل هذه المرة أن نعالج الأمر بطريقةٍ سلسة".

حطمت معارضة بليخانوف اقتراح لينين بضمي إلىٰ هيئة التحرير. والأسوأ من ذلك هو موقف بليخانوف المعادي لي بسبب هذا الاقتراح في المقام الأول، إذ ظنَّ أن لينين كان يبحث عن أغلبية صارمة ضده. وتأجلت قضية إعادة تنظيم هيئة التحرير حتىٰ انعقاد المؤتمر. إلا أن الهيئة قررت دعوتي للاجتماعات بصفةٍ استشارية، دون انتظار المؤتمر. وحتىٰ هذا عارضه بليخانوف بحسم، لكن فيرا إيفانوفا قالت له: "سأحضره بغض النظر عمَّا تقول". وأحضرتني بالفعل في الاجتماع التالي. وبما أنني لم أكن أعلم شيئًا عمَّا يجري وراء الكواليس، كنت أنفر من البرودة التي صافحني بها جورجي فالينتينوفيتش، تلك البرودة التي كان ضليعًا فيها. استمرت كراهية بليخانوف لي لفترةٍ طويلة، وفي الحقيقة لم تتلاش هذه الكراهية قط. وكما كتب مارتوف، في أبريل 1904، في خطابٍ لأكسيلورد، فإن "كراهيته (أي بليخانوف) الشخصية للشخص المذكور (أنا) إنما هي كراهية خسيسة تحط من قدره".

المثير للاهتمام هو الإشارة التي أوردها لينين في خطابه لأسلوبي الأدبي. لكن الثابت والصحيح بالفعل هو ميلي للأسلوب المفرط في الزخرفة، وأيضًا عزوفي عن قبول التصحيحات. في ذلك الوقت، لم أكن أكتب إلا لعامين فقط، واحتلت مسألة الأسلوب مكانةً مستقلةً بالنسبة لي. كنت أبدأ لتوي في الاستمتاع بمذاق الكلمات. وكما يمضغ الأطفال العلكة حين تنبت أسنانهم، كنت أحيانًا، في أمورٍ غير ملائمة، ألتقف الكلمات والصيغ، أو الصور، في مرحلة تسنيني الأدبي. كان الوقت وحده كفيلًا بتنقية أسلوبي. وبما أن النضال من أجل الشكل لم يكن بالنسبة لي عارضًا أو خارجًا عن السياق، بل انعكاسًا لعملياتي الفكرية، فلا عجب في أنني -مع احترامي البالغ للمحررين- وبشكلٍ غريزي، حميت فرديتي، التي كانت لا تزال في طور التشكُّل، ككاتبٍ، من غزوات الرجال الذين اكتمل نضجهم بالفعل لكنهم تأسسوا علىٰ نحوٍ مختلف.

في تلك الأثناء، ومع اقتراب اليوم المرتقب لعقد المؤتمر، تقرر فجأة نقل هيئة التحرير إلىٰ جينيف في سويسرا، حيث المعيشة أرخص والتواصل مع روسيا أسهل. وافق لينين علىٰ ذلك "من تحت ضرسه". كتبت سيدوفا في مذكراتها: "في جينيف، مكثنا في غرفتين علويتين ضيقتين. انغمس ليف دافيدوفيتش في العمل من أجل عقد المؤتمر، بينما كنت أستعد للرحيل إلىٰ العمل الحزبي في روسيا". بدأ المندوبون الأوائل في الوصول، وعُقِدَت الكثير من الاجتماعات

المتلاحقة. كان لينين يقود هذا العمل التمهيدي للمؤتمر بلا منازع، رغم أن ذلك لم يكن واضحًا تمامًا. بعض المندوبين وصلوا حاملين معهم بعض الشكوك والادعاءات. استغرقت إعدادات المؤتمر وقتًا طويلًا، وقد خُصِّصَ الكثير من الوقت لمناقشة اللائحة المُقترحة، إذ كانت إحدىٰ النقاط الأهم في جدول التنظيم هي العلاقة بين الأداة المركزية (الإيسكرا) واللجنة المركزية التي من المُفترض أن يجري عملها داخل روسيا.

كنت قد وصلت أنا للخارج معتقدًا أن هيئة التحرير لا بد أن تخضع للجنة المركزية، وكانت تلك هي الفكرة السائدة بين أغلبية أنصار الإيسكرا. لكن لينين اعترض قائلًا: "لا يمكن أن يحدث هذا. ميزان القوىٰ مختلف. كيف يمكن أن يرشدونا من داخل روسيا؟ كلا، لا يمكن أن يحدث هذا. نحن المركز المستقر، ونحن أقوىٰ في الأفكار، ولا بد أن نرشدهم نحن من هنا".

سألته: "إذن، هل سيعني هذا ديكتاتورية كاملة لهيئة التحرير؟".

فأجابني: "حسنٌ، وما الخطأ في ذلك؟ في الوضع الراهن لا بد أن تكون هكذا".

أثارت مخططات لينين التنظيمية بعض الشكوك لديّ، لكن ما لم يخطر ببالي مطلقًا هو فكرة انفجار المؤتمر علىٰ مثل هذه القضايا بالذات.

كنت مندوبًا عن الاتحاد السيبيري الذي ارتبطت به بصلةٍ لصيقةٍ أثناء منفاي. ولتجنب الجواسيس، سافرت إلىٰ المؤتمر مع مندوب تولا، الدكتور أوليانوف أخي لينين الأصغر، ليس من جينيف بل من محطة صغيرة قريبة منها اسمها نيون، توقف فيها القطار الإكسبريس لحوالي نصف دقيقة فقط. انتظرت القطار، مثل كل الروس المحليين الطيبين، علىٰ الجهة الخاطئة من شريط القطار، وحين وصل القطار اندفعنا مسرعين علىٰ المصدَّات بين العربات. بدأ القطار يتحرك بالفعل قبل أن نقفز فيه. وحين لاحظ ناظر المحطة اثنين من الركَّاب بين العربات، أطلق صفارته فتوقف القطار. وفور وصولنا إلىٰ عربتنا، أخبرنا الحارس أنه لم ير في حياته أغبياء مثلنا هكذا، وأن علينا أن ندفع خمسين فرنكًا غرامة إيقاف القطار. في المقابل، أخبرناه أننا لا نفهم الفرنسية. في الحقيقة، لم يكن هذا دقيقًا تمامًا، لكن الكذبة أوفت بالغرض. وبعد صياحه فينا لثلاث دقائق أخرىٰ، تركنا هذا السويسري البدين في سلام، وكان هذا هو الأوقع بالفعل لأننا لم نكن نملك، نحن الاثنين مجتمعَين، خمسين فرنكًا من الأصل. وفي وقتٍ لاحق، حين جاء الرجل يتفقَّد التذاكر، صاح مرة أخرىٰ معبرًا لباقي القطار عن رأيه الراشح بالاحتقار لاثنين من المسافرين انتُشِلوا من بين العربات. لم يكن صاحبنا البائس هذا يعلم أننا مسافرين لتأسيس حزب.

انعقد المؤتمر في بروكسل، في مقر تعاونية عمالية في "بيت الشعب". كانت حجرة المخزن، التي أجرينا فيها أعمالنا، مخفية عن

الأعين الغريبة، فيما احتوت علىٰ أكوامٍ كبيرة من الصوف، ونتيجةً لذلك صرنا تحت طائلة أسرابٍ غفيرة من البراغيث، أطلقنا عليها "جيش أنسيل"[22] الذي يشن هجماته علىٰ المجتمع البرجوازي. كانت الاجتماعات تعذيبٌ جسدي بكل معنىٰ الكلمة، والأسوأ من ذلك كان الملاحقة المستمرة لخط سير المندوبين منذ وصولهم.

كنت أعتمد في إقامتي علىٰ جواز سفر لشخص بلغاري يُدعىٰ ساموكوفلييف لم أعرف عنه شيئًا. وذات ليلةٍ في الأسبوع الثاني، خرجت مع زاسوليتش من مطعمٍ اسمه "الدراج الذهبي"، فقطع طريقنا مندوبٌ من أوديسا يُدعىٰ "ز"، ومن دون حتىٰ أن ينظر إلينا همس من بين أسنانه قائلًا: "هناك مخبر سري ورائي. تفرَّقوا وهو سيتبع الرجل". كان "ز" ماهرًا في كشف المخبرين بعينٍ دقيقةٍ كتلسكوب فلكي. كان مسكنه القريب من ذلك المطعم في الطابق العلوي، وقد جعل نافذته أشبه ببرج مراقبة.

علىٰ الفور قلت وداعًا لزاسوليتش، وسرت إلىٰ الأمام. لم يكن في جيبي سوىٰ جواز سفري البلغاري وخمسة فرنكات. أما المخبر الفلمنكي الطويل النحيف، ذو الأنف الشبيهة بمنقار البطة، فقد اقتفىٰ أثري. كنَّا بعد منتصف الليل، وما مِن إنسيٍ في الشارع. عدت للخلف بحدة، وسألته: "سيدي، هل تعرف اسم هذا الشارع؟"، فارتعب

---

22 – أنسيل هو واحدٌ من قادة الحزب الاشتراكي في بلجيكا، برز في الحركة التعاونية.

الفلمنكي وتراجع نحو الحائط وقال: "لا أعرف". لا بد أنه توقَّع أن أخرِج مسدسًا وأطلق النار عليه. مشيت علىٰ طول الشارع الذي تكتنفه الأشجار، وكانت الساعة قد دقت الواحدة صباحًا. جريت بكل ما في وسعي، والفلمنكي يلاحقني. وهكذا كنَّا؛ غريبين يتسابقان في شوارع بروكسل بعد منتصف الليل. حتىٰ يومنا هذا لا يزال وقع الأقدام يرن في أذني. وبعدما جريت لمسافة طويلة، عدت مرةً أخرىٰ إلىٰ الشارع الرئيسي ومن ورائي الفلمنكي. كنَّا متعبَين وغاضبَين، فمشينا ومررنا ببعض سيارات الأجرة عند الرصيف، وكان من العبث أن أستقل إحداهن، إذ كان المخبر ليتبعني في أخرىٰ، فاستمرت المطاردة سيرًا علىٰ الأقدام. بدا أن الشارع الطويل يصل إلىٰ نهايته، وأننا بذلك في طريقنا إلىٰ خارج المدينة، فلمحت حينها سيارة أجرة بجوارِ حانةٍ كانت لا تزال مفتوحة، وبدفعةٍ بسيطةٍ صرت بداخلها.

قلت للسائق: "انطلق. أنا مُستعجِلٌ".

فسألني: "أين تريد أن تذهب؟". قلت له اسم حديقة علىٰ بُعد دقائق من مسكني؛ إذ كان المخبر يسترق السمع.

"مائة سو"[23].

"انطلق".

---

[23] – السو: عملة معدنية فرنسية قديمة. (المترجم)

انطلق السائق، فيما هرع المخبر إلىٰ داخل الحانة، ثم خرج ومعه فتىٰ، وأشار بإصبعه علىٰ خصمه الذي يتلاشىٰ ماضيًا في الظلام.

بعد نصف ساعة، كنت في غرفتي. وبمجرد أن أشعلت الشمعة، لاحظت خطابًا علىٰ الطاولة يحمل اسمي البلغاري في خانة المُرسل إليه. من يمكن أن يكتب لي هنا؟ اتضح أنه استدعاءٌ للسيد "سيير ساموكوفلييف" إلىٰ قسم الشرطة في العاشرة من صباح اليوم التالي. لا بد أن مخبرًا آخر قد تعقَّبني هناك في اليومِ السابق، وهكذا ذهبت جهودي في الهرب من مطاردة الليلة سُدىٰ. استدعاءات مماثلة وصلت أيضًا في نفس الليلة لمندوبين آخرين، منهم من ذهب بالفعل لقسم الشرطة ليتلقىٰ أمرًا بالرحيل من بلجيكا في غضون أربعٍ وعشرين ساعة. لم أذهب إلىٰ قسم الشرطة، فقد سافرت ببساطة إلىٰ لندن حيث نُقِلَت أعمال المؤتمر هناك.

أما في برلين، فقد كان رئيس الشرطة السرية الروسية رجلًا يُدعىٰ هاتينج، وقد أرسل هذا الرجل فيما بعد تقريرًا لإدارة الشرطة يفيد بأن "تفاجأت شرطة بروكسل من هذا التدفق الكبير للأجانب، واشتبهت بالفعل في عشرة من الفوضويين المتآمرين". لكن الحقيقة أن شرطة بروكسل قد تفاجأت من تقرير هارتينج نفسه. كان هيكلمان هو اسمه الحقيقي، وكان مُحرِّضًا حُكِمَ عليه بالأشغال الشاقة في فرنسا، وصار فيما بعد جنرالًا في البوليس السري القيصري، وباسمٍ حركي: فارس فيلق الشرف في فرنسا. كان هارتينج يجمع معلوماته من خلال عميل

آخر، يُدعىٰ الدكتور جيتوميرسكي، الذي اضطلع بدورٍ حيوي، من مكانه في برلين، في تنظيم المؤتمر. انكشفت كل هذه الأمور بعد سنواتٍ طويلة، لكن بدا كما لو أن القيصرية تستحوذ علىٰ كل مفاتيح اللعب بين أيديها.

وخلال أعمال المؤتمر، باتت الخلافات بين أنصار الإيسكرا الرئيسيين في الصدارة. كان الانقسام بين "الصلب" و"الليِّن" يزداد وضوحًا. في البداية، تركَّزت الخلافات حول الفقرة الأولىٰ من اللائحة: قضية تعريف عضو الحزب. أصرَّ لينين علىٰ تعريف الحزب بالمنظمة السريِّة، فيما أراد مارتوف اعتبار أولئك الذين يعملون تحت توجيه المنظمة السريِّة أعضاءً أيضًا. لم يكن هذا الخلاف ذا أهمية عملية آنية، إذ منحت كلتا الصيغتين حق التصويت لأعضاء المنظمات السرية، إلا أن التباين بين الاتجاهين كان واضحًا لا لبس فيه. أراد لينين علاقاتٍ دقيقة ومحدَّدَة، فيما مال مارتوف نحو اعتماد أشكالٍ مطَّاطية في هذه العلاقات. تحدَّد بذلك المسار اللاحق الذي اتخذه المؤتمر، وكذلك، من بين أمورٍ أخرىٰ، تركيب المراكز الرئيسية للحزب.

ومن خلف الكواليس، جرىٰ صراعٌ علىٰ تأييد كل مندوبٍ في المؤتمر. لم يهدر لينين أي فرصة لكسبي إلىٰ جانبه. مشيت معه ذات مرة، هو وكراسيكوف، طويلًا، وخلال طريقنا كان الاثنان يحاولان إقناعي بأنني لا يمكن أن أسلك نفس طريق مارتوف، إذ أن مارتوف "ليِّن". أما توصيفات كراسيكوف لمحرري البرافدا فقد كانت جافة

للغاية، لدرجة جعلت لينين يكفهر وجهه، بينما زحفت على جسدي القشعريرة، فموقفي تجاه هؤلاء المحررين كان لا يزال ذا نزعة شبابية عاطفية.

نفَّرتني هذه المحادثة أكثر مما جذبتني أو استرعت اهتمامي. ظلت الخلافات غامضة، وبات الجميع يتخبطون في تعاطيهم لأمورٍ غير ملموسة. قرَّرنا عقد اجتماعٍ لأنصار الإيسكرا المؤكدين لاستيضاح الأمور، لكن حتى اختيار رئيس الجلسة لم يمر دون مصاعب. وفي محاولة للخروج من الأزمة، اقترح دويتش أن أترأس الجلسة، وهكذا صرت أترأس اجتماع أنصار الإيسكرا ذاته الذي تبلور فيه الانقسام بين البلاشفة والمناشفة لأول مرة. كان التوتر يخيِّم على الأجواء إلى أقصى حد.

غادر لينين الاجتماع، قارعًا الباب خلفه. كانت هذه هي المرة الأولى، طيلة الصراعات المريرة داخل الحزب، التي أراه فيها يفقد السيطرة على نفسه. تفاقم الوضع بشكل أكبر، حيث طَفَت كافة الخلافات على سطح المؤتمر ذاته، فيما حاول لينين مرة أخرى كسبي إلى الفصيل "الصلب" بإرساله رفيقة من المندوبين، بالإضافة إلى أخيه الأصغر، ديمتري، لمناقشتي. استمر نقاشي معهما لساعاتٍ طويلة في الحديقة. لم يكن هذان المبعوثان ليتركاني بسهولة. قالوا لي: "لدينا أوامر بأن نحضرك معنا"، لكن في النهاية رفضت صراحةً بشكلٍ قاطعٍ اتباعهما.

جاء الانقسام[24] مفاجئًا لكافة أعضاء المؤتمر[25]. لينين نفسه، وهو الذي كان أكثرهم نشاطًا في هذا الصراع، لم يكن يتوقعه، ولا حتى يريده. أما بعد المؤتمر، فقد مَرِضَ لينين بعلَّةٍ عصبية. كتبت ناتاليا سيدوفا في مذكراتها: "كان ليف دافيدوفيتش يكتب من لندن بمعدلٍ يومي تقريبًا، وفي النهاية كتب خطابًا يتضمن تقريرًا عن الانقسام، قال فيه بيأسٍ إن الإيسكرا انتهت، إنها ماتت... لقد أزعجنا انقسام الإيسكرا بشكلٍ مخيف. وبعدما عاد ليف دافيدوفيتش من المؤتمر،

---

[24] – نتيجة للانقسام في المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، ظهر فصيلا الحزب: البلاشفة (الأغلبية)، والمناشفة (الأقلية).

[25] – للتدليل على استياء أغلبية أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي من الانقسام في المؤتمر، أقتبس هنا من مذكرات بياتنسكي، الذي كان عاملًا شابًا أثناء فترة المؤتمر، وصار فيما بعد عضوًا بارزًا في الكومنترن:

"لم أكن أفهم لماذا تؤدي هذه الاختلافات البسيطة إلى إبعادنا عن العمل معًا.. وصلتنا معلومات بأن هناك بعض الاختلافات في الرأي داخل مجموعة الإيسكرا نفسها. لم أكن أصدق تلك الإشاعات. لم أكن أتوقع أي شق في الوحدة داخل مجموعة الإيسكرا والتي اعتدت على اعتبارها مجموعة متجانسة. كان ناقوس الخطر يدق على مدار أيام عديدة، والحيرة تسيطر على رؤوسنا. في النهاية عاد المندوبون من المؤتمر إلى برلين، وسمعنا تقارير عن المؤتمر من الجانبين، بينما شرع كلٌّ منهما في التحريض على اتباع مساره الخاص" (O. Piatnitsky, Memoirs of a Bolshevik, London, p.57).

وكان عاملٌ بأحد المصانع قد أرسل للينين خطابًا يستنكر فيه الانشقاق:

"انظر يا رفيق، هل من الطبيعي أن تُستهلك كل هذه الطاقات في السفر حول اللجان من أجل هدف واحد وهو التحدث عن الأغلبية والأقلية؟ حقًا، أنا لا أعلم، هل الأمر بهذا القدر من الأهمية بحيث يستوجب تسخير كل الطاقات لأجله، وبسببه على الزملاء أن ينظروا لبعضهم البعض كأعداء؟" (Trotsky, Stalin, London 1947, p.42). (المترجم)

توجهت إلىٰ سانٰ بطرسبورج بتقارير عن المؤتمر مكتوبةٍ بخطٍ دقيقٍ علىٰ ورقٍ رقيق، داخل حشوة قاموسٍ فرنسي".

كيف انحزت إلىٰ الفصيل "الليِّن" في المؤتمر؟ من بين محرري الإيسكرا، كانت تربطني علاقاتٌ أقوىٰ مع كلٍ من مارتوف وزاسوليتش وأكسيلورد. كان تأثيرهم عليّ لا يرقىٰ إليه الشك. كان هناك تنوعٌ في الآراء داخل هيئة التحرير قبيل المؤتمر، لكن ما مِن خلافات حادة علىٰ الإطلاق. ابتعدت عن بليخانوف، الذي كان ينفر مني بشدة بعد اللقاءات الأولىٰ التافهة تمامًا. أما موقف لينين تجاهي، فكان ودودًا للغاية، لكنه الآن يتراءىٰ في عينيّ رأس حربةٍ تهاجم هيئة التحرير، التي كانت في وجهةِ نظري وحدةً واحدةً تحمل اسم "إيسكرا" المثير. بدت فكرة الانقسام داخل هيئة التحرير بالنسبةِ لي فكرةً مُدنَّسة.

لا شك في أن المركزية الثورية أمرٌ صارمٌ، ومبدأ ضروري في المقام الأول، أحيانًا ما ترتدي عباءة القسوة المُطلقة في علاقتها بالأعضاء الفرادىٰ، بل وفي علاقتها بمجموعات كاملة من الأعضاء. ولعل الأمر لا يخلو من دلالة حين نقول أن كلمتيّ "لا هوادة فيه"، و"لا يقبل المساومة" هما من كلمات لينين المُفضَّلة. فقط السعي الثوري الملتهب المحموم لمقاصد مُحدَّدَة ودقيقة – سعيٌ يخلو تمامًا من أي غرضٍ شخصي – هو ما يبرِّر مثل هذه الصرامة الشخصية.

في 1903، لم يكن بيت القصيد في القضية كلها شيئًا سوىٰ رغبة لينين في إقصاء أكسيلورد وزاسوليتش من هيئة التحرير. كان موقفي تجاههما نابعًا بالأساس من احترامي لهما، كما كان هناك بعض التأثر الشخصي بهما أيضًا. ولم يكن لينين أيضًا يُكِنّ لهما إلا التقدير البالغ علىٰ ما فعلوه في الماضي، لكنه اعتقد أنهما قد صارا عقبةً في طريق المستقبل، وقاده هذا الاعتقاد إلىٰ استنتاج ضرورة تنحيتهما عن موقع القيادة. لم يكن بوسعي أن أوافق علىٰ ذلك علىٰ الإطلاق، بل كنت أحتج بكل وجودي ضد هذا الإقصاء عديم الرحمة لرفاقٍ قدامىٰ وصلوا أخيرًا إلىٰ أعتاب تأسيس حزبٍ منظم. وكان سخطي هذا علىٰ موقف لينين هو ما أدىٰ إلىٰ افتراقي عنه في المؤتمر الثاني. كان سلوكه، بالنسبة لي، قاسيًا علىٰ نحوٍ لا يُغتفر، سلوكٌ فظيعٌ وشائن. إلا أنه، سياسيًّا من وجهة النظر التنظيمية، كان صائبًا وضروريًّا. إن الانفصال عن الرفاق القدامىٰ، الذين بذلوا كل جهدهم في المراحل التمهيدية، فَرَضَ نفسه كضرورة حتمية علىٰ أية حال، ولينين هو أول من أدرك ذلك، وقد حاول فصل بليخانوف عن زاسوليتش وأكسيلورد، لكن هذا أيضًا بات أمرًا عديم الجدوىٰ، كما أثبتت الأحداث التالية.

استند افتراقي عن لينين إلىٰ أرضيةٍ يمكن اعتبارها "أخلاقية"، أو حتىٰ شخصية. لكن هذا لم يكن إلا السطح الطافي من هذه المسألة، أما في العمق، فقد كانت لهذه الفُرقة طبيعة سياسية عبَّرت عن نفسها علىٰ صعيد الأساليب التنظيمية. كنت في ذلك الوقت أظن نفسي

مركزيًا بما فيه الكفاية، لكن ما مِن شكٍ أنني لم أكن أدرك تمام الإدراك أي مركزية كثيفة وطاغية تلك التي يتطلبها الحزب الثوري لقيادة ملايين من الناس في حربٍ ضد النظام القديم. قضيت سنواتي الأولىٰ في الأجواء الكئيبة للرجعية التي أطالت بقائي في أوديسا خمس سنواتٍ أخرىٰ. أما سنوات شباب لينين من قبلي فقد ارتبطت بـ"نارودنايا فوليا". وأما أولئك الذين جاءوا بعدي بسنواتٍ قليلة، فقد نشأوا في بيئةٍ تعج بالاضطرابات السياسية الجديدة. في وقت مؤتمر لندن في 1903، ظلت الثورة بالنسبةِ لي تجريدًا نظريًا لا أكثر، ولم يكن بمقدوري أن أرىٰ، بشكلٍ مستقل، مركزية لينين كاستنتاج منطقي لمفهومٍ ثوري واضح، بينما كانت الرغبة في فحص المشكلات، بشكلٍ مستقلٍ عن الآخرين، واستخلاص الاستنتاجات اللازمة منها، هي أكثر الضرورات الفكرية إلحاحًا بالنسبةِ لي.

وبعيدًا عن تأثير المبادئ التي كانت لا تزال أوليَّة في مهدها، فإن جدية وخطورة الصراع الذي اندلع في المؤتمر، نبعت أيضًا من عدم إدراك الأعضاء القدامىٰ قيمة وأهمية لينين. وخلال المؤتمر، وكذلك بعده، كان سخط أكسيلورد وآخرين في هيئة التحرير من أداء لينين يتضاعف بدهشتهم مما فعل. كانوا يتساءلون "كيف جرؤ علىٰ ذلك؟ هل مضىٰ وقتٌ طويلٌ هكذا منذ أن جاء بالخارج لأول مرة كتلميذ وتعامَل معنا معاملة التلاميذ مع أساتذتهم؟ من أين إذن جاءت هذه الثقة القصوىٰ بالنفس؟ كيف جرؤ؟".

لكن لينين كان يملك ما يكفي من الجرأة بالفعل. كل ما احتاجه هو الاقتناع بأن الأعضاء القدامىٰ صاروا غير قادرين علىٰ تولي قيادة منظمة مناضلة لطليعة البروليتاريا في ثورةٍ بات من الواضح أنها وشيكة. هؤلاء الأعضاء القدامىٰ، وآخرون، كانوا مخطئين في تقديرهم للينين؛ فلم يكن لينين مجرد عاملٍ حزبيٍّ متميز، بل قياديًّا، رجلًا مُنكبًّا بكل ما فيه لنيل هدفه، رجلًا أدرك أخيرًا أنه هو نفسه قائدٌ ثوري، وبعد أن عَمِلَ جنبًا إلىٰ جنب مع القدامىٰ، صار راسخ الاقتناع بأنه أقوىٰ وأكثر ضرورةً منهم. وفي القلب من الأجواء الضبابية التي هيمنت علىٰ المجموعة التي حملت لواء الإيسكرا، لينين وحده هو من استشرف "الغد" وتَوقَّعه، بكل مهامه العنيدة، وصراعاته القاسية، وضحاياه الذين لا حصر لهم.

تمكَّن لينين من كسب بليخانوف خلال المؤتمر إلىٰ جانبه، لكن ذلك لم يستمر إلا لبعض الوقت، بينما خَسِرَ مارتوف، وهذه الخسارة كانت نهائية وإلىٰ الأبد. من الواضح أن بليخانوف قد استشعر شيئًا ما خلال المؤتمر، أو علىٰ الأقل هذا ما قاله لأكسيلورد في مناقشةٍ معه حول لينين: "من هذه الخامة يَنبُت الروبسبيريون". لكن بليخانوف نفسه لم يضطلع بدورٍ بارزٍ في المؤتمر، رأيته وسمعته مرة واحدة فقط يتحدَّث بكامل قدراته وقوته. كان ذلك في لجنة المؤتمر لصياغة البرنامج. ناقش البرنامج بمخطَّطٍ علميٍ واضحٍ ومُحدَّدٍ في عقله، واثقًا من نفسه ومن معرفته وتفوُّقه، ببريقٍ ساخرٍ في عينيه، وشاربٍ رمادي

عريضٍ منتصب، وبأداءٍ مسرحيٍ بعض الشيء وإيماءاتٍ ثاقبة التعبير، أنار بليخانوف عقول جميع الحاضرين بشخصيته، كمشعلٍ متَّقدٍ من الفطنة وسعة الاطلاع.

أما زعيم المناشفة، مارتوف، فلا بد أنه يُحسَب واحدًا من أكثر رموز الحركة الثورية تراجيدية. كاتبٌ موهوب، وسياسيٌ بارع، ومفكِّرٌ ثاقب، تقدَّمَ أميالًا عن حركة المثقفين التي صار هو قائدها. لكن فِكره افتَقَرَ إلىٰ الشجاعة، وبصيرته جفتها الإرادة. لم يكن الإصرار بالنسبةِ له بديلًا يلجأ إليه. دائمًا ما كانت مبادرات مارتوف ردًّا علىٰ الأحداث تحمل مضمونًا ثوريًّا علىٰ مستوىٰ الفِكر، لكن هذا الفِكر يخبو علىٰ الفور لافتقاره إلىٰ إرادة حيَّة تدعمه. لم تصمد صداقتي به أمام أول اختبار طرحته الأحداث المهمة التي عجَّلت بها الثورة.

وبغض النظر عمَّا يمكن أن أقول، يظل المؤتمر الثاني علامةً فارقةً في حياتي، ويكفي أنه فرَّقني عن لينين سنواتٍ طوال. لكنني لست نادمًا علىٰ الماضي. ورغم أنني جئت إلىٰ لينين في المرة الثانية متأخرًا عن كثيرين غيري، إلا أنني جئت سالكًا طريقي الخاص، بعدما مرَرت وأدركت خبراتِ الثورة والثورة المضادة والحرب الإمبريالية. جئت، نتيجةً لذلك، أكثر ثقةً وجديةً من أولئك "التلامذة" الذين أخذوا يكرِّرون -ليس دائمًا في الوقت المناسب- كلمات وإيماءات أستاذهم خلال حياته، وأثبتوا بعد وفاته أنهم لا شيء سوىٰ رجال صف ثانٍ لا حول لهم ولا قوة غير واعين بالأدوات التي تحوزها القوىٰ المعادية.

الفصل الثالث عشر

العودة إلى روسيا

ا

لم تستمر الصلة بالأقلية التي تمخَّض عنها المؤتمر الثاني إلا لفترة قصيرة. وبعد بضعة أشهر، تبلوَر اتجاهان داخل هذه الأقلية، في حين شرعت في الدفاع عن اتخاذ خطواتٍ من أجل الوحدة مع الأغلبية في أقربِ وقتٍ ممكن، إذ رأيت أن الانقسام ليس إلا مجرَّد فاصلٍ مؤقت. أما بالنسبة لآخرين، فقد كان هذا الانقسام بداية النزوع نحو الانتهازية. قضيت عام 1904 بأكمله أجادل مع المجموعة القيادية للمناشفة في قضايا السياسة والتنظيم، وتركزت هذه الجدالات علىٰ قضيتين: الموقف تجاه الليبرالية، والموقف تجاه البلاشفة. كنت أسعىٰ من أجل بناء مقاومة لا مساومة فيها لمحاولات الليبراليين التقرُّب إلىٰ الجماهير، وفي نفس الوقت، بل وبسبب ذلك، كنت أطالب بالمزيد من الإصرار علىٰ وحدة فصيلي الاشتراكية الديمقراطية.

في سبتمبر، تخليت رسميًّا عن عضويتي في الأقلية؛ فقد توقفت عمليًّا عن النشاط الفعلي في أبريل من نفس العام. وخلال تلك الفترة، قضيت بضعة أشهر بعيدًا عن دوائر المهاجرين الروس في ميونيخ، التي تُعد أكثر مدن ألمانيا ديمقراطيةً وفنًّا. تعرَّفت جيدًا علىٰ

الاشتراكية الديمقراطية البافاريّة، وكذلك معارض ميونيخ ورسامي كاريكاتير سيمبليستسيموس[26].

حتىٰ في وقت المؤتمر ذاته، كان جنوب روسيا بأكمله واقعًا في براثن الإضرابات العمالية، كما تصاعدت اضطرابات الفلاحين أكثر وأكثر، والجامعات باتت في حالة غليان. أوقفت الحرب الروسية اليابانية الحركة لبعضِ الوقت، لكن الكارثة العسكرية للقيصرية دفعت الثورة علىٰ نحوٍ هائل. صارت الصحافة أجرأ، والعمليات الإرهابية أوسع انتشارًا، فيما بدأ الليبراليون يفيقون ليشنوا حملتهم السياسية. بدأت قضايا الثورة في التحوُّل أمام عينيّ فجأة من التجريدات العامة إلىٰ الحقائق الحيَّة.

كان المناشفة، وبالأخص زاسوليتش، يضعون آمالًا كبيرة علىٰ الليبراليين. وحتىٰ قبل المؤتمر، في واحدٍ من اجتماعات هيئة التحرير في مقهىٰ لاندولت، بدأت زاسوليتش تشكو، بتلك النبرة الغريبة التي تعبر فيها علىٰ استحياء عن إصرارها في مثل هذه الحالات، أننا نهاجم الليبراليين أكثر من اللازم. كانت تلك نقطةً حسَّاسةً بالنسبةِ لها. قالت: "أترىٰ كيف يحرصون علىٰ ذلك؟"، موجهةً ناظرَيها إلىٰ لينين الذي كانت تقصده هو بالذات، ثم استطردت: "يطالب ستروف بألا يتنكَّر

---

[26] – مجلة ألمانية أسبوعية ساخرة اعتمدت بشكل كبير على الرسوم الكاريكاتيرية، صدرت منذ أبريل 1896 حتى 1976، بانقطاعٍ من 1944 حتى 1954. (المترجم)

الليبراليون الروس من الاشتراكية، لأنهم إذا فعلوا ذلك، سيلقون مصير الليبراليين الألمان. يقول إن عليهم اتباع نموذج الاشتراكيين الراديكاليين الفرنسيين". رد لينين بابتسامة طروبة علىٰ وجهه كما لو كان يغيظ فيرا إيفانوفا: "علينا أن نضربهم بأقصىٰ قوة". فصاحت زاسوليتش بيأسٍ: "هذا رائع! يأتون إلينا فنضربهم".

كنت مع لينين قلبًا وقالبًا في هذه المناقشة التي كلما احتدت تعمَّقت أكثر وأكثر. وخلال العام 1904، حين وجدت حملة الليبراليين نفسها في طريقٍ مسدود، طرحت سؤال "ماذا بعد؟"، وأجبت عليه علىٰ هذا النحو: لن ينفتح الطريق إلا من خلال إضراب عام تتبعه انتفاضة للبروليتاريا تقود الجماهير ضد الليبرالية. وبالطبع فاقمت إجابتي هذه خلافاتي مع المناشفة.

وفي صباح 23 يناير 1905، عدت إلىٰ جينيف من جولةِ محاضرات، مُنهكًا بعد ليلةٍ بلا نومٍ في القطار. كنت قد اشتريت صحيفة اليوم السابق، وقرأت فيها خبرًا بصيغة المستقبل عن مسيرة العمال إلىٰ قصر الشتاء. ظننت أنها فشلت. وبعد ساعة أو أكثر، استُدعيت إلىٰ مكتب الإيسكرا، ولاقيت مارتوف في غمرة حماسته.

سألته: "إذن، لم تخرج المسيرة؟".

فسارعني بالرد: "ماذا تعني أنها لم تخرج؟ قضينا طيلة الليل في مقهىٰ نقرأ برقياتٍ مُرسلةً للتوِّ من هناك. ألم تسمع بأي شيء؟ ها هي

ذا، وهذه أيضًا، وهذه"، قال ذلك وهو يدفع الأوراق إلىٰ يديّ. انتابني إحساسٌ بالحُرقة حين مررت بعيني علىٰ الأسطر العشرة الأولىٰ من برقية تقرير يوم الأحد الدامي.

في 22 يناير 1905، خرج عمال بطرسبورج بأعدادٍ غفيرة، بزعامة القس جابون، رافعين لافتات الكنيسة وصورة للقيصر. لم أكن أطيق البقاء بالخارج أكثر من ذلك. وفي حين كانت صلتي بالبلاشفة قد انقطعت مع انتهاء المؤتمر، انفصلت عن المناشفة، لذا كان عليّ أن أتحرك علىٰ مسئوليتي الخاصة. ومن خلال أحد الطلاب، حصلت علىٰ جواز سفر جديد، واستقللت مع وزجتي[27]، التي كان عليها السفر إلىٰ الخارج مرة أخرىٰ في خريف 1904، قطارًا إلىٰ ميونيخ. استضافنا بارفوس في منزله، وهناك قرأ مخطوطتي التي تتناول أحداث يوم 22 يناير، فأثارت حماسته، وكتب معلِّقًا: "أثبتت الأحداث هذا التحليل بشكلٍ مؤكد. الآن، لا يمكن إنكار أن الإضراب العام يُعد الوسيلة الأهم في النضال. إن إضراب الثاني والعشرين من يناير هو أول إضراب سياسي، حتىٰ وإن تخفَّىٰ تحت عباءة القس. ربما فقط نضيف أن الثورة الروسية قد تضع علىٰ رأسِ السلطة حكومةً عماليةً ديمقراطية". وعلىٰ هذه الخلفية، كتب بارفوس مقدمةً لمخطوطتي هذه التي صدرت في شكل كراس.

27 – ناتاليا إيفانوفا سيدوفا، زوجة المؤلف الثانية.

لا شكَّ في أن بارفوس واحدٌ من أهم الماركسيين في بداية القرن؛ استخدم أساليب وطرائق الماركسية بمهارة فائقة، وبمنظورٍ واسع الأفق، كما كان يراقب عن كثب كافة التطورات الهامة في الأحداث العالمية. امتزج كل ذلك بتفكيره المقدام وأسلوبه القوي الجريء، مما جعله كاتبًا متميِّزًا. فتحت لي دراساته الأولىٰ أبوابًا للتعرُّف علىٰ معضلات الثورة الاجتماعية، وقد حوَّلت أمامي مسألة انتزاع البروليتاريا السلطة السياسية من هدفٍ فلكيّ "أخير"، إلىٰ مهمةٍ عملية آنية.

إلا أنه ظل هناك دائمًا أمرٌ طائشٌ غير جدير بالثقة في بارفوس؛ فبالإضافة إلىٰ طموحاته الأخرىٰ، كانت رغبةٌ محمومةٌ في الثراء تُمزِّقه. وحتىٰ هذه الرغبة كان قد ربطها، في تلك السنوات علىٰ الأقل، بالأفكار الثورية الاجتماعية. كان يشكو دائمًا من "تحجُّر جهاز الحزب"، قائلًا: "ما نحتاجه، نحن الماركسيون الثوريون، هو صحيفة يومية كبيرة تُنشر بثلاث لغاتٍ أوروبية. لكن من أجل ذلك، لا بدّ من توفير الأموال، الكثير من الأموال"، وهكذا كانت أفكار الثورة والثروة تختلج في داخل هذا الدماغ المثابر الثقيل النشط. حاوَلَ العمال في مسيرتهم تقديم عريضة عبَّروا فيها عمَّا يتعرَّضون له من مظالم، وناشدوا القيصر تحسين معيشتهم. لكن العمال وزوجاتهم وأطفالهم السائرين إلىٰ قصر الشتاء لم يواجهوا إلا قوات الحكومة التي أطلقت عليهم النار، لتقتل وتصيب الآلاف.

أسَّسَ بارفوس دارًا للنشرْ في ميونيخ، لكن الأمور آلت في النهاية إلىٰ فشلٍ ذريع، فعاد إلىٰ روسيا وشارك في ثورة 1905، ورغم أصالة وبراعة فِكره، فَشِلَ تمامًا في الاضطلاع بدورٍ قيادي فيها، وقد تدهورت حالته بشدة بعد هزيمتها. انتقل من ألمانيا إلىٰ فيينا، ومن هناك إلىٰ القسطنطينية مع بداية الحرب العالمية. جنىٰ ثروة طائلة فور اندلاع الحرب من الاستثمار التجاري العسكري. وفي الوقتِ نفسه، خرج علنًا ليدافع عن المهمة التقدمية التي يضعها الجيش الألماني علىٰ عاتقه، وقطع صلته مع الثوريين، وصار واحدًا من قيادات الجناح اليميني للاشتراكية الديمقراطية الألمانية. غنيٌّ عن القول أن ما مِن صلةٍ، سياسية كانت أو شخصية، جمعتني به منذ قيام الحرب.

سافرت، أنا وسيدوفا، من ميونيخ إلىٰ فيينا، في وقتٍ كان المهاجرون قد بدأوا العودة أفواجًا إلىٰ روسيا. كان فيكتور أدلر منغمسًا بالشأن الروسي بشكل كبير، فقام بتوفير الأموال وجوازات السفر، وما شابه، للمهاجرين الروس. وفي منزله، جاء مُصَفِّفُ شعرٍ وأحدث تغييرًا في مظهري، إذ بات مظهري القديم هذا مألوفًا للغاية لدىٰ عملاء الشرطة الروسية بالخارج.

قال لي أدلر: "تلقيت برقيةً من أكسيلورد يخبرني فيها بوصول جابون إلىٰ الخارج، وأنه قد أعلن نفسه اشتراكيًّا ديمقراطيًّا. يا له من أمرٍ مثيرٍ للشفقة. لو أن هذا الرجل قد اختفىٰ تمامًا، لبقيَ أسطورة جميلة، لكنه كمهاجرٍ في المنفىٰ يبدو كشخصية هزلية". ثم أضافَ،

بريقٍ في عينيه خفَّف من وطأة سخريته: "مثل هؤلاء شهداء للتاريخ أفضل من كونهم رفاقًا في الحزب".

وبينما كنت في فيينا، سمعت أخبارًا عن اغتيال الدوق سيرجيوس. كانت الأحداث تتعاقب سريعًا، ووجهت الصحافة الاشتراكية الديمقراطية أنظارها إلىٰ الشرق. سبقتني زوجتي لتدبير مكانٍ للسكن ولتأمين بعض الاتصالات في كييف. وبجواز سفرٍ باسم عرِّيفٍ متقاعدٍ يُدعىٰ أربوزوف، وصلت إلىٰ كييف في فبراير، وأمضيت أسابيع عديدة أتنقَّل من بيتٍ لآخر. سكنت أولًا مع محامٍ شاب كان يخاف من ظله، ثم مع أستاذٍ في المعهد التكنولوجي، ثم مع أرملة لها بعض الآراء الليبرالية، إلىٰ درجة أنني قضيت بعض الوقت في مستشفىً للعيون. وبتعليماتٍ من الطبيب المختص، الذي تفهَّمَ موقفي، غسلت لي الممرضة قدمي، مما أثار خجلي بشدة، ووضعت لي بضعة قطرات مطهِّرةً في عيني. وبسبب هذه القطرة، كان عليّ أن أضاعف من سريَّة عملي، فقد كنت أكتب البيانات خلسةً منها، حيث راقبتني بشكل صارم لتمنعني من أن أرهق عيني. وخلال دورات التفتيش، كان الطبيب يستبعد أحد معاونيه الذي لا يأمن له، ويهرع إلىٰ غرفتي مع الممرضة التي يثق بها، وسرعان ما يغلق الباب ويُنزِل الستائر، وكأننا نستعد لفحص عيني. بعد ذلك، يأخذ ثلاثتنا في الضحك بمرحٍ وسرور، لكن بشيء من الحرص أيضًا.

كان يسألني: "هل معك سجائر؟"، فأرد: "نعم". فيسأل مرة أخرىٰ: "هل لديك ما يكفي؟"، فأجيب: "لديّ ما يكفي". ثم نضحك جميعًا مجددًا، وهكذا ينتهي الكشف، فأعود لكتابة البيانات. كنت مستمتعًا للغاية بهذه الحياة. الأمر الوحيد الذي جعلني أشعر بالخجل من نفسي هو أنني خدعت هذه الممرضة العجوز الخلوقة التي عاملتني بسعةِ صدرٍ وأمانة وغسلت لي قدمي.

كانت ورشة الطباعة السريَّة في كييف قد بدأت في العمل، ورغم الحملات الأمنية والاعتقالات التي طالت الكثيرين، حافظت علىٰ عملها لسنواتٍ عديدة تحت أنف رئيس الشرطة السريَّة نوفيتسكي. ومن نفس المطبعة، صدرت الكثير من بياناتي في ربيع 1905، أما كتاباتي الأطول فقد عهدت بها لمهندسٍ شاب يُدعىٰ كراسين كنت قد قابلته في كييف. كان عضوًا في اللجنة المركزية البلشفية[28] ومسئولًا عن مطبعة سريَّة كبيرة مُجهَّزة جيدًا في مكانٍ ما في القوقاز. ومن كييف، كتبت عددًا من الأوراق وأرسلتها إلىٰ مطبعته التي أحسنت طباعتها، وكان ذلك أمرًا استثنائيًا في ظروف العمل السري وقتها.

كان الحزب، مثله في ذلك مثل الثورة، يافعًا، لذا فقد كان انعدام خبرة الأعضاء وضعف الإنجاز صادمًا. وكراسين مثلهم لم يكن مُنَزَّهًا

28 – كان كراسين، إلى جانب لينين وكراسيكوف، أكبر الأعضاء سنًا في اللجنة المركزية البلشفية في 1905، عن عمرٍ يناهز 35 عامًا لكلٍ منهم. (المترجم)

عن ذلك، لكن كان ثمة شيءٌ صارمٌ وحازمٌ فيه. كان مهندسٌ له بعض الخبرة في مجالِ عمله، يشغل وظيفة ثابتة ويبلي فيها حسنًا، يقدِّره أرباب العمل باعتزاز[29]، وحوله كذلك دائرةٌ من المعارف أوسع كثيرًا وأكثر تنوُّعًا من دوائر أيٍّ من الثوريين الشباب اليوم. كانت صلاته ممتدة، من غرفِ العمال، إلىٰ منازلِ المهندسين، إلىٰ قصورِ أصحاب المصانع الليبراليين في موسكو، كما في الحلقات الأدبية في كلِ مكان. كان يحافظ علىٰ هذه الصلات ببراعة، وبالتالي كانت الإمكانيات العملية مفتوحةً أمامه لفعل أي شيء. وفي 1905، وعلاوة علىٰ مشاركته في العمل الحزبي العام، كان مسئولًا عن أخطر المهام علىٰ الإطلاق، مثل تنظيم الوحدات القتالية، وشراء السلاح، وإعداد المتفجرات، وهلمجرا. رغم اتساع أفقه، كان رجلُ الإنجاز الفوري للمهام، في أمور السياسة كما في شئون الحياة اليومية. بالنسبةِ له، كان ذلك موطن قوة من جانب، وكعب أخيل من جانبٍ آخر. لم يحظ كراسين بنصيبٍ من التدريب السياسي، والتحليل والخبرة النظرية، وحشد القوىٰ والطاقات، تلك الأمور التي استغرقت سنواتٍ طوال. وحينما فشلت ثورة 1905 في تحقيق أهدافها، صارت التقنيات

29 - جديرٌ بالذكر أن بعضًا من أرباب العمل الذين ارتبطوا بكراسين بصلةٍ طيبة كانوا، عن طريقه، يتبرعون شهريًّا بمبالغ مالية للحزب البلشفي في أثناء ثورة 1905، منهم مستثمر ثري يُدعى موروزوف، انتحر بعد هزيمة الثورة، وابن أخيه نيقولاي شميدت، الذي انضم للبلاشفة وفتح مصنعه لعقد اجتماعاتهم، ثم أُلقيَ القبض عليه واغتيل في السجن بعد تعذيبه. (المترجم)

الكهربائية في الصناعة بشكل عام هي شاغله الشاغل. وحتىٰ في هذا المجال، تفوَّق كراسين كرجلٍ أدرك أهدافه وحقَّق إنجازاتٍ استثنائية. لا شك أن تميُّزه في الهندسة قد حقَّق له نوعًا من الرضا النفسي الذي كان قد حظىٰ بمثيله من قبل في النضال الثوري. استقبل الثورة البلشفية بحيرةٍ وذهولٍ وعدائية، كمغامرة محتومة الفشل، ولفترةٍ طويلة لم يكن يؤمن بقدرتنا علىٰ تجاوز الدمار الذي لحق بالبلاد، إلا أنه اندفع لاحقًا إلىٰ آفاق العمل التي انفتحت أمامه.

أما بالنسبةِ لي، فقد كانت صلتي بكراسين في 1905 عطيَّةً من الله. اتفقنا علىٰ أن نتقابل في سان بطرسبورج، وقد زوَّدني بكافة العناوين السريَّة هناك، وأهمها علىٰ الإطلاق كانت مدرسة كونستانتينوفسكي للمدفعية، التي كنت من المفترض أن أقابل فيها كبير الأطباء أليكساندر أليكساندروفيتش ليتيكن، الذي ارتبط مصير عائلته بي لوقتٍ طويل لاحق. كنت قد لجأت لمنزل هذه العائلة، في مبنىٰ المدرسة المطل علىٰ زابالكانسكي، أكثر من مرة في أيام 1905 ولياليها المضنية. زار الكثير من الناس عائلة ليتيكن أمام أعين الحاجب العسكري، لكنه، مثل كافة الموظفين الآخرين، كان ودودًا مع الطبيب. كانت الأمور تمضي بسلاسةٍ ويُسر، دون تقارير تُبعَث إلىٰ الشرطة أو ما إلىٰ ذلك. التحق الابن الأكبر للطبيب، أليكساندر، بالحزب وهو في الثامنة عشر من عمره، وبعد بضعة أشهر قاد حركة الفلاحية في مقاطعة أورلوف، لكنه لم يتحمَّل الضغط العصبي

الرهيب، فسقط مريضًا ومات. أما ابنه الأصغر، إيفجراف، والذي درس الألعاب الرياضية فيما بعد، فقد اضطلع بدورٍ هامٍ في الحرب الأهلية وفي العمل التثقيفي للحكومة السوفييتية، لكن قتله قُطَّاع الطرق في منطقة القرم عام 1921.

عشت في سان بطرسبورج بجوازِ سفرٍ لصاحب أرض يُدعىٰ فيكينتييف. عُرِفت في الدوائر الثورية باسم بيتر بيتروفيتش، ولم أكن بعد رسميًّا عضوًا في أيٍ من فصيلي الحزب. واصلت عملي مع كراسين، الذي كان بلشفيًّا توفيقيًّا في ذلك الوقت. وبسبب وضعيتي هذه بين الفصيلين، صرنا أكثر قربًا فيما بيننا. حافظت في نفس الوقت علىٰ علاقتي بالمجموعة المنشفية المحلية، والتي كانت تتبع سياسةً ثورية مُحكَمة. وتحت تأثيري، دافعت المجموعة عن مقاطعة مجلس الدوما الاستشاري الأول، مما أدخلها في صراعٍ مع المركز المنشفي بالخارج.

لكن الحكومة تمكَّنت من القبض علىٰ المجموعة بعد ذلك بوقتٍ قصير. وفي الحقيقة، كان ذلك بسبب خيانة واحدٍ من أنشط أعضاء المجموعة، شاب يُدعىٰ دوبروسكوكِ، عُرِفَ باسم "نيقولاي ذي النظارة الذهبية"، الذي اكتُشِفَ أنه مخبرٌ محترف. كان علىٰ علمٍ بأنني في سان بطرسبورج، كما عرفني شكلًا. أُلقيَ القبض علىٰ زوجتي في اجتماعٍ يوم عيد العمال في الغابة، وكنت قد اختبأت لفترةٍ، لذا فقد رحلت في الصيفِ إلىٰ فنلندا، ثم ساد السلام لفترةٍ استغللتها في العمل

الأدبي المُكثَّف، كما كنت أتمشَّىٰ لمسافاتٍ قصيرةٍ في الريف. كنت أقرأ الصحف بنهمٍ شديد، أراقب عمل الأحزاب، وأقتطف قصاصات من الصحف، وأجمع وأفنِّد الحقائق. وخلال تلك الفترة، صغت مفهومي عن القوىٰ الداخلية للمجتمع الروسي وآفاق الثورة الروسية.

كتبت حينها أن روسيا تشهد ثورة ديمقراطية برجوازية، وأساس هذه الثورة هو قضية الأرض، أما السلطة فستنتزعها الطبقة أو الحزب الذي سيقود الفلاحين ضد القيصرية وملَّاك الأراضي. لن يقدر الليبراليون، ولا الإنتلجنسيا المثقفة، علىٰ فعل ذلك؛ فدورهم التاريخي قد ولَّىٰ، بينما تحتل البروليتاريا الساحة الثورية برمَّتها. وفقط الاشتراكية الديمقراطية التي يجسِّدها العمال هي التي تستطيع قيادة الفلاحين، وهذا من شأنه أن يفتح أمام الاشتراكية الديمقراطية الروسية أفق الاستيلاء علىٰ السلطة قبل أن يحدث ذلك في بلدان الغرب. وهكذا فإن المهمة الآنية للاشتراكية الديمقراطية هي استكمال الثورة الديمقراطية. لكن فور الاستيلاء علىٰ السلطة، لن يقدر حزب البروليتاريا علىٰ حصر نفسه في البرنامج الديمقراطي، بل سيكون مُلزمًا بتطبيق إجراءاتٍ اشتراكية. إلىٰ أي مدىٰ يمكن أن تسير المجريات في هذا الاتجاه، هذا يعتمد علىٰ علاقات القوىٰ في روسيا نفسها، وفي الوضع الدولي بأكمله أيضًا. وبالتالي فإن الخط الإستراتيجي الأساسي للحركة يستلزم علىٰ الاشتراكية الديمقراطية،

بينما تناضل ضد الليبرالية من أجل قيادة الفلاحين، أن تُعِد نفسها لمهمة الاستيلاء على السلطة حتىٰ أثناء تقدُّم الثورة البرجوازية.

ارتبطت مسألة الآفاق العامة للثورة مباشرةً وبشكلٍ لصيق بالمعضلات التكتيكية. فقد كان الشعار المركزي للحزب هو مطلب الجمعية التأسيسية، لكن مسار النضال الثوري نفسه قد وضع علامات الاستفهام حول من يعقد الجمعية التأسيسية، وكيف. ومع توقُّع انتفاضة شعبية بزعامة البروليتاريا، من المنطقي أن تُطرح مسألة تأسيس حكومة ثورية انتقالية، وهنا يرتبط الدور القيادي للبروليتاريا في الثورة بتأمين نصيبها الحاسم في الحكومة الانتقالية.

حفَّزت هذه القضية نقاشاتٍ حيوية في الدوائر العليا للحزب، وكذلك بيني وبين كراسين. كتبت بعض الأطروحات التي جادلت فيها بأن انتصارًا كاملًا للثورة علىٰ القيصرية يعني إما اعتلاء البروليتاريا السلطة بدعمٍ من الفلاحين، أو علىٰ الأقل تحقيق خطوة مباشرة في هذا الاتجاه. أفزعت هذه الفكرة كراسين، وصحيحٌ أنه وافق علىٰ شعار حكومة ثورية انتقالية، وكذلك البرنامج الذي صغته لها، إلا أنه رفض إرساء أية قواعد مُسبَّقة بخصوص أغلبية اشتراكية ديمقراطية في الحكومة. لكن علىٰ أية حال، طُبِعَت هذه الأطروحات بهذا الشكل في سان بطرسبورج، وأخذها كراسين بنفسه ليدافع عنها في المؤتمر العام للحزب الذي كان من المُفترض أن يُعقد بالخارج في مايو، إلا أن المؤتمر لم يُعقد. لكن كراسين شارك بحيوية في النقاشات

حول قضية الحكومة الانتقالية في المؤتمر البلشفي، وعَرَضَ أطروحاتي كتعديلٍ علىٰ مسودة قرار لينين. كانت هذه الفترة مثيرةً للغاية علىٰ المستوىٰ السياسي، حتىٰ أنني قد أكون مُلزَمًا بالاقتباس من محضر مؤتمر البلاشفة ما يلي. قال كراسين:

"فيما يخص قرار الرفيق لينين، فإنني أرىٰ موطن ضعفه في عدم تشديده علىٰ مسألة الحكومة الانتقالية، وعدم إشارته بما يكفي من الوضوح للعلاقة بين الحكومة الانتقالية والانتفاضة المسلحة. وفي الحقيقة، فإن الحكومة الانتقالية تؤسسها الانتفاضة الشعبية كجهازٍ لها... وجدت لاحقًا في القرار رأيًا خاطئًا بأن الحكومة الثورية الانتقالية ستظهر فقط بعد الانتصار النهائي للانتفاضة المسلحة وبعد الإطاحة بالأوتوقراطية. كلا، إنها تنشأ في عملية الانتفاضة نفسها، وتؤدي دورها الأكثر حيوية في مسار الانتفاضة، لتضمن انتصار الانتفاضة بفعلها المنظم. من السذاجة القول بأن الاشتراكية الديمقراطية ستكون قادرة علىٰ المشاركة في الحكومة الثورية الانتقالية في اللحظة التي تسقط فيها الأوتوقراطية بشكل كامل؛ إذا انتُزِعَت الكستناء من النار بأيادٍ غير أيادينا، لن يفكر أحدٌ في مشاركتنا إياها".

كان هذا بيان أطروحاتي تقريبًا بشكل حرفي.

أما لينين، الذي طرح، في تقريره الافتتاحي، القضية في إطارها النظري الصرف، فقد تقبَّل وجهة نظر كراسين بسعةِ صدر، فقال:

"بالنظر إلىٰ هذه القضية بشكلٍ عام، فإنني أشارك الرفيق كراسين هذا الرأي. من الطبيعي بالنسبةِ لي، كرجلٍ مثقف، أن أركز انتباهي علىٰ الشكل الثقافي للقضية. أشار الرفيق كراسي إلىٰ الهدف من النضال بدقة، وأنا أشاركه هذه الرؤية بشكلٍ كامل. لا يمكن للمرء أن ينخرط في نضالٍ دون أن يتوقع اعتلاء الموقع الذي يناضل من أجله".

جرىٰ التعديل علىٰ قرار لينين بالفعل. وربما يكون من غير المجدي هنا أن أشير إلىٰ أن خلال سجالات الأعوام السابقة. كان قرار المؤتمر الثالث هذا حول مسألة الحكومة الانتقالية يُجترّ مئات المرات كما لو أنه معارضٌ "للتروتسكية". إن "الأساتذة الحُمر" في مدرسة ستالين ليس لديهم أدنىٰ فكرة عن أنهم يقتبسون ضدي، كمثالٍ من اللينينية، نفس السطور التي كتبتها بنفسي.

لم تكن البيئة التي عشت فيها في فنلندا، حيث التلال وأشجار الصنوبر والبحيرات ونسيم الخريف العليل والسلام السائد، تذكِّرني بأي ثورةٍ دائمةٍ إلا نادرًا للغاية. وفي نهاية سبتمبر، انتقلت من مسكني في الغابة علىٰ شاطئ البحيرة إلىٰ داخل فنلندا في نُزُلٍ معزولٍ اسمه "راوها"، ويعني بالفنلندية "سلام". كان نُزُلًا شبه خالٍ في الخريف، لكن كان هناك كاتبٌ سويدي مع مُمَثِلةٍ إنجليزية، وغادرا النُزُل قبل أن

يدفعا فاتورة إقامتهما. هرع المالك لملاحقتِهما في هيلسينجفورس، بينما كانت زوجته على فراش الموت، وماتت قبل أن يعود. لم أرها مطلقًا، رغم أن جثتها ظلت في الغرفة فوقي تمامًا. ذهب النادل أيضًا إلى هيلسينجفورس للبحث عن الزوج، فبقيَ في الفندق صبيٌّ صغير لخدمة النزلاء. تساقطت الثلوج بكثافة لتغطي أشجار الصنوبر كالكفن يلفّ الموتى. كان النُزُل أشبه بالموت ذاته.

الصبي الصغير في الأسفل، حيث المطبخ في القبو، والمرأة المتوفاة في الأعلى، حيث ترقد على سريرها، وأنا وحدي. كان حقًّا "سلامًا" من كل النواحي. لا أحد، لا صوت. كتبت وتمشَّيت، وفي المساء، جاء الساعي بحزمةٍ من صحف بطرسبورج، وأخذت أتصفحَّهم جميعًا. بدا أن ثمة عاصفة غاضبة آتيةً من نافذةٍ مفتوحة. كان الإضراب يتسع، متوغِّلًا من مدينةٍ لأخرى. وفي الصمت المُطبِق، تردَّد حفيف الأوراق في أذني كدويّ تَهُور هائل تتشقق فيه جبال الجليد. كانت الثورة في أوجها.

طلبت فاتورتي من الصبي، وطلبت أحصنةً تنقلني، وغادرت "السلام" لألتقي "التيهور". وفي نفس الليلة، كنت ألقي خطابًا في معهد الفنون التطبيقية في سان بطرسبورج.

الفصل الرابع عشر

العام 1905

لم يتطوَّر إضراب أكتوبر وفق خطة محددة، فقد بدأ في مطابع موسكو، ثم هدأ وانحسر ببطء. أما النضالات الحاسمة، فقد خططت لها الأحزاب في ذكرىٰ الأحد الدامي (22 يناير)، لذلك كنت أستكمل عملي في مأواي الفنلندي علىٰ عجالة. لكن فجأة، امتد الإضراب، الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، إلىٰ السكك الحديدية، ثم انتشر بعد ذلك كالنار في الهشيم. وبعد 10 أكتوبر من ذلك العام، امتد الإضراب، الذي صار يرفع شعاراتٍ سياسية، من موسكو إلىٰ باقي أرجاء البلاد. ما من بلدٍ شهدت إضرابًا عامًّا مثل ذلك من قبل. وفي الكثير من المدن اندلعت الاشتباكات مع قوات الجيش.

وبشكل إجمالي، لم تكن أحداث أكتوبر أكثر من إضراب سياسي، ولم تتخذ سمة الانتفاضة المسلحة. لكن الحكم المطلق قد فقد رأسه وشرع في التراجع. وفي 17 أكتوبر[30]، أعلنت السلطة البيان الدستوري. احتفظت القيصرية الجريحة رغم ذلك بأجهزة السلطة.

---

[30] – التاريخ وفق التقويم اليولياني الذي كان معمولًا به في روسيا آنذاك قبل الثورة، ويتأخر عن التقويم الجريجوري بثلاثة عشر يومًا. إذا ذُكر تاريخٌ مزدوج في السطور التالية، فالتاريخ بين قوسين هو وفق التقويم الجريجوري.

كانت السياسة الحكومية، كما قال ويت، "مزيجًا من الخسة والغدر والعمىٰ والغباء" أكثر من أي وقتٍ مضىٰ. إلا أن الثورة قد أحرزت انتصارها الأول، انتصارًا ليس مكتملًا في حد ذاته، لكن واعدٌ ومبشرٌ بالمزيد.

كتب ويت نفسه بعد ذلك بفترة أن "الجانب الأهم في الثورة الروسية 1905 كان يكمن بالطبع في شعار الفلاحين: "أعطونا الأرض". يمكن بالطبع الاتفاق علىٰ هذا، لكنه استطرد قائلًا: "لم أعزُ أهمية كبيرة لسوفييت العمال، فلم يكن له أية أهمية تُذكر". هذا يثبت فقط أن حتىٰ العناصر الأكثر موهبةً بين البيروقراطيين لم يفهموا أبدًا تأثير وأهمية الأحداث التي كانت بمثابة إنذارٍ أخير للطبقات الحاكمة. رحل ويت عن الدنيا فتجنَّبَ الاضطرار لمراجعة تصوراته حول أهمية سوفييت العمال.

وصلت إلىٰ سان بطرسبورج حين كان إضراب أكتوبر في ذروته. كانت موجة الإضرابات تنتشر أكثر فأكثر، لكن كان لا يزال الخطر قائمًا علىٰ الحركة بأن تخبو دون تحقيق أية نتائج في ظل غياب منظمة مركزية ترشدها. جئت من فنلندا بخطة لمنظمة غير حزبية مُنتخَبة، بمندوبين يمثل كلٌّ منهم ألف عامل. لكن في نفس يوم وصولي، علمت من كاتب يُدعىٰ يوردانسكي (صار فيما بعد السفير السوفييتي في إيطاليا)، أن المناشفة قد أطلقوا بالفعل شعار منظمة ثورية مُنتخَبة علىٰ أساس مندوب واحد لكل خمسمائة رجل. كان هذا صائبًا تمامًا.

أما اللجنة المركزية للحزب البلشفي في سان بطرسبورج في ذلك الوقت، فقد عارضت بحزم طرح منظمة غير حزبية مُنتخَبة، إذ كانت تخشىٰ منافستها للحزب. في نفس الوقت، كان العمال البلاشفة متحررين تمامًا من هذا التخوف. واستمر الموقف العصبوي للقيادات البلشفية تجاه السوفييت حتىٰ عودة لينين في نوفمبر[31].

يمكنني أن أكتب فصلًا كاملًا عن قيادة اللينينيين للحزب دون لينين. أما الأخير، فقد حلَّق عاليًا بعيدًا عن أتباعه الأقرب، الذين شعروا في وجوده بأن ما من حاجة إلىٰ حل المعضلات النظرية والتكتيكية بشكلٍ مستقلٍّ. وحينما شاءت الظروف ألا يكون بينهم في لحظة حرجة، أدهشونا بعجزهم وقلة حيلتهم. كان هذا هو الوضع في خريف 1905، وبعد ذلك أيضًا في ربيع 1917. في كلتا الحالتين، كما

31 - لتوضيح موقف القيادات البلشفية في العام 1905 من التنظيمات العمالية غير الحزبية، وعلى رأسهم سوفييت بطرسبورج، تكفي هنا الإشارة إلى الخطاب الذي أرسلته اللجنة المركزية البلشفية إلى كل منظمات الحزب، في أكتوبر، أي قبل عودة لينين بحوالي الشهر: "تلك التنظيمات، التي تشمل عمالًا غير منظمين سياسيًّا وغير ناضجين اشتراكيًّا، تنشأ خلال الحركة الثورية العفوية للبروليتاريا.. كل من تلك التنظيمات تعبر عن مرحلة معينة من التطور السياسي للبروليتاريا. لكن إذا ظلت بعيدة عن الاشتراكية الديمقراطية، ستبقى من الناحية الموضوعية في خطر يحجز البروليتاريا في مستوى بدائي وبالتالي يُخضع البروليتاريا للأحزاب البرجوازية".
في المقابل، جادل لينين بأن السوفييت لا يمثل فقط شكلًا تنظيميًّا للبروليتاريا في نضالها، لكن أيضًا شكلًا مستقبليًّا لسلطة العمال والفلاحين: "ينبغي النظر سياسيًّا لسوفييت مندوبي العمال باعتباره جنين للحكومة الثورية المؤقتة. كما أعتقد أنه ينبغي على السوفييت إعلان نفسه كحكومة ثورية مؤقتة لعامة روسيا في أقرب وقت بقدر الإمكان، أو أن يؤسس بنفسه حكومة ثورية" (Lenin, Collected Works, vol.10, p.21). (المترجم)

في حالاتٍ أخرىٰ أقل أهمية من الناحية التاريخية، استشعرت قواعد الحزب المسار الصحيح في العمل أفضل بكثيرٍ من أشباه القيادات الذين تُركوا ليعتمدوا علىٰ أنفسهم. كان تأخر لينين في العودة من الخارج سببًا، ضمن أسباب أخرىٰ، منعت الفصيل البلشفي من اغتنام موقع قيادي في أحداث الثورة الأولىٰ.

ذكرت من قبل أن ناتاليا سيدوفا كانت قد اعتُقِلَت إثر مداهمة قوة من سلاح الفرسان لاجتماع يوم عيد العمال في الغابة. قضت سيدوفا ستة أشهر في السجن، ثم أُرسلت إلىٰ تفير حيث ظلت تحت مراقبة الشرطة. لكنها عادت إلىٰ سان بطرسبورج بعد بيان أكتوبر. وتحت اسم السيد والسيدة فيكينتييف، استأجرنا غرفة في شقة رجل قرر العمل في المضاربة في البورصة. كان الاستثمار في سوق الأوراق المالية سيئًا، والكثير من المضاربين كانوا يؤجرون غرفًا من شققهم للغرباء. كان باعة الصحف يجلبون لي كل الصحف المنشورة كل صباح، ويستعيرها صاحب الشقة من زوجتي أحيانًا؛ يقرأها ويَصرّ علىٰ أسنانه. كان عمله في البورصة من سيئ لأسوأ، وفي يومٍ اقتحم غرفتنا شاهرًا صحيفة في يده، وقد أشار بإصبعه إلىٰ مقالتي الجديدة، صارخًا: "انظري. صباح الخير علىٰ صعاليك سان بطرسبورج.. انظري. إذا صادفت خريج السجون هذا، فسوف أطلق عليه النار بهذا المسدس"، وأخرج مسدسًا من جيبه ولَوَّح به في الهواء. بدا كالمجنون الذي يستحق الشفقة. جاءت زوجتي إلىٰ مكتبي في مقر

الصحيفة، وأخبرتني بما حدث، فأحسسنا أن علينا البحث عن سكنٍ جديد، لكن لم يكن لدينا أي وقت لذلك، ولا حتىٰ دقيقة واحدة، لذا اتكلنا علىٰ ثقتنا في القدر. بقينا مع هذا المضارب البائس حتىٰ أُلقيَ القبض عليّ. ولحسن الحظ، لم يكن هو ولا الشرطة يعرفون أي شيء عن هوية فيكينتييف، وحتىٰ بعد القبض عليّ، لم تفتش الشرطة الغرفة.

عُرِفت في السوفييت باسم يانوفسكي، علىٰ اسم القرية التي وُلِدت فيها. أما في الصحافة، فكتبت باسم تروتسكي. اعتدت أن أعمل في ثلاث صحف؛ حيث توليت مع بارفوس صحيفة "الجازيت الروسية" الصغيرة، وطورناها فأضحت أداةً نضالية هامة للجماهير. وفي خلال أيامٍ قليلة، زاد التوزيع من ثلاثين ألفًا إلىٰ مائة ألف نسخة، ثم بعد شهر وصل إلىٰ نصف مليون. لم تكن إمكانياتنا التقنية تسمح لنا بالإبقاء علىٰ تطور الجريدة ونموها، وفي النهاية خلَّصتنا مصادرة الحكومة للصحيفة من كل هذه المصاعب.

وفي 13 (26) نوفمبر، بدأت في إصدار صحيفة سياسية كبيرة بالتحالف مع المناشفة، كانت هذه صحيفة "ناشالو" (البداية)، وكان توزيعها يقفز بوثبات فائقة. وعلىٰ عكس الصحيفة البلشفية "نوفايا جيزن" (الحياة الجديدة)، التي كانت رتيبة للغاية بدون لينين، حققت "ناشالو" نجاحًا مبهرًا. أعتقد أن هذه الصحيفة تشبه إلىٰ حدٍّ كبير، أكثر من أي صحيفةٍ أخرىٰ في النصف قرن الماضي، نموذج "الجريدة

الرينانية الجديدة" الكلاسيكي، تلك الصحيفة التي أصدرها ماركس في 1848. كان كامينيف، عضو هيئة تحرير "نوفايا جيزن"، قد حكىٰ لي بعد ذلك كيف كان يراقب بيع الصحف في المحطات التي كان يعبر عليها في القطار. كانت طوابير لا نهائية تنتظر قطار سان بطرسبورج، والطلب كان حصريًا علىٰ الصحف الثورية. كان المُحتَشِدون ينادون "ناشالو، ناشالو، ناشالو"، ثم "نوفايا جيزن"، ثم مرة أخرىٰ "ناشالو، ناشالو، ناشالو". حدَّثني كامينيف: "قلت لنفسي بشعورٍ من الامتعاض: "إنهم يكتبون في "ناشالو" أفضل منا".

وإلىٰ جانب "الجازيت الروسية" و"ناشالو"، كنت أكتب أيضًا المقالات الافتتاحية لـ"الإزفستيا" (الأخبار)، الصحيفة الرسمية للسوفييت، علاوة علىٰ نصوص البيانات والقرارات، إلخ. كانت أيام السوفييت الاثني وخمسين تعج بالنشاط إلىٰ حد الغرق؛ السوفييت ولجنته التنفيذية، والاجتماعات التي لا تنقطع، وثلاث صحف. لا يزال من غير الواضح بعد، حتىٰ بالنسبة لي، كيف عشنا حياتنا في القلب من هذه الدوَّامة. لكن الكثير من أحداث الماضي تبدو، حين نتذكرها، عصيَّة علىٰ التصديق، ونحن إذا فقدنا نشاطنا نظرنا إلىٰ أنفسنا من الخارج. كنَّا في قمة الحيوية والنشاط. لم نكن فقط هائمين في هذه الدوَّامة، لكننا ساهمنا في خلقها منذ البداية. كنَّا نفعل كل شيء في عجالة وبسرعة شديدة، لكن في النهاية ليس علىٰ نحوٍ سيئ، بل بعض الأمور تمت بشكل جيد جدًّا. كان محررنا المسئول، الدكتور

هيرتزنستاين، وهو ديمقراطي قديم، يتطفل علينا أحيانًا في مكاتب "ناشالو"، ملتحفًا بالمعطف الطاهر للأمير ألبرت، يقف في منتصف الغرفة، وينظر إلىٰ الفوضىٰ العارمة فيها بكثيرٍ من المودة. بعد ذلك بعام، كان عليه أن يُواجَه في المحكمة بتهمة ثورية جريدة لم يكن له عليها أدنىٰ تأثير. لم يتخلَّ عنّا الرجل العجوز، بل علىٰ العكس؛ فقد أخبر المحكمة، والدموع في عينيه، كيف كان محررو الصحيفة الأكثر شعبية يأكلون في فترات راحتهم البيروجكي32 العفنة التي يجلبها الحاجب من أقرب مخبز ملفوفةً في ورقٍ قديم. كان علىٰ العجوز أن يقضي عامًا خلف القضبان علىٰ ثورة لم يُكتب لها النجاح، وعلىٰ إخائه لنا.. وعلىٰ البيرجوكي العفنة.

كتب ويت بعد ذلك في مذكراته عن 1905: "بدا أن أغلبية الشعب قد جن جنونه". هكذا تبدو الثورة بالنسبة لمحافظ مثل ويت كجنون جماعي، فقط لأنها ترفع الجنون "العادي" للتناقضات الاجتماعية إلىٰ أقصىٰ درجات التوتر. تمامًا كما يغضب الناس حين يتعرَّفون علىٰ أنفسهم مرسومين في كاريكاتير ساخر. وكما يُكثِّف التطور الحديث التناقضات ويُبرزها، فإنه بالتالي يُعد هذه الحالة الذهنية التي "يجن جنون" الأغلبية العظمىٰ فيها. لكن في مثل هذه

32 – البيروجكي: فطيرة روسية صغيرة محشوَّة بالأرز، واللحم أو السمك.

الحالات، ترتدي الأقلية العاقلة قميص المجانين علىٰ يد الأغلبية المجنونة. وبفضل ذلك يتحرك التاريخ إلىٰ الأمام.

ليست الفوضىٰ الثورية علىٰ الإطلاق كالزلازل أو الفيضانات مثلًا، ففي ظل اضطرابات الثورة يبدأ نظامٌ جديد في التشكل علىٰ الفور، ويضع الناس، وكذلك الأفكار، أنفسهم في قنواتٍ ومساراتٍ جديدة. تبدو الثورة جنونًا فقط بالنسبة لمن تطيح بهم وتكنسهم. أما بالنسبة لنا فالأمر مختلف؛ هذا هو مجال حياتنا، رغم كونه عاصفًا بشدة. كان الوقت والمكان مُتوَفِّرَين لفعل كل شيء؛ كان البعض يعيشون حياتهم الشخصية كما يريدون، يقعون في الحب، ويتعرفون علىٰ أصدقاءٍ جدد، ويترددوا حتىٰ علىٰ المسارح الثورية. علىٰ سبيل المثال، انجذب بارفوس بشدة لمسرحيةٍ ساخرةٍ جديدة، إلىٰ درجة أنه ابتاع خمسين تذكرة ودعا أصدقاءه لحضور العرض التالي (لا بد أن أوضح هنا أنه لم يكن قد دفع ثمن تذكرته في اليوم السابق - كان مدعوًّا). وحين ألقت عناصر الشرطة القبض عليه، وجدوا في محفظته خمسين تذكرة، وظلت أدمغتهم تضرب أخماسًا في أسداس لحل هذا اللغز. لم يدركوا أن بارفوس كان يفعل كل شيء بكل طاقة ممكنة.

أيقظ السوفييت جماهير عريضة من الشعب، وأيده العمال علىٰ قلب رجلٍ واحد. استمرت الاضطرابات في الريف، وأيضًا في صفوف

قوات الجيش العائدة من الشرق الأقصىٰ بعد صلح بورتسماوث[33]، لكن كتائب الحرس والقوزاق ظلت متماسكة. كانت كل عناصر إنجاح الثورة موجودة بالفعل، لكن لم تكن قد نضجت بعد.

في 18 أكتوبر، اليوم التالي بعد إصدار البيان التأسيسي، احتشد عشرات الآلاف من الناس أمام جامعة سان بطرسبورج، منتشين بفرحة الانتصار الأول. صحت فيهم من الشرفة بألا يثقوا في انتصارٍ غير مكتمل، وبأن العدو عنيد، وأن هناك الكثير من الأفخاخ تُعد لنا. مزَّقت بيان القيصر أشلاءً نثرتها في الهواء. لكن مثل هذه التحذيرات السياسية لم تفعل سوىٰ أن خدشت سطح الوعي الجماهيري، فقد كانت الجماهير في حاجة للتعلُّم في مدرسة الأحداث الكبيرة.

في هذا السياق، أتذكر واقعتين خلال الفترة التي ظل فيها سوفييت سان بطرسبورج علىٰ قيد الحياة. الأولىٰ في 29 أغسطس، حين سرت الإشاعات لتملأ شوارع المدينة بأن المائة السود يعدون العدة لارتكاب المذابح. جاء المندوبون من مصانعهم وورشهم إلىٰ الاجتماع، وأظهروا عيّناتٍ من الأسلحة التي صنعها العمال للدفاع ضد المائة السود. كانوا يلوِّحون بسكاكينهم وخناجرهم وأسواطهم في الهواء، لكن بمزاحٍ أكثر من الجد، وبالكثير من الدعابة. بدا أنهم

---

33 - عُقِدَ صلح بورتسماوث في 5 سبتمبر 1905، برعاية الرئيس الأمريكي آنذاك ثيودور روزفلت، لإنهاء الحرب الروسية اليابانية التي نشبت في 8 فبراير 1904.

يظنون أن استعدادهم لمجابهة العدو وحده كافٍ لحل المشكلة، كما بدا أن معظمهم لم يفهم بعد أن هذا نضال حياة أو موت. لكنهم تعلموا ذلك في أيام ديسمبر.

وفي مساء 3 ديسمبر، حاصرت القوات سوفييت سان بطرسبورج، وأغلقت كل المداخل والمخارج. ومن مكاني في الشرفة، حيث عقدت اللجنة التنفيذية اجتماعها، صحت في مئات المندوبين الذين احتشدوا في القاعة، صارخًا: "لا تقاوموا. لا تسلموا السلاح". هذا السلاح كان مسدسات بالأساس. ثم بدأ العمال، في القاعة التي تحاصرها مفارز المشاة والفرسان والمدفعية، يحطمون الأسلحة. فعلوا ذلك بأيادٍ متمرسةٍ خبيرة، ضاربين بندقية الماوزر بالبراونينج، محطمين بندقية البراونينج بالماوزر. حينها، لم يكن الأمر علىٰ سبيل "الدعابة" كما كان في 29 أكتوبر. ومن خلف قرقعة الحديد الملتوي والمتحطم، كان صرير أسنان البروليتاري الذي أدرك لأول مرة أن نضالًا أكثر قسوة وأكثر مشقة ضروريٌّ للإطاحة بالعدو وتحطيمه.

كان انتصار إضراب أكتوبر ذا أهمية نظرية وعملية هائلة. لم تكن معارضة البرجوازية الليبرالية هي التي أركعت القيصرية علىٰ ركبتيها، ولا انتفاضات الفلاحين، ولا الأعمال الإرهابية لنخب المثقفين، بل إضراب العمال هو ما فعل ذلك. لقد أبرزت القيادة الثورية للبروليتاريا نفسها كحقيقة لا جدال فيها وغير قابلة للشك. شعرت بأن نظرية الثورة الدائمة قد اجتازت اختبارها الأول بنجاح، فقد فتحت

الثورة أمام البروليتاريا أفقًا جديدًا؛ ألا وهو الاستيلاء علىٰ السلطة. ولم تنجح سنوات التراجع، التي أعقبت ذلك بوقتٍ قصير، في إرجاعي عن هذا الموقف. لكن، من خلال هذه المقدمات، استخلصت أيضًا بعض الاستنتاجات فيما يخص الغرب. فإذا كانت البروليتاريا الروسية حديثة النشأة بهذه القوة، فكيف سيبدو جبروت البروليتاريا الثورية في البلدان الأكثر تقدمًا؟

بعد ذلك بوقتٍ طويل، كتب لوناتشارسكي، بأسلوبٍ مُهمِلٍ وغير دقيق، كان غريبًا عنه، واصفًا منظوري الثوري كالتالي:

"رأىٰ الرفيق تروتسكي في 1905 أن الثورتين (البرجوازية والاشتراكية)، رغم أنهما غير متزامنتين، إلا أنهما مرتبطتان ببعضهما بشكلٍ ما، بيد أنهما يشكلان معًا ثورةً دائمة. فبعد أن دخلت روسيا في مرحلة ثورية من خلال ثورة برجوازية سياسية، لن تتمكَّن هذه الحلقة الروسية من العالم، إلىٰ جانب الحلقات الأخرىٰ، من الهرب من هذه الفترة إلا باكتمال الثورة الاشتراكية. لا يمكن إنكار أن الرفيق تروتسكي، في صياغة وجهة النظر هذه، إنما يُبرز رؤيةً عظيمة، ولو أنه قد أسقط ما يقرب من خمسة عشر عامًا".

لم تتعمَّق هذه الملاحظة بإسقاطي خمسة عشر عامًا إلا في تكرار كارل راديك لها لاحقًا. لقد بنينا كل تقديراتنا وشعاراتنا في العام 1905 علىٰ أساس فرضية ثورة منتصرة، وليس علىٰ أساس هزيمتها.

لم نؤسس الجمهورية، ولم نوزع الأرض، ولم ننتزع مطلب ثمان ساعات ليوم العمل، هل هذا يعني أننا أخطأنا في طرح هذه المطالب؟ لقد غطَّت هزيمة الثورة علىٰ كافة التوقعات، ليس فقط تلك التي كنت قد طرحتها. والمسألة هنا لا تتعلَّق بمواعيد الثورة وتواريخها، بل بتحليل قواها الداخلية وباستطلاع تقدمها العام والإجمالي.

ماذا عن علاقة لينين بي خلال ثورة 1905؟ منذ وفاته، أُجرِيَت الكثير من المراجعات علىٰ التاريخ الرسمي، وعلىٰ 1905 أيضًا، لتصوير هذه العلاقة وكأنها نضالٌ قد اندلع بين قوىٰ الخير والشر. لكن أين الحقيقة؟ لم يضطلع لينين بدورٍ نشطٍ في عمل السوفييت، ولم يتحدَّث هناك قط. لكن مما لا شك فيه أنه راقب خطوات السوفييت عن كثب، وأثَّر في سياساته من خلال ممثلي الفصيل البلشفي فيه، كما شرع في شرح وتفصيل عمل السوفييت في صحيفته، ولم تكن هناك ثمة قضية اختلفت فيها مع سياساته. علىٰ الناحية الأخرىٰ، تشهد الوثائق علىٰ أنني قمت بصياغة كل قرارات السوفييت، ربما باستثناء القليل من القرارات العارضة غير ذات الأهمية الكبيرة، حيث كنت أبعث بهم أولًا إلىٰ اللجنة التنفيذية، ثم أطرحها أمام السوفييت باسمها. وحينما تأسَّسَت اللجنة الاتحادية بين ممثلي البلاشفة والمناشفة، كنت أنا ممثلها أمام اللجنة التنفيذية. ولم يكن هناك أي خلاف في هذا الصدد.

انتُخِبَ أول رئيس للسوفييت قبل وصولي من فنلندا. كان محاميًا شابًّا يُدعىٰ خرستاليوف؛ وجهًا عارضًا في الثورة يمثل مرحلةً انتقاليةً بين القس جابون والاشتراكية الديمقراطية. وبالرغم من أنه ترأس السوفييت، لم يُقدِّم أية قيادة سياسية تُذكر. وبعد القبض عليه، انتُخِبَت لجنة رئاسية صرت علىٰ قمتها. كتب سفيرتشكوف، وهو واحد من أبرز أعضاء السوفييت، في مذكراته، ما يلي:

"كان ليف دافيدوفيتش تروتسكي هو القيادي الفكري للسوفييت، أما رئيس السوفييت نوسار خرستاليوف، فلم يكن سوىٰ واجهة، بيد أنه لم يكن يستطيع حل معضلة رئيسية واحدة بنفسه. كان رجلًا مبالغًا في الغرور الذي كان في الأغلب مرضًا لديه، صار يكره تروتسكي بسبب الضرورة المستمرة للعودة إليه في كل مرة يحتاج فيها المشورة أو التوجيه".

كتب لوناتشارسكي أيضًا في هذا الصدد:

"أتذكر أن قال شخصٌ ما في وجود لينين: من الواضح أن نجم خرستاليوف يخبو. الرجل الأقوىٰ في السوفييت اليوم هو تروتسكي. تجهَّم وجه لينين للحظة، ثم قال: حسنًا، فاز تروتسكي هذه المرة بعمله الدؤوب الذي لا يعرف كللًا ولا مللًا".

كانت العلاقة بين محرري الصحيفتين طيبة وودية للغاية. لم يدخلوا في أي سجالات ضد بعضهما البعض في تلك الفترة، بل لقد كتبت الصحيفة البلشفية "نوفايا جيزن": "صدر العدد الأول من "ناشالو". نحن نرحب بها كرفيق في النضال. ويتميز هذا العدد بالعرض الرائع الذي قدمه الرفيق تروتسكي لإضراب أكتوبر". عادةً لا يكتب الناس بمثل هذه الطريقة حين يتصارعون ضد بعضهم. ما من صراع كان قائمًا بين الصحيفتين، بل علىٰ العكس؛ فقد دافعت الصحيفتان عن بعضهما في مواجهة النقد البرجوازي. وحتىٰ بعد وصول لينين، قدمت "نوفايا جيزن" دفاعًا عن مقالاتي عن الثورة الدائمة. وعلاوة علىٰ ذلك، التزمت الصحيفتان، والفصيلان الحزبيان كذلك، بخط استعادة وحدة الحزب. أما اللجنة المركزية البلشفية، فقد مررت قرارًا بالإجماع، وبمشاركة لينين، يعتبر أن الانقسام كان نتيجة ظروف المنفىٰ في الخارج، وقد سحبت أحداث الثورة البساط من تحت أقدام الصراع الحزبي. دافعت عن نفس هذا الخط في "ناشالو"، فقط مع مقاومة سلبية من جانب مارتوف.

بذل المناشفة كل ما بوسعهم للإبقاء علىٰ أنفسهم يسارًا، لكن موقفهم تغيَّر فقط بعد الضربة الأولىٰ للرجعية. في فبراير 1906، تذمَّر القيادي المنشفي مارتوف، في خطابٍ إلىٰ أكسيلورد قائلًا: "لشهرين حتىٰ الآن... لا أقدر علىٰ إنهاء أي عملٍ أبدأ فيه. إما أن يكون هذا وهن عصبي أو إرهاق ذهني، لكنني لا أستطيع شحذ أفكاري معًا".

لم يكن مارتوف يعرف ماهية عِلَّته، رغم أن لها اسمًا صريحًا: "المنشفية". في عصر الثورة، تعني الانتهازية في المقام الأول التردد والعجز عن "شحذ الأفكار".

وبينما بدأ المناشفة يتأسفون وينتقدون سياسات السوفييت علنًا، دافعت عن هذه السياسات في الصحافة الروسية، وبعد ذلك في الإصدارات الألمانية، وكذلك في المجلة البولندية التي حررتها روزا لكسمبورج. ومن خلال الصراع على تراث ومنهاج 1905، أصدرت كتابي، الذي صدر أولًا بعنوان "روسيا في الثورة"، ثم أُعيد طبعه عدة مرات في الكثير من البلدان بعنوان "1905". اعتُبِرَ هذا الكتاب، بعد ثورة أكتوبر، الكتاب الرسمي للحزب عن ذلك العام، ليس فقط في روسيا، بل بين الأحزاب الشيوعية في الغرب أيضًا. وفقط بعد وفاة لينين، حين بدأت حملةٌ منظمة جيدًا ضدي، أضحى هذا الكتاب في مرمى النيران. في البداية، كان الهجوم محصورًا في بعض الملاحظات التافهة والمؤسفة، لكن تدريجيًا بعد ذلك بات النقد أكثر جرأة، حيث نما وتضاعف وصار أكثر تدخلًا وغرورًا، بل وأكثر صخبًا للتغطية على توتره وقلة حيلته. وبهذه الطريقة اختُلِقَت أسطورة الصراع السياسي بين لينين وتروتسكي أثناء ثورة 1905.

مثَّلت ثورة 1905 حدًّا فاصلًا في حياة البلاد، وفي حياة الحزب، وكذلك في حياتي الشخصية. وهذا الحد الفاصل كان بوابة العبور إلى نضجٍ أكبر وأعظم. لقد كان عملي الثوري في نيقولاييف بمثابة تجربةٍ

محليةٍ ساد عليها التخبُّط. إلا أنها تجربة لم تمر هكذا دون أثر، فلم أحظَ في حياتي بعد ذلك بمثل هذه الصلة القريبة مع عمالٍ عاديين مثلما عاصرت في نيقولاييف. لم يكن لي في ذلك الوقت "اسمًا"، ولم يكن هناك شيءٌ يحول بيننا. انطبعت الأنماط الأساسية للبروليتاريا الروسية في وعيي إلىٰ الأبد، وفي السنوات اللاحقة لم أصادف قط من شذَّ عنها. وفي السجن، كان عليّ أن أبدأ تثقيفي الثوري من الصفر تقريبًا. وقد أتاح لي عامان ونصف في السجن، وعامان آخران في منفاي السيبيري، فرصة التأسيس النظري لرؤية ثورية للحياة. بينما كانت إقامتي في الخارج مدرسةً حقيقية للتثقيف السياسي. وبإرشادٍ من الثوريين الماركسيين المتميزين هناك، كنت أتعلم فهم الأحداث من منظور تاريخي واسع في السياق الأممي. ومع قرب انتهاء فترة إقامتي في الخارج، انفصلت علىٰ غير هدىٰ عن الفصيلين القياديين في الحزب؛ البلاشفة والمناشفة. عدت إلىٰ روسيا في فبراير 1905، فيما لم تعد القيادات المهاجرة الأخرىٰ حتىٰ أكتوبر ونوفمبر. لم أتعلم أي شيء من أيٍّ من الرفاق الروس، علىٰ العكس؛ عليّ أن أفترض أنني كنت أستاذ نفسي. تأتي الأحداث في السنوات العاصفة متسارعة في أعقاب بعضها، وعلىٰ المرء أن يتخذ موقعه علىٰ الفور في المكان الصحيح. لم يكد الحبر يجف علىٰ الأوراق، حتىٰ تُرسل البيانات إلىٰ المطابع السرية. وسرعان ما وجدت الأساسات النظرية التي وضعتها لنفسي في السجن وفي المنفىٰ، والأساليب السياسية التي استوعبتها في

الخارج، لأول مرة قيد التطبيق العملي في معمعانِ حربٍ شعواء. وقفت واثقًا في وجه الأحداث، وفهمت آلياتها الداخلية - أو علىٰ الأقل هذا ما أعتقده - ارتأيت تأثيراتها في أذهان العمال، وتوخيت المستقبل في سماتها الرئيسية. ومن فبراير إلىٰ أكتوبر، كانت مشاركتي في الأحداث ذات طبيعة أدبية. اندفعت بقوة في أكتوبر إلىٰ الدوَّامة الهائلة التي كانت، علىٰ المستوىٰ الشخصي، الاختبار الأعظم لقواي. كان لا بد من اتخاذ القرارات تحت دوي النيران.

ليس بوسعي إلا أن أقول أنني كنت أتخذ بوضوح القرارات بنفسي. لم أكن ألجأ أولًا لما يقوله الآخرون، ونادرًا للغاية ما توفرت لديّ الفرصة لاستشارة أحد؛ كان لا بد من فعل كل شيء في عجالة شديدة. ولاحقًا، لاحظت بدهشةٍ وبإحساسٍ من الاستغراب كيف كان كل حدث يباغت أكثر المناشفة كفاءةً ومهارة، مارتوف، علىٰ حين غرة، ويدفع به في هوة التخبُّط والارتباك. وحتىٰ دون أن أفكر في ذلك، إذ لم يكن لديّ الوقت لأتفحَّص نفسي، أحسست بعمق أنني قد اجتزت سنوات التلمذة والتدرب؛ بالطبع ليس بمعنىٰ أنني توقفت عن التعلُّم. لم أتخل طيلة حياتي عن الإرادة ولا الرغبة في التعلُّم حتىٰ بكثافتهما وإلحاحهما الأوليين. لكن في السنوات اللاحقة كنت أتعلَّم كأستاذ وليس كتلميذ. كنت في السادسة والعشرين حينما اعتُقِلت للمرة الثانية، وجاءت الشهادة بنضجي من عجوزٍ ألماني في السجن كان يرفض بجدية أن يطلق عليّ "شابًّا"، بل كان يناديني باسمي الكامل.

يقدم لوناتشارسكي، في كتابه "لوحات ثورية" الذي اقتبستُ منه في هذا الفصل، والذي يقع تحت طائلة الحظر الآن، وصفًا تقديريًا للأدوار التي اضطلع بها قادة الثورة الأولىٰ:

> "كانت شعبية تروتسكي في أوساط عمال بطرسبورج حين إلقاء القبض عليه هائلة وازدادت أكثر نتيجة تصرفه الرائع [؟] والبطولي [؟] في المحكمة. ويجب أن أقول إن تروتسكي، رغم صغر سنه، برهن بما لا يقبل الشك أنه كان متهيئًا لثورة 1905 أكثر من جميع القادة الاشتراكيين الديمقراطيين الآخرين. وكان أقلهم عرضة لذلك النوع من ضيق النظرة الذي أثَّر، كما سبق أن ذكرت، حتىٰ علىٰ لينين. وقد فهم تروتسكي علىٰ نحو أفضل من جميع الآخرين معنىٰ خوض الصراع علىٰ المستوىٰ الوطني الشامل. وخرج من الثورة مسلحًا بشعبية هائلة، بينما لم يكتسب لينين أو مارتوف شعبية كبيرة. أما بليخانوف، فقد خسر كثيرًا بسبب إبدائه ميولًا مشابهة للكاديت. لقد كان تروتسكي مذاك في مقدمة الصف الأول".

هذه السطور، التي كُتِبَت في 1923، هي الأكثر تعبيرًا علىٰ الإطلاق، لأن لوناتشارسكي بات اليوم يكتب العكس من ذلك بالضبط، ليس علىٰ نحوٍ "رائع" ولا "بطولي". الأعمال العظيمة غير ممكنة من دون حدس، أي من دون ذلك الشعور الباطن الذي لا بد أن يكون مُتأصِّلًا ومُترَسِّخًا في طبيعة الفرد نفسها، وربما رغم ذلك يتطور

هذا الشعور ويتعزز بالعمل النظريٰ والعملي. ولا يمكن للتثقيف النظري، ولا الروتين السياسي، أن يستبدل أيٌّ منهما الرؤية السياسية التي تمكِّن الفرد من فهم المواقف المختلفة، ووزن الأمور، واستشراف المستقبل. وتكتسب هذه الموهبة أهمية حاسمة في أوقات التغيرات الحادة والمفاجِئة خلال الثورة. وأعتقد أن أحداث العام 1905 قد أبرزت الحدس الثوري لديّ، ومكَّنتني من الاستناد إليه كدعامة أكيدة لي خلال ما تلىٰ في حياتي. لا بد أن أضيف هنا أن الأخطاء التي وقعت فيها، رغم ما قد تبدو عليه من أهمية ولبعضها أهمية قصوىٰ بالفعل، كانت دائمًا مُتعلِّقة بقضايا ليست أساسية ولا إستراتيجية، بل أمورٍ مشتقة وفرعية مثل قضايا التنظيم. وبكل صدقٍ ومن أعماق ضميري، لا يمكنني أن أتهم نفسي بأية أخطاء خطيرة في تقييمي الإجمالي للموقف السياسي ومنظوره الثوري.

كانت ثورة 1905 في روسيا بمثابة بروفةٍ لثورة 1917. كانت هذه أهميتها في حياة روسيا، وفي حياتي الشخصية أيضًا. لقد شاركت في أحداث 1917 بثقةٍ وعزمٍ لا يلين، إذ كانت هذه الأحداث استكمالًا وتطورًا للنشاط الثوري الذي انقطع مؤقتًا بالقبض علىٰ سوفييت سان بطرسبورج في 3 ديسمبر 1905.

جرىٰ اعتقال السوفييت بعد يومٍ واحد من نشر ما سُمِّيَ بـ"البيان المالي"، الذي يعلن حتمية الإفلاس المالي للقيصرية، ويطلق تحذيرًا بعدم اعتراف الأمة بالديون التي يتكبدها آل رومانوف. قال سوفييت

مندوبي العمال في بيانه: "لم تتمتع الأوتوقراطية بثقة الشعب قط، وهذا الشعب لم يمنحها أية سلطات. لذا قررنا ألا نسمح بتسديد ما اقترضته الحكومة القيصرية حين شنت الحرب علىٰ الشعب بأسره".

ردَّت البورصة الفرنسية علىٰ بياننا، بعد ذلك بعدة أشهر، بقرضٍ جديد بسبعمائة وخمسين ألف فرنك. وانهالت الصحافة الرجعية والليبرالية بالسخرية علىٰ تهديد السوفييت للقيصرية والبنوك الأوروبية. وفي السنوات اللاحقة، ذهب البيان طيّ النسيان، رغم أنه ظل يحضر أحيانًا إلىٰ الأذهان. ولقد تزامن إفلاس القيصرية، الذي كان نتيجة لكل تاريخها الماضي، مع هزيمتها العسكرية. ولاحقًا بعد انتصار الثورة، أصدر مجلس مفوَّضي الشعب مرسومًا في 10 فبراير 1918 يقضي بإلغاء كافة ديون القيصرية، ويظل هذا المرسوم قائمًا حتىٰ يومنا هذا. وبالطبع من الخطأ القول، كما يفعل البعض، أن ثورة أكتوبر لم تعرف أي التزامات، إذ تعهدت الثورة وأوفت تمام الإيفاء بالتزاماتها "هي". والالتزام الذي كانت قد تعهدت به علىٰ نفسها في 2 ديسمبر 1905، نفَّذته في 10 فبراير 1918. ولها الحق الكامل في تذكير دائني القيصرية بذلك: "أيها السادة، لقد حذَّرناكم منذ وقتٍ طويل".

من هذه الزاوية، كما من زوايا أخرىٰ كثيرة، كان العام 1905 إعدادًا لـ 1917.

الفصل الخامس عشر

المحاكمة والمنفى والهروب

بدأت دورة السجن الثانية، لكن تحمُّلها كان أسهل كثيرًا من الأولىٰ، حيث كانت الظروف أكثر قبولًا بما لا يُقاس بما كان عليه الأمر قبل ثمانية أعوام. قضيت مدةً قصيرة في سجن "كريستي"، ثم قلعة بطرس وبولس، وفي النهاية انتقلت إلىٰ سجن الحبس الاحتياطي. وقبل نفينا إلىٰ سيبيريا، أرسلونا إلىٰ سجن انتقالي. قضيت في السجن إجمالي خمسة عشر شهرًا. ولكل سجن خصائصه الغريبة التي علىٰ المرء أن يكيِّف نفسه وفقها، لكن الإقامة في السجون مضجرة حقًّا، فبرغم اختلافها تبقىٰ السجون كلها شبيهة ببعضها.

دخلت مرة أخرىٰ في فترة من العمل العلمي والأدبي المنتظم، فقد درست نظرية الإيجار وتاريخ العلاقات الاجتماعية في روسيا. وقد فقدت عملي الكبير، غير المكتمل، عن نظرية الإيجار، خلال السنوات الأولىٰ بعد ثورة أكتوبر. ولعل هذه هي الخسارة المأساوية الأكبر، إلىٰ جانب فقدان عمل آخر لي عن الماسونية. كنت قد لخَّصت دراساتي عن التاريخ الاجتماعي لروسيا في مقالةٍ طويلةٍ بعنوان "نتائج وتوقُّعات" كانت في تلك الفترة بمثابةِ إعلانٍ أكثر اكتمالًا لإثبات نظرية الثورة الدائمة.

بعد الانتقال إلىٰ سجن الحبس الاحتياطي، سُمِحَ للمحامين بزيارتنا. ولقد حفَّزت الدوما الأولىٰ الحياة السياسية بشكلٍ ما، حيث انتشرت الصحف مجددًا، وأخذت دور النشر الماركسية دفعة جديدة. وقد حمَّستني الظروف الجديدة للعودة إلىٰ الكتابة السياسية النضالية. شرعت في الكتابة بنهمٍ شديد في السجن، فيما كان المحامون يأخذون مخطوطاتي في حقائبهم. ينتمي كتيب "بيتر ستروف في السياسة" إلىٰ هذه الفترة. كنت أعمل بحماسة شديدة إلىٰ درجة باتت فيها فترة الترَيُّض في باحة السجن واجبًا مزعجًا بالنسبة لي. هذا الكتيب، الذي كان موجهًا ضد الليبرالية، جاء بالأساس علىٰ سبيل الدفاع عن سوفييت سان بطرسبورج، وعن انتفاضة ديسمبر المسلحة في موسكو، وعن السياسات الثورية بشكل عام في مواجهة انتقادات الانتهازيين. تلقت الصحافة البلشفية الكتيب بشكل ودي متعمَّد، بينما لم تنطق الصحافة المنشفية ببنت شفة، وقد بيعت عشرات الآلاف من نسخ الكتيب في خلال أسابيع قليلة.

كان سفيرتشكوف، الذي شاركني السجن، قد وصف لاحقًا هذه الفترة في كتابه "فجر الثورة": "كتب ليف دافيدوفيتش تروتسكي، الذي كان يعمل تحت ضغوط كبيرة، أجزاءً من كتابه "روسيا والثورة"، وأرسلها من أجل الطباعة. كان هذا هو الكتاب الذي طرح فيه تروتسكي للمرة الأولىٰ فكرة أن الثورة التي بدأت في روسيا لن تنتهي حتىٰ تأسيس نظام الحكم الاشتراكي. لم يوافق علىٰ نظريته

"الثورة الدائمة"، كما كان يُطلَق عليها، إلا قليلون، لكنه تمسك بموقفه بشدة حتىٰ أنه كان يستشف من الوضع العالمي كل مظاهر تفكك وانحلال الاقتصاد الرأسمالي البرجوازي، والوشوك النسبي للثورة الاشتراكية".

يستطرد سفيرتشكوف: "تحوَّلت زنزانة تروتسكي بعد وقتٍ قصير إلىٰ ما يشبه المكتبة. كان يتزوَّد بكافة الكتب الجديدة التي تستحق الانتباه ليقرأها جميعًا. كان دائم الانشغال بعمله الأدبي، منذ الصباح الباكر حتىٰ وقتٍ متأخرٍ من الليل. كان يقول لنا: شعورٌ رائع أن أجلس علىٰ مكتبي وأعمل في ثقةٍ تامة أن من المستحيل أن يُلقىٰ القبض عليّ. لعلكم توافقونني الرأي أنْ هذا شعورٌ غير اعتيادي في ظل ظروف روسيا القيصرية".

علىٰ سبيل الاسترخاء، كنت أقرأ الكلاسيكيات الأوروبية. كنت أهجع في فراشي في الزنزانة، وأمتص هذه الكلاسيكيات بمتعة شديدة تشبه في مذاقها ارتشاف نبيذ فاخر أو استنشاق دخان عَطِرٍ من سيجار جيد. كانت هذه أوقاتي المفضلة. ولعل آثار دراساتي الكلاسيكية كانت حاضرة، في صورة اقتباسات واستعارات، في كل كتاباتي السياسية في ذلك الوقت. كانت تلك هي الفترة التي اطلعت فيها للمرة الأولىٰ بشكل حقيقي علىٰ أعظم أعمال الرواية الفرنسية بلغتها الفرنسية الأصلية. إن فن الحكي لهو فرنسي بالأساس. ورغم أنني أعرف الألمانية أفضل شيئًا ما، خاصةً فيما يتعلَّق بالمصطلحات

العملية، إلا أن قراءة الرواية الفرنسية بدا أسهل بالنسبة لي من الألمانية. وحتىٰ يومنا هذا، أحتفظ بحبي للرواية الفرنسية، وحتىٰ في عربة القطار أثناء الحرب الأهلية، وجدت الوقت لقراءة أحدث الروايات.

لكن بشكلٍ عام، ليس بوسعي أن أشكو حياتي في السجن، فقد كانت مدرسةً جيدةً لي. غادرت زنزانة الحبس الانفرادي المغلقة بإحكام شديد، في قلعة بطرس وبولس، بمسحة من الندم، فقد كانت هادئة، لا يعكر صفو سكونها شيء، وبالتالي مناسبة تمامًا للعمل الفكري. أما سجن الحبس الاحتياطي، فقد كان، علىٰ العكس من الحبس الانفرادي، صاخبًا، مليئًا بالناس. لم يكن المحكوم عليهم بالإعدام في هذا السجن قليلين، إذ كانت الأعمال الإرهابية وعمليات المصادرة المسلحة تجتاح البلاد. أما نظام السجن، بسبب الدوما الأولىٰ بالأساس، ليبرالي للغاية، حيث لم تكن الزنازين تُغلق خلال النهار، وكان بإمكاننا أن نمشي معًا في مجموعات، حتىٰ أننا كنَّا في بعض الأيام نقضي ساعاتٍ مبتهجين بلعبة وثبة الضفدع. كان الرجال المحكوم عليهم بالإعدام يقفزون فوق ظهورنا، ثم يحنون ظهورهم لنقفز نحن، وهكذا.

كانت زوجتي تأتي لزيارتي مرتين أسبوعيًّا، فيما كان ضباط الخدمة يتغامزون علىٰ تبادل الخطابات بيننا. كان أحدهم، في منتصف العمر، قد تأقلم علينا وتقرَّب منا، وبناءً علىٰ طلبه أعطيت له نسخة من كتابي

وصورة فوتوغرافية لي كتبت عليها إهداءً له. كان الرجل قد همس لي ذات مرة، غامزًا علىٰ نحوٍ غامض: "بناتي كلهن طالبات في الجامعة". قابلته بعد ذلك في السوفييت، وفعلت له كل ما في وسعي خلال سنوات المجاعة.

اعتاد بارفوس أن يتمشَّىٰ مع ألماني عجوز في باحة السجن، وكنت أنضم إليهما أحيانًا. هناك صورةٌ فوتوغرافية لثلاثتِنا في مطبخ السجن[34]. خطط هذا الألماني، الذي لم يكن التعب يعرف له سبيلًا، لهروب جماعي من السجن، وبسهولة أقنع بارفوس بذلك، وقد كان مصرًّا علىٰ أن أنضم لهما أيضًا. قاومت هذه الفكرة لأنني كنت مقتنعًا بالأهمية السياسية للمحاكمة المُنتظرة، إلا أن الخطة كانت تتضمن الكثير من المعتقلين. وذات يوم وجد أحد الحرَّاس بعض الأدوات في المكتبة، حيث كان يجتمع المخططون للهروب، لكن إدارة السجن قد تعاملت مع الأمر في تكتُّمٍ تام، إذ كانت تساورها الشكوك بأن الشرطة السرية قد زرعت هذه الأدوات من أجل إحداث تغيير ما في نظام السجن. وفي نهاية المطاف، كان علىٰ الألماني أن يشرع في الهروب للمرة الرابعة، ليس من السجن بل من سيبيريا.

تجددت الخلافات الداخلية في الحزب علىٰ نحو أكثر حدة بعد هزيمة ديسمبر، وقد أعاد حل مجلس الدوما طرح كل مشاكل الثورة

34 – انظر مُلحَق الصور. (المترجم)

من جديد. تناولت هذه المشاكل في كتيب عن التكتيكات، ونشره لينين في دار نشر بلشفية. أما المناشفة، فكانوا يتراجعون من الجبهة بالكامل. لكن في السجن، لم تكن خلافات فصائل الحزب قد وصلت إلىٰ هذه المرحلة الحادة التي كانت سائدة في العالم بالخارج، بل كنَّا قادرين علىٰ نشر أعمال جماعية مشتركة تتناول سوفييت سان بطرسبورج الذي كان بعضٌ من المناشفة مساهمين فيه.

بدأت محاكمة سوفييت مندوبي العمال في 19 سبتمبر 1906، في الأيام الأولىٰ لمحاكمات ستوليبين العسكرية، وقد تحوَّلت باحة المحكمة والشوارع المجاورة لها إلىٰ مخيم عسكري احتشدت فيه كل شرطة سان بطرسبورج. لكن المحاكمة نفسها كانت تجري بقدرٍ من الحرية؛ إذ كانت الحكومة الرجعية تريد فضح "ليبرالية" ويت وضعفه في التعامل مع الثورة. استُدعيَ حوالي أربعمائة شاهد، جاء منهم أكثر من مائتين. عمالٌ، وصنَّاعٌ، وعناصرُ من الشرطة السرية، ومهندسون، وخَدَمٌ ومواطنون، وصحفيون، وموظفو بريد، ورؤساءُ شرطة، وطلابٌ، وأعضاءُ مجالس بلدية، وعمالُ نظافة، ومثيرو شغب، ونوابٌ، وأساتذة جامعيون، وجنود، كلهم أدلوا بشهاداتهم خلال شهر المحاكمة. وتحت النيران المتبادلة بين طاولة القضاة والنيابة ومحامي الدفاع، والمتهمين بشكل خاص، ارتسم أمام الجميع نشاط سوفييت العمال بشكل كامل.

دافع المتهمون عن أنفسهم، وتحدثت أنا عن أهمية الانتفاضة المسلحة في الثورة، فتحقق إذن الهدف الرئيسي من المحاكمة. وحينما رفضت المحكمة طلبنا باستدعاء عضو مجلس الشيوخ لوبوخين، الذي كان في 1905 قد أنشأ مطبعة في إدارة الشرطة لنشر وتوزيع الأدبيات، للشهادة، قاطعنا الجلسة من خلال إجبار المحكمة علىٰ إعادتنا مرة أخرىٰ إلىٰ السجن. غادر الشهود ومحامو الدفاع والحضور قاعة المحاكمة بعدنا، فيما بقي القضاة مع المدعي العام وحدهم، ومرَّروا الحكم في غيابنا. لم يُنشر محضر تقرير هذه المحاكمة الفريدة، التي استمرت شهرًا كاملًا، ويبدو أن مكانه غير معروف حتىٰ يومنا هذا، لكنني أدرجت الوقائع الأساسية فيها في كتابي "1905".

حضر والدي ووالدتي المحاكمة، بأفكارٍ مشتتة ومشاعرٍ مبعثرة. كان من المستحيل وقتها تفسير سلوكي باعتباره حماقة فتىٰ طائش، كما كانا يعتقدان أيام نيقولاييف عندما عشت في حديقة شفيجوفسكي. فقد كنت آنذاك محررًا لصحف، ورئيسًا لسوفييت، واسمًا لامعًا ككاتب، وكان الزوجان العجوزان مبهورين بذلك. حاولت والدتي التحدث إلىٰ محامي الدفاع، آملةً في أن تسمع منهم بعض المديح في شخصي. وخلال كلمتي، التي بالكاد فهمت منها شيئًا، كانت تذرف الدمع في صمت، ثم أخذت تبكي بمزيدٍ من الحرقة حينما جاء عددٌ من محامي الدفاع لمصافحتي. طلب أحدهم تأجيل

الحكم مؤقتًا، بسبب ما أحدثته كلمتي من ضجة. كان هذا هو أليكساندر زارودني، الذي اعتقلني، بعد ذلك بعشرة أعوام، بتهمة خيانة الدولة حينما كان وزيرًا للعدل في حكومة كرينسكي.

خلال فترات الاستراحة، كان والدي ووالدتي ينظران إليّ بفرح، وقد كانت والدتي واثقةً في أن المحكمة لن تصدر لي إلا البراءة، بل وستميزني عن الآخرين بشكلٍ ما، فيما حاولت إقناعها بأن تتوقع الأشغال الشاقة. كانت تنقل أنظارها من عليّ إلىٰ المحامين والعكس، في مزيجٍ من الخوف والارتباك، وكأنها تحاول أن تفهم كيف يمكن أن يحدث ذلك. أما والدي، فقد كان شاحبًا، صامتًا، سعيدًا، متوترًا، في آنٍ واحد.

حُرِمنا من كل حقوقنا المدنية، وحُكِمَ علينا بالإقامة الجبرية في المنفىٰ، وهذه عقوبة متوسطة نسبيًّا، فقد كنَّا نتوقع الأشغال الشاقة. لكن الإقامة الجبرية في المنفىٰ هي أمر مختلف تمامًا عن النفي الإداري الذي حُكِمَ عليّ به في المرة الأولىٰ. فالإقامة الجبرية في المنفىٰ تكون لفترة غير محددة، كما أن كل محاولة للهرب تعني عقوبة إضافية بثلاث سنوات في الأشغال الشاقة. أما الخمس وأربعون جلدة بالسوط، التي كانت معتادة مع هذه العقوبة، فقد أُلغيت قبل ذلك بسنوات عديدة.

كتبت إلىٰ زوجتي في 3 يناير 1907:

"مرت ساعتان أو ثلاث منذ أن وصلنا إلىٰ السجن الانتقالي. أعترف أنني أشعر بالتوتر حيال مغادرة زنزانتي في سجن الحبس الاحتياطي، فقد اعتدت تمامًا علىٰ هذا المهجع الضيق الذي تتوفر فيه فرصة العمل. أما في السجن الانتقالي فقد علمنا أنهم سيضعوننا جميعًا في نفس الزنزانة. ماذا يمكن أن يكون أكثر إزعاجًا من ذلك؟ وبعد كل ذلك، هناك القذارة والصخب والضجيج والتشويش الغبي المعتاد في رحلة المنفىٰ. من يعرف كم يلزم من الوقت لنصل وجهتنا؟ ومن يعرف متىٰ سنعود؟ ألم يكن من الأفضل أن أمكث كما كنت في الزنزانة 462، أقرأ وأكتب وأنتظر؟

أحضرونا هنا اليوم دون أي تنويه سابق. وفي قاعة الاستقبال، أمرونا بارتداء ملابس السجن. فعلنا ذلك بفضول الأطفال بملابس المدرسة. كان من المثير أن نرىٰ بعضنا بالسراويل الرمادية والمعاطف الرمادية والقبعات الرمادية. سمحوا لنا بالإبقاء علىٰ ملابسنا الداخلية وأحذيتنا، وتوجهنا إلىٰ زنزانتنا بملابسنا الجديدة في حشدٍ كبير مفعم بالحماس".

كانت أحذيتي ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي، ففي نعل أحدهم كنت أحتفظ بجواز سفري، أما في الحذاء ذي الكعب العالي فكنت أضع قطعًا من الذهب. أرسلونا إلىٰ قرية أوبدورسك البعيدة في دائرة القطب الشمالي. وتبلغ المسافة بين هذه القرية والسكك الحديدية

حوالي 1650 كيلو، أما أقرب محطة تلغراف فتبعد حوالي 880 كيلو. ويصل البريد إلىٰ القرية مرة واحدة كل أسبوعين، وحين تكون الطرق سيئة، في الربيع والخريف، ينقطع البريد تمامًا طيلة ستة أو ثمانية أسابيع.

استلزم الأمر بعض الإجراءات الاستثنائية لحراستنا خلال الرحلة. لم يكن من الممكن الاعتماد علىٰ أي رتل عسكري من سان بطرسبورج في ذلك. وبالفعل كان رقيب الحرس يلقي علينا أحدث القصائد الثورية، شاهرًا سيفه في عربة الترحيل، فيما كانت العربة المحازية لنا تُقلُّ مفرزة من الشرطة السرية تحاصرنا في كل نقطة توقف. وفي الوقت نفسه، كان ضباط السجن يعاملوننا بتقديرٍ بالغ. وقد أوضح لنا ضابط الرتل أوامر رؤسائه بعدم تكبيلنا بالأصفاد، علىٰ عكس ما يقتضيه القانون. كانت الثورة والثورة المضادة آنذاك لا تزالان علىٰ كفتيّ ميزان حرج، ولم يكن أحدٌ ليعرف أي الطرفين سينتصر.

وخلال الرحلة، كتبت إلىٰ زوجتي في الثاني من يناير:

"إذا كان الضابط محترمًا ومتحضرًا، فالرتب الأدنىٰ منه أكثر احترامًا وكذلك أكثر تحضرًا؛ جميعهم تقريبًا قرأوا تقارير محاكمتنا، ويعاملوننا بتعاطف شديد. حتىٰ اللحظة الأخيرة، لم يكن الجنود يعلمون من يصطحبون في هذه الرحلة، أو إلىٰ أين يتوجهون بهم. لكنهم كانوا قد استنتجوا، من الإجراءات

الاحترازية التي واكبَت نقلهم المفاجئ من موسكو إلىٰ سان بطرسبورج، أنهم سيرافقون سجناءً محكومًا عليهم بالإعدام إلىٰ شاسيلبرج. ومنذ أن كنَّا في قاعة الانتظار في السجن الانتقالي، لاحظت أن جنود الرتل كانوا متحمسين، ويبدو عليهم الانزعاج بشكل غريب من الالتزام بالأوامر، كما لو أنهم يشعرون بالذنب حيال شيءٍ ما. لم أفهم السبب إلا في القطار؛ فقد كانوا مسرورين للغاية حين علموا أنهم يرافقون مندوبي عمال محكومًا عليهم بالنفي. أما الشرطة السرية، التي كانت تسير في رتل مهيب إلىٰ جوارنا، فلم يظهر أيٌّ من عناصرها في عربتنا. كانوا يحرسون عربتنا من الخارج فقط، يقفون أمام الباب الخارجي، ويحاصرون عربتنا عند كل محطة، فيما كان يبدو أن مهمتهم الخاصة هي مراقبة رجال الرتل".

كان جنود الرتل هم من يرسلون الخطابات بيني وبين زوجتي في سرية تامة.

وصلنا علىٰ طريق السكك الحديدية إلىٰ تيومين، ومن هناك استكملنا طريقنا علىٰ ظهور الأحصنة. لقد استلزمت حراسة أربعة عشر معتقلًا اثنين وخمسين جنديًا، بالإضافة إلىٰ ضابط كبير ورائد ورقيب شرطة. كان لدىٰ هذا الجمع حوالي أربعين زلّاجة، ويمر

المسار من تيومين عبر توبولسكْ من خلال نهر أوب. كتبت إلىٰ زوجتي:

"نسير يوميًّا من 100 إلىٰ 110 كيلو إلىٰ الشمال، ودرجة الحرارة بالكاد تبلغ درجة واحدة. وكلما تقدمنا أكثر، تتلاشىٰ الحضارة تدريجيًّا - هذا إذا كان للمرء أن يتحدَّث عن الحضارة في هذه الحالة. كل يوم تقل الحرارة درجة عن ذي قبل نحو مملكة الصقيع والبربرية".

بعدما عبرنا مقاطعات موبوءة بالتيفوس عن آخرها، وصلنا في اليوم الثالث والثلاثين، 12 فبراير، إلىٰ بيريزوف، حيث كان الأمير مينشيكوف، الذراع الأيمن للقيصر بيتر في الماضي، منفيًّا. مكثنا في بيريزوف يومين، وبقي أمامنا حوالي 550 كيلومتر حتىٰ نصل أوبدورسك. كنَّا نتمشَّىٰ بحرية، ولم يكن لدىٰ الحرَّاس أية تخوفات من محاولات الهرب، فطريق العودة الوحيد كان عبر نهر أوب علىٰ طول خط التلغراف، لذا كان من السهل الإمساك بأي فار.

من بين سكان بيريزوف، كان هناك أخصائي مساحة يُدعىٰ روشكوفسكي. تناقشت معه حول مسألة هروبي معه، وأخبرني أن ربما يكون علينا شق الطريق إلىٰ الغرب علىٰ طول نهر سوسفا باتجاه الأورال، ثم ركوب زلاجات تجرها الأيائل حتىٰ الوصول إلىٰ مستوطنة عمال المناجم، والذهاب بعد ذلك إلىٰ خط السكك الحديدية عند مناجم بوجوسلوفسكي، ثم السفر إلىٰ كوشفا التي

تتقاطع مع خط بيرما. ومن بيرما يمكن الذهاب إلىٰ فياتكا أو فولوجدا أو سان بطرسبورج أو هيلسينجفورس، إلخ.

لكن لم تكن هناك أي طرق علىٰ طول نهر سوسفا، وبعد بيريزوف ليس هناك إلا البراري. لآلاف الكيلومترات، لم تكن هناك أية شرطة، ولا أي تلغراف، ولا أي أثر لاستيطان البشر، ونادرًا ما كنت ألاحظ بعض أكواخ الأوستياك[35]. لم يكن هناك أي أحصنة علىٰ طول هذا الطريق الطويل، فقد كان فقط للسفر بواسطة الأيائل. لم يكن من السهل علىٰ الشرطة ملاحقة الفارين، لكن كان علىٰ هؤلاء مواجهة أخطار التيه في البرية أو الموت بردًا. كان ذلك في فبراير؛ شهر العواصف الثلجية.

علّمني الدكتور فايت، الثوري القديم الذي كان معتقلًا معنا، كيف أتظاهر بآلام عرق النسا من أجل إطالة الإقامة في بيريزوف لبضعة أيام. وقد نفذت هذا الجزء المتواضع من الخطة بنجاح. ومن المعروف أن عرق النسا لا يمكن التحقق منه، فمكثت في مشفىٰ، ولم يفرض النظام في هذا المشفىٰ أي قيود عليّ. وحينما شعرت بـ"التحسن"، صار بإمكاني أن أمشي وحدي لعدة ساعات، حتىٰ أن الأطباء شجعوني علىٰ المشي. وكما ذكرت سابقًا، لم يكن أحدٌ يتخوَّف من أية محاولة للهرب في هذا الوقت من العام.

---

35 - الأوستياك - Ostyak: شعب يعيش في غربي سيبيريا.(المترجم)

كان عليّ أن أتخذ قراري، وقررت بالفعل أن أسلك المسار الغربي لأعبره في خط مستقيم للوصول إلىٰ الأورال. أخذ روشكوفسكي بنصيحة قروي محلي يُلَقَّب بـ"قدم الماعز". نظم هذا الرجل الأعجف الذكي عملية الهروب دون أن يكترث بشيءٍ علىٰ الإطلاق. وقد عوقب بشدة حينما اكتُشِفَ ضلوعه في الأمر بعد ذلك بوقتٍ طويل. وبعد ثورة أكتوبر، لم يكن "قدم الماعز" يعلم أنني أنا الرجل الذي ساعده علىٰ الهرب قبل عشرة أعوام. جاء لزيارتي فقط في العام 1923، وكان لقاؤنا وديًّا للغاية. أعطيته الزي الرسمي الكامل للجيش الأحمر، وأخذته إلىٰ المسارح، كما أهديته "جرامافون" وهدايا أخرىٰ. وتوفي بعد ذلك بوقتٍ قصير في أقاصي الشمال.

كان علينا خوض الرحلة من بيريزوف بواسطة الأيائل، فيما كانت الصعوبة تكمن في إيجاد مرشد يخاطر بقطع هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت من السنة. لكن "قدم الماعز" وجد زيريانكيًّا[36] بارعًا ومتمرِّسًا، كغيره من الزيريانكيين.

سألت "قدم الماعز": "هل هو مدمن خمر؟".

---

36 - أحد سكان زيريانكا – Zyryanka، وهي مقاطعة روسية شاسعة المساحة في سيبيريا. (المترجم)

فأجابني: "بالطبع. مدمن خمر بغيض. لكنه يتحدَّث الروسية والزيريانكية بطلاقة، وأيضًا لهجتين أوستياكيتين لا تشبهان بعضهما كثيرًا. لا يمكن إيجاد سائق داهية مثله".

هذا "الداهية" هو من تخلىٰ فيما بعد عن "قدم الماعز"، لكنه كان قد أرشدني الطريق بنجاح. كنت قد أوضحت هذا الجزء من عملية هروبي في كتابي 1905 بشكل مختلف - عمدًا - فلقد كان البوح بالحقيقة في ذلك الوقت يعني أن تتعقب الشرطة القيصرية شركائي. واليوم، لا زلت آمل ألا يعتقلهم ستالين أيضًا، إذ أن فترة ما يمكن أن يُفرض عليهم من عقوبة قد انقضت، وإذ أن لينين نفسه كان قد قدم لي يد العون في المرحلة الأخيرة من هروبي، كما سأوضح لاحقًا.

كان من المفترض أن نغادر في منتصف ليلة الأحد. في ذلك اليوم، ذهبت إلىٰ الثكنة وأخبرت رئيس الشرطة المحلية أنني أشعر بتحسن وبإمكاني المغادرة في غضون وقت قصير إلىٰ أوبدورسك. كانت تلك حيلة، لكن ضرورية.

حينما دقت أجراس الكنيسة الساعة الثانية عشر ليلًا، تسللت إلىٰ باحة "قدم الماعز"، ووجدت زلَّاجة الجليد تنتظرني بالفعل. مددت جسدي علىٰ قاعدتها، واستلقيت علىٰ معطف الفراء الإضافي لديّ، وفرش "قدم الماعز" بدوره الكثير من القش المتجمد علىٰ جسدي، وربطه من حولي بحبل، ثم أقلعنا. كان الثلج يذوب من فوق القش

ليقطر مياهًا علىٰ وجهي. توقفنا بعد بضعة كيلومترات، ثم حلَّ الرجل ربطة القش من عليّ لأنهض، وأطلق صفيرًا عاليًا.

أجابه عدة رجال بأصواتٍ توحي بالحسرة، وقد اتضح علىٰ نحو لا تخطئه العين أنهم جميعًا مخمورين. كان الزيريانكي مخمورًا، والآن أحضر أصدقاءه. يا لها من بداية مؤسفة، لكن ما من خيار آخر. انتقلت بأمتعتي القليلة إلىٰ زلَّاجة أخرىٰ خفيفة تجرها الأيائل. كنت أحتفظ بمعطفين؛ أحدهما بفراءٍ من الداخل والآخر من الخارج، علاوة علىٰ جوارب وقفازات وقلنسوة، كلهم مُبطَّنون بالفراء. باختصار؛ ثوب الشتاء الكامل لأوستياكي أصيل. حملت أيضًا في جعبتي بضع زجاجات خمر - وسيط التبادل الأفضل في صحراء الثلوج هذه.

يقول سفيرتشكوف في مذكراته:

"من مراقبة حركة النار في بيريزوف، يمكن للمرء أن يرىٰ كل التحركات من وإلىٰ المدينة علىٰ امتداد الثلوج في محيط كيلومتر تقريبًا. ومن الطبيعي أن تتوقع أن تسأل الشرطة رجال الخدمة الممسكين بالمشاعل ما إذا كانوا قد رأوا أي شخص مغادرًا المدينة تلك الليلة. وبناءً علىٰ هذه الفرضية، اتفق روشكوفسكي مع أحد السكان المحليين أن يمشي بعجلٍ ذبيح علىٰ طول طريق توبولسك. وكما خططنا، حينما

اكتشفت الشرطة مهرب تروتسكي بعد ذلك بيومين، أهدرت يومين إضافيين في اقتفاء آثار العجل".

لكنني لم أعلم بالأمر إلا بعد ذلك بكثير.

أخذنا طريق نهر سوسفا. كانت الأيائل التي أحضرها سائق الزلَّاجة من قطيع من عدة مئات. في بداية الرحلة، كان السائق المخمور يغلبه النعاس أحيانًا، وبالتالي تتوقف الأيائل مرة بعد أخرىٰ، وبالطبع كان هذا ينذر بالمصائب لنا نحن الاثنين. لم يكن حتىٰ يلتفت حين كنت أنكزه، لكن في النهاية نزعت قلنسوته فسرعان ما تجمَّد شعر رأسه وبدأ يفيق.

استكملنا طريقنا. كانت رحلة مذهلة في صحراءٍ من الثلوج الصافية وسط أشجار التنوب وآثار أقدام الحيوانات. ظلت الأيائل تهرول بحيوية، بألسنةٍ متدلية وأنفاسٍ ثقيلة. وبرغم أن مسارنا كان ضيقًا، كانت الأيائل تُهروِل في مقربةٍ من بعضها دون أن يقطع أيٌّ منها طريق الآخر. كائنات مذهلة لا تعرف الجوع أو التعب. لم يكن لديها أي طعام ليومٍ كامل قبل رحيلنا المفاجئ، وها قد مر يومٌ آخر قبل أن يتوفَّر لها شيءٌ لتأكله. وفقًا للسائق، بدأت الأيائل بالكاد تُسرِع من خطاها. إنهم يجرون بتوازن وانتظام دون مجهودٍ يُذكر، بسرعة تتراوح بين ثمانية إلىٰ عشرة كيلومترات في الساعة الواحدة. أخيرًا وجدوا طعامًا، فحلَّ الرجل أعناقهم من لوح الخشب المربوطين فيه، واختاروا مكانًا استشعروا فيه بعض العشب تحت الثلوج، وبحوافرهم

حفروا عميقًا حتىٰ أطراف آذانهم وأخذوا يأكلون. شعرت تجاه هذه الحيوانات بما يشعر به الطيار تجاه طائرته حين يحلِّق فوق محيطٍ علىٰ ارتفاع مئات الأقدام.

لاحظنا أن أيلٌ من الثلاثة بدأ يعرج، وكان لا يزال أمامنا الكثير في رحلتنا، لذا كان لا بد من تغييره. بحثنا في الجوار عن أي موطنٍ للأوستياك، لكنهم مبعثرون تمامًا، تفصل بينهم كيلومترات عديدة. تمكَّن مرشدي من تحديد مواقع المخيمات بإشارات من الصعب إدراكها، فقد كان قادرًا علىٰ شم رائحة الدخان من مسافات بعيدة. فقدنا يومًا آخر في تبديل الأيل، لكنني كنت محظوظًا بما فيه الكفاية لأرىٰ مشهدًا جميلًا عند الفجر؛ حيث ثلاثة أوستياك يجرون بكل طاقتهم بالحبال لصيد أيائل كانوا قد استهدفوهم هم بالذات من قطيعهم الذي يضم المئات، بينما حاصرتهم الكلاب وساقتهم تجاههم.

استأنفنا الرحلة بين الأشجار، فوق المستنقعات المكسوَّة بالثلوج، وعبر غاباتٍ دمرتها الحرائق. غلينا بعض الثلج من أجل المياه، وجلسنا وشربنا الشاي. كان مرشدي يفضل الخمر، لكنني لاحظت أنه لم يفرط في الشراب.

بالرغم من التشابه الكبير بين الطرق إلىٰ حدِّ التطابق، فقد كانت دائمة التغير، لكن الأيائل كانت تعرفها بسهولة. والآن صرنا نعبر مساحة واسعة مفتوحة بين غابة البتولا والنهر. كان الطريق مفزعًا، حيث كانت الرياح تعصف من وراءنا بالمسار الضيق الذي عبرت

الزلّاجة من عليه. ضل الأيل الثالث دربه قليلًا، وغاص في الثلج حتىٰ بطنه، أو حتىٰ أعمق من ذلك، ثم قفز بضع قفزات يائسة في محاولةٍ للعودة إلىٰ الطريق، ليدفع الأيل الثاني ويلكم الأول ويخرجه عن المسار. وفي مكانٍ آخر، صار الطريق صعبًا للغاية بعدما دفأته آشعة الشمس قليلًا، إلىٰ درجة أن سير المزلقة الأمامية للزلّاجة انكسر مرتين، وفي كل مرة تتجمد المزالق في الأرض، وبمجهود كبير نتمكّن من المضي في طريقنا مرة أخرىٰ. وفي المرتين اللتين توقفنا فيهما، بدت الأيائل متعبة للغاية.

غابت الشمس، فتجمد الطريق، وصارت قيادة الزلّاجة أفضل مجددًا. أصبح الطريق ليِّنًا، لكن ليس طريًّا. هرولت الأيائل دون أن يُسمع لها صوتٌ، ساحبةً الزلّاجة إلىٰ الأمام دون مجهودٍ يُذكر. في النهاية، ربطنا الأيل الثالث خلف الزلّاجة، لأن الطريق السهل يجعلهم يجرون أسرع في وثباتٍ عالية، مما قد يحطِّمها. انزلقت الزلّاجة بسلاسة ونعومة، كقاربٍ في بحيرة صافية. وفي قتامة الغسق، بدت الأشجار أكثر ضخامة، لم أكن أرىٰ الطريق، وبالكاد أشعر بحركة الزلّاجة. كانت الأشجار المسحورة تهرع إلينا علىٰ الجانبين، نتجاوز البتولا والجذوع الشائخة المغطاة بالثلوج. كان الغموض يكسو كل شيء، وأنفاس الأيائل تتردد في سكون ليل الغابة.

استغرقت الرحلة أسبوعًا، فقد قطعنا 700 كيلومترًا لنقترب من الأورال، والآن صرنا نقابل قطعانًا من الزلّاجات أكثر فأكثر. ادعيت

أنني مهندسٌ، وعضو ببعثة البارون تول الاستكشافية إلىٰ القطب الشمالي. وبالقرب من الأورال، قابلنا موظفًا عَمِلَ في هذه البعثة ويعرف أعضاءها. أربكني هذا الرجل بأسئلته التي انهال عليّ بها، لكن من حسن الحظ أنه لم يكن فائقًا. حاولت التخلص من هذه الورطة بمساعدة زجاجة الرَمّ التي جلبتها معي للطوارئ، ومرَّ الأمر بسلاسة شديدة. قطعت بعض المسافة في الأورال علىٰ ظهر حصان، وادعيت هذه المرة أنني موظفٌ أصطحب معي محصِّل ضرائب يستطلع منطقته، ووصلنا في النهاية إلىٰ خط السكك الحديدية.

لم تلتفت الشرطة السرية إليّ بأي درجة من الشك، إذ كنت قد خلَّصت نفسي من معاطف الفراء الأوستياكية. لكن لم يكن تواجدي في خط السكك الحديدية المحلي في الأورال مأمونًا علىٰ الإطلاق، فعلىٰ هذا الخط يسهل ملاحظة "الغرباء"، وكان من الممكن أن يُلقىٰ القبض عليّ وقتها وفقًا للتعليمات القادمة من توبولسك. لكنني، بشيءٍ من الخوف، واصلت تقدمي. وفي اليوم التالي، وبمجرد أن دخلت عربة مريحة في سكك حديد بيرما، انتابني شعورٌ بانتصار قضيتي. مرَّ القطار علىٰ نفس المحطات التي استقبلتنا فيها الشرطة السرية والحرَّاس ورؤساء الشرطة المحليون، بـ"مراسم مهيبة"، قبل ذلك بفترة ليست طويلة. لكن هذه المرة أمضي قدمًا في الاتجاه العكسي، ومشاعري هي الأخرىٰ مغايرة تمامًا. في البداية، بدت العربة الخاوية تقريبًا، لدقائق معدودة، مكتظة وخانقة، فخرجت إلىٰ

الرُصيف الأمامي حيث الرياح والظلام. صرخت فجأة بعفوية تامة، صرخة الفرحة بالحرية.

في أقرب محطة، بعثت لزوجتي برقية لتنتظرني في محطة التقاطع بيننا. لم تكن بالطبع تتوقع مثل هذه البرقية، علىٰ الأقل في فترة قريبة. ولا عجب أن صحف سان بطرسبورج كانت تعج بالتقارير عن تقدمنا إلىٰ الشمال، فالتقارير كانت لا تزال تصل عن طريق البريد، وقد استغرقت رحلتنا إلىٰ بيريزوف أكثر من شهر. كان الجميع يظنون أنني بالفعل في طريقي إلىٰ أوبدورسك، إلا أنني قطعت رحلة العودة فقط في إحدىٰ عشر يومًا. من الواضح أن إمكانية لقائنا بالقرب من سان بطرسبورج بدت لزوجتي أمرًا غير قابل للتصديق، لكن هذا ما قد كان.

وصفت ناتاليا سيدوفا الأمر كالتالي:

"حين تلقيت البرقية في تيريوكي، القرية الفنلندية القريبة من سان بطرسبورج، حيث بقيت وحدي مع ولدي الرضيع، شعرت بحماس وفرح بالغين. في نفس اليوم، تلقيت خطابًا طويلًا من ليف دافيدوفيتش كتبه في طريقه إلىٰ المنفىٰ. وإلىٰ جانب ما كتبه فيه واصفًا رحلته، فقد طلب مني أن أحضر معي عددًا من المقالات والكتب الضرورية في الشمال حين أغادر إلىٰ أوبدورسك. الآن يبدو أنه قد غيَّر رأيه ليهرع عائدًا بطريقة غامضة، حتىٰ أنه يستعد لملاقاتي في أقرب محطة

تقاطع بين طريقيناٰ. ويا للغرابة، كان اسم المحطة مقطوعًا من ورقة البرقية. ذهبت في اليوم التالي إلىٰ سان بطرسبورج وحاولت البحث في دليل السكك الحديدية عن المحطة التي يتوجب عليّ حجز تذكرة الوصول إليها. كنت أخشىٰ الاستفسار عن أي شيء، لكن في النهاية بدأت رحلتي دون حتىٰ أن أعرف اسم المحطة. حجزت تذكرة إلىٰ فياتكا وغادرت في المساء. كانت العربة تعج بملّاك كبار عائدين من أراضيهم إلىٰ سان بطرسبورج بطرودٍ من أشهىٰ المأكولات من أجل أسبوع العيد، فيما دارت المحادثات بينهم حول الفطائر والكافيار والسمك المدخن والنبيذ وأشياء من هذا القبيل. لم أكن أحتمل هذه المحادثات، وكنت متحمسةً للغاية لهذا اللقاء، بالطبع كنت أخشىٰ وقوع حوادث محتملة... إلا أنني كنت واثقة في أنني سألتقي به.

لم أكن أطيق انتظار الصباح حتىٰ يصل القطار إلىٰ محطة سامينو. لاحظت اسم المحطة خلال الطريق، وعَلِقَ في ذاكرتي إلىٰ الأبد. توقف قطارنا والقطار الآخر أيضًا. جريت خارج القطار، لكن لم أجد أحدًا، فقفزت إلىٰ القطار الآخر وجريت من عربة إلىٰ أخرىٰ، ولم أجده أيضًا. وفجأة لاحظت معطف ليف دافيدوفيتش داخل إحدىٰ مقصورات القطار. إذن فقد جاء في هذا القطار، لكن أين هو؟ هرولت

خارجةً من العربة، وعلىٰ الفور جريت إلىٰ ليف دافيدوفيتش الذي كان يبحث عني في المحطة. كان غاضبًا من تشويه البرقية، وأراد تقديم شكوىٰ في التوِّ واللحظة، وبصعوبة بالغة منعته من فعل ذلك.

كان ليف دافيدوفيتش يتوقع، بعدما أرسل لي البرقية، أن يجد الشرطة السرية في انتظاره بدلًا مني، لكنه شعر أن وجوده معي سيجعل الأمور أسهل في سان بطرسبورج، وقد وثق في حظه الوافر. حجزنا بعد ذلك مقاعدنا في المقصورة، واستكملنا رحلتنا معًا. لم يكن بوسعي سوىٰ الاندهاش الشديد من أريحيته في الكلام والضحك بصوتٍ عالٍ في القطار وفي المحطة. أردت أن أبقيه مخفيًا عن الأعين، إذ من الممكن أن يلاقي الأشغال الشاقة بسبب هروبه. لكنه كان علىٰ مرأىٰ ومسمع الجميع، وقال إن هذه أفضل حماية له".

ذهبنا من محطة سان بطرسبورج مباشرةً إلىٰ أصدقائنا المخلصين في مدرسة المدفعية. لم أرَ في حياتي أناسًا مذهولين مثل عائلة الدكتور ليتيكين حين لاقوني. وقفت كشبحٍ في غرفة الطعام الكبيرة، بينما نظروا إليّ حابسين أنفاسهم. وبعدما تبادلنا القبلات، ظلوا غير مصدقين أعينهم، معبرين عن دهشتهم. في النهاية اقتنعوا أنني أنا من يمثُل أمامهم. لا زلت حتىٰ الآن أشعر بسعادة ذلك الوقت. لكنني لم أكن قد خرجت من دائرة الخطر بعد، فمما لا شك فيه أن السلطات في

بيريزوف قد أرسلت برقيات تدلي باختفائي. وبسبب نشاطي في سوفييت مندوبي العمال، كنت معروفًا لكثيرٍ وكثيرٍ من الناس في سان بطرسبورج، لذا قررت أن أذهب مع زوجتي إلىٰ فنلندا التي انتزعت فيها الثورة بعض الحريات لفترات أطول من سان بطرسبورج. كانت المحطة الفنلندية في سان بطرسبورج أخطر مكان يمكن التواجد فيه بالنسبة لي. وقبل أن يتحرك القطار، دخل عددٌ من عناصر الشرطة السرية إلىٰ عربتنا للبحث بين الركّاب، فيما جلست زوجتي في مواجهة باب المقصورة. كانت عيناها تعبِّر بحقٍ عمَّا يحيق بنا من أخطار. عشنا دقائق من التوتر المفزع. لكنهم نظروا إلينا بعدم اكتراث ودون تمييز، هذا كل ما فعلوه.

كان لينين ومارتوف قد غادرا سان بطرسبورج منذ وقت طويل وذهبا للإقامة في فنلندا. وقتها كانت الشروخ بين الفصيلين في الحزب، التي بدأت في مؤتمر ستوكهولم، قد تعمقت مجددًا. وفي الوقت الذي كان تيار الثورة ينحسر فيه، كان المناشفة يتنصَّلون من الأفعال المجنونة في 1905، أما البلاشفة فكانوا يستعدون لثورة جديدة. قمت بزيارة كلٍ من لينين ومارتوف اللذين أقاما في قريتين متجاورتين. كانت غرفة مارتوف، كالمعتاد، في حالة فوضىٰ لا توصف، تكدست الصحف في أحد أركانها في طابور طويل في قامة رجل. وخلال محادثتنا، غطس مارتوف مرة بعد أخرىٰ في كومة عملاقة من الصحف ليجلب المقالة التي أرادها. كانت المخطوطات مُبعثرة علىٰ الطاولة

يغطيها الرماد. وقد تدلت نظارته، التي لم تكن يومًا نظيفة، علىٰ أنفه الرفيع. وكالعادة، كانت لدىٰ مارتوف أفكارٌ كثيرة، أفكارٌ لامعة وبارعة، لكنه لم يتوصَّل قط للفكرة الأهم من كل هذه الأفكار؛ لم يكن يعرف ما العمل بعد ذلك.

أما غرفة لينين، فقد كانت صورة معتادة لما يمكن أن نسميه "نظام". لم يكن لينين مدخنًا، وكانت الصحف الضرورية مرتَّبة جيدًا في متناول اليد. وفوق كل ذلك، كان علىٰ وجهه الاستثنائي غير المنظوم تعبيرًا يوحي بأنه يتحيَّن الفرصة. لم يكن في ذلك الوقت قد اتضح بعد ما إذا كان تيار الثورة يتراجع أم أن الأمر مجرد إبطاء مؤقت سيصعد بعده مجددًا. لكن في كلتا الحالتين، كان من الضروري النضال ضد المتشككين، واستعراض خبرة 1905 نظريًّا، وتثقيف القواعد الحزبية استعدادًا لصعودٍ جديد، أو ثورة ثانية. تحدث لينين بموافقة واستحسان علىٰ أعمالي في السجن، لكنه سخر من عدم توصُّلي إلىٰ الاستنتاجات الضرورية من ذلك، أي بعبارةٍ أخرىٰ: الانضمام إلىٰ البلاشفة. وقبيل مغادرتي، أعطاني بعض العناوين في هيلسينجفورس، لكنها كانت عديمة النفع بالنسبة لي.

ساعدني الأصدقاء، الذين وجهني لينين إليهم، في مسألة الإقامة مع عائلتي في منزلٍ صغيرٍ مريح في أوجلبو بالقرب من هيلسينجفورس، حيث جاء لينين نفسه للإقامة بعد ذلك ببعض الوقت. كان رئيس الشرطة في هيلسينجفورس ناشطًا، أو قوميًّا فنلنديًّا ثوريًّا، وقد وعدني

أن يخطرني إذا عرف بأي خطرٍ قادمٍ من سان بطرسبورج. قضيت أسابيع عديدة في أوجلبو مع زوجتي وولدي الرضيع الذي وُلِدَ أثناء فترة سجني. وفي عزلة هذه القرية، انتهيت من كتاب بعنوان "ذهاب وإياب" لأحكي فيه رحلتي. وبالأموال التي حصلت عليها من هذا الكتاب، سافرت عن طريق ستوكهولم، بينما ظلت زوجتي وولدي في روسيا. رافقتني إلىٰ الحدود امرأة فنلندية شابة كانت ناشطة هي الأخرىٰ. في ذلك الوقت، كان النشطاء ودودين للغاية، أما في 1917 فقد صاروا فاشيين وأعداءً لدودين لثورة أكتوبر.

وعلىٰ متن باخرة اسكندنافية توجهت إلىٰ منفاي الجديد الذي استمر طيلة عشرة أعوام.

الفصل السادس عشر

منفاي الثاني بالخارج: الاشتراكية الألمانية

عقد مؤتمر 1907 اجتماعاته في كنيسةٍ اشتراكية في لندن. كان مؤتمرًا طويلًا، ومزدحمًا، وعاصفًا تعمّه الفوضىٰ. كان لا يزال مجلس الدوما الثاني حيًا في سان بطرسبورج، فيما أخذت الثورة تخمد، لكنها ظلت محل اهتمامٍ واسع، حتىٰ في الأوساط السياسية الإنجليزية. دعا بعض الليبراليين البارزين المندوبين المعروفين إلىٰ بيوتهم ليعرِّفونهم إلىٰ ضيوفهم. انعكس انحسار الثورة في مالية الحزب التي باتت ضعيفة، فلم يكن هناك ما يكفي من المال لرحلة العودة إلىٰ روسيا، أو حتىٰ لاستكمال أعمال المؤتمر. وحينما ترددت أصداء هذا النبأ المؤسف تحت سقف الكنسية، لتقطع النقاش حول بند "الانتفاضات المسلحة" في المؤتمر، نظر المندوبون إلىٰ بعضهم بدهشةٍ وصدمة. ما العمل إذن؟ بالطبع لا يمكننا البقاء في الكنسية هكذا. جاء حلٌ لم يتوقعه أحد، حيث وافق ليبرالي إنجليزي علىٰ إقراض الثورة الروسية ثلاثة آلاف جنيهًا علىٰ ما أتذكر، لكنه طلب أن يوقِّع جميع مندوبي المؤتمر علىٰ صكٍ بالمبلغ، وهكذا تلقىٰ وثيقةً تحمل مئات التوقيعات بعلاماتٍ مُمَيزةٍ لكل الأعراق الروسية. كان عليه أن ينتظر وقتًا طويلًا لاستلام وثيقة التوقيعات. خلال سنوات الردة الرجعية والحرب، لم يكن الحزب يحلم حتىٰ بمثل هذا المبلغ الضخم.

وكانت الحكومة السوفييتية لاحقًا هي التي سدَّدَت قيمة الصك لصاحبه. الثورة تفي بالتزاماتها، وتفعل ذلك عادةً دون تأجيل.

في أولىٰ أيام المؤتمر، استوقفني في ردهة الكنيسة رجلٌ طويلٌ بوجهٍ مستدير ووجنتين عاليتين يرتدي قبعةً مستديرة، قال لي بضحكةٍ وديَّةٍ مكتومة: "أنا من معجبينك". رددت عليه في دهشة: "معجبيني؟"، وبدا أن هذه المجاملة تعود إلىٰ كراساتي السياسية التي كتبتها في السجن. كان هذا هو مكسيم جوركي، وكانت تلك هي المرة الأولىٰ التي ألتقيه فيها. قلت له لأرد مجاملته بمثلها: "آمل ألا أكون مُضطرًا للتأكيد علىٰ أنني من معجبينك أيضًا". كان جوركي في تلك الفترة قريبًا إلىٰ البلاشفة. كانت معه المُمَثِلة الشهيرة أنرييفا، وتجوَّلنا في لندن سويًا.

قال لي، موجهًا أنظاره إلىٰ أندرييفا في دهشة: "هل تصدق؟ إنها تتحدث جميع اللغات"، فيما كان هو نفسه لا يتحدَّث إلا الروسية، لكنه يتحدَّثها جيدًا جدًا. وحينما جاء شحَّاذٌ ليغلق باب سيارة الأجرة من ورائنا، التمس جوركي بشيءٍ من التأثُر: "علينا أن نعطيه بعضًا من هذه البنسات"، فسارعته أندرييفا: "أعطيناه، أعطيناه يا عزيزي أليوشا".

تجدَّدَت في هذا المؤتمر معرفتي بروزا لكسمبورج، التي كنت أعرفها منذ العام 1904. كانت امرأة ضئيلة الجسد، ضعيفة، مظهرها يوحي بالمرض، لكن بوجهٍ نبيلٍ وعينين جميلتين تشِعَّان بالذكاء،

تأسرك بشجاعة عقلها وشخصيتها. كان أسلوب خطابتها دقيقٌ كثيفٌ وحادٌ لا يرحم، يعكس روحها البطولية. كانت شخصية متعددة الجوانب غنيةٌ بالخصال الخفيّة.

الثورة وشغفها والبشر والفن والطيور، كل تلك الأشياء كانت تطرق أوتار روحها. كتبت إلىٰ لويز كاوتسكي تقول: "أما مِن أحدٍ يصدقني حين أقول أنني وجدت نفسي ها هنا في القلبِ من دوَّامة التاريخ فقط بسبب سوء تفاهم عابر، بينما في الحقيقة خُلِقت لأرعىٰ الإوز في الحقول؟".

لم تمتد علاقتي بروزا إلىٰ الصداقة الشخصية؛ فلم أكن ألتقيها إلا في اجتماعاتٍ قصيرة مُتفرِّقة. أُعجَبت بها عن بُعد، وربما أنني حتىٰ لم أُقدِّرها كفايةً في ذلك الوقت. في قضية ما يُسمىٰ بالثورة الدائمة، اتخذت روزا نفس موقفي، وبخصوص هذا الصدد جمعتني محادثة مع لينين لم تخل من الدعابة. التف بعض المندوبين حولنا في حلقةٍ ضيقة، فقال لينين قاصدًا روزا: "ذلك بسبب أنها لا تتحدث الروسية جيدًا"، فأجبته: "لكنها تتحدث الماركسية بشكل ممتاز"، فضحكنا وضحك المندوبون.

توفرت لديّ الفرصة في المؤتمر لأعيد طرح وجهة نظري في مشاركة البروليتاريا في الثورة البرجوازية، وبالأخص قيادتها للفلاحين. وفي التلخيص النهائي للنقاش، قال لينين في هذا الشأن: "يطرح تروتسكي أن للبروليتاريا والفلاحين مصالح مشتركة في الثورة

اليوم، وبالتالي فإننا نشارك في وجهة النظر هنا فيما يخص أساسيات الموقف تجاه الأحزاب البرجوازية". كم يعبر ذلك عن خرافة تجاهلي للفلاحين في 1905! ليس بوسعي هنا إلا أن أضيف أن الخطاب الذي ألقيته في لندن أثناء النقاش حول البرنامج، والذي يظل صحيحًا تمامًا حتىٰ يومنا هذا، أُعيد طبعه بشكل مستقل بعد ثورة أكتوبر كمثالٍ علىٰ الموقف البلشفي من الفلاحين والبرجوازية.

سافرت من لندن إلىٰ برلين لألتقي زوجتي التي كانت عائدةً من سان بطرسبورج. كان بارفوس في ذلك الوقت قد تمكَّن من الهرب من سيبيريا. وفي درسدن، شرع في نشر كتيبي "ذهاب وإياب"، في دار كادين الاشتراكية الديمقراطية للنشر. وفي هذا الكتاب الذي يتناول قصة هروبي، وافقت علىٰ كتابة مقدمة عن الثورة الروسية نفسها.

ومن هذه المقدمة، خرج كتابي "روسيا في الثورة" بعد بضعة أشهر. تشردت أنا وزوجتي وبارفوس في سويسرا الساكسونية. كان ذلك في نهاية الصيف، حين كان الطقس رائعًا والصباح بديعًا. كنَّا نشرب كمياتٍ من اللبن ونستنشق جبالًا من النسيم العليل. وكادت محاولتي وزوجتي النزول إلىٰ وادٍ أسفل الطريق تكلِّفنا حياتنا. توجهنا بعد ذلك إلىٰ بوهيميا، حيث قضينا عدة أسابيع في قريةٍ تُدعىٰ هرشبيرج كانت مَصِيفًا لصغار الموظفين.

حين كانت أموالنا تنفذ، وكان هذا يحدث مرارًا، كنت أنا أو بارفوس نكتب للصحف الاشتراكية الديمقراطية. وبينما كنت في

هرشبيرج، كتبت كتابًا عن الاشتراكية الديمقراطية الألمانية لدارِ نشرٍ بلشفية في سان بطرسبورج، وطرحت فيه للمرة الثانية (المرة الأولىٰ كانت في 1905) احتمالية أن يُثبِت الجهاز العملاق للاشتراكية الديمقراطية الألمانية، في لحظةٍ حاسمةٍ بالنسبة للمجتمع البرجوازي، أنه عمادٌ للنظام المُحافِظ. علىٰ الرغم من ذلك، لم أتوقع في ذلك الوقت كيف يمكن للحقائق أن تؤكد هذا الافتراض النظري. ومن هرشبيرج، تفرَّقت بنا السُبُل، سافرت إلىٰ المؤتمر في شتوتجارت، بينما سافرت زوجتي إلىٰ روسيا لتُحضِر ابننا، وسافر بارفوس إلىٰ ألمانيا.

كانت أعاصير الثورة الروسية في 1905 تحلِّق فوق مؤتمر الأممية الاشتراكية، وظلَّ الجميع يحاولون الانحياز يسارًا، لكن كان من المُلاحظ أن الإحباط يتسيَّد الأساليب الثورية. كان الثوريون الروس لا يزالون محل انتباه الجميع، لكن ببعض السخرية في ذلك، كما لو كان الناس يقولون "ها هم يظهرون مجددًا". في فبراير 1905، وبينما مررت بفيينا في طريقي إلىٰ روسيا، سألت فيكتور أدلر عن رأيه في مشاركة الاشتراكية الديمقراطية في الحكومة الانتقالية، فأجابني بطريقته الأدلرية المُمَيَزة: "أمامك الآن الحكومة الحالية. لا تشغل عقلك بالمستقبلية". ذكَّرته بهذه الكلمات في شتوتجارت، فقال: "أعترف بأنك توقَّعت الحكومة الانتقالية قبلي". كان أدلر ودودًا معي للغاية، وإذا نظرت إلىٰ العمق ألن تجد أن حق الاقتراع العام في النمسا قد انتُزِعَ بفضلِ مندوبي سوفييت عمال سان بطرسبورج؟

في المؤتمر، أشار المندوب الإنجليزي في شتوتجارت، كويلتش، الذي كان قد حصل لي على قبولٍ في المتحف البريطاني عام 1902، بازدراءٍ إلى المؤتمر الدبلوماسي كاجتماعٍ بين اللصوص. وهذا بالتأكيد ما لم يعجب الأمراء والنبلاء. وتحت ضغط برلين، طردت حكومة فورتمبرج كويلتش من أراضيها. استاء بيبل من ذلك، لكن الحزب لم يكن بالشجاعة الكافية ليتخذ أية خطواتٍ إزاء طرد كويلتش. لم تكن هناك أية إشارةٍ على الاحتجاج، فبدا مؤتمر الأممية كفصلٍ أُمِرَ فيه التلميذ المُتبجِّح أن يخرج، بينما التزَمَ البقيةُ الصمت. خلف القوة العددية للاشتراكية الديمقراطية الألمانية في المؤتمر، كان بإمكاني، وبوضوحٍ شديد، أن أرتأي ظلالَ العجزِ تأسرهم.

كنت لا أزال في فيينا في أكتوبر 1907، حين عادت زوجتي سريعًا من روسيا ومعها ابننا. وبينما كنّا ننتظر موجة جديدة للثورة، اتخذنا مسكنًا خارج المدينة في هاتلدورف. انتظرنا طويلًا، ولم نترك فيينا إلا بعد سبع سنوات، بسبب موجة مختلفة أغرقت أوروبا في الدماء. لماذا إذن اخترنا فيينا من البداية، بينما تمركز بقية المهاجرين في سويسرا وباريس؟ في تلك الفترة كنت مرتبطًا بشكل أقوى بالحياة السياسية الألمانية، لكن كان من المستحيل أن نقيم في برلين بسبب ملاحقة الشرطة، لذا اتخذنا فيينا وطنًا لنا. لكن خلال تلك السنوات السبع، كنت أراقب الحياة الألمانية أكثر كثيرًا من النمساوية التي كنت فيها أشبه بسنجابٍ في قفص.

كنت أعرف فيكتور أدلر، القيادي البارز في الحزب، منذ العام 1902، وحان الآن الوقت لأتعرَّف علىٰ من حوله، وعلىٰ الحزب ككل. تعرَّفت علىٰ هيلفردينج في صيف 1907 في منزل كاوتسكي. كان في ذروة ثوريته، لكن هذا لم يمنعه من كراهية روزا لكسمبورج وازدراء كارل ليبكنيخت. لكن بالنسبة لروسيا، كان في تلك الأيام جاهزًا للقبول بأكثر الاستنتاجات جذرية. أشاد بمقالاتي التي ترجمتها صحيفة نيو زايت من الدوريات الروسية حتىٰ قبل مجيئي للخارج، وعلىٰ نحوٍ غير مُتوقَّع أصرَّ علىٰ أن ينادي كلٌ منَّا الآخر بـ"أنت". لذا اتسمت علاقتنا الظاهرية بالود، في حين لم يكن لها أي أساسٍ أخلاقي ولا سياسي.

نظر هيلفردنج للاشتراكية الديمقراطية الألمانية، الرزينة، بل والسلبية في حقيقةِ الأمر، باحتقارٍ شديد، مقارنةً بنشاط الحزب النمساوي. إلا أن انتقاداته لم تتبلور إلا شفهيًا، أما في الممارسة فلم يكن هيلفردنج أكثر من موظفٍ مثقف في خدمة الحزب الألماني. في زياراته لفيينا، كان يأتي لرؤيتي، وفي المساء يصطحبني إلىٰ المقاهي ويقدِّمني لأصدقائه من الماركسيين النمساويين. وفي رحلاتي إلىٰ برلين، كنت أتذكره، ففي أحد مقاهي المدينة تقابلنا ذات مرة مع ماكدونالد، وكان إدوارد برنشتاين هو من تولَّىٰ ترجمة أسئلة هيلفردنج وإجابات ماكدونالد. لا أتذكر اليوم أيًا من هذه الأسئلة أو الإجابات؛ فلم تكن أيٌّ منها تتميز عن الأخرىٰ إلا في الابتذال. سألت

نفسي مَن مِن هؤلاء الرجال أبعد مِمَّا اعتدت أن أطلق عليه "اشتراكية"، لكنني لم أعثر علىٰ إجابة.

تلقيت خطابًا من هيلفردنج، خلال مفاوضات بريست للسلام. ورغم أنني لم أتوقع منه أي شيء ذي أهمية، فتحت الخطاب باهتمام. كان ذلك هو أول صوت من الغرب الاشتراكي بعد ثورة أكتوبر، لكن ماذا وجدت؟ طلب مني هيلفردنج في هذا الخطاب أن أطلق سراح واحدٍ من الأسرىٰ كان "طبيبًا"، ولا حتىٰ كلمة واحدة عن الثورة. لكنه وجَّه إليّ الخطاب بصيغة "أنت" أيضًا. كنت أعرف جيدًا طبيعة ونوعية شخص هيلفردنج، ولم يكن لديّ أي أوهامٍ حوله، لكنني لم أُصدِّق عينيّ.

أتذكَّر الاهتمام الشديد الذي سألني به لينين: "سمعت أنك تلقيت خطابًا من هيلفردنج؟".

فأجبته: "نعم".

"خير؟".

"طلب مني إطلاق سراح قريبه الأسير".

"وماذا قال عن الثورة؟".

"لا شيء عن الثورة".

"لا شيء؟".

"لا شيء".

فردَّ لينين مُحدِّقًا إليّ في دهشة: "لا يُصدَّق". لم يصبني ذلك بأي حيرةٍ، إذ قبلت مُسبَّقًا بفكرة أن ثورة أكتوبر وتراجيديا السلام في بريست ليتوفسك ليسا بالنسبة لهيلفردنج إلا مناسبةً لطلبِ رعاية قريبه.

عرَّفني هيلفردنج في فيينا علىٰ أصدقائه أوتو باور، وماكس أدلر، وكارل رينر. كانوا أناسًا مثقفين يفوقونني معرفةً في الكثير من المواضيع. استمعت إليهم بانتباهٍ واهتمامٍ بالغ، لكنني سرعان ما تحيَّرت في أمرِهم. لم يكن هؤلاء ثوريين، بل مثلوا ذلك الصنف السياسي الأبعد ما يكون عن الثورية. تجسَّد ذلك في تناولهم لكافة المواضيع التي طرحوها، وفي ملاحظاتهم السياسية وتقييماتهم النفسية، وكذلك في درجة ثقتهم بأنفسهم ورضاهم الذاتي، حتىٰ أنني شعرت بنبرةٍ من المُحافظة في أصواتهم نفسها.

فوجئت بعجز هؤلاء الماركسيين المثقفين عن تطبيق منهاج ماركس في القضايا السياسية الكبرىٰ، وبالأخص في انعطافاتها الثورية. كنت في البداية مقتنعًا بذلك فيما يخص رينر. جلسنا في مقهىٰ في وقتٍ متأخرٍ من الليل، ولم ألحق بأية مواصلاتٍ إلىٰ هاتلدورف حيث كان مسكني، لذا دعاني رينر لقضاء الليلة في منزله. لم يخطر علىٰ بالي في ذلك الوقت علىٰ الإطلاق أن هذا الموظف الهابسبورجي المثقف الموهوب سيرفعه المصير المشئوم للإمبراطورية النمساوية المجرية، بعد عشرة أعوام، إلىٰ منصب مستشار الجمهورية النمساوية. في الطريق من المقهىٰ إلىٰ منزله، تحدثنا عن التطورات المُحتَمَلة في روسيا، حيث

تُمسِك الثورة المضادة بمقاليدِ الأمور بحزم. ناقش رينر هذه المسألة بكياسة ولا مبالاة مثقف أجنبي. عبَّر عن وجهة نظره في روسيا قائلًا إن التحالف بين ملَّاك الأرض والبرجوازية، والذي وجد في دستور ستوليبين انعكاسًا له بعد انقلاب 3 يونيو 1907، يتوافق مع هذه المرحلة من تطوُّر قوىٰ الإنتاج في روسيا، وبالتالي فإن لديه فرصة للنجاة. رددت علىٰ ذلك بأن التحالف الحاكم بين البرجوازية وملَّاك الأرض كان يرصف الطريق لثورةٍ ثانية ستنقل في جميع الاحتمالات السلطة إلىٰ البروليتاريا. أتذكر كيف ارتبك رينر بنظرةٍ متعاليةٍ تجاهي تحت إضاءة أعمدة الشارع. ربما اعتبر تكهني هذا هذيانًا جاهلًا مثل النبوءة الغريبة التي أدلىٰ بها مندوبٌ أستراليٌ غامضٌ، قبل بضعة أشهر في مؤتمر الأممية الاشتراكية، والتي توقَّع فيها تاريخ وساعة الثورة العالمية المقبلة.

سألني متعجِّبًا، بكياسةٍ قاتلة: "هل تعتقد ذلك؟"، ثم استطرد: "ربما لست مُطلعًا بما فيه الكفاية علىٰ الأوضاع في روسيا". توقفت المحادثة عند هذا الحد، فلم تكن ثمة أرضية مشتركة نتناقش عليها. رأيت هذا الرجل كفرعونٍ مصريٍ مُحافظٍ بعيدٍ كل البُعد عن الديالكتيك الثوري.

تأكدت انطباعاتي الأولىٰ بالمزيدِ من الملاحظات. هؤلاء الرجال يعرفون الكثير، وهم قادرين بالفعل، في حدود الروتين السياسي، علىٰ كتابة مقالات ماركسية جيِّدة. لكنهم بدوا غرباءً بالنسبةِ لي. وكلما

توثَّقت علاقتي بهم، وحرصت بشكل أكبر علىٰ تدقيق ملاحظتي لهم، تأكدت من ذلك أكثر فأكثر. في محادثاتهم غير الرسمية فيما بينهم، كانوا يكشفون، علىٰ نحوٍ أكثر صراحةً مما في مقالاتِهم وخطبِهم، إما عن شوفينية صريحة، أو عن تبجح وثرثرة برجوازية صغيرة، أو عن احتقارٍ للمرأة. كنت أتعجب في دهشةٍ: "يا لهم من ثوريين!". لا أقصد هنا العمال، الذين بالطبع لديهم أيضًا الكثير من مثل هذه الخصال التافهة، لكن من نوعٍ أقل تعقيدًا وأكثر سذاجة. كلا، فقد كنت أقابل صفوة الماركسيين النمساويين ما قبل الحرب، وأعضاءً برلمانيين، وكُتَّابًا، وصحفيين.

في تلك الاجتماعات تعلَّمت أن أفهم التنوع الواسع للعناصر التي يمكن أن تجتمع سويًا في عقل رجلٍ واحد، والمسافة الهائلة التي تفصل الاستيعاب السلبي المجرد لأجزاءٍ من النظام عن تكامله النفسي ككل. لا تتطوَّر النفسية الماركسية إلا فقط في عصرٍ من الكوارث الاجتماعية، في عصرٍ من القطيعة الثورية مع العادات والتقاليد السائدة، بينما يبدو الماركسي النمساوي كرجلٍ ضحلٍ تعلَّم للتو مقتطفاتٍ من نظرية ماركس، وكأنه طالبٌ يدرس القانون، وعاش علىٰ ما حفظه من مقتبساتٍ من "رأس المال". في فيينا الإمبراطورية العبثية التافهة، كان الأكاديميون الماركسيون يوجِّهون حديثهم إلىٰ بعضهم بـ"السيد الأستاذ"، وأحيانًا كان العمال ينادون هؤلاء بـ"الرفيق السيد الأستاذ".

طيلة السبع سنوات التي قضيتها في فيينا، لم أحظ قط بمحادثةٍ خضتها بصدرٍ رحب مع أيٍ من عناصر المجموعة العليا، مع أنني كنت عضوًا في الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي، وكنت أحضر الاجتماعات، وأشارك في المسيرات والمظاهرات، وأكتب في الإصدارات المختلفة، وأحيانًا أيضًا كنت ألقي خطبًا قصيرة بالألمانية. شعرت أن زعامات الاشتراكية الديمقراطية غريبون عني، بينما وجدت لغةً مشتركة مع العمال الاشتراكيين الديمقراطيين في الاجتماعات العامة أو في مظاهرات يوم العمال.

وفي ظل هذا المناخ، كان كتاب المراسلات بين ماركس وإنجلز واحدًا من الكتب التي كنت بحاجةٍ إليها، إضافةً إلىٰ أن هذا الكتاب بالذات كان الأقرب لي، فقد أخضَعَ أفكاري وموقفي إزاء بقية العالم للاختبار الأعظم والأكثر حسمًا. استخدَمَ قادة الاشتراكية الديمقراطية الفيينية نفس الصيغ التي استخدمتها، لكن فارقًا بسيطًا ولو فقط بخمس درجاتٍ من محاور هذه الصيغ كان كافيًا لاكتشاف المعاني المختلفة تمامًا لنفس المفاهيم. كان توافقنا مؤقتًا؛ كان سطحيًا وخادعًا.

لم تكن المراسلات بين ماركس وإنجلز بالنسبةِ لي مجرد مراسلاتٍ نظرية، بل بوحٍ نفسي. وفي كل صفحةٍ كنت أجد دليلًا علىٰ تقاربي النفسي الشديد مع هذين الاثنين. كان موقفهما من الناسِ والأفكار هو نفسه موقفي. خمَّنت ما لم يُعبِّروا عنه، وشاركتهم عواطفهم، وكنت ساخطًا مثلهم، وشعرت بالكراهيةِ تجاه من كرهوا.

ماركس وإنجلز كانا ثوريَّين بمعنىٰ الكلمة، لكن لم يكن لديهما ولا حتىٰ أثرٌ بسيطٌ لأي عصبويةٍ أو تزمُّت. رفعتهم رؤاهم الثورية فوق أخطار القدر ومكائد الرجال. لم تكن التفاهات متسقةً، ليس مع شخصيتهما فحسب، بل مع وجودهما ككل. لم يكن للابتذال أدنىٰ علاقةٍ ولو حتىٰ بنعالهم. كانت تقديراتهم وعواطفهم، وحتىٰ دعاباتهم، يتخلَّلها هواءٌ مُخلخلٌ من النُبل الروحي. ربما يُنزِلون بأحد الرجالِ أقسىٰ الانتقادات، لكنهم في ذلك كانوا أبعد ما يكون عن اللغو. ربما كانوا في بعضِ الأحيانِ قساةً، لكن ليس غادرين قط. وما اعتبره المتحذلقون والمبتذلون أرستقراطيًا فيهما كان فقط رفعتهما الثورية. وأهم ما يُميِّز هذه الرفعة الثورية هو الاستقلال الكامل للرؤية في أي وقتٍ وتحت أي ظرف. أحسست حين قرأت رسائلهما، أكثر مما قرأت كتاباتهما، أن نفس الشعور الذي ربطني عن قربٍ بعالمِ ماركس وإنجلز هو ما يضعني في موقفٍ معارضةٍ لا تقبل المساومة مع الماركسيين النمساويين.

كان هؤلاء الناسُ يتفاخرون بكونهم واقعيين، لكن حتىٰ في ذلك كانوا يسبحون في مياهٍ ضحلة. في العام 1907، أنشأ الحزبُ مصنعًا للخبز من أجل زيادة مُدخلاته المالية. كانت هذه أكثر المغامرات فظاظةً علىٰ الإطلاق، مغامرةٌ خطيرةٌ علىٰ مستوىٰ المبادئ، وبائسةٌ علىٰ الصعيد العملي. كافحت ضد هذه المغامرة منذ البداية، لكنني لم أتلق إلا ابتسامةً مُتعاليةً علىٰ وجوهِ ماركسيي فيينا. وبعد حوالي

عشرين عامًا جرت فيهم الكثير من التقلُّبات وتكبَّدَ فيهم الحزبُ الكثيرَ من الخسائر، حوَّل الحزب النمساوي المصنع لاستثمارٍ خاص. وفي دفاعهم عن أنفسهم في مواجهةِ استياء العمال الذين بذلوا الكثير من التضحيات التي لم يجنوا منها ثمارًا، حاول أوتو باور إثبات ضرورة التخلي عن المصنع بالاقتباسِ مما قلته منذ البداية تحذيرًا لهم. لكنه لم يشرح للعمال لماذا عَجَزَ عن رؤية ما رأيته في بادئ الأمر، ولماذا لم يتصرَّف بناءً علىٰ تحذيراتي العديدة التي لم تكن بأي حالٍ نتيجة قواي الشخصية في التبصُّر. لم أكن قد بنيت رأيي في هذه المسألة علىٰ الوضع في سوق الخبز، ولا علىٰ أساسِ حالة عضوية الحزب، بل علىٰ وضع الحزب البروليتاري في المجتمع الرأسمالي. بدا ذلك تنظيرًا دوجمائيًا، لكنه أثبت أنه أفضل معيارٍ يمكن القياس عليه. وتأكيد صحة تحذيراتي القديمة لم يكن يعني إلا تفوُّق النهج الماركسي علىٰ نظيره النمساوي.

أما فيكتور أدلر، فكان بلا شكٍ أسمىٰ وأرفع مقامًا بكثيرٍ وعلىٰ كافة الأصعدة من كافة زملائه الآخرين. لكنه كان دائمَ التشكُّك، وفي الأزمة النمساوية كان يُهدِر طاقته النضالية علىٰ أمورٍ هيِّنةِ الشأن. كانت آفاق المستقبل غامضة، وأدارَ أدلر ظهره لها، أحيانًا علىٰ نحوٍ استعراضي.

كان يمتنع دومًا عن إلقاء الخطبِ بقوله: "أعمال الأنبياء شاقة، خاصةً في النمسا". وذات مرةٍ قال لي في رواقٍ علىٰ هامشِ مؤتمر

شتوتجارت، فيما يتعلَّق بمسألة النبوة هذه: "ربما تقول ما تود قوله. لكن من جانبي، فأنا أفضِّل النبوءات السياسية المبنية علىٰ الكوارث التي ستحل علىٰ أولئك المستندين إلىٰ التفسير المادي للتاريخ". كانت هذه بالطبع دعابةً منه، لكنها لم تكن هكذا تمامًا، فهذا بالتحديد هو ما جعل كلًا منَّا في قطبٍ مُتعارِضٍ مع الآخر في الكثير من الأمور الحيوية بالنسبةِ لي؛ من دون رؤيةٍ سياسيةٍ شاملةٍ للمستقبل، لا يمكن تحديد النشاط السياسي ولا الدور الذي يتعيَّن الاضطلاع به في الحياةِ الفكريةِ بشكلٍ عام. كان فيكتور أدلر متشكِّكًا تجاه كل شيء، وبذلك صار بإمكانه أن يؤقلِم نفسه مع كل شيء، خاصةً مع الروح الوطنية التي نخرت عظام الاشتراكية الديمقراطية النمساوية حتىٰ النخاع.

أضحت علاقتي أكثر توترًا مع قيادات الحزب بعد أن خرجت علنًا ضد شوفينية الاشتراكية الديمقراطية النمساوية – الألمانية. كان ذلك في العام 1909.

وخلال اجتماعاتي مع اشتراكيي بلدان البلقان، خاصةً مع الاشتراكيين الصرب، الذين كان ديمتري توتسوفيتش واحدًا منهم، وهو الذي قُتِلَ بعد ذلك في حرب البلقان في أثناء مشاركته فيها كضابطٍ في الجيش، سمعت الكثير من الشكاوىٰ الساخطة بأن الصحافة البرجوازية الصربية تقتبس مقتطفاتٍ شوفينية من صحيفة أربيتر زيتونج ببهجةٍ خبيثة، كإثباتٍ لزيف واحتيال قصة التضامن الأممي بين العمال. فشرعت في كتابة مقالةٍ حذرةٍ وأرسلتها علىٰ الفور لصحيفة

نيو زايت. وبعد تردُّدٍ طويل، نَشَرَ كاوتسكي المقالة، وفي اليوم التالي أخبرني مهاجرٌ روسيٌ قديم يُدعىٰ كلياتشكو، وقد جمعتني به علاقةٌ ودودة، أن قادة الحزب غاضبين مني.. "كيف جرؤ علىٰ ذلك؟".

اعترَفَ أوتو باور وغيره من الماركسيين النمساويين بأن محرِّر القسم الدولي في الصحيفة، ليتنر، قد تجاوَزَ حدوده. وفي ذلك كانوا يكرِّرون نفس كلماتِ أدلر، الذي رغم أنه تكيَّف بالفعلِ مع تطرُّفات الشوفينية، لم يكن يقبل بها. لكن في مواجهة التدخُّل المُتبجِّح من جانبي، توحَّدَ القادة مع بعضهم في نفس الشعور تجاهي. وفي أيام السبت اللاحقة، كان أوتو باور يقدم إلىٰ الطاولة التي أجلس إليها مع كلياتشكو، ويشرع في إدانتي. أعترف أنني تحت وابلِ كلماته لم أكن أدري ماذا أقول. أصابني الذهولُ من فحوىٰ مجادلاته أكثر بكثيرٍ من لهجته الواعظة.

سألني بأسلوبٍ مُتعجرف: "ما أهمية مقالات ليتنر من الأصل؟"، ثم: "السياسة الخارجية غير موجودة من الأصل علىٰ الأراضي النمساوية المجرية. ما مِن عاملٍ يقرأ عنها. ليس لها أدنىٰ أهمية".

استمعت إليه بعينين مشدوهتين، وبدا أن هؤلاء الرجال لم يُصدِّقوا في الثورة، ولا في الحرب. كانوا يكتبون عن الحربِ والثورةِ في بيانات الأول من مايو، لكنهم لم يتخذوا أيًا منهما بأي جديةٍ تُذكَر. لم يتصوَّروا أن التاريخ كان يدهس بحذائه الحربي العملاق مُستعمَرةَ النملِ التي يروحون داخلها ذهابًا وإيابًا دون الاكتراثِ بشيء. تعلَّم

هؤلاء السادة بعد ستة أعوام أن السياسة الخارجية موجودة بالفعل حتىٰ علىٰ "الأراضي النمساوية المجرية"، وفي الوقت نفسه بدأوا يتحدَّثون بنفسِ اللغةِ الوقحة التي تعلَّموها من ليتنر وغيره من الشوفينيين.

أما في برلين، فمع أن المناخ لم يكن أفضل حالًا، لكنه بدا مختلفًا. قلَّما كان هناك أثرٌ لهذا السلوك الفييني الأكاديمي المتعالي. كانت العلاقات أبسط وأسهل، والوطنية أقل شأنًا، أو بالأحرىٰ لم يكن هناك ما يُحفِّزها علىٰ إبراز نفسها بذاك الصخب الذي كانت عليه في النمسا. في ذلك الوقت كانت الوطنية تذوب في مباهاة الحزب كونه القوة الاشتراكية الديمقراطية الأكبر والأبرز في الأممية.

وبالنسبةِ إلينا، نحن الروس، كانت الاشتراكية الديمقراطية الألمانية أمًا ومدرسةً ونموذجًا حي. كنَّا نُبجِّل شأنها من علىٰ بعدٍ، وكانت أسماء بيبل وكاوتسكي تُنطَق بوقارٍ وإجلالٍ كبيرين. ورغم الهواجس النظرية المُزعِجة حول الاشتراكية الديمقراطية الألمانية المذكورة أعلاه، كنت وقتذاك بلا شكٍ خاضعًا لتعويذتها. وفاقَمَت إقامتي في فيينا من هذه الحقيقة. وحين كنت أزور برلين مرةً بعد أخرىٰ، كنت أقارن العاصمتين الاشتراكيتين ببعضهما وأواسي نفسي: كلا، برلين ليست فيينا.

في برلين، حضرت اجتماعين للجناح اليساري في الحزب. كانت هذه الاجتماعات تُعقَد في مطعم "راينجولد". كان فرانس ميهرنج هو

الشخصية الأساسية في هذه الاجتماعات، وكان كارل ليبكنيخت يحضر أيضًا، لكنه كان يأتي متأخرًا وينصرف قبل الجميع. اصطحبني هيلفردنج في المرةِ الأولىٰ إلىٰ هناك، وكان في ذلك الوقت لا يزال يعتبر نفسه واحدًا من "اليساريين"، رغم كراهيته لروزا لكسمبورج بنفس الشعورِ الشرس الذي كنَّه لها داشينسكي في النمسا.

لا تعلق في ذاكرتي أيٌ من الأمور التي نوقشت في هذه الاجتماعات. وذات مرةٍ، سألني ميهرنج ساخرًا، برعشةٍ في وجنته، إذ كان يعاني من التشنُّج: "أيٌ من أعمالي الخالدة تُرجِمَ إلىٰ الروسية؟". وحَدَثَ أن أشارَ هيلفردينج، في أثناء حديثه، إلىٰ الجناح اليساري في الحزب الألماني بـ"الثوريين"، فقاطعه ميهرنج: "نحن ثوريين؟! هؤلاء هم الثوريون"، وأومأ برأسه ناحيتي. لم أكن أعرف ميهرنج جيدًا، وقد قابلت من قبل كثيرًا من الحمقىٰ يتحدَّثون بسخريةٍ عن الثورة الروسية حتىٰ أنني صرت قادرًا علىٰ التمييز ما إذا المُتحدِّث يهزأ أم أنه جادٌ فيما يقول. لكن الحياة اللاحقة أثبتت أنه كان جادًا تمام الجدية.

قابلت كاوتسكي لأولِ مرةٍ في العام 1907. أخذني بارفوس إلىٰ منزله. كنت متحمسًا للغاية في طريقي إلىٰ ذلك البيت الضيق الصغير في فرايدينو بالقربِ من برلين. رجلٌ أبيض الشعر ضئيل الجسد كثير المرح، بعينين زرقاوين، حيَّاني بالروسيةِ: "مرحبًا". ساعدتني معرفتي بأعمال كاوتسكي أن أُكمِل صورةً ساحرةً له في ذهني. كان أعداؤه وأصدقاؤه علىٰ حدٍ سواء يلقِّبونه بـ"أبي الأممية". أما والدته، التي

كانت تكتب رواياتٍ قصيرة، فقد تلقت في عيد ميلادها الخامس والسبعين تحيةً من الاشتراكيين الإيطاليين بعنوان "إلىٰ أمِ أبي الأممية".

رأىٰ كاوتسكي أن مهمته النظرية الأساسية هي التوفيق بين الإصلاح والثورة. لكنه كان قد بَلَغَ منتهىٰ نضجه الفكري في عصرٍ من الإصلاح، فبدا الإصلاح بالنسبةِ له هو الحقيقة، والثورة أفقًا غامضًا ضبابيًا. وبعدما تبنَّىٰ الماركسية كنظامٍ متكامل، بدأ يُروِّج لها كمُعلِّمٍ في مدرسة، فمرَّت الأحداث الجسام دون أن يدركها، وبدأ يتدهور منذ أيامِ ثورةِ 1905. لم أحظ إلا بالقليلِ فقط من المحادثات معه. كان عقله حادًا وجافًا يفتقر إلىٰ البصيرةِ النفسية. كانت تقديراته مُبرمَجةً، ومزحاته مُبتَذَلة. ولنفسِ السببِ كان مُتحدِّثًا متواضعًا.

تزامنت صداقته مع روزا لكسمبورج مع العصر الذهبي لنشاطه الفكري. لكن بعد ثورة 1905، بدأت علامات الفتور تظهر بينهما. تعاطَفَ كاوتسكي بصدقٍ مع الثورة الروسية، وكان يُفسِّر أحداثها علىٰ نحوٍ صائبٍ من بعيد، لكنه كان معاديًا بطبيعته لغرسِ جذور الأساليب الثورية في التربة الألمانية. حين وصلت إلىٰ منزله قبيل مظاهرةٍ نُظِّمَت في حديقة تريبتاو، وجدت روزا في مجادلةٍ حاميةٍ معه. ومع أن كلًا منهما كان ينادي الآخر بـ"حضرتك"، وكان يتحدَّثان كصديقين حميمَين، شعرت في ردودِ روزا باستياءٍ مكبوت، وفي إجابات كاوتسكي بحرجٍ داخليٍ متخفٍ وراء نكاتٍ تحمل معانٍ

أخرىٰ. ومن ثم ذهبنا إلىٰ المظاهرةِ سويًا؛ روزا وكاوتسكي وهيلفردينج وجوستاف إكشتاين وأنا. نشبَت جدالاتٌ أكثر حدةً في الطريق. وبينما أراد كاوتسكي أن يقف علىٰ أطراف المظاهرة موقف المتفرِّج، كان روزا توَّاقةً للمشاركة في القلبِ منها.

انفجر التناقض بينهما في العام 1910 حول قضية النضال من أجل الاقتراع العام في بروسيا. طوَّر كاوتسكي في ذلك الوقت الفلسفة الإستراتيجية المتعلِّقة باستنزاف العدو، في مواجهةِ إستراتيجية الإطاحة به. وكانت تلك مسألة تيارَين لا يمكن التوفيق بينهما، إذ كان الخط الذي سار عليه كاوتسكي هو التكيُّف المتزايد مع النظام القائم. وعلىٰ الصعيد العملي، لم يكن المجتمع البرجوازي هو ما استُنزِف، بل المثالية الثورية لجماهير العمال. كل البرجوازيين الصغار، وكل الموظفين الرسميين، وكل المُتسلِّقين والمُتطفِّلين انحازوا إلىٰ جانبِ كاوتسكي، الذي نَسَجَ لهم الكسوة الفكرية التي غطوا بها سوءاتهم.

ثم جاءت الحرب، وتداعت إستراتيجية الاستنزاف هذه. كان كاوتسكي يُكيِّف نفسه مع الحرب بنفسِ الطريقةِ التي تكيَّف بها مع السلام، لكن روزا أبرزت أنها مخلصةٌ بحق لأفكارها.

أتذكَّر الاحتفالَ بعيدِ ميلادِ ليديبور الستين في منزلِ كاوتسكي. كان أوجست بيبل من ضمن ضيوف الحفل، وقد ناهَزَ بالفعل عامه السبعين. كان الحزب آنذاك في أوجه؛ كانوا متوحِّدين في السياسات ويحققون نجاحاتٍ ينظرون بها إلىٰ المستقبلِ بثقةٍ تامة. وخلال العشاء،

أخذ ليديبور يرسم رسومًا كاريكاتيرية. كانت تلك هي المرة الأولىٰ التي ألتقي فيها ببيبل وزوجته جوليا. وكان الجميع - وأنا من ضمنهم بالطبع - يستمعون بإنصاتٍ تام لكل كلمةٍ يتفوَّه بها بيبل.

جسَّدَ بيبل الحركة البطيئة والعنيدة لطبقةٍ جديدةٍ كانت وقتذاك تصعد من أسفل. بدا الرجل العجوز الذابل نافذ الصبر، لكن ذا إرادةٍ صلبةٍ مُوجَّهةٍ نحو نهايةٍ واضحة. في منطقه، وفصاحته، ومقالاته وكتبه، لم يكن بيبل يُهدِر أي طاقةٍ ذهنيةٍ علىٰ موضوعٍ لا يخدم مباشرةً غرضًا عمليًا مُحدَّدًا، وفي هذا بالتحديد تكمن روعة إسهامه السياسي. كان يعكس الطبقة التي تتلقىٰ معارفها وتثقيفها في أوقاتِ فراغها، فكان يُثمِّن كل دقيقةٍ، ويمتص بنهمٍ وشراهةٍ كل ما هو ضروري لاستكمال الصورة أمام ناظريه. رَحَلَ بيبل عن عالمنا في أثناء مؤتمر بوخاريست للسلام، في الفترة الفاصلة بين حرب البلقان والحرب العالمية. وصل نبأ وفاته محطة بلويشت في رومانيا. بدا الأمر عصيًا علىٰ التصديق؛ بيبل توفىٰ! ماذا سيحدث للاشتراكية الديمقراطية؟ حينها، ومضت كلمات ليديبور عن القلب المركزي للحزب الألماني في ذهني: عشرون بالمائة جذريون، وثلاثون بالمائة انتهازيون، والبقية يتبعون بيبل.

تركَّزَت آمال بيبل في خليفته هوجو هيس. كان منجذبًا نحو مثالية هيس، وليس المثالية الثورية بمفهومها الواسع والتي لم يكن هيس قريبًا منها حتىٰ، بل مثاليةً أضيق أفقًا وأكثر شخصنةً. وأوصىٰ بيبل بإصرارٍ أن يتولَّىٰ هيس منصب الرئيس الثاني للجنة المركزية للحزب.

عرفت هيس جيدًا. بعد مؤتمرات الحزب كنَّا نذهب في جولاتٍ عبر بعض المناطق في ألمانيا، وزرنا سويًا مدينة نورنبرج. كان لطيفًا ومحترمًا في العلاقات الشخصية المباشرة، أما في السياسة فظلَّ حتىٰ النهاية ديمقراطيًا محليًا متواضعَ القدرات دون أي ميلٍ ثوري أو رؤيةٍ نظرية. علىٰ صعيد الفلسفة، كان يقول عن نفسه، بخجلٍ بعض الشيء، إنه كانطي. وبمجرد أن تتعقَّد الأمور ينزع علىٰ الفور إلىٰ الامتناعِ عن اتخاذِ قراراتٍ نهائية؛ كان ببساطة يلجأ إلىٰ تدابير تقف في منتصف الطريق وينتظر. لا عجب أن اختاره الحزب الاشتراكي المستقل قائدًا له.

أما كارل ليبكنيخت، فقد كان مختلفًا تمامًا. عرفته لسنواتٍ طوال، لكن كانت الفواصل الزمنية بين اجتماعاتنا طويلةً نسبيًا. كان منزل ليبكنيخت في برلين مقرًا للمهاجرين الروس. في كل مرةٍ تعلو فيها احتجاجاتنا ضد التعاون الحميمي بين الشرطة الألمانية والقيصرية، كنَّا نشير أولًا وقبل أي شيءٍ إلىٰ ليبكنيخت، فقد كان منتقدًا عنيفًا لهذا الأمر.

ورغم أنه كان ماركسيًا واسع الاطلاع، لم يكن مُنظِّرًا، بل رجلَ حركةٍ علىٰ الأرض. كان تلقائيًا شغوفًا متحمِّسًا، وذا معدنٍ بطوليٍ أصيل، علاوة علىٰ حدسه السياسي العميق بالجماهير وبالأوضاع العامة، ومبادرته الشجاعة التي لا مثيل لها. كان ثوريًا بحق. ولهذا السبب بالتحديد، كان نصف مغتربٍ عن حزب الاشتراكية الديمقراطية

الألماني، بعقيدته البيروقراطية واستعداده الدائم للتراجع. يا لهم من ثُلةٍ من حمقىٰ ومُبتذلين ضحال كانوا، أمام عينيّ، ينظرون إلىٰ ليبكنيخت بسخريةٍ من أعلىٰ!

في مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي في مدينة ينا الألمانية، في النصفِ الأولِ من سبتمبر 1911، طُلِبَ مني، بناءً علىٰ اقتراحِ ليبكنيخت أن أتحدَّث عن طغيان الحكومة القيصرية في فنلندا. لكن قبل أن يحين دوري، جاءت الأنباء باغتيال ستوليبين في كييف. سألني بيبل علىٰ الفور ماذا تعني هذه العملية؟ وأي حزبٍ مسئول عنها؟ وألن يجذب خطابي المُقترَح انتباهًا غير مُحبَّذٍ من جانبِ الشرطة الألمانية؟

فسألت الرجلَ العجوزَ بحذرٍ، مُتذكِّرًا قضية كويلتش في شتوتجارت: "هل تخشىٰ أن يسبِّب خطابي مشكلةً؟".

فردَّ: "نعم، أخشىٰ ذلك. دعني أقول لك إنني أفضِّل ألا تتحدَّث".

فقلت: "في هذه الحالة، فلا داعي للكلمة التي كنت سألقيها".

تنفَّس بيبل الصعداء، وبعدها بدقيقةٍ واحدة جاء ليبكنيخت بوجهٍ بدا عليه الانزعاج، وسألني: "هل صحيح أن طُلِبَ منك ألا تلقي كلمتك، وأنت وافقت علىٰ ذلك؟".

فأجبته، محاوِلًا التماس العذر: "كيف لي أن أرفض؟ صاحب القرار هنا هو بيبل وليس أنا".

نَفَّسَ ليبكنيخت عن سخطه في خطبةٍ أنزَلَ فيها جمَّ غضبه بلا رحمة على حكومة القيصر، متجاهِلًا إشارات لجنة إدارة المؤتمر له، هؤلاء الذين لم يرغبوا في خلقِ مزيدٍ من التعقيدات. كمنت بذورُ كافة التطوُّرات اللاحقة في هذه المشاهد بالذات.

وحين عارضَتَ النقابات التشيكية القيادة الألمانية للأممية، قدَّمَ الماركسيون النمساويون، الذين وقفوا ضد الانقسام في النقابات، مجادلاتٍ كانت على النقيضِ التامِ من الأممية. وفي المؤتمر الأممي في كوبنهاجن، جاء التقرير حول هذه القضية على لسان بليخانوف. ومثل جميع الروس، أيّد بليخانوف وجهة النظر الألمانية، بالكاملِ وبلا أي تحفُّظٍ، ضد نظيرتها التشيكية. واقتُرِحَ ترشُّحُ بليخانوف لرئاسة اللجنة التي تنظر في هذه المسألة بواسطة فيكتور أدلر، الذي اعتقد أن من الأنسب في مثل هذه المسألة الدقيقة أن يؤتى بروسي لتسديد الاتهام بالشوفينية السلافية. أما من جانبي، فلم يكن عندي ما هو مشترك مع ضيق الأفق الوطني المؤسف لرجالٍ مثل نيميك وسوكوب وسميرال، الذين حاولوا جاهدين إقناعي بعدالة القضية التشيكية. وفي الوقتِ نفسه، كنت أراقب الحياة الداخلية للحركة العمالية النمساوية عن كثبٍ حتى ألقي باللائمةِ كاملةً على التشيكيين. كان هناك بالفعل الكثير من الدلائل على أن قواعد الحزب التشيكي أكثر راديكاليةً من الحزب الألماني – النمساوي، وعلى أن الاستياء

المشروع الذي يشعر به العمال التشيكيون تجاه قيادة فيينا الانتهازية يمكن استغلاله بمهارةٍ من قِبَلِ شوفينيين تشيكيين مثل نيميك.

وفي طريقي من فيينا إلىٰ المؤتمر في كوبنهاجن، وأثناء تغيير القطار في إحدىٰ المحطات، فوجئت بلينين الذي كان قادمًا من باريس. انتظرنا حوالي ساعة، ودارت بيننا مناقشةٌ هامة، كانت في البداية ودودة للغاية، لكنها تطوَّرت لاحقًا إلىٰ العكس من ذلك. جادلته بأن المُلام الوحيد علىٰ انعزال النقابات التشيكية هم زعماء فيينا في المقام الأول، هؤلاء الذين يطلقون النداءات الصاخبة يحثون فيها عمال كافة البلدان علىٰ النضال، ومن ضمنهم التشيكيون، ثم ينتهي الأمر دائمًا إلىٰ مساوماتٍ مع الملكية من وراء الكواليس. استمع لينين باهتمامٍ شديد. كان دائمًا لديه قدرة غريبة علىٰ الاهتمام والانتباه لما يُقال، ناظرًا لمن يخاطبه حتىٰ يصل للأمر الذي يريده بالضبط، وحينها يمتد ناظريه إلىٰ الفراغ.

تحوَّلت مناقشتنا تمامًا حين أخبرته بمقالتي الأخيرة في صحيفة "إلىٰ الأمام" عن الاشتراكية الديمقراطية الروسية. كنت قد كتبت هذه المقالة من أجل المؤتمر، وانتقدت فيها كلًا من المناشفة والبلاشفة بحِدَّة. كانت أكثر القضايا الشائكة في هذه المقالة هي ما عُرِفَت بقضية "المصادرات"[37]. بعد هزيمة الثورة، كان من شأن عمليات المصادرة

[37] – عمليات سطو مُسلَّح على المصارف لسد الاحتياجات المالية للحزب البلشفي. (المترجم)

المُسلَّحة والأعمال الإرهابية، حتمًا، أن تُبعثِر الحزب نفسه. وجاءت أغلبية الأصوات في مؤتمر لندن[38]، من المناشفة والبولنديين وبعض البلاشفة، لصالح منع "المصادرات". حينها صاح المندوبون من على مقاعدهم: "ماذا يقول لينين؟ نريد أن نسمع لينين"، لكنه لم يرد إلا بضحكةٍ مكتومة فيما بدا تعبيرًا تهكميًا منه. لكن "المصادرات" استمرت حتى بعد مؤتمر لندن[39]، وكان لها وقعٌ ضار بالحزب، وهذا ما ركَّزت هجومي عليه في صحيفة "إلى الأمام".

وبناءً على طلبِ لينين، أعدت له من الذاكرة الأفكار الأساسية التي صغتها في المقالة، فسألني مُوبِّخًا إياي: "هل حقًا كتبت ذلك؟". ثم: "هل يمكنك إرسال برقية لإيقاف النشر؟". فأجبته: "لا، ستظهر المقالة صباح اليوم. ما فائدة تعطيلها؟ إنها صائبة تمامًا".

في الحقيقة، لم تكن المقالة صائبة، إذ افترضت أن الحزب سيتشكل بوحدة البلاشفة والمناشفة معًا، في حين تأسَّس الحزب

---

[38] - حتى قبل مؤتمر لندن 1907، نوقشت قضية "المصادرات" في مؤتمر ستوكهولم 1906، وقدَّم المندوبون المناشفة فيه مسودة قرارٍ لمنع هذه العمليات، وقد أدلى 64 مندوبًا بأصواتهم تأييدًا لقرار المناشفة، فيما صوَّت 4 لصالح استكمالها، وامتنع 20 عن التصويت. (المترجم)

[39] - في 23 يونيو 1907، أي بعد حوالي ستة أسابيع من مؤتمر لندن الذي قرَّر حظر "المصادرات"، نفذت فرقة من البلاشفة أكبر عملية سطو مسلَّح داهموا فيها مصرف تيفليس وصادروا 341 ألف روبل أُرسِلوا إلى مالية البلاشفة بالخارج. لكن استبدال الأموال المنهوبة في البنوك الخارجية كان أمرًا صعبًا، وقد أُلقيَ القبض على العديد من البلاشفة بالخارج أثناء محاولتهم استبدال الأموال (كان أبرزهم مكسيم ليتفينوف الذي صار بعد انتصار ثورة أكتوبر 1917 مفوَّض الشعب للشئون الخارجية). (المترجم)

نتيجةً لحربٍ لا هوادةَ فيها من جانب البلاشفة ضد المناشفة. حاول لينين تحريض الوفد الروسي في المؤتمر علىٰ إدانة المقالة، وقد كان ذلك هو الصراع الأكثر حدةً بيني وبينه طوال حياتي كلها. كان لينين في ذلك الوقت مريضًا يعاني آلامًا عنيفةً في الأسنان، ورأسه بكاملها ملفوفةٌ بالضمادات. كان الموقف السائد بين أعضاء الوفد الروسي، تجاه المقال، معاديًا، ولم يكن المناشفة أقل استياءً من مقالةٍ أخرىٰ كنت قد كتبتها في 1910 ووجَّهت أفكارها الرئيسية ضدهم بالأساس، فكتب أكسيلورد في خطابٍ لمارتوف في أكتوبر: "يا لها من مقالةٍ مثيرةٍ للاشمئزاز تلك التي كتبها في "العصر الجديد". ربما تكون هذه مُقَزِّزَةٍ أكثر من تلك التي نُشِرَت في "إلىٰ الأمام".

أما لوناتشارسكي، فقد كتب في هذا الشأن: "استغل بليخانوف، الذي كَرِهَ تروتسكي بشدة، الموقف، محاولًا تقديمه للمحاكمة. رأيت أن هذا ليس منصفًا، فتحدثت في صالح تروتسكي. وبمشاركة ريازانوف، نجحنا في الإجهاز علىٰ خطة بليخانوف". لم تكن أغلبية الوفد الروسي تعرف شيئًا عن المقالة إلا من خلال تقاريرٍ غير مباشرة. طالبت بأن تُقرَأ المقالة، فعارض زينوفيف ذلك محاججًا بأن ما من حاجة لقرائتها من أجل إدانتها، لكن الأغلبية عارضته في ذلك. قُرِأت جهرًا، وتُرجِمَت أيضًا، وإن لم تخني ذاكرتي فإن ريازانوف هو مَن قام بذلك. أظهرت الصورة المُتخَيَّلة سابقًا المقالة في هيئةٍ وحشيَّة، إلىٰ درجة أن قراءتها كانت فاترةً مخيِّبة للآمال؛ حيث بدت غير مضرَّة علىٰ

الإطلاق. وبأغلبية كاسحة من الأصوات، رفض الوفد إدانتها. لكن هذا لا يمنعني اليوم من إدانة المقالة باعتبارها تقييمًا خاطئًا للفصيل البلشفي.

وبصدد قضية النقابات التشيكية، صوَّت الوفد الروسي في المؤتمر لصالح قرار فيينا المعارض للقرار المُقدَّم من براج. حاولت أن أُدخِلَ تعديلاتٍ على القرار، لكنني لم أنجح في ذلك. لم أكن واثقًا بعد في نوعية التعديل الواجب اتخاذه في السياسة العامة للاشتراكية الديمقراطية، فهذا التعديل كان ينبغي أن يكون في إعلان حربٍ مقدَّسةٍ ضدها. وهذه هي الخطوة التي لم تُتَخَذ إلا في العام 1914.

الفصل السابع عشر

الإعداد لثورة جديدة

تركز عملي خلال سنوات الردة الرجعية بالأساس علىٰ تحليل ثورة 1905، وتمهيد الطريق للثورة المقبلة بالبحث النظري. ذهبت بعد وقتٍ قصير من رحيلي عن روسيا في جولةٍ علىٰ تجمعات المهاجرين الروس والطلاب، وقدمت محاضرتين: "مصير الثورة الروسية: حول الوضع السياسي الراهن"، و"الرأسمالية والاشتراكية: الآفاق الثورية الاجتماعية". هدفت المحاضرة الأولىٰ لتبيان أن أفق الثورة الروسية كثورةٍ دائمة تأكد خلال تجربة 1905. أما الثانية فقد ربطت الثورة الروسية بالثورة العالمية.

وفي أكتوبر 1908، بدأت في فيينا في إصدار صحيفة روسية، برافدا (الحقيقة)، خاطبت جماهير العمال. كان يجري تهريبها إلىٰ روسيا، إما عبر الحدود الجاليكية[40]، أو عبر البحر الأسود. ظلت الصحيفة تصدر لحوالي ثلاث سنوات ونصف، كدورية نصف شهرية، لكن رغم ذلك تطلب العمل فيها وقتًا طويلًا. كانت المراسلات السرية مع روسيا

[40] - جاليسيا: محافظة تابعة للنمسا سابقًا، وتشكل اليوم جزءًا من جنوب شرقي بولندا وغربي أوكرانيا. (المترجم)

تستلزم قدرًا كبيرًا من الوقت. وبالإضافة إلىٰ ذلك، كنت علىٰ صلةٍ بالاتحاد السري لبحارة البحر الأسود، وعاونتهم في إصدار صحيفتهم.

المساهم الرئيسي في البرافدا كان أدولف يوفي، الذي صار لاحقًا دبلوماسيًا سوفييتيًا معروفًا. بدأت صداقتنا خلال أيام فيينا. كان يوفي رجلًا ذا حماسة ثورية فائقة، وإيمانٍ راسخٍ لا يحيد عن القضية، وكان دودًا للغاية في علاقاته الشخصية. لقد منح البرافدا كل ما في وسعه من مالٍ وجهد. عانىٰ يوفي من مرضٍ عصبيٍ شخَّصَه الأخصائي النفسي الفِيَنّي الشهير، ألفريد أدلر، الذي بدأ مشوار حياته كتلميذٍ لفرويد، ثم عارضه لاحقًا ليؤسس مدرسته الخاصة في علم النفس الفردي. تعرَّفت من خلال يوفي علىٰ معضلات التحليل النفسي، التي أدهشتني حقًّا، رغم أن الكثير من الأمور في هذا المجال لا تزال غامضةً وغير ثابتة، فتفتح الباب أمام أفكارٍ اعتباطية وخيالية. مساهمٌ آخر في الصحيفة كان سكوبيليف، الذي صار لاحقًا وزير العمل في حكومة كرينسكي. لذا، حين تقابلنا مرةً أخرىٰ في العام 1917، كنَّا أعداءً لا رفاقًا. أما فيكتور كوب، السفير السوفييتي الحالي في السويد، فقد عمل لبعض الوقت كسكيرتير البرافدا.

عاد يوفي إلىٰ روسيا لإنجاز أعمالٍ ثورية تتعلَّق بأنشطة البرافدا. أُلقيَ القبض عليه في أوديسا، وقضىٰ فترةً طويلةً في السجن، ثم نُفِيَ إلىٰ سيبيريا، وأُطلِقَ سراحه فقط في فبراير 1917، نتيجةً للثورة التي اندلعت في هذا الشهر. وفي ثورة أكتوبر التي تلتها، اضطلع بأحدِ أكثر الأدوار

حيويةً. كانت شجاعة هذا الرجل المريض مُذهِلةً حقًّا. كان يبدي اهتمامًا بالغًا بكل ما يفعل. لا زلت أتذكره في خريف 1919 كما لو كنّا في يومِنا هذا، بمظهره رابط الجأش في ميدانٍ تعصف به القذائف بالقرب من سان بطرسبورج. وفي زيّ الديبلوماسي الطاهر، وبابتسامةٍ لطيفةٍ علىٰ وجهه الهادئ، وعصا الخيزران في يده، كما لو كان يتنزَّه في أونتر دي ليندن[41]، راقب يوفي القذائف تنفجر علىٰ مقربةٍ منه، بفضولٍ، دون إسراعٍ أو إبطاءٍ في خطاه. كان متحدثًا مُفوَّهًا، جادًّا وعميق التفكير، كما أبرز نفس هذه المهارات في الكتابة. نظر لينين إلىٰ عملِه الديبلوماسي ببالغِ التقدير. ولسنين طويلة ظلت صلتي به أوثق من أي شخصٍ آخر. كان إخلاصه للصداقة والمبادئ لا نظير له. أنهىٰ يوفي حياته بشكل مأساوي، حين قوَّض مرضه الوراثي الخطير صحته، فيما لم تكن الحرب الشعواء التي شنَّها رجال الصف الثاني علىٰ الماركسيين أقل خطورةً عليه. انتحر يوفي في خريف 1927 بعدما حُرِمَ من فرصة الكفاح ضد مرضه، وبالتالي حُرِمَ من النضال السياسي. سرق عملاء ستالين الخطاب الذي كتبه لي قبيل انتحاره من مكتبه، والسطور القليلة التي بعثها لصديقه انتُزِعَت من مضمونها وشُوِهَت من قِبَل ياروسلافسكي وغيره من فاسدي الجوهر. لكن هذا لا يمنع يوفي من تسجيل اسمه كواحدٍ من أنبل الأسماء في كتاب الثورة.

---

[41] – شارع للمشاة تكتنفه الأشجار في مقاطعة مِيت، برلين – ألمانيا. (المترجم)

كنّا، يوفي وأنا، خلال أيام الرجعية كاحلة الظلمة، ننتظر بثقةٍ ثورة جديدة، وتصوَّرناها تمامًا على النحو الذي اندلعت به في 1917. كتب سفيرتشكوف، الذي كان منشفيًّا في ذلك الوقت بينما هو اليوم تابعٌ لستالين، في مذكراته عن برافدا فيينا قائلًا: "في هذه الصحيفة، استمر تروتسكي، بإصرارٍ وثبات، في الدفاع عن فكرة "ديمومة" الثورة الروسية، التي تجادل بأن الثورة، ما دام أنها بدأت، فلن تنتهي إلا بالإطاحة بالرأسمالية وتأسيس النظام الاشتراكي في كل أرجاء العالم. سخروا منه، اتهموه بالرومانسية وبالخطايا السبع؛ البلاشفة والمناشفة معًا. لكنه تمسَّك بفكرته بعنادٍ وصرامة، غير مكترثٍ بالهجمات".

وفي مقالٍ كتبته في مجلة روزا لكسمبورج البولندية، قمت بتوصيف العلاقة الثورية بين البروليتاريا والفلاحين بالكلمات التالية: "المحلية القميئة هي لعنة التاريخ على الحركات الفلاحية. وعلى هذا الذكاء السياسي المقيَّد للفلاح، الذي ينهب الإقطاعي في القرية من أجل حوز الأرض، لكن يرتدي بعد ذلك ثوب الجندي ليُطلِق النارَ على العمال، اندلعت الموجة الأولى من الثورة الروسية في 1905. يمكننا أن نعتبر أحداث هذه الثورة سلسلة من الدروس المادية القاسية، التي دقَّ فيها التاريخ بمطرقته الهائلة، في رأس الفلاح، الوعي بالوشائج التي تربط بين مطلبهم المحلي في الأرض والمعضلة الرئيسية ألا وهي سلطة الدولة".

ومن مثال فنلندا، التي كان للاشتراكية الديمقراطية فيها نفوذٌ كبير في أوساط الفلاحين بوقوفها مع المزارع الصغير في قضيته، استنتجت ما يلي: "إنه لنفوذ كبير ذلك الذي سيجنيه حزبنا بين الفلاحين خلال قيادته لحركة جماهيرية جديدة أكثر اتساعًا في الريف والمدينة! لكن الأمر يتوقف بالطبع علىٰ ألا نُخفِض أسلحتنا أمام إغراءات السلطة السياسية التي سنتعرض لها حتمًا في الموجة الجديدة المقبلة".

يا له من "تجاهلٍ للفلاحين" و"تجاوزٍ للمسألة الزراعية" هذا الذي كتبت!

وفي 4 ديسمبر 1909، في وقتٍ كانت تبدو الثورة فيه مسحوقة تمامًا وإلىٰ الأبد، كتبت في البرافدا: "حتىٰ في يومنا هذا، وحتىٰ خلال ضباب الرجعية الأسود الذي يحاصرنا من كل اتجاه، تتراءىٰ لنا انعكاسات انتصار أكتوبر الجديد". لم يعمد الليبراليون فقط للتسفيه من هذه الكلمات، بل شاركهم المناشفة أيضًا في ذلك. اعتبروا كلماتي هذه محض شعاراتٍ تحريضية، أو مجرد عباراتٍ جوفاء مُفرَّغة من أي مضمون. أما البروفيسور ميليوكوف، الحاصل علىٰ براءة اختراع مصطلح "التروتسكية"، فردَّ قائلًا: "فكرة ديكتاتورية البروليتاريا إنما هي فكرة طفولية تمامًا، وما مِن أحدٍ سيدعمها في أوروبا". لا بد أن أحداث العام 1917 قد زعزعت ثقة هذا البروفيسور الليبرالي الهائلة في نفسه.

خلال سنوات الردة الرجعية، عكفت علىٰ دراسة التجارة والصناعة، علىٰ المستوىٰ الدولي والمحلي كذلك. كنت مُنقادًا في ذلك بالاهتمام الثوري، وأردت اكتشاف العلاقة بين تقلبات التجارة والصناعة من ناحية، وتقدم الحركة العمالية والنضال الثوري من ناحيةٍ أخرىٰ. وفي ذلك، كما في أمورٍ أخرىٰ أيضًا، كنت شديدَ الحذر ألا أقع في فخ إرساء اعتمادٍ تلقائي للسياسة علىٰ الاقتصاد، فهذا التفاعل لا بد بالضرورة أن يكون نتيجةً للعملية المأخوذة بكليّتها في الاعتبار.

كنت لا أزال أعيش في المدينة البوهيمية الصغيرة، هرشيبرج، حينما ضربت كارثة "الجمعة الأسود" بورصة نيويورك، تلك الكارثة التي كانت بمثابة نذيرٍ الأزمة العالمية التي ابتلعت روسيا أيضًا وزعزعت ركائزها، تمامًا مثلما فعلت الحرب الروسية اليابانية والثورة التي تلتها. لكن أي عواقب يمكن استنباطها من هذه الأزمة؟ إن وجهة النظر التي سادت داخل الحزب، دون تمايزٍ لفصيل منه عن الآخر، كانت أن الأزمة ستؤدي إلىٰ تصاعد النضال الثوري. لكنني اتخذت موقفًا مختلفًا، فبعد فترة من المعارك والهزائم الكبرىٰ، قد تؤدي الأزمات الاقتصادية، لا إلىٰ استنهاض طاقة الطبقة العاملة في النضال، بل إلىٰ هيمنة حالة من الإحباط بين صفوفها، بحيث تدمر ثقة العمال في قوتهم الجماعية وتقتلهم سياسيًّا. وفقط نهضة صناعية هي التي تستطيع أن تضخ دماءً جديدة في شرايين الطبقة العاملة، وتعيد لها ثقتها بنفسها، وتجعلها قادرة علىٰ النضال مجددًا.

قوبل هذا التحليل بالشك والنقد، بل وقد طرح اقتصاديو الحزب الرسميون فكرة أن ازدهار التجارة والصناعة في ظل الثورة المضادة أمرٌ مستحيل. لكنني في المقابل رسَّخت حُجتي بحتمية نهوض اقتصادي وموجة جديدة من الإضرابات تأتي في أوج هذا النهوض، ومن بعدها أزمة اقتصادية، كي يتوفر الزخم اللازم للنضال الثوري. لم يتحقق ذلك التكهُّن إلا لاحقًا؛ فقد جاءت نهضة صناعية في 1910 جلبت معها إضراباتٍ عمالية، رغم الثورة المضادة، ومن ثم أشعل إطلاق النار على عمال مناجم ذهب لينا، في 1912، شرارة احتجاجات واسعة في كل أنحاء البلاد[42]. وفي 1914 سادت الأزمة بشكلٍ لا تخطؤه عين، وسيطرت متاريس العمال على سان بطرسبورج، هذه المتاريس التي شهدها بينوكار نفسه أثناء زيارته للقيصر مع بداية الحرب.

كان لهذا الاختبار السياسي والنظري قيمة كبيرة في نشاطي المستقبلي. ففي المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية، عارضتني أغلبية ساحقة من المندوبين حين أصررت على حتمية النهوض الاقتصادي في أوروبا ما بعد الحرب كشرطٍ للأزمات الثورية المقبلة. ومرةً

---

[42] – على خلفية هذه النهضة الصناعية التي أشار إليها الكاتب، تزايد عدد العمال المشاركين في الإضرابات السياسية وحدها من 4 آلاف عام 1910، إلى 8 آلاف في 1911، و550 ألف عام 1912، و502 ألف عام 1913، وصولًا إلى أكثر من مليون عامل في النصف الأول من 1914 (ليون تروتسكي، تاريخ الثورة الروسية – الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر). (المترجم)

أخرىٰ، كان عليّ أن أوجه للمؤتمر السادس للأممية الشيوعية تهمة الفشل الذريع في فهم اندلاع الموقف السياسي والاقتصادي في الصين، ذلك الفشل الذي انعكست فيه آمالٌ لا مبرِّر لها بأن الثورة الصينية، رغم الهزائم المفجعة التي تلقتها، ستستمر في التقدم نتيجةً لتفشي الأزمة الاقتصادية.

إن ديالكتيك هذه العملية ليس بهذا التعقيد علىٰ الإطلاق، بل إن صياغته أسهل من اكتشافه من جديد كل مرة في الحقائق الحيَّة. وعلىٰ أية حال، فقد تعوَّدت في نقاش هذه القضية أن أتجاوز التحيُّزات العنيدة التي تؤدي سياسيًّا إلىٰ أخطاءٍ كارثية وعواقب وخيمة.

علىٰ صعيدٍ آخر، لم تتوصَّل البرافدا، في رؤيتها لمستقبل المنشفية، ولمشكلات التنظيم داخل الحزب، إلىٰ دقة الموقف الذي اتخذه لينين. كنت لا أزال آمل أن تجبر الثورة الجديدة المناشفة علىٰ اتباع المسار الثوري، كما فعلت من قبل في 1905، لكنني بخست من قدر أهمية العمل الأيديولوجي والصقل السياسي. في قضايا التطور الداخلي للحزب، كنت مذنبًا بقدرٍ ما من القدرية الثورية. كان هذا موقفًا خاطئًا، لكن لا يمكن مقارنته بأية حال بالقدرية "البيروقراطية" المنحرفة فكريًّا، التي يتميز بها أغلبية نقَّاد اليوم في معسكر الأممية الشيوعية.

وفي 1912، حين صعد المنحنىٰ السياسي في روسيا بشكلٍ ملحوظ، حاولت الدعوة إلىٰ مؤتمرٍ لتوحيد الحزب يحضره مندوبون

عن كافة الفصائل الاشتراكية الديمقراطية. ولأبيِّن أنني لم أكن الوحيد الذي كان يهدف لاستعادة وحدة الاشتراكية الديمقراطية الروسية، سأقتبس هنا من روزا لكسمبورج التي كتبت في صيف 1911: "رغم كل شيء، لا يزال من الممكن إنقاذ وحدة الحزب إذا أُجبِرَ فصيلا الحزب علىٰ الدعوة لمؤتمرٍ مشترك". وكرَّرت مرة أخرىٰ في أغسطس 1911 أن "السبيل الوحيد لإنقاذ الوحدة هو عقد مؤتمر عام لمندوبين من روسيا، إذ أن كل الأعضاء داخل روسيا يريدون السلام والوحدة، علاوة علىٰ أنهم يمثلون القوة الوحيدة القادرة علىٰ إعادة الديوك المتصارعة بالخارج إلىٰ رشدها".

حتىٰ بين البلاشفة أنفسهم، كانت الميول التوفيقية لا تزال متواجدة بقوة، وهذا ما بنيت عليه أملي في تحفيز لينين أيضًا ليشارك في مؤتمرٍ عام يُعقد لتوحيد الحزب. إلا أن لينين خرج بكل قوته ضد الوحدة. وأثبت المسار العام للأحداث التالية صحة موقف لينين بشكلٍ قاطع. انعقد المؤتمر في فيينا في أغسطس 1912[43]، دون حضور البلاشفة، فوجدت نفسي رسميًّا في كتلةٍ واحدة مع المناشفة وبعض المجموعات البائسة المنشقة عن البلاشفة. لم يكن لهذه

[43] – قبل هذا المؤتمر، كان لينين قد دعا في يناير 1912 لعقد مؤتمر حزبي في مدينة براج (عُقِدَ بالفعل في فبراير). رفض كلٌّ من الحزب البولندي واللاتفي ومجموعة فبريود وتروتسكي وبليخانوف المشاركة في المؤتمر، فيما حضره 14 مندوبًا فقط (اثنان منهم عملاءٌ للشرطة) ممثلين عن 10 لجان حزبية في روسيا. (المترجم)

"الكتلة"[44] أي قاعدة سياسية مشتركة، إذ كنتُ مختلفًا مع المناشفة في كافة القضايا الهامة، واستأنفت نضالي ضدهم علىٰ الفور بعد انتهاء أعمال المؤتمر. وعلىٰ منوالٍ يومي، كانت صراعاتٌ مريرة تنشب من المعارضة الجذرية للتيارين الثوري الاشتراكي والإصلاحي الديمقراطي.

في 4 مايو، أي قبل المؤتمر بفترةٍ قصيرة، كتب أكسيلورد: "تولَّد لديّ، من خطاب تروتسكي، انطباعٌ أليمٌ بأن ليس لديه أدنىٰ رغبة في التفاهم الرفاقي والحقيقي معنا ومع أصدقائنا في روسيا... من أجل نضالٍ موحدٍ ضد عدوٍ مشترك". في الحقيقة، لم يكن لديّ أي رغبة ولا نيِّة، ولم يكن مُحتملًا أصلًا أن يكون لديّ أيٌّ منهما، للاصطفاف إلىٰ جانب المناشفة ضد البلاشفة. أما بعد المؤتمر، فقد شكا مارتوف في خطابٍ لأكسيلورد من أن تروتسكي "يعيد إحياء العادات الأسوأ لفردية لينين - بليخانوف الأدبية". تشهد هذه المراسلة بين أكسيلورد ومارتوف، والتي نُشرت فقط منذ بضع سنين، بالكراهية الحقيقية تمامًا تجاهي. لكن، رغم المساحة الواسعة التي فصلتني عنهما، لم

[44] - عُرِفَت هذه الكتلة بـ"كتلة أغسطس"، وضمت المجموعات التي حضر مندوبوها المؤتمر في فيينا (المناشفة، ومجموعة الفبريديين المنشقة عن البلاشفة في 1909، والبوند، ومجموعة تروتسكي)، وكان تروتسكي هو متحدثها الرسمي، وأخذ في الهجوم على "تكتيكات لينين الانشقاقية"، لكن سرعان ما تفككت هذه الجبهة بعد فترة وجيزة، بسبب خلافات الكاتب مع المناشفة. (المترجم)

أكن أُكِنّ لهما مثل هذا الشعور علىٰ الإطلاق، بل أنني حتىٰ يومنا هذا أتذكر، ممنونًا، أنني كنت مدينًا لهما بالكثير خلال في سنواتٍ ماضية.

إن واقعة تأسيس "كتلة أغسطس" هذه قد صارت شائعة في كل كتابات رجال الصف الثاني "المناهضة للتروتسكية". ولصالح هؤلاء الجُهَّال المبتدئين، أصبح الماضي يُقدَّم بطريقةٍ تُصوِّر البلشفية وكأنها خرجت من معمل التاريخ مكتملةَ العتاد، بينما تاريخ نضال البلشفية ضد المنشفية إنما هو أيضًا تاريخ الجهود التي لم تنقطع من أجل الوحدة. بعد عودته إلىٰ روسيا في 1917، بذل لينين جهوده الأخيرة للتصالح مع المناشفة الأمميين، وحينما عدتُ أنا من الولايات المتحدة في مايو من نفس العام، كانت أغلبية المنظمات الاشتراكية الديمقراطية في المحافظات تتشكل من بلاشفة ومناشفة متحدين معًا. وفي مؤتمر الحزب في مارس 1917، أي قبل بضعة أيام من عودة لينين، نصح ستالين بالوحدة مع حزب تسيريتللي. وحتىٰ بعد ثورة أكتوبر، ناضل زينوفيف، وكامينيف، وريكوف ولوناتشارسكي، وعشرات غيرهم، بجنونٍ، من أجل الائتلاف مع الثوريين الاشتراكيين والمناشفة. وهؤلاء هم نفس الرجال الذين يحاولون اليوم الحفاظ علىٰ وجودهم الأيديولوجي برواياتهم المُفزِعة عن مؤتمر الوحدة في فيينا 1912!

عَرَضَت عليّ صحيفة "كييفسكايا ميسي" (فِكر كييف) أن أذهب إلىٰ البلقان كمراسلٍ حربي لها. وفي الحقيقة، جاء هذا العرض في

وقته، إذ كان مؤتمر أغسطس قد أثبت فشله التام، وشعرت حينها أن عليّ أن أفصل نفسي، ولو لوقتٍ قصير، عن المهاجرين الروس. أما الأشهر التي قضيتها في البلقان فكانت هي أشهر الحرب، وقد علَّمتني كثيرًا.

في سبتمر 1912، كنت في طريقي شرقًا، معتقدًا أن الحرب ليست مُحتملة، بل حتمية. لكن حين وجدت نفسي علىٰ أرصفة بلجراد، ورأيت طوابير جنود الاحتياط، حين رأيت بعيني أن ما مِن رجعة، وأن الحرب قادمة لا محالة في أي يوم، حين عَلِمت أن عددًا من الرجال الذين أعرفهم جيدًا قد أُرسلوا مسلحين إلىٰ الحدود، وأنهم إما يقتلون أو يُقتلون لتنشب الحرب، التي تعاملت معها بخفةٍ في أفكاري ومقالاتي، بدا الأمر كله مستحيلًا وغير قابل للتصديق.

رأيت كتيبةً ذاهبةً إلىٰ الحرب، كانت تلك كتيبة المشاة الثامنة عشر، في عتادٍ كاملٍ بالملابس المُموَّهة والأحذية طويلة الرقبة وأغصانٍ من العشب الأخضر علىٰ الخوذات. أوحىٰ لي هذا المشهد بأن هؤلاء الرجال محكومٌ عليهم بالتضحية بأنفسهم. لم يشعل جنون الحرب في وعيي في تلك اللحظة شيئًا أكثر من أغصان العشب هذه. أتفهَّم جيدًا أن وجهة النظر الإنسانية، الأخلاقية، لعمليات التاريخ هي أكثر وجهات النظر عُقمًا وعجزًا، لكن المشاعر كانت هي الغالبة علىٰ التفسير، لا العكس. كان الإحساس بمأساة التاريخ يتملّكني تمامًا؛ إحساسٌ بالعجز أمام القدر، إحساسٌ بالشفقة علىٰ المحرقة البشرية الوشيكة.

أُعلِنَت الحرب بعد ذلك بيومين أو ثلاثة، فكتبت: "أنتم في روسيا تعرفونها، تصدقون فيها، لكن هنا في قلب الحدث، لا أصدق أنها باتت واقعًا. عقلي يرفض قبول هذا المزيج بين أمور الحياة اليومية، حيث الدجاج والسجائر والصبية الحفاة متسخي الأنوف، ووقائع الحرب المأساوية. أعلم أن الحرب قد أُعلِنَت، وأنها بدأت بالفعل، لكنني لم أتعلَّم بعد أن أصدق ذلك". صار عليّ أن أتعلَّم ذلك بشكلٍ حاسمٍ ولوقتٍ طويل.

كنت علىٰ معرفةٍ وثيقة، خلال عامي 1912 و1913 بصربيا وبلغاريا ورومانيا، والحرب. كان هذا إعدادًا هامًّا ليس فقط للعام 1914، بل لـ1917 أيضًا. في العديد من مقالاتي في تلك الفترة دشَّنت هجومًا علىٰ الوطنية السلافية، وعلىٰ الشوفينية بشكلٍ عام، وعلىٰ أوهام الحرب، وعلىٰ النظام المُمَنهج لخداع الرأي العام. كان لدىٰ مُحرِّري "كييفسكايا ميسي" ما يكفي من الشجاعة لنشر مقالةٍ لي تفضح فظائع البلغاريين بحق الجرحىٰ والأسرىٰ الأتراك، كما تفضح الصمت المُطبِق للصحافة الروسية، وقد دشَّنت المقالة موجة من الاحتجاجات الساخطة من جانب الصحف الليبرالية. وفي 30 يناير 1913، نشرت في الصحيفة "استجواب خارج البرلمان" لميليوكوف فيما يخص أهوال السلافيين في حق الأتراك.

جوصر ميليوكوف، الذي طالما دافع عن السلطات البلغارية، وأجاب علىٰ ما كتبته بلعثمةٍ وتلَجلُج. استمرت القضية عدة أسابيع

كانت فيهم الحكومة تشير بوضوح إلىٰ أن اسم "الترياق" لا يخفي فقط روسيًّا مهاجرًا، بل أيضًا عميلًا للإمبراطورية النمساوية المجرية.

لقد جعلني الشهر الذي قضيته في رومانيا علىٰ مقربةٍ من دوبروجا جيريا، ووطَّدَ صداقتي براكوفسكي، الذي عرفته منذ 1903، إلىٰ الأبد.

كان ثوريٌّ روسيٌّ من السبعينيات قد استُوقِفَ في رومانيا في خضم الحرب الروسية التركية، واعتُقِلَ لفترةٍ من الوقت في ظروفٍ لم يكن له فيها حيلة. وبعد بضع سنوات، ظهر باسم جيريا، وبات له تأثيرٌ واسعٌ علىٰ المثقفين الرومانيين، ذلك التأثير الذي امتد إلىٰ أوساط العمال أيضًا. كان النقد الأدبي علىٰ أسسٍ اجتماعية هو مجاله المُفَضَّل لتشكيل أكثر مجموعات الإنتلجنسيا الرومانية تقدمًا، ثم قادهم من قضايا الجماليات والأخلاقيات الشخصية إلىٰ الاشتراكية العلمية. أغلب السياسيين الرومانيين، في كل حزبٍ تقريبًا، كانوا قد مرّوا من قبل في حياتهم، علىٰ الأقل أثناء فترات شبابهم، علىٰ مدرسة الماركسية بزعامة جيريا. لكن هذا لم يمنعهم بعد ذلك من اتباع سياسةٍ لصوصيةٍ رجعيةٍ في سِنِّ نضوجهم.

أما راكوفسكي، فهو معروفٌ علىٰ المستوىٰ الدولي كواحدٍ من أفضل رموز الحركة الاشتراكية الأوروبية. جاء راكوفسكي، بلغاري المولد، من مدينة كوتل في القلب من بلغاريا، لكنه كان رومانيًّا حسب خريطة البلقان، وطبيبًا فرنسي التعليم، وروسي الروابط والوجدان

والعمل الأدبي. أجاد راكوفسكي التحدُّث بكافة لغاتِ البلقان، علاوة علىٰ أربع لغاتٍ أوروبية، وهذا ما أتاح له فرصة الاضطلاعِ بأدوارٍ هامة في العمل الداخلي لأربعة أحزاب اشتراكية؛ الحزب البلغاري والروسي والفرنسي والروماني، فصار واحدًا من قيادات الاتحاد السوفيتي، ومؤسسًا للأممية الشيوعية، ورئيسًا لجمهورية مفوَّضي الشعب الأوكرانية السوفييتية، وممثلًا ديبلوماسيًّا سوفييتيًّا في إنجلترا وفرنسا، ليحجز لنفسه في النهاية نصيبًا من مصير المعارضة "اليسارية". إن خصال راكوفسكي الشخصية، وأفقه الأممي الواسع، وسمو ونُبل أخلاقه، جعلته مكروهًا من جانب ستالين الذي جسَّد العكسَ تمامًا من كلِ تلك المميزات.

في 1913، نظم راكوفسكي وقاد الحزب الاشتراكي الروماني، الذي انضم لاحقًا إلىٰ الأممية الشيوعية. كان الحزب ينمو بشكل كبير، وحرَّرَ راكوفسكي صحيفته، وموَّلها أيضًا. وَرَثَ عقارًا علىٰ ساحل البحر الأسود، بالقرب من مانجاليا، ومن عائد هذا العقار كان يدعم الحزب الاشتراكي الروماني وكذلك الكثير من المجموعات الثورية والأفراد في بلدانٍ أخرىٰ. كان يقضي ثلاثة أيام في الأسبوع في بوخاريست، يكتب المقالات ويترأس جلسات اللجنة المركزية ويتحدَّث في الاجتماعات والمظاهرات، ثم يسافر بالقطار إلىٰ ساحل البحر الأسود حاملًا معه الخيوط والحبال والمسامير وغيرها من مستلزمات الحياة الريفية، يسير في الحقول ليراقب عمل جرَّارٍ جديد،

ثم يركض خلفه بمعطفه الطويل علىٰ طول ظُلُمات الأرض، ثم يهرع عائدًا إلىٰ المدينة حتىٰ لا يتأخر عن اجتماعٍ عام أو جلسةٍ خاصة. رافقته في رحلاته، ولم يكن بوسعي إلا أن أُعجَب بطاقته الوافرة، ودأبه الذي لا يكل، ويقظته الروحية الدائمة، وقلبه العامر بالطيبة، واهتمامه بمن حوله.

خلال خمسة عشر دقيقة في أحد شوارع مانجاليا، كان راكوفسكي يتحوَّل من الرومانية إلىٰ التركية، ومن التركية إلىٰ البلغارية، ثم إلىٰ الألمانية والفرنسية حين يتحدَّث إلىٰ بعض المهاجرين أو العملاء التجاريين، ثم في النهاية ينتقل إلىٰ الروسية ليتحدَّث إلىٰ الروس. كان يتحدَّث كمالكِ أرضٍ، وكطبيبٍ، وكبلغاري، وكروماني، وكاشتراكي بالأساس. في مثل هذه اللحظات، كان يبدو في عينيّ كمعجزةٍ تسير علىٰ قدمين في شوارع هذه المدينة الساحلية النائية المتبلِّدة. وفي نفس الليلة يهرع بالقطار إلىٰ ميدان المعركة. كان دائمًا متمهِّلًا واثقًا في نفسه، سواء كان في بوخاريست أو صوفيا، في باريس أو سان بطرسبورج أو خاركوف.

قضيت سنوات منفاي الأجنبي الثاني في الكتابة للصحافة الديمقراطية الروسية. مساهمتي الأولىٰ في "كييفسكايا ميسي" كانت مقالة كتبتها عن مجلة سيمبليستسيموس، التي أثارت اهتمامي بشكل كبير حتىٰ أنني اطلعت علىٰ كل أعدادها منذ أن بدأت الصدور، ولا تزال كاريكاتيرات هاين مطبوعةً في ذهني بشعورٍ اجتماعيٍ مثير.

ويعود اطلاعي على الرواية الألمانية الجديدة إلى تلك الفترة، حتى أنني كتبت مقالةً اجتماعيةً نقديةً طويلة عن فرانكلين فيديكيند، إذ كان يحظى باهتمامٍ متزايدٍ في روسيا في فترة انحسار الثورة.

كانت "كييفسكايا ميسي" هي الصحيفة الجذرية الأكثر شعبيةً في جنوب روسيا من بين كل الصحف ذات الميول الماركسية، فصحيفة مثلها لم يكن من الممكن أن تنتشر إلا في كييف، حيث الحياة الصناعية الواهنة، والتناقضات الطبقية غير الناضجة، والتراث الطويل من التشدد الفكري.

أما الصحيفة الراديكالية ميوتاتيس ميوتانديس، فيمكنني أن أقول إنها ظهرت في كييف لنفس السبب الذي ظهرت لأجله سيمبليستسيموس في ميونيخ. كتبت فيها حول مواضيع متنوعة، وأحيانًا ما كانت مواضيع خطيرة فيما يتعلّق بالرقابة. غالبًا ما كانت مقالات قصيرة نتيجة عملٍ تمهيدي طويل. لكنني لم أكتب قط ما لم أرد قوله. نُشِرت مقالاتي في "كييفسكايا ميسي" في دار نشر سوفييتية في عدة مجلَّدات. وغنيٌّ عن القول أنني كنت أساهم بمقالاتٍ للصحافة البرجوازية بالموافقة الرسمية من اللجنة المركزية التي حظى لينين فيها بالأغلبية.

ذكرت من قبل أننا، فور وصولنا فيينا، اتخذنا مسكنًا خارج المدينة. كتبت زوجتي:

"هاتلدورف أسعدتنا كثيرًا. كان المنزل أفضل حالًا من أيٍّ من المنازل التي أقمنا فيها سابقًا، إذ كان من المعتاد تأجير منازل في المنطقة أثناء الربيع، بينما استأجرنا منزلنا لقضاء الخريف والشتاء. من النافذة كنَّا نرىٰ الجبال وألوان الخريف الحمراء الداكنة، ومن البوابة الخلفية كنَّا نذهب للحقل مباشرةً دون أن نعبر الشارع. وفي الشتاء، كان الفيينيون يأتون عبر الجبال في أيام الأحد، بالزلّاجات والزحّافات مرتدين الكنزات والقبعات الملوَّنة. اضطررنا لترك هذا المنزل في أبريل بعد أن ضوعفت قيمة الإيجار، وفي ذلك الوقت كانت أزهار البنفسج تتفتَّح في الحديقة وتملأ الغرف بعطرها النفَّاذ عبر النوافذ المفتوحة. هناك وُلِدَ سريوجا. وصار علينا أن ننتقل إلىٰ مقاطعة سيفيرينج الأكثر ديمقراطية.

تحدث الولدان الروسية والألمانية. تحدثوا الألمانية في الروضة وفي المدرسة، ولذا كانا يتحدَّثان الألمانية حتىٰ في أثناء لعبهما في المنزل. لكن بمجرد أن يتحدَّث إليهما والداهما أو أبدأ أنا في مخاطبتهما، يتحوَّل لسانُهما فورًا إلىٰ الروسية. وإذا خاطبناهما بالألمانية، يشعران بالحرج ويجيبان بالروسية. وفي السنوات اللاحقة، اكتسبا اللهجة الفيينية وتحدثاها بطلاقة.

كانا يسعدان بزيارة عائلة كلياتشكو، حيث حظيا باهتمامٍ كبير من رب الأسرة وزوجته وأبنائهما. كان الأطفال مُغرمين

بريازانوف، ذلك المثقف الماركسي الذي عاش وقتذاك في فيينا. لقد سَلَبَ عقلَيهما بخصاله الحميدة ووده وتباهيه بهما. ذات مرة كان ابني الأصغر سيروجا ينتظر دوره عند الحلّاق وكنت أجلس إلىٰ جانبه، فأومأ إليّ لأقترب، ثم هَمَسَ في أذني: "أريد أن أقصَّ شعري مثل ريازانوف". كان مُعجبًا بشعر ريازانوف الناعم الكبير الذي لم يكن مثل شعر أيٍ من الآخرين، بل أفضل كثيرًا.

حينما دخل ليوفيك المدرسة، ظهرت مسألة الدين في حياتنا. وفقًا للقانون النمساوي آنذاك، كان الأطفال، حتىٰ سن الرابعة عشر، يتلقون دروس الدين تبعًا لدين آبائهم. وإذ لم نسجل أي دين في وثائقنا، فقد اخترنا اللوثرية[45] لأطفالنا لأنها تبدو أسهل وأخف علىٰ كاهل ولدَينا وروحَيهما. تلقيا حصة الدين بعد ساعات المدرسة، وأحبَّ ليوفيك هذه الدروس كما ظهر علىٰ وجهه الصغير، لكنه لم يجد ضرورة في التحدث عنها. وذات ليلة سمعته يهمهم بشيءٍ ما في سريره، وحينما سألته قال: "هذه صلاة. هل تعرفين أن الصلاة يمكن أن تكون جميلة كالقصائد؟".

---

45 – رافدٌ من المسيحية البروتستانتية. (المترجم)

منذ منفاي الأول، كأن والداي يسافران إلىٰ الخارج لزيارتي. جاوا إليّ في باريس، ثم في فيينا، مصطحبين معهما ابنتي الكبرىٰ التي كانت تعيش معهما في الريف. وفي 1910 جاءا لزيارتي في برلين، وحينها كانا قد تصالحا تمامًا مع قدري، وربما كانت آخر مناقشة بيننا هي تلك التي دارت حول كتابي الأول بالألمانية.

كانت والدتي تعاني مرضًا عُضال (داء الشعيات)[46]. تحمَّلت هذا المرض لعشر سنواتٍ من حياتها دون أن توقف عملها، وكأنها كانت في حاجة إلىٰ مزيدٍ من الأعباء. استأصلت إحدىٰ كليتيها في برلين حين كانت في الستين من عمرها، وكانت بصحةٍ جيِّدةٍ خلال أشهرٍ قليلةٍ بعد العملية، وصارت حالة شهيرة في الأوساط الطبية. لكن مرضها عاد بعد ذلك ورحلت عن عالمنا. ماتت في يانوفكا، حيث أنجبت أطفالها وقضت أغلب حياتها.

لا يكتمل الحديث عن الفترة التي قضيتها في فيينا دون التعرُّض للصداقة الحميمة التي جمعتنا بعائلة المهاجر القديم سيميون لفوفيتش كلياتشكو. يتشابك تاريخ منفاي الأجنبي الثاني بأكمله تحديدًا مع هذه العائلة. كانت هذه العائلة مركزًا للاهتمامات السياسية والفكرية، ولحب الموسيقىٰ، ولأربعة لغاتٍ أوروبية، وللكثير من

---

[46] - Actinomycosis: عدوى بكتيرية هوائية يسببها ميكروب خيطي، تتميز بانتشار التهابات قيحية وتكوين خراريج متعددة أو نواسير، غالبًا في منطقة الوجه والعنق والصدر. (المترجم)

الصلات الأوروبية. وجاءت وفاة رب الأسرة، سيميون لفوفيتش، مُفجِعةً لي ولزوجتي. كتب ليو تولستوي ذات مرة عن أخيه الموهوب، سيرجي، أن افتقاره لبعض العيوب الصغيرة هو ما منعه من أن يصبح فنانًا عظيمًا. يمكنني القول إن الأمر نفسه ينطبق علىٰ سيميون لفوفيتش؛ فقد كانت لديه كافة القدرات الضرورية كي يبلغ مكانةً سياسيةً مرموقة، لولا أن لم تكن لديه عيوبٌ. في عائلة كلياتشكو، وجدنا الصداقة والعون اللذين كنَّا في حاجة إليهما معًا.

كانت مقالاتي في "كييفسكايا ميسي" تضمن لنا حياةً بسيطةً متواضعة، رغم مرور شهور لم يسمح فيها انشغالي في البرافدا بكتابة ولو سطرٍ واحدٍ مدفوع الأجر. حلَّت علينا ضائقة مادية خانقة، وعرفت زوجتي طريقها لمحلات الرهن التي أودعنا فيها كتبًا كنت قد اشتريتها في أيامِ اليُسر. مرَّت علينا أيامٌ صودرت فيها ممتلكاتنا المتواضعة مقابل إيجار المنزل غير المدفوع. كان لدينا ولدان، ولم تكن لدينا مربيَّة، فصارت حياتنا عبئًا مُضاعفًا علىٰ زوجتي، التي رغم ذلك كان لديها ما يكفي من الوقت والجهد والطاقة لمعاونتي في العمل الثوري.

الفصل الثامن عشر

بداية الحرب

في فيينا، ظهرت عبارة "الصرب يجب أن يموتوا جميعًا" علىٰ اللوحاتِ والأسيجة الخشبية، وانطلقت من حناجر الصبية في الشوارع في كل مكان. وفي ضاحية سيفيرينج كومون، تهوَّر ابننا الأصغر سيروجا، بغريزةٍ تدفعه دائمًا لأن يكون مخالفًا لما حوله، صائحًا: "يحيا الصرب"، فعادَ إلىٰ المنزلِ بعينٍ حمراءٍ متورِّمة وخبرةٍ في السياسات الأممية.

يتحدَّث بوكانان، السفير البريطاني السابق في سان بطرسبورج، في مذكراته، بتمجيدٍ وتسام، عن "تلك الأيام الرائعة" حين "بدا أن روسيا قد تغيَّرت تمامًا". ربما نجد تمجيدًا مشابهًا في مذكراتِ الكثيرِ من الموظفين الرسميين الآخرين، لكننا بالتأكيد لن نجد تجسيدًا لحماقات الطبقة الحاكمة بمثل هذا الكمال الذي يقدِّمه بوكانان. في ذلك الوقتِ، كانت العواصم الأوروبية تعيش أيامها "الرائعة" أيضًا. كان ذلكَ في أغسطس، حين "تغيَّرت" كل تلك العواصم بغرضِ إبادة بعضها.

بدت الحماسة الوطنية في إمبراطورية النمسا المجر صادمةً ومفاجئةً بصورةٍ خاصة. أية حماسة تلك التي تدفع إلىٰ الميدان المقابل لوزارة الحرب الصبي صانع الأحذية بوسبيشيل، مع بائع الخضراوات

نصف التشيكي نصف الألماني فراو ماريش، مع السائق فرانكل؟ أية فكرةٍ تلك؟ الفكرة الوطنية؟ لكن هذه الإمبراطورية لم تكن تمثِّل إلا نفيًا كاملًا لأيةِ فكرةٍ وطنية. كلا، إن القوة الدافعة لهذه الحالة كانت شيئًا مختلفًا.

كان أولئك الذين يقضون حياتهم، يومًا بعد يوم في رتابةِ اليأسِ، كُثُر. وهؤلاء هم عماد المجتمع الحديث. ولقد دقَّ جرسُ التعبئة في حياتهم كأملٍ ووعد؛ أُطيحَ بنمطِ الحياةِ التقليدي المألوف، والمكروه أيضًا، ليحلَّ محله شيءٌ جديدٌ غير معتاد. كان المستقبل لا يزال يحمل في جعبته المزيدَ من الأمورِ التي قد يصعب تصديقها. للأفضل أم للأسوأ؟ للأفضل بالطبع؛ ما الذي يمكن أن يكون أسوأ، بالنسبةِ لبوسبيشيل، من الظروف "العادية" القائمة؟

مشيت بخطىٰ ثابتة عبر الشوارع الرئيسية لفيينا، وشاهدت حشدًا هائلًا يملأ شارع رينج الأنيق وسط العاصمة، حشدًا استيقظت فيه الآمال. لكن، ألم يتحقَّق بالفعل جزءٌ من هذه الآمال؟ أكان من الممكن في أي وقتٍ آخر أن يشعر الحمَّالون، والغسَّالات، وصانعو الأحذية، والشباب والصبية أنهم أسياد الموقف في شارع رينج؟ تطبع الحرب تأثيرها علىٰ الجميع، وأولئك المقموعون المخدوعون شعروا بأنهم علىٰ قدمِ المساواةِ مع الأثرياء ذوي النفوذ. قد يبدو الأمر معضلةً كبيرة، لكن في هذه الحالة التي سيطرت علىٰ الجمع الفييني الذي احتشدَ تهليلًا

لجيوش هابسبورج، تلمَّست أمرًا مألوفًا لديّ من أيامِ أكتوبر 1905 في سان بطرسبورج. لا عجب أن الحربَ تلد الثورة في الأغلب.

يا لها من مواقف متباينة - أو بالأحرىٰ متناقضة - تلك التي اتخذتها الطبقات الحاكمة تجاه بعضها! بالنسبةِ لبوكانان، كانت تلك أيامًا رائعة تغيَّرت فيها روسيا. لكن ويت، علىٰ الجانبِ الآخر، كتب عن أكثر الأيام "بؤسًا" في ثورة 1905، حين بدا أن "الأغلبية الساحقة من جماهير روسيا قد جنَّ جنونها".

تدفع الحرب، مثلها مثل الثورة، الحياة بأكملها بعيدًا عن مسارها الطبيعي. لكن، في حين تُسدِّد الثورة ضرباتها للسلطة القائمة، تعزِّز الحربُ في البدايةِ هذه السلطة، التي تبدو في خضم الفوضىٰ المتولِّدةِ عن الحرب قوةً وحيدةً واحدةً صارمةً وعتيدة، ثم تقوِّضها بعد ذلك. في بدايةِ الحربِ، كانت الآمال واهية في نهوض حركةٍ اجتماعيةٍ وطنيةٍ قوية، سواء في براج أو وارسو، أو في تريستي أو تيفليس. في سبتمبر 1914، كتبت إلىٰ روسيا: "إن تدشين وإعلان الحرب قد اجتاحا الأرض وكنسا كافة التناقضات الاجتماعية والوطنية في البلاد. لكنْ هذا ليس إلا تأجيلًا سياسيًا؛ نوعًا من تعليق النشاط السياسي. تأجَّلت الفاتورة السياسية إلىٰ ميعادٍ جديد، لكن لابد بالطبع من تسديدها في نهايةِ المطاف". في هذه السطور، التي خضعت للرقابة بشكل مؤكد، كنت أشير ليس فقط إلىٰ إمبراطورية النمسا المجر، بل إلىٰ روسيا، بل وبالتحديد إلىٰ روسيا.

كانت الأحداث تتلاحق سريعًا، حتىٰ جاء نبأ اغتيال جوريس. عجَّت الصحف بأكاذيب خبيثة منحت الأمل، ثم سلبته بعد سويعاتٍ قليلة. لكن سرعان ما تبدَّدت هذه الحالة أيضًا. قُتِلَ جوريس وغدر به حزبه.

ماذا كان إذن الموقف السائد في الدوائر القيادية للاشتراكية الديمقراطية النمساوية إزاء الحرب؟ كان البعض مسرورين بها بكل وضوح، وهؤلاء تحدثوا علىٰ نحوٍ مسيءٍ عن الصرب والروس، بغير تمييزٍ - إلا قليلًا- بين الشعوب وحكوماتها. كان هؤلاء قوميين حقًا، متنكرين بالكاد خلف قناعٍ اشتراكيٍ ثقافيٍ خادع، ما لبث أن ذاب وانقشع. أتذكَّر هانس دويتش، الذي صار لاحقًا وزيرًا للحرب، وهو يتحدَّث علنًا عن الطابع الحتمي، والمفيد في حقيقةِ الأمر، للحرب، التي من شأنها علىٰ الأقل أن تبدِّد "الكابوس" الصربي. ومن جانبٍ آخر، نظر آخرون، مثل فيكتور أدلر، للحربِ باعتبارها كارثةً خارجية لابد من خوضها. هذه الانتظارية السلبيةَ في الحقيقةِ كانت بمثابة غطاءٍ للجناح القومي. بينما عمد البعض، من أجل إضفاءِ بعض العمق علىٰ رؤاهم، إلىٰ التذكير بالانتصارِ الألماني في 1871، الذي أعطىٰ دفعةً للصناعةِ الألمانية، ومعها بالتالي الاشتراكية الديمقراطية الألمانية.

في الأول من أغسطس، أعلنت ألمانيا الحربَ علىٰ روسيا، لكن حتىٰ قبل ذلك كان الروس قد بدأوا الفرار من فيينا. وفي صبيحة 3 أغسطس، ذهبت إلىٰ فينزيل للتشاور مع النواب الاشتراكيين حول ما

ينبغي للروس أن يفعلوه. بدا فيكتور أدلر مشغولًا في غرفته بالكتب والأوراق وخلاف ذلك من لوازم الإعداد لمؤتمر الأممية الاشتراكية الذي كان سيُعقَد قريبًا في فيينا. لكن هذا المؤتمر كان بالفعل في يدِ القوىٰ الأخرىٰ التي احتلت الساحة. اقترح العجوز فيكتور أدلر أن يصطحبني إلىٰ المقر، أي إلىٰ جيير، رئيس البوليس السياسي آنذاك. وفي طريقنا بالسيارة، لفتّ انتباه أدلر إلىٰ المزاج الاحتفالي الذي خلَّفته الحرب وحدها، فأجابني بحزم: "هؤلاء غير المضطرين للذهابِ إلىٰ الحرب هم من يعبرون عن فرحتهم". وأضاف: "إلىٰ جانبِ ذلك، كل المختلين والمجانين يخرجون إلىٰ الشوارع الآن؛ إنه يومهم. مقتل جوريس ليس إلا بداية. الحرب تفتح الباب أمام كل الغرائز، أمام كل أشكال الجنون".

كان أدلر، الذي عمل بالطب النفسي، غالبًا ما يبلوِر مواقفه تجاه الأحداث السياسية -بالأخص النمساوية- ويدلي بملاحظاتٍ ساخرة من خلفية الطب النفسي التي تأثَّر بها. كم كان بعيدًا كل هذا البعد عن التفكيرِ، ولو للحظةٍ، أن ابنه سيرتكب جريمةَ قتلٍ سياسي كهذه. في ذروةِ الحرب، نشرت مقالةٍ في مجلة كامبف (نضال)، حرَّرها ابن أدلر نفسه، شرعت فيها في شرح سُدىٰ الإرهاب الفردي. من المثير للاهتمام أن مُحرِّر المقالة قد اعتمد نشرها وكان متحمسًا لها. إن الفعل الإرهابي

الذي ارتكبه فريدريك أدلر لم يكن إلا انفجارًا للانتهازيةِ في لحظةٍ من اليأس[47]، وبعد أن نفَّسَ عن هذا اليأس عاد إلىٰ روتينه القديم.

أشار جيير بحذرٍ إلىٰ احتماليةِ إلقاء القبض علىٰ كافة الروس والصرب في صبيحة اليوم التالي، فسألته:

"إذن، أنت تنصح بأن نرحل؟".

"كلما كان أقرب، كان أفضل".

"حسنًا، سأرحل مع عائلتي إلىٰ سويسرا غدًا".

"من الأفضل أن تفعل ذلك اليوم".

جرت هذه المحادثة في الثالثة مساءً، وفي السادسة وعشر دقائق كنت أجلس مع عائلتي في القطار الذي يقلع إلىٰ زيوريخ. تركنا خلفنا كل الوشائج التي نسجناها في النمسا علىٰ مدارِ سبع سنوات، وكتبًا، وأوراقًا، وكتاباتٍ غير منتهية، كان من بينها سجالٌ مع البروفيسور ماساريك حول الآفاق المستقبلية للثقافة الروسية.

صدمتني البرقية التي جاءت لتخبرني بخنوع الاشتراكية الديمقراطية الألمانية أكثر مما صدمني إعلان الحرب نفسها، رغم أنني كنت أبعد ما يكون عن تقديسِ الاشتراكية الألمانية. وكنت قد كتبت في وقتٍ مبكرٍ

---

47 – أطلق فريدريك أدلر، ابن فيكتور أدلر، النار على الكونت شتويرجخ، رئيس الوزراء النمساوي المجري، في أكتوبر 1916، فأرداه قتيلًا. حُكِمَ عليه بالإعدام، لكن خُفِّفَ الحكمُ لاحقًا إلى السجن، ثم أطلقت ثورة 1918 سراحه.

للغاية عن ذلك، في العام 1905، ثم أكدت على ذلك مرارًا فيما بعد: "لقد خلقت الأحزاب الاشتراكية الأوروبية ميولها المحافظة بنفسها، وهذه الميول تزداد قوةً كلما انجذب المزيد من الناس أكثر نحو الاشتراكية. ومن هذا المنطلق، فإن الاشتراكية الديمقراطية يمكن أن تكون، في لحظةٍ محدَّدَةٍ، عقبةً حقيقيةً في طريق الصراع المفتوح بين العمال والرجعية البرجوازية. بعبارةٍ أخرى؛ قد تعرقل المحافظة الاشتراكية الدعاوية للحزب البروليتاري نضال البروليتاريا المباشر من أجل السلطة". لم أكن أنتظر مُطلَقًا أية مبادرة ثورية من جانبِ القادة الرسميين للأممية في حالةِ حرب، لكنني في نفسِ الوقتِ لم أكن قط أقبل فكرة خنوع وانكماش الاشتراكية الديمقراطية، هكذا ببساطة، أمام العسكرية القومية.

حين وصل إليّ في سويسرا عدد صحيفة فوروارتس (إلى الأمام) الذي نُشِرَ فيه تقرير اجتماع الرايخستاج، في 4 أغسطس، ظنَّ لينين أن هذا تقريرٌ مزيَّف نشرته القيادة العامة الألمانية لمخادعة وإخافة أعدائها. رغم جدلية ونقدية عقل هذا الرجل، كان لا يزال مؤمنًا بالاشتراكية الديمقراطية الألمانية بهذه القوة. في الوقتِ نفسه، وصفت صحيفة أربيترزايتونج النمساوية يومَ خنوعِ الاشتراكية الألمانية بأنه "يومٌ عظيمٌ للأمة الألمانية". لم أعتقد مطلقًا أن تقرير فوروارتس مزيَّفٌ، فانطباعاتي الشخصية الأولى في فيينا جعلتني بالفعل مستعدًا لما هو أسوأ. إلا أن تصويت 4 أغسطس ظلَّ واحدًا من أكثر ما

شهدته مأساويةً في حياتي. ماذا كان إنجلز ليقول؟ هكذا سألت نفسي، وكانت الإجابة واضحة. كيف كان بيبل ليتصرَّف حيال ذلك؟ هنا، لم أكن واثقًا تمامًا في الإجابة. لكن بيبل الآن ميتًا علىٰ أية حال. لم يكن هناك إلا هيس، وهو ديمقراطي محلي مخلص، متجرِّدٌ من أي منظورٍ أممي أو مزاجٍ ثوري. في كل المواقف الحرجة، كان ينأىٰ بنفسه عن الحلول الحاسمة، ويفضِّل عادةً اللجوءَ إلىٰ التدابير التي تقف في منتصفِ الطريق، ومن ثم ينتظر. كانت الأحداث كبيرةً عليه. ومن خلفه، كان بالإمكان رؤية الشيدمانيين والإيبرتيين والويلسيين.

كانت سويسرا تعكس ألمانيا وفرنسا، فقط في صورةٍ متعادلةٍ محايدة؛ أي صورةٍ مهزومة، وعلىٰ نطاقٍ أكثر اختزالًا بكثير. وكما لو أن البرلمان السويسري يود التأكيد علىٰ هذه الحقيقة، فقد تضمَّن من بين أعضائه نائبين اشتراكيين بلقبٍ واحد؛ أحدهما جوهان سيج من زيوريخ، والآخر جين سيج من جينيف. وبينما كان جوهان مؤيدًا مسعورًا لألمانيا، كان جين مؤيدًا أكثر سعارًا لفرنسا. كانت تلك هي المرآة السويسرية للأممية.

وفي حوالي الشهر الثاني من الحرب، قابلت العجوز مولكينبوهر، الذي جاء ليحاول قولبة الرأي العام. وإجابةً علىٰ سؤال كيف يرىٰ حزبه مسار الحرب العالمية، أجاب الرجل: "خلال الشهرين المقبلين سننتهي من فرنسا، ثم نلتفت شرقًا لنقضي علىٰ جيوشِ القيصر، وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر علىٰ الأكثر سنهدي أوروبا سلامًا يدوم". سجَّلت

هذه الإجابة في يومياتي بالحرفِ الواحد. لم يكن مولكينبوهر، في قوله هذا، يعبِّر فقط عن تقديره الشخصي للموقف، بل كان يعبِّر ببساطة عن الرأي الرسمي للاشتراكية الديمقراطية. وفي الوقت نفسه، راهن السفير الفرنسي في سان بطرسبورج نظيره البريطاني بوكانان علىٰ خمسة جنيهات إسترلينية، أن الحربَ ستضع أوزارها قبل عيد الميلاد. لا، كانت توقعاتنا، نحن "الطوباويين"، أفضل قليلًا من أولئك السادة "الواقعيين" أرباب الاشتراكية الديمقراطية والدوائر الديبلوماسية.

كانت سويسرا، ملاذنا من الحرب، تذكِّرني بالبلدة الفنلندية التي، في خريف 1905، تلقيت فيها نبأ اندلاع الثورة الروسية. بالطبع احتشد الجيش السويسري وجرت تعبئته علىٰ قدمٍ وساق، وفي باسيل كان بالإمكان سماع ضجيج المدفعية، لكن ملاذي السويسري كان قلقًا بالأساسِ علىٰ فائضِ الجبن ونقص البطاطس، وكان يمثِّل بالنسبةِ لي واحةً هادئةً مُحاطةً بالأصداء الشرسة للحرب. كنت أقول لنفسي: ربما الساعة قريبة حين يحين وقت الرحيل عن الواحة السويسرية لأجل العودة إلىٰ عمال سان بطرسبورج في قاعة المعهد التكنولوجي. لكن هذا الوقت لم يأت إلا بعد ثلاثة وثلاثين شهرًا.

ورغبةً مني في توضيح أفكاري، كتبت في يومياتي، يوم 9 أغسطس:

"من الواضح هنا بكل جلاء أن المسألة ليست مسألة أخطاء، ليست مسألة بعض القرارات الانتهازية، وليست مسألة

متحدثين مرتبكين على المنصة البرلمانية، وليست مسألة تصويت الاشتراكيين الديمقراطيين على ميزانية الحرب، ولا مسألة خبرات العسكرية الفرنسية، ولا تتعلَّق بارتدادِ وغدر قادة مُحدَّدَين، بل أنها مسألة انهيار الأممية في وقتٍ يطرح مسئولياتٍ جسام، في وقتٍ لا يُعتبَر فيه كل ما سبق إلا عملًا تمهيديًا لما هو آت".

وفي 11 أغسطس، أدخلت هذه الفقرات أيضًا في يومياتي:

"فقط استنهاض حركة اشتراكية ثورية، استنهاض سيصير بحاجةٍ منذ البداية لأن يكون أشبه بالحرب، هو الذي سيضع أساسات أممية جديدة. ستشهد السنوات المقبلة مرحلة الثورة الاجتماعية".

انخرطت في حياة الحزب الاشتراكي السويسري، ووجدت في قواعده العمالية الدنيا أمميةً لا حدود للتعاطف معها. كنت أخرج من كل اجتماعٍ بتوكيدٍ إضافي مُضاعف على صحةِ موقفي. عثرت على أول ركيزةٍ داعمةٍ لي في الاتحاد العمالي "إينتراخت" الذي كان أمميًا في عضويته. وبعد موافقة مجلس إدارة الاتحاد، في بداية شهر سبتمبر، كتبت مسودة بيانٍ ضد الحرب والوطنية الاشتراكية. دعا مجلس الإدارة قادة الحزب إلى الاجتماع الذي من المُقرَّر أن أتلو فيه ورقةً كتبتها بالألمانية دفاعًا عمَّا جاء في البيان. لم يأت القادة. ظنوا أن من الخطر أن يتخذوا موقفًا مُحدَّدًا إزاء مثل هذه القضية العسيرة؛ فضَّلوا

الانتظار وحصر أنفسهم في الوقتِ الراهن في "الدردشة" حول انتقاداتِ متطرفي الشوفينية الألمانية والفرنسية. اعتمد اجتماع "إينتراخت" البيان بالإجماعِ تقريبًا، وقد أعطىٰ هذا البيان، رغم غموضه بعض الشيء، دفعةً حاسمةً للرأي العام داخل الحزب. ربما كانت تلك أول وثيقة أممية تصدر نيابةً عن منظمةٍ عمالية بعد اندلاع الحرب.

في تلك الأيام، جمعتني لأولِ مرةٍ صلةٌ قريبةٌ بكارل راديك، الذي جاء إلىٰ سويسرا من ألمانيا في بدايةِ الحرب. في الحزب الألماني، كان راديك ينتمي إلىٰ أقصىٰ اليسار، فأملت لأن أجد فيه ما يؤيد وجهة نظري. بالطبع كان راديك يندِّد بالجناح الحاكم من الاشتراكية الديمقراطية بنضاليةٍ شرسة، وفي ذلك كنت مع مؤيدًا وداعمًا، لكنني فوجئت في محادثتنا أنه لم يقبل قط احتمالية قيام ثورةٍ بروليتاريةٍ في المستقبل القريب بشكل عام بسبب الحرب. قال لي: "كلا، لأن القوىٰ الإنتاجية للبشرية إجمالًا لم تتطوَّر بعد بما فيه الكفاية". كنت معتادًا علىٰ سماعِ أن القوىٰ الإنتاجية "الروسية" لم تتطوَّر كفايةً لتعتلي الطبقة العاملة السلطة، لكنني لم أتصوَّر أن إجابةً مثل هذه يمكن أن تصدر من سياسيٍ ثوريٍ في بلدٍ رأسماليٍ متقدِّم. بعد رحيلي من زيوريخ بوقتٍ قصير، قرأ راديك ورقةً ألمانيةً مطوَّلة في نفس هذا الـ"إينتراخت"، مجادلًا بأن العالم الرأسمالي ليس مستعدًا بعد للثورة الاشتراكية.

كان كاتبٌ سويسري يُدعىٰ بروباتشر قد كتب في مذكراته المثيرة واصفًا صحيفة راديك، وكذلك زيوريخ أيضًا بشكلٍ عام، كنقطةِ التقاءٍ اشتراكية في بداية الحرب. وعلىٰ نحوٍ مثير للفضول، أشار الكاتب في خضم ذلك إلىٰ موقفي آنذاك أنه "سلمي". أما ما كان يعنيه بهذه الكلمة، فهذا ما يصعب فهمه. يعبِّر الكاتب عن تقدميته آنذاك في عنوانِ أحد كتبه: "من مواطن يعتز بوطنه إلىٰ بلشفي". لديّ فكرةٌ واضحةٌ عن رؤاه بما يجعلني أتفق معه في النصف الأول من العنوان، لكن بالنسبةِ للنصفِ الثاني فلا أتحمَّل عنه أية مسئولية.

حين شرعت الصحف الاشتراكية الألمانية والفرنسية في رسمِ صورةٍ واضحة للكارثة الأخلاقية والسياسية للاشتراكية الرسمية، نحيَّت يومياتي جانبًا لأكتب كراسًا سياسيًا حول موضوع الحرب والأممية. وعلىٰ خلفية محادثتي مع راديك، أضفت مقدمةً للكراس أكدت فيها بأكثرِ قوة علىٰ رؤيتي بأن الحرب ليست إلا انتفاضًا للقوىٰ الإنتاجية الرأسمالية ضد الملكية الخاصة من جانب وحدود الدول من جانبٍ آخر.

كان لهذا الكراس، "الحرب والأممية"، ككل كتبي الأخرىٰ، مصيرًا غامضًا خاصًا، في سويسرا أولًا، ثم في ألمانيا وفرنسا، وأمريكا لاحقًا، ونهايةً في روسيا السوفييتية. لابد أن أذكر هنا بضع كلماتٍ عن هذا المسير الذي خاضه الكراس. تُرجِمَ هذا الكراس من المخطوطةِ الروسية بواسطةِ روسي كانت إجادته للألمانية أبعد ما تكون عن

الاحتراف. ومن ثم أخذ أستاذٌ جامعي، يُدعىٰ راجاز، علىٰ عاتقه مهمة تحرير الترجمة، وقد منحني ذلك فرصةً للتعرُّف علىٰ شخصيةٍ أصيلة.

احتل راجاز مكانته في أقصىٰ يسار الاشتراكية السويسرية، رغم إيمانه المسيحي، ورغم كونه لاهوتيًا، تعليمًا ومهنةً، تشبَّع بأكثر الأساليب تطرفًا في النضالِ ضد الحرب، وأعلن تأييده للثورة البروليتارية. جذبني هو وزوجته بما تمتعا به من قوةٍ أخلاقيةٍ وسياسية عميقة في موقفهما إزاء المشكلات السياسية، ذلك الموقف الذي ميَّزهما بوضوحٍ عن الموظفين الرسميين في الاشتراكية الديمقراطية الألمانية والنمساوية والسويسرية وغيرهم، أولئك الذين خلوا خلوًا تامًا من أي مُثُل. وبحسب ما عرفت لاحقًا، فقد أُجبِرَ الرجل علىٰ الاستقالة من وظيفته بالجامعة بسبب أفكاره. كان ذلك جديرًا بالاعتبارِ طبعًا بالنسبةِ للطبقة التي انتمىٰ إليها. إلا أنني أحسست في كل المحادثات التي دارت بيننا، مع كل الاحترام الكبير الذي كنت أكِنه لهذا الرجل الاستثنائي، بحجابٍ رقيقٍ يكاد يكون ماديًا غير قابل للاختراق يفصلني عنه. كان صوفيًا تمامًا، ورغم أنه لم يحاول التأثير فيَّ بمعتقداته، ولم يكن يذكرها حتىٰ، كان ينضح بانتفاضةٍ هائلة تختلط بضبابٍ عجيب من عالمٍ آخر لا تولِّد في روحي إلا رجفةً غير مريحة. منذ اللحظة الأولىٰ التي بدأت فيها أفكر بنفسي، كنت ماديًا، أولًا بالحدسِ، ثم بالوعي الكامل بعد ذلك. لم أكن فقط غير مقتنعٍ بضرورةِ وجود عوالمٍ أخرىٰ، بل أنني أيضًا لم أكن أشعر بأي تواصلٍ

نفسي مع أولئك الذين يجمعون بين إيمانهم بداروين وبالثالوث المقدَّس معًا في الوقت نفسه.

لكن الكراس خرج إلى النورِ بألمانيةٍ جيدة بفضلِ راجاز. ومن سويسرا، شقَّ طريقه في ديسمبر 1914 إلى النمسا وألمانيا. كان الكراس، المكتوب بالأساسِ للبلدانِ الألمانية، موجَّهًا بالكامل ضد الاشتراكية الديمقراطية؛ الحزب الذي يتزعَّم الأممية الثانية. أتذكَّر أن صحفيًا يُدعىٰ هيلمان، وهو الذي عزف من قبل أول نغمةٍ في أوركسترا الشوفينية، وصف كرَّاسي بالجنون، لكنه أضاف أنه منطقيٌ في جنونه. لم أكن أطمح إلىٰ مديحٍ أعظم. وبالتأكيد لم أكن في حِلٍّ من التلميحاتِ بأن كرَّاسي كان أداةً بارعةً لدعايةِ دولِ الوفاق.

لاحقًا في فرنسا، مررت بتقريرٍ غير متوقَّعٍ نُشِرَ في الصحف هناك وجاءني عبر سويسرا، يقول إن محكمةً ألمانيةً أصدرت حكمًا غيابيًا عليّ بالسجن بسبب هذا الكراس الذي سطرته في زيوريخ. وبناءً علىٰ ذلك، استنتجت أن الكراس قد أصاب هدفه. لقد أسدىٰ إليّ قضاة هوهنزلرن معروفًا كبيرًا بهذا الحكم الذي لم أكن قط في عجلةٍ منْ أمري لقضاء ما يمليه من عقوبة. أما بالنسبةِ للكاذبين الذين يحلو لهم التشهير والافتراء، وكذلك بالنسبةِ لجواسيس دولِ الوفاق، فقد كان حكم المحكمة الألمانية بمثابة عقبةٍ دائمةٍ أمام جهودهم النبيلة لإثباتِ أنني عميلٌ للقيادة العليا الألمانية.

لكن ذلك لم يمنع السلطات الفرنسية من حظرِ مرورِ الكراس عبر الحدود، بموجب "أصله الألماني". وظهر فيما بعد تعليقٌ غامضٌ يدافع عن الكراس ضد الرقابة الفرنسية، في صحيفةٍ أصدرها هيرف. وعلىٰ ما أتذكَّر، رابابورت هو من كتب هذا التعليق. ورابابورت هذا رجلٌ ذو شأن كان يميل للماركسية. ألَّفَ هذا الرجلُ عددًا من التوريات والألاعيب الكلامية تفوق ما قد يؤلِّفه أي رجلٍ قد يكرِّس حياته بأكملها لهذا الهدف.

وبعد ثورة أكتوبر، أقبل ناشرٌ نيويوركيٌ مغامر علىٰ إصدار كراسي الألماني في نسخة أمريكية فخيمة. ووفقًا لتصريح هذا الناشر، فقد اتصل به الرئيس الأمريكي آنذاك، ويلسون، طالبًا منه إرسال بنودِ هذا الكراس له، في وقتٍ كان يؤلِّف فيه بيان الأربعة عشر نقطة للسلام، ووفقًا لما ذكره أناسٌ كانوا علىٰ اطلاعٍ علىٰ هذا الأمر، لم يكن ويلسون قادرًا علىٰ تجاوز حقيقة أن بلشفيًا سبقه في طرح هذه الصيغ. في غضونِ شهرين، بلغت مبيعات الكراس 16 ألف نسخة، ثم جاءت أيام بريست ليتوفسك لتشن الصحافة الأمريكية حملةً مسعورةً ضدي، فيختفي الكراس من الأسواقِ علىٰ الفور.

وفي الجمهورية السوفييتية، صدر من الكراس عدة طبعاتٍ بعد الثورة، ثم تحوَّل إلىٰ منهجٍ مُقرَّرٍ لدراسة الموقف الماركسي من الحرب، ولم يختف من "سوق" الأممية الشيوعية إلا بعد العام

1924، ذلك العام الذي اكتُشِفَت فيه ماهية "التروتسكية". ولا يزال الكراس محظورًا في الوقتِ الراهن، تمامًا كما كان قبل الثورة.

يبدو حقًا أن للكتب أيضًا مصيرها الخاص.

الفصل التاسع عشر

باريس وزيمرفالد

في 19 نوفمبر 1914، عبرت الحدود الفرنسية كمراسل حربٍ لصحيفةِ كييفسكايا ميسي. قبلت بهذا العرض من الصحيفة بلهفةٍ وحماسة، إذ وفر لي الفرصة للاقتراب من الحرب. كانت باريس حزينة؛ في الليل تذوب الشوارع في ظلامٍ دامس، بينما تُحلِّق المناطيد في سمائها بين الحين والآخر. صارت الحرب أحدَّ وأقسىٰ بعد تقدم الألمان إلىٰ نهر المارن. وفي ظل الفوضىٰ التي اجتاحت أوروبا، مع الصمت المُطبِق من جانب جماهير العمال الذين خدعتهم الاشتراكية الديمقراطية وخانتهم، كانت ماكينات الدمار تُعزِّز من قدراتها وتُنمِّي من طاقاتها. اختزلت الحضارة الرأسمالية نفسها في هذه السخافة الدامية بينما كانت تبذل كل ما في وسعها لتحطيم جماجم البشر.

وبينما كان الألمان يزحفون نحو باريس، والوطنيون الفرنسيون البرجوازيون يفرّون منها، أسس اثنان من المهاجرين الروس صحيفة يومية صغيرة بالروسية. سعت هذه الصحيفة لتقديم الأحداث الجارية للروس الذين انفصلت مصائرهم عن باريس، وكذلك للتأكيد علىٰ أن روح التضامن لم تمت بعد. قبل صدور العدد الأول، لم يكن إجمالي رأس مالها يتعدىٰ الثلاثين فرنكًا، وما مِن إنسانٍ "عاقل" يمكنه أن يتصوّر إمكانية إصدار صحيفة يومية علىٰ رأس مالٍ ضئيلٍ هكذا. وفي

الحقيقة، رغم الجهود التي كرَّسها المحرِّرون والكُتَّاب الآخرون، كانت الصحيفة تصطدم بأزمةٍ ماليةٍ حادة علىٰ الأقل مرةً في الأسبوع، وبدا الطريق مسدودًا أمامها. كان الكُتَّاب، المخلصون للصحيفة، يقتسمون من تكاليف طعامهم، والمحرِّرون يجوبون المدينة لجمع ما يستطيعون من فرنكات، وصدر العدد في وقته المُحدَّد بالفعل. وهكذا تمكَّنَت الصحيفة من الصدور لعامين ونصف، حتىٰ اندلاع ثورة فبراير 1917، صامدةً في وجهِ أزمات العجز والرقابة، تختفي وتظهر مجددًا باسمٍ جديد.

منذ أن وصلت باريس، بدأت أعمل في صحيفة ناش سلوفو (كلمتنا) التي صدرت بعد ذلك باسمِ جوبس (الصوت). كانت لهذه الجريدة اليومية قيمةٌ كبيرة، حيث ساعدت في توجيهي في خضم هذه الأحداث غير المسبوقة. أفادتني الخبرة التي اكتسبتها من العمل في ناش سلوفو لاحقًا حين كان عليّ التعامل مع الشئون العسكرية عن قرب.

جاءت عائلتي إلىٰ فرنسا في مايو 1915، اتخذنا منزلًا صغيرًا في مدينة سيفر كان صديقنا الفنان الإيطالي الشاب، رين بارسي، قد أعاره لنا لبعضة أشهر. ذهب ولدانا إلىٰ المدرسة في سيفر. كان الربيع جميلًا بخضرته المُبهجة، لكن أعداد النساء المتشحات بالسواد كانت في تزايد، وأطفال المدرسة يفقدون آبائهم. كانت الحرب في أوجها وما مِن مخرجٍ من هذه الأزمة. شنَّ كلمنصو هجماتٍ عاتيةٍ في صحيفته

ضد جوفري، وسارت شائعات بين الناس أن الحلقات السريَّة الرجعيِّة تُعد انقلابًا. ظلَّت صحيفة لو تومب، لأيامٍ عديدة، تصف البرلمان بكلمة واحدة: "الأبله"، وفي الوقت نفسه أخذت تطالب الاشتراكيين بصرامةٍ وحِدة بأن يحافظوا علىٰ الوحدة الوطنية.

اغتيل جان جوريس. زرت المقهىٰ الذي اغتيل فيه باحثًا عن أي أثرٍ له. من الناحية السياسية، كنت قد ابتعدت عنه بمسافةٍ طويلة، لكن ما مِن أحدٍ بوسعه إنكار قوته الشخصية. أما عقله، فقد كان توليفةً من التقاليد الوطنية والمبادئ الأخلاقية الميتافيزيقية والخيال الشعري.

سمعت جوريس في اجتماعاتٍ عامة في باريس، وفي مؤتمر الأممية، وفي لجانٍ مختلفة، وفي كل مرة بدا كأنني أسمعه للمرةِ الأولىٰ. لم يسقط جوريس في فخ الروتين، لأنه بالأساس لم يكن يكرِّر نفسه مُطلَقًا، بل يحشِد في كل مرةٍ المنابع الكامنة في روحه. امتزجت في هذا الرجل القوة الطاغية كشلالِ مياهٍ جارف، مع دماثة الخُلق التي أشرقت علىٰ وجهه كانعكاسٍ لثقافته الروحية الرفيعة. كان يزأر ويرعد ويزلزل الأرض دون أن يتأثر بشيءٍ قط. كان يراقب الأمور من حوله بدقة، يلتقط الاعتراضات المُحتملة ليتفاداها سريعًا. أحيانًا ما كان يكتسح ما يصادفه من مقاومةٍ كإعصارٍ كاسِح، وفي أحيانٍ أخرىٰ بلطفٍ وسخاء كمُعلِّمٍ أو كأخٍ أكبر. كان جوريس وبيبل علىٰ طرفيّ نقيض، إلا أنهما في الوقت ذاته كانا زعيمين توأمين للأممية الثانية. كان كلٌ منهما وطني؛ جوريس بخطابه الكاثوليكي الناري،

وبيبل بلمسته البروتستانتية الجافة. أحببتهما الاثنين مع اختلافٍ بسيط. وبينما كان بيبل يستنفذ طاقته وجسده، كان جوريس يعيش أيام مجده وريعانه، لكن في النهاية مات كلاهما في نفس الوقت تقريبًا، وكان موتهما بمثابة الحد الفاصل الذي انتهىٰ عنده الدور التاريخي التقدمي للأممية الثانية.

كان الحزب الاشتراكي الفرنسي في حالةٍ من الركود التام، ما مِن أحدٍ اعتلىٰ المكانةَ التي تركها جوريس شاغرةً. أما فايان، الناشط القديم في مناهضة التسلُّح، فقد كان يكتب مقالاتٍ يومية بروحٍ شوفينيةٍ فاقعة. قابلته ذات مرة في اجتماعٍ لإحدىٰ اللجان، حضره مندوبون من الحزب والنقابات، حيث بدا فايان نفسه ظلًا للبلانكية. بدت فرنسا ما قبل الحرب، بالنسبةِ لفايان، بنموها السكاني المحدود، وحياتها الاقتصادية والفكرية المُحافِظة، البلد الوحيد في التقدم والحركة، البلد المُختار والأمة المُحرَّرة التي توقظ الآخرين للحياة الروحيَّة. كانت اشتراكيته شوفينية، تمامًا كما كانت شوفينيته مسيحية. أما جويل جايد، زعيم الجناح اليساري الذي استنفذ نفسه في النضال ضد دُمىٰ الديمقراطية، فقد أثبت قدرته فقط علىٰ تقديم سلطته الأدبية الشائخة علىٰ مذبح الدفاع الوطني.

انقلب كل شيءٍ رأسًا علىٰ عقب. جاء مارسيل سيمبان، مؤلف كتاب "اصنع ملكًا أو اصنع سلامًا"، خليفةً لجيسد في وزارة برياند. ووجد بيير رينولد نفسه للمرةِ الأولىٰ "قائدًا" للحزب الاشتراكي،

فأولًا وأخيرًا كان لابد من أحدٍ يشغل المكان الذي تركه جوريس شاغرًا. كان رينولد بالكاد يمنع نفسه من محاكاة حركات وإيماءات الزعيم المقتول وصوته الهادر. ومن بعده جاء لونجيت بخجل شديد تجاوزه ليعبر إلىٰ راديكاليةٍ متطرفة. كان أسلوبه تذكيرًا دائمًا بأن ماركس ليس مسئولًا عن أحفاده. تبخرت الحركة النقابية الرسمية في أربعٍ وعشرين ساعة. ندَّدَ لونجيت بالدولة في زمنِ السلم، ليركع أمامها في وقتِ الحرب. أما المُهرِّج الثوري الذي يُدعىٰ هيرف، ذلك الذي كان مناهضًا للدولة وللجيش حتىٰ يومِ أمس فقط، فقد انقلب في الحال، لكنه ظلَّ شوفينيًا متطرفًا، مُهرِّجًا مختالًا تمامًا كما كان من قبل. وكي يضيف المزيد من الألم علىٰ سخريته من أفكاره بالأمس، احتفظت صحيفته باسمها - لاجير سوسيال (الحرب الاجتماعية).

إجمالًا، بدا الأمر وكأن الموت قد تحوَّل إلىٰ مهرجانٍ احتفالي. لم يسعني إلا أن أقول لنفسي: "لا، نحن من معدنٍ أصلب، لم تباغتنا الأحداث علىٰ حين غرة؛ توقَّعنا شيئًا كهذا، والآن نتوقَّع المزيد، ونحن جاهزون لما سيأتي أمامنا". كم من مرةٍ استثرنا غضبًا حين حاول الرينولديون والهيرفيون إطراء كارل ليبكنيخت من علىٰ بُعد! كانت هناك الكثير من عناصر المعارضة المُبعثَرة في الحزب والنقابات، لكنها لم تبدِ إشاراتٍ قوية للحياة.

كان مارتوف، القيادي المنشفي وأحد أكثر الرجال الذين قابلتهم في حياتي موهبةً وبراعةً في الفِكر، هو الشخصية الأبرز بلا منازع بين

المهاجرين الروس في باريس. لسوء حظه، شاء القدر أن يجعل منه سياسيًا في وقت الثورة دون أن يهبه ما يلزم من قوة الإرادة. واختلال ميزانه الروحي كان يسطع كالشمس علىٰ نحوٍ مأساوي وقتما تحل أية أحداث كبرىٰ. عاصرته في ثلاث مراحل تاريخية حاسمة: 1905 و1914 و1917. بدت ردة فعله الأولىٰ للأحداث ثورية دائمًا في البداية، لكن قبل حتىٰ أن يضع أفكاره علىٰ الورق، تحاصر الشكوك عقله من كلِ جانب. لقد افتقر ذكاؤه الوافر متعدد الجوانب إلىٰ دعم الإرادة. كان يشكو في رسائلهِ إلىٰ أكسيلورد في 1905، بأسىٰ وأسفٍ عميقين، من أنه لا يستطيع بلورة أفكاره. وفي الحقيقة لم يستطع ذلك قط، حتىٰ في اليوم الذي اعتلىٰ فيه الرجعيون السلطة. ثم في بداية الحرب، ظل يشكو مجددًا لأكسيلورد من أن الأحداث تدفعه إلىٰ هوة الجنون. وأخيرًا في 1917، اتخذ خطواتٍ مترددة نحو اليسار، ثم أهدىٰ قيادة الفصيل المنشفي الذي انتمىٰ إليه إلىٰ رجالٍ مثل تسيريتللي، ودان الذي لا تتخطىٰ قامته الفكرية ركبة مارتوف.

في 14 أكتوبر 1914، كتب مارتوف إلىٰ أكسيلورد: "ربما يمكننا التوصُّل إلىٰ تفاهم مع لينين، الذي يبدو أنه يستعد للاضطلاع بدور محارب الانتهازية في الأممية". لكن هذا الميل لم يستمر طويلًا مع مارتوف، فوجَدته لدىٰ وصولي إلىٰ باريس باهتًا شاحبًا. ومنذ البداية، لم يفضِ تعاوننا المشترك في ناش سلوفو إلا إلىٰ نضالٍ مريرٍ انتهىٰ باستقالة مارتوف من هيئة التحرير، ثم من طاقم العمل بأكمله.

بعد وصولي إلىٰ باريس بوقتٍ قصير، سعيت مع مارتوف لمقابلة مونات، أحد مُحرِّري الصحيفة النقابية لافي أوفرير (حياة العمال). كان مونات، الذي عمل من قبل مُدرِّسًا، ثم مُدقِّقًا لغويًا، يبدو من الظاهر بالضبط كعاملٍ باريسي، كان ذا عقلٍ نافذٍ وشخصيةٍ قوية، لم يمل يومًا للتصالح مع الجيش أو الحرب أو الدولة البرجوازية. كيف إذن كان لنا أن نجد مخرجًا؟ كنَّا مختلفين تمامًا. ندَّدَ مونات بالدولة وبالنضال السياسي، لكن الدولة تجاهلته وأظهرته لاحقًا كالمجنون حين خرج محتجًا ضد الشوفينية النقابية. ومن خلال مونات، توطَّدَت علاقتي بالصحفي روزمير، الذي ينتمي هو الآخر للمدرسة الفوضوية النقابية، لكنه صار أقرب للماركسية من الجيسديين أنفسهم كما أثبتت الأحداث لاحقًا. ومنذ تلك الأيام، ربطتني بروزمير علاقة صداقة صمدت أمام اختبار الحرب، ثم الثورة والسلطة السوفييتية، ثم سحق المعارضة ضد ستالين. وأثناء تلك الفترة، تعرَّفت علىٰ الكثير من العمال النشطين في الحركة العمالية الفرنسية، الذين لم يسبق لي معرفتهم من قبل. كان من بين هؤلاء الأمين العام لنقابة عمال المعادن، ميرهيم، ذلك الرجل المثابر الدقيق الذي لم تكن نهايته سعيدة بأي حال. هناك أيضًا الصحفي جيلبو، الذي حُكِمَ عليه لاحقًا غيابيًا بالإعدام بتهمةِ خيانةٍ لم يرتكبها، والأمين العام لنقابة صُنَّاع البراميل، بورديرون، والمُدرِّس لوريو الذي حاول أن يشق طريقه إلىٰ الاشتراكية الثورية، وكثيرون غيرهم. كنَّا نتقابل أسبوعيًا في مبنىٰ كوي دو جامب، وأحيانًا بعددٍ أكبر في حديقةٍ

عامة، نتبادل أخبار الحرب والمجريات الديبلوماسية التي تأتي إلينا من الداخل، ننتقد الاشتراكية الرسمية، ونلتقط إشارات الاستنهاض الاشتراكي، نُحمِّس المُحبَطين ونخرجهم من عثرتهم، ونخطِّط للمستقبل.

في 4 أغسطس 1915، كتبت في ناش سلوفو: "رغم كل شيء، تمر علينا الذكرى الدموية دون أن نرتاب في مبادئنا السياسية. في وسطِ هذه الكارثة الكبرى، علينا نحن الاشتراكيين الأمميين أن نتشبَّث بأساساتنا في التحليل، والنقد والدراسة، والتفكير. نرفض النظر من خلال العدسات "الوطنية" التي يعرضها علينا قادة الجيوش، ليس فقط بثمنٍ بخس، بل أنهم يعرضونها ببعض الحوافز معها أيضًا. لازلنا نرى الأمور كما هي؛ نسميها بأسمائها الحقيقية، ونتوقَّع منها النتائج المنطقية".

أما الآن، بعد ثلاثة عشر عامًا، ليس بوسعي إلا تكرار نفس الكلمات. هذا الشعور بالتميُّز عن الفكر السياسي الرسمي، بما فيه الاشتراكية الوطنية، وهو شعورٌ لم يرحل عن نفوسنا مطلقًا، لم يكن افتراضًا فارغًا لا مبرِّر له. لم يكن هذا الشعور يشوبه أي عنصرٍ شخصي، بل كان نتاجًا طبيعيًا لموقفنا النظري، إذ كنَّا نتمركز على قمةٍ أعلى وأسمى. مكَّنتنا رؤيتنا النقدية، في المقامِ الأول، من رؤية الحرب من منظورٍ أوضح. كل طرفٍ، كما يعلم الجميع، كان ينتظر انتصارًا مبكرًا، بل ويمكنني أن أسرد أدلةً لا تنتهي على هذه التقديرات المتفائلة. في هذا الصدد، كَتَبَ بوكانان في مذكراته: "كان زميلي

الفرنسي متفائلًا للغاية، حتىٰ أنه راهنني علىٰ أن الحرب ستنتهي بحلول رأس السنة". ولم يكن بوكانان، في قرارةِ نفسه، يتوقَّع انتهاء الحرب بعد عيد الفصح، بل قبله حتىٰ. وفي معارضة هذه الرؤية، وعلىٰ عكس النبوءات الرسمية، كنَّا نؤكد في صحيفتنا، يوميًا منذ شتاء 1914، أن الحرب ستطول، وأن أوروبا ستخرج منها في دمارٍ كامل. قلنا مرارًا وتكرارًا في ناش سلوفو إن في حالة انتصار الحلفاء، لن تجد فرنسا نفسها بعد هدوءِ غبار المعركة إلا بلجيكا أكبر قليلًا علىٰ الساحة الدولية. توقَّعنا قبل وقتٍ طويل ديكتاتورية الولايات المتحدة علىٰ الصعيد العالمي، فكتبنا للمرة المائة، في 5 سبتمبر 1916: "الإمبريالية تضع رهانها، بفضلِ هذه الحرب، علىٰ الأقوىٰ. الإمبريالية ستحكم العالم".

قبل ذلك بكثير، انتقلت عائلتي إلىٰ باريس في شارع أودري الصغير. كان المزيد والمزيد من الناس يفرُّون من المدينة، وتوقَّفَت الساعات في الشوارع واحدةً تلو الأخرىٰ. كانت الحرب تتعمَّق أكثر فأكثر. كان لابد من كسرِ هذه الحالة من الركود بأيةِ طريقة، فجاء نداء الوطنية يقول: الحركة الآن، الحركة! ومن هذا الجنون خرجت فظاعات معركة فيردون[48]. في تلك الأيام كتبت في ناش سلوفو، بتلك الطريقة التي تهرَّبت بها من الرقابة العسكرية: "تفوق الأهمية السياسية لمعركة فيردون أهميتها

---

[48] – أكبر وأطول معركة في الحرب العالمية الأولى، استمرت من 21 فبراير إلى 18 ديسمبر 1916 بين الجيوش الألمانية والفرنسية في شمالي شرق فرنسا. (المترجم)

العسكرية. في برلين، وفي غيرها من المدن، أرادوا "حركَةً"، وسوف ينالوها. من هذا المعركة سيولد غدُنا الجديد".

في صيف 1915، وصل إلىٰ باريس النائب الإيطالي مورجاري، سكرتير الكتلة الاشتراكية في برلمان روما، الذي جاء بسذاجةٍ من أجل تأمين مشاركة الاشتراكيين الفرنسيين والإنجليز في مؤتمرٍ أممي. عقدنا اجتماعًا في شرفة أحد المقاهي في شارعٍ باريسي تكتنفه الأشجار. حضر الاجتماع عددٌ من النواب الاشتراكيين الذين لسببٍ ما يطلقون علىٰ أنفسهم "يساريين"، ومورجاري. وبما أن المحادثة اقتصرت علىٰ النقاشِ حول السلام وتكرار التعميمات المُتعلِّقة بضرورة استعادة الأواصر الأممية، فقد مرَّ الاجتماع بسلاسةٍ تامة، حتىٰ تحدَّث مورجاري بهمسٍ درامي حول ضرورة استصدار جوازاتِ سفرٍ مُزيَّفة من أجلِ الرحلةِ إلىٰ سويسرا. دُهِشَ مورجاري من أمرِ النوَّاب الذين انتابهم الذعر من حديثه، لدرجة أن أحدهم، لا أتذكَّر من هو بالتحديد، سارع في نداء النادل ودفع حق كل أقداح القهوة التي تناولناها. كان شبح موليير يحوم حول الشرفة، إن لم يكن شبح رابيلاس أيضًا. هكذا انتهىٰ الاجتماع. ضحكنا كثيرًا ونحن عائدون مع مارتوف؛ ضحكنا لكن دون غضبٍ أو كراهية.

استُدعي مونات وروزمير للجيش، وبالتالي لم يتمكَّنا من السفرِ إلىٰ سويسرا، فذهبت إلىٰ المؤتمرِ مع ميرهيم وبورديرون، والاثنان كانا داعيَّين معتدلَين للسلام. لم نكن بحاجةٍ لجوازاتِ سفرٍ مُزيَّفة،

لأن الحكومة أصدرت لنا جوازات رسمية بالفعل. كان تنظيم المؤتمر في يد القيادي الاشتراكي البيرني جريم، الذي كان وقتذاك يحاول بأقصىٰ طاقته أن يرفع نفسه فوق المستوىٰ الأحمق لحزبه، ذلك المستوىٰ الذي لم يختلف هو نفسه عنه في شيء. خطَّطَ جريم لعقد المؤتمر في قريةٍ صغيرة أعلىٰ الجبال، علىٰ بُعدِ 10 كيلومترات من بيرن، تُدعىٰ زيمرفالد. انطلق المندوبون، الذين ملأوا أربع عربات تجرها الخيول، إلىٰ الجبال. كان المارة يُحدِّقون في هذا الموكب الغريب بفضولٍ وحيرة، وضحك المندوبون أنفسهم من حقيقة أن بعد قرابة نصف قرنٍ من تأسيس الأممية الأولىٰ، لا يزال من الممكن احتواء كافة الأمميين في أربع عرباتٍ فقط. لكنهم لم يشكوا مطلقًا في مبادئهم. أحيانًا ما ينقطع خيط التاريخ لتظهر عُقدةٌ جديدةٌ فيما بعد. وهذا ما كنَّا نفعله في زيمرفالد.

كانت أيام المؤتمر، من 5 إلىٰ 8 سبتمبر، عاصفة. اتفق الجناحان، الثوري بزعامة لينين، والداعي للسلام الذي كان يشكِّل أغلبية المندوبين، بصعوبةٍ بالغة، علىٰ بيانٍ مشترك أعددت مسودته. لم يكن البيان يقول كل شيء، لكن رغم ذلك كان بمثابة خطوةٍ كبيرةٍ للأمام. كان لينين في أقصىٰ يسار المؤتمر، إذ كان في الكثير من القضايا يمثل أقلية، أحيانًا من نفسه فقط داخل الجناح الزيمرفالدي اليساري الذي لم أكن رسميًا منتميًا إليه، رغم كوني قريبًا منه في كافة القضايا الهامة.

في زيمرفالد، كان لينين يرسم مستقبل الحركة الأممية. في قريةٍ جبليةٍ صغيرة، كان هذا الرجل يضع حجر الزاوية في الأممية الثورية.

ذكر المندوبون الفرنسيون قيمة وأهمية ناش سلوفو في ترسيخ صلةٍ فكريةٍ مع الحركة الأممية في بلدانٍ أخرىٰ. وأشار راكوفسكي إلىٰ أن ناش سلوفو قد اضطلعت بدورٍ هامٍ في تطوير الموقف الأممي للأحزاب الاشتراكية الديمقراطية في بلدانِ البلقان. تعرَّف الحزب الإيطالي علىٰ ناش سلوفو بفضلِ الترجمات الوفيرة لبلابانوفا. واقتبست الصحافة الألمانية، بما فيها الصحف الحكومية، الكثير من المقتطفات المنشورة في ناش سلوفو، فتمامًا كما يميل رينوديل نحو ليبكنيخت، سارع شيدمان في اعتبارنا حلفاءً له.

لم يكن ليبكنيخت نفسه حاضرًا في زيمرفالد؛ كان مسجونًا في جيش هوهنزلرن ثم اعتُقِلَ بعد ذلك. أرسل خطابًا للمؤتمر يعلن فيه تحوُّله من الدعوة للسلمِ إلىٰ الدعوة للثورة. تردَّد اسمه كثيرًا في المؤتمر. كان ليبكنيخت شعارًا للنضال التمهيدي للعالم الاشتراكي.

فرض المؤتمر حظرًا صارمًا علىٰ أي تقاريرٍ عنْ مجرياته، حتىٰ لا تسبَّب الأنباء حال تداولها في الصحف أية صعوباتٍ للمندوبين العائدين لدىٰ عبورهم الحدود. لكن بعد بضعة أيام، صار اسم زيمرفالد يتردَّد في أنحاءِ العالم بعد أن كان مجهولًا حتىٰ يوم أمس.

أعطىٰ مؤتمر زيمرفالد دفعةً قويةً لتطوُّرِ الحركة المناهضة للحرب في الكثيرِ من البلدان. في ألمانيا توسَّعت أنشطة السبارتاكيين، وفي فرنسا أُنشِئت "لجنة استعادة العلاقات الأممية"، والتفَّت الضاحية العمالية الروسية في باريس حول ناش سلوفو، ووفَّرت لها الدعم الكافي للنجاة من أزمتها المالية ومصاعبها الأخرىٰ.

انسحب مارتوف من ناش سلوفو بعدما كان يضطلع بدورٍ نشيطٍ في عملها خلال المرحلة الأولىٰ. وخلال الأشهر اللاحقة، تقزَّمَت الخلافات الثانوية التي فصلتني عن لينين في زيمرفالد.

في الوقت نفسه، كانت السحب تتجمَّع أمامنا في الأفق، وخلال العام 1916 صارت أكثر كثافةً. كانت صحيفة لا ليبرت الرجعية تنشر موادًا مجهولةَ المصدر تتهمني بتأييد ألمانيا والعمالة لها. وكنَّا نتلقىٰ الكثير من الخطابات المجهولة التي تتضمَّن تهديدات لنا. بالطبع كانت تلك الاتهامات والتهديدات "المجهولة" تنبع من مصدرٍ واحد - السفارة الروسية. علاوة علىٰ ذلك، كان أشخاصٌ مثيرون للريبة يطوفون دومًا حول مطابعنا. كان هيرف يهددنا بالشرطة. وانتشر خبرٌ يفيد بأن البروفيسور دوركخيم، رئيس اللجنة الحكومية المختصة بشئون المنفيين الروس، قال إن هناك أحاديث في الدوائر الحكومية حول إغلاق ناش سلوفو وطرد محرِّريها من البلاد، إلا أن هذا الإجراء قد تأجَّل لبعض الوقت. لم تكن لديهم ثمة قاعدة سليمة يبنون عليها ذلك، لأنني لم أخرق القانون، ولم أرتكب أية مخالفاتٍ

رقابية. كان لابد من العثورِ علىٰ عذرٍ معقول، لذا وجدوه في النهاية، أو بالأحرىٰ اختلقوه.

الفصل العشرون

طردي من فرنسا

ذكرت صحفٌ فرنسية مؤخرًا، حين كنت بالفعل في القسطنطينية، أن قرار طردي من فرنسا لا يزال ساريًا حتىٰ اليوم بعد ثلاثة عشر عامًا[49]. إذا كان هذا صحيحًا، فهذا دليلٌ إضافي علىٰ أن أسوأ كوارث العالم لم تُغيِّر كل شيءٍ بعد. خلال تلك السنوات، كانت أجيالٌ كاملة تُباد بالقنابل والقذائف، ومدنٌ هائلة تُسوَّىٰ بالأرض، وتيجانٌ إمبراطوريةٌ وملكية تتناثر عبر أراضي أوروبا الخَرِبة، وحدودُ دولٍ تتغيَّر، أبرزها حدود فرنسا التي تمنعني من اجتيازها. إلا أن القرار الذي وقَّعه مالفي في أوائل خريف العام 1916 لا يزال حتىٰ اللحظةِ محفوظًا بسعادةٍ رغم كل هذا الطوفان الهائل من التغيُّرات. لكن ماذا

---

49 - كَتَبَ ليون تروتسكي سيرته الذاتية في العام 1929، بينما في يوليو 1933 عَرَضَت عليه الحكومة الفرنسية برئاسة إدوارد دلاديه اللجوء في فرنسا، لكن مع حظر إقامته في باريس، فقضى الفترة من يوليو 1933 إلى فبراير 1934 في بلدة رويان تحت رقابة الشرطة، ثم انتقل إلى بلدة باربيزون تحت رقابة الشرطة أيضًا. وبعد اتفاق التعاون المشترك بين فرنسا والاتحاد السوفييتي في مايو 1935، طردته الحكومة الفرنسية من أراضيها، فتقدَّمَ طلبَ لجوءٍ إلى النرويج وانتقل إلى هناك بعدما قبلته الحكومة النرويجية. (المترجم)

عن نفي مالفي نفسه ومن ثم عودته لبلاده مرةً أخرىٰ؟[50] لعل أفعال الرجال تثبت أنها أقوىٰ عندًا من خالقها.

في العام 1918، وضعت البعثة العسكرية الفرنسية ضباطها تحت إمرتي. لعل ذلك لم يكن ممكنًا لأجنبيٍ "غير مرغوبٍ فيه" ومحظورٍ من دخول فرنسا. ومرةً أخرىٰ في 10 أكتوبر 1922، زارني السيد هيريوت في موسكو، ليس لتذكيري إطلاقًا بقرارِ طردي من فرنسا، بل كنت أنا من ذكَّرته بهذا حين سألني بكياسةٍ متىٰ أزور باريس. لكن هذا التذكيرمن جانبي كان علىٰ سبيل الدعابة. ضحكنا سويًا، لكن كلًا لسببٍ مختلفٍ عن الآخر، هذا صحيح، لكن ضحكاتنا علت بالمثلِ وفي نفسِ اللحظة. حَدَثَ أيضًا في العام 1925 أن جاء السفير الفرنسي، السيد هربرت، نيابةً عن الديبلوماسيين الفرنسيين، إلىٰ افتتاحِ محطة شاتورا للطاقة، وردَّ علىٰ خطبتي بـ"ألطفِ" تحيةٍ يمكن حتىٰ لأكثر الآذان ضعفًا أن تسمع فيها أصداء قرار السيد مالفي. لكن ماذا بشأن ذلك؟ هناك أهميةٌ كامنةٌ فيما قاله لي مُحقِّقا الشرطة اللذان اصطحباني من باريس إلىٰ إيرون في خريف 1916: "الحكومات تذهب وتجيء، لكن الشرطة باقية".

---

[50] – اتُّهِمَ لويس جان مالفي (1875 – 1949)، الذي شَغَلَ منصبَ وزير داخلية فرنسا من 1914 إلى 1917، بالخيانة، ونُفِيَ خارج البلاد ومن ثم عادَ إليها مرةً أخرى بعد خمس سنوات. (المترجم)

لكن، من أجل فهمٍ أفضل لملابسات طردي من فرنسا، من الضروري هنا أن أنغمس لبعضِ الوقتِ في الظروف التي عملت في ظلها الصحيفة الروسية الصغيرة خلال فترة تحريري لها. بالطبع كانت السفارة الروسية هي العدو الرئيسي لهذه الصحيفة آنذاك.

كانت مقالات ناش سلوفو تُترجَم بجديةٍ، واحدةً تلو الأخرىٰ، إلىٰ الفرنسية، ومن ثم تُرسَل برفقةِ التعليقات المناسبة لوزارة الحرب ووزارة الخارجية في شارع كي دورساي الباريسي. وبناءً عليه يتلقىٰ رقيبنا العسكري، السيد شاسلي، الذي قضىٰ سنواتٍ طويلةٍ في روسيا كمدرسٍ للغة الفرنسية قبل الحرب، اتصالاتٍ هاتفيةٍ بكل ما هو جديرٌ بالملاحظة في المقالات المُترجَمة. لم يكن شاسلي يتميَّز بأي درجةٍ من الحسم في شخصيته، فكان يحلّ معضلةَ تردُّده الدائم بإلغاء الأمرِ برمته بدلًا من التدقيق فيه. (ويا للأسف لم يُطبِّق هذه العادة الشخصية الرديئة علىٰ السيرة البائسة بصورةٍ استثنائية تلك التي كتبها عن لينين بعد ذلك بعدةِ سنواتٍ لاحقة!). وكرقيبٍ هيَّابٍ جبان، شَمَلَ شاسلي برعايته ليس فقط القيصر والإمبراطورة زوجته وسازونوف، بل راسبوتين أيضًا. ولعل الأمرَ لا يتطلَّب جهدًا يُذكَر لإثبات أن الحرب علىٰ ناش سلوفو، تلك الحرب الاستنزافية بحق، لم تكن قد شُنَّت بسبب التوجه الأممي للصحيفة، بل لروحها الثورية في معارضة القيصرية.

شهدنا الرقابة الأكثر صرامةً وشراسة في جاليسيا، في وقتٍ كان فيه الجيش الروسي يُحقِّق بعض النجاحات. وبمجرد أن يُحرَز أبسط

انتصارٍ ممكنٍ، تسوق سفارة القيصر الغرور والتكبُّر إلىٰ أبعدِ حد. في ذلك الوقت، تجاوَزَ الرقيب حدوده ليمارس عمله علىٰ إشعارِ نعيٍ كاملٍ للكونت ويت في صحيفتنا، فخلُصت المقالة إلىٰ ثلاثة أحرف: و - ي - ت. وفي هذا الوقت نفسه، كانت الصحيفة الرسمية لقطاع البحرية في سان بطرسبورج تنشر مقالاتٍ وقحة علىٰ نحوٍ غير مألوف تجاه الجمهورية الفرنسية، لتهزأ من برلمانها و"نوَّابه القياصرة الصغار". ذهبت بنسخةٍ من عددِ الصحيفة إلىٰ مكتب الرقيب أطلب تفسيرًا لما هو منشور، فقال لي شاسلي: "لا شأن لي بهذا. كل التعليمات التي تخص صحيفتك تأتي من وزارة الخارجية. هل تود التحدُّث إلىٰ أحد ديبلوماسيينا؟".

وبعد نصف ساعةٍ، جاء رجلٌ رمادي الشعر إلىٰ وزارة الحرب. ودارت المحادثة بيننا، وقد دوَّنتها علىٰ الفور بعد أن فرغنا من الكلام، علىٰ النحو التالي:

"هلا وضحت لي لماذا تُقتَطَع مقالةٌ في صحيفتنا عن بيروقراطي روسي متقاعد صار بالفعل مكروهًا في أروقة السلطة، وهو الآن متوفي أساسًا؟ وما علاقة هذا الأمر أصلًا بالعمليات العسكرية؟".

"حسنًا، أنت تعلم أن هذه المقالات تبدو مُزعِجةً لهم"، وأومأ برأسه بغموضٍ إلىٰ الناحيةِ الأخرىٰ قاصدًا السفارة الروسية.

ومن ثم ابتسم الديبلوماسي كما لو أنني قلت نكتةً أو ما شابه، وقال: "نحن في حرب، ونعتمد على حلفائنا".

فقلت: "هل تقصد أن تقول إن الشئون الداخلية لفرنسا في يد الديبلوماسية القيصرية؟ يبدو أن أسلافك قد أخطأوا حين قطعوا رأس لويس السادس عشر، أليس كذلك؟".

فردَّ: "أواه! أنت تبالغ، ثم أنك لابد ألا تنسى: نحن في حرب".

بقية المحادثة كانت عقمية تمامًا. أوضَحَ الديبلوماسي لي بابتسامةٍ لبقةٍ أن مسئولًا رسميًا إن توفى، لا يرغب زملاؤه الأحياء في أن يسمعوا عنه كلامًا من شأنه أن يزدريه. وبعد هذا الاجتماع، جرى كلُ شيءٍ كما المعتاد؛ استمر الرقيب في استخدام قلمه الأزرق في الشطب على ما لا يراه مناسبًا، حتى أوشكت الصحيفة على إصدارِ ورقٍ أبيض بدلًا من صفحاتٍ مكتوبة. لم نستخف يومًا بسلطة السيد تشاسلي، وهو في المقابل لم يكن ميَّالًا على الإطلاق للتقليلِ من شأن سلطة أسياده.

ومع ذلك، استلمت في سبتمبر 1916 قرار طردي من الأراضي الفرنسية. ما السبب في ذلك؟ لم يخبروني بأي شيء. لكن، تدريجيًا، كُشِفَ النقاب عن المكيدة الخبيثة التي حاكتها لي الشرطة السرية الروسية في فرنسا.

وحين ذَهَبَ النائب البرلماني جان لونجيت[51] لأريستيد بريان ليحتج، أو بالأحرىٰ ليأسف (كانت احتجاجاته دائمًا تصدر من فمه في ألطف نبرةٍ يمكن أن تسمعها) علىٰ قرار طردي، أجابه رئيس الوزراء قائلًا: "هل تعلم أن ناش سلوفو وُجِدَت مع الجنود الروس الذين قتلوا عقيدهم الروسي في مارسيليا الفرنسية؟". لم يكن لونجيت يتوقَّع ذلك بالطبع. كان يعلم الخط السياسي "الزيمرفالدي" الذي تسير عليه الصحيفة، وكان متصالحًا معه بهذا القدرِ أو ذاك، لكن مسألة قتلِ العقيدِ هذه أفقدته توازنه. واتضح لاحقًا أن سُئِلَ أصدقائي الفرنسيين عن ذلك، وهم بدورهم سألوني، لكنني لم أكن أعلم عن واقعة القتل في مارسيليا أكثر منهم. ثم جاءت مراسلات الصحافة الليبرالية، التي كانت خصمًا وطنيًا لناش سلوفو، لتوضِّح الأمر برمته.

حينما أرسلت حكومة القيصر بعضًا من قواتها إلىٰ أراضي الجمهورية الفرنسية، أُطلِقَ علىٰ هذه القوات أنها "رمزيةٌ" نظرًا لتعدادها المحدود. ولأن هذه القوات عُبِّئت علىٰ عجالةٍ، فقد حَشَدَت من دونِ قصدٍ عددًا لا بأس به من الجواسيس والعملاء المُحرِّضين ضمنها. كان من بين هؤلاء جنديٌّ يُدعىٰ فينينج (علىٰ ما أتذكَّر كان هذا اسمه)، كانت قد جاء لتوه من لندن بخطابٍ إلىٰ القنصل الروسي.

---

[51] - جان تشارلز لونجيت (1876 - 1938) هو حفيد كارل ماركس من ابنته جيني وزوجها تشارلز لونجيت، والأخير كان رمزًا رائدًا (برودونيًا وليس ماركسيًا) في حركة الطبقة العاملة الفرنسية شارَكَ في كوميونة باريس. (المترجم)

في باديء الأمر، حاوَل فينينج حضَّ المراسلين الروس الأكثر اعتدالًا علىٰ المشاركة في الدعاية "الثورية" في أوساط الجنود الروس. رفضوا ما كان يلح عليهم به. لم يجرؤ هذا الفينينج علىٰ تقديم نفسه لمُحرِّري ناش سلوفو، وبالتالي لم نكن نعرفه حتىٰ. وبعد فشل مهمته في باريس، توجَّه إلىٰ تولون حيث حقَّقَ بعض النجاحِ بين البحَّارة الروس الذين لم يتمكَّنوا من استبصار مبتغاه الحقيقي. كَتَبَ إلىٰ بعض الصحفيين الروس الذين اختارهم بصورةٍ عشوائيةٍ وأخفىٰ هوياتهم: "التربة خصبة لعملنا هنا. ارسلوا لي كتبًا وصحفًا ثورية"، لكنه لم يتلق أي رد. اندلع تمردٌ خطيرٌ في الطرَّاد الروسي أسكولد الراسي في تولون، وقُمِعَ بعنفٍ بالغ، وكان لفينينج دورٌ واضحٌ للغاية فيه، ومن ثم قرَّرَ أن الوقت مناسبٌ لنقلِ نشاطاته إلىٰ مارسيليا. كانت التربة "خصبةً" هناك أيضًا. فمن دون أن يفعل هو شيئًا يُذكَر، اندلعت التمردات وسط الجنود الروس وتصاعَدَت إلىٰ حدِ رجمِ العقيد الروسي، كراوس، في ساحة الثكنة، حتىٰ الموت. لكن علىٰ الفور أُلقيَ القبض علىٰ الجنود الذين ضلعوا في هذا الشأن، وعُثِرَ في أمتعتهم علىٰ نسخٍ من ناش سلوفو. وقيلَ للمراسلين الروس الذين قدموا إلىٰ مارسيليا للتحقُّق من الأمر إنه خلال الاضطرابات وزَّعَ جنديٌ يُدعىٰ فينينج صحيفة ناش سلوفو علىٰ كل الجنود، سواء رغبوا في ذلك أم أبوا، وهذا هو السبب الوحيد في العثورِ علىٰ الصحيفة مع الجنود المُعتَقَلين، وهم الذين لم تتسن لهم فرصةٌ من الأصلِ لقراءتها.

وتمامًا بعد ما أجراه لونجيت مع بْريان من حوارٍ فيما يتعلَّق بطردي من البلاد، أي قبل أن يُكشف عن دور فينينج في هذا الشأن، كتبت خطابًا مفتوحًا إلىٰ جول جيسدي، وفيه اقترحت أن ربما من الممكن أن تُوزَّع نسخُ ناش سلوفو بعمدٍ بين الجنود في اللحظةِ المناسبة بواسطة بعض المُحرِّضين الثوريين. وبالطبع هذا ما أكَّده أعدائي اللدودون علىٰ الصحيفة بأسرع مما توقَّعت. لكن هذا لا يهم. ومن ثم عرضت الديبلوماسية القيصرية علىٰ حكومة فرنسا أنها إذا أرادت وضع يدها علىٰ الجنود الروس المُدانين، فعليها أولًا أن تُدمِّر وكر الثوريين الروس في باريس علىٰ الفور. وهذا ما جرىٰ بالفعل، إذ أغلقت الحكومة الفرنسية ناش سلوفو بعد أن كانت مُتردِّدةً حتىٰ ذلك الحين، ووقَّعَ وزير الداخلية، مالفي، القرار الذي أعده مُحافِظ الشرطة مُسبَّقًا بطردي من فرنسا.

والآن صار لدىٰ الوزارة حجةٌ كافية، فاستغل بريان واقعة مارسيليا كذريعةٍ لطردي، ليس فقط أمام جان لونجيت، بل أيضًا لعددٍ غيره من نوَّاب البرلمان. لكن ناش سلوفو كانت في الأصلِ تخضع للرقابة وتُباع علنًا في الشوارع، فلا يمكن بناءً علىٰ ذلك أن تدعو الجنود لقتلِ عقيدهم. ومع ذلك، ظلَّت القضية لغزًا حتىٰ أُميطَ اللثامُ عن المكيدة، وصارت معروفةً حتىٰ لأعضاء مجلس النوَّاب. وحين علم بانليفي، وزير التعليم، بهذه القصة "الداخلية"، صاحَ: "يا له من عار! لا يمكن أن تُترَكَ الأمور هكذا". لكن الحرب كانت قائمة،

والقيصر كان حليفًا. لم يكن من الممكن الكشف عن فينينج، ولم يكن ثمة مفر من وضع قرار مالفي قيد التنفيذ.

أخبرتني الجهات الرسمية بأنني مطرودٌ من فرنسا إلىٰ أي بلدٍ أختاره، وقيل لي أيضًا إن إنجلترا وإيطاليا يرفضان حلولي ضيفًا علىٰ أيٍ منهما. كان خياري الوحيد هو أن أعود إلىٰ سويسرا، لكن مع الأسف رفضت المُفوَّضية السويسرية إصدار تأشيرةٍ لي. أرسلت برقيةً لأصدقائي السويسريين وتلقيت إجابةً تأكيديةً منهم بأن المسألة ستُحسَم في صالح ما هو مرجو منها. لكن المُفوَّضية أصرَّت علىٰ رفضها. ونما إلىٰ علمي لاحقًا أن السفارة الروسية في برن كانت وراء رفض سويسرا استقبالي، وأن السلطات السويسرية أجَّلَت الأمر برمته حتىٰ طُرِدت من فرنسا. لم يكن بإمكاني الوصول إلىٰ هولندا أو اسكندنافيا إلا من خلال إنجلترا، لكن الحكومة الإنجليزية رفضت حقي في المرور عبر أراضيها. لم يتبق أمامي خيارٌ سوىٰ إسبانيا، لكن الآن كان لابد عليّ أن أرفض أن أذهب إلىٰ شبه الجزيرة الإيبيرية طواعيةً.

استمرت حالةٌ من الشد والجذب مع شرطة باريس لحوالي ستة أشهر. تبعني المرشدون والمراقبون أينما ذهبت؛ كانوا يقفون علىٰ أهبة الاستعداد دائمًا حول منزلي ومكاتب صحيفتنا، ولم يدعوني أفلت من أنظارهم ولو لمرةٍ واحدة. وأخيرًا، قرَّرَت السلطات في باريس اتخاذَ تدابيرٍ أكثر صرامة. دعاني مُحافِظ الشرطة، لورينت، إلىٰ

مكتبه، وقال لي إنه بناءً علىٰ رفضي الرحيل طواعيةً فسيصطحبني اثنان من مراقبي الشرطة في "ملابس مدنية" إلىٰ الحدود. بلغت سفارة القيصر مقصدها، وطُرِدت من فرنسا.

ربما يجانب الصوابُ بعضًا من التفاصيل التي أوردتها هنا، والمبنية علىٰ ما كتبته وقتذاك في مذكراتي. لكن الحقائق الأساسية لا يمكن دحضها مُطلَقًا. وبالإضافة إلىٰ ذلك، لا يزال أغلب الأشخاص الذين لهم شأنٌ بهذا الأمر أحياءً، والكثير منهم في فرنسا الآن. وهناك وثائق أيضًا، ومن السهل تأسيس الحقائق عليها. ومن جانبي، ليس لديّ أدنىٰ شكٍ في أنه إذا استُخرِجَ قرارُ مالفي بطردي من أراشيف الشرطة، وإذا خضعت هذه الوثيقة لمسحٍ شامل، فلابد أن المسح سيكشف بصمات السيد فينينج في أحد زواياها هنا أو هناك.

الفصل الحادي والعشرون

عبر إسبانيا

اثنان من محققِّي الشرطة كانا في انتظاري في بيتي الواقع في شارع أودري الصغير. كان أحدهما قصير القامة، وبدا أكبر سنًا، أما الآخر فكان طويلًا وأصلع، داكن السمرة، في حوالي الخامسة والأربعين من عمره. كانا يرتديان ملابس جعلتهما في صورةٍ مُحرِجة. وحين يشرعان في الحديث، يرفعان الذراعين كمن يؤدي التحيةَ العسكرية. حين كنت أودِّع عائلتي وأصدقائي، اختبأ كلاهما، بأدبٍ مفرطٍ، وراء الباب، وظل الرجل القصير يرفع قبعته مرةً بعد أخرىٰ ويقول "معذرةً سيدتي".

كان واحدًا من المُرشدَين اللذين كانا يلاحقاني دون كللٍ خلال الشهرين الماضيين ينتظر خارج المنزل. وبصورةٍ ودية تمامًا، كما لو أن ما من شيءٍ بيننا، أخذ يفرد الدثار علىٰ مقعدِ السيارة من أجلي، ثم أغلق الباب برفق. كان في ذلك أشبه بالصيَّاد الذي يُسلِّم فريسته لمشتريها. ثم انطلقت السيارة.

استقللنا قطارًا سريعًا، في مقصورةٍ من الفئة الثالثة. أبرز المحقِّق القصير معارفه الجغرافية، فقد كان يعرف تومسك وقازان ونيجني نوفجورود، وغيرها من المدن الروسية. كان يتحدَّث الإسبانية بالطبع. أما الآخر، الرجل الطويل الأسمر، فظلَّ صامتًا لوقتٍ طويلٍ، جالسًا

بمفرده علىٰ مسافةٍ قريبةٍ منّا. من الواضح أنه لم يعد يعبأ بالأمر. قال فجأة: "الجنس اللاتيني يُحدِّد الزمن، وباقي البشر في الخلف"، بينما كان يقطع كتلة سمينة من لحمِ الخنزير بسكينٍ في يده المشعِرة ذات الخواتم الثقيلة. ثم أردف: "ماذا لديك في الأدب؟ الانحطاط في كل شيء. نفس الشيء في الفلسفة. لم يعد هناك أي تقدمٍ بعد ديكارت وباسكال... الجنس اللاتيني يُحدِّد الزمن".

كان واضحًا أن الرجل القصير، الأكبر سنًا، شعر بالغيرةِ من استعراض سعة المعرفة هذه التي ظهرت فجأة، فبدأ يشرح لي أهمية خطوط السكك الحديدية العابرة لسيبيريا. ثم، من دون مقدِّمات، حاول تأكيد استنتاجات زميله المتشائم، ويخفِّف من حدتها في نفس الوقت، فأضاف: "نعم، نعاني من نقص المبادرة، بل ونفتقر إليها، الجميع يريدون أن يصبحوا موظفين حكوميين. إنه أمرٌ حزينٌ، لكن لا يمكن لأحدٍ أن ينكره". استمعت لهما بتواضعٍ، غير مكترثٍ بما يقولان.

انتظرت لأرىٰ ماذا سيقول بعد ذلك، لكنه غاص في الصمت وبدأ يمضغ قطعة اللحم، ثم قال: "أنت لديك تولستوي، الذي لم يمر عليه وقتٌ طويلٌ علىٰ أيةِ حال، لكننا نفهم إيبسن أفضل من تولستوي"، ثم عاد إلىٰ الصمت.

صَمَتَ الرجل القصير قليلًا، ثم قال: "تعقُّب الناس صار مستحيلًا اليوم. لا يحقِّق التعقُّب مؤداه إن لوحظ، أليس كذلك؟ قطارات الأنفاق تخصي التعقُّب. لابد أن يؤمر المُلاحقون بألا يستخدموا هذه القطارات

مطلقًا. وحينها فقط سيكون التعقُّب فعَّالًا"، فضحك الرجل الأسمر بقتامة.

ولتخفيف وطأة ما قاله، أضاف الرجل القصير: "غالبًا ما نتعقَّب أشخاصًا دون أن نعرف السبب مع الأسف".

التقط الأسمر طرف الحديث، وقال: "نحن رجال الشرطة متشكِّكون دائمًا". ثم: "أنت لديك أفكارك الخاصة، لكننا مخوَّلون بالحفاظِ علىٰ النظام. خذ عندك مثلًا الثورة الفرنسية العظمىٰ. يا لها من فيضانٍ هادرٍ للأفكار! لكن بعد أربعة عشر عامًا منها، صار الناسُ أكثر بؤسًا مما كانوا عليه بما لا يُقاس. اقرأ تاين... نحن رجال الشرطة محافظون، وينبع هذا من طبيعة واجباتنا. والتشكُّك هو الفلسفة الوحيدة الممكنة في مهنتنا. وعلىٰ أيةِ حال، لا يختار أيٌّ منَّا مساره الخاص. ما من حريةٍ في الإرادة؛ كل شيءٍ مُحدَّد مُسبَّقًا في مسارِ الحياة". بدأ بعدها يشرب نبيذًا، مباشرةً من الزجاجة، ثم أغلقها بالسدادة وقال: "رينان قال إن الأفكار الجديدة دائمًا تأتي قبل أوانها. وهذا صحيح".

بعدها، رمقني بنظرةِ شكٍ سدَّدها إلىٰ يدي التي وضعتها صدفةً علىٰ مقبضِ الباب. ولكي أطمأنه، وضعت يدي في جيبي. حينها، عاد القصير مرةً أخرىٰ يثأر لغيرته، فأخذ يتحدَّث هذه المرة عن الباسكيين؛ لغتهم، ونسائهم، وقبعاتهم، وهكذا. كنَّا علىٰ مقربةٍ من مدينة هنداي.

استطرد قائلًا: "هنا عاش كاتبنا الرومانسي بول رولدي. كان فقط يود رؤية جبال فرنسا متقمِّصًا شخصية دون كيشوت". ابتسم الرجل الأسمر بنوعٍ من التسامح الجاف، ثم قال: "إذا سمحت سيدي، اتبعني إلىٰ قسم الشرطة".

هناك، في إيرون، سألني شرطيٌ سؤالًا لم أكد أن أجيب عنه حتىٰ أشار حارسٌ إليه بإشارةٍ غامضة، ثم قادني عبر أروقة القسم.

سألني بالفرنسية: "كل شيءٍ جرىٰ في سرية، أليس كذلك؟". ثم قال: "يمكنك أن تستقل عربةً إلىٰ سان سيباستيان. حاول قدر الإمكان أن تبدو كسائحٍ في المدينة كي لا تثير الشكوك". ثم انتقلت إلىٰ السجن. جاء دوري في التفتيش في سجن "النجم" في نقطة تقاطع خمسة أجنحة: يتكوَّن كلٌ منها من أربعة طوابق. كان الدرج معدنيًا. سكون الليل مُشبَّعٌ بالكوابيس والأنفاس الثقيلة. أضواءٌ كهربية خافتة في الأروقة. كل شيءٍ مألوف، كل شيءٍ كما هو. بابٌ حديدي يقرقع حين يفتح، غرفةٌ واسعة، ظلامٌ يتخلَّله نورٌ باهت، روائح سجنٍ جاثومية، وفراشٌ بائسٌ مثيرٌ للاشمئزاز، ثم قرقعة الباب مرةً أخرىٰ حين يُغلق. كم من الناس سُجِنوا هنا؟ أفسحت مجالًا ضئيلًا للهواء البارد لينفذ من الفتحة الصغيرة خلف الحاجز المُشبَّك في الباب. رقدت علىٰ الفراش دون أن أبدِّل ملابسي، وغطيت جسدي بالمعطف. فقط في هذه اللحظة بدأت أدرك كل تلك الأحداث التي مرَّت بي. في سجنٍ في مدريد! لم أكن أتخيَّل أن يحدث لي ذلك

مطلقًا! أدىٰ إزفولسكي مهمته جيدًا. في مدريد! رقدت علىٰ فراش زنزانتي المدريدية "المثالية" وضحكت من قلبي. ظللت أضحك حتىٰ أسكتني النوم.

في وقتِ التريُّض، شرح لي نزلاء السجن أن هناك نوعين من الزنازين؛ الزنازين المجانية، والزنازين مدفوعة الأجر. الزنزانة من الفئة الأولىٰ تكلِّف صاحبها بيزيتا ونصف يوميًا، ومن الفئة الثانية ثلاثة أرباع بيزيتا. من المُفترض أن يشغل كل مسجونٍ زنزانةً مدفوعة الأجر، لكن لا حق له في رفضِ النزولِ في زنزانةٍ مجانية. كانت زنزانتي من الفئة الأولىٰ. ضحكت مرةً أخرىٰ من أعماقي. لكنني فكَّرت في أن الأمر منطقي تمامًا لا عجب فيه؛ لماذا تكون ثمة مساواة في سجنٍ أنشأه مجتمعٌ يقوم بالأساس علىٰ اللامساواة؟ علمت أيضًا أن نزلاء الزنازين المدفوعة يحظون بفترتيّ تريُّض تمتد كلٌ منهما طيلة ساعة كاملة، بينما لا تتجاوز مدة التريُّض - الواحدة - للنزلاء الآخرين نصف الساعة. مرةً أخرىٰ، هذا مناسبٌ تمامًا. فاللص الذي اختلس أموالًا حكومية، ويدفع بيزيتا ونصف يوميًا، له رئةٌ من حقها أن تنعم بقسطٍ أكبر من الهواء مما تستحقه رئةُ عاملٍ أضرب عن العمل يتنفس مجانًا داخل السجن.

في اليوم الثالث، استُدعيت لأخذ القياسات الجسدية، وأُمِرت بأن أغمس أصابعي في الحبر لأطبع بصماتي علىٰ بطاقاتٍ علىٰ المنضدة. رفضت، فلجأوا للقوةِ بكياسةٍ محسوبة. وجَّهت عينيَّ إلىٰ النافذة،

بينما يمسك الحارس بيدي اليمنىٰ؛ يطبع بصماتِ إصبعٍ بعد آخر علىٰ أوراقٍ وبطاقاتٍ عدة، ثم الأمر نفسه مع اليد اليسرىٰ. دُعيت بعدها للجلوس وخلع حذائي، لكنني رفضت أيضًا، فارتابت إدارة السجن في أمري. وفي النهاية، سُمِحَ لي علىٰ نحوٍ غير متوقَّعٍ برؤية جابير وأنجيلانو، اللذين جاءا لزيارتي. أُطلِقَ سراح أنجيلانو من السجن قبل يومٍ واحدٍ فقط. أخبراني أن جهاتٍ عدة بدأت تتحرَّك من أجل إطلاق سراحي.

في الرواق، قابلت قسيس السجن، الذي عبَّر عن تعاطفه الكاثوليكي معي قائلًا برضا عميق: "صبرًا، صبرًا". لم يكن أمامي إلا ذلك علىٰ أيةِ حال.

وفي صباح اليوم الثاني عشر، أخبرني مرشدٌ شرطي أن من المُقرَّر أن أغادر إلىٰ كاديز في نفس الليلة، وسألني ما إذا كنت أريد حجز تذكرة قطار. لكنني لم أكن أرغب في الذهاب إلىٰ كاديز، فرفضت قطعًا أن أحجز التذكرة. ألم يكف ما دفعته للإقامةِ في هذا السجن "النموذجي"؟

وهكذا في المساء، غادرنا مدريد في اتجاه كاديز. كانت هذه الرحلة علىٰ نفقة ملك إسبانيا. لكن، لماذا كاديز بالذات؟ فتحت الخريطة ونظرت فيها مرةً أخرىٰ، فوجدت كاديز هي أبعد نقطة في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة الأوروبية. من بيريزون عبر الأورال إلىٰ سان بطرسبورج، ثم عبر مسارٍ دائري إلىٰ النمسا، ثم من النمسا عبر سويسرا

إلىٰ فرنسا، ومن فرنسا إلىٰ إسبانيا، ثم في النهاية عبر القارة الأوروبية كلها إلىٰ كاديز، يسير الاتجاه العام من أقصىٰ الشمال الشرقي إلىٰ أقصىٰ الجنوب الغربي. هنا تنتهي اليابسة ويبدأ المحيط. "صبراً"!

لم يبذل عملاء الشرطة الذين رافقوني أي جهدٍ في إضافة أية توابل أخرىٰ لإضفاء المزيد من الغموض علىٰ رحلتي. بل علىٰ العكس؛ أخبروا كل من اهتم بالأمر قصتي بتفاصيلها الكاملة الحقيقية، وأطلقوا عليّ في ذلك أفضل السمات؛ ليس مزوِّر نقود، بل رجلًا يحمل للأسف رؤىٰ غير ملائمة. واساني الجميع بما قد ألاقيه في كاديز من طقسٍ جيد.

سألت رجال الشرطة: "كيف وجدتموني؟".

فردَّ أحدهم: "بسهولةٍ بالغة. ببرقيةٍ من باريس".

تمامًا كما خمَّنت. تلقت شرطة مدريد برقيةً من ولاية باريس: "فوضوي خطير، يُفترض أنه عبر الحدود من سان سيباستيان، ينوي الاستقرار في مدريد". لذا كانت شرطة مدريد في انتظاري، بحثت عني في كل مكان، وانزعجوا بشدة لعدم عثورهم عليّ بعد أسبوعٍ كاملٍ من البحث. اصطحبني رجال الشرطة الفرنسية بكل أدبٍ وكياسة عبر الحدود، حتىٰ أن مونتين ورينان سألاني بالفرنسية: "كل شيء جرىٰ في سرية، أليس كذلك؟". ثم أرسلت نفس الشرطة برقيةً إلىٰ مدريد تفيد بأن "فوضوي" خطير عبر إيرون إلىٰ سان سيباستيان.

في كل ذلك، كان رئيس ما تُسمىٰ بالشرطة القضائية، بيديت "فوباس"، يلعب دورًا محوريًا، إذ كان في القلبِ من عملية تعقُّب مساري، ومن ثم طردي. كان مُميَّزًا عن زملائه فقط في وقاحته الاستثنائية وخبثه الدنيء. كان يتحدَّث معي بأسلوبٍ لم يسمح حتىٰ ضباط القيصر لأنفسهم أن يتعاملوا به معي. كانت محادثاتي تنتهي معه دائمًا بالانفجار. وكلما تركته، كنت أشعر دائمًا في كل مرةٍ بنظرةِ كراهيةٍ تثقب ظهري. ولمَّا قابلت جابير في السجن، قال لي إنه مقتنعٌ تمامًا بأن "فوباس" يقف وراء إلقاء القبض عليّ، ثم ذاع صيت هذا الاسم بضربةِ حظٍ في الصحافة الإسبانية.

وبعد أقل من عامين، أهداني القدرُ مفاجأةً غير متوقَّعةٍ لم يرض عنها السيد بيديت. في صيف 1918، جاءني اتصالٌ هاتفي في مفوَّضية الحرب يخبرني بأن ضابطًا يُدعىٰ بيديت "الصاعق" معتقلٌ في إحدىٰ السجون السوفييتية. لم أصدق أذنيَّ. يبدو أن الحكومة الفرنسية كانت قد بعثته إلىٰ طاقم البعثة العسكرية الفرنسية للانخراطِ في بعض أعمال الجاسوسية والتآمر في الجمهورية السوفييتية، ويبدو أيضًا أنه لم يكن حريصًا بما فيه الكفاية، بل كان مهملًا حتىٰ أُلقيَ القبض عليه. لا يسع المرء أن يطمح إلىٰ ثأرٍ أكبر، خاصةً إذا أضفت هنا أن مالفي، وزير داخلية فرنسا، الذي وقَّعَ قرار طردي، طُرِدَ هو نفسه من فرنسا بعد ذلك بوقتٍ قصير، بعد أن اتهمته حكومة كلمنصو بالضلوعِ في مكائدٍ

سلمية. يا لها من مصادفاتٍ عجيبةٍ لم تكن لتتزاحم هكذا ولو كان مقصودًا بها مشهدٌ سينمائيٌ مُعقَّد!

حين حضر أمامي بيديت في المفوَّضية، لم أكن لأتعرَّف عليه للوهلةِ الأولىٰ. تحوَّل الصاعق إلىٰ شخصٍ فانٍ عادي. نظرت إليه باندهاشٍ شديد.

قال: "هذا صحيح، سيدي. هذا أنا". نعم، كان هو بيديت. لكن كيف حدث هذا؟ كنت مذهولًا لذلك. بسط يديه بحركةٍ فلسفية، وبرزانةٍ وتحمُّلٍ قال: "هكذا تجري الأيام".

يا لها من عبارةٍ مدهشة! وَمَضَت أمام عينيّ وقتها عبارة الرجل الأسمر الطويل الذي اصطحبني إلىٰ سان سيباستيان: "ما مِن حريةٍ في الإرادة؛ كل شيءٍ مُحدَّد مُسبَّقًا في مسارِ الحياة".

قلت له: "لكن يا سيد بيديت، أنت لم تكن كيِّسًا معي في باريس".

فردَّ قائلًا: "للأسف. أعترف بذلك سيدي مفوَّض الشعب. أعتذر عمَّا بدر مني. فكَّرت كثيرًا في ذلك حين كنت في زنزانتي. كان من المفيد أن أتعرَّف علىٰ السجن من الداخل. لكنني لازلت آمل ألا يكون لأسلوبي معك في باريس عواقب غير مُحبَّذة عليّ".

طمأنته، فقال: "حين أعود إلىٰ فرنسا، سأغيِّر مهنتي".

قلت له: "أحقًا يا سيد بيديت؟"، ثم قلت بالفرنسية: "المرء دائمًا يعود إلىٰ حبه الأول". حكيت هذه الواقعة لعديدٍ من أصدقائي لاحقًا،

فكثيرًا ما أتذكَّر هذا الحوار كما لو حدث أمس فقط. بعد ذلك، سُمِحَ لبيديت بالعودة إلىٰ فرنسا في واحدةٍ من عمليات تبادل الأسرىٰ. لا أعلم ماذا حلَّ به بعدها.

دعونا الآن نعود أدراجنا من مفوَّضية الحرب إلى كاديز.

بعدما تشاور الضباط مع محافظ كاديز، أخبرني أحدهم أنني سأُرسَل إلىٰ هافانا في الثامنة من صباح اليوم التالي، ولحسن الطالع كانت هناك باخرة من المُقرَّر أن تبحر إلىٰ هناك في نفسِ اليوم.

سألته: "إلىٰ أين؟".

"هافانا".

"ها - فا - نا؟".

"هافانا".

"لن أذهب إلىٰ هناك بإرادتي".

فردَّ: "إذن سنضطر لأن نضعك في عنبر السفينة".

كان سكرتير القنصلية الألمانية، وهو صديقٌ لهذا الضابط، متواجدًا كمترجمٍ لي. نصحني بأن "أقبل الحقائق"، إذ قال بالألمانية: "لابد أن تتصالح مع الواقع". فقلت لهم مجددًا إنني لن أذهب طواعيةً. هرعت برفقة مُحقِّقَين شرطيَّين إلىٰ مكتب التلغراف عبر شوارع المدينة الفاتنة التي لم ألحظها إلا قليلًا، فأرسلت برقياتٍ مباشرةٍ وعاجلة إلىٰ جابير، وأنجيلانو، ورئيس الشرطة السرية، ووزير الداخلية، ورئيس الوزراء،

وإلىٰ الصحف الليبرالية، والنواب الجمهوريين، وسقت إليهم كافة الحجج التي يمكن أن تتسع لها برقية.

بعد ذلك، أرسلت خطابًا لكل جهةٍ ممكنة. إلىٰ النائب الإيطالي سيراتي، كتبت:

> "تخيَّل يا صديقي العزيز، تخيَّل أنك ذات مرةٍ في تفير تحت رقابة الشرطة السرية، وأنك علىٰ وشك الترحيل قسرًا إلىٰ طوكيو؛ أن تُرَحَّل قسرًا إلىٰ مكانٍ لم تكن لديك أية نيةٍ للذهاب إليه، تمامًا تقريبًا مثلي أنا الآن في كاديز علىٰ وشكِ الإبحار في رحلةٍ تعسفيةٍ بالإكراه إلىٰ هافانا".

عدت بعد ذلك مع المُحقِّقَين إلىٰ مقر الولاية، وبعد إصرارٍ شديدٍ مني، أرسلا برقيةً إلىٰ مدريد تفيد بأنني أفضِّل البقاء في سجن كاديز حتىٰ تصل الباخرة الذاهبة إلىٰ نيويورك علىٰ السفر إلىٰ هافانا. لم أرد الاستسلام. كان يومًا مثيرًا.

في تلك الأثناء، قدَّم النائب الجمهوري كاسترو فيدو استجوابًا للحكومة في الكورتيس حول إلقاء القبض عليّ وترحيلي. وبدأ الجدال في الصحف حول قضيتي. هاجم اليسار الشرطة، لكنهم في الوقتِ نفسه، كمؤيدين لفرنسا، ندَّدوا بمناهضتي للحرب. ومن جانبٍ آخر، تعاطف اليمين مع تأييدي، الذي زعموه ونسبوه إليَّ لألمانيا (ألم أُطرَد من فرنسا؟)، لكنهم في الوقت عينه كانوا خائفين من

"فوضويتي". وفي ظل كلِّ هذا الارتباك، لم يكن أحدٌ يفهم شيئًا. لكن في النهاية سُمِحَ لي بالبقاء في سجن كاديز حتىٰ تصل الباخرة المتجهة إلىٰ نيويورك. كان هذا انتصارًا مُستحقًا.

ظللت تحت رقابة شرطة كاديز علىٰ مدار بضعة أسابيع بعد كل ذلك. لكنها كانت مراقبةً هادئة، مراقبةً شبه أبوية، علىٰ عكسِ تلك التي كانت في باريس. هناك، خلال الشهرين الأخيرين من إقامتي، بذلت جهدًا جهيدًا في مراوغة المرشدين والمراقبين. أستقل سيارة أجرة خلسةً، أو أدخل عرضًا سينمائيًا مظلمًا، أو أقفز في قطارٍ في اللحظةِ الأخيرة، أو أثب منه بعد ذلك فجأةً، وهكذا. كان المراقبون يقظين هم أيضًا، وظلوا يلاحقونني بكل طريقةٍ ممكنة. كلما أستقل سيارة أجرة، يلاحقونني بأخرىٰ، أو يقفون في مراقبة باب السينما، أو يمرقون كالصاروخ من عربةٍ أو قطار وسط استياء الركَّاب وامتعاض السائق. من جانبي، والحق أقول، كانت تلك مسألة فنٍ من أجل الفن. كان نشاطي السياسي تحت أعين الشرطة، لكن مطاردتها أزعجتني كثيرًا بقدر ما فجَّرَت مواهبي الرياضية.

أما في كاديز، علىٰ الجانبِ الآخر، أخبرني المراقب أنه سيعود في ساعةٍ مُحدَّدة، وكان عليّ أن أنتظر بفارغ الصبر في الفندق. كان يهتم بأموري بعنايةٍ حقَّة؛ ساعدني في شراء أغراضي، ونبَّهني إلىٰ الحفرِ في الأرصفة كي لا أتعثَّر في إحداها. وحين طالبني بائعٌ متجوِّلٌ بريالين

مقابل طبقٍ من القريدس المغلي، توعَّده المراقب مهددًا إياه، حتىٰ أنه جرىٰ وراءه وأحدَثَ ضجةً تجمَّع علىٰ إثرها حشدٌ من الناس.

حاولت ألا أهدر وقتي، فعكفت في المكتبة علىٰ دراسة تاريخ إسبانيا، محاولًا تجميع تصريفات الأفعال الإسبانية، وجدَّدت مخزوني من المفردات الإنجليزية تمهيدًا للسفرِ إلىٰ أمريكا. مرَّت الأيامُ تقريبًا دون أن أدرك فواتها، وفي الليلِ كنت أكتب بحسرةٍ أن يوم رحيلي يدنو بينما لا أنجز إلا القليل للغاية في دراساتي. كنت دائمًا أمكث وحيدًا في المكتبة. وفي بعض الأحيان، كان الأمر يستلزم مني الكثير من الجهد لأحل لغز اسمٍ أو رقم.

في دفترِ مذكراتي، وجدت الفقرة التالية التي تعود إلىٰ ذلك الوقت:

"يحكي مؤرِّخٌ للثورة الإسبانية عن الساسة الذين اعتبروها جريمةً وجنونًا قبل خمس دقائق من انتصار الحركة الشعبية، لكنهم بعد ذلك دفعوا بأنفسهم إلىٰ الصدارة. يقول المؤرِّخ العجوز إن هؤلاء السادة الماكرين ظهروا في كل الثورات اللاحقة وصاحوا في الناس متزعِّمين إياهم. يطلق الإسبان علىٰ مثل هؤلاء اسم "بانزيستاس" - الكروْش. وكما هو معروف، يُشتق اسم صديقنا القديم سانشو بانزا من نفسِ الكلمة. تصعُب ترجمة هذه الكلمة، لكن الصعوبة هنا تكمن في الجانب اللغوي، وليس السياسي. الصنف نفسه موجودٌ في كل العالم".

مررت بالكثير من الأحداث منذ العام 1917، وجميعها تؤكد هذه الحقيقة.

كان من الملاحظ أن صحف كاديز لم تنشر أية معلوماتٍ عن الحرب، وكأن ما مِن حربٍ في هذا العالم. وحين لفتُّ نظر رفقائي إلىٰ الاختفاء الكامل للتقارير العسكرية في أكثر الإصدارات شعبيةً في كاديز، "مجلة كاديز"، اندهشوا: "أحقًا ذلك؟ فعلًا؟ نعم. هذا صحيح". لم يكن أيٌّ منهم قد لاحظ ذلك قبلها. علىٰ أيةِ حال، كانت المعارك تجري في مكانٍ ما وراء جبال البرانس بين فرنسا وإسبانيا. حتىٰ أنا بدأت أنسىٰ الحرب وقتذاك.

وصلت الباخرة المتجهة إلىٰ نيويورك برشلونة. خططت لانتزاعِ تصريحٍ بالذهاب للقاء عائلتي. في برشلونة، كانت هناك في مقر الولاية مصاعب جديدة، واحتجاجات جديدة، وبرقيات جديدة، وكذلك مراقبون جدد. وصلت عائلتي. كانوا يواجهون هم أيضًا صعوباتٍ جمَّة في باريس، لكن الآن صار كل شيءٍ علىٰ ما يُرام. ذهبنا في جولةٍ لرؤية معالم برشلونة، برفقة المراقبين بالطبع. فرح الولدان بالبحر والفواكه، وتصالحنا جميعًا مع فكرة أننا ذاهبون إلىٰ نيويورك. باءت محاولاتي للحصول علىٰ إذنٍ بالذهاب إلىٰ سويسرا عبر إيطاليا بالفشل. صحيح أن اشتراكيي إسبانيا وسويسرا تمكَّنوا من الحصول علىٰ هذا الإذن، لكن كان ذلك بعدما صعدت مع عائلتي علىٰ متنِ

الباخرة الإسبانية التي تبحر من برشلونة في 25 ديسمبر. كان التأخير مقصودًا بالطبع. وفي هذه التفصيلة، دبَّر إزفولسكي الأمور جيدًا.

أُغلِقَت أبواب أوروبا خلفي في برشلونة. وضعتني الشرطة وعائلتي علىٰ متنِ باخرةِ شركة عبور الأطلسي، مونسيرات، التي ترسل حمولتها من الأحياء والأموات إلىٰ نيويورك بعد سبعة عشر يومًا في عرضِ البحر. لابد أن الزمن كان مليئًا بالإغراءات في أيام كريستوفر كولومبوس الذي ينتصب تمثاله شاخصًا فوق ميناء برشلونة. كان البحر هائجًا في ذلك الوقت من العام، وقد فعلت باخرتنا كل ما في إمكانها لتذكيرنا بهشاشة وهباء الحياة البشرية. كانت مونسيرات باخرةً قديمة لا تناسب رحلات المحيط. لكن خلال الحرب، علىٰ الأقل قلَّلَ العلم الإسباني المحايد من فرص إغراق السفينة. ورغم أن الشركة الإسبانية فرضت سعرًا باهظًا علىٰ التذكرة، كانت تقدم خدمةً سيئة، وطعامًا أسوأ.

كان الركَّاب متنوعين للغاية، وجذَّابين للغاية في تنوعهم هذا. كان هناك عددٌ من الفارين من بلدانٍ مختلفة، أغلبهم أناسٌ ذوو شأن. فنانٌ يحمل لوحاته، وموهبته، وعائلته، ويترك أملاكه في رعايةِ والده، كي يذهب بعيدًا بقدر ما يستطيع عن خطِ النار. ملاكمٌ وروائيٌ وقريبٌ لأوسكار وايلد، يقر أمام الجميع بأن من الأفضل، بالطبع، أن يحطِّم فكيَّ أمريكي من أن يطعنه ألمانيٌ في خصره. بطل بلياردو يتذمَّر ساخطًا من مدِّ سنِّ التجنيد ليشمل رجالًا في مثل سنه، ومن أجل ماذا؟

من أجل هذه المجزرةِ المسعورة! يُعبِّر عن تعاطفه مع أفكار زيمرفالد. والآخرون أصنافٌ مختلفةٌ من البشر: فارون، ومغامرون، ومضاربون، بعبارةٍ أخرىٰ؛ أناسٌ غير مرغوبٍ فيهم طُرِدوا من أوروبا. من يمكنه أن يقرِّر، من نفسه هكذا، أن يعبر الأطلسي في هذا الوقت من العام علىٰ متنِ باخرةٍ إسبانيةٍ متهالكةٍ كهذه؟

من الأصعب وصف ركَّاب الدرجة الثالثة. كانوا يرقدون أجسادًا متلاصقةً ببعضها، لا يتحرَّكون إلا في مسافاتٍ محدودةٍ للغاية، يتحدَّثون قليلًا ولا يأكون سوىٰ الفتات، يحاصرهم البؤس من فقرٍ مريرٍ إلىٰ آخرِ كريهٍ مستترٍ وراءِ حجابٍ من الريبة وغياب اليقين. تعمل أمريكا في خدمةِ أوروبا المقاتلة في الحرب، وتحتاج بالتالي عمالًا جدد، لكن لابد ألا يكون هؤلاء مصابين برمدٍ حُبيّبي في العيون أو أفكارٍ فوضويةٍ في العقول، أو أي أمراضٍ أخرىٰ من هذا القبيل.

فتحت الباخرة أمام الولدين عالمًا لا حدود له من المشاهد والمشاهدات. كانا دائمًا يكتشفان أشياءً جديدة.

"هل تعلم؟ رجل الإطفاء طيبٌ جدًا. إنه جمهورياتي".

بفضلِ الترحال من بلدٍ لآخر، صارا يتحدَّثان لغتهما الخاصة.. الغريبة.

"جمهوري؟ كيف فهمتماه؟".

"إنه يشرح كل شيءٍ جيدًا. قال ألفونسو، ثم.. تف تف".

فوافقتهما قائلًا: "إذن فهو جمهوري بالطبع". جلب الولدان للإطفائي بعض العنب المُجفَّف وغيره من المُشهِّيات. تعرَّفت عليه. كان في حوالي العشرين من عمره، وكانت لديه رؤىٰ واضحة حول الملكية.

1 يناير 1917: الجميع علىٰ متنِ الباخرة يهنئون بعضهم علىٰ الاقترابِ من نيويورك. قضيت رأسَ السنةِ لعامين متتاليين في فرنسا، والثالث في المحيط. ماذا يحمل 1917 لنا في جعبته؟

الأحد 13 يناير: نقترب من نيويورك. استيقظ الجميع في الثالثة صباحًا. توقفنا. الظلام في كل ناحية. رياح. أمطار. الأرض جبلٌ مبتلٌ من البنايات. العالم الجديد!

الفصل الثاني والعشرون

نيويورك

ها أنا ذا في نيويورك؛ مدينة النثر والهوىٰ، مدينة التلقائية الرأسمالية؛ شوارعها انتصارٌ للتكعيبية، والدولار فلسفتها الأخلاقية. تركت هذه المدينة في نفسي أثرًا هائلًا، ذلك أنها جسَّدَت تعبيرًا أكمل عن عصرنا الحديث من أيةِ مدينةٍ أخرىٰ.

لعل العدد الأكبر من الأساطير التي اصطُنِعَت حولي كان يتعلَّق بحياتي في نيويورك. تقول الأسطورة إنني في النرويج، التي لم أمرَّ بها إلا عابرًا، استخدمني الصحفيون المخضرمون كعاملِ نظافة. أما في نيويورك، حيث مكثت شهرين من الزمن، فقد انخرطت الكثير من الصحف في اختلاقِ عددٍ لا يُحصىٰ من الوظائف التي أوكلت إليّ؛ كل واحدةٍ أكثر تشويقًا من الأخرىٰ. ولو جُمِعَت كل هذه المغامرات النيويوركية التي نسبتها إليّ الصحفُ في كتابٍ، لربما صارت بين أيدينا سيرةٌ ذاتية أكثر إمتاعًا مما أكتب الآن.

لكن، يبدو أنني علىٰ وشكِ إحباطِ القراء الأمريكيين. كانت الحرفة الوحيدة التي امتهنتها في نيويورك هي الاشتراكية الثورية. كان ذلك قبل حرب "الحرية" و"الديمقراطية"؛ في أيامٍ لم تكن فيها تلك الحرفة أقل استهجانًا بكثيرٍ من التهريب. كتبت مقالاتٍ، وحرَّرَت

صحيفةً، وترأست اجتماعاتٍ عمالية. كنت غارقًا في العمل حتىٰ عنقي، وهكذا لم أشعر أنني غريبٌ في هذه البلاد. وفي واحدةٍ من مكتبات نيويورك، انكفأت علىٰ دراسة التاريخ الاقتصادي للولايات المتحدة عن كثبٍ وبدأبٍ بالغ. أذهلتني الإحصاءات التي تُظهِر نمو الصادرات الأمريكية خلال الحرب؛ كان ذلك في الحقيقة واضحًا كالشمس. وهذه هي نفس الإحصاءات التي جعلت تدخُّل الولايات المتحدة في الحرب أمرًا محتومًا، بل وهي التي أيضًا حدَّدَت بشكلٍ مُسبَّقٍ الدور الذي ستضطلع به الولايات المتحدة لاحقًا بعد الحرب. كتبت الكثير من المقالات، وألقيت العديد من المحاضرات. ومنذ ذلك الوقت، صارت معضلة "الولايات المتحدة مقابل أوروبا" واحدةً من اهتماماتي الرئيسية. وحتىٰ الآن أعكف علىٰ دراسة هذه القضية بعنايةٍ بالغة، آملًا في تكريس كتابٍ منفصلٍ لها. إذا كان لنا حقًا أن نفهم المصير المستقبلي للبشرية، فلعل هذه القضية هي الأهم من بين كل القضايا.

في نفسِ اليومِ الذي وصلت فيه نيويورك، كتبت في الصحيفة الروسية نوفي مير (العالم الجديد): "غادرت أوروبا تتمرَّغ في الدماء، لكنني تركتها بإيمانٍ راسخٍ بثورةٍ مُقبلة. لم أحمل معي أية "أوهام" ديمقراطية وأنا أخطو الآن علىٰ أرضِ العالم الجديد - القديم بما فيه الكفاية". وبعد عشرة أيام لاحقة، ألقيت مقدمةً لاجتماعٍ أمميٍ ترحيبيٍ كما يلي: "إنها لحقيقة ذات أهمية قصوىٰ أن الحياة

الاقتصادية في أوروبا تُنسَف من أساساتها العميقة، بينما تزداد أمريكا ثروةً وازدهارًا. وإذ أنظر بحسدٍ إلىٰ نيويورك - أنا الذي لازلت أعتبر نفسي أوروبيًا - أسأل نفسي: هل ستقدر أوروبا علىٰ تحمُّلِ ذلك؟ ألن تغرق في شيءٍ سوىٰ قبرها؟ ألن تتحوَّل مراكز الجذب الاقتصادية والثقافية إلىٰ أمريكا؟". ورغم نجاح ما يُسمىٰ بـ"الاستقرار الأوروبي"، لا تزال هذه التساؤلات بنفس واقعيتها وصوابها اليوم.

قدَّمت المحاضرات باللغتين الروسية والألمانية في الكثير من مقاطعات نيويورك، وفلادليفيا، وغيرهما من المدن القريبة. كانت إنجليزيتي أسوأ حتىٰ مما هي عليه اليوم، لذا لم أفكر قط في الخطابة علنًا باللغة الإنجليزية، إلا أنني كنت أمرّ في الأغلبِ بذكرٍ بعض المراجع لخطبي ومحاضراتي باللغة الإنجليزية. وذات يوم، كتب محرِّرٌ في صحيفةٍ قسطنطينية عن إحدىٰ هذه الخطب "الأسطورية" التي حضرها بينما كان طالبًا في الولايات المتحدة. لابد أن أعترف هنا أن لم يكن لديّ ما يكفي من الشجاعةِ لأقول له أنه وقع ضحيةَ تصوراته التي لا صحة لها، لكن مع الأسف ظلَّ يردِّد ذكرياته هذه في صحيفته.

استأجرنا شقةً في ضاحيةٍ عمالية، وأثَّثناها وفق خطةِ تقسيطٍ مناسبة. كانت هذه الشقة، ذات الإيجار البالغ ثمانية عشر دولارًا شهريًا، مجهَّزةً بكل وسائل الراحة التي لم نعتد عليها نحن الأوروبيون: أضواء كهربائية، ومعدة مطبخ تعمل بالغاز، وهاتف، ومصعد آلي، وحتىٰ مزلق لأكياس القمامة. جذبت هذه الأشياء

الولدينْ لنيويورك، ولبعضِ الوقت كان الهاتف هو شاغلهم الأساسي؛ لم تكن لدينا هذه المعدة الغامضة لا في فيينا ولا في باريس.

كان حارس العقار زنجيًا، دفعت له زوجتي إيجار ثلاثة أشهر مُقدَّمًا، لكنه لم يعطها أية إيصالات لأن مالك العقار قد أخذ دفتر الإيصالات معه في اليومِ السابقِ لمراجعة الحسابات. وحين انتقلنا إلىٰ الشقةِ بعد ذلك بيومين، وجدنا أن الحارس قد لاذَ بالفرار ومعه إيجارات الكثير من المستأجرين. وبالإضافة إلىٰ المال الذي أعطته له زوجتي، فقد استأمنَّاه أيضًا علىٰ مخزونٍ من ممتلكاتنا وأغراضنا. أزعجتني هذه الواقعة أيَّما إزعاج؛ يا لها من بدايةٍ مؤسفة. لكننا وجدنا أغراضنا، وحين فتحنا الصندوق الخشبي الذي وضعنا فيه الأواني، فوجئنا بأموالنا ملفوفةً بعنايةٍ في لفافةٍ من ورق. أخذ الحارس أموال المستأجرين الذي تلقوا إيصالاتهم بالفعل؛ لم يمانع في سرقة مالك العقار، لكن كان ناصحًا بما فيه الكفاية ألا يسرق المستأجرين. يا له من كيِّسٍ فطن! أثَّر فينا هذا الموقف بعمق، ولطالما تذكَّرنا الرجل بامتنانٍ بالغ. كانت لهذه الواقعة الصغيرة أهميةٌ خاصةٌ بالنسبةِ لي، فقد كشفت أمامي جزءًا من مشكلة السود في الولايات المتحدة.

خلال تلك الأشهر، كانت أمريكا منشغلةً بشدة في الاستعداد للحرب. وكالعادة، جاءت المساعدة الأكبر من جانبِ المحايدين، فقد انتهت الخطب المبتذلة عن مزايا السلام مقابل الحرب إلىٰ وعدٍ بتأييدِ الحرب إذا صارت "ضرورية". كان هذه روح حملة بريان. أما

الاشتراكيون، فقد غنوا علىٰ نفس السلم الموسيقي الذي عزف عليه المحايدون السلميون. بعدما خرج الألمان في حربٍ بحريةٍ مفتوحةٍ، أغلقت تلال الذخائر والمؤن العسكرية خطوط السكك الحديدية، وامتلأت بها المحطات الشرقية والموانئ. ارتفعت الأسعار علىٰ الفور إلىٰ السماء، ورأيت بعيني آلاف النساء، في أغنىٰ مدينة في العالم، يخرجن إلىٰ الشوارع ويهاجمن الأكشاك والمحال التجارية. سألت نفسي: إذا كان الوضع كذلك هنا، فكيف كان في بقيةِ العالم بعد الحرب؟

في 3 فبراير، جاء قطع العلاقات الديبلوماسية مع ألمانيا بعد طولِ انتظار. كان صوت الموسيقىٰ الشوفينية يزداد ارتفاعًا يومًا بعد يوم، ولم يزعج صخب الاشتراكيين والسلميين هذا الانسجام العام. لكنني رأيت الأمر نفسه أيضًا في أوروبا، وهكذا لم يكن تجييش الوطنية الأمريكية بالنسبةِ لي إلا تكرارًا لما شهدته من قبل. سردت مراحل هذه العملية في صحيفتي الروسية، متأمِّلًا غباء الرجال الذين من حماقتهم لا يتعلَّمون الدروس.

رأيت ذات مرةٍ من شرفةِ مكتبي رجلًا عجوزًا متقيِّح العينين ذا لحيةٍ رماديةٍ شعثاء، توقَّف أمام صندوقِ قمامة واصطاد منه كسرة خبزٍ جافة. تحسَّسها بيديه، ثم حاول كسر هذا الشيء المُتحجِّر بأسنانه، وفي النهاية تمكَّن من تقسيمها إلىٰ قطعٍ صغيرة. لكن الخبز كان عصيًّا علىٰ التناول. أخذ الرجل ينظر حوله كمن يشعر بالخوفِ أو الحرج، وخبَّأ الخبز داخل معطفه الكالح، ومشىٰ متثاقلًا عبر شارع سان مارك.

حدثت هذه الواقعة الصغيرة في 2 مارس 1917، لكنها بالتأكيد لم تكن تعني شيئًا لمخططات ومشاريع الطبقة الحاكمة. كانت الحربُ حتميةً، وكان على السلمين تأييدها.

كان بوخارين من أوائل الذين قابلتهم في نيويورك، فقد رُحِّلَ من اسكندنافيا قبل مجيئي بفترةٍ قصيرةٍ من الوقت. كان يعرفنا منذ أيامِ فيينا، ورحَّبَ بنا ببهجته الطفولية الزاخرة بالحياة التي تميُّزه. ورغم تأخُّر الوقتِ والإرهاق الذي ألمَّ بنا، أصر على اصطحابنا إلى المكتبة العامة في اليومِ الأول. كانت تلك بداية الارتباط الوثيق الذي تطوَّر -من جانب بوخارين- إلى تعلُّقٍ بي ظلَّ ينمو باطرادٍ حتى العام 1923، حين انقلبت عاطفته إلى العكسِ تمامًا.

كان من طبيعة بوخارين أن يربط نفسه بشخصٍ ما. وهكذا كان دائمًا ليس أكثر من تابعٍ لتصرفاتِ وأقاويلِ أحدٍ غيره. لابد أن تراقبه على الدوام، وإلا سيخضع تدريجيًا لتأثيرِ أحدهم على الجهةِ المقابلةِ لك تمامًا، هكذا مثلما يُصدَم أحدهم بسيارةٍ مُسرعةٍ على الطريق، ومن ثم يأخذ في التهكُّم على مثله الأعلى السابق بنفسِ الحماسةِ اللا محدودةِ التي أخذته من قبلِ إلى عنانِ السماء. لم آخذ بوخارين على محملِ الجدِ مطلقًا، بل أنني تركته لنفسه، ما يعني أنني فعليًا تركته للآخرين. بعد موت لينين، صار تابعًا لزينوفيف، ثم لستالين، وحتى لحظة كتابة هذه السطور لا يزال بوخارين يمر بأزمةٍ أخرى وبسوائل أخرى ترشح فيه.

السيدة كولونتاي كانت هي أيضًا في أمريكا في ذلك الوقت، لكنها كانت كثيرة السفر، فلم ألتق بها كثيرًا. خلال الحرب، انحرفت بحدةٍ إلىٰ اليسار دون أن تمر بمرحلةٍ انتقالية، لتهجر صفوف المناشفة إلىٰ أقصىٰ يسار البلاشفة. مكّنتها معرفتها بلغاتٍ أجنبيةٍ، وكذلك مزاجها الحاد، من أن تصبح مُحرِّضةً ذات شأن كبير، لكن رؤاها النظرية كانت دائمًا مرتبكةً إلىٰ حدٍ ما. في فترةِ نيويورك، لم يكن ثمة شيءٌ ثوريٌ بما فيه الكفاية بالنسبةِ لها. كانت تراسل لينين دائمًا، وجعلته علىٰ درايةٍ بما يحدث في أمريكا، بما فيها أنشطتي، فصار يرىٰ الحقائق والأفكار فقط من منظورها المتطرف يسارًا. وجاءت ردود لينين عليها لتعكس عدم جدوىٰ هذه المعلومات بالمرة. ولاحقًا، في صراعِ رجال الصف الثاني ضدي، لم يتردَّدوا في استخدام الألفاظ والتعبيرات المغلوطة من لينين، تلك الألفاظ والتعبيرات التي هو نفسه تبرأ منها بالقولِ والفعل. وفي روسيا، اتخذت كولونتاي منذ البداية موقفًا متطرفًا، ليس فقط تجاهي، بل تجاه لينين أيضًا، فشنَّت المعارك ضد نظام "لينين - تروتسكي"، لتنعطف بعدها إلىٰ كنفِ نظامِ ستالين.

كانت أفكار الحزب الاشتراكي الأمريكي متخلفةً كثيرًا إلىٰ الوراءِ حتىٰ من الاشتراكية الوطنية الأوروبية. والمناخ الذي سيَّدته الصحافة الأمريكية - التي كانت لا تزال محايدةً في ذلك الوقت - تجاه أوروبا "المتجرِّدة من الشعور" قد انعكس أيضًا في آراء الاشتراكيين الأمريكيين. رجالٌ مثل هيلكويت رحَّبوا بفرصة الاضطلاع بدورٍ

"العم" الاشتراكي الأمريكي الذي يظهر في أوروبا في اللحظةِ الحاسمة ويصنع السلام بين الأطراف المتحاربة في الأممية الثانية. أما المهاجرون الذين اضطلعوا ببعضِ الأدوارِ في أوروبا، فسرعان ما فقدوا ما جلبوه معهم في خضم الارتباكِ الذي ساد صراعهم من أجل النجاح.

كان تواصلي الأول مع هؤلاء الرجال كافيًا لاستبيان كراهيتهم الواضحة لي. ولقد كانت مشاعري تجاههم بالمثل، لكن ربما أقل حدةً رغم ذلك. كانوا من عالمٍ وكنت من آخر. وبالنسبةِ لي، كان هؤلاء يمثلون الجزء الأكثر عفنًا وفسادًا من ذلك العالم الذي كنت لا أزال في حربٍ ضده.

•

كان إيوجين ديبس العجوز بارزًا في الجيلِ الأقدم، بسبب شعلة الاشتراكية المثالية التي لم تخمد في نفسه. ورغم كونه رومانسيًا واعظًا، وليس سياسيًا أو قائدًا علىٰ الإطلاق، ظلَّ ثوريًا مخلصًا وجادًا. استسلم في النهايةِ خاضعًا لتأثيرِ أناسٍ كانوا أدنىٰ منه مرتبةً وقيمةً علىٰ كل المستويات. أما هيلكويت، فكان فنه الأساسي يكمن في إبقائه ديبس علىٰ يساره، مع الإبقاءِ علىٰ صداقةِ عملٍ مع جومبرس. كانت شخصية ديبس مميَّزةً بحق. وأينما التقينا، كان يقترب مني؛ يحتضنني ويقبلني. لم يكن هذا العجوز ينتمي لفصيلةِ "الأجِفَّاء" مثلهم. وحين أعلنوا قطيعتهم معي، لم يفعل مثلهم؛ فقط انزوىٰ جانبًا بحزنٍ وحسرة.

انضممت إلىٰ هيئة تحرير نوفي مير منذ البداية. وكانت الهيئة تتضمَّن في عضويتها، بالإضافة لي وبوخارين، فولودارسكي، الذي

سقط قتيلًا بعدما اغتاله الثوريون الاشتراكيون لاحقًا فيٰ أوكرانيا. كانت الصحيفة مركزًا للدعاية الأممية الثورية. في كل فروعِ الحزب الاشتراكي، كان هناك أعضاءٌ يتحدَّثون الروسية، والكثيرون من الروس كانوا يتحدَّثون الإنجليزية، وبهذه الطريقة شقَّت أفكار نوفي مير طريقها إلىٰ الدوائر الأوسع من العمال الأمريكيين.

التَفَتَ موظفو الاشتراكية الرسمية إلىٰ ذلك بحذرٍ وحيطة، فبدأت المكائد تُحاك ضد ذلك المهاجر الأوروبي الذي، حسبما قيل، لم تخط قدمه أرض أمريكا إلا بالأمسِ فقط، ولا يفهم النفسية الأمريكية، ويحاول دسَّ أساليبه الجهنمية بين العمال الأمريكيين. تصاعد الصراع وصار مريرًا. في اتحاد العمال الروس، كانت العناصر الثورية تُنحَّىٰ جانبًا، وفي الاتحاد الألماني كان تأثير سكبلوتير، رئيس تحرير فولكس زايتونج ورفيق درب هيلكويت، يزداد يومًا بعد يوم علىٰ المحرِّر الشاب لوري، الذي كان يشاركنا نفس الرؤىٰ. الليتوانيون كانوا معنا علىٰ قلبِ رجلٍ واحد، وانجذب إلينا اتحاد العمال الفنلنديين بقوة. وعلاوة علىٰ ذلك، كنَّا آخذينَ في اختراق الفرع اليهودي القوي، الذي امتلك قصرًا هائلًا صدرت منه 200 ألف نسخة يومية منْ أعدادِ صحيفة فورورد (إلىٰ الأمام)، تلك الصحيفة التي فاحت منها الرائحة العتيقة للاشتراكية البرجوازية الصغيرة المستعدة دائمًا لأكثرِ الخياناتِ غدرًا وخِسة.

كان تأثير الحزب الاشتراكي ككل واتصالاته مع العمال الأمريكيين، أقل فاعلية وكفاءة، لاسيما إذا تحدَّثنا جناحنا الثوري داخله. وكانت صحيفة الحزب الإنجليزية، ذا كول (النداء)، تنضح بروحٍ محايدةٍ سلميةٍ غير حميدة. قرَّرنا أن نبدأ إصدار صحيفةٍ أسبوعيةٍ ماركسيةٍ مناضلة، وجرت التجهيزات علىٰ قدمٍ وساق إلىٰ أن قطعتها الثورة الروسية حين اندلعت.

بعد صمتٍ غامضٍ للبرقيات دامَ ليومين أو ثلاثة، جاءت التقارير الأولىٰ المتضاربة حول الانتفاضة في بتروجراد. تحمَّسَت الطبقة العاملة متعددة الجنسيات في نيويورك لهذه الأنباء، وكان الرجال رغم أملهم خائفين من الأمل. أما الصحافة الأمريكية فكانت في حالةٍ من التخبُّط البيِّن. جاء الصحفيون والمحاورون والمحرِّرون من كل حدٍ وصوب إلىٰ نوفي مير. ولبعضِ الوقتِ صارت صحيفتنا مركزًا لاهتمامِ صحافة نيويورك. لم تكن الاتصالات الهاتفية من مكاتب الصحف والمنظمات الاشتراكية تنقطع.

"وصلت برقيةٌ تقول إن بتروجراد عيَّنت حكومةً برئاسة جوتشكوف وميليوكوف. ماذا يعني هذا؟".

"يعني أنها غدًا ستكون حكومة ميليوكوف وكرينسكي".

"حقًا؟ وماذا بعد؟".

"بعدها يأتي دورنا".

"يا إلهي!".

تكرَّرت مثل هذه المحادثة عشرات المرات. ويكاد كل من سمع كلامي هذا يعتبره مزحة. وفي اجتماعٍ خاصٍ للاشتراكيين الديمقراطيين الروس "فائقي الشأن"، قرأت ورقةً كنت قد كتبتها مجادلًا فيها بأن الحزب البروليتاري سيعتلي السلطة حتميًا في المرحلةِ الثانية من الثورة الروسية. تولَّد عمَّا قلت انطباعٌ يشبه إلقاء حجرٍ كبيرٍ في بركةٍ زاخرةٍ بضفادع منتفخة زلقة. لم يتردَّد الدكتور إنجرمان في توضيح أنني جاهلٌ بالقواعد الأربعة الأولىٰ لعلم الحساب السياسي، وأن الأمر لا يستدعي إهدار خمس دقائق في دحضِ أوهامي الحمقاء.

لكن الجماهير العاملة تعاملت مع آفاق الثورة علىٰ نحوٍ مختلف. عُقِدَت اجتماعاتٌ استثنائية في حجمها وحماسها في كافة أرجاء نيويورك. وفي كل مكان، قوبلت أنباء رفرفة العلم الأحمر علىٰ قصرِ الشتاء بتهليلٍ صاخب. لم يحضر هذه الاجتماعات المهاجرون الروس فقطٍ، بل أيضًا أطفالهم الذين بالكاد يعرفون الروسية، ليستنشقوا نسيم الثورة الآتي من بعيد.

في البيتِ، لم يكن يراني أحدٌ إلا في ومضاتٍ خاطفة. كانت لديهم حياتهم المُركَّبة هناك. كانت زوجتي تبني عشًا، وولداي يكوِّنان صداقاتٍ جديدة. صديقهما الأقرب كان سائق الدكتور م. كانت زوجة الدكتور تصطحب زوجتي والولدين في جولاتٍ بالسيارة؛ كانت لطيفةً معهما لطفًا بالغًا. كانت آسرة، لكن السائق كان ساحرًا، عملاقًا، كان

خارقًا؛ بحركةٍ خفيفةٍ من يده يجعل الماكينة تطيع أرهف أوامره. الجلوس بجانبه متعةٌ لا تضاهيها متعة. حينما كانوا يذهبون إلىٰ غرفة الشاي، كان الولدان يسألان أمهما بلهفةٍ: "لماذا لا يدخل السائق معنا؟".

كانت لدىٰ الولدين قدرةٌ مُبهِرةٌ علىٰ التأقلم في الأوساط الجديدة التي يجدون نفسيهما فيها. في فيينا، عشنا أغلب الوقتِ في ضواحٍ عمالية، وبرع الولدان في اللهجة الفيينية إلىٰ حد الإتقان. وإلىٰ جانبِ الروسية والألمانية، لاحظ الدكتور ألفريد أدلر باندهاشٍ عميق أنهما يتحدَّثان هذه اللهجة كحوذي فييني عجوز. وفي المدرسة التي ارتاداها في زيوريخ، كان عليهما أن يحوِّلا لسانهما إلىٰ اللكنة الزيوريخية، والتي كانت تُدرَس في الصفوفِ الأولىٰ، بينما كانت الألمانية تُدرَس كلغةٍ أجنبية. وفي باريس، تحوَّل الولدان فجأةً إلىٰ الفرنسية، وفي غضونِ أشهرٍ معدودة برعا فيها. لطالما كنت أحسدهما علىٰ طلاقتهما في المحادثة بهذه اللغة. ورغم أنهما لم يقضيا في إسبانيا سوىٰ أقل من شهر، وعلىٰ قاربٍ إسباني، كان ذلك وقتًا كافيًا لهما كي يلتقطا أكثر الكلمات والتعبيرات إفادةً في التعاملاتِ المباشرة. ثم في نيويورك، ذهبا إلىٰ مدرسةٍ أمريكية لمدة شهرين، واكتسبا مهارة التحدث بالإنجليزية علىٰ أكملِ وجه. وبعد ثورة فبراير، ذهبا إلىٰ مدرسةٍ في بتروجراد؛ لم تكن حياة المدارس حينها منظمةً بأيةِ درجة، فتبخرت اللغات الأجنبية من ذاكرتيهما بأسرعِ مما اكتسباها. كانا يتحدَّثان الروسية كالأجانب،

وكنَّا غالبًا ما نندهش حين نلاحظ أنهما يصيغان وينطقان جملةً روسيةً كما لو كانت مُترجَمة حرفيًا من الفرنسية، رغم أنهما لم يستطيعا تركيب الجملةِ بالفرنسية. وهكذا انطبع الترحال في بلادِ الأجانب في عقل الطفلين بصورةٍ لا تُمحىٰ.

حين اتصلت بزوجتي من مكتب الصحيفة لأخبرها بأن بتروجراد في ثورة، كان ولدي الأصغر وقتها في الفراشِ يصارع عدوىٰ بكتيرية تُدعىٰ الديفتيريا. كان في التاسعةِ من عمره، لكنه أدرك علىٰ وجه التحديد - ولطالما أدرك ذلك - أن الثورة تعني العفو، والعودة إلىٰ روسيا، وآلافٍ من النعم والمباهج الأخرىٰ. قفز علىٰ قدميه وأخذ يرقص نخب الثورة. كانت تلك إشارةً علىٰ تعافيه.

كنَّا مُتلَهِّفين للعودة علىٰ متنِ أول مركب بحري. هرعت من قنصليةٍ إلىٰ أخرىٰ لاستخراج الأوراق والتأشيرات. وعشية رحيلنا، سمح الطبيب للصبي المتماثل للشفاء بالخروج والمشي. تركته أمه يتمشَّىٰ لنصفِ ساعةٍ فقط، فيما بدأت تحزم الأمتعة. كم مرةً خاضت هذه التجربة؟

اختفىٰ الولد. كنت لا أزال في مكتبي بالصحيفة. وبعد ثلاث ساعات من القلقِ والجنون، جاء اتصالٌ هاتفي لزوجتي؛ سمعت صوتًا أجش غير مألوف، ثم جاء صوت سيروجا: "أنا هنا". و"هنا" هذه كانت تعني قسم الشرطة في الناحية الأخرىٰ من نيويورك. استغل الصبي تمشيته الأولىٰ بعد المرض ليحاول حلَّ المعضلةِ التي طالما شغلته: هل هناك حقًا

شارع رقم 1؟ (كنَّا نعيش في الشارع رقم 164 إن لم تخني الذاكرة). لكنه ضلَّ طريقه، فلجأ لسؤال المارة، ثم أخذه أحدهم وسلَّمه لقسمِ الشرطة. ولحسنِ الحظ كان يتذكَّر رقم الهاتف الخاص بي.

حين وصلت زوجتي، بصحبة ابننا الأكبر لقسمِ الشرطةِ بعد ذلك بساعة، رحَّبوا بها بسرورٍ بالغ كضيفٍ طال انتظاره. كان سيروجا يلعب الداما مع رجالِ الشرطة، وقد احمرَّ وجهه من الخجل. ولإخفاءِ شعوره بالحرج من كل هذه الأنظار الملتفتة إليه، ظلَّ بجديةٍ تامة يلوك علكةً مع أصدقائه الجدد. ولا يزال حتىٰ الآن يتذكَّر رقم هاتفنا في شقةِ نيويورك.

لعل من المبالغة أن أقول إنني عرفت الكثير عن مدينة نيويورك، فقد انغمست سريعًا في شئون الاشتراكية الأمريكية، وغرقت في العمل مباشرةً حتىٰ عنقي. وبمجرد أن تمكَّنت بالكادِ من مواكبة وتيرة الحياة في هذه المدينة الموحشة، جاءت الثورة الروسية. كنت راحلًا في طريقي إلىٰ أوروبا أحمل في داخلي شعورَ من استرق نظرةً خاطفةً إلىٰ مسبكٍ يُصَكُّ فيه قَدَرُه. عزائي الوحيد هو أنني قد أعود. وحتىٰ الآن لم أتخل عن هذا الأمل.

الفصل الثالث والعشرون

في معسكر الاعتقال

في 25 مارس، استُدعيت إلىٰ مكتب القنصل الروسي في نيويورك. كانت صورة القيصر نيقولا الثاني قد أُزيلت من علىٰ الجدران، لكن الجو كان ثقيلًا وكأننا في قسم شرطة روسي في نظام الحكم القديم. وبعد جدالات وتأجيلات معتادة، أمر القنصل بتحرير الأوراق لي للسفر إلىٰ روسيا. وفي القنصلية البريطانية أخبروني أيضًا، حين انتهيت من ملء الاستبيان، أن السلطات البريطانية لن تضع أي عراقيل في طريق عودتي إلىٰ روسيا. كان كل شيء يسير علىٰ نحوٍ جيد.

أبحرت مع عائلتي، برفقتنا بعض الروس، علىٰ متن الباخرة النرويجية كريستيانيافجورد في السابع والعشرين من مارس. أقلعنا وسط طوفان من الورود والأحاديث، إذ نقصد الذهاب إلىٰ بلد الثورة. كانت الجوازات والتأشيرات بحوزتنا. وكانت الثورة والورود والتأشيرات كالبلسم علىٰ أرواحنا الهائمة. وفي هاليفاكس، فتشت السلطات البحرية البريطانية الباخرة. كان الضباط يفحصون أوراق الركاب الأمريكيين والنرويجيين والألمان بشيءٍ من اللا مبالاة، لكنهم أخذوا في تفتيش الروس وفحص أوراقهم بدقة بالغة، سائلين إياهم عن قناعاتهم وانتماءاتهم السياسية، وغيرها من الأسئلة. رفضت مناقشة هذه الأمور معهم قطعًا، قائلًا: "ستجدون كل ما يلزمكم من

معلومات في هويتي، لا شيء أكثر من ذلك". لم تكن السياسة الروسية بعد تحت سيطرة الشرطة البحرية البريطانية، لكن ذلك لم يمنع الضابطين المُحققَين ماتشين وويستوود من سؤال ركَّابٍ آخرين عني بعد تفتيشي وفحص أوراقي بدقة، مرتين، دون جدوىٰ. كانا مصممَين علىٰ أني اشتراكي خطير.

جرت الأمور علىٰ نحوٍ عدائيٍ وجارح، في تمييزٍ واضح ضد الثوريين الروس، علىٰ عكس ما تَعَرَض له الركَّاب الآخرون من معاملة لم تكن سيئة، طالما أنهم ينتمون لبلدانٍ حليفة لإنجلترا، إلىٰ درجة أن بعض الروس قد شكوا ما حدث معهم للسلطات البريطانية. لم أنضم إليهم، إذ لم أر نفعًا من أن أشكو بعلزبول لإبليس. لكن في ذلك الوقت لم يكن أحدٌ منّا ما سيجري في المستقبل.

وفي 3 أبريل، صعد ضباطٌ بريطانيون برفقة حرسٍ مسلحين علىٰ متن كريستيانيافجورد، وأمروني وعائلتي، بالإضافة إلىٰ خمسة ركَّاب آخرين، باسم الأدميرال المحلي، بمغادرة الباخرة. أكدوا لنا أن الأمور كلها ستتضح في هاليفاكس، أما نحن فقد رفضنا الامتثال لهذا الأمر معلنين أنه غير قانوني، فعاد الحرس إلينا مرة أخرىٰ وحملوننا جسديًا إلىٰ زورقٍ بحري، وسط صيحات "استهجان" الركَّاب تجاهنا، وأوصلنا الزورق إلىٰ هاليفاكس في حراسة طوَّافة بحرية. وحينما كان البحَّارة يحملونني مسرعين إلىٰ الزورق، هرع ولدي الأكبر وضرب ضابطًا بقبضته الضئيلة. صاح الصبي: "بابا، هل أضربه مرة أخرىٰ؟".

كان في الحادية عشرة من عمره، وكان هذا هو درسه الأول في الديمقراطية البريطانية.

قادتني الشرطة إلىٰ هاليفاكس برفقة زوجتي وولديّ الاثنين، أما الباقون فقد أرسلوهم إلىٰ معسكر للسجناء الألمان يُدعىٰ أمهرست. تعرَّضنا في المكتب لتفتيشٍ لم أشهد قط مثيلًا له، حتىٰ في قلعة بطرس وبولس. في قلعة القيصر هذه كان رجل شرطة قد جرَّدني من ملابسي وفتشني، أما هنا فقد تعرَّضت لهذا الإذلال علىٰ يد حلفائنا الديمقراطيين أمام دزينة كاملة من الرجال. أتذكر جيدًا الرقيب أولسن، وكان كنديًا سويديًا بوجهٍ أحمر مألوفٍ بين رجال الشرطة الجنائية، الذي أشرف علىٰ التفتيش. كان هؤلاء الأوباش، الذين استعدوا لكل ذلك من بعيد، يعرفون جيدًا أننا ثوريون روس لا غبار عليهم عائدين إلىٰ بلدنا التي حرَّرَتها الثورة.

لم يخبرنا العقيد موريس، قائد المعسكر، بالسبب الرسمي وراء القبض علينا إلا في صباح اليوم التالي بعد مطالباتٍ واحتجاجاتٍ متوالية. قال باختصار شديد: "أنتم خطرون علىٰ الحكومة الروسية الحالية". من الواضح أن احتجاجنا قد وصل منذ الصباح الباكر لأسماع هذا الرجل الذي لم يكن لديه أي قدرٍ من الحصافة. احتججنا قائلين: "لكن موظفي الحكومة الروسية في نيويورك قد أصدروا لنا هذه الجوازات إلىٰ روسيا، وعليكم أن تدعوا الحكومة الروسية تتولىٰ

أمرها بنفسها". فكَّر العقيد موريس لبرهة، مداعبًا فكه، ثم قال: "أنتم خطرون علىٰ حلفائنا بشكل عام".

لم تصدر قط أي أوامر مكتوبة تقضي باعتقالنا، لكن العقيد تحدَّث إلىٰ نفسه مُفسِّرًا الأمر علىٰ أننا، باعتبارنا مهاجرين سياسيين غادرنا بلادنا لسببٍ ليس بسيطًا، لا يجب أن نتفاجئ مما حدث. بالنسبة له، لم تكن الثورة الروسية شيئًا موجودًا من الأصل، لكننا شرعنا في توضيح أن وزراء القيصر، الذين جعلوا منّا مهاجرين سياسيين، يقبعون الآن في السجون، باستثناء بعضٍ ممن هربوا إلىٰ بلدانٍ أخرىٰ. بدا الأمر معقدًا بالنسبة له، وهو الذي شقَّ مساره الوظيفي في المستعمرات البريطانية وفي حرب البوير. لم أبدِ أي قدرٍ من الاحترام حين تحدَّثت إليه، مما جعله يدمدم من خلف ظهري: "آهٍ لو أنه تحت يدي علىٰ الساحل الجنوب أفريقي". كانِ هذا هو تعبيره.

لم تكن زوجتي مهاجرة سياسية من الناحية الرسمية، إذ غادرت روسيا بجواز سفر قانوني. لكن هذا لم يمنعهم من القبض عليها مع ولديّ اللذين كان أحدهما في سن الحادية عشرة والآخر في التاسعة. وأنا لا أبالغ حين أقول أنهم ألقوا القبض علىٰ الصبيَّين. حاولت السلطات الكندية في البداية أن تفصلهما عن أمهما بإرسالهما إلىٰ بيتٍ للأطفال. أما زوجتي، التي أفزعها هذا الاحتمال، فقد أعلنت أنها لن تسمح لهم بفصل الصبيَّين عنها، وفقط بسبب هذا الاحتجاج تركوا

الصبيَّين معها ثم أرسلوهم سويًا إلىٰ بيت موظف شرطة أنجلو روسي. ولمنع أي مراسلات "غير قانونية"، سواء بالخطابات أو البرقيات، لم يسمح الموظف بخروج الصبيَّين إلا برفقة الحرس، حتىٰ إن لم تكن أمهما معهما. كما لم يُسمح لزوجتي وولديّ بالانتقال إلىٰ فندق إلا بعد أحد عشر يومًا، بشرط التردُّد يوميًا علىٰ قسم الشرطة.

كان معسكر أمهرست في الأصل مسبك معادن متهالك صودر من مالكه الألماني. كانت الأسرَّة مصفوفةً في ثلاثة طوابق وفي صفين علىٰ جانبي الردهة. عاش ثمانمائة رجل في هذا الوضع. يمكنكم تخيُّل هذا العنبر المُرتَجل عند حلول الظلام. كان الرجال اليائسون يفترشون الممرات متكئين علىٰ مرافِقهم كلٌ علىٰ طريقته، يرقدون وينهضون، يلعبون الورق والشطرنج. كانت لدىٰ معظمهم مهاراتٌ حرفية، بل مهاراتٌ استثنائية لدىٰ بعضهم، ولا يزال لديّ في موسكو بعضٌ من الأشياء التي صنعها لي سجناء أمهرست. ورغم ما بذلوه من جهودٍ جبَّارة للحفاظ علىٰ صحتهم بدنيًا ومعنويًا، خمسة منهم قد جنَّ جنونهم، وكان علينا أن ننام ونأكل ونعيش معهم في نفس الحجرة.

ومن بين الثمانمائة سجين الذين قضيت معهم ما يقارب شهرًا، ربما كان هناك خمسمائة بحَّارًا أغرقت الزوارق البريطانية سفنهم، وحوالي مائتي عامل اعتُقِلوا أثناء الحرب في كندا، علاوة علىٰ مائة آخرين من الضباط والمدنيين من الطبقة البرجوازية. كانت علاقتنا

بالسجناء الألمان تتحدَّد بوضوح وفق موقفهم من كوننا اشتراكيين وثوريين. وفي حين اعتبرنا الضباط والضباط الصغار، الذين مكثوا في قسمٍ من الحجرة محاطًا بجدرانٍ خشبية، أعداءً صريحين لهم، كان الجنود يحيطوننا بمودةٍ كبيرة.

عشت علىٰ مدار هذا الشهر فيما يشبه اجتماعًا كبيرًا دائم الانعقاد. حكيت للسجناء عن الثورة الروسية، وعن ليبكنخت ولينين، وعن أسباب انهيار الأممية القديمة، وتدخل الولايات المتحدة في الحرب. وإلىٰ جانب ذلك، كان لدينا حلقاتٌ نقاشية ثابتة. كانت صداقتنا تزداد دفئًا يومًا بعد يوم. يمكنني تقسيم السجناء، من خلال مواقفهم وطريقة تفكيرهم، إلىٰ فئتين: تضم الأولىٰ من ظلوا يُردِّدون كلامًا علىٰ شاكلة "كفىٰ، لابد من وضع حدٍ لهذا الوضع علىٰ الفور"، وهؤلاء كانوا يحلمون بالخروج من السجن إلىٰ الشوارع والميادين، أما الفئة الأخرىٰ فتضم أولئك الذين فكروا بطريقة "ما شأنهم بي؟ كلا، لن ينالوا مني مرة أخرىٰ". لكن آخرين كانوا يردون متسائلين: "كيف يمكنك إخفاء نفسك عنهم؟"، فيجيب بابينسكي، ذلك السيليزي الطويل عامل الفحم ذو العينين الزرقاوين: "سآخذ زوجتي وأطفالي ونبني بيتًا في غابةٍ كثيفة، وننصب أفخاخًا من حولنا، ولن أخرج من هذا البيت إلا ببندقية، ودعهم يتجرأون علىٰ الاقتراب منّا".

فيسأله أحدهم: "ألن تدعوني لزيارتك يا بابينسكي؟".

فيرد الرجل: "لا، ولا أنت حتىٰ. أنا لا أثق بأحد".

فعل البحَّارة كل ما يستطيعون من أجْل راحتي في السجن، ولم أكن أقف في طابور الطعام أو أؤدي نصيبي من الأعمال الإلزامية، من مسح الأرضيات وتقشير البطاطس وغسيل الصحون وتنظيف المرحاض العمومي، إلا بالاحتجاج والإصرار علىٰ ذلك.

كانت العلاقة عدائية بين الجنود والضباط، الذين حافظ بعضهم، حتىٰ داخل السجن، علىٰ نوعٍ من الضوابط لرجاله. انتهىٰ الحال بأن رفع الضباط شكوىٰ إلىٰ قائد المعسكر، العقيد موريس، من دعايتي المعادية للوطنية. وبالطبع انحاز العقيد البريطاني علىٰ الفور إلىٰ جانب الوطنيين الهوهنزولرن، ومنعني من إلقاء أي خطبٍ عامة. لكن ذلك لم يحدث إلا في أيامي الأخيرة في المعسكر، ولم يؤدِ إلا إلىٰ تعزيز صداقتي بالبحَّارة والعمال، الذين ردوا علىٰ أمر العقيد بعريضة احتجاج حملت خمسمائة وثلاثين توقيعًا، واستفتاء كهذا، جرىٰ علىٰ مرأىٰ ومسمع الرقيب أولسن، كان أكثر من مجرد تعويضٍ عمَّا لاقيت في معسكر أمهرست من مشقات.

طوال الفترة التي قضيتها حبيسًا في المعسكر، كانت السلطات ترفض حق التواصل مع الحكومة الروسية بإصرارٍ شديد. كانوا يصادرون برقياتنا إلىٰ بتروجراد، وحين حاولنا مراسلة رئيس الوزراء البريطاني، لويد جورج، للاحتجاج علىٰ هذا التعنُّت، صادروا الرسالة أيضًا. من الواضح أن العقيد موريس قد اعتاد علىٰ شكلٍ مبسطٍ من "الامتثال للأوامر" في المستعمرات، ولم تزل الحرب تمنحه الكثير من

الحماية. لقد ذهب إلىٰ حد أن اشترطَ عليّ ألا أحاول التواصل مع القنصل الروسي، من خلال زوجتي، كي يسمح لي برؤيتها مرة أخرىٰ. يبدو الأمر عصيًّا علىٰ التصديق، لكن هذا ما حدث. غير أنني آثرت أن أقابل زوجتي، إذ بالطبع لم يكن القنصل في عجلةٍ من أمره لمساعدتنا، فقد كان ينتظر التعليمات التي يبدو أنها جاءت ببطءٍ شديد.

عليّ أن أعترف أن الآلية السرية التي جرىٰ القبض علينا ثم إطلاق سراحنا وفقها، لم تتضح لي حتىٰ يومنا هذا. لابد أن الحكومة البريطانية كانت تضع اسمي في قائمتها السوداء حينما كنت لا أزال نشطًا في فرنسا. لقد فَعَلَت كل ما هو ممكن لمساعدة الحكومة القيصرية في طردي من أوروبا، ولابد أن البريطانيين قد ألقوا القبض عليّ في هاليفاكس علىٰ خلفية وجودي في هذه القائمة صحبة تقاريرٍ عن أنشطتي المعادية للوطنية في الولايات المتحدة. وحينما وصل نبأ القبض عليّ إلىٰ الصحافة الثورية الروسية، أصدرت السفارة البريطانية في بتروجراد، التي من الواضح أنها لم تتوقَّع عودتي سريعًا، بيانًا رسميًا للصحافة الروسية يقول إن الروس الملقىٰ القبض عليهم في كندا "يتلقون دعمًا من السفارة الألمانية لإسقاط الحكومة الانتقالية الروسية". هذا علىٰ الأقل ما قاله البيان بوضوح. أما البرافدا، التي صدرت في ذلك الوقت تحت إشراف لينين وتوجيهه المباشر، فقد ردت علىٰ بوكانان في 16 أبريل، ولينين نفسه هو من كتب ذلك بلا شك: "هل يمكن لأحدٍ أن يصدِّق للحظة واحدة البيان القائل بأن

تروتسكي، رئيس سوفييت مندوبي العمال في سان بطرسبورج في العام 1905، ذلك الثوري الذي ضحىٰ بسنينٍ من أجل الثورة بلا غرضٍ ولا مصلحة، له أي علاقة بمخططٍ تدعمه الحكومة الألمانية؟ هذا ليس إلا افتراءً خبيثًا لم يُسمع له مثيلٌ من قبل. من أين أتيت بمعلوماتك يا سيد بوكانان؟ لِمَ لا تفصح عن ذلك؟ ستة رجال سحبوا تروتسكي وحملوه من ساقيه وذراعيه، كل ذلك باسم الصداقة مع الحكومة الانتقالية الروسية".

أما الدور الذي لعبته الحكومة الانتقالة في كل ذلك، فلا يقل غموضًا علىٰ الإطلاق. لكن ما من حاجة إلىٰ إثبات أن ميليوكوف، وزير الخارجية وقتذاك، كان يؤيد اعتقالي قلبًا وقالبًا، وهو الذي شنّ منذ وقتٍ مبكر حربًا ضروسًا ضد "التروتسكية"، وقد صكَّ هذا المصطلح بنفسه. لكنه من ناحيةٍ كان معتمدًا علىٰ السوفييت، ومن ناحيةٍ أخرىٰ لم يكن حلفاؤه الوطنيون قد بدأوا بعد نصب الكمائن للبلاشفة والكيد لهم.

يقول بوكانان في مذكراته: "ظل تروتسكي، وعددٌ من اللاجئين الروس، مُعتَقلين في هاليفاكس حتىٰ تتأكَّد نوايا الحكومة الانتقالية تجاههم". ووفقًا للسفير البريطاني، فقد عَلِمَ ميليوكوف بخبر اعتقالنا علىٰ الفور، ويدعي السفير أيضًا أنه أبلغ حكومته بطلب ميليوكوف إطلاق سراحنا في 8 أبريل، لكن بعد يومين سحب نفس الميليوكوف هذا الطلب وعبَّر عن رغبته في إطالة مدة اعتقالنا في هاليفاكس. يستنتج

بوكانان من ذلك أن "الحكومة الانتقالية إذن هي المسئولة عن اعتقالنا لفترة أطول". يبدو هذا هو الأقرب للحقيقة، لكن الأمر الوحيد الذي تجاوز بوكانان عن تفسيره في مذكراته هو الدعم الألماني الذي من المفترض أنني قبلته لإسقاط الحكومة الانتقالية. ولا عجب في أن بوكانان، بمجرد وصولي بتروجراد، قد أُجبِرَ علىٰ التصريح في الصحف بأنه لا يعلم أي شيء علىٰ الإطلاق عن هذا الدعم. لم يسبق قط أن كَذِبَ الناس كما فعلوا أثناء "الحرب الكبرىٰ من أجل الحرية". لو كان للأكاذيب أن تنفجر، لتَشَظَّىٰ كوكبُنا إلىٰ غبارٍ منثور قبل أزمانٍ من معاهدة فرساي.

لم يكن من ميليوكوف إلا أن رضخ بعد تدخُّل السوفييت. أُطلِقَ سراحُنا من معسكر الاعتقال في 29 أبريل، لكنهم رغم ذلك عاملونا بعنف حتىٰ أثناء خروجنا. أمرونا بحزم أمتعتنا والمضي مع الحرس، وحين طلبنا معرفة لماذا تحت الحراسة وإلىٰ أين يأخذوننا، رفضوا قول شيء. ثار السجناء لأنهم ظنوا أنهم سيُرسَلون إلىٰ قلعة، فيما سألنا عن القنصلية الروسية، ورفضوا الإجابة أيضًا. كان لدينا ما يكفي من الأسباب لعدم الثقة في قراصنة البحر هؤلاء، لذا أصررنا علىٰ عدم الذهاب إلىٰ أي مكان قبل أن يخبرونا إلىٰ أين نتجه. وهنا أمر القائد بإجبارنا علىٰ ذلك، فحمل الجنود أمتعتنا، لكننا بقينا علىٰ أسرَّتنا في عناد. لم ننهض إلا حين جاء الحرس وحملونا جسديًا، تمامًا كما فعلوا معنا علىٰ متن الباخرة قبل شهر من ذلك الوقت، وسط حشدٍ من

البحّارة الغاضبين، وأخبرنا القائد، بوجهه الأنجلو كولونيالي المميز، أننا سنبحر علىٰ متن باخرة دنماركية إلىٰ روسيا. اختلج وجه القائد مُتشنِّجًا بشدة، فلم يكن يقبل استفزاز فكرة أننا نفلت من يديه، اللهم إلا إذا كنَّا علىٰ "الساحل الجنوب أفريقي". وَدَّعَنا زملاؤنا السجناء بحرارةٍ وودٍ بالغ. وبينما انطوىٰ الضباط علىٰ أنفسهم في حجرتهم الخشبية، وفقط قليلٌ منهم كان يحاول استطلاع ما يجري من شقوق الجدران، اصطف البحّارة والعمال علىٰ الجانبين مُفسِحين ممرًا لنا، كفرقةٍ مُرتجلة تغني النشيد الثوري، مادين أياديهم لنا من كل جانب. ألقىٰ أحدهم خطبةً قصيرة، مشيدًا فيها بالثورة الروسية، لاعنًا الملكية الألمانية. وحتىٰ الآن أشعر بسعادة غامرة حين أتذكر أننا في معمعان الحرب كنَّا نختلط بالبحّارة الألمان في أمهرست في تآلفٍ ووِد. وفي السنوات اللاحقة تلقيت خطاباتٍ حميمية من الكثيرين منهم، أرسلوها من ألمانيا.

كان ماتشين، ضابط الشرطة البريطاني الذي كان وراء القبض علينا، متواجدًا لدىٰ مغادرتنا. وكوداعٍ سريع، حذَّرته من أن أول ما سأفعله في الجمعية التأسيسية هو استجواب وزير الخارجية ميليوكوف عن المعاملة الشائنة للمواطنين الروس من قِبَل الشرطة الأنجلو كندية. فرد بحسمٍ سريع قائلًا: "أتمنىٰ ألا تصل إليها أبدًا".

الفصل الرابع والعشرون

في بتروجراد

كانت الرحلة من هاليفاكس إلىٰ بتروجراد رتيبةً للغاية، كالمرور عبر نفقٍ طويل لا ينتهي، وقد كان ذلك بالفعل نفقًا إلىٰ الثورة. لا أتذكَّر من رحلتي عبر السويد إلا بطاقات الخبز التي لم أرَ مثلها قط. وفي فنلندا، قابلت في القطار فاندرفالدي ودي مان اللذين كانا ذاهبان أيضًا إلىٰ بتروجراد.

سألني دي مان: "ألا تتذكَّرني؟".

فقلت له: "بلىٰ، رغم أن الناس تغيَّروا كثيرًا وقت الحرب"، وانتهت محادثتنا المُقتضبة بهذا الرد الأبعد ما يكون عن الكياسة.

حاول دي مان، في أيام شبابه، أن يكون ماركسيًا، وناضل لفترةٍ طويلة وبشكلٍ جيدٍ ضد فاندرفالدي. وخلال الحرب صبَّ كل حماسة شبابه البريئة في السياسة، ثم بعد الحرب في النظرية. انتهىٰ به الحال إلىٰ أن صار عميلًا لحكومته ليس أكثر. أما فاندرفالدي، فقد كان هو الأقل أهميةً وتأثيرًا ضمن المجموعة القيادية للأممية، وانتُخِبَ رئيسًا لها لا لسببٍ إلا لأن لم يكن ممكنًا أن يتولىٰ ألمانيٌ أو فرنسيٌ هذا المنصب. وكمُنظِّرٍ، لم يكن فاندرفالدي أكثر من جامعٍ للأفكار؛ فقد شقَّ طريقه بين تياراتٍ اشتراكيةٍ متعددة، تمامًا كما فعلت

حكومته بين القوىٰ العظمىٰ في العالم. لم يكن له أيُ نفوذٍ في أوساط الماركسيين الروس. وكخطيبٍ، كان رديئًا في أحسن الأحوال. حينما اندلعت الحرب، ترك رئاسة الأممية ليشغل منصبه كوزيرٍ ملكي. ناضلت ضده بعنادٍ لا يلين، بالسجالِ والنقد في صحيفتي في باريس، حيث دعا الثوريين الروس للتصالح مع القيصرية. والآن يذهب إلىٰ بتروجراد ليدعو الثورة الروسية نفسها للإحلال محل القيصرية في صفوفِ الحلفاءِ في الحرب. لم يدر بيننا أيُ حديثٍ قط في هذه الرحلة.

وفي محطة بيكيوستروف علىٰ الحدود الفنلندية، استقبلنا وفدٌ من الأمميين المتحدين واللجنة المركزية البلشفية. لم يكن هناك أحدٌ من المناشفة، ولا حتىٰ من جناحهم الأممي (مارتوف أو غيره). احتضنت صديقي القديم يورتسكي، الذي قابلته لأول مرة في سيبيريا في بداية القرن. كان مراسلًا دائمًا لصحيفة ناش سلوفو الباريسية من اسكندنافيا، كما كان حلقة الوصل بيننا وبين روسيا خلال الحرب. تقابلنا بعد ذلك بعامٍ في بيلوستروف. وانتهت حياته باغتياله علىٰ يدِ شابٍ ثوري اشتراكي[52]. وفي ذلك الوفدِ أيضًا، قابلت لأولِ مرةٍ كاراخان، الذي صار فيما بعد ديبلوماسيًا سوفييتيًا. كان فيودوروف

[52] مثّلَ الحزب الثوري الاشتراكي الجناح اليساري من الحركة الشعبوية. وكان يختلف عن الاشتراكيين الديمقراطيين والماركسيين بشكلٍ عام في إصراره على تطابق مصالح البروليتاريا والفلاحين، واتباعه أساليب إرهابية ضد الحكومة القيصرية.

ممثلًا عن البلاشفة، وقد كان عاملَ تعدينٍ، صار بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ رئيسًا لقطاع العمال في سوفييت بتروجراد.

كنت قد علمت من الصحف الروسية، قبل حتىٰ أن أصل إلىٰ بولوستروف، أن تشيرنوف وتسيريتللي وسكوبيليف قد انضموا إلىٰ الحكومة الانتقالية الائتلافية، وهكذا أضحت انحيازات المجموعات السياسية المختلفة واضحة تمام الوضوح. كان يلوح أمامنا في الأفقِ نضالٌ لابد من شنِّه علىٰ الفور، نضالٌ في صفِ البلاشفة ضد المناشفة والشعبويين.

تلقينا ترحيبًا هائلًا في المحطة الفنلندية في بتروجراد. ألقىٰ يوريتسكي وفيودوروف بعض الكلمات علىٰ الحشد، بينما تحدَّثت أنا عن ضرورة الإعداد لثورةٍ ثانية - ثورتنا نحن. وحينما حملوني في الهواء، تذكرت هاليفاكس، حيث حُمِلَت هكذا أيضًا، لكن هذه المرة علىٰ أذرعِ الأصدقاء والرفاق. كانت هناك الكثير من اللافتات والرايات من حولنا. لاحظت نظرة زوجتي التي تنضح بالحماس، ووجهيّ الولدين الشاحبين اللذين يبدو عليهما علامات الارتباك، واللذين لم يدركا حينها ما إذا كان ما يحدث أمرًا جيدًا أم سيئًا؛ فقد سبق وأن خدعتهما الثورة من قبل.

أما في نهاية الرصيف، لاحظت خلفي دي مان وفاندرفيلدي، اللذين بقيا بعيدًا متعمِّدين ذلك، خوفًا من الاختلاط بهذا الحشد، فيما لم يحضر الوزراء الاشتراكيون الروس للترحيب بزميلهم البلجيكي،

فاندرفيلدي، الذي كان دوره بالأمس لا يزال حاضرًا في أذهان الجميع.

بعد الترحيب بنا في المحطة، وجدت نفسي في عاصفةٍ من الرجال والأحداث التي اجتاحت حياتي، كقشةٍ في تيارٍ مُتدفِق. والأحداث الأهم ضمن كل ذلك هي تلك التي لا تُثقِل نفسها بذكرياتٍ شخصية، حتىٰ تتفادىٰ الذاكرة أن تتحمَّل ما لا طاقة لها به. أتذكَّر أنني انطلقت من المحطة مباشرةً إلىٰ اجتماع اللجنة التنفيذية للسوفييت، واستقبلني تشخيدزه، الذي كان راسخًا في منصبه كرئيسٍ للسوفييت، استقبالًا جافًا. قدَّم البلاشفة اقتراحًا بانتخابي في اللجنة التنفيذية، علىٰ خلفية رئاستي للسوفييت في العام 1905، وقد دفع ذلك اللجنة في دوَّامةٍ من الارتباك. بدأ المناشفة والشعبويون يهمسون إلىٰ بعضهم البعض. كان هؤلاء يحظون وقتها بأغلبيةٍ ساحقةٍ في المؤسسات الثورية. وفي النهاية، تقرَّرَ ضمي إلىٰ اللجنة بصفةٍ استشارية. أعطوني بطاقة عضوية، وكوبًا من الشاي مع رغيفٍ من الخبز الأسود.

حتىٰ أنا وزوجتي كانت لدينا بعضٌ من دهشةٍ عند سماع الناس يتحدَّثون الروسية في شوارع بتروجراد، وعند النظر إلىٰ اللافتات الروسية علىٰ المحلات، فقد عشنا بعيدًا عن العاصمة لعشر سنوات. حينما رحلنا إلىٰ منفانا بالخارج، كان ولدنا الأكبر يبلغ من العمر سنةً واحدةً فقط، بينما وُلِدَ الأصغر في فيينا.

كانت حامية بتروجراد قوية للغاية، لكنها ليست كذلك في انحيازاتها السياسية. كان الجنود يغنون الأناشيد الثورية في مسيراتهم العسكرية، مرتدين شرائط حمراء علىٰ ستراتهم. بدا الأمر حلمًا يصعب تصديقه. كانت عربات الترام تعج بالجنود، والتدريبات العسكرية في كلِ مكانٍ في الشوارع الكبرىٰ بالمدينة. كان الجنود يجلسون القرفصاء، ثم يجرون بانتظامٍ في خطٍ مستقيم، ثم يجلسون مجددًا. أما الحرب، فقد كانت لا تزال تقف في خلفية الثورة كشبحٍ عملاق يلقي بظلالِه عليها. لم تعد الجماهير تؤمن بالحرب، لكن بدا أن التدريبات كانت تجري علىٰ قدمٍ وساق فقط لأن ما مِن أحدٍ فكَّر في إيقافها. كان من المستحيل الاستمرار في الحرب، بينما لم يكن الليبراليون (حزب الكاديت) قد فهموا ذلك بعد، شأنهم في ذلك شأن قادة "الديمقراطية الثورية".

لم أكن أعرف تسيريتللي جيدًا، بينما عرفت تشخيدزه أكثر بشكلٍ ما، ولم أكن أعرف كرينسكي علىٰ الإطلاق. أما سكوبيليف، فقد تتلمذ علىٰ يديّ، خاض معي تشيرنوف الكثير من النقاشات بالخارج، وقابلت جوتز لأولِ مرةٍ لدىٰ عودتي إلىٰ بتروجراد. كانت تلك هي المجموعة الحاكمة للديمقراطية السوفييتية.

كان تسيريتللي بلا شك أعلىٰ قامةً من الآخرين، رأسًا وأكتافًا، قابلته للمرةِ الأولىٰ في مؤتمر لندن في العام 1907، حيث كان ممثلًا عن الفصيل الاشتراكي الديمقراطي في الدوما الثانية. وحتىٰ في تلك

الأيام، كان مُتحدِّثًا رائعًا مَنَحَته نزاهته الأخلاقية حجةً قويةً ولسانًا طليقًا. عزَّزَت السنوات التي قضاها في الأشغال الشاقة من نفوذه السياسي، فعادَ إلىٰ الساحةِ الثوريةِ رجلًا ناضجًا، واعتلىٰ علىٰ الفورِ مكانته في الصدارةِ بين حلفائه. كان الوحيد من بين أندادي الذي يؤخذ بجدية. لكن، كما يحدث غالبًا في التاريخ، تَطَلَّبَ الأمر ثورةً لإثبات عدم ثورية تسيريتللي. لابد من تناول الثورة الروسية من المنظورِ العالمي، لا من المنظور الروسي الضيق، لتفادي الضياع في التعقيدات. إلا أن تسيريتللي كان يتعاطىٰ معها من أرضية خبرته في جورجيا، التي تعزَّزَت بنشاطه في الدوما الثانية. أثبتت التطورات ضحالة ثقافته وضيق رؤيته السياسية بشكلٍ بائس. كان يُكِّن احترامًا فائقًا لليبرالية؛ إذ رأىٰ القوىٰ الكاسحة للثورة بعينِ برجوازيٍ نصف مثقفٍ ترتعد فرائصه لحماية الثقافة. بدت حركة الجماهير الناهضة بالنسبةِ له تمردًا غوغائيًا، ومن أولىٰ الكلمات التي نطق بها لسانه أدركت أنه عدو. وصفه لينين بـ"المغفَّل"، كان ذلك قاسيًا، لكن ملائمٌ تمامًا، فتسيريتللي كان موهوبًا أمينًا، لكن محدودٌ وضيق الأفق.

أما كرينسكي، فقد وصفه لينين بـ"الثرثار الصغير"، وليس بوسعي أن أضيف شيئًا إلىٰ ذلك. كان كرينسكي مجرَّد شخصيةٍ عارضةٍ، ملائمًا للحظةٍ تاريخيةٍ مُحدَّدة، فكلِ موجةٍ عارمةٍ للثورة، بقدرِ ما تدفع الجماهير غير المُتمرِّسةِ بعد إلىٰ النضال، ترفع إلىٰ القمةِ أبطالَ اللحظة، أبطالًا معميةً عيونهم بتألقهم وسطوعهم الشخصي. سار

كرينسكي علىٰ نفس منهاج الأب جابون وخروستاليوف، تجسَّدَت فيه اللحظة العابرة علىٰ خلاف السببية المستمرة. لم تكن أفضل خطبه أكثر من صبٍ للماء علىٰ الطين، في 1917 تبخَّر الماءُ وتشكلت سحب البخار علىٰ شكلِ هالةٍ حول رأسه.

أما سكوبيليف، فقد دخل السياسة تحت إشرافي المباشر حين كان لا يزال طالبًا في فيينا. ترك هيئة تحرير البرافدا في فيينا ليعود إلىٰ القوقاز ليقدِّم نفسه مرشحًا إلىٰ الدوما الرابعة، وقد نجح في ذلك بالفعل. وفي الدوما استسلم لتأثيرِ المناشفة، ودخل ثورة فبراير كتفًا بكتفٍ معهم. انقطعت اتصالاتنا منذ وقتٍ طويل، لألتقيه في بتروجراد وزيرًا للعمل. جاء إليَّ في اللجنة التنفيذية مختالًا بنفسه وسألني عن رأيي في اللجنة بشكلٍ عام، فأجبته: "أعتقد أننا سنجد من هم أفضل منكم في القريبِ العاجل". ومنذ وقتٍ ليس ببعيد، ذكَّرَني سكوبيليف، مداعبًا إياي، بهذه النبوءةِ التي تحقَّقت بالفعل بعد أقلِ من ستة أشهر. سرعان ما أعلن نفسه بلشفيًا بعد ثورة أكتوبر، عارضت ولينين قبوله في الحزب في ذلك الوقت. أما في الوقت الراهن، فهو بالطبع ستالينيًا، وها قد جرت الأمور كما من الطبيعي لها أن تجري.

بصعوبةٍ بالغة، وجدت وزوجتي وولدانا غرفةً في نُزُل كييف. وفي يومنا الثاني هناك، جاء ضابطٌ شابٌ متأنقٌ ليرانا. قال لي: "ألا تتذكَّرني؟"، قلت "لا"، فردَ قائلًا: "أنا لوغينوف". وبعدما تمعَّنت في وجه الضابط المبتهج، تذكَّرته حدَّادًا يافعًا في 1905، كان عضوًا في

مجموعةٍ قتالية تشارك في معارك الشوارع ضدَّ الشرطة، وكان قريب الصلةِ بي وقتها بحماسةٍ اتقدت في صدره. فقدت الصلةَ به بعد 1905، والآن فقط في بتروجراد علمت منه أنه لم يكن بروليتاريًا حقًا، بل طالبًا في المعهد التكنولوجي، واسمه الحقيقي سيريبروفسكي، من عائلةٍ ثرية، لكنه انتمىٰ سياسيًا إلىٰ العمال في سنوات شبابه المبكرة. وفي فترة الردة الرجعية، صار مهندسًا من ذوي الكفاءات العالية، وانسحب من الأنشطة الثورية، وخلال فترة الحرب، صار مديرًا لمصنعين من أكبر المصانع في بتروجراد. كان لثورة فبراير تأثيرٌ كبيرٌ فيه؛ إذ أحيَت في ذاكرته ماضيه الثوري. عَرِفَ بعودتي من الصحف، والآن يقف أمامي مُصِرًّا علىٰ انتقالي مع عائلتي للعيش في منزله علىٰ الفور. وافقنا بعد قليلٍ من التردُّد.

عاش سيريبروفسكي مع زوجته في منزلٍ واسعٍ فخيم يليق بمديرِ مصانع. لم يكن لديهما أطفالٌ، وقد دبَّرا كل أمورهما لاستضافتنا. وفي القلب من هذه المدينة المُهَلهَلةِ نصف الجائعة، شعرنا في منزله كما لو كنَّا في الجنة. لكن سرعان ما تغيَّرت الأمورُ فور ما بدأنا التحدُّث في السياسة. كان سيريبروفسكي وطنيًا، وعلمنا فيما بعد أنه كانَ يُكِن كراهيةً شديدة للبلاشفة، واعتبر لينين عميلًا ألمانيًا. وبعدما نهرته عن قولِ ذلك، صار حَذِرًا في التحدُّث معي. لكن بات من المستحيل أن أعيش وعائلتي تحت سقفٍ واحدٍ معه، لذا غادرنا منزل الزوجين اللذين أحسنا ضيافتنا، لكنهما ظلَّا غريبَين عنَّا، وعدنا إلىٰ

غرفتنا في نُزُل كيف. وفي وقتٍ لاحق، دعا سيريبروفسكي ولدَينا لزيارته في منزله، فقدَّم لهما الشاي ومعلباتِ الطعام، فيما حكىٰ له الولدان بحماسةٍ بالغة عن انطباعاتهما عن خطبة لينين في اجتماعٍ عام حضراه. نضح وجهاهما بالسعادةِ من الحديثِ والطعام، إلىٰ أن ردَّ عليهما مضيفهما قائلًا: "لكن لينين عميلٌ ألماني".

ما هذا؟ هل بمقدورِ أحدٍ أن يتفوَّه بمثل هذا الكلام؟ توقَّف الولدان عن تناول الطعام، ونهضا مُنفَعِلين، وقال الولد الأكبر: "حسنًا، هذا قطعًا كلامٌ قذرٌ لا يُقال". قالها وهو يبحث في مفرداته الفقيرة عن تعبيرٍ صحيح يلائم الموقف. شَعَرَ الرجل بالإهانة، وانتهت معرفتهما به منذ ذلك الحين. وبعد انتصارنا في أكتوبر، أقنعت سيريبروفسكي بالمساهمة في عمل السوفييت، ومن الخدمة في السوفييت وجد طريقه إلىٰ الحزب الشيوعي كما فَعَلَ كثيرون غيره. وفي الوقت الراهن، سيريبروفسكي عضوٌ في لجنة ستالين المركزية للحزب، وواحدٌ من الدعائم الرئيسية لنظامه. إذا كان قد ادعىٰ البروليتارية في 1905، فمن الأسهل أن يدعي البلشفية الآن.

بعد أيام يوليو، التي سأتحدَّث عنها بمزيدٍ من التفصيل فيما بعد، كانت شوارع العاصمة تموج بالتشهير بالبلاشفة والافتراء عليهم. ألقت حكومة كرينسكي القبض عليّ، وبعد شهرين فقط من عودتي من المنفىٰ وجدت نفسي مرةً أخرىٰ في سجن كريستي الذي ألفته منذ زمن. لابد أن العقيد موريس قد قرأ صحفه الصباحية ذلك اليوم بكثيرٍ

من الرضا والارتياح، وبالطبع لم يكن الوحيد الذي شَعَرَ بذلك. انتاب الولدين شعورٌ من السخط والنقمة علىٰ ما حدث، فسألا أمهما بشيءٍ من التوبيخ واللوم؛ أي ثورةٍ هذه التي يُزج بأبيهما فيها في معسكرِ اعتقالٍ ثم في السجن؟ فأكدت لهما أمهما أن الثورة الحقيقية لم تأتِ بعد، لكن مرارة الشكِ ظلت تزحف مُتسرِّبةً إلىٰ روحيهما.

وبعد إطلاق سراحي من سجن "الديمقراطية الثورية"، مكثنا في شقةٍ صغيرةٍ استأجرناها من أرملةِ صحفيٍ ليبرالي، في بيتٍ برجوازيٍ كبير. كان الإعداد لثورة أكتوبر جاريًا علىٰ قدمٍ وساق، وصرت حينها رئيسًا لسوفييت بتروجراد. أخذت الصحف تهاجمني بكلِ طريقةٍ ممكنة، وفي البيت كانت الكراهية والعداوة تحاصرنا من كلِ جانبٍ. كان علىٰ الطاهية، آنا أوسيبوفنا أن تتحمَّل هجماتِ ربات البيوت حين كانت تذهب لجلب حصتنا من الخبز كل صباح. تَعَرَّضَ ابني الأكبر للكثيرِ من المضايقاتِ في المدرسة، وأطلقوا عليه "الرئيس" ساخرين من أبيه. وحينما كانت زوجتي تعود من عملها في نقابة عمال الأخشاب، كان البوَّاب يطاردها بعينينِ مليئتين بالبغضِ والكراهية. كان صعود الدرج في حد ذاته عذابًا يوميًا. وصاحبة البيت كانت دائمًا ما تتصل هاتفيًا لتتأكد من أن أثاثها لا يزال سليمًا. كنَّا نريد الرحيل عن هذا البيت بأيِ طريقةٍ ممكنة، لكن إلىٰ أين قد نذهب؟ لم تكن هناك أية شققٍ شاغرة في المدينة بأسرها.

لم يكن الوضع مُحتملًا علىٰ الإطلاق، لكن ذات يومٍ رُفِعَ هذا الحصار المفروضُ علينا كما لو أن يدًا عملاقةً قد أزالته علىٰ الفور. صار البوَّاب ينحني لزوجتي كما لو كانت أهم المستأجرين بالبيت. الخبز نفسه كان يصل إلينا دون تأخيرٍ أو تهديد. لم تعد الأبواب تُقرع في وجوهنا كما كان منذ يومٍ واحد. مَن أحدث هذا التغيير يا ترىٰ؟ مَن هذا الساحر الذي فَعَلَ ذلك في غمضة عين؟ كان ذلك هو نيقولاي ماركين. لابد هنا أن أسرد قصة هذا الرجل؛ إذ لم تكن لثورة أكتوبر أن تظفر بالنصر دون ماركين، أو بالأحرىٰ دون الكتيبة الكاملة من الرجال الذين تجسَّدوا في شخصِ ماركين.

كان ماركين بحَّارًا في أسطول البلطيق، كما كان مدفعيًا وبلشفيًا. في البداية لم نكن ندري بوجوده من الأصل، ولم يكن من خصاله أن يدفع نفسه إلىٰ الصدارة في شيء. لم يكن ماركين مُتحدِّثًا؛ إذ كان يصيغ كلماته بصعوبة. والأكثر من ذلك أنه كان خجولًا متجهِّمًا وكأن طاقةً من العبوسِ والانطواءِ مدفونةً في أعماقه. كان أصيلًا فريدًا من نوعه. لم أكن أعلم بوجوده حتىٰ وقتما أخذ علىٰ عاتقه الاعتناء بعائلتي. تعزَّزَت صلته بالولدين، وكان يقدِّم لهم الشاي والشطائر من مطعمِ سمولني، أما بشكلٍ عام فقد كان يسعدهما بأمورٍ بسيطة عجزنا عن توفيرها لهما في تلك الأيام القاتمة. كان يستفسر دائمًا ما إذا كانت الأمور علىٰ ما يُرام، دون حتىٰ أن يُظهِر نفسه. لم أكن أتخيَّل حتىٰ أنه موجودٌ بالفعل. عَرِفَ من الولدين وآنا أوسيبوفنا أننا نعيش في معسكرِ

الأعداء، فتوجَّه إلىٰ البوَّاب وإلىٰ العاملين في البيت، ليس وحده بل أعتقد مع مجموعة من البحَّارة، ولابد أنه تَحَدَّثَ إليهم بكلماتٍ مقنعة حتىٰ تغيَّر كل شيءٍ من حولنا فجأة. وهكذا، حتىٰ قبل ثورة أكتوبر، كانت ديكتاتورية البروليتاريا قائمةً في بيتنا. ولم نعلم أن هذا البحَّار، صديق ولدَينا، كان وراء كل ذلك، إلا بعد مرورِ بعض الوقت.

وعلىٰ الفور بعدما أضحىٰ السوفييت بلشفيًا، عارَضَت اللجنة التنفيذية المركزية البلاشفة واستخدمت تأييد أصحاب المطابع لحرمان السوفييت من صحيفته. لذا فقد صرنا بحاجةٍ إلىٰ صحيفة جديدة، فاستشرت ماركين في الأمر. اختفىٰ قليلًا، وقام ببعض الاتصالات الضرورية، وتَحَدَّثَ مع عمال المطابع، وفي غضونِ أيامٍ قليلة أصبح لدينا صحيفة جديدة. أطلقنا عليها اسم "العامل والجندي". كان ماركين يقضي النهارَ والليلَ في المكتب يدبِّر أمورًا من كل شكلٍ ولون. وفي خلال أيامِ أكتوبر، كان وجهه الصلب المتجهِّم حاضرًا في أصعب اللحظات وأخطر الأماكن. كان يراني فقط لإبلاغي بأن كلَ شيءٍ يجري علىٰ ما يُرام، وليسألني إذا كنت أحتاج شيئًا. اتسعت مجالات عمله، فقد كان يؤسس ديكتاتورية البروليتاريا في بتروجراد.

كان بعض الغوغاء قد بدأوا حملةً لنهبِ مخازن النبيذ في العاصمة، وخلف هذه الحركة الخطيرة كان هناك من يحاول إغراق الثورة في الكحول. شَعَرَ ماركين بالخطرِ علىٰ الفور، وشَرَعَ يكافحه.

ذهب لحراسةِ المخازن في وقتٍ كان من المستحيل فعل ذلك، فدمرها بالكامل. بحذاءٍ طويل الرقبة كان يسير بساقيه، الغارقتين حتىٰ الركبتين، في النبيذِ الفاخرِ والزجاجات المُهشَّمَة. انهمر النبيذ إلىٰ بالوعات الشارع، حتىٰ اصطبغ الثلج به، فيما أخذ السكارىٰ ومدمنو الخمر يحاولون استخراجه من البالوعات والمزاريب. وبمسدسٍ يُحكِم عليه قبضته، قاتل ماركين من أجل أكتوبر رصينٍ متزن. خرج من المخازن منقوعًا في الخمر، تفوح منه رائحة أفخم وأرقىٰ أنواعِ النبيذ، ليعود إلىٰ المنزل حيث انتظره ولدانا قلقَين متقطعيّ الأنفاس. لقد هَزَمَ ماركين هجمة كحول الثورة المضادة.

وحينما ذهبت إلىٰ وزارة الشئون الخارجية، بدا من المستحيل فعل أي شيءٍ هناك. كان طاقم العمل بكامله، من مساعد الوزير حتىٰ موظف الآلة الكاتبة، معاديًا لنا. أُغلِقَت كل الأدراج والمكاتب، وخُفِيَت المفاتيح. فاتصلت بماركين، الذي عَرِفَ أسرار وخبايا الفعل المباشر. قضىٰ أربعًا وعشرين ساعة مع اثنين أو ثلاثة من الديبلوماسيين في غرفةٍ مُغلقة، وفي اليوم التالي جَلَبَ لي المفاتيح ودعاني إلىٰ الوزارة. لكنني كنت لا أزال مشغولًا في سمولني بالشئون العامة للثورة، لذا فقد صار ماركين، لبعضِ الوقتِ، وزيرًا غير رسميٍ للشئون الخارجية. استوعب ماركين آليات العمل في مفوَّضية الشعب بسرعةٍ فائقة، مُحكِمًا قبضته علىٰ الديبلوماسيين المُخرِّبين واللصوص، وأعاد تنظيم المكاتب والإدارات، وصادر كل ما كان لا

يزال يأتي مُهرَّبًا من الخارج إلىٰ حقائب الديبلوماسيين ووهبهم للمُشرَّدين الذين لا مأوىٰ لهم، واستخلص الوثائق السريَّة من الأراشيف ونشرها علىٰ مسئوليته الخاصة، مصحوبةً بتعليقاتٍ وشروحات، كتبها بنفسه في كراساتٍ مُنفَصِلة. لم يحظ ماركين بأي درجةٍ أكاديمية، ولم تخلُ كتاباته من الأخطاء النحوية، وكانت تعليقاته في بعضِ الأحيانِ غير مُتوقَّعة. لكن بشكلٍ عام فقد نجح في تقليم الأظافر الديبلوماسية في وقتٍ كان ذلك ضروريًا بشكلٍ مُلِح. لابد أن البارون كتيلمان والكونت سيرنين قد قرءا كراسات ماركين الصفراء في بريست ليتوفسك بشغفٍ بالغ.

ثم بدأت الحرب الأهلية. وكان لماركين الفضلُ في سدّ الكثير من الثغرات. وأخذ يبني ديكتاتورية البروليتاريا في الشرق؛ يقود أسطوله الصغير في نهر الفولجا دافعًا العدو أمامه للتقهقر إلىٰ الوراء. وإذا ما حلَّ خطرٌ، وعَلِمت أن ماركين هو من يتولىٰ أمره، فذلك وحده كان كفيلًا بأن يُثلِج صدري ويُشعرني بالارتياح. لكن ساعته حلَّت سريعًا؛ رصاصةٌ من العدو أصابت نيقولاي جورجييفيتش ماركين وأسقطته من علىٰ ساقيه القويتين. وحين وصلتني برقيةٌ تخبرني بنبأ وفاته، أحسست وكأن عمودًا هائلًا من الجرانيت سقط فوق رأسي. وضع الولدان صورته علىٰ طاولتهما، مستندةً إلىٰ قبعته البحرية، ملتحفةً بشريطةٍ سوداء.

حين قلت لهما: "يا أولاد، يا أولاد، مات ماركين"، انقبض وجهاهما بألمٍ مفاجئٍ وحزنٍ عاصف. كان يعاملهما علىٰ قدمِ المساواة معه. أطلعهما علىٰ خبايا خططه وأسرار حياته. وبعينينِ تغرغر بالدموع، أخبر سيروجا ذا التسعةِ أعوامٍ أن المرأة التي أحبها هجرته منذ زمنٍ طويل، وهذا هو سبب ظلامِ روحه وأفولِ قلبه. وبهمسٍ خافتٍ خائف، كَشَفَ سيروجا دامعَ العينِ هذا السر لأمه. هذا الصديق الوفيّ المعطاء، الذي فَتَحَ قلبه وروحه للولدين، كما لو كانا صديقيه منذ أمدٍ أو كما لو كانا في مثل عمره، كان بحّارًا مقاتلًا وثوريًا عنيدًا، كان بطلًا حقيقيًا أروع مِمَن في قصصِ الخيال. أيُعقل أن ماركين، الذي ظلَّ في قبو الوزارة يعلِّمهما استخدام المسدس والبندقية، الآن قد طواه الموت؟ في سكونِ الليل، ظلَّ جسداهما الصغيران يرتجفان تحت الألحفة بعدما حلَّ هذا النبأ الأسود. أمهما فقط هي مَن سمعت تنهيدات قلبيهما المفطورَين حزنًا[53].

كانت الحياة في ذلك الوقتِ تموج بالاجتماعات الجماهيرية الهائلة. حين وصلت إلىٰ بتروجراد، وجدت كلَ الخطباء الثوريين إما مبحوحي الصوت أو فقدوا أصواتهم تمامًا. ولقد علَّمَتني ثورة 1905 أن أصون صوتي بعنايةٍ، وبفضلِ ذلك، كنت بالكاد أمضي خارج

---

[53] اللافت أن ليون سيدوف، الابن الأصغر لليون تروتسكي، كان، منذ أن بدأ الكتابة السياسية، يستخدم اسمًا مستعارًا هو نفس اسم البحّار الذي تأثَّر به منذ طفولته؛ نيقولاي ماركين. (المترجم)

الحشود. كانت الاجتماعات تُعقَد في المصانع والمدارس والكليّات والمسارح ومدرجات السيرك والشوارع والميادين. وكنت عادةً ما أعود للمنزلِ مُرهقًا مُستنذفًا بعد منتصف الليلِ، ليستقر ذهني بين النومِ واليقظة إلىٰ أفضل المجادلات ضد أندادي وخصومي! وبحلول السابعة صباحًا، وأحيانًا قبل ذلك، أستيقظ علىٰ طَرقٍ مزعجٍ لا يُحتمل علىٰ الباب ليسحبونني من علىٰ الفراش إلىٰ اجتماعٍ في بيترهوف، أو إلىٰ كرونشتاد علىٰ متنِ زورقٍ أرسله البحَّارة ليقلَّني إليهم. وفي كلِ مرةٍ كان يبدو لي أنني لن أنجو من هذا الاجتماع الجديد، لكن ثمة مخزونًا خفيًا للطاقة يُخرِج ما فيه لينجدني بساعةٍ أو اثنين من الخطابة المتصلة، ليلحق بي بعدها وفدٌ من عمال بعض المصانع أو المقاطعات، يحيطون بي في حلقةٍ ضيِّقةٍ يقولون لي إن بضع آلافٍ من العمال من ثلاثةِ أو خمسةِ مواقع انتظرونني طيلة هذه الساعات، وعليّ أن أذهب علىٰ الفور. كم كانت الجماهير الناهضة المنتفضة صبورة من أجل الكلمة الجديدة تلك الأيام!

كانت الاجتماعات الجماهيرية في السيرك الحديث ذات طابع خاص، وهكذا أيضًا اعتبرها خصومي، لكن من زاويةٍ أخرىٰ. كانوا ينظرون إلىٰ السيرك باعتباره قلعتي الخاصة، ولم يحاولوا الخطابة فيه قط. لكن حين كنت أهاجم التوفيقيين في السوفييت، كانت صيحات غاضبة تقاطعني: "هذا ليس سيركك".

عادةً ما كنت أتحدَّث في السيرك في المساء، وأحيانًا في أوقاتٍ متأخرةٍ من الليل. كان الجمهور يتضمَّن عمالًا وجنودًا وأمهات عاملات - تشكيلةً مِمَن يضطهدهم رأس المال. لم تكن ثمة بوصة شاغرة، وكل جسمٍ بشريٍ مضغوطٌ إلىٰ أقصىٰ حد. حمل الرجالُ أطفالهم علىٰ أكتافهم، وحملت الأمهات الرُضع علىٰ صدورهن. لم يكن أحدٌ يدخِّن، فيما كانت الشرفات مُهدَّدة بالانهيار مِمَا تحمله من وزنٍ زائد من أجسامٍ بشرية. شققت طريقي إلىٰ المنصة عبر أخدودٍ بشريٍ ضيق، وأحيانًا ما كانوا يحملونني فوق رؤوسهم حتىٰ أصل إلىٰ المنصة. انفجر الهواء، المُثقلُ بالأنفاس والانتظار الطويل، بصيحاتٍ وهتافاتٍ مُعتادةٍ في السيرك الحديث. أينما التفت من حولي، أرىٰ رؤوسًا وصدورًا وأذرع بشرية، ومتىٰ مددت ذراعي أصطدم بأحدهم، وبحركةٍ عفويةٍ يومئ إليَّ بألا أقلق من ذلك، وألا أقطع خطبتي، بل أستمر فيها مهما حدث. ما مِن مُتحدِّثٍ، مهما كان مُجهَدًا مُستهلَكًا، يمكنه مقاومة جاذبية تلك الحشود البشرية المُلتهِبة حماسةً.

أرادوا أن يعرفوا ويفهموا، أرادوا أن يتلمَّسوا طريقًا لهم. بدا الأمر وكأنني أشعر بفضولهم العميق ككتلةٍ ملموسةٍ وعملاقة، لتنهار وتتراجع كل الأفكار والمجادلات والكلمات التي رتبتها مُسبَّقًا تحت ضغط الشغف الذي لا رادَ له، ثم تأتي كلماتٌ أخرىٰ، وأفكارٌ أخرىٰ، لم أكن أتوقعها، ولم أعمد من قبل إلىٰ تنسيقها، تصعد وتنضح متكاملةً من وعيي الباطن. في مثل تلك الحالات، بدا الأمر وكأنني

أستمع إلىٰ نفسي منْ الخارج، أحاول مواكبة أفكار الخطيب، وكالسائرِ أثناء نومه أخشىٰ أن أهوىٰ من فوقِ صوتِ عقلي الواعي.

هكذا كان السيرك الحديث، بحماسته واتقاده واهتياجه ورِقَّته. كانت الأمهات يرضِعن أطفالهن بهدوءٍ وسكينة من نفس الصدور التي تخرج منها كل هذه الصيحات النارية. الحشد كله كان هكذا، مثل هؤلاء الرُضع، تتشبث شفاههم الجافة بحلماتِ الثورة. لكن رُضع مثل هؤلاء لم يلزمهم إلا وقتٍ قصير حتىٰ نضجوا تمام النضوج. ثم يفتح الأصدقاء بوابةً أخرىٰ لتبتلعني بالداخل وتُغلق خلفي. يدفعونني إلىٰ قصرِ الراقصةِ كسيشنسكايا، الذي بناه القيصر نيقولا خصيصًا لها. وهناك، حيث رسَّخَ الطاقم البلشفي نفسه بصلابةٍ وبأسٍ، يجلس الجنود بمعاطفهم الرمادية علىٰ أثاثٍ فاخرٍ مُنجَّد، أو يدبدون بأحذيتهم الثقيلة علىٰ الأرضيات غير الممسوحة. أنتظر هناك حتىٰ ينفض الحشد، ثم أخرج مجددًا.

كانت مغادرة السيرك الحديث أصعب كثيرًا من الدخول إليه، فلم ترد الحشود فضَ نفسها أو حتىٰ تفكيك تلاحمها الجديد هذا، كانت ترفض التبعثر بعد التقارب. كانوا يحملونني علىٰ أذرعهم فوق الرؤوس، نصفَ واعٍ من فرط الإجهاد، حتىٰ أصل إلىٰ المخرج. أحيانًا ما كنت ألاحظ وجهيّ ابنتيّ، اللتين عاشتا بجوار أمهما. كانت الكبرىٰ في السادسة عشر من عمرِها، بينما الصغرىٰ في الخامسة عشر. كنت بالكاد أقترب إليهن، استجابةً لنظراتهن اللامعة المُستثارة، أو لأحتضن

كفوفهن الدافئة بين يديّ لدىٰ خروجي قبل أن تفصلنا الحشود مرةً أخرىٰ. وجدت نفسي خارج السيرك، يتبعني المحتشدون، فتدفَّق الحياةُ في الشارع بالصياحِ والهتافِ ودبيبِ الأقدام.

ذات مرة كنت أمشي وحيدًا، بعد أحد الاجتماعات، في شارعٍ يخلو تمامًا من أي إنسي، فسمعت وقعَ أقدامٍ خلفي. الأمر نفسه كان قد تكرَّر الليلة السابقة، لكن هذه المرة بدا أقرب. أمسكت بمسدسي البراونينج، ثم التفت بحِدةٍ وخَطَوت قليلًا إلىٰ الوراء، فوجدت أمامي شابًا ذا وجهٍ مخلصٍ نبيل، سألته بصرامة: "ماذا تريد؟".

فقال: "اسمح لي أن أحميك. بعضٌ من هؤلاء الذين جاءوا إلىٰ السيرك أعداء". كان ذلك هو الطالب بوزنانسكي، الذي رافقني بشكلٍ لصيق منذ ذلك الوقت. ظلَّ يصاحبني طوال سنواتِ الثورة، في مهماتٍ خاصة من كل شكلٍ ونوع أظهر فيها مسئوليةً كبيرة. كان يحمي سلامتي الشخصية، ويقوم ببعض مهام السكرتارية خلال الحملات العسكرية، يذهب إلىٰ مخازن السلاح المنسية، ويوفِّر الكتب الضرورية، ويبني وحداتٍ عسكريةً من الصفر، ويحارب بنفسه علىٰ الجبهة، والتحق فيما بعد بصفوف المعارضة. الآن يعيش بوزنانسكي في المنفىٰ. أتمنىٰ أن يجمعنا المستقبل سويًا مرةً أخرىٰ.

في 3 ديسمبر، حين كنت أخطب في جمهورٍ احتشد في السيرك الحديث، قدَّمت تقريرًا عن عملِ الحكومةِ السوفييتية، أوضحت فيه أهمية نشر المراسلات الديبلوماسية للقيصرية ولكرينسكي من بعدها.

أكدت لجمهوري أن ليس علىٰ الشعب أن يُهدَر دمه في اتفاقيات لم يكن طرفًا فيها، ولم يقرأها، ولم يراها، فصَاحَ التوفيقيون في السوفييت قائلين: "لا تتحدث بهذه اللغة. هذا ليس سيركك". فكرَّرت إجابتي للتوفيقيين: "أنا لا أعرف سوىٰ لغةٍ واحدة، لغةٍ ثوريةٍ واحدة، أتحدَّث بها إلىٰ الشعب، وسأتحدَّث بها إلىٰ الحلفاء والألمان". جاءت تقارير الصحف عن هذه الخطبة لتُسَجِّل تصفيقًا حادًا طويلًا عند هذه العبارة. لم تنتهِ علاقتي بالسيرك الحديث إلا حين انتقلت إلىٰ موسكو في فبراير.

الفصل الخامس والعشرون

حول الأكاذيب

حين وصلت إلىٰ بتروجراد في الأيام الأولىٰ من مايو 1917، كانت الحملة بخصوص "العربة المُغلَقة"، التي أقلَّت لينين في طريقه عبر ألمانيا، في أوجها. وكان الوزراء الاشتراكيون الجدد متحالفين وقتذاك مع لويد جورج، الذي رفض السماح للينين بالعبور إلىٰ روسيا. نفس هؤلاء السادة كانوا يطاردون لينين بسبب مروره عبر ألمانيا. أما بالنسبة لي، فقد زوَّدت رحلة عودتي إلىٰ روسيا لينين بدليلٍ في صالحه ضد هذه التهمة، لكن ذلك لم يحمني من نفس الكذب والافتراء، وبوكانان هو أول من بدأ هذه الحملة. وفي خطابٍ مفتوح لوزير الشئون الخارجية (في مايو لم يكن ميليوكوف بعد، بل تيريشينكو)، قدَّمت وصفًا دقيقًا لرحلتي الطويلة عبر الأطلسي، خاتمًا الخطاب بالسؤال التالي: "السيد الوزير، هل تظن أن في صالح إنجلترا أن يمثلها هذا الرجل الذي وَصَمَ نفسه بالعار من خلال مثل هٰذه الافتراءات الوقحة؟".

لم أتلق أي ردٍ علىٰ هذا الخطاب، ولم أتوقَّع ذلك قط. لكن صحيفة ميليوكوف ما انفكت تدافع عن سفير الدولة الحليفة، وردَّدت نفس الاتهامات بالنيابةِ عنه. وشرعت أنا في التنديد بهؤلاء الكاذبين بشكلٍ رسميٍ بقدر المُستطاع. كان المؤتمر الأول لسوفييتات عامة

روسيا منعقدًا بالفعل في تلك الأيام. في 5 يونيو، عجَّت القاعة بالناسِ عن آخرها. وفي خضم الاجتماع، نهضت لألقي خطبةً سريعة، نقلتها صحيفة جوركي، التي كانت مُعادية للبلاشفة، في اليومِ التالي، لتسرد ما ختمتها به، وكذلك المشهد ككل، علىٰ النحو التالي:

"يتهمنا ميليوكوف بالعمالة المأجورة للحكومة الألمانية. ومن منصةِ الديمقراطيةِ الثوريةِ هذه، أطلب من الصحافة الروسية الشريفة (الآن يتوجه تروتسكي إلىٰ طاولة الصحفيين) نقل كلماتي هذه بالضبط كما أقولها: حتىٰ يسحب ميليوكوف هذا الاتهام، يظل وصم الافتراء المخزي علىٰ جبهته".

"نضحت خطبة تروتسكي بالقوة والمهابة، وقوبلت باحتفاءٍ من كافة الحضور، فاجتاحت المؤتمر عاصفةٌ من التصفيق لعدة دقائق".

تخيَّلوا هذا المشهد في وقتٍ كان تسعة أعشار المؤتمر، في حقيقةِ الأمرِ، أندادًا لنا. لكن هذا النجاح، كما أثبتت الأحداث اللاحقة، لم يكن سوىٰ لحظةٍ عابرة. كانت هذه إحدىٰ المفارقات الغريبة للبرلمانية. في اليومِ التالي، حاولت صحيفة ريك (الخطاب) التقاط طرفِ الخيط بنشرِ بيانٍ يزعم أن الألماني الوطني فيرين قد وهبني 10 آلاف دولار بغية الإطاحة بالحكومة المؤقتة. هذا كان علىٰ الأقل كلامًا واضحًا وصريحًا. لكن، لابد أن أوضح هنا أنني، قبل يومينِ من

رحيلي إلىٰ أوروبا، عقد العمال الألمان في نيويورك، ممن كنت حاضرت لهم مراتٍ عديدة، سويًا مع بعض الأصدقاء الأمريكيين والروس واللاتفيين واليهود والليتوانيين والفنلنديين، اجتماعًا لتوديعي جمعوا فيه مبلغًا من المال كمساهمةٍ منهم للثورة الروسية. كل ما جمعوه كان 310 دولار، 100 منهم ساهم بها العمال الألمان وحدهم. قسَّمت الـ310 دولار علىٰ خمسة مهاجرين كانوا يُخطِّطون للعودة إلىٰ روسيا وكاد العوز يجبرهم علىٰ إلغاء رحلتهم. هذا هو تاريخ الـ10 آلاف دولار. رويت هذه القصة في صحيفة جوركي (نوفايا جيزن)، في 27 يونيو، واختتمت مقالتي بهذه الكلمات:

"لتصحيح الأمور تحسُّبًا لما يمكن أن يطرأ في المستقبل، أعتقد أن من الواجب عليّ أن أذكر، ردًا علىٰ الكاذبين والمفترين ومحرري الكاديت[54] وغيرهم من الأوغاد، أن في حياتي بأسرها لم أحظ قط بمثل هذا المبلغ، ولا حتىٰ عُشره، دُفعةً واحدة تحت تصرُّفي. أخشىٰ أن يدمِّر هذا الاعتراف سمعتي لدىٰ حزب الكاديت أكثر مما فعلت وَسوَسات وافتراءات البروفيسور ميليوكوف، لكنني تصالحت منذ زمنٍ مديد مع فكرة العيش دون تصديق البرجوازية الليبرالية".

---

[54] الحزب الديمقراطي الدستوري الذي أسَّسه البروفيسور ميليوكوف، وكلمة كاديت ترادف "ليبرالي" باللغة الروسية.

بعد ذلك، خفتت قصص الافتراءات المُختلقة وتوارت إلىٰ حدٍ كبير. وقمت بجمع كل ما يتعلَّق بالرد علىٰ هذه الحملة في كراسٍ بعنوان "إلىٰ الكاذبين"، وأرسلته للمطبعة في حينها. بعدها بأسبوعٍ واحد، كانت أيام يوليو تخيِّم بظلالها علينا، وفي 23 يوليو زجَّت الحكومة الانتقالية بي في السجن بتهمة العمل في خدمة القيصر الألماني. جرت التحقيقات علىٰ يدِ وكلاءٍ وقضاةٍ تمرَّسوا في ظل نظامِ القيصر. لم يعتد هؤلاء علىٰ التعامل مع الحقائق، أو مع الأمورِ الشائكةِ، بضميرٍ وأمانة. كانت تلك حقًا أوقاتًا هائجةً تموج بالاضطرابات. وحين علمت ما في يدِ النيابة من مستنداتٍ ووثائق، وقفت أمام هذا الغباء البائس، وانتابني شعورٌ بالسخريةِ الممزوجة بالسخط من خسةِ ووضاعةِ الاتهامِ نفسه، ومن ثم كتبت في محضر التحقيق الأوَّلي، في 1 سبتمبر، ما يلي:

"علىٰ خلفية أن المستند الأول الذي قدَّمه العرِّيف يرموليينكو، والذي تسبَّبَ في ملاحقتي وحزبي، تلك الملاحقة التي جرت بمساعدة أعضاء إدارة العدل، هو بلا شكٍ مستندٌ مُفبركٌ عمدًا، ليس بغرض توضيح القضية، بل إضفاء الغموضِ عليها بخبثٍ مُبيَّت ومقصود، وأيضًا في ضوء تجاهل محقق المحكمة، م. أليكساندروف، الظروف والأسئلة الأهم فيما يتعلَّق بالمستند، الذي يكفي مجرد فحصه لكشف زيف الدليل المُقدَّم ضدي من يرموليينكو، هذا الشخص

الذي لا أعرفه أصلًا، في ضوءِ كل ذلك، فإنني أعتبر من الانحطاط الأخلاقي والسياسي أن أخضع لإجراءاتِ هذا التحقيق، وسأحتفظ بحقي في فضح مغزىٰ هذا الاتهام علنًا أمام الجميع بكل وسيلةٍ ممكنة".

سرعان ما ذاب هذا الاتهام في بحرِ الأحداث الجِسام التي ابتلعت ليس فقط المُحققين، بل روسيا بأسرها، بأبطالها "الجدد" من أمثال كرينسكي.

لم أرغب بعدها في العودة إلىٰ هذا الموضوع، بل ألقيته وراء ظهري دون اكتراث. لكن ثمة كاتب التقطه مرةً أخرىٰ ليبث الروح في جثة الافتراء القديم. هذا الكاتب هو كرينسكي. في العام 1928، أي بعد أحد عشر عامًا من المجريات الثورية التي رفعته فجأة إلىٰ القمة ومن ثم أطاحت به إلىٰ حيث يجب أن يكون، يعود كرينسكي ليؤكد أن لينين وغيره من البلاشفة كانوا عملاءً للحكومة الألمانية، وكانوا علىٰ اتصالٍ بهيئة الأركان الألمانية، وتلقوا منها مبالغ كبيرة من المال لتنفيذ مخططاتها وتعليماتها السرية لإلحاق الهزيمة بالجيش الروسي وتمزيق الدولة الروسية. كتب كل ذلك بتفصيلٍ دقيق في كتابه المسلي "الكارثة". كنت قد بلورت وجهة نظري في منزلة كرينسكي الفكرية والأخلاقية استنادًا إلىٰ أحداث العام 1917، لكن لم يطرأ علىٰ بالي قط خلال تلك الفترة الفاصلة، بعد كل تلك المياه التي جرت في النهر، أن تسمح له وقاحته بتكرار هذا الاتهام مرةً أخرىٰ. وهذا بالضبط ما حدث.

كتب كرينسكي: "إن خيانة لينين لروسيا، في أكثر اللحظاتِ حسمًا أثناء الحرب، لهي حقيقةٌ شاخصة لا سبيل للشكِ إليها". مَن ذلك إذن الذي قدَّم الأدلة التي "لا سبيل للشكِ إليها" ومتىٰ؟ يبدأ كرينسكي بحكايةٍ، غارقةٍ حتىٰ أنفها في الادعاءات المتغطرسة، حول أساليب هيئة الأركان الألمانية في تجنيد العملاء من بين الأسرىٰ الروس واختراقهم للجيش الروسي للتجسُّسِ عليه من الداخل. أحد هؤلاء الجواسيس سلَّم نفسه لكرينسكي ليخبره بنظامِ التجسُّسِ من الألف إلىٰ الياء. لكن، كما ذكر كرينسكي بأسلوبٍ يفوح يأسًا، فإن: "كل ما أفصح به لم يكن ذا أهمية خاصة". وحتىٰ من خلال سرده بنفسه، يبدو الأمر وكأن ثمة مغامرًا تافهًا يحاول اقتياده من قرنيه إلىٰ مسارٍ معين. هل لهذه الواقعة أي صلةٍ بلينين أو بالبلاشفة بشكلٍ عام؟ كلا، علىٰ الإطلاق. ناهيكم عن أن هذه الواقعة، كما يقر كرينسكي نفسه، ليست ذات أهمية. إذن، لماذا يخبرنا بها في هذا الكتاب؟ الإجابة بسيطة، وهي أنه أراد أن يحشو روايته وأن يجعل ما يلي من تفاصيل أكثر أهمية. كل ما أراده كرينسكي هو أن يقود القارئ من قرنيه، تمامًا كما أراد مخبره أن يفعل معه.

نعم. الواقعة الأولىٰ، كما يقول، لم تكن ذات أهمية، لكنه ينتقل بعد ذلك إلىٰ معلوماتٍ "ذات قيمةٍ كبيرة" كانوا قد تلقوها من مصدرٍ آخر، وهذه المعلومات قد "أثبتت بما لا يدع أي مجالٍ للشك أن البلاشفة كانوا علىٰ صلةٍ بهيئة الأركان الألمانية". رجاء الانتباه لعبارة

"بما لا يدع أي مجالٍ للشك". يستطرد بعد ذلك قائلًا أن: "طرق ووسائل الاتصال ربما تكون قد أُقيمَت بالفعل". ربما تكون؟ يبدو هذا مريبًا، بل مشكوكًا فيه. هل أُقيمَت بالفعل؟ سنعرف ذلك الآن توًا. لنتحلَّىٰ فقط بقليلٍ من الصبر، فقد استغرق الأمر أحد عشر عامًا لتنضج هذه الفضائح في أعماقِ روحِ من اختلقها.

"في أبريل، جاء ضابطٌ شابٌ يُدعىٰ يارمولييكو إلىٰ الجنرال أليكسييف في المقر". سبق وأن سمعنا هذا الاسم. نعم، إنه العنصر الحاسم في كل هذا الشأن. لكن ما يجدر بي ملاحظته هنا أيضًا هو أن كرينسكي لا يعرف كيف يكون دقيقًا، حتىٰ وإن استهدف ذلك وبذل ما في وسعه لأجله؛ فهذا المحتال التافه الذي يستحضره علىٰ الساحة ليس "يارمولييكو"، بل "يرمولييكو"[55]. هذا علىٰ الأقل هو الاسم الذي أدرجه محققو السيد كرينسكي في المحكمة.

كان العرِّيف يرمولييكو (الذي يشير إليه كرينسكي بغموضٍ بالغ بصفته ضابط) قد قدَّم نفسه في المقر كعميلٍ ألماني مُتنكِّر لكشف العملاء الألمان الحقيقيين. أما الدليل الذي قدَّمه هذا الوطني العظيم، الذي اعتبرته حتىٰ الصحافة البرجوازية نفسها – شديدة العداء للبلاشفة – شخصًا مريبًا ومشتبه فيه، فقد أثبت بشكلٍ قاطعٍ ونهائي أن لينين ليس واحدًا من أعظم الشخصيات في التاريخ، بل عميلًا مأجورًا

[55] في الأبجدية الروسية، تُمثِّل الإدغامتان "يا" و"يي" بالحرفين "R" و"E" على التوالي.

للودندورف. كيف استطاع العرِّيف يرموليينكو كشف هذا السر؟ وما هي الأدلة التي أرسلها ليأسر بها عقل كرينسكي هكذا؟ تلقىٰ يرموليينكو، وفقًا لشهادته، تعليماتٍ من هيئة الأركان الألمانية لشنّ حملةٍ دعائيةٍ انفصالية في أوكرانيا. وإزاء ذلك، يقول كرينسكي أنه: "تلقىٰ كل المعلومات الضرورية (!) التي تخص طرق ووسائل الاتصال ببعض ممثلي هيئة الأركان الألمانية الكبار (!)، والتي تتعلَّق بالبنوك (!) التي تمنح الأموال اللازمة لهذه المهام، وكذلك أسماء أهم العملاء التي تضمنت الكثير من الانفصاليين الأوكرانيين ولينين".

كل هذا مكتوبٌ في صفحتي 295 و296 من المُؤلَّف العظيم الذي نحن بصدده الآن. علىٰ الأقل عرفنا بذلك كيف تتعامل هيئة الأركان الألمانية مع جواسيسها وعملائها، فحين وجدت عرَّيفًا مجهولًا نصفَ مُتعلِّمٍ مُرشَّحًا للمهام الجاسوسية، لم تضعه - مثلًا - تحت رقابة ضابطٍ صغير في وكالة الاستخبارات، بل فتحت له علىٰ الفور باب التواصل مع "ممثلي هيئة الأركان الكبار"، وعرَّفته علىٰ الفور أيضًا بشبكة العملاء الألمان، حتىٰ أنها قدَّمت له قائمة بالبنوك - ليس بنكًا واحدًا، بل البنوك كلها - التي تمنح التمويل الألماني السري. قل ما تشاء، لكنك لن تستطيع تبديد الانطباع بأن هيئة الأركان الألمانية قد تصرَّفَت بغباءٍ منقطع النظير. إلا أن هذا الانطباع يتولَّد نتيجة رؤية هيئة الأركان الألمانية علىٰ غير ما تبدو عليه في الحقيقة، بل كما صوَّرها لنا العرِّيفان الاثنان - العرِّيف العسكري يرموليينكو

والعرِّيف السياسي كرينسكي - بعد أن تقمَّصا شخصيتيّ ماكس وموريس في قصص المقالب الألمانية الشهيرة.

لكن، علىٰ الرغم من كونه مجهولًا، ومعدومَ الذكاء، وذا رتبةٍ متواضعة، هل تمكَّن يِرموليينكو حقًا من الوصول إلىٰ مرتبةٍ رفيعة في نظام الجاسوسية الألماني؟ هذا ما يود كرينسكي إقناعنا به. لكننا لم نحظ فقط بكتاب كرينسكي، بل ومصادره أيضًا. يِرموليينكو نفسه أبسط كثيرًا من كرينسكي. وفي دليله، الذي قدَّمه بصبغةٍ من الطيش المغامر الغبي، يقول يِرموليينكو أن هيئة الأركان الألمانية منحته 1500 روبل - بالقيمة الزهيدة التي كان عليها الروبل في تلك الأيام - لتغطية النفقات الضرورية من أجل انفصال أوكرانيا والإطاحة بكرينسكي. كما أضاف بوضوحٍ في دليله أنه تذمَّرَ ساخطًا من بخل الألمان، لكن شكواه ذهبت أدراج الرياح. "كيف تدفعون هذا المبلغ الزهيد؟"، هكذا احتج يِرموليينكو، لكن "ممثلي هيئة الأركان الكبار" صمّوا آذانهم عن التماساته المُتكرِّرة. لكنه لم يخبرنا ما إذا كان قد تفاوض علىٰ المبلغ مع لوندندورف، أم هايندنبرج، أم ولي العهد، أم القيصر شخصيًا!

امتنع بعنادٍ عن ذكر أسماء هؤلاء السادة "الكبار" الذين دفعوا له 1500 روبل لكسر روسيا، ولنفقات السفر، وللتبغ والخمر. أغلب الظن أنه أنفق أغلب المال علىٰ الخمر، وحين تبخَّرَ المال الألماني من جيبه، لم يلجأ إلىٰ البنوك التي أخبروه بها في برلين، بل قدَّم نفسه

بشجاعةٍ لمقر الأركان العامة الروسية لتلقي المساعدة الوطنية في محنته المادية.

ومن المُحتَمَل أنه، في طريقه إلىٰ هناك، صادفه ضابطٌ في المخابرات الروسية منخرطٌ في عمليات ملاحقة البلاشفة، وربما ألهمته هذه المصادفة بتقديم الأدلة. ونتيجةً لذلك، تولَّدَت وجهتا نظر، إن جاز التعبير، في عقله متواضع الذكاء: من ناحيةٍ، لم يتحمَّل إحساسه بالإهانة من الضابط الألماني الذي ألقىٰ له بالـ1500 روبل دون كوبيك واحد إضافي. ومن ناحيةٍ أخرىٰ، لم ينس قط أنه قد تعرَّف، من خلال "ممثلي هيئة الأركان الألمانية الكبار" علىٰ شبكة التجسس الألمانية بأسرها، بما يتضمَّن عملاءها وبنوكها.

ومن هم إذن "الكثير من الانفصاليين الأوكرانيين" الذين كشفهم يرمولينكو لكرينسكي؟ المثير للدهشة أن كرينسكي لم يذكر شيئًا يخص هذا الشأن في كتابه. ولزيادة طينة أكاذيب يرمولينكو المؤسفة بلة، يضيف إليها كرينسكي بعضًا من افتراءاته. وفقًا لشهادته، كان الانفصالي الأوكراني الوحيد الذي ذكره هو سكوروبيس إيولتوخوفسكي. لكن كرينسكي لم يذكر هذا الاسم حتىٰ؛ إذ كان ذكره في حد ذاته ليجبره علىٰ الاعتراف بأن يرمولينكو لم يبح له بأي شيء. بينما لم يكن اسم إيولتوخوفسكي سرًا علىٰ أحد، فخلال الحرب ذكرته الصحف مراتٍ عديدة. وهو نفسه لم يُخفِ اتصاله بهيئة الأركان الألمانية.

في ناش سلوفو الباريسية، كنت قد ندَّدت في أواخر العام 1914 بمجموعة صغيرة من الأوكرانيين الانفصاليين تعاونت مع السلطات العسكرية الألمانية. ذكرت أسماءهم جميعًا، بمن فيهم إيولتوخوفسكي. لكن يرموليينكو لم يذكر "الانفصاليين الأوكرانيين" فقط، بل لينين أيضًا. لماذا ذكر الانفصاليين الأوكرانيين؟ ربما يبرِّرون ذلك بأنه أُرسِلَ بنفسه لشن حملةٍ دعائية انفصالية في أوكرانيا. لكن لماذا إذن ذكر اسم لينين في ذلك؟ لم يُقدِّم كرينسكي أية إجابة علىٰ ذلك، ولا جملة عابرة حتىٰ.

يستحضر يرموليينكو اسم لينين عبثًا دون أي صلةٍ له بالموضوع. أخبرنا الرجل الذي ألهم كرينسكي كيف جُنِّدَ كجاسوسٍ ألماني مأجور لخدمة أهدافٍ "وطنية"، وكيف طالب بزيادةٍ في "أجره السري" (1500 روبل في زمنِ الحرب)، وكيف أطلعوه علىٰ مهامه المستقبلية، كالتجسُّس وتفجير الجسور وخلافه. ثم، وفقًا لشهادته - التي لا تمت بصلةٍ لما كان يرويه من قبل - أنه عَرِفَ (مِن مَن؟) أنه سيعمل في روسيا، لكن "ليس وحده"، وأن "لينين وأتباعه يعملون في نفس الاتجاه هناك". هذا هو النص الحرفي لشهادته. يبدو أن هذا العميل الصغير، الذي تتلخَّص مهمته في تفجير الجسور، قد أُقحِمَ، لسببٍ غير عملي، في العلاقة بين لينين ولودندورف. وفجأة، يضيف يرموليينكو إلىٰ دليله، المنفصل تمامًا عن بقية قصته، ويبدو واضحًا أن هذه الإضافة بدفعٍ من شخصٍ آخر: "عَرِفت (مِن مَن؟) أن لينين

شارك في مؤتمرٍ في برلين (مع ممثلين من هيئة الأركان الألمانية)، وعرفت لاحقًا بنفسي أنه بات في منزل سكوروبيس إيولتوخوفسكي".
هذا هو كل شيء، ولا كلمة واحدة تُفسِّر كيف اكتشف أيًا من ذلك.

لم يُبدِ محقق المحكمة، أليكساندروف، أدنىٰ قدرٍ من الاهتمام بهذا المقطع من شهادة يرمولينكو. لم يسأله حتىٰ أبسط الأسئلة التي يمكن أن تتبادر إلىٰ الذهن؛ كيف اكتشف أن لينين في برلين خلال الحرب وأنه بات في منزلِ سكوروبيس إيولتوخوفسكي؟ أو ربما سأله أليكساندروف هذا السؤال بالفعل حين لم يجد بُدًا من ذلك، لكنه تلقىٰ إجابةً مُشوَّشةً كخوار بهيمة، فقرَّرَ ألا يُدرِج هذا الجزء من الشهادة من الأصل. أيُّ أحمقٍ هذا الذي يُصدِّق حكاية الديك والثور هذه؟ يبدو أن هناك من يسمون أنفسهم "رجال دولة" لا يصدقونها فحسب، بل يدعون القراء لتصديقها أيضًا.

هل هذا هو كل شيء؟ نعم. لم يكن لدىٰ العرِّيف العسكري المزيد ليبوح به، والعرِّيف السياسي لم يكن لديه هو الآخر سوىٰ فرضياتٍ وتخمينات. لنتابعه إذن حتىٰ ينتهي. يقول كرينسكي: "وجدت الحكومة الانتقالية نفسها في مواجهة مشكلة كبيرة، حيث أفضت التحقيقات في الموضوعات التي أثارها يرمولينكو، واقتفاء آثار العملاء الذين ظلوا يجيئون ويروحون بين لينين ولودندورف، إلىٰ أن شاهدناهم مُتَلَبِّسين بما ارتكبوه من جرائم".

نسج كرينسكي هذه الجملة الرنَّانة من خيطَين أساسيين: الكذب والخِسة. هذه كانت المرة الأولىٰ التي يُذكَر فيها اسم لودندورف، بينما لم يذكر يرموليينكو، ذو العقل المتواضع والذكاء شبه المنعدم، ولا حتىٰ اسم ألماني واحد في شهادته. يتحدَّث كرينسكي بغموضٍ مقصود عن العملاء الذي جاءوا وراحوا بين لينين ولودندورف. من ناحيةٍ، يبدو الأمر وكأن هؤلاء العملاء معروفون بالفعل ولم يكن يتبقىٰ إلا الإمساك بهم مُتَلَبِّسين بجريمتهم، ومن ناحيةٍ أخرىٰ يبدو أن كرينسكي لديه فكرة أفلاطونية عن العملاء في ذهنه. إذا كان ينتوي "اقتفاء آثار العملاء"، فمشكلته هي اقتفاء آثار مجهولة تمامًا. ومن خلال الحيل اللفظية التي يستخدمها، لم يكشف أخيل إلا عن كعبه، أو بالأحرىٰ، إذا استخدمنا لغةً أقل كلاسيكية؛ لم يكشف الحمار إلا عن حافره.

وفقًا لكرينسكي، جرت التحقيقات في سريةٍ تامة إلىٰ درجة أن أحدًا لم يعرف عنها شيئًا سوىٰ أربعة وزراءٍ فقط، وحتىٰ وزير العدل، بيريفيرزيف، لم يخبره أحدٌ عنها. لابد أن هذا هو المعنىٰ الحقيقي الذي يتصوَّره "رجل الدولة" عمَّا يجب أن تكون عليه الأمور. وبينما كانت هيئة الأركان الألمانية تكشف أمام الجميع ليس فقط أسماء بنوكها الموثوقة، بل حتىٰ اتصالاتها بقيادات أعظم حزبٍ ثوريٍ في العالم، عَمَدَ كرينسكي إلىٰ فعل العكس تمامًا من ذلك؛ فبالإضافة إليه

هو نفسه، أباح السر فقط لثلاثةِ وزراء رأىٰ فيهم ما يكفي من الكفاءة والشدة لاقتفاء آثار عملاء لودندورف.

"كانت المهمة صعبة للغاية، كانت معقدةً ومتشابكة". هكذا جاءت الشكوىٰ المريرة علىٰ لسان كرينسكي. إلىٰ هذا الحد يمكننا تصديق الأمر. لكن جهوده الوطنية المخلصة تُوِجَت في النهاية بالنجاح. يقول كرينسكي: "نجاحنا علىٰ أيةِ حال كان ماحقًا للينين الذي تأسست صلاته بألمانيا بما لا يدع مجالًا للشك".

لنتذكر هنا عبارة "بما لا يدع مجالًا للشك".

كيف ومن أسسها؟ عند هذه النقطة، يضيف كرينسكي إلىٰ روايته البوليسية اثنين من أشهر الثوريين البولنديين، جانتسكي وكوزلوفسكي، علاوة علىٰ السيدة سومنسون، التي لم يُقدِّم أحدٌ عنها أية معلومات، بل أن وجودها غير مُثبَت من الأصل. ومن المزعوم أن هؤلاء الثلاثة هم عملاء الاتصال المُشار إليهم. علىٰ أيِ أساسٍ إذن يتهم كرينسكي كوزلوفسكي، الراحل عن عالمنا الآن، وجانتسكي، الذي لا يزال حيًا، بالوساطة بين لودندورف ولينين؟ ما مِن معلوماتٍ علىٰ الإطلاق في هذا الشأن، حتىٰ يرموليينكو لم ينطق هذه الأسماء قط، تلك الأسماء التي تظهر فجأة علىٰ صفحات كتاب كرينسكي تمامًا كما ظهرت من قبل فجأة أيضًا في الصحف أيام يوليو 1917.

ها هي رواية كرينسكي بنفسه: "كان العميل البلشفي الألماني من ستوكهولم، ذلك الذي كان يحمل معه وثائق تثبت بلا جدال علاقة لينين بالقيادة العليا الألمانية، ليُلقىٰ القبض عليه علىٰ الحدود الروسية السويدية. هذه الوثائق كانت معروفة لنا، حرفيًا".

اتضح أن هذا العميل كان جانتسكي. والآن بات جليًا أن جهود الوزراء الأربعة، الذين كان كرينسكي أكثرهم حكمة بطبيعة الحال، لم تذهب أدراج الرياح؛ فالعميل البلشفي من ستوكهولم كان يحمل معه وثائق معروفة مسبقًا (معروفة "حرفيًا") لكرينسكي، وثائق تتضمَّن دليلًا مُؤكَّدًا علىٰ عمالة لينين للودندورف. لكن لماذا لا يشاركنا كرينسكي سر هذه الوثائق؟ لماذا لا يلقي ولو ضوءًا خاطفًا، ولو حتىٰ ببضع كلماتٍ فقط، علىٰ محتواها؟ لماذا لا يكشف، أو حتىٰ يلمِّح، عن الوسيلة التي عرف بها ما تتضمَّنه هذه الوثائق؟ لماذا لا يُفسِّر هدف العميل البلشفي من حمل وثائقٍ تثبت عمالة البلاشفة لألمانيا؟ لا ينطق كرينسكي ببنت شفةٍ في هذا الصدد علىٰ الإطلاق. مرة أخرىٰ نتساءل: أيُ أحمقٍ هذا الذي يُصدِّقه؟

لكن ما اتضح هو أن عميل ستوكهولم هذا لم يُلق القبض عليه قط، والوثائق المعروفة لدىٰ كرينسكي "حرفيًا" في 1917 بينما لا تزال غير معروفة لقرَّائه في 1928 لم تقع بين يديه قط هي الأخرىٰ. كان العميل البلشفي يتقدَّم نحو الحدود السويدية، لكن لم يصل إليها. لماذا؟ لأن وزير العدل، بيريفييرزيف، الذي لم يتمكَّن من اقتفاء أثر

العميل، سرعان ما أباح بسر بيرموليينكو العظيم مُبكِّرًا، بينما كان النجاح قريبًا وسهلًا للغاية!

"شهران من جهود الحكومة الانتقالية (بالأساس من قِبَل تيريتشينكو) بغية فضح المكائد البلشفية انتهيا بالفشل". نعم، هذه هي كلمات كرينسكي بالحرف الواحد: "انتهيا بالفشل". في صفحةٍ سابقة كان يقول: "نجاحنا علىٰ أيةِ حال كان ماحقًا للينين"، وأن صلاته مع لودندورف قد "تأسست بما لا يدع مجالًا للشك"، والآن نقرأ "شهران من الجهود انتهيا بالفشل". ألا يبدو كل هذا تهريجًا مريبًا أو علىٰ الأقل مُزحةً تثير الشك؟

لكن برغم الفشل الذي مُنِيَ به الوزراء الأربعة الذين لاحقوا السيدة سومنسون الأسطورية، لم يفقد كرينسكي الأمل، فيعلن بفخرٍ وتباهٍ أن اتصال البلاشفة بلودندورف كان قائمًا: "لا يسعني إلا أن أكرِّر، وأنا في كامل وعيي بمسئوليتي أمام التاريخ، كلمات محامي الادعاء في محكمة بتروجراد الإقليمية". هذه كانت ذروة تصعيده، وهكذا وقف علىٰ المنصةِ في 1928 ليفتن حفنةً من المُتطوِّعين البرجوازيين والضباط الصغار وطلاب المدارس العليا والشابات الديمقراطيات، قائلًا: "في وعيي الكامل بمسئوليتي أمام التاريخ". ها هو العرِّيف السياسي الرائع المُعجز الذي لا مثيل له، النرجسي كرينسكي، بشحمه ولحمه. وبعد بضع صفحاتٍ من هذا القَسَم المهيب، يدلي لنا باعترافٍ قاتلٍ آخر: "نحن، الحكومة الانتقالية، قد

فقدنا بهذا الشكل (!)، وإلىٰ الأبد، إمكانية إثبات خيانة لينين بشكلٍ قاطع، وعلىٰ أساس المواد المُوثَّقة".

"فقدنا للأبد". بعد كل ذلك، لم يعد يتبقىٰ شيءٌ من كل ذلك البناء الذي تأسس علىٰ أكتاف ييرمولينكو إلا كلمة الشرف أمام التاريخ.

لم ينته الأمر عند هذا الحد، فتزييف وخسة كرينسكي يُظهِران نفسيهما بجلاءٍ أكثر في تناوله لقضيتي. في حديثه عن قائمة العملاء الألمان الذين كان من المُفترض القبض عليهم بأوامرٍ منه، يقول بتواضع: "بعد ذلك بأيامٍ قليلة، أُلقيَ القبض علىٰ تروتسكي ولوناتشارسكي". هذا هو الموضع الوحيد الذي اشتملني فيه في نظام الجاسوسية الألماني، ولم يفعل ذلك إلا بضبابيةٍ مُتعمَّدة، دون شرحٍ أو توضيح، حافظًا "كلمة الشرف" التي تفوَّه بها أمام التاريخ. لدىٰ كرينسكي بالطبع ما يكفي من الأسباب لذلك، فلا يمكنه تجنب ذكري عند التحدُّث عن هذا الشأن، إذ ألقت حكومته القبض عليّ بنفس التهمة التي وُجِهت للينين. لكنه لا يريد - ولا يمكنه حتىٰ - الإسهاب في الحديث عن الدليل ضدي، لأن حكومته لم تكشف في قضيتي إلا عن "حافر الحمار"، المُشار إليه سابقًا، علىٰ نحوٍ يثير الدهشة.

كان الدليل الوحيد الذي قدَّمه المُحقِّق أليكساندروف هو الزعم بأنني قد عبرت ألمانيا، مع لينين، في عربةٍ مُغلقة. لم يكن لدىٰ كلب حراسة محاكم القيصر السابق هذا أية فكرة عن أن مَن رافَقَ لينين في

رحلته لم يكن أنا، بل زعيم المناشفة مارتوف، بينما وصلت أنا بعد لينين بشهرٍ كامل، مسافرًا عبر اسكندنافيا بعد مروري بمعسكر اعتقالٍ كندي. امتزجت الاتهامات ضد البلاشفة بمثل هذه الأكاذيب المُبتَذلة والحقيرة التي لم يُكلِّف المتاجرون بها أنفسهم عناء البحث البسيط في الصحف عن وقتِ وصولِ تروتسكي إلىٰ روسيا والطريق الذي سلكه. وقفت أمام مُحقِّق المحكمة، طوّحت بأوراقه القذرة في وجهه، ثم أدرت ظهري له، وأرسلت بعد ذلك تنديدًا شديد اللهجة للحكومة الانتقالية. ويتلخَّص إجرام كرينسكي في حقِ قرائه، علىٰ نحو أوضح وأبهىٰ جلاءً، في فجاجة هذه النقطة، فهو يعلم جيدًا كيف لفَّقت محكمته بشكلٍ مخزٍ ومشين هذه التهمة لي. ولذلك أيضًا، يشملني في نظام الجاسوسية الألماني فقط بشكلٍ عابرٍ، ولا يتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ عن اقتفائه ووزرائه الثلاثة أثري عبر ألمانيا، فقد كنت في ذلك الوقت مُحتجزًا في معكسرِ اعتقالٍ في كندا.

ينتقل هذا الكاذب بعد ذلك إلىٰ التعميم بقوله: "إنْ لم يكن لينين قد حظىٰ بالدعم المادي والتقني الذي قدمه إياه جهاز الدعاية ونظام الجاسوسية الألمانيَّين، لما نجح في تدمير روسيا". إن ما يريده كرينسكي هنا هو إقناع نفسه بأكذوبة أن النظام القديم (وهو علىٰ رأسه بالطبع) قد أُطيحَ به بواسطة الجواسيس الألمان لا الشعب الثائر. يا لها من مواساةٍ بائسةٍ للنفس تلك التي تحمل بين طياتها فلسفةً تاريخيةً تُصوِّر حياة بلدٍ عظيمٍ مثل روسيا لعبةً في يدِ منظمةٍ من الجواسيس

يُحرِّكها بلدٌ آخر! لكن، إذا كانت السلطة الألمانية، كما يتصوَّر، قادرة علىٰ الإطاحة بديمقراطية كرينسكي في أشهرٍ معدودة هكذا، وأن تنزع البلاشفة مكانها بهذا الشكل المُصطنع المقيت، لماذا وكيف إذن فشلت الأجهزة العسكرية والتقنية لدول الوفاق[56] في إسقاط هؤلاء البلاشفة خلال إثنىٰ عشر عامًا؟ دعونا لا نغرق في عوالم الفلسفة التاريخية، بل نلتصق بعالم الحقائق. فيمَ تجسَّد هذا الدعم المالي والتقني من ألمانيا؟ يتجاهل كرينسكي هذا السؤال تمامًا. يُذكر أن بلاشفة بتروجراد، في العام 1917، كانوا يُصدِرون صحيفةً صغيرة، كتلك التي أصدروها قبل الحرب في العام 1912[57]، كانوا يوزعون المنشورات، وكان لديهم مُحرِّضون. بعبارةٍ أخرىٰ؛ كنَّا حزبًا جماهيريًا بالفعل. فيمَ إذن تجسَّد دعم نظام الجاسوسية الألماني؟ لم يرُد كتاب كرينسكي عن هذا السؤال ولو بكلمةٍ واحدة، ماذا عساني أن أقول تعليقًا علىٰ ذلك؟

---

[56] دول الوفاق: دخلت كلٌ من بريطانيا وفرنسا وروسيا في اتحادٍ عسكري ثلاثي في الحربِ العالمية الأولى، فيما عُرِفَ بدول الوفاق الثلاثي، ضد تحالف ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية والدولة العثمانية ومملكة بلغاريا، قبل أن تتوسع هذه التحالفات وتضم دولًا أخرى. (المترجم)

57 المقصود هنا صحيفة البرافدا البلشفية اليومية التي صدرت بثمانية أسماء (بالحفاظ على كلمة "برافدا – الحقيقة" في كلِ مرة) لتجنب ملاحقة السلطات، في الفترة من 22 أبريل 1912 حتى 8 يوليو 1914 (645 عدد)، ثم عاودت الصدور بعد إسقاط القيصر في 1917. (المترجم)

تفحَّصنا في السطور أعلاه دلائل كرينسكي "أمام التاريخ"، كابتين اشمئزازنا، لاجئين إلىٰ السخريةِ التي أحيانًا ما تغدو ضرورية كالليمون اللاذع مع دوار البحر. لم نتجاهل جدالًا ولا اعتبارًا واحدًا، رغم الشك الذي ظل يساورنا؛ ما إذا كان من المجدي إضرام النار في هذه القمامة. لا يزال لودندورف وهايندنبرج، وغيرهم من هيئة الأركان الألمانية، أحياءً يُرزقون، وهؤلاء جميعًا أعداءٌ للبلاشفة. ما الذي يمنعهم من إفشاء الأسرار القديمة؟ والسلطة الآن في ألمانيا في يدِ الاشتراكية الديمقراطية، التي يمكنها بسهولة الاطلاع علىٰ الأراشيف القديمة. إذا كان لودندورف لم يُخفِ صلته بلينين عن يرموليينكو، فلابد أن يكون هناك الكثيرون في ألمانيا يعرفون علىٰ الأقل ما أُبيح به للعرِّيف الروسي. لماذا يظل كل هؤلاء الأعداء الألداء للبلاشفة وثورة أكتوبر صامتين؟

صحيحٌ أن كرينسكي يستعين ببعضٍ من مذكرات لودندورف، لكن الحقيقة الواحدة التي يستدعيها من هذه المذكرات هي أن لودندورف كان يتمنىٰ أن تؤدي الثورة في روسيا إلىٰ تفكيك الجيش الروسي - ثورة فبراير في بادئ الأمر، ثم ثورة أكتوبر لاحقًا. لم يكن هناك من داعٍ للكشف عن هذا المُخطَّط، فسماح لودندورف لمجموعة من الثوريين الروس بالمرور عبر ألمانيا كان كافيًا وزيادة. بالنسبة للودندورف، كانت تلك مغامرة فَرَضَها عليه الوضع البائس للجيش الألماني. أما لينين، فقد استفاد من خطط لودندورف ومدَّ

الأمر علىٰ استقامته هو. كان لودندورف يقول لنفسه: "سيطيح لينين بالوطنيين الروس، وبعدها سأخنقه هو وأصدقائه"، أما لينين: "سأعبر في عربة لودندورف، لكنني سأرد له هذا الجَميل بطريقتي الخاصة".

لم تكن هذه المواهب المباحثية التي أظهرها كرينسكي ضرورية هكذا لإثبات أن هذين المخططَين التاريخيَين يتقاطعان في نقطةٍ مُحدَّدَة، وأن هذه النقطة هي "العربة المُغلَقة". والتاريخ ليس إلا سلسلة من الحقائق المتصلة، وبالتالي فإن لديه ما يكفي من الوقت للتحقُّق من التقديرات والحسابات والتخمينات علىٰ حدٍّ سواء. في 25 أكتوبر (7 نوفمبر)، استولىٰ البلاشفة علىٰ السلطة، وبعد عامٍ واحدٍ بالتمام والكمال، تحرَّكت الجماهير الألمانية بإلهامٍ من الثورة الروسية للإطاحة بلودندورف وأسياده. وبعد عشرة أعوام، حاول هذا الديمقراطي النرجسي بث الروحِ في أكاذيبه التافهة افتراءً وبهتانًا – ليس ضد لينين، بل ضد أمةٍ عظيمةٍ وثورةٍ عظيمة.

الفصل السادس والعشرون

من يوليو إلى أكتوبر

في 4 يونيو، قرأ البلاشفة إعلانًا كنت قد بعثته بخصوص تجهيزات كرينسكي لشن هجوم علىٰ الجبهة، في مؤتمر السوفييتات. أشرنا إلىٰ أن هذا الهجوم ما هو إلا مغامرة تُهدِّد وجود الجيش نفسه، لكن الحكومة الانتقالية كانت تنتشي بما تلقيه من خطب. ظنَّ الوزراء أن جماهير الجنود، التي أوقدت الثورة نفوسهم، كالصلصال الليِّن يُشكِّلونه كما يريدون. جاب كرينسكي أرجاء الجبهة، أخذ يناشد القوات، ويُهدِّدهم، ويركع علىٰ الأرض ليقبِّل الثرىٰ، بعبارةٍ أخرىٰ؛ كان علىٰ استعداد لفعل أي شيءٍ ممكن إلا أن يحل القضايا التي عذَّبت الجنود. لقد خدع نفسه بأساليبه الرخيصة، وأمر بالهجوم واثقًا من تأييد مؤتمر السوفييتات. وحينما حلَّت الكارثة التي طالما حذَّر البلاشفة منها، صاروا هم أنفسهم أكباشَ فداءٍ لها. طورِدوا بشراسة. أخذت الرجعية، التي كان حزب الكاديت بمثابة درعٍ لها، تضغط من كل اتجاه، تطالب برؤوسنا.

كانت ثقة الجماهير في الحكومة الانتقالية تنهار. وفي هذه المرحلة الثانية من الثورة، جاءت بتروجراد مرة أخرىٰ في الصدارة. في أيام يوليو، اندفعت هذه الطليعة في صدامٍ مفتوح مع حكومة كرينسكي، لم تكن تلك انتفاضة بعد، بل فقط اختبارًا هامًا تعمَّق أكثر فأكثر. لكن

بات من الواضح في تلك الأيام أن ما من جيشٍ "ديمقراطي" وراء كرينسكي، وأن القوىٰ التي ساندته ضدنا كانت قوىٰ مضادة للثورة.

وخلال الجلسة التي عُقِدَت في قصر توريد في 3 يوليو، علمت بمظاهرة فوج المدافع الرشاشة ودعوتها للقوات الأخرىٰ ولعمال المصانع. جاء النبأ مفاجئًا لي. ورغم عفوية المظاهرة بمبادرة من الجماهير، فقد ذهبت إلىٰ أبعد من ذلك بمشاركة حزبنا فيها. اكتَظَّ قصر توريد بجماهيرٍ لم يكن لها إلا شعارٌ واحد: "السلطة للسوفييتات".

وفي الجهة الأمامية من القصر، اختفطت مجموعةٌ مشبوهةٌ من الرجال الذين وقفوا بمنأىٰ عن الحشد وزير الزراعة تشيرنوف، واحتجزوه في سيارة. شاهدت الحشود هذه الواقعة بغير اكتراث علىٰ الإطلاق، فلم يكن لديهم أدنىٰ تعاطف معه. بلغ نبأ اختطاف تشيرنوف، والخطر الذي يُهدِّده، القصر، فقرَّرَ الشعبويون استخدام عرباتهم المصفَّحة ذات المدافع الرشاشة لإنقاذ قائدهم. كان تدهور شعبيتهم يثيرهم غضبًا، وقد أرادوا أن يُظهِروا بعض الحزم. قرَّرتُ أن أحاول الذهاب مع تشيرنوف في السيارة بعيدًا عن الحشود، ربما أتمكَّن من تخليصه بعد ذلك. لكن البلشفي راسكولنيكوف، الملازم في أسطول البلطيق الذي أحضر بحَّارة كرونشتاد إلىٰ المظاهرة، أصر إصرارًا شديدًا علىٰ إطلاق سراح تشيرنوف علىٰ الفور، لمنع الناس من القول أن رجال كرونشتاد هم من قبضوا عليه. قرَّرتُ تحقيق أمنية راسكولنيكوف. سأخلي المجال الآن ليتحدَّث هو بنفسه.

يقول الملازم المتحفِّز في مذكراته أنّ: "من الصعب تحديد إلىٰ متىٰ كانت لتستمر الاضطرابات في صفوف الحشد دون تدخُّل الرفيق تروتسكي الذي قفز أمام السيارة، ملوِّحًا بيده كمن سأم الانتظار في إشارةٍ لإسكات الحشد. هدأ الجميع علىٰ الفور، وخيَّم صمت القبور علىٰ الحشد. وبصوتٍ جهوريٍ واضحٍ ورنَّان، ألقىٰ ليف دافيدوفيتش خطبةً قصيرة انتهت بـ"أولئك الذين يؤيدون استخدام العنف ضد تشيرنوف يرفعون أيديهم". لم يفتح أحدٌ فاهًا. لم ينطق أحدٌ ببنت شفة اعتراضًا علىٰ ذلك، فقال تروتسكي "أيها المواطن تشيرنوف، أنت الآن طليق"، ملتفتًا بجديةٍ إلىٰ وزير الزراعة ملوِّحًا بيده داعيًا إياه للترجُّل من السيارة. كان تشيرنوف نصف حي نصف ميت. ساعدته علىٰ النزول من السيارة، وبوجهٍ مُنهَك يخلو من أي تعابير، وخطواتٍ مُتردِّدةٍ مُرتَجِفَة، سلك طريقه حتىٰ اختفىٰ في قاعات القصر. مشىٰ ليف دافيدوفيتش معه راضيًا بانتصاره".

إذا تجاهلنا النبرة المثيرة للشفقة غير الضرورية، يظل المشهد صحيحًا في وصفه. لكن ما حدث لم يمنع الصحافة المعادية من التأكيد علىٰ أنني اعتقلت تشيرنوف لإعدامه دون محاكمة، بينما ظلَّ تشيرنوف نفسه صامتًا؛ فكيف لوزير "الشعب" أن يعترف بأن ما حدث لم يكن بسبب شعبيته، بل أنه مدينٌ في ذلك لبلشفي تدخَّلَ للحفاظ علىٰ سلامة رأسه؟

طالب وفدٌ بعد الآخر، باسم المتظاهرين، بأن تتولَّىٰ اللجنة التنفيذية السلطة، بينما كان تشخيدزه وتسيرتللي ودان وجوتس يجلسون في رئاسة المجلس كالأصنام، لم يجيبوا الوفود، بدوا مشدوهين شاردة عيونهم في الفراغ، ثم تبادلوا نظراتٍ خفية يملؤها القلق. تحدَّث البلاشفة، واحدٌ بعد الآخر، داعمين وفود العمال والجنود، بينما ظلَّت رئاسة المجلس صامتةً. ماذا كانوا ينتظرون؟ مضت ساعات علىٰ هذا النحو. ثم، في منتصف الليلة، ضجَّت قاعات القصر فجأة بدوي أبواق النصر، فبُعِثت الحياة فجأة في أعضاء الرئاسة كما لو كان تيارٌ كهربائيٌ صعقهم. أفاد شخصٌ أن فوج فولين قد وصل من الجبهة ووضع نفسه تحت إمرة اللجنة التنفيذية المركزية. وهكذا لم تتبق "للديمقراطية" ولا حتىٰ وحدة واحدة من حامية بتروجراد يمكن أن تستند إليها، وهكذا كان عليها أن تنتظر قدوم قوة عسكرية من الجبهة لمساندتها.

بعد ذلك انقلب الموقف بشكلٍ كامل؛ فقد طُرِدَت الوفود ولم يُسمح للبلاشفة بالتحدُّث. كان قادة الديمقراطية يصبون علينا غضبهم خوفًا من انتقام الجماهير. ومن منصة اللجنة التنفيذية أُعلِن عن إجهاض تمرد عسكري من قِبَل القوات الموالية للثورة. أُعلَن البلاشفة كحزبٍ مضاد للثورة. وتسبَّب وصول فوج فولين في كل ذلك. وبعد ثلاثة أشهر ونصف، تعاون هذا الفوج بإخلاصٍ ووفاءٍ شديدين في الإطاحة بحكومة كرينسكي.

قابلت لينين في صباح اليوم التالي. انهارتْ الهجمة التي شنَّتها الجماهير علىٰ الحكومة الانتقالية، فعلَّق لينين قائلًا: "الآن سيطلقون النار علينا واحدًا بعد الآخر. هذا وقتهم". لكنه بالَغَ في تقدير الخصم – ليس سمومه، بل شجاعته وقدرته علىٰ التحرُّك. لم يطلقوا النار علينا واحدًا بعد الآخر، رغم أنهم لم يكونوا بعيدين عن ذلك. كان البلاشفة يتعرَّضون للاعتداءات والقتل في الشوارع. استولىٰ الطلاب العسكريون (اليونكرز) علىٰ قصر كسيشينسكايا ومطابع البرافدا. تناثرت الأوراق علىٰ طول الشارع أمام ورش الطباعة، ومن بين المطبوعات التي تمزقت واحترقت كان كُراسي "إلىٰ الكاذبين". تحوَّل اختبار يوليو إلىٰ معركةٍ من طرفٍ واحد انتصر فيها العدو بسهولة لأننا لم نقاتل. دفع الحزب الثمن غاليًا، واختبأ لينين وزينوفيف جراء الاعتقالات اليومية الواسعة التي طالت البلاشفة، والتي كانت تعقبها اعتداءات شرسة. صادر القوزاق والطلاب العسكريون أموال كل من يعتقلوهم تحت ذريعة أن هذه "أموال ألمانية". أدار الكثير من المتعاطفين وأنصاف الأصدقاء ظهورهم لنا. وفي قصر توريد، أعلنوا أننا معادين للثورة ووقعنا تحت طائلة حظر القانون.

كل هذا بينما كان الوضع في الدوائر القيادية في الحزب سيئًا، إذ كان لينين بعيدًا وبدأ جناح كامينيف يطل برأسه، فيما ترك الكثيرون، من بينهم ستالين، الأحداث ببساطة تأخذ مسارها، لربما يُظهِرون

حكمتهم في الأيام المقبلة. أما الكتلة البلشفية في اللجنة التنفيذية المركزية، فقد صارت يتيمة في قصر توريد.

أرسلت الكتلة البلشفية لي وفدًا يطلب مني أن أتحدَّث إليهم عن الوضع الراهن، رغم أنني لم أكن بعد عضوًا في الحزب، إذ تأجَّل انضمامي حتىٰ مؤتمر الحزب الذي لم يتأخر كثيرًا. وافقت علىٰ الفور بالطبع، وقد أسس حديثي مع الكتلة البلشفية رابطةً أخلاقية من ذلك النوع الذي يتبلور فقط تحت الضربات الأثقل للعدو. قلت لهم أن بعد هذه الأزمة سنكون بصدد تحوُّلٍ سريع، حيث ستلتف الجماهير بضِعف قوتها حولنا وستتجسَّد أمامهم حقيقة دعواتنا بالوقائع، وأن من الضروري أن نرقب كل ثوريٍ حولنا، إذ في مثل هذه الأوقات يُقاس الرجال بمعاييرٍ لا تخطئ. وحتىٰ الآن أتذكَّر بسعادةٍ غامرة الامتنان والدفء الذي أحاطني به هؤلاء الأعضاء حين غادرتهم. وكما كتب مورالوف: "كان لينين بعيدًا، ومن بين الجميع كان تروتسكي فقط هو من رفع رأسه".

إذا كنت قد كتبت هذه المذكرات في ظروفٍ مختلفة – رغمْ أنني في ظروفٍ أخرىٰ لم أكن لأكتبها من الأصل علىٰ الإطلاق – لكنت قد تردَّدت في ذكر الكثير مما قلتُه في هذه الصفحات. لكنني الآن لا يمكن أن أنسىٰ هذه الحملة الواسعة من الأكاذيب وتزييف الماضي التي تعد واحدةً من الأنشطة الرئيسية لرجال الصف الثاني. كان أصدقائي إما في المنفىٰ أو في السجن، وهكذا كان عليّ أن أتحدَّث بنفسي بطريقةٍ لا

ينبغي أن أتحدَّث بها في ظروفٍ أخرىٰ. بالنسبة لي، فالمسألة لا تتعلَّق فقط بالحقائق التاريخية، بل أيضًا بالنضال السياسي الذي لا يزال جاريًا.

كان هذا هو الوقت الذي بدأت فيه صداقتي النضالية الصلبة، وكذلك صداقتي السياسية، مع مورالوف. يتوجَّب عليّ هنا أن أقول بضع كلمات عن هذا الرجل. مورالوف بلشفي قديم خاض ثورة 1905 في موسكو، وأُلقيَ القبض عليه في سيربوخوف، في 1906، في مذبحة المائة السود - التي نفذوها كالمعتاد تحت حماية الشرطة. كان مورالوف عملاقًا، شجاعًا بقدر ما كان طيبًا. وجد نفسه ذات يومٍ، مع آخرين في مبنىٰ إدارة الزيمستفو، تحاصرهم قوات العدو، فخرج من المبنىٰ شاهرًا مسدسه، وسار بحزمٍ نحو الحشد، فتراجعوا قليلًا، لكن قوات الصدام التابعة للمائة السود سدت طريقه، وأخذوا ينبحون ساخرين منه. صاح العملاق آمرًا إياهم "أفسحوا الطريق" دون إبطاء، رافعًا يده بالمسدس. هجم عليه العديد من الرجال، فقتل واحدًا وأصاب آخر، فتراجع الحشد مرة أخرىٰ. وبنفس الخطوات الحازمة، قطع طريقه عبر الحشد ككاسحة ثلوج. ظل مورالوف يسير تجاه موسكو.

استمرت محاكمته عامين، ورغم سُعار الرجعية الذي اكتسح البلاد في تلك الفترة، أصدرت له المحكمة حكمًا بالبراءة. كان خبيرًا زراعيًا بالممارسة، وجنديًا في كتيبة المدرعات خلال الحرب

الإمبريالية، وقائدًا لمعارك أكتوبر في موسكو، وصار بعد الانتصار القائد الأول لمنطقة موسكو العسكرية. كان قائدًا مقدامًا في الحرب الثورية، دومًا علىٰ استعداد، دومًا متميزًا ببساطته لا يتأثَّر بشيء. في عمله كان مثالًا للدأب الذي لا يكل ولا يمل، يُقدِّم النصائح الزراعية، ويحصد الحبوب، وفي أوقات فراغه يُقدِّم الرعاية الطبية للناس وللماشية. في أصعب المواقف كان يشع هدوءًا ودفئًا وثقةً. وبعد انتهاء الحرب، كنَّا نحاول دائمًا قضاء أيام فراغنا سويًا، وقد جمعنا أيضًا حب الصيد. كنَّا نطوف الشمال والجنوب، باحثين عن الدببة والذئاب، أو عن أنواعٍ مختلفةٍ من الطيور. حاليًا يصطاد مورالوف في سيبيريا كانتهازي منفي.

في أيام يوليو 1917، ظل مورالوف رافعًا رأسه، محفِّزًا الكثيرين مِمَّن حوله. في تلك الأيام، كنَّا في أمسِّ الحاجة إلىٰ ضبط النفس لنخطو في أروقة وقاعات قصر توريد دون أن نحني رؤوسنا، في تحدٍ لنظرات الغضب شزرًا، وصرير الأسنان حنقًا، والهمسات التي تبث سمًا، والغمزات والنكزات التي بدا وكأنها تقول "انظروا، انظروا". وما من حنقٍ أكبر مما يكنه ثوريٌّ مدللٌ مختارٌ أحمق حين يبدأ يدرك أن الثورة التي رفعته فجأة إلىٰ القمة علىٰ وشك تهديد امتيازه المؤقت.

في مطعم اللجنة التنفيذية الصغير، كان هناك الشاي وشطائر الخبز الداكن والجبن أو الكافيار الأحمر الذي كان وفيرًا في سمولني، وبعد ذلك في الكرملين. أما في الغداء فكان نصيب كل شخص حساء خضار

مع قطعةٍ من اللحم. كان جنديٌ يُدعىٰ جرافوف مسئولًا عن المطعم. وبينما بلغت الحملة ضد البلاشفة ذروتها، حين أُعلِنَ لينين جاسوسًا ألمانيًا وصار عليه أن يختبئ في كوخ، لاحظت أن جرافوف كان يُقدِّم لي كوبًا أسخن من الشاي، أو شطيرةً أفضل مما يُقدِّم للآخرين، محاولًا خلال ذلك ألا ينظر لي. من الواضح أنه تعاطَفَ مع البلاشفة لكن كان عليه أن يخفي ذلك عن رؤسائه. بدأت أنتبه للأمر أكثر وأكثر، فلم يكن جرافوف وحده، بل طاقم العمل في سمولني برمته؛ الحجباء والمراقبون والسعاة، كانوا مع البلاشفة بشكلٍ لا تخطؤه عين. أحسست وكأننا حقَّقنا نصف انتصار. لكن فقط إلىٰ هذا الحد؛ نصف انتصار.

شنَّت الصحافة حملةً غادرةً مسمومة ضد البلاشفة، لا تضاهيها في ذلك إلا حملة ستالين ضد المعارضة بعد بضع سنوات لاحقة. أدلىٰ لوناتشارسكي في يوليو ببعض التصريحات الغامضة المُلتبسة التي سرعان ما أوَّلتها الصحافة كاستنكارٍ للبلشفية. وأعزت بعض الصحف تصريحاتٍ مشابهة لي أيضًا. وفي 10 يوليو، أرسلت خطابًا للحكومة الانتقالية أقر فيه بأنني علىٰ اتفاقٍ كامل مع لينين، وختمته كالتالي: "لا يمكنكم تبرير إعفائي من المرسوم الذي بموجبه بات لينين وزينوفيف وكامينيف عُرضة للاعتقال. لا يمكنكم تبرير الشك في أنني معارضٌ بشكل لا هوادة فيه للسياسات العامة للحكومة الانتقالية، مثل رفاقي

المذكورين أعلاه"، فتوصَّلَ السادة الوزراء للاستنتاج الطبيعي من هذا الخطاب وألقوا القبض عليّ بتهمة العمالة لألمانيا.

وفي مايو، حينما كان تسيريتللي يطارد البحَّارة ويجرِّد فرق المدافع الرشاشة من أسلحتهم، حذَّرته من أن ربما يومه ليس بعيدًا حين يطلب نجدة البحَّارة من جنرالٍ يلف حبل المشنقة حول رقبة الثورة. وفي أغسطس، تجسَّد هذا الجنرال في شخص كورنيلوف. استغاث تسيريتللي ببحَّارة كرونشتاد الذين لم يرفضوا طلبه، فنزل الطرَّاد أورور في مياه نيفا. كنت لا أزال في سجن كريستي حين شهدت هذا التجسيد الحي الكامل لنبوءتي علىٰ أرض الواقع. بعث بحَّارة أورور وفدًا خاصًا للسجن يطلب نصيحتي؛ هل يتوجَّب عليهم الدفاع عن قصر الشتاء أم يستولون عليه بالقوة؟ نصحتهم بتأجيل حسابهم مع كرينسكي لحين تسوية أمر كورنيلوف[58]. "حقنا لن يفلت منّا".

"لن يفلت؟".

"كلا. لن يفلت".

---

[58] كان بعضٌ من بحَّارة أورور لا يزالون سجناءَ في سجن كريستي، إلى جانب تروتسكي وراسكولنيكوف وغيرهما، لمشاركتهم في مظاهرة يوليو. وتلخَّصَت إجابة تروتسكي، من زنزانته الانفرادية، على وفد بحَّارة أورور الذين جاءوا لزيارته، فيما يلي: "ضعوا البندقية على كتف كرينسكي، وأطلقوا النار على كورنيلوف. وسنسوي الحسابات مع كرينسكي فيما بعد". (ليون تروتسكي: تاريخ الثورة الروسية – الجزء الثاني – ترجمة أكرم ديري والهيثم الأيوبي – المؤسسة العربية للدراسات والنشر). (المترجم)

وبينما كنت في السجن، كانت زوجتي وولديَّ يأتون لزيارتي. اكتسب الولدان في ذلك الوقت بعضًا من الخبرة السياسية بنفسيهما. كانا يقضيان الصيف في بيتٍ ريفي لعائلة عقيدٍ متقاعد. الكثير من الزوَّار جاءوا إليّ، كانوا في الأغلب ضباطًا كلما شربوا الفودكا لعنوا البلاشفة. وفي أيام يوليو وصل تنديدهم بالبلاشفة أوجه (رحل بعضٌ من هؤلاء الضباط بعد ذلك بوقتٍ قريب إلىٰ الجنوب، حيث كانت قوات ما عُرِفَ فيما بعد بـ"الجيش الأبيض" تحتشد). وذات يومٍ، حينما أطلق شابٌ علىٰ لينين وتروتسكي عملاء ألمان، أثناء تناوله الطعام مع عائلتي، صدمه ولدي الأكبر بكرسي، ورماه ولدي الأصغر بسكين طعام. فصلهم الكبار عن بعضهم، وهرع الولدان في بكاءٍ هستيري إلىٰ الغرفة وأغلقوها من الداخل. لقد خططا سرًا أن يتخذا طريقهما سيرًا إلىٰ بتروجراد ليعرفا ماذا يحدث للبلاشفة هناك، لكن لحسن الحظ جاءت أمهما وهدأتهما وأثنتهما عن ذلك. لم تسر الأمور علىٰ نحوٍ جيد في المدينة، حيث أخذت الصحف تُندِّد بالبلاشفة، وكان أبوهما قابعًا في السجن. كانت الثورة في وضعٍ مزرٍ. لكن هذا لم يمنعهما من الإحساس بالفرح لدىٰ مشاهدة زوجتي تناولني مطواة صغيرة عبر الحاجز المشبك في صالة الزيارة في السجن. كنت أواسيهما بقولي أن الثورة الحقيقية لم تأت بعد.

أما ابنتاي، فقد اندفعتا بنشاطٍ بالغٍ في الحياة السياسية، كانتا تحضران الاجتماعات في السيرك الحديث وتشاركان في المظاهرات.

وخلال أيام يوليو، تعرضتا لصدامٍ في اشتباكات وقعت في مظاهرة كبيرة، ففقدتا قبعاتهما، وفقدت إحداهن نظارتها، وكانتا تخشيان من فقدان أبيهما الذي ظهر من جديد لتوه في الأفق أمامهما.

وخلال أيام زحف كورنيلوف علىٰ بتروجراد، صار نظام السجن هشًا إلا يتعلَّق إلا بخيط. أدرك الجميع أن إذا دخل كورنيلوف المدينة سيذبح علىٰ الفور البلاشفة الذين اعتقلهم كرينسكي. فيما كانت اللجنة التنفيذية المركزية تخشىٰ أيضًا أن تُقتحم السجون من قِبَل عناصر الحرس الأبيض في العاصمة. كانت كتيبةٌ كبيرةٌ قد كُلِّفَت بحراسة سجن كريستي، وبالطبع أثبتت هذه الكتيبة أنها بلشفية لا "ديمقراطية"، وكانت علىٰ استعداد لإطلاق سراحنا في أية لحظة، لكن فعلًا كهذا سيكون بمثابة إشارة اندلاع انتفاضة فورية، ولم يكن الوقت قد حان لذلك بعد. لكن في تلك الأثناء كانت الحكومة نفسها قد بدأت في إطلاق سراحنا، لنفس السبب الذي استدعت به البحَّارة البلاشفة لحراسة قصر الشتاء. خرجتُ من السجن مباشرةً إلىٰ اللجنة المُشكَّلة حديثًا للدفاع عن الثورة، حيث جلست مع نفس السادة الأفاضل الذين زجوا بي في السجن كعميلٍ لآل هوهنزلرن، والذين لم يسحبوا اتهامهم ضدي بعد. لابد هنا أنٍ أعترف بصراحة أن ظهور الشعبويين والمناشفة أمام ناظريّ كان وحده كفيلًا بأن أتمنىٰ أن يقبضهم كورنيلوف من أقفيتهم ويزعزع رقابهم في الهواء، لكن هذه الأمنية غير مُوقَّرة وغير سياسية كذلك. أعد البلاشفة عدتهم وتصدَّروا

الصفوف الأولىٰ للدفاع في كل مكان. لقد اكتملت خبرة أيام يوليو بخبرة عصيان كورنيلوف؛ فمرةً أخرىٰ يكشف كرينسكي وأعوانه عن حقيقة أن ما مِن قوىٰ حقيقية يستندون إليها. والجيش الذي تصدَّىٰ لكورنيلوف كان هو نفسه الجيش المستقبلي لثورة أكتوبر.

بادرنا بتسليح العمال الذين ما انفك تسيريتللي يُجرِّدهم من السلاح بلا كلل. حلَّ صمتٌ مطبق علىٰ العاصمة في تلك الأيام، فالبعض كان ينتظر قدوم كورنيلوف بأملٍ والبعض الآخر بفزع. سمع الولدان أحدًا يقول "ربما يأتي غدًا"، فأطلا من النافذة في صباح اليوم التالي، قبل حتىٰ أن يرتديا ملابسهما، ليريا ما إذا كان قد جاء بالفعل. لكن كورنيلوف لم يأت. كان النهوض الثوري للجماهير قويًا حتىٰ أن عصيانه قد ذاب وتبخَّر في الهواء. لكن آثاره ظلَّت باقية، فقد كان بمثابة الحنطة في الطاحونة البلشفية.

كتبت أيام كورنيلوف: "لن يتأخر القصاص. إن حزبنا، الذي تعرَّض لشتىٰ ألوان التشهير والملاحقة والاضطهاد، ينمو الآن سريعًا كما لم ينم من قبل. وهذه العملية ستنتشر من العواصم إلىٰ المحافظات، ومن المدن إلىٰ الريف والجيش... إن حزبنا، الذي لم يُهدِر لحظةً ليبني نفسه كمنظمةٍ طبقيةٍ للبروليتاريا، سيتحوَّل تحت نيران الاضطهاد إلىٰ قائدٍ حقيقيٍ للجماهير المُضطَهَدة والمسحوقة".

كنَّا بالكاد نقدر علىٰ مواكبة المد الثوري المتصاعد، فيما تزايد عدد البلاشفة في سوفييت بتروجراد يوميًا. صرنا نمثل نحو نصف عضوية

السوفييت، إلا أن ما مِن بلشفيٍ واحدٍ في رئاسته. طرحنا مسألة إعادة انتخاب رئاسة السوفييت علىٰ جدول الأعمال، وعرضنا تشكيل مجلس رئاسي ائتلافي مع المناشفة والشعبويين. اكتشفنا فيما بعد أن لينين كان مستاءً من ذلك، فقد خشىٰ أن يتضمَّن هذا العرض ميولًا توفيقيةً من جانب حزبنا، لكن ما من مساوماتٍ قد أُبرَمَت، فرغم نضالنا المشترك مؤخرًا ضد كورنيلوف، رفض تسيريتللي الرئاسة الائتلافية.

لم نعوِّل أملًا علىٰ ذلك؛ كان فقط التصويت لقوائم المرشحين الحزبية كافيًا لحل الأزمة. سألت ما إذا كان كرينسكي موجودًا بشكل رسمي ضمن أعضاء المجلس الرئاسي، رغم أنه لم يحضر قط اجتماعات السوفييت، وكان دائم التجاهل لها بكل طريقةٍ ممكنة. باغت هذا السؤال المجلس الرئاسي، فرغم أن كرينسكي لم يعجبه السوفييت ولم يحترمه، كان من المستحيل بالنسبة لهم أن يتنكَّروا من رئيس وزرائهم. وبعد التشاور فيما بينهم، أجاب أعضاء الرئاسة: "بالطبع، إنه موجود". لم نكن نرغب في أفضل من ذلك. وها هو ذا مُقتطفٌ من محضر الجلسة: "كنَّا علىٰ قناعة بأن كرينسكي ليس عضوًا في المجلس الرئاسي (تصفيق حاد)، لكن اكتشفنا الآن أن هذا غير صحيح، إذ أن ظِل كرينسكي يحوم بين تشخيدزه وزافادي. إذا طُلِبَ منكم التصديق علىٰ الخط السياسي للمجلس الرئاسي، فتذكَّروا أن هذا طلبٌ بالتصديق علىٰ سياسات كرينسكي (تصفيق حاد)". دفع هذا حوالي مائة من مندوبي السوفييت، الذين كانوا مُتردِّدين، إلىٰ

جانبنا. تجاوز عدد مندوبي السوفييت الألف، وجرىٰ التصويت بخروج المندوبين من الباب. كان الحماس هائلًا، إذ لم تكن القضية تتعلّق بالمجلس الرئاسي، بل بالثورة نفسها. كنت أتمشىٰ مع مجموعةٍ من الأصدقاء عبر الأروقة، وتوقّعنا أننا سنخسر التصويت فقط بفارق مائة صوت، وكنّا مستعدين لاعتبار ذلك نصرًا. لكن ما حدث هو أن انتصرنا بفارق مائة صوت علىٰ تحالف الثوريين الاشتراكيين والمناشفة. انتصرنا، وانتُخِبت رئيسًا للمجلس. أما تسيريتللي فعبّر، لدىٰ مغادرته المجلس، عن أمنيته بألا نبقىٰ في السوفييت أكثر من نصف المدة التي قادوا فيها الثورة، بعبارةٍ أخرىٰ؛ فتح خصومنا حسابًا زمنيًا لنا لا يزيد عن ثلاثة أشهر.

لقد أساءوا التقدير، أما نحن فكنّا ثابتين في مسيرنا نحو السلطة.

2020
2.1.2020

ليون

تروتسكي

حياتي

سيرة ذاتية

ترجمة: أشرف عمر

الجزء الثاني

روافد للنشر والتوزيع

ليون تروتسكي

حياتي

سيرة ذاتية

الجزء الثاني

ترجمة أشرف عمر

حياتي – سيرة ذاتية

ليون تروتسكي

ترجمة: أشرف عمر

القاهرة – 2019

رقم الإيداع: 22746 /2017

الترقيم الدولي: 6 – 358 – 751 – 977 - 978

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

القاهرة ج. م. ع

+2 01222235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

الفصل السابع والعشرون

ليلة الحسم

اقتربت الساعات الإثنتي عشرة للثورة، وقد تحوَّل سمولني إلىٰ قلعة بمعنىٰ الكلمة. في العُلِّيّة كانت هناك دزينة أو اثنتين من البنادق الرشَّاشة، من وقت اللجنة التنفيذية القديمة. أما النقيب جريكوف، قائد سمولني، فكان عدوًا صريحًا. علىٰ الجانب الآخر، جاء قائد فرقة البنادق الرشَّاشة ليخبرني أن رجاله جميعًا يقفون إلىٰ جانب البلشفية. أمرت واحدًا بتفحُّص البنادق الرشَّاشة، التي كانت في حالة سيئة نتيجة إهمال الجنود لها، إذ كانوا في حالة تراخي مُتعَمَّدة ولم يكن لديهم أية نية للدفاع عن كرينسكي. وكنت قد حظيت بكتيبة بنادق رشَّاشة جديدة وأكثر موثوقية حضرت إلىٰ سمولني.

وفي 24 أكتوبر (هذا بحسب التقويم اليولياني الذي كان لا يزال معمولًا به في روسيا وقتذاك، و6 نوفمبر وفقًا للتقويم المعمول به في باقي أوروبا. لذا يُطلق علىٰ الثورة أحيانًا ثورة أكتوبر، أو ثورة نوفمبر في أحيانٍ أخرىٰ)، في صبيحة سماء رمادية، تجوَّلت في المبنىٰ من طابقٍ لآخر، جزئيًا بغرض المشي، وكذلك للتأكد أيضًا من أن كل شيء منتظم ولتشجيع من يحتاج لذلك. وعلىٰ الأرضيات الحجرية لأروقة سمولني اللانهائية نصف المظلمة، كان الجنود يسحبون بنادقهم

الرشَّاشة في ضجة حماسية متواصلة ضاربين الأرض بأقدامهم. كانت هذه هي الكتيبة الجديدة التي استدعيتها. كان الثوريون الاشتراكيون والمناشفة الذين ظلوا في سمولني يطلون علينا، والنعاس يغلبهم، بوجوهٍ يملؤها الخوف. كان صوت البنادق نذيرَ شؤمٍ عليهم، فسرعان ما غادروا المبنىٰ واحدًا بعد الآخر. أصبحنا نسيطر تمامًا علىٰ المبنىٰ الذي كان علىٰ وشك إعلانه مقرًا بلشفيًا في المدينة.

في الصباح الباكر، كان عامل وعاملة قد اصطدما بي علىٰ الدرج، لاهثين بعد ركضهم مسافة طويلة من ورش مطبعة الحزب. كانت الحكومة قد أغلقت صحيفة الحزب المركزية وكذلك صحيفة سوفييت بتروجراد، وقد وُضع رجال الحكومة والطلاب العسكريون المرافقون لهم أقفالًا علىٰ أبواب المطبعة. اندهشنا للحظة من هذا النبأ. هذه كانت السلطة التي مارستها هذه الحكومة الشكلية علىٰ العقول.

سألتني المرأة: "هل نكسر الأقفال؟".

فأجبتها: "اكسروهم. ولتأمين المكان، سنرسل لكم حرسًا موثوقين".

فردت المرأة بثقة: "هناك فرقة مهندسين في الغرفة المجاورة، والجنود مستعدون لدعمنا".

وعلىٰ الفور، أصدرت اللجنة العسكرية الثورية أمرًا يقضي بما يلي: "1- إعادة فتح مطابع الصحف الثورية. 2- دعوة موظفي التحرير

وعاملي الطباعة للاستمرار في نشر الصحف. 3- يتولَّىٰ جنود كتيبة ليتوفسكي الشجعان وفرقة المهندسين الاحتياط الواجب المُشرِّف بحماية ورش المطابع الثورية من هجمات الثورة المضادة". ومذاك الحين عملت ورش الطباعة دون توقف، واستمرت كلتا الصحيفتين في الصدور دون انقطاع.

في يوم 24، انقطعت الاتصالات الهاتفية وكانت المشكلة في المقسم الهاتفي نفسه، إذ تمركز الطلاب العسكريين هناك، وتحت حمايتهم عارض الموظفون السوفييت ورفضوا تمرير اتصالاتنا. كانت هذه هي واقعة التخريب الأولىٰ. أرسلت اللجنة العسكرية الثورية مفرزة بحارة إلىٰ المقسم الهاتفي، ووضعت المفرزة مدفعين صغيرين في المدخل، وبذلك استعدنا الخدمات الهاتفية مرة أخرىٰ، وهكذا تمكنّا من السيطرة علىٰ أجهزة الإدارة.

في غرفةٍ صغيرة في زاوية ضيقة في الطابق الثالث من سمولني، كانت اللجنة في انعقادٍ دائم. كانت كل التقارير تصب مباشرةً في المركز، عن حركة القوات، ومواقف الجنود والعمال، والتحريض في الثكنات، وخطط منفذي المذابح، ومؤامرات الساسة البرجوازيين والسفارات الأجنبية، والأحداث في قصر الشتاء، بالإضافة إلىٰ تقارير عن مؤتمرات واجتماعات الأحزاب التي كانت في السابق طرفًا في السوفييت. جاء متطوعون بالمعلومات من كل فجٍ عميق؛ عمالًا وجنودًا وضباطًا وحمَّالين وطلاب عسكريين اشتراكيين وخَدَم وزوجات موظفين

صغار. كان الكثير منهم يقولون لنا هراءً، لكن بعضهم أمدنا بمعلومات قيِّمة وخطيرة.

لم أخرج من مبنىٰ سمولني طوال هذا الأسبوع، وقد قضيت الليالي علىٰ أريكة جلدية أختلس القليل من النوم دون تبديل ملابسي، يوقظني سعاةٌ وأفراد كشَّافة وموظفو تلغراف وحاملو رسائل، وبالطبع اتصالات هاتفية لا تنقطع. غدت اللحظة الحاسمة بين أيدينا، وبات من الواضح أننا بدأنا طريقًا لا رجعة فيه.

في ليلة 24، وزَّع أعضاء اللجنة العسكرية الثورية أنفسهم إلىٰ العديد من المقاطعات وتركوني وحيدًا. وبعد ذلك جاء كامينيف، الذي كان معارضًا للانتفاضة، لقضاء الليلة معي، وبقينا معًا في الغرفة الضيقة في زاوية الطابق الثالث، التي كانت أشبه ببرج القيادة في هذه الليلة الحاسمة من الثورة.

في الغرفة المجاورةِ كانت هناك حجرة هاتف يرن بلا انقطاع، بأمورٍ هامةٍ وتافهةٍ علىٰ السواء. كلما رنَّ الهاتف، تضاعفَ الحذرُ الصامتُ في ترقبٍ لما سيأتي. كانت شوارع بتروجراد مهجورةً، خافتة الإضاءة، يجلدها الخريف برياحه القادمةِ من البحر، البرجوازيون والموظفون يرتعدون ذعرًا في أسِرَّتهم، يضربون أخماسًا في أسداسٍ محاولين تخمين ما سيجري في هذه الشوارع الخطرة والغامضة، ومقرات العمال يسودها صمتٌ مطبق مثل ثكناتٍ في سُباتِها الأخير قبل الحرب. أحزاب

الحكومة تستنفذ نفسها في اجتماعاتٍ ولقاءاتٍ قليلة الحيلة في قصور القيصر، حيث تتآخىٰ أشباح الديمقراطية الحيَّة في صُحبة أشباح الملكية الهائمة. مرةً أخرىٰ تذوب القاعات والجدران في الظلام، وتظل فِرَق العمال والجنود والبحَّارة في حالةٍ من التأهب الصامت. البروليتاريون الشبان يمسكون بنادقهم ويلفون أحزمة البنادق الرشَّاشةِ علىٰ أكتافهم، يدفئون أنفسهم حول النار علىٰ المتاريس في الشوارع. كانت ولادة الحياة الجديدة في العاصمة في هذه الليلةِ الخريفية تتوقف علىٰ بضعة اتصالات هاتفية.

تركَّزَت التقارير من المقاطعات والضواحي المختلفة في الغرفة في الطابق الثالث. بدت كل الأمور تحت السيطرة؛ القادة في أماكنهم، والاتصالات كلها مؤمَّنة. ما مِن شيءٍ غفلناه.

دعونا نستعيد الأمور مرة أخرىٰ في أذهاننا. هذه الليلة حسمت كل شيء. في مساء ذلك اليوم، قلت في تقريرٍ لمندوبي المؤتمر الثاني للسوفييتات، بقناعةٍ تامة: "إذا وقفنا بحزمٍ، لن تكون ثمة حرب أهلية، سيستسلم عدونا علىٰ الفور، وستنتزعون ما يحق لكم". لم يكن هناك أي شك في النصر، كان مضمونًا بشكلٍ نموذجي، لكن هذه الساعات احتشد فيها التوتُّر والحذر، إعدادًا لليلة الحسم. أما الحكومة التي كانت تحشد أنصار الكاديت بالأمس، فقد أرسلت أمرًا بانطلاق الطراد أورور من ميناء نيفا. كانوا هؤلاء هم نفس البحَّارة البلاشفة الذين جاء إليهم

سكوبيليف في أغسطس، محنيّ الرأس وقبعته في يده، متوسلًا إليهم لحماية قصر الشتاء من كورنيلوف.

عاد البحّارة إلىٰ اللجنة العسكرية الثورية لتلقي التعليمات، وبالتالي ظل الطراد في هذه الليلة كما كان بالأمس. ثم جاء اتصالٌ هاتفي يخبرني بأن الحكومة تحشد كتيبة مدفعية ومفرزة مصادمة من تسارسكويي سيلو، وضباط طلاب من مدرسة بيترهوف العسكرية، وكان كرينسكي قد جمع طلابًا عسكريين وضباطًا وقوات مصادمة نسائية حول قصر الشتاء، فأمرت المفوَّضين بوضع دفاعاتٍ عسكرية مضمونة علىٰ مداخل بتروجراد، وإرسال فِرَق من المُحرِّضين لملاقاة الكتائب التي استدعتها الحكومة. كل هذه التقارير والتعليمات كانت تُنقل عبر الهاتف، وعملاء الحكومة متمركزين في مواقعهم لاعتراضها ووقفها. لكن هل استطاعوا حقًا السيطرة علىٰ اتصالاتنا؟

"إذا فشلت في إيقافهم بالكلمة، استخدم السلاح. هذا الأمر سيُكلِّفك حياتك". ظللت أُردِّد هذه الجملة مرارًا وتكرارًا، لكنني لم أكن واثقًا في قوة أمري هذا. كانت الثورة لا تزال واعدة، وزاخرة، ومتفائلة، ومبتهجة، كانت لا تزال تفضِّل التهديد بالسلاح عن استخدامه فعليًا، كانت لا تزال تأمل في حلّ القضايا بالكلمة، وإلىٰ هذا الحد كُتِبَ لها النجاح في ذلك، فالعناصر المُعادية كانت تتبخَّر قبل أنفاسها الدافئة. في اليوم السابق، كان قد صدر قرارٌ باستخدام السلاح مع أول إشارة لبدء أي مذابح في الشارع، لكن عدونا لم يكن يجرؤ حتىٰ

علىٰ التفكير في الشارع؛ اختفوا جميعًا وفَرّوا إلىٰ مخابئهم. الشارع في أيدينا، ومفوَّضونا يحرسون مداخل بتروجراد. لم تستجب مدرسة الضباط، ولا مفارز البنادق الرشّاشة لنداء الحكومة، ولم يكن سوىٰ قطاع من طلاب أورانيمبوم العسكريين هم من نجحوا في تجاوز دفاعاتنا، لكنني كنت أراقب تحرُّكاتهم التي تصلني أنباؤها علىٰ الهاتف، وانتهىٰ الأمر أنهم أرسلوا مندوبيهم إلىٰ سمولني. ذهبت نداءات الحكومة هباءً، وانشقّت الأرض من تحت أقدامها.

تعزَّزَ حرس سمولني بمفرزة بنادق رشّاشة، فيما كانت الاتصالات مع الحامية مستمرًا لم ينقطع. كان المفوَّضون في أماكنهم، ووفود المندوبين عن كل وحدة في الحامية موجودون في سمولني، تحت إمرة اللجنة العسكرية الثورية، في حال إذا ما انقطع الاتصال بأيٍ من الوحدات. سارت الكتائب والمفارز المسحلة في الشوارع، تضرب الأجراس علىٰ البوابات، أو تدخل دون إذنٍ حتىٰ، لتسيطر علىٰ المؤسسات واحدة تلو الأخرىٰ. تقريبًا في كل مكان، كان أصدقاء الثورة يستقبلون الكتائب والمفارز بعد انتظارها بفارغ الصبر. وفي نهايات خطوط السكك الحديدية، كان مفوَّضون مُعيَّنون بدقة يراقبون القطارات الذاهبة والقادمة، وبالأخص تحرُّكات القوات العسكرية. لم نتلق أي أخبار مُزعِجة. كل المواقع الهامة في المدينة تم تسليمها لنا من دون مقاومة، ومن دون قتال، ومن دون ضحايا. كانوا فقط يخبروننا عبر الهاتف: "نحن هناك الآن".

جرىٰ كل شيء علىٰ ما يُرام. لم يكن هناك أفضل من ذلك. تركت الهاتف، وجلست علىٰ الأريكة. الآن تلاشىٰ التوتُّر، وانتابني إحساسٌ ثقيل بالتعب. طلبت سيجارة من كامينيف (كنت في تلك الأيام لا أزال أدخن، لكن بشكلٍ متقطِّع). سحبت نفسًا أو نفسَين، وآخر ما سمعته كان عبارة "هذا ما كان ينقصنا"، حيث دخلت في إغماءٍ مفاجئ، ثم صحوت علىٰ وجه كامينيف المذعور ينحني نحوي. ورثت عن أمي نوباتِ إغماءٍ تصيبني حين أتعرض لمرضٍ أو إجهادٍ بدنيٍ شديد، وهذا ما دفع طبيبًا أمريكيًا إلىٰ تشخيص حالتي بداء الصرع.

سألني كامينيف: "هل أحضر دواءً؟"، فأجبته بعد لحظةٍ من التفكير: "من الأفضل أن تُحضِر شيئًا آكله". حاولت أن أتذكَّر متىٰ أكلت آخر مرة، لكني لم أتذكَّر بالضبط، علىٰ أية حال لم أكن قد أكلت شيئًا منذ اليوم السابق. وفي الصباح التالي، عكفت علىٰ الصحف البرجوازية والمنشفية الشعبوية، فلم ألحظ كلمة واحدة عن الانتفاضة. تحدَّثَت الصحف عن أمورٍ مثل خطورة تحرُّكات الجنود المُسلَّحين، وعن تسريحهم من الخدمة، وعن أنهار الدماء الحتمية، وعن عصيان لابد من التصدي له، فبات واضحًا أنهم فشلوا في إدراك الانتفاضة الجارية تحت أعينهم. تناولت الصحافة مفاوضاتنا مع هيئة الأركان العامة، وكذلك بياناتنا الديبلوماسية، وكأنها علاماتٍ علىٰ التردُّد والمراوحة. بينما في تلك الأثناء كانت مفارز الجنود والبحَّارة والحرس

الأحمر تستولي على المؤسسات واحدة بعد الأخرى بأوامرٍ من سمولني، دون قتالٍ ودون إطلاقِ نار ودون إهدارِ دماء.

كان مواطنو بتروجراد يفركون أعينهم في الصباح على نظامٍ جديد. هل حقًا استولى البلاشفة على السلطة؟ جاء وفدٌ من الدوما المحلية طالبًا مقابلتي، وسألونني بضعة أسئلة عجيبة: "هل ستقدم على التحرُّك العسكري؟ وإذا كان ذلك صحيحًا، فماذا سيكون، ومتى؟"، و"ما التدابير التي سيتخذها السوفييت لضمان الأمن؟"، وهلمجرا، على أن تكون الدوما على علمٍ مُسبَّقٍ بما سيحدث "بأربعٍ وعشرين ساعة".

أجبتهم بشرح الرؤية الديالكتيكية للثورة، ودعوت الدوما لإرسال وفدٍ إلى اللجنة العسكرية الثورية للمشاركة في أعمالها. كان من شأن هذه الدعوة أن تفزعهم أكثر من الانتفاضة نفسها، فأنهيت حديثي معهم، كالعادة، بروحٍ واثِقة: "إذا استخدمت الحكومة الحديد، سنرد بالنار".

سألونني: "هل ستقومون بحل الدوما لمعارضتها انتقال السلطة إلى السوفييتات؟".

فأجبتهم: "الدوما الحالية تعكس الماضي. إذا نشب صراعٌ، سندعو الشعب لانتخاب دوما جديدة". رحل الوفد كما جاء، لكنه خلَّف وراءه شعورًا بالانتصار المؤكَّد. طرأ تغيرٌ حادٌ في تطوُّر الأمور، فقبل ثلاثة أسابيع كنَّا قد حظينا بأغلبيةٍ في سوفييت بتروجراد، لكننا لم نكن شيئًا أكثر من شعاراتٍ ولافتات؛ دون مطابع، ودون مالية كبيرة، ودون

فروع، بل وقد أمرت الحكومة، قبل وقتٍ قصير، وتحديدًا في الليلةِ السابقة، باعتقال اللجنة العسكرية الثورية، وبدأت في تعقُّب عناويننا، أما اليوم يأتي وفدٌ من دوما المدينة إلىٰ نفس اللجنة "المطلوب اعتقالها" للاستفسار عن مصيرهم.

كانت الحكومة لا تزال مجتمعةً في قصر الشتاء، في خفيةٍ وخيفة. كانت هذه الحكومة قد كفَّت سياسيًا عن الوجود. وطيلة اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر كانت قواتنا تحاصر قصر الشتاء من كلِ جانب. وفي الواحدة ظهرًا، قرأت تقريرًا عن الوضع أمام سوفييت بتروجراد، وجاء في الصحف كما يلي: "نيابةً عن اللجنة العسكرية الثورية، أعلن أن الحكومة الانتقالية لم تعد موجودة بعد الآن (تصفيق). اعتُقِلَ بعض الوزراء، وآخرون سيُعتقلون في غضون أيامٍ قليلة أو ساعات (تصفيق). فضت الحامية الثورية، بأمرٍ من اللجنة العسكرية الثورية، الجلسة التمهيدية للبرلمان (تصفيق حاد). تابعنا التطوُّرات طيلة الليلة الماضية، وكنَّا علىٰ اتصالٍ دائمٍ بكتائب الجنود الثوريين والحرس العمالي عن طريق الهاتف وهم ينفِّذون مهامهم في صمت. نام المواطنون في سلامٍ غير عابئين بانتقال السلطة من طرفٍ لآخر. احتُلَّت محطات السكك الحديدية، ومكاتب البريد والتلغراف، ووكالة تلغراف بتروجراد (تصفيق حاد). لم نسيطر علىٰ قصر الشتاء بعد، لكن سيتحدَّد مصيره خلال الدقائق القليلة المقبلة (تصفيق)".

قد يعطي تقرير الصحف انطباعًا خاطئًا عن المزاج السائد في سوفييت بتروجراد في ذلك الوقت، لكنني مازلت محتفظًا في ذاكرتي بهذه التفاصيل. حينما قدَّمت التقرير عن التغيُّر في السلطة خلال تلك الليلة، ساد الصمت لبعضِ ثوان، ثم بدأ التصفيق الذي كان متعقِّلًا لا عاصفًا. كان الجمع ينتظر بترقبٍ وحِدة. بينما كانت الطبقة العاملة تستعد للنضال، أخذتها حماسةٌ لا تُوصَف، لكن حينما أصبحنا علىٰ أعتاب السلطة، تحوَّلَت هذه الحماسة غير البصيرة إلىٰ تأمُّلٍ وإمعانٍ في التفكير لا يخلو من الانزعاج. إن غريزةً تاريخية قد كشفت عن نفسها هنا في مجلس السوفييت. صار علينا مواجهة العالم القديم بأسره، صار علينا مواجهة المجاعة والبرد والدمار الهائل في البلاد والدم والموت. كان ذلك هو سبب الانزعاج الذي ألقىٰ بظلاله علىٰ أذهان العمال، لكنهم صاحوا "سنتجاوز كل ذلك". كانت أخطارٌ جديدة تلوح في الأفق البعيد، لكننا شعرنا بالانتصار يتخلَّل عروقنا ويجري مجرىٰ الدم. عبَّر هذا الانتصار عن نفسه في الترحيب الصاخب بلينين، الذي ظهر في هذا المجلس للمرة الأولىٰ بعد أربعة أشهرٍ من الغياب.

في وقتٍ متأخرٍ من تلك الليلة، وبينما كنَّا في انتظار افتتاح مؤتمر السوفييتات، دخلت أنا ولينين غرفةً مُجاوِرةً لقاعة المؤتمرات لنستريح قليلًا. كانت الغرفة خاوية تمامًا إلا من مقاعدٍ قليلة. جاء شخصٌ ما وفَرَش لنا بطانيةً علىٰ الأرض، ثم جاءت امرأة - أعتقد أنها كانت أخت لينين - وأحضرت لنا وسادتين. كنَّا مُستلقِيَين جنبًا إلىٰ جنب، جسدًا

وروحًا، مُسترخِيَين في راحةٍ استحققناها عن جدارة. لم نستطع النوم، لذا تحادثنا بصوتٍ خفيض، وفقط في هذه اللحظة تصالح لينين بشكلٍ كاملٍ مع مسألة تأجيل الانتفاضة وتبددت مخاوفه. كانت هناك نبرة صدقٍ فريدةٌ في صوته. كان مهتمًا بمعرفة كل شيء عن المتاريس التي انتشرت في كلِ مكان، والتي اختلط فيها الحرس الأحمر مع البحَّارة مع الجنود. ردَّدَ مرارًا بإحساسٍ عميق: "يا له من مشهدٍ رائع؛ العامل حاملًا بندقية، جنبًا إلىٰ جنب مع الجندي، يستدفئون أمام النار في الشارع". أخيرًا توَّحد الجندي مع العامل.

وفجأة سألني: "وماذا عن قصر الشتاء؟ لم نسيطر عليه بعد. هل من خطرٍ في ذلك؟". كنت أنهض في تلك اللحظة لأسأل عبر الهاتف عن تطور العمليات هناك، لكنه حاول منعي من ذلك: "كما أنت. سأبعث بأحدٍ لاستكشاف الأمر". لكننا لم ننعم بالراحة لوقتٍ طويل، فقد بدأ مؤتمر السوفييتات يفتتح جلسته الأولىٰ في القاعة المجاوِرة.

هرعت أخت لينين لإحضاري إلىٰ الجلسة: "دان يتحدَّث. الجميع يسألون عنك".

بصوتٍ متقطعٍ أخذ دان يُندِّد بالمتآمرين متنبئًا بفشل الانتفاضة. طالَبَنا بتشكيل ائتلافٍ مع الثوريين الاشتراكيين والمناشفة. الحزبان اللذين كانا في السلطة فقط حتىٰ يوم أمس، اللذين طاردانا ولاحقانا

وزجًا بنا في السجون، الآن بعد أن أطحنا بهما يطالباننا بالتوصُّل إلىٰ اتفاقٍ معهما.

جاء ردي علىٰ دان كالتالي: "ما يحدث الآن انتفاضة وليس مؤامرة، وانتفاضة جماهير الشعب لا تحتاج إلىٰ تبرير. كنَّا ولازلنا نعزِّز الطاقة الثورية للعمال والجنود، ونحشد إرادة الجماهير من أجل الانتفاضة. انتصرت انتفاضتنا. والآن يُطلب منَّا التخلي عن انتصارنا، من أجل التوصُّل إلىٰ اتفاق. مع مَن؟ أنتم فرادىٰ متفكِّكون وتُعساء، أنتم مفلسون، دوركم انتهىٰ. اذهبوا إلىٰ المكان الذي تستحقونه من الآن فصاعدًا؛ مزبلة التاريخ"[1].

كان هذا هو الرد الأخير في الحوار الطويل الذي بدأ منذ الثالث من أبريل، في يومِ وساعةِ وصول لينين إلىٰ بتروجراد.

---

[1] في تلك اللحظة، رد مارتوف على تروتسكي قائلًا: "إذن، سنرحل"، ومضى صامتًا دون أن ينظر خلفه، حتى استوقفه عاملٌ بلشفي شاب يرتدي قميصًا أسود وحزامًا عريضًا وقال له: "كنَّا نعتقد أن مارتوف على الأقل سيبقى معنا"، فارتبك مارتوف وردَّ عليه ملوِّحًا بيده في الهواء: "يومًا ما ستدركون الجريمة التي تشاركون فيها".
(Alexander Rabinowitch, The Bolshevik in Power: The First Year of Soviet Rule in Petrograd, Indiana University Press, 2007, P.11).
كان مارتوف قد عارض مشاركة المناشفة في الحكومة الانتقالية واستكمال الحرب عام 1917، وأسَّسَ جناحًا يساريًا داخل الحزب المنشفي، وانتقد زميليه دان وتسيريتللي، اللذين كانا وزيرين في الحكومة، لكنه فشل في كسب تأييد أغلبية الحزب المنشفي في مؤتمره في 18 يونيو 1917. ثم في أكتوبر رأى من الضروري تشكيل حكومة ائتلافية بين الأحزاب المشاركة في السوفييتات. (المترجم)

الفصل الثامن والعشرون

"التروتسكية" في 1917

رغم أنني، في 1904، كنت خارج فصيليّ الاشتراكية الديمقراطية الروسية، لكني عاصرت ثورة 1905 - 1907 كتفًا بكتف مع البلاشفة. وخلال سنوات الردة الرجعية، دافعت عن المنهاج الثوري في الإصدارات الماركسية الأممية ضد المناشفة، ورغم ذلك كنت لا أزال آمل أن يتحوَّل المناشفة أكثر فأكثر إلىٰ اليسار، وحاولت مراتٍ عديدة توحيد الحزب. لم أيأس بشكلٍ كامل من المناشفة إلا حين اندلعت الحرب. وفي بداية مارس 1917، كتبت في نيويورك سلسلةً من المقالات حول القوىٰ الطبقية وتوقُّعات الثورة الروسية، وفي الوقت نفسه كان لينين يبعث إلىٰ بتروجراد "رسائل من بعيد"[2]. ورغم أننا كنَّا نكتب من مواقع مختلفة من العالم، يفصل بيننا محيطٌ شاسع، توصَّلنا إلىٰ نفس التحليل ونفس الاستنتاجات. وفي كل القضايا الرئيسية، مثل الموقف تجاه الفلاحين، وتجاه البرجوازية، والحكومة الانتقالية، والحرب، والثورة العالمية، تطابقت رؤانا بصورةٍ كاملة. صارت وقتذاك العلاقة بين "التروتسكية" واللينينية قيد الاختبار

---

[2] بعث لينين هذه الرسائل (خمس رسائل نُشرت في صحيفة الحزب البلشفي "البرافدا") من منفاه في سويسرا في الفترة بين 7 و20 مارس. (المترجم)

الفعلي علىٰ مسرح التاريخ، وقد توفَّرَت كُل شروط وظروف هذا الاختبار بنقاءٍ شديد. لم أكن أعرف في ذلك الوقت موقف لينين، وقد جادلت بناءً علىٰ منطلقاتي الخاصة وخبرتي الثورية الخاصة، لكن توصَّلت إلىٰ نفس الاستنتاج وطرحت نفس الخط الإستراتيجي للينين.

هل كانت المسألة وقتذاك واضحة هكذا، وحلَّها مُسلَّمٌ به من الجميع؟ علىٰ العكس؛ كان موقف لينين في تلك الفترة، قبل عودته في 4 أبريل 1917 إلىٰ مسرح الأحداث في بتروجراد، موقفًا شخصيًا تمامًا لم يشاركه فيه أحد. لم يكن لدىٰ أيٍّ من قادة الحزب في روسيا أي نية في وضع ديكتاتورية البروليتاريا ومشروع الثورة الاجتماعية هدفًا فوريًا لسياساته. ويكشف مؤتمرٌ حزبيٌ، عُقِدَ فور عودة لينين وحضره حوالي ثلاثين بلشفيًا، أن لم يكن أحدٌ منهم يتصوَّر حتىٰ أي شيء أبعد من الديمقراطية. لا عجب أن محضر هذا المؤتمر مخفيًا حتىٰ الآن!

كان ستالين يؤيد دعم حكومة جوتشكوف وميليوكوف الانتقالية، كما يؤيد دمج البلاشفة مع المناشفة. واتخذ كلٌّ من ريكوف وكامينيف ومولوتوف وتومسكي وكالينين، وبقية القادة وأشباه القادة في يومنا هذا، نفس الموقف، أو حتىٰ موقفًا أكثر انتهازية منه. أثناء ثورة فبراير، كان ياروسلافسكي وأوردجينيكيدزه ورئيس اللجنة التنفيذية الأوكرانية بيتروفسكي، وآخرون، يحرِّرون مع المناشفة في ياكوتسك

صحيفة تُدعىٰ "الاشتراكي الديمقراطي"، شرعوا فيها في تقديم أكثر أنواع الانتهازية ابتذالًا وضيقًا للأفق. إذا أُعيد طبع المقالات التي كان يحرِّرها ياروسلافسكي في "الاشتراكي الديمقراطي" الياكوتسكية، لأنهت حياته كمفكرٍ سياسي علىٰ الفور، إذا كانت مِيتةً كهذه ممكنة أصلًا بالنسبة له. هؤلاء هم حماة "اللينينية" اليوم.

أدرك بالطبع أنهم، في فتراتٍ مختلفة من حياتهم، ظلوا يُردِّدون ويُكرِّرون كلمات لينين وحتىٰ إيماءاته. لكنهم في بداية العام 1917 وجدوا أنفسهم مضطرين إلىٰ الاعتماد علىٰ أنفسهم. كان الوضع السياسي صعبًا، وهذه كانت فرصتهم لإظهار ما تعلَّموه في مدرسة لينين وما يمكن أن يفعلوه بدونه. فلندعهم إذن يُقدِّمون ولو اسمًا واحدًا توصَّل بشكلٍ مستقل إلىٰ نفس الموقف الذي توصَّل له لينين في جينيف علىٰ نحوٍ متطابق مع ما توصَّلت إليه في نيويورك. لن يُقدِّموا ولو اسمًا واحدًا. وستبقىٰ "برافدا" بتروجراد، التي حرَّرها ستالين وكامينيف حتىٰ عودة لينين، وثيقةً دائمة تُثبِت انتهازيتهم وفهمهم الضيق وانعدام بصيرتهم. لكن جماهير عضوية الحزب، والطبقة العاملة ككل، كانت تتقدَّم عفويًا تجاه النضال من أجل السلطة. لم يكن هناك مسارٌ آخر، لا للحزب ولا للبلد بأسرها.

في سنوات الرجعية، كان لابد من بصيرةٍ نظريةٍ ثاقبة للتمسك بمنظور الثورة الدائمة. ربما لم تكن هناك حاجةٌ إلا إلىٰ حسٍّ سياسي سليم لطرح مهام النضال من أجل السلطة في مارس 1917. لم يُثبِت

أيٌّ من قادة الحزب الحاليين لا هذه البصيرة ولا هذا الحس. لم يتجاوز أيٌّ منهم منظور الديمقراطي اليساري البرجوازي الصغير في مارس 1917 . لم يصمد أيٌّ منهم في اختبار التاريخ. كنت قد وصلت إلىٰ بتروجراد بعد لينين بشهر، إذ كنت مُحتَجزًا طيلة هذا الشهر في كندا بأمرٍ من لويد جورج. وبحلول وصولي، كانت الأوضاع داخل الحزب البلشفي قد تغيَّرت جوهريًا. خاطب لينين الجماهير ضد قادتهم المُؤسِفين، وشنَّ نضالًا ضد - كما كتب تلك الأيام - "البلاشفة القدامىٰ الذين قاموا بأدوارٍ مُؤسِفة لأكثر من مرة في تاريخ حزبنا، بترديد صيغ تعلَّموها بغباءٍ، بدلًا من دراسة الوضع الخاص للواقع الحي المُتجدِّد". وبينما حاول كامينيف وريكوف المقاومة، تنحىٰ ستالين جانبًا، ولا توحي أيٌّ من مقالاته التي كتبها في تلك الفترة أنه حاول حتىٰ مراجعة سياساته السابقة كي يتبنَّىٰ موقف لينين. ظل هكذا صامتًا إذ كان موصومًا بقيادته البائسة خلال الشهر الأول من الثورة، لذا فضَّل الانسحاب إلىٰ خلفية المشهد. لم يخرج قط في العلن ليدافع عن رؤىٰ لينين، كل ما فعله هو الانتظار. وخلال الأشهر الحاسمة في الإعداد النظري والسياسي للانتفاضة، اختفىٰ ستالين تمامًا من الساحة السياسية.

وفي وقت وصولي، كانت هناك في روسيا الكثير من المنظمات الاشتراكية الديمقراطية التي ضمَّت بلاشفة ومناشفة معًا، وهذه بالتأكيد نتيجة طبيعية للموقف الذي اتخذه ستالين، وكامينيف

وآخرون أيضًا، ليس فقط خلال المراحل الأولىٰ من الثورة، بل أيضًا خلال الحرب. لابد عليّ أن أؤكِّد هنا أن موقف ستالين من الحرب لم يكن معروفًا لأحد، فلم يكتب سطرًا واحدًا في هذه القضية شديدة الأهمية. واليوم تظل نصوص كتب الأممية الشيوعية حول العالم، من الشبيبة الشيوعية في اسكندنافيا إلىٰ طلائع أستراليا، تُشدِّد علىٰ محاولة تروتسكي في 1912 إعادة توحيد البلاشفة مع المناشفة. لكن نفس النصوص لم تذكر ولو لمرةٍ واحدة أن ستالين ظل يدافع، في مارس 1917، عن الاندماج في حزب تسيريتللي، بل ولم يتوقف عن ذلك إلا في منتصف العام، حين تمكَّن لينين من تخليص الحزب من المستنقع الذي أوقعه فيه رجال الصف الثاني إثر قيادتهم المؤقتة للحزب. الحقيقة أن ما من أحدٍ منهم قد أدرك أهمية توجيه الثورة منذ بدايتها، وهذه الحقيقة تُقدَّم الآن باعتبارها عمقًا ديالكتيكيًا خاصًا، علىٰ عكس "هرطقة" التروتسكية التي لم تكن جسورة فقط لفهم اليوم السابق، بل لاستشراف المستقبل أيضًا.

حينما قلت لكامينيف، لدىٰ وصولي إلىٰ بتروجراد، إن ما من شيءٍ يفصل بيني وبين ما كتبه لينين في "أطروحات نيسان" الشهيرة، التي حدَّدت المسار الجديد للحزب، ردَّ عليّ قائلًا: "ليس بوسعي أن أقول شيئًا". وقبل انضمامي رسميًا إلىٰ الحزب، حين شاركت في صياغة الوثائق البلشفية الأهم، لم يخطر علىٰ بالِ أحدٍ أن يسألني ما إذا كنت قد تنصَّلت من "التروتسكية"، مثلما سُئِلت آلاف المرات من

قِبَل أتباع مارسيل كاشين وإرنست تالمان وغيرهم من المُتطفِّلين علىٰ ثورة أكتوبر، خلال فترة تراجع رجال الصف الثاني. في تلك الأيام، كان التقارب الوحيد بين التروتسكية واللينينية، الذي دار الحديث عنه في المجموعة القيادية للحزب، هو اتهام لينين بالتروتسكية خلال شهر أبريل. وجَّه كامينيف هذا الاتهام علانيةً وبإصرارٍ شديد، بينما فعل آخرون ذلك بحذر ومن وراء الكواليس. قال الكثير من "البلاشفة القدامىٰ" لي بعد وصولي إلىٰ روسيا: "اليوم يومك". لكنني أجادل بأن لينين لم يكن قد انحاز إلىٰ وجهة نظري، بل طوَّر أفكاره هو، حيث أظهر سير الأحداث هوية رؤانا وجوهر وجهة نظرنا. هذا ما حدث بالفعل.

في الاجتماعات الأولىٰ لنا، وحتىٰ بعد أيام يوليو، أحسست في لينين تركيزًا داخليًا مخيفًا يكمن تحت قشرةٍ من البساطة الهادئة و"المملة". كان يبدو أن الحركة، التي وجدت في كرينسكي رمزًا يُعبِّر عنها، هي الأقوىٰ علىٰ الإطلاق في تلك الفترة، بينما بدت البلشفية "مجموعة غير ذات أهمية"، وكانت تُعامل رسميًا باعتبارها كذلك. لم يكن الحزب نفسه يدرك النفوذ الذي يمكن أن يصل إليه فيما بعد، لكن لينين كان يقوده بعزمٍ تجاه المهام الأعظم شأنًا. أما بالنسبة ليّ، فقد سخَّرت نفسي للعمل وعكفت علىٰ مساعدة لينين.

وقبل شهرين من ثورة أكتوبر، كتبت: "ليست الأممية بالنسبة لنا هي الفكرة المجردة التي يُغدر بها في كل مناسبةٍ مواتية (كما يفعل

تسيريتللي وتشيرنوف)، بل أنها مرشدٌ حقيقيٌ ومبدأٌ عمليٌ تمامًا. إن انتصارًا حاسمًا وراسخًا غير وارد لنا بدون ثورة في أوروبا". لم يكن بمقدوري بعد، في ذلك الوقت، وضع اسم ستالين، فيلسوف "الاشتراكية في بلدٍ واحد"، إلىٰ جانب تسيريتللي وتشيرنوف. لخَّصت استنتاجي في هذه المقالة بالكلمات التالية: "ثورة دائمة في مواجهة مذبحة دائمة: هذا هو النضال الذي يوضع فيه مستقبل البشرية علىٰ المحك". نُشِرَت هذه المقالة في الصحيفة المركزية لحزبنا في 7 سبتمبر، ثم صدرت مرة أخرىٰ في كتيب مستقل.

لماذا إذن صَمَتَ من يصوِّبون حاليًا سهام النقد إلىٰ صدري علىٰ شعاري المهرطق: الثورة الدائمة؟ أين كانوا؟ كان بعضهم مثل ستالين ينتظرون بحذر، يراقبون الأمور من بعيد، وآخرون مثل زينوفيف كانوا مختبئين تحت الطاولة. لكن السؤال الأكثر أهمية هو: كيف تَقَبَّل لينين دعايتي المهرطقة في صمت؟ لم يكن لينين يعرف شيئًا اسمه تساهل أو لا مبالاة في القضايا النظرية؛ فكيف حدث أن سمح الرجل باختراق "التروتسكية" الصحيفة المركزية لحزبنا؟

في اجتماع لجنة بتروجراد، 1 نوفمبر 1917، قال لينين أن تروتسكي، منذ أن اقتنع باستحالة التوحد مع المناشفة، "لم يعد هناك بلشفيٌ أفضل" (ولا يزال محضر هذا الاجتماع التاريخي - التاريخي بكل ما في الكلمة من معنىٰ - مخفيًا حتىٰ الآن). وبذلك أثبت لينين بوضوح - ولم تكن هذه هي المرة الأولىٰ - أن نظرية الثورة الدائمة

ليست هي ما كانت تفصل بيننا من قبل، بل كانت المسألة الأضيق، لكن المهمة للغاية رغم ذلك، بخصوص الموقف من المنشفية.

كتب لينين، بعد عامين من الثورة: "تمكَّنَت البلشفية، منذ اللحظة التي استولت فيها علىٰ السلطة وأسَّسَت الجمهورية السوفييتية، من جذب العناصر الأفضل في تيارات الفكر الاشتراكي التي كانت أقرب لها". هل هناك ولو حتىٰ ظلٌّ باهتٌ من الشك في أن لينين، حين تحدَّث مُتعمِّدًا عن الممثلين الأفضل للتيارات الأقرب للبلشفية، كان يقصد في المقام الأول ما يُطلق عليه الآن "التروتسكية المُهرطِقة"؟ أي تيار إذن كان أقرب من التيار الذي مثَّله؟ ومَن أيضًا يمكن أن يقصده لينين؟ ربما مارسيل كاشين؟ أو تالمان؟ حين استعرض لينين ماضي الحزب ومحطات تطوره ككل، لم تكن التروتسكية بالنسبة له تيارًا اشتراكيًا معاديًا أو غريبًا، بل علىٰ العكس؛ كانت هي التيار الأقرب إلىٰ البلشفية.

إن المسار الفعلي لتطوُّر الأفكار في الحزب، كما نرىٰ، لا يمت بصلةٍ علىٰ الإطلاق لذلك الكاريكاتير الذي رسمه رجال الصف الثاني، مستغلين موت لينين وصعود تيار الرجعية.

الفصل التاسع والعشرون

في السلطة

ا

كانت تلك أيامًا استثنائية، سواء في حياةِ البلد بأسره أو في حياةِ الفرد بشخصه. علىٰ المستوىٰ الاجتماعي، كما علىٰ المستوىٰ الشخصي المباشر، وصلت الضغوط والتوتُّرات إلىٰ أقصىٰ مداها. كانت الجماهير تدشِّن عصرًا جديدًا، وشَعَرَ قادتهم أن خطاهم تحازي خطىٰ التاريخ. توقف مصير الأمة بأسرها، في عصرٍ تاريخيٍ كامل، علىٰ القرارات الصادرة في تلك الأيام. ولم تحظ هذه القرارات إلا بمناقشاتٍ محدودة للغاية قبل إصدارها. لا يمكنني أن أقول أن هذه القرارات كانت تُوزَن وتُوضع في الاعتبار ويُخطَّط لها بشكل صحيح قبل إصدارها، بل أنها كانت في الأغلب تُرتَجَل في التوِ واللحظة بحسب الظرف. كان ذلك بالطبع أفضل من لا شيء.

كان ضغط الأحداث هائلًا، كما كان العمل الواجب إنجازه شاخصًا أمام أعيننا في تمامِ وضوحه وجلائه، بحيث جاءت القرارات عفويةً، بطبعيةِ الحال، وقوبلت بنفس هذه الروح. كان مسارنا قد تحدَّد مُسبَّقًا؛ كل المطلوب هو التنفيذ. لم تكن المجادلات ضرورية، وبدونِ شكٍ أو تردُّد كانت الجماهير تلتقف ما يُطرح عليها كما يملي

عليها الموقف. وتحت ضغط الأحداث، لم يكن القادة إلا ليصيغون ويُدبِّرون متطلبات الشعب وحاجيَّات التاريخ.

تعتبِر الماركسية نفسها تعبيرًا واعيًا عن العمليةِ التاريخيةِ غير الواعية. لكن هذه العملية "غير الواعية"، بالمعنىٰ الفلسفي التاريخي وليس النفسي للكلمة، تتطابق مع تعبيرها الواعي فقط عند وصولها ذروتها، حين تُحطِّم الجماهير الروتين الاجتماعي وتقدِّم تعبيرها الانتصاري عن الاحتياجات العميقة للتطور التاريخي. في مثل هذه اللحظات، يسطع الوعي النظري للعصر بشكلٍ فائقٍ مع الحركة الفورية للجماهير المُضطهَدة الأبعد ما تكون عن النظريةِ نفسها. وهذا الاتحاد الخلَّاق بين العنصر الواعي وغير الواعي هو ما يُطلَق عليه عادةً "الإلهام". وما الثورة إلا نوبة إلهامٍ للتاريخ.

كلُ كاتبٍ يعرف جيدًا كيف تكون لحظات الإبداع، حين ينتابه شيءٌ أقوىٰ منه ليوجِّه يده. كلُ خطيبٍ عاش مثل تلك اللحظات التي يتحدَّث فيها شيءٌ أقوىٰ من كيانه عبر لسانه. هذا هو "الإلهام"، وهذا هو ما يُشتقّ من الجهد الخلَّاق الذي تحتشد فيه كل قوىٰ المرء. يخرج العنصر غير الواعي من بئره العميق ويخضع العقل الواعي لإرادته، ليختلط به في توليفةٍ أسمىٰ وأعظم.

القوة الروحية هي الأخرىٰ تسكب، في بعضِ الأحيانِ، كل النشاط الشخصي المتصل بحركةِ الجماهير. كان هذا صحيحًا مع قادة أيام

أكتوبر. تنهضُ القوة الخفية للإنسان، وتُبعَث غرائزه الدفينة، ويتفجَّر عنفوانه الموروث من أسلافه البيولوجيين، ليخترق الروتين النفسي المقيت، بتجريداتٍ تاريخيةٍ فلسفيةٍ في خدمة الثورة. كل هذه العمليات، التي تؤثر علىٰ الفرد والجماهير علىٰ السواء، مبنية علىٰ اتحاد العنصر الواعي مع غير الواعي؛ اتحاد الغريزة، اتحاد القوة الدافعة للإرادة، مع النظريات الأسمىٰ للفكر.

علىٰ المستوىٰ الظاهري، لم يبدو الأمر مهيبًا هكذا؛ فقد بات الرجال مُتعبين جوعىٰ متسخين، بعيونٍ متوهِّجةٍ ووجوهٍ نمت فيها اللحىٰ. وبعد ذلك لم يعد أيٌّ منهم يستدعي إلىٰ ذاكرته الكثير من تلك الأيام والساعات الحاسمة.

فيما يلي مقتطفٌ من مذكرات زوجتي التي لم تكتبها إلا بعد وقتٍ طويل:

"خلال الأيام الأخيرة من الإعداد لأكتوبر، كنَّا نعيش في شارع توريد، وكان ليف دافيدوفيتش يقضي أيامًا كاملةً في سمولني. كنت لا أزال أعمل في نقابة عمال الأخشاب، التي كان البلاشفة مسئولون عنها، فيما كانت الأجواء مُتوتِّرةً ومشحونة. كنَّا نقضي ساعات العمل بكاملها نتحدَّث عن الانتفاضة، وكان رئيس النقابة يتبنىٰ "وجهة نظر لينين وتروتسكي" (كما كان يُطلق عليها في ذلك الوقت)، فاستمررنا في التحريض سويًا.

كانت قضية الانتفاضة تُناقش في كلِ مكانٍ؛ في الشوارع، وأثناء تناول الطعام، وفي الاجتماعات العارضة علىٰ الدرج في سمولني. كنَّا نأكل قليلًا، وننام قليلًا، بينما عملنا لحوالي أربع وعشرين ساعةً في اليوم. كنَّا منفصلين عن ولدَينا معظم الوقت، وكنت قلقةً بشدة عليهما في أيام أكتوبر. كان ليوفا وسيروجا هما "البلشفيان" الوحيدان في مدرستهما، بالإضافة إلىٰ ثالثٍ قال إنه "متعاطف". وفي مقابل هؤلاء الثلاثة، كانت هناك مجموعةٌ تابعةٌ للكاديت والثوريين الاشتراكيين. وبطبيعةِ الحال، كانت الانتقادات تكتمل بالجدالات والمشاجرات. ولأكثرِ من مرةٍ، كان علىٰ المُدرِّس أن يُخلِّص الولدَين من تحت "الديمقراطيين" الذين يتكالبون عليهم ويوسعونهم ضربًا. لكن الولدان لم يفعلا شيئًا سوىٰ أنهما احتذيا حذو أبيهما. المُدرِّس نفسه كان عضوًا بالكاديت، وبالتالي كان يعاقب الغلامَين، قائلًا لهما: "خذا قبعتيكما وعودا إلىٰ المنزل". بعد الثورة، صار من المستحيل عليهما البقاء في نفس المدرسة، لذا فقد حوَّلناهما إلىٰ مدرسةٍ "شعبية". كل شيء هناك كان بسيطًا سلسًا، وهكذا صار بإمكاني أن أتنفَّس من جديد.

نادرًا ما كنَّا، أنا وليف دافيدوفيتش، نقضي وقتًا يُذكر في المنزل. كان الغلامان يعودان إلىٰ المنزل ولا يجدانا، فما مِن ضرورةٍ

إذن تجبرهما علىٰ البقاء بين أربعةِ جدران. في تلك الأيام من المظاهرات والاشتباكات والنيران، كنَّا قلقَين علىٰ سلامتهما، وهما في مثل ذلك المزاج الثوري... في أحدِ لقاءاتِنا القصيرة، قالا لنا ببهجةٍ عارِمة: "اليوم كنَّا مع بعض القوزاق في الشارع وسمعناهم يقرأون بيانًا لأبي بعنوان "أيها الإخوة القوزاق".

حسنًا، وماذا بعد؟

قرأوه ومرَّروه لبعضهم. كان جيدًا.

جيدًا؟

نعم، كان جيدًا.

كان المهندس "ك"، من معارف ليف دافيدوفيتش ولديه أطفالٌ من جميع الأعمار، ومُربيةٌ لهم، قد عَرَضَ علينا ترك ابنينا في منزله، حيث يمكن الاعتناء بهما. تعلَّقت بهذا العرض كطوقِ نجاة. كان عليّ الاتصال بسمولني 5 مرات يوميًا في المتوسط لتنفيذ بعض المهام لليف دافيدوفيتش. كنَّا نعود إلىٰ شارع توريد في وقتٍ متأخرٍ من الليل، لنفترق مرةً أخرىٰ في الصباح، حيث يذهب ليف دافيدوفيتش إلىٰ سمولني، وأتوجَّه أنا إلىٰ النقابة. ومع تصاعد الأحداث، لم نكد نبرح سمولني. ولأيامٍ طويلةٍ لم يكن ليف دافيدوفيتش يعود إلىٰ توريد ولو حتىٰ للنوم، وكنت غالبًا ما أقضي وقتي في سمولني أيضًا. كنَّا ننام

علىٰ الأرائك، والمقاعد، دون حتىٰ أن نغيِّر ملابسنا. لم يكن الجو دافئًا، فقد كنَّا في الخريف، حيث الجو الجاف والحرارة التي تبدأ في الانخفاض، وكذلك الرياح التي تهب حادةً باردة. كانت الشوارع هادئة وخاوية علىٰ عروشها، وفي خضم ذلك السكون شعرت بيقظةٍ فائقة. أما سمولني، فقد كان مُحتَدِمًا، حيث كانت القاعة الكبيرة تبرق بالأضواءِ المُنبعِثةِ من الثريَّاتِ الرائعة، ممتلئة عن آخرها بالناسِ. الحياة في المصانع هي الأخرىٰ كانت في ذروة التوتر، لكن في ذلك الوقت كانت الشوارع قد هدأت تمامًا. بدت المدينة وكأنها دفنت رأسها بين كتفيها.

أتذكر أنني، في صباح اليوم الثاني أو الثالث بعد الانتفاضة، قد دخلت إلىٰ غرفةٍ في سمولني، لأجد فلاديمير إيليتش (لينين) مع ليف دافيدوفيتش، وإن لم تخني الذاكرة، فقد كان معهما دزرجينسكي ويوفي وزُمرةٌ من آخرين. كانت وجوههم رماديةً هجرها النوم، وعيونهم متقدة، وياقات قمصانهم متسخة، والغرفة مُعبَّأة بالدخان... كان أحدهم جالسًا علىٰ طاولة يحيط به بعض الأشخاص، ينتظرون الأوامر.

لينين وتروتسكي أيضًا كانا في حالة الانتظار هذه. بدا لي وكأن من المُفترَض أن تأتي الأوامر من أناسٍ كانوا نائمين وقتها. كانوا يتحرَّكون ويتحدَّثون كالسائرين نيامًا. لوهلةٍ، شعرت

وكأن كل ذلك حلمٌ، وأن الثورة في خطرٍ داهم إن لم يحظ هؤلاء بنومٍ جيد ويرتدوا ياقاتٍ نظيفة، فصار الحلمُ مرتبطًا بتلك الياقات. أتذكر أنني في اليومِ التالي قابلت أخت لينين، ماريا إيلينيشنا، وذكَّرتها سريعًا بأن فلاديمير إيليتش بحاجةٍ إلىٰ ياقاتٍ نظيفة. فردَّت ضاحكةً: "نعم، بالطبع". لكن، علىٰ الأقل، فقدت الياقات تأثيرها الكابوسي عليّ بعد هذا الرد".

علىٰ الأقل في بتروجراد، كنَّا قد استولينا تمامًا علىٰ السلطة. لم يكن لدىٰ لينين أي وقتٍ بعد لتغيير ملابسه، ورغم وجهه الذي بدا مُتعبًا كانت عيناه يقظتَين. نَظَرَ إليّ بلطفٍ، بذلك الحرج الخجول الذي يوحي بالحميمية، وقال مُتردِّدًا: "كما تعرف، الانتقال فجأة من الملاحقة المستمرة والعمل السري إلىٰ السلطة.."، ثم تَوَقَّفَ باحثًا عن التعبير المناسب، وتحوَّل لسانه فجأةً إلىٰ الألمانية قائلًا: "يشعرني بالدوار"، مُحرِّكًا يده دائريًا حول رأسه. نظرنا إلىٰ بعضنا وضحكنا قليلًا. لم تستغرق هذه المحادثة أكثر من دقيقة أو اثنتين، ثم انتقلنا إلىٰ العمل مجددًا.

كان لابد أن تتشكَّل الحكومة. اجتمع أعضاء اللجنة المركزية بيننا في جلسةٍ سريعة في زاويةِ الغرفة.

كان لينين يفكر بصوتٍ عالٍ، متسائلًا: "ماذا نسميهم؟ أي اسم، لكن ليس وزراء، تلك الكلمة الدنيئة المُبتذلة".

قلت مُقترحًا: "ربما نسميهم مفوَّضين. لكن هناك الكثير من المفوَّضين الآن بالفعل. ربما "مجلس أعلىٰ للمفوَّضين". لا، كلمة "أعلىٰ" ذات وقع سيء أيضًا. ماذا عن "مفوَّضي الشعب"؟".

ردَّ لينين موافقًا: "مفوَّضي الشعب؟ حسنًا، أعتقد أن الاسم مناسب. ماذا عن الحكومة ككل؟".

"سوفييت بالطبع.. سوفييت مفوَّضي الشعب[3]، أترىٰ؟".

التقط لينين الاسم، فقال: "سوفييت مفوَّضي الشعب؟ يبدو رائعًا. اسمٌ بمذاق الثورة".

لم يكن لينين يميل كثيرًا إلىٰ جماليات الثورة، أو نحوَ التطلُّع الرومانسي لها، بل كان يشعر بالثورةِ في أعماقه، ومن ثم كان يُحدِّد "مذاقها" دون أن يخطئ.

خلال تلك الأيامِ الأولىٰ، وعلىٰ نحوٍ غير مُتوقَّع، سأل لينين: "ماذا لو تمكَّن الحرس الأبيض من قتلي وقتلك؟ هل سيقدر سفيردلوف وبوخارين علىٰ إدارة الأمور؟".

فأجبته ضاحكًا: "ربما لن يتمكَّنوا من قتلنا".

---

[3] سوفييت (مجلس) مفوَّضي الشعب هو الجهاز التنفيذي والتوجيهي للجنة المركزية التنفيذية للاتحاد السوفييتي. وتعمل اللجنة التنفيذية المركزية كجهازٍ تشريعي بين مؤتمرات السوفييتات. ومن الضروري التفريق بين اللجنة التنفيذية المركزية، والتي عُرِفَت أيضًا باللجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات عامة روسيا، و"اللجنة المركزية" التي كثيرًا ما تُذكر في الكتاب، والتي تخص الحزب الشيوعي الروسي.

فردَّ لينين، ضاحكًا هو الآخر: "الشيطان وحده يعلم ما يمكنهم فعله".

في الذكريات التي كتبتها عن لينين عام 1924، ذكرت هذه المحادثة لأولِ مرة، ثم علمت فيما بعد أن الثلاثي - ستالين وزينوفيف وكامينيف - شعروا بإساءةٍ بالغةٍ من ذلك، رغم أنهم لم يجرأوا علىٰ مواجهة ما قلته أو إنكاره. وتبقىٰ الحقيقة أن لينين لم يذكر إلا سفيردلوف وبوخارين، إذ لم يفكر قط في غيرهما.

وحيث أن لينين قد قضىٰ في المنفىٰ بالخارج خمسة عشر عامًا، يتخللها فواصل زمنيةٌ قصيرة، فقد كان علىٰ درايةٍ برموز الحزب الأساسية التي عاشت داخل روسيا، فقط من خلال مراسلاته معهم، أو من الاجتماعات القليلة التي جمعته بهم بالخارج. لم يتمكَّن من رؤيتهم عن قرب، أو من رؤية عملهم في الواقع وعلىٰ الأرض، إلا بعد الثورة. وبالتالي، كان عليه أن يراجع آراءه القديمة المبنية علىٰ تقارير غير مباشرة، وفي المقابل يبلوِّر آراءً جديدة. لم تكن اللا مبالاة تجاه الناس مُدرَجةً في قاموس رجلٍ ذي شغفٍ أخلاقيٍ عظيمٍ مثله. وكمفكرٍ ومحللٍ وإستراتيجي، كان دومًا متقد الحماسة للناسِ من حوله. تناولت كروبسكايا أيضًا هذه الخصلة في مذكراتها. كان لينين يقيِّم الرجل أمامه في لمحةِ عين. كانت عينه دقيقةً كيمروسكوب؛ تُكبِّر السمة والخصلة التي تأتي في مجال رؤيتها في لحظةٍ مُعيَّنة. كان غالبًا يهيم في الناس حبًا، بكل ما تحمله الكلمةُ من معنىٰ. وفي هذه الحالات، كنت

أمازحه: "أعرف أعرف، أنت بصددِ قصةِ حبٍ جديدة". أدرك لينين هذه الخصلة لديه، وردًا علىٰ ذلك، كان يضحك بقليلٍ من الحرج، وقليلٍ من الغضب أيضًا.

تبدَّلَ موقف لينين تجاهي عدة مراتٍ خلال العام 1917. قابلني أولًا ببعضِ التحفظ والحذر، ثم قرَّبَت أيام يوليو بيننا فجأة. وحين طرحت ضرورة مقاطعة البرلمان، معارضًا بذلك أغلبية القيادة البلشفية، كتب لينين من ملجأه: "مرحىٰ يا رفيق تروتسكي". وفيما بعد، حَكَمَ عليّ، من خلال بعض المؤشرات العارضة والخاطئة تمامًا، بأنني كنت متلكئًا في أمرِ الانتفاضة المسلحة، وانعكس ذلك الشك في الكثير من خطاباته خلال أكتوبر. وفي المقابل، كان موقفه تجاهي يومَ الثورة، حين تمدَّدنا علىٰ الأرض آخذين قسطًا من الراحة في غرفةٍ فارغة نصف مظلمة، دافئًا ودودًا بشكلٍ لا تخطؤه عين. وفي اليوم التالي، في اجتماع اللجنة المركزية للحزب، اقترح أن أُنتَخَب رئيسًا لسوفييت مفوَّضي الشعب، فنهضت واقفًا علىٰ ساقيَّ معترضًا علىٰ هذا الاقتراح الذي بدا لي غير مُتوقَّعٍ وغير ملائم أيضًا. فأصرَّ لينين: "لِمَ لا؟ أنت رئيس سوفييت بتروجراد الذي استولىٰ علىٰ السلطة"، لكنني اعترضت مرةً أخرىٰ. وفي الأول من نوفمبر، خلال النقاشات الملتهبة في اجتماع لجنة بتروجراد الحزبية، صاح لينين قائلًا: "ما مِن بلشفيٍ أفضل من تروتسكي". وأن تأتي هذه العبارة منه، فلهذا معنىً كبير بكل تأكيد. ما مِن عجبٍ أن محضر هذا الاجتماع لا يزال مخفيًا عن الجمهور.

ومن الاستيلاء على السلطة، حضرت قضية عمل الحكومة. ويا للغرابة! لم أكن قد فكرت في ذلك قط، ورغم خبرة العام 1905، لم أحظ بأيةِ مناسبةٍ أربط فيها مستقبلي بمستقبل السلطة. منذ شبابي، أو بالأحرى منذ طفولتي، كنت أحلم بأن أصبح كاتبًا. ولاحقًا، أخضعت كل عملي الأدبي، وكل شيء آخر في حياتي، للثورة. كانت قضية انتزاع الحزب للسلطة دومًا نصب عينيّ. كتبت وتحدثت عن برنامج الحكومة الثورية، لكن قضية عملي الشخصي بعد الانتصار لم تشغل بالي قط، وبالتالي أخذتني على حين غرَّة.

حاولت، بعد الاستيلاء على السلطة، أن أبقى بعيدًا عن الحكومة، وعرضت في المقابل أن أتولى توجيه الصحافة. من المُحتمَل أن رد فعلي العصبي بعد الانتصار هو ما دفعني لذلك، فكل عملي السابق على ذلك كان متعلقًا بالإعداد العملي للثورة. كل عصبٍ في جسدي كان مشدودًا إلى أقصى درجة. كتب لوناتشارسكي في إحدى الصحف أن تروتسكي كان يتحرك كبطاريةٍ كهربائية، وكل من يتعامل معه كان يشحنه بطاقته. لكن جاء الخامس والعشرون من أكتوبر ليفرغني من طاقتي. شعرت وكأنني جراحٌ أنهى لتوّه عمليةً جراحيةً مُعقَّدةً وخطيرة، وآن الأوان لأن أخلع المعطف الأبيض، وأغسل يديَّ، وأستريح.

كان لينين مختلفًا عني في ذلك. كان قد جاء لتوّه من حيث اختبأ، بعد انقطاعٍ لحوالي ثلاثة أشهر ونصف الشهر من العمل والتوجيه المباشرَين. كنت أرغب فقط في أن أتقاعد خلف الكواليس لفترةٍ من

الوقت. ولم يعرف لينين برغبتي هذه قط، فأصرَّ علىٰ أن أتولىٰ مفوَّضية الشئون الداخلية، محاججًا بأن الأمر الأهم الآن هو مجابهة الثورة المضادة. اعترضت علىٰ ذلك، مستخدمًا قضية الانتماء القومي حجةً مضادة. هل يستحق الأمر أن يُضاف أصلي اليهودي كسلاحٍ إضافيٍ بين أيدي أعدائنا؟

حينها، خرج لينين عن صمته، وانفعل قائلًا: "لدينا ثورةٌ أمميةٌ عظيمة، ما قيمة هذه الترهات؟".

ثم بدأت في مشاكسته، مداعبًا إياه: "لا شك أن الثورة عظيمة، لكن لا يزال هناك الكثير من الحمقىٰ".

فردَّ: "لكننا بالتأكيد لا نتخذ خطواتنا وفق ما يدور في رؤوس الحمقىٰ".

فعقَّبت قائلًا: "نعم. لكن أحيانًا علىٰ المرء أن يضع الغباء في الحسبان. ما الداعي لإضافة المزيد من التعقيدات من الأصل؟".

لم يكن للمسألة القومية، التي تحتل مكانةً في مِنتهىٰ الأهمية في حياة روسيا، أيُ تأثيرٍ شخصيٍّ عليّ. وحتىٰ في شبابي، لم تتسبَّب التحيُّزات القومية إلا في إرباك عقلي وتفكيري، وفي بعض الأحيان كان تثير في نفسي شعورًا من الازدراء الأخلاقي، والتثقيف الماركسي هو ما عمَّق هذا الإحساس لديّ، كما غيَّر موقفي إلىٰ التماسك علىٰ المبادئ الأممية. وساعدتني حياتي في العديدِ من البلدان، ومعرفتي

بالكثيرِ من اللغاتِ والأنظمة السياسية والثقافات، علىٰ امتصاص هذه المبادئ الأممية في دمي ولحمي.

وإذا كنت قد أشرت إلىٰ أصلي اليهودي، في 1917 أو فيما بعد ذلك، كحجة للاعتراض علىٰ تعييني في هذا المنصب أو ذاك، فكان ذلك ببساطة بسبب اعتباراتٍ سياسيةٍ لا أكثر.

اتفق سفيردلوف، وغيره من أعضاء اللجنة المركزية، معي في ذلك، أما لينين فبقىٰ في الأقلية. هزَّ كتفيه، وتنهَّدَ، وحرَّك رأسه موبخًا، مواسيًا نفسه بفكرة أن علينا أن نجابه الثورة المضادة بأيةِ طريقة، بصرف النظر عن إدارات الحكومة التي سيتولىٰ كلٌ منَّا عملها. لكن انتقالي للإشراف علىٰ الصحافة أيضًا قد اعترض عليه سفيردلوف، الذي رأىٰ أن بوخارين هو الرجل المناسب لهذه المهمة. وأضاف: "ليف دافيدوفيتش لابد أن يوضع في مواجهة باقي أوروبا. ليتولىٰ إذن الشئون الخارجية".

فردَّ لينين: "أي شئونٍ خارجية لدينا الآن؟". في النهاية، وافق لينين علىٰ ذلك علىٰ مضض، ولم أوافق أنا إلا مُكرهًا. وهكذا، بضغطٍ من سفيردلوف، أصبحت علىٰ رأس الديبلوماسية السوفييتية لربعِ عامٍ من زمن الثورة.

كانت مفوَّضية الشئون الخارجية تعني التحررَ الكامل من العمل الإداري. أما الرفاق الذين كانوا يعرضون مساعدتهم، فقد كنت علىٰ

الدوام أقترح عليهم أن يبحثوا عن مجالٍ أكثر إرضاءً واستيعابًا لطاقتهم. عَرَضَ أحدهم في مذكراته ذات مرة محادثةً شيِّقةً جرت معي بعد تشكيل الحكومة السوفييتية. وفقًا لما جاء في مذكراته، فقد قلت له: "ما العمل الديبلوماسي الذي نحن بصدده الآن؟ سأصدر بعضًا من البيانات الثورية إلىٰ شعوب العالم، وهذا كلُ شيء". صُدِمَ الرجل من افتقاري لأي وعيٍ ديبلوماسي علىٰ الإطلاق هكذا. كنت بالفعل قد بالغت عمدًا في وجهةِ نظري، إذ كنت أريد التشديد علىٰ أن مركز العمل لم يكن في الديبلوماسية في ذلك الوقت.

كانت المهام الرئيسية تكمن في تطوير ثورة أكتوبر وتعميقها وتوسيعها إلىٰ كافة أرجاء البلاد، وإلحاق الهزائم بحملة كرينسكي والجنرال كراسنوف علىٰ بتروجراد، والقتال ضد الثورة المضادة. كنَّا نحل هذه المشكلات خارج الإدارات، ومعاونتي للينين كانت في ذلك الوقت أقرب وأكثر استمرارًا.

وقعت غرفة لينين في سمولني علىٰ الجانب الآخر من غرفتي بنفس المبنىٰ. وكان الرواق الفاصل - أو بالأحرىٰ الواصل - بيننا طويلًا، بحيث اقترح لينين ذات مرة مداعبًا إياي بأن علينا تدبير اتصالاتنا بالدرَّاجة. كنَّا علىٰ تواصلٍ عن طريق الهاتف، ولعدةِ مراتٍ في اليومِ الواحد كنت أقطع هذا الرواق الذي لا ينتهي إلىٰ غرفة لينين لنلتقي ونتناقش. كان بحَّارًا شابًا عَمِلَ سكرتيرًا لدىٰ لينين هو حلقة الوصل بيننا، يسلِّمني ملاحظاته، التي عادةً ما تألفت من جملتين حازمتين أو

ثلاث، ببعض الكلمات تحتهم خطان أو ثلاثة، ثم سؤالًا. غالبًا ما كانت الملاحظات مرفقة بمسودات قرارات بحاجة إلىٰ التعليق الفوري عليها. تضمَّنَت أراشيف سوفييت مفوَّضي الشعب الكثير من مثل هذه الوثائق في تلك الفترة، بعضها بخطِ يدِ لينين، وبعضها كتبته بيدي مع تعديلاتٍ للينين أو ملاحظاتٍ بعثها طلبًا لإضافاته.

خلال الفترة الأولىٰ، تقريبًا حتىٰ أغسطس 1918، كنت نشطًا في عمل سوفييت مفوَّضي الشعب. وخلال فترة سمولني، كان لينين نافذ الصبر للتعاطي الفوري مع كافة المشاكل الاقتصادية والسياسية والإدارية، وكذلك المشاكل المُتعلِّقة بالحياة الثقافية، بالمراسيم والقرارات الفورية. لم يكن مدفوعًا في ذلك بأي ميلٍ للبيروقراطية، بل برغبةٍ لتنفيذ برنامج الحزب بلغة السلطة. كان يفعل ذلك وهو يعلم تمامًا أن المراسيم الثورية لن تُنفَّذ إلا جزئيًا. لكن، لضمان التنفيذ الكامل لهذه التدابير والإجراءات، كان لابد من توفير جهازٍ علىٰ قدرٍ كبيرٍ من الكفاءة، علاوة علىٰ توفير الخبرة والوقت. لم يعلم أحدٌ كم من الوقت كان يلزمنا ولا كم من الوقت لدينا بالفعل.

خلال الفترة الأولىٰ، كانت المراسيم الصادرة دعائية أكثر من كونها تدابير إدارية. كان لينين مُتعجِّلًا في أمره ليخبر الناس بطبيعة السلطة الجديدة، وما ستكون عليه في المستقبل، وكيف ستشرع في تنفيذ أهدافها. انتقل من قضيةٍ لأخرىٰ بشكلٍ مدهش، وبلا كللٍ أو مللٍ، دعا

إلىٰ مؤتمراتٍ مُصغَّرة، وعَيَّنَ الخبراء للتحقق من الأمور، وأخذ يبحث بنفسه في الكتب. وكنت كثيرًا ما أساعده في ذلك.

كانت قناعة لينين بضرورة الاستمرار فيما يقوم به من أعمال شديدة الرسوخ والثبات. وكثوريٍ عظيم، فقد فَهِمَ معنىٰ التراث الثوري وغايته. كان من المستحيل وقتها التنبؤ بما إذا كنَّا سنبقىٰ في السلطة أو سيُطاح بنا. وهكذا كان من الضروري، مهما حدث ومهما كلَّف الأمر، تصدير خبرتنا الثورية وتوضيحها للجميع بأكثر ما يمكن من الجلاء. آخرون كانوا يساهمون في العمل، وينطلقون مما فعلنا ليطوِّرونه وينقلونه خطوة أخرىٰ إلىٰ الأمام. وكان هذا هو المعنىٰ الحقيقي للعمل الشرعي العلني في الفترةِ الأولىٰ. ولهذا أصرَّ لينين، بنفاذِ صبرٍ، علىٰ ضرورة إعادة نشر كلاسيكيات الاشتراكية والمادية بالترجمة الروسية. كان حريصًا علىٰ بناءِ أكبر عددٍ ممكن من المعالم والنُصُب الثورية، حتىٰ وإن كانت في أبسطِ صورة، كالتماثيل أو النُصُب التذكارية، في كلِ المدن، بل وفي القرىٰ أيضًا كلما كان ذلك ممكنًا، ليترسَّخ ما حدث في أذهان الشعب، وليُحفر أعمق ثلمٍ ممكنٍ في ذاكرته.

في كلِ اجتماعٍ لسوفييت مفوَّضي الشعب، ذلك المجلس الذي كانت عضويته تتغيَّر كثيرًا في البداية، كانت ترتسم صورةٌ من الارتجال التشريعي المُكثَّف. كان كل شيء يجب أن ينطلق من البداية، إذ لم يكن هناك من سبقنا في أيٍ من ذلك، ولم يُقدِّم التاريخ شيئًا. ترأس لينين اجتماعات مفوَّضي الشعب بلا كلل، لخمس أو ست ساعات، فيما

كانت هذه الاجتماعات تُعقد يوميًا. وكقاعدةٍ ثابتة، كانت الأمور تُطرح علىٰ طاولة النقاش كمسائل عاجلة وطارئة دون إعدادٍ مُسبَّق لها. وفي كثيرٍ من الأحيان، حتىٰ بعد أن تبدأ أعمال الاجتماع، يكون موضوع النقاش مجهولًا، سواء بالنسبة لأعضاء المجلس أو لرئيس الاجتماع نفسه. كانت النقاشات كثيفةً وسريعة، وكانت فقط عشر دقائق هي الوقت المسموح به لإلقاء التقرير الافتتاحي. لكن لينين كان دائمًا يتلمَّس المسار الضروري والصحيح. وللحفاظ علىٰ الوقت، كان يرسل ملاحظاتٍ سريعة للأعضاء الحضور، يسألهم عن معلوماتٍ في هذا الموضوع أو ذاك. تكشف هذه الملاحظات عن الأسلوب الدقيق في عمل مجلس لينين لمفوَّضي الشعب، لكن مع الأسف اختفت أغلبيتها إذ كانت الإجابة في أغلب الأحيان تُكتب علىٰ ظهر وريقات الملاحظات، وبعد ذلك يمزقها رئيس الاجتماع فور انتهاء الغرض منها. وفي اللحظة المناسبة، كان لينين يطرح قراراته، دائمًا بحدةٍ متعمَّدةٍ، وبعد ذلك ينتهي النقاش، أو يفتح الطريق للاقتراحات العملية. وفي النهاية، كانت اقتراحات لينين عادةً ما تؤخذ كقاعدةٍ للقرارات والمراسيم الصادرة عن المجلس.

وبالإضافة إلىٰ المزايا والخصال الإيجابية الأخرىٰ، كان الخيال الخلَّاق ضروريًا لإرشاد وتوجيه هذا العمل. ومن أكثر هذه القدرات قيمةً في هذا الخيال هو القدرة علىٰ رؤية الناسِ والأشياء والأحداث كما هم في الواقع، حتىٰ إن لم يرهم المرء قبل ذلك مُطلقًا.

أن تجمع الأحداث الصغيرة سويًا وتربط بينها في صورةٍ متكاملة، أن تنسجهم بقوانين الاحتمالات ودراسة الإمكانيات، وبهذه الطريقة أن تعيد تشكيل مجالٍ معينٍ في الحياة البشرية بكل واقعه الملموس، بانيًا كل شيءٍ علىٰ الخبرة وعلىٰ النظرية، فهذا هو الخيال الذي لابد أن يتمتَّع به كل إداري وكل قيادي، بالأخص في فترةِ الثورة، وقوة لينين كانت تكمن بالذات في هذه المقدرة علىٰ الخيال الواقعي.

غنيٌ عن القول أن كانت هناك الكثير من الأخطاء والتناقضات في خضم هذه الفورة من التشريع وسنّ القوانين وإصدارات القرارات وما إلىٰ ذلك. لكن، حين ننظر إلىٰ الأمر في مجمله، كانت قرارات ومراسيم لينين في فترة سمولني، أي في الفترة الأكثر عصفًا وفوضوية من الثورة، ستُحفظ في التاريخ إلىٰ الأبد كإشهارٍ لعالمٍ جديد. وسينهل من هذا النبع ليس فقط المؤرخون وعلماء الاجتماع، بل المُشرِّعون أنفسهم أيضًا.

في تلك الأثناء، كانت المشكلات العملية، لا سيما تلك المُتعلِّقة بالحرب الأهلية وإمدادات الغذاء والنقل، تحتل مكانتها في الصدارة علىٰ نحوٍ عاجلٍ ومُلِح. تأسَّسَت لجانٌ خاصة وهيئاتٌ استثنائية لمواجهة هذه القضايا الجديدة بالذات، ولتحفيز هذه الإدارات أو تلك التي كانت تهدر الوقت علىٰ أعتاب المشكلة. كان عليّ أن أترأس الكثير من هذه اللجان: لجنة الإمداد الغذائي، الذي كان تزيوروبا عضوًا فيها بعد أن أُدرِجَ لأولِ مرةٍ في العمل الحكومي، ولجنة النقل، ولجنة الإصدارات، وغيرها من اللجان.

لم تستغرق مني الإدارة الديبلوماسية إلا القليل من الوقت، باستثناء فترة مفاوضات سلام بريست ليتوفسك، لكن عملي فيها أثبت أنه أعقد مما توقَّعته. وحتىٰ في الأيام الأولىٰ، وجدت نفسي، علىٰ نحوٍ غير مُتوقَّع، في القلب من مفاوضاتٍ ديبلوماسيةٍ مع برج إيفل. خلال الانتفاضة، كنَّا نهرع إلىٰ الإذاعات الأجنبية لنسمع ما يقولون. لكنني، كمُفوَّضٍ شعبيٍ للشئون الخارجية، صار عليّ أن أتابع ردود فعل العالم الرأسمالي تجاه الثورة. وغنيٌ عن القول أننا لم نتلقَ أي ترحيبٍ يُذكر. أما حكومة برلين، التي كانت علىٰ استعدادٍ لمغازلة البلاشفة، فقد تدخَّلت، عبر إذاعة نوين، حين أذاعت محطة تسارسكوي سيلو بياني عن انتصارنا علىٰ قوات كرينسكي. وإذا كانت برلين وفيينا ظلَّتا مُتردِّدتَين بين العداء للثورة والأمل في التوصُّل إلىٰ سلام، فقد ردَّدَت بلدان العالم الأخرىٰ، ليس فقط تلك المنخرطة في الحرب، بل أيضًا البلدان الواقفة علىٰ الحياد، بلغاتهم المختلفة، أصداء وجدان ورغبات الطبقات الحاكمة في روسيا القديمة، تلك الطبقات التي أسقطناها وطرحناها أرضًا. وضمن هذه الجوقة، وقف برج إيفل يستشيط غضبًا. في تلك الأيام، تَحَدَثَ برج إيفل بالروسيةِ حتىٰ، في محاولةٍ لتوجيه نداءٍ مباشرٍ إلىٰ قلوبِ الشعب الروسي. أحيانًا، لمَّا كنت أستمع إلىٰ إذاعات باريس، كنت أشعر وكأن كلمنصو نفسه يجلس علىٰ قمة البرج. عرفته صحفيًا، وكان ذلك كافيًا للتعرُّف علىٰ روحه، إن لم يكن أسلوبه فقط. كان الكراهية التي تبثها تلك الإذاعات تختنق بما تطلقه من سموم، وقد

بلغ الحقدُ مداه. أحيانًا كنت أتخيَّل برج إيفل عقربًا عملاقًا يكاد ذيله الطويل يلدغ رأسه.

كانت تسارسكوي سيلو تحت تصرفنا، لذا ما مِن شيءٍ كان بمقدوره أن يفرض الصمتَ علينا. ولأيامٍ طويلة، كنت أبث ردودًا علىٰ إساءات كلمنصو. كنت أعرف التاريخ السياسي لفرنسا بما فيه الكفاية كي أميِّز مثل هذه الإساءات وأرد عليها أبلغ الردود. ذكَّرتهم ببعض الحقائق المنسية في تاريخهم. ولأيامٍ عدة، اشتعل السجال بين إذاعة تسارسكوي سيلو وباريس، بينما بثَّت إذاعاتٌ أخرىٰ جدالاتِ كلا الطرفين بحيادٍ وأمانة. ماذا حدث بعد ذلك؟ لم أكن أتوقَّع هذه النتائج السريعة. فجأة، غيَّرت باريس نغمتها سريعًا، وصارت تُعبِّر عن نفسها بأسلوبٍ مدنيٍ متحضِّر، لكن لم يخلُ من العداء بطبيعة الحال. ولاحقًا، كنت أتذكَّر بسرورٍ بالغ كيف بدأت عملي الدبلوماسي بتعليم برج إيفل الكياسة والأخلاق الحميدة.

في 18 نوفمبر، جاءني اتصالٌ مفاجئ من رئيس البعثة الأمريكية، الجنرال جودسون، ليخبرني أن لم يكن بمقدوره بعد التحدُّث باسم الحكومة الأمريكية، وأنه يأمل في أن يكون كل شيءٍ "علىٰ ما يُرام". هل كانت الحكومة السوفييتية تنوي إنهاء الحرب بالتنسيق مع الحلفاء؟ أجبته بأن يمكن للحفاء، بالنظر إلىٰ المفاوضات المقبلة، أن يراقبوا تقدُّمهم وينضموا إليهم في أيةِ مرحلة. وفي النهاية، قال لي الجنرال

"المحب للسلام": "لقد فات أوان التنديدات والتهديدات ضد السلطة السوفييتية، هذا إذا كانت هناك فرصة لذلك من الأصل".

أما السفير الفرنسي، نولينس، فقد اجتمعت به للمرةِ الأولىٰ – والأخيرة – في بدايات ديسمبر. أُرسِلَ هذا الرجل في الأصل لإقامة علاقات طيبة مع ثورة فبراير، بدلًا من الملكي باليولوجوس، الذي لم يكن بيزنطيًا في الاسم فقط، والذي كانت جمهوريته تحافظ علىٰ صداقتها مع القيصر. لماذا إذن أُختيرَ نولينس دونًا عن غيره؟ لا أعلم بالتحديد. لكنه لم يدلِ برأيه في الحُكَّام الجدد لمصير البشرية. ولم يتوصَّل اجتماعي به، الذي جاء بدعوةٍ منه، إلىٰ أية نتائج.

لم يكن حواري ودودًا مع رئيس البعثة الفرنسية، الجنرال نيسيل، بمكتبي في سمولني، فقد جاء مُعبرًا عن عدوانيته بما اصطحبه معه من حرسٍ. في ظل كرينسكي، كل ما كان يفعله هو إصدار الأوامر، ومن الواضح أنه اعتاد علىٰ ذلك ولم يرغب قط في التخلي عن هذه الخصلة السيئة. مبدئيًا، طلبت منه مغادرة سمولني علىٰ الفور. صارت بعد ذلك العلاقات مع البعثة الفرنسية أصعب وأعقد، فقد صار مكتب المعلومات المُلحق بالبعثة مفرخًا لأكثر الدسائس والمكائد والتشهيرات إثارةً للاشمئزاز ضد الثورة. في كافة الصحف المعادية للثورة، ظهرت التقارير "من ستوكهولهم" يوميًا، تقارير تفوَّقت علىٰ نفسها في الافتراء والكذب والخبث والحقد والغباء المُطلق. وحين سألت عن مصدر تقارير "ستوكهولم"، أشار محررو تلك الصحف إلىٰ

البعثة العسكرية الفرنسية. طالبت الجنرال نيسيل بتوضيحٍ رسميٍ، وفي 22 ديسمبر برسالةٍ جديرةٍ بالاعتبار، يأتي نصها كالتالي:

"الكثير من الصحفيين، من مُختلَف الأطياف، يتصلون بالبعثة العسكرية طلبًا للمعلومات. أنا مُخولٌ بإعطائهم ما يريدون من معلوماتٍ تتعلَّق بالأحداث العسكرية في الجبهة الغربية للحرب، وسالونيكا، وآسيا، وبخصوص الوضع في فرنسا. في أحدِ (؟) الحوارات، سمح أحد (؟) الضباط الشباب لنفسه بالسؤال عن إشاعةٍ سرت في المدينة (؟)، ومصدرها بالأساس ستوكهولم".

خلاصةً، وعد الجنرال بشكلٍ غامض أن "يتخذ الخطوات الضرورية لمنع هذا السهو (؟) في المستقبل".

هذا كثيرٌ جدًا. فنحن لم نُعلِّم راديو برج إيفل قواعد اللياقة في باريس لنسمح للجنرال نيسيل ببناءِ برجٍ آخر لإشاعة الأكاذيب هنا في موسكو. في نفسِ اليومِ، كتبت لنيسيل:

"1- من زاوية أن مكتب الدعاية، المُسمَّىٰ بمكتب "المعلومات" في البعثة الفرنسية العسكرية، يُعتبر مصدرًا لنشر هذه الإشاعات الكاذبة عمدًا، بهدف زرع الفوضىٰ بين الناس، فسيُغلق هذا المكتب علىٰ الفور.

2- "الضابط الشاب" الذي لفَّقَ هذه التقارير الكاذبة يُطالب بمغادرة الأراضي الروسية علىٰ الفور أيضًا. وأطالبك بإرسال اسم هذا الضابط لي دون تأخير.

3- يُزال تركيب إرسال الراديو من البعثة علىٰ الفور.

4- يُستدعىٰ الضباط الفرنسيين علىٰ جبهات الحرب الأهلية علىٰ الفور إلىٰ بتروجراد بأمرٍ يُنشر في الصحافة.

5- أطالبك بإخباري بكل الخطوات التي تتخذها البعثة فيما يتعلَّق بالنقاط المذكورة في هذا الخطاب.

مفوَّض الشعب للشئون الخارجية

ليون تروتسكي"

بالفعل، كُشِفَ النقاب عن اسم هذا "الضابط الشاب" وغادر روسيا ككبشِ فداء، وأُزيل تركيب استقبال الراديو، وأُغلِقَ مكتب المعلومات، كما استُدعِيَ جميع الضباط الفرنسيين إلىٰ العاصمة. لم تكن تلكَ إلا أمورًا صغرىٰ تافهة، مناوشاتٍ عابرة لا أكثر، وقد فتحت الباب أمام هدنة غير مستقرة بعدما ذهبت لتولي مفوَّضية الشعب لشئون الحرب. استُبدِلَ الجنرال نيسيل الصريح المباشر بزميله لافيرن المُتَملِّق. إلا أن الهدنة لم تدُم طويلًا، فالبعثة العسكرية الفرنسية، مثلها في ذلك مثل الدبلوماسية الفرنسية، صارت لاحقًا تتورط في كلِ مؤامرةٍ

أو هجومٍ مُسلَّح علىٰ السلطة السوفييتية. ولم يتطوَّر ذلك إلىٰ العلن إلا بعد بريست ليتوفسك، خلال فترة موسكو في ربيع وصيف 1918.

الفصل الثلاثون

في موسكو

فرَّغَ توقيع اتفاقية بريست ليتوفسك للسلام انسحابي من مفوَّضية الشئون الخارجية من أيةِ أهميةٍ سياسية. عاد تشيشرين في تلك الأثناء من لندن ليخلفني في المفوَّضية. عَرِفت تشيشرين منذ زمنٍ طويل. في سنوات الثورة الأولىٰ، تخلىٰ عن منصبه كدبلوماسيٍ رسمي وتَبَنىٰ الاشتراكية الديمقراطية. وكمنشفيٍ، انخرط بحيويةٍ في عمل "مجموعات الدعم" الحزبية بالخارج. ومع اندلاع الحرب، اتخذ موقفًا وطنيًا متشنِّجًا، وحاول الدفاع عنه في خطاباته من لندن، تلك الخطابات التي كان واحدٌ أو اثنين منهم من نصيبي. لكنه سرعان ما اقترب من الأمميين وصار واحدًا من مراسلي ناش سلوفو التي كنت أحرِّرها في باريس. انتهىٰ به المآل إلىٰ سجنٍ إنجليزي، فطالبت بإطلاق سراحه. وحين تعثَّرَت المفاوضات، هدَّدَتُ بالانتقام من الإنجليز. يقول السفير البريطاني بوكانان في مذكراته: "بصرف النظر عمَّا يقوله تروتسكي، إلا أننا إذا ادعينا الحق في القبض علىٰ الروس لتنظيمهم دعايةٍ من أجل السلام في بلدٍ عاكفةٍ علىٰ استكمال الحرب، فله هو الحق أيضًا في القبض علىٰ العناصر البريطانية الذين يدعون للحربِ في بلدٍ يحرص علىٰ السلام".

أُطلِقَ سراح تشيشرين، ووصل إلىٰ موسكو في اللحظةِ المناسبة، وسلَّمته الدفة الديبلوماسية وأنا أتنفَّس الصعداء. لم أكن أظهر في المفوَّضية وقتها علىٰ الإطلاق. ونادرًا ما كان تشيشرين يتصل بي هاتفيًا لاستشارتي في بعضِ الأمور. حتىٰ جاء الثالث عشر من مارس ليُعلن رسميًا عن استقالتي من مفوَّضية الشئون الخارجية، وتعييني مفوَّضًا للحرب ورئيسًا للمجلس الأعلىٰ للحرب الذي تشكَّل قبل وقتٍ قصيرٍ بناءً علىٰ مبادرتي.

إذن، فقد بَلَغَ لينين غايته في النهاية، حيث استغل عرضي بالاستقالة بعد الخلافات التي دارت حول بريست ليتوفسك من أجل تحقيق فكرته الأولىٰ، بعد أن أدخل عليها بعض التغييرات لتناسب الظروف. وحين انتقل العدو من التآمر إلىٰ بناء الجيوش وحشدها للحرب، عبَّرَ لينين عن رغبته في أن أتولىٰ العمليات العسكرية. أقنع سفيردلوف بهذه الفكرة وكسبه إلىٰ صفه. حاولت الجدال ضد ذلك، لكن لينين صعَّدَ هجومه: "من غيرك يمكن تعيينه؟ اعطني اسمًا". فكَّرت لدقيقةٍ، ثم وافقت.

هل كنت جاهزًا فعلًا للعمل العسكري؟ بالطبع لا. لم أكن حتىٰ قد أديت الخدمة العسكرية في جيش القيصر، فقد قضيت هذه السنوات في السجن والمنفىٰ وفي الخارج. في 1906، جرَّدَتني المحكمة من كل حقوقي المدنية والعسكرية. وخلال الأشهر التي قضيتها أثناء حربِ البلقان في صربيا وبلغاريا، ولاحقًا في رومانيا، صرت أقرب إلىٰ الشئون

العسكرية. لكن تناولي لقضايا هذه الحربِ كان، بطبيعة الحال، سياسيًا لا عسكريًا. أما الحرب العالمية، فقد وضعت الجميع - وأنا منهم - في القلبِ من قضايا العسكرية. وحفَّزني عملي اليومي في ناش سلوفو، وكذلك كتاباتي في كيفسكايا ميسي بما يكفي لتنظيم ومنهجة معرفتي وملاحظاتي الجديدة. لكن الأمر الأهم علىٰ الإطلاق هو أن الحرب هي استكمالٌ للسياسة، والجيش هو أداةُ السياسةِ فيها. أما مشكلات التقنية العسكرية وتنظيم الجيوش، فقد كانت في خلفية اهتماماتي حينذاك. وكانت نفسية الجيوش، في الثكنات والخنادق والمستشفيات وما شابه، هي ما سلبت عقلي. وكان ذلك مفيدًا للغاية.

في البلدانِ البرلمانية، غالبًا ما تُسند وزارات الحرب والبحرية إلىٰ محامين وصحفيين، وهؤلاء - مثلي تمامًا - لا يرون الجيش إلا من نوافذِ مكاتبهم، التي هي بالتأكيد أكثر راحةً من مكتبي. لكن هناك فارقًا واضحًا. تتمثَّل المشكلة الرئيسية في البلدان الرأسمالية في الحفاظ علىٰ وجود الجيش، أو بالأحرىٰ الحفاظ علىٰ غطاءٍ سياسي لنظامٍ عسكريٍ مُستدام. أما بالنسبةِ لنا، فكانت المشكلة في تدشينِ حملةٍ كاسحة لكنس بقايا الجيش القديم، وبناءِ جيشٍ جديدٍ مكانه تحت النار، من دونِ خطةٍ موضوعةٍ مُسبَّقًا في الكتب. وهذا يفسِّر لماذا شعرت بالتردُّد تجاه عملي العسكري، ولم أقبله إلا لأن ما مِن أحدٍ يتولَّاه.

لم أتصوَّر نفسي كإستراتيجي بأي صورةٍ كانت، كما كنت نافذ الصبر مع تدخُّلات الإستراتيجيين الهواة، تلك التدخُّلات التي غمرت

الحزب نتيجةً للثورة. لكنني، في مناسباتٍ معينة - في الحرب ضد دينيكين، وفي الدفاع عن بتروجراد، وفي الحرب ضد بيلسودسكي - قد اتخذت مواقف إستراتيجية مستقلة ودافعت عنها، أولًا ضد القيادة العليا، ثم بعد ذلك مراتٍ عديدة ضد أغلبية اللجنة المركزية. في كلٍ من تلك الحالات، كانت مواقفي الإستراتيجية مُحدَّدةً باعتباراتٍ سياسية واقتصادية، وليس فقط باعتباراتٍ إستراتيجيةٍ محضة. وعلىٰ أيةِ حال، لا يمكن حل مثل هذه القضايا الإستراتيجية بأيةِ طريقةٍ أخرىٰ.

تزامن تغيُّر عملي مع نقل مقر الحكومة. وكان انتقال الحكومة المركزية إلىٰ موسكو يمثل، بالطبع، ضربةً قوية لبتروجراد. كانت هناك معارضةٌ عامة لهذا الانتقال، بزعامة زينوفيف، الذي صار في ذلك الوقتِ رئيسًا لسوفييت بتروجراد، وبتأييدٍ من لوناتشارسكي، الذي كان قد استقال من الحكومة بعد الثورة ببضعةِ أيام علىٰ خلفية رفضه تحمُّل مسئولية تدمير كنيسة سان باسيل في موسكو. وحين عاد إلىٰ منصبه في موسكو، لم يكن بوسعه أن يكون جزءًا من سمولني كـ"رمزٍ للثورة".

قيلت مجادلاتٌ أكثر جدية علىٰ لسان آخرين. كانت الأغلبية تخشىٰ تأثير هذا الانتقال علىٰ عمال بتروجراد. أما أعداؤنا، فكانوا يروِّجون شائعاتٍ بأننا تعهَّدنا بتسليمِ بتروجراد للقيصر فيلهلم. لكن، علىٰ العكس، كنت أنا ولينين مصممين علىٰ أن انتقال الحكومة إلىٰ موسكو سيضمن سلامتها وسلامة بتروجراد نفسها. لم تكن رغبة ألمانيا والحلفاء، علىٰ حدٍّ سواء، في الاستيلاء علىٰ العاصمة الثورية

وحكومتها، خافيةً علىٰ أحد. لكن الاستيلاء علىٰ بتروجراد المتضوِّرةِ جوعًا بدون حكومتها هو أمرٌ مختلف. انهارت المعارضة في النهاية، وصوَّتت أغلبية اللجنة المركزية لصالح نقل الحكومة. انتقلت الحكومة بالفعل إلىٰ موسكو في 12 مارس 1918. ولتخفيف حدةِ الانطباع بأننا نبخس قدر عاصمة أكتوبر، بقيت في بتروجراد لأسبوعٍ أو اثنين. احتجزتني إدارة السكك الحديدية في المحطة لبضعِ ساعات؛ كان التخريب يتقلَّص، لكنه كان لا يزال كبيرًا. ووصلت موسكو بعد يومٍ من تعييني مفوَّضًا لشئون الحرب.

المفارقة أن الكرملين، بقبابِهِ المُذهَّبةِ وجدرانه الأثرية، هو نفسه قلعة الديكتاتورية الثورية. لكن المؤكد أن سمولني هو الآخر، الذي كان سابقًا مدرسةً لبنات النبلاء، لم يُبنَ من أجل عيون مندوبي العمال والفلاحين والجنود. لم أدخل الكرملين قط حتىٰ مارس 1918، حتىٰ أنني لم أكن أعرف موسكو ولو معرفةً عامة، باستثناء سجن بوتيرسكي للحبس الاحتياطي، في البرجِ الذي قضيت فيه ستة أشهر من شتاء 1898 – 1899 القارس. كنت أتأمل آثار وتحف الكرملين بإعجابٍ شديد، وكذلك في قصر إيفان الرهيب وغرفة عرشه الهائلة. لكن علىٰ أيةِ حال، كان علينا البقاء هناك لفترةٍ طويلة. كان الاقتراب اليومي مع هذين القطبين التاريخيَّين – مع هاتين الثقافتين اللتين لا مجال للتوافقِ بينهما – مدهشًا ومسليًا. وفي الطريقِ الذي تكتنفه الغابةُ بذراعيها، قبالة قصر نيقولاييف، كنت أنظر علىٰ الجانبين إلىٰ مدفع القيصر وجرسه،

وكانت بربرية موسكو تطل برأسها المتوحشة من فوهتيّ المدفع والجرس. كان الأمير هاملت ليعلّق علىٰ ذلك قائلًا:

"إننا في زمنٍ مضطرب معوَج، ويا له من قضاءٍ جائر أن أكون وُلِدت كي أُقوِّم اعوجاجه"*.

بالطبع لم تكن هذه الهاملتيات بيننا. كان لينين يسمح للحاضرين بالتحدُّث لدقيقتين فقط، حتىٰ في أهم القضايا. يمكن للمرء أن يفكر مليًا في تناقضاتِ بلدٍ متأخرٍ لدقيقةٍ أو اثنتين، في الطريقِ من اجتماعٍ لآخر ليس أكثر من ذلك، بينما يخيِّم الكرملين بظلالِ ماضيه علىٰ الحديث.

كان مبنىٰ كافاليرسكي، المقابل لقصر بوتيشني، مقرًا سكنيًا لموظفي الكرملين قبل الثورة. وكان قائد الحرس يشغل الطابق الأرضي بأكمله. انقسمت شقته بعد ذلك إلىٰ الكثير من الشقق الأصغر. اتخذت أنا ولينين مسكنًا لكلينا عبر الرواق، متشاركين نفس غرفة الطعام. كان الطعام في الكرملين وقتذاك سيئًا للغاية. بدلًا من اللحم الطازج، كانوا يُقدِّمون لحمًا بقريًا بالذرة، علاوة علىٰ الرمال في الطحين والشعير. كان الكافيار الأحمر فقط هو ما يتوافر بكثرة، ذلك الكافيار الذي صبغ السنوات الأولىٰ من الثورة، وليس أنا فقط، بالحُمرة.

---

* ويليام شكسبير، هاملت (أمير دانمركة)، المنظر الخامس، صفحة 70 - دار المعارف. (المترجم)

أُعيدَ بناء الساعة الموسيقية في برجِ سباسكي. صارت الأجراس القديمة الآن تدق أنشودة "الأممية" في تأنٍ وتؤدة، بدلًا من "اللهم احفظ القيصر"، كل رُبع ساعة بالتمام. كان مدخل السيارات تحت برج سباسكي يمر عبر نفقٍ مقوَّس. وفوق هذا النفق أيقونة عتيقة بواجهة زجاجية مُحطَّمة، أمامها مصباحٌ مُطفأ منذ أمدٍ بعيد. حين كنت أخرج من الكرملين، غالبًا ما كان يقع ناظريّ علىٰ هذه الأيقونة، وتلتقط أذناي جلجلة أجراس "الأممية" من الأعلىٰ. فوق البرج وأجراسه، كان هناك نسرٌ مُذهب برأسين، ظلَّ كما هو، ما أُزيلَ منه كان التاجَ فقط. كنت قد أوصيت بوضع المنجل والمطرقة أعلىٰ النسر، لتمييز هذه الحقبة عن تلك من أعلىٰ البرج. لكن لسببٍ أو لآخر لم توضع هذه التوصية قيد التنفيذ قط.

كنت أقابل لينين حوالي عشر مراتٍ كل يومٍ في الرواق؛ ينادي أحدنا الآخر ونتحدَّث في بعض الأمور. أحيانًا ما كانت هذه الأحاديث تستغرق عشر أو خمسة عشر دقيقة، وكان ذلك وقتًا طويلًا علينا. في ذلك الوقتِ، كان لينين يتحدَّث كثيرًا – مقارنةً بطبيعته العادية. كانت هناك الكثير من الأمور الجديدة الغريبة علينا والتي لابد أن نتعامل معها ونستعد لها. كان لابد أن نتكيَّف مع الظروف الجديدة، وبالتالي أحسسنا بالحاجةِ للانتقال دائمًا من الصورة العامة إلىٰ التفاصيل، ثم من التفاصيل إلىٰ الصورة العامة. كانت السحب الخفيفة التي كثَّفتها

خلافات بريست ليتوفسك[5] قد انقشعت دون أن تترك أثرًا يُذكر. كان لينين ودودًا للغاية معي ومع عائلتي. كان غالبًا ما يوقف الولدَين ليلاعبهما في الرواق.

كان أثاث غرفتي من خشب البتولا. وفوق المدفئة، كانت الساعة تدق كل ستين دقيقة بصوتٍ رفيعٍ فضيّ يصدر من كيوبيد والملاك. لم تكن الغرفة تتلاءم مُطلَقًا مع العمل. كانت رائحة كسل وبلادة الطبقة المتسيِّدة تفوح من كلِ مقعدٍ وركنٍ فيها. كان مسكني علىٰ طرفِ المبنىٰ، وخلال تلك السنوات اعتدت أن أنام فيه أثناء زياراتي القصيرة إلىٰ موسكو عائدًا من الجبهة.

علىٰ ما أتذكر، كان ذلك في يوم عودتي من بتروجراد، حين جمعني حديثٌ مع لينين، وكنَّا جالسَين علىٰ أثاث البتولا، وقاطعتنا أجراس كيوبيد والملاك برنينها الفضيّ الرفيع. نظرنا إلىٰ بعضنا كما لو كنَّا نفكر في الأمرِ نفسه، وكأنَّ الماضي المتربِّص لنا في زاوية الغرفة قد استرق السمع إلىٰ حديثنا. في الحقيقة، كان الماضي يحيط بنا من كلِ اتجاه. عاملناه باحترامٍ لا يخلو من لمسةِ سخريةٍ، لكن ليس بعداءٍ فج. من الخطأ الافتراض أننا قد اعتدنا علىٰ الكرملين وما يحيط به، لكن حياتنا كانت أكثر حركية من ذلك؛ لم يكن لدينا وقتٌ للاعتياد علىٰ شيءٍ من الأصل. كنَّا نرمق الأشياء بأطراف عيوننا، ونقول في مخيلتنا للكيوبيد

---

[5] موضحة في الفصول التالية.

والملائكة، في نبرةٍ مستهزِئة: "ألم تتوقَّعوا مجيئنا؟ لم يكن بوسعكم ذلك! إذن تعوَّدوا علينا الآن". لم نعتد علىٰ الأشياءِ من حولنا، لكن جعلناها تعتاد علينا.

ظلَّت القواعد الأدنىٰ من الطاقم القديم في أماكنها كما هي داخل الكرملين، واستقبلنا هؤلاء بقليلٍ من الخوف. كان النظام هناك عنيدًا يعود إلىٰ أيامِ العبودية التي انتقلت من جيلٍ لجيل. ومن بين الخدم وغيرهم كان هناك الكثير من العجائز الذين عاصروا العديد من الأباطرة واحدًا بعد الآخر. أحدهم كان يُدعىٰ ستوبيشين؛ رجلٌ ضئيل الحجم بوجهٍ حليقٍ نظيف، كان خادمًا مطيعًا يخشىٰ كل من حوله.

والآن صار الأصغر سنًا ينظرون إليه باحترامٍ ممزوجٍ بالتحدي. ستوبيشين كان يجوب الأروقة، يضع المقاعد في أماكنها، وينفض عنها الغبار، كان بشكلٍ عام يحافظ علىٰ مظهر النظام القديم. في الغداء، كنَّا نتناول حساءَ خضراواتٍ خفيف مع حنطة سوداء، علىٰ صحونٍ مُزيَّنةٍ بالنسور. هَمَسَ سيروجا لأمه: "ماذا يفعل؟ انظري!". كان العجوز يتحرك كالظلِ في صمتٍ تام خلف المقاعد، يقلِّب الصحون ذات اليمين وذات اليسار. كان سيروجا هو أول من خمَّنَ أن العجوز يفعل ذلك حتىٰ يجعل النسر ذا الرأسين المرسوم علىٰ حافة الطبق يواجه الضيف مباشرةً.

سألت لينين: "هل لاحظت ستوبيشين؟".

فردّ بسخريةٍ دمثة: "وكيف لا ألاحظه؟".

أحيانًا ما كنت أشعر بالشفقة تجاه هؤلاء العجائز الذين اجتُثوا من جذورهم وزُرِعوا في مكانٍ كهذا. سرعان ما التصق ستوبيشين بلينين، وحين انتقل لينين للعيش في بنايةٍ أخرىٰ أقرب إلىٰ مجلس مفوَّضي الشعب، نقل ستوبيشين خدماته إليَّ وزوجتي، وكان واضحًا له أننا نحترم النظام ونُقدِّر مجهوده ورعايته. سرعان ما صدر قرارٌ بحلِّ الطاقم الحاضر، فوفَّقَ الشبابُ منهم أنفسهم مع الظروف الجديدة، أما ستوبيشين فلم يرد أن يخرج علىٰ المعاش، لذا انتقل إلىٰ قصرٍ كبير كان قد تحوَّل إلىٰ متحف. أحيانًا كان يتصل بمبنىٰ كافاليرسكي ليسأل عنَّا ويطمئن علينا. وبعد ذلك، صار حارسًا لبوابة قاعة أندرييفسكي في القصر خلال المؤتمرات والاجتماعات الكبيرة. كان النظام يلازمه أينما ذهب، فقد كان يؤدي نفس الواجبات التي اعتاد عليها في استقبال القياصرة والدوقات الكبار، باستثناء أنه صار يُقدِّم خدماته هذه المرة للأممية الشيوعية. كان قدره، مثل أجراس ساعة برج سباسكي، أن يغيِّر نغمته من ترنيمة القيصر إلىٰ أنشودة الثورة. وحينما كان العجوز يحتضر في المستشفىٰ، في العام 1926، أرسلت له زوجتي الهدايا، وبكت عليه بتأثُّرٍ شديد عرفانًا بجمائله.

استقبلتنا موسكو السوفييتية بفوضىٰ عارمة. كان لدىٰ موسكو مجلسها لمفوَّضي الشعب برئاسة المؤرخ بوكروفسكي، آخر رجل يمكن أن يناسب هذا المنصب. تمدَّدَت المدينة بأمرٍ من سلطة سوفييت

موسكو، حتىٰ لم يعد أحدٌ يعرف أين تبدأ حدودها وأين تنتهي. طالبت موسكو بضم محافظة أرتشانجل إليها شمالًا، ومحافظة كورسك جنوبًا. وهكذا وجدنا في موسكو حكومةً، مشكوكًا في كفائتها، تحوز بين يديها سلطةً علىٰ القطاع الرئيسي في الأراضي السوفييتية.

نجت كلٌ من بتروجراد وموسكو خلال ثورة أكتوبر من التناقض التقليدي بينهما. يُحكىٰ أن موسكو قديمًا كانت قريةً كبيرة، أما بتروجراد فكانت مدينة. مثَّلت موسكو ملَّاك الأرض والتجَّار، وبتروجراد الجيش والموظفين. كانت موسكو روسية نقية، سلافية ومضيافة للجميع - بعبارةٍ أخرىٰ؛ كانت قلب روسيا النابض. أما بتروجراد، فكانت أوروبية، وأنانية، وبعبارةٍ أخرىٰ؛ العقل البيروقراطي للبلد بأسره. وبينما طوَّرت موسكو صناعات النسيج، كانت لدىٰ بتروجراد صناعات التعدين. وانعكست هذه النقائض في الكثيرِ من المبالغات الأدبية المختلفة بهذا القدر أو ذاك. ذات مرةٍ، تسرَّب هذا الشعور إلىٰ صفوفنا، حين امتد الحس الوطني المحلي إلىٰ البلاشفة من السكان القدامىٰ لموسكو. تأسَّسَت لجنةٌ خاصة ترأستها لتنظيم العلاقات مع مجلس مفوَّضي موسكو. كان ذلك عملًا يثير الفضول. شرعنا في تشريحِ مفوَّضيات موسكو بصبرٍ ودأب، وعهدنا إلىٰ الحكومة المركزية ما يندرج في إطارِ مسئولياتها. وإذ تقدَّمنا في هذا العمل، وجدنا من الواضح أن حكومة موسكو الثانية ليست ضرورية. وأدرك الموسكوفيون أنفسهم الحاجةِ إلىٰ تصفية مجلس المفوَّضين.

للمرةِ الثانية في التاريخ، تجمع موسكو الدولة وأجهزة إدارتها.
كان لينين يتعامل، باستهزاءٍ ونفاذِ صبرٍ، وأحيانًا بسخريةٍ مريرة، مع أولئك الذين يجيبون علىٰ كل الأسئلة بصيغٍ دعاويةٍ جوفاءٍ صِرفة. كان يصيح فيهم، بحِدةٍ لا تخلو من دعابة: "أين تظن نفسك يا سيدي؟ في سمولني؟"، أو "استيقظوا رجاءً، نحن لسنا في سمولني، هذا الزمن قد ولَّىٰ وقد مضينا قدمًا". لم يكن لينين يهدر حديثه علىٰ الماضي حين يتعلَّق الأمر بضرورة الإعداد للمستقبل. كنَّا كتفًا بكتفٍ في هذا العمل، لكنني كنت متحذلقًا مقارنةً بمنهجية لينين. ناضلنا بضراوةٍ من دونِ كللٍ ضد الإهمال والترهل من كلِ شكلٍ ولون. وبناءً علىٰ اقتراحي، اعتُمِدَت بعض القواعد ضد المتأخرين عن مواعيدهم وضد الترهُّل في عقد الاجتماعات والمؤتمرات. وخطوة تلو الأخرىٰ، تحوَّلت الفوضىٰ إلىٰ نظام.

قبل بدء جلسات النقاش في قضايا الخلاف بين الإدارات، كان لينين يتصل بي هاتفيًا ليصرّ علىٰ أن أطلع علىٰ الموضوع مُسبَّقًا. أما الأدبيات الراهنة عن الخلافات بين لينين وتروتسكي فتعج بالكثير من الكتابات المشكوك فيها علىٰ أقل تقدير. بالطبع كانت هناك أحيانًا بعض الخلافات، لكن في أغلب الأوقات كنَّا نتوصَّل إلىٰ نفس الاستنتاج بمجرد تبادل بضع كلماتٍ علىٰ الهاتف، أو حتىٰ بشكلٍ مستقلٍ عن بعضنا. وحين يبدو واضحًا أن لكلينا نفس الرأي في قضيةٍ مُحدَّدة، كنَّا نعلم أن القرار الذي نطمح إليه سيُقر بالفعل. وفي أوقاتٍ

حين كان لينين يخشىٰ أن يلقىٰ معارضةً جادة لواحدٍ من مشاريعه، كان يذكِّرني هاتفيًا: "لا تنسىٰ حضور الاجتماع. سأجعلك تتحدَّث أولًا". أتحدَّث لبضعِ دقائقٍ، ليوافقني لينين الرأي مقاطعًا إياي: "نعم"، مرةً أو مرتين، وهذا كفيلٌ بحسم التصويت. ولم يكن ذلك بسبب خوف الآخرين من معارضتنا - في وقتٍ لم تكن هناك أية إشارةٍ للممارسات الراهنة من الالتزام بنهج القيادات والخوف من الإضرار بالنفس بكلمةٍ أو صوتٍ غير لائقٍ - بل بسبب ضعف الخنوع البيروقراطي وقوة سلطة القيادة.

حين اختلفت مع لينين، لم تكن النقاشات المحمومة مُحتملة فحسب، بل أنها كانت تنشب بالفعل. لكن حين نتفق، كانت النقاشات دائمًا مُختصرةً وجيزة. وإذا حدث لسببٍ ما ولم نتمكَّن من الحديث قبل الاجتماع، كنَّا نتبادل الملاحظات المكتوبة أثناءه، وإذا أظهرت هذه الملاحظات اختلافًا بيننا، كان لينين يوجِّه النقاش ناحية تأجيل الموضوع محل الاختلاف. وأحيانًا، في الملاحظات التي أشارت إلىٰ خلافٍ بيننا، كنت أكتب بروحٍ من الدعابة والمرح، ليهتز جسد لينين علىٰ مقعده ضاحكًا وهو يقرأها. كان ميَّالًا للضحك، بالأخص حين يكون متعبًا. إنها واحدة من خصاله الطفولية؛ في أكثر الرجالِ رجولةً تكمن أيضًا الكثير من الخصالِ الطفولية. كنت عادةً أراقبه بسرورٍ حين يكافح جاهدًا للتغلب علىٰ نوبةٍ من الضحك بينما يحاول توجيه

الاجتماع بأقصىٰ قدرٍ من الجدية. كان عظم وجنتيه ينتفخ تحت غشاء الإجهاد والجدية الذي يكسو وجهه.

كانت مفوَّضي الحرب، حيث قمت بمعظم أعمالي - ليس فقط أعمالي العسكرية، بل أيضًا الحزبية والأدبية، ومهامٍ أخرىٰ أُوكلت لي - خارج الكرملين. لم يكن يربطني بمبنىٰ كافاليرسكي إلا مسكني، ولم يكن أحدٌ يأتي لزيارتنا. من كان يأتي ليراني بخصوص بعض شئون العمل، كان يذهب مباشرةً إلىٰ المفوَّضية. أما بالنسبة للزيارات الاجتماعية، فلم تخطر علىٰ بالِ أحد، إذ كنَّا جميعًا منشغلين للغاية طوال الوقت. كنَّا نعود من العمل في حوالي الساعة الخامسةِ مساءً، لأعود مرةً أخرىٰ إلىٰ المفوَّضية في السابعة. ولاحقًا بعدْ وقتٍ طويل حين استقرت الثورة قليلًا، كرَّست هذه الأمسيات للعمل النظري والأدبي.

انضمت زوجتي لمفوَّضية الشعب للتعليم، وكانت مسئولة عن المتاحف والآثار القديمة. كان واجبها نضالًا للحفاظ علىٰ هذه الآثار في ظل ظروفِ الحربِ الأهلية. كان ذلك أمرًا صعبًا وشاقًا. لم تكن القوات البيضاء أو الحمراء تكترث بالبنايات التاريخية أو مباني الكرملين المحلية أو الكنائس القديمة. اتهم حرَّاس القصور والكنائس القوات بعدم احترام الثقافة، وردَّ عليهم مفوَّضو الحرب باتهامهم بتفضيل الجماد الميِّت علىٰ البشرِ الأحياء. رسميًا، بدا وكأنني قد انخرطت في صراعٍ إداراتٍ لا ينتهي مع زوجتي. أُطلِقَت علينا الكثير من النكات حينها.

كنت أتواصل مع لينين في أغلب الأحوال عبر الهاتف. كانت اتصالاتي به واتصالاته بي دائمة ومتكرِّرة، تناولنا فيها عددًا لا يُحصىٰ من القضايا. كانت الإدارات تزعجه أحيانًا بشكاوىٰ ضد الجيش الأحمر، فيتصل بي علىٰ الفور. وبعد خمس دقائق، يتصل مجددًا ليعرف ما إذا كنت قد قابلت مرشحًا لمفوَّضية الشعب لشئون الزراعة أو التفتيش، وأخبره برأيي فيه، ثم بعد ساعةٍ يهتم بمعرفة ما إذا كنت قد اطلعت علىٰ المناقشات حول الثقافة البروليتارية، وما إذا كنت أنوي الهجوم المضاد علىٰ بوخارين. بعد ذلك يسألني عمَّا إذا كانت إدارة الحرب في الجبهة الجنوبية بإمكانها تخصيص بعض الشاحنات لنقل إمدادات الطعام إلىٰ المحطات، ثم يتساءل عمَّا إذا كنت أتابع الخلافات الدائرة في الحزب الشيوعي السويدي. هكذا جرت الأمور يوميًا حين كنت في موسكو.

منذ لحظة الزحف الألماني علينا، تغيَّر فجأةً سلوك الفرنسيين تجاهنا - علىٰ الأقل من قِبَل أكثرهم عقلانيةً. لقد أدركوا حماقة الحديث عن اتفاقٍ سريٍ من جانبنا مع آل هوهنزلرن. وبنفس القدر من الوضوح، كانوا يعلمون جيدًا أن ليس بإمكاننا شن الحرب. وأصرَّ بعض الضباط الفرنسيين حتىٰ علىٰ توقيعنا السلام من أجل كسبِ بعض الوقت. دافَعَ ضابطٌ مخابراتٍ فرنسي عن هذه الفكرة بحماسةٍ خاصة، كان ملكيًا أرستقراطيًا له نظرات مُصطنعة، وقد عَرَضَ عليّ خدماته في أخطر اللجان.

قدَّم لي الجنرال لافيرن، الذي حلَّ مكان نيسيل، نصائح عديدة، بأسلوبٍ حَذِرٍ لا يخلو من لينٍ. لم تكن هذه النصائح ذات قيمة كبيرة، لكن معناها كبيرٌ من الناحية الظاهرية. وفقًا له، قبلت الحكومة الفرنسية ما توصَّل إليه صلح بريست ليتوفسك، فيما كانت مُتردِّدة وقلقة حيال مساعدتنا في بناءِ الجيش. عَرَضَ عليّ أن يضع تحت تصرفي ضباط الكثير من البعثات الفرنسية العائدة من رومانيا. اثنين منهم - عقيد ونقيب - كانا يقطنان في المبنىٰ المقابل لمفوَّضية الحرب، لذا كان بإمكاني استدعائهما دائمًا. لابد أن أعترف أنني تشكَّكت فيهما أنهما أكثر كفاءةً في التجسس العسكري مما في الإدارة العسكرية. بعثوا إليّ بتقاريرٍ لم يتسن لي أي وقتٍ للاطلاع عليها.

كان تعريفي بالبعثات العسكرية للحلفاء واحدًا من حلقاتِ هذه "الهدنة" القصيرة. كان هناك الكثيرُ منها، وتشكَّلت كلُ بعثةٍ من عددٍ من الرجال. جاء حوالي عشرين من مُمَثِّلي هذه البعثات إلىٰ غرفتي الصغيرة، وقدَّمهم لافيرن إليّ، فألقوا التحية ووجَّه بعضهم إليّ بعض المجاملات، فيما ميَّز جنرالٌ إيطالي نفسه عن البقية بتهنئتي بنجاحنا في التخلص من العصابات وقُطَّاع الطرق في موسكو. قال بابتسامةٍ ساحرة: "الآن، يمكن للمرء أن يعيش في موسكو آمنًا كما يعيش في أيةِ عاصمةٍ أخرىٰ"، فأشرت إلىٰ أن ذلك ليس من قبيل المبالغة. بعد ذلك، لم نكن حرفيًا نعرف ماذا نقول لبعضنا. لم ينهض الضيوف للمغادرة، ولم أكن أعرف كيف أتخلص منهم، لكن أخيرًا أنقذني

الجنرال لافيرن من هذا الموقف الصعب سائلًا إياي ما إذا كان لديّ مانعٌ من ألا يشغل المُمثِّلون العسكريون من وقتي أكثر من ذلك. أجبته بأن لا مانع لديّ من انصرافهم، ومع أنني كرهت أن يكون هؤلاء في صحبتي، لم أكن أيضًا أجرؤ علىٰ معارضة طلبه. يمر كلٌّ منَّا بمواقفٍ يتذكَّرها بضحكٍ يخالجه الحرج، واجتماعي هذا مع المبعوثين العسكريين للحلفاء كان من هذا النوع.

تدريجيًا، ابتلَعَت الشئون العسكرية معظم وقتي، والسبب الرئيسي في ذلك هو أنني اضطررت للبدء من الألف باء. وعلىٰ الصعيد التقني، كما علىٰ صعيد العمليات العسكرية أيضًا، تمثَّلت مهمتي بالأساس في أن أضع الرجل الصحيح في المكان الصحيح، ومن ثم أدعه يختبر قدراته وإمكاناته. ولقد امتزج عملي السياسي والتنظيمي في الجيش بالكامل مع عملي في الحزب، ولم يكن للنجاحِ سبيلٌ غير ذلك.

ومن ضمن عمال الحزب في مفوَّضية الحرب، قابلت الطبيب العسكري سكليانسكي، الذي كان، رغم شبابه (26 عامًا في 1918)، كان بارزًا مُتَمَيِّزًا في أساليبِ عمله، وموهوبًا في تقييم الناسِ والظروف، بعبارةٍ أخرىٰ؛ كان يملك خصائص الإداري البارع. وبعد استشارة سفيردلوف، الذي كان لا غنىٰ عنه في مثل هذه الأمور، اخترت سكليانسكي نائبًا لي، ولم أندم علىٰ ذلك مطلقًا. ولقد انطوت نيابتي علىٰ مسئوليةٍ هائلة، إذ أنني كنت علىٰ الجبهة معظم الوقت. ترأس سكليانسكي مجلس الحرب الثوري في غيابي، وقام بتوجيه كافة أعمال

المفوَّضية، تلك الأعمال الخاصة بتلبية احتياجات جبهات القتال، وأخيرًا حضر مُمَثِّلًا عن المفوَّضية في مجلس الدفاع برئاسة لينين.

إذا كان ثمة رجلٍ يمكن أن يُقارن بلازار كارنوت في الثورة الفرنسية، فلابد أنه سكليانسكي. كان دائمًا يقظًا منتبهًا، دؤوبًا لا يكل، علاوة على سعة اطلاعه ودقته. صدرت أغلب أوامر مفوَّضية الحربِ بتوقيعه، وإذ نُشِرت هذه الأوامر في الصحف المركزية والنشرات المحلية، فقد عُرِفَ اسم سكليانسكي على نطاقٍ واسع. وكأي مديرٍ جادٍ وصارم، كان لسكليانسكي أعداءٌ كُثُر. كانت قدراته العفية الشابة تؤرِّق عددًا ليس قليلًا من الوجهاء متواضعي الشأن، وستالين كان يحرِّضهم من وراء الكواليس. شنوا الهجمات على سكليانسكي خلسةً وبغتة، خاصةً حين كنت بعيدًا عن المفوَّضية على الجبهة. عَرِفَ لينين سكليانسكي جيدًا من خلال مجلس الدفاع، ودافَعَ عنه بحمية شديدة. كان يصفه: "عاملًا رائعًا"، و"عاملًا مُميَّزًا". نأىٰ سكليانسكي بنفسه عن كل هذه المؤامرات والمكائد، وظلَّ مُنكبًا على عمله؛ استمع إلىٰ التقارير من الضباط، وجَمَعَ المعلوماتِ من الصناعات العسكرية، وظلَّ يحسب ما تبقىٰ من الأعيرة النارية التي كنَّا دائمًا نعاني العجز فيها. كان سكليانسكي، ذلك الشاب الذي كان يدخِّن بلا توقف، يتصل بالضباط هاتفيًا لتجهيز المعلومات لمجلس الدفاع، وإن اتصل به أحدهم في الثانية أو الثالثة فجرًا يجده لا يزال علىٰ مكتبه في المفوَّضية. كنت أسأله: "متىٰ تنام؟"، فكان يردّ بدعابةٍ ومزاح.

يغمر السرورُ قلبي حين أتذكَّر أن إدارة الحرب كانت شبه خاليةٍ تمامًا من المهاترات والمشاحنات الشخصية التي كان لها أثرًا بالغًا في الإدارات الأخرىٰ. يرجع الفضل في ذلك إلىٰ طبيعةِ العملِ الصارمة والشاقَّة، ونفوذِ القيادة، والاختيار الصائب للعمال (دون محاباةٍ أو تساهل)، بعبارةٍ أخرىٰ؛ روح الإخلاص والولاء اللذين لا يتزعزعان. هذه هي العوامل التي ضمنت العمل المستمر دون انقطاعٍ الذي خَرَجَ من رحِمِ آلياتٍ ثقيلةٍ بطيئة، ومختلة، وغير مُنسجِمةٍ في تركيبها وامتزاجها سويًا. أما إذا تحدثنا عن الأشخاص لا عن قيمِ العمل، فيرجع جزءٌ كبيرٌ من الفضل في ذلك إلىٰ سكليانسكي.

عزلتني الحربُ الأهليةُ بعيدًا عن عمل مجلس مفوَّضي الشعب، إذ تراوحت حياتي بين عربة القطار والسيارة هذه الفترة. وبعد أسابيع وأشهر من تلك الرحلات التي لا تنتهي، انفصلت تقريبًا بشكل كامل عن شئون الحكومة وأعمالها، إذ لم أتمكَّن من تجميع الخيوط سويًا في زياراتي القصيرة إلىٰ موسكو. لكن القرارات التي تخص القضايا الأهم كانت تُتَّخَذ في المكتب السياسي للجنة المركزية، الذي كنت أعود خصيصًا لحضور اجتماعاته بناءً علىٰ استدعاء لينين لي. وفي أحيانٍ أخرىٰ، كنت أدعو، من خلال سفيردلوف، لاجتماعٍ استثنائي للمكتب السياسي لنقاشِ بعضِ القضايا التي أعودُ بها من الجبهة. اقتصرت مراسلاتي مع لينين، خلال تلك السنواتِ، علىٰ أمورٍ تتعلَّق كلها بالحربِ الأهلية؛ كانت ملاحظاتٍ سريعة أو برقياتٍ طويلة، إما

لاستكمالِ محادثاتٍ سابقة أو للتمهيدِ لأخرىٰ مستقبلية. ورغم الإيجاز العملي الشديد لهذه المراسلات، فقد عَكَسَت، أفضل من أيِ شيءٍ آخر، العلاقات الحقيقية داخل المجموعة القيادية للبلاشفة. سأنشر هذه المراسلات عمَّا قريب في المستقبل مصحوبةً بحواشٍ من التعليقات الضرورية، وسيكون هذا دحضًا قاتلًا لمؤرخي مدرسة ستالين.

حين كان ويلسون يُخَطِّط، ضمن مشاريعه الطوباوية المثيرةِ للشفقة، لعقدِ مؤتمرٍ لحكومات روسيا جميعها، أرسل لي لينين علىٰ الجبهة الجنوبية برقيةً يقول فيها: "ويلسون يعرض الهدنة ويدعو حكومات روسيا إلىٰ مؤتمرٍ مشترك... ربما تكون أنت من عليه أن يلبي الدعوة". لم تمنع الاختلافات حول صلح بريست ليتوفسك لينين من الاستعانة بي حين طرأت مهمةٌ ديبلوماسيةٌ هامة مجددًا، لكنني كنت في ذلك الوقتِ غارقًا حتىٰ أنفي في العمل العسكري. وكما يعلم الجميع، لم يسفر شيءٌ عن جهود ويلسون المُحِبِ للسلام، كما لم تتسن لي فرصةُ الذهاب إلىٰ المؤتمر.

وفضلًا عن مئات الشهادات علىٰ لسان لينين نفسه، هناك أيضًا قصة معروفة لمكسيم جوركي عن موقفه من عملي الحربي: "ضرب الطاولةَ بقبضته وقال: هل يدلني أحدكم علىٰ رجلٍ غيره تَمَكَّنَ من بناء جيشٍ شبه نموذجيٍ مثل هذا في عامٍ واحد، بل وحظىٰ حتىٰ باحترامِ

الخبراء والأخصائيين العسكريين؟ لدينا هذا الرجل. لدينا كل شيء. بمقدورنا صنع المعجزات".

وفقًا لجوركي، قال لينين له في نفس المحادثة: "نعم، نعم. أعلم ذلك. هناك الكثير من الأكاذيب التي تُردَّد حول علاقتي به. هناك الكثير من الأكاذيب، خاصةً عن العلاقة بيننا". ماذا إذن بوسع لينين أن يقول إذا كان حيًّا اليوم حين يعلم أن الكذب المُختلق حول علاقتنا المشتركة، رغم الحقائق والوثائق والمنطق، صار عقيدةً للدولة؟

حين ذهبت إلىٰ مفوَّضية الشعب للشئون الداخلية في اليوم الثاني بعد الثورة، طرحت ضمن ما طرحت قضية العنصرية علىٰ طاولة النقاش. لعل هذه القضية تتضمَّن، في إدارةِ الحربِ، تعقيداتٍ أكبر بكثيرٍ مما في الإدارة المدنية. لكن لينين كان علىٰ حق في هذا الصدد. في سنواتِ النهوض الثوري، لم تكن لهذه القضية أهميةٌ تُذكر. بالطبع حاولت القوىٰ البيضاء بعث دوافعٍ معاديةٍ للسامية في دعايتهم إزاء الجيش الأحمر، لكنهم مُنيوا بفشلٍ ذريع. هناك الكثير من الشهادات المُتعلِّقة بهذا الأمر، حتىٰ في الصحافةِ البيضاءِ نفسها. في "أراشيف الثورة الروسية"، المنشورة في برلين، يقول كاتبٌ أبيض إن "قوزاقيًا جاء ليرانا قد تأذّىٰ من تهكمِ أحدهم عليه بأنه لا يخدم فحسب تحت إمرة يهودي (تروتسكي)، بل يقاتل من أجله أيضًا، فردَّ عليه بإيمانٍ وقناعةٍ قائلًا: لا شيء من هذا القبيل. تروتسكي ليس يهوديًا. تروتسكي مقاتل. إنه مقاتلنا... إنه روسي".

يذكر بابل، أحد أكثر كتّابنا الشباب موهبةً، قصصًا كهذه في كتابه "جيش الأحصنة". اكتسبت مسألة أصلي اليهودي أهميةً كبرىٰ فقط بعدما صِرْت في مرمىٰ نيران التصيُّد السياسي. رفعت معاداة السامية رأسها مع رأس مناهضة التروتسكية، وانبثق الاثنان من نفس النبع – الرِدة البرجوازية الصغيرة ضد أكتوبر.

الفصل الحادي والثلاثون

مفاوضات بريست ليتوفسك

مرَّ المرسوم الذي يعلن استعدادنا لإقرارِ السلام علىٰ مؤتمر السوفييتات في 26 أكتوبر، بينما كان سوفييت بتروجراد فقط هو ما في أيدينا. وفي 7 نوفمبر، بعثت بنداءٍ عبر الراديو للدولِ الحليفة والقوىٰ المركزية، داعيًا إياهم لإبرامِ سلامٍ شامل. لكن حكومات الدول الحليفة ردَّت، عبر عملائها، بأن أبلغت الجنرال دوخونين، القائد الأعلىٰ للجيش الروسي، أن أية خطواتٍ في اتجاهِ مفاوضاتٍ منفصِلة سوف تتبعها "أوخم العواقب". لم أدَّخِر جهدًا في الرد علىٰ ذلك بتوجيهِ النداءِ لجماهير العمال والجنود والفلاحين. كان ذلك نداءً قاطعًا حاسمًا: "لم نُطِح ببرجوازيتنا كي تُسفك دماء جيشنا بأمرٍ من برجوازيةٍ أجنبية".

وفي 22 نوفمبر، وقَّعنا اتفاقية هدنة عبر كافة أرجاء جبهات القتال، من البلطيق إلىٰ البحرِ الأسود. ومرةً أخرىٰ دعونا الحلفاء للانضمام إلينا في مفاوضاتِ السلام. لم يأتِ أي رد، وحتىٰ لم تصدر ثمة تهديداتٌ أخرىٰ، وبدا أن حكومات الحلفاء قد تعلَّمت شيئًا، فبدأت مفاوضات السلام في 9 ديسمبر، أي بعد ستة أسابيع من إقرار مرسومِ السلام، ما ترك وقتًا كافيًا لدولِ الوفاق كي تحدِّد موقفها من هذه

القضية. وفي نهايةِ المطاف، أصدر وفدنا إعلانًا رسميًا ينص علىٰ مبادئ السلم الديمقراطي.

طَلَبَ الجانب الآخر تأجيلًا، فتأجَّلَ استئناف المؤتمر مرارًا وتكرارًا. وكان علىٰ وفود التحالف الرباعي أن تتعاطىٰ مع كافة ألوان الصعوبات الداخلية لتقديمِ ردٍ مُوحَّدٍ إلينا، ذلك الرد الذي وَصَلَ فقط في 25 ديسمبر. وقد "انضمت" حكومات التحالف الرباعي إلىٰ صيغة السلام الديمقراطي التي أرسيناها: "لا إلحاقات، لا تعويضات، وحق الشعوبِ في تقريرِ مصيرها".

وفي 28 ديسمبر، انطلقت مظاهرةٌ ضخمةٌ في بتروجراد علىٰ شرفِ السلام الديمقراطي المُزمَع عقده. ورغم أن الجماهير ارتابت من الرد الألماني، فقد تقبَّلوه كانتصارٍ معنوي عظيمٍ للثورة. وفي صباحِ اليوم التالي، عادَ وفدُنا من بريست ليتوفسك بالمطالبِ الجائرةِ التي بعثها كوهلمان نيابةً عن القوىٰ المركزية.

قال لينين: "من أجل تأخيرِ المفاوضات، لابد أن يقوم أحدٌ بذلك". وبعد إصرارٍ منه، استعددت للانطلاق إلىٰ بريست ليتوفسك. لابد أن أعترف هنا أنني شعرت وكأنني أُساق نحو غرفة تعذيب، فلطالما كان المكوث مع أُناسٍ غرباء يثير مخاوفي. لا يمكنني مطلقًا أن أفهم أولئك الثوريين الذين لا مانع لديهم في قبولِ تعيينهم كسفراءٍ في دولٍ أجنبية ومن ثم ينسجمون في محيطهم كالسمكِ في الماء.

في بريست ليتوفسك، قوبِلَ الوفد السوفييتي الأول، برئاسة يوفي، بتملُّقٍ مُبالغٍ فيه من قِبَل الألمان. استقبلهم الأمير ليوبولد من بافاريا كـ"ضيوفٍ" له. ولابد أن الجنرال هوفمان كان يراقب باهتمامٍ بالغ مندوبة الوفد، فيتزينكو، التي كانت من زمنٍ بعيد قد اغتالت الجنرال سوخاروف. اتخذ الألمان مقاعدهم بين رجالنا، وحاولوا استخراج ما أرادوه من معلوماتٍ منهم. تضمَّن الوفد الأول عاملًا وفلاحًا وجنديًا. صار هؤلاء مندوبين في الوفد بالصدفة البحتة، ولم يكونوا مستعدين بما فيه الكفاية لهذا النوع من الخدع والمراوغات. تحمَّس الفلاح، الذي كان رجلًا عجوزًا، لتناول نبيذ أكثر مما ينبغي له.

كان فريق الجنرال هوفمان يصدر صحيفةً تُدعىٰ "المراسل الروسي"، مُوجَّهةً إلىٰ الأسرىٰ الروس. كانت هذه الصحيفة، في مراحلها الأولىٰ، تتحدث عن البلاشفة بتعاطفٍ عميق. "يسألنا قراؤنا من هو تروتسكي"، هكذا بدأ هوفمان في تعريف الأسرىٰ الروس بي، وبإعجابٍ شديد أخَذَ يخبرهم عن نضالي ضد القيصرية وعن كتابي "روسيا في الثورة" الذي صَدَرَ بالألمانية.

"العالم الثوري بأسره استثار من فرطِ الحماس بهروبي"، ثم يستكمل قائلًا: "حين أطيح بالقيصرية، سرعان ما زجَّ أصدقاؤها السريون بتروتسكي في السجن فور عودته من المنفىٰ الطويل". باختصار، لم يكن هناك ثوريون أكثر اتقادًا من ليوبولد في بافاريا وهوفمان في بروسيا.

لكن هذه الأقصوصة الملحمية لم تدم بالطبع. فعند التقائنا في مؤتمر بريست ليتوفسك، في 7 فبراير، ذلك المؤتمر الذي لم يكن يشبه أقاصيصهم تلك في شيء، أبديت ملاحظةً مشيرًا فيها إلىٰ الماضي، قائلًا: "نحن أميَلُ إلىٰ الأسَفِ علىٰ المجاملات السابقة علىٰ أوانها والتي وجَّهتها إلينا الصحافة الألمانية والنمساوية المجرية الرسمية. لم يكن ذلك ضروريًا علىٰ الإطلاق لإنجاح مسيرنا في مفاوضات السلام".

وفي هذا الصدد، مرةً أخرىٰ لم تكن الاشتراكية الديمقراطية أكثر من ظلٍ لحكومات هوهنزلرن وهابسبورج. حاول شيدمان وإيبرت وآخرون في البداية أن يربتوا علىٰ ظهورنا بتسامحٍ ومودة. في 15 ديسمبر، كتبت "صحيفة العمال"، الناطقة بلسان الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي، ببلاغةٍ عجيبة: "المبارزة بين تروتسكي وبوكانان إنما تمثِّل رمز الصراع الأعظم في هذا العصر؛ صراع البروليتاريا ضد رأس المال". في تلك الأيام، بينما كان كوهلمان وسيرنين يحاولان عرقلة الثورة الروسية في بريست ليتوفسك، لم يكن الماركسيون النمساويون يرون شيئًا إلا "المبارزة" بين تروتسكي وبوكانان! حتىٰ يومنا هذا، لازلت أتذكَّر هذا النفاقِ باشمئزازٍ شديد.

كتب ماركسيو هابسبورج: "تروتسكي ممثِّلٌ مُخوَّلٌ لتحقيق السلام بإرادةِ الطبقة العاملة الروسية التي تحاول الفِكاك من الأصفاد الذهبية التي تُكبِّلها برأس المال الإنجليزي". أما هؤلاء، قادة الاشتراكية

الديمقراطية، فقد قيَّدوا أنفسهم برأس المال النمساوي الألماني طواعيةً، وأخذوا يعاونون حكوماتهم لتكبيل الثورة الروسية عنوةً. وفي المراحل الأصعب من مفاوضات بريست ليتوفسك، حين كنت أنا أو لينين نقرأ نسخةً من صحيفة "إلىٰ الأمام" البرلينية، أو "صحيفة العمال" الفيينية، يشير كلٌ منَّا للآخر في صمتٍ إلىٰ السطور المُخطَّط تحتها بقلمِ رصاصٍ مُلوَّنٍ، ننظر لبعضنا للحظة، ثم نستدير بشعورٍ مفرِط بالعار لأولئك الرجال الذين كانوا منذ يومٍ واحد رفاقنا في الأممية. كل من مرَّ بهذه المرحلة أدرك للأبد، أيًا كانت تقلُّبات الظرف السياسي، أن الاشتراكية الديمقراطية ماتت تاريخيًا.

ولإنهاء هذه الحلفة التنكرية، تساءلت في صحفنا حول ما إذا كانت قيادة الأركان الألمانية بمقدورها إذن أن تخبر الجنود الألمان شيئًا عن روزا لكسمبورج وكارل ليبكنيخت، ثم أصدرنا كتيبًا خاصًا عن هذا الموضوع للجنود الألمان، وبدا أن صحيفة الجنرال هوفمان قد عضَّت لسانها فلم تنطق ببنت شفة. وعلىٰ الفور بعد وصولي إلىٰ بريست ليتوفسك، احتج هوفمان ضد دعايتنا بين القوات الألمانية. رفضت أن أناقش الأمر، واقترحت أن يواصل الجنرال دعايته وسط القوات الروسية، فالظروف كانت واحدة؛ الفرق الوحيد فقط كان في نوعية الدعاية. ذكَّرته أيضًا بأن تباينَ الرؤىٰ بيننا حول قضايا محوريةٍ وهامةٍ مثل تلك معروفٌ منذ زمنٍ طويل، حتىٰ أن محكمةً ألمانيةً قد أقرَّت هذا التباين واعتمدته حين حكمت عليّ غيابيًا بالسجن أثناء الحرب. طَرَقَ

هذا التذكير الجريء وترًا حساسًا، فاندهش الكثير من هؤلاء الرجال المحترمين فاغرين أفواههم. ثم التفت إلىٰ هوفمان وكوهلمان، وسألتهما: "هل تودان أن أرد؟"، فسارعني بالرد: "كلا، هذا يكفي".

وباعتباري رئيس الوفد السوفييتي، قرَّرت أن أوقف علىٰ الفور هذه الألفة التي تسرَّبت بصورةٍ تدريجية خلال المراحل الأولىٰ من المفاوضات. ومن خلال ممثلينا العسكريين، أعلنت أن ما مِن رغبةٍ لديّ في التعرُّف بأمير بافاريا. سُجِّلَ هذا الأمر. ثم طالبت بالفصلِ بين الوفودِ أثناء تناول وجبات العشاء، بحجةِ أننا بحاجةٍ لعقدِ اجتماعاتٍ فيما بيننا بين جلسات المفاوضات. هذا أيضًا قوبِلَ بالموافقةِ في صمت.

كتب سيرنين في يومياته عن يومِ 7 يناير، قائلًا: "جاء أعضاء الوفد الروسي، بزعامة تروتسكي، قبل وقت العشاء مباشرةً، واعتذروا جميعًا علىٰ الفور عن مشاركتنا وجبات العشاء في المراتِ المقبلة، ثم اختفوا عن الأنظار. هذه المرة بدا أن رياحًا مختلفة قد هبَّت في اللحظةِ الأخيرة". تنحَّىٰ الودُّ المُختَلَق واللطف المُصطنع جانبًا، ليتيح المجال لشكلٍ رسميٍ في التعامل. وكان ذلك حقًا مناسبًا للغاية، إذ كان علينا أن نجتاز المُقدِّمات الأكاديمية لننتقل إلىٰ القضايا الملموسة لمعاهدة السلام.

كان كوهلمان أعلىٰ شأنًا من سيرنين، وربما من كافة الديبلوماسيين الآخرين الذين قابلتهم في سنواتِ ما بعد الحرب. تَرَكَ هذا الرجل

انطباعًا لديّ بأنه ذو شخصيةٍ وعقلٍ عمليين أكثر بكثيرٍ من المألوف، بما لا يخلو من حقدٍ وغلٍ لم يشملنا نحن فقط، بل امتد إلىٰ أعزائه الحلفاء أيضًا.

وخلال النقاش حول مسألة المقاطعات المُحتَلة، وَقَفَ كوهلمان بطولِ قامته، رافعًا صوته قائلًا: "أراضينا الألمانية، بفضلِ الله، ليست مُحتَلة من قِبَلِ أية قوات في أي مكان". عندئذٍ، اخضرَّ وجه سيرنين وانكمش جسده بشكلٍ لافت، إذ كان كوهلمان يلمح إليه بما قاله. ليست العلاقة بينهما تمت للصداقة من قريبٍ أو بعيد. ولاحقًا، حين جاء الحديث عن بلاد فارس، التي كانت خاضعةً لاحتلال جيوشٍ أجنبيةٍ من كلا الطرفين، أشرت إلىٰ أنه نظرًا لكونها، علىٰ عكس الإمبراطورية النمساوية المجرية، ليست في تحالفٍ مع أحد، فليس من دواعي السرور لدىٰ أيٍ منّا كون أراضي فارس هي المُحتَلة وليست أراضينا. حينها، قَفَزَ سيرنين وصَاحَ "غير معقول". ظاهريًا، كان هذا الصياح موجَّهًا إليّ، لكن في الحقيقة كان كوهلمان هو المقصود. مواقف كهذه كانت كثيرة الحدوث.

وكلاعبِ شطرنجٍ جيد لم يواجه منذ فترةٍ طويلة إلا لاعبين أضعف، وقد فَقَدَ بعضًا من مهاراته، كان كوهلمان، الذي انحصرت لقاءاته طيلة الحرب فقط مع الديبلوماسيين النمساويين المجريين، والأتراك، والبلغاريين، والأتباع المحايدين، يميل إلىٰ إساءة تقدير خصومه الثوريين، واتباع طرقٍ قذرةٍ في اللعب. غالبًا ما كان يذهلني

دهشةً، خاصةً في المراحل الأخيرة من المفاوضات، ببدائية أساليبه وافتقاره إلىٰ فهم نفسية خصمه.

استثرت بشكلٍ كبير، وغير مُستَحَب، حين ذهبت لحضور اجتماعي الأول مع الديبلوماسيين. حين كنت أعلّق معطفي في القاعة، صادفت كوهلمان وجهًا لوجه. لم أكن أعرفه شكلًا، فقدَّم نفسه إليّ، وأضاف علىٰ الفور أنه "سعيدٌ للغاية" بحضوري، إذ من الأفضل التعامل مباشرةً مع الرئيس لا مع مبعوثه.

حمل وجهه انطباعًا بعدم الارتياح وعدم الرضا بهذه المقابلة، انطباعًا لا ينم إلا عن غرور. شعرت وكأنني قد خطوت لتوي علىٰ شيءٍ قذر، حتىٰ أنني رجعت للوراء دون وعي. أدرك كوهلمان حماقته، فصار أكثر حذرًا وتحوَّلت لهجته علىٰ الفور لتصبح أكثر رسمية. لكن هذا لم يمنعه من اتباع نفس الأسلوب في حضوري مع رئيس الوفد التركي، وهو قاضي وديبلوماسي قديم. وحين كان هذا الرجل يعرِّفني بزملائه، انتظر كوهلمان حتىٰ ابتعد الوفد التركي علىٰ مسافةِ خطواتٍ معدودة، ثم قال لي بهمسةٍ مسرحيةٍ واثقة، تعمَّد أن تصل إلىٰ أسماع الآخرين: "إنه أفضل ديبلوماسي في أوروبا". وحين قلت ذلك ليوفي، ردَّ ضاحكًا: "في لقائي الأول مع كوهلمان قال لي بالضبط نفس الشيء". بدا الأمر تمامًا كما لو أن كوهلمان يقدِّم لهذا "الديبلوماسي الأفضل" تعويضًا أفلاطونيًا عن ابتزازاتٍ غير أفلاطونية. من المُحتَمَل أيضًا أنه كان يحاول ضرب عصفورين بحجرٍ واحد، إذ يخبِر سيرنين

بطريقةٍ غير مباشرة أيضًا أنه لا يعتبره أفضل ديبلوماسي - من بعده هو بالطبع. في 28 ديسمبر، قال كوهلمان لسيرنين، وفقًا لما جاء في مذكراتِ الأخير: "الإمبراطور هو الرجل الذكي الوحيد في كلِ ألمانيا". أتصوَّر أن لم تكن هذه الكلمات مُوجَّهةً إلىٰ مسامع سيرنين بقدرِ ما كانت للإمبراطور نفسه. وفي إرسال مثل تلك الإطراءات، كان الديبلوماسيون بلا شكٍ يساعدون بعضهم البعض. يقولونها بالفرنسية: "تملَّق، تملَّق. هناك دائمًا شيءٌ لتكسبه".

كان هذه هي المرة الأولىٰ التي أشتبك فيها بهذا القرب مع هذه الدائرة الاجتماعية. بالطبع لم يكن لديّ قبل ذلك أي أوهام حولها؛ كانت لديّ شكوكٌ عميقة بأن "هذه الأواني لم تصنعها الآلهة". لكن لابد لي أن أعترف بأنني ظننت أن المستوىٰ العام سيكون أرقىٰ من ذلك، بينما كان انطباعي عن الاجتماع الأول شيئًا من قبيل: هؤلاء الرجال يبخسون قدرِ بعضهم، ولا ينظر أيٌ منهم إلىٰ نفسه علىٰ نحوٍ أفضل من ذلك كثيرًا.

وفي هذا الصدد، ربما تكون الواقعة التالية ذات أهمية خاصة. بعد تحريضٍ وإلحاحٍ من جانبِ فيكتور أدلر، الذي بالمناسبةِ حاول بشتىٰ الطرقِ خلال تلك الأيام أن يُظهِر تعاطفه الشخصي معي، اقترَحَ الكونت سيرين، هكذا بشكلٍ عارض وبغير اكتراث، أن تُنقَل مكتبتي، التي تُرِكَت في فيينا في بداية الحرب، إلىٰ موسكو.

كانت المكتبة حقًا ذات قيمةٍ رفيعة، إذ كنت قد جمعت خلال سنوات المنفىٰ الطويلة مجموعةً كبيرةً من الأدب الثوري الروسي. لم يتسن لي أن أعرب عن امتناني لذلك، حتىٰ طلب مني ذلك السيرنين أن أجري تحقيقًا في قضية الأسيرَين النمساويَّين اللذين عوملا معاملةً قاسية، كما يزعم. هذه الانتقال المباشر والحاد من أمرِ المكتبة إلىٰ قضية الأسيرَين، اللذين لم يكونا جنديَّين بالطبع بل ضابطين من الدوائر المُقرَّبة من الكونت، بدا صفيقًا ووقحًا للغاية. رددت باقتضابٍ بأنه إذا ثبتت صحة معلومات سيرنين، سيكون بالطبع من واجبي أن أفعل ما هو ضروري، لكن هذا الأمر لا علاقةَ له بمكتبتي. وفي مذكراته، يقدِّم سيرنين سردًا دقيقًا إلىٰ حدٍ ما لهذه الواقعة، دون أن ينفي محاولته لربط شأن الأسيرَين بمكتبتي. علىٰ العكس؛ بدا أنه يعتبر هذا الربط طبيعيًا ومُبرَّرًا، ثم أنهىٰ قصته بعبارةٍ غامضة، قائلًا: "من الواضح أنه أرادَ مكتبته". ربما أضيف هنا فقط أنني، بعد أن استلمت المكتبة مباشرةً، سلَّمتها إلىٰ واحدةٍ من المؤسسات التعليمية في موسكو.

حكمت إرادة التاريخ بأن يجلس مندوبو أكثر الأنظمةِ ثوريةً في تاريخ البشرية علىٰ طاولةٍ واحدةٍ مع مُمَثِّلي أكثر السلطات رجعيةً بين كل الطبقات الحاكمة. كان الرعب الذي انتابَ خصومَنا من التفاوض مع البلاشفة ظاهرًا في استعدادهم لقطع المفاوضات بدلًا من تحويلهم إلىٰ بلدٍ مُحايد. يقول سيرنين في مذكراته بوضوحٍ إن في حالة تحوُّل روسيا السوفييتية إلىٰ بلدٍ مُحايد، سيُمسِك البلاشفة بزمامِ الأمورِ بين

أيديهم، بمساعدة أصدقائهم الأميين. ومن الناحية الرسمية، استخدَمَ سيرنين حجةَ أن في بلدٍ مُحايد ستُتاح الفرصة أمام إنجلترا وفرنسا لتدبير المؤامرات والمكائد، "سواء بشكلٍ علني أو من وراء الستار". رددت بأن ممارستنا السياسية لا شأن لها بما قد يجري من وراء الستار، إذ أن هذا السلاح الذي طالما استخدمته الديبلوماسية القديمة حطَّمته الجماهير الروسية، إلىٰ جانبِ أشياءٍ أخرىٰ، في انتفاضتها الظافرة في 25 أكتوبر. لكن كان علينا أن نذعن إلىٰ هذا الإنذار، فبقينا في بريست ليتوفسك.

كانت بريست ليتوفسك، المُحتَلة آنذاك من قِبَلِ هيئة الأركان الألمانية، ممحوَّة من الوجود، هكذا بالمعنىٰ الدقيق للكلمة، بعد أن ساوتها قوات القيصر بالأرضِ في غضبٍ عاجزٍ أثناء الانسحاب. لابد أن هوفمان قد اختارَ هذه البلدة القديمة مركزًا لهيئة أركانه لأنه علم جيدًا أنها ستُبقي أعضاءها في قبضته.

كانت المفروشات والأطعمة من أبسط ما يكون، والجنود الألمان حاضرين في كل مكان. كنَّا بالنسبةِ لهم رُسل سلام، فنظروا إلينا بأمل. كان سياجٌ مرتفعٌ من الأسلاك الشائكة يحيط بمبنىٰ هيئة الأركان. في تمشيتي الصباحية، كنت أمر بلافتاتٍ مكتوب عليها: "أي روسي يتواجد في هذا المكان سيُطلَق عليه النار". كان هذا عائدًا علىٰ الأسرىٰ بالطبع، لكنني سألت نفسي ما إذا كان ينطبق علينا أيضًا، إذ كنَّا شبه أسرىٰ نغادر لاحقًا. كان ذلك طريقًا إستراتيجيا يمر عبر بلدة بريست

ليتوفسك. خلال الأيام الأولىٰ من الفترة التي قضيناها هنا، كنَّا نستخدم السيارات التابعة لهيئة الأركان في جولاتنا عبر البلدة، وكنتيجةٍ لذلك نشبت مشاجرة بين أحد أعضاءِ وفدِنا ورقيبٍ ألماني. بعث هوفمان بشكوىٰ رسميةٍ لي، فجاء ردي بأننا نمتنع منذ هذه اللحظة، مع الشكر، عن استخدام السيارات الموضوعة تحت تصرُّفنا. استمرت المفاوضات. كان علينا جميعًا أن نتواصل مع الحكومات المعنية بالبرقيات المباشرة، لكن هذه البرقيات لم تكن تجدي نفعًا في كثيرٍ من الأحيان. لم نكن قادرين علىٰ تحديدِ ما إذا كان ذلك حقًا لأسبابٍ مادية أم أن الأعطال اختُلِقَت كي يتمكَّن أعداؤنا من كسبِ الوقت. لكن، علىٰ أيةِ حال، أخذت الفترات الفاصلة بين الاجتماعات في التزايد، ودام بعضها لأيامٍ طويلة. وخلال إحدىٰ تلك الفترات، ذهبت في رحلةٍ إلىٰ وارسو، وكانت المدينة تقبع تحت رحمة حراب البنادق الألمانية. تجلَّىٰ اهتمامٌ كبيرٌ لدىٰ سكَّان المدينة بالديبلوماسيين السوفييتيين، لكنهم عبَّروا عن ذلك بحذرٍ شديد، إذ لم يكن أحدٌ يعرف كيف ستنتهي الأمور.

كان التأخُّر في المفاوضات يصبُّ في صالحنا، وهذا بالتحديد كان الهدف الحقيقي الذي رميت إليه من ذهابي إلىٰ بريست ليتوفسك. لكنني لا أعزو الفضل لنفسي في هذا الشأن، فقد ساعدني شركائي في ذلك بأفضل ما كان بإمكانهم. كتب سيرنين يائسًا في مذكراته: "الوقت وفيرٌ هنا. الآن الأتراك ليسوا مستعدين، ثم البلغاريون، ثم بعد ذلك

الروس. تُؤجَّل الاجتماعات مرةً بعد أخرىٰ، أو تُقْطَع فور بدءها". بدأ النمساويون بدورهم يؤخِّرون المفاوضات حين اصطدموا ببعضِ الصعوبات مع الوفد الأوكراني. لكن هذا لم يمنع كوهلمان وسيرنين، في بياناتهم الرسمية، من اتهام الوفد الروسي وحده بمحاولة إطالة أمد المفاوضات. اعترضت علىٰ ذلك بإصرارٍ، لكن ذهبت اعتراضاتي سُدىٰ.

تلك المجاملات الخرقاء التي فاضت بها الصحافة الألمانية، التي لا تتحدَّث إلا بهوىٰ السلطات ومُرادها، علىٰ البلاشفة، لم يتبق منها شيءٌ بحلولِ نهايةِ المفاوضات. تذمَّرَت صحيفة "روندشاو" البرلينية، علىٰ سبيل المثال، من أن "تروتسكي في بريست ليتوفسك قد خَلَقَ لنفسه منصةً تبث صوته إلىٰ كافة أرجاء العالم"، ثم بناءً علىٰ ذلك طالَبَت بوضعِ حدٍ لذلك في أسرعِ وقتٍ ممكن. ذكرت الصحيفة أيضًا أن "لينين وتروتسكي لا يريدان السلام، لأنه علىٰ الأرجح يعني لهما إما المشنقة أو السجن". أما الصحافة الاشتراكية الديمقراطية فكانت تنطوي علىٰ نفس هذه النغمة من حيث الجوهر، إذ رأىٰ أتباع شيدمان وإيبرت وستامبفر في تطلُّعاتنا إلىٰ ثورةٍ في ألمانيا جريمةً كبرىٰ لنا. لم يدرك هؤلاء السادة أن، في غضون بضعةِ أشهر، ستسحبهم الثورة من قفاهم لتضعهم في سدة الحكم.

بعد انقطاعٍ طويلٍ عن الصحف الألمانية، أخذت في قراءتها مرةً أخرىٰ باهتمامٍ بالغ في بريست ليتوفسك. تعاطت هذه الصحف مع مفاوضات السلام بمعالجةٍ دعائيةٍ دقيقة للغاية.

لكن الصحف وحدها لم تكن كافية لإشغال حياتي كلها، لذا قرَّرت أن أستفيد بالكامل من هذه الفسحة من الوقت المفروضة عليّ، والتي لم أكن أتوقَّعها في المستقبلِ القريب. كان معنا كثيرٌ من المدوِّنين الذي عملوا سابقًا في دوما الدولة، لذا بدأت أملي عليهم، من الذاكرة، مخططًا تاريخيًا لثورة أكتوبر.

ومن بضعِ جلساتٍ خَرَجَ كتابٌ يُوجَّه بالأساسِ للعمال الأجانب. كانت ضرورة توضيح ما جرىٰ لهم أمرًا إلزاميًا لنا. كنت قد تناقشت مع لينين أكثر من مرةٍ حول هذه الضرورة القصوىٰ، لكن لم يتسن لأيٍ منَّا الوقت لها، في حين لم يكن في حسباني مطلقًا أن بريست ليتوفسك ستكون مكانًا أتمكَّن فيه من إنجاز بعض العمل الأدبي. سعد لينين للغاية حين جلبت معي مسودةً جاهزةً عن الثورة الروسية. رأينا في هذه المسودة تعويضًا متواضعًا عن السلام الجائر الذي أبرمناه. وسرعان ما تُرجِمَ الكتاب إلىٰ عددٍ من اللغاتِ الأوروبية والآسيوية.

ورغم أن كافة الأحزاب المُشارِكة في الأممية الشيوعية قد حذت حذو الروس وأصدرت طبعاتٍ لا حصرَ لها من هذا الكتاب، لم يمنع هذا رجال الصف الثاني، بعد عام 1923، من إعلانه جرعةً سامةً من

التروتسكية. واليوم يُدرَج هذا الكتاب في قائمة محظورات ستالين. في هذه الواقعة الصغيرة، وجَدَ الإعداد الأيديولوجي للتروميدور أحد تعبيراته المُتعدِّدة. إن الطريق الوحيد لإحراز النصر هو قطع الحبل السُرِّي لاستمرارية أكتوبر.

وَجَدَ خصومنا الديبلوماسيون هم أيضًا أشياءً يشغلون بها وقت فراغهم في بريست ليتوفسك. وفقًا لمذكرات سيرنين، لم يذهب الرجل إلى الصيد فقط، بل أيضًا أثرى معرفته بمطالعة مذكراتٍ تعود إلى حقبة الثورة الفرنسية. وهكذا حاول أن يواسي نفسه بمقارنة بلاشفة الثورة الروسية بيعاقبة الثورة الفرنسية. كتب هذا الديبلوماسي الهابسبورجي: "قالت شارلوت كوداي بعدما طعنت جان بول مارا: "قتلت وحشًا لا رجلًا". سيُمحى هؤلاء البلاشفة من الوجود، ومن يعلم، ربما تكون ثمة كورداي لتروتسكي". لم أكن على درايةٍ آنذاك بهذه التأملات الحالمة لدى الكونت الورِع سيرنين، لكنني أؤمن أنها صادقةٌ من أعماق روحه.

في البداية، بدا من الصعب تحديد ما ترمي إليه الديبلوماسية الألمانية بالضبط حين قدَّمَت مقترحاتها الديمقراطية في 25 ديسمبر، لتكشف بعدها بأيامٍ معدودة عن شهيتها الذئبية. كان واضحًا أنها لمجازفة غير بسيطة بالنسبةِ للحكومةِ الألمانية أن تسمح بإجراءِ نقاشٍ نظريٍ حول حق الأمم في تقريرِ مصيرها، ذلك النقاش الذي بدأ بالأساسِ بمبادرةٍ من كوهلمان نفسه. ولعل كان واضحًا أيضًا، بالنسبةِ

للهوهنزلرنيين، حتىٰ قبل أن يشرعوا في هذا النقاش، أن ليس من المُرجَّح أن يُحرِزوا أي نصرٍ عظيمٍ في هذا الاتجاه. كان كوهلمان، علىٰ سبيلِ المثال، شغوفًا بأن يُظهِرَ لي أن احتلال ألمانيا لبولندا، وليتوانيا، ومقاطعات البلطيق، وفنلندا يُعد شكلًا من أشكال حق هذه البلدان في تقريرِ مصيرها، إذ تُعبِّر الأجهزة "الوطنية" التي أنشأتها السلطات الألمانية فيها عن إرادة هذه الشعوب. بالطبع لم يكن من السهل عليه إثبات ذلك، لكنه لم يستسلم؛ سألني بإصرارٍ شديد ما إذا كنت أعتبِر الملك نظام في إقليم حيدر أباد، مثلًا، يُعبِّر عن إرادة شعبه. رددت عليه بأنه إذا أُجلِيَت القوات البريطانية عن الهند، فمن غير المُحتَمَل أن السيد الفاضل نظام سيكون بإمكانه أن يصلب قامته لأكثرِ من أربعٍ وعشرين ساعة. هزَّ كوهلمان كتفيه بوقاحة، ونَخَرَ الجنرال هوفمان كخنزير، فيما قام المترجم بعمله، ودوَّنَ المدوِّنون كل ما قيل، واستمرت المناقشة إلىٰ ما لا نهاية.

يكمن سرُّ اتِّباع الديبلوماسيين الألمان هذا السلوك في قناعة كوهلمان الواضحة بأننا مستعدون للقبول بقواعده في اللعب. لابد أن كوهلمان فكَّر في الأمر علىٰ النحو التالي: "حاز البلاشفةُ السلطةَ من خلالِ دعوتهم للسلام، ولا يمكنهم الحفاظ عليها إلا في حالة إنجاز السلام فعليًا. صحيحٌ أنهم ألزموا أنفسهم بالسلامِ وفق شروطِ ديمقراطية، لكن ما الذي يهدف إليه ديبلوماسيوهم إذن؟ إذا قدَّمت لهم صيغًا ثوريةً في هيئةٍ ديبلوماسيةٍ ملائمة، فسيمنحونني الفرصةَ – بالطبع

تحت اسمٍ مختلف - للاستحواذِ علىٰ مقاطعاتٍ وأممٍ كاملة. وسيرىٰ العالم الإلحاقات الألمانية عقوبةً أنزلناها علىٰ الثورة الروسية، بينما سيحظىٰ البلاشفة بما يبتغونه من سلام". في لهفته علىٰ هذه الآمال، كان كوهلمان قد ضُلِّلَ ببياناتِ مناشفتنا وليبراليينا وشعبويينا، الذين صوَّروا مفاوضات بريست ليتوفسك عرضًا كوميديًا أُعِدَت فيه الأدوار مُسبَّقًا.

حين أوضحنا لشركائنا في بريست ليتوفسك، بطريقةٍ لا تحتمل اللبس، أن بالنسبةِ إلينا لا يتعلَّق الأمر بنفاقِ الصفقات التي تُبرَم من وراء الستار، بل إنها قضيةُ مبادئ تحكم العلاقات المشتركة بين الشعوب، بدا علىٰ كوهلمان، الذي ظلَّ مُتشَبِّثًا بموقفه الأولِ، كما لو أننا في الغالب قد خرقنا اتفاقًا ضمنيًا معه، اتفاقًا ليس موجودًا إلا في مخيلته. أصرَّ بعنادٍ علىٰ العودة سريعًا إلىٰ المبادئ الديمقراطية لـ25 ديسمبر. واثقًا في موهبته المُعتبَرة في التفتيش في النوايا، سعىٰ الرجلُ لأن يُظهِر للعالم أن الأبيض هو نفسه الأسود؛ لا يفرقان عن بعضهما شيئًا. أما الكونت سيرنين، فبأسلوبه الأحمق استمر في لعبِ دورِ البوق الذي يردِّد وراء كوهلمان وينسخه، وبإرشادٍ منه أخذ يبوح بتعليقاتٍ متغطرسةٍ وساخرة كلما أصبح الموقف حاسمًا وحرجًا. كان يسعىٰ بهذا الأسلوب أن يُخفي ضعفه. علىٰ الجانب الآخر، أدخَلَ الجنرال هوفمان عنصرًا ترفيهيًا إلىٰ المفاوضات. بافتقارٍ واضح للذكاء الديبلوماسي، كان يضع حذائه العسكري علىٰ الطاولة التي تجري عليها المناقشات. لكن، من جانبنا، لم يكن الشك يساورنا ولو للحظةٍ في أن

الشيء الوحيد الذي يمكن أخذه بجديةٍ في هذه المفاوضات هو حذاء هوفمان هذا.

لكن كانت هناك أوقاتٌ تدخَّل فيها الجنرال بطرحِ أمورٍ سياسيةٍ صِرفة في النقاش، وفعل ذلك بالطبع بطريقته الخاصة. حين نَفَذَ صبرُنا من كل هذا الخداع المُمِل حول حق الأمم في تقريرِ مصيرها، جاء الجنرال في صبيحة ذات يومٍ - كان ذلك في 14 يناير - بحقيبةٍ ملأىٰ بصحفٍ روسيةٍ، أغلبها صادرة من الحزب الثوري الاشتراكي. كان هوفمان يقرأ الروسية بسهولة. وبجملٍ متقطِّعةٍ، كما لو كان يُزمجِر نحو أحدٍ أو يعطي أوامر عسكرية، اتَّهَمَ الجنرال البلاشفة بقمع حريةِ التعبير والتجمهُر، وبالتعدي علىٰ مبادئ الديمقراطية، بينما كان يقتبس مقتطفاتٍ من مقالات الحزب الإرهابي الروسي الذي، منذ العام 1902، قد أرسَلَ إلىٰ العالم الآخر عددًا لا بأس به من الروس الذين يتحدَّث عنهم. أداننا الجنرال بسخطٍ شديد لأن حكومتنا مدعومةٌ بالقوة. من المدهش أن يصدر شيءٌ كهذا منه. وفي هذا الصدد، دوَّن سيرنين في مذكراته قائلًا: "ألقىٰ هوفمان خطبته التعيسة هذه التي ظلَّ يعمل عليها لأيامٍ عدة، وكان فخورًا بنجاحه".

رددت علىٰ هوفمان بأن في مجتمعٍ مبني علىٰ طبقات، ترتكز كل حكومةٍ علىٰ القوة. والفارق الوحيد إنما يكمن في أن الجنرال هوفمان يفرض القمع لحماية المُلَّاك الكبار، بينما نفعل نحن ذلك دفاعًا عن العمال. لبضعِ دقائقٍ تحوَّل مؤتمر السلام إلىٰ مدرسةٍ دعائيةٍ ماركسية

للمبتدئين. قلت له: "ما يُدهِش، بل ويُنفِّر، حكومات البلدانِ الأخرىٰ هو أننا لا نلقي القبض علىٰ المضربين، بل علىٰ الرأسماليين الذين يغلقون المصانع ويُشرِّدون العمال، ولا نطلق النار علىٰ الفلاحين الذين يطالبون بالأرض، بل نوقف مُلَّاك الأرض والضباط الذين يحاولون إطلاق النار علىٰ الفلاحين". وعند هذه النقطة، تحوَّلَ وجهُ هوفمان إلىٰ القرمزي.

بعد كل واقعةٍ من هذا النوع، كان كوهلمان ليستفسر، بمجاملةٍ خبيثة، ما إذا كان هوفمان يريد أن يقول شيئًا في موضوع النقاش، ليرد الجنرال سريعًا علىٰ نحوٍ مفاجئ: "كلا، هذا يكفي"، وينظر عبر النافذةِ غاضبًا. كان هناك شيءٌ حادٌ ولاذعٌ بشكلٍ مُبهِج في هذه المناقشات حول الاستخدام الثوري للسلطة، في حضورِ ديبلوماسيي وجنرالات وأدميرالات هوهنزلرن وهابسبورج وكوبرج والسلطنة. بعضٌ من هؤلاء السادة رفيعي المراتب المُقلَّدين بالأوسمة لم يتدخَّل بكلمةٍ واحدةٍ خلال هذه المناقشات، بل بدوا متحيِّرين مرتبكين، يرمقونني أولًا بأعينهم، ثم يحوِّلونها إلىٰ كوهلمان وسيرنين. أرادوا فقط أن يوضِّح لهم أحدٌ ماذا يعني كل ذلك بحقِّ السماء! كان كوهلمان خلف الكواليس، بلا شكٍ، ينخر رؤوسهم لإقناعهم بأن حياتنا الآن تُقاس بالأسابيع، وأنه ينبغي الاستفادة من هذا الوقت المحدود للتوصُّلِ إلىٰ سلامٍ "ألماني"، حتىٰ يُفرَض علىٰ أتباع البلاشفة في السلطة أن يقبلوا عواقبَ هذا السلام.

في النقاشاتِ حول الأمورِ المبدئية، كان موقفي متفوِّقًا كثيرًا عن كوهلمان، بينما في الشئون العسكرية، كان الجنرال هوفمان متفوِّقًا عليّ. وكان هذا هو السبب وراء محاولات الجنرال نافذة الصبر لاختزالِ كل القضايا في الصلابة النسبية لقواتنا، بينما كان محاولات كوهلمان العقيمة ترمي إلىٰ سلامٍ مبنيٍ علىٰ خرائط الحرب كما لو أنها بالفعل مبنيةٌ علىٰ المبادئ. ذات مرة، حاوَلَ كوهلمان تخفيف الانطباع المُتولِّدِ عن خطب هوفمان العصماء، فقالَ إن الجندي حتمًا يعبِّر عن نفسه علىٰ نحوٍ أكثر حدةٍ من الديبلوماسي. رددت علىٰ ذلك قائلًا إننا "نحن أعضاء الوفد الروسي لا ننتمي إلىٰ المدرسة الديبلوماسية، بل نعتَبِر أنفسنا جنودًا للثورة"، وبناءً عليه نُفضِّل اللغة الحادة للجندي.

لكن كياسة كوهلمان الديبلوماسية كانت نسبيةً وليست مُطلَقةً علىٰ أيةِ حال. إن المشكلة التي وَضَعَ نفسه فيها من الواضح أنها لم تكن قابلة للحل دون تعاونٍ من جانبنا، وهذا بالضبط ما لم يكن مُتاحًا. أوضحت لكوهلمان قائلًا: "إننا ثوريون، لكننا واقعيون أيضًا، ونُفضِّل التحدُّث بصراحةٍ في مسألة الإلحاقات بدلًا من إحلال الاستعارات محل الأسماء الحقيقية". بعد ذلك، لم يكن من المدهش كثيرًا أن يخلع كوهلمان في بعضِ الأحيان قناعَ الديبلوماسية ويُزمجِر في شراسةٍ ووحشية.

لازلت أتذكَّر نبرةَ صوته حين قال إن ألمانيا تتوق بصدقٍ وجديةٍ لاستعادة العلاقات الودية مع جارتها الشرقية القوية. خرجت كلمة

"القوية" من لسانه بنبرةِ استهزاءٍ استفزازية، حتىٰ أن حلفاءه أنفسهم جفلوا نافرين. وعلاوة علىٰ كل ذلك، كان سيرنين مرتعبًا إلىٰ حدِ الموت من إخفاق المفاوضات في التوصُّلِ إلىٰ اتفاق. أمسكت بقفازي وذكَّرتهم، مرةً أخرىٰ، بما قلته في كلمتي الأولىٰ. قلت في 10 يناير إننا "لا نرغب ولسنا في وضعيةٍ تسمح لنا بالطعنِ في واقعِ بلدنا التي أنهكتها سياسات الطبقات التي حكمتها حتىٰ مؤخرًا. لكن الوضع العالمي لأي بلدٍ لا يُقاس بحالة أجهزتها التقنية اليوم، بل بالإمكانيات الكامنة فيها، تمامًا كما لا يمكن قياس القوة الاقتصادية لألمانيا بالحالة الراهنة لإمدادات الطعام لديها. إن السياسة واسعة الأفق وطويلة النظر ترتكز علىٰ القدرة علىٰ التطوير، علىٰ القوىٰ الداخلية التي بمجرد أن توقظ، ستكشف عاجلًا أم آجلًا عن قوتها الحقيقية".

بعد ذلك بأقل من تسعة أشهر، وتحديدًا في 3 أكتوبر 1918، قلت في اجتماعٍ للجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات عامة روسيا، مستدعيًا تحدي كوهلمان في بريست ليتوفسك، إن "ما مِن أحدٍ فينا يُكِن شماتةً في ألمانيا لأنها تمرُّ اليومَ بكارثةٍ مُروِّعة". ليس من الضروري هنا أن أبرهِن علىٰ أن الجزء الأكبر من تلك الكارثة تتحمَّلها الديبلوماسية الألمانية، العسكرية والمدنية علىٰ حدٍّ سواء، في بريست ليتوفسك.

كلما كنَّا أكثر تدبيبًا في تحديد قضايانا، صار هوفمان أكثر سطوةً علىٰ كوهلمان. ضَجِرَ كلٌّ منهما من إخفاءِ عداوته للآخر - خاصةً الجنرال. وذات مرةٍ حين ذكرتُ الحكومة الألمانية صراحةً، ردًا علىٰ

إحدىٰ هجمات هوفمان المتكرِّرة، قاطعني بصوتٍ أجشٍّ يوحي بالغضب: "أنا لا أمثِّل الحكومة الألمانية هنا، بل القيادة العليا الألمانية".

بدا ذلك وكأن شخصًا قد ألقىٰ حجرًا علىٰ لوحِ زجاج. مررت بعيني لأرمق خصومي علىٰ الطاولة، فوجدت وجه كوهلمان وقد ساده الارتباك، يجلس ناظرًا لأسفل، أما وجه سيرنين فقد نَضَحَ منه تعبيرٌ يمزج بين الحرج والفرح الخبيث. رددت بأنني لم أكن أعتقد أنني مُخولٌ بالحكم علىٰ العلاقة المتبادلة بين حكومة الإمبراطورية الألمانية وقيادتها العليا، لكنني بالتأكيد مُخوَّلٌ بالتفاوض مع حكومتها. ولما التفَتَ كوهلمان إلىٰ ما قلته، جزَّ علىٰ أسنانه وعبَّر عن اتفاقه معي.

لعل من الصعب المبالغة في الحدِّ الذي وصلت إليه الخلافات بين الدبلوماسية والقيادة العليا الألمانيَّتَين. حاول كوهلمان أن يثبت أن البلدان المُحتَلَّة "قرَّرَت مصيرها" بالفعل لصالح ألمانيا عبر السلطات المحلية المسئولة. وعلىٰ الجانبِ الآخر، أوضح هوفمان أنه، في ضوءِ غيابِ سلطاتٍ مسئولة في هذه البلدان، تنتفي مسألة انسحاب القوات الألمانية من الأساس. لكن، رغم أن هاتين الحجتين بدتا متعارضتَين كليةً، كان الاستنتاج العملي من كلتيهما واحدًا.

في هذا الصدد، حاول كوهلمان أن يحيك حيلةً بدت في البداية غير قابلةٍ للتصديق. ففي ردٍ مكتوب (أعلنه فان روزنبرج) علىٰ قائمةٍ من

الأسئلة التي بعثناها إليه، صدر بيانٌ يقضي باستحالة انسحاب القوات الألمانية من الأراضي التي تحتلها حتىٰ تضع الحرب في الجبهة الغربية أوزارها. استنتجت من ذلك أن القوات الألمانية ستنسحب "بعد" انتهاء الحرب، فطلبت تحديدًا دقيقًا للوقت. كان كوهلمان مُتحمِّسًا للغاية، إذ كان من الواضح أنه اعتمَدَ بشكلٍ كبيرٍ علىٰ التأثير المُخدِّر والمخادع لهذه الصيغة. بعبارةٍ أخرىٰ، أرادَ ببساطة تمويه مسألة الإلحاقات من خلال اللعبِ بالكلمات. وحين فَشَلَ في ذلك، أوضَحَ، عبر هوفمان، أن القوات لن تنسحب "لا قبل ولا بعد انتهاء الحرب".

وبحلولِ نهاية يناير، حاولت، دون أملٍ في إحراز نجاحٍ يُذكر، أن أحصل علىٰ إذنٍ من الحكومة النمساوية بزيارة فيينا للتحدُّثِ مع ممثلي البروليتاريا النمساوية. لكن، علىٰ ما أعتقد، كانت الاشتراكية الديمقراطية النمساوية، أكثر رعبًا من أي طرفٍ آخر من مثل هذه الزيارة. بالطبع قوبِلَ طلبي بالرفض، للسببِ الذي لا يُصدَّق بأن ما مِن سلطةٍ لي لإجراء محادثاتٍ كهذه. فرددت علىٰ سيرنين بالخطابِ التالي:

"السيد الوزير. مُرفَق طيَّه نسخةٌ من خطاب المستشار الكونت تشاكي، بتاريخ 26، الذي علىٰ ما يبدو وضع في اعتباره ردك علىٰ برقيتي بتاريخ 24. أود هنا أن أخبرك أنني علمت برفض الطلب الذي تقدَّمت به ليؤذَن لي بزيارةِ فيينا لإجراء مباحثاتٍ مع ممثلي البروليتاريا النمساوية من أجل

التوصُّلِ إلىٰ سلامٍ ديمقراطي. أنا مُلزمٌ هنا، نظرًا للاعتبارات الرسميةِ، أن أسجِّل أن هذا الرد ينطوي علىٰ عدم رغبتك في السماح بمباحثاتٍ مباشرة بين ممثلي حكومة العمال والفلاحين الروسية وممثلي البروليتاريا النمساوية. واستنادًا إلىٰ المرجع المُرفَق في هذا الخطاب والذي يشير إلىٰ أنني مُفوَّضٌ مُطلق الصلاحيات لإجراءِ مثل هذه المفاوضات والمباحثات - ذلك المرجع المرفوض شكلًا ومضمونًا - أود أن ألفت انتباهك، سيدي الوزير، إلىٰ حقيقةِ أن الحق في تحديدِ نطاقِ واختصاص صلاحياتي يعود حصريًا إلىٰ حكومتي فقط".

خلال المراحل الأخيرة من المفاوضات، كانت الورقة الرابحة في يد كوهلمان وسيرنين هي مجلس الرادا في كييف[6]، الذي كان بدوره معاديًا لموسكو. كان قادة هذا المجلس يُمثِّلون النسخة الأوكرانية للكرينسكية، التي لم تفرق عن النموذج الروسي إلا في كونها أكثر محليةً وانغلاقًا. لم يكن مندوبي الرادا في بريست ليتوفسك يطمحون إلىٰ أكثرِ من أن يُقادوا من أنوفهم من قِبَلِ أي ديبلوماسي رأسمالي.

---

6 مجلس الرادا هو جمعيةٌ من مُمثلي عددٍ من المنظمات الشعبية في أوكرانيا. تأسَّسَ بعد ثورة فبراير، وزَعَمَ أنه المتحدثُ باسم الأمة الأوكرانية. وبعد إطاحة البلاشفة به، انحازَ الرادا إلى الاحتلال الألماني الذي، فيما بعد، حلَّ حكومة الرادا ونصَّبَ هيتمان سكوروبادسكي حاكمًا وحيدًا للبلاد.

تعامَلَ كلٌّ مِن كوهلمان وسيرنين معهم بشيءٍ وفيرٍ من الاستعلاءِ المُترفِّع، فشَعَرَ هؤلاء المُغفَّلون الديمقراطيون بأنهم يطيرون في الهواء من فرطِ ابتهاجهم بفكرةٍ أن أشاوس هوهنزلرن وهابسبورج الأشداء يأخذونهم علىٰ محملِ الجد. وحين أدلىٰ رئيس الوفد الأوكراني، جولوبوفيتش، بما يريد من تعليقات، وجَلَسَ علىٰ مقعده مسدلًا ذيل معطفه الطويل حتىٰ الركبتين بعنايةٍ عليه، خشيت أنه سيذوب علىٰ الفورِ من فرطِ فرحته وإعجابه الغامرَين بنفسه.

نَجَحَ سيرنين، كما يذكر في يومياته، في تحريضِ الأكرانيين ضد الوفد السوفييتي ببيانٍ علني معادٍ. لكن الأوكرانيين تجاوزوا هذا الحد، ولمدةٍ ربع ساعةٍ متواصلة كان مُتحدِّثهم يزيد الطينة بلة بإضافة المزيد من الوقاحة إلىٰ غروره، إلىٰ درجةٍ أحرجت المترجم الألماني، الأمين في عمله، الذي لم يكن باستطاعته ترجمة كل كلامه حرفيًا كما يقول. وفي وصف هذا المشهد، أخذ الكونت الهابسبورجي يتحدَّث عن ذهولي، وشحوبي، وتشنُّجاتي، وكذلك عن قطراتِ العرقِ التي تصبَّبَ بها وجهي. إذا غضضت الطرف عن هذه المبالغات، فلابد أن أعترف بأن المشهد كان هو الأكثر قلقًا واضطرابًا طيلة المحادثات. وما يجعله هكذا ليس، كما يظن سيرنين، أن جيراننا الفلاحين كانوا يكيلون لنا الإهانات في حضورِ أجانب، بل الإذلال المهين الذي أخضعوا أنفسهم إليه، وهم الذين كانوا يُمثِّلون وفدًا ينوب عن الثورة، أمام أرستقراطيين تافهين لا يُكنُّون لهم إلا الاحتقار. خسة وانحطاطٌ

ومذلَّة كانت تندفع من أفواهِ هؤلاء الديمقراطيين القوميين البائسين الذين لم يعتلوا السلطة إلا للحظةٍ عابرةٍ في التاريخ.

كان كوهلمان وسيرنين وهوفمان يزفرون أنفاسًا ثقيلة، كمقامرين في مضمارِ السباق وضعوا كل رهانهم على الحصان الفائز. وأثناء ما كان مُتحدِّث الوفد الأوكراني يتلو من مذكراته كل ألوان القدحِ والذمِ التي أعدَّها الوفد في يومين من الجهد الجماعي المتواصل، كان بعد كل جملةٍ يرمق رعاته الجالسين أمامه كما لو كان ينتظر تشجيعًا أو امتنانًا. لا شك أن هذا من أكثر المواقف التي شهدتها في حياتي خسةً ودناءة. لكن، حتى في ظلِّ سيلِ الشتائم والنظرات الخاطفة ذات البهجة الماكرة، لم أشك لحظةً في أن هؤلاء الإمَّعات المُتشنِّجين سيُقذَف بهم إلى الخارج عمَّا قريب بأيدي أسيادهم المنتصرين، الذين بدورهم سيُطاح بهم هم أيضًا من على مقاعدهم التي ظلوا جالسين عليها لقرونٍ من الزمن.

في ذلك الوقت، كانت المفارز السوفييتية الثورية تتقدَّم منتصرةً في الأراضي الأوكرانية، تشق طريقها عبر نهر الدنيبر. وفي نفسِ اليوم الذي طُرِحت فيه هذه الأمور، وصار من الواضح أن الوفد الأوكراني قد انتهى من عقد صفقته مع كوهلمان وسيرنين لبيع أوكرانيا، استولت القوات السوفييتية على كييف. وحين اتصَلَ كارل راديك بالبرق المباشر للاستفسار عن الموقف في العاصمة الأوكرانية، ردَّ عليه عامل التلغراف، الذي ظنَّ الراسل بالخطأ شخصًا آخر، قائلًا: "انتهى أمر

كييف". وفي 7 فبْراير، لفتُّ انتباه وفود القوىٰ المركزية إلىٰ البرقية التي أرسلها لينين والتي أخبرنا فيها بأن القوات السوفييتية احتلت كييف في 29 يناير، وأن حكومة الرادا قد هربت بعدما تخلّىٰ عنها الجميع، وأن اللجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات أوكرانيا استولت علىٰ السلطة العليا في البلاد واعتلت مقعدها في كييف، وأن الحكومة الأوكرانية الجديدة قد تبنَّت خيار الوحدة الفيدرالية مع روسيا باتحادٍ كاملٍ في السياسات الداخلية والخارجية.

وفي الاجتماع التالي، قلت لكوهلمان وسيرنين أنهما يتعاملان مع وفدِ حكومةٍ تنحصر أراضيها كلها فقط في بلدة بريست ليتوفسك (بموجب المعاهدة، أُعيدَت البلدة إلىٰ أوكرانيا). لكن الحكومة الأوكرانية، بل بالأحرىٰ القيادة العليا الألمانية، كانت قد قرَّرَت بحلولِ ذلك الوقت احتلال أوكرانيا بالقوةِ العسكرية. كان لودندورف يعمل بشكلٍ مذهلٍ للإعداد لسكرةِ الموتِ الأخيرة للجيش الهوهنزلرني.

خلالَ تلك الأيام، كان هناك رجلٌ حبيسٌ في سجنٍ ألماني، اتهمه ساسة الاشتراكية الديمقراطية بالأفكار الطوباوية المخبولة، وحاكَمَه قضاة هوهنزلرن بتهمة خيانة الدولة. كتب السجين:

> "لم تفضِ مفاوضات بريست ليتوفسك إلىٰ لا شيء، حتىٰ وإن أسفرت عن سلامِ استسلامٍ قسري. إذ بفضل المندوبين

الروس تحوَّلَت بريست ليتوفسك إلىٰ منبرٍ ثوري تتردَّد منه أصداء مراسيمه عبر العالم. أفضَت المفاوضات إلىٰ فضحِ القوىٰ المركزية، أفضت إلىٰ فضحِ جشع ألمانيا ونفاقها وأكاذيبها الماكرة، أفضت إلىٰ حكمٍ ماحق علىٰ سياسات السلام التي تنتهجها الأغلبية (الاشتراكية الديمقراطية) الألمانية، تلك السياسات التي هي نفعية انتهازية أكثر من كونها منافِقة. لقد أثبتت قوتها بما تحفِّزه من حركاتٍ جماهيريةٍ عديدة في بلدانٍ مختلفة. أما مرسومها الأخير الفاجع - التدخُّل ضد الثورة - فقد جَعَلَ الاشتراكية ترتعش في كلِ ذرةٍ من كيانها. سيُظهِر لنا الزمن أي حصادٍ سينضج لهؤلاء المنتصرين مما بَذروه، ولن يكونوا سعداءً به".

إنه كارل ليبكنيخت.

الفصل الثاني والثلاثون

السلام

خلال الخريف، كان مندوبون من الجبهة يظهرون يوميًا أمام سوفييت بتروجراد ليقولوا إنه إن لم يُعقَد السلام في 1 نوفمبر، سيترك الجنود الخنادق ليصنعوا سلامًا بطريقتهم الخاصة. صار هذا هو الشعار السائد في الجبهة. كان الجنود يتركون الخنادق قطعانًا وجماعات. وقد أوفت ثورة أكتوبر بوعدها في ذلك مؤقتًا، لكن ليس لوقتٍ طويل.

بفضلِ ثورة فبراير، اكتشف الجنودُ أنهم محكومون من قِبَلِ العصابة الراسبوتينية التي ألقت بهم بين براثنِ حربٍ شنيعةٍ لا طائل منها؛ لم يجدوا أي نفعٍ في الاستمرار فيها لمجرد أن طلب منهم محامٍ شابٌّ يُدعىٰ كرينسكي ذلك. أرادوا أن يعودوا إلىٰ ديارهم وعائلاتهم وأرضهم، وإلىٰ الثورة التي وعدتهم الأرض والحرية لكنها لم تفعل شيئًا إلا أن أبقتهم علىٰ الجبهة في حُفُراتٍ باردةٍ قذرة.

بادَرَ كرينسكي بالهجوم علىٰ الجنود والعمال والفلاحين، وأطلق عليهم "العبيد المُتمَرِّدين". لقد فشل في فهمِ شيءٍ صغيرٍ واحد؛ ألا وهو أن الثورة نفسها تتمَحوَر حول تمرُّدِ هؤلاء العبيد ورفضهم أن يظلوا عبيدًا. ولم يكن بوكانان، الراعي والنصير القوي في ظهر

كرينسكي، حريصًا بما يكفي ليخبرنا في مذكراته أية حربٍ وأية ثورةٍ تهمه هو ومن علىٰ شاكلته.

فبعد أشهرٍ عديدةٍ من ثورة أكتوبر، كَتَبَ بوكانان الوصف التالي لروسيا في العام 1916 - ذلك العام المُفزِع من الهزائم المتتالية لجيوش القيصر، وانهيار الحياة الاقتصادية، وطوابير الخبز، والحكومة التي ظلَّت تتقافز كالضفدع بأوامرِ راسبوتين وتعليماته: "في واحدٍ من القصور الجميلة الكثيرة التي زرناها (بوكانان يتحدَّث عن رحلته إلىٰ إقليمِ القرم في 1916)، لم يُقدَّم لنا الخبز والملح علىٰ أطباقٍ فضيةٍ فحسب، بل أننا، لدىٰ مغادرتنا، وجدنا في سيارتنا صندوقًا كبيرًا من زجاجات البرغندي القديم الذي جعلني أغني حين تناولته في الغداء. إنه لمن المحزِن أن أنظر إلىٰ هذه الأيام البديعة الفائتة، وأن أفكِّر في كل هذا البؤس والمآسي التي ألمَّت بأولئك الذين أظهروا لنا كل هذا العطف وكرم الضيافة". لم يشر بوكانان إلىٰ معاناة الجنود في الخنادق، أو إلىٰ جوعِ الأمهات في طوابير الخبز، بل إلىٰ "مآسي" المُلَّاك السابقين لهذه القصور الجميلة في القرم، أصحاب الأطباق الفضية والبرغندي. بعد قراءةِ هذه السطور التي تنم عن سرورٍ لا حياءَ فيه، يمكنني أن أقول إن ثورة أكتوبر لم تذهب سُدىٰ. لم تذهب سُدىٰ لأنها أطاحت بآل رومانوف، بل كَنَسَت في طريقها البوكانانيين والكرينسكيين أيضًا.

حين مررت بالجبهةِ لأولِ مرةٍ في طريقي إلىٰ بريست ليتوفسك، لم يكن مؤيدونا يحتشدون كثيرًا للاحتجاجِ ضد المتطلَّبات الألمانية الجائرة، إذ كانت الخنادق شبه خاوية. بعد خوض التجربة مع بوكانان وكرينسكي، لم يجرؤ أحدٌ علىٰ التحدُّث عن مواصلة الحربِ حتىٰ وإن بشكلٍ مشروط. السلام، السلام، بأي ثمن! في إحدىٰ رحلاتي من بريست ليتوفسك إلىٰ موسكو، حاولت إقناع أحد المندوبين من الجبهة في اللجنة التنفيذية المركزية بأن يدعم وفدَنا في المفاوضات بخطبةٍ حماسيةٍ يلقيها علىٰ الجنود. ردَّ عليّ قائلًا: "مستحيل. قطعًا مستحيل. لا ينبغي أن نعود إلىٰ الخنادق من الأصل. لن يفهمونا، وسيقولون إننا نستمر في خداعِهم كما فعل كرينسكي".

كان من الواضح أن مواصلة الحربِ مستحيلة. وفي هذه النقطة لم يكن ولو حتىٰ ظلٌّ طفيفٍ من الخلاف بيني ولينين، بل وكنَّا نتعجَّب أيضًا مما يطرحه بوخارين وأزلام "الحرب الثورية". لكن كانت هناك قضيةٌ أخرىٰ علىٰ نفسِ القدرِ من الأهمية؛ إلىٰ أي مدىٰ قد تذهب حكومة هوهنزلرن في الصراع ضدنا؟

في خطابٍ لأحد أصدقائه، كَتَبَ سيرنين أنه إذا كانوا أقوياءً بما فيه الكفاية، فإنهم لن يتردَّدوا في إرسال قواتهم إلىٰ بتروجراد لإرساءِ النظامِ هناك، بدلًا من التفاوض مع البلاشفة. بالطبع لم يفتقروا إلىٰ الإرادةِ ولا الرغبةِ في ذلك، لكن هل كانت لديهم قوةٌ كافيةٌ لذلك؟ هل كان بإمكان آل هوهنزلرن إرسال قواتٍ عسكريةٍ ضد الثوريين الذين أرادوا السلام؟

كيف أثَّرت ثورة فبراير، وبعدها ثورة أكتوبر، علىٰ الجيش الألماني؟ ما التأثيرات التي قد تظهر لاحقًا، وكيف؟ تلك كانت الأسئلة التي ظلَّت مُعلَّقةً دون إجابات بعد.

كان علينا أن نجد هذه الإجابات في سياقِ المفاوضات، وبالتالي كان علينا تأخير هذه المفاوضات نفسها قدر المُستطاع. كان من الضروري أن نمنح العمال الأوروبيين وقتًا كافيًا لاستيعاب حقيقة الثورة السوفييتية، بما يتضمَّن سياساتها في السلام. وكان ذلك أمرًا علىٰ قدرٍ كبيرٍ من الأهمية لأن صحافةَ دولِ الوفاق، شأنها في ذلك شأن الصحافة "التوافقية" والبرجوازية الروسية، كانت تُصوِّر مفاوضات السلام كعرضٍ كوميدي أُعِدَت فيه الأدوار مُسبَّقًا. وحتىٰ في ألمانيا، كان بعضٌ ممن كانوا في تلك الفترة في المعارضة الاشتراكية الديمقراطية، التي رأت ضعفها الذاتي معكوسًا في قوتنا، يتحدَّثون عن التعاون المشترك بين البلاشفة والحكومة الألمانية. وكانت سردياتٌ كهذه تلقىٰ تصديقًا أوسع في فرنسا وإنجلترا. كان من الواضح أن حتىٰ إذا نجحت برجوازيات دولِ الوفاق، جنبًا إلىٰ جنب مع الاشتراكية الديمقراطية، في ترويجِ هذه الفكرةِ الخاطئةِ عنَّا بين جماهير العمال، فقد بدَّدَ التدخُّل العسكري للحلفاء ضدنا الضباب عن الحقيقةِ بأبسطِ ما يكون. لذا، أصررت أن علينا، حتىٰ قبل توقيعِ سلامٍ منفصل - إذا كان ذلك ضرورةً لا مفرَ منها - أن نقدِّم لعمال أوروبا، بأي ثمنٍ كان، دليلًا حاسمًا لا مجالَ للجدالِ فيه علىٰ العداوةِ التي لا يمكن تخفيف حدتها بين

البلاشفة والطبقات الحاكمة الألمانية. هذه هي الاعتبارات التي ألهمتني بفكرةِ الاستعراض السياسي في بريست ليتوفسك لشعار "نحن ننهي الحرب، نسرِّح الجيش، لكن لا نوقِّع السلام".

فكَّرت في أنه إذا عجزت الإمبريالية الألمانية عن إرسالِ قواتٍ ضدنا، فهذا يعني أننا أحرزنا انتصارًا هائلًا سيكون له نتائج بعيدة المدىٰ. لكن إذا كان لا يزال بإمكان الهوهنزلرنيين تسديد ضربةٍ ضدنا، فلابد أن نذعن لتوقيعِ السلام قبل ذلك. استشرت أعضاء الوفد، ومن بينهم كامينيف، وقوبلت بتأييدٍ لهذه الفكرة، وبموجب ذلك كتبت إلىٰ لينين، فردَّ قائلًا:

"حين تأتي إلىٰ موسكو سنتحدَّث في هذا الأمر".

واستطرد مُعبرًا عن رؤيته لهذه الفكرة:

"لا يرغب المرء في أفضلِ من ذلك إن اتضح أن هوفمان ليس قويًا بما فيه الكفاية ليرسل قواته ضدنا. لكن الأملَ ضعيفٌ في ذلك. سيجد قواتٍ مُختارةً بشكلٍ خاص من المزارعين البافاريين الأثرياء. كم منهم سيحتاج لذلك؟ أنت تقول بنفسك أن الخنادق خاوية. ماذا إذا استأنف الألمان قتالهم ضدنا؟

سيتعيَّن علينا وقتها أن نوقِّع السلام، وسيدرك الجميع أن لم يكن لدينا خيارٌ آخر. بهذه الخطوةِ وحدها سنُسدِّد ضربةً قاضية لأقصوصة اتصالاتنا السرية مع الهوهنزلرنيين.

بالتأكيد هناك بعض المزايا في ذلك، لكنها محفوفةٌ بالمخاطر. إذا كنّا حقًا تأكّدنا من نجاح الثورة في ألمانيا، لَكان علينا أن نفعل ذلك. بالطبع الثورة الألمانية أهم من ثورتنا بما لا يُقاس. لكن متىٰ تندلع؟ لا أحد يعلم. حتىٰ هذه اللحظة، ما مِن شيءٍ أهم من ثورتنا، ولابد من حمايتها بأي ثمنٍ من أي خطر".

تفاقَمَت الصعوبات في هذه القضية علىٰ خلفية الوضع الداخلي للحزب، إذ كان الموقف السائد في الحزب، لا سيما بين عناصره القيادية، مناهضًا بشدة لتوقيعِ بنود سلام بريست ليتوفسك. وقد كثَّفَت تقارير المفاوضات المنشورة في صحفنا من هذا النزوع الذي وَجَدَ التعبير الأشد حدة عنه في المجموعة الشيوعية "اليسارية" التي رفعت شعارَ "الحرب الثورية".

كان الصراع الداخلي يتصاعد بأكثر حدةٍ كل يوم. وعلىٰ عكسِ الحكاية التي انتشرت فيما بعد؛ لم يكن الخلافُ حينها بيني ولينين، بل بين لينين والأغلبية الساحقة من منظمات الحزبِ الرئيسية. في القضايا الأهم والأخطر، مثل ما إذا كنّا في وضعٍ يسمح لنا بشنِّ حربٍ ثورية، وما إذا كان من المقبول عامةً للسلطة الثورية أن توقِّع اتفاقياتٍ مع دولٍ إمبريالية، كنت بلا تحفُّظٍ مع لينين، وجاءت إجاباتي مماثلةً لإجاباته؛ بالنفي في السؤال الأول، والتأكيد في الثاني.

جاءت المناقشة الأولىٰ العلنية الأولىٰ، للخلافات بشأنِ الحربِ والسلام، في مؤتمرٍ للعشراتِ من عمال الحزب النشطين في 21 يناير. طُرِحَت ثلاث وجهات نظر وتصَدَّرَت النقاش. رأىٰ لينين أن من الضروري أن نحاول قدرَ الإمكان تأخير المفاوضات وألا ننخرَّط بشكلٍ جادٍ وفعَّالٍ فيها إلا لمَّا نتلقىٰ إنذارًا بضرورة ذلك.

أما أنا، فكنت أرىٰ من الضروري أن نقطع المفاوضات حتىٰ إذا صرنا إثر ذلك عُرضةً لخطرِ زحفٍ ألمانيٍ جديد، كي نذعن إلىٰ التفاوض - إذا كان لابد أن نفعل ذلك - فقط بعد استخدامٍ صريحٍ للقوة. وأما بوخارين، فقد طالَبَ بمدٍّ الحربِ إلىٰ ساحة الثورة. في ذلك الاجتماع، شَّن لينين نضالًا ضاريًا علىٰ المدافعين عن الحربِ الثورية، ولم يتعرَّض لأطروحتي إلا بنقدٍ طفيف فقط. حظىٰ مؤيدو الحرب الثورية بـ32 صوتًا، فيما جنىٰ لينين 15، وأنا 16. لكن هذه الأرقام ليست مؤشرًا حقيقيًا للمزاج العام داخل الحزب.

في الشرائح القيادية العليا للحزب، وليس بين الجماهير، كان "الجناح اليساري" أقوىٰ حتىٰ مما كان عليه في هذا الاجتماع بالتحديد. وهذه هي الحقيقة التي ضَمَنَت الانتصار المُؤقَّت الذي حَظَت به أطروحتي. أما أولئك الذين شاركوا بوخارين رؤيته، فقد اعتبروا أطروحتي خطوةً في نفس اتجاههم. علىٰ الجانبِ الآخر، اعتقد لينين، وكان صائبًا، أن تأجيل اعتمادِ القرار سيصب في صالحه في النهاية.

في ذلك الوقتِ، كان حزبنا، مثل جماهير العمال في أوروبا الغربية بشكلٍ عام، بحاجةٍ ماسَّةٍ إلىٰ توضيحٍ مرئي للموقف الحقيقي للأمور. وفي الوقتِ نفسه، كان لينين في الأقلية، سواء في مؤسساتِ الحزب أو الدولة. أدلىٰ أعضاء أكثر من مائتي سوفييت محلي بآرائهم حول الحربِ والسلام، استجابةً لدعوة مجلس مفوَّضي الشعب. ومن بينهم جميعًا، كان فقط سوفييتان كبيران - بتروجراد وسيباستوبول (والأخير ببعضِ التحفظات) - هما من صوَّتا لصالحِ سلامٍ فوري. وعلىٰ الجانبِ الآخر، صوَّتت سوفييتات كبيرة للعمال، مثل موسكو وإيكاترينبرج وإيفانوفو فوزنسينسك، وكرنشتاد، إلخ، بأغلبيةٍ ساحقة، لصالح قطع المفاوضات. والموقف نفسه كان سائدًا في منظمات الحزب، وبالطبع في أوساط الثوريين الاشتراكيين اليساريين. وبالتالي لم تكن رؤية لينين ممكنة التنفيذ إلا من خلال إحداثِ انقسامٍ في الحزب وانقلابٍ داخله، وليس بوسائلٍ أخرىٰ. لكن عدد مؤيدي لينين كان في زيادةٍ مُطَرَدة يومًا بعد يوم. وفي ظل هذه الظروف، لعبت صيغة "لا سلام ولا حرب"، في الحقيقة، دورَ الجسرِ الواصلِ إلىٰ موقف لينين. وكان هذا هو الجسر الذي عبرت عليه أغلبية الحزب، أو علىٰ الأقل كوادره الرئيسية، لتبني موقف لينين.

سألني لينين: "حسنًا، دعنا نفترض أننا رفضنا توقيع السلام بالفعل، والألمان ردوا علىٰ ذلك بالزحف تجاهنا. ماذا نحن فاعلون حينها؟".

فأجبته: "سنوقِّع السلام مُجبَرين علىٰ ذلك. وسيكون الوضع واضحًا للعالم أجمع".

فسأل مرةً أخرىٰ: "لكن في هذه الحالة لن تؤيد شعار الحرب الثورية، صحيح؟".

فأجبت: "كلا، تحت أي ظرف".

فقال: "في هذه الحالة ربما لن تكون التجربة خطرة للغاية. سنجازف فقط بفقدانِ أستونيا أو لاتفيا". وأضافَ بضحكةٍ خافتةٍ ماكرة: "من أجلِ سلامٍ جيدٍ مع تروتسكي، حريٌ بنا أن نفقد أستونيا ولاتفيا". لازمته هذه العبارة لعدةِ أيامٍ بعد ذلك.

وفي الاجتماعِ الحاسِم الذي عُقِدَ في 22 يناير، اعتمدت اللجنة المركزية أطروحتي: تأجيل المفاوضات، وفي حالةِ تلقي إنذار نهائي من جانبِ ألمانيا نرفض توقيعَ السلام، والتصرُّف آنذاك وفق ما يقتضيه الظرف. وفي وقتٍ متأخرٍ من ليلة 25 يناير، عُقِدَت جلسةٌ مشتركةٌ بين اللجنتين المركزيتين للبلاشفة والثوريين الاشتراكيين "اليساريين" (حلفائنا في ذلك الوقت)، وصوَّتت أغلبيةٌ كبيرة لصالح نفس الصيغة. وكما فعلنا من قبلِ عدة مرات، أعلنا أن ذلك القرار ينبغي أن يصدر باسم مجلس مُفوَّضي الشعب.

وفي 31 يناير، بعثت برقيةً مباشرةً من بريست ليتوفسك إلىٰ لينين في سمولني:

"من ضمن التقارير والشائعات التي لا حصرَ لها والتي تصل إلىٰ الصحافة الألمانية، نجد الإعلان السخيف عن أننا ننوي رفض توقيع اتفاقيةِ السلام، وأن هناك خلافاتٍ بين البلاشفة في هذا الصدد، وهلمجرا. أشير هنا إلىٰ برقيةٍ من هذا النوع جاءت من ستوكهلوم تزعم أنها من صحيفة بوليتيكن السويدية[7]. إن لم أكن مخطئًا، هذه الصحيفة يصدرها هوجلوند. هل يمكنك أن تسأله لماذا ينشر محرِّروه مثل هذا الهراء السخيف في حالة إذا كان تقريرٌ كهذا قد نُشِرَ بالفعل في الصحيفة؟ نظرًا لأن الصحافة البرجوازية تعج بأنواعٍ شتىٰ من الثرثرة الخبيثة، ليس من المُرجَّح أن يولي الألمان اهتمامًا كبيرًا بهذا التقرير. لكن المصدر، في هذه الحالة تحديدًا، هو صحيفةٌ لجناحٍ يساري يمكث أحد محرِّريها الآن في بتروجراد[8]. وهذا بالذات ما يعطي لهذا التقرير معنىً من شأنه فقط أن يُحيِّر عقول خصومنا.

---

[7] تأسَّسَت صحيفة بوليتيكن في العام 1916 لتنطق بلسانِ الجناح اليساري المعارض للحرب داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي السويدي. نشرت الصحيفة العديد من المقالات للينين وزينوفيف وبوخارين وراديك (الأخيران قضيا وقتًا طويلًا في السويد التي اتخذت موقفًا محايدًا أثناء الحرب العالمية الأولى). (المترجم)

[8] زارَ الشيوعي السويدي زيث هوجلوند (أنظر دليل الأسماء) روسيا في ديسمبر 1917، ضمن وفدٍ من الشيوعيين السويديين لإظهار التأييد لثورة البلاشفة. دُعيَ هوجلوند للتحدث في مؤتمرٍ حضره حوالي 10 آلاف عامل في بتروجراد، بينما كانت البلشفية الروسية أليكساندرا كولونتاي، التي كانت قد قضت وقتًا طويلًا في منفاها في إسكندنافيا، تترجم خطبه إلى

الصحافة النمساوية والألمانية مليئة بتقارير عن أهوالٍ تحدث في بتروجراد وموسكو، وفي كلِ بقاعِ روسيا؛ يتحدَّثون عن مئات وآلاف القتلىٰ، وعن بنادق آلية لا تتوقَّف عن إطلاق النار، إلخ. من الضروري قطعًا أن نُعيِّن رجلًا يترأس فريقًا يكون مسئولًا عن إصدارِ تقارير يومية عن أحوال البلاد، وتُنشَر هذه التقارير علانيةً عبر وكالة التلغراف في بتروجراد، وعبر الراديو كذلك. ولمن الجيد أيضًا لو أن الرفيق زينوفيف يتولَّىٰ ذلك بنفسه. هذا مهمٌ للغاية، ولابد أن تُرسل التقارير إلىٰ فوروفسكي وليتفينوف، ويمكن أن تجري هذه العملية عبر تشيشرين.

عُقِدَ اجتماعٌ رسميٌ واحدٌ، حتىٰ الآن. الألمان يؤجِّلون المفاوضات، ومن الواضح أن ذلك بسبب أزمتهم الداخلية. بدأت الصحافة الألمانية في الصراخِ بأننا لا نريد السلام، وأننا لا نكترث إلا بنشرِ الثورة في بلدانٍ أخرىٰ. هؤلاء الحمقىٰ لا يفهون أن، ببساطة، بسببِ أننا نريد ثورةً أوروبية شاملة، فإن سلامًا في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ يُعد أمرًا ذا أهمية قصوىٰ بالنسبةِ إلينا.

الروسية. عمل هوجلوند بشكلٍ لصيقٍ مع القيادات البلشفية، وعُرِضَ عليه تكريمه بالجندية الشرفية في الجيش الأحمر، لكنه رفض. ظلَّ هوجلوند في روسيا حتى ربيع 1918. (المترجم)

هل اتُّخِذَت أي إجراءاتٍ بخصوصِ طردِ السفارة الرومانية؟ أعتقد أن ملك رومانيا الآن في النمسا. ووفقًا لتقريرٍ منشورٍ في إحدىٰ الصحفِ الألمانية، حصلنا عليه، فإن المودع في موسكو ليس المخزون المالي الروماني، بل مخزون ذهب البنك الوطني الروماني. إن تعاطف ألمانيا الرسمية يذهب بالكامل، بلا شكٍ، إلىٰ الجانب الروماني.

المخلص، ترورتسكي".

لعل هذه البرقية بحاجةٍ إلىٰ توضيح. كان من الضروري أن نضمن أن المراسلات عبر البرق مأمونةً من التسجيل أو الاستراق. كان لدينا ما يكفي من الأسباب التي تدعونا للاعتقادِ بأن الألمان كانوا يقرأون مراسلاتنا عبر البرق في بريست ليتوفسك، فنحن نعرف جيدًا كم هو ماهرون تقنيًا لنصدِّق ذلك. بينما كان من المستحيل علينا أن نُشفِّر كل رسائلنا، ولم نكن نعتبر أن التشفير يضمن الحماية اللازمة. في الوقتِ نفسه، لم تكن صحيفة بوليتيكن تخدمنا في شيءٍ بنشر هذه المعلومات الحقيقية؛ لكن من غير المُوَفَّق إعلانها. ولهذا السبب، لم تكن برقيتي إلىٰ لينين ترمي إلىٰ تحذيره من أن سر قرارنا قد أُفشِيَ بالخارج، بل لمحاولة تشتيت الألمان. واستخدمت كلمةً فظةً تمامًا - "الحمقىٰ" - في إشارةٍ لمُحرِّري الصحيفة، فقط لأجعل الرسالة تبدو "طبيعية". لا أعرف إلىٰ أي مدىٰ نجحت حيلتي في خداعِ كوهلمان، لكن علىٰ أيةِ حال بدا أن تصريحي لهم في 10 فبراير قد تَرَكَ بصمته عليهم كأمرٍ غير

مُتوقَّع. ففي يومياتِ سيرنين، عن يومِ 11 فبراير، نقرأ: "تروتسكي رَفَضَ التوقيع. الحرب انتهت، لكن ما مِن سلام".

من الصعب تصديق ما سأقوله، لكن في العام 1924 حاولت مدرسة ستالين وزينوفيف أن تُصوِّر الأمر بطريقةٍ أبدو فيها وكأنني تصرَّفت في بريست ليتوفسك علىٰ نحوٍ يتعارض مع قرار الحزبِ والحكومة. هؤلاء المُزيِّفون لم يزعجوا أنفسهم بحتىٰ بالعودةِ إلىٰ المحاضر القديمة لقراءة تصريحاتهم هم. تحدَّث زينوفيف في سوفييت بتروجراد، في 11 فبراير، أي بعد يومٍ واحد من التصريح الذي أدليت به في بريست ليتوفسك، والذي أكَّدت فيه علىٰ أن "وفدنا توصَّلَ إلىٰ أن السبيل الصحيح الوحيد للخروج من الوضع الراهن هو كما هو الآن". وكان زينوفيف هو من حرَّك القرار الذي تبنَّته الأغلبية ضد صوتٍ واحد - مع امتناع المناشفة والثوريين الاشتراكيين عن التصويت - وأقرَّ رفض توقيعِ معاهدة السلام.

بينما، في 14 فبراير، بعدما أعددت تقريري للجنة التنفيذية المركزية، كان الرفيق سفيردلوف هو الذي حرَّك، نيابةً عن الكتلةِ البلشفية، قرارًا بدأ بالكلماتِ التالية: "بعد سماعِ تقرير وفدِ السلام، وأخذه كاملًا في الاعتبار، تُصدِّق اللجنة التنفيذية المركزية بشكلٍ كاملٍ علىٰ الخطوات التي اتخذها مُمثِّلوها في بريست ليتوفسك". ولم تكن ثمة منظمةٌ حزبيةٌ أو سوفييتية محلية لم تعرِب عن توكيدها لأداء الوفد السوفييتي خلال الفترة من 1 إلىٰ 15 فبراير. وفي مؤتمر الحزب في

مارس 1918، أعلن زينوفيف أن "تروتسكي مُحِقٌّ في قوله إنه تصرَّف وفقًا لقرار أغلبية اللجنة المركزية. لم يحاول أحدٌ إنكارَ ذلك". وأخيرًا، أفاد لينين نفسه في نفسِ المؤتمر أن "في اللجنة المركزية... اعتُمِدَ قرارٌ بعدمِ توقيعِ السلام". كلُ ذلك لم يحول دون تأسيس الدوجما الجديدة في الأممية الشيوعية التي تقول إن تروتسكي وحده كان مسئولًا عن رفضِ توقيعِ السلامِ في بريست ليتوفسك.

وبعد موجة إضرابات أكتوبر في ألمانيا والنمسا، لم تكن مسألة ما إذا كانت الحكومة الألمانية ستقرِّر شنَّ الهجوم ضدنا واضحةً، سواء لنا أو للحكومةِ الألمانيةِ نفسها، كما يُصوِّرها الكثير من "الأذكياء" اليوم. وفي 10 فبراير، توصَّلت وفود ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية في بريست ليتوفسك إلىٰ استنتاجٍ بأن "لابد من قبول الوضع المُقدَّم في تصريحات تروتسكي". لم يعترض علىٰ ذلك إلا الجنرال هوفمان. وفي مؤتمرهم الختامي في اليومِ التالي، وفقًا لسيرنين، تحدَّثَ كوهلمان بثقةٍ كاملة عن ضرورةِ قبول السلامِ علىٰ أرضِ الواقع. وصلت أصداء ذلك إلينا علىٰ الفور، فعادَ أعضاءُ وفدِنا إلىٰ موسكو بانطباعٍ مفاده أن الألمان لن يشنوا هجومًا ضدنا، وكان لينين سعيدًا للغاية بهذه النتيجة.

لكنه ظلَّ يتساءل: "ربما سيخدعوننا؟".

هزِزنا أكتافنا نفيًا لذلك، فكل المظاهر لم تبدُ كذلك علىٰ الإطلاق.

فقال لينين: "حسنًا، إذا كان الأمرُ كذلك، فهذا جيد". انتهت الحرب.

لكن، قبل يومين من انتهاء مهلة الأسبوع لتلقي الرد الألماني، وصلت برقيةٌ من الجنرال سامويلو، الذي ظلَّ في بريست ليتوفسك، تُخبِرنا بأن الألمان أعلنوا، عبر الجنرال هوفمان، أنهم يعتبرون أنفسهم، ابتداءً من منتصف ليلة 18 فبراير، في حالةِ حربٍ مع روسيا، وبناءً عليه دعوه لمغادرة بريست ليتوفسك. تلقىٰ لينين هذه البرقية أولًا، بينما كنت في غرفته حيث كان هناك اجتماعٌ مع الثوريين الاشتراكيين اليساريين. ودون أن ينطق كلمةً واحدة، مرَّرَ البرقيةَ إليّ، وأدركت من وجهه أن شيئًا قد طرأ. عجَّلَ من النقاش مع الثوريين الاشتراكيين، كي يتمكَّن من مناقشة الموقف بعد مغادرتهم.

قال: "لقد خدعونا... بعدما كسبوا خمسة أيام. هذا الوحش الضاري لن يترك شيئًا يفلت منه. ليس أمامنا إلا أن نوقِّع علىٰ شروطِ السلام السابقة، هذا في حالةِ إن وافقَ الألمان علىٰ تركها كما هي".

وكما كان موقفي من قبل، أصررت علىٰ أن نسمح لهوفمان بأن يبدأ الهجوم ضدنا، حتىٰ يدرك العمال الألمان، وعمال دول الحلفاء، أن الهجوم حقيقةٌ واقعة وليس مجرد تهديد.

رددت عليه قائلًا: "لا. لن نتحمَّل فقدانَ ساعةٍ أخرىٰ الآن. انتهىٰ الاختبار. هوفمان يريد القتال ويقدر عليه. التأجيل مستحيل. الوحش يقفز بسرعة".

وفي مؤتمرِ الحزبِ في مارس، قال لينين: "كان من المُتفَق عليه بيننا (أي لينين وأنا) أن ننتظر حتىٰ يأتينا تحذيرٌ ألماني، لكن بعد ذلك ندعن لتوقيع السلام". سَبَقَ أن وصفت هذا الاتفاق أعلاه. قرَّرَ لينين ألا يهاجم وجهة نظري أمام الحزب فقط لأنني وعدته بألا أدعم المدافعين عن الحربِ الثورية. كان المُمَثِّلون الرسميون لهذه المجموعة - يورتسكي وراديك وأوسينسكي علىٰ ما أظن- قد جاءوا إليّ بعرضِ "جبهةٍ واحدة"، لكنني أوضحت لهم أن ما مِن شيءٍ يجمع موقفي معهم. وحينما أنذرتنا القيادة العليا الألمانية بقربِ انتهاء الهدنة، ذكَّرَني لينين باتفاقِنا، فأجبته بأنني لم أقصد بالتحذيرِ تصريحًا شفهيًا كهذا، بل هجومًا ألمانيًا فعليًا مباشرًا لا يترك أثرًا لشكٍّ في العلاقات الحقيقية بين البلدين.

وفي اجتماعِ اللجنة المركزية في 17 فبراير، طَرَحَ لينين مسألةً مهمةً للتصويت: "إذا صار الهجوم الألماني حقيقةً واقعة، وما من هبَّةٍ ثوريةٍ اندلعت في ألمانيا، هل سنوقِّع السلام أيْضًا؟". استجابَ بوخارين وأتباعه لهذا السؤال الجوهري بالامتناعِ عن التصويت، وهكذا أيضًا كان رد فعل كريستنسكي. صوَّت يوفي ضد السلام. أما لينين وأنا فقد صوَّتنا مع السلام. وفي اليومِ التالي، قمت بالتصويت ضد الإرسال

الفوري لبرقيةٍ تفيد باستعدادنا للتوقيعِ علىٰ السلام، كما اقترحَ لينين. لكن خلال اليوم نفسه، أخبرتنا تقارير تلغرافية أن الألمان فتحوا الهجوم علينا بالفعل، واستولوا علىٰ مؤننا العسكرية، وشرعوا في الزحفِ باتجاه دفينسك جنوبي شرق لاتفيا. وفي هذه الليلة، أعطيت صوتي لمشروع القرار الذي طَرَحَه لينين؛ فلم يكن ثمة شكٌّ في أن الهجوم الألماني قد أُذيعَ عبر أرجاء العالم بأسره.

في 21 فبراير، تلقينا شروطًا جديدة من ألمانيا بدت مُؤطَّرةً بهدفٍ مباشر ألا وهو جعل توقيعَ السلامِ مستحيلًا. وحين عادَ وفدُنا من بريست ليتوفسك، صارت هذه الشروط، كما يعلم الجميع، أكثر قسوةً وجورًا. كنَّا جميعًا، ولينين أيضًا كذلك، كنَّا تحت انطباعٍ بأن الألمان قد توصَّلوا إلىٰ اتفاقٍ مع الحلفاء لسحق السوفييتات وإبرام السلام في الجبهة الغربية علىٰ أشلاء الثورة الروسية. إذا كان ذلك صحيحًا، فلقد كان من الواضح أن ما مِن تنازلاتٍ من جانبنا قد تجدي نفعًا. ولقد رجَّحَت التطورات في فنلندا وأوكرانيا كفة الحرب بقوة. كل ساعةٍ كانت تجلب أمرًا غير مواتٍ وليس في صالحنا. وصلتنا أنباءٌ عن الإنزال الألماني في فنلندا، وانهزام العمال الفنلنديين. قابلت لينين في الرواق بجوارِ غرفته، كان مُستثارًا بصورةٍ مُفزِعة؛ لم أره هكذا من قبلِ قط، ولا بعد ذلك حتىٰ.

قال: "نعم، ينبغي علينا القتال. رغم أن ما مِن شيءٍ لدينا نقاتل به. يبدو أن ما مِن طريقٍ آخر للإفلاتِ من ذلك".

لكن بعد عشر أو خمسة عشر دقيقة، حين دُعِيت إلىٰ غرفته، قال: "كلا، لابد ألا نغيِّر سياستنا. التحرُّك العسكري من جانبنا لن ينقذ الثورة في فنلندا، بل سيدمِّرنا بكل تأكيد. سنساعد العمال الفنلنديين بكل ما في وسعنا، لكن علينا أن نفعل ذلك دون التخلي عن السلام. لست واثقًا أن ذلك سينقذنا الآن. علىٰ أيةِ حال، هذا هو الطريق الوحيد الذي يجعل النجاةَ ممكنةً".

كنت مُتشكِّكًا للغاية في إمكانية تأمين السلام حتىٰ وإن كان الثمن هو الاستسلام الكامل. لكن لينين حاول أن يذهب بفكرةِ الاستسلامِ إلىٰ أقصىٰ مداها. وإذ لم يكن يحظىٰ بأغلبيةٍ في اللجنة المركزية، وقد اعتَمَدَ القرار علىٰ صوتي، فقد امتنعت عن التصويت كي أضمن له أغلبيةً بفارقِ صوتٍ واحد. ذكرت ذلك صراحةً حين أوضحت أسباب امتناعي عن التصويت. وجادلت بأن الاستسلام، إذا فشل في تأمين السلام لنا، سيكون علينا أن نمد عمل الحزبَ إلىٰ الدفاعِ المُسلَّح في مواجهة هجمة العدو الشرسة علينا.

قلت للينين علىٰ انفراد: "يبدو لي أن من الحصافة السياسية أن أقدِّم استقالتي من منصبِ مُفوَّض الشعب للشئون الخارجية".

فقال: "لماذا؟ أتمنىٰ ألا نتبع هذه الأساليب البرلمانية".

فرددت عليه: "لكن استقالتي ستوحي للألمان بتغييرٍ جذري في سياستنا، وستعزِّز ثقتهم في استعدادنا لتوقيعِ اتفاقيةِ سلامٍ هذه المرة".

فأجاب لينين: "هناك شيءٌ في ذلك يبدو سببًا سياسيًا جادًا".

وفي 22 فبراير، ذكرت في اجتماعِ اللجنةِ المركزية أن البعثة العسكرية الفرنسية أبلغتنا بالعرض الفرنسي والإنجليزي بمساعدتنا في الحربِ مع ألمانيا. عبَّرت عن رأيي في صالح قبول العرض، بالطبع شريطة أن نكون مستقلين تمامًا في شئون السياسة الخارجية. أما بوخارين، فقد أصرَّ علىٰ أن من غير المقبول بالنسبةِ لنا أن نبرم أي اتفاقاتٍ مع الإمبرياليين. اصطف لينين إلىٰ جانبي بشراسة، وأقرَّت اللجنة المركزية قراري هذا بستة أصوات مقابل خمسة. وبحسب ما أتذكَّر الآن، أملىٰ لينين القرار علىٰ النحوِ التالي: "أن يُخوَّل الرفيق تروتسكي بقبول مساعدة لصوص الإمبريالية الفرنسية ضد قطَّاع الطرق الألمان". كان دائمًا يُفضِّل الصيغ التي لا تترك مجالًا للشك. بعدما تركت الاجتماع، تجاوزني بوخارين في الرواق الطويل في سمولني، أحاط بي بذراعيه، وبدأ ينتحب باكيًا: "ما هذا الذي نفعله؟ نحن نحوِّل الحزبَ إلىٰ كومةِ روث". يميل بوخارين عادةً إلىٰ التعبيرات الواقعية، ودموعه جاهزة دائمًا. لكن الموقف صار بالفعل مأساويًا حقًا، والثورة كانت بين مطرقةٍ وسندان.

وفي 3 مارس، وقَّع وفدُنا اتفاقية السلام دون أن يقرأها. كان سلام بريست ليتوفسك كحبلِ المشنقة، بما يحمله من الكثيرِ من أفكارِ كلمنصو. وفي 22 مارس، صدَّقَ الرايخستاج الألماني علىٰ الاتفاقية. حرَّرَ الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان شيكًا علىٰ بياض علىٰ بنودِ

فرساي المستقبلية. أما الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل فقد صوَّت ضدها. كان هؤلاء قد بدأوا لتوِّهم يرسمون المنحنىٰ العقيم الذي أدىٰ بهم في النهايةِ إلىٰ النقطة التي انطلقوا منها في الأصل.

بالعودة إلىٰ ما جرىٰ في المؤتمر السابع للحزب (مارس 1918)، كنت قد شرحت موقفي بتفصيلٍ ووضوحٍ كافيَين: إذا كنَّا حقًا أردنا سلامًا أكثر ملاءمةً بالنسبةِ لنا، لكنَّا وافقنا علىٰ ذلك منذ وقتٍ طويلٍ مضىٰ في نهاية نوفمبر. لكن لم يرفع أحدٌ صوته (باستثناء زينوفيف) لفعلِ ذلك.

كنَّا جميعًا نؤيد تحريض وتثوير الطبقات العاملة في ألمانيا، والنمسا - المجر، وفي كل أوروبا. وكانت لكل هذه المفاوضات مع ألمانيا أهمية ثورية بالفعل فقط إذا كانت تُنقل علىٰ حقيقتها للجميع. كنت قد ذكرت بالفعل للكتلة البلشفية في مؤتمر سوفييتات عامة روسيا كيف قال لي الوزير النمساوي السابق، جراتز، أن الألمان في حاجةٍ فقط إلىٰ أية ذريعة لإرسالِ تحذيرٍ إلينا. اعتقدوا أننا ندرك مُقدَّمًا أن علينا التوقيع علىٰ أي شيء؛ أننا فقط نقوم بدورنا في كوميديا ثورية من نوعٍ ما:

> "في ظل هذه الظروف، إذا كنَّا قد رفضنا توقيعَ السلام، لكان علينا أن نواجه خطر فقدان ريفال[9] وغيرها من المناطق والمقاطعات. بينما علىٰ الجانبِ الآخر، إذا كنَّا قد وقَّعنا علىٰ

[9] الاسم السابق لمدينة تالين، عاصمة أستونيا. (المترجم)

السلامِ علىٰ عجالة، لكنَّا جازفنا بفقدانِ تعاطف البروليتاريا العالمية، أو علىٰ الأقل القطاع الأكبر منها. كنت ممن يعتقدون أن من غير المُرجَّح أن تزحف ألمانيا باتجاهنا، وأنهم إذا فعلوا ذلك، يتعيَّن علينا أن نحظىٰ ببعض الوقتِ لتوقيعِ السلام، حتىٰ إذا تضمَّن ذلك شروطًا جائرة. وفي الوقتِ المناسب، كان الجميع ليدركون أن ما كان هناك طريقٌ آخر".

من الجدير بالإشارةِ هنا أن ليبكنيخت كَتَبَ في الوقت ذاته من السجن:

"لا معنىٰ للقول إن الحل الراهن للمشكلة ليس ملائمًا للتطوُّرات المستقبلية بقدرِ ما كان الإذعان للاستسلام في بريست ليتوفسك في بداية فبراير، بل علىٰ العكس؛ استسلامٌ مثل ذلك كان من شأنه أن يُسلِّط الضوءَ الأسوأ علىٰ المقاومة اللاحقة، وأن يُظهِر ما يترتَّب علىٰ ذلك من إذعانٍ لاستخدام القوة علىٰ أنه "ليس هجوميًا"... إن الأفعال الألمانية الوحشية، في نهاية المطاف، قد دفعت كافة الشكوك إلىٰ الوراء".

صَعَدَ ليبكنيخت بصورةٍ مذهلةٍ أثناء الحرب؛ لقد عرف جيدًا كيف يحافظ علىٰ إخدودٍ عميقٍ بينه وبين ميوعة هيس. ومن نافلِ القولِ إن شجاعة ليبكنيخت الثورية لا حدودَ لها. لكنه كان يتطوَّر الآن كإستراتيجي، وهذا ما انكشف في قضايا حياته الشخصية وسياساته

الثورية أيضًا. كانت اعتبارات أمانه الشخصي غريبةً عنه. بعد إلقاء القبضِ عليه، هزَّ الكثيرُ من الأصدقاءِ رؤوسهم مُعربين عن إعجابهم بهذه التضحية بالنفس. وعلىٰ خلافِ ذلك، كان لينين مهتمًا بأكثرِ ما يكون بأمان القيادة. كان أشبه بقائدِ جيشٍ يضع نصب عينيه، أثناء الحرب، ضمان الحفاظ علىٰ طاقمه القيادي آمنًا وفاعلًا. أما ليبكنيخت، فكان أشبه بجنرالٍ يقود قواته في المعركةِ بنفسه.

لهذا السبب، كما لأسبابٍ أخرىٰ، كان من الصعب عليه أن يفهم إستراتيجيتنا في بريست ليتوفسك. في البداية، أراد أن نتحدىٰ القدر وأن نتقدَّم لملاقاته. في تلك الفترة، أدان مرارًا "سياسة لينين - تروتسكي"، بغير تمييزٍ بين موقف لينين وموقفي في هذه القضية المحورية. لكنه بدأ لاحقًا يرىٰ سياسات بريست ليتوفسك في ضوءٍ مختلف، فكَتَبَ في بداية مايو: "الأمر الأهم علىٰ الإطلاق للسوفييتات الروسية هو أن تحوز سلطةً صارمة. ومن أجلِ ذلك فهم بحاجةٍ إلىٰ ذكاءٍ ووقتٍ، وطاقةٍ أيضًا. إنهم بحاجةٍ إلىٰ ذكاءٍ من أجلِ كسب الوقتِ اللازم لأي طاقةٍ مهما بدت ذكية". هذا اعترافٌ كاملٌ بصوابيةِ سياسة لينين في بريست ليتوفسك، تلك السياسة التي كانت مُوجَّهةً بالأساسِ من أجلِ كسبِ الوقت.

تشق الحقيقة طريقها، لكن السفاسف لا تزال عنيدةً دبقة. نَسَبَ إليّ البروفيسور الأميركي هارولد فيشر، في كتابٍ كبيرٍ يصف فيه السنوات الأولىٰ لروسيا السوفييتية بعنوان "المجاعة في روسيا"، فكرة أن

السوفييتات لن تدخل في حربٍ مع الحكومات البرجوازية، وفي الوقت نفسه لن تصنع سلامًا معها.

نَسَخَ فيشر، كآخرين مثله، هذه الصيغة الحمقاء من زينوفيف، ومن رجال الصف الثاني بشكلٍ عام، مضيفًا إليها بعضٍ من سوء فهمه. طالما شَرَعَ نقَّادي، الذين جاءوا متخلِّفين عن الزمن، في انتزاعِ أطروحاتي في بريست ليتوفسك من سياقِ الزمان والمكان، وحوَّلوها إلىٰ صيغٍ عامة من أجلِ اختزالها بسهولةٍ في محضِ سخافات، وخلال ذلك عجزوا عن ملاحظة أن حالة "لا سلم، لا حرب" أو بالأحرىٰ "لا اتفاقية سلام، لا حرب"، لم تكن تتضمَّن في ذاتها أي شيءٍ غير طبيعي، تمامًا مثل العلاقات القائمة اليوم بين الاتحاد السوفييتي والبلدان العظمىٰ في العالم - الولايات المتحدة وبريطانيا، فصحيح أنها لم تُنشأ برغبةٍ منَّا، لكن هذا لا يُغيِّر الأمور.

أضيفوا إلىٰ ذلك أن هناك بلدًا أنشأنا معها علاقات "لا سلم ولا حرب" هذه علىٰ وجه التحديد - أقصد رومانيا. وبينما يعزوا نقَّادي إليّ صيغةً عامةً يصوِّرونها علىٰ نحوٍ سخيفٍ وعبثي، يبدو أنهم غافلون عن حقيقةِ أنهم يعيدون إنتاج هذه الصيغة "السخيفة" فيما يخص العلاقات القائمة اليوم بين الاتحاد السوفييتي والكثير من البلدان الأخرىٰ.

كيف إذن نَظَرَ لينين إلىٰ وقائع بريست ليتوفسك حين أضحت شيئًا من الماضي؟ بشكلٍ عام، اعتبر لينين الخلافات العارضة في الرأي بيننا أنها غير جديرةٍ بالذكر. لكنه تحدَّثَ أكثر من مرةٍ عن "الأهمية الدعائية الهائلة لمفاوضات بريست ليتوفسك" (علىٰ سبيل المثال في الخطبة التي ألقاها في 17 مايو 1918). وفي المؤتمر الحزبي المنعقد بعد عامٍ من السلام، قال لينين: "حرمتنا عزلتنا الشديدة عن أوروبا الغربية، وكل البلدان الأخرىٰ، من أيةِ موادٍ ملموسة لتقييمِ المُعدَّل المُحتَمَل والمُمكِن لتطوُّرِ الثورة البروليتارية في الغرب، أو أي شكلٍ آخر لنموها. ونتيجةٌ من هذا الموقف المُعقَّد هي أن نشأت من قضية بريست ليتوفسك للسلام الكثير من الاختلافات في الرأي داخل حزبنا" (18 مارس 1919).

دعوني أتناول الآن الأساليب التي اتبعها نقَّادي خلال تلك الأيام. لأكثرِ من عامٍ كامل، كافَحَ بوخارين بشراسةٍ ضد لينين وضدي، مُهدِّدًا بشقِّ الحزب، وكان معه في ذلك كويبيشيف وياروسلافسكي وبوبنوف، وغيرهم من أعمدة الستالينية الحاليين. أما زينوفيف، فقد طالَبَ علىٰ خلافِهم بالتوقيعِ الفوري للسلام، مستنكرًا الإمكانات الدعائية لمفاوضات بريست ليتوفسك. وقد أجمعت أنا ولينين علىٰ شجبِ هذا الموقف. كامينيف علىٰ الناحيةِ الأخرىٰ وافق علىٰ صيغتي حين كان في بريست ليتوفسك، لكنه انضم إلىٰ لينين لدىٰ عودته إلىٰ موسكو. أما ريكوف، فلم يكن آنذاك عضوًا في اللجنة المركزية، فلم يشارك في

الاجتماعات الحاسمة في هذا الأمر. ورغم أن دزرجينسكي وقف ضد لينين طيلة الوقت، أدلىٰ بصوته في التصويت الأخير لصالحه. لكن، ماذا كان موقف ستالين؟ كالعادة، لم يكن لديه موقف. ظل ببساطة ينتظر بحرص. كان يومئ لي مشيرًا إلىٰ لينين: "لا زال الرجل العجوز يطمح للسلام"، ويردف قائلًا: "لن يحصل عليه أبدًا"، ثم يذهب بعد ذلك للينين ربما ليدلي بملاحظةٍ من هذا النوع عني. لم يكن يتحدَّث في العلن قط، ولم يكن أحدٌ يكترث لتناقضاته هذه. كان هدفي الأساسي، ألا وهو تناول قضية السلام علىٰ نحوٍ مفهومٍ للبروليتاريا في كافة أرجاء العالم، بلا شكٍ ذا أهميةٍ ثانوية بالنسبةِ لستالين. كل ما اكترث له هو "السلام في بلدٍ واحد"، تمامًا كما جاء لاحقًا في "الاشتراكية في بلدٍ واحد". وفي التصويت النهائي، انضم للينين. ولم يعمل علىٰ بلورة ما يشبه وجهة نظر له في أحداث بريست ليتوفسك إلا بعد فواتِ سنواتٍ طويلة، بل ولم يكن ذلك ببساطة إلا في خضم صراعه ضد التروتسكية.

إنه لمن غير الضروري أن أسهب كثيرًا في هذا الأمر، ولعلي كرَّست بالفعل مساحةً أكبر من اللازم للخلافات حول بريست ليتوفسك. لكن الضروري هنا هو أن أكشف علىٰ الأقل واحدةً من الوقائع الخلافية باكتمالها التام، لتوضيحِ ما حدث، وكيف جرىٰ تصويره لاحقًا.

وبذكر هذه الواقعة، أريد أن أضع رجال الصف الثاني في أماكنهم التي تليق بهم فيما يتعلَّق بلينين. لا يشك شخصٌ عاقلٌ أن ما يبلوِر موقفي تجاه لينين هو الشعور المعروف باللغة الألمانية بـ

"Rechthaberei – الإرشاد". لقد سبقت الجميع في التعبير عن تقديري البالغ لدور لينين في أيامِ بريست ليتوفسك. ففي 31 أكتوبر 1918، في المؤتمر الاستثنائي المشترك للأجهزةِ العليا للحكومة السوفييتية، قلت: "أرىٰ من الواجب عليّ أن أقول، في هذا الجمع المسئول، إن في الوقت الذي كان فيه الكثيرين منّا، وأنا من ضمنهم، مُتَشَكِّكين فيما إذا كان من المقبول لنا أن نوقِّع سلام بريست ليتوفسك، كان الرفيق لينين وحده يقف صارمًا ببصيرةٍ نافذة ضد معارضتنا، التي علينا أن نخوضها سويًا حتىٰ تصل بنا إلىٰ ثورة البروليتاريا العالمية. والآن، يتعيَّن عليّ أن أعترف أننا كنَّا علىٰ خطأ".

لم أنتظر ما قد يكشف عنه رجال الصف الثاني حتىٰ أدرك شجاعة لينين، التي لها الفضل في الحفاظ علىٰ نظامِ ديكتاتورية البروليتاريا في أيام بريست ليتوفسك. وفي الكلمات التي اقتبستها أعلاه، أخذت علىٰ نفسي نصيبًا من المسئولية عن أخطاءٍ ارتكبها آخرون أكبر من مسئولية أخطائي، ولم أفعل ذلك إلا لأقدِّم قدوةً لهم. يذكر المحضر المكتوب لهذا المؤتمر أن تلىٰ ذلك "تصفيقٌ مطوَّل". أراد الحزب بذلك أن يُظهِر أنه يدرك ويقدِّر موقفي تجاه لينين، ذلك الموقف البعيد كل البعد عن الغيرة أوْ سوء النية. أدركت تمامًا ماذا كان يعنيه لينين بالنسبةِ للثورة، وللتاريخ، ولي. كان أستاذي. وهذا لا يعني أنني كنت أردِّد كلماته وإيماءاته، لكنني تعلَّمت منه أن أصل بصورةٍ مستقلةٍ إلىٰ نفس القرار.

الفصل الثالث والثلاثون

شهرٌ في سفيياجسك

كان ربيع وصيف 1918 قاسيَّين علىٰ نحوٍ استثنائي. تركَّزَت في ذلك الوقت كلُّ آثار الحرب وأعقابها لتقف جاسدةً أمام الجميع. بدا كل شيءٍ يتداعىٰ وينهار كما لو أن ما من شيءٍ يمكن الاستناد إليه، ما من شيءٍ يمكن الارتكاز عليه. كنت أتساءل ما إذا كان هناك أي شيء في هذه البلاد البائسة، المُتهدِّمة والمُستَنزَفة اقتصاديًا، يكفي لدعم نظامٍ جديد والحفاظ علىٰ استقلاله. لم يكن هناك طعام. لم يكن هناك جيش. خطوط السكك الحديدية كانت مضطربةً للغاية. وجهاز الدولة كان يبدأ لتوِّه في التشكُّل. فيما كانت المكائد والمؤامرات تُدبَّر في كل مكان.

في الغرب، احتلَّ الألمان بولندا وليتوانيا ولاتفيا وروسيا البيضاء، وجزءًا كبيرًا من روسيا. بسكوف أيضًا كانت تحت سيطرتهم، أما أوكرانيا فصارت مستعمرةً نمساويةً ألمانية. وفي الفولجا، نظَّم عملاء فرنسا وإنجلترا، في صيف 1918، تمردًا في صفوف الأفواج التشيكوسلوفاكية التي تألَّفَت من سجناء حرب سابقين[10]. وأخبرني

---

[10] كان ذلك في يونيو 1918 على وجه التحديد، وعدد الجنود التشيكوسلوفاك كان يناهز الـ30 ألف جندي، كانوا قد احتشدوا في البداية برعاية كرينسكي. (المترجم)

القائد الأعلىٰ الألماني، عن طريق مندوبيه العسكريين، أنْ إذا اقترب الجيش الأبيض من موسكو من ناحية الشرق، سيقدم الألمان من الغرب من جهة أورشا وبسكوف، لمنع تشكيل جبهة شرقية جديدة، وهكذا أصبحنا بين مطرقة وسندان. وفي الشمال، احتلَّ الإنجليز والفرنسيون مورمانسك وأرتشانجل، وهدَّدوا بالزحف إلىٰ فولوجدا. أما في ياروسلافل، فقد اندلع عصيانٌ للحرس الأبيض نظَّمَه سافينكوف، بتحريضٍ من السفير الفرنسي نولين والمندوب الإنجليزي لوخارت، بغية ربط القوات الشمالية بالتشيكوسلوفاكيين والحرس الأبيض في الفولجا، علىٰ طريق فولوجدا وياروسلافل. وفي الأورال، تمدَّدَت فِرَق دوتوف العسكرية. أما في الجنوب، فقد اتسع العصيان الذي تزعَّمَه الجنرال كراسنوف في الدون، ثم تحالف بعد ذلك مع الألمان[11]. ودبَّر الثوريون الاشتراكيون اليساريون مؤامرةً في يوليو وقتلوا الكونت ميرباتش، وحاولوا في الوقت نفسه شن عصيانٍ علىٰ الجبهة الشرقية. كانوا يبتغون توريطنا في حربٍ مع ألمانيا. كانت الحرب الأهلية تتخذ شكلَ مشنقةٍ يضيق خناقها علىٰ رقبة موسكو.

بعد سقوط سمبيرسك، تقرَّرَ ذهابي إلىٰ الفلوجا، حيث واجهت أخطارًا جمة. قمت بتجهيز قطارٍ خاص، ولم يكن الأمر سهلًا علىٰ

---

[11] الدول التي تدخلت بجيوشها لمحاربة السلطة السوفيتية في روسيا هي: ألمانيا، والنمسا، وبريطانيا، وفرنسا، واليابان، والولايات المتحدة، وصربيا، وبولندا، وأوكرانيا، ورومانيا، وفنلندا، وأستونيا، وليتوانيا، وتشيكوسلوفاكيا. (المترجم)

الإطلاق في تلك الأيام. كان الارتباك سيد الموقف، أو بالأحرىٰ لم يكن من السهل أن يعثر المرء علىٰ ما يريد. أبسط المهام كانت تُنجَز بارتجالاتٍ مُعقَّدة. لم أكن أتصوَّر حينها أنني سأعيش في هذا القطار لعامين ونصف. غادرت موسكو في 7 أغسطس، ولم أكن أعلم بعد بسقوط قازان في اليوم الماضي، وقد جاءني هذا النبأ المشئوم في الطريق. تخلَّت الوحدات الحمراء، التي اندفعت في عجلةٍ إلىٰ الخدمة العسكرية، عن مواقعها دون قتال، كاشفةً بذلك دفاعات قازان. ثبت أن بعضهم خونة، أما الآخرون فقد كان عليهم الهرب حفاظًا علىٰ حياتهم تحت وابلٍ من النيران. لم يكن أحدٌ يعرف أين كان القائد الأعلىٰ أو الضباط المسئولين. توقَّفَ قطاري في سفيياجسك، وهي أقرب محطة كبرىٰ من قازان، وهناك، ولمدة شهرٍ كامل، عَلِقَ مصير الثورة بأكملها علىٰ كفة ميزان. كان هذا الشهر مدرسةً حقيقية لي.

تشكَّلَ الجيش في سفيياجسك من أفواجٍ ومفارز انسحبت من سمبيرسك وقازان، ووحدات مساعدة هرعت إلىٰ هناك من كل فجٍّ عميق. كانت لكل وحدة حياتها الخاصة، بينما كان العامل المشترك الوحيد بينهم هو الاستعداد للتراجع والانسحاب، لذا كان العدو مُتفوِّقًا علىٰ مستوىٰ كلٍ من التنظيم والخبرة. بينما كانت بعض الفرق البيضاء تتشكَّل حصريًا من ضباطٍ بإمكانهم صنع المعجزات. بدت الأرض نفسها مسمومة بالذعر، فحتىٰ الأفواج والمفارز الحمراء الجديدة التي جاءت في البداية عفيَّة بمزاجٍ قتالي قوي، كانت تذوب

توًا في حالة الهمود السائدة. بدأت الشائعات تنتشر بين الفلاحين المحليين بأن السوفييتات قد قُضِيَ عليها، ومن ثم بدأ التجار والكهنة يرفعون رؤوسهم، وأخذت العناصر الثورية في القرىٰ في الاختباء هربًا. بدا الوضع بائسًا، كل شيءٍ كان يتداعىٰ، ولم يكن هناك ما يمكن الاستناد إليه.

هناك، علىٰ مقربةٍ من قازان، علىٰ هذه الرقعة المحدودة من الأرض، كان بإمكان المرء أن يرىٰ تنوُّعًا ثريًا من العوامل في التاريخ البشري، كان بإمكان المرء أن يخوض الجدالات ضد القدرية التاريخية الجبانة التي تختبئ، في كل القضايا الملموسة، خلف سلبية قانون العلة والمعلول، متجاهلةً أهم العوامل؛ ألا وهو الإنسان الفاعل النشط. هل كانت هناك حاجةٌ للمزيد من أجل الإطاحة بالثورة؟ كانت رقعة الثورة تتقلَّص حتىٰ وصلت فقط إلىٰ حدود إمارة موسكو القديمة، ولم يكن لها جيشٌ، بينما أحاطها الأعداء من كل جانب. وبعد قازان، كان ليأتي الدور علىٰ نيجني نوفوجورد التي منها ينتفح الطريق دون عائقٍ إلىٰ موسكو. كان مصير الثورة نفسه يتوقَّف علىٰ سفيياجسك. وهناك، في اللحظات الأكثر حسمًا، كان هذا المصير يتوقَّف علىٰ مفرزةٍ واحدة، علىٰ فرقةٍ واحدة، علىٰ بسالةِ مُفوَّضٍ واحد. باختصار، كانت الثورة تتعلَّق بخيطٍ رفيع، وهكذا سارت الأمور يومًا بعد يوم.

لكن رغم كل ذلك، نجت الثورة. ما الذي كان ضروريًا لذلك؟ أمورٌ بسيطة للغاية. كان علىٰ صفوف الجماهير علىٰ الجبهة أن تدرك الخطر القاتل الكامن في هذا الوضع. كان الشرط الضروري الأول للانتصار هو ألا يُخفىٰ أي شيء، بالأخص نقاط ضعفنا، ألا نعبث مع الجماهير أو نكذب عليها، بل أن نسمي الأشياء بأسمائها الصحيحة. في ذلك الوقت، كان الاستهتار لا يزال سيد الموقف في الثورة؛ فقد حقَّقنا من قبل انتصار أكتوبر بسهولةٍ بالغة. لكن في الوقت نفسه لم تمحِ الثورة، بضربةٍ واحدة، كافة المصاعب التي أشعلتها في الأصل. تلاشت الضغوط، وبدأ العدو يُحقِّق نجاحاته بالتنظيم العسكري، ذلك الأمر الذي افتقرنا إليه. لكن الثورة بدأت في إنجاز ذلك قبل قازان.

كانت البرقيات التي اعتدنا إرسالها من سفياجسك تثري الدعاية عبر أرجاء البلاد. كرَّست السوفييتات نفسها، وكذلك الحزب والنقابات، لحشد أفواجٍ جديدة وإرسال الآلاف من الشيوعيين إلىٰ جبهة قازان. لم يكن أغلب شباب الحزب علىٰ درايةٍ بكيفية استخدام السلاح، لكن كانت لديهم عزيمةٌ وإصرارٌ علىٰ الانتصار؛ وهذا هو الأهم. كان هؤلاء بمثابة العمود الفقري الصلب لجسد الجيش الرخو.

كان القائد الأعلىٰ للجبهة الشرقية هو العقيد فاتزيتيس، الذي تزعَّمَ فرقة البنادق اللاتفية، وكانت هذه آخر وحدة متبقية من الجيش القديم. كان المزارعون والعمال والفلاحون اللاتفيون الفقراء يكرهون بارونات البلطيق، وقد استفادت القيصرية من هذه العداوة في الحرب

ضد الألمان، فصارت الأفواج اللاتفية أفضل القوات القادمة من جيش القيصر القديم. ثم بعد ثورة فبراير، سارت هذه القوات علىٰ قلب رجلٍ واحد وراء البلاشفة، واضطلعوا بدورٍ هام في ثورة أكتوبر. كان فاتزيتيس مغامرًا نشيطًا وحاذقًا واسع الحيلة، صَعَدَ نجمه أثناء العصيان الذي دبَّره الثوريون الاشتراكيون اليساريون، وبتوجيهٍ منه تمركزت فرقة البنادق الخفيفة أمام مقر المتآمرين، وكانت زختان أو ثلاث من النيران كافية لإرهابهم وانقلابهم علىٰ أعقابهم. حلَّ فاتزيتيس محلَّ مورافيوف بعد خيانته علىٰ الجبهة الشرقية. وعلىٰ عكس الضباط الآخرين الذين تدرَّبوا في الأكاديمية العسكرية، لم يذب فاتزيتيس في الفوضىٰ التي خلقتها الثورة، بل أخذ ينشط بحماس، يحضّ ويحث الآخرين، يعطي أوامره حتىٰ حينما لم يكن هناك إلا أمل بسيط فيما يمكن تحقيقه. وبينما كان "الأخصائيون" الآخرون في الخدمات الحكومية أكثر خوفًا من تجاوز حدود صلاحياتهم وسلطاتهم، كان فاتزيتيس في لحظاته الملهمة ليصدر أوامره كما لو كان مجلس مفوَّضي الشعب واللجنة التنفيذية المركزية ليس لهما أي وجود. اتُّهِمَ بعد ذلك بعام بتدبير مُخطَّطات واتصالات مشبوهة، فسُرِّحَ من الخدمة، لكن في الحقيقة لم تكن هذه الاتهامات علىٰ أي قدرٍ من الصحة. ربما كان الرجل ليقرأ سيرة نابليون قبل أن يخلد إلىٰ النوم، ليعهد بأحلامه الطموحة لضابطين أو ثلاثة من الشباب.

اليوم يشغل فاتزيتيس وظيفة أستاذٍ في الأكاديمية العسكرية. أثناء الانسحاب من قازان في 6 أغسطس، كان فاتزيتيس آخر من يغادر مقر الطاقم العسكري بينما كان الحرس الأبيض يقتحمون المبنىٰ بالفعل. نجح في الهرب وسَلَكَ طرقًا ملتوية للوصول إلىٰ سفيياجسك. خسر قازان، لكن لم يخسر تفاؤله. تناقشنا في أهم القضايا معًا، وقمنا بتعيين الضابط اللاتفي سالفين قائدًا عامًا للجيش الخامس وودَّعنا بعضنا. غادر فاتزيتيس مقر الطاقم وبقيت أنا في سفيياجسك.

من بين عمال الحزب الذين وصلوا في نفس القطار معي كان رجلٌ يُدعىٰ جوسيف. كان يُطلق عليه "بلشفيًا قديمًا"، نظرًا لمشاركته في ثورة 1905. تقاعَدَ عن العمل السياسي وعاش حياةً برجوازية مُترَفة طوال السنوات العشر اللاحقة، لكنه عاد في ثورة 1917 ككثيرين غيره. وبعد ذلك بفترة، عَزَلته أنا ولينين من العمل العسكري بسبب مشاركته في تدبير بعض المكائد الصغيرة، وسرعان ما التقطه ستالين. حِرفته الرئيسية اليوم إنما هي تزييف تاريخ الحرب الأهلية، وفي ذلك يمارس كفاءته الأولىٰ والتي هي السخرية الفاترة. وكغيره من خريجي مدرسة ستالين، لا يلتفت علىٰ الإطلاق إلىٰ ما كتب أو قال من قبل. ففي بداية العام 1924، حين باتت الحملة ضدي علنيةً وسافرة، اضطلع جوسيف بدوره كمفترٍ بارد. لكن ذاكرة تلك الأيام في سفيياجسك، رغم مُضي ستة أعوام عليها، لا تزال حية، وتُعتبر بمثابة

اختبارٍ حقيقي بالنسبة له. هذا ما قاله عن الأحداث التي جرت علىٰ مقربةٍ من قازان:

"أدىٰ مجرد وصول الرفيق تروتسكي إلىٰ تغييرٍ حاسمٍ في الموقف. وصول الرفيق تروتسكي إلىٰ محطة سفيياجسك الغامضة بثَّ فينا إرادةً صلبة للانتصار، وشعورًا جديدًا بالمبادرة، وحزمًا قاطعًا في كل نواحي عمل الجيش.

منذ الأيام الأولىٰ، شَعَرَ الجميع أن ثمة تغيُّراً مفاجئًا قد طرأ، ليس فقط في المحطة، التي كانت مقرًا للقيادة وطاقم الإمداد، والتي اكتظت كذلك بقطارات الإمداد بأفواجٍ ومفارز لا حصر لها، لكن حتىٰ أيضًا في وحدات الجيش التي تمركزت علىٰ بُعدِ أكثر من خمسة عشر كيلومتراً. برز هذا التغير في بادئ الأمر علىٰ مستوىٰ الانضباط، حيث كانت التدابير الصارمة التي اتخذها الرفيق تروتسكي ملائمةً وضروريةً لتلك الفترة التي سادت فيها أساليب الحرب غير المنضبطة ولا المنظمة. لم يكن الإقناع وحده أسلوبًا ذا نفع كبير، ولم يتوفَّر الوقت له. وهكذا، خلال الخمسة وعشرين يومًا التي قضاها الرفيق تروتسكي في سفيياجسك، أُنجِزَت الكثير من المهام الهائلة، وكنتيجة لذلك تحوَّلت وحدات الجيش الخامس المُبعثرة والمُحبَطة إلىٰ وحداتٍ مقاتلة تمكَّنَت من استرداد قازان".

كانت الخيانة تنصب شراكها بين الأطقم العسكرية والضباط المسئولين، وفي كل مكان في الحقيقة. عَرِفَ العدو أين يضرب، وكان يفعل ذلك في أغلب الأحيان بالكثير من الثقة والتيقُّن. كانت الأمور مُحبِطة. وبعد وقتٍ قصير من وصولي، زرت مدفعيات الجبهة، وشرع ضابطٌ متمرسٌ يشرح لي تنظيم المدفعية، رجلٌ بوجهٍ نحتته الرياح ذي عينين مُتَبَلِّدَتين عديمتيّ الإحساس. استأذنني في الانصراف دقيقةً واحدة لإعطاء بعض الأوامر عبر الهاتف الميداني. وبعد بضع دقائق سقطت قذيقتان علىٰ مسافة خمسين قدمًا مني حيث كنَّا واقفين، ثم سقطت ثالثة علىٰ مقربةٍ منَّا أيضًا. لم أنطبح أرضًا إذ لم أنتبه لقدوم القذائف نحونا، فهال عليّ التراب، بينما وقف الضابط لا يحرك ساكنًا علىٰ مسافةٍ أبعد مني قليلًا وقد شحب وجهه رغم سمرته. ويااللغرابة! لم أشك في شيءٍ في تلك اللحظة؛ ظننت أن الأمر كله حدث مصادفةً. لكن بعد عامين، تذكَّرت ما حدث فجأةً بأدق ما فيه من تفاصيل، واتضح لي أن الضابط كان عدوًا، وأنه تواصَلَ مع مدفعية العدو عبر الهاتف في نقطةٍ وسيطة، وأخبرهم أين يوجهون قذائفهم. كانت هذه مخاطرةً مزدوجة، فقد خاطر بأن يُقتل إلىٰ جانبي بقذيفةٍ من الحرس الأبيض، وأن يُكشَف أمره ويعدمه الحرس الأحمر. ليس لديّ أدنىٰ فكرة عمَّا حدث له لاحقًا.

لم أكن قد عدت بعد إلىٰ عربة القطار حتىٰ سمعت طلقات بنادق من حولي، فهرعت إلىٰ الباب. كانت طائرةٌ بيضاء تحوم حولنا تحاول

ضرب القطار. سقطت ثلاثة قنابل واحدة تلو الأخرىٰ علىٰ منحنىً واسع، لكن دون أضرار. ومن علىٰ سطح القطار، ظلَّ الجنود يُصوِّبون البنادق والرشاشات علىٰ العدو. حلَّقت الطائرة خارج مرمانا، لكن استمرت الطلقات تدوِّي في الهواء، كان يبدو أن الجميع مخمورون. وبصعوبةٍ تمكَّنت من وقف إطلاق النار. من المُحتَمَل أن نفس ضابط المدفعية كان قد أبلغ بوقت عودتي إلىٰ القطار، وربما كانت هناك مصادر أخرىٰ أيضًا.

كلما كان الوضع العسكري للثورة بائسًا، نشطت الخيانة وانتعشت. كان من الضروري أن يتجاوز الجيش في أسرع وقتٍ ممكن، ومهما كلف الأمر، حالة الهمود التلقائي للتراجع، والتي لا يؤمن فيها الرجال بقدرتهم علىٰ إيقاف العدو ومواجهته وتوجيه الضربات له في القلب. أحضرت معي من موسكو حوالي خمسين شابًا من أعضاء الحزب في القطار. هؤلاء تفوَّقوا علىٰ أنفسهم، فقفزوا من القطار إلىٰ أرض المعركة وذابوا في الجبهة قبل أن تطرف عيني، بمجازفةٍ بطولية وانعدامٍ كامل للخبرة. كانت المواقع المحيطة بهم تابعة للفوج اللاتفي الرابع. ومن كل الأفواج اللاتفية التي سرعان ما تشرذمت، هذه كانت الأسوأ. انبطح الرجال في وحل الأمطار طالبين الغوث، لكن ما من مجيب. بعث قائد الفوج ولجنة الفوج بيانًا إليّ يفيد بأنه إذا لم يُعفَ الفوج من القتال فورًا، ستحل "عواقب وخيمة علىٰ الثورة". كان ذلك تهديدًا. استدعيت قائد الفوج ورئيس اللجنة

إلىٰ مقصورتي في القطار، فأصروا علىٰ بيانهم مُتجهِّمي الوجه، فأمرت باعتقالهم، وجرَّدهم ضابط الاتصالات في القطار، الذي يشغل اليوم منصب قائد الكرملين، من أسلحتهم علىٰ الفور. كنت أنا وهذا الضابط فقط من بقىٰ في القطار من طاقمه، بينما كان الآخرون يقاتلون علىٰ الجبهة. إذا كان المعتقلان قد أبديا أية مقاومة، أو أن الفوج قد قرَّر الانسحاب من خط الجبهة والدفاع عنهما، لكان الموقف قد تطوَّرَ علىٰ نحوٍ بائس. كان علينا أن ننسحب من سفيياجسك ونتخلَّىٰ عن جسر الفولجا، فإذا كان العدو قد تمكَّن من الاستيلاء علىٰ قطاري لكان لذلك بلا شك أثرٌ بالغ علىٰ الجيش، ولأُخلىٰ الطريق إلىٰ موسكو تمامًا. لكن اعتقال الضابطين مرَّ بسلام. أعلنت إلىٰ الجيش إحالة قائد الكتيبة إلىٰ المحاكمة أمام المحكمة الثورية. حُكِمَ عليه بالسجن فقط، بينما ظلَّ الفوج في موقعه.

كان الشيوعيون يتناقشون ويحثون ويحضون ويقدمون الأمثلة، لكن التحريض لا يمكنه وحده تغيير حالة القوات جذريًا، ولم يكن هناك متسعٌ من الوقت لذلك. كان علينا اتخاذ تدابير أكثر صرامة، فأصدرت أمرًا نُسِخَ في مطبعة القطار ووُزِعَ علىٰ كافة أرجاء الجيش: "أُحذِّر من أنه إذا انسحبت أي وحدة من وحدات الجيش دون أوامر بذلك، فأول من سيُطلق عليه الرصاص سيكون هو مفوَّض الوحدة، ثم قائدها، ويحل الجنود الشجعان البواسل محلهما علىٰ الفور. الطلقة لن تخطئ الجبناء والأوغاد والخونة". أطلقت هذا التحذير، رسميًا، إلىٰ

الجيش الأحمر بأكمله. بالطبع لم يأت التغيير فورًا، وظلَّت بعض المفارز تنسحب فرادىٰ دون سببٍ، وأخرىٰ تتشرذم بعد أول هجوم ضارٍ عليها. كانت سفيياجسك ساحةً مفتوحةً للهجوم. وفي الفولجا، كانت هناك باخرةٌ مستعدة وفي انتظار الطاقم. تحرَّك عشرة من طاقم قطاري بالدرَّاجات، يصطحبهم بعض الحرس في الطريق من مقر الطاقم إلىٰ مرسىٰ الباخرة. في تلك الأثناء، أوصىٰ السوفييت العسكري للجيش الخامس بأن أنتقل إلىٰ مقربةٍ من النهر. كان ذلك اقتراحًا حكيمًا بالتأكيد، لكنني تخوَّفت من التأثير السلبي علىٰ الجيش، المتوتر بما فيه الكفاية والمفتقر إلىٰ الثقة. في الوقت نفسه، تدهور الموقف علىٰ الجبهة فجأة، فقد تخلَّىٰ الفوج الجديد الذي اعتمدنا عليه عن موقعه، وعلىٰ رأسه المفوَّض والقائد، بل واستولوا علىٰ الباخرة بتهديد السلاح، بغرض الإبحار إلىٰ نيجني نوفجورود.

كانت أجراس الإنذار تصم الآذان علىٰ الجبهة. كان الجميع يوجهون أنظارهم إلىٰ النهر. بدا الوضع بائسًا. ظلَّ الطاقم في موقعه، رغم أن العدو كان علىٰ بُعد كيلومتر أو اثنين، والقذائف تسقط وتنفجر بالقرب منّا. تحدَّثت إلىٰ ماركين، الذي لا غنىٰ عنه في هذه الأحوال، فاستقل زورقًا حربيًا مع عددٍ من الرجال المُدرَّبين وأبحر إلىٰ الباخرة التي استولىٰ الفارون عليها، وطلب منهم الاستسلام مُوجِّهًا فوهة بندقيته تجاههم. توقَّفَ كل شيءٍ علىٰ تلك اللحظة؛ طلقة واحدة كانت كافية لتقع كارثة، لكن الفارون استسلموا دون مقاومة. رست الباخرة

علىٰ رصيف المُيناء وترجَّلَ الفارون منها. أحلتهم لمحكمةٍ ميدانية قضت بإعدام القائد والمفوَّض وعددٍ من الجنود - الجرح المتقيِّح يداويه الحديد الساخن. أوضحت الأمر للفوج دون مواربةٍ أو تلطيف. انضم عددٌ من الشيوعيين إلىٰ الفوج الذي عاد إلىٰ جبهة القتال بضباطِ قيادةٍ جُدد وروحٍ جديدة. جرىٰ كل شيءٍ بسرعة كبيرة لم تتح الوقت للعدو ليستغل الاضطرابات في صفوفنا.

صار من الضروري تنظيم قطاعٍ جوي. استدعيت طيارًا مهندسًا، يُدعىٰ أكاشيف، كان يعمل معنا رغم عقيدته الفوضوية. بادر أكاشيف بحشد سربٍ من الطائرات، وبمساعدة هذا السرب تمكنّا من رسم صورة كاملة لجبهة العدو، فخرجت قيادة الجيش الخامس من الظلام إلىٰ النور. حلَّقت الطائرات في غاراتٍ جوية يومية علىٰ قازان، وصمَّت أجراس الإنذار المسعورة آذان المدينة. وفي وقتٍ لاحق، بعد استرداد قازان، تلقيت بعض الوثائق التي تضمَّنت مذكرات فتاة برجوازية شهدت حصار قازان. كُرِّسَت صفحاتٌ عديدة لوصف الذعر الذي خلقه طيارونا، تناوَبَت مع صفحاتٍ أخرىٰ تحكي قصة حب الفتاة. هكذا سارت الحياة، وما بدأ في قاعات قازان وصالوناتها وصل محطته النهائية في أقبيتها وسراديبها لوذًا من القصف.

وفي ليلة الثامن والعشرين من أغسطس، شنَّ الجيش الأبيض هجومًا ملتويًا علينا، حيث اخترق العقيد كابيل، الذي صار فيما بعد جنرالًا شهيرًا، صفوفنا في جنح الظلام، بكتيبةٍ قوية من خلفه، واحتلَّ

محطة قطار صغيرة ودمَّر قضبانَ السكك الحديدية، وأعمدة التلغراف كذلك. ومن ثم تقدَّمَت كتيبة كابيل لمهاجمة سفيياجسك. إن لم أكن مخطئًا، كان سافينكوف ضمن طاقم كابيل. أخذتنا هذه الهجمات على حين غرة. كنَّا نتخوَّف من أن تحل الفوضى في الجبهة المتزعزعة في الأصل، لذا سحبنا فرقتين أو ثلاث فقط. ومرة أخرى أخذ قائد قطاري يحشد كل من تقع عليه يده، سواء في القطار أو في المحطة، بمن في ذلك الطبَّاخ نفسه. كان لدينا مخزونٌ جيدٌ من البنادق والرشاشات والقنابل اليدوية، وكان طاقم القطار يتألَّف من مقاتلين جيدين. اتخذ الرجال مواقعهم على مسافة حوالي كيلومتر من القطار، واستمرت المعركة لما يقرب من ثماني ساعات، وتكبَّد الطرفان الكثير من الخسائر، وفي النهاية انسحب العدو بعدما استهلك نفسه. في تلك الأثناء، استثارت موسكو إثر انقطاع الاتصالات مع سفيياجسك، فهرعت وحداتٌ صغيرة لإغاثتنا. وسرعان ما أُصلِحَت خطوط السكك الحديدية لتنصبّ كتائب جديدة في الجيش. لكن صحف قازان كانت تنقل في ذلك الوقت تقارير عن اعتقالي، وعن أسري، وعن مقتلي، وحتى عن هربي في طائرة، لكن في الحقيقة كلبي هو من أخذه العدو غنيمة. هذا الكائن المخلص كان يُعتَقَل في كل جبهات الحرب الأهلية. في أغلب الحالات كان مجرد كلب بلون الشيكولاتة، لكنه أحيانًا ما كان يبدو في هيئة القديسين. لم يكن لديّ أي كلب قبله.

وبينما كنت أجوب مقرات الطاقم العسكري في الثالثة فجرًا، في الليلة الحاسمة في سفيياجسك، سمعت صوتًا مألوفًا من إحدىٰ الغرف يقول: "سيستمر في هذه اللعبة حتىٰ يؤخذ أسيرًا ويدمر نفسه ويدمرنا معه. ثقوا في كلامي"، فوقفت عند العتبة، وهناك كان اثنان من ضباط الطاقم الشبان في مواجهتي جالسَين علىٰ طاولةٍ مُنكبَّين علىٰ خريطة. أما الرجل الذي قال هذا الكلام، فكان واقفًا منحنيًا قليلًا علىٰ الطاولة مواجهًا إياي بظهره. لابد أنه لاحظ ما بدا كأنه إنذارًا علىٰ وجهيّ زميليه، إذ التفت فجأةً تجاه الباب. كان ذلك هو بلاجونرافوف، البلشفي الشاب والملازم السابق في الجيش القيصري. تجمَّد وجهه بذُعرٍ ممزوجٍ بالخزي. كان من واجبه، كمفوَّض، أن يحافظ علىٰ معنويات الأخصائيين الملتحقين بالجيش، لكن بدلًا من ذلك، ها هو ذا، في هذه اللحظة الحاسمة، يحرِّض ضدي ويوصي بالفرار من الجيش. أمسكت به متلبسًا، ولم أكد أصدق عينياي أو أذناي.

كان بلاجونرافوف قد أثبت نفسه مقاتلًا ثوريًا خلال العام 1917، كان مفوَّضًا لقلعة بطرس وبولس أثناء الثورة، وشارك لاحقًا في قمع انتفاضة الطلاب العسكريين. أوكلت له مهامًا ذات شأن خلال فترة سمولني، ونفذها جميعًا علىٰ نحوٍ جيد. قلت ذات مرة للينين مازحًا: "مثل هذا الملازم قد يصبح نابليون يومًا ما. حتىٰ اسمه مناسبٌ

لذلك: بلاجو - نرافوف[12] تقريبًا مثل بونا - بارت". ضحك لينين علىٰ هذه المقاربة غير المُتوقَّعة، ثم أخذ يفكر، وقال بمنتهىٰ الجدية وبشيءٍ من التحذير، وقد تضخَّمَ عظم وجنتيه: "حسنًا، أعتقد أننا سنرتب أمر هؤلاء البونابارت، ألا تظن ذلك؟". أجبته بدعابة: "كل شيءٍ بين يدي الرب". كان هذا نفس البلاجونرافوف الذي أرسلته إلىٰ الشرق حينما كان الناس هناك غافلين عن خيانة مورافيوف. وحينما شرعت أشرح المهمة الموكلة لبراجونرافوف في غرفة الاستقبال الخاصة بلينين في الكرملين، أجابني كما لو أحبطه الأمر: "النقطة الأساسية هنا أن الثورة دخلت في حالة من الانحدار". كان ذلك في منتصف العام 1918، فسألته ساخطًا: "هل من الممكن أن يحدث ذلك بهذه السرعة؟". لقد شدَّ بلاجونرافوف من أذر نفسه، غيَّر نبرته، ووعد بتنفيذ أي شيءٍ يستوجب فعله. والآن أمسك به علىٰ حافة الخيانة الصريحة في أكثر اللحظات حسمًا.

مشينا في الرواق حتىٰ يتسنىٰ لنا الحديث بعيدًا عن بقية الضباط. كان بلاجونرافوف شاحبًا مرتجفًا، رافعًا يده علىٰ قبعته، وظل يردد يائسًا: "أرجوك، لا تحيلني للمحكمة، حتىٰ لو أرسلتني إلىٰ خط الجبهة كعرّيف". لم تصدق نبوءتي، وها هو من ظننته نابليون المستقبل

---

[12] في اللغة الروسية معناه "حسن المحيا" أو "حسن الخلق".

يقف أمامي كفرخ دجاجٍ ابتل ريشه. سرَّحته من الخدمة وأرسلته لتولي عملٍ أقل شأنًا.

تفترس الثورة الرجال والطباع، تقود الشجعان لحتفهم، وتفتك بالنفوس الجبانة. بلاجونرافوف اليوم عضوٌ في اللجنة العليا للمجلس السياسي للدولة - GPU [13]، وأحد ركائز نظام الحكم الحالي. لابد أنه تعلَّم كراهية "الثورة الدائمة" منذ أن كان في سفيياجسك.

كان مصير الثورة يرتجف في الميزان، بين سفيياجسك وقازان. لم يكن الانسحاب ممكنًا إلا إلىٰ الفولجا. أخبرني السوفييت الثوري للجيش أن مسألة سلامتي في سفيياجسك تقيِّد حريتهم في الحركة، فطالبونني بالانتقال علىٰ الفور إلىٰ باخرةٍ في النهر. كان يحق لهم مطالبتي بذلك، فمنذ البداية كنت قد أرسيت قاعدةً تقضي بأن وجودي في سفيياجسك لا ينبغي علىٰ الإطلاق أن يحرِج أو يقيِّد قيادة الجيش، وتمسَّكت بهذه القاعدة في كل مرةٍ توقَّفت فيها في جبهةٍ مختلفة. امتثلت لهذا الطلب وانتقلت إلىٰ النهر، لكني لم أصعد إلىٰ باخرة الركَّاب، بل نزلت إلىٰ زورق طوربيد. كانت أربعة زوارق طوربيد قد حضرت إلىٰ الفولجا بصعوبةٍ بالغة عن طريق قناة مارييننسك، وبحلول ذلك الوقت كانت البواخر قد زُوِّدَت ببنادق ورشاشات.

---

[13] منظمة الشرطة السرية السوفييتية.

كان الأسطول، تحت زعامة راسكولنيكوف، يُخطِّط للإغارة علىٰ قازان في تلك الليلة، وكان عليه أن يعبر مساحتين مرتفعتين من الأرض أرسىٰ عليهما الجيش الأبيض مدفعيته. بعد هذه الأراضي المرتفعة، ينحني النهر ويتسع، وهناك تمركَزَ أسطول العدو، فيما كانت قازان مكشوفةً علىٰ الضفة الأخرىٰ. وتلخَّصَت الخطة في عبور هذه المرتفعات في جنح الظلام، وتدمير أسطول العدو ومدفعيته، ثم قصف المدينة.

تمركز الأسطول في تشكيلة القتال مطفئًا الأضواء، كلصٍ في ليلةٍ كاحلة. وقف بحَّاران عجوزان من الفولجا، كلٌّ منهما بلحيةٍ صغيرة، بجوار القبطان، وما دام أنهما قد أُجبِرا علىٰ الصعود علىٰ متن الأسطول، فقد كانا في رعبٍ قاتل كل دقيقة، كانا يكرهاننا لاعنَين قدرهما، مرتجفَين كشجيرات الحور الرجراج. صار كل شيءٍ يعتمد عليهما الآن. كان القائد يذكِّرهما من وقتٍ لآخر أنه لن يتردد في إطلاق النار عليهما في القلب إذا جنحا بالبارجة. كنَّا نحازي الأرض المرتفعة نتقدم في الظلام حين انطلقت طلقة مدفعٍ رشاش لتضرب النهر كالسوط، ثم طلقة أخرىٰ من أعلىٰ التلة. تابعنا التقدم بهدوءٍ، واستمر إطلاق النار لتقرع الرصاصات الصفائح الحديدية التي تدرعنا بها حتىٰ الخصر في قمرة القيادة، فانبطحنا وانخفض الملَّاحون لأسفل يتفحَّصون الظلام بعيونٍ ثاقبة ويتبادلون همساتٍ متوترة مع القائد.

بلغنا مبتغانا فور عبور التلة، وعلىٰ الجانب الآخر رأينا أضواء قازان، ثم انطلقت نحونا نيرانٌ كثيفة.

كان أسطول العدو راسيًا علىٰ بعد أقل من مائتي خطوة علىٰ اليمين، مستترًا وراء التلال، فيما لاحت الزوارق في الأفق ككتل غامضة، فأمر راسكولنيكوف بإطلاق النيران عليها. الملفت أن الجسم المعدني للطوربيد الذي أقلّنا صرَّ صريرًا مزعجًا مع أول ضربة من مدفعه. كنّا نترَجرَج أثناء سيرنا، كما لو كانت القذائف تولد من رحمٍ حديدي بألمٍ وجيع. وفجأة، جرَّدت النيران الليل من عباءته الكاحلة الظلمة؛ فقد أصابت واحدة من قذائفنا بارجة نفط فأضرمت فيها النيران. وفجأة أنارت المصابيح النهر علىٰ نحوٍ غير متوقع وغير مرغوبٍ فيه، فبدأنا في إطلاق النار علىٰ رصيف الميناء الذي كنّا نرىٰ المدافع عليه بوضوح. لكن المدافع لم ترد الضربة، فبدا واضحًا أن جنود المدفعية قد فروا هاربين. النهر بكامله كان مُضاءً، بينما لم يكن أحدٌ خلفنا. كنّا وحدنا، حيث قطعت مدفعية العدو الطريق علىٰ بقية زوارقنا. كان طوربيدنا وحده في النهر المُتوهِّج كذبابةٍ علىٰ طبقٍ أبيض. وفجأة وجدنا أنفسنا عرضةً للنيران القادمة من أعلىٰ التلال ومن علىٰ الرصيف. كان هذا كفيلٌ بأن يبث القشعريرة علىٰ ظهورنا. وفي خضم كل ذلك، فقدنا السيطرة علىٰ الطوربيد، فقد انكسر ترس القيادة، ربما بسبب عيارٍ ناري أصابه. حاولنا إدارة الدفة يدويًا، لكن السلسلة المُحطَّمة التفت حوله، وهكذا صارت الدفة لا نفع منها. كان

علينا إيقاف المحرِّكات. انجرف الطوربيد نحو بارجةٍ نصف مغمورة بالماء علىٰ ضفة قازان. توقَّف إطلاق النار، والنهر في ضوء النهار وصمت الليل.

وقعنا في الفخ. لكن الشيء الغامض الوحيد في هذا الأمر هو أنهم لم ينهالوا علينا بالقذائف وقتها. لم ندرك بعد كم الدمار والذعر الذي سبَّبته غارتنا عليهم. في النهاية قرَّر القادة الشبان الابتعاد عن البارجة وأن ننظم حركة الطوربيد بتشغيل المُحرِّكَين الأيمن والأيسر بالتبادل. نجح الأمر، وبمشاعلنا التي لا تزال متقدةً وصلنا إلىٰ التلة. توقَّف إطلاق النار، وغرقنا في الظلام مرة أخرىٰ. وكان بحَّارٌ أُغشِيَ عليه قد أحضره زملاؤه من غرفة المحرِّك. لم تطلق المدفعية المتمركزة أعلىٰ التلة أية قذائف. من الواضح أنهم لم يلاحظونا، وربما لم يكن أحدٌ هناك من الأصل. نجونا. كم من السهل قول كلمة "نجونا". أشعل البحَّارة سجائرهم، والبقايا المتفحمة للزوارق الحربية المُرتجلة كانت تستلقي بائسةً علىٰ الشاطئ. وجدنا عددًا من الجرحىٰ في قوارب أخرىٰ، ولاحظنا لاحقًا أن طوربيدنا قد اختُرِقَ بقذيفة عيار ثلاث بوصات. كان ذلك قبل الفجر بحوالي الساعة. شعرنا وكأننا وُلِدنا من جديد.

تعاقبت الأحداث تباعًا. جاء طيارٌ بأخبارٍ سارة، فأحضروه إليّ، وأخبرني بوصول مفرزة من الجيش الثاني تحت قيادة القوزاقي آزين إلىٰ قازان من الشمال الشرقي. استولىٰ الجنود علىٰ عربتين مدرعتين،

وعطّلوا مدفعين، وتغلّبوا علىٰ مِفرزةٍ تابعةٍ للعدو، واحتلوا قريتين علىٰ بعد إثنىٰ عشر كيلومترًا من قازان. انطلق الطيارون علىٰ الفور ببعض التعليمات، وقد أضحت قازان بين فكيّ كماشة. وكانت غارتنا الليلية، كما عرفنا لاحقًا من رجال الاستطلاع، قد حطّمت مقاومة الجيش الأبيض، وأطبقت الصمت علىٰ المدفعية علىٰ ضفة النهر. كان لكلمة "الطوربيد" علىٰ الجيش الأبيض نفس وقع كلمة "دبابة" علىٰ شبيبة الجيش الأحمر قبالة بتروجراد لاحقًا. انتشرت في ذلك الوقت شائعاتٌ تفيد بأن الألمان يقاتلون إلىٰ جانب البلاشفة. وبدأت الطبقات الثرية في الفرار في حجافل حاشدة من قازان، فرفعت المقاطعات العمالية رأسها من جديد، فاندلع تمرُّد كبير في مصانع البارود، وانبعثت الروح القتالية في صفوف قواتنا.

كان الشهر الذي قضيته في سفيياجسك مكتظًا بالأحداث. لم يمر يومٌ إلا ويحدث فيه أمرٌ هام. كان النهار والليل يتعاقبان سريعًا. كانت هذه هي المرة الأولىٰ التي تجري فيها حربٌ أمامي بهذا القرب. كانت هذه حربًا صغرىٰ، فقد خاضها من جانبنا بين 25 ألف إلىٰ 30 ألف رجلًا، لكن الحرب الصغرىٰ لا تختلف عن الكبرىٰ إلا في الحجم والنطاق. كانت نموذجًا حيًا للحرب، ولهذا تأثّرنا بتقلُّباتها ومفاجآتها مباشرةً. حربٌ صغرىٰ، لكن مدرسةٌ كبرىٰ.

في تلك الأثناء، كانت الأوضاع في قازان تتغير سريعًا. تحوّلت المفارز المُبعثَرة إلىٰ وحداتٍ منتظمة تعزَّزَت بالعمال الشيوعيين من

بتروجراد وموسكو وكذلك من الكثير من المناطق الأخرىٰ. اشتد عود الأفواج العسكرية، وفي داخل الوحدات صار المفوَّضون قادة ثوريين، ممثلين حقيقيين للديكتاتورية. أظهرت المحاكم للجميع أن الثورة، حين تُهدَّد بأخطارٍ قاتلة، تتطلَّب تضحياتٍ عظمىٰ. وقد حقَّقَت الدعاية والتنظيم والقدوة الثورية والصرامة التغيير المرجو في غضون أسابيع قليلة. تحوَّلت الجماهير المُتردِّدة والمتداعية، التي لم يكن من الممكن الاستناد إليها، إلىٰ جيشٍ حقيقي. أثبتت مدفعيتنا تفوُّقها القاطع. سيطر أسطولنا علىٰ النهر. وأحكم طيارونا علىٰ السماءِ قبضتهم. وسرعان ما تلاشت شكوكي في قدرتنا علىٰ استرداد قازان.

وفجأة، في 1 سبتمبر، تلقيت برقيةً قصيرة من موسكو: "احضر فورًا. أُصيبَ فلاديمير إيليتش. مدىٰ الخطورة غير معروف بعد. الأمور تحت السيطرة - 31 أغسطس 1918، سفيردلوف"، فغادرت علىٰ الفور. كان مزاج المجموعات الحزبية في موسكو مُتجهِّمًا وكئيبًا، رغم ثباتها الراسخ. كان سفيردلوف هو التجسيد الحي لهذا الثبات والإصرار. قال الأطباء أن حياة لينين ليست في خطر، وطمأنونا بأنه سيُشفىٰ قريبًا. بشَّرت الحزب بتوقُّعات الانتصار في الشرق، ثم عدت في الحال إلىٰ سفياجسك.

أصبحت قازان في حوزتنا في 10 سبتمبر، أي بعد يومين من استرداد سمبيرسك بواسطة الجيش الأول. لم يكن الأمر مفاجأةً لي،

إذ كان قائد الجيش الأول، توخاتشيفسكي، قد وعدني، في نهاية أغسطس، أنه سيسترد سمبيرسك قبل 12 سبتمبر. وحين سيطر على المدينة، بعث برقيةً تقول: "تم تنفيذ الأمر. سمبيرسك في حوزتنا". بدأ لينين يتعافى في ذلك الوقت، فبعث ببرقية تهنئة تلتمع ببهجة النصر. كانت الأمور تتحسَّن على عدة أصعدة.

أصبح إيفان نيكيتيتش سميرنوف قائدًا للجيش الخامس. كان ذلك مهمًا للغاية، فسميرنوف كان نموذجًا للثوري المكتمل المتكامل. له عقودٌ في النضال، ولم يطلب يومًا عونًا أو مساعدة. في سنوات الرجعية السوداء، شرع سميرنوف يحفر أنفاقًا تحت الأرض، وحينما انهارت لم يفقد عزيمته، بل بدأ من جديد. كان نيكيتيتش دائمًا رجلًا مسئولًا، ومن هذه الزاوية فإن الثوري جندي جيد، بل ولهذا يمكن للثوري أن يكون جنديًا جيدًا. كان يستجيب فقط لمتطلَّبات طبيعته الخاصة، كان دائمًا نموذجًا للصرامة والإقدام الخاليين من القسوة التي غالبًا ما تصاحبهما. العمال الأفضل في الجيش اتخذوه قدوةً لهم. كَتَبَت عنه لاريسا رايزنر في وصفها لحصار قازان تقول: "لم يكن هناك أكثر احترامًا من إيفان نيكيتيتش. في أصعب اللحظات الحرجة يكون هو الأقوى والأشجع". لم يكن للتحذلق أي أثرٍ في شخصيته. كان الأكثر أنسًا وابتهاجًا وظرفًا. خضع الناس لسلطته بطوعيةٍ تامة، إذ لم تكن هذه السلطة بأي حالٍ آمرةً أو مفروضة، لكنها في الوقت نفسه لا تقبل الجدل.

كانَ الشيوعيون الملتفون حول سميرنوف في الجيش الخامس بمثابة عائلة سياسية مترابطة، وحتىٰ يومنا هذا بعد سنواتٍ من تصفية هذا الجيش لا يزال أثرهم باقٍ في حياة هذا البلد. تحمل كلمة "رجل الجيش الخامس"، في معجم الثورة، معنًىٰ خاصًا، إذ ترمز للثوري الحقيقي، ترمز للرجل المسئول، وترمز في المقام الأول للضمير الحي. نَقَلَ إيفان نيكيتيتش، ورجال الجيش الخامس، بعد انتهاء الحرب الأهلية، بطولاتهم إلىٰ الحقل الاقتصادي، ووجدوا أنفسهم تقريبًا بدون استثناء في صفوف المعارضة. تولىٰ سميرنوف الصناعة العسكرية، ثم رئيس مفوَّضية النقل والتلغراف. واليوم يقضي حياته في منفاه القوقازي. في السجون في سيبيريا تجد زملاءه، أبطال الجيش الخامس، هنا وهناك. لكن الثورة تفترس الرجال والطباع. آخر ما وصلني أن سميرنوف كسره النضال ويدعو للاستسلام.

أما لاريسا رايزنر، التي أطلقت علىٰ إيفان نيكيتيتش اسم "ضمير الثورة"، فقد سطع نجمها هي الأخرىٰ في الجيش الخامس، كما في الثورة برمتها. هذه الشابة الرائعة كانت تبرق في سماء الثورة كشهابٍ مضيء يعمي الكثيرين. وبمظهرها كإلاهة أوليمبية، جمعت رايزنر بين دهاء العقل وإقدام المحارب. بعد احتلال الجيش الأبيض قازان، مضت في القلب من معسكر العدو بغية الاستطلاع، متنكرةً في زي فلاحة. لكن مظهرها كان مثيرًا للريبة فأُلقيَ القبض عليها. أثناء تفتيشها من قِبَل ضابط مخابرات ياباني، استغلت سهوه وانفلتت من

الباب ذي الحراسة المُشدَّدة واختفت. انخرطت بعد ذلك في العمل الاستخباراتي. وأبحرت لاحقًا في الزوارق الحربية وشاركت في المعارك. كانت مخططاتها للحرب الأهلية أدبًا. وبنفس القدر من الحيوية، كتبت عن الصناعة في الأورال ونهوض العمال في الرور. كانت مهتمة بمعرفة كل شيء وباستطلاع كل شيء، وكذلك بالمشاركة في كل شيء. وفي خلال سنواتٍ قليلة، صارت كاتبةً من الطراز الأول. وبينما خرجت بالاس[14] الثورة هذه سالمةً من الحرب والقتال، أهلكها التيفوس في بقعةٍ هادئة بالقرب من موسكو، قبل أن تتم عامها الثلاثين.

كان الجيش يتشكَّل، تحت النار، على نحوٍ بالغ الروعة، وقد انضم العمال الجيدون لبعضهم. تجاوزنا لحظة الجزر الأدنى التي وصلنا لها مع سقوط قازان، وخلَّفناها وراء ظهورنا. وفي خضم ذلك، كان تغييرٌ هائلٌ يجري في أوساط الفلاحين، حيث شرع الحرس الأبيض يتغلغلون بينهم يلقنونهم تعاليمهم. وخلال الأشهر السبعة التالية، اكتسح الجيش الأحمر مساحاتٍ شاسعة تصل إلى مليون كيلومتر مربع، بعدد سكان يبلغ الأربعين مليونًا. تقدَّمَت الثورة مجددًا. وحينما كان الحرس الأبيض يفرون من قازان، حملوا معهم احتياطي الذهب الذي كان محفوظًا هناك منذ هجوم الجنرال هوفمان

---

[14] بالاس: إلاهة الحكمة والفنون عند الإغريق. (المترجم)

في فبراير. استعدناه مرةً أخرىٰ لكن بعد فترةٍ طويلة، وأسرنا معه الجنرال كولتشاك.

وحين استطعت أخيرًا أن أصرف عيني من علىٰ سفيياجسك، لاحظت أن تغيُّراتٍ خطيرة تجري في أوروبا. كان الجيش الألماني في وضعٍ متردٍ.

الفصل الرابع والثلاثون

القطار

حان الآن الوقت للتحدُّث عن "قطار رئيس المجلس العسكري الثوري". خلال السنوات الأكثر احتدامًا في الثورة، ارتبطت حياتي الشخصية برباطٍ لا ينفصم بحياة هذا القطار. والقطار، بدوره، كان ملتصقًا بحياة الجيش الأحمر. ربط القطار الجبهة بالقاعدة، حلَّ المشكلات في حينها، خاطبَ وثقَّفَ وكافأ وعاقب ووفَّرَ كل ما هو ضروري.

لا يمكن بناء جيش دون آلياتٍ للعقاب، كما لا يمكن اقتياد الحشود إلىٰ الموت دون أن يحوز الجيش عقوبة الإعدام في ترسانته. وما دام أن هذه القِرَدة الخبيثة بتراء الذيل، شديدة التباهي بإنجازاتها التقنية، ما دام أن تلك الحيوانات التي نطلق عليها "بشرًا" تبني الجيوش وتشن الحروب، فلا مفر من أن تضع القيادة الجنود بين الموت المُحتَمَل علىٰ الجبهة والموت الحتمي في المؤخرة. لكن الجيوش لا تُبنىٰ علىٰ الخوف، فلم يتمزَّق جيش القيصر مثلًا بسبب الافتقار إلىٰ العقوبات، وفي محاولة كرينسكي لإنقاذه باستعادة عقوبة الإعدام، وضع بذلك المسمار الأخير في نعشه. لكن علىٰ أنقاض الحرب العظمىٰ، أسَّسَ البلاشفة جيشًا جديدًا. لا تستلزم هذه

الحقائق تفسيرًا لأيٍ ممن لديهم ولو حتىٰ أبسط معرفة بلغة التاريخ. كانت أفكار ثورة أكتوبر في حد ذاتها هي الروابط الأسمنتية الصلبة في الجيش الجديد، والقطار هو الذي أمدَّ الجبهة بهذا الأسمنت.

في محافظات كالوجا، وفورونيج، وريازان، تخاذل عشرات الآلاف من الفلاحين عن الاستجابة لاستدعاءات التجنيد الأولىٰ من جانب السوفييت؛ فالحرب كانت تجري بعيدًا عن محافظاتهم، كما أن تسجيل الجندية لم يكن كفئًا بما فيه الكفاية، وبالتالي لم يُؤخَذ الانضمام للجيش علىٰ محمل الجد. أولئك الذين تخاذلوا عن تسليم أنفسهم للجيش كانوا معروفين باسم "الفارين"، وبات من الضروري إطلاق حملةٍ قويةٍ ضد هؤلاء المتخلِّفين عن القتال. نجحت مفوَّضية الشعب في ريازان في جمع حوالي خمسين ألفًا من هؤلاء الفارين. وحينما مرَرت في طريقي علىٰ ريازان، قرَّرت أن ألقي نظرة عليهم. في المقابل، حاول بعض رجالنا إثنائي عن ذلك، محذِّرين إياي بدعوىٰ أن "من الممكن أن يحدث شيء". لكن الأمر جرىٰ بسلاسةٍ بالغة.

استُدعِيَ هؤلاء الرجال خارج ثكناتهم بنداء: "أيها الرفاق الفارون، تعالوا إلىٰ الاجتماع. جاء الرفيق تروتسكي ليتحدَّث إليكم"، فهرولوا مسرعين صاخبين كأطفالِ مدارس يدفعهم الفضول. تصوَّرتهم في حالٍ أسوأ، وتصوَّروني في هيئةٍ أفظع. وفي دقائق معدودة، أصبحت مُحاطًا بحشدٍ هائل من الرجال الجامحين المُهرجَلين، لكن ليس المعادين علىٰ الإطلاق. كان "الرفاق الفارون"

ينظرون إليّ بهذا الفضول الذي تجحظ فيه الأعين عن الوجوه. وقفت فوق طاولةٍ في منتصف الساحة، وتحدَّثت إليهم لحوالي ساعة ونصف، وقد أنصت الحشد باهتمامٍ بالغ. حاولت أن أرفع من شأنهم أمام أنفسهم؛ فختمت حديثي بأن طلبت منهم أن يرفعوا أيديهم كرمزٍ للولاء للثورة. اجتاحتهم الأفكار الجديدة في لمح البصر، واتقدت حماستهم، فتبعوني إلىٰ السيارة وافترسوني بأعينهم، ليس خوفًا كما كان من قبل، بل نشوةً، وهتفوا للثورة بأعلىٰ أصواتهم، وبالكاد تركوني أرحل عنهم. عَلِمت فيما بعد، ببعض الشعور بالفخر، أن صارت واحدة من أفضل الوسائل لإقناعهم هو تذكيرهم: "بماذا وعدتم الرفيق تروتسكي؟". قاتلت كتائب "الفارين" في ريازان لاحقًا بضراوةٍ علىٰ الجبهة.

كانت لكل كتيبة، ولكل مفرزة، ولكل فرقة، خصالها وكفاءاتها المُمَيِّزة. لكن الأذكياء المستعدين للتضحية بأنفسهم كانوا أقليةً وسط الجميع، وعلىٰ النقيض كانت هناك أقليةٌ من نوعٍ آخر؛ من أولئك الذين حطَّمهم الإحباط والمُتهرِّبين والمُعادين بشكلٍ واعٍ. وبين هاتين الأقليتين، كانت هناك مجموعةٌ وسطىٰ، بأعدادٍ كبيرة، من المُتردِّدين الذين لم يحسموا أمرهم بعد. وحينما فُقِدَت العناصر الأفضل في القتال، باتت اليد العليا لأولئك المتهرِّبين والمُعادين، مما يؤدي بدوره إلىٰ تشرذم الوحدات المقاتلة. في مثل هذه الحالات، ترتبك المجموعات الوسطىٰ وتضيع في الحيرة ولا تعرف من تتبع، بل

وتستسلم للفزع في لحظاتِ الخطر الحقيقي. في 24 فبراير 1919، قلت للقيادات العسكرية الشابة في قاعة الأعمدة في موسكو: "أعطوني ثلاثة آلاف من أولئك الفارين من المعارك، وشكِّلوا بهم كتيبة، وسأُعيِّن لهم قائدًا مقاتلًا، ومفوَّضًا جيدًا، وسأجد الضباط المناسبين للمفارز والفرق والفصائل، وأعدكم أن تبهركم هذه الكتيبة في غضون أربعة أسابيع من النضال الثوري"، ثم أضفت: "في خلال الأسابيع القليلة الماضية، اختبرنا ذلك مرة أخرىٰ علىٰ خلفية خبرات القتال في نارفا وبسكوف، حيث نجحنا في تشكيل وحداتٍ مقاتلة جيدة من فُتاتٍ منثورٍ من الجنود الفارين".

باستثناء بعض الفترات الفاصلة المتقطعة، يمكنني أن أقول أنني قد قضيت عامين ونصف في عربةِ قطارٍ كان يستخدمها أحد وزراء الاتصالات السابقين. لا شك أن العربة كانت تناسب راحة الوزير، لكنها لم تكن تناسب العمل بهذا القدر. في هذه العربة، استقبلت التقارير، وعقدت الاجتماعات مع المسئولين العسكريين والمدنيين، وقرأت المراسلات التلغرافية، وأصدرت الأوامر، وكتبت المقالات. قطعت فيها مع زملائي ورفاقي رحلاتٍ بعيدة علىٰ طول خط الجبهة، وفي وقت فراغي عملت علىٰ كتابي ضد كاوتسكي حتىٰ انتهيت منه، وكذلك العديد من الأعمال الأخرىٰ أيضًا. عوَّدت نفسي خلال تلك السنوات، وربما للأبد، علىٰ الكتابة والتفكير علىٰ ضجيج زنبركات وعجلات بولمان التي كان يجرىٰ بها القطار.

في ليلة 7 أغسطس 1918، اكتمل تجهيز قطاري علىٰ عُجالةٍ، وفي الصباح أقلعت إلىٰ سفيياجسك الملازمة للجبهة التشيكوسلوفاكية. كان يُعاد تنظيم القطار مرةً بعد أخرىٰ لتتعدَّد وظائفه ومهامه، وبحلول بداية العام 1919 صار جهازًا إداريًا طائرًا. اشتمل القطار علىٰ سكرتارية، ومطبعة، ومحطة للتلغراف وأخرىٰ للراديو، ومحطة لتوليد الطاقة، ومكتبة، ومرأب للسيارات، وحمَّام. كان القطار ثقيلًا إلىٰ درجة أنه احتاج مُحرِّكَين اثنين، ثم انقسم بعد ذلك إلىٰ قطارَين منفصلَين. وحينما كنَّا نضطر للتوقُّف عند إحدىٰ المحطات علىٰ الجبهة، كان أحد المُحرِّكَين يعمل كمساعد، بينما يظل الآخر أساسيًا قيد العمل؛ فجبهات القتال كانت تتغيَّر علىٰ الدوام ولم تتوافر أية فرصة لإيقاف المُحرِّكَين معًا.

ليس لديّ تاريخ القطار في متناول يدي، فهو مدفونٌ في أراشيف إدارة الحرب، بعد أن بذل مساعدوني الشباب جهودًا مضنيةً في جمعه وتوثيقه، وقد جذبت الرسوم البيانية لخط سير القطار أنظار الكثير من زوَّار معرض الحرب الأهلية كما جاء في تقارير الصحف. انتقل تاريخ القطار بعد ذلك إلىٰ متحف الحرب الأهلية، واليوم هو مخفيٌّ مع مئات وآلاف المعروضات الأخرىٰ من لافتاتٍ، وبياناتٍ، وأوامر عسكريةٍ مكتوبة، وأعلامٍ، وصورٍ، وأفلامٍ، وكتبٍ، وخطب تشهد علىٰ أهم لحظات الحرب الأهلية وترتبط بطريقةٍ أو بأخرىٰ بمشاركتي فيها.

بين عاميّ 1922 و1924، أي قبل موجة القمع التي وُجِّهَت ضد المعارضة، أصدَرَت دار النشر العسكرية خمسة مجلَّدات من أعمالي المُتعلِّقة بالجيش والحرب الأهلية. لم أتناول تاريخ القطار في هذه المجلَّدات، لكن يمكنني أن أتتبع مسار حركة القطار من العناوين الرئيسية فيها: سمارا، وتشيليابينسك، وفياتكا، وبتروجراد، وبالاشوف، وسمولينسك، وسمارا مرة أخرىٰ، وروستوف، ونوفوتشيركاسك، وكييف، وجيتومير، وهكذا إلىٰ ما لا نهاية.

ليس لديّ حسابٌ دقيق بإجمالي المسافة التي قطعتها بالقطار خلال الحرب الأهلية، لكن واحدةً من الملاحظات المذكورة في كتبي العسكرية تقول إنها كانت 36 رحلة بإجمالي مسافة تزيد عن 105 ألف كيلومتر. ويذكر أحد الزملاء ممن شاركوني هذه الرحلات أننا قطعنا مسافةً تُقدَّر بالدوران حول الأرض خمس مرات ونصف، أي حوالي ضعف المسافة المُشار إليها. وعلىٰ أيةِ حال، لا يتضمَّن ذلك آلاف الكيلومترات التي قطعتها بالسيارة من السكك الحديدية إلىٰ القلبِ من خطوط الجبهة الأمامية. وبما أن القطار كان يتوجه دائمًا إلىٰ النقاط الأخطر، فمن هنا يقدم الرسم البياني للرحلات صورةً واضحةً ووافية بالأهمية النسبية للجبهات المختلفة، فيما شهد العام 1920 أكبر عددٍ من الرحلات؛ إذ كان هذا هو العام الأخير في الحرب الأهلية، وتكرَّرَت خلاله رحلاتي إلىٰ الجبهة الجنوبية التي كانت في ذلك الوقتِ أشرس الجبهات وأخطرها وأطولها امتدادًا.

إذن، ما الذي كان يبتغيه قطار قائد المجلس العسكري الثوري من جبهات الحرب الأهلية؟ الإجابة العامة واضحة بالطبع: كان يبتغي النصر. لكن ما الذي قدَّمه لهذه الجبهات؟ وأي أساليب اتبعها؟ وما هي الأهداف الفورية لرحلاته التي لا تنتهي إلىٰ أقاصي البلاد؟ لم تكن رحلات هذا القطار بغرض الرقابة أو التفتيش، بل كان عمله مرتبطًا ببناء الجيش وتثقيفه وإدارته وإمداده بكل ما يحتاج. لم نكن نبني هذا الجيش فقط من الصفر، لكن أيضًا تحت نيران العدو. ولم يكن ذلك فقط في سفيياجسك، حيث قضىٰ القطار شهره الأول، بل في كل الجبهات. ومن الحشود غير المنتظمة، واللاجئين الفارين من الحرس الأبيض، والفلاحين الذين احتشدوا في المقاطعات المجاورِة، ومفارز العمال المُرسَلة من المراكز الصناعية، ومجموعات الشيوعيين والنقابيين، من كل هذه المجموعات شكَّلنا علىٰ الجبهة فِرقًا ومفارز وكتائب جديدة، وأحيانًا قطاعات وفصائل كاملة. وحتىٰ بعد الهزائم وعمليات الانسحاب، كانت مجموعاتٌ كاملة من المترهِّلين المذعورين تتحوَّل، في غضونِ أسبوعين أو ثلاثة، إلىٰ قوىٰ قتالية حقيقية في المعارك. ما الذي كان يلزمنا لأجل ذلك؟ كنَّا بحاجةٍ إلىٰ قادة جيِّدين، كان يلزمنا بضع عشراتٍ من المقاتلين المتمرِّسين، ودزينة من الشيوعيين المستعدين للتضحية بأنفسهم إذا اقتضىٰ الأمر، كان يلزمنا الكثير من الأحذية للحفاة، وحماماتٍ عموميَّة، وحملة دعائية نشطة، وأغذيةً، وملابس داخلية، وتبغًا وأعواد

ثقاب. وفَّر القطار كل هذه الاحتياجات. كانت لدينا دائمًا أعدادٌ من الشيوعيين المتأهِّبين لسد العجز، وحوالي مائة من المقاتلين الأشداء، ومخزنٌ للأحذية، والمعاطف الجلدية، والأدوية، والبنادق الآلية، والعدسات الميدانية، والخرائط، والساعات، وما شابه من هذه الأغراض. بالطبع كانت إمدادات القطار ضئيلة مقارنةً باحتياجات الجيش ككل، لكنها كانت تتجدَّد باستمرار.

لكن الأهم من كل ذلك هو أن القطار قد وفَّر هذه الإمدادات للجيش، عشرات ومئات المرات، في اللحظاتِ المناسبة، تمامًا كما تتوفَّر للقطار مجرفةٌ صغيرةٌ من الفحم للحفاظ علىٰ النار من أن تخبو. تضمَّن القطار محطة تلغراف، كنَّا نتواصل من خلالها مباشرةً مع موسكو، وكان نائبي، سكليانسكي، يدوِّن ما أمليه عليه من احتياجاتٍ وإمداداتٍ ضرورية للجيش، وأحيانًا لفصيلٍ واحدٍ أو كتيبةٍ واحدةٍ في الجيش. كانت الإمدادات تصل بطلبِ إيفادٍ يستحيل تمريره دون تدخُّلي المباشر. بالطبع لم تكن تلك طريقةً صحيحةً في إدارة الأمور - وربما يعلِّق أحد المُتحذلِقين أن أهم شيءٍ في خدمات الإمداد، بل في الإدارة العسكرية بشكلٍ عام، هو النظام. هذا صحيح تمامًا، وأنا نفسي أميل إلىٰ ترجيح كفة هذه الحذلقة، لكن النقطة الأهم هنا هو أننا لا نريد أن نهرم ونهلك قبل أن نبني نظامًا فعَّالًا وسلِسًا، لذا كنَّا أحيانًا - بالأخص في الفترات الأولىٰ - نستبدل النظامَ بالارتجالِ، كي نتمكَّن فيما بعد من تطوير النظام نفسه علىٰ أسسٍ من المبادرة.

طوال رحلاتي في قطار الحرب، كان يصاحبني العمال الرئيسيون في كل الإدارات الأساسية في الجيش، بالأخص أولئك المتصلون بخدمات الإمداد. كنَّا قد ورثنا عن الجيش القديم بعض ضباط خدمات الإمداد الذين حاولوا العمل بالطريقة القديمة، وأحيانًا بأساليب أسوأ، حيث صارت الظروف أصعب بما لا يُقاس. كان علىٰ هؤلاء الأخصائيين أن يتعلَّموا في تلك الرحلات أساليب وطرق جديدة في العمل، وقد تلقىٰ الجدد منهم التدريبات علىٰ هذه الأساليب الجديدة بروحٍ وخبرةٍ حيَّة. وبعد جولةٍ في فصيلٍ أو قطاعٍ في الجيش، والتحقُّق من احتياجاته الضرورية، كنت أعقد مؤتمرًا في عربة الطاقم أو عربة الطعام، داعيًا إليه أكبر عددٍ ممكنٍ من المندوبين، بمن فيهم مندوبي الرتب الدنيا في الجيش، ومندوبي منظمات الحزب المحلية، والسوفييت، والنقابات. وبهذه الطريقة كنت أرسم صورةً كاملةً للأوضاع، صورةً لم تكن باهتة ولا فاقعة الألوان. وهكذا أيضًا كانت لهذه المؤتمرات نتائجها العملية الفورية. وبصرف النظر عن الإمكانيات المحدودة للأجهزة المحلية، كان المندوبون يدبرون أمورهم، أحيانًا بالاقتطاع من احتياجاتهم الخاصة للمساهمة بها في الجيش.

جاءت التضحيات الأكبر والأهم من جانب المؤسسات العمالية، حيث كانت المجموعات الجديدة من الشيوعيين تنطلق علىٰ الفور من هذه المؤسسات لتندمج في الكتائب غير المتماسكة، جالبين معهم

السُترات وأربطة الأقدام والجلود وغيرها من الأغراض. لكن الموارد المحلية لم تكن كافية بالتأكيد، لذا كنت أرسل بعد كل مؤتمرٍ إلىٰ موسكو، راصدًا احتياجاتنا وفقًا لما هو مُتوفٌّر في المركز، وهكذا كانت فصائل الجيش تحصل علىٰ ما هو ضروريٍ لها في الوقت المناسب. لقد تعلَّمَ المفوَّضون والقادة كيف يؤدون أدوارهم من خلال الخبرة التي حصدوها من القطار، سواء كانت هذه الأدوار تثقيفًا أو إدارةً أو قيادةً. ولم يكتسبوا هذه الخبرة من أعلىٰ، من قمة هرم الجيش، بل من فصائل الجيش ومفارزه، من المُجنَّدين الشباب غير المُتَمَرِّسين بعد.

تدريجيًا، وبهذا القدر أو ذاك من الكفاءة، تأسَّس جهازٌ كاملٌ لخدمات الإمداد المركزي للجبهة وللجيوش. لكن هذا الجهاز وحده لم يكن كافيًا بالطبع لتلبية كافة الاحتياجات. حتىٰ أكثر التنظيمات انضباطًا وكفاءةً قد تخطئ أحيانًا في خضمِ حربٍ شعواءٍ كهذه؛ حربِ مناوراتٍ مبنيةٍ بالكامل علىٰ الحركة السريعة التي، مع الأسف، جرت في اتجاهاتٍ غير مُتوقَّعةٍ في بعض الأحيان. لابد ألا ننسىٰ أننا كنَّا نقاتل دون إمداداتٍ كافية. في العام 1919، أي في وقتٍ لا يزال مبكرًا من الحرب، خَوَت المستودعات المركزية علىٰ عروشها. كانت السُترات تُرسل من الورش مباشرةً إلىٰ الجبهات، لكن توفير البنادق والخراطيش كان هو الأصعب علىٰ الإطلاق، فقد كانت مصانع الذخيرة في تولا تعمل لتوفير الاحتياجات يومًا بيومٍ فقط. لم تكن ثمة شحنةٌ من الذخائر تتحرَّك إلا بتصريحٍ مباشرٍ من قائد الكتيبة، إذ كانت

عملية الإمداد بالذخائر تجري بحزمٍ شديد، كوترٍ مشدودٍ علىٰ آخره. لكن، في بعض الأحيان، كان هذا الوتر ينقطع، لنتكبَّد خسائر فادحة من الرجالِ والعتاد والمقاطعات.

من دون تغييراتٍ وارتجالاتٍ مستمرة، لكانت الحرب مستحيلةً بالنسبةِ لنا، والقطار هو ما أجرىٰ هذه التغييرات وفتح الباب لهذه الارتجالات، لكنه في الوقت نفسه أدارها ونظَّمها. كنَّا إذا أطلقنا مبادرةً، حرصنا علىٰ توجيهها في مسارها الصحيح ضمن النظام العام الذي اتبعناه. لا أرغب في قولِ أننا نجحنا دائمًا في ذلك، لكننا علىٰ الأقل، كما أوضحت الحرب الأهلية نفسها، حقَّقنا الهدف الأهم: انتصرنا.

كانت الزيارات إلىٰ أقسام الجبهة، التي أدت فيها خيانات الضباط القياديين إلىٰ كوارث خطيرة، ذات أهمية خاصة. في 23 أغسطس 1918، خلال الفترة الصعبة قبل قازان، تلقيت برقيةً من لينين وسفيردلوف، جاءت كالتالي: "سفيياجسك - تروتسكي. رغم كشف الخيانة الأخيرة علىٰ جبهة ساراتوف في الوقت المناسب، فقد أسفرت عن عواقب خطيرة. نحن نعتبر ذهابك إلىٰ هناك ذا ضرورةٍ مُلِحَّة، إذ سيكون لظهورك علىٰ الجبهة تأثيرٌ كبير علىٰ الجنود وعلىٰ الجيش برمته. دعنا ندبر الأمور لتزور الجبهات الأخرىٰ أيضًا. رجاء الرد بالبرق بموعد مغادرتك. 22 أغسطس 1918 - لينين. سفيردلوف".

فكرت في أن من المستحيل مغادرة سفيياجسك، حيث كان مجرد رحيل القطار ليزعزع ثقة الجيش على جبهة قازان، تلك الجبهة التي كانت تمر بفترةٍ حرِجةٍ بما فيه الكفاية، فيما كانت قازان أهم من ساراتوف من كافة الجوانب. سرعان ما اتفق معي كلٌّ من لينين وسفيردلوف على ذلك أيضًا. لكن برقياتٍ كهذه كانت تصل إلى القطار على الدوام في كلِ محطةٍ خلال جولاته، برقياتٍ طالبتني بالإسراع لإنقاذ كييف وفياتكا وسيبيريا والقرم من أوضاعهم العسيرة في ذلك الوقت.

اتسعت معارك الحرب على أطراف البلاد، وامتدت جبهات القتال إلى مناطق بعيدة على طول ثمانية آلاف كيلومتر. كانت كتائب الجيش وفصائله تنفصل عن بقية العالم في ذلك الوقت، ففي كثيرٍ من الأحيان لم يكن لديهم أجهزة اتصال هاتفية كافية حتى لاتصالاتهم الداخلية، ومن ثم يستسلمون لليأس. لذا فقد كان القطار بالنسبةِ لهم بمثابة رسولًا من العوالم الأخرى حولهم. كان لدينا على متنه مخزونٌ من أجهزة التليفون والأسلاك اللازمة. وكان لدينا أيضًا هوائي لا سلكي لاستقبال ترددات الراديو من برج إيفل في فرنسا، ومن نوين في ألمانيا، ضمن إجمالي ثلاثة عشر محطة أخرى، علاوة على موسكو أيضًا. كان القطار يتلقى على الدوام الأنباء حول ما يحدث في بقية العالم، فيما كانت التقارير التلغرافية تُنشَر بانتظام في صحيفته، جنبًا إلى جنب مع التعليقات العابرة، والمقالات، والأوراق السياسية،

والأوامر الصادرة، وما إلىٰ ذلكَ. كنّا ننشر حول المؤامرات داخل البلاد، ونترجم عن الانتخابات الإنجليزية، والتقدُّم في حصد الحبوب، وانتصارات الفاشية الإيطالية، بينما كانت الأحداث لا تزال ساخنة، فيما كنّا نربط هذه الأحداث بمصائر جبهات القتال في أستراخان أو أرتشانجل.

كانت هذه المقالات تُرسل علىٰ الفور إلىٰ موسكو، ومن ثم تُبَث علىٰ موجات الراديو من هناك إلىٰ الصحف في كافة أرجاء البلاد. ربط القطار بين أكثر الوحداتِ عُزلةً بما يجري في وحداتِ الجيش كله، وقَدَّمَ لكلِ الوحداتِ التقارير والأخبار الخاصة، ليس فقط بالبلاد، بل أيضًا بالعالم بأسره. كنّا نواجه الشائعات المُقلِقة ونُبدِّدها، فتصير عزيمة الرجال أكثر حزمًا وصلابةً. هذا التغيُّر في الروحِ المعنوية كان يستمر لأسابيع عديدة، وفي بعض الأحيان يستمر حتىٰ الزيارة التالية للقطار. وخلال الفواصل الزمنية بين زيارات القطار، كان أعضاء المجلس العسكري الثوري للجبهة أو للجيش يقوم بزياراتٍ شبيهة، لكن علىٰ نطاقٍ أضيق.

كل ما قمت به في القطار، من أعمالٍ أدبيةٍ أو غيرها، كان مستحيلًا من دون مساعدي الشاب نيتشاييف، وكذلك جلازمان وسيرموكس، اللذَين كانا ينسخان أعمالي علىٰ الآلة الكاتبة. كانوا يعملون، ليلَ نهار، خلال رحلات القطار الذي كان ينطلق علىٰ سرعة سبعين كيلومتر أو أكثر في الساعةِ الواحدة، متجاهلًا قواعد الأمان في معمعانِ

الحرب، حتىٰ أن الخريطة المُعلَّقةَ في سقف العرْبة كانت تتمايل كالأرجوحة. كنت أتعجَّب مندهشًا من اليد التي يمكنها كتابة الحروف ورسم الأشكال والرموز بهذا القدر من الدقة والوضوح رغم الرجيج المتواصل. وحين أتلقىٰ بعد ذلك ما كتبوه، لم يكن بوسعي إدخال أي تعديلات علىٰ الإطلاق. لم يكن ذلك عملًا عاديًا، بل تضحيةً ذات طابعٍ بطولي. بعد ذلك، دفع جلازمان وسيرموكس ثمنًا باهظًا لما قدَّماه من تضحياتٍ في خدمةِ الثورة. دفع الستالينيون جلازمان إلىٰ الانتحار، أما سيرموكس فقد نُفِيَ إلىٰ براري سيبيريا.

خُصِّصَ جزءٌ من القطار كمرأبٍ ضخمٍ اشتمل علىٰ الكثير من السيارات وصهريجٍ للوقود، وقد مكنتنا هذه السيارات من السفر مئات الكيلومترات من خطوط السكك الحديدية. كانت فِرَقٌ من عشرين أو ثلاثين رجلًا من الرماة الماهرين المُختارين يستقلون العربات الضخمة والسيارات الخفيفة وينطلقون في رحلتهم. وفي عربتي كان يجلس إلىٰ جواري رجلان ببنادقهم الرشاشة. حرب المناورات تلك التي خضناها كانت مليئةً بالمفاجئات. كنَّا علىٰ السهولِ نخاطر بملاقاةِ فِرقةٍ من القوزاق فتهاجمنا. كانت سياراتٌ مُزوَّدةٌ بمدافع رشَّاشة تؤمِّن الطريق قبل مرورنا، علىٰ الأقل قبل أن تتحوَّل السهولُ إلىٰ بحرٍ من الأوحال. ذات مرة، في صيف 1919، في محافظة فورونيج، كنَّا نسير علىٰ سرعة ثلاثة كيلومترات في الساعة، فغاصت السيارات في التربةِ السوداء التي غمرتها الأمطار. ثلاثون

رجلًا ظلوا يتقافزون من السيارات لدفعها وإخراجها من الأوحال التي وقعت في شراكها. ومرة أخرىٰ، أثناء عبورنا نهرًا، علِقنا في وسط التيار. انتابني الغضب لألقي اللوم علىٰ هذه الماكينة رديئة الصنع، التي اعتبرها سائقي الأستوني، بوفي، أفضل ماكينة في العالم. استدار إليّ رافعًا يده إلىٰ قبعته، وقال بروسيةٍ ركيكة: "لابد أن أوضح أن المهندسين لم يتوقَّعوا قط أن علينا الإبحار في المياه". ورغم صعوبة اللحظة، أدهشتني سرعة بديهته في هذا التعليق الساخر.

لم يكن القطارُ مؤسسةً عسكريةً إداريةً وسياسيةً فحسب، بل كيانًا نضاليًا متكاملًا بحق. بدا مظهره كقطارٍ حربيٍ مُصفَّح أكثر مما يبدو عليه كمقرٍ دائم يسير علىٰ عجلاتٍ حديدية. في الحقيقة، كان القطار مُصفَّحًا فعلًا، علىٰ الأقل مُحرِّكاته وعرباته ذات البنادق الرشَّاشة. جميع أفراد الطاقم كانوا مُسلَّحين يرتدون معاطف جلدية توحي بالهيبة. علىٰ الذراعِ الأيسر، تحت الكتفِ مباشرةً، كانوا يرتدون شارةً معدنيةً كبيرة مصكوكةً بعناية، وكان لها شعبيةٌ كبيرةٌ في الجيش كله، فيما كانت السيارات متصلةً ببعضها من خلال أجهزة الهواتف وعن طريقِ نظامِ إشاراتٍ مُحدَّد.

كانت هناك الكثير من أجهزة المنبهات المنتشرة في كلِ مكانٍ في القطار، والتي عملت في الليلِ والنهارِ، للحفاظ علىٰ حالة التأهب الدائمة لدىٰ الرجال والطاقم. كان لفرقة الإنزال، لدىٰ خروجها من القطار بالمعاطف الجلدية السميكة التي يرتديها المقاتلون، مظهرٌ ذو

تأثيرٍ دامغٍ حتىٰ في أخطر المناطق. وحين تعلم الوحدات القتالية بقدوم القطار علىٰ بُعد كيلومترات قليلة خلف خطوط النار، حتىٰ أكثرها توترًا وهشاشةً - بالأخص ضباطهم القياديين - تستجمع قواها لتصبح أكثر ثباتًا وتماسكًا. في حالات التوازن الحرج غير المستقر، أحيانًا ما يكفي ثقلٌ صغير لحسم الأمور تمامًا، وهذا الدور هو ما قام به القطار ومفارزه ومقاتلوه في مراتٍ كثيرةٍ خلال عامين ونصف من الترحال. وحين تعود فرقة الإنزال علىٰ متن القطار مرةً أخرىٰ، عادةً ما كنَّا نلاحظ اختفاء أحد مقاتليها. فَقَدَ القطار في المجمل حوالي خمسة عشر رجلًا، قتلىٰ وجرحىٰ، وهذا لا يشمل أولئك الذين انضموا للوحدات القتالية في الميدان ثم غابوا عن أنظارنا بعد ذلك. علىٰ سبيل المثال، تشكَّلت فرقةٌ عسكريةٌ من طاقمنا للقطار المُصفَّح الذي حمل اسم لينين، وفرقةٌ أخرىٰ انضمَّت للقوات في ميدان القتال علىٰ حدود بتروجراد. وفي معاركه ضد يودينيتش، تزيَّن القطار بكامله بالأعلام الحمراء.

أحيانًا ما كان القطار يتعرَّض لإلقاء القنابل أو القصف الجوي. لا عجب أنه صار مُحاطًا بأساطير نُسِجَت من انتصاراتٍ بعضها حقيقي والبعض الآخر من صنع الخيال. وفي مراتٍ كثيرة، كان قائدُ فصيلٍ أو لواءٍ أوْ حتىٰ فوجٍ يطلب مني البقاء في مقر الطاقم لنصف ساعةٍ أخرىٰ، لمجرد إطالة الوقت، أو أن أصاحبه في سيارةٍ أو علىٰ ظهر حصانٍ لمنطقةٍ بعيدة، أو حتىٰ أن أرسل بعض الرجال من علىٰ القطار ببعض الإمدادات، كي ينتشر نبأ قدوم القطار لأوسعِ نطاقٍ وفي أطول وقتٍ

ممكن. كان القادة يقولون: "سيكون هذا أفضل مما لو كان لدينا فصيلٌ احتياطي كامل". كان نبأ زحف القطار يصل خطوط العدو أيضًا، وهناك كان الناس يتخيَّلونه في صورةٍ أكثر غموضًا وأسطوريةً مما بدا عليه، ولم يخدمنا ذلك إلا في تعظيم التأثير علىٰ المعنويات.

حَصَدَ القطار كراهية الأعداء وضغائنهم، وكان فخورًا بذلك. وقد خطَّطَ الثوريون الاشتراكيون أكثر من مرةٍ لتدميره. وفي محاكمة الثوريين الاشتراكيين، أدلىٰ سيميونوف بشهادةٍ تفصيليةٍ في ذلك الأمر، وكان هو من نفذ عملية اغتيال فولودارسكي وحاول اغتيال لينين، وشارك كذلك في تجهيزات الهجوم علىٰ القطار لتدميره. وفي الحقيقة، لم تكن تلك المغامرة تواجه مصاعب كبيرة تُذكَر، باستثناء أن الثوريين الاشتراكيين في ذلك الوقت كان الوهن السياسي قد ألمَّ بهم، وكانوا قد فقدوا الثقةَ بأنفسهم، ولم يعد لهم تأثيرٌ علىٰ الأجيال الأصغر.

في إحدىٰ رحلاتنا إلىٰ الجنوب، هوجم القطار في محطة جوركي. انتفضت من علىٰ فراشي في منتصف الليل، وانتابني ذلك الشعور المخيف الذي يداهمك أثناء الزلزال، حيث تنزلق الأرض من تحت قدميك، ولا يمكنك الاستناد إلىٰ شيءٍ حولك. تشبَّثت بجانبيّ الفراش في نصفِ نومٍ ونصفِ يقظة. وقد توقَّف ضجيج القطار المعتاد فجأة وعلىٰ الفور، ولم يخترق أذناي سوىٰ صياح رجال الطاقم. تقوَّسَت الأبواب الحديدية الثقيلة، بحيث لم أتمكَّن حتىٰ من فتحها

من الداخل، وبالتالي لم أستطع الخروج من العربة. وما أثار قلقي هو اختفاء الجميع بعد ذلك. قفزت من النافذةِ، ومسدسي في يدي، وركضت نحو رجلٍ يحمل مصباحًا. كان ذلك هو قائد القطارِ، ولم يتمكَّن من الوصول لي.

كانت العربة مائلةً لأعلىٰ، وقد انغرست ثلاث عجلاتٍ في الأرض، والثلاث الأخريات علىٰ مسافةٍ عاليةٍ فوق القضبان. أما مقدمة العربة ومؤخرتها فقد سُحِقَتا تمامًا. رأيت حارسًا مهروسًا تحت الحاجز الأمامي للعربة، يتأوَّه في الظلامِ بأنينٍ مثيرٍ للشفقةِ كبكاءِ طفلٍ تتمزَّق له القلوب. لم يكن من السهل تحريره من تحت الحاجز الذي يرزح بثقله عليه. والمفاجأة أنه خرج من هذا المأزق المؤلم فقط ببعض الكدمات والندوب. دُمِرَت ثمان عربات. عربة المطعم، التي كانت بمثابة نادي القطار، تحوَّلت إلىٰ كومةٍ من الشظايا والحُطام. كان عِددٌ من الرجال يقرأون أو يلعبون الشطرنج في هذه العربة، منتظرين حلول دورهم في الخدمة، لكنهم غادروها فقط بعشرِ دقائق قبل الحادث. دُمِّرَت أيضًا العربة التي حملت الكتب والمعدات والهدايا التي جلبناها للجبهة. لم يُصب أيٌّ من الرجال بإصاباتٍ خطيرة. كان هذا الحادث نتيجة تبديلٍ خاطئٍ في المسار، لكننا لم نتحقَّق قط مما إذا كان ذلك بسبب الإهمال أم فعلٍ مُتعمَّد. من حسن حظنا أن القطار كان قد أقلع لتوِّه من المحطة وأخذ يسير علىٰ سرعة ثلاثين كيلومترًا فقط.

نفذ طاقم القطار الكثير من المهام الأخرىٰ إلىٰ جانب واجباتهم الخاصة. كانوا يمدون يد العون للناسِ أثناء فترةِ المجاعة، وللنجاةِ من الأوبئة التي انتشرت كالنارِ في الهشيم، ويُدشِّنون الحملات الدعائية، ويعملون بدأبٍ في المؤتمرات الأممية. كان القطار يصدر صحيفةً تُنشر علىٰ صفحاتها الكثير من أحداث المعارك وتفاصيلها، لكن للأسف لا أحتفظ بهذه السجلات ضمن أراشيفي المتنقِّلة، كما هو الحال في الكثير غيرها.

حين غادرت من أجل الإعداد للهجوم علىٰ رانجل، الذي نشر قواته في القرم، كتبت لصحيفة القطار، في 27 أكتوبر 1920:

"قطارنا مُلزمٌ إلزامًا وثيقًا بالجبهة.

كان مقاتلونا علىٰ مشارف قازان في أسابيع 1918 القاسية حين كنَّا نقاتل من أجل إحكام السيطرة علىٰ نهر الفولجا. ولَّت هذه المعركة منذ زمنٍ طويل. واليوم توشك السلطة السوفييتية علىٰ الوصول إلىٰ المحيط الهادي.

حَارَبَ مقاتلونا ببسالةٍ للدفاع عن بتروجراد، حموها من الخطر، ومنذ ذلك الحين استقبلت المدينة الكثير من مُمَثِّلي البروليتاريا من شتىٰ أنحاء العالم.

زار قطارنا الجبهة الغربية أكثر من مرة. واليوم، وقَّعنا اتفاقيةَ سلامٍ مبدئيةٍ مع بولندا.

وَصَلَ مقاتلو القطار إلىٰ سهولِ الدون حين زَحَفَ كراسنوف، ومن بعده دينيكين، نحو روسيا السوفييتية من الجنوب. وقد طوىٰ الماضي صفحاته علىٰ ذلك منذ أمدٍ ليس قصيرًا.

القرم هو ما يتبقىٰ أمامنا الآن، وهناك شيَّدت الحكومة الفرنسية قلعتها، وحامية الحرس الأبيض التابعة لهذه القلعة الفرنسية الآن تقبع تحت قيادة جنرال روسي ألماني مأجور، وهو البارون رانجل.

تعمل عائلة قطارنا الآن علىٰ تدشينِ حملةٍ جديدة. لتكن هذه الحملة هي الأخيرة".

جاءت حملة القرم بالفعل لتنهي سلسلة معارك الحرب الأهلية. بعدها بأشهرٍ معدودة، خرج القطار من الخدمة.

من هذه الصفحات أرسل تحياتي الأخوية لكافة رفاقي في السلاح.

الفصل الخامس والثلاثون

الدفاع عن بتروجراد

كان هناك ستة عشر جيشًا يقاتلون علىٰ الجبهات الثورية للجمهورية السوفييتية. الثورة الفرنسية العظمىٰ كان لديها عددٌ مقارب - أربعة عشر جيشًا. كلُ جيشٍ من الستة عشر كان له تاريخه الضارب، ومجرد ذكر أيٍ منهم يُحفِّز الذاكرة علىٰ الفور لاستحضار العشرات من الحكايات البارزة. ورغم أن لكلٍ منهم بنيته الواضحة، لكن هذه البنية كانت دائمة التغيُّر.

كان الجيش السابع يتمركز علىٰ مداخل بتروجراد الغربية، لكن حالة الجمود الطويلة قد أضعفت معنوياته، وقد حوَّله الترقُّب الممتد إلىٰ حالة من التبلُّد التام. كان أفضل عمال هذا الجيش، وكذلك كتائبٌ كاملةٌ منهم، قد انتقلوا إلىٰ القطاعات الأكثر حيوية من الجبهة. وبالنسبة لجيشٍ ثوري، يحتاج طيلة الوقت إلىٰ شحناتٍ من الحماس، تنتهي المراوحة وإضاعة الوقت دائمًا إلىٰ مآسي، إن لم تكن كوارث. والجيش السابع ليس استثناءً من ذلك.

في يونيو 1919، احتلَّت كتيبةٌ من الجيش الأبيض حصن كراسنايا جوركا (التل الأحمر)، في خليج فنلندا. لكن بعد بضعة أيام، تمكَّنت قوةٌ من مشاة البحرية الحمراء من استعادته. بعد ذلك، اكتُشِفَ أن

رئيس هيئة أركان الجيش السابع، العقيد لوندكفيست، كان ينقل كل المعلومات إلىٰ الجيش الأبيض، إضافةً إلىٰ متآمرين آخرين كانوا يعملون معه في الخفاء. وكان لذلك أن يزعزع الجيش من أعماقه.

وفي يوليو، تولىٰ الجنرال يودينيتش قيادة الجيش الشمالي الغربي للحرس الأبيض، واعترف به كولتشاك ممثلًا عنه. وفي أغسطس، تأسَّسَت "الحكومة الشمالية الغربية" الروسية، بمساعدة إنجلترا وأستونيا. وعدت البحرية الإنجليزية يودينيتش بدعمها الكامل له. وجاء هجوم يودينيتش في وقتٍ كنَّا مضغوطين فيه بشدة علىٰ الجبهات الأخرىٰ. أما دينيكين، فقد احتلَّ أوريل، وصار يُهدِّد تولا - مركز تصنيع الذخائر. ومن تولا، من السهل قطع مسافة قصيرة للوصول إلىٰ موسكو. في ذلك الوقت، شغلت الجبهة الجنوبية كل تفكيرنا واجتذبت كل انتباهنا. وحينها جاءت الضربة الأولىٰ من الغرب لتُفقِد الجيش السابع توازنه بالكامل، فبدأ الجيش بالتراجع من دون مقاومةٍ تُذكَر، متخليًا عن أسلحته وإمداداته كيفما اتفق. أما قادة بتروجراد - علىٰ الأخص زينوفيف - فظلوا يخبرون لينين عن تفوُّق معدات العدو علينا (البنادق الآلية، والدبابات، والطائرات، ومعدات الضبط والرقابة البريطانية علىٰ أجنحتها، وهلمجرا)، ومن ثم استنتج لينين أن ليس بإمكاننا مواجهة جيش يودينيتش، ذي الضباط المُتَمَرِّسين والأجهزة التقنية والعسكرية الأحدث، إلا بإضعاف جبهاتنا الأخرىٰ، لاسيما الجبهة الجنوبية.

لكن ذلك كان مستحيلًا، وبالتالي كان من رأيه أن الأمر الوحيد الممكن هو أن نتخلىٰ عن بتروجراد لتقصير خط الجبهة. وبعدما قرَّر أن مثل هذا البتر ضروريًا، بدأ لينين في محاولة كسب القادة الآخرين إلىٰ وجهة نظره. لكنني، فورما عدت إلىٰ موسكو، عارضت هذه الخطة بصرامةٍ وحزم، فلم يكن يودينيتش وأسياده ليرضون هكذا ببساطة باحتلال بتروجراد وحدها، بل أرادوا ملاقاة دينيكين في موسكو. في بتروجراد، كان يودينيتش ليجد دعمًا هائلًا بالرجال والموارد الصناعية، والأكثر من ذلك أنه لن يقابل أية عقباتٍ في طريقه من بتروجراد إلىٰ موسكو. لذا، قررت أننا لابد أن نحمي بتروجراد مهما تكلَّف الأمر، وأن نلجأ في المقام الأول لمواطني المدينة أنفسهم. وافقني في ذلك كريستنسكي، الذي كان آنذاك عضوًا في المكتب السياسي، وأعتقد أن ستالين أيضًا قد دَعَمَ موقفي. اضطررت عدة مرات، خلال تلك الأربع وعشرين ساعة، إلىٰ مهاجمة لينين، حتىٰ قال في النهاية: "حسنًا، لنحاول".

وفي أكتوبر، اعتمد المكتب السياسي قراري حول الوضع علىٰ الجبهات: "بالوضع في الاعتبار الخطر العسكري الداهم الذي يحيق بنا، لابد أن نتخذ ما يلزم من إجراءاتٍ لتحويل روسيا السوفييتية إلىٰ معسكرٍ حربي. وبمساعدة الحزب والنقابات، لابد أن يجري تسجيل أعضاء الحزب والمؤسسات السوفييتية والنقابات، لإدماجهم في الخدمة العسكرية". تلت ذلك قائمة من الإجراءات العملية، أما

بخصوص بتروجراد فورد في القرار أنها: "لن تُخلىٰ". وفي نفس اليوم، أرسلت مسودةَ مرسومٍ لمجلس الدفاع:

"لندافع عن بتروجراد لآخر قطرة في دمائنا. لن نتراجع قيد أنملة. لنأخذ القتال إلىٰ شوارع المدينة وأزقتها".

لم يكن لديّ أيَ شكٍ في أن الجيش الأبيض، حتىٰ وإن كان قوامه 25 ألف جنديًا، إذا حاول اقتحام مدينة يُقدَّر سكانها بمليون مواطن، فسيفنىٰ عن آخره إذا واجه مقاومةً جادة ومُنظَّمة جيدًا في الشوارع. وفي الوقت نفسه، بالأخذ في الاعتبار احتمالية تدخُّل أستونيا وفنلندا، ظننت أن من الضروري التخطيط لانسحاب الجيش والعمال إلىٰ جنوبي شرق البلاد، إذ كانت تلك الطريقة الوحيدة التي تكفل حماية وصون زهرة بروليتاريا بتروجراد من الإبادة الكلية.

رحلت إلىٰ بتروجراد في 16 أكتوبر، وفي اليوم التالي تلقيت خطابًا من لينين يقول فيه:

"17 أكتوبر 1919. الرفيق تروتسكي، أرسلت ليلةَ أمس برقيةً بقرار مجلس الدفاع. وكما سترىٰ، اعتُمِدَت خطتك بالكامل. انسحاب عمال بتروجراد إلىٰ الجنوب، بالتأكيد، ليس مرفوضًا (عرفت أنك شرحت ذلك لكراسين وريكوف)، لكن نقاش هذا الأمر قبل أن تحل الحاجة إليه من شأنه أن يُشتِّت انتباهنا عن القتال الذي سنخوضه حتىٰ

النهاية. ستكون لمحاولة تطويق بتروجراد نتائج وتغيُّرات ستتعامل معها أنت على الفور... أرفقت في هذا الخطاب نداءً كتبته بناءً على اقتراحِ مجلس الدفاع. كتبت هذا النداء على عجلةٍ، فلا يبدو أنه جيدًا على الإطلاق. من الأفضل أن تضع اسمي على ما ستكتبه أنت.

تحياتي

لينين".

يُظهِر لي هذا الخطاب، قطعًا، كيف كانت الخلافات العنيفة بيني ولينين، تلك الخلافات الحتمية في عملٍ على هذا النطاق الواسع، تُجتاز بسهولةٍ في الممارسةِ العملية، وكيف لم تترك أثرًا يُذكَر في علاقتنا الشخصية أو عملنا المشترك. خطر ببالي كيف سيبدو الحال إذا كنت أنا من وقفت ضد لينين، وليس لينين هو من وقف ضدي، وهو الذي دافع عن التخلي عن بتروجراد في أكتوبر 1919، لكان لدينا اليوم الكثير من الأدبيات اليوم، بكلِ لغةٍ معروفة، لفضح الطابع التدميري "للتروتسكية".

خلال العام 1918، كان الحلفاء يفرضون حربًا أهليةً علينا، زعمًا بأن ذلك يصب في صالح الانتصار على القيصر الألماني. لكن في 1919، ورغم هزيمة ألمانيا منذ زمنٍ طويل، ظلَّ الحلفاء ينفقون مئات الملايين لنشر الدمار والموت والمجاعات والأوبئة في بلدِ

الثورة. كان يودينيتش واحدًا من المرتزقة الذين استأجرتهم إنجلترا وفرنسا. كان مدعومًا، من ناحية المؤخرة، من أستونيا. تغطي فنلندا جانبه الأيسر. والحلفاء يطالبون كلا البلدين، اللذين حرَّرَتهما الثورة، بأن يذبحاها. عُقِدَت مفاوضاتٌ لا تنتهي في هيلسنجفورس. كنَّا نتابع عن كثب ما يجري في كلا البلدين اللذين شكَّلا فكيَّ كماشةٍ لاقتلاع رأس بتروجراد.

في الأول من سبتمبر، كتبت في البرافدا علىٰ سبيل التحذير ما يلي: "من ضمن فصائل الجيش التي جلبناها إلىٰ بتروجراد، هناك يقبع خيالة باشكير. إذا حاولت البرجوازية الفنلندية مهاجمة بتروجراد، سيطلق الباشكير الحمر صيحتهم القتالية: إلىٰ هيلسنجفورس".

لم تتأسَّس فرقة خيالة باشكير إلا قبل ذلك بوقتٍ قصير. ومنذ البداية، كنت قد خطَّطت لنقلها إلىٰ بتروجراد لأشهرٍ معدودة، كي يحظىٰ هؤلاء الرجال الذين جاءوا من السهول والوديان بفرصةِ العيش في المحيط الثقافي للمدينة، وأن يقتربوا من العمال، وأن يزوروا الأندية ويحضروا الاجتماعات ويرتادوا المسارح، إلخ. كل ما فعلته هو أن أضفت إلىٰ ذلك اعتبارًا آخر؛ وهو إثارة ذعر البرجوازية الفلنلندية من شبح الغزو الباشكيري.

لكن تحذيراتنا لم يكن لها أثرٌ كبيرٌ مثلما كانت نجاحات يودينيتش الخاطفة، ففي 13 أكتوبر تمكَّن من احتلال لوجا، ثم في 16

أكتوبر اُستولىٰ علىٰ كراسنوي سييلو وجاتشينا، مُوجِّهًا ضربته إلىٰ بتروجراد حيث قَطَعَ خطوط السكك الحديدية الواصلة بينها وبين موسكو. وفي اليوم العاشر من الهجوم، وَصَلَ يودينيتش إلىٰ تسارسكوي سييلو. كان رجال كشَّافته يرون من علىٰ ظهور أحصنتهم القبة المذهبة لكاتدرائية سان إسحق من أعلىٰ التل.

وكان الراديو الفنلندي قد استبق الأحداث فأذاع نبأ احتلال قوات يودينيتش لبتروجراد بالفعل، ومن ثم نَقَلَ سفراء دول الحلفاء في هيلسنفجورس هذا النبأ رسميًا إلىٰ حكوماتهم. انتشرت شائعة سقوط بتروجراد الحمراء عبر أوروبا وكل العالم، حتىٰ أن صحيفة سويدية كتبت عن "أسبوع القضاء علىٰ حمىٰ بتروجراد". كانت الدوائر الحاكمة في فنلندا هي أكثر من تحمَّس لهذه الشائعة، إذ كانت الحكومة والجيش يدافعان عن التدخُّل العسكري في روسيا، وقد انتظرا هذا الخبر طويلًا. أما الاشتراكية الديمقراطية الفنلندية، فكما كان مُتوقَّعًا؛ تعهَّدت بمراقبةِ الأمورِ بـ"حياد". كتب أحد مؤرخي الجيش الأبيض: "صارت قضية التدخُّل اليوم تُناقش فقط من ناحية التمويل المالي". كل ما تبقىٰ هو التصديق علىٰ منح خمسين مليون فرنكًا - كان هذا ثمن دماء بتروجراد في أسواق الحلفاء.

لم تكن قضية أستونيا أقل حدةً بالتأكيد، ففي 17 أكتوبر كتبت إلىٰ لينين: "إذا تمكَّنّا من حماية بتروجراد، كما آمل، سنكون في وضعٍ يسمح لنا بالقضاء علىٰ يودينيتش. لكن تكمن العقبة الأساسية في حقه

في اللجوء إلىٰ أستونيا. لابد أن تغلق أستونيا حدودها في وجهه. وفي حالة إذا سمحت له بالدخول، لابد أن نضمن حقنا في غزوها في أعقابه". قوبل هذا الطرح بالموافقة بعدما بدأ جيشنا في طرد يودينيتش، رغم مرور بعض الوقت قبل بدء انتصاراتنا العسكرية عليه.

بمجرد وصولي، وجدت قادة بتروجراد في حالةٍ من الموات الكامل والفوضىٰ العارمة. كان كل شيءٍ ينزلق من بين أيديهم؛ القوات تتراجع، والكتائب تتفتَّت إلىٰ وحداتٍ متشرذِمة. كان الضباط القادة يتطلَّعون إلىٰ الشيوعيين، والشيوعيون يتطلَّعون إلىٰ زينوفيف، وزينوفيف كان حرفيًا بؤرةً للارتباك التام. قال لي سفيردلوف، الذي كان يعرف خصال الرجال جيدًا، آنذاك: "زينوفيف هو الفزع في حد ذاته". في أوقات اليُسر، حين "لم يكن هناك ما نخافه"، كما اعتاد لينين أن يقول، كان زينوفيف يحلِّق في السماء السابعة. لكن، حين تسوء الأمور، يخطو نحو أقرب أريكة ويستلقي عليها - حرفيًا لا مجازيًا - ويتنهَّد. منذ العام 1917، وأنا مقتنعٌ تمامًا بأن ليس لدىٰ زينوفيف أي مزاجٍ وسطي؛ إما في السماء السابعة أو علىٰ الأريكة. وهذه المرة، وجدته بالطبع علىٰ الأريكة. صحيحٌ أن كان هناك بعض الرجال الشجعان حوله -لاشيفيتش مثلًا- لكنهم كانوا ضعاف السواعد. اجتاح هذا الضعف كل النفوس، وكل له تأثيره في كل مكان. من سمولني، طلبت هاتفيًا سيارةً من المرأب الحربي، فلم تأتِ في الوقتِ المُحدَّد، ومن صوتِ حارس المرأب علىٰ الهاتف شعرت

بتلك اللا مبالاة واليأس والاستسلام للقدر الذي سار كالوباء حتىٰ في أوساطِ القواعد الدنيا من الطاقم الإداري. كنَّا حقًا في حاجةٍ إلىٰ إجراءاتٍ استثنائية؛ كان العدو علىٰ أبوابنا يقرع طبول الحرب.

وكما اعتدت في مثل هذه الظروف العصيبة، لجأت إلىٰ الرجال في طاقم قطاري، أولئك الذين وثقت فيهم واستندت إليهم في أي ظرفٍ كان. قام هؤلاء بكلِ ما يلزم؛ في البداية تفحَّصوا الأمر، ثم أخذوا يضغطون علىٰ الآخرين، أقاموا الاتصالات وأمَّنوا وسائلها جيدًا، وأزاحوا غير المناسبين للمهام جانبًا، وملأوا مكانهم سادِّين كل الثغرات الممكنة. ومن الجهاز الرسمي، الذي أخذ يغطس في المواتِ والركود حتىٰ غاص فيهما تمامًا، نزلت إلىٰ منظمات الحزب المحلية، ومنظمات المصانع والثكنات. كان الجميع يتوقَّعون التخلي عن المدينة للجيش الأبيض، لذا كانوا خائفين من الانكشاف التام أمام العدو. لكن، بمجرد أن شَعَرَت الجماهير أن بتروجراد لن تُهدىٰ هكذا إلىٰ العدو، بل أن الدفاع عنها سينتقل إلىٰ الشوارع والميادين إذا اقتضت الضرورة، تغيَّرت روحهم المعنوية علىٰ الفور، وبدأ الشجعان منهم، الأكثر إقدامًا علىٰ التضحيةِ بأنفسهم، يرفعون رؤوسهم.

امتلأت المصانع بكتائبٍ منْ رجالٍ ونساءٍ يحملون أدوات الحفر علىٰ أكتافهم. كان عمال بتروجراد في حالةٍ يُرثىٰ لها؛ وجوههم رماديةٌ من سوء التغذية، يرتدون أسمالًا بالية، وأحذيةً - أحيانًا الفردة منها لا تشبه الأخرىٰ - مثقوبة.

"لن نستسلم. لن نتخلىٰ عن المدينة أيها الرفاق".

كانت عيون النساءِ تتَّقد بوَهَجٍ خاص؛ الأمهات والزوجات والفتيات، كنَّ حزيناتٍ علىٰ ترك أعشاشهن الدافئة الحانية رغم فقرها ووضاعتها. "كلا. لن نستسلم"، هكذا ردَّت النساءُ النداءَ بصيحاتٍ جهورة ممسكاتٍ مجارفهن كالبنادق. القليل منهن كنَّ مسلحاتٍ بالبنادق، وغيرهن كنَّ قد اتخذن مواقعهن علىٰ البنادق الآلية. قُسِّمَت المدينة إلىٰ قسمَين يسيطر عليهما العمال والأطقم الحربية، والنقاط الأهم كانت مُحاطةً بالأسلاك الشائكة، واختيرت بعض المواقع لنصب المدفعية بمدىٰ إطلاقٍ معين، ووُضِعَت ستون بندقيةً آلية في مواقعٍ خفيةٍ عن الأنظار في الميادين المفتوحة وفي تقاطعات الشوارع الرئيسية. تحصَّنت القنوات والحدائق والجدران والأسوار والمنازل تحصينًا كاملًا، كما حُفِرَت الخنادق في الأحياء حول نهر نيفا، وبُنِيَت المتاريس في الكثير من الشوارع والميادين. تحوَّل القسم الجنوبي من المدينة بأكمله إلىٰ قلعةٍ شديدةِ التحصين. ومن المقاطعات إلىٰ الثكنات، ومن وحداتِ المؤخرة حتىٰ القوات المتمركزة في ميدان القتال، وُلِدَت روحٌ جديدة في أنفاسِ العمال والجنود.

لم يكن يفصل يودينيتش عن بتروجراد سوىٰ 10 أو 15 كيلومترًا فقط، علىٰ نفس مرتفعاتِ بولكوفو التي كنت قد ذهبت إليها قبل عامين، حين انتزعت الثورة السلطة وقاتلت دفاعًا عن حياتها ضد قوات

كرينسكي وكراسنوف. مرةً أخرىٰ، تعلَّقَ مصير بتروجراد بخيطٍ رفيع، وكان علينا أن نكسر حالة الجمود والتراجع علىٰ الفور وبأيِ ثمنٍ كان.

وفي 18 أكتوبر، أصدرت هذا القرار: "يُحظَر إرسال أي تقارير زائفة عمَّا يجري في المعارك حتىٰ وإن كان من شأن الحقيقة أن تتسبَّب في فزعٍ كامل. تتساوىٰ الأكاذيب مع الخيانة فيما ستلقاه من عقوبة. العمل العسكري يحتمل الأخطاء، لكن ليس الأكاذيب والخداع وخداع النفس". وكالعادة، في مثل هذه اللحظات من الضغوط والتوتُّرات القصوىٰ، كان من الضروري أن أكشف الحقيقةَ كاملةً أمام الجيش والبلد بأكمله، فكشفت أمام الجميع الانسحاب غير المنطقي الذي حدث في نفس اليوم: "فرقةٌ من حاملي البنادق تلقت إنذارًا بتهديد العدو للموقع الذي تمركزت فيه، فأصدر قائد الكتيبة أوامره بالانسحاب، فهرولت الكتيبة بأكملها لثمانية أو عشرة كيلومترات حتىٰ وصلت إلىٰ أليكساندروفكا. وبعد التحقُّق من الأمر، اتضح أن هذه القوات تتبع واحدة من وحداتنا... لكن، في نهاية المطاف، هذا لا يعني أن هذه الكتيبة الفارة سيئةٌ لا يُعتمد عليها، فعندما استعادت القوات ثقتها بنفسها، عادت إلىٰ موقعها علىٰ الفور، وبسرعةٍ كبيرة، وبينما كان الجنود ينزُّون عرقًا رغم البرد، بعدما اجتازوا ثمانية كيلومترات في ساعةٍ واحدة، طردوا قوات العدو، التي كانت قليلةَ العدد، واستعادوا موقعهم القديم بخسائر محدودة".

خلال تلك الفترة القصيرة، اضطلعت للمرةِ الأولىٰ والوحيدة خلال الحرب بأكملها بدورِ قائد كتيبة. حين وصلت القوات المنسحبة إلىٰ المقر الحربي في أليكساندروفكا، امتطيت أول حصانٍ وقعت عليه عيني وأعدتهم إلىٰ موقعهم مرةً أخرىٰ. في الدقائق الأولىٰ، لم يكن ثمة شيءٌ سوىٰ الارتباك والتخبط؛ لم يكن جميعهم يدركون ما يحدث، وبعضهم استمر في التراجع. لكنني، علىٰ ظهر حصاني، لاحقتهم، جنديًا جنديًا، وحينها لاحظت الفلاح الموسكوفي، كوزلوف، الذي كان جنديًا قديمًا أعرفه من قبل، يتبعني في كلِ ركضة. كان بجانبي والحماس يشعل روحه، مُلوِّحًا بمسدسه، يجري علىٰ طول الخط ويُردِّد نداءاتي للجنود، صارخًا بكل عزمه: "تشجَّعوا أيها الرجال. الرفيق تروتسكي يقودكم".

صار الجنود الآن يزحفون قُدُمًا في المسافة التي كانوا قد تراجعوا عنها قبلًا. لم يتبق أيٌّ منهم في الخلف. وبعد حوالي كيلومترين، بدأ إطلاق الرصاص، بصفيره المميز والمثير للغثيان، فسقط أول جرحانا. تغيَّر قائد الكتيبة بعدما ظهر في نقطةٍ خطيرةٍ علىٰ خط القتال، قبل أن تستعيد الكتيبة ما فقدته سابقًا من مواقع، وأُصيبَ في كلتا ساقيه. عدت في عربةٍ إلىٰ مقرِ الطاقم، وفي الطريق أخذنا معنا الجريح. أحسَّست حينها بكل وجداني أننا سنحمي بتروجراد.

عند هذه النقطة، أود أن أتمعَّن قليلًا في سؤالٍ لابد أن القارئ قد طرحه علىٰ نفسه عدةَ مراتٍ: متىٰ يتسنىٰ لرجلٍ مسئولٍ عن جيشٍ بأكمله أن يُعرِّض نفسه لخطر القتالِ الحقيقي؟

إجابتي هي أن ما مِن قواعد مُطلَقة، سواء في السلام أو في الحرب. كلُ شيءٍ يعتمد علىٰ الظروف. كان الضباط الذين رافقوني طِوال رحلاتي عادةً ما يقولون: "في الماضي، لم يكن حتىٰ قادة الفصائل يُقحِمون أنوفهم في مثلِ هذه الأماكن". أما الصحافة البرجوازية، فكتبت عن ذلك واصفةً إياه بـ"السعي وراء الإعلان عن النفس"، وهكذا ترجموا إلىٰ لغتهم المألوفة ما هو أبعد من إدراكهم. لكن، في الحقيقة، تطلَّبَت الظروف التي تأسَّسَ في ظلها الجيش الأحمر، وكذلك تركيبه الداخلي، وطبيعة الحرب الأهلية نفسها، هذا الأداء علىٰ وجهِ التحديد. كان كلُ شيءٍ يُبنىٰ جديدًا – الانضباط، والتقاليد القتالية، والسلطة العسكرية. ومثلما لم يكن بمقدورنا إمداد الجيش بكل احتياجاته من مركزٍ واحدٍ ووفقًا للخطط الموضوعة، خاصةً في الفترة الأولىٰ، لم يكن بمقدورنا أيضًا إلهام هذا الجيش والحفاظ علىٰ تماسكه ووحدته تحت النار، بالحماس الثوري، فقط بالنداءات والمنشورات الدورية. كان لابد من اكتساب السلطةِ في أعينِ الجنود، علىٰ الأقل من أجلِ تبريرِ المطالب والأوامر الصارمة من القيادات الأعلىٰ لهم. حين يغيب التراث، تغدو الأمثلة الصارخة ضرورية. والخطر الشخصي كان مجازفةً ضرورية علىٰ طريق النصر.

كان الطاقم القيادي، الذي غرق في سلسلةٍ من الإخفاقات، بحاجةٍ إلىٰ الإنعاش والتجديد، بل وإعادة التنظيم بشكلٍ عام. وعلاوة علىٰ ذلك، كنَّا بحاجةٍ إلىٰ تغييراتٍ أكبر بين المفوَّضين. تعزَّزَت كل الوحدات من الداخل بدمج أعدادٍ من الشيوعيين فيها، إضافةً إلىٰ وحداتٍ جديدةٍ بدأت في الوصول. وخلال يومين أو ثلاثة، اشتد عود إدارة خدمات الإمداد بعد حالة التراخي والترهل التي ألمَّت بها. أما قواعد الجيش الأحمر من الجنود، فقد وصل إليهم طعامٌ أفضل، وغيَّروا ملابسهم وأحذيتهم، وأنصتوا إلىٰ خطبةٍ أو اثنتين، وشدوا أزرهم ليصيروا رجالًا مختلفين تمامًا عمَّا كانوا عليه من قبل.

وجاء يوم 21 أكتوبر حاسمًا في خضم هذه التطورات. كانت قواتنا في ذلك الحين قد استقرت علىٰ مرتفعات بولكوفو، وكان التراجع عنها يعني نقل القتال إلىٰ شوارع المدينة. قبل ذلك كان الجيش الأبيض يزحف إلىٰ الأمام دون مصاعب تُذكَر، لكن في يوم الحادي والعشرين، حين سيطر جيشنا تمامًا علىٰ خط بولكوفو وقاوم بضراوة، توقف العدو عن التقدم. أما في يوم الثاني والعشرين، جاء دور الجيش الأحمر في الهجوم، وكان لدىٰ يودينيتش وقتٌ كافٍ لتلقي الإمدادات وتعزيز خطوطه؛ فصار القتال أكثر شراسةً وعنفًا، لكن في ليلة الثالث والعشرين استعدنا السيطرة علىٰ تساركوي سيلو وبافلوفسك. وفي تلك الأثناء، كان الجيش الخامس عشر قد بدأ يضغط من ناحية الجنوب، مُهدِّدًا مؤخرة الجيش الأبيض وجناحه الأيمن. وهنا جاءت

النقطة الفاصلة، حين بدأت وحداتنا، مدفوعةً بمرارةِ الانتكاسات السابقة، في التنافس مع بعضها البعض في البطولة والتضحية بالنفس. تكبَّدوا خسائر ليست بقليلة. وصرَّحت القيادة العليا للجيش الأبيض أن خسائرنا أكبر كثيرًا من خسائرهم في هذه المعركة. يبدو ذلك صائبًا؛ فخبرتهم أكبر، وتسليحهم أقوىٰ أيضًا. لكن الاستعداد للفداء كان أعلىٰ كثيرًا علىٰ جانبنا. كان العمال الشباب، والفلاحون، والطلاب العسكريين من موسكو وبتروجراد يجازفون بحياتهم في إقدامٍ بَلَغَ من فرطه حدَّ الطيشِ. كانوا يتقدَّمون نحو البنادق الآلية، ويهاجمون الدبابات فقط بمسدساتٍ في أيديهم. وبعد ذلك كتبت هيئة أركان الجيش الأبيض عن ذلك واصفةً إياه بـ"الجنون البطولي الأحمر".

لم يكن لدينا في الأيام السابقة أيُّ عددٍ يُذكَر من الأسرىٰ؛ فنادرًا ما كان هناك فارون من الجيش الأبيض. لكن عددَ الأسرىٰ والفارين تزايد فجأةً بشكلٍ كبيرٍ مع المعركة. وفي 24 أكتوبر، حين أدركت ضراوة القتال واحتدام المعركة، أصدرت قرارًا، جاء نصه كالتالي: "الويلُ كل الويلِ لجنديٍّ جائرٍ يرفع سكينه علىٰ أسيرٍ أو فارٍّ أعزل".

استمر تقدُّمنا إلىٰ الأمام، وقد تخلىٰ الأستونيون والفنلنديون عن فكرة التدخُّل، فيما ظلَّت قوات الجيش الأبيض تتراجع علىٰ مدار أسبوعين كاملين حتىٰ وصلت إلىٰ الحدود الأستونية منهكةً تمامًا. جرَّدتهم الحكومة الأستونية من السلاح بمجرد عبورهم الخط الحدودي، أما في لندن وباريس، فلم يكترث أحدٌ بذلك مطلقًا. وما

كان يُعرَف أمس بـ"الجيش الشمالي الغربي" لدول الوفاق، يهلك اليوم جوعًا وبردًا. أُصيبَ أربعون ألفًا من الجنود البيض بالتيفوس واكتظت بهم مخيمات المشافي. كانت تلك نهاية "أسبوع القضاء علىٰ حمىٰ بتروجراد".

أخذ قادة الجيش الأبيض بعد ذلك يتذمَّرون علنًا من الأميرال كوان، الذي نكث وعده بإرسال الإمدادت الكافية من خليج فنلندا. لكن تذمُّراتهم هذه كانت في أفضل الأحوال مُبالَغاً فيها. كانت ثلاثة توربيدات من قواتنا البحرية قد ضربتها الألغام خلال حملةٍ استكشافيةٍ ليلية، لتأخذ معها 550 رجل من بحَّارتنا، والأميرال البريطاني علىٰ الأقل يرجع له الفضل في ذلك. وجاء توجيهي، للجيش والقوات البحرية، في الحدادِ علىٰ أرواح الضحايا كما يلي:

"أيها المحاربون الحُمر، علىٰ الجبهات تقابلون المؤامرات الإنجليزية. تطلق الثورة المضادة نارها عليكم من بنادق إنجليزية. وفي مستودعات شنكورسك وأونيجا، في الجبهتين الجنوبية والغربية، تجدون إمداداتٍ وذخائرٍ إنجليزية الصنع. الجنود الذين تأسروهم يكتسون زيًا إنجليزي الصنع. من يقتل النساء والأطفال في أرتشانجيل وأستراخان هم الطيارون الإنجليز وبمتفجراتٍ إنجليزية. السفن الإنجليزية تضرب شواطئكم. لكن، حتىٰ في يومنا هذا، ونحن في خضم القتال الضاري ضد يودينيتش، عميل إنجلترا وخادمها الذليل،

> أطالبكم بألا تنسوا أن هناك إنجلترتين. إلىٰ جانب إنجلترا الأرباح، إنجلترا العنف والهمجية والتعطُّش للدماء، هناك إنجلترا أخرىٰ؛ إنجلترا العمال، إنجلترا التضامن الأممي. هذه هي القاعدة التي تدهسها إنجلترا الخسيسة الدنيَّة، إنجلترا مضاربي البورصة التي نقاتلها. أما إنجلترا العمال والشعب، فهي في صفنا". (توجيه للجيش والبحرية، 24 أكتوبر 1919 - توجيه رقم 159)..

بالنسبةِ لنا، كانت مهام التثقيف الاشتراكي تتكامل مع مهام القتال. الأفكار التي تدخل العقل تحت النار تظل راسخةً إلىٰ الأبد.

عند شكسبير، تتناوب المآسي مع الكوميديا، وبنفس المنطق يختلط في الحياة ما هو سامي بما هو تافه ومبتذل. كان زينوفيف، الذي نهض أخيرًا من علىٰ أريكته ومن ثم صَعَدَ إلىٰ السماء الثانية أو الثالثة، قد سلَّمني الوثيقة التالية، نيابةً عن الأممية الشيوعية:

> "حماية بتروجراد الحمراء إنما هي خدمةٌ جليلةٌ للبروليتاريا العالمية، وبالتالي للأممية الشيوعية. إليك أيها الرفيق العزيز تروتسكي، في المقامِ الأول، يرجع الفضل في النضال من أجل بتروجراد. باسم اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، أقدِّم لكَ هذه الأوسمة، بطلبِ تقديمها لأكثر الوحدات القتالية استحقاقًا لها في الجيش الأحمر المجيد تحت قيادتك.

رئيس اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية

ج. زينوفيف".

تلقيت وثائق عديدة مثل هذه من سوفييت بتروجراد، ومن النقابات وغيرها من المنظمات. سلَّمت الأوسمة للكتائب، أما الوثائق فقد حفظها طاقم السكرتارية في الأرشيف، وظلَّت هناك حتىٰ أزالها زينوفيف بعد فترةٍ، حين بدأ ينشد أغانٍ جديدة بمفاتيح موسيقية مختلفة.

من الصعب وصف الفرحة العارمة بالانتصار في بتروجراد، وقد تعاظمت هذه الفرحة إثر الانتصارات الحاسمة التي بدأنا نحقِّقها في الجبهة الجنوبية أيضًا. كانت الثورة ترفع رأسها عاليًا. وفي عيني لينين، كان الانتصار علىٰ يودينيتش أعظم قيمةً، إذ أنه بحلول منتصف شهر أكتوبر لم يخطر علىٰ باله قط أن بإمكاننا هزيمته. قرَّرَ المكتب السياسي منحي وسام الراية الحمراء للدفاع عن بتروجراد، وقد رفعني ذلك إلىٰ موضعٍ مختلفٍ تمامًا. لكنني في الحقيقة كنت مُتردِّدًا حيال قبول الوسام، إذ لم يكن قد مضىٰ وقتٌ طويل منذ أن ألغينا أوسمة النظام القديم. قبلته في النهاية، آملًا أن يمثِّل ذلك حافزًا لأولئك الذين يفتقرون إلىٰ ما يكفي من الوعي بالواجب الثوري. أيَّدني لينين في ذلك، واعتُمِدَ الوسام وصار يُمنح، علىٰ الأقل في تلك الأيام، نظير الخدمات الفعلية في المعارك. لم أقبله إلا بشيءٍ من الاستخفاف بهذه

الشارة التي تُميِّزني عن غيري، والتي منحتها فيما بعد لآخرين كُثُر. لم يكن بوسعي إلا التسليم لما اتُفِقَ عليه في المكتب السياسي.

وفي هذا الصدد، أتذكَّر موقفًا لم أفهمه علىٰ نحوٍ صحيح إلا لاحقًا. في نهاية اجتماع المكتب السياسي، اقترح كامينيف، بقدرٍ لا بأس به من الحرج، منح ستالين هذا الوسام، فتساءل كالينين بسخطٍ واضح: "لماذا؟ لا أفهم لماذا يجب أن يُمنح لستالين". هدَّأوا كالينين بروحٍ من الدعابة، وفي النهاية وافق الاجتماع علىٰ الاقتراح. وبعد الاجتماع، سارَعَ بوخارين إلىٰ كالينين قائلًا له: "ألا تفهم؟ هذه فكرة لينين. ستالين لا يمكن أن يعيش دون أن يحصل علىٰ ما في يدِ غيره. لن يغفر ذلك أبدًا". كنت قد فهمت فكرة لينين، فوافقته ضمنيًا علىٰ ذلك.

أُقيمَت مراسم منح الوسام في المسرح الكبير في الأوبرا، حيث قدَّمت تقريرًا عن الوضع العسكري قبل الجلسة المشتركة للمؤسسات السوفييتية. بعد ذلك نادىٰ رئيس الجلسة علىٰ ستالين لمنحه الوسام. حاولت التصفيق، وتبعني في ذلك زوجان أو ثلاث من الأيادي المُتردِّدة. حينها زحفت حيرةٌ باردةٌ في القاعة التي كانت تعج بالتصفيق الحاد منذ قليل. ستالين نفسه لم يكن ملحوظًا.

كنت سعيدًا للغاية بمنح وسام الراية الحمراء لطاقم قطاري بالكامل، فكتبت في توجيهٍ لي بتاريخ 4 نوفمبر:

"في القتال البطولي الذي خاضه الجيش السابع من 17 أكتوبر حتىٰ 3 نوفمبر، اضطلع طاقم القطار بالدورِ الحاسم. سقط الرفاق كيلجر وإيفانوف وزاستر في المعركة، وأُصيبَ الرفاق بِريد ودراودين وبورين وتشيرنيافتزيف وكوبريفيتش وتسنيك، كما أُصيبَ الرفيقان بورين وكيسليس بارتجاجٍ دماغي. لن أذكر هنا الأسماء الأخرىٰ، لأنني لو فعلت ذلك لذكرت الجميع بلا استثناء. في المنعطفات الخاطفة التي باغتتنا علىٰ الجبهة، اضطلع أعضاء قطارنا بالدور الأهم".

بعد ذلك ببضعة أشهر، اتصل بي لينين هاتفيًا وسألني: "هل قرأت كتاب كيرديتزوف؟". لم يكن الاسم يعني لي شيئًا، فأضاف لينين: "إنه أبيض. عدو. يكتب عن زحف يودينيتش نحو بتروجراد". لابد أن أضيف هنا أن لينين بشكلٍ عام كان يتابع الإصدارات البيضاء أكثر مني. وفي اليوم التالي سألني أيضًا: "هل قرأته؟"، ثم عَرَضَ عليّ: "هل تود أن أرسله إليك؟". لكنني تذكَّرت أن الكتاب عندي بالفعل، إذ كنت أنا ولينين نتلقىٰ نفس الإصدارات الجديدة من برلين، فأوصاني: "لابد أن تقرأ الفصل الأخير. يتضمَّن تقييمًا من العدو، ويقول شيئًا عنك أيضًا".

لم تتسن لي الفرصة لقراءة الكتاب، لكن شاء القدر أن أصادفه في القسطنطينية، فتذكَّرت إصرار لينين علىٰ قراءة الفصل الأخير. وها هو ذا تقييم العدو كما جاء علىٰ لسان أحد وزراء يودينيتش:

"في يوم 16 أكتوبر، وصل تروتسكي في عجلةٍ إلىٰ جبهة بتروجراد، فتلاشىٰ الارتباك الذي ساد الطاقم الأحمر أمام طاقته المشتعلة. كان، قبل ساعاتٍ من سقوط جاتشينا، لا يزال يحاول مراقبة تقدُّم الجيش الأبيض، لكن حينما فشل في ذلك، غادر المدينةِ مُسرِعًا لتنظيم دفاعات تسارسكوي سيلو. لم تكن الاحتياطات قد وصلت بعد، لكنه حَشَدَ جميع الطلاب العسكريين، وعبَّأ كافة مواطني بتروجراد الذكور، وبالبنادق الآلية (؟!) استعاد كل وحدات الجيش الأحمر إلىٰ مواقعها، وباتخاذِ تدابيرِ فعَّالة أنشأ الدفاعات علىٰ كل مداخل بتروجراد.

نَجَحَ تروتسكي في تنظيم مفارز من العمال الشيوعيين، هؤلاء الرجال أقوياء العزيمة، في بتروجراد نفسها، ودفعهم إلىٰ معمعان القتال. وفقًا لهيئة أركان يودينيتش، فهذه المفارز، جنبًا إلىٰ جنب مع فِرَق البحَّارة والطلاب العسكريين، هم من قاتلوا كالأسود، وليس وحدات الجيش الأحمر (؟!). هاجموا الدبابات بحِرابِ بنادقهم، ورغم تشرذُم صفوفهم بفعل نيران تلك الوحوش الفولاذية، استمروا في الدفاع عن مواقعهم".

لم نحشد رجال الجيش الأحمر بالبنادق الآلية، كما يصف، مُطلَقًا، لكننا نجحنا في حماية بتروجراد.

الفصل السادس والثلاثون

المعارضة العسكرية

كان الأساس الذي قام عليه البناء الناجح للجيش الأحمر هو العلاقة بين البروليتاريا والفلاحين عبر أرجاء البلاد. لاحقًا في العام 1923، اختُلِقَت أسطورةٌ حمقاء تقول إنني "أبخست من شأن" الفلاحين. لكن، في الحقيقة، في الفترة من 1918 إلى 1921، تعيَّن عليّ أن أتعامل مع مشكلات الحياة الريفية على نحوٍ أقرب وأكثر مباشرةً من أيٍّ من الآخرين، إذ كان الجيش ينشأ بالأساس من بين أوساط الفلاحين، وكانت أعماله ذات اتصالٍ لصيق بحياتهم. هذه القضية أكبر من أن تُناقَش باستفاضةٍ هنا في هذا الكتاب، لذا سأحصر نفسي في اثنين أو ثلاثة من الأمثلة البارزة الكفيلة بالتوضيح.

في 22 مارس 1919، طالبت في برقيةٍ مباشرة أن "تقرِّر اللجنة المركزية في مسألة الاستفسار الرسمي المُرسَل من قِبَلِ اللجنة التنفيذية المركزية في منطقة الفولجا، وكذلك في مسألة تعيين لجنةٍ مسئولةٍ من اللجنة المركزية واللجنة التنفيذية المركزية، على أن تكون مهمة اللجنة المُعيَّنة هي تعزيز ثقة فلاحي الفولجا بسلطة السوفييت المركزية، وتقويم الأمور المحلية غير الشرعية، ومعاقبة مندوبي

السلطة السوفييتية المُذنبين، وجمع كل الشكاوىٰ والمواد التي يمكن استخدامها كأساسٍ لمراسيم تصدر لصالح الفلاح المتوسط".

من المثير هنا أن أذكر أن هذه المراسلة لم تكن مع أحدٍ غير ستالين، وكان هو الذي أوضحت إليه أهمية قضايا الفلاح المتوسط. وفي نفس العام، انتُخِبَ كالينين، بتوصيةٍ مني، رئيسًا للجنة التنفيذية المركزية كرجلٍ قريبٍ من الفلاحين المتوسطين مُلِمٍّ باحتياجاتهم الخاصة. لكن الأمر الأهم هو أنني، في فبراير 1920، وعلىٰ خلفية مراقبتي لحياة فلاحي الأورال، دافعت بإصرارٍ بالغٍ عن ضرورةِ إجراءِ تغييرٍ في السياسة الاقتصادية الجديدة. وفي اللجنة المركزية، لم أحصد سوىٰ أربعة أصوات لصالحي مقابل أحد عشر صوتًا ضدي. في ذلك الوقت، كان لينين عنيدًا في رفضه إلغاء ضريبة الطعام. بالطبع أدلىٰ ستالين بصوته ضدي. لم يُوضَع هذا التغيير المُقترَح قيد التنفيذ العملي إلا بعد ذلك بعامٍ كامل، وبإجماعِ كل الأصوات عليه، لكن حدث ذلك علىٰ خلفية قعقعات تمرُّد كرونشتاد وفي مناخٍ تسوده ميولٌ للتهديد والوعيد في الجيش بأسره.

كانت أغلب القضايا الشائكة المتعلِّقة بالعمل التأسيسي للسوفييتات خلال السنوٰات التالية تكمن في المقامِ الأول في النطاق العسكري، بل وبصورةٍ أكثر تركيزًا وتكثيفًا فيه. وكقاعدةٍ، كان لابد من إيجاد الحلول وفق مقتضيات اللحظة، والأخطاء كانت تلقىٰ جزاءً فوريًا. وكانت أية معارضة تطرأ، تُختبَر علىٰ الفور علىٰ أرضية

الممارسة العملية. وهنا يكمن المنطق الداخلي لتطوُّر الجيش الأحمر، وغيابِ أية قفزاتٍ جامحة من نظامٍ إلىٰ آخر. إذا كان وقتٌ أطول قد تسنَّىٰ لنا، لربما وقعنا في المزيدِ والمزيدِ من الأخطاء.

ومع ذلك، كان هناك صراعٌ داخلي في الحزب، صراعٌ مريرٌ في الأغلب. هكذا تسير الأمور، ليس وفق منوالٍ آخر. كان العمل جديدًا تمامًا، والمصاعب هائلة للغاية. كان الجيش القديم لا يزال يتفسَّخ، ويبذر الكراهية في أرجاء البلاد، في وقتٍ كان لزامًا علينا إنشاء كتائب جديدة. أما ضباط القيصر، الذين طُرِدوا من الجيش القديم، بلا رحمةٍ أحيانًا، فكان علينا إلحاق بعضهم لتدريب قوات الجيش الأحمر. نشأت اللجان في الكتائبِ القديمة كتجسيدٍ حيٍّ للثورة، علىٰ الأقل في مرحلتها الأولىٰ. لكن نظام اللجان الذي وَضَعَ حدًّا للتفكك، لم يكن مُحتَمَلًا بشكلٍ كبيرٍ في الكتائب الجديدة. كانت لعنات الجنود علىٰ نظام الانضباط القديم لا تزال تتردَّد في آذاننا حين بدأنا البناء الجديد. ولم يمض إلا وقتٌ قصير حتىٰ اضطررنا للانتقال من التطوُّعِ إلىٰ التجنيد، ومن المفارز غير المنتظمة إلىٰ التنظيمِ العسكري المنضبط. كان علينا أن نناضل باستمرار ضد الأساليب غير النظامية في العمل العسكري، وقد تطلَّبَ هذا النضال تصميمًا وإرادةً علىٰ المرونة حتىٰ في أكثر التدابير صرامةً، أحيانًا. ولقد عبَّرت فوضىٰ الحرب غير النظامية عن العنصر الفلاحي الكامن في الثورة، الذي كان النضال ضده أيضًا نضالًا في صالح تنظيم الدولة البروليتارية في مواجهة

الفوضىٰ البرجوازية الصغيرة التي كمنت فيها. لكن طرق وأساليب القتال غير النظامي ترددَت أصداؤها في صفوف الحزب أيضًا.

علىٰ الصعيد العسكري، كان للمعارضة، خلال الأشهر الأولىٰ من نَظمِ الجيش الأحمر، شكلٌ مُحدَّدٌ بهذا القدر أو ذلك. أما الأفكار الرئيسية لهذه المعارضة، فقد وجدت تعبيرًا عنها في الدفاعِ عن النظام الانتخابي، وفي معارضة إدراجِ الخبراء والأخصائيين، وترسيخ الانضباط العسكري، ومركزة الجيش، وهكذا. وحاولت هذه المعارضة العثورَ علىٰ صيغةٍ نظريةٍ لموقفها، إذ أصرَّ المعارضون علىٰ أن الجيش المركزي يمثّل إحدىٰ سماتِ الدولة الرأسمالية، وأن علىٰ الثورة ليس فقط أن تمحي الحرب، بل الجيش المركزي أيضًا. وهكذا باتوا يقولون إن جوهر الثورة يكمن في قدرتها علىٰ الحركة وعلىٰ تسديد هجماتٍ خاطفة، وعلىٰ المناورة، وكذلك فإن قوتها القتالية تتجسّد في المفرزة الصغيرة المستقلة، التي لا ترتبط بقاعدةٍ، والتي تعتمد في عملياتها بالكامل علىٰ دعم الجماهير المتعاطفة، والتي تباغت العدو بسهولة، إلخ. باختصار، قدَّمَ هؤلاء تكتيكات الحرب الصغيرة باعتبارها تكتيكات للثورة. هذا تجريدٌ شديد، ولا يمكن اعتباره إلا إضفاءً للمثالية علىٰ ضعفنا. لكن خبرة الحرب الأهلية القاسية سرعان ما دحضت هذه التصوُّرات. لقد أثبتت مركزة التنظيم والإستراتيجية رجحانها، في وقتٍ مبكرٍ وبصورةٍ جليةٍ للغاية في مجرىٰ النضال، علىٰ الارتجالات المحلية الضيقة والانفصالية والفيدرالية العسكرية.

اشتَمَلَ الجيش الأحمر في صفوفه على آلاف، ولاحقًا عشرات الآلاف، من الضباط القدامى. كان الكثيرون منهم يرون، وفق ما جاء على ألسنتهم هم، الليبراليين المعتدلين ثوريين متطرفين، أما البلاشفة فكانوا بالنسبةِ إليهم من كوكبٍ آخر. كتبت ذات مرةٍ في سجالي ضد المعارضة في ذلك الوقت: "لعلنا نبخس من قدرِ أنفسنا، ومن قدرِ حزبنا، ومن القوة الأخلاقية لأفكارنا، ومن معنوياتنا الثورية، إذا اعتقدنا أننا غير قادرين على كسبِ الآلاف والآلاف من "الأخصائيين"، بمن فيهم الأخصائيين العسكريين". بالطبع تمكنَّا من إنجاز هدفنا، لكن ليس دون مصاعب وخلافات.

لم يتكيَّف الشيوعيون مع العمل العسكري بسهولة. وهنا، كان انتقاؤهم وتدريبهم ذا أهميةٍ أساسية. وحتى قبل قازان، في أغسطس 1918، أرسلت للينين برقيةً أقول فيها: "فقط الشيوعيين الذين يعرفون كيف يمتثلون للأوامر هم من يُرسَلون إلى هنا، أولئك الذين لديهم استعدادٌ لملاقاة الأهوال والذين لا يهابون الموت. المُحرِّضون قصيرو النَفَس ليسوا مطلوبين هنا". وبعد ذلك بعام، في أوكرانيا، حيث كانت الفوضى متفشية حتى في أوساط قواعد الحزب، كتبت أمرًا للجيش الرابع عشر: "أنذركم بأن أي شيوعي انتُدِبَ من الحزب للانضمام إلى صفوفِ الجيش يصبح بالتالي جزءًا من الجيش الأحمر ولديه نفس الحقوق والواجبات كأي جنديٍ آخر فيه. والشيوعيون الذين تثبت عليهم مخالفات وجرائم ضد الواجب العسكري الثوري

سيُعاقَبون بلا شك، فالجرائم التي يمكن غفرانها لرجلٍ غير مثقف وغير متعلّم، لا يمكن التغاضي عنها لعضوٍ في حزبٍ يقود الطبقات العاملة في العالم". بالطبع ظهرت الكثير من الخلافات في هذا الصدد، فلم نكن قط نفتقر إلىٰ التذمُّر.

كان من بين المعارضين العسكريين، علىٰ سبيل المثال، بياتاكوف، المدير الحالي لبنك الدولة. كان ينضم عادةً إلىٰ أية معارضة، فقط من أجل أن يشغل منصبًا حكوميًا. وبعد ثلاثة أو أربعة أعوام، حين انضم بياتاكوف إلىٰ نفسِ المجموعةِ التي انتميت إليها، قلت بشيءٍ من الدعابة أن إذا حَدَثَ انقلابٌ بونابرتي، سيذهب بياتاكوف في اليوم التالي إلىٰ الوزارة بحقيبته. ويمكنني اليوم أن أضيف، بمزيدٍ من الجدية، أنه إن لم يحدث ذلك فسيكون ذلك بسبب عدم حدوث انقلاب بونابرتي، وليس بسببِ أي خطأٍ من جانبِ بياتاكوف. كان يتمتَّع في أوكرانيا بنفوذٍ واسع، ولم يكن ذلك من فراغ، بل لأنه كان ماركسيًا مثقفًا، بالأخص في مجال الاقتصاد، علاوة علىٰ كونه إداريًا جيدًا بلا شك، بإرادةٍ قوية. في السنواتِ الأولىٰ، أبرزَ بياتاكوف طاقةً ثوريةً هائلة، لكنها تحوَّلت لاحقًا إلىٰ محافظة بيروقراطية. وفي السجالِ ضد آرائه شبه الفوضوية، كنت ألجأ إلىٰ تكليفه بمهمةٍ هامة، كي ينتقل من الأقوالِ إلىٰ الأفعال. هذا الأسلوب ليس جديدًا، لكن غالبًا ما يكون فعَّالًا. وسرعان ما دفعه حسُّه الإداري

إلىٰ تطبيق نفس الأساليب التي كان يشنُّ ضدها حربه الكلامية. مثل هذه التغيُّرات شائعة.

سرعان ما انخرطت العناصر الأفضل في المعارضة العسكرية في العمل. وفي الوقت نفسه، عرضت علىٰ أكثرهم عندًا وصرامةً فرصة تنظيم بضع كتائب وفقًا لما يرونه صحيحًا، واعدًا إياهم بتوفير كافة المصادر والموارد الضرورية. لم تقبل هذا التحدي إلا مجموعة واحدة في منطقة الفولجا، ونظَّمت كتيبةً لم تكن مختلفةً عن الأخريات بأي شكلٍ كان. كان الجيش الأحمر يُحقِّق انتصاراتٍ علىٰ كل الجبهات، وفي نهاية المطاف ذابت المعارضة.

احتلَّت مدينة تساريتسين[15]، حيث التفَّ عمال الجيش حول فوروشيلوف، مكانةً خاصة للجيش الأحمر وللمعارضة العسكرية. هناك كانت المفارز الثورية تحت قيادة ضباطٍ سابقين غير مُفوَّضين من اللجان جاءوا من أوساطِ الفلاحين في القوقاز الشمالية. أضفىٰ التناقض العميق بين القوزاق والفلاحين في السهولِ الجنوبيةِ ضراوةً لا حدَّ لها في الحربِ الأهليةِ في تلك المنطقة، إذ توغَّلت الحربُ إلىٰ القرىٰ وأُبيدَت فيها عائلاتٌ كاملة. كانت هذه حربًا فلاحية تضرب بجذورها العميقة في تربتها المحلية، وفي ضراوة الموجيك. لقد

---

[15] تغيَّر اسم المدينة الواقعة جنوبي غرب روسيا أكثر من مرة؛ من تساريتسين (1589 - 1925)، إلى ستالينجراد (1925 - 1961)، إلى فولوجراد (من العام 1961 حتى الآن). (المترجم)

تجاوزت النضال الثوري في كل الأرجاءِ الأخرىٰ من البلاد. قدَّمت هذه الحرب الكثير من الرجال الأشداء، من اللا نظاميين، الذين برعوا في المناوشات المحلية، لكن كانوا دائمي الفشل في ما يتولون من مهامٍ ذات طبيعةٍ أوسع.

تمثِّل حياة فوروشيلوف سيرةً مهنيةً لعاملٍ ثوريٍ بحق، بقيادته للإضرابات، وعمله السري، ثم السجن، والمنفىٰ. لكن، كغيره من حُكَّام اليوم، لم يكن فوروشيلوف أكثر من ديمقراطي ثوري وطني جاء من بين العمال؛ ليس أكثر من ذلك، وتجلَّىٰ ذلك بأوضح صورةٍ ممكنة أثناء الحرب الإمبريالية الكبرىٰ، ولاحقًا في ثورة فبراير. في السير الرسمية المكتوبة عن فوروشيلوف، تبدو السنوات بين 1914 و1917 غير موجودة؛ خواء، كما هو الحال بالنسبةِ لمعظم القادة الحاليين. ويكمن السر وراء هذا الخواء في أن، خلال الحرب، كان معظم هؤلاء الرجال وطنيين، وعزفوا عن نشاطهم الثوري. في ثورة فبراير، كان فوروشيلوف، مثل ستالين، مؤيدًا لحكومة ميليوكوف وجوتشكوف من اليسار. كانوا حقًا ديمقراطيين ثوريين، لكن ليسوا أمميين بأي حال. وكقاعدةٍ في هذا الأمر، أصبح كل البلاشفة الذين كانوا وطنيين أثناء الحرب ديمقراطيين في ثورة فبراير، وأتباعًا لاشتراكية ستالين الوطنية في يومِنا هذا. وفوروشيلوف ليس استثناءً من ذلك.

ومع أن فوروشيلوف كان واحدًا من عمال لوجانسك، من الشريحة الأكثر تميّزًا فيهم، كان في عاداته وأذواقه يشبه المالك الصغير أكثر منه بروليتاريًا. بعد ثورة أكتوبر، صار مركزًا طبيعيًا لمعارضة الضباط غير المُفوَّضين من اللجان والمقاتلين غير النظاميين ضد التنظيم العسكري المركزي وما يتطلَّبه من معرفةٍ عسكرية ومنظورٍ أوسع. هذا هو أصل معارضة تساريتسين.

في الدوائر المتحولِقة حول فوروشيلوف، كان "الأخصائيون"، وخريجو الأكاديمية العسكرية، والأطقم العليا، وموسكو كذلك، يُذكرون بشيءٍ من الكراهية. وبما أن قيادات العناصر غير النظامية لم يكن لديهم أيةَ خبراتٍ أو معارفٍ عسكرية، فكان كلٌ منهم يلجأ إلىٰ أقرب "أخصائي" يمكن أن يصل إليه، وبطبيعة منزلته الأدنىٰ في المعرفةِ العسكرية يتشبَّث خلال ذلك بمنصبه بعنادٍ في مواجهة الأكثر علمًا وقدرةً. لم يكن موقف قيادات تساريتسين العسكريين من قيادة الجبهة الجنوبية يفرق كثيرًا عن موقفهم من الحرس الأبيض. لم يتعد تواصلهم مع موسكو كونه طلبًا مستمرًا للذخائر والسلاح. ونظرًا لمحدودية مواردنا، كان كل شيءٍ يخرج من المصانع يذهب مباشرةً إلىٰ الجيوش. لكن ما مِن جيشٍ قد استلَمَ كل هذا القدر من البنادق الذخائر بقدرِ ما فعل جيش تساريتسين. وحين تُرفض مطالبهم، تصيح تساريتسين بـ"خيانة أخصائيي موسكو". كان لهذا الجيش مندوبٌ خاصٌ في موسكو، بحّارٌ يُدعىٰ جيفوديور، تلَخَصَت وظيفته في ابتزاز

الإمدادات إليه. وحين أحكمنا الانضباط العسكري، اكتشفنا أن جيفوديور كان لصًا يسرق الأسلحة والذخائر. أعتقد أنه أُلقيَ القبض عليه لاحقًا وأُعدِم.

قضىٰ ستالين بضعة أشهر في تساريتسين، يبلوِّر مكيدته ضدي بمساعدة المعارضة المحلية الملتفَّة حول فوروشيلوف ومعاونيه المقرَّبين. حتىٰ في هذا الوقت المبكر، كان التآمر يحتل مكانةً بارزةً ضمن أنشطته. لكنه، مع ذلك، هيَّأ نفسه للانسحاب في أية لحظة.

كنت أتلقىٰ يوميًا من القيادة العليا، أو من قيادات الجبهات مثل هذه الشكاوىٰ من تساريتسين: تنفيذ الأوامر مستحيل، أو معرفة ما يجري هناك مستحيل، أو الرد علىٰ أي استفسار مستحيل، بينما ظلَّ لينين يراقب الصراع بانتباهٍ وحرصٍ بالغ. كان يعرف ستالين أفضل مني، ومن الواضح أنه شكَّ في أن ستالين هو بالفعل من يقف سرًا وراء عِناد تساريتسين. أصبح الوضع لا يُحتَمَل، فقرَّرت فرضَ النظامِ هناك. بعد صدامٍ جديدٍ بين القيادة العليا وتساريتسين، أرسلت في استدعاء ستالين، من خلال سفيردلوف الذي ذهب إلىٰ هناك في قطارٍ خاص ليعود ومعه ستالين. كان لينين مهمومًا بتقليص هذا الصراع إلىٰ حدِّه الأدنىٰ، وكان محقًا بالطبع في مسعاه. أما من جانبي، فكنت بالكاد لديّ فكرةٌ عمن هو ستالين. في 1917، مرَّ الرجل أمام عيني كظلٍ لا يُلحظ. وفي خضم النضال، نسيت أنه موجودٌ من الأصل. كنت مهتمًا بجيش تساريتسين لأنني بالأساسِ كنت بحاجةٍ إلىٰ جناحٍ أيسر يمكن

الاعتماد عليه في الجبهة الجنوبية، فعددت العدة إلىٰ تساريتسين وعزمت علىٰ تدبيرِ الأمرِ مهما كلَّف ذلك. وفي طريقي إلىٰ هناك التقيت سفيردلوف. سألني بحذر عمَّا أنتوي فعله، ثم اقترح أن أتحدَّث مع ستالين في ذلك. وشاءَ القدرُ أن يكون ستالين في نفس عربة القطار عائدًا مع سفيردلوف.

سألني ستالين: "هل ترغب حقًا في تسريحهم جميعًا؟ إنهم شبانٌ جيدون!". هكذا بتواضعٍ مُبالَغ فيه.

فأجبته: "هؤلاء الشبان الجيدون سيدمِّرون الثورة التي لن تنتظر نضوجهم من مراهقتهم هذه. كل ما أريده هو دمج تساريتسين في روسيا السوفييتية".

بعدها بساعاتٍ قليلة، التقيت فوروشيلوف. كان الطاقم هناك في حالةِ استنفار. وسرت إشاعةٌ بأن تروتسكي قادمٌ بمقشةٍ كبيرةٍ ليكنس بها المسئولين غير النظاميين ويحلُّ جنرالات القيصر محلَّهم. لابد أن أضيف هنا أن كل المسئولين غير النظاميين قد غيَّروا ألقابهم في عجالةٍ، لدىٰ وصولي إليهم، إلىٰ قادة كتائب وفرقٍ وفصائل. سألت فوروشيلوف: "كيف تتعامل مع الأوامر التي تأتي إليك من الجبهة ومن القيادة العليا؟"، ففتح قلبه لي وأجاب: "تعتقد تساريتسين أن من الضروري تنفيذ الأوامر فقط التي تعتبرها صائبة". كان ذلك كثيرًا جدًا. رددت عليه بأنه إن لم يتولَ تنفيذَ الأوامرِ والمهماتِ العسكرية تمامًا

وقطعًا كما تصل إليه، فسأرسله تحت الحراسة إلىٰ موسكو للمثولِ أمام المحكمة الثورية. لم أسرِّح أحدًا، واكتفيت بالتأكيد الرسمي علىٰ الامتثال للأوامر. أيّدني معظم شيوعيو تساريتسين بإخلاصٍ تام، وليس بدافعٍ من الخوف. زرت كافة الوحدات، وشجَّعت غير النظاميين، الذين كان من بينهم الكثير من الجنود المتميِّزين ممن افتقروا فقط إلىٰ قيادةٍ سليمة. وعُدت بذلك إلىٰ موسكو.

لم يكن لديّ في هذا الشأن أي شعورٍ بالتحيُّزِ الشخصي أو أي نيةٍ سيئة. وأعتقد أن بإمكاني حقًا أن أقول إنني، في كل المواقف السياسية، لم أولي الاعتبارات الشخصية أي دورٍ علىٰ الإطلاق. وعلاوة علىٰ ذلك، كانت جسامة المهام أكبر بكثيرٍ من أن تسمح لي بوضع مثل هذه الأمور الهامشية في الاعتبار. وبناءً عليه، كنت كثيرًا ما أدهس أصابع التحيُّزات الشخصية، والمفاخرات التافهة، والمحسوبيات الودية. أما ستالين، فقد اختار بعنايةٍ أولئك المدهوسة أصابعهم، وكان لديه الوقت والمصلحة الشخصية لفعلِ ذلك. ومنذ ذلك الوقت، صارت المجموعة الحاكمة في تساريتسين أحد أهم أسلحته. وبمجرد أن سقط لينين مريضًا، غيَّر ستالين بمساعدة حلفائه اسم تساريتسين إلىٰ ستالينجراد. لم تكن لدىٰ جماهير الشعب أدنىٰ فكرة عمًّا يعنيه هذا الاسم الجديد أو عمن يشير إليه. وإذا كان فوروشيلوف اليوم عضوًا في المكتب السياسي، فالسبب الوحيد في ذلك – ولا أرىٰ سببًا آخر في

الحقيقة - أنني في العام 1918 أجبرته علىٰ الإذعان للأوامر العسكرية بتهديده بإرساله إلىٰ موسكو تحت الحراسة للمحاكمة.

أشعر أن من المهم هنا إلقاء الضوء علىٰ عملنا العسكري، أو بالأحرىٰ الصراع المرتبط بهذا العمل العسكري داخل الحزب، بقليلٍ من المقتطفات من المراسلات الحزبية خلال تلك الفترة، تلك المقتطفات غير المنشورة حتىٰ الآن في أي مكان. في 4 أكتوبر 1918، قلت للينين وسفيردلوف في رسالةٍ مباشرةٍ من تامبوف:

"أصرُّ علىٰ استدعاء ستالين فورًا. جبهة تساريتسين تسلك طريقًا سيئًا رغم وفرة القوات. إنني أدَع فوروشيلوف قائدًا للجيش العاشر (جيش تساريتسين) فقط في حالة واحدة ألا وهي الامتثال لقائد الجبهة الجنوبية. حتىٰ الآن لم يُرسِل الرجال أي تقارير عن العمليات إلىٰ كوزلوف. أمرتهم بتولي إرسال تقارير حول العمليات والاستطلاع مرتين يوميًا. إن لم يحدث ذلك ابتداءً من يوم غد، سأرسِل فوروشيلوف إلىٰ المحاكمة وأعلن ذلك قرارًا في الجيش. لا يتبقىٰ إلا وقت قليل للهجوم قبل ألا نتمكَّن من عبور الطرق سواء بالأحصنة أو سيرًا علىٰ الأقدام. ليس لدينا وقتٌ للمفاوضات الديبلوماسية".

استُدعيَ ستالين بالفعل. أدرك لينين جيدًا أنني أتصرَّف كذلك وفق اعتباراتٍ عسكرية. وفي الوقت نفسه كان منزعجًا بشدة من هذه الخلافات، وحاوَلَ تهدئة علاقاتنا. وفي 23 أكتوبر، كتب لي في بالاشوف:

"اليوم، عاد ستالين بأنباءٍ عن ثلاثة انتصاراتٍ كبيرة حقَّقَتها قواتنا في تساريتسين (كانت لهذه الانتصارات أهمية عرضية فقط - المؤلف). أقنَعَ ستالين فوروشيلوف ومينن، اللذين يعتبرهما عاملين ذوي أهميةٍ قصوىٰ ولا يمكن الاستعاضة عنهما، بعدمِ الرحيل، وبالامتثالِ إلىٰ الأوامر القادمة من المركز كاملةً. السبب الوحيد وراء استيائهما، وفقًا له، هو التأخُّر الشديد، أو حتىٰ الإخفاق، في إرسال ما يلزم من القذائف والأعيرة النارية، التي بسبب نقصانها قد يتعرَّض هذا الجيش ذو المائتي ألف جندي للهلاك (تفتَّتَ هذا الجيش من غير النظاميين تمامًا بضربةٍ واحدة بعد ذلك بفترةٍ قصيرة - المؤلف). ستالين مهتمٌ بالعمل في الجبهة الجنوبية.

إنه يأمل أن يتمكَّن من إثبات صحة وجهة نظره في العمل الفعلي.

إنني إذ أُعلِمك، يا ليف دافيدوفيتش، بكل ما قاله ستالين، أطلب منك أن تضع ذلك في الاعتبار وأن ترد، أولًا إذا رغبت

في أن تتحدَّث معه شخصيًا في هذا الأمر، فهو علىٰ استعدادٍ لزيارتك، وثانيًا إذا كنت تعتقد أن من الممكن التخلُّص من الخلاف القائم بشروطٍ ملموسة وأن تدبِّر الأمور من أجلِ عملٍ مشترك، فهو يرغب في ذلك بشدة. أما بالنسبةِ لي، فأعتقد أن من الضروري أن تبذل كل جهدٍ ممكن لتدبير العمل مع ستالين.

لينين".

رددت بأنني أتفق تمامًا مع ذلك، وعُيِّنَ ستالين عضوًا في المجلس العسكري الثوري للجبهة الجنوبية. لكن مع الأسف لم تسفر عن هذه التسوية أية نتائج؛ لم تتحسَّن الأحوال في تساريتسين قيد أنملة. وفي 14 ديسمبر، أرسلت للينين برقيةً من كورسك قائلًا فيها: "من المستحيل أن أترك فوروشيلوف في منصبه بعدما أفشَلَ كافة المحاولات للتوصُّلِ إلىٰ تفاهم. من الضروري إرسال مجلسٍ عسكريٍ ثوريٍ جديد، بقائدٍ جديدٍ، إلىٰ تساريتسين، وأن يُنقل فوروشيلوف إلىٰ أوكرانيا".

قوبِلَ هذا الاقتراح بالموافقة دون اعتراض. لكن الأحوال في أوكرانيا لم تتحسَّن هي الأخرىٰ. ظلَّت الأوضاع كما هي، إذ جعلت الفوضىٰ التي سادت هناك العمل العسكري المنظم صعبًا للغاية،

والآن جعلت معارضة فوروشيلوف، وستالين من خلفه، العمل مستحيلًا.

وفي 10 يناير 1919، بعثت بالرسالةِ التالية إلىٰ سفيردلوف، رئيس اللجنة التنفيذية المركزية، من محطة جريازي:

> "لابد أن أوضِّح هنا قطعًا أن سياسة تساريتسين، التي أودت بجيش تساريتسين إلىٰ التفكُّك، لا يمكن قبولها في أوكرانيا... إن المسار الذي يتبعه ستالين وفوروشيلوف ومساعديهما يعني انهيار المؤسسة بأكملها.
>
> تروتسكي".

كان لينين وسفيردلوف، اللذين راقبا أحوال تساريتسين من بعيد، لا يزالان يحاولان التوصُّلَ إلىٰ تسويةٍ وتفاهم. مع الأسف، ليس بين يديَّ الآن البرقية التي بعثاها لي، لكنني في 11 يناير، رددت قائلًا:

> "التسوية ضرورية بالطبع، لكن ليس تسويةً فاسدة. في الحقيقة، يتجمَّع رجال تساريتسين الآن في خاركوف... إنني أعتبر رعاية ستالين لسياسة تساريتسين جرحًا متقيِّحًا أخطر وأسوأ من خيانة أي أخصائي عسكري.
>
> تروتسكي".

"التسوية ضرورية، لكن ليس تسويةً فاسدة". بعد أربعة أعوام، عاد لينين إلىٰ هذه الجملة، هكذا حرفيًا تقريبًا، فيما يتعلَّق بنفس هذا

الستالين. كان ذلك قبيل المؤتمر الثاني عشر للحزب. كان لينين على وشك إلحاق هزيمةٍ نكراء بمجموعةِ ستالين، وشنَّ هجومه على المسارِ المُتبع في القضية القومية. وحين اقترحت تسويةً، ردَّ لينين: "ستالين سيصنع تسويةً فاسدة ثم يخدعنا".

وفي خطابٍ للجنة المركزية في مارس 1919، رددت على زينوفيف، الذي كان يتغزَّل في المعارضة العسكرية:

"ليس بوسعي التفتيش في النوايا النفسية لأُحدِّد إلى أي مجموعةٍ في المعارضةِ العسكرية ينتمي فوروشيلوف، لكنني سأقول إن الأمرَ الوحيدَ الذي بإمكاني لوم نفسي عليه، فيما يتعلَّق بأمره، هو محاولاتي المُطوَّلة، التي امتدت نحو شهرين أو ثلاثة، لمواصلة العمل بوسائلِ التفاوض والإقناع والتأثير الشخصي، بينما تطلَّبَ الأمرُ في المقابل قرارًا إداريًا حازمًا، إذ لم تكن مشكلة الجيش العاشر، في المقامِ الأولِ، تكمن في تغيير توجُّهات فوروشيلوف، بل تأمين انتصارٍ عسكريٍ في أقصرِ وقتٍ ممكن".

وفي 30 مايو، وصلت من خاركوف إلى لينين مطالب مُلِحَّة بتشكيلِ مجموعةٍ أوكرانيةٍ من الجيش تحت قيادة فوروشيلوف، فتواصلَ معي لينين ببرقيةٍ مباشرةٍ في محطة كانتيميروفكا. ورددت عليه في 1 يونيو:

"هذه المطالب المُلِحَّة من بعض الأوكرانيين بدمجِ الجيوش الثاني والثامن والثالث عشر سويًا تحت قيادة فوروشيلوف لا يمكن الدفاع عنها بأي شكلٍ كان. ما نحتاجه ليس توحيدًا عملياتيًا في دونيتسك، بل توحيدًا عامًا وشاملًا ضد دينيكين. فكرة ديكتاتورية عسكرية وغذائية في يدِ فوروشيلوف (في أوكرانيا) إنما هي نتيجةٌ لانفصالية دونيتسك عن كييف (أي عن الحكومة الأوكرانية) وعن الجبهة الجنوبية. ليس لديّ أدنىٰ شكٍ في أن تطبيق هذه الخطة سيزايد الفوضىٰ ويدمِّر التوجيه العملياتي هناك. رجاءً اطلب أن يتولّىٰ فوروشيلوف وميجلوك المهام الحقيقية التي كُلِّفوا بها.

تروتسكي".

وفي 1 يونيو، أرسل لينين إلىٰ فوروشيلوف برقيةً قال فيها:

"من المُلزِم أن يتوقَّف كل هذا التحريض علىٰ الفور، وأن يجري العمل وفق قاعدةٍ عسكرية، ليس هناك وقتٌ نضيُّعه في كل هذه المشاريع الدقيقة المتعلِّقة بمجموعاتٍ منفصلة ومحاولاتٍ شبيهة لاستعادة الجبهة الأوكرانية.

لينين".

ونظرًا لإدراكه صعوبة تنظيم انفصاليين غير منضبطين، علىٰ خلفية خبرته في ذلك، دعا لينين لاجتماعٍ للمكتب السياسي في نفسِ اليوم،

وخَرَجَ من الاجتماع باعتمادِ هذا القرار الذي أُرسِلَ علىٰ الفور إلىٰ فوروشيلوف وغيره من المعنيين بالأمر:

"اجتمع المكتب السياسي للجنة المركزية في 1 يونيو، ووافق بالإجماعِ علىٰ رفض تروتسكي القاطع للخطة الأوكرانية بإنشاءِ وحدةٍ مستقلة في دونيستك. نطالب بأن يتولّىٰ فوروشيلوف وميجلوك عملهم الفوري... أو سيستدعيك تروتسكي يوم بعد غدٍ إلىٰ إزيوم ليتخذ قراراته علىٰ نحوٍ أكثر تفصيلًا... بناءً علىٰ تعليماتِ المكتب السياسي للجنة المركزية.

لينين".

وفي اليومِ التالي، ناقشت اللجنة المركزية مسألة القائد العسكري فوروشيلوف، الذي استولىٰ بصورةٍ تعسفية علىٰ الجزء الأعظم من غنائم الإمدادات العسكرية للعدو ليستخدمها جيشه. وجاء قرار اللجنة المركزية كالتالي:

"يُكلَّف الرفيق راكوفسكي بإرسالِ برقيةٍ للرفيق تروتسكي في إزيوم طالبًا منه فيها اتخاذ أكثر التدابير حسمًا لوضعِ هذه الإمدادات تحت تصرُّفِ المجلس العسكري الثوري للجمهورية".

وفي نفسِ اليومِ، أخبرني لينين ببرقيةٍ مباشرةٍ أن:

"ديبينكو وفوروشيلوف يتصرَّفان كما يشاءان في الممتلكات العسكرية. فوضىٰ تامة. قاعدة دونيتسك لا تُقدِّم أية مساعدةٍ جادة.

لينين".

بعبارةٍ أخرىٰ؛ ما صار يجري في أوكرانيا كان تكرارًا للممارسات التي حاربتها من قبلِ في تساريتسين.

لا عجب في أن عملي العسكري قد أكسبني الكثير من الأعداء. لم أكن أنظر إلىٰ الثانويات والهوامش؛ كنت أُطمئِن أولئك الذين يتدخَّلون في العمل العسكري بنجاح، أو في عجالةٍ أدهس أصابع غير المنتبهين إلىٰ مهامهم، فيما كنت منشغلًا للغاية حتىٰ كي أعتذر. بعض الناس لا يزالون يتذكَّرون مثل هذه الأمور. وَجَدَ المستاءون أو الذين جُرِحَت مشاعرهم ضالتهم في ستالين أو زينوفيف، وهذين كانا يُقيِّحان هٰذه الجروح. كان كل خلافٍ علىٰ الجبهة يدفع بأولئك الساخطين إلىٰ مزيدٍ من الضغطِ علىٰ لينين. وخلف الكواليس، كان كل ذلك مُدبَّرًا من قِبَلِ ستالين. أُرسِلَت مُذكِّرةٌ تنتقد سياستنا العسكرية، ورعايتي لـ"الأخصائيين"، ومعاملتي القاسية للشيوعيين، إلخ. كان القادة الذين أُجبِروا علىٰ الاستقالة، أو الذين أحبطهم سير العمل يرسلون تقريرًا بعد الآخر ليشيروا إلىٰ هشاشة إستراتيجيتنا، وتخريب القيادة العليا، وأمورٍ كثيرةٍ أخرىٰ.

ولقد كان لينين منغمسًا بالكامل في القضايا العامة للتوجيه السياسي، إلىٰ درجةٍ لم تسمح له بالسفر في رحلاتٍ إلىٰ الجبهات، أو التدخُّلِ في العمل اليومي لإدارة الحرب، بينما قضيت أنا معظم الوقت علىٰ الجبهات، ما فَتَحَ بدورِه المجالَ لأنشطةِ الهامسين المتآمرين. لم تكن كل تلك الانتقادات المُلحَّة تزعج لينين إلا عارضًا. وبحلول الوقت الذي أزور فيه موسكو، كان لينين يراكم الكثير من التساؤلاتِ والشكوك.

لكن، بعدما نتجاذب أطرافَ الحديثِ لنصف ساعةٍ فقط، نستعيد مرةً أخرىٰ تفاهمنا المُتبادَل وتضامننا الكامل. وأثناء الهزائم التي تلقَّيناها في الشرق، حين كان كولتشاك يزحف متقدِّمًا نحو الفولجا، وفي واحدٍ من اجتماعات مجلس مُفوَّضي الشعب جئت إليه مباشرةً من القطار[16]، كتب لي لينين ملاحظة صغيرة علىٰ قصاصةٍ من ورق يقول فيها: "ماذا لو سرَّحنا كل الأخصائيين لدينا وقمنا بتعيين لاشيفيتش قائدًا عامًا؟". كان لاشيفيتش بلشفيًا قديمًا ترقَّىٰ في الجيش إلىٰ رتبة جاويش في الحرب "الألمانية". كتبت علىٰ نفس قصاصة الورق: "لهو أطفال". نَظَرَ لينين لي بمكرٍ من تحتِ حاجبيه الكثيفين، بتكشيرٍ ثاقب التعبير ولو يود أن يقول: "أنت قاسٍ جدًا معي". لكنه، في قرارةِ نفسه،

---

[16] كان ذلك في بداية مارس 1919، أي عشية المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي السوفيتي. (المترجم)

كان حقًا يحب الإجابات القاطعة التي لا تترك مجالًا للشك. التقينا بعد الاجتماع، وسألني لينين عن الكثيرِ من الأمور المُتعلِّقةِ بالجبهة.

قلت: "أنت تسألني عمَّا إذا كان من الأفضل أن نطرد كافة الضباط القدامىٰ؟

لكن هل تعلم كم منهم لدينا في الجيش الآن؟" [17].

فردَّ لينين: "لا".

فسألته: "ولا حتىٰ بالتقريب؟".

فردَّ: "لا أعلم".

فأجبته: "ليس أقل من ثلاثين ألفًا".

---

[17] لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تُطرَح فيها هذه القضية، ففي أغسطس 1918، طلَبَ لينين رأي تروتسكي في مُقترحٍ قدَّمه لارين باستبدال كل ضباط القيادة العامة بشيوعيين. فردَّ تروتسكي سلبًا كما يلي:

> "الكثيرون منهم (الضباط القيصريون سابقًا) يرتكبون خيانات. لكن في السكك الحديدية، أيضًا، هناك حالاتٌ من التخريب تتعلَّق بافتعالِ قلاقل بشأن القطارات الحربية. لكن ما مِن أحدٍ اقتَرَحَ استبدال مهندسي السكك الحديدية بشيوعيين. إنني أعتبر مُقتَرَح لارين لا معنى له... أولئك الذين يتذمَّرون من استخدامِ هؤلاء الضباط إما مُصابون بالذعر، أو بعيدون كل البُعد عن عمل الجهاز العسكري، أو عناصر حزبية عسكرية أسوأ من أي مخرِّب – أولئك العاجزون عن ملاحظة أي شيء... أو يقضون وقتهم في اللاشيء، وحين تؤولُ بهم الأمورُ إلى الفشل، يلقون باللائمةِ على ضباط هيئة الأركان".

(مذكور في:
Tony Cliff - Lenin: Revolution Besieged 1917-1923, Bookmarks 1987 - London (المترجم).

فاندهش: "ماذا؟!".

فكرَّرت: "ليس أقل من ثلاثين ألفًا. مقابل كل خائن، هناك مائة مَمَّن يُعتمَد عليهم. ومقابل كل فار، هناك اثنان أو ثلاث يُقتَلون. كيف يمكننا استبدالهم جميعًا؟".

بعد أيامٍ قليلة، ألقىٰ لينين خطبةً حول مشكلاتِ بناء المجتمع الاشتراكي. وهذا ما قاله:

"حين أخبرني الرفيق تروتسكي مؤخرًا بأن في إدارة الحرب ضباطًا تُقدَّر أعدادهم بعشراتِ الآلاف، تبلوَرَ لديّ مفهومٌ متماسك حول سر الاستخدام السليم لأعدائنا... حول كيفية بناء الشيوعية علىٰ الأحجار التي جمعتها الرأسمالية لتستخدمها ضدنا".

وفي مؤتمر الحزب الذي عُقِدَ في الوقت نفسه تقريبًا، قدَّمَ لينين، في غيابي - كنت علىٰ الجبهة - دفاعًا ملتهبًا عن السياسة العسكرية التي طبقتها، ضد انتقاداتِ المعارضة. لهذا السبب لم يُنشَر محضر جلسة المناقشة العسكرية في المؤتمر الثامن للحزب حتىٰ يومنا هذا.

كان مينجينسكي قد زارني ذات مرةٍ علىٰ الجبهة. كنت أعرفه منذ فترةٍ طويلة. في سنواتِ الردةِ الرجعية، كان ينتمي إلىٰ مجموعة اليسار المتطرف، أو من يُطلق عليهم الفبريوديون، نسبةً إلىٰ صحيفتهم

فبريود – بوجدانوف ولوناتشارسكي وآخرون[18]. مينجينسكي نفسه كان أكثر ميلًا إلىٰ النقابوية الفرنسية. نظَّمَ الفبريوديون مدرسةً ماركسية في بولونيا لعشرة أو خمسة عشر عاملًا جاءوا متخفيين بشكلٍ غير شرعي من روسيا. كان ذلك في العام 1910. قدَّمت لهم دورةً تدريبيةً في الصحافة استمرت حوالي أسبوعين، وكذلك عقدت بعض الحلقات النقاشية حول قضايا التكتيك الحزبي. هناك قابلت مينجينسكي لأول مرةٍ، وكان قادمًا من باريس. أما الانطباع الذي تولَّد عنه لديّ، فأفضل ما يوصف به أنه لم يكن هناك أيُ انطباعٍ علىٰ الإطلاق. كان أشبه بظلِ رجلٍ لا يُدرك وجوده، أو كرسمٍ بائسٍ للوحةٍ غير منتهية. هناك من هم مثله. وبين الحين والآخر، تعتلي وجهه ابتسامةٌ مُتملِّقةٌ، أو تتحرَّك عينيه خفيةً، لتخون رغبته في إبرازِ أهميته. لا أعلم ماذا كان موقفه في أيامِ أكتوبر، أو ما إذا كان لديه ثمة موقف علىٰ الإطلاق. لكنه، بعد الاستيلاء علىٰ السلطة، أُرسِلَ في صخب الأحداث إلىٰ وزارة المالية. لم يُظهِر أي نشاطٍ ملحوظٍ هناك، بل كل ما أبرزه هو عدم كفاءته.

---

[18] والأديب الروسي الشهير مكسيم جوركي أيضًا. حملت المجموعة في البداية اسم "البلاشفة الحقيقيين"، وشكَّلَت في العام 1909 تيارًا مستقلًا داخل حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي الواسع. ويعود اسم "فبريود" المشار إليه إلى الصحيفة التي أصدرها لينين مع بوجدانوف عام 1904. (المترجم)

تبناه دزرجينسكي لاحقًا. كان دزرجينسكي رجلًا ذا إرادةٍ هائلة، وشغفًا فائقًا، وأخلاقًا رفيعة. كان رمزًا مهيمنًا في التشيكا[19]. لم يكن أحدٌ يلحظ مينجينسكي الذي ينكفئ علىٰ أوراقه بعيدًا عن الأنظار، إلىٰ أن اختلف دزرجينسكي، قبيل وفاته، مع نائبه أوسشيشت، ليقترح تعيين مينجينسكي في هذا المنصب الشاغر، بعدما لم يجد شخصًا آخر غيره. قوبِلَ الاقتراح بدهشةٍ عامة، لكن دزرجينسكي قال "لكن من إذن؟"، محاولًا تبرير اقتراحه. أيَّد ستالين مينجينسكي، وكان بشكلٍ عام يهب دعمه لأولئك الذين يتواجدون سياسيًا فقط بفضل جهاز الحكومة. لذا صار مينجينسكي الظل الحقيقي لستالين في جهاز الشرطة السرية بعد وفاة دزرجينسكي، فلم يصبح فقط رئيسًا لجهاز الشرطة السرية، بل عضوًا في اللجنة المركزية أيضًا.

قبل عشرة أعوام، حين كان مينجينسكي لا يزال يبحث لنفسه عن فلكٍ مختلف، جاء إليّ في القطار بتقريرٍ عن الإدارات الخاصة في الجيش. وبعدما أنهىٰ زيارته الرسمية، بدأ يتأتئ ويراوغ في الحديث، بابتسامته المتملِّقة تلك التي تصيب المرء بالقلقِ والارتباكِ في آنٍ واحد.

---

[19] اللجنة الاستثنائية (Chrezvychaynaya Komissia تُعرَّف باختصار: Che-Ka)، وهي جهازٌ كان قائمًا بتنفيذ مهامٍ شرطية وقضائية مرتبطة بالدفاعِ عن الثورة. أُحيلَت وظائف الجهاز، بعد إعادة تنظيمه، إلى جهاز الشرطة السرية.

واختتم كلامه معي بسؤالي عمّا إذا كنت أدرك المكيدة المعقّدة للغاية التي يحيكها ستالين ضدي.

قلت بدهشةٍ بالغة: "ماذا؟"، فلم يخطر في بالي على الإطلاق مثل هذه الأفكار أو المخاوف أو أي شيءٍ من هذا القبيل.

فقال: "نعم، إنه يلمح للينين ولآخرين أنك تحشد حولك رجالًا معادين بصورةٍ خاصة للينين".

فرددت: "لابد أنك جُنِنت يا مينجينسكي. من فضلك استفق. أما من جانبي، فلا أريد التحدُّث عن ذلك".

غادرني مينجينسكي ساعلًا، وكتفاه محنيان خجلًا. أعتقد أنه بدأ يبحث عن مجالاتٍ أخرى بعد ذاك اليوم.

بعد عملٍ دام لمدةٍ ساعة أو ما إلى ذلك، بدأت أشعر وكأن بي خطبًا ما. هذا الرجل، بكلامه الغامض، أزعجني كما لو أنني ابتلعت للتو قطعةً من الزجاجِ في طعامي. بدأت أستعيد بعض الأحداث في ذاكرتي؛ أربط بينها، وهناك جَسَدَ أمام عيني ستالين في صورةٍ جديدة. لاحقًا بعد وقتٍ طويل، قال لي كريستنسكي عن ستالين: "إنه رجلٌ سيء ذو عينٍ صفراء".

كان هذا "الاصفرار" الأخلاقي هو ما وَمَضَ في ذهني لأولِ مرةٍ بعد حديثِ مينجينسكي معي. حين عدت إلى موسكو لاحقًا في زيارةٍ قصيرة، ذهبت كالمعتاد للينين أولًا. تحدَّثنا حول الأوضاع في الجبهة.

كان لينين يحب التفاصيل الملموسة في الحياة؛ القليل من الحقائق والملاحظات العارضة ثم مباشرةً إلىٰ لُبِّ الأمور.

لم يكن يحتمل الاقترابِ من الأمور في الظل. كان يتجاوز المراحل الوسيطة، طارحًا أسئلته الخاصة والمُحدَّدَة، فأجيبه، ولطالما أُعجَبت بهذه المهارة التي يتوغَّل بها إلىٰ قلبِ الحقائق. ضحكنا. كان لينين عادةً في مزاجٍ طروب. وهذا لا يعني أنني شخصٌ كئيب. في نهاية حديثنا، أخبرته عن زيارة مينجينسكي لي في الجبهة الجنوبية، فسألته: "هل حقًا من الممكن أن تكون ثمة حقيقةٌ في هذا الكلام؟". لاحظت استثارته علىٰ الفور، إذ اندفع الدم إلىٰ وجهه، وردَّ: "كل ذلك هراء"، وظلَّ يردِّد هذه العبارة بطريقةٍ ليس مقنعة تمام الإقناع رغم ذلك.

قلت: "أنا مهتمٌ بمعرفةِ أمرٍ واحد. هل تسعدك، ولو حتىٰ للحظةٍ واحدة، مثل هذه الفكرة البشعة أنني أنتقي رجالًا لمعارضتك؟".

فقال: "هراء"، لكن هذه المرة بصرامةٍ طمأنتني علىٰ الفور.

بدا أن السحابة الصغيرة التي تخلَّلَت المسافة بيننا قد ولَّت بعيدًا، وافترقنا بصورةٍ ودية علىٰ غير العادة. لكنني أدركت أن مينجينسكي لا يفهم ما يقول، وأن إذا كان لينين أنكر ذلك دون أن يخبرني بكل شيء، فلم يكن ذلك إلا لأنه يريد أن يتجنَّب صراعًا؛ شجارًا شخصيًا.

وفي هذا الجانب أتفق معه تمامًا.

لكن كان من الواضح أن ستالين يبذر المتاعب، ولم أدرك مدىٰ منهجية أفعاله إلا بعد ذلك بفترةٍ طويلة، إذ لم يكن ستالين يفعل أي شيءٍ جاد. قال لي بوخارين ذات مرة: "السمة الأولىٰ لستالين هي الكسل، أما الثانية فهي الغيرة العنيدة من أي شخصٍ يعرف أو يفعل ما هو أفضل منه، حتىٰ أنه حاول سحب البساط من تحت قدميّ إيليتش نفسه".

الفصل السابع والثلاثون

خلافات حول إستراتيجية الحرب

لن أسرد في هذه الصفحات تاريخ الجيش الأحمر ومعاركه، فكلا الموضوعَين، المرتبطَين بشكلٍ لا ينفصم بتاريخ الثورة نفسها، واللذين يتجاوزا حدود السيرة الذاتية، ربما يستلزمان كتابًا منفصلًا ومستقلًا. لكن لا يمكنني هنا أن أمرّ مرورَ الكرام علىٰ الخلافات السياسية الإستراتيجية التي نَشَبَت أثناء جريان الحرب الأهلية، فقد توقَّفَ مصير الثورة بالأساس علىٰ مسار العمليات العسكرية. وكلما مرَّ الوقت، كانت اللجنة المركزية للحزب تغرق شيئًا فشيئًا في مشكلات الحرب وقضاياها الإستراتيجية. وكانت المفارقة أن المناصب القيادية الرئيسية كان يحتلها الخبراء العسكريون من المدرسة القديمة، أولئك الذين يفتقرون إلىٰ فهم الظروف السياسية والاجتماعية، بينما افتقر الساسةِ الثوريون المتمرِّسون، أولئك الذين يؤلِّفون سويًا اللجنة المركزية للحزب، إلىٰ المعرفة العسكرية. أما المفاهيم والتصورات الإستراتيجية فكانت نتيجة العمل الجماعي، الذي يفتح الباب أمام الخلافات والصراعات كما هو الحال دائمًا في مثل هذه الحالات.

كانت هناك أربع حالات انقسمت فيهم اللجنة المركزية للحزب حول خلافاتٍ إستراتيجية؛ أي كانت هناك خلافاتٌ بنفس عددِ الجبهات الأساسية في الحرب. سأتناول هذه الحالات باختصارٍ شديد، لأقدِّم للقارئ منبع المشكلات التي فرضت نفسها علىٰ القيادة العسكرية، والتي، بمرورِ الوقتِ، مهَّدت الطريق لاحقًا لإطلاق الافتراءات عليّ.

اندلع الجدال الأول بين أعضاء اللجنة المركزية حول الوضع في الجبهة الشرقية في صيف 1919. كان القائد الأعلىٰ للجبهة الشرقية في ذلك الوقت هو فاتزيتيس، ذلك الذي تحدَّثت عنه في الفصل الخاص بسفيياجسك. كنت قد بذلت جهدًا كبيرًا لأجعل فاتزيتيس واثقًا من نفسه؛ من حقوقه وفي سلطته. من دون ذلك، كانت القيادة مستحيلة تمامًا. كانت وجهة نظر فاتزيتيس هي أننا، بعد الانتصارات الكبيرة علىٰ كولتشاك، لابد أن نمتنع عن التقدُّم شرقًا إلىٰ الجانب الآخر من الأورال. أراد أن تنتهي حدود الجبهة الشرقية عند الجبال أثناء الشتاء. وكان ذلك ليُمكِّننا من سحب بعض فصائل الجيش من الشرق، لتحويل دفتها إلىٰ الجنوب، حيث تزداد هجمات دينيكين خطورةً. أيَّدت هذه الخطة، لكنها قوبلت بمعارضةٍ عنيدة من جانب قائد الجبهة الشرقية والعقيد بهيئة أركان الجيش القيصري، كامينيف، بالإضافة إلىٰ اثنين من أعضاء المجلس العسكري، كلٌ منهما بلشفي: سميلجا ولاشيفيتش. أصرَّ هؤلاء علىٰ أن كولتشاك قد مُنيَ بهزيمةٍ

ساحقة، وأن عددًا قليلًا من الرجال يكفي لاقتفاءِ أثره، وأن الأمر الأهم هنا هو أن نمنع عنه قبلة الحياة التي قد يتعافىٰ بها خلال الشتاء، فنضطر إلىٰ بدء الحملة الشرقية من جديد في الربيع. عُلِّقَ الأمر كله علىٰ تقديرٍ دقيقٍ لحالة جيش كولتشاك وعتاده. حتىٰ أنا كنت، في ذلك الوقت، أعتبر الجبهة الجنوبية أهم وأخطر من الشرقية. وقد أثبت هذا التصوُّر صحته التامة في وقتٍ لاحق.

أثبتت قيادة الجبهة الشرقية أيضًا صحة تقييمها لجيش كولتشاك. وأصدرت اللجنة المركزية قرارًا ضد القيادة العليا للجيش، وبالتالي ضدي أنا أيضًا، إذ كنت أؤيد فاتزيتيس علىٰ خلفية غياب الكثير من العوامل في هذه المعادلة الإستراتيجية، لكن الأمر الأساسي والأهم كان الحاجة إلىٰ الحفاظ علىٰ السلطة الجديدة للقائد العام. أثبت قرار اللجنة المركزية صحته هو الآخر. أطلقت الجيوش الشرقية بعض القوات إلىٰ الجبهة الجنوبية، وفي الوقت نفسه استمرت في تقدُّمها في أعقاب كولتشاك إلىٰ قلب سيبيريا. لكن تسبَّبَ ذلك في تغييرٍ في القيادة العليا، فتقرَّرَ تسريح فاتزيتيس واستبداله بكامينيف.

هذا الخلاف، في حدِّ ذاته، كان ذا طابعٍ عملي، وبالطبع كان له أثرٌ علىٰ علاقتي بلينين. لكن، علىٰ خلفية هذه الخلافات العارضة، كانت المكائد تنسج شباكها. في 4 يونيو 1919، كتب ستالين من الجنوب إلىٰ لينين، محاولًا إخافته بمخاطر توجهاتي العسكرية: "السؤال الآن هو ما إذا كان لدىٰ اللجنة المركزية ما يكفي من الشجاعة لاستخلاص

الاستنتاجات الصحيحة. هل لدى اللجنة المركزية ما يكفي من الصرامة؟". لعل معنى هذا الخطاب واضحًا بما فيه الكفاية. بدا لي من نغمتهم في الحديث أن هذه القضية قد نوقشت أكثر من مرةٍ، وقوبلت بمعارضة لينين في كل مرةٍ. لم أكن أعلم أيًا من ذلك حينها، لكنني شعرت بالمكيدة التي تُحاك على قدمٍ وساق. لم يكن لديّ وقتٌ ولا رغبةٌ في التدخُّل في الأمر، فقدَّمت استقالتي إلى اللجنة المركزية لإنهاء الأمرِ كله. وفي 5 يوليو، ردَّت اللجنة المركزية على طلبي كالتالي:

"بعد وضع ما تقدَّم به الرفيق تروتسكي في الاعتبار والنقاش فيه تفصيلًا، يعلن المكتب التنظيمي والسياسي للجنة المركزية، بالإجماع، عدم قبول استقالة الرفيق تروتسكي أو الامتثال لطلبه. إن المكتب التنظيمي والسياسي للجنة المركزية سيفعل كل ما في وسعه ليجعل العمل في الجبهة الجنوبية، الذي صار أصعب وأخطر وأهم في الوقت الراهن، والذي اختاره الرفيق تروتسكي بنفسه، أكثر ملائمةً له ولمصلحة الجمهورية.

ومن موجب سلطته كمُفوَّضٍ للحرب ورئيسٍ للمجلس العسكري الثوري، فإن الرفيق تروتسكي قادرٌ على العمل كعضوٍ في المجلس العسكري الثوري للجبهة الجنوبية بالتعاون مع قائد الجبهة، الذي اقترحه هو بنفسه والذي عيَّنته

اللجنة المركزية وفقًا لذلك. ويعطي المكتب التنظيمي والسياسي للجنة المركزية الرفيق تروتسكي كامل السلطة في استخدام كافة الوسائل لتأمين الخطوات التي يراها ضرورية لتصحيح التوجهات من الزاوية العسكرية، والتعجيل من مؤتمر الحزب إذا رغب في ذلك.

لينين - كامينيف - كريستنسكي - كالينين - سيريبرياكوف - ستالين - ستاسوفا".

يحمل هذا القرار اسم ستالين ضمن أصحاب التوقيعات، لكن ستالين في الوقت نفسه كان يدير مكيدته من وراء الكواليس، وفي اتهامه للينين بالافتقار إلىٰ الشجاعة والصرامة، كان هو الذي افتقر إلىٰ الشجاعة اللازمة لمعارضة اللجنة المركزية. وكما أشرت سابقًا، فقد احتلَّت الجبهة الجنوبية المكانةَ الأبرز في الحرب الأهلية. تألفت قوات العدو من قسمين مُستقلَّين: القوزاق، بالأخص في مقاطعة كوبان، ومتطوِّعي الجيش الأبيض المُجنَّدين من كافة أرجاء البلاد. وبينما كان القوزاق شديدي الحرص علىٰ الدفاع عن حدودهم من هجوم العمال والفلاحين عليهم، كان الجيش الأبيض يستهدف احتلال موسكو. اندمجت مصالح هذين القسمين، طالما أن الجيش الأبيض قد شكَّلَ جبهةً مشتركة مع قوزاق كوبان شمالي القوقاز. لكن دينيكين وجد من الصعب، بل في الحقيقة من المستحيل، أن يجذب القوزاق خارج كوبان. وفي الوقت نفسه، تعاملت القيادة العليا مع أزمة

الجبهة الجنوبية علىٰ نحوٍ إستراتيجي مُجرَّد، متجاهلةً القاعدة الاجتماعية للعدو. كانت مقاطعة كوبان تمثِّل المنبع الرئيسي للمُتطوِّعين، وبالتالي قرَّرَت القيادة العليا توجيه ضربةٍ قاضية لهذا المنبع من الفولجا. كان لسان حال القيادة العليا يقول: لندع دينيكين يهرع محاولًا الوصول بجيوشه إلىٰ موسكو، بينما نحن نجتاح كوبان من خلف ظهره، ليُعلَّق في الهواء ومن ثم نقضي عليه. كانت هذه هي الخطة الإستراتيجية العامة، لكنها أثبتت، في تطبيقها العملي علىٰ الجبهة الجنوبية، أنها مُجرَّد خطة نظرية، ولم تصب إلا في مصلحة العدو. وبينما فشل دينيكين في إقناع القوزاق بالمسير إلىٰ الشمال، فقد استفاد من ضربتنا لأوكار القوزاق من الجنوب. وبعد ذلك، لم يكن بوسع القوزاق الدفاع عن أنفسهم علىٰ أرضهم، وهكذا دفعهم هجومنا أكثر فأكثر لربط مصيرهم بالجيش الأبيض.

وبرغم الإعداد الدقيق لعملياتنا، وتركيز القوىٰ وتوفير ما يلزم من الوسائل التقنية، لم تُكلَّل جهودنا بالنجاح. شكَّلَ القوزاق حصنًا منيعًا في القلبِ من قوات دينيكين، بدوا وكأنهم مُتجذِّرين في أرضهم التي تشبَّثوا بها بالأسنانِ والنواجز. لم يؤدِ هجومنا إلا إلىٰ استنهاض السكان القوزاق علىٰ سيقانهم. كنَّا نستهلك وقتنا وطاقتنا، ولم نتسبَّب إلا في دفع أولئك القادرين علىٰ حملِ السلاح مباشرةً إلىٰ صفوف الجيش الأبيض. في تلك الأثناء، اجتاح دينيكين أوكرانيا، وأعدَّ عدته وتقدَّم إلىٰ الشمال، فاحتلَّ كورسك وأوريول، وتوقَّف علىٰ مشارف

تولا مهدِّدًا إياها. كان استسلام تولا يعني كارثةً حقيقيةً بالنسبةِ لنا، إذ كنَّا سنفقد معها مصانع البنادق والخراطيش.

أما الخطة التي دافعت عنها منذ البداية فكانت علىٰ العكس تمامًا من ذلك. طالبت بأن تستهدف ضربتنا الأولىٰ فصل المُتطوِّعين عن القوزاق، ومن ثم نؤجِّل حساباتنا مع القوزاق لتركيز كل قوانا ضد المُتطوِّعين، علىٰ ألا يكون الاتجاه الأساسي لهذه الضربة، وفقًا لهذه الخطة، من الفولجا إلىٰ كوبان، بل من فورونيج تجاه خاركوف ومنطقة الدونييتسك. في هذه المنطقة التي تقسم شمالي القوقاز من أوكرانيا، كان العمال والفلاحون بكل حشودهم في صف الجيش الأحمر. وبالتقدُّم في هذا الاتجاه، كان الجيش الأحمر ليسير كالسكين في الزبد، وكان القوزاق ليبقون في أماكنهم يحرسون حدودهم من الغرباء، ولم نكن لنقترب منهم. في هذه الحالة، كانت قضية القوزاق لتصبح قضية استقلال أكثر من كونها سياسية أو عسكرية. لكن كان من الضروري في المقام الأول أن نفصل ذلك علىٰ المستوىٰ الإستراتيجي عن دحر جيش المُتطوِّعين بقيادة دينيكين. في النهاية، كانت هذه هي الخطة التي تبنيناها، لكن ليس قبل أن يبدأ دينيكين في تهديد تولا، والتي يعد فقدانها أخطر من فقدان موسكو ذاتها. أهدرنا شهورًا عديدة، تكبَّدنا فيها الكثير من الخسائر، وعشنا أسابيع طويلة تحت التهديدات المستمرة.

أود هنا، بشكلٍ عابر، أن أشير إلىٰ أن هذه الخلافات الإستراتيجية حول الجبهة الجنوبية كانت مرتبطةً بشكلٍ لصيق بقضية تقدير أو "سوء تقدير" الفلاحين. كنت قد أسَّست خطتي بناءً علىٰ علاقة الفلاحين بالعمال من ناحية، وعلاقتهم بالقوزاق من ناحيةٍ أخرىٰ، وعلىٰ أساس ذلك طرحت خطتي في مواجهة المخطط الأكاديمي للقيادة العليا، ذلك المخطط الذي حظىٰ بتأييد أغلبية اللجنة المركزية. إذا كنت قد بذلت واحدًا علىٰ ألفٍ من المجهود الذي بذلوه لإثبات "سوء تقديري" للفلاحين، لكنت قد سدَّدت نفس هذا الاتهام، ليس فقط إلىٰ زينوفيف وستالين والبقية، بل ضد لينين أيضًا، علىٰ أساس خلافنا حول الجبهة الجنوبية.

أما ثالث خلاف ذو طابع إستراتيجي، فقد نَشَبَ حول هجوم يودينيتش علىٰ بتروجراد. كنت قد وصفت هذه الواقعة في فصلٍ سابق، لكن يتوجَّب عليّ هنا العودة إليها مرةً أخرىٰ. أضيف هنا فقط أن لينين قد تأثر كثيرًا بالوضع الخطير في الجنوب، والذي كان يمثل التهديد الرئيسي آنذاك، كما تأثر أيضًا بشكلٍ كبير بالتقارير القادمة من بتروجراد حول التفوُّق الاستثنائي لجيشٍ يودينيتش تقنيًا وعسكريًا علينا، فبدأ بناءً علىٰ ذلك في الاعتقاد بأن من الضروري تقليص مساحة جبهة القتال بالتخلي عن بتروجراد. ربما كانت تلك المناسبة الوحيدة التي أيدني فيها كلٌّ من زينوفيف وستالين ضد لينين، علمًا بأن لينين

نفسه قد استنكر هذه الخطة بعد ذلك بأيامٍ معدودة معتبراً إياها خاطئة تمامًا.

أما الخلاف الأخير، والذي كان بلا شك أكثرهم حدةً علىٰ الإطلاق، فقد كان مُتعلِّقًا بمصير الجبهة البولندية في صيف 1920. كان بونار لاو، الذي صار لاحقًا رئيس وزراء بريطانيا، قد اقتطف اقتباسًا، من خطابي للشيوعيين الفرنسيين، ليستخدمه كدليلٍ لإثبات نيتنا لتحيطم بولندا في خريف 1920. تكرَّر الأمر نفسه في كتابٍ لوزير الحرب البولندي الراحل سيكورسكي، لكن هذه المرة بالاقتباسِ من كلمةٍ لي ألقيتها في مؤتمر الأممية الشيوعية في يناير 1920.

كل ذلك كان هراءً من البداية إلىٰ النهاية. لم تتسن لي الفرصة قط للتعبير عن تعاطفي مع بولندا بيلسودسكي؛ أي بولندا الاضطهاد والقمع تحت عباءة العبارات الوطنية والتبجُّح البطولي. وبالطبع من الأسهل اختيار عددٍ من بياناتي لإثبات أن الحرب قد فُرِضَت علينا من قِبَل بيلسودسكي، ولم يكن بوسعنا التوقُّف في منتصف الطريق. وهذه البيانات كانت نتيجة الوضع العام ككل. لكن أن نستنتج من ذلك أننا أردنا الحرب علىٰ بولندا، أو كنَّا علىٰ الأقل نعد لذلك، فهذا هو الكذب في وجه الحقيقة والمنطق. بل علىٰ العكس تمامًا؛ لقد بذلنا كل ما في وسعنا لتجنُّب الحرب، ولم ندخر جهدًا في سبيل ذلك. سيكورسكي نفسه يعترف بأننا دشَّنا حملةً دعائيةً للسلام بـ"كفاءةٍ" استثنائية، لكنه في الوقت نفسه لم يفهم – أو تظاهر بأنه لم يفهم – أن سر هذه الكفاءة كان

شديد البساطة: كنَّا فقط نحاول بكل طاقتنا تأمين السلام، حتىٰ وإن اضطررنا لتقديم تنازلات عظمىٰ. وربما كنت أنا نفسي أكثر الأطراف حرصًا علىٰ رفض الحرب، إذ أدركت بوضوحٍ تام، بعد ثلاث سنواتٍ من الحربِ الأهليةِ المتواصلة، أن من الصعب مجاراتها. أما الحكومة البولندية، كما يوضح كتاب سيكورسكي نفسه، فكانت قد بدأت الحربَ، بتعمّدٍ وتصميم، رغم جهودنا المتواصلة للحفاظِ علىٰ السلام، تلك الجهود التي جعلت من سياساتنا الخارجية مزيجًا من الصبر والإصرار اللذين لا مثيل لهما. كنَّا حقًا نريد السلام، وبيلسودسكي فَرَضَ الحربَ علينا. لم نكن لنخوض هذه الحرب إلا لأن جماهير الشعب كانت تراقب علىٰ الدوام مبارزاتنا الديبلوماسية المتواصلة، وكانت مقتنعةً تمامًا أن هذه الحرب فُرِضَت علينا. وكانت الجماهير بلا شك صائبةً في ذلك تمام الصواب.

قام الفلاحون في الريف بعملٍ بطوليٍ حقيقي. لم يكن استيلاء البولنديين علىٰ كييف ذا أهميةٍ عسكريةٍ كبيرة، لكنه قدَّم لنا خدمةً جليلة؛ فقد أيقظ الريف وأنهضه. ومرةً أخرىٰ كان عليّ أن أتفقَّد الجيوش والمدن، أحشد الرجال والطاقات والموارد التي احتجنا إليها. استعدنا كييف، وبدأنا بذلك سلسلةً من النجاحات الهامة. تراجع البولنديون بسرعةٍ كبيرة لم أتوقَّعها قط، إذ لم أكن أصدق مُطلَقًا قدر التهوُّر الذي عملت به حملة بيلسودسكي العسكرية. لكن، علىٰ جانبنا أيضًا، بعد انتصاراتنا الكبرىٰ الأولىٰ، تحوَّلت الاحتمالات

المفتوحة أمامنا إلىٰ مبالغاتٍ أخذت تتفاقمُ بشدة. تلخَّصَت واحدةٌ من هذه المبالغات في أن هذه الحرب التي بدأت حربًا دفاعية تمامًا لابد أن تتحوَّل إلىٰ حربٍ هجوميةٍ وثورية، وبدأت وجهة النظر هذه تنمو وتُصقل وتكتسب المزيد من القوة.

علىٰ المستوىٰ المبدئي، لم يكن لديّ أي اعتراضٍ علىٰ هذا المسار، فهذه المسألة كانت ببساطة تتعلَّق بتوازن القوىٰ. بينما كان المعطىٰ المجهول في هذا التوازن هو موقف العمال والفلاحين البولنديين. قدَّم لنا بعض الرفاق البولنديين، مثل الرفيق الراحل ماركليلفسكي، الذي كان معاونًا لصيقًا لروزا لكسمبورج، تقديرًا موزونًا ورصينًا للوضع. كان تقديره، بالنسبةِ لي، عاملًا هامًا من ضمن العوامل التي بلورت لديّ الرغبة في الانسحاب من هذه الحرب بأسرعِ وقتٍ ممكن. لكن كانت هناك أصواتٌ أخرىٰ أيضًا تعلِّق آمالًا كبرىٰ علىٰ انتفاض العمال البولنديين.

علىٰ أيةِ حال، استقر لينين علىٰ خيار استكمال الحرب حتىٰ النهاية، حتىٰ دخول وارسو نفسها لمساعدة العمال البولنديين في إسقاط حكومة بيلسودسكي والاستيلاء علىٰ السلطة. واعتمدت الحكومة تصوُّر القيادة العليا وقيادة الجبهة الغربية. في الوقت نفسه، كنت في زيارةٍ دوريةٍ لموسكو، ووجدت الرأي السائد يرجِّح كفة الاستمرار في الحربِ "حتىٰ النهاية"، وقد عارضت ذلك بحسمٍ وشدة. في ذلك الوقت، صار البولنديون يطالبون بالسلام بالفعل.

واعتقدت آنذاك أننا قد وصلنا إلىٰ ذروة نجاحاتنا، وإذا تمادينا أكثر من ذلك، مسيئين تقدير قوتنا، سنخاطر بتحويل النصر الذي بين أيدينا بالفعل إلىٰ هزيمة.

بعد الجهود المضنية التي مكَّنت الجيش الرابع من تغطية 600 كيلومتر في خمسةِ أسابيع فقط، لم يتحرَّك هذا الجيش بعدها إلا بالقصور الذاتي. كان كل شيءٍ علىٰ الأعصاب الرفيعة المشدودة التي كادت تتمزق. ضربةٌ قويةٌ واحدة كانت لتكفي لزعزعة جبهتنا وتحويل حملتنا الهجومية غير المسبوقة والتي لا مثيل لها - حتىٰ فوش كان مُرغمًا علىٰ الاعتراف بذلك - إلىٰ هزيمةٍ كارثية. طالبت بالسلام الفوري قبل أن تُستنفذ قوىٰ الجيش، ولم يؤيدني في ذلك، بحسب ما أتذكر، إلا ريكوف، فقد تمكَّن لينين من كسب بقية الآخرين إلىٰ وجهةِ نظره أثناء غيابي. لذا فقد تقرَّرَ الاستمرار في الهجوم.

وعلىٰ عكس فترة بريست ليتوفسك، انقلبت هذه المرة القواعد كلها رأسًا علىٰ عقب. لذا، فقد كنت أنا نفسي من طَالَبت بتأجيل توقيع السلام، إذ حتىٰ وإن فقدنا بعض المناطق ثمنًا لذلك، فنحن بذلك نُمهِل البروليتاريا الألمانية الوقت لتفهم الوضع وتقول كلمتها. وفي الوقت نفسه كان لينين هو من طَالَبَ بأن يستمر الجيش في التقدُّم وأن يُمهِل البروليتاريا البولندية الوقت لتقدير الموقف والنهوض بالسلاح. لقد أكدت الحرب البولندية ما أثبتته بريست ليتوفسك، لكن بشكلٍ معكوس: أن أحداث الحرب ومجريات الحركة الجماهيرية الثورية

تُقاس بمعايير مختلفة، فبينما تُحسَب حركة الجيوش بالأيام والأسابيع، تُقدَّر حركة الجماهير عادةً بالشهورِ والسنين. وإن لم يؤخذ اختلاف الإيقاع في الحسبان، فستكسر تروسُ الحربِ أسنان تروس الثورة بدلًا من أن تضعها في مسارها الصحيح. علىٰ أيةِ حال، هذا ما ثبت في حربِ بريست ليتوفسك القصيرة، وفي الحربِ البولندية الطويلة أيضًا. تمادينا إلىٰ أبعد مما حققناه من نصرٍ، فتحوَّل إلىٰ هزيمة.

لابد أن أذكر هنا أن أحد أسباب استثنائية الكارثة التي حلَّت علىٰ حدودِ وارسو كان أداء قيادة الجبهة الجنوبية الغربية للجيوش السوفييتية، التي استمرت في الزحف نحو لفوف (لمبرج). كان الرمز السياسي الرئيسي في المجلس العسكري الثوري لهذه المجموعة هو ستالين، الذي أراد يدخل لفوف، بأي ثمنٍ كان، في الوقت نفسه الذي دخل سميلجا وتوخاتشيفسكي وارسو. هناك أناسٌ قادرون علىٰ أن يطمحوا حتىٰ لأمورٍ مثل هذه. وحين بات الخطر علىٰ الجيوش، تحت قيادة توخاتشيفسكي، واضحًا، وأصدرت القيادة العامة أوامرها للجيوش الجنوبية الغربية بتغيير اتجاهها لتضرب جناح الجيوش البولندية علىٰ حدودِ وارسو؛ استمرت القيادة الجنوبية الغربية، بإيعاذٍ من ستالين، بالتقدم غربًا. ألم يكن من الأهم ألا يستولوا علىٰ لفوف بأنفسهم، بل أن يساعدوا "الآخرين" علىٰ الاستيلاء علىٰ وارسو؟ لم تغيِّر القيادة الجنوبية الغربية اتجاه تقدمها إلا بعد تكرار الكثير من الأوامر والتهديدات، وقد فعلت ذلك بعد أيامٍ من التأجيل كان لها أثرٌ قاتل.

تراجعت جيوشنا لمئاتٍ من الكيلومترات. وبعد الانتصارات الاستثنائية بالأمس القريب، لم يكن أحدٌ يصدِّق ما يجري. ولدىٰ عودتي من جبهة رانجل، وجدت موسكو تدفع في اتجاهِ حربٍ بولنديةٍ ثانية. وعند هذه النقطة، انتقل ريكوف نفسه إلىٰ المعسكر المقابل. كان يقول: "ما دام بدأنا الأمر، لابد أن نستكمله إلىٰ النهاية"، فيما كانت القيادة الجنوبية الغربية تغذي مثل هذه الآمال: هناك ما يكفي من القوات الاحتياطية، وتم تجديد سلاح المدفعية، وهكذا دواليك. في هذه الحالة، كانت الفكرة وليدة الرغبة. رددت علىٰ ذلك قائلًا: "لننظر إذن ماذا لدينا في الجبهة الغربية؟ ما مِن شيءٍ سوىٰ وحداتٍ مهزومةٍ معنويًا صببنا فيها عجينًا بشريًا خامًا. لا يمكننا القتال بمثل هذا الجيش، أو بالأحرىٰ؛ بجيشٍ مثل هذا لا يمكننا إلا أن نخوض معارك دفاعية أثناء الانسحابِ وإعدادِ جيشٍ جديد في المؤخرة، لكن من غير المنطقي أن نعتقد أن مثل هذا الجيش قادرٌ علىٰ استنهاض نفسه للتقدُّم نحو النصر في طريقٍ مفروشٍ بأشلائه".

أعلنت لهم أن تكرار نفس الخطأ الذي ارتكبناه من قبل من شأنه أن يكبِّدنا عشرات أمثال خسائرنا في المرة السابقة، وأنني لن أخضع لهذا القرار محل النقاش، بل سألجأ إلىٰ قواعد الحزب في ذلك. وبرغم دفاع لينين الرسمي عن استمرار الحرب، فقد دافع عن موقفه هذه المرة من دون إصراره وقناعته السابقة. وعلاوة علىٰ ذلك، ترك إيماني الراسخ بضرورة عقد سلامٍ فوريٍ، حتىٰ وإن كان بشروطٍ قاسيةٍ

علينا، انطباعًا ليس بسيطًا علىٰ لينين، فاقترح تأجيل القرار في هذه المسألة حتىٰ أتمكَّن من زيارة الجبهة الجنوبية وأرىٰ بنفسي أحوال الجيوش هناك. وبالنسبةِ لي، كان هذا يعني أن لينين يوافقني الرأي.

وجدت مقر القيادة هناك يقف في صالح شن حربٍ أخرىٰ. لم ألحظ قناعةً راسخةً بذلك، بل مجرد مرآةٍ لموقف موسكو. وكلما نزلت علىٰ درجات السلم العسكري، من جيشٍ إلىٰ فصيلٍ إلىٰ كتيبةٍ إلىٰ فرقة، أدركت أكثر فأكثر استحالة شنِّ حربٍ هجومية. أرسلت خطابًا سريعًا للينين، دون حتىٰ أن أحتفظ بنسخةٍ منه، بانطباعاتي أثناء جولاتي التفقُّدية. كان اليومان أو الثلاثة التي قضيتها علىٰ الجبهة كافين بالنسبةِ لي للتأكُّد من الاستنتاج الذي توصَّلت إليه وسافرت به من موسكو، لأعود إليها مرةً أخرىٰ ويتخذ المكتب السياسي، بالإجماع تقريبًا، قراره بعقد السلام الفوري.

كانت للأخطاء في الحسابات الإستراتيجية للحرب البولندية عواقب تاريخية فادحة. خرجت بولندا بيلسودسكي من الحرب، بشكلٍ غير مُتوَقَّع، أقوىٰ وأشد، بل وقد تلقىٰ تطور الثورة البولندية ضربةً قاسمة. فصلت الحدود، التي رسمتها اتفاقية ريجا، الجمهورية السوفييتية عن ألمانيا، وكان لذلك تأثيرٌ بالغٌ في حياةِ كلا البلدين. أدرك لينين تأثيرَ خطأ "وارسو" أكثر وأفضل من جميع الآخرين، وعاد ليشير إليه أكثر من مرةٍ كتابةً وقولًا.

نفس لينين هذا هو الذي تُصوِّره أدبيات رجال الصف الثاني بما يشبه هالة النور التي اعتاد رسامو أيقونات سوزدال إحاطة رؤوس المسيح والحواريين بها، فبدلًا من الصورة المثالية التي يبتغون تقديمها، تجد نفسك أمام "كاريكاتور"، تمامًا كما يحاول رسامو الأيقونات الارتقاء فوق أنفسهم لكن في النهاية لا يعكسون إلا أذواقهم الخاصة، وبالتالي لابد أن يرسموا الصور المثالية التي يتخيَّلونها هم. وبما أن سلطة رجال الصف الثاني تعتمد بالأساس علىٰ منع الناسِ من الشك في معصوميتهم، فلابد من تقديم لينين في أدبياتهم ليس كإستراتيجي ثوري أبرز عبقريته في تقديره للمواقف وفهمه للأوضاع، بل كإنسانٍ آلي لا يعرف الخطأ إلىٰ قراراته طريقًا.

كنت أول من استخدم كلمة "عبقرية" في نسبها للينين، في وقتٍ لم يكن لدىٰ آخرين الشجاعة لقولها. نعم، كانت لدىٰ لينين أقصىٰ عبقريةٍ يمكن للإنسان أن يكون عليها، لكنه لم يكن ماكينة تفكير أوتوماتيكية لا تخطئ. وقع لينين في أخطاءٍ، لكن أقل مما يمكن أن يقع فيها غيره في نفس المواقف؛ ارتكب أخطاءً من أنواعٍ مختلفة، وبعضها كان فادحًا، لكن كل ذلك لا يُقارن بالنطاق والحجم الهائلَين لأعماله.

الفصل الثامن والثلاثون

الانتقال إلى السياسة الاقتصادية الجديدة

وعلاقتي بلينين

الآن أصل إلىٰ المرحلة الأخيرة في رحلة تعاوني اللصيق مع لينين، المرحلة التي تكتسب أهميتها من وضع أساسات الانتصار اللاحق لرجال الصف الثاني خلالها. أسَّسَ هؤلاء منظومةً تاريخية وأدبية مُعقَّدة ومُتعدِّدة الأذرع، غرضها الوحيد هو تشويه تاريخ علاقتنا المشتركة. فعلوا ذلك بتصوير هذه العلاقة علىٰ أنها صراعٌ بين "مبدأين"، فعلوا ذلك باجتزاء اللحظات التي اختلفنا فيها من الماضي، وبتضخيم التعبيرات السجالية الفردية، وبالاختلاق المحض للأكاذيب. إن تاريخ الكنسية، كما كتبه المؤرخون المدافعون عنها في القرون الوسطىٰ، لهو نموذجٌ أكثر علمية مقارنةً بالأبحاث التاريخية لهؤلاء. حين اختلفت مع لينين، جهرت بذلك، وحتىٰ أنني خاطبت الحزب حين رأيت ذلك ضروريًا، ويبدو أن ذلك قد سهَّل مهمتهم في تشويه تاريخ علاقتي به. أما هم، فحين اختلفوا مع لينين، وقد تكرَّرَت خلافاتهم معه أكثر بكثيرٍ مني، كانوا عادةً ما يصمتون حيال الأمر، أو يختفون مثل ستالين لبضعة أيام بعيدًا عن الأنظار في الريف بالقرب من موسكو.

في أغلب الحالات، كانت القرارات التي توصَّلنا إليها؛ كلٌّ منّا بشكلٍ مستقل عن الآخر، متطابقة في كافة الجوانب الأساسية لها. كانت مجرد كلمات قليلة كافية للتفاهم بيننا. حين كنت أرىٰ خطأً في أحد قرارات المكتب السياسي أو مجلس مفوَّضي الشعب، كنت أرسل له علىٰ الفور ملاحظةً مُختصرة علىٰ قصاصةٍ من الورق، فيجيب: "صحيح تمامًا. ابعث بطرحك علىٰ الفور"، وأحيانًا كان يرسل لي مستفسرًا عمَّا إذا كانت أوافق علىٰ طرحه أم لا، وطلبًا بأن أتحدَّث لدعم موقفه. وفي الكثير من الحالات، كنّا نتباحث عبر الهاتف في الطريقة التي يمكن بها التعاطي مع بعض الأمور، وإذا كان الأمر ملحًا كان يطلب مني بإصرار: "تعال من فضلك دون تأخر". وفي الحالات التي عملنا فيها معًا يدًا بيد - مما كان معتادًا لنا في الأمور المبدئية - كان أولئك غير الراضين عن القرار، ومن ضمنهم بالطبع رجال الصف الثاني، يبقون صامتين. ومرةً بعد أخرىٰ، حينما كان ستالين أو زينوفيف أو كامينيف يختلفون معي في إحدىٰ القضايا الهامة، كانوا سرعان ما ينطوون في صمتٍ مطبق فور علمهم أن لينين يوافقني الرأي. كان لدىٰ أتباع لينين استعدادٌ تام للتنصُّل من أفكارهم الخاصة لصالح أفكاره، ويمكننا أن ننظر إلىٰ الأمر من أي زاوية نختارها، لكن هذا الاستعداد لم يكن ينطوي علىٰ أية ضمانة لقدرتهم علىٰ الوصول إلىٰ نفس الاستنتاجات من دون لينين. يبدو في هذا الكتاب أن الخلافات مع لينين تتخذ أهمية لم تكن حقيقية. هناك

سببان لذلك: الأول أن هذه الخلافات كانت استثناءً، والثاني أن جال الصف الثاني، بعد موت لينين، أخذوا يضخِّمون منها بمعدلاتٍ فلكية، حتىٰ باتت شأنًا سياسيًا مستقلًا لا علاقة له بأيٍ منّا.

في فصلٍ مستقل من هذا الكتاب، قدَّمت سردًا تفصيليًا لخلافي مع لينين بخصوص صلح بريست - ليتوفسك. والآن سأتعرَّض لخلافٍ آخر وقفنا فيه ضد بعضنا في نهاية العام 1920، في ذروة الانتقال إلىٰ السياسة الاقتصادية الجدِيدة.

لا يمكنني إنكار أن ما سُمِيَ بنقاشات النقابات قد عكَّر صفو علاقتنا لفترةٍ من الوقت. لكن كان كلٌ منّا ثوريًا وسياسيًا بما فيه الكفاية ليقدر علىٰ فصل ما هو شخصي عمَّا هو عام. وخلال هذه النقاشات، وجد ستالين وزينوفيف فرصتهم لشنِّ النضال ضدي علىٰ الملأ. بذلا كل ما في وسعهما من جهدٍ للاستفادة من الموقف علىٰ أكمل وجه، إذ كانت تلك بمثابة بروفة للحملة المستقبلية ضد "التروتسكية". لكن كل هذا لم يكن إلا جانبًا واحدًا مما أزعج لينين، وقد حاول إيقاف ذلك بكل الطرق.

انهال الرفض من كل جانب حتىٰ تكدَّس علىٰ مضمون هذه النقاشات، إلىٰ درجة صارت فيها مهمة المؤرخين المستقبليين الذين سيحاولون الوصول إلىٰ حقيقة الأمر، مهمة لا يُحسدون عليها. اكتشف رجال الصف الثاني، بعد موت لينين، أن موقفي في ذلك

الوقت كان "التقليل من شأن الفلاحين"، والعداء للسياسة الاقتصادية الجديدة. هذا هو الأساس الذي انطلقت منه الهجمات اللاحقة ضدي. لكن جذور النقاشات كانت علىٰ العكس من ذلك تمامًا، ولكشف الحقيقة، لابد أن أعود إلىٰ الوراء قليلًا.

في نهاية العام 1919، حينما تعطَّلَت 60٪ من القاطرات، وتوقَّعَ بعضٌ من أفضل خبرائنا أن النسبة ستزيد إلىٰ 75٪ بحلول ربيع 1920، في مثل هذه الظروف، صارت حركة السكك الحديدية شأنًا غير ذي قيمة، لأن 25٪ من القاطرات التي تعمل بنصف طاقة كانت كافية فقط لنقل احتياجات السكك الحديدية، إذ كان الاعتماد الأساسي علىٰ كمياتٍ كبيرة من الأخشاب. وكان المهندس لومونوسوف، المسئول عن نظام النقل خلال تلك الأشهر، قد أعدَّ رسمًا بيانيًا لحالة القاطرات، وقدَّمه للحكومة، وفي إشارته إلىٰ إحدىٰ الاستنتاجات الحسابية لما سيكون عليه الأمر في 1920، قال: "هنا يأتي الموت".

سأل لينين: "ما العمل إذن؟".

فأجاب لومونوسوف: "لا تتوقَّعوا أي معجزات. حتىٰ البلاشفة غير قادرين علىٰ صنع المعجزات".

نظرنا إلىٰ بعضنا البعض وقد تمكَّن الإحباط منّا، إذ لم يكن أحدٌ منّا علىٰ دراية بالشئون التقنية لنظام النقل، ولا بالشئون التقنية لهذه

الحسابات المتشائمة. ردَّ لينين: "ليس بعد. سنحاول صنع هذه المعجزة"، متمتمًا بنبرةٍ جافة خرجت بالكاد من بين أسنانه.

لكن الوضع استمر في التدهور علىٰ نحوٍ مطرد خلال الشهور التالية. وفي ظل هذه الظروف، توافرت بالفعل كل مسببات التدهور، لكن من المحتمل أيضًا أن بعض المهندسين كانوا يجعلون وضع النقل متناسبًا مع رسومهم البيانية. قضيت معظم أشهر شتاء 1920 – 1919 في الأورال لمتابعة وتوجيه النشاط الاقتصادي. وقتها، أرسل لينين لي برقيةً يطلب مني فيها تولي مسئولية النقل واتخاذ أي تدابير طارئة لتخليصه من أزمته، وبعثت ردي بالموافقة.

جلبت معي من الأورال حزمةً كبيرة من الملاحظات الاقتصادية التي يمكن تلخيصها في استنتاجٍ واحد: لابد من التخلي عن شيوعية الحرب. لقد توصَّلت من خلال عملي التطبيقي المباشر إلىٰ أن أساليب شيوعية الحرب، التي أجبرتنا عليها ظروف الحرب الأهلية، قد استُهلِكَت تمامًا، وأن لابد من إدخال عنصر المصلحة الشخصية، مهما كلَّفَ الأمر، لإعادة اقتصادنا إلىٰ الحياة، أي استعادة السوق المحلية بدرجةٍ ما. أرسلت إلىٰ اللجنة المركزية مشروع استبدال ضريبة الغذاء بضريبة الحبوب واستعادة تبادل السلع. وفي فبراير 1920، أرسلت أيضًا إلىٰ اللجنة المركزية بيانًا صغت فيه رؤيتي علىٰ النحو التالي:

"إن السياسة الراهنة للمصادرة المتعادلة وفقًا لجدول المواد الغذائية، والمسئولية المشتركة في التوريد، والتوزيع المتعادل للمنتجات الصناعية، تؤدي إلىٰ تدهور وضع الزراعة وبعثرة البروليتاريا الصناعية، وتُهدِّد بالانهيار الكامل للحياة الاقتصادية في البلاد.

المواد الغذائية مُهدَّدة بالنفاذ، وهذا الوضع الطارئ لا يمكن تجنُّبه بأي قدرٍ من التحسين في أساليب المصادرة. بل يمكن التصدي لميل الاقتصاد إلىٰ التدهور كالتالي:

1. ينبغي أن تفسح مصادرة الفوائض المجال للدفع علىٰ أساس نسبة مئوية (شكلٌ من ضريبة الدخل التصاعدية)، ويكون جدول الدفع ثابتًا بطريقةٍ تسمح بأن تجلب الزيادة علىٰ الأرض المزروعة بعض الربح.
2. ينبغي التقريب بين المنتجات الصناعية المُورَّدة إلىٰ الفلاحين وكميات الحبوب التي يوردونها، علىٰ ألا ينطبق ذلك فقط علىٰ القرىٰ والمقاطعات الريفية، بل علىٰ الأسر الفلاحية كذلك".

صغت هذه الاقتراحات بعنايةٍ وحرص. ولم تكن الأطروحات الأساسية للسياسة الاقتصادية الجديدة، التي بدأ تطبيقها قبل عام، قد

تطوَّرَت عن ذلك. عارَضَ لينين اقتراحاتي بشدة، كما رفضتها اللجنة المركزية بأحد عشر صوتًا مقابل أربعة. لكن المسار اللاحق للأحداث أثبت خطأ قرار الرفض.

لم أقدم هذه الاقتراحات إلىٰ مؤتمر الحزب، الذي عُقِدَ تحت شعار شيوعية الحرب. وعلىٰ مدار العام التالي بأكمله، كانت الحياة الاقتصادية في البلاد متعثرةً في نفقٍ مسدود. تطوَّرَ نزاعي مع لينين من هذا النفق المسدود نفسه. وحينما رُفِضَ التحوُّل إلىٰ نظام السوق، طالبت بتطبيق أساليب "الحرب" بشكل صحيح ووفق نظامٍ يمكن من خلاله تحسين وضع الاقتصاد بشكل حقيقي. لم أرَ أي دور مستقل للنقابات في نظام شيوعية الحرب الذي تؤمَّم فيه كل الموارد، أو علىٰ الأقل الرئيسية منها، وتُوزَّع من قِبَل الدولة. فإذا ارتكنت الصناعة علىٰ ضمان الدولة في إمداد العمال بكل المنتجات الضرورية، فلابد من دمج النقابات في نظام إدارة الدولة للصناعة وتوزيع المنتجات. كان هذا هو المضمون الحقيقي لقضية دمج النقابات في تنظيمات الدولة، ذلك الإجراء النابع لا محالة من شيوعية الحرب، والذي دافعت عنه من هذا المنطلق.

كانت مبادئ شيوعية الحرب، التي صدَّق عليها المؤتمر التاسع للحزب، بمثابة القاعدة التي ارتكزت عليها في عملي في تنظيم قطاع النقل. وكانت نقابة العاملين بالنقل شديدة الارتباط بالجهاز الإداري للقطاع. امتدت أساليب الانضباط العسكري لكافة أرجاء قطاع النقل،

وقد بنيت صلةً وثيقة بين الإدارة العسكرية، الأقوىٰ والأفضل انضباطًا في ذلك الوقت، وإدارة النقل. أسفر ذلك عن ميزاتٍ مهمة، خاصةً وأن النقل العسكري قد اكتسب مرةً أخرىٰ أهميةً ذات أولوية أولىٰ مع بداية الحرب مع بولندا. كنت أذهب كل يومٍ من مفوضية الحرب، التي دمَّرت عملياتها خطوط السكك الحديدية، إلىٰ مفوضية النقل، في محاولات مستمرة ليس فقط للحفاظ علىٰ السكك الحديدية من الانهيار الكامل، بل أيضًا لرفع كفاءتها إلىٰ مستوىٰ جديد.

كان عملي في قطاع النقل بمثابة مدرسةً حقيقية خلال عامٍ كامل. فقد انعكست كل القضايا الجوهرية في التنظيم الاشتراكي للحياة الاقتصادية، بأكثر من ما يمكن من كثافةٍ، في مجال النقل. وكان التنوع الرهيب في أنواع القاطرات والعربات يُزيد عمل السكك الحديدية وورش الصيانة تعقيدًا فوق تعقيد. جرت الكثير من الأعمال التحضيرية علىٰ قدمٍ وساق لتوحيد المعايير التي يعمل وفقها نظام النقل، إذ أُدير هذا القطاع قبل الثورة من قِبَل الدولة والشركات الخاصة علىٰ حدٍّ سواء. خضعت القاطرات للتصنيف وفق فئتها، وانتظمت أعمال صيانتها بشكل ممنهج، وبدأت الورش تتلقّىٰ الأوامر بناءً علىٰ ما يتوافر تحت يدها من معداتٍ تقنية. كان من المُفترَض أن يستغرق برنامج استعادة قطاع النقل إلىٰ مستويات ما قبل الحرب بأربعة أعوام ونصف العام، وقد حقَّقَت التدابير نجاحًا ملحوظًا، وبدأ قطاع النقل في التعافي من حالة الشلل التي أصابته خلال ربيع وصيف

العام 1920. لم يفوِّت لينين أي مناسبة إلا وأشار إلىٰ عودة السكك الحديدية إلىٰ الحياة. وإذا كانت الحرب التي شنَّها بيلسودسكي، علىٰ أمل انهيار نظام النقل، لم تحقِّق لبولندا ما رجَّته منها، فقد كان هذا بسبب صعود المنحنىٰ البياني للسكك الحديدية بثبات. لم يكن من الممكن التوصُّل إلىٰ هذه النتائج من دون تدابير إدارية استثنائية، نشأت حتمًا من الوضع الخطير لقطاع النقل، ومن شيوعية الحرب نفسها أيضًا.

لكن جماهير العمال، الذين مروا بثلاث سنوات من الحرب الأهلية، صاروا نافرين من الرضوخ لأساليب الحكم العسكري. شعر لينين، بفطرته السياسية التي لا يجانبها الصواب، أن اللحظة الحرجة قد حلَّت. وبينما سعيت لأن تقدم النقابات جهودًا أكثر كثافة، متخذًا موقفي علىٰ أساس اعتبارات اقتصادية محضة علىٰ قاعدة شيوعية الحرب، كان لينين يسعىٰ لتخفيف الضغوط العسكرية، متخذًا موقفه علىٰ أساس الاعتبارات السياسية. وفي خضم المؤتمر العاشر للحزب، تصادمت خطوطنا بعنف، حيث اشتعل نقاشًا في الحزب لم يكن في الحقيقة منصبًا علىٰ النقطة الرئيسية، حيث كان الحزب يناقش القدر الذي ستتحوَّل به النقابات إلىٰ جزءٍ من جهاز الدولة، بينما كانت القضية الرئيسية تتعلَّق بالخبز اليومي والوقود والمواد الخام اللازمة للصناعة. كان الحزب يناقش "مدرسة الشيوعية" حثيثًا وبحماس بالغ، بينما كانت القضية تتعلَّق بالكارثة الاقتصادية التي تحدق

بالبلاد. في هذا السياق، اندلعت الانتفاضات في كرونشتاد ومحافظة تامبوف وقطعت هذه النقاشات كإنذارٍ أخير، فشرع لينين في بلورة المحاور الرئيسية الأولىٰ للسياسة الاقتصادية الجديدة (NEP)، وساهمت معه علىٰ الفور في ذلك. بالنسبة لي، كان الأمر بمثابة تجديدٍ للأطروحات التي كنت قد قدَّمتها قبل ذلك بعام، وعلىٰ الفور فَقَدَ النقاش حول النقابات مضمونه.

لم يشتبك لينين في ذلك النزاع في المؤتمر، وترك زينوفيف يتسلىٰ بالأعيرة النارية الفارغة علىٰ الأرض. وخلال نقاشات المؤتمر، حذَّرت من أن القرار الخاص بالنقابات الذي تبنته الأغلبية لن يستمر حتىٰ المؤتمر التالي، إذ أن التوجه الاقتصادي الجديد سيتطلَّب مراجعةً كاملة لإستراتيجية النقابات. ولم تمض سوىٰ أشهر معدودة حتىٰ صاغ لينين المبادئ الجديدة لدور النقابات والهدف منها، بناءً علىٰ السياسة الاقتصادية الجديدة. أما أنا، فقد وافقت بشكل صريح ومن دون أي تحفُّظٍ علىٰ مسودته. وبينما استعدنا جبهتنا الصلبة، كان لينين مُتخوِّفًا من ظهور تكتلات دائمة داخل الحزب، نتيجة تلك النقاشات، من شأنها أن تزيد العلاقات الداخلية مرارةً والعمل الجماعي صعوبة.

وبينما كان المؤتمر لا يزال منعقدًا، كنت أعقد الكثير من الاجتماعات مع الذين شاركوني وجهة نظري في مسألة النقابات. وبعد المؤتمر بأسابيع قليلة، كان لينين متأكِّدًا أنني علىٰ نفس درجة الحرص والاهتمام بقضية التكتلات المؤقتة التي لم يعد لديها أية قواعد مبدئية

مشتركة تقوم عليها. شعر لينين وكأن حملًا ثقيلًا قد أُزيح من علىٰ صدره، ثم استغل التصريح البائس الذي وجهه مولوتوف، المُنتَخَب حديثًا إلىٰ اللجنة المركزية، ضدي، لاتهامه بالحقد الذي أعمىٰ عقله، فأخذ يقول هنا وهناك أن: "ولاء الرفيق تروتسكي للحزب وعلاقاته الداخلية لا غبار عليها". ظلَّ يكرِّر هذه الجملة مرةً تلو الأخرىٰ، وبات واضحًا أنه لا يوجه بذلك لكماته فقط لمولوتوف، بل أيضًا لستالين وزينوفيف اللذين كانا يحاولان يائسَين إطالة أمد النزاع.

وفي المؤتمر العاشر، قُدِّمَ ستالين، بمبادرة من زينوفيف ضد إرادة لينين، كمُرشَّحٍ لمنصب الأمين العام للحزب، وظنَّ المؤتمر أن ستالين يحظىٰ في ذلك بتأييد اللجنة المركزية بأكملها. لكن لم يلتفت أحدٌ كثيرًا لهذا الأمر. ورغم أن هذا المنصب، الذي أقره المؤتمر العاشر، لم يكن في ظل لينين إلا ذا طابع تقني لا سياسي علىٰ الإطلاق، إلا أن لينين ظلَّ يحتفظ بمخاوفه، وظلَّ يشير إلىٰ ستالين قائلًا: "هذا الطاهي لن يقدم إلا الأطباق الحارة". وهذا هو السبب الذي جعل لينين يصر، في الاجتماعات الأولىٰ للجنة المركزية بعد المؤتمر، علىٰ التشديد علىٰ "ولاء تروتسكي". كان يحاول ضرب المكيدة التي تُحاك سرًا.

لم تكن كلمات لينين هذه عارضةً أو عابرة. ففي أثناء الحرب الأهلية، عبَّر لينين ذات مرةٍ عن ثقته الأخلاقية فيّ، لا بالقول بل بالفعل هذه المرة، بشكلٍ لم يحظ به ولم يجرؤ أي شخصٍ آخر علىٰ المطالبة به. حدث ذلك علىٰ خلفية نفس المعارضة العسكرية التي قادها ضدي

ستالين من وراء الكواليس. خلال الحرب، كنت ذا نفوذٍ هائل لا حدود له. كانت المحكمة الثورية تعقد جلساتها في قطاري، وكانت الجبهات خاضعةً بالكامل لي، والقوات المساعدة خضعت بدورها للجبهات – في وقتٍ كانت كل المناطق التابعة للجمهورية السوفييتية، التي لم يحتلها الجيش الأبيض، مُحصَّنة بالكامل. كان لأولئك الذين تضرَّروا من الحرب أقرباءٌ وأصدقاءٌ فعلوا ما بوسعهم للتخفيف عنهم. تلقينا الكثير من الالتماسات والشكاوىٰ وعرائض الاحتجاج، كلها تركَّزَت في موسكو، وبالأخص بين يديّ رئاسة اللجنة المركزية.

جاءت الواقعة الأولىٰ من هذا النوع مع الأحداث التي سبقت شهر سفيياجسك بفترةٍ طويلة. كنت قد قدَّمت بالفعل تقريرًا عن واقعة قائد الكتيبة اللاتفية الرابعة الذي حاكمته إثر تهديده بسحب الكتيبة من موقعها. حكمت المحكمة بسجن قائد الكتيبة خمس سنوات، ومن ثم بدأت العرائض تتوارد ملتمسةً إطلاق سراحه. كان دور سفيردلوف عظيمًا بشكل خاص، إذ طرح المسألة علىٰ المكتب السياسي، وقدَّمت بدوري عرضًا مختصرًا عن الوضع العسكري في ذلك الوقت، حين هدَّدني قائد الكتيبة بـ"العواقب التي ستكون وخيمةً علىٰ الثورة". وخلال سردي، كان وجه لينين يكفهر شيئًا فشيئًا، ولم أكن لأنهي حديثي حتىٰ صاح بصوته الأجش المبحوح المعتاد حين ينفعل: "دعه يبقىٰ في السجن. دعه يبقىٰ هناك". نظر سفيردلوف إلىٰ كلينا وقال: "أعتقد ذلك أيضًا".

أما الواقعة الثانية، والتي هي أهم من الأولىٰ، فقد كانت تتعلّق بإعدام القائد والمفوَّض اللذين سحبا الكتيبة من موقعها وصادرا باخرةً تحت تهديد السلاح، وأعدًّا العدة للإبحار بها إلىٰ نيجني نوفجورود. تشكَّلت هذه الكتيبة في سمولينسك، بتوجيهٍ مِمَّن كانوا خصومًا لسياستي العسكرية ثم صاروا لاحقًا مؤيدين متوقدين لها. لكن صوتهم الاحتجاجي كان صاخبًا في ذلك الوقت. أجمعت مفوَّضية اللجنة المركزية، التي عُيِّنَت بناءً علىٰ طلبي، علىٰ أن السلطات العسكرية صائبةٌ في قرارها، كما أن الموقف يُبرِّر هذا القرار. لكن الشائعات الغامضة المُغرِضة لم تتوقَّف. شعرت مراتٍ عديدة أن مصدر هذه الشائعات ليس بعيدًا عن المكتب السياسي نفسه، لكن لم تتسن لي الفرصة ولا الوقت لإجراء تحقيقٍ في هذا الأمر أو للتصدي للمكائد. كل ما فعلته هو أنني صرَّحت، في اجتماعٍ للمكتب السياسي، بأن ما اتُّخِذَ من إجراءاتٍ في سفيياجسك إن لم يكن بهذه القسوة، لما كان بمقدورنا حتىٰ أن نعقد اجتماعنا هذا. التقط لينين خيط الحديث وقاطعني قائلًا "بالتأكيد"، ثم أخذ يكتب سريعًا، كما هو معتاد منه دائمًا، بالحبر الأحمر أسفل ورقة بيضاء حملت ختم مجلس مفوَّضي الشعب. توقف الاجتماع حالما بدأ لينين في الكتابة، إذ كان يترأس هذه الجلسة. وبعد دقيقتين، أعطاني الورقة مكتوبٌ عليها: "إثر معرفتي بصرامة أوامر الرفيق تروتسكي، فأنا علىٰ قناعةٍ، بل علىٰ قناعةٍ تامة، بصحة ونفع وضرورة إنفاذ الأمر الذي أصدره، وأصدق علىٰ هذا الأمر من دون تحفُّظ - لينين".

ثم قال لي لينين: "سأعطيك ما تشاء من مثل هذه الوثائق". في ظلِّ ظروفٍ خطيرة مثلما في الحرب الأهلية، بالضرورة التي تفرضها في اتخاذ قراراتٍ عاجلة لا رجعة فيها، والتي ربما جانب بعضها الصواب، قدَّم لي لينين توقيعه مُسبَّقًا كتصديقٍ منه علىٰ أي قرار أراه ضروريًا في المستقبل. مثل هذه القرارات كانت تهلك حيوات وتنقذ أخرىٰ. هل من ثقةٍ أكبر يمكن أن يضعها رجلٌ في الآخر؟ جاءت فكرة هذه الوثيقة الاستثنائية للينين فقط لأنه كان علىٰ درايةٍ أكثر مني بمنبع المكائد، أو علىٰ الأقل يشك فيه، وفكَّر في أن من الضروري التصدي لها بأقصىٰ قوة وعزم، بل أنه جازَفَ باتخاذ هذه الخطوة فقط لأنه كان علىٰ قناعةٍ تامة بأنني من المستحيل أن أغدر أو أستغل السلطة. هذه الثقة التي وهبها لي عبَّر عنها فقط في سطورٍ معدودة. ولعل رجال الصف الثاني لينظرون بائسين لمثل هذه الوثيقة بين ممتلكاتهم، وإذا ما بحث ستالين في أرشيفه، لن يجد إلا "وصية" لينين التي أخفاها عن الحزب، هذه الوصية التي نعته فيها لينين بالغادر الذي لا مانع لديه في استغلال السلطة. يكفي أن نضع النصين جنبًا إلىٰ جنب هكذا؛ السلطة الأخلاقية اللا محدودة التي خوَّلها إليّ، و"جواز سفر الذئب"[20] الذي حرَّرَه لستالين، لندرك موقفه تجاه كلٍ منّا.

[20] استُخدِمَت عبارة "جواز سفر الذئب"، باللهجة العامية في روسيا القيصرية، لوصف الوثيقة التي كانت تُحرَّر للمجرمين بدلًا من جواز السفر والتي تجعل منهم منبوذين لا يُسمَح لهم بالبقاء طويلًا في أي منطقة.

الفصل التاسع والثلاثون

مرض لينين

بدأت عطلتي الأولىٰ في ربيع 1920، قبل المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية، وقضيت حوالي شهرين بالقرب من موسكو. كان وقتي مُكرَّسًا لشوطٍ من العلاج الطبي (كنت قد بدأت للتو ألتفت للاعتناء بصحتي)، وكنت أعمل علىٰ الميثاق الذي استُخدِمَ في السنوات اللاحقة كبديلٍ عن برنامج الأممية الشيوعية، وأذهب للصيد من أجل التسلّي. بعد سنواتٍ من الضغط والإجهاد، شعرت بالحاجةِ إلىٰ الراحة، لكني لم أكن معتادًا عليها، ولم يكن المشي يريحني وقتها كما هو الحال الآن. انجذبت كثيرًا للصيد؛ فهو يفعل بالعقل كما تفعل الكمادة بجسدٍ ملتهب.

ذهبت للصيد في الأحد الأول من شهر مايو 1922 في القناة القديمة لنهر موسكو، مستخدِمًا شبكة جلبتها معي. كانت السماء تمطر، والحشائش مبتلة، فانزلقت وتمزَّقَت أربطة قدمي. لم يكن الأمر خطيرًا، فقد قضيت فقط بضعة أيام طريح الفراش. وفي اليوم الثالث جاء بوخارين لزيارتي.

علا صوته بفزع: "أنت أيضًا طريح الفراش؟".

فسألته: "ومَن أيضًا؟".

فأجاب سريعًا: "لينين مريضٌ بشدة. داهمته سكتةٌ دماغية، ولا يستطيع الآن المشي أو الكلام.. الأطباء في حالة ضياع".

كان لينين يهتم دائمًا بصحة زملائه، وطالما كان يكرِّر كلمات أحد الرجال في المهجر: "سيموت العجائز بينما يستسلم الشبان". كان كثيرًا ما يُردِّد: "مَن مِنَّا يعرف أوروبا والحركة العمالية في العالم، ونحن الوحيدون الذين نشهد ثورة؟ ليس من الممكن استبدال الخبرة الأممية لدىٰ المجموعة العليا في حزبنا". كان لينين نفسه يُعتبَر رجلًا ذا صحةٍ قوية، وكان يبدو أن هذه الصحة هي واحدةٍ من روافع الثورة التي لا يمكن أن تتأثر بشيء. كان دائمًا نشيطًا مبتهجًا، ومنتبهًا حاد الذهن، وكنت نادرًا ما ألاحظ عليه بعض الأعراض المنذرة بالخطر. خلال المؤتمر الأول للأممية الشيوعية، فوجئت بما يبدو علىٰ مظهره من إرهاقٍ شديد، وبالتردُّد في صوته، وابتسامته التي توحي بالإعياء. وأخبرته أكثر من مرةٍ أنه يستهلك نفسه في أمورٍ ثانوية الشأن، كان يتفق معي في ذلك، لكن يرد بأن ما من مفر من ذلك. كان أحيانًا ما يشكو، غارضًا، وببعض الخجل البادي عليه، من الصداع. لكن أسبوعين أو ثلاثة من الراحة كانوا كافيين لاستعادة نشاطه المعتاد. كان يبدو أن طاقته لن تخبو أبدًا.

تدهورت حالته في أواخر العام 1921. وفي 7 ديسمبر، أرسل مذكرةً لأعضاء المكتب السياسي قائلًا: "برغم أني أقضي وقتًا أطول في الراحة وأقل في العمل خلال الأيام الماضية، لكن الأرق يداهمني

بعنف. أخشىٰ ألا أتمكَّن من تقديم أي تقارير، سواء لمؤتمر الحزب أو لمؤتمر السوفييتات". بدأ لينين في قضاء وقت أطول كثيرًا في قريةٍ بالقرب من موسكو، لكنه كان يراقب تقدُّم العمل بعنايةٍ بالغة من هناك. في ذلك الوقت، كان يجري الإعداد لمؤتمر جينيف، وفي 23 يناير 1922، كتب لينين لأعضاء المكتب السياسي:

> "تلقيت مؤخرًا رسالتين من تشيرشين (بتاريخ 20 و22) يسأل فيهما عمَّا إذا كان من غير المرغوب أن نوافق علىٰ بعض التغييرات البسيطة في الدستور، علىٰ سبيل التعويض الملائم، اسميًا لتمثيل العناصر الطفيلية في السوفييتات. هذا من شأنه أن يُسعِد الأمريكيين. هذا الطلب الذي يقدمه تشيرشين يُظهِر، في وجهة نظري، أنه لابد من إرسال الرجل إلىٰ مصحةٍ علىٰ الفور، فكل تنازل في هذا الصدد، أو موافقة علىٰ التأجيل، إلخ، سيكون، في وجهة نظري، بمثابة تهديد أكبر علىٰ المفاوضات".

في كل كلمة من هذه المذكرة، تنضح أنفاس لينين حيًا، بضراوته السياسية المُخضَّبة بدهاءٍ لا ضغينة فيه.

استمرت حالته الصحية في التدهور، وفي مارس صارت آلام رأسه تراوده أكثر من ذي قبل. لم يجد الأطباء أي خللٍ عضوي، إلا أنهم أوصوا براحةٍ ممتدة. استقر لينين بشكلٍ دائم في قريةٍ بالقرب من

موسكو، وهناك داهمته السكتة الدماغية الأولىٰ في بداية مايو، ويبدو أن ذلك قد حدث قبل يومين من زيارة بوخارين. لماذا إذن لم يخبرني أحدٌ بذلك في وقتٍ لا أظن أني كنت فيه "مشبوهًا" فيه؟ قال لي بوخارين: "لم نكن نريد إزعاجك. كنَّا ننتظر لنرىٰ كيف تتطوَّر حالته". تحدَّث بوخارين بإخلاصٍ وصدق، بينما كان يُردِّد ما أقنعه "البالغون" بتصديقه. في ذلك الوقت، كان بوخارين مرتبطًا بي بدرجةٍ ما، بطريقته "البوخارينية" التي تميزه - نصف هيستيري، نصف طفولي. وقد أنهىٰ حديثه عن مرض لينين ملقيًا نفسه علىٰ فراشي، ضاغطًا بذراعيه إياي من فوق البطانية متمتمًا: "لا تمرض، أتوسَّل إليك لا تمرض... شخصان فقط تفزعني فكرة موتِهما: لينين وأنت". راهنته بطريقةٍ ودية علىٰ أنه سيستعيد رباطة جأشه. لكنه كان يمنعني من التركيز علىٰ الخطر الذي ينذر به هذا النبأ. كانت الضربة قاسمة، وقد بدا أن الثورة نفسها تحبس أنفاسها.

تقول ناتاليا سيدوفا في مذكراتها: "لم تكن الشائعات الأولىٰ حول مرض لينين تنتقل إلا همسًا، كان يبدو أن ما من أحدٍ قد خطر بباله حتىٰ أن لينين يمكن أن يمرض. يعرف الكثيرون أن لينين طالما كان يهتم بصحة الآخرين، لكن كان يبدو هو نفسه منيعًا من المرض. كان أغلب الثوريين من الجيل الأقدم يعانون من تأثيراتٍ مختلفة علىٰ القلب، من فرط الإجهاد والضغط الواقعين عليهم. كان الأطباء ليشتكون: محركاتهم، كلهم تقريبًا، أصابها العطب".

قال البروفيسور جيوتير ذات مرة لليف دافيدوفيتش أن "هناك فقط قلبان يخفقان دائمًا بشكل طبيعي؛ قلب لينين وقلبك. بقلبٍ كهذا، بوسع المرء أن يعيش مائة عام". وعلاوة علىٰ ذلك، أكَّدَت فحوصات الأخصائيين الأجانب ذلك، أن من بين كل القلوب التي فحصوها في موسكو، كان قلبا لينين وتروتسكي يخفقان علىٰ نحو جيد بشكلٍ استثنائي. وحينما انتشر نبأ التدهور المفاجئ لصحة لينين، بدا الأمر وكأن هذا التدهور أصاب الثورة نفسها. هل كان من الممكن أن تتداعىٰ صحة لينين من المرض ويموت كأي شخصٍ آخر؟ كان الأمر مفزعًا أن نسمع عن فقدان لينين قدرته علىٰ الحركة أو الكلام. لم يكن بوسعي سوىٰ الاعتقاد بأنه سيتجاوز هذه المحنة وينهض ثم يتعافىٰ. كان هذا هو شعور الحزب بأكمله.

بالنظر إلىٰ الماضي، بعد ذلك بفترة، يمكنني أن أتذكَّر المفاجأة وكأنها أهالتني للتو فقط، حين لم يكن قد وصلني نبأ مرض لينين إلىٰ في اليوم الثالث. في ذلك الوقت، لم أتوقف قط لأفكر مليًا في الأمر، لكن ذلك لم يحدث علىٰ سبيل المصادفة، فقد كان أولئك الذين كانوا يعدون العدة كأعداءٍ لي - ستالين علىٰ الأخص - يسعون لكسب الوقت. وكان من الممكن أن يتحوَّل مرض لينين إلىٰ كارثةٍ في أية لحظة، وقد تصبح مسائل القيادة غدًا، إن لم يكن اليوم، هي الأكثر إلحاحًا. لقد فكر أعدائي أن من المهم كسب الوقت من أجل الإعداد، حتىٰ وإن كان هذا الوقت يومًا واحدًا فقط. تباحثوا سرًا، ووضعوا

الخطط واتفقوا علىٰ الوسائل. لابد من الافتراض هنا أن فكرة معارضة الثلاثي (ستالين – زينوفيف – كامينيف) لي قد وُضِعَت قيد التنفيذ. لكن لينين قد تعافىٰ، وبذل مجهودًا جبارًا بإرادته الصلب وطاقته التي لا تنفذ؛ هذا الدماغ الذي لم يكن يصل إليه ما يكفيه من الدم، والذي فقد بالفعل القدرة علىٰ تجميع الأصوات واستهجاء الأحرف، بُعِثَ فجأة.

في أواخر مايو، ذهبت في رحلةٍ لصيد الأسماك في مكانٍ يبعد حوالي 88 كيلومتر عن موسكو، وفي هذا المكان كانت هناك مصحةٌ تحمل اسم "لينين". مشىٰ الأطفال علىٰ ضفة البحيرة إلىٰ جانبي، وسألوني كثيرًا عن صحة لينين، وأعطوني أزهارًا من الحقل وخطابًا أسلِّمهم له. لكن لينين الذي كان لا يزال عاجزًا عن الكتابة أملىٰ سكيرتيرته القليل من الجمل: "طلب مني فلاديمير لينين أن أكتب لك عن ترحيبه باقتراحك بأخذ هدية منه للأطفال في المصحة في محطة بودسولنيتشنايا. ويطلب منك أن تخبر الصغار أنه يشكرهم كثيرًا علىٰ خطابهم الرقيق وأزهارهم، ويعتذر عن عدم مقدرته علىٰ تلبية دعوتهم، ويقول أن ما من شك لديه في أنه سيتعافىٰ قريبًا برفقتهم".

وفي يوليو، انتصبت قامة لينين مرة أخرىٰ، وقف علىٰ قدميه، وبرغم أنه لم يكن قد عاد رسميًا للعمل حتىٰ أكتوبر، كان يراقب كل شيء ويدرس كل شيء. وخلال أشهر النقاهة تلك، كانت من بين الأمور التي شغلت باله هي محاكمة الثوريين الاشتراكيين. اغتال الثوريون

الاشتراكيون فولودارسكي ويوريتسكي، إضافة إلىٰ أنهم أصابوا لينين إصابةً خطيرة، وحاولوا تفجير قطاره مرتين. لم يكن من الممكن أن نتعامل مع كل ذلك برقة. ورغم أننا لا نتعاطىٰ مع هذا الأمر من وجهة النظر المثالية لأعدائنا، كنَّا نقدِّر "دور الفرد في التاريخ". لم يكن بوسعنا إغلاق أعيننا عن الخطر الذي كان ليُهدِّد الثورة إذا سمحنا لأعدائنا بقتل المجموعة القيادية لحزبنا واحدًا بعد الآخر.

لقد شرح لنا أصدقاؤنا الإنسانيون من النوع الفاتر، الذي ليس ساخنًا ولا باردًا، أكثر من مرةٍ أنهم يرون ضرورة الانتقام والأخذ بالثأر بشكلٍ عام، لكن أن تطلق النار علىٰ عدوٍ أسير فهذا يعني تجاوز حدود الضرورة من الدفاع عن النفس. كانوا يطالبون بإظهار بعض "السماحة". أما كلارا زيتكين، وبعض الشيوعيين الأوروبيين الآخرين، في وقتٍ كانوا لا يزالون يجرأون علىٰ قول ما يفكرون فيه، في معارضة لينين ومعارضتي، فقد كانوا يصرون علىٰ أننا نهدر حياة الرجال في هذه المحاكمات. وفي المقابل، اقترحوا تقليص العقوبة إلىٰ الحبس في السجون. بدا هذا وكأنه الحل الأسهل علىٰ الإطلاق، لكن قضية الانتقام من الأفراد في أزمنة الثورة تتخذ سمةً خاصة للغاية ترتد منها التعميمات الإنسانية في ضعفٍ ووهن. النضال في هذه الأزمنة إنما هو نضال علىٰ السلطة الحقيقية، إنما هو نضال حياةٍ أو موت - وهكذا هي الثورة نفسها. في مثل هذه الظروف، أي معنىٰ يمكن أن تحمله عقوبة الحبس لأولئك الذين يأملون الاستيلاء علىٰ السلطة في غضون

بضعة أسابيع ليسجنون ويُدمِّرون من يمسكون بدفة الحكم؟ من وجهة نظر القيمة المجردة للوجود الشخصي الإنساني، فلا تستحق الثورة إذن إلا الشجب والتنديد، مثلها في ذلك مثل الحرب - والأمر نفسه ينطبق علىٰ تاريخ البشرية بأكمله. لكن فكرة الوجود الشخصي نفسها تتطوَّر فقط كنتيجةٍ للثورات، وهي العملية التي لا تزال غير مكتملة. ومن أجل أن تصبح فكرة الوجود الشخصي حقيقة، وأن تكف فكرة "الجماهير" نصف المُحقَّرة عن كونها نقيضًا لفكرة "الوجود الشخصي" المتميزة فلسفيًا، فلابد أن ترفع الجماهير نفسها إلىٰ منزلةٍ تاريخية جديدة بواسطة رافعة ثورية، أو علىٰ نحو أدق: بواسطة سلسلة من الثورات. لا أعرف إذا كان هذا الأسلوب جيدًا أم سيئًا من وجهة نظر الفلسفة المعيارية، وعليّ أن أعترف أنني لست مهتمًا بمعرفة ذلك. لكنني أعرف جيدًا، وأدرك تمام الإدراك، أن هذا هو الطريق الوحيد الذي توصَّلَت إليه البشرية حتىٰ الآن.

هذه الاعتبارات ليست بأي حال محاولة لـ"تبرير" الإرهاب الثوري. وأي محاولةٍ للتبرير تعني بالضرورة الإحاطة بمن يوجهون الاتهام. من هم إذن؟ هؤلاء الذين ينظمون المذابح الكبرىٰ في العالم؟ الأثرياء الجدد الذين يعرضون علىٰ جنودهم المجهولين نكهة سيجار ما بعد الغداء؟ دعاة السلام الذين كرَّسوا جهودهم ضد حربٍ ليست موجودة، والذين هم مستعدون لتكرار مساخرهم المثيرة للاشمئزاز؟ لويد جورج وويلسون وبوينكار الذين يعتبرون لأنفسهم الحق في

تجويع الأطفال الألمان جرَّاء جرائم آل هوهنزولرن وجرائمهم؟ المحافظون الإنجليز والجمهوريون الفرنسيون الذين أشعلوا، من أماكنهم الآمنة، نيران الحرب الأهلية في روسيا، بينما يكنزون أرباحهم من دمائها؟ طابور الأسماء طويل ولا يبدو أن هناك نهايةً له. بالنسبة لي، هذه ليست قضية تبرير فلسفي، بل تفسير سياسي. إن الثورة هي ثورة فقط لأنها تقلِّص كافة التناقضات إلىٰ الخيار بين الحياة والموت. هل يمكن تصوُّر أن الرجال، الذين يحلون قضية السيادة والسلطة علىٰ أراضي الألزاس واللورين كل نصف قرن بجبالٍ من الجثث البشرية، قادرون علىٰ إعادة بناء العلاقات الاجتماعية فقط بمجرد أحاديث الدمىٰ البرلمانية لا أكثر؟ علىٰ أي حال، لم يقدم لنا أحدٌ حتىٰ الآن طريقةً لفعل ذلك. أما نحن، فنحطم الصخور القديمة بالحديد والديناميت، وحين يتحدَّث أعداؤنا بلغة الرصاص الذي يطلقونه علينا، من بنادقٍ، قادمة في الأغلب من أكثر البلدان تحضُّرًا وديمقراطية، فإننا نرد بنفس اللغة. وحين أخذ برنارد شو يهز لحيته موبِخًا كلا الطرفين، لم يكن أحدٌ يلتفت لجدالاته المُقدَّسة.

في صيف 1922، صارت قضية الانتقام أكثر إلحاحًا من ذي قبل، إذ أنها كانت في ذلك الوقت تتعلَّق بقادة حزبٍ كان من قبل يشن النضال الثوري، جنبًا إلىٰ جنب معنا، ضد القيصرية، لكنه أدار أسلحة إرهابه إلينا بعد ثورة أكتوبر. لقد كشف لنا بعض ممن غادروا معسكر الثوريين الاشتراكيين أن العمليات الإرهابية الأسوأ لم يكن مجرد

أفراد هم من يُخطِّطون لها، كما كنَّا نميل إلىٰ التصديق، بل الحزب نفسه، رغم أن الحزب لم يكن يخاطر بإعلان مسئوليته عن عمليات الاغتيالات التي كان يرتكبها. كانت أحكام الإعدام حتمية، لكن تنفيذها كان يعني، بنفس القدر من الحتمية، موجة إرهاب انتقامية. أما تقليص العقوبة فقط إلىٰ الحبس، حتىٰ وإن كان لفتراتٍ زمنية طويلة، فلم يكن يعني سوىٰ تشجيع الإرهابيين وتحفيزهم، إذ كانوا أقل من يعتقد بطول فترة حياة السوفييتات. لم يكن هناك بديلٌ عن رهن تنفيذ العقوبة بما إذا كان الحزب سيواصل نضاله الإرهابي. بعبارةٍ أخرىٰ؛ كان لابد من احتجاز قادة الحزب كرهائن.

•

كان اجتماعي الأول مع لينين بعد تعافيه أثناء محاكمة الثوريين الاشتراكيين، وافق لينين علىٰ الفور وبكثيرٍ من الارتياح، علىٰ الطرح الذي قدَّمته: "صحيح تمامًا، ما من بديل لذلك". من الواضح أن كان لتعافيه أثرٌ دافعٌ له. لكن، كان لا يزال لديه خوفٌ داخلي، فقال لي مرتبكًا بعض الشيء: "أنت تفهم طبعًا. لم يكن بمقدوري الكتابة أو الكلام، وكان عليّ أن أتعلَّم كل شيء من البداية"، ورفع عينيه إليّ كأنه يناشدني.

عاد لينين رسميًا إلىٰ العمل في أكتوبر وترأس المكتب السياسي ومجلس مفوَّضي الشعب، وفي نوفمبر ألقىٰ بعض الخطب بكثيرٍ مما تبقىٰ من قوة في شرايينه. بدا أنه يتلمَّس بالفعل الخيوط الدقيقة للمؤامرة التي تُحاك من وراء ظهورنا مستغلةً فترة مرضه. لم يكن

رجال الصف الثاني حتىٰ ذلك الوقت يحرقون الجسور من خلفهم، لكنهم هنا وهناك تمكّنوا من اختراق العوارض والحواجز، وخبّأوا ما جمعوه من أصابع الديناميت كخطوةٍ نهائية في سلسلة مكائدهم. كانوا يعارضونني دومًا متىٰ حانت الفرصة لذلك، كما لو كانوا يتمرّنون علىٰ الاستقلالية. وكلما كان لينين ينغمس بصورةٍ أعمق في العمل، كان يراقب بمزيدٍ من القلق التغيُّرات التي طرأت خلال الشهور السابقة، ورغم أنه لم ينبت ببنت شفة عن هذه التغيُّرات خشية تفاقم الموقف، كان يعد لزجر "الثلاثي" وصده، وبدأ بالفعل في ذلك في بعض الأمور الفردية.

من ضمن الأشغال العشرة التي كنت أعمل بها كجزءٍ من العمل الحزبي، كانت الدعاية المناهضة للدين، والتي كان عملي فيها خاصًا وغير رسمي، وكان لينين مهتمًا للغاية بهذا الشأن، وقد طلب مني بإصرارٍ شديد ألا أترك هذا المجال غائبًا عن ناظريّ. وخلال فترة نقاهته، عَلِمَ بطريقةٍ ما أن ستالين كان يناور ضدي من خلال إعادة تنظيم جهاز الدعاية المناهضة للدين وإزاحتي جانبًا عنه. ولقد أرسل لينين، من القرية التي مَكَثَ فيها فترة نقاهته، خطابًا إلىٰ المكتب السياسي يقتبس فيه، من دون ضرورةٍ واضحة لذلك، من كتابي عن كاوتسكي، مادحًا المؤلف لكن من دون ذكره أو ذكر الكتاب بالاسم. عليّ أن أعترف أنني لم أظن في ذلك الوقت أن هذه كانت طريقة غير مباشرة يُندِّد فيها لينين بمناورات ستالين ضدي. في تلك الأثناء، كان

يجري الدفع بياروسلافسكي لتولي الدعاية المناهضة للدين، وحينما عاد لينين للعمل وسمع بالأمر، نَهَرَ مولوتوف بعنف - وهكذا نَهَرَ ستالين من خلاله - في واحدٍ من اجتماعات المكتب السياسي: "يارو - سلا - فسكي؟ ألا تعلم من هو ياروسلافسكي؟ إنه مثيرٌ للضحك. لن يقدر أبدًا علىٰ إدارة هذا العمل"، وهكذا. قد تبدو حدة انتقاد لينين هنا مبالغًا فيها لغير المطلعين علىٰ تفاصيل الأمور، لكن المسألة لم تكن أن لينين لم يكن يطيق ياروسلافسكي، بل لم يكن يطيق توجُّه الحزب. كانت مثل هذه المواقف مُتكرِّرة بما فيه الكفاية.

إذا نظرتم للأمر بقليلٍ من التعمُّق، ستجدون ستالين، منذ اللحظة التي صار فيها علىٰ صلةٍ أقرب بلينين، بالأخص منذ ثورة أكتوبر، كان دائمًا ضعيفًا واهنًا في موقفه تجاهي، وهذا ما كان يجعله أكثر انفعالًا واهتياجًا. وبسبب طموحه الممزوج بحقدٍ هائل، لم يكن يشعر في أية خطوة علىٰ الإطلاق بدونيته الفكرية والأخلاقية. يبدو أنه قد حاول التقرُّب مني، ومن ناحيتي لم أدرك معنىٰ محاولاته لاصطناع بعض الألفة بيننا إلا بعد وقتٍ طويل لاحق. لكن ما جعلني أنفر من ذلك هي نفس تلك الصفات التي كانت بمثابة نقاط قوة بالنسبة له في موجات التراجع - ضيق الاهتمامات، والإمبريقية، والفظاظة في التصالح مع النفس، وإثارته السخرية كقروي قد تحرَّرَت ماركسيته من الكثير من التحيُّزات دون استبدالها بمنظورٍ فلسفي أُمعن التفكير فيه واستُوعِبَ ذهنيًا. بهذه الصفات، التي بدت في ذلك الوقت مجرد صفاتٍ عارضة

لكنها لم تكن في الحقيقة كذلك، كان ستالين يحاول أن يجد فيّ ما يدعمه ضد لينين الذي ضاق ستالين ذرعًا بسيطرته. في كل محاولةٍ من هذا النوع، كنت أنفر منه علىٰ الدوام، هكذا بشكل غريزي، وأسير بعيدًا. أعتقد أن مصادر كراهيته لي، هذه الكراهية البرداء، الجبانة في المقام الأول، بل والغادرة أخسَّ الغدر، إنما يمكن إيجادها في هذا. وبشكل ممنهج، كان يجمع حوله رجالًا إما يشبهونه تمامًا، أو يريدون أن يعيشوا دون إزعاج حتىٰ أصغر المشاكل وأضألها، أو رجالًا مكسوري الجناح. وهؤلاء الرجال، سواء من النوع الأول أو الثاني أو الثالث، كانوا كُثُر.

ما مِن شكٍ أنه في العمل الروتيني، كان من الملائم تمامًا بالنسبة للينين أن يعتمد علىٰ ستالين، وزينوفيف أو كامينيف، فقد كان يحاول دائمًا الحفاظ علىٰ وقته وادخار بعضٍ منه، وكذلك وقت الجميع أيضًا. حاول لينين أن يقلِّص إلىٰ أدنىٰ حد الطاقة المبذولة في الصراعات المقبلة. أنا بالتأكيد لديّ رؤاي الخاصة، وطرقي الخاصة في العمل، وأساليبي الخاصة في تنفيذ أي قرار فور إقراره، وكان لينين يعرف ذلك جيدًا ويحترمه، ولهذا كان يدرك جيدًا أنني غير مناسب للجان التنفيذية، وحينما كان في حاجةٍ لرجالٍ ينفذون تعليماته، أوكل الأمر لآخرين. وفي فتراتٍ معينة، بالأخص حينما كان بيننا، لينين وأنا، بعض الخلافات، ربما جعل ذلك معاونيه يظنون أنهم مقرَّبون إليه بشكل خاص. علىٰ سبيل المثال، دعا لينين كلًا من ريكوف وتزيوروبا ليتوليا

نيابته كرئيس مجلس مفوَّضي الشعب، وبعد ذلك أضاف كامينيف إليهما (وكنت أرىٰ ذلك خيارًا موفَّقًا)، وكان ذلك نظرًا لحاجة لينين إلىٰ معاونين عمليين ومطيعين. لم أكن مناسبًا لهذا الدور، وليس بوسعي إلا أن أشكر لينين علىٰ عدم عرضه عليّ. لم أعتبر ذلك ضعفًا لثقته فيّ، علىٰ الإطلاق، بل رأيته علىٰ العكس تقديرًا تامًا لا مجاملة فيه لي ولعلاقتنا المشتركة. فقد كانت حالة أوعيته الدموية مُتَقَلِّبَةً وتنذر ببعض السوء خلال تلك الفترة. وفي واحدٍ من اجتماعات المكتب السياسي، ترنَّح لينين قليلًا حينما نهض ليسلِّم أحد الحاضرين ملاحظةً كتبها علىٰ ورقة - اعتاد لينين علىٰ تبادل الملاحظات هكذا دائمًا في الاجتماعات من أجل الإسراع في العمل. لاحظت ذلك فقط لأن تعبيرات وجهه تغيَّرت فجأةً في هذه اللحظة. كانت هذه مرةً من مراتٍ عديدة قرَعَت فيها مراكزه الحيوية نواقيس الخطر. لم يكن لينين يتغافل عن ذلك، بل لقد كان يفكر مليًا من كل الزوايا في كيفية سريان العمل بدونه وبعده. لابد أن ذلك كان هو الوقت الذي صاغ فيه داخل عقله الوثيقة التي عُرِفَت فيما بعد بـ"وصيته". وخلال نفس الفترة، في الأسابيع الأخيرة قبل السكتة الدماغية الثانية، جمعتني بلينين محادثةٌ طويلة عن عملي في المستقبل، ونظرًا للأهمية السياسية لهذه المحادثة فقد رويتها علىٰ الفور لعددٍ من الأشخاص (راكوفسكي، وسميرنوف، وسوسنوفسكي، وبريوبراجنسكي، وآخرين)، وربما بسبب هذا التكرار ظلَّت هذه المحادثة محفورة في ذاكرتي.

جرت الأمور على هذا النحو. أرسلت اللجنة المركزية لاتحاد العاملين بالتعليم وفدًا إلى لينين ولي بطلبٍ أن أتولى مفوَّضية التعليم إلى جانب واجباتي الأخرى، على نفس النحو الذي توليت به مفوَّضية النقل قبل ذلك بعام. أراد لينين أن يعرف رأيي في الأمر، فأخبرته أن المصاعب في مجال التعليم، كما في أي مجالٍ آخر، إنما تنبع من الجهاز الإداري، فسار لينين في ركاب أفكاري ورد على الفور: "نعم، بيروقراطيتنا فظيعة". ثم استطرد: "لقد فُزِعت حين عدت مجددًا إلى العمل... ولهذا بالذات عليك ألا تغرق في أي عملٍ إداري آخر بجانب الجيش - أو على الأقل هذا هو ما أفكر فيه". بعد ذلك شرع لينين في شرح خطته بقناعةٍ راسخة. كانت طاقته التي يهبها لأعمال التوجيه السياسي محدودة، في حين كان لديه ثلاثة نوَّاب: "أنت تعرفهم. كامينيف بالطبع سياسي بارع، لكن هل هو إداري ماهر؟ تزيوروبا مريض. أما ريكوف فربما هو إداري جيد، لكنه سيضطر للعودة إلى المجلس الأعلى للاقتصاد. لابد أن تصبح نائبًا. مثل هذا الموقف يفرض علينا إعادة تنظيم الأشخاص بشكلٍ جذري". عدت مرةً أخرى للإشارة إلى "الجهاز" الذي يجعل حتى عملي في إدارة الحرب صعبًا بشكل متزايد. رد لينين سريعًا وبحسم، لافتًا إلى تعبيرٍ كنت قد استخدمته من قبل: "حسنًا، ستكون هذه فرصتك لزعزعة هذا الجهاز". استكملت حديثي معه مشيرًا إلى أن البيروقراطية ليست فقط في مؤسسات الدولة، بل في الحزب أيضًا، وأن سبب كل المشاكل

هو الدمج بين الجهازين في التحصين المشترك للمجموعات ذات النفوذ والتأثير التي تُشكِّل هيكل أمانات الحزب. استمع لينين باهتمامٍ بالغ، وشدَّد علىٰ اقتراحاتي بهذه النبرة التي تنبعث مباشرةً من أعماق الصدر، هذه النبرة التي لا يتحدَّث بها إلا حينما ينوي الاستغناء عن اصطلاحات النقاشات ويمسك بالمسائل الأهم والأكثر إلحاحًا، واثقًا في أن الشخص الذي يتحدَّث إليه يفهمه تمامًا. وبعد تفكيرٍ للحظة، وضع لينين القضية كلها مباشرةً وهكذا بأكثر ما يمكن من الصراحة: "أنت إذن تقترح فتح النار ليس فقط علىٰ بيروقراطية الدولة، لكن علىٰ المكتب التنظيمي للجنة المركزية أيضًا؟". لم يكن بوسعي إلا الضحك، فلم يكن هذا مُتوقَّعًا: "يبدو الأمر هكذا". المكتب التنظيمي كان يعني قلب جهاز ستالين نفسه.

بعدها كان من الواضح في رد لينين أنه مسرورٌ أننا أطلقنا سويًا علىٰ الشيء نفسه اسمه الصحيح: "حسنًا إذن، إذا كان الأمر هكذا، فأنا أعرض عليك تشكيل تكتل معك ضد البيروقراطية بشكلٍ عام، وضد المكتب التنظيمي بشكلٍ خاص".

وجاء ردي: "مع رجلٍ جيد، من الشرف تشكيل تكتل جيد".

اتفقنا علىٰ اللقاء مرةً أخرىٰ في وقتٍ لاحق، واقترح لينين أن أركز علىٰ التفكير في الجانب التنظيمي من هذه القضية. خطَّط لتأسيس لجنة مرتبطة باللجنة المركزية بُغية مكافحة البيروقراطية، علىٰ أن

يكون كلانا عضوًا فيها. كانت هذه اللجنة ضرورية من أجل تحطيم الكتلة الملتفة حول ستالين باعتبارها العمود الفقري للبيروقراطية، ومن أجل تمهيد الظروف الداخلية في الحزب التي تسمح لي بأن أصبح نائبًا للينين، بل أيضًا خليفةً له في منصب رئيس مجلس مفوَّضي الشعب، كما كان ينوي لينين نفسه.

فقط في هذا السياق، يصير ما عُرِفَ بـ"وصية" لينين واضحًا. تناول لينين ستة أسماء باختصار، لكن باتزان دقيق في كل كلمة. ومما لا شك فيه أن الهدف من صياغة هذه الوصية كان تسهيل عملي في التوجيه السياسي. ومن الطبيعي أن لينين قد أراد فعل ذلك بأقل ما يمكن من الحدة، فتحدَّث عن كل واحدٍ من الستة بحذرٍ وتعقُّل، مُخفِّفًا ما قد يبدو قاسيًا في أحكامه. وفي الوقت نفسه أشار صراحةً، مع بعض التحفُّظات، إلىٰ مؤهلات الشخص الذي يعتقد أنه في مقامٍ أعلىٰ. لكن فقط عند تحليله لستالين، يمكن ملاحظة نبرة مختلفة، وهذه النبرة لم تقل حدةً في الحاشية اللاحقة للوصية.

بالنسبة لزينوفيف وكامينيف، كتب لينين أن استهتارهما في 1917 "لم يكن عارضًا"، بل أنه، بعبارةٍ أخرىٰ؛ يجري في عروقهم مجرىٰ الدم. من الواضح أن مثل هؤلاء الرجال لا يمكن أن يرشدوا الثورة، لكن لا يجب أن يُوبَّخوا علىٰ ماضيهم. من ناحيةٍ أخرىٰ، بوخارين

ليس ماركسيًا بل أكاديميًا، لكنه رغم ذلك شخصٌ متعاطف. أما بياتاكوف[21] ، فهو إداري قدير، لكن سياسي رديء. لكن من الممكن، رغم ذلك، أن يستمر كليهما -بوخارين وبياتاكوف- في التعلُّم. الشخص الأقدر فيهم علىٰ الإطلاق هو تروتسكي، عيبه الوحيد هو ثقته الزائدة في نفسه. أما ستالين فهو فظٌّ وغادر ولا مانع لديه من استغلال السلطة المُستمَدة من جهاز الحزب. ينبغي عزل ستالين من أجل تجنُّب حدوث انشقاق. هذه هي خلاصة "الوصية" التي ترتكز علىٰ الطرح الذي قدَّمه لي لينين في محادثتنا الأخيرة.

بدأ لينين يعرف ستالين بشكلٍ حقيقي فقط بعد ثورة أكتوبر. لقد قدَّر لينين حزمه وعقله العملي، وهذا ما كان يمثل ثلاثة أرباع براعته. لكنه في كل خطوة كان يضرب جهل ستالين، وأفقه السياسي شديد الضيق، وفظاظته الأخلاقية وانعدام ضميره. انتُخِبَ ستالين في منصب الأمين العام للحزب، علىٰ عكس إرادة لينين الذي أذعن لذلك طالما أنه هو نفسه يترأس الحزب ويقوده. لكن حينما عاد للعمل مرةً أخرىٰ واهن القوىٰ بعد السكتة الدماغية الأولىٰ، وَهَبَ كل جهوده لحل

---

[21] كتب تروتسكي عن بياتاكوف قائلًا: "في لحظاتٍ من الصراحة، أخبرني بياتاكوف أكثر من مرة، بنبرةٍ مُجهدةٍ مرتابة، أن السياسة لا تجذب اهتمامه وأنه يريد أن يغير وضعه ليصبح أخصائيًا وليس سياسيًا" (Leon Trotsky - The Challenge of The Left Opposition: 1928-29, Page 67). أما لينين، فكتب عنه: "في الأمور السياسية الخطيرة، لا يمكن الاعتماد على بياتاكوف" (Lenin - Collected Works, Vol. 36, Page 595). (المترجم)

مشاكل القيادة. وهذا ما دار في المحادثة بيننا. هنا أيضًا نعود إلىٰ الوصية، التي كُتِبَت سطورها الأخيرة في 4 يناير. وبعد ذلك، مضىٰ شهران اتخذ فيهما الموقف شكلًا محددًا. حينها لم يكن لينين يُخطِّط فقط لعزل ستالين من منصب الأمين العام للحزب، بل أيضًا لكشفه أمام الحزب كله. وسواء في قضية احتكار التجارة الخارجية، أو في القضية القومية، أو في قضايا الحكم داخل الحزب، أو فيما يتعلَّق بالتفتيش العمالي والفلاحي، أو لجنة التحكم، كان لينين يُخطِّط بشكلٍ منهجي لتوجيه ضربة قاضية لستالين باعتباره تجسيداً حيًا وشخصيًا للبيروقراطية، والتحصين المشترك بين الموظفين، والحكم الاستبدادي، والفظاظة والوقاحة بشكل عام.

هل كان بمقدور لينين تعزيز الاتجاه الحزبي الذي خطَّط له؟ نعم، في تلك اللحظة، كان بمقدوره فعل ذلك بلا شك. وقد كانت هناك بعض السوابق التي تؤكِّد ذلك. واحدةٌ من هذه السوابق التي أعتبرها مهمةً للغاية لا تزال حاضرةً في ذهني. في نوفمبر 1922، حينما كان لينين يقضي فترة نقاهته في الريف، وكنت أنا غائبٌ عن موسكو، اتخذت اللجنة المركزية قرارًا بالإجماع يُسدِّد ضربةً لا مردَّ لها لاحتكار التجارة الخارجية. لكن سرعان ما حذَّرت أنا وحذَّرَ لينين من هذا القرار، كلٌّ منا بشكلٍ مستقل عن الآخر، ثم تراسلنا فيما بيننا لتنسيق تحرُّكنا ضد هذا القرار. وبعد أسابيع قليلة، ألغت اللجنة المركزية قرارها بالإجماع تمامًا كما اتخذته. وفي 21 ديسمبر، أرسل

إليّ لينين مفعمًا بشعور الانتصار، قائلًا: "الرفيق تروتسكي، يبدو أننا تمكَّنًا من الانتصار في هذه المعركة، بمجرد مناورة بسيطة، دون طلقة واحدة. أقترح ألا نوقف الهجوم، بل أن نصعِّده". لقد جلب هذا التحرُّك المشترك ضد اللجنة المركزية نصرًا لا أدنىٰ شك فيه. والأكثر من ذلك هو أن لا شك لديّ علىٰ الإطلاق في أنني إذا كنت قد تقدَّمت في خضم المؤتمر الثاني عشر للحزب بروح "تكتل لينين وتروتسكي" ضد بيروقراطية ستالين، كنت سأحقق انتصارًا أكيدًا، حتىٰ إن لم يكن لينين ليشارك بشكلٍ مباشر في هذا الصراع. أما درجة صلابة هذا الانتصار، فهذا أمرٌ آخر.

لكن لاتخاذ مثل هذا القرار، ينبغي وضع عددٍ من العمليات الموضوعية في الحسبان، سواء في البلد بأكملها، أو في الطبقة العاملة، أو في الحزب نفسه. وهذا موضوعٌ كبيرٌ منفصل. قالت زوجة لينين في العام 1927 أنه إذا كان لينين علىٰ قيد الحياة آنذاك، ربما كان ليقبع بعض الوقت في أحد سجون ستالين. أعتقد أنها كانت علىٰ حق.

لم تكمن أهمية الأمر في ستالين بحد ذاته، بل في القوىٰ التي كان يعبر عنها دون حتىٰ إدراك ذلك. بين عاميّ 1922 و1923، كان لا يزال من الممكن السيطرة علىٰ الموقع القيادي من خلال هجوم مفتوح علىٰ ذلك الفصيل الحزبي الذي تشكَّل سريعًا من موظفين اشتراكيين قوميين، من مغتصبي جهاز الحزب؛ الورثة غير الشرعيين لأكتوبر؛ الصف الثاني للبلشفية. لكن العقبة الرئيسية التي وقفت حائلًا

دون ذلك هي حالة لينين، حيث كان من المُتوقَّع أن ينهض مجددًا كما فعل من قبل بعد سكتته الدماغية الأولىٰ وأن يشارك في المؤتمر الثاني عشر كما شارك في المؤتمر الحادي عشر. كان هو نفسه يأمل ذلك، وكان الأطباء يتحدَّثون بحماسة، لكن بقدرٍ أقل من الطمأنة. في حين كانت فكرة "تكتل لينين وتروتسكي" ضد رجال الأجهزة والبيروقراطيين معروفةً في ذلك الوقت فقط للينين ولي، رغم أن أعضاء المكتب السياسي الآخرين كانوا يشمُّون رائحتها.

ظلَّت خطابات لينين عن المسألة القومية، وكذلك وصيته، طيّ الكتمان لا يعلم أحدٌ عنهما شيئًا. وتحرُّكاتي المستقلة في ذلك الوقت كانت ستُفسَّر، أو بالأحرىٰ كان ليجري تصويرها، كصراعٍ شخصي للإحلال محل لينين في الحزب والدولة، ومجرد التفكير في ذلك كان يصيبني بالقشعريرة. كنت أعتبر أن ذلك من شأنه أن يصيب قواعد الحزب بالموات، وأنه سيكون علينا دفع ثمنٍ باهظ حتىٰ في حالة تحقيق النصر. وفي كل الخطط والحسابات، كان هناك علىٰ الدوام عنصرٌ غير محسوم، ألا وهو الحالة الصحية للينين. هل كان بمقدوره أن يعبر عن رؤاه؟ هل كان لديه الوقت الكافي؟ هل كان الحزب ليفهم الأمر علىٰ أنه نضالٌ يشنه لينين وتروتسكي من أجل مستقبل الثورة، لا باعتباره صراعًا يخوضه تروتسكي لانتزاع مكان لينين الذي يقبع مريضًا طريح الفراش؟

وبسبب المكانة الاستثنائية للينين في الحزب، فقد صارُ تذبذُب حالة لينين الشخصية تذبذُبًا لحالة الحزب بكامله. طال هذا الوضع غير المستقر كثيرًا، وكان التأجيل يصب ببساطة في مصلحة رجال الصف الثاني، إذ صار ستالين الرأس الكبيرة في جهاز الحزب طيلة فترة "خلو العرش".

كان مارس 1923 يزحف بطيئًا، بينما يرقد لينين في غرفته في مبنىٰ مجمع المحاكم العملاق. حينها كانت السكتة الثانية تقترب بجرأة، وقد سبقتها سلسلةٌ من الصدمات الأقل شأنًا. لقد قضيت أسابيع عديدة في الفراش متأثرًا بآلامٍ أسفل الظهر في مبنىٰ كافالر الشاهق، حيث كانت شقتي، تفصلني عن لينين ساحة الكرملين الشاسعة. لم يكن هناك أي هاتف في متناول يدي، ولا لينين أيضًا، وما زاد الطينة بلة أن الأطباء قد حظروا علىٰ لينين إجراء أية مكالمات هاتفية حظرًا تامًا. في المقابل، أدت سكيرتيرتا لينين، فوتييفا وجلاسر، وظيفة أشبه بضباط الاتصال في الجيش. وهذا ما جاءتا تقولان لي: "فلاديمير إيليتش منزعجٌ بشدة من ترتيبات ستالين لمؤتمر الحزب المقبل، بالأخص بسبب مكائده الحزبية في جورجيا... فلاديمير إيليتش يجهز قنبلة لستالين في المؤتمر". كانت الأخيرة هي جملة فوتييفا بالحرف الواحد، وكلمة "قنبلة" كانت كلمة لينين لا كلمتها. ثم أردفت: "فلاديمير إيليتش يطلب منك أن تأخذ القضية الجورجية بين يديك،

حينها فقط سيشعر بالثقة". وفي 5 مارس، أملىٰ لينين هذه المذكرة مرسلًا إياها لي:

"الرفيق العزيز تروتسكي، أود أن أطلب منك أن تأخذ علىٰ عاتقك مهمة الدفاع عن القضية الجورجية في اللجنة المركزية للحزب. في الوقت الراهن، تقع هذه القضية تحت طائلة اضطهاد ستالين ودزرجنسكي، وأنا لا أثق في نزاهتهما، بل علىٰ العكس تمامًا. إذا وافقت علىٰ تولي هذا الدفاع، سيرتاح بالي كثيرًا. وإذا، لسببٍ ما، لم توافق علىٰ ذلك، فبرجاء إعادة الملف لي وسأعتبر ذلك إشارةً منك بالرفض. خالص تحياتي الرفاقية. لينين".

استفسرت: "كيف وصلت المسألة إلىٰ هذه المرحلة الحادة؟". اتضح أن ستالين قد خان ثقة لينين من أجلٰ ضمان دعمٍ له في جورجيا، حيث نظم انقلابًا ضد الجناح الأفضل في الحزب هناك من وراء ظهره، ومن دون علم اللجنة المركزية، بمساعدة أوردجينيكيدزه لكن من دون علم دزرجنسكي، مُحصِّنًا نفسه بشكل زائف خلف سلطة اللجنة المركزية. وبينما كان مرض لينين يمنعه من لقاء رفاقٍ آخرين، تقدَّمَ ستالين واثبًا في هذا الخداع وأحاط لينين بضبابٍ من المعلومات الخاطئة. طلب لينين من سكيرتيرتيه جمع كل ما يمكن التوصُّل إليه من مادة بشأن المسألة الجورجية، وقرَّرَ أن يخرج ببيانٍ علني. من الصعب هنا تحديد الصدمة الأكبر للينين؛ هل كانت غدر ستالين

الشخصي أم سياسته البيروقراطية الخشنة في جورجيا؟[22] منْ المحتمل أن تكون الصدمة مزيجًا من الاثنين معًا.

كان لينين مستعدًا لخوض هذا الصراع، لكن كان يخشىٰ ألا يتمكَّن من الكلام في المؤتمر، وكان قلقًا للغاية بسبب ذلك. سألته سكيرتيرتاه: لِمَ لا تتحدَّث في الأمر مع زينوفيف أو كامينيف؟ لكنه لوَّح لهما بنفاذ صبر. توقَّعَ لينين أنه إذا انسحب من النشاط، سينضم زينوفيف وكامينيف لستالين ليشكِّلوا سويًا ثلاثيًا ضدي، وستكون هذه خيانةً له. سأل لينين سكيرتيرته جلاسر: "هل حدث أن عرفتي موقف تروتسكي من القضية الجورجية؟"، فأجابت: "في الاجتماع العام تحدَّث تروتسكي مؤيدًا لرؤيتك"، إذ كانت جلاسر سكيرتيرة هذا الاجتماع ودوَّنت محضره.

سأل لينين مرة أخرىٰ: "هل أنتي متأكدة؟".

فردت جلاسر: "متأكدة تمامًا. اتهم تروتسكي أوردجينيكيدزه وفوروشيلوف وكالينين بالفشل في فهم المسألة القومية".

فقال لينين: "تأكَّدي مرة أخرىٰ".

---

[22] في 27 سبتمبر 1922، رد ستالين في خطابٍ سريع على لينين متهمًا إياه بـ"الليبرالية القومية" (Leon Trotsky – Stalin School of Falsification, Page 66). (المترجم)

في اليوم التالي: "في اجتماع اللجنة المركزية في منزلي، أعطتني جلاسر مذكرةً فيها ملخص لمداخلتي في اليوم السابق، وقد ذيَّلت المذكرة بسؤال: هل فهمتك بشكل صحيح؟".

سألتها: "فيمَ تريدين هذا؟"، فردت: "هذا من أجل فلاديمير إيليتش". فقلت لها: "نعم، هذا صحيح".

كان ستالين يراقب تبادل الملاحظات فيما بيننا بحذر، بينما لم أكن أدرك في هذه اللحظة ما الخطب. ثم أخبرتني جلاسر في وقتٍ لاحق أن لينين "بعدما قرأ ما دار بيننا من محادثة أشرق وجهه وقال: الأمر الآن مختلفٌ تمامًا. ثم أوصاني بتسليم كل المخطوطات التي يعد بها "قنبلته" في المؤتمر الثاني عشر". صارت نوايا لينين واضحةً لي؛ فقد كان يريد أخذ مثال سياسة ستالين وفضحها أمام الحزب من أجل شنِّ هجومٍ لا هوادة فيه على خطر التحوُّل البيروقراطي للديكتاتورية.

بعدها قلت لفوتييفا: "سيسافر كامينيف غدًا إلى جورجيا لحضور مؤتمر الحزب. يمكنني إطلاعه على مخطوطات لينين لحثه على التصرُّف بشكل سليم هناك. اسألي فلاديمير إيليتش في ذلك".

عادت فوتييفا بعد ذلك بربع ساعة فقط، لاهثةً متقطعةَ الأنفاس، لتقول: "لا.. مهما كانت الظروف".

سألتها: "لماذا؟". فردَّت: "يقول فلاديمير إيليتش إن كامينيف سيُطلِع ستالين علىٰ كل شيء، ومن ثم سيعقد ستالين تسويةً فاسدة ويستمر في خداعه". واستطردت: "لقد وصلت الأمور إلىٰ حدٍّ لا يمكن أن يفكر فيه لينين علىٰ الإطلاق في عقد أية تسوية مع ستالين، حتىٰ وإن كانت في الاتجاه الصحيح". ثم: "نعم، إنه لا يثق في ستالين، ويريد أن يخرج ضده علىٰ الملأ أمام الحزب بأكمله: إنه يجهز قنبلة".

بعد حوالي ساعة من هذه المحادثة، عادت فوتييفا مرة أخرىٰ بمذكرةٍ من لينين مُوجَّهة إلىٰ ثوري قديم يُدعىٰ مديفاني ومعارضين آخرين لسياسة ستالين في جورجيا[23]. كتب لينين لهم: "أتابع قضيتكم بكل قلبي وروحي. أساليب أوردجينيكيدزه الخشنة وتحفيز ستالين ودزرجنسكي لها لا تملأني إلا سخطًا واستنكارًا. أجهز الآن بعض الملاحظات وخطبةً لكم". لكن نسخة المذكرة هذه لم تكن مُوجَّهةً لي فقط، بل لكامينيف أيضًا، وهذا ما أثار دهشتي.

سألت فوتييفا: "إذن، فقد غيَّر فلاديمير إيليتش رأيه؟".

أجابت: "نعم. حالته تسوء علىٰ مدار الساعة. لا تصدق طمأنة بيانات الأطباء. إنه يتكلم الآن بصعوبة... القضية الجورجية تقلقه بشدة. إنه يخشىٰ أن ينهار قبل أن يفعل شيئًا حيال الأمر. حين سلَّمني

---

[23] في 21 ديسمبر 1922، أمرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي قيادات المعارضة، مديفاني وماخارادز وكافتارادز بالرحيل عن جورجيا. (المترجم)

هذه المذكرة قال: قبل أن يفوت الأوان... لابد أن أخرج علىٰ الملأ قبل أن يحين الوقت المناسب".

سألتها: "هل يعني هذا أنني يمكن أن أتحدَّث إلىٰ كامينيف الآن؟".

أجابت: "هذا واضح".

فطلبت منها: "إذن اطلبي منه أن يأتي لرؤيتي".

جاء كامينيف بعدها بساعة، كان كالغارق في البحر. فقد كانت فكرة الثلاثي (ستالين - كامينيف - زينوفيف) قد وُضِعَت قيد التنفيذ منذ وقتٍ طويل، وكانت نصال رماحهم مُوجَّهةً إليّ. كانت خطة هؤلاء المتآمرين أن يحشدوا ما يكفي من الدعم في المنظمات، ومن ثم يُتوَّجوا خلفاءً شرعيين للينين. لكن مذكرة لينين القصيرة دقَّت كوتدٍ في قلب هذه الخطة. لم يكن كامينيف يدري ماذا يفعل، فاعترف لي بصراحةٍ شديدة. أعطيت له مخطوطة لينين ليقرأها. كان كامينيف سياسيًا لديه ما يكفي من الخبرة كي يفهم علىٰ الفور أن بالنسبة للينين لم تكن القضية هي جورجيا، بل دور ستالين بأكمله في الحزب. ثم أبلغني كامينيف بالمزيد من الحقائق، إذ كان قد ذهب لرؤية ناديجدا كونستانتينوفا كروبسكايا بناءً علىٰ طلبها، وأخبرته بتحذيرٍ شديد اللهجة: "أملىٰ فلاديمير كاتبته خطابًا إلىٰ ستالين يقول فيه إنه يقطع كل صلاته به". كان السبب المباشر لذلك ذا طابعٍ شبه شخصي، فقد

كان ستالين يحاول عزل لينين من كافة مصادر المعلومات، ومن هنا صار فظًا للغاية مع ناديجدا كونستانتينوفا، ثم أضافت كروبسكايا: "لكنك تعرف فلاديمير، فهو لم يكن ليقرِّر قطع صلاته الشخصية بستالين إن لم يكن يرىٰ في ذلك ضرورة لسحقه سياسيًا".

كان كامينيف شاحبًا ومتوترًا للغاية، فكانت الأرض ترتجف من تحت قدميه. لم يكن يدري ماذا يفعل بعد ذلك أو أي طريقٍ سيسلك. كان يبدو أنه خشىٰ أن أتصرَّف تجاهه علىٰ نحوٍ عدائي. أخبرته برأيي في الموقف ككل، فقلت:

"أحيانًا، بدافع الخوف من خطرٍ من صنع الخيال، يجلب الناس خطرًا حقيقيًا علىٰ أنفسهم. تذكَّر جيدًا، وقل للآخرين، أن آخر شيء أود فعله هو أن أبدأ صراعًا في المؤتمر لإحداث أي تغييرات في التنظيم. أنا أؤيد الحفاظ علىٰ الأوضاع القائمة. إذا نهض لينين ووقف علىٰ قدميه قبل المؤتمر، ومع الأسف ما من احتمالٍ كبير لذلك، سأتناقش أنا وهو في الأمر معًا من جديد. أنا ضد إزاحة ستالين وضد طرد أوردجينيكيدزه وضد استبدال دزرجنسكي في مفوَّضية النقل، لكنني أتفق مع لينين في المضمون. أريد تغييرًا جذريًا في السياسة تجاه القضية القومية، وإيقافًا فوريًا للاضطهاد الذي يتعرَّض له معارضو ستالين الجورجيون، وإيقافًا فوريًا للقمع الإداري في الحزب، وسياسة أكثر حزمًا في شئون الصناعة، وتعاونًا أمينًا علىٰ مستوىٰ المراكز العليا. إن قرار ستالين في المسألة القومية لا يجلب إلا وبالًا، فهذا القرار

يساوي بين الاضطهاد الوقح المتسلِّط من قِبَل الأمة المسيطرة، واحتجاج ومقاومة الأمم الضعيفة الصغيرة المتأخرة. لقد أجريت بعض التعديلات علىٰ قراري للتسهيل علىٰ ستالين في تغيير خطه السياسي، لكن لابد من تغيير جذري وفوري. وبالإضافة إلىٰ ذلك، لابد علىٰ ستالين أن يعتذر علىٰ الفور لكروبسكايا علىٰ فظاظته وأن يراجع سلوكه. لابد ألا يتجاوز حدوده. ولابد من وضع حدٍّ للمكائد والدسائس وإحلال التعاون الشفَّاف محلهما".

وهنا التفتُ إلىٰ كامينيف: "وأنت، حين تصل مؤتمر تيفليس، لابد أن تُحدِث انقلابًا في سياسات القضية القومية لصالح مؤيدي لينين الجورجيين".

تنفَّس كامينيف الصعداء، وقَبِلَ كافة أطروحاتي، فيما كان تخوُّفه الوحيد من عناد ستالين، فقال: "إنه فظٌّ، ووقح، ومُتقلِّب المزاج".

فعلَّقت قائلًا: "لا أظن أن ستالين لديه خيارًا آخر".

لاحقًا في تلك الليلة، أخبرني كامينيف أنه ذهب لرؤية ستالين، وقد قَبِلَ ستالين بكل هذه الشروط. تلقَّت كروبسكايا خطاب اعتذار بالفعل، لكنها لم تستطع إطلاع لينين عليه، إذ كانت حالته تزداد سوءًا. لكن تولَّد لديّ انطباعٌ بأن نبرة كامينيف قد تغيَّرت عمَّا كانت عليه في محادثتنا قبل ساعات. ولم أدرك أن هذا التغيُّر كان نتيجة سوء حالة لينين إلا لاحقًا. وفي طريقه إلىٰ تيفليس، أو علىٰ الفور عند وصوله

هناك، تلقىٰ كامينيف برقيةً من ستالين، بشفرةٍ معينة، يقول فيه إن لينين قد دخل مجددًا في شللٍ كامل ولا يستطيع الكلام أو الكتابة. ومن ثم سار كامينيف في المؤتمر الجورجي علىٰ خطىٰ سياسة ستالين ضد لينين. وبهذه الخيانة النكراء، صار الثلاثي حقيقةً ماثلة تمام المثول.

لم يكن هجوم لينين مُوجَّهًا فقط إلىٰ ستالين بشكل شخصي، لكن أيضًا ضد كامل فريقه، وبالأخص معاونيه دزرجنسكي وأوردجينيكيدزه. كان لينين يذكر اسميهما بانتظامٍ في مراسلاته حول القضية القومية. أما دزرجنسكي فكان رجلًا ذا حماسٍ ملتهب، كانت طاقته فائقة باندفاعاتٍ كهربية قوية لا تنقطع. في كل مناقشة، حتىٰ وإن كانت حول أمورٍ غير ذات شأن كبير، كان يشتعل، يتسع منخراه، وتبرق عيناه، وتحتد حبال صوته وكأنها توشك علىٰ التمزُّق. وبرغم توتُّره العصبي الشديد، لم يمر قط بأي انقطاعاتٍ فاترة. كان دائمًا في هذه الحالة من النشاط الحاد. شبَّهه لينين ذات مرة بجوادٍ مُفعَم بالحيوية. كان دزرجنسكي يقع في حب كل ما كان يفعله بافتتانٍ مجنون. كان يحمي معاونيه من أي نقدٍ أو تدخُّل في عملهم بغلوٍ محموم لا يشوبه أي عاملٍ شخصي، إذ كان غارقًا في العمل حتىٰ أذنيه وذائبًا فيه تمامًا.

لم يكن لدزرجنسكي آرائه الخاصة، ولم ير نفسه سياسيًا قط، علىٰ الأقل أثناء حياة لينين. في الكثير من المناسبات، قال لي: "أنا لست ثوريًا سيئًا، ربما، لكني لست زعيمًا ولا خطيبًا ولا سياسيًا". لم يكن ذلك مجرد تواضع، بل تقديرًا صحيحًا تمامًا للذات. في القضايا السياسية، كان

دزرجنسكي في حاجةٍ دائمةٍ لمن يرشده على الفور، وهكذا اتبع روزا لكسمبورج لسنواتٍ عديدة وسار ورائها ليس فقط في النضال ضد الوطنية البولندية، لكن ضد البلشفية أيضًا. التحق بالبلاشفة عام 1917، وحينها قال لي لينين بسعادة غامرة: "لم يعد يتبقىٰ من الصراع القديم شيء". خلال أول عامين أو ثلاثة، كان دزرجنسكي منجذبًا إليّ بشكل خاص، لكنه أيد ستالين خلال عام لينين الأخير. وفي عمله الاقتصادي، كان ينجز الأمور من خلال دعوة الناس وحثهم ورفع أقدامهم من علىٰ الأرض وكأنهم يطيرون من فرط الحماس. لم تكن لديه أفكارٌ معتبرة حول التطوُّر الاقتصادي، فيما حمل كل أخطاء ستالين وأخذ يدافع عنها بكل ما في روحه من حماسة. وحينما مات، مات علىٰ قدميه، تمامًا بعدما غادر المنبر الذي كان يشجب من فوقه المعارضة.

وأما حليف ستالين الآخر، أوردجينيكيدزه، فقد كان لينين يرىٰ من الضروري طرده من الحزب بسبب طغيانه وتسلُّطه البيروقراطي في القوقاز. لكنني كنت ضد ذلك، فأجابني لينين عن طريق سكيرتيرته: "علىٰ الأقل لمدة عامين". بالتأكيد لم يخطر ببال لينين في ذلك الوقت، ولو للحظة، أن أوردجينيكيدزه سيتولىٰ رئاسة لجنة التحكُّم التي كان من المُخطَّط لها أن تُنشأ لمحاربة بيروقراطية ستالين ولتجسِّد ضمير الحزب.

وإلىٰ جانب الأهداف السياسية العامة من الحملة التي شنَّها لينين، فقد كان هدفها الفوري هو خلق الظروف الأفضل لعملي في التوجيه

السياسي، سواء جنبًا إلىٰ جنب معه إن نهض واستعاد عافيته، أو في مكانه إن هزمه المرض. لكن النضال، الذي لم يكتمل قط للنهاية، ولا حتىٰ جزءٌ منه، كان له مردودٌ عكسي تمامًا. لقد خطَّط لينين لشنّ الحرب فقط علىٰ ستالين وحلفائه، وحتىٰ ذلك كان معروفًا فقط لأولئك المنخرطين مباشرةً فيه، وليس للحزب ككل. لكن زمرة ستالين، والتي كانت في ذلك الوقت هي زمرة الثلاثي، علَّقت نشاطها بعد التحذير الأول، واستمر الموقف علىٰ حاله غير المستقر هذا، وظلَّ ستالين قابعًا علىٰ قمة الجهاز. وكلما شعر الثلاثي بالضعف علىٰ صعيد المبادئ، صاروا أكثر خوفًا مني - لأنهم يريدون التخلُّص مني - ودقوا المسامير والبراغي في نظام الدولة والحزب بأكثر قوةً وإحكامًا.

في وقتٍ لاحق من العام 1925، قال لي بوخارين ردًا علىٰ انتقاداتي للقمع داخل الحزب: "ما من ديمقراطية لدينا، لأننا خائفين منك". فقلت له، علىٰ سبيل النصيحة: "فقط حاولوا ألا تخافوا مني، ودعونا نعمل بشكل صحيح". لكن نصيحتي ذهبت سدىٰ.

كان العام 1923، مليئًا بالشدِّ والجذبِ، وكان كذلك عام الخنق البطيء الهادئ للحزب البلشفي. وبينما كان لينين يكافح مرضه، كان الثلاثي يكافح الحزب. كان الجو مشحونًا، وبحلول الخريف ذاب كل هذا التوتُّر وتحوَّل إلىٰ "مناقشة" المعارضة. وهنا بدأ الفصل الثاني من الثورة؛ الصراع ضد التروتسكية الذي هو في الحقيقة صراعٌ ضد الإرث الأيديولوجي للينين.

الفصل الأربعون

مؤامرة رجال الصف الثاني

كنّا في الأسابيع الأولىٰ من العام 1923، نقترب من موعد المؤتمر الثاني عشر للحزب الذي كان لديّ بعض الأمل أن يشارك لينين فيه. ناقشنا في اجتماعٍ للمكتب السياسي مَن يقدم التقرير السياسي الرئيسي في المؤتمر. قال ستالين: "تروتسكي بالطبع"، ونال في ذلك تأييد كالينين وريكوف، وكذلك كامينيف الذي كان من الواضح أنه فعل ذلك رغم إرادته. لكنني رفضت قائلًا:

"سيتمكّن الإحباط من الحزب إذا حاول أيٌ منّا أن يحل محلَّ لينين المريض. دعونا ندير الأمور هذه المرة من دون تقريرٍ سياسي تمهيدي في بداية المؤتمر، ونقول ما علينا قوله فيما يتعلّق بالبنود المختلفة في جدول الأعمال. علاوة علىٰ ذلك، هناك اختلافاتٌ بيننا في القضايا الاقتصادية".

رد ستالين: "أنا لا أرىٰ أي اختلافات"، ثم أضاف كالينين: "في أغلب القضايا تبنىٰ المكتب السياسي أطروحاتك". كان زينوفيف في ذلك الوقت يقضىٰ إجازته في القوقاز، وظلَّ الأمر معلّقًا، لكني وافقت علىٰ تقديم تقرير عن الصناعة.

كان ستالين علىٰ علمٍ بالعاصفة التي تتوعَّده من جانب لينين، وحاول بكل الطرق التقرُّب إليّ. ظلَّ يُكرِّر أن من الضروري أن من يُقدِّم التقرير السياسي أن يكون هو العضو الأكثر شعبيةً وتأثيرًا في اللجنة المركزية بعد لينين، أي تروتسكي، وأن الحزب يتوقَّع ذلك ولن يفهم أي شيءٍ آخر غير ذلك. بدت محاولاته المُصطَنَعَة للتودُّد أغرب من استعراضه الصريح للعداوة، إذ كانت دوافعه واضحةً كالشمس.

عاد زينوفيف من القوقاز بعد ذلك بوقتٍ قليل. وفي تلك الأثناء، كانت الكثير من الاجتماعات الداخلية تُعقَد باستمرار من وراء ظهري. طلب زينوفيف أن يُسمَح له بتقديم التقرير السياسي، فيما سأل كامينيف "البلاشفة القدامىٰ"، الذين ترك أغلبهم الحزب لعشر أو خمسة عشر عامًا: "هل سنسمح لتروتسكي بأن يحوز سلطة توجيه الحزب والدولة؟". وهنا بدأوا أكثر فأكثر يتفحَّصون تاريخي الماضي وخلافاتي القديمة مع لينين، وصار زينوفيف مُتخصِّصًا في ذلك. في هذا الوقت كانت حالة لينين تتدهور بصورةٍ حادة من سيء إلىٰ أسوأ، لذا لم يكن يُمثِّل تهديدًا بالنسبة لهم. لم أعترض حين قرَّر الثلاثي أن يُقدِّم زينوفيف التقرير السياسي، فبعد الترتيبات التي جرت وراء الكواليس، عُرِضَ الأمر علىٰ المكتب السياسي في النهاية. كل شيء حمل طابع الترتيب المؤقت، فلم تظهر أي خلافات، تمامًا كما غاب أي خط مستقل للثلاثي في كل القضايا. في البداية، قوبلت أطروحاتي

حول الصناعة بالموافقة دون نقاش. لكن حين بات مؤكدًا أن لينين لن يتمكَّن من العودة إلىٰ العمل، قام الثلاثي بتغييرٍ مفاجئ وحاد في تعاطيهم مع الأمور، خائفين من هذا الإعداد الهادئ للمؤتمر. كانوا يبحثون عن فرصةٍ للاصطفاف ضدي في الحلقة العليا من الحزب. وفي اللحظة الأخيرة قبيل المؤتمر، اقترح كامينيف إضافة بند حول الفلاحين في طرحي، بينما كان هذا البند موجودًا بالفعل. لم يكن هناك أي معنىٰ للخوض في موضوع هذا التعديل، الذي خلا من أية أهمية نظرية أو سياسية، بل جاء لمجرد "استفزازي" لا أكثر لتوفير قاعدة يمكن من عليها توجيه الاتهامات ضدي بـ"الحطّ من شأن" الفلاحين - علىٰ الأقل هكذا جرىٰ الأمر خلف الكواليس. وبعد ثلاث سنوات من انفصاله عن ستالين، أخبرني كامينيف، بسخريته المعهودة ذات الحس الفكاهي، كيف "طَبَخَ" هذا الاتهام الذي بالطبع لم يأخذه أيٌّ منهم علىٰ محمل الجد.

إن العمل وفق معايير أخلاقية مجرَّدة لهو أمرٌ ميئوس منه تمامًا، فالأخلاق السياسية تنبثق من السياسة نفسها، بل وتعد واحدة من وظائفها. والسياسة التي تهدف لتنفيذ مهمة تاريخية عظيمة هي فقط التي تثبت نفسها كأسلوبٍ لا غبار عليه من الناحية الأخلاقية. بل أن تخفيض مستوىٰ الأهداف السياسية يقود حتمًا إلىٰ الانحدار الأخلاقي. وكما يعرف الجميع، رفض فياجرو، علىٰ سبيل المثال، التمييز بين السياسة والمؤامرة، بينما عاش قبل بزوغ عصر البرلمانية!

وحين يحاول أخلاقيو الديمقراطية البرجوازية التوصُّل إلىٰ مصدر الأخلاق السياسية الرديئة في الديكتاتورية الثورية، فليس بوسع المرء إلا أن يهز كتفيه بإشفاق. سيكون من المفيد للغاية أن نعد توثيقًا سينمائيًا للبرلمانية الحديثة، ولو حتىٰ لمدة عامٍ واحد. لكن الكاميرا لن توضع في هذه الحالة إلىٰ جانب رئيس مجلس النواب لحظة التصديق علىٰ قرارٍ وطني، بل في أماكنٍ أخرىٰ: في مكاتب المصرفيين ورجال الصناعة، وفي الغرف الخاصة لمكاتب التحرير، وفي قصور أمراء الكنيسة وصالونات سيدات السياسة، وفي الوزارات، ولتسجل عين الكاميرا أيضًا المراسلات السرية لقادة الأحزاب. علىٰ الجانب الآخر، سيكون من الصحيح تمامًا أن نقول أنه لابد من فرض المطالب المختلفة تمامًا علىٰ الأخلاق السياسية للديكتاتورية الثورية والأخلاق السياسية للبرلمانية علىٰ حدٍّ سواء. إن حدة نصال مطالب الديكتاتورية تتطلَّب مطهراتٍ قوية. إذ لا تثير النعال القذرة أي خوف، لكن الشفرات المتسخة خطيرةٌ للغاية. كانت أساليب الثلاثي، من وجهة نظري، علامة علىٰ الانتكاس السياسي.

كانت العقبة الرئيسية التي واجهت هؤلاء المتآمرين هي الخروج ضدي أمام جماهير الشعب. كان العمال يعرفون زينوفيف وكامينيف، وكانوا يسمعونهم بحماس، لكن تصرُّفاتهم خلال العام 1917 كانت لا تزال حاضرةً في ذاكرة الجميع. لم يكن لديهم أي سلطة أخلاقية في الحزب. أما ستالين، فغالبًا لم يكن معروفًا خارج الدائرة الضيقة

للبلاشفة القدامى[24]. اعتاد أحد أصدقائي أن يقول لي: "لن يجرؤوا على الخروج ضدك في العلن، فاسمك مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا باسم لينين في أذهان الشعب. من المستحيل محو ثورة أكتوبر أو الجيش الأحمر أو الحرب الأهلية". لم أتفق مع هذا الرأي، ففي السياسة، وبالأخص في السياسة الثورية، تضطلع الأسماء اللامعة بدورٍ هامٍ، وأحيانًا ضخمٍ وهائل، لكن ليس بالضرورة حاسمًا. في التحليل الأخير، يُحدَّد قدر السلطة الشخصية بالعمليات الأعمق التي تجري بين الجماهير. خلال صعود تيار الثورة، لم تؤدِ الافتراءات على البلاشفة والتشهير بهم إلا إلى تعزيز موقفهم. أما خلال انحسار هذا التيار، فقد وفَّرَت الافتراءات على نفس الرجال والتشهير بهم أسلحةً لانتصار الردة الترميدورية.

ورغم أن كل المجريات، سواء على الصعيد الروسي أو على الساحة العالمية، كانت تصب في صالح خصومي، لم تكن مهمتهم

---

[24] ليس من قبيل الصدفة ألا يُذكر اسم ستالين على الإطلاق في كتاب الصحفي الاشتراكي الأمريكي جون ريد "عشرة أيام هزت العالم" الذي يسرد فيه وقائع الانتفاضة المسلحة في أكتوبر 1917 كشاهد عيان. ومن ضمن الثوريين الروس العشرة الذين خصص أناطولي فاسيليفيتش لوناتشارسكي لكلٍ منهم فصلًا في كتابه "لوحات ثورية"، الصادر عام 1923، غاب ستالين تمامًا.

وفي الخطاب الشهير الذي ألقاه نيكيتا خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي، عام 1956، قال: "ربما لا يجانبني الصواب حين أقول أن 99% من الحاضرين الآن لم يعرفوا أو يسمعوا عن ستالين قبل العام 1924 إلا قليلًا للغاية". (المترجم)

سهلة علىٰ الإطلاق. فقد كان أدب الحزب وصحافته ومُحرِّضوه لا يزالوا يعيشون علىٰ ذكريات الأيام التي اعتلتها شعارات لينين وتروتسكي. كان من الضروري أن ينقلب كل ذلك 180 درجة، ليس علىٰ الفور طبعًا، لكن تدريجيًا خلال مراحل عديدة. ولإبراز إلىٰ أي درجةٍ وصل هذا الانعطاف الحاد، لابد هنا من بعض الشروحات للنغمة السائدة في صحافة الحزب تجاه الرموز القيادية للثورة.

في 14 أكتوبر 1922، في وقتٍ كان لينين قد عاد إلىٰ العمل بعد سكتته الدماغية الأولىٰ، كتب راديك في البرافدا: "إذا كنَّا نطلق علىٰ الرفيق لينين عقل الثورة... فإن الرفيق تروتسكي هو الإرادة الحديدية العاقلة. كانت خطب تروتسكي تقرع كالأجراس لتؤذن بموعد العمل. وقد أظهرت هذه الخطب معناها الرفيع وأهميتها البالغة، كما أظهرت كل جهودنا في السنوات القليلة السابقة"، وهكذا. كانت حماسة راديك الشخصية تصل إلىٰ حد أنه قادرٌ علىٰ قول الكلمة ليتبعها بعكسها، لكن الأهم من ذلك أن هذه الأسطر قد نُشِرَت في الصحيفة المركزية لحزبنا، حين كان لينين لا يزال حيًا، ولم ينزعج منها أحد.

أما في العام 1923، حين أضحت مؤامرة الثلاثي حقيقةً ماثلة، فقد كان لوناتشارسكي هو أول من حاول رفع مكانة زينوفيف. لكن كيف شرع في ذلك؟ لقد كتب في الفصل الخاص بزينوفيف في "لوحات ثورية": "لقد أصبح لينين وتروتسكي، بالطبع، أشهر شخصيتين في

حقبتنا في جميع أنحاء العالم (سواء أكانا محبوبين أم ممقوتين). ويتخلَّف زينوفييف قليلًا بالمقارنة بهما، ولكن بالمقابل، فإن لينين وتروتسكي اعتُبِرَا منذ زمن طويل في أوساطنا كشخصين يتمتعان بمواهب هائلة، وزعيمين لا جدال فيهما، بحيث أن النمو الهائل في مكانتهما أثناء الثورة بالكاد أثار دهشةً خاصة".

إنني إذ أنظر لهذه المدائح الطنَّانة بعين الشك، فإني أفعل ذلك لأني أضعها كعنصرٍ في الصورة العامة، أو كدليلٍ يُقدَّم للمحكمة إذا أردتم تفسير الأمر علىٰ هذا النحو. ولعل من المنفِّر بالنسبة لي أن أستعين بشاهدٍ ثالث، ألا وهو ياروسلافسكي، الذي لا تُطاق مدائحه أكثر من افتراءاته. صار هذا الرجل يضطلع بدورٍ أهم في الحزب، ليُقاس عمق انحدار القيادة الحزبية بمكانته الهامشية غير المؤثرة. احتل ياروسلافسكي موقعه الحالي في الحزب فقط من خلال افترائه عليّ وتشهيره بي. هذا المخرب الرسمي لتاريخ الحزب يقدم هذا التاريخ كنضالٍ لا ينقطع من جانب تروتسكي ضد لينين، كما أن ما مِن شكٍّ أن تروتسكي "حطَّ من شأن" الفلاحين، و"تجاهل" الفلاحين"، و"لم يلتفت" للفلاحين. لكن في فبراير 1923، أي في الوقت الذي تعرَّف فيه ياروسلافسكي علىٰ علاقتي بلينين ووجهة نظري تجاه الفلاحين، كتب في مقالةٍ طويلة يتناول فيها خطواتي الأولىٰ في النشاط الأدبي (أعوام 1900 إلىٰ 1902) ليشخِّص تاريخي علىٰ النحو التالي:

"إن أعمال الرفيق تروتسكي اللامعة أكسبته، ككاتبٍ ودعاوي، لقب "أمير المؤلفين" العالمي، كما أطلق عليه المؤلف الإنجليزي جورج برنارد شو. وأولئك الذين اطلعوا علىٰ نشاطه علىٰ مدار ربع قرن، يشهدون بأن ذكائه لمع ببريقٍ خاص... رأىٰ الكثير من القراء الصورة الأكثر انتشارًا لتروتسكي شابًا... وراء هذا الجبين الطويل، يجري تيارٌ عاصفٌ من الصور والأفكار والانطباعات التي حملت الرفيق تروتسكي أحيانًا فوق مسار التاريخ، في أوقاتٍ أجبرته علىٰ اختيار مسارات شديدة التعرُّج، أو علىٰ العكس أن يشق طريقه حين تتلاشىٰ كل المسارات. ووسط كل هذه الجهود لاتخاذ الطريق الصحيح، صار لدينا رجلٌ شديد الإخلاص للثورة، رجل ناضجٌ لدور الخطيب، بلسانٍ مرنٍ، لكن صلبٌ كالحديد يُمزِّق خصمه".

يتابع ياروسلافسكي بحماسٍ مفرط: "كان السيبيريون شغوفين للغاية بمقالاته التي انتظروها بفارغ الصبر. لم يكن يعرف المؤلف إلا قليلون. ومن كانوا يعرفون تروتسكي كانوا آخر من يتوقَّعون في ذلك الوقت أنه سيصبح واحدًا من القادة المعروفين لأكثر الجيوش ثورية وأعظم ثورات العالم". إلا أن مسألة تجاهل الفلاحين تحوَّلَت بشكلٍ أسوأ علىٰ يد ياروسلافسكي نفسه. كانت أعمالي الأدبية الأولىٰ مُخصَّصة للفلاحين، وهنا يقول عنها ياروسلافسكي:

"لم يستطع تروتسكي البقاء في قريةٍ سيبيرية من دون استكشاف كل تفاصيل الحياة الدقيقة فيها. ركَّز انتباهه أولًا علىٰ الأجهزة الإدارية للقرية السيبيرية، وفي سلسلةٍ من المقالات قدَّم تشخيصًا بارعًا لهذه الأجهزة".

ثم يستكمل حديثه قائلًا:

"لم ير تروتسكي حوله إلا معالم القرية، شعر باحتياجاتها وتأثر بحرمانها".

ثم طالب ياروسلافسكي بإدماج مقالاتي حول حياة الريف في المناهج الدراسية. كان ذلك كله في فبراير 1923، وفي نفس الشهر اختُلِقَت لأول مرة تهمة تجاهلي للريف، لكن ياروسلافسكي كان في سيبيريا في ذلك الوقت وبالتالي لم يكن يعلم شيئًا بعد عن "اللينينية" الجديدة.

المثال الأخير الذي أود ذكره هنا يخص ستالين نفسه. في الذكرىٰ الأولىٰ للثورة، كتب ستالين مقالة كانت، رغم أسلوبها غير المباشر، توجَّهَت مباشرةً لي. وعند تناول هذا الأمر، لابد من التذكير هنا بأن خلال فترة الإعداد لانتفاضة أكتوبر، كان لينين مختبئًا في فنلندا، وكان كامينيف وزينوفيف وريكوف وكالينين يعارضون الانتفاضة من الأصل، فيما لم يعرف أحدٌ أي شيءٍ عن ستالين. وبالتالي رَبَطَ الحزب ثورة

أكتوبر باسمي بشكل رئيسي. وفي ذكراها الأولىٰ، حاول ستالين إضعاف هذا الانطباع بتحريض اللجنة المركزية كلها ضدي. لكن لكي يجعل ذلك مقبولًا، كان مُلزمًا بأن يكتب:

"كانت كل أعمال التنظيم العملي للانتفاضة تحت التوجيه المباشر لرئيس سوفييت بتروجراد، تروتسكي. وَجَبَ التنويه هنا، وبدون تردُّدٍ، إلىٰ أن الحزب مدينٌ أولًا وقبل أي شيء للرفيق تروتسكي بقيادة حاميات السوفييت وبالتنظيم القدير لعمل اللجنة العسكرية الثورية".

إذا كتب ستالين هكذا كلام علىٰ ذاك نحوٍ، فقد كان ذلك بسبب عجزه عن الكتابة علىٰ أي نحوٍ آخر في ذلك الوقت. لقد تطلَّبَ الأمر سنواتٍ من الكيد الدائم ضدي قبل أن يغامر ستالين بأي يصرِّح في العلن بما يلي:

"لم يضطلع الرفيق تروتسكي، ولم يكن بمقدوره الاضطلاع، بأي دورٍ خاص، لا في الحزب ولا في ثورة أكتوبر".

وحينما ارتد هذا التناقض إليه، لم يرد ستالين إلا بمضاعفة وقاحته. أما "الثلاثي" ككل، فلم يكن بأي حال يقدر علىٰ مباراتي، فالوحيد الذي كان يقدر علىٰ ذلك هو لينين. وبالتالي كان من الضروري ألا يتمكَّن لينين نفسه من معارضة الثلاثي أكثر من ذلك. بعبارةٍ أخرىٰ؛ كان نجاح حملتهم ضدي يتوقَّف علىٰ لينين، إما أن

يمرض بشدة، وإما أن تُحنَّط جثته في ضريح. لكن حتىٰ هذا لم يكن كافيًا، فقد كان ضروريًا أن أنفصل عن القواعد الحزبية المناضلة خلال هذه الحملة ضدي. وحدث ذلك في خريف 1923.

أنا لا أتناول هنا فلسفة التاريخ، بل أعيد سرد حياتي علىٰ خلفية الأحداث التي ارتبطت بها. لكن لا يسعني إلا أن ألاحظ كيف تساعد الأحداث العرضية قوانين التاريخ بكرمٍ وافر. وبشكلٍ عام، فالعملية التاريخية برمتها إنما هي انحرافٌ لقانون التاريخ عبر الأحداث العرضية. وبالمصطلحات البيولوجية، يمكننا القول أنه يمكن إدراك قانون التاريخ من خلال الانتخاب الطبيعي للعوارض. واستنادًا إلىٰ هذا الأساس، يتطوَّر ذلك النشاط البشري الواعي الذي يُخضِع العوارض لعمليةٍ من الانتخاب المُصطنع.

لكن في هذه النقطة، عليّ أن أقطع ما بدأت من سردٍ لأحكي قصة صديقي إيفان فاسلييفيتش زايتزيف، من قرية كالوشينو علىٰ نهر دوبنا. تُعرَف هذه المنطقة باسم "زابولوتي" (ما بعد المستنقعات)، وكما يُفهَم من اسمها كانت غنيةً بالحيوانات البرية. يفيض نهر دوبنا في هذه المنطقة الريفية علىٰ مساحاتٍ واسعة. وتمتد المستنقعات والبحيرات والأهوار، التي يحاصرها البوص مُشكِّلًا إياها في إطار دقيق، علىٰ شريطٍ طويل يصل إلىٰ ما يقرب من أربعين كيلومترًا. تعجُّ المنطقة في الربيع بالإوز واللقالق وطيور الكروان والشنقب والبط بجميع أنواعه، وما علىٰ شاكلتهم في أخوية المستنقع، وعلىٰ بُعد كيلومترين داخل

الغابة الصغيرة، يقوقأ الدجاج علىٰ شجيرات التوت الأحمر. كان إيفان فاسلييفيتش يقود زورقه الأجوف الصغير بمجدافٍ قصير علىٰ طول الأخدود الضيق بين ضفتيّ المستنقع. لا يعلم أحد متىٰ حُفِرَ هذا الأخدود، ربما منذ مائتي أو ثلاثمائة عام أو حتىٰ أكثر من ذلك، ولابد من تجريفه مرةً كل عام حتىٰ لا تردمه الأوحال. كان لابد علينا من مغادرة كالوشينو في منتصف الليل لنخلد إلىٰ خيمتنا قبل الفجر، وفي كل خطوة كان المستنقع يؤرجِح جوفه المتهادي. أفزعني ذلك في زيارتي الأولىٰ، لكن إيفان فاسلييفيتش قال لي: "اخطو دون خوف، الناس تغرق في البحيرة، لم يسبق أن فَقَدَ أحدٌ حياته في المستنقع".

كان الزورق خفيفًا يرجف علىٰ سطح المستنقع، حتىٰ كان أكثر أمانًا أن يستلقي المرء علىٰ ظهره دون حراك، خاصةً حين تهب الرياح. كان الملّاحون يستندون عادةً إلىٰ الركبتين لتأمين أنفسهم، وفقط إيفان فاسلييفيتش كان يقف فاردًا قامته رغم ساقه العرجاء. إيفان فاسلييفيتش هو سيد البط في هذه الأراضي. أبوه وجده وجد جده كانوا جميعًا صائدي بط، وربما كان أحد أسلافه يثري مائدة إيفان الرهيب بالبط والإوز والبجع. لم يكن زايتزيف يهتم بديوك الصباح، ولا بنقاري الخشب والكروان، معلّقًا بكلمةٍ خاطفة: "ليست حرفتي". لكنه كان يعرف البط جيدًا من ريشه ومن صوته ومن روحه. كان يقف علىٰ زورقه العائم ويلتقط ريشةً من الماء، ثم ريشةً ثانية، ثم ثالثة، وبعد النظر إليهم يقول:

"سنذهب إلىٰ جوشكيينو، استراح البط هناك في المساء".

"كيف عرفت؟".

"الريشة، كما ترىٰ، تطفو فوق الماء، لم تبتل بعد، ريشة جديدة؛ كان البط يطير هنا في المساء، وليس هناك مكان آخر يهبط فيه سوىٰ جوشكيينو".

بينما كان المُتَمَرِّسون علىٰ رياضة الصيد يجلبون زوجًا أو اثنين، كنت أجلب مع إيفان خمسة أو حتىٰ ثمانية أزواج. له الفضل ولي الصِيت. هكذا تجري الحياة في الأغلب. من كوخ البوص، كان إيفان فاسلييفيتش يضع راحة يده الخَشِنة علىٰ شفتيه ويبدأ يوقْوِق كالبطة، حتىٰ أن ذكر البط الأكثر حرصًا وانتباهًا، الذي صوَّبنا نحوه عدة مرات ولم نُصِبه، كان ليستسلم أمام هذه التعويذة ويأتي مُتأرجِحًا علىٰ الجانبين حول الكوخ، أو يقترب علىٰ بُعدِ مسافةٍ قصيرة منّا ببقبقةٍ خفيضةٍ علىٰ الماء، حتىٰ أنني كنت أخجل من التصويب نحوه. لاحظ زايتزيف كل شيء، عَرِفَ كل شيء، شَعَرَ بكلِ شيء. كان يهمس إليّ "استعد، ذكر البط قادمٌ نحوك". كنت أرىٰ رفرفة جناحين بعيدين فوق الغابة، لكن لم أدرك أن هذا ذكر بط. مثل هذه الألغاز كانت كالكتاب المفتوح فقط أمام إيفان فاسلييفيتش، السيد العظيم لصيد البط. لكن ذكر البط كان يتوجَّه نحوي بالفعل، وإن أخطأته يتأوَّه إيفان

فاسليفيتش من خلف ظهرك بصوتٍ خفيضٍ مُهذَّبٍ تتمنىٰ أن لم تولد لتسمعه.

عَمِلَ زايتزيف قبل الحرب في مصنع نسيج، وقد ذهب إلىٰ موسكو في الشتاء للعمل كرجل إطفاء، أو في محطة طاقة. خلال السنوات الأولىٰ من الثورة، اندلعت المعارك في كافة أرجاء البلاد، احترقت الكثير من الغابات والمستنقعات واستحالت الحقول جرداءً وتوقَّف البط عن التحليق فوقها. في ذلك الوقت انتابت زايتزيف الشكوك حول النظام الجديد. لكن بعد 1920، عاد البط مرةً أخرىٰ، وهذه المرة في أسرابٍ كبيرة، فاعترف إيفان فاسلييفيتش بسلطة السوفييت تمام الاعتراف.

وعلىٰ بُعد ما يقرب من كيلومترين من هذه المنطقة، كان هناك مصنعٌ سوفييتي للخيوط ظلَّ يعمل لمدة عام، ومدير هذا المصنع كان السائق السابق لقطاري الحربي. كانت زوجة زايتزيف وابنته تتقاضان حوالي ثلاثين روبلًا شهريًا لكلتيهما، وهذه ثروة محترمة. لكن المصنع كان قد أنتج ما يكفي من الخيوط للمقاطعة كلها ثم أغلق، وعاد البط مرة أخرىٰ مصدرًا أساسيًا لعيش الأسرة.

في يوم العمال، الأول من مايو، وجد إيفان فاسلييفيتش نفسه في مسرحٍ كبير في موسكو بين ضيوف الشرف. جلس في الصف الأول، واضعًا ساقه العرجاء تحته وقد بدا عليه بعض الحرج، لكن أيضًا

الكثير من الكرامة كما هي عادته، واستمع إلىٰ تقريري. من أتىٰ به إلىٰ هناك كان مورالوف الذي شاركته أفراح وأتراح الرماية والصيد. كان إيفان فاسلييفيتش مسرورًا بالتقرير، استوعب كل شيءٍ فيه، كما رواه بالكامل في كالوشينو. عزَّز ذلك الصداقة الوطيدة لثلاثتنا. جديرٌ بالذكر أن الصيَّادين القدامىٰ، بالأخص في المناطق القريبة من موسكو، كانوا جميعًا فاسدين، وصوليين ماهرين في التملُّق، وكذَّابين متبجِّحين، لكن إيفان فاسلييفيتش كان مختلفًا، كان بسيطًا للغاية بقوة ملاحظة وكرامة شخصية، ذلك لأن قلبه لم يكن قلب تاجر، بل قلب فنان.

ذهب لينين للصيد أيضًا مع زايتزيف، وكان إيفان فاسلييفيتش دائمًا ما يشير إلىٰ سقيفةٍ خشبية كان لينين يستلقي تحتها علىٰ القش. كان لينين مولعًا بالصيد بشغفٍ شديد، لكنه نادرًا ما ذهب ليصطاد. وفي المرات التي ذهب فيها للصيد، كان يتحمَّس للغاية رغم قدرته الفائقة علىٰ ضبط النفس في الأمور الهامة. وتمامًا كما أن الإستراتيجيين العظماء لاعبو شطرنج رديئون، غالبًا ما يكون السياسيون العباقرة صيادين متواضعين. أتذكَّر كيف كان لينين يشكو إليّ، بيأسٍ شديد كما لو كان ارتكب خطأً لا يمكن تداركه، حين أخفق في إصابة ثعلبٍ علىٰ مسافة خمسة وعشرين خطوة في رحلة صيد. كنت أتفهَّم شعوره، وامتلأ قلبي تعاطفًا معه.

لم تشأ الصدفة أن أذهب مع لينين للصيد سويًا، لكننا كنَّا قد اتفقنا علىٰ ذلك وخطَّطنا له عدة مرات. في السنوات الأولىٰ من الثورة، لم يتوفَّر أي وقتٍ لمثل هذه الأمور. كان لينين يغادر موسكو إلىٰ المساحات المفتوحة بين الفينة والأخرىٰ، لكن لم تسنح لي الفرصة قط لاستقلال القطار أو السيارة، كما لم أحظ قط في هذه الفترة ببندقية صيد بين يدي. في السنوات اللاحقة، بعدما وضعت الحرب الأهلية أوزارها، كانت دائمًا ما تحدث أمورٌ غير مُتوقَّعة تمنع أحدنا من الوفاء بما بيننا من اتفاق. بدأت صحة لينين فيما بعد في التدهور، وكنَّا قد اتفقنا قبل ذلك بفترةٍ قصيرة أن نلتقي عند نهر شوشا في محافظة تفير، لكن سيارة لينين تعطَّلَت في طريق الريف، فيما كنت أنتظره هباءً. وحين تعافىٰ لينين من سكتته الدماغية الأولىٰ، أصرَّ بشدةٍ علىٰ الذهاب للصيد، وقد وافق الأطباء أخيرًا علىٰ ذلك شريطة ألا يُجهِد نفسه. وفي أحد مؤتمرات الاقتصاد الزراعي، همس لينين إلىٰ مورالوف قائلًا: "أنت تذهب مع تروتسكي أحيانًا للصيد معًا، أليس ذلك صحيحًا؟".

رد مورالوف: "أحيانًا".

"وتبلون بلاءً حسنًا؟".

"أحيانًا".

"إذن خذني معكم، هل تسمح؟".

فرد مورالوف متسائلًا بحذر: "لكن هل مسموحٌ لك بذلك؟".

"بالطبع مسموحٌ لي.. هل ستأخذني معكم إذن؟".

"كيف أرفض أن أصطحب فلاديمير إيليتش؟".

"إذن هل أهاتفك؟".

"سأنتظر اتصالك".

لكن لينين لم يهاتف مورالوف، بل أن السكتة الدماغية الثانية هي التي هاتفت لينين في المقابل. ثم الموت.

كل هذا الاستطراد كان ضروريًا لكي أوضح كيف ولماذا وجدت نفسي، في يوم أحدٍ في شهر أكتوبر من العام 1923، في زابولوتي، في المستنقع بين أعواد البوص. في تلك الليلة، تساقط بعض الثلج بينما كنت أجلس في خيمتي بحذاء لباد طويل الرقبة. لكن حينما هلَّ الصباح، أذابت الشمس الدافئة ثلوج المستنقع. كانت السيارة تنتظرني علىٰ أرضٍ مرتفعة عن المستنقع، أما السائق دافيدوف، الذي شاركني كتفًا بكتف كافة مجريات الحرب الأهلية، فكان كالعادة متحمِّسًا بنفاذِ صبرٍ ليعرف كيف أبليت في الصيد. كانت مسافة لا تزيد عن مائة خطوة تفصل بين الزورق والسيارة، وبينما خطوت بحذائي طويل الرقبة في المستنقع، شعرت بالماء البارد يتسلَّل إلىٰ قدمي. قفزت إلىٰ السيارة وكانت قدمي باردة كالثلج، ثم خلعت الحذاء وأنا جالسٌ بجوار دافيدوف في محاولة لتدفئة قدمي بحرارة الموتور. لكن وقتها كان البرد قد نال مني؛ أُصِبت بالإنفلونزا وارتفعت حرارتي، وبات

عليّ أن أرقد في الفراش بأمرٍ من الأطباء. لذا فقد قضيت بقية الخريف والشتاء راقدًا، أي أنني كنت مريضًا أثناء كل المناقشات التي دارت حول "التروتسكية" في 1923. من الممكن أن يتوقَّع المرء الثورة أو الحرب، لكن من المستحيل أن يتوقَّع عاقبة رحلة خريفية لصيد البط البري.

ظلَّ لينين عند جوركي، بينما بقيت أنا في الكرملين. في تلك الأثناء كان رجال الصف الثاني يُوسِّعون دائرة المؤامرة، بحذرٍ في بادئ الأمر وتملُّقٍ يحقنون فيه مديحهم بجرعاتٍ إضافيةٍ من السم. وحتىٰ زينوفيف، الذي لم يكن الصبر من سماته، كان يحيط افتراءاته بالكثير من التحفُّظات؛ وهكذا قال في مؤتمر الحزب في بتروجراد في 15 ديسمبر 1923 أن "سلطة الرفيق تروتسكي معروفةٌ للجميع، وكذلك خدماته الوفيرة، وما مِن حاجةٍ لتكرار ذلك، لكن الأخطاء تظل أخطاءً، وحينما أخطأت أنا، عاتبني الحزب بما يكفي من القسوة". وهكذا فإن هذه النغمة الجبانة، والعدوانية في آنٍ واحد، كانت تمثل لفترةٍ طويلة سمةً مشتركة بين المتآمرين، الذين لم يتمادوا في جرأتهم إلا بعد توطيد مراكزهم وترسيخ القاعدة التي يقفون عليها.

تأسَّسَ علمٌ كامل لتلفيق سمعةٍ مصطنعة للقادة والحُكَّام المُعيَّنين، ولاختلاق سِيَرٍ مُفتَعَلَة، ولتعزيز وتدعيم مكاناتهم، في حين لم تلق قضية الرئاسة الشرفية إلا بالقليل من الاهتمام. ومنذ ثورة أكتوبر، جرت العادة أن يُنتَخَب لينين وتروتسكي في الاجتماعات للرئاسة

الشرفية. كان هذان الاسمان متلازمين مع بعضهما في الخطب اليومية وفي المقالات والقصائد وغيرها. بات بالتالي من الضروري الفصل بينهما، علىٰ الأقل آليًا، كي يغدو ممكنًا تقليب الواحد منهما ضد الآخر سياسيًا. لكن الرئاسة بدأت في توبيخ كافة أعضاء المكتب السياسي، فأعدوا قائمة بأسمائهم في ترتيبٍ أبجدي. حُظِرَ بعد ذلك الترتيب الأبجدي لصالح تراتبٍ جديدٍ للقادة، فمُنِحَ المقام الأول لزينوفيف، وفي هذا ضربت بتروجراد المثل. وبعد ذلك بفترةٍ من الزمن، خلت الرئاسات الشرفية المتعاقبة تمامًا من اسم تروتسكي، فقوبل ذلك باحتجاجاتٍ عاصفة من حشود الحزب، وذات مرة اضطر الرئيس لتفسير حذف اسمي باعتباره سهوًا. لكن الصحف لم تنبت عن ذلك ببنت شفة، ثم مُنِحَ المقام الأول لستالين. إن لم يكن الرئيس ذكيًا بما فيه الكفاية ليخمن ما كان مطلوبًا منه، لكان حتمًا قد عمد إلىٰ تفسير الأمر في الصحف. كانت الكثير من المناصب تُقر وتُلغىٰ وفقًا لترتيب الأسماء في الرئاسة الشرفية، وهذا العمل الذي كان يجري ببالغ الإصرار والانتظام كان يُبرَّر بضرورة النضال ضد "تقديس الزعماء". وفي مؤتمر موسكو، يناير 1924، قال بيروبراجينسكي لرجال الصف الثاني: "نعم، نحن ضد تقديس الزعماء، لكننا أيضًا ضد ممارسة هذا التقديس علىٰ آخرين ذوي مكانة أدنىٰ بدلًا من تقديس الزعيم الواحد".

كتبت زوجتي في مذكراتها:

"كانت تلك أيامًا صعبة، أيامًا من الصراع الحاد الذي خاضه ليف دافيدوفيتش في المكتب السياسي ضد كافة أعضائه. كان عليه أن يجابههم جميعًا بينما كان مريضًا. وبسبب مرضه، عُقِدَت الاجتماعات في منزلنا، كنت أجلس في الغرفة المجاورة وتتسلَّل أحاديثهم إلىٰ أسماعي. كان يتحدَّث بكل كيانه، بدا وكأنه كان يفقد بعضًا من قوته في كل مداخلة، كان يتحدَّث بأعصابه ودمه. وفي المقابل جاءت ردودهم باردة غير متمايزة عن بعضها. بالطبع كان كل شيءٍ مُقرَّر مسبقًا، فما الداعي للحماس؟ وبعد كل اجتماع كانت حرارة ليف دافيدوفيتش ترتفع، بينما كان ينتهي من أوقات دراسته غارقًا في العرق، فيخلع ملابسه ويخلد للنوم. كانت ملابسه تجف كما لو كان قد خرج لتوه من عاصفةٍ رعدية. في ذلك الوقت كانت الاجتماعات مُتكرِّرة وكانت تُعقَد في غرفة ليف دافيدوفيتش، التي أخذت سجادتها الكالحة البالية تظهر في أحلامي كل ليلة في صورة فهدٍ حي؛ الاجتماعات النهارية هذه كانت تتجلَّىٰ لي في هيئة كوابيس ليلية. تلك كانت المرحلة الأخيرة من الصراع الداخلي قبل أن يخرج إلىٰ العلن".

وفي نضال زينوفيف وكامينيف لاحقًا ضد ستالين، انكشفت أسرار المؤامرة علىٰ لسان من حاكوها بأنفسهم. كانت تلك مؤامرةً حقيقية. تشكَّلَ مكتبٌ سياسيٌّ سريّ من سبعة أعضاء، إذ تألَّف المكتب من

كافة أعضاء المكتب السياسي الرسمي فيما عداي، وانضم إليهم كويبيشيف، الرئيس الحالي للمجلس الاقتصادي الأعلىٰ. كانت القرارات تُتَّخذ مُسبَّقًا في هذا المكتب السري الذي التزم أعضاؤه تجاه بعضهم البعض بتعهُّداتٍ متبادلة. اتفقوا علىٰ ألا ينخرط أيٌّ منهم في سجالٍ ضد الآخر، وفي الوقت نفسه أن يتحيَّنوا الفرص لمهاجمتي. كانت هناك الكثير من المراكز علىٰ غرار هذا المكتب السري في المنظمات المحلية، وارتبطت هذه المراكز جميعًا بالـ"سبعة" في موسكو، بانضباطٍ صارم وشفرات خاصة في التواصل فيما بينهم. كانت تلك مجموعةً منظمة غير شرعية داخل الحزب، موجهة في الأصل ضد رجلٍ واحد. كان المعيار الوحيد الذي يختارون العمال المسئولين في الحزب والدولة علىٰ أساسه هو العداء لتروتسكي. وخلال فترة "خلو العرش" التي أعقبت مرض لينين، كان هذا النشاط التآمري يجري علىٰ قدمٍ وساق، بدأبٍ بالغ لكن في الخفاء، فإذا ما تعافىٰ لينين، تظل الجسور مُلغَّمَة في انتظار لحظة التفجير. حاكَ المتآمرون مكائدهم بالإشارات والتلميحات، وكان علىٰ المُرشَّحين للمناصب الحزبية أن يُخمِّنوا المطلوب منهم، وأولئك الذين أصاب تخمينهم صعدوا السلم. خلال هذه الحرب، تطوَّرَ نوعٌ خاص من "الوصولية" انطبع فيما بعد دون خجلٍ باسم "مناهضة التروتسكية". أما موت لينين، فقد حرَّر المتآمرون وسمح لهم بالخروج علنًا. وقد توغَّلَت عملية الاختيار الشخصي للمسئولين إلىٰ الحلقات الأدنىٰ

فالأدنىٰ، فصار من المستحيل التوظيف في منصب مدير مصنع، أو مسئول فرعٍ محلي للحزب، أو رئيسٍ للجنة تنفيذية ريفية، أو أمين مكتبة، أو حتىٰ موظف علىٰ الآلة الكاتبة إلا إذا أثبت المرء عداءه للتروتسكية.

أما أعضاء الحزب الذين علت أصواتهم محتجين علىٰ هذه المؤامرة، فقد صاروا ضحايا في مرمىٰ الهجمات الغادرة لأسبابٍ منفصلة ومفتعلة تمام الافتعال. وعلىٰ الجانب الآخر، عادت العناصر المتزعزعة أخلاقيًا التي كانت قد طُرِدَت من الحزب من قبل دون شفقة، بل وتربَّع هؤلاء داخل الحزب، طالما أنهم ضد تروتسكي. كان يجري اختيار المُرشَّحين للمناصب بشكلٍ مفتعل لا علىٰ أساس الأفضل بل الأكثر ملاءمةً، وصارت السياسة العامة ترتكز علىٰ استبدال الرجال المستقلين الموهوبين بضيقِّي الأفق متواضعي القدرات، بل ولم يصعد ستالين نفسه إلىٰ منصبه إلا كتعبيرٍ أسمىٰ عن ذلك في هيكل الحزب.

الفصل الحادي والأربعون

موت لينين وتحوُّل السلطة

غالبًا ما كنت، ولا زلت، أُسأل: "كيف فقدت السلطة؟". ينطوي هذا السؤال، في أغلب الأحوال، علىٰ تصوُّرٍ ساذجٍ لشيءٍ مادي ينزلق من بين يدي المرء، وكأن فقدان السلطة أشبه بفقدان مذكرة أو ساعة يد. لكن في الحقيقة، حين يبدأ الثوريون في فقدان السلطة، الذين قادوا عملية الاستيلاء عليها، سواء علىٰ نحوٍ سلمي أو إثر وقوع أحداثٍ كارثية، فهذا يشير إما إلىٰ تدهورٍ في تأثيرِ أفكارٍ مُحدَّدة في الدوائر الثورية الحاكمة، أو انحدارٍ للمزاج الثوري للجماهير نفسها، أو قد يكون نتيجة الاحتمالين معًا. تأثرت المجموعات القيادية في الحزب، التي نهضت من العمل السري تحت الأرض، بالتيارات الثورية التي أسَّسَها قادة الفترة الأولىٰ من الثورة بوضوحٍ وطبَّقوها في الممارسة العملية بشكلٍ مكتملٍ وبنجاح. وهذا بالضبط ما جعل منهم قادةً للحزب، ومن خلال الحزب قادة للطبقة العاملة، ومن خلال الطبقة العاملة قادة للبلد بأكمله. وهكذا تركَّزَت السلطة في أيدي أناسٍ بعينهم. لكن أفكار الفترة الأولىٰ من الثورة كانت تفقد تأثيرها تدريجيًا في وعي طبقة الحزب التي حازت سلطةً مباشرة علىٰ البلد.

كان كل شيءٍ يجري علىٰ نحوٍ يمكن تلخيصه تحت اسم الرجعية. وامتد الأمر، بدرجاتٍ مختلفة، إلىٰ الطبقة العاملة أيضًا، حتىٰ من ينتمون منها إلىٰ الحزب. لقد بلورت الطبقة التي خلقت جهاز السلطة أهدافها الخاصة وحاولت إخضاع الثورة لها، ومن ثم بدأ الانقسام يكشف عن نفسه بين القادة الذين عبَّروا عن الخط التاريخي للطبقة والذين تجاوزت رؤاهم جهاز السلطة، وهذا الجهاز نفسه - ذلك الشيء الضخم المُرهِق وغير المتجانس الذي امتص الشيوعيين العاديين. كان هذا الانقسام في بادئ الأمر ذا طابعٍ نفسي أكثر منه سياسي، بينما كانت أحداث الأمس القريب لا تزال حاضرة في الأذهان، ولم يكن قد مضىٰ وقتٌ طويل لمحو شعارات أكتوبر من الذاكرة، وبالتالي ظلَّت حتىٰ ذلك الوقت سلطة قادة الفترة الأولىٰ من الثورة قوية. لكن تحت غطاء الأشكال التقليدية، نبعت نفسيةٌ جديدة. خفتت التوقُّعات الأممية للثورة، وصار الروتين اليومي يبتلع الناس. وبدلًا من أن تخدم الوسائل الجديدة الأهداف الأصلية، خلقت أهدافًا جديدة، والأهم من ذلك أن نفسيةً جديدة أيضًا قد انبثقت عنها، وبات الوضع المؤقت، في أعين الكثيرين، هدفًا نهائيًا.

في التحليل الأخير، يتكوَّن الثوريون من نفس الخامة الاجتماعية التي يتشكَّل منها الناس الآخرون. لكن لابد أن تكون لهم خصالٌ شخصية مختلفة لتمكين العملية التاريخية من فصلهم عن الباقين كمجموعةٍ منضبطة. الترابط فيما بينهم، والعمل النظري، والنضال

تحت شعارات مُحدَّدة، والانضباط الجماعي، والمثابرة تحت نيران الأخطار، كل هذه الأمور تشكِّل الثوريين تدريجيًا. من المشروع تمامًا هنا أن أتحدَّث عن النمط النفسي للبلاشفة في مقابل المناشفة علىٰ سبيل المثال، حيث يمكن لأي عينٍ متمرِّسةٍ بما فيه الكفاية أن تميِّز البلشفي عن المنشفي حتىٰ عن طريق المظهر الخارجي، بنسبة خطأٍ طفيفة.

لكن هذا لا يعني أن البلشفي بلشفيٌ في كل شيء. فاستيعاب منظور فلسفي مُحدَّد وامتصاصه في الدمِ واللحم، وهيمنة هذا المنظور علىٰ الوعي، وتناسقه مع العالم الحسِّي، كل هذا لا يتمتَّع به إلا قليلون. أما في الطبقة العاملة، فالبديل عن ذلك هو الغريزة الطبقية، التي تبلغ درجةً عاليةً من الحساسية في الفترات الحرِجة. لكن هناك الكثير من الثوريين، في الحزب وفي الدولة، الذين كانوا قد أتوا من الجماهير نفسها، لكنهم انفصلوا منذ أمدٍ عنها، والذين بسبب وضعهم الجديد تمايزوا عنها في طبقةٍ مميزة، فتبخَّرَت غريزتهم الطبقية وتلاشت. وعلىٰ الجانب الآخر، فإن هؤلاء قد فقدوا الثبات النظري والمنظور الضروري لتصوُّر العملية في كليتها. تنطوي نفسية هؤلاء علىٰ أسطحٍ هشَّة ومكشوفة، والتي بدورها، ومع تغيُّر الظروف، تجعلهم بسهولةٍ عُرضةً لاختراق التأثيرات الأيديولوجية الغريبة والمعادية. في أيام النضال السري، والانتفاضات، وفي أيام الحرب الأهلية، لا يعدو أناسٌ من هذا النوع إلا أن يكونوا جنودًا للحزب.

عقولهم قاصرةٌ لا تعزف إلا نغمةً واحدة تنسجم مع شوكة الحزب الرنَّانة. لكن حين تراخت الضغوط، وانتقل رعاة الثورة للعيش الهادئ المستقر، غلبت علىٰ هؤلاء طباع رجل الشارع، ووجدان ومزاج الموظفين الراضين عن أنفسهم.

كثيرًا ما كنت أسمع تعليقاتٍ متفرِّقة من كالينين أو فوروشيلوف أو ستالين أو ريكوف بحذرٍ مما تنطوي عليه من أخطار. كنت أسأل نفسي: من أين أتىٰ ذلك؟ من أي منبعٍ تدفَّق؟ حينَ كنت أصل لاجتماعٍ وأجد مجموعات تتحادث فيما بينها، كانوا في الأغلب يوقفون أحاديثهم حين يروني. لم تكن أحاديثهم مُوجَّهةً لي في شيء، وما من شيءٍ فيها ضد مبادئ الحزب، لكنهم كانوا يظهرون موقفًا من التراخي الأخلاقي، والرضا الذاتي، والتفاهة. بدأ هؤلاء يشعرون بضرورة أن يصب كلٌّ منهم هذه الأمزجة الجديدة علىٰ بعضهم البعض، هذه الأمزجة التي تعتلي فيها الشائعات والقيل والقال مكانةً بارزةً للغاية. كان هؤلاء يدركون تمامًا عدم لياقة هذا النوع من الأمور، ليس فقط في وجود لينين أو وجودي، بل أيضًا فيما بينهم. وفي الأوقات التي وصل فيها الابتذال أقصاه، من جانب ستالين علىٰ سبيل المثال، كان لينين ينظر حوله دون حتىٰ أن يرفع رأسه من علىٰ الجريدة في يده، وكأنه يحاول أن يجد فيهم من شعر بالاشمئزاز من هذا التعليق أو ذاك. وفي هذه الحالات، كان مجرد علو الصوت أو تغيُّر نبرة

الحديث كافيًا لأن يُظهِر، بما لا يدع مجالًا للشك، اتحادنا الكامل في هذه التقييمات النفسية.

لم يكن لي أي دورٍ في هذه التسالي التي صارت يومًا بعد يوم تتسيَّد حياة الشريحة الحاكمة الجديدة، لكن هذا لم يكن لأسبابٍ أخلاقية، بل لأني كرهت أن ألحِق بحياتي هذا القدر من الملل. لم تكن الزيارات المتبادلة في المنازل، ولا الحضور الدؤوب لعروض الباليه، ولا حفلات الشراب التي يتمزَّق من يتغيَّب عنها إربًا، تستعر انتباهي بأي قدر. شعرت المجموعة الحاكمة الجديدة أنني لا أناسب هذه الطريقة في الحياة، ولم يحاولون حتىٰ كسبي إليها. ولهذا السبب كانت تتوقَّف الكثير من المحادثات الجانبية فيما بينهم علىٰ الفور في اللحظة التي أظهر فيها. كانوا يوقفون أحاديثهم بوجوهٍ يملؤها الخجل، وببعض المرارة تجاهي. كان هذا، إن أردت أن تفهم الأمر علىٰ هذا النحو، مؤشرًا مُحدَّدًا للمرحلة التي بدأت فيها أفقد السلطة.

قصرت حديثي هنا علىٰ الجانب النفسي من المسألة، متغاضيًا عن قاعدته الاجتماعية التي قام عليها، ألا وهي التغيُّرات في تشريح المجتمع الثوري. وهذه التغيُّرات هي بالطبع التي تحسم الأمور في التحليل الأخير. لكن في الحياة الحقيقية وفي الواقع، فإن هذا الانعكاس النفسي هو ما يواجهه المرء مباشرةً. كانت الأحداث تتطوَّر ببطءٍ بالغ، مما كان يسهِّل العمليات الجزيئية للتحوُّلات في الشريحة العليا الحاكمة، ويقضي علىٰ فرصة كشف هذه المواقف المتناقضة

أمام الجماهير. عليّ هنا أن أضيف أن هذه الأمزجة الجديدة كانت، لزمنٍ طويل، بل ولا زالت، تتخفَّىٰ في صيغٍ وأشكالٍ تقليدية. ولقد جعل ذلك الأمر أصعب في تحديد إلىٰ أي مدىٰ آلت كل هذه التفاعلات. لقد مهَّدت مؤامرة ترميدور في نهاية القرن الثامن عشر، بشكل مُسبَّق، المسار الذي اتخذته الثورة، لتندلع في ضربةٍ واحدة وتتخذ شكل الخاتمة الدموية. لكن ترميدورنا كان مختلفًا، وقد وجدت المقصلة في التآمر والكيد بديلًا عنها، علىٰ الأقل لبعض الوقت، فصار تزييف الماضي علىٰ نحوٍ منظم، ووفق خطة مدروسة، سلاحًا لإعادة تسليح الحزب الرسمي أيديولوجيًا. ولقد جعل مرض لينين، وتوقُّع عودته إلىٰ القيادة بعد التعافي، هذا الوضع المؤقت غير مُحدَّد، واستمر علىٰ ذلك لمدة عامين. إذا كانت الثورة في تصاعد، لكان التأجيل قد صبَّ في صالح المعارضة،لكن الثورة علىٰ المستوىٰ الدولي كانت تعاني الهزيمة تلو الأخرىٰ، وبالتالي صبَّ التأجيل في صالح الإصلاحية القومية من خلال تعزيز بيروقراطية ستالين ضدي وضد أصدقائي السياسيين.

جاء الهجوم الكامل، التافه والجاهل، ذلك الهجوم الغبي، علىٰ نظرية الثورة الدائمة، من هذه المنطلقات النفسية. وفي الثرثرة أثناء شرب النبيذ أو العودة من حفل باليه، كان مسئولٌ متعرجف ليقول لزميله: "إن لا يفكر في شيءٍ إلا الثورة الدائمة". هذه الاتهامات بالانطواء والانعزالية، وبالفردية والتعالي الأرستقراطي، كان لصيقة

الصلة بهذه الأمزجة بالذات. وهذا الإحساس الذي يتلخَّص في "ساعة للثورة وساعة لنفسك" كان يُترجم عمليًا في عبارة "فلتسقط الثورة الدائمة". والانقضاض علىٰ المتطلبات النظرية الصارمة للماركسية، والمتطلبات السياسية القاسية للثورة تجسَّدَ تدريجيًا في أعين هؤلاء في شكل صراع مفتوح ضد "التروتسكية". وتحت هذا الشعار كان ينضح البرجوازي الصغير من داخل البلشفي. لهذا فقدت السلطة، وهذا أيضًا ما حدَّدَ الشكل الذي فقدتها به.

أشرت من قبل إلىٰ أن لينين، من علىٰ فراش الموت، كان يجهِّز قنبلةً لستالين ولحليفيه دزرجينسكي وأوردجينيكيده. كان لينين يُكِن بالغ التقدير لدزرجينسكي، لكن بدأ النفور حينما أدرك دزرجينسكي أن لينين يظن أنه غير قادر علىٰ توجيه الشئون الاقتصادية، وهذا ما دفع دزرجينسكي إلىٰ أحضان ستالين، وهكذا قرَّرَ لينين أن يوجه ضربته إليه باعتباره واحدًا من أنصار ستالين. أما بالنسبة لأوردجينيكيده، فقد كان لينين يريد طرده من الحزب بسبب تصرُّفاته. كانت مذكرة لينين، التي يعد فيها البلاشفة الجورجيين بدعمه الكامل ضد ستالين ودزرجينسكي وأوردجينيكيده، مُوجَّهةً إلىٰ مديفاني. أما مصائر هؤلاء الأربعة، فتكشف بجلاء التغيير الكاسح الذي اجتاح الحزب علىٰ يد زمرة ستالين، فبعد موت لينين عُيِّنَ دزرجينسكي رئيسًا للمجلس الأعلىٰ للاقتصاد، وهو المجلس المسئول عن صناعات الدولة بأكملها، وعُيِّنَ أوردجينيكيده، الذي كان من المُقرَّر طرده، رئيسًا

للجنة التحكُّم المركزي. أما ستالين، فلم يبق فقط كما هو أمينًا عامًا للحزب، علىٰ عكس رغبة لينين، لكنه مُنِحَ سلطاتٍ غير محدودة وغير مسبوقة علىٰ جهاز الحزب. وأما بودو مديفاني، الذي أيده لينين ضد ستالين، فيقبع الآن في سجن توبولسك. جرت مثل هذه الأمور علىٰ مستوىٰ كافة المسئولين في الحزب، وفي كل أحزاب الأممية بلا استثناء. إن عهد رجال الصف الثاني لا يفصله عن عهد لينين خليجٌ فسيحٌ من الأفكار، بل أيضًا انقلابٌ كاسحٌ في تنظيم الحزب.

كان ستالين أداةً رئيسية في تنفيذ هذا الانقلاب، فهو ذو شخصيةٍ عملية، وإرادةٍ قوية، وإصرارٍ علىٰ نيل أهدافه، لكن أفقه السياسي ضيق، وعتاده النظري بدائي. يعجُّ كتيِّبه "أسس اللينينية"، الذي حاول فيه الإشادة بالتراث النظري للحزب، بالكثير من الأخطاء المراهقة. وجهله باللغات الأجنبيه يجبره علىٰ متابعة الحياة السياسية في البلدان الأخرىٰ متأخرًا. عقله إمبريقي عنيد يخلو من أي خيال خلَّاق. بالنسبة للمجموعة القيادية للحزب (لم يكن ستالين معروفًا علىٰ الإطلاق في الدوائر الواسعة)، كان يبدو رجلًا مُقدَّرًا له أن يضطلع بدوره في الصف الثاني والثالث. أما أنه يضطلع اليوم بأدوار الصف الأول، فذلك ليس تلخيصًا لقدرات الرجل، بل تعبيرًا عن هذه الفترة الانتقالية من الانتكاسة السياسية في البلاد. قال هيلفيتوس منذ زمنٍ بعيد إن "كل فترةٍ لها رجالها العظماء، وإن افتقرت إليهم، خلقتهم"،

أما الستالينية فهي في المقام الأول العمل التلقائي لجهاز الحزب خلال فترة تراجع الثورة.

مات لينين في 21 يناير 1924، ولم يكن موته إلا خلاصًا من المعاناة الجسدية والأخلاقية. لابد أنه شعر بمهانةٍ لا تُحتمل بأن يبقىٰ عاجزًا تمامًا هكذا، بالأخص عجزه عن الكلام أثناء وعيه الكامل بما يحدث. لم يكن يتحمَّل نبرة الأطباء الاسترعائية به، ونكاتهم المبتذلة، وتشجيعهم الكاذب. وبينما كان لا يزال قادرًا علىٰ الكلام، كان يطرح الأسئلة عرضًا علىٰ الأطباء، فلاحظ أنهم لا يدركون التناقضات، وأصرَّ علىٰ توضيحات إضافية منهم، ومن ثم انغمس بنفسه في الكتب الطبية. في هذه الحالة، كما في كل الحالات الأخرىٰ، كان يسعىٰ للوضوح والشفافية أكثر من أي شيءٍ آخر. كان الطبيب الوحيد الذي تقبَّلَه لينين هو فيودور أليكساندروفيتش جوتيير. كان طبيبًا جيدًا، ورجلًا طيبًا. هذا الرجل، الذي لم يكن التودُّد المُفتَعَل من خصاله، ارتبط بلينين وكروبسكايا بعاطفةِ ودٍّ حقيقية. وفي الفترة التي لم يسمح فيها لينين لأي طبيبٍ آخر بالاقتراب منه، استمر جوتيير في زيارته. كان جوتيير أيضًا صديقًا مُقرَّبًا وطبيبًا منزليًا لعائلتي خلال سنوات الثورة، وبفضله كنَّا دومًا نتلقَّىٰ تقارير موثوقة وبارعة عن حالة فلاديمير إيليتش، لتكملة وتصحيح النشرات الرسمية. ولأكثر من مرةٍ سألت جوتيير ما إذا كان عقل لينين سيحتفظ بقوته في حالة التعافي، فيجيبني الرجل بتوتر: "سيزداد الميل للإرهاق، لن يكون قادرًا علىٰ العمل

بنفس المستوىٰ السابق، لكن الفنان سيظل فنانًا". وفي الفترة بين السكتة الدماغية الأولىٰ والثانية، تأكَّدَ هذا التكهُّن.

ومع اقتراب انتهاء اجتماعات المكتب السياسي، كان لينين يبدو عاجزًا مرهقًا. تدلَّت عضلات وجهه، وانطفأ بريق عينيه، وحتىٰ جبهته العريضة باتت منكمشةً متجعِّدة، بينما تراخىٰ كتفيه بثقلِ الأسف. يمكن تلخيص التعبير الذي بدا علىٰ وجهه، وعلىٰ مظهره ككل، بكلمةٍ واحدة: مُرهق. في هذه اللحظات المُروِّعة، بدا لينين كرجلٍ قُضيَ عليه. لكن نومًا جيدًا كان كفيلًا باستعادة حيوية عقله. التحقت مقالاته التي كتبها في الفترة بين سكتتيه الدماغيتين بأعماله الأفضل، فهذه المياه من نفس النبع، لكن بتدفُّقٍ أقل. وحتىٰ بعد السكتة الدماغية الثانية، لم يتخل جوتيير عن الأمل بالكامل، إلا أن تقاريره صارت أكثر تشاؤمًا. طال مرضه. أما قوىٰ الطبيعة العمياء، الزاهدة عن الضغينة أو الرحمة، فقد حاصرت هذا المريض العظيم بسياجٍ من العجز لا مهرب منه. لم يكن لينين ليحتمل، ولم يكن ينبغي، أن يعيش مُقعدًا عاجزًا. لكننا لم نكن قد فقدنا الأمل بعد في شفائه.

خلال هذه الأثناء، واجهت وعكتي الخاصة، وكما كتبت ناتاليا سيدوفا: "بإصرارٍ من الأطباء، انتقل ليف دافيدوفيتش إلىٰ الريف. وهناك زاره جوتيير الذي كان يُكِن له احترامًا كبيرًا. لم تكن السياسة تشغل جوتيير، لكنه كان يعاني بعمقٍ من أجلنا دون أن يعبِّر لنا عن

عاطفته. انزعج بشدة من الاضطهاد الذي تَعَرَّض له ليف دافيدوفيتش. لم يفهم السبب في ذلك، كان فقط ينتظر في قلق. وفي أرتشانجلسكوي، تحدَّثَ معي بشغفٍ حول ضرورة نقل ليف دافيدوفيتش إلىٰ سوخوم. وفي النهاية قرَّرنا أن نتخذ هذه الخطوة. أما الرحلة، التي كانت طويلة بما فيه الكفاية، عبر باكو وتيفليس وباتوم، فكانت أطول بسبب الثلوج التي غطَّت الطرق. لكن السفر في حدِّ ذاته ترك انطباعًا لطيفًا لدينا، فكلما كنَّا نبتعد عن موسكو، كنَّا ننفصل أكثر فأكثر عن الإحباط الذي هيمن علىٰ الأجواء هناك. لكن رغم كل ذلك، كنت لا أزال أشعر أنني في مصاحبة رجلٍ مريض بشدة. كانت الريبة تغلب الصبر؛ أي حياة تلك التي تنتظرنا في سوخوم؟ هل سيحيطنا الأصدقاء أم سيحاصرنا الأعداء؟".

وصلنا في 21 يناير إلىٰ محطة تيفليس، في طريقنا إلىٰ سوخوم. كنت جالسًا مع زوجتي في نصف السيارة الأقرب إلىٰ المحرِّك، في درجة الحرارة العالية التي اعتدنا عليها في ذلك الوقت. سمعنا طرقاتٍ علىٰ الباب، ودخل معاوني المخلص سيرموسك، الذي صاحبني في هذه الرحلة إلىٰ سوخوم. وبطريقة مشيته ووجهه الرمادي الشاحب، سلَّمني ورقةً بعينين مترقرقتين، فشعرت وكأن كارثة قد حلَّت. كانت تلك برقية من ستالين يخبرني فيها أن لينين قد مات. مرَّرت البرقية لزوجتي التي كانت قد خمَّنت محتواها بالفعل.

تلقت سلطات تيفليس برقيةً مشابهة، وكان نبأ موت لينين ينتشر في دوائر أوسع. اتصلت هاتفيًا بالكرملين مباشرةً، وردًا علىٰ استفساري أخبروني أن "الجنازة ستُقام يوم السبت، لن تتمكَّن من العودة بحلول هذا الوقت، لذا ننصحك بأن تستكمل فترة علاجك". وبالتالي لم يكن أمامي خيارٌ آخر. لكن في الحقيقة، لم تُقم الجنازة حتىٰ يوم الأحد، وكان من الممكن أن أصل موسكو في ذلك الوقت بسهولة. قد يبدو الأمر غير قابل للتصديق، لكن ما حدث هو أنني خُدِعت حتىٰ بشأن موعد الجنازة. ظنَّ المتآمرون أنني لن أفكر علىٰ الإطلاق في إصلاح الأمر، وفيما بعد روَّجوا تفسيراتهم الخاصة. لابد أن أستدعي هنا أيضًا أن نبأ مرض لينين في بادئ الأمر لم يصلني إلا في يومه الثالث. كان ذلك نظامًا مُتعمَّدًا، والهدف هو "كسب الوقت".

طلب مني الرفاق في تيفليس أن أكتب عن وفاة لينين علىٰ الفور، لكنني لم أرغب إلا في أن أبقىٰ وحيدًا. لم أقدر أن أمد يدي وأمسك قلمًا، والنص القصير في برقية موسكو يتردَّد في رأسي. انتظر أولئك الذين تجمَّعوا عند القطار أي استجابة. كانوا علىٰ حقٍ بالطبع. ظلَّ القطار متوقفًا لنصف ساعة، وكتبت بعض أسطر الوداع: "رحل لينين، لم يعد لينين موجودًا بعد الآن"، ثم أُرسلَت الصفحات بخط يدي إلىٰ مركز الاتصال المباشر.

كتبت زوجتي: "وصلنا مُحطَّمَين. كانت تلك المرة الأولىٰ لنا في سوخوم. كانت زهور الميموزا متفتحةً تملأ المكان. النخيل وأزهار

الكاميليا في كل مكان. كان ذلك في يناير، حيث البرد القارس في موسكو. حيَّانا الأبخازيون فور وصولنا بودٍّ بالغ. وفي غرفة الطعام في الاستراحة، رأينا لوحتين مُعلَّقتين علىٰ الحائط، واحدة بشريطة سوداء لفلاديمير لينين، والأخرىٰ لليف دافيدوفيتش. كنَّا علىٰ وشك إنزال لوحة ليف دافيدوفيتش من علىٰ الحائط، لكن جاءتنا فكرة أن هذا سيكون فعلًا استعراضيًا لا داعي له".

قضينا أيامًا طوال في سوخوم مستلقيين في الشرفة المطلَّة علىٰ البحر. ورغم أننا كنَّا في يناير، بدت الشمس ساطعةً دافئة. بين الشرفة والبحر المتلألئ، كان هناك الكثير من النخيل. اختلطت الكثير من الأفكار حول موت لينين بحرارة الجو. وفي داخل عقلي، مررت بكافة مراحل حياتي: اجتماعاتي مع لينين، واختلافاتنا، وسجالاتنا، والود الذي تجدَّدَ بيننا، وزمالتنا في العمل. تجلَّت الكثير من المشاهد ومرَّت أمام عيني في إشراقة حلم، وبدأت تدريجيًا في اتخاذ إطارٍ حاد. وبجلاءٍ تام، رأيت هؤلاء "التلامذة" الذين كانوا مخلصين لأستاذهم فقط في الأمور الصغيرة قليلة الشأن، وليس في الأمور الكبرىٰ. ولدىٰ استنشاقي نسيم البحر، أدركت بكل ثقة الصوابية التاريخية لمعارضتي رجال الصف الثاني هؤلاء.

في 27 يناير 1924، وبينما يخيِّم الصمت علىٰ البحر والنخيل، متغوِّلًا من تحت ستار السماء، تمزَّقَ فجأةً بدوي المدفعية التي تمركزت في مكانٍ ما علىٰ الشاطئ. كانت تلك تحية سوخوم للزعيم

الذي كان يُدفن تلك الساعة في موسكو. فكرت فيه، وفي زوجته التي رافقته لسنواتٍ طويلة تتلقىٰ منه انطباعاتها عن العالم. الآن تدفنه، وهي التي حتمًا تشعر بالوحدة بين الملايين من المكلومين حولها - مكلومين لكن ليس مثلها. فكرت في ناديجدا كونستناتينوفا كروبسكايا. أردت أن أخاطبها بكلمة تحية، بكلمة تعاطف، بكلمة إعزازٍ لها من مكاني هذا. لكنني عجزت عن إجبار نفسي علىٰ فعل ذلك. بدت الكلمات ضعيفة في وجه ما حدث. كنت أخشىٰ أن يبدو ذلك تقليديًا. اجتاحني شعورٌ بالامتنان حين تلقيت رسالة منها بعد بضعة أيام. هكذا كتبت:

"عزيزي ليف دافيدوفيتش،

أكتب إليك لأخبرك بأن، قبل شهرٍ من الوفاة، وبينما كان يطَّلِع علىٰ كتابك، توقَّفَ فلاديمير إيليتش في الموضع الذي شبَّهته فيه بماركس، وطلب مني أن أقرأه له مرة تلو الأخرىٰ. كان يستمع باهتمامٍ بالغ، ثم قرأه مرة أخرىٰ بنفسه. وهنا أمرٌ آخر أود إخبارك به. إن موقف فلاديمير إيليتش تجاهك حين وصلت من سيبيريا إلينا في لندن لم يتغيَّر حتىٰ وفاته. أتمنىٰ لك يا ليف دافيدوفيتش الصحة والعافية، وأعانقك بحرارة.

ناديجدا كروبسكايا".

في الكتاب الذي يطَّلِع عليه فلاديمير إيليتش قبل وفاته، قارنته بماركس. كنت أعلم جيدًا موقف لينين من ماركس، إنه موقفٌ من حبِ التلميذ الممتن، وموقف العاطفة الممتدة عبر المسافات. هذه العلاقة بين الأستاذ وتلميذه قد صارت، في مسار التاريخ، علاقة المبشِّر النظري وأول المؤمنين برسالته. ماركس ولينين، اللذان يرتبطان ببعضهما عن قرب رغم الاختلافات، كانا بالنسبة لي قممًا شاقهة لقوة الإنسان الروحية. ابتهجت بمجرد فكرة أن لينين قرأ سطوري هذه قبل وفاته بوقتٍ قصير باهتمام، وربما ببعض العاطفة، إذ أن مقياس ماركس بالنسبة لي هو الأكبر والأدق في قياس شخصية الإنسان.

أقرأ اليوم خطاب كروبسكايا بنفس عاطفة الأمس. لقد تناولت أقصىٰ نقطتين في علاقتي بلينين؛ الأولىٰ في أكتوبر 1902، حينما جئت للينين في لندن بعد هروبي من سيبيريا، وأنهضته من علىٰ سريره في الصباح الباكر، والأخرىٰ في نهاية ديسمبر 1923، حين قرأ لينين تقديري الغالي له ولأعماله. وبين هاتين النقطتين، مرَّ عقدان من الزمن؛ في البداية كان العمل المشترك بيننا، ثم الصراع الداخلي المرير، ثم العمل المشترك مرةً أخرىٰ لكن علىٰ أسسٍ تاريخيةٍ أرقىٰ. والآن تشهد كروبسكايا بأن موقف لينين تجاهي، رغم فترة التضاد الطويلة، ظلَّ كما هو موقفه في لندن، موقف الدعم والود، لكن علىٰ مستوىٰ تاريخي أرفع. وحتىٰ إن اكتفيت بذلك، فكل ما كتبه المنافقون

لا يزن في حُكمِ التاريخ مثقال ما كتبته كروبسكايا في هذه الرسالة بعد وفاةِ لينين بأيامٍ قليلة.

فيما يلي اقتباسٌ آخر من مذكرات زوجتي:

"تأخَّرَت الصحف بسبب الثلوج، لكنها جاءت لنا بالخطبِ التذكارية ورسائل النعي والمقالات الأخرىٰ. توقَّع أصدقاؤنا أن يأتي ليف دافيدوفيتش إلىٰ موسكو، وظنوا أنه سيقطع رحلته من أجل العودة، إذ لم يكن أحدٌ يتخيَّل أن تلغراف ستالين هو ما أوقف عودته. أتذكَّر خطاب ابني، الذي استلمناه في سوخوم. كان مصدومًا من موتِ لينين، ثم أصابه البرد وارتفعت حرارته إلىٰ أربعين درجة، فقد ذهب بمعطفٍ خفيفٍ إلىٰ قاعة الأعمدة ليلقي نظرته الأخيرة، وانتظر عودتنا بفارغِ الصبر. كان خطابه ينضح بدهشته المريرة وعتابه الخجول لنا".

جاء وفدٌ من اللجنة المركزية، يتألَّف من تومسكي وفرونز وبياتاكوف وجوسيف، إلىٰ سوخوم، لتنسيق تغيير بعض موظفي إدارة الحرب معي. كانت تلك مهزلةً بكل معنىٰ الكلمة. فهذه التغييرات كانت تجري لبعض الوقت بالفعل من وراء ظهري، والآن صار الأمر هكذا ببساطة متعلِّقًا بمراعاة التخصُّصات.

وقعت الضربة الأولىٰ في إدارة الحربِ علىٰ سكليانسكي الذي كان عليه أن يتحمَّل نكسات ستالين نفسه في تساريتسين، وفشله علىٰ الجبهة الجنوبية، ومغامراته في لفوف. صارت المكائد تُحاك في السر كما في العلن. ومن أجل اجتثاث سكليانسكي، وأنا من بعده، عُيِّنَ متآمرٌ عديم الذكاء يُدعىٰ أونشليشت في إدارة الحرب قبل ذلك بعدةِ أشهر. سُرِّحَ سكليانسكي من منصبه، وحلَّ فرونز محله بعد أن كان قائدًا للجيش في أوكرانيا. كان فرونز شخصًا جادًا، وسمعته التي بناها في الحزب علىٰ الفترة التي قضاها في الأشغال الشاقة في سيبيريا سابقًا، كانت تفوق سمعة وسلطة سكليانسكي. والأكثر من ذلك أن فرونز قد أبرز ذكاءً لا جدال فيه في القيادة العسكرية خلال الحرب، لكن رغم ذلك لم يكن يفوق سكليانسكي في أمور الإدارة العسكرية، فكان يقبل بالمُخطَّطات المُجرَّدة ويخضع بسهولةٍ لتأثير الخبراء والأخصائيين.

يجب أن أنهي هنا حكاية سكليانسكي نظرًا لأهميتها. نقل ستالين سكليانسكي إلىٰ العمل الاقتصادي، بوقاحته المعهودة دون حتىٰ أن يستشيره في ذلك. أما دزرجينسكي، فقد كان مسرورًا بالتخلُّص من نائبه في الشرطة السريَّة، يونشييشت، ومن سكليانسكي أيضًا بالتأكيد. انغمس سكليانسكي في عمله الجديد، والقشعريرة تزحف علىٰ ظهره، وبعد بضعة أشهر قرَّرَ زيارة الولايات المتحدة لدراسة وشراء ماكينات جديدة. وقبل رحيله، دعاني لتوديعه ولطلب نصيحتي. عملنا معًا، يدًا بيدٍ، طوال سنوات الحرب الأهلية، لكن حديثنا كالعادة تركَّزَ علىٰ

الوحدات المقاتلة، والضوابط العسكرية، والإسراع في ترقية وتصعيد الضباط، وإمدادات النحاس والألومنيوم للمصانع الحربية، والطعام والزي العسكري، إلىٰ جانب الحديث في شئون الحزب. كنَّا منشغلين للغاية. وبعدما هاجم المرضُ لينين، حين وَجَدَت مكائد رجال الصف الثاني طريقها إلىٰ إدارة الحرب، عزفت عن مناقشة الشئون الحزبية، بالأخص مع الطاقم العسكري. لم تكن الأوضاع ثابتة، وكانت الاختلافات قد بدأت في الظهور، وهذا يعني بالضرورة أن تشكيل فصائل علىٰ أساس سياسي داخل الجيش ينطوي علىٰ مخاطر جمَّة. بعد ذلك، أعياني المرض وأرقدني في الفراش. وفي لقائي بسكليانسكي في صيف 1925، أي في الوقت الذي لم أعد فيه مسئولًا عن إدارة الحرب، تحدَّثنا عن كلِّ شيءٍ تقريبًا.

سألني سكليانسكي: "أخبرني، من هو ستالين؟".

كان سكليانسكي يعرف ستالين بما فيه الكفاية، لكنه أراد تعريفًا دقيقًا له، طالبًا استيضاح تفسيري للصعود الكبير الذي حققه. فكَّرت لدقيقة، ثم قلت: "ستالين ليس إلا تعبيرًا عن الرداءة السائدة في الحزب". تشكَّل هذا التعريف لديّ بكامل تفاصيله النفسية والاجتماعية. ومن خلال الانطباع الذي انعَكَسَ علىٰ وجهِ سكليانسكي، أدركت أنني ساعدته علىٰ الوصول إلىٰ مبتغاه.

قال لي: "أتعرف؟ إنه لمن المذهل حقًا أن تتوغَّل هذه الرداءة الوضيعة في كل المجالات هكذا، وقد وَجَدَت في ستالين زعيمًا وقائدًا لها. من أين نشأت إذن؟".

فقلت: "إنها رِدَّةٌ وانتكاسٌ بعد ضغطٍ اجتماعيٍ ونفسيٍ هائل خلال السنوات الأولىٰ من الثورة. والثورة المضادة المنتصرة يمكنها ببساطة أن تخلق رجالها وزعماءها الكبار، لكن في مرحلتها الأولىٰ، ألا وهي الترميدور، فإنها تتطلَّب المتواضعين الرديئين الذين لا يرون أبعد من أنوفهم. هؤلاء تكمن قوتهم في عماهم السياسي، مثل حصان الطاحونة الذي يظن أنه يتحرَّك من مكانه بالفعل حين يدفع العجلة. والحصان الذي يرىٰ لا يمكنه إنجاز العمل".

أدركت في هذه المحادثة مشكلة الترميدور، للمرةِ الأولىٰ بأقصىٰ درجة من الوضوح وبقناعةٍ تامة. اتفقت مع سكليانسكي علىٰ استكمال حديثنا في نفس الموضوع بعد عودته من أمريكا، لكن بعدها ببضعة أسابيع وصلتني برقيةٌ تحمل نبأ غرق سكليانسكي في بحيرة أمريكية أثناء إبحاره فيها. لا ينضب مخزون الحياة من مثل هذه المفاجئات القاسية.

أُرسِلَت رفات سكليانسكي إلىٰ موسكو. كان الجميع متأكدون أنها ستُدفَن عند حائط الكرملين في الميدان الأحمر الذي صار مدفنًا لقادة الثورة، لكن أمانة اللجنة المركزية قرَّرَت دفن سكليانسكي

خارج المدينة. انحفرت زيارة وداع سكليانسكي الأخيرة في ذاكرتي، فقد امتدت الكراهية وتوغَّلَت لتحاصر رفاةَ رجلٍ كان التقزيم من شأنه جزءًا من المعركة ضد القيادة التي جلبت النصر في الحرب الأهلية. لا أعتقد أن سكليانسكي كان ليهتم بمكان دفنه حتىٰ، لكن قرار اللجنة المركزية اتَّخَذَ طابعَ الدناءة الشخصية والخِسة السياسية. وبرغم شعوري بالاشمئزاز، دعوت مولوتوف، لكن القرار ظلَّ كما هو دون تغيير. لقد سَبَقَ سيف التاريخ العزل.

في خريف 1924، ارتفعت حرارتي مجددًا، وفي الوقت نفسه كانت مناقشةٌ أخرىٰ قد اشتعلت في الحلقة العليا في الحزب وفق خطة مُعدَّة مُسبَّقًا. في لينينجراد، وموسكو، وغيرهما من المحافظات، كانت المئات، بل الآلاف، من الاجتماعات السريَّة تنعقد للإعداد لهذه "المناقشة"، للإعداد لحملة التصيُّد المنهجي التي لم تُوجَّه إلىٰ المعارضة، بل إليّ شخصيًا.

وحين انتهت هذه الإعدادات السريَّة، أطلقت البرافدا إشارتها علىٰ الفور لتدشين حملةٍ ضد التروتسكية، في كل مقالات وأعمدة الصحف. انطلقت هذه الحملة من كلِ فجٍّ عميق لترسم مشهدًا كان فريدًا من نوعه. انفجرت الافتراءات كالبركان، في صدمةٍ كبيرة أصابت أغلبية عضوية الحزب، بينما ظللت راقدًا في فراشي، بحرارةٍ مرتفعة، وبقيت صامتًا عن كل ذلك. تفرَّغ الصحفيون والخطباء لفضح التروتسكية، رغم جهلهم بما تعنيه بالضبط.

ويومًا بعد آخر، كان هؤلاء يستدعون أحداثًا من الماضي، ومقتطفاتٍ سجالية من مقالاتٍ كتبها لينين منذ عشرين عامًا وأكثر، ليزيِّفونها ويشوِّهونها، ويصوِّرونها كما لو حدثت بالأمس القريب فقط. لم يكن أحدٌ يفهم أي شيءٍ من هذا كله. إذا كانت هذه الافتراءات صحيحة بالفعل، لكان لينين أول من أدركها وفهمها، لكن ألم تكن هناك ثورة أكتوبر بعد ذلك كله؟ ألم تندلع بعدها الحرب الأهلية؟ ألم يعمل تروتسكي كتفًا بكتفٍ مع لينين في إنشاء الأممية الشيوعية؟ أليست تلك هي صور تروتسكي مُعلَّقةً بجانب صور لينين في كلِ مكان؟ لكن الافتراء والتشهير الكاذب جرىٰ كتيارٍ باردٍ يجرف معه كل شيء، ليكبت الوعي ويدمِّر الإرادة.

تَبَدَّلَ الموقف من لينين من اعتباره قائدًا ثوريًا إلىٰ قديسٍ علىٰ رأس تراتبيةٍ كنسية. وبرغم احتجاجاتي المُتكرِّرة، بُنِيَ ضريحٌ له في الميدان الأحمر، نصبٌ لا يليق بالوعي الثوري، بل مُعاديًا له. لم تختلف الكتبُ الرسمية عن لينين كثيرًا، فقد كانت جميعًا بمثابة أضرحة مشابهة لذلك الذي في الميدان الأحمر. تمزَّقَت أفكاره إلىٰ اقتباساتٍ مُجتزئة للوعظ المنافق. واستُخدِمَت جثته المُحنَّطة ضد أفكاره الحيَّة، وضدي. دُهِشَت الجماهير وارتعبت وتحيَّرت. وبفضل هذه التوليفة الجنهمية، صارت لهذه الحملة من الأكاذيب الجاهلة فاعلية سياسية، فأربكت الجماهير وأحبطتها واستضعفتها، ومن ثم

نشأ نظامٌ لا يوصف بأقل من ديكتاتورية جهاز الحزب على الحزب نفسه. وبعبارةٍ أخرى؛ كفَّ الحزب عن أن يكون حزبًا.

كنت أتلقى الصحف في فراشي كل صباح. كنت أطلع على التقارير وعناوين وتوقيعات المقالات. عرفت هؤلاء الرجال بما فيه الكفاية، عرفت أفكارهم الداخلية، وما بمقدورهم قوله وما يؤمرون بقوله. في أغلب الحالات، كانوا رجالًا أرهقتهم الثورة واستنفذت قواهم. بعضهم كان مُتعصِّبًا ضيق الأفق سلَّم نفسه للخداع وقَبِلَ به، وآخرون كانوا شبانًا "وصوليين" متعجِّلين في إثبات أنفسهم. كان هؤلاء يناقضون بعضهم ويناقضون أنفسهم. استمرت حملة الافتراءات في الصحف دون انقطاع. كانت تصرخ وتعوي، وتُغرِق تناقضاتها وسطحيتها في بحرٍ من الضوضاء والصخب، وقد نجحت فقط بسبب حجمها الهائل.

كتبت ناتاليا سيدوفا في مذكراتها:

"حينما هاجم المرض ليف دافيدوفيتش للمرة الثانية، تزامَنَ ذلك مع حملةٍ وحشيةٍ ضده، جعلتنا نشعر كما لو كنَّا نعاني مرضًا خبيثًا. بدت صفحات البرافدا لا نهاية لها، تعجُّ بالأكاذيب في كلِّ سطرٍ وكلِ كلمة. ظلَّ ليف دافيدوفيتش صامتًا، لكن ماذا كلَّفه هذا الصمت؟

كان الأصدقاء يزورونه خلال فترة النهار، وأحيانًا في الليل. أتذكَّر أن سأله أحدهم ما إذا كان قد قرأ الصحيفة، فردَّ بأنه لم يعد يقرأ الصحف، وكان ذلك صحيحًا بالفعل، فلم يكن يتصفَّح أيًّا منها، فقط يمر عليها بنظرةٍ عابرة ثم يلقي بها جانبًا. بدا أنه كان يكتفي بهذه النظرةِ السريعة ليعرف محتواها ومضمونها. كان يعرف الطاهي الذي يطبخ نفس الصنف كل يوم. كان يقول أن قراءة صحف تلك الأيام أشبه بإقحام فرشاةٍ خشنةٍ في الحلق، لكنه كان يضطر أحيانًا لقرائتها إذا قرَّر الرد، فيما بقىٰ صامتًا أغلب الوقت.

وبسبب حالته العصبية، بدا شاحبًا نحيفًا. تجنَّبَت العائلة الحديث عن هذه الحملة، لكننا لم نكن نتحدَّث عن أي شيءٍ آخر. أتذكَّر شعوري حين كنت أذهب وقتها إلىٰ عملي في مفوَّضية التعليم؛ كان الأمر أشبه بتحدٍ يومي ابتُليت به. لكن لم يحدث قط أن سمح أحدٌ لنفسه بالتفوُّه بأي تلميحٍ سخيف. لكن، في مقابل الصمت الخبيث المعادي الذي ساد المجموعة الصغيرة الحاكمة، كان هناك تعاطفٌ أكيدٌ من أغلب زملاء العمل. بدا أن حياة الحزب انقسمت إلىٰ قسمَين متعارضَين تمام التعارض: الحياة الداخلية الخفية، والحياة الخارجية الظاهرة. وفقط الشجعان هم من كانوا يجرؤون علىٰ كشف ما هو كامن في عقولِ وقلوب أولئك الذين أخفوا

تعاطفهم وراء الصوت الواحد الذي لم يعلُ عليه أيُّ صوتٍ آخر".

نُشِرَ خطابي إلىٰ تشخيدزه ضد لينين خلال تلك الفترة. وهذا الخطاب، الذي يرجع إلىٰ أبريل 1913، كان قد جاء علىٰ خلفية اتخاذ الصحيفة البلشفية، التي صدرت وقتها في سان بطرسبورج، نفس اسم الصحيفة التي أصدرتها في فيينا "البرافدا - صحيفة عمالية". وقد أشعل ذلك الكثير من الصراعات المُتكرِّرة في حياة المنفيين الأجانب. وفي هذا الخطاب إلىٰ تشخيدزه، الذي وقف في ذلك الوقت بين البلاشفة والمناشفة، كنت أنفِّس عن سخطي تجاه المركز البلشفي ولينين. وبعد أسبوعين أو ثلاثة من كتابته، قمت بمراجعته مرة أخرىٰ، ثم بعدها بعامين أو ثلاثة، كان الفضول لا يزال يداعبني. لكن مصير الخطاب فيما بعد كان غريبًا. وجد الخطاب طريقه إلىٰ إدارة الشرطة، ثم حُفِظَ في أراشيفها حتىٰ ثورة أكتوبر، وبعدها انتقل إلىٰ معهد تاريخ الحزب الشيوعي. كان لينين يعرف هذا الخطاب جيدًا، لكن بالنسبةِ إليه، وبالنسبةِ إليّ أيضًا، لم يكن يعبر سوىٰ عن "ثلوج السنوات الغابرة"، وليس أكثر من ذلك.

لقد كتبت الكثير من الخطابات الجيِّدة، من كلِّ شكلٍ ولون، خلال سنوات المنفىٰ الأجنبي. لكن في العام 1924، نبش رجَال الصف الثاني عن هذا الخطاب بالذات، ووجدوه في الأراشيف وأشهروه أمام الحزب الذي تَشَكَّلَ ثلاثة أرباعه في ذلك الوقت من

العضوية الجديدة. وليس من قبيل الصدفة أن يختاروا أن يفعلوا ذلك بعد بضعةِ أشهر من موتِ لينين. هذا هو الشرط الأساسي الذي يضاعف نتيجة هذه المكيدة؛ فأولًا، لم يعد لينين موجودًا حتىٰ يدعو هؤلاء السادة بأسمائهم الحقيقية. وثانيًا، كانت الجماهير مكلومةً حزنًا علىٰ موتِ قائدها. وبجهلٍ تام بماضي الحزب، قرأ الناسُ ملاحظات تروتسكي العدائية تجاه لينين بذهولٍ وحيرة. صحيحٌ أن هذا الخطاب كان منذ اثنىٰ عشر عامًا، لكن التسلسل الزمني سقط في وجه الاقتباسات العارية المجرَّدة. كان استخدام رجال الصف الثاني لهذا الخطاب واحدًا من أكبر عمليات الاحتيال والخداع في تاريخ العالم، حتىٰ أن وثائق الرجعيين الفرنسيين المُزوَّرة في قضية دريفوس لا تُقارن بالتزييف والخداع السياسي الذي حاكه ستالين ومعاونوه.

تتطوَّر الافتراءات وتصير حقيقةً واقعة فقط حينما تلبي متطلباتٍ تاريخية مُحدَّدة. لابد أن يكون ثمة تحوُّلٌ سياسي في العلاقات الاجتماعية أو في المزاج السياسي، حتىٰ يجد الافتراء والخداع والتزوير سوقًا رائجة. كان لابد من تحليل مضمون هذه الافتراءات، وقد كان لديّ ما يكفي من الوقت لذلك وأنا راقدٌ في الفراش.

من أين نبع هذه الاتهام برغبة تروتسكي في "سرقة الفلاحين" – ذلك الاتهام الذي يوجهه الزراعيون الرجعيون والاشتراكيون المسيحيون والفاشيون ضد الاشتراكيين وضد الشيوعيين علىٰ الأخص؟ من أين تولَّد هذا التصيُّد الماكر لفكرة الثورة الدائمة لصالح

ذلك التفاخر القومي الذي يعد ببناء اشتراكيته الخاصة؟ أي قطاعاتٍ من الشعب تطلبت مثل هذا الابتذال الرجعي؟ وأخيرًا، كيف ولماذا حدث هذا التدني في المستوىٰ النظري وهذا الانتكاس إلىٰ الغباء السياسي؟ تصفَّحت مقالاتي القديمة، راقدًا في فراشي، فوقعت عيني علىٰ السطور التالية، التي كتبتها في العام 1909، في ذروة الردة الرجعية في ظل سلطة ستوليبين:

"حين يصعد منحنىٰ التطوُّر التاريخي، يصبح الفكر السياسي أكثر جرأةً ونفاذًا وعمقًا، يقبض الحقائق ويربطها ببعضها في خيطٍ متسقٍ من التعميم... لكن حين ينحط المنحنىٰ السياسي، يستسلم الفكر أمام الغباء، ومن ثم تتلاشىٰ المقدرة علىٰ التعميم السياسي، هذه المقدرة التي لا تُقدَّر بثمنٍ، تتلاشىٰ دون أن تترك أثرًا، فيزداد الغباء غطرسةً ووقاحة، كاشفًا أسنانه، ساخرًا بإهانةٍ من كلِّ محاولةٍ للتعميم الجاد. وبعدما يشعر هذا الغباء أنه سيد الساحة، يبدأ في استخدام أساليبه الخاصة".

وأحد أهم هذه الأساليب هو الافتراء.

أقول لنفسي أننا نمرُّ بفترةٍ من الردة الرجعية، حيث يجري تحوُّلٌ سياسيّ يصاحبه تغيرٌ في الوعي الطبقي. بعد كل الجهد الكبير الذي بُذِل، يأتي دورُ الارتداد والنكوص. إلىٰ أي مدىٰ سيستمر هذا الحال؟

المُؤكَّد أنه لن يعود إلىٰ النقطة التي بدأ منها، لكن ما مِن أحدٍ يستطيع تحديد المسار الذي سيتبعه مُسبَقًا، وصراع القوىٰ الداخلية هو ما سيحدِّد ذلك. لكن لابد أولًا أن نفهم ماذا يجري علىٰ وجه التحديد. تصعد العمليات الجزيئية العميقة للردة الرجعية إلىٰ السطح، وهدفها هو اجتثاث - أو علىٰ الأقل إضعاف - استقلالية الوعي العام بالأفكار والشعارات والرموز الحيَّة لثورة أكتوبر. هذا ما يجري علىٰ الأرض في الوقتِ الراهن، لذا دعونا نبتعد عن كلِّ ما هو ذاتي، دعونا لا ننازع التاريخ في إدارة شئونه في مثل هذه المسارات المتشابكة والملتوية. إن فهم ما يحدث لهو بالفعل نصف ضمانة للانتصار.

الفصل الثاني والأربعون

الفصل الأخير من النضال داخل الحزب

في يناير 1925، أُعفِيت من مسئولياتي في مفوَّضية الشعب لشئون الحرب. أُعدَّ هذا القرار بعنايةٍ علىٰ خلفية الصراعات السابقة. لم يكن رجال الصف الثاني يرتعبون من تراث ثورة أكتوبر فقط، بل أن تقاليد الحربِ الأهليةِ كانت ترعد فرائصهم أيضًا، وكذلك صلتي وعلاقتي الوثيقة بالجيش. تركت منصبي العسكري دون صراع، بل حتىٰ بشعورٍ بالارتياح، إذ كنت بذلك أُجرِّد خصومي من سلاح التلميح وإثارة الأكاذيب حول نواياي العسكرية. اختلقوا الخرافات بغرضِ تبرير أفعالهم، ثم بدأوا في الأغلب في تصديقها. كانت اهتماماتي وانشغالاتي قد تحوَّلت إلىٰ مجالٍ آخر منذ العام 1921، فقد انتهت الحرب حينذاك وانخفض تعدادُ الجيشِ من 5 مليون و300 ألف رجلًا إلىٰ 600 ألف فقط، وجرىٰ العمل العسكري في مساراتٍ بيروقراطية. أما المشكلات الاقتصادية فكانت ذات أولويةٍ قصوىٰ في البلاد، فمنذ أن وضعت الحربُ أوزارها، شغلت هذه المشكلات اهتمامي وابتعلت كل وقتي إلىٰ حدٍّ أكبر كثيرًا من الشئون العسكرية.

عُيِّنت رئيسًا للجنة الامتيازات والإعفاءات في مايو 1925، ورئيسًا لهيئة الكهرباء والتكنولوجيا، ورئيسًا لهيئة التكنولوجيا العلمية

للصناعة. لم تكن ثمة صلةٌ تربط بين هذه المناصب وبعضها، بل أنها قد اختيرت من وراء ظهري لبلوغ هدفٍ مُحدَّدٍ: عزلي عن الحزب وإغراقي في الروتين، ووضعي تحت سيطرةٍ خاصة، وهلمجرا. إلا أنني حاولت بأمانةٍ وإخلاص الانسجام في العمل في ظلِّ الأوضاع الجديدة. وحين بدأت العمل في ثلاثِ مؤسساتٍ لا يمتُّون لبعضهم بصِلة، اندمجت في أعمالِهم بكلِ كياني. كنت مهتمًا بشكلٍ خاصٍ بمعاهد العلوم التكنولوجية التي تطوَّرت في روسيا السوفييتية على نطاقٍ واسع، نظرًا للطابع المركزي للصناعة. شرعت بانتظامٍ ودأب في زيارة المعامل، ومشاهدة التجارب باهتمامٍ بالغ، والاستماع إلى شروحات العلماء البارزين، وفي أوقاتِ فراغي عكفت على دراسة الكيمياء والهيدروديناميكا، وشعرت أنني نصف مديرٍ نصف طالب. أدركت وقتذاك أن ميلي لدراسة الفيزياء والرياضيات في الجامعة لم يكن من فراغ.

كنت في استراحةٍ من السياسة، أصب كل تركيزي على قضايا العلوم الطبيعية والتكنولوجيا. وكرئيسٍ لهيئة الكهرباء والتكنولوجيا، زرت محطات الطاقة أثناء بنائها، وسافرت إلى نهر دنيبر حيث جرى العمل على قدمٍ وساق لتشييدِ محطةِ طاقةٍ كهرومائية. أخذني اثنان من البحَّارةِ أسفل الشلالِ في قاربِ صيدٍ، على طول طريق زابوروجتزي. كانت هذه الرحلة ذات نفعٍ رياضي كبير بالطبع. شغلت هذه المحطة كلَّ تفكيري، سواء من الجانب الاقتصادي أو التقني، فأنشأت لجنةً

من خبراءٍ أمريكيين، انضم إليها لاحقًا بعض الخبراء الألمان، لصيانة المحطة من أي خللٍ مُحتَمَل، وحاولت ربط عملي هذا ليس فقط بالمتطلبات الاقتصادية المباشرة، بل أيضًا بالمشكلات الرئيسية في بناء المجتمع الاشتراكي. وفي نضالي ضد النهج الوطني الجامد فيما يخص القضايا الاقتصادية (الاستقلال التام عبر الانعزال عن العالم)، تقدَّمت بمشروعٍ لتطوير نظام المؤشرات المُقارَنة للاقتصاد السوفييتي والعالمي. نبع هذا المشروع من حاجتنا للتوجُّهِ الصحيح نحو السوق العالمية، بغرضِ خدمةِ حاجاتنا في الاستيراد والتصدير. وتضمَّنَ هذا المشروع، الذي يشترط حتمًا الاعتراف بقوىٰ الإنتاج العالمية التي تهيمن علىٰ قوىٰ الإنتاج في كلِ أمةٍ، هجومًا علىٰ نظرية "الاشتراكية في بلدٍ واحد" الرجعية.

أعددت تقارير عن أنشطتي الجديدة، ونشرت كتبًا وكراساتٍ عديدة، بينما لم يكن خصومي مستعدين - ولا مهتمين - بخوضِ صراعٍ ضدي في هذه الساحة، فلخَّصوا الأمرَ كله في هذه الصيغة: خلق تروتسكي ساحة عراكٍ جديدة لنفسه لا يباريه فيها أحد. حينها، بدأت هيئة الكهرباء والتكنولوجيا، وكذلك بقية المؤسسات العلمية، تقض مضاجعهم، تمامًا كما أقلقتهم مفوَّضية الحرب والجيش الأحمر من قبل، فسار الجهاز الستاليني في أعقابي متتبِّعًا أثري. كلُّ خطوةٍ عمليةٍ أتخذها كانت تتبعها مؤامرةٌ أو مكيدةٌ خلف الكواليس، وكلُّ استنتاجٍ نظريٍ أتوصَّلُ إليه كان يغذي الأساطير الجاهلة حول "التروتسكية".

كان عملي في الواقع يجري في ظلِّ ظروفٍ مستحيلة، ولا أبالغ حين أقول إن مجهودات ستالين ومساعده مولوتوف كانت مُوجَّهةً بالأساسِ لتخريب عملي. صار من المستحيل عمليًا علىٰ هذه المؤسسات تحت قيادتي الحصول علىٰ التمويل اللازم لها، وبدأ العاملون فيها يخشون علىٰ مستقبلهم، أو علىٰ الأقل علىٰ حياتهم المهنية.

باءت كل محاولاتي للاستراحة من العملِ السياسي بالفشل، فلم يكن بمقدورِ رجال الصف الثاني التوقُّف في منتصف الطريق. كانوا خائفين مما فعلوه بالفعل من قبل، فافتراءات الأمس التي اختلقوها كذبًا، يلزمها اليوم غدرًا مُضاعَفًا. وضعت حدًّا لكلِّ هذا بإصراري علىٰ الإعفاء من رئاسة هيئتيّ الكهرباء والتكنولوجيا والتكنولوجيا العلمية للصناعة، أما رئاسة لجنة الامتيازات والإعفاءات فلم توفِّر مثل هذه الفرص لنسج المكائد وإحاكة المؤامرات، إذ كانت قراراتها تُناقش وتُتخذ بالأساسِ في المكتب السياسي.

وفي تلك الأثناء، اصطدمت الشئون الحزبية الداخلية بأزمةٍ جديدة. في الفترةِ الأولىٰ من النضال، تأسَّسَ الثلاثي بغية مصارعتي والنضال ضدي، لكنه لم يكن مُوحَّدًا أو منسجمًا قط. في النواحي النظرية والسياسية، مثلًا، ربما كان زينوفيف وكامينيف يفوقون ستالين، لكنهما افتقر إلىٰ قوة الشخصية. أما المنظور الأممي، الذي تميَّزا باتساعه ورحابته عن ستالين، والذي اكتسباه من لينين في المنفىٰ

بالخارج، فلم يوطِّد موقفهما، بل علىٰ العكس؛ أضعفه. مال التوجه السياسي نحو التطوير الوطني الداخلي المُنغلِق، مما وجد التعبير الأنسب له في الصيغة الروسية القديمة: "سنمطرهم بوابلٍ من قبعاتنا حتىٰ ندفنهم بها"، تلك الصيغة التي تُرجِمَت إلىٰ اللغة الاشتراكية الجديدة. أما محاولة كامينيف وزينوفيف للتمسُّكِ بالمنظور الأممي، فقد حوَّلَتهما في أعينِ البيروقراطيةِ إلىٰ "تروتسكيين" من الدرجةِ الثانية. وقد دفعهما ذلك إلىٰ تدشينِ حملتهما ضدي بسخطٍ وغضبٍ أعظم حتىٰ ينالوا رضا الأجهزة. لكن ذهبت هذه الحملة أدراج الرياح أيضًا. سرعان ما اكتشف الجهاز البيروقراطي أن ستالين من لحمه ودمه، وأنه هو الرجل المناسب. وسرعان ما وجد زينوفيف وكامينيف نفسيهما في مواجهةٍ قاسيةٍ مع ستالين، فعندما نقلا النزاع فيما بينهم من الحيز الضيق لثلاثتهما إلىٰ اللجنة المركزية، اصطدموا بالأغلبية الكبيرة التي تؤيده هناك.

كان كامينيف يُعتبَر القائد الرسمي لموسكو. وبعد تولي كامينيف قيادة منظمة موسكو الحزبية في 1923، حين خرج الحزب بأغلبيته لتأييد المعارضة، أطبَقَ صمتٌ قاتِمٌ علىٰ قواعد شيوعيي موسكو. ومع أولىٰ محاولاتِ كامينيف لمقاومةِ مدِّ ستالين، وَجَدَ نفسه مُعلَّقًا في

الهواء. أما في لينينجراد[25] ، فكان الوضعُ مختلفًا، فلطالما كان شيوعيو لينينجراد تحميهم أجهزة زينوفيف المُحكَمَة من بلوغِ تيار المعارضة لهم، لكن دورهم الآن قد حان. استثار عمال لينينجراد من التيار السياسي الذي يصب في صالح أغنياء الفلاحين (الكولاك)، ومن سياسات الاشتراكيةِ في بلدٍ واحد، فنهضت نضالاتهم الطبقية متزامنةً مع معارضة زينوفيف. وبالتالي تولَّدت معارضةٌ جديدة، كانت ناديجدا كونستانتينوفا كروبسكايا من أبرز رموزها في المراحلِ الأولىٰ.

ويا للمفاجأة؛ وَجَدَ زينوفيف وكامينيف نفسيهما مُجبرين علىٰ ترديد نفس كلماتِ وعباراتِ المعارضة، فأُدرِجا علىٰ الفورِ في قائمة معسكر "التروتسكيين". وليس من الغريب أن نقول إن العلاقات التي جمعت زينوفيف وكامينيف بدائرتنا بدت، علىٰ أقلِ تقديرٍ، متناقضة، بل عارض الكثيرون التحالف معهما، حتىٰ أن كان هناك من يرىٰ من الممكن التحالف مع ستالين ضد زينوفيف وكامينيف، لكن هؤلاء كانوا قلةً قليلة.

كان واحدٌ من أصدقائي المُقرَّبين، الثوري القديم الذي كان واحدًا من القيادات الصلبة في الحربِ الأهليةِ، مراتشكوفكسي، قد عبَّر عن معارضته للتحالف مع أيٍ من الطرفين، مفسِّرًا موقفه بطريقةٍ كلاسيكية،

---

[25] في الأصل هي مدينة سان بطرسبورج، التي سُمِيَت بتروجراد أثناء الحرب، ثم تَغيَّر اسمُها بعد ذلك إلى لينينجراد.

قائلًا: "ستالين سيخدعنا، وزينوفيف سيتخلَّىٰ عنَّا". لكن مثل هذه المسائل لا تُحسَم بالتقديراتِ النفسية، بل بالاعتباراتِ السياسية. لاحقًا، اعترف زينوفيف وكامينيف، علنًا، بأن "التروتسكيين" كانوا علىٰ حقٍ في النضال ضدهما منذ 1923، وقبلوا بكافة المبادئ الأساسية لمنبرنا المعارض، لذا كان من المستحيل تجاهل التحالف معهما، خاصةً وأن هناك الآلاف من عمال لينينجراد الثوريين وراءهما بالفعل.

لم أقابل كامينيف خارج الاجتماعات الرسمية لثلاثةِ أعوامٍ متصلة، منذ الليلة التي سافر فيها إلىٰ جورجيا، حين وَعَدَ بالتمسك بموقفي وموقف لينين، لكنه في المقابل شدَّدَ علىٰ موقف ستالين بمجردِ أن علِمَ بتدهورِ حالةِ لينين الصحية. وفي اجتماعنا الأول، أعلن كامينيف بملء الفم: "يكفي أن تظهر أنت وزينوفيف علىٰ نفس المنصةِ ليجد الحزبُ فيكما لجنته المركزية الحقة". لم يسعني إلا أن أضحك علىٰ هذا التفاؤل البيروقراطي. لابد أن كامينيف قد أساء تقدير التأثير المُدمِّر لثلاثِ سنواتٍ من نشاط الثلاثي علىٰ الحزب. أشرت إلىٰ ذلك في حديثي معه، دون أدنىٰ تنازلٍ لما عبَّر عنه من مشاعر. كان للجزر الثوري الذيْ بدأ في أواخر العام 1923، بعد هزيمة الحركة الثورية في ألمانيا، أبعادٌ أممية خطيرة. ففي روسيا، انطلقت الرِدةُ الرجعيةُ بأقصىٰ سرعتها، وصار جهاز الحزب يجنح أكثر فأكثر إلىٰ اليمين. وفي مثل هذه الظروف، من الطفولي التفكير في أن كل ما نحتاجه هو التكاتف سويًا

ليسقط النصر بين أيدينا كثمرةٍ ناضجة حان وقتُ قطافها. قلتُ لكامينيف وزينوفيف عشرات المراتِ أن "علينا أن نستهدف ما هو أبعد من ذلك.. علينا أن نستعد لنضالٍ طويلٍ وجاد". وفي حمية اللحظة، تبنىٰ حلفائي الجدد هذه الصيغة بشجاعة، لكن لم يصمدوا عليها طويلًا؛ كانت جذوتهم تخبو علىٰ مدارِ اليومِ والساعة. أثبت مراتشكوفسكي صحة تقديره لشخصيتيهما بدقة، فسرعان ما تخلّىٰ عنّا زينوفيف، لكن لم يتبعه في ذلك كل مؤيديه. علىٰ أيةِ حال، تسببّت ازدواجيته هذه في ضررٍ لا إصلاح له للأساطير المُختَلَقة حول "التروتسكية".

في ربيع 1926، ذهبت مع زوجتي في رحلةٍ إلىٰ برلين، إذ ألحّ عليّ أطباء موسكو، غير القادرين علىٰ تفسير ارتفاع حرارتي المستمر وغير الراغبين في تحمُّلِ المسئوليةِ كاملةً، للسفر إلىٰ الخارج. كنت قلقًا أيضًا بنفسِ القدر، غير قادرٍ علىٰ إيجادِ مخرجٍ من هذا المأزق، إذ جعلتني حرارتي المرتفعة في حالةٍ من الشللِ التام في أكثر اللحظات حسمًا، كما لو كانت حليفةً شرسةً لخصومي. ناقش المكتب السياسي أمر زيارتي للخارج، واعتبرها خطيرةً للغاية في ضوءِ ما يتوفَّر لديه من معلومات، وفي ظلِّ الظرف السياسي العام، لكنه ترك القرار النهائي لي. جاء ذلك علىٰ خلفية مذكرةٍ أرسلها جهاز الشرطة السرية السوفيتية تفيد برفض الجهاز هذه الرحلة، لكن المكتب السياسي خشىٰ أن يُحمِّله الحزب مسئولية أي مكروهٍ ربما يحدث لي في

الخارج. لم تكن فكرة إجباري علىٰ البقاء بالخارج، أو بمعنىً أصح النفي، قد أضاءت بعد داخل عقل ستالين البوليسي. ومن المُحتَمَلِ أن يكون المكتب السياسي قد تشكَّكَ في أن الغرض من رحلتي هو تعزيز المعارضة بالخارج. إلا أنني في النهاية، بعد استشارة بعض الأصدقاء، قرَّرت الرحيل.

أتممت الإجراءات مع السفارة الألمانية دون أيةِ صعوبات، وبحلول منتصف أبريل سافرت وزوجتي بجوازاتِ سفرٍ ديبلوماسيةٍ، باسمِ كوزميينكو. رافقنا سكرتيري سيرموكس، وقائد قطاري، ومندوبٌ من الشرطة السرية الروسية. ودَّعني زينوفيف وكامينيف وهما يتظاهران بالمشاعر الطيبة، فيما لم يحبا أن يظلا وجهًا لوجهِ مع ستالين.

في سنواتِ ما قبل الحرب، عَرِفت برلين الهوهنزلرنية جيِّدًا، وكانت لها آنذاك سيماؤها المُمَيِّزة التي لا أستطيع أن أقول عنها أنها باعثةٌ علىٰ السعادة، بل كانت فقط تفرض علامات التعجب والاستفهام. تغيَّرت برلين؛ اختفت سيماؤها المُمَيِّزة تمامًا، علىٰ الأقل لم أجد منها ما رأيته من قبل. كانت المدينة لا تزال تتعافىٰ ببطءٍ من مرضٍ عُضالٍ تَطَلَّبَ الكثير من العملياتِ الجراحية. كان التضخم قد انتهىٰ لتوه، لكن المرض كان لا يزال يضرب بجذوره في نخاع عظم المدينة. في الشوارع، والمحال، وعلىٰ وجوهِ المارة، لمست هذه العفويةَ وهذه الرغبةَ، التي غالبًا ما تظهر جليةً في حديثِ الجميع، في

الانتفاضِ مجددًا. ابتلع الفقر المدقع كل دقة وإتقانٰ الألمان خلال سنواتِ الحربِ العصيبة، وخلال إلحاقهم الهزيمة بعصابات فرساي. لكن خلية النحل البشرية التي لا تهدأ أعادت بناءَ الممراتِ والأروقةِ والبنايات التي هَدَّمَتها جنازير الحرب الساحقة. وفي إيقاع الشوارعِ والميادين، وتحركات المارة والعابرين، شعرت بتلك القدرية الخفية التي كست كل شيء.

هكذا كانوا يقولون: "ليس بوسعنا فعلُ شيءٍ؛ الحياةُ حُكمٌ مؤبدٌ بالأشغال الشاقة، لابد أن نبدأ من جديد، لابد أن نبدأ من الصفر".

ظللت لأسابيع تحت المراقبة الطبية في عيادةٍ خاصة في برلين. وفي محاولاتهم للوصول إلىٰ سبب هذه الحرارةِ الغامضة التي لا تنخفض، ظلَّ الأطباءُ يتلقفونني فيما بينهم. وأخيرًا، افتَرَضَ طبيبُ حنجرةٍ أن مصدر الحرارةِ هو لِوَز حلقي، ونصحني باستئصالها علىٰ أيةِ حال. تردَّدَ الأطباء والأخصائيون حيال تشخيص الطبيبِ متوسِّطِ العمر. لكنه، بما يحمله من خبرةِ حربٍ ضاريةٍ لا رحمةَ فيها، عاملهم باحتقارٍ يؤذي النفس ويُصدِّع المعنويات: أصرَّ الطبيب علىٰ ضرورة الاستئصال، كما أوضح أن العملية في هذا الوقت صارت سهلةً بسهولةِ حلقِ الشارب. خضعت بالقبول دون كلمةٍ واحدة.

استعد الممرضون لتقييد ذراعيّ، لكن الطبيب اكتفىٰ بتعهُّدي له بألا أتحرك أبدًا. وخلف ستار دعاباته التشجيعية لي قبيل الجراحة،

شعرت بالتوتُّر والاستثارة التي حاوَلَ قدر الإمكانِ السيطرةَ عليها. إنه لشعورٍ سخيف ومقزِّز أن تستلقي علىٰ طاولةٍ وتختنق بدمك حين يسد قصبتك الهوائية. استغرقت العمليةُ بين أربعين وخمسين دقيقةً، وجرىٰ كلُّ شيءٍ علىٰ ما يُرام - هذا إن تجاوزنا عن عدم جدواها من الأصل، إذ ظلت حرارتي ترتفع مرةً أخرىٰ لاحقًا.

لكن الوقت الذي قضيته في برلين، لا سيما في المستوصف، لم يذهب سُدىٰ، فقد أغرقت نفسي في الصحف الألمانية التي انقطعت عنها تمامًا تقريبًا منذ أغسطس 1914. كانت تصلني كل يومٍ مجموعةٌ كبيرة من الإصدارات الألمانية والأجنبية، وكنت ألقي بها علىٰ الأرض فور الانتهاءِ من قراءتها. كان الأخصائيون، الذين أشرفوا علىٰ حالتي، يخطون علىٰ ما يشبه سجادةً من الصحف من كلِ أطيافِ الرأي السياسي. كانت تلك حقًا فرصتي الأولىٰ للاطلاع لكل ألوانِ الإصداراتِ السياسيةِ الألمانية. لابد أن أعترف هنا أنني لم أجد أي شيءٍ غير متوقَّعٍ قط؛ الجمهورية وليدة الهزيمة العسكرية، والجمهوريون دُمىٰ في يدِ فرساي، والاشتراكيون الديمقراطيون الذي خنقوا ثورة نوفمبر حتىٰ الموت، وهايدنبرج الرئيس الديمقراطي. بشكلٍ عام، كان كلُّ شيءٍ تمامًا كما توقَّعت، لكن كان من المفيد أن أتمكَّن من رؤية ذلك عن قرب.

في 1 مايو، ذهبت وزوجتي في جولةٍ بالسيارة حول المدينة. زرنا المقاطعات الرئيسية، وشاهدنا المسيراتِ، وقرأنا اللافتاتِ، واستمعنا

إلىٰ الخطبِ، ومن ثم توجهنا إلىٰ أليكساندربلاتز واختلطنا هناك بالحشود. سبق لي أن رأيت الكثير من المسيراتِ الأكثر بهرجةً وحشدًا ربما، لكنها كانت المرة الأولىٰ منذ زمنٍ بعيد التي أسير فيها في حشدٍ دون أن ألفت انتباهًا، كجزءٍ من هذا الكلِّ المُنسجم، أستمع وأشاهد وألاحظ. هَمَسَ لي مرافقِ بحذرٍ: "إنهم يبيعون صورك هنا". لكن لم يتعرَّف أحدٌ علىٰ ذلك الموظف بمفوَّضية التعليم، كوزمينكو، وسط كل هذا الحشد. إذا كانت هذه الكلمات التي هَمَسَ بها مرافقي في أذني قد وصلت إلىٰ أسماعِ الكونت ويستارب أو هيرمان مولر أو ستريسيلان أو الكونت ريفينتلو، أو هلفرديننج، أو أيٍ مِمَن عارضوا دخولي ألمانيا، لكان من الضروري حينها أن أُخبرهم أنني لست من دعا لرفع هذه الشعارات، ولست من نَصَبَ هذه اللافتات، وأنني لست إلا مراقبًا لما يجري علىٰ الأرض أنتظر إجراء جراحتي بعد بضعةِ أيام.

حضرنا أيضًا "مهرجان النبيذ" خارج المدينة. كانت هناك جحافلٌ من البشرِ، لكن رغم أجواء الربيعِ المُفعمةِ بدفءِ الشمسِ ومذاق النبيذ، خيَّمت الظلالُ الرماديةُ الكئيبة للسنواتِ الماضية علىٰ مرحِ المهرجانِ ووجوه المحتشدين. كان عليك فقط أن تنظر إلىٰ وجوههم عن قربٍ لتجدهم جميعًا وكأنهم يتعافون لتوِّهم من مرضٍ عضال؛ كان المرح في حدِّ ذاته يتطلَّب منهم مجهودًا كبيرًا. أمضينا ساعاتٍ قليلة في قلبِ الحشود المُحتفِلة؛ نراقب الأجواء، ونتحادث مع الناسِ،

ونأكل الفطائر في أطباقٍ ورقية، ونحتسي الجعة التي كدنا ننسىٰ مذاقها منذ العام 1917.

تعافيت من الجراحةِ سريعًا، ففكرت في تحديدِ موعدٍ لرحيلنا. لكن حَدَثَ أمرٌ مفاجئ يظل حتىٰ اليوم محيِّرًا لي. قبل نحو أسبوعٍ من موعدِ رحيلي، رأيت في رواقِ المستوصف رجلَين ذوي مظهرٍ مريبٍ يوحي بأنهما شرطيان. نظرت عبر النافذةِ إلىٰ الساحة الخلفية، فوجدت خمسة رجالٍ مثلهم، ومع أنهم كانوا مختلفين عن بعضهم في الهيئةِ والمظهر، لكنهم كانوا يشبهون بعضهم علىٰ نحوٍ ملحوظ. لفتَّ انتباهَ كريستنسكي إلىٰ ذلك. وبعد دقائق معدودة، دخل واحدٌ من الأطباء المساعدين غرفتي بعد أن قَرَعَ الباب، وأخبرني في فزعٍ أن كانت هناك محاولة لاغتيالي. قلت له: "آمل ألا تكون من جانب الشرطة"، مشيرًا إلىٰ عملاء الشرطة المنتشرين في الساحةِ الخلفية، فأوضح الطبيب أن الشرطة كانت هنا لمنع المحاولة. وبعد دقيقتين أو ثلاث، جاء مفتشٌ شرطي وأخبرَ كريستنسكي أن الشرطة تلقت بالفعل معلوماتٍ عن محاولةٍ لاغتيالي، واتخذت إجراءاتٍ حمائية استثنائية. كان المستوصف كله في حالةِ هرجٍ ومرج؛ الممرضات أخبرن بعضهن والمرضىٰ أن المستوصف يأوي تروتسكي، وبسبب هذا فإن من المُتوقَّع أن يتعرَّض المبنىٰ لمحاولةِ تفجير. اتفقت سريعًا مع كريستنسكي أن نذهب معًا إلىٰ السفارة السوفييتية. كان الشارع حول

المستوصف مُحاطًا بمتاريس الشرطة، ورافقتني سيارات الشرطة إلىٰ هناك.

جاءت الرواية الرسمية عمَّا حدث كالتالي: واحدٌ من المَلَكيين الألمان، كان أُلقيَ القبض عليه في مؤامرةٍ اكتُشِفَت مؤخرًا، صرَّحَ لمحقق المحكمة - أو هكذا زعموا - أن الحرس الأبيض الروسي يدبر محاولة لاغتيال تروتسكي في برلين. وامتنعت الدبلوماسية الألمانية، التي أعدت رحلتي من البداية، عن إخبار الشرطة، مُتعمِّدةً ذلك، إذ كان هناك الكثير من المَلَكيين بين رجال الأمن. والشرطة بدورها لم تصدِّق ما جاء علىٰ لسان المَلَكي المُعتقل في التقرير، إلا أنها تحقَّقَت من تواجدي بالمستوصف بناءً علىٰ ما قاله لمحقق المحكمة. ويا للدهشة! ثَبُتَ أن التقرير صادقٌ بالفعل. وسواء كانت محاولةً جرىٰ التخطيط لها بالفعل، أو كانت الشرطة قد علمت بوصولي من خلال ذلك المَلَكي المُعتقل، تظل الإجابات غائبة حتىٰ يومنا هذا. لكنني أعتقد أن المسألة أبسط من ذلك بكثير؛ ربما فشلت الدوائر الدبلوماسية في إبقاء الأمر سرًا، فقرَّرَت الشرطة، التي استاءت من ضعف الثقةِ فيها، أن تقول، سواءً لي أو لستريسينلان، أن لِوَز حلقي لا يمكن استئصالها دون مساعدتها. أيًا كان التفسير، انقلب المستوصف رأسًا علىٰ عقب، بينما أفلتُّ من هذه الحماية الصارمة من أعدائي المُفترضين وتوجَّهت إلىٰ السفارة. تردَّدَت أصداء هذه

القصة لاحقًا ووجدت طريقها إلىٰ الصحافة الألمانية، لكن ما مِن أحدٍ بدا مُصدِّقًا إياها.

تزامنت أيام بقائي في برلين مع أحداثٍ هامةٍ في أوروبا: الإضراب العام في إنجلترا، وانقلاب بيلسودسكي في بولندا. وقد فاقم كلا الحدثان خلافاتي مع رجال الصف الثاني، بل وحدَّدا مُسبَّقًا التطوُّرات العاصفة للصراعات اللاحقة. لابد أن أسرد هنا بعض التفاصيل حول هذه الخلافات.

رأىٰ ستالين وبوخارين، بل وزينوفيف أيضًا في بادئ الأمر، أن سياساتهم قد تُوِّجَت بالتحالف الديبلوماسي بين المجموعات العليا للنقابات السوفييتية والمجلس العام للنقابات البريطانية. ووفقًا لأفقه الضيق، تصوَّرَ ستالين أن بورسيل، وغيره من القيادات النقابية، مستعدون أو حتىٰ قادرون من الأصل، في لحظةٍ حرِجة، علىٰ دعم الجمهورية السوفييتية ضد البرجوازية البريطانية. أما بالنسبة لقادة النقابات البريطانيين، فقد تصوَّروا، وبرَّروا لأنفسهم، أن بالنظرِ إلىٰ أزمة الرأسمالية البريطانية والسخط المتنامي لدىٰ الجماهير، فمن الحصافةِ والحكمةِ أن يختبئوا خلف من هم علىٰ يسارهم، من خلال صداقةٍ سياسية رسمية، ولكن غير مُلزِمة، بقادة النقابات السوفييتية. تعَمَّدَ الطرفان، بل وبذلا ما في جهدهما، لتجنُّب التطرُّق إلىٰ مواضيع شائكة ومحرجة، وفي الأغلب كي لا يسمُّون الأشياء بأسمائها الحقيقية. كان لهذه السياسةِ العفِنة أثرٌ مُدمِّرٌ علىٰ أحداثٍ جِسام. وقد

أثبت الإضراب العام في إنجلترا، في مايو 1926، أنه حدثٌ جَلل، ليس فقط علىٰ الساحة الإنجليزية، بل أيضًا في الحياةِ الداخليةِ لحزبنا.

كانت المجريات في إنجلترا، بعد أن وضعت الحربُ أوزارها، تستدعي بالغ الاهتمام. فالتغيُّر الجذري الحاسم في مكانتها في العالم تولَّدَت عنه تغيُّراتٌ لا تقل جذريةً في توازن قواها الداخلية. كان واضحًا أنه حتىٰ إذا تمكَّنت أوروبا، بما فيها إنجلترا، من استعادةِ مستوىٰ معينٍ من التوازنِ الاجتماعي، لفترةٍ قد تطول أو تقصر، فلن تتمكَّن إنجلترا نفسها من تحقيق مثل هذا التوازن إلا عبر مخاضٍ من الاضطرابات الحادة والصراعات العميقة. اعتقدت أن من المُحتَمَل أن يتطوَّر النضال في قطاع صناعة الفحم في إنجلترا، دونًا عن البلدانِ الأخرىٰ، إلىٰ إضرابٍ عام. ومن هذه النقطة، افترضت أن التناقض الرئيسي بين المنظمات القديمة للطبقة العاملة والمهام التاريخية الجديدة المفروض عليها سيُنضجه المستقبل القريب حتمًا.

وخلال شتاء وربيع 1925، حين كنت في القوقاز، كتبت كتابًا بعنوان "إنجلترا.. إلىٰ أين؟". وجَّهت هذا الكتاب بالأساس ضد المفهوم الرسمي للمكتب السياسي الذي يعلِّق آماله علىٰ تحوُّلِ المجلس العام للنقابات البريطانية إلىٰ اليسار، وعلىٰ تَغَلغُل الشيوعية تدريجيًا ودون عناء بين قواعد حزب العمال البريطاني وقواعد النقابات. بعثت بمخطوطةِ الكتابِ إلىٰ المكتب السياسي؛ أولًا لتجنبِ أي تعقيداتٍ لا ضرورة لها، وثانيًا لاستكشاف ردة فعل

خصومي. وإذ كان الأمر كله يتعلَّق بالتوقُّعاتِ، لا النقد المبني علىٰ حقائقٍ وقعت بالفعل، لم يغامر أيٌّ من أعضاء المكتب السياسي بالتعبير عن رأيه فيما كتبت.

عَبَرَ الكتابُ بسلامةٍ من بين أيدي الرقابة، وصدر بمجرد أن أنهيت آخر سطوره. وبعد ذلك بفترةٍ قصيرة، صدر أيضًا بالإنجليزية. تَعامَلَ معه زعماء الاشتراكية البريطانية كخيالٍ جامحٍ أو نزوةٍ عابرةٍ من أجنبي لا دراية له بالظروف البريطانية يحلم بزرع الإضراب العام "الروسي" في تربة الجُزُر البريطانية. صدرت تعليقاتٌ وتقديراتٌ كهذه من العشرات، بل المئات، بدءًا من ماكدونالد نفسه، الذي لا يستحق أقل من جائزة المرتبة الأولىٰ، وبلا منازع، في مسابقات التفاهة السياسية.

لكن، بعد أشهرٍ معدودة، تحوَّل إضراب عمال مناجمِ الفحمِ بالفعل إلىٰ إضرابٍ عام. لم أكن أنتظر مثل هذا التأكيد المبكر علىٰ صحة توقُّعاتي. وإذا كان الإضراب العام يُثبِت صحة التوقُّع الماركسي، في مواجهة التقديرات الرديئة منزلية الصُنع للإصلاحيين البريطانيين، فإن أداء المجلس العام لنقابات بريطانيا يشير بنفس القدر من البساطة والوضوح إلىٰ وهمية آمال ستالين علىٰ بورسيل. عملت في المستوصفِ بشغفٍ شديد علىٰ جمعٍ وفحصٍ كل المعلومات المُتعلِّقة بمسارٍ وتطوُّراتِ الإضراب العام، لا سيما فيما يخص العلاقة بين الجماهير وقادتهم. وفي خضمِ ذلك، كانت مقالات البرافدا هي ما أثارت اشمئزازي إلىٰ أقصىٰ حد. كل ما اكترثت به هذه

المقالات هو التغطية على إفلاسها وحفظ ماءِ وجهِها، ولم يكن ذلك ممكنًا إلا من خلال التشويه الساخر للحقائق. ما من أمرٍ يُثبِت الانحطاط الفكري للسياسي الثوري أكثر من خداعِ الجماهير.

ولدى عودتي إلى موسكو، طالبت بالإنهاء الفوري للتحالف مع المجلس العام البريطاني. وبينما وَقَفَ راديك ضدي، انحاز زينوفيف إلى صفي بعد بعضٍ من التردُّد المعهود الذي يلازمه. أما ستالين، فقد تشبَّث بهذا التحالف، حتى وإن كفَّ عمليًا عن الوجود إلا من الناحية الشكلية التي انحصر فيها. والنقابيون البريطانيون من جانبهم، انتظروا حتى انفرجت أزمتهم الداخلية الحادة، ثم ركلوا بهمجيةٍ حليفهم الكريم مُشوَّش الذهن إلى الخارج.

في تلك الأثناء، لم تكن الأحداث في بولندا أقل أهمية. ففي سعيها المسعور للهروب من الأزمة، انتفضت البرجوازية الصغيرة رافعةً بيلسودسكي على دروعها وأعناقها. أما زعيم الحزب الشيوعي البولندي، فارسكي، فقد قرَّرَ من تلقاءِ نفسه أن "الديكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين" كانت آخذةً في التطوُّرِ هناك أمام عينيه، وبناءً عليه دعا الحزب الشيوعي إلى دعم بيلسودسكي. عرفت فارسكي لفترةٍ طويلةٍ من الزمن. حين كانت روزا لكسمبورج لا تزال على قيدِ الحياة، كان ربما قادرًا على الحفاظ على مكانه بين القواعد الثورية. ناهيكم عن أن مكانه كان شاغرًا على الدوام، وكأن ما من أثرٍ له. وفي 1924، أعلن فارسكي، بعد وفيرٍ من التردُّد، أنه أدرك أخيرًا

الشر المطلق الكامن في "التروتسكية"؛ ألا وهو إساءة تقدير الفلاحين في انتصار الديكتاتورية الديمقراطية. وكمكافأةٍ علىٰ طاعته، مُنِحَ زعامة الحزب، فظلَّ يرتقب بنفاذِ صبرٍ أي مناسبةٍ لاقتناص الفرص التي انتظرها طويلًا. وفي 1926، انتهز الفرصة، فقط ليوصم نفسه بالعار ويلطِّخ راية الحزب. وبالطبع لم يُعاقَب علىٰ أيٍّ من ذلك؛ فقد كان آنذاك في حمايةِ الجهاز الستاليني من براثن العمال البولنديين.

تطوَّرَ النضال داخل الحزب بحِدةٍ قصوىٰ خلال العام 1926. وفي الخريف، أطلقَت المعارضة هجمتها داخل اجتماعات فروع الحزب المحلية. لكن الجهاز الحزبي شنَّ هجمةً مُرتَدَة عنيفةً وغاضبة. لقد وفَّر النضال الفكري مساحةً للآليات الإدارية: اتصالاتٌ هاتفيةٌ تستدعي عددًا من بيروقراطيي الحزب لحضور اجتماعات منظمات الحزب العمالية، والسيارات تتكدَّس أمام اجتماعات الحزب وسط ضجيجِ الصافرات، والصفير المُنظَّم للتشويش علىٰ خطب المعارضين علىٰ المنصة. باختصار، بذلت الزُمرة الحاكمة كل ما في وسعها، بتركيزِ ما لديها من أدواتٍ وقوىٰ، وبتصعيد التهديدات والانتقامات. كانوا يخشون احتمالية الانقسام، حتىٰ قبل أن يتسنَّىٰ الوقت لجماهيرِ الحزب لأن تسمع وتفهم أي شيء. وهكذا أُجبِرَت المعارضة علىٰ التراجع.

في 16 أكتوبر، أعلنَّا في بيانٍ أننا نعتبر رؤانا وتصوُّراتنا عادلة ومشروعة، وأننا نحتفظ بحق النضال من أجلها في الإطار الحزبي،

وندَّدنا بالأنشطة التي تنجم عن خطر الانقسام. لم نوجِّه هذا البيان إلىٰ جهاز الحزب، بل إلىٰ جماهيره. كان ذلك تعبيرًا عن رغبتنا في البقاء في الحزب وخدمته إلىٰ أقصىٰ حدٍّ ممكن، ورغم أن الستالينيين قد خرقوا الهدنةَ بعد يومٍ واحدٍ منها، فقد كسبنا بعض الوقت. مَنَحَنا شتاء 27 – 1926 مُتَنَفَّسًا سَمَحَ لنا بإجراءِ المزيدِ من التمحيص النظري في العديدِ من القضايا. كان زينوفيف، في مطلع العام 1927، في كامل الاستعداد للاستسلام والإذعان للزُمرةِ الحاكمة، تدريجيًا إن لم يكن بالكامل علىٰ الفور. ثم نزلت الأحداث الجِسام في الصين كالصاعقة. ظهر الطابع الإجرامي للسياسات الستالينية كضبابِ الدخان يعمي العيون، فأجَّلَ خضوع زينوفيف ومن تبعوه لاحقًا لفترةٍ من الوقت.

مرَّغَت قيادة الصف الثاني في الصين كل تراث وتقاليد البلشفية في الوحل. أُجبِرَ الحزب الشيوعي الصيني، رُغمًا عنه، علىٰ الانضمام إلىٰ حزب الكومينتانج البرجوازي والتقدُّم له بفروضِ الانضباط العسكري. حُظِرَ تأسيس السوفييتات، ونُصِحَ الشيوعيون بإرجاء الثورة الزراعية إلىٰ حين، وكذلك الامتناع عن تسليح العمال دون إذن البرجوازية.

وقبل أن يعمد تشانج كاي تشيك إلىٰ سحق العمال وتركيز السلطة بين يديّ العصبة العسكرية، كنَّا نُحذِّر المرة تلو الأخرىٰ بأنَ نتيجةً كهذه حتمية الحدوث وفق هذا المسار. ومنذ العام 1925، كنت أطالب بانسحاب الشيوعيين من الكومينتانج. أما سياسات ستالين

وبوخارين، فلم تمهِّد الطريق لسحق الثورة فحسب، بل أنها، من خلال العمليات الانتقامية التي أدارها ودبَّرها جهاز الدولة، قد حصَّنَت جرائم الثورة المضادة بزعامة تشانج كاي تشيك من انتقاداتنا. وفي أبريل 1927، في اجتماعٍ حزبي في قاعة الأعمدة، كان ستالين لا يزال يدافع عن سياسة التحالف مع تشانج كاي تشيك، بل ودعا إلىٰ الوثوق به. لكن، بعد خمسة أو ستة أيام لا أكثر، أغرَقَ تشانج كاي تشيك عمال تشانج هاي والحزب الشيوعي في الدماء.

استثارت هذه المجزرة الحزب برمته في موجةٍ عارمة، ورفعت المعارضة رأسها. تجاهلنا كل شروط العمل السري التي لطالما التزمنا بها في موسكو في ذلك الوقت للدفاع عن العمال الصينيين ضد تشانج كاي تشيك، وجاء المعارضون إلىٰ مكتبي بالعشرات في مكتب رئاسة لجنة الامتيازات والإعفاءات. اعتقد الكثير من الرفاق الشباب أن إفلاس سياسات ستالين الواضح للعيان حتمًا سيجلب النصر للمعارضة في القريبِ العاجل. خلال الأيام الأولىٰ بعد انقلاب تشانج كاي تشيك العسكري، وجدت نفسي مُلزمًا بسكب دلاءٍ من الماء البارد علىٰ الرؤوس الساخنة للكثير من الأصدقاء الشباب - والآخرين مِمَّن ليسوا شبابًا أيضًا. أردت أن أوضح لهم أن المعارضة لا يمكن أن تنهض علىٰ أنقاض هزيمة الثورة الصينية. أثبتت توقعاتنا صحتها، وربما كان ذلك ليجذب إلينا ألف أو خمسة أو عشرة آلاف من المؤيدين الجدد. لكن بالنسبة للملايين، فإن المهم ليس صحة

هذا التوقع أو ذاك، بل الحقيقة الواقعة؛ ألا وهي سحق البروليتاريا الصينية. فبعد هزيمة الثورة الألمانية في 1923، وتداعي الإضراب العام الإنجليزي في 1925، لم تأتِ الكارثة في الصين إلا لتُكثِّف إحباط الجماهير في الثورة العالمية. وهذا هو نفس الإحباط الذي كان بمثابة المنبع النفسي الرئيس لسياسات ستالين الإصلاحية الوطنية.

خلالِ وقتٍ قصيرٍ للغاية، كان من الواضح أننا، ككتلة واحدة، اكتسبنا بلا شك المزيد من القوة، إذ صرنا أوسع عددًا وأكثر تماسكًا في الوحدةِ الفكرية. لكن سيف تشانج كاي تشيك قَطَعَ الحبلَ السُريّ الذي يربطنا بالسلطة في ضربةٍ واحدة. أما حليفه الروسي الأخير فاقد المصداقية، ستالين، فلم يكن عليه إلا أن يستكمل سحق عمال تشانج هاي بإخضاع المعارضة داخل الحزب.

كان العمود الفقري للمعارضة يتشكَّل بالأساسِ من مجموعةٍ من الثوريين القدامىٰ. لكن هذه المجموعة لم تكن منعزلةً في الفراغ، بل التف حولها مئات وآلاف الثوريين من الجيل الجديد، ذلك الجيل الذي أيقظته ثورة أكتوبر، وشارك في الحرب الأهلية، وقفوا بعيونٍ يقظة لمراقبة سلطة لجنة لينين المركزية. بدأ هذا الجيل في التفكير بشكلٍ مستقل فقط منذ العام 1923، ليُبلوِر انتقاداته، وليُطبِّق الأساليب الماركسية علىٰ المنعطفات الجديدة، ليتعلَّم تحمُّلَ مسئوليةِ المبادرة الثورية. وفي الوقتِ الحاضر، هناك الآلاف من هؤلاء الثوريين الشباب يصقلون خبرتهم السياسية بالدراسة النظرية في

سجون ومنافِ نظامِ ستالين. شهدت المجموعة القيادية كل ذلك بأعينٍ جاحظة. أدركنا بجلاءٍ تام أن بإمكاننا مشاركة هذه الأفكار مع الجيل الجديد، ليس بالديبلوماسيةِ والمماطلة، بل فقط بنضالٍ مفتوح لا يتهرَّب من عواقبه السياسية. ورغم أننا ناضلنا لتمهيد الطريق لانتصار أفكارنا في مستقبلٍ بعيد، سرنا لملاقاةِ هزيمتنا الحتميةِ واثقين غير آبهين بشيء.

لطالما اضطلعت القوىٰ المادية، ولا تزال، بدورٍ هائلٍ في تاريخ البشرية؛ أحيانًا يكون دورًا تقدميًا، وغالبًا ما يكون رجعيًا، إذ يعتمد طابعه العام علىٰ الطبقة التي تضع هذه القوىٰ موضع التنفيذ ولأي هدفٍ تفعلُ ذلك. لكن من العبثِ الاعتقادَ بأن هذه القوىٰ يمكنها حلَّ جميع المشكلات وتجاوز جميع العقبات. ربما من الممكن أن يقف التطوُّر التاريخي التقدُّمي بالقوة، لكن من غير الممكن أن تسد هذه القوة طريق الأفكار التقدمية إلىٰ الأبد. لذا، حين يتعلَّق النضال بمبادئ عظيمة وسامية، لابد أن يتبع الثوري هذه القاعدة البسيطة: افعل ما ينبغي فعله.

كلما كان الوقت يقترب من المؤتمر الخامس عشر، الذي كان من المُفتَرَض انعقاده في نهاية العام 1927، شَعَرَ الحزبُ بأنه علىٰ وشكِ الوصولِ إلىٰ مفترقِ طرقٍ في التاريخ. بدا الأمرُ وكأن أجراس الإنذار تصم آذان قواعد الحزب. وبرغم الإرهاب الوحشي، فإن الرغبة في سماعِ المعارضة قد أيقظت الحزب. لكن ذلك لم يكن ممكنًا إلا من

خلال السُبُل غير الشرعية، فعُقِدَت الاجتماعاتُ السريةُ في الكثير من مناطقِ موسكو ولينينجراد، وحضرها عمالٌ وطلابٌ من كلا الجنسين. احتشدوا في مجموعاتٍ يتراوح عددُ كلٍ منها بين عشرين إلىٰ مائة، ليسمعوا هذا المعارض أو ذاك. كنت في اليومِ الواحدِ أحضر اجتماعين أو ثلاثة، وأحيانًا أربعة. كانت تُعقَد هذه الاجتماعات عادةً في منازلِ العمال، إذ تكتظ غرفتان بالناسِ، ويقف المتحدث أمام الباب بينهما ليلقي كلمته. أحيانًا كان يجلس الجميع علىٰ الأرض، وفي الأغلب تُجرىٰ المناقشات وقوفًا بسبب ضيق المساحة. وبين حينٍ وآخر، كان يظهر ممثلون عن لجنةِ التحكم في مثل هذه الاجتماعات، ويطالبون الجميع بالانصراف. كانوا يُدعون للمشاركة في النقاش، وإذا ما تسببوا في أي إزعاجٍ، يُطردون علىٰ الفور.

حضر هذه الاجتماعات حوالي 20 ألف شخص في موسكو ولينينجراد. كانت الأعدادُ في تنامٍ مستمر، وقد أعدت المعارضة بمهارةٍ اجتماعًا ضخمًا في قاعة المعهد التكنولوجي العالي الذي احتُلَّ من الداخل. امتلأت القاعة بألفي شخص، بينما ظلَّ حشدٌ كبير بالخارج في الشارع. فشلت محاولات الإدارة في إيقاف الاجتماع، فيما تحدَّثت أنا وكامينيف لحوالي ساعتين. وفي النهاية، أصدرت اللجنة المركزية نداءً إلىٰ العمال لمطالبتهم بفض اجتماعات المعارضة بالقوة. كان هذا النداءُ مرآةً تعكس هجمات الوحدات العسكرية علىٰ المعارضة. أراد ستالين تسويةً دمويةً لذاك الصراع،

فأصدرنا إشارتنا بالانقطاع مؤقتًا عن الاجتماعات الكبيرة. لكن الأمر لم يستمر حتىٰ بعد مظاهرة 7 نوفمبر.

في أكتوبر 1927، عقدت اللجنة المركزية جلستها في لينينجراد. وإحياءً لذكرىٰ الثورة، نظَّمت السلطات مظاهرةً جماهيرية. لكن ما لم يكن متوقعًا هو التحوُّل الكامل الذي طرأ علىٰ المظاهرة. كنت قد ذهبت حينها، برفقة زينوفيف وعددٍ من قيادات المعارضة، في جولةٍ بالسيارة حول المدينة، لأتفقَّد حجم المظاهرة والمزاج السائد فيها. وبحلول انتهاء جولتنا، اقتربنا من قصر توريد، حيث اصطفت الشاحنات التي من المفترض استخدامها كمنصاتٍ يقف عليها أعضاء اللجنة التنفيذية المركزية. توقَّفَت سيارتنا علىٰ مقربةٍ من صفوف الشرطة التي أغلقت الطريق ولم تترك لنا فيه منفذًا. وحتىٰ قبل أن نفكِّر فيما سنفعل إزاء هذا المأزق، هَرَعَ قائد الشرطة إلىٰ سيارتنا وعَرَضَ علينا بسذاجةٍ أن يرافقنا إلىٰ المنصة. وقبل أن نتجاوز تردُّدنا، فتحت صفوف الشرطة طريقًا لنا حتىٰ آخر شاحنة، فاتخذناها منصةً لنا. وحين علمت الحشود أننا متواجدون عند المنصةِ الأخيرة، تغيَّر طابع المظاهرة علىٰ الفور. سرعان ما تحرَّك الناس، مرورًا بالشاحنات الأولىٰ دون اكتراثٍ بوجودها، ودون حتىٰ الرد علىٰ ما يُلقىٰ عليهم منها من تحيات، وهرعوا إلىٰ منصتنا. وسرعان ما تجمَّعَ آلاف الأشخاص في دوائر مُحتشِدة حول شاحنتنا. أحاط بنا العمال والجنود، صاحوا بالتحيةِ لنا، ثم أُجبَروا علىٰ التحرُّكِ بسببِ الضغط

المتزايدِ نافذَ الصبرِ من ورائهم. وحتىٰ مفرزة الشرطة، التي أُرسِلَت إلىٰ شاحنتنا لاستعادة النظام، قد ابتُلِعَت هي الأخرىٰ رغم ذلك في المزاجِ العام، ولم تتخذ أي خطوات. أُرسل إلينا أيضًا المئات من عملاء الجهاز الموثوقين الذين اندسوا وسط الحشود. حاولوا الصفير للتشويش علىٰ المتحدِّثين، لكن صفيرهم غَرَقَ في صيحات التعاطف والتأييد. تطوَّر الموقف علىٰ نحوٍ يفوق احتمال القادة الرسميين للمظاهرة. وفي نهاية المطاف، نزل رئيس اللجنة التنفيذية المركزية، ومعه عدد قليل من أعضائها البارزين، من المنصةِ الأولىٰ التي لم يكن أمامها إلا هوةً من الفراغ، ومن ثم تسلَّقوا شاحنتنا التي قبعت في نهاية الصفِ مجحوزةً للمتحدِّثين الأقل شأنًا. لكن حتىٰ هذه الخطوة الجريئة فشلت في إنقاذ الموقف، إذ ظلَّ الناسُ يهتفون بأسماءٍ لا تتضمَّن أسماء هؤلاء السادة الرسميين.

تفاعل زينوفيف علىٰ الفور، وتوقَّعَ نتائج فورية لهذا الوجدانِ المتفجِّر حولنا. لم أشاركه هذا التقدير المُتسرِّع، فقد أظهرت الجماهير العمالية في لينينجراد استياءها في شكل تعاطفٍ أفلاطوني تجاه قادة المعارضة، لكنها لم تزل عاجزةً عن منع الجهاز من محاصرةِ أعمالنا. لم يكن لديّ أي أوهامٍ في ذلك الصدد. ومن جهةٍ أخرىٰ، دفعت أحداث هذه المظاهرة الزمرة الحاكمة إلىٰ ضرورة الإسراع في سحق المعارضة، كي تواجه الجماهير حقيقةً واقعة بأن ما مِن معارضةٍ يمكن الالتفاف حولها.

جاءت النقطة الفارقة التالية في مظاهرة موسكو إحياءً للذكرىٰ العاشرة لثورة أكتوبر. كان جميع منظمي هذه المظاهرة، وكذلك كُتَّاب مقالات إحياء ذكرىٰ الثورة والمتحدِّثين علىٰ المنصات، في أغلبِ الأحوال، من أولئك الذين إما كانوا علىٰ الجانب الآخر من المتاريس خلال أحداث أكتوبر الجسام، أو كانوا ببساطة مختبئين علىٰ أسطح منازلهم انتظارًا لما سيحدث وترقُّبًا لاستقرارِ الأمور، ومن ثم انضموا للثورة بعد أن ضمنت انتصارها تمامًا. قرأت المقالات، واستمعت إلىٰ خطبِ الراديو، التي اتهمني فيها هؤلاء المتسلِّقون الطفيليون بخيانة ثورة أكتوبر، فيما لم أكن أشعر تجاه كل ذلك بالمرارةِ أو الحِنق، بل بالتسلِّي واللهو. حين تدرك آليات العملية التاريخية، وترىٰ كيف يتحرَّك عدوك بخيوطٍ لا يعرف من يتحكَّم فيها، تجد حتىٰ أكثر أفعال الانحطاطِ والغدرِ تنهار أمامك وتخور قواها.

قرَّر المعارضون المشاركة في مسيرةِ ذكرىٰ الثورة، حاملين لافتاتهم وشعاراتهم المستقلة، تلك اللافتات والشعارات التي لم تكن مُوجَّهة ضد الحزب بأي حال، والتي جاء منها علىٰ سبيل المثال:

"لنوجِّه نيراننا نحو اليمين.. ضد الكولاك ورجال النيب[26] والبيروقراطيين"، و"لننفذ وصية لينين".

"ضد الانتهازية، ضد الانقسام، من أجلِ وحدةِ حزبِ لينين". تشكِّل هذه الشعارات اليوم عقيدة الزمرة الستالينية في صراعها ضد "اليمين". في 7 نوفمبر، انتُزِعَت اللافتات من أيدي المتظاهرين المعارضين ومُزِّقَت إربًا، وتَعَرَّضَ حاملوها لاعتداءاتٍ بالضرب من قِبَلِ وحداتٍ مُنظَّمة. تَعَلَّمَ القادة الرسميون الدرس الذي تلقوه في مظاهرة لينينجراد، فاستعدوا هذه المرة علىٰ نحوٍ أكفأ وأكثر فاعلية. كان الاستياء باديًا علىٰ قطاعاتٍ واسعةٍ من الجماهير، فشاركت حشود كبيرة في المظاهرة بسخطٍ وغضب. ومن وسط المتظاهرين، صعدت مجموعتان رئيسيتان: المعارضة والجهاز. وهرع الكثير من المتطوعين لمواجهة "التروتسكيين"، وجاءت العناصر الفاشية إلىٰ شوارع موسكو خصيصًا لمساعدة الجهاز في الإجهاز علىٰ المعارضة. وخلال ذلك، أطلق شرطي النار علىٰ سيارتي، متظاهرًا بأنه لم يكن يقصد سوىٰ تحذير المتظاهرين، ثم بعدها علىٰ الفور قَفَزَ شرطيٌ آخر علىٰ سيارتي أثناء سيرها وحَطَّمَ الزجاج، صائحًا بالسبابِ واللعنات.

---

[26] رجال النيب هم الذين راكموا ثرواتٍ على خلفية السياسة الاقتصادية الجديدة (New Economic Policy - NEP). (المترجم)

بات من الواضح لكلِ ذي عينين أن أحداث موسكو في 7 نوفمبر 1927 كانت بمثابة بروفةً للترميدور.

نُظِمَت مظاهرةٌ شبيهةٌ في لينينجراد، كان من المُفترَض مشاركة زينوفيف وراديك فيها، لكنهما حوصرا من قِبَلِ مفرزةٍ خاصة، وبالتظاهر بالحماية من حشدِ المتظاهرين، احتُجِزَا في أحد المباني طيلة فترة المظاهرة. في نفسِ اليومِ، كتب زينوفيف لنا في موسكو يقول: "كل المعلومات بين أيدينا تشير إلىٰ أن الغضب المتصاعد سيفيد قضيتنا. نريد أن نعرف ماذا جرىٰ معكم. المناقشات مع العمال تسير علىٰ نحوٍ جيِّدٍ للغاية هنا. والتغيرات الحادثة في صالحنا كبيرة. لا يُفترض بنا أن نرحل الآن، بل أن نستكمل مسيرنا". كانت تلك آخر طاقة معارضة لدىٰ زينوفيف، ففي اليوم التالي جاء إلىٰ موسكو ليصرّ علىٰ ضرورة الاستسلام.

في 16 نوفمبر، انتحر يوفي، ودقّ موته وتدًا في ذلك النضال المتصاعد. كان يوفي مريضًا، وظل هكذا يعاني لفترةٍ طويلة. أصدرنا قرارًا بعودته من اليابان، حيث كان سفيرًا سوفييتيًا، وعاد إلىٰ بلاده في حالةٍ صحيةٍ خطيرة. وُضِعَت الكثير من العراقيل أمام سفره إلىٰ الخارج للعلاج، لكن بقاءه كان وجيزًا للغاية. كان يوفي نائبًا لي في لجنة الامتيازات والإعفاءات، ورَزَحَ الروتين الثقيل في العملِ كله علىٰ عاتقه. أربكته أزمة الحزب بشدة، ولم يقلقه أمرٌ بقدر ما أقلقته الخيانة وأشجاه الغدر. كان علىٰ استعدادٍ مراتٍ عديدة لأن يلقي بنفسه في

خضم المعارك، لكنني كنت أحاول منعه من ذلك مراعاةً لحالته الصحية. كان يوفي الأكثر غضبًا واشمئزازًا من الحملة ضد نظرية الثورة الدائمة. لم يكن يحتمل التصيُّد المتعمَّد لأولئك الذين استطلعوا طابع ومسار ومستقبل الثورة قبل الجميع، من قِبَل أولئك الذين لم يفعلوا شيئًا سوىٰ أن التقفوا ثمارها.

أخبرني يوفي بمحادثته مع لينين، تلك التي جرت – في العام 1919 إن لم أكن مخطئًا – حول موضوع الثورة الدائمة. قال له لينين: "نعم، تروتسكي كان علىٰ حق". أراد يوفي أن ينشر هذه المحادثة، لكنني حاولت قدر طاقتي أن أثنيه عن ذلك. كان يتراءىٰ لي سيلٌ من المكائد التي ستُحاك له والافتراءات التي ستُنسج حوله إن فَعَلَ ذلك. كان يوفي مثابرًا من نوعٍ فريد، وتحت غطاء اللينِ كانت إرادته لا تلين. وفي كلِ موجةٍ من الغدرِ السياسي، كان يجيء إليّ، بوجهٍ ساخطٍ ممتعض، ويكرِّر: "لابد أن أعلن ذلك علىٰ الملأ"، فأجادله بأن هذه الشهادة لن تغيِّر شيئًا، بل أن من الضروري أن نعيد تثقيف الجيل الجديد في الحزب، وأن نتطلَّع إلىٰ المستقبل.

لم يتمكَّن يوفي من استكمال علاجه بالخارج، وبالتالي صارت حالته الصحية يومًا بعد يومٍ من سيءٍ لأسوأ. ومع حلول الخريف، أُجبِرَ علىٰ التوقفِ عن العمل، ثم رقد في فراشه دون حراك. أرسَلَ أصدقاؤه الالتماساتِ لبعثه إلىٰ الخارج، لكن هذه المرة رفضت اللجنة المركزية رفضًا قاطعًا، وهكذا كان تعاملُ الستالينيين مع

معارضيهم. وجاء طردي من اللجنة المركزية، ثم من الحزب، ليصدم يوفي أكثر مما صَدَمَ أي شخصٍ آخر، فأُضيفَ إلىٰ حنقه السياسي والشخصي شعورٌ مريرٌ بالعجز بسببِ حالته الصحية. كان يوفي صائبًا حين أدرك أن مستقبل الثورة علىٰ المحك، لكن لم يكن باستطاعته الاستمرار في النضال، وحياته دون هذا النضال لم تكن تعني شيئًا. وهكذا اتخذ قراره النهائي ونفَّذه بوضعِ حدٍّ لحياته نفسها.

في ذلك الوقتِ، كنت قد انتقلت من الكرملين إلىٰ منزلِ صديقي بيلوبورودوف، الذي ظلَّ رسميًا مفوَّضًا للشئون الداخلية رغم تتبُّعِ عملاء الشرطة السرية خطاه أينما ذهب. كان بيلوبورودوف آنذاك بعيدًا عن موطنه في الأورال حيث كان يحاول الوصول للعمال في النضال ضد جهاز الحزب الذي سيطَرَ عليه ستالين وزمرته. اتصلت بمنزلِ يوفي لأطمئن علىٰ صحته، فأجابني بنفسه إذ كان الهاتف بجوار فراشه. كانت نبرةُ صوتِه غريبةٌ تُنذرُ بالخطر، لكنني لم أدرك ذلك إلا لاحقًا. طَلَبَ مني أن آتي لزيارته، ولسببٍ ما لم أتمكَّن من ذلك علىٰ الفور. كان الرفاق في تلك الأيامِ العصيبة يتصلون علىٰ الدوام بمنزلِ بيلوبورودوف هاتفيًا لمشاورتي في بعضِ الأمورِ الهام. وبعد ساعةٍ أو اثنتين، أخبرني صوتٌ غير مألوفٍ علىٰ الهاتف أن "أدولف إبراموفيتش أطلق النار علىٰ نفسه. يوجد ظرفٌ به رسالة لك علىٰ الطاولة بجانب الفراش".

كان هناكَ علىٰ الدوامِ في منزلِ بيلوبورودوف بضعُ ضباطٍ من المعارضين في الخدمة لمصاحبتي أينما ذهبت في أرجاء المدينة. هرعنا إلىٰ يوفي، وبعدما قرع الباب مراتٍ عديدة، طَلَبَ منَّا شخصٌ خلف الباب أن نذكر أسماءنا تباعًا، ثم فتح الباب بعد ذلك؛ ثمة شيءٌ غريبٌ كان يجري بالداخل. وإذ دخلنا الغرفة، رأيت وجه أدولف إبراموفيتش، الهادئ العطوف بلا حدود، علىٰ وسادةٍ غارقةٍ بالدماء، فيما كان أحد عملاء الشرطة السرية علىٰ مكتبه. لم أجد الظرفَ علىٰ الطاولةِ بجانبِ الفراش، فطَالَبت بإعادته مِمَن أخذه - أيًا مَن كان - علىٰ الفور. تَمتَمَ عميلُ الشرطةِ السريةِ بعبارةٍ مفادها أن لم يكن ثمةُ ظرفٍ من الأصل، لكن نبرةَ صوتِه وأسلوبَه كانا يوحيان بلا شكٍ بالكذب. وبعد بضعِ دقائقٍ، أخذ الأصدقاء من كافة أطراف المدينة يجيئون تباعًا، فيما وَجَدَ ممثلو مفوَّضية الشئون الخارجية ومؤسساتِ الحزبِ أنفسهم تائهين وسط كل هذا الحشدِ من المعارضين. خلال الليلة، جاء آلافٌ من الناسِ للمنزل. انتشر نبأ سرقة الرسالة عبر أرجاء المدينة، وبدأ الصحفيون الأجانب يرسلون تقاريرهم بذلك، فبات من المستحيل إخفاء الرسالة أكثر من ذلك، وفي النهاية أُعطيَت نسخةٌ ضوئيةٌ منها إلىٰ راكوفسكي. لماذا يُسلَّم راكوفسكي ظرفًا مُغلقًا يحمل اسمي، بل نسخةً ضوئيةً منه لا الأصل؟ هذا ما لا أجد سبيلًا لتِفسيره. كانت رسالةً تعكِس شخصية يوفي في أدقِّ تفاصيلها، لكن قبل نصف ساعةٍ فقط من انتحاره. كان يوفي يعرف موقفي تجاهه جيدًا؛ لقد

ربطتني به ثقةٌ أخلاقيةٌ عميقة، وقد أعطاني الحقَّ في إلغاء غير الضروري وحذف غير الملائم في ما ينشره.

بعد فشل العدو الخبيث المتغطرس في إخفاءِ الرسالةِ عن العالم، حاول استغلال كلماتها غير المكتوبة للعامة من أجلِ أغراضهِ الخاصة. أما يوفي، فقد حاوَلَ أن يجعل من انتحارِهِ خدمةً لنفس القضية التي كرَّسَ لها حياته بأسرها. بنفسِ اليدِ التي ضَغَطَ بها علىٰ الزنادِ مُوَجِّهًا الفُوَّهةِ إلىٰ صدغه، كَتَبَ بها، قبلها بنصفِ ساعةٍ فقط، دليلَ شهادتِهِ ونصيحتِهِ الأخيرة لصديقٍ من أقربِ الناسِ إليه. هذا ما وجَّهَه إليّ مباشرةً في رسالته:

"ربطت بيننا، أنا وأنت يا عزيزي ليف دافيدوفيتش، عقودٌ من العمل المشترك، ولديّ الشجاعة والثقة لأعتبرها أيضًا عقودًا من الصداقة الشخصية. وهذا يعطيني الحق في أن أقول لك، في لحظةِ الفراقِ هذه، ما أخطأتَ فيه. لم أشكّ يومًا في صحةِ الطريق الذي سلكته. وكما تعلم؛ لقد سرت معك فيه لما يزيد عن عشرين عامًا، منذ أيام "الثورة الدائمة". لكنني آمنت دائمًا بأنك افتقرت إلىٰ عزيمة لينين الراسخة وإرادته التي لا تلين؛ استعداده حتىٰ للبقاءِ وحيدًا في الطريق الذي يظن أنه الصحيح، في انتظارٍ وترقُّبٍ ودأبٍ من أجلِ حوز أغلبية مستقبلية، من أجلِ اعترافِ الجميع بصحةِ الطريق الذي شقَّه من البداية. سياسيًا، كنت أنت دائمًا علىٰ صواب، وقلت لك

مِرارًا أنني سمعت لينين، بأذني هذه، يُقِرّ بأن حتىٰ في العام 1905 كنت أنت، وليس هو، علىٰ حق. المرء لا يكذب قبل موته، والآن أكرِّر لك ذلك مرةً أخرىٰ.

لكنك، تخليت كثيرًا عن صوابك من أجلِ مساومةٍ أو اتفاقٍ بالغت في تقديرِ قيمته. هذا خطأ. وأنا أكرِّر: سياسيًا كنت أنت دائمًا علىٰ صواب، واليوم أنت علىٰ صوابٍ أكثر من أيِ وقتٍ مضىٰ. يومًا ما سيدرك الحزب ذلك، ولن يخذلك التاريخ في إقرار صوابك. لا تفقد الشجاعة إن تركك أيٌّ مَن كان، أو إن لم يأتِ كثيرون إليك، أو إن لم يأتوا قريبًا كما نتمنىٰ. أنت علىٰ صواب، لكن ضمانة انتصار هذا الصواب تكمن في الإرادةِ القصوىٰ، والوضوح الصارم، والرفض القاطع لأيةِ مساومات؛ هنا يكمن سرُّ انتصاراتِ لينين. لطالما أردت أن أقول لك ذلك، لكنني الآن أجبر نفسي علىٰ ذلك، كوداعٍ أخير".

أُقيمَت جنازة يوفي في يومِ عملٍ، وفي ساعةٍ منعت عمال موسكو من المشاركة فيها. لكن برغمِ ذلك، احتشد ما لا يقل عن عشرةِ آلاف لتشييع جثمانه، فتحوَّلَت الجنازةُ إلىٰ مظاهرةٍ للمعارضة. في تلك الأثناء، كانت كتلةُ ستالين تُعِد للمؤتمر، لتعجِّل بذلك بفرضِ انشقاقٍ قبل أن يصبح حقيقةً واقعة. جرت ما سُمِيَت بانتخاباتِ المؤتمراتِ المحلية المُصغَّرة، التي ترسل المندوبين إلىٰ مؤتمرِ الحزب، قبل

"المناقشة" الزائفة، التي اقتحمتها مجموعاتٌ بزيٍّ عسكريٍ للتشويش عليها بالضجيج والصفير، بالطريقةِ الفاشيةِ التقليدية. من الصعب حتىٰ تخيُّل أيِ شيءٍ أكثر خزيًا وعارًا من الإعدادات التجهيزية للمؤتمر الخامس عشر. أدرك زينوفيف ومجموعته جيِّدًا أن المؤتمر سيتوِّج الاشتباكات البدنية التي وقعت في شوارع موسكو ولينينجراد في الذكرىٰ العاشرة لثورةِ أكتوبر. الأمر الوحيد الذي شغل بال زينوفيف وأصدقائه هو الرضوخ والإذعان قبل أن يفوت الأوان. أدركوا جيِّدًا أن بيروقراطيي ستالين لم يروا العدو الحقيقي فيهم، هؤلاء المعارضين من الدرجة الثانية، بل في مجموعة المعارضة الرئيسية المرتبطة بي. كانوا يتوقون للسماحِ والمغفرة، إن لم يكن حتىٰ كسب الود، بقطعٍ تامٍ معي بحلولِ المؤتمر الخامس عشر. لكن ما لم يدركوه هو أنهم، بهذه الخيانة المزدوجة، ينتحرون سياسيًا. ورغم أنهم قد أضعفوا مجموعتنا مؤقتًا، بطعننا من الخلف، فقد اعتمدوا بذلك شهادة وفاتهم السياسية.

قرَّرَ المؤتمر الخامس عشر فصل المعارضين دفعةً واحدة من الحزب، وهؤلاء كانوا من نصيب الشرطة السرية.

الفصل الثالث والأربعون

المنفى

سأستعين هنا باقتباساتٍ مُطوَّلةٍ من مذكرات زوجتي عن المنفىٰ إلىٰ آسيا الوسطىٰ:

"في صباحِ يومِ 16 يناير 1928، وبينما كنت أحزم أمتعتنا وأغراضنا، ارتفعت حرارتي، وشعرت بالدوار من الحمىٰ والضعف، وسط كل الأمتعة التي جلبناها من الكرملين، والأغراض التي حزمناها لتذهب معنا إلىٰ منفانا. قطعٌ من الأثاث، وصناديق، وأقمشة، وأصدقاءٌ لا حَصرَ لهم جاءوا لتوديعنا. جاء صديقنا الطبيب جوتيير، وأخذ ينصحنا بسذاجةٍ بتأجيل رحيلنا لحين شفائي من نزلة البرد التي أصابتني. لم يدرك أنني سأتحسَّن في القطار، إذ لم تكن ثمة فرصةٌ في موطني للشفاءِ السريع في ظلِّ الظروف التي أحاطت بنا في "الأيام الأخيرة" هناك قبل الرحيل. مرَّت أمام عينيّ الكثير من الوجوهِ الجديدةِ، التي رأيتها وقتها للمرةِ الأولىٰ فقط. أحضانٌ، ومصاحفاتُ وداعٍ، وعباراتُ تعاطفٍ وتضامن، وتمنياتٌ طيبة وودودة.

بدأت الفوضىٰ تعمُّ بالورودِ والكتبِ والشموعِ والملابس الثقيلة وغيرها من الأغراض التي أهدّاها إيانا الأصدقاء. أوشك اليوم الأخير لكل هذا الصخب والتوتُّر والاستثارة علىٰ الانتهاء. انتقلت الأغراض

إلىٰ محطة القطار، وذَهَبَ أصدقاؤنا إلىٰ هناك أيضًا. جلسنا إلىٰ طاولة الطعام، متأهّبين للرحيل، منتظرين عملاء الشرطة السرية. نظرنا إلىٰ الساعة، كانت التاسعة بالضبط. مضت نصف ساعة ولم يأتِ أحد. ثم جاءت الساعة العاشرة، وقت إقلاع القطار. ماذا حدث؟ هل أُلغِيَ الأمر برمته؟ رنَّ جرس الهاتف، وتحدَّث معنا مسئولٌ من الشرطة السرية يخبرنا بتأجيل رحيلنا لأسبابٍ لم يذكرها. سأله ليف دافيدوفيتش: إلىٰ متىٰ؟ ثم جاءت الإجابة: بعد غدٍ.

بعد نصف ساعة، هرع إلينا الأصدقاء من المحطة - الشباب أولًا ثم راكوفسكي والآخرون. كانت هناك مظاهرة هائلة في المحطة. كان الناس ينتظرون ويهتفون: "يحيا تروتسكي". لكن تروتسكي لم يظهر في الأرجاء. أين هو يا ترىٰ؟ كان هناك حشدٌ عاصف حول السيارة المحجوزة لنا. وَضَعَ الرفاق الشباب صورةً عملاقةً لليف دافيدوفيتش علىٰ سقف السيارة. وبينما كانوا يصيحون ويهتفون، بدأ القطار يتحرَّك هنيهًا إلىٰ الأمام، ثم توقَّف فجأة. أسرع المتظاهرون ووقفوا أمام المُحرِّك، تشبثوا بالعربات وأوقفوا القطار، مُطالبين برؤية تروتسكي في التو واللحظة، إذ كانت شائعةٌ قد انتشرت بين الجموع بأن عملاء الشرطة السرية قد أدخلوا ليف دافيدوفيتش في السيارةِ سرًا مانعين إياه من الظهور لأولئك الذين أتوا لتوديعه. اشتعل الموقف في المحطة علىٰ نحوٍ يصعب وصفه، إذ نشبت اشتباكاتٌ مع الشرطة. وعملاء الشرطة السرية، ما أسفر عن وقوعِ ضحايا من كلا الجانبين. اعتُقِلَ عددٌ من

المتظاهرين، واحتُجِزَ القطارُ لحوالي نصف ساعة. وبعد وقتٍ قصير، عادت حقائبنا وأمتعتنا من المحطة. واستمر الأصدقاء لوقتٍ طويل يتصلون بنا هاتفيًا للتأكُّد من أننا في المنزل وليخبروننا بما حدث في المحطة. لم ننم تلك الليلة إلا بعد منتصف الليل بوقتٍ طويل.

بعد قلاقل الأيام القليلة الماضية، نمنا حتىٰ الحادية عشر صباحًا. لم تأتنا أيُّ اتصالاتٍ هاتفية، وصار كل شيءٍ هادئًا. مضت زوجة ابننا الأكبر إلىٰ عملها، فكان لا يزال أمامنا يومان كاملان. لم نكد ننهي فطورنا حتىٰ دقَّ جرسُ الباب. كانت تلك زوجة بيلوبورودوف، ثم بعدها جاءت زوجة يوفي. دقَّ الجرس مرةً أخرىٰ، وبعد لحظةٍ واحدة امتلأ المنزل عن آخره بعملاء الشرطة السرية؛ بعضهم يرتدي الزي الرسمي والبعض الآخر ملابس مدنية. سلَّموا ليف دافيدوفيتش قرارًا بالقبض عليه لترحيله فورًا إلىٰ ألما آتا. أين ذهب اليومان اللذان أخبرتنا بهما الشرطة السرية أمس؟ خداعٌ آخر، بل حيلة لتجنُّبِ مظاهرة أخرىٰ أثناء الوداع. ظلَّ الهاتف يرن دون انقطاع، لكن أحد عملاء الشرطة السرية كان يقف بجانبه ومنعنا الجميع من التقاط السمَّاعة. بالكاد، بل وبالصدفة، تمكنَّا من إخبار بيلوبورودوف بما يحدث عنوةً وغصبًا. علمنا لاحقًا أن هذه الحيلة كانت من تدبيرِ بوخارين. كانت تلك حيلةً مُستوحاة من روح مكائد ستالين.

استثار عملاء الشرطة بشكلٍ ملحوظ، إذ رفض ليف دافيدوفيتش مغادرة المنزل طواعيةً. لقد استغل المناسبة ليجعل الموقف واضحًا

تمام الوضوح. كان المكتب السياسي يحاول أن يبدو نفي ليف دافيدوفيتش، ونفي آخرين علىٰ الأقل من المعارضين البارزين، أمر قاموا به طواعيةً دون إجبار، وبموجب ذلك كانوا يشرحون الأمر للعمال. والآن، حان الوقت لنسف هذه الأسطورة المُختَلَقة، بطريقةٍ تُظهر الحقائق دون إخفاءٍ أو تشويه.

وهنا، أجبَرَ ليف دافيدوفيتش خصومه علىٰ استخدام القوة بشكلٍ صريح. دخلنا غرفةً وأغلقنا بابها علىٰ أنفسنا مع ضيفتينا. وجرت المفاوضات مع عملاء الشرطة السرية عبر الباب مُحكَم الغلق. لم يكن العملاء يعرفون كيف يتصرَّفون؛ تردَّدوا، فاتصلوا برؤسائهم هاتفيًا، وحين تلقوا منهم التعليمات، أعلنوا أنهم بصددِ اقتحام الغرفةَ بالقوة، إذ لابد من تنفيذ الأوامر الصادرة لهم.

في تلك الأثناء، كان ليف دافيدوفيتش يملي بعض التعليمات للمعارضة في المستقبل، بينما ظلَّ الباب مُغلقًا. سمعنا ضربةَ مطرقةٍ ثقيلة؛ تَحَطَمَ الزجاج، واندفع رجلٌ بزيٍ عسكري إلىٰ الداخل صارخًا: "اطلق عليّ النار يا رفيق تروتسكي، اطلق عليّ النار". كان ذلك هو كيشكين، ضابطٌ سابق رَافَقَ تروتسكي في كل رحلاته إلىٰ الجبهة. ردَّ عليه ليف دافيدوفيتش بهدوء: "كف عن هذا الهراء يا كيشكين. افعل ما أُمِرتَ به". حَطَمَ العملاء الباب واقتحموا الغرفة مرتبكين هائجين. رأوا تروتسكي يرتدي نعليه، فوجدوا حذاءه وألبسوه إياه، ثم ألبسوه معطفه الفرائي وقبعته، وظلَّ ليف دافيدوفيتش رافضًا التحرُّك معهم. حملوه

علىٰ أذرعهم وتحرَّكوا، فهرعنا وراءهم. ارتديت حذاء الثلج ومعطف الفراء، وقُرِعَ الباب خلفي بعنف. سمعت جلبةً علىٰ الناحية الأخرىٰ من الباب، فصحت فيمن يحملون ليف دافيدوفيتش أسفل الدرج وطالبتهم بأن يتركوا أبنائي وشأنهم. رافقنا ابننا الأكبر إلىٰ المنفىٰ. فُتِحَ الباب علىٰ مصراعيه، فهرع ابنانا خارج الغرفة، وتبعتهما السيدتان بيلوبورودوفا ويوفي. تمكَّنوا جميعًا من شقِّ طريقهم عبر أجساد عملاء الشرطة الذين ملأوا المنزل، والفضل في ذلك يرجع إلىٰ جسد سيروجا الرياضي. وعلىٰ الطرف الآخر من الدرج، خرج ليوفا وأخذ يدق أجراس المنازل حولنا صائحًا: "إنهم يأخذون الرفيق تروتسكي". وفجأة ظهرت الكثير من الوجوه المفزوعة حولنا؛ أمام باب المنزل، وعلىٰ الدرج، وداخل البناية التي لم يكن يقطنها إلا عمالٌ بارزين في السوفييت. اكتظظنا جميعًا في سيارةٍ واحدة، وبالكاد تمكَّن سيروجا من وضع ساقه داخلها ليتشبث بها. بيلوبورودوفا أيضًا كانت معنا.

شقَّت السيارة طريقها عبر شوارع موسكو. كان البرد قارسًا. لم يكن سيروجا يعتمر قبعةً، فلم تتسنَ له فرصةٌ لأخذها. لم يكن أحدٌ يرتدي قفازات، ولم تكن ثمة حقيبة سفر بيننا، ولا حتىٰ حقيبة يد واحدة. لم نأخذ معنا شيئًا البتة. لم نكن نتوجه إلىٰ محطة قازان كما كان مُتوقَّعًا، بل إلىٰ محطة ياروسلاف. حاول سيروجا القفز من السيارة، ليركض إلىٰ المكان الذي كانت زوجة أخيه تعمل فيه ليخبرها بأنهم سيأخذوننا إلىٰ المنفىٰ. فأمسكه عملاء الشرطة السرية من ذراعيه

وطالبوا ليف دافيدوفيتش بإقناعه بألا يقفز من السيارة. وصلنا إلىٰ المحطةِ الخاويةِ علىٰ عروشها، فحَمَلَ العملاء ليف دافيدوفيتش علىٰ أذرعهم تمامًا كما جاءوا به من المنزل.

صاح ليوفا إلىٰ عمال السكك الحديدية في المحطة: "أيها الرفاق، أترون ماذا يفعلون مع الرفيق تروتسكي!"، فيما كان أحد عملاء الشرطة السرية، الذي رافق ليف دافيدوفيتش ذات مرة في رحلةِ صيدٍ، يمسك به قابضًا علىٰ ياقة قميصه. قال له بوقاحة: "أيها المتلوِّي"، فردَّ عليه سيروجا بلكمةٍ مُتمرِّسةٍ في وجهه. كنَّا لا نزال في السيارة، بينما كان الأصدقاء المرافقون لنا عند باب إحدىٰ مقصورات القطار وأمام نوافذها. أما المقصورات الأخرىٰ، فكانت تضج بعملاء الشرطة السرية. أين كنَّا نذهب؟ لم يكن لدينا أي علمٍ بذلك. لم تكن حقائبنا وأمتعتنا قد حضرت بعد، في حين بدأت مُحرِّكات القطار تتحرَّك بالفعل. كنَّا في الثانية بعد الظهر، واكتشفنا أننا نسير علىٰ طريقٍ ملتوٍ باتجاهٍ محطةٍ صغيرةٍ، والتحقنا بقطار البريد الذي غادر موسكو من محطة قازان متجهًا إلىٰ تاشكنت. وفي الخامسة مساءً، ودَّعنا سيروجا وبيلوبورودوفا اللذين عادا أدراجهما إلىٰ موسكو.

واصلنا طريقنا. كنت مريضةً بالحمىٰ، بينما كان ليف دافيدوفيتش منتبهًا إلىٰ كل شيء. اتضحت الأمور واتخذ الموقف شكلًا مُحدَّدًا. كان الموكب محترمًا ومتحضرًا. أخبرونا أن أمتعتنا قادمةٌ في القطار

التالي، وأننا سنتسلَّمها في اليوم التاسع لرحلتنا التي تنتهي في فرونز. لم تكن معنا أية ملابس للنوم، ولا كتب.

جَمَعَ سييرموكس وبوزنانسكي الكتب، بحبٍّ وعنايةٍ بالغين، وفرزوها بدقة - كتبًا للرحلة وأخرىٰ للدراسة. بعنايةٍ فائقة، جَمَعَ سييموكس، الذي عَرِفَ ليف دافيدوفيتش وعاداته حقَّ المعرفة، كتاباته الأولىٰ وصنَّفها. رافَقَ سييرموكس ليف دافيدوفيتش في الكثير من الرحلات خلال الثورة، تارةً كاتبًا، وتارةً أخرىٰ سكرتيرًا له. كان ليف دافيدوفيتش يعمل بأضعاف طاقته أثناء سفره، مُستغِلًا غياب الهاتف وابتعاده عن الزوَّار، ووقعت أغلب أعماله الشاقة علىٰ كاهليّ جلازمان وسييرموكس. والآن، وجدنا أنفسنا في مستهلِّ رحلةٍ طويلةٍ شاقَّة دون كتابٍ واحد، دون قلمٍ، ودون حتىٰ قصاصة من ورق. قبل أن نرحل من موسكو، جَلَبَ سيروجا لنا كتاب سيميونوف تيانشانسكي عن تركستان، وهو كتابٌ علميّ كنَّا نعلِّق عليه أملًا في أن يُطلِعنا علىٰ مكان إقامتنا المستقبلي الذي لم يكن لدينا عنه إلا تصوُّرٌ غامضٌ وضبابيّ.

لكن، ظلَّ الكتاب في حقيبة السفر، مع بقية أمتعتنا في موسكو. جلسنا في عربة القطار بأيدٍ خاوية، كما لو كنَّا مسافرين من طرفٍ لآخر في نفسِ المدينة. وفي المساء، تمدَّدنا علىٰ المقاعد مُتَّكِئِينَ برؤوسنا علىٰ مرافقنا، فيما كان حارسٌ يقف علىٰ باب المقصورة نصفِ المفتوح. ماذا كان في جعبتهم لنا؟ كيف ستكون رحلتنا؟ ماذا عن المنفىٰ؟ كيف سيكون حالنا هناك؟ لم تكن البداية، علىٰ أيةِ حال، مُبشِّرةً بخير، إلا أننا

ظللنا هادئين بينما اخترقت العربة طريقها بسلاسةٍ ونعومة. رقدنا مُتَمدِّدين علىٰ المقاعد، وذكَّرنا الباب نصف المفتوح بما قضيناه من فتراتٍ في السجون. كنَّا مُتعبين، وقد استنفذتنا هذه المفاجأة والحيرة والتوتُّر، الذين رموا بشباكهم الثقيلة علىٰ الأيام الأخيرة، فحان الآن وقت الراحة والهدوء. كان كلُّ شيءٍ هادئًا، وظلَّ الحارس صامتًا. كنت أشعر بتوعُّكٍ بسيط، بينما حاول ليف دافيدوفيتش كل ما خطر بباله لتسهيل الأمور عليّ، لكن لم يكن في وسعه إلا أن يظلِّل عليّ بعطفه الحاني. لم نعد ندرك ما يحيط بنا، لكن كنَّا علىٰ الأقل هانئين بالراحة، فيما كان ليوفا في المقصورةِ المُجاوِرة. في موسكو، كان ليوفا مُنغمِسًا حتىٰ أذنيه في أعمال المعارِضة، لكنه صار الآن يرافقنا إلىٰ منفانا لتخفيف هذا الحِمل الثقيل عنَّا، ولم يتسن له الوقت حتىٰ لوداع زوجته. ومنذ تلك اللحظة، صار ليوفا وسيلتنا الوحيدة للتواصل مع العالم الخارجي. كانت العربة مظلمة تمامًا، بينما تتسرَّب إليها خيوط ضوءٍ خافتةٌ من شمعةٍ خلف الباب. كنَّا نواصل مسيرنا بثباتٍ نحو الشرق.

كلما كانت موسكو تبتعد خلف ظهورنا، كان مرافقونا الحرَّاس يزدادون احترامًا لنا. في سمارا، أحضروا لنا بعض الملابس الداخلية، والصابون، ومسحوق غسيل الأسنان، والفُرَش، إلخ. كانوا يجلبون طعامنا وطعامهم من مطاعم المحطات. أما ليف دافيدوفيتش، الذي كان ملتزمًا بنظامٍ غذائيٍ صارم، فها قد صار يأكل أي شيءٍ يُقدَّم له، صائحًا فينا بمرحٍ وابتهاج. كنت أنظر إليه بدهشةٍ وتخوُّف. الغريب أن

الأغراض التي أحضروها لنا في سمارا كانوا يطلقون عليها أسماءً خاصة؛ المنشفة: "منجينسكي" (رئيس الشرطة السرية)، والجوارب: "ياجودا" (نائب منجينسكي)، وهكذا. تباطأت مسيرة القطار بشكلٍ كبير بسببِ أكوام الثلوج، لكن كل يومٍ كنَّا نخوض أكثر وأعمق داخل آسيا.

قبل أن نغادر موسكو، كان ليف دافيدوفيتش قد طلب قدوم اثنين من مساعديه، لكنه قوبل بالرفض، لذا قرَّر سييرموكس وبوزنانسكي خوض رحلتهما مُستقلِّين عنَّا. في البداية، اتخذا مقعديهما في العربة، ورأيا المظاهرة بالفعل، لكنهما لم يبرحا المقعدين، ظانين أننا في نفس القطار. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، لاحظا غيابنا، فخرجا من القطار في آريس، وانتظرا قدومنا علىٰ متنِ القطار التالي، وهناك التقيناهما بالفعل. كان ليوفا، الذي سُمِحَ له ببعضِ الحرية في التحرُّك علىٰ متنِ القطار، هو من رآهما، وقد أسعدنا ذلك كثيرًا، فكَتَبَ ابني مستدعيًا هذه الذكريات:

"في الصباح، خطوت خارج القطار، وجلست في المحطة لعلي أجد الرفاق الذين كنَّا قلقين عليهم. وجدت اثنين منهم بالفعل في البوفيه يجلسان إلىٰ طاولةٍ ويلعبان الشطرنج. من الصعب أن أصف سعادتي الفائضة وقتها. أشرت إليهم بألا يقربوا مني، لكن ظهوري في البوفيه، كما هو متوقَّعًا، قد أثار نشاط عملاء الشرطة السرية. هرعت إلىٰ العربة لأخبر ليف دافيدوفيتش وناتاليا سيدوفا بما رأيت، فعمَّت البهجة عليهما. حتىٰ ليف دافيدوفيتش لم يتمكَّن من رؤيتهما، رغم أنهم عصا

الأوامر وبدلًا من استكمال رحلتهما ظلَّا هناك منتظرين أمام الجميع - مخاطرة لم يكن لها داع. وبعد التحدُّث في الأمر مع ليف دافيدوفيتش، كتبت ملاحظةً علىٰ قصاصةٍ من ورق بغية تسليمها لهما عند حلول الليل. جاءت الأوامر علىٰ النحو التالي: ينفصل بوزنانسكي عنَّا ويستكمل طريقه علىٰ الفور إلىٰ تاشكنت، وينتظر الاستدعاء من هناك. أما سييرموكس فيتوجَّه إلىٰ ألما آتا دون أن يلتقي بنا. نجحت في العبور إلىٰ الجهةِ الأخرىٰ لأخبر سييرموكس بأن يقابلني خلف المحطة في ركنٍ غير بارز ليس حوله أي مصابيح. جاء بوزنابنسكي بدلًا من سييرموكس. في البداية لم نجد بعضنا، فبدأ كلٌّ منَّا في الارتباك، وحين التقينا تحدثنا علىٰ عجال، مقاطعين حديث بعضنا في كل كلمة. قلت له: "حطَّموا الأبواب، حملونا من أذرعنا". لم يفهم من حطَّم الأبواب، ولماذا فعلوا ذلك. لم يتسن أي وقتٍ للشرح؛ كنَّا نخشىٰ أن يكشفوا أمرنا".

بعدما أخبرنا ابني بذلك في آريس، استكملنا طريقنا شاعرين ببعض الاطمئنان بأن لدينا صديقًا علىٰ القطارِ معنا. أسعدنا ذلك كثيرًا. تلقينا حقائبنا وأمتعتنا في اليوم العاشر، وهرعنا إلىٰ سيميونوف تيانشانسكي. قرأنا عن بعض ملامح المدينة، وسكانها، وبساتين التفاح التي تشتهر بها، والأفضل من ذلك أننا عرفنا أن الصيدَ جيدٌ هناك.

فتح ليف دافيدوفيتش، ببهجةٍ وسرور، الكتب والكتابات التي حزمها سيرموسك وأرسلها لنا. وصلنا إلىٰ فرونز في الصباح الباكر. كانت هذه محطتنا الأخيرة. كان الصقيع قارسًا، بينما أعمت آشعة الشمس المُنصبَّة علىٰ الثليج ناصع البياض عيوننَا. جلبوا لنا أحذيةً وجلودَ غنم.

كنت بالكاد أتنفَّس من ثقل ملابسي، لكن هذا حتىٰ لم يمنع برد الطريق من النفاذ إلىٰ جسدي. سارت الحافلة علىٰ الثلوج التي تئن تحت عجلات العربات، بينما كان الرياح تلفح وجوهنا. وبعد عبور ما يقرب من 30 كيلومتر، توقفنا. كان الظلام قد خيَّم، ويدونا كما لو كنَّا وسط صحراءٍ مُغطاة بالثلوج. جاء اثنان من الحرَّاس (كان الموكب يتألف من 12 إلىٰ 15 رجلًا) وأخبرانا بشيءٍ من الحرج أن أماكن النوم ليس جيدة. خرجنا من الحافلة ببعض الصعوبة، وبعدما تلمَّسنا طريقنا في الظلام نحو العتبة والباب المنخفض، سرنا إلىٰ الداخل ونزعنا عن أجسادنا جلود الغنم، لكن الكوخ كان باردًا للغاية دون أية وسيلة للتدفئة.

كانت النوافذ الصغيرة مُغطاةٌ بالثلوج، وفي الركن كان هناك موقدٌ روسيٌ ضخم، لكن لم يكن يفرق في برودته عن الثلج شيئًا. دفَّئنا أنفسنا بالشاي، وتناولنا بعض الطعام، وجمعنا بعض الحديث مع مضيفتنا القوزاقية. سألها ليف دافيدوفيتش العديد من الأسئلة حول حياتها

وحول الصيد. كلُّ شيءٍ كان يثير فضولنا، والمدهش أننا لم نكُن نعرف كيف سينتهي بنا الحال. استعددنا للمبيت، ووجد الحرَّاس مبيتًا في نفس الجوار. تمدَّدَ ليوفا على مقعدٍ، وتمدَّدت أنا مع ليف دافيدوفيتش على طاولةٍ مفروشةٍ بجلود الغنم. وحين حلَّ الهدوءُ علينا في هذه الغرفة الباردة ذات السقف المنخفض، انفجرت في الضحك. قلت: "هدوء. على عكس شقتنا في الكرملين"، فضحك ليف دافيدوفيتش وليوفا معي.

أقلعنا مجددًا عند بزوغ الفجر. كان لا يزال أمامنا الشوط الأصعب من الرحلة. عبرنا جبال كورداي بينما كان البرد قارسًا. كان ثقل الملابس لا يُحتَمَل، كما لو كان جدارٌ هائلٌ قد انهار على الجسد. وحين توقفنا مرةً أخرى، شربنا الشاي وتحدَّثنا مع السائق ومع عملاء الشرطة السرية الذين جاءوا من ألما آتا لملاقاتنا. شيئًا فشيئًا، صارت الحياة الغريبة التي كنَّا مقبلين عليها تتكشَّف أمام أعيننا. كان الطريق صعبًا على العربة، فقد صار سطحه زجاجيًا من انجراف الثلوج. كان السائق يتعامل مع العربة بخبرةٍ وتمرُّس فائقين، فقد عَرِفَ خصائص الطريق جيدًا، وحافظ على دفء جسده باحتساء الفودكا.

مع حلول الليل، صارت الثلوج أكثر كثافةً وبرودة. أما السائق، الذي كان يدرك جيدًا أن كل شيءٍ في صحراء الثلوج هذه يعتمد عليه وحده، فقد خفَّف هذا الحِمل عن نفسه بأن انهالَ بالانتقادات – غير الرسمية – على السلطات وأساليبها بشكلٍ عام. أما مُمَثِّل ألما آتا، الذي

كان يجلس إلىٰ جواره، فقد تَحدَّثَ إليه محاولًا استرضائه، فقط ليصل إلىٰ موطنه سالمًا. وبعد الثالثة فجرًا، توقفت العربة وسط ظلامٍ حالك. وصلنا أخيرًا، لكن أين؟ علِمنا أن هذا هو شارع جوجول، ونحن الآن أمام فندق جيتيسا - الذي بلا شك يعود إلىٰ عصر جوجول نفسه. فتحوا لنا غرفتين، فيما شَغَلَ الحرس المرافق لنا، ورجال الشرطة السرية، الغرف المجاورة. وحين راجَعَ ليوفا ما حملناه معنا من أمتعة، اكتشف فقدان حقيبتين من الملابس الداخلية، علاوة علىٰ بعض الكتب. ربما فقدناهم في مكانٍ ما وسط الثلوج. واحسرتاه! فقدنا كتاب سيميونوف تيانشانسكي مجددًا، فقدنا كتب وخرائط ليف دافيدوفيتش عن الصين والهند، وفقدنا مخطوطاته كذلك. شارك في البحث عنهم خمسة عشر شخصًا، وقد فشلنا في الحفاظ علىٰ أمتعتنا كما هي.

خرج ليوفا في الصباح لاستطلاع المكان. تعرَّف جيدًا علىٰ البلدة، وعرِفَ مواقع مكتب البريد ومحطة التلغراف، تلك المواقع التي كان من شأنها أن تصبح مركزًا مهمًا لحياتنا هناك. وجد الكثير من المحال، وبحث بلا كلل لإيجاد الأقلام الحبر، والأقلام الرصاص، والخبز، والزبد، والشموع... لم نكد، خلال الأيام القليلة الأولىٰ، أنا وليف دافيدوفيتش، نبرح غرفتنا. وبعد فترةٍ من الوقت، بدأنا نخرج للتمشي قليلًا في المساء. كانت كل تواصلاتنا مع العالم الخارجي تجري من خلال ابننا ليوفا.

حَضَرَ لنا الطعام من مطعمٍ قريب. كان ليوفا مشغولًا طيلة النهار، وكنَّا ننتظره بنفاذِ صبر. كان يجلب لنا الصحف، وينقل لنا شتىٰ ألوان المعلومات عن الناس والحياة في هذه البلدة. كنَّا متلهِّفين لمعرفة ما إذا كان سيرموكس قد وصل ألما آتا بعد. وفجأة، في صباحِ اليوم الرابع هناك، سمعنا صوتًا مألوفًا في الرواق. كم كان هذا الصوت عزيزًا في قلوبنا! دقَّقنا السمع من وراءِ الباب لكلماتِ سيرموكس وخطواته. لقد فتح مجيئه المفاجئ آفاقًا واسعةً أمامنا. منحوه الغرفة المقابلة لنا مباشرةً. خطوت نحو الرواق، فانحنىٰ لي حين رآني من علىٰ بُعد. كنَّا لا نزال غير قادرين علىٰ المجازفة بالتحدُّث إليه، لكننا ابتهجنا بقربه منَّا علىٰ أيةِ حال. وفي اليوم التالي، أدخلناه خلسةً إلىٰ غرفتنا، وأخبرناه بما حدث علىٰ عجالة، وخطَّطنا لمستقبلنا المشترك. لكن هذا المستقبل أثبت أنه وجيزٌ للغاية.

جاءت النهاية في حوالي الساعة العاشرة من نفس تلك الليلة. كان الفندق هادئًا تمامًا، وكنت أجلس مع ليف دافيدوفيتش في غرفتنا، تاركين الباب نصف مفتوحٍ علىٰ الرواق البارد، إذ جعل الموقد الحديدي الغرفة حارةً إلىٰ درجةٍ لا تُحتَمَل. كان ليوفا هو الآخر في غرفته، سمعنا وقع خطواتٍ حذرةٍ في الردهة، فدقَّقنا السمع عن عمد. وكما علمنا لاحقًا، كان ليوفا يسترق السمع أيضًا، وقد خمَّن بالفعل ما يجري. لقد جاءوا. باغتونا بمجيئهم. سمعنا أحدًا يدخل غرفة سيرموكس دون أن يطرق الباب، وقال: "أسرع، الآن". فردَّ

سيرموكس قائلًا: "هل لي علىٰ الأقل أن أرتدي حذائي؟"، إذ كان يرتدي نعلين خفيفين في غرفته. ثم، مرةً أخرىٰ، الخطوات الخفيفة التي بالكاد تصدر صوتًا، وبعدها خيَّم صمتٌ عميق. ولاحقًا، جاء الحاجب وأغلق غرفة سيرموكس. لم نره مرةً أخرىٰ. احتجزوه مع الجنائيين لبضعة أسابيع دون طعامٍ في قبو مبنىٰ تابعٍ لجهاز الشرطة السرية في ألما آتا، ثم أرسلوه إلىٰ موسكو ببدلٍ يومي لا يتعدىٰ 25 كوبك، وهو ما ليس كافيًا لشراء الخبز حتىٰ. وكما علمنا في وقتٍ لاحق، أُلقيَ القبض علىٰ بوزنانسكي أيضًا في الوقت نفسه في تاشكنت وأُرسِلَ إلىٰ موسكو. وبعد حوالي ثلاثة أشهر، وصلتنا أنباءٌ عنهم من مواقعهم، كلٌّ في منفاه. للصدفة السعيدة، كانوا في نفْسِ عربةِ القطار، بل وعلىٰ مقعدين متواجهين، حين كانا يُرسلان شرقًا إلىٰ المنفىٰ. افترقا لبعضِ الوقت، ثم تقابلا، ليفترقا مرةً أخرىٰ بعدما نُفِيَ كلٌّ منهما إلىٰ مكانٍ مختلف.

وهكذا وَجَدَ ليف دافيدوفيتش نفسه وحيدًا دون مساعدَيه. انتقم خصومه منهما لإخلاصهما وولائهما مع ليف دافيدوفيتش للثورة. كان جلازمان، اللطيف المتواضع، قد دُفِعَ إلىٰ الانتحار في العام 1924. أُرسِلَ سيرموكس وبوزنانسكي إلىٰ المنفىٰ. أما بوتوف، المُجِدّ المجتهد الهادئ، فأُلقيَ القبض عليه، وسيقت إليه أدلةٌ كاذبة، ودُفِعَ إلىٰ الإضراب عن الطعام، ليلقىٰ حتفه في مستشفىٰ السجن.

هكذا صفَّىٰ خصوم ليف دافيدوفيتش "سكرتاريته" الأمينة التي نظروا إليها بعينِ الكراهية الدفينة كمصدرٍ لكلِّ الشرور. وهكذا ظنوا

أنهم جرَّدوه من أسلحته بعيدًا في ألما آتا. قال فوروشيلوف بشماتةٍ لا حياء فيها: "حتىٰ وإن مات هناك، لن نسمع بذلك إلا بعد حدوثه بوقتٍ طويل". لكن ليف دافيدوفيتش لم يُجرَّد بعد من أسلحته. كانت أغلب مهام الاتصال مع العالم الخارجي تقع علىٰ عاتق ابننا. كان ليوفا مسئولًا عن المراسلة، حتىٰ أن ليف دافيدوفيتش كان يُطلِق عليه تارةً وزير الشئون الخارجية، وتارةً أخرىٰ وزير البريد والتلغراف. وسرعان ما تراكمت مراسلاتنا في مجلدٍ كبير، وهذا العبء تحمَّله ليوفا وحده. كان أيضًا بمثابة الحارس الشخصي لنا. وعلاوةً علىٰ كل ذلك، كان يوفِّر كل المواد اللازمة لأعمال ليف دافيدوفيتش؛ يبحث في أرفف الكتب في المكتبات، ويفتش عن أعداد الصُّحف، والمقتطفات المطبوعة، إلخ. كان يجري كافة المفاوضات مع السلطات المحلية، وينظِّم رحلاتِ الصيد، ويرعىٰ الكلب، ويعتني بالبنادق. وفوق كل ذلك، كان يدرس الجغرافيا الاقتصادية واللغات بدأبٍ لا يكل.

بعد بضعة أسابيع من وصولنا، انتظم عمل ليف دافيدوفيتش السياسي والعلمي، وصار يجري علىٰ قدمٍ وساق. وعثر ليوفا فيما لحق علىٰ فتاةٍ تجيد استخدام الآلة الكاتبة. لم تتعرَّض لها الشرطة السرية في شيء، لكنهم بالتأكيد أجبروها علىٰ إرسال تقارير بكلِّ شيءٍ تكتبه لنا. لعل من المثير أن نسمع ما أرسلته هذه الشابة اليافعة غير المتمرِّسةِ في مكافحة التروتسكية.

كان الثلج في ألما آتا بديعًا؛ أبيض ونظيفًا وجافًا. وكلما سرنا أو ذهبنا في جولةٍ بالسيارة، وجدناه عذبًا يحافظ علىٰ نضارته طيلة الشتاء. وفي الربيع، تتفتَّح الخشاخيش الحمراء، كثيرةً منتشرةً، كسجَّادٍ هائلٍ يمتد في كلِّ مكان. أما في الصيف، يطرح التفاح، الذي تشتهر به ألما آتا، كبيرًا وأحمر أيضًا. لم تكن في المدينة أي محطات مركزية للإمداد بالمياه، ولا كهرباء، ولا حتىٰ طرقًا مرصوفة. وفي السوق الواقع وسط البلدة، كان القيرغيزيون يجلسون في الوحل أمام عتبات محالهم ودكاكينهم، يدفِّئون أنفسهم في الشمس، ويفلُّون أجسادهم من القمل ونحوه. كانت الملاريا متفشية، وكذلك الطاعون كان مستشريًا، وخلال أشهر الصيف كانت هناك أعدادٌ استثنائية من الكلاب المسعورة. وذكرت تقارير الصحف الكثير من حالات الجُذام في المنطقة.

لكن، رغم كل ذلك، قضينا صيفًا جيدًا. استأجرنا بيتًا فلاحيًا من مزارعِ فواكه أعلىٰ تلة تطل علىٰ الجبالِ المَكسوَّةِ بالثلوج، وهي جزءٌ من سلسلة جبال تيان شان. كنَّا نرتقب نضوج الفواكه مع مالك البيت وعائلته، وشاركنا بنشاطٍ في جمعها. كان البستان بالنسبةِ إلينا بمثابة صورةٍ جاسدةٍ للتغيير. تتفتَّح الأزهار البيضاء في بادئ الأمر، ثم تثقل الأشجار بما تحمل، وتنحني فروعها ويسندونها بدعائمٍ ترتكز عليها، ثم بعد ذلك تسقط الثمار علىٰ سجاجيدِ مُلوَّنة علىٰ حُصرٍ من قش، لتستقيم الفروع مرةً أخرىٰ بعدما تخلَّصت للتو من عبءٍ طال حمله. كان البستان عبقًا بعطورٍ فوَّاحة، حيث ثمار التفاح والإجاص الناضجة،

وطنين النحل والدبابير من حولنا دائمًا. كنَّا نصنع المُعلَّبات من ثمار هذا البستان.

في يونيو ويوليو، كان العمل كثيفًا لا يهدأ في البيت المسقوف بالقش في بستان التفاح، بوجودِ كاتبٍ لا تتوقف أنامله عن الطرق علىٰ أزرار الآلة الكاتبة، غير المألوفة في هذه الأنحاء. كان ليف دافيدوفيتش يُملي نقدًا موجهًا لبرنامج الأممية الشيوعية، ويُدخِل عليه التصحيحات الواجبة، ثم يسلِّمه لكتابته علىٰ الآلة الكاتبة. كان صندوق البريد يكتظ يوميًا بعشر إلىٰ خمسة عشر رسالة، علىٰ شتىٰ الموضوعات، والانتقادات، والسجالات الداخلية، والأنباء من موسكو، علاوة علىٰ الكثير من البرقيات عن أمورٍ سياسية وللسؤال عن صحة ليف دافيدوفيتش. كانت الشئون العالمية العظيمة تمتزج في صندوقٍ واحد مع الأمور المحلية ذات الشأن الأدنىٰ، والتي كانت لها رغم ذلك أهميةٌ كبيرة هنا. كانت خطابات سوسنوفسكي محلية دائمًا، بحماسةٍ ولوذعيةٍ معهودَتين منه. أما خطابات راكوفسكي المميزة، فقد كانت تُنسخ وتُرسَل لآخرين. كانت الغرفة ذات السقف المنخفض تعجُّ دائمًا بالمخطوطات، والصحف، والكتب، والمقتطفات المنسوخة، والقصاصات علىٰ الطاولات. بقىٰ ليوفا في غرفته المجاورة للاسطبل لأيامٍ طوال؛ يكتب، ويراجع، ويصحِّح ما كُتِبَ علىٰ الآلة الكاتبة، ويحزم الطرود، ويبعث ويتلقىٰ الرسائل، ويبحث عن الاقتباسات الضرورية. كان البريد يأتي إلينا من البلدة بواسطة شخصٍ مُعتَلّ علىٰ

ظهر حصان. ومع حلول الليل، كان ليف دافيدوفيتش يخرج في الأغلب إلىٰ الجبال، مصطحبًا معه كلبًا وبندقية. أحيانًا كنت أذهب معه، وأحيانًا كان ليوفا يرافقه. كنت نعود بالكثيرِ من الحمام، والسمان، والدجاج الجبلي، وطيور الدرَّاج. كان كلُّ شيءٍ علىٰ ما يُرام، حتىٰ جاءت هجمات الملاريا المُعتادة في المنطقة.

وهكذا قضينا عامًا كاملًا في ألما آتا؛ بلدة الزلازل والفياضانات، عند سفحِ جبال تيان شان علىٰ حدودِ الصين، يفصلها 250 كيلومتر عن خط السكك الحديدية، و4 آلاف كيلومتر عن موسكو. كان عامًا مليئًا بالخطابات، والرسائل، والكتب، والطبيعة الخلَّابة. ورغم أننا كنَّا نلتقي بأصدقاءٍ سريين في كل خطوة (لا يزال الوقت مبكرًا للغاية للإفصاح عن المزيد من ذلك)، كنَّا ظاهريًا منعزلين تمامًا عن السكَّان المحيطين بنا، إذ عوقِبَ كلُّ من حاول التواصل معنا، وأحيانًا بقسوةٍ بالغة.

ناتاليا إيفانوفا سيدوفا تروتسكايا".

سأضيف هنا الآن إلىٰ مذكراتِ زوجتي بعض المقتطفات من مراسلات تلك الفترة. في 28 فبراير، أي بعد وصولنا ألما آتا بفترةٍ وجيزة، كتبت إلىٰ بعض الأصدقاء في المنفىٰ:

"في ضوء انتقال حكومة كازاخستان إلىٰ هذا المكان، صارت كل المنازل هنا مشغولة تمامًا عن آخرها. وفقط بفضلِ عددٍ من البرقيات أرسلتها إلىٰ شخصياتٍ رفيعة الشأن في موسكو، تمكنَّا في النهايةِ من أن

نحظىٰ ببيتٍ، بعد ثلاثة أسابيع من المكوث في الفندق. كان علينا شراء بعض الأثاث، وترميم الموقد المتهالك؛ كان علينا بوجهٍ عام أن نبني بيتًا - هذه المرة ليس من خلال نظام الدولة المُخطَّط. وقع هذا العمل علىٰ كاهليّ ناتاليا إيفانوفا وليوفا. لم تُنجز هذه المهمة بالكامل حتىٰ يومنا هذا، إذ أن الموقد ليس مستعدًا بعد لتدفئة البيت".

"أكرِّس وقتًا كبيرًا من أجل دراسة آسيا؛ جغرافيتها، واقتصاداتها، وتاريخها، وهكذا. أفتقد الصحف الأجنبية بشكلٍ مُفزع. أرسلت بالفعل إلىٰ الأماكن المُختصة، طالبًا منهم أن يرسلوا لي الصحف، حتىٰ وإن كانت قديمة بعض الشيء. يصل البريد هنا بشق الأنفس، وغالبًا ما يضيع".

"من الصعب فهم دور الحزب الشيوعي في الهند. تنشر الصحف الكثير من التقارير هنا عن أنشطةٍ في مُختَلَف المحافظات لأحزاب "العمال والفلاحين". هذه الاسم وحده كفيلٌ بدقِّ جرسِ الإنذار. الكومنتانج، أيضًا، أُعلِنَ فيما مضىٰ أنه حزبُ "عمالٍ وفلاحين". ألا يثبت ذلك تكرار الماضي؟".

"صَعَدَ التناقض الأنجلو أمريكي أخيرًا، بجديةٍ، إلىٰ السطح. والآن، يبدو أن حتىٰ ستالين وبوخارين بدءا يدركان ماهية هذا المأزق. لكن صحفنا تعمد إلىٰ تبسيط القضية حين تعرض الموقف وكأن التناقض الأنجلو أمريكي، الذي يزداد حدةٍ وتدبيبًا، سيؤدي مباشرةً إلىٰ

نشوبِ حرب. ما مِن شكٍ في أن ستكون هناك الكثير من الانعطافات والتحوُّلات في هذه العملية، إذ ستكون الحرب أمرًا في منتهىٰ الخطورةِ لكلا الطرفين، بل سيكون عليهما أن يبذلا بعض الجهد للتوصُّل لاتفاقٍ وسلام. لكن، بشكلٍ عام، تتطوَّر هذه العملية بخطواتٍ جبَّارة نحو تتمَّةٍ دموية".

"في الطريق إلىٰ هنا، قرأت لأول مرة كتيِّب كارل ماركس "السيد فوجت"[27]. خصَّصَ ماركس، من أجل أن يدحض أكاذيب وافتراءات كارل فوجت، كتيِّبًا من مائتي صفحة، بخطٍ دقيقٍ رفيع، حاشدًا مجموعةً كبيرة من الوثائق وأدلة الثبوت في تحليلِ الأحداث المباشرة والعارضة... إن كان علينا البدء في دحض أكاذيب وافتراءات ستالين علىٰ نفسِ المنوال، فربما يكون علينا أن ننشر موسوعةً من آلاف المجلدات".

"في أبريل، بدأت أتشارك مع بعض "المبتدئين" أفراح وأتراح أنشطة الصيد".

"ذهبت مع ابني في رحلةٍ إلىٰ نهر إيلي، بغية استغلال موسم الربيع بأقصىٰ قدرٍ ممكن. هذه المرة أخذنا معنا خيامًا، وجلودًا، ومعاطف فرو، وغيرها من الأغراض، كي لا نضطر إلىٰ المبيت في الأكواخ البدائية. لكن الثلوج تساقطت علينا، وتحوَّل الطقس إلىٰ بردٍ قارس.

---

[27] "Herr Vogt" - 1860. لم يترجم إلى اللغة العربية. (المترجم)

كانت تلك أيامًا صعبة. وفي الليلِ، انخفضت درجة الحرارة إلىٰ أربع درجاتٍ تحت الصفر. إلا أننا، لتسعةِ أيام، لم ندخل بيتًا قط، بفضل ملابسنا الثقيلة الدافئة التي لم نشعر تحتها بالبرد إلا نادرًا. لكن أحذيتنا السميكة تجمَّدَت ليلًا، وكان علينا أن نمرِّرها علىٰ النار كي نتمكَّن من ارتدائها في أقدامنا مرةً أخرىٰ. في الأيامِ الأولىٰ، كنَّا نصطاد في المستنقع، ثم توجَّهنا بعد ذلك إلىٰ البحيرة الواسعة. كنت قد نصبت خيمةً صغيرة أعلىٰ التلة، حيث قضيت إثنىٰ عشر أو أربعة عشر ساعة في اليوم... لكن ليوفا كان يقف دائمًا تحت الأشجار بين أعواد البوص.

وبسببِ هذا الطقس قارس البرودة، ورحلات الطيور غير المنتظمة، لم تُكلَّل رحلة الصيد بأي نجاحٍ يُذكر. عُدنا فقط بحوالي أربعين بطة، وزوجًا من الأوز. لكن ذلك قد منحني شعورًا غامرًا بالسعادة؛ هذا المرور العابر بالحياة البربرية، والنوم في الخلاء، وتناول لحم الضأن المطهو في سطلٍ تحت سقف السماء، مع عدم الاغتسال أو خلع الملابس، وبالتالي عدم ارتداء الملابس مجددًا، والنزول من علىٰ ظهر الحصان إلىٰ النهر (المرة الوحيدة التي اضطررت فيها لخلع ملابسي تحت آشعة شمس الظهيرة الدافئة)، وقضاء أغلب فتراتِ النهار والليل علىٰ مقعدٍ صغير وسط المياه والحشائش وأعواد البوص - مثل هذه التجربة لا تتكرَّر كل يوم. عدت إلىٰ البيت دون حتىٰ أن أُصاب بالبرد، لكنني أصبت به بعد يومٍ واحدٍ من عودتي، ورقدت أسبوعًا في الفراش".

"بدأت الصحف الأجنبية تصلنا، عبر راكوفسكي، من موسكو وأستراخان. واليوم، تلقيت خطابًا منه، يقول فيه إنه يُعد عملًا عن السان سيمونية في معهد ماركس وإنجلز. وبالإضافة إلىٰ ذلك، يعمل أيضًا علىٰ كتابة مذكراته. أي شخصٍ يعلم أي شيءٍ عن حياة راكوفسكي، من السهل أن يتصوَّر كم سيكون بين أيدينا مذكراتٍ هائلة الإلهام والإثارة".

في 24 مايو، كتبت إلىٰ بريوبراجنسكي، الذي كان بالفعل مُتردِّدًا في رؤاه وأفكاره:

"بعدما تلقيت أطروحاتك، لم أكتب عنها حرفًا لأحد. وقبل يومين، تلقيت البرقية التالية من كالباشوفو، يقول فيها: "ارفض مقترحات بريوبراجنسكي بالقطع. فكِّر في الأمر. رُدّ في الحال. سميلجا - ألسكي - نيتشاييف".

ويوم أمس، تلقيت برقيةً أخرىٰ من أوست كولوم: "اعتبر مقترحات بريوبراجنسكي خاطئة. بيلوبورودوف - فالينتينوف". وكذلك تلقيت أمس خطابًا من راكوفسكي لم يمتدحك فيه، بل عبَّر في سطوره عن موقفه من سياسة ستالين "اليسارية" بصيغةٍ إنجليزية: "لننتظر ونرىٰ". وتلقيت أمس أيضًا خطابًا من بيلوبورودوف وفالينتينوف. إنهم منزعجان للغاية من رسالة راديك إلىٰ موسكو التي يعبِّر فيها عن مزاجٍ مُتعكِّر. إنهم مُهتاجون وليس فقط منزعجين. إذا

كانت نسخة راديك التي اطلعوا عليها صحيحة، فإنني أقف إلىٰ جانبهم بكل تأكيد. لا أوصي بالتساهل مع المنقادين".

"منذ عودتي من رحلة الصيد، أي منذ نهاية مارس، لم أبرح المنزل قط. أجلس لأقرأ كتابًا، أو لأكتب، بدءًا من السابعة أو الثامنة صباحًا حتىٰ العاشرة مساءً. سآخذ قسطًا من الراحة لبعضةِ أيام، لكن ليس في رحلةِ صيد، بل سأذهب مع ناتاليا إيفانونفا، وسيروجا (إنه هنا الآن) في رحلة لصيد السمك في نهر إيلي. سأكتب لك عن ذلك في الوقت المناسب".

"هل تمكَّنت من فهم ما جرىٰ في الانتخابات الفرنسية؟ لم أفهم ذلك قط. لم تنشر البرافدا العدد الإجمالي للمُرشَّحين المُنتَخَبين مقارنةً بمُرشَّحي الانتخابات السابقة، فلا يمكنني القول إن نسبة الشيوعيين قد تغيَّرت. لكنني أنوي فحص هذه المسألة في الصحف الأجنبية، وحينها سأكتب".

وفي 26 مايو، كتبت إلىٰ ميخائيل أوكوجافا، وهو واحدٌ من قدامىٰ البلاشفة الجورجيين:

"طالما أن سياسة ستالين الجديدة تضع أهدافًا لنفسها، فإنها بلا شك ستمثِّل محاولة لتناول وجهة نظرنا. في السياسة، لا يتعلَّق الأمر بسؤال ماذا فقط، بل أيضًا كيف ومن يتخذ القرار. لا تزال المعارك الأساسية التي ستقرِّر مصير الثورة مقبلة في الأفق.

لطالما اعتبرنا، وذكرنا أكثر من مرة، أن الانتكاس السياسي لدىٰ الفصيل الحاكم لا ينبغي تصويرها في شكل منحنىٰ هابطٍ لا ينقطع. ففي المقام الأول، لا يحدث الانتكاس في الفراغ، بل في مجتمعٍ طبقي، وسط تناقضاتٍ داخليةٍ عميقة. أما الجمهور الأساسي للحزب، فهو أبعد من أن يكون كتلةً صلبةً متجانسة، بل بدرجةٍ كبيرةٍ يمثِّل ببساطة مادة خام سياسية، ويخضع حتمًا لعملياتٍ من التمايز والمفاضلة، تحت ضغط التأثيرات الطبقية من اليمين واليسار علىٰ حدٍّ سواء. إن الأحداث الكبيرة التي وقعت خلال الفترة الماضية فيما يتعلَّق بالشئون الحزبية، تلك التي أتحمَّل أنا وأنت عواقبها وتبعاتها، ليست إلا استهلالٌ للمزيد من التطوُّرات. ومثلما يقدِّم التمهيد الموسيقي قبيل عرض الأوبرا مقطوعاتٍ موسيقية للعرض بأكمله، ويقدم عرضًا مضغوطًا مُصغَّرًا منها، هكذا أيضًا لا يعزف التمهيد السياسي إلا بضع نغماتٍ ستنضج بالكامل في المستقبل، إذ ستضخِّمها الأبواق، والكونترباصات، والطبول، وغيرهم من الآلات الموسيقية، في عرضٍ موسيقي طبقي حاسم. إن الكيفية التي تتطوَّر بها الأمور تقنعني، بما لا يدع مجالًا للشك، بأننا كنَّا ولا زلنا صائبين، ليس فقط ضد التائهين التائبين (الزينوفيين والكامينيفيين والبياتاكوفيين، إلخ)، لكن أيضًا ضد أصدقائنا الأعزاء علىٰ اليسار؛ ألا وهم اليساريون المُتطرِّفون، أولئك المُشوَّشون المستعدون للقبول بالمقدمة الموسيقية للأوبرا ليظنون أن كل العمليات الأساسية الجارية في الحزب والدولة قد بلغت نضجها

الكامل، وأن الترميدور، الذي سمعوا عنه فقط للمرةِ الأولىٰ، صار حقيقةً جاسدةً بالفعل. علينا ألا نفسح المجال لانفعالاتنا الشخصية المحضة، ألا نُقلِق أنفسنا والآخرين بغير ضرورة، لابد من الدراسة، والانتظار، والنظر بنفاذٍ إلىٰ الأمام، وألا نسمح بأن يتآكل خطنا السياسي بصدأ إحساسنا الشخصي بالقهر - ينبغي أن يكون هذا هو أسلوبنا وموقفنا".

في التاسع من يونيو، توفيت ابنتي، وداعمتي المتحمسة الوهَّاجَة، نينا، في موسكو. كانت في السادسة والعشرين من عمرها، وكان زوجها قد أُلقيَ القبض عليه قبل فترةٍ قصيرةٍ من إرسالي إلىٰ المنفىٰ. لم تقطع أعمالها المعارِضة حتىٰ أرقدها المرض، ولم تمض إلا بضعة أسابيع حتىٰ لفظت أنفاسها الأخيرة. أما الخطاب الذي كتبته لي من مشفاها، فقد تأخَّر سبعة وثلاثين يومًا، فوصلني بعد أن وافتها المنية.

في 16 يونيو، أرسل إليّ راكوفسكي البرقية التالية:

"تلقيت أمس خطابًا بشأن مرض نينا الخطير. أرسلت لأليكساندرا جورجيڤنا (زوجة راكوفسكي) في موسكو. وعلمت اليوم من الصحف أن حياة نينا الثورية القصيرة قد انتهت. قلبي وروحي معك يا صديقي العزيز. يؤلمني أن تفصلني عنك كل هذه المسافة السحيقة. أحتضنك بكل قلبي - كريستيان".

وبعد أسبوعين، وصلني خطاب راكوفسكي، جاء كما يلي:

"صديقي العزيز، تألمت لك ولذويك كثيرًا علىٰ رحيل نينوشكا. طالما حملت علىٰ كاهلك الصليب الثقيل للماركسي الثوري، لكنك اليوم، ولأولِ مرةٍ، تشعر بالأسىٰ الذي لا حدَّ له كأب. قلبي معك. يعتصرني الحزن أنني بعيدٌ عنك هكذا... لابد أنك سمعت من سيروجا عن الإجراءات السخيفة التي تَعَرَّضَ لها أصدقاؤك بعد ما جرىٰ معهم في موسكو. وصلت إلىٰ منزلك بعد حوالي نصف ساعةٍ من مغادرتك إياه. كان عددٌ من الرفاق، أغلبهم من النساء، مع مورالوف في غرفة الجلوس. ثم سمعت صوتًا يقول: "من فيكم المواطن راكوفسكي؟".

قلت: "أنا. ماذا تريد".

فقال: "اتبعني".

قادوني عبر الردهة إلىٰ غرفةٍ صغيرة، وقبيل الباب أمروني برفع يديَّ، ثم فتشوا جيوبي، واعتقلوني. أطلقوا سراحي في الخامسةِ مساءً. أما مورالوف، الذي تَعَرَّضَ للأمر نفسه، فقد اعتُقِلَ حتىٰ وقتٍ متأخرٍ من الليلة ذاتها... قلت لنفسي: "لقد فقدوا عقولهم"، ولم أشعر بغضبٍ بقدر ما شعرت بالأسفِ تجاه رفاقي".

ثم كتبت إلىٰ راكوفسكي في 14 يوليو:

"عزيزي كريستيان جورجييفيتش، لم أكتب لك أو للأصدقاء منذ زمنٍ بعيد. إذ حصرت ما كنت أرسله في موادٍ معينة. حين عدت من نهر إيلي، حيث وصلت إلىٰ أسماعي للمرةِ الأولىٰ نبأ حالة نينا الخطيرة،

انتقلنا علىٰ الفور إلىٰ منزلٍ ريفي. وهناك، بعد بضعةِ أيام، جاءنا نبأ رحيلها عن دنيانا. أنت تفهم بالطبع معنىٰ ذلك... لكن، كان ضروريًا، دون أن نفقد المزيد من الوقت، أن نتحصَّل علىٰ الوثائق المُعدَّة للمؤتمر السادس للأممية الشيوعية. كان الأمر صعبًا للغاية. وعلىٰ الجانب الآخر، فإن الحاجة لإنجاز هذا العمل ساعدتنا في تحمُّلِ مشقَّةِ الأسابيع الأولىٰ.

انتظرنا هنا نينوشكا (الابنة الكبرىٰ) طيلة شهر يوليو. مع الأسف، أُلغِيَت الزيارة. وطالَبَ جوتيير بأن تُنقَل في الحال إلىٰ مصحةٍ لعلاج السُل. كان لديها المرض بالفعل منذ فترةٍ طويلة، ورعايتها لنينوشكا، بعدما تخلَّىٰ عنها الأطباء، قد أضرَّ بصحتها بشكلٍ أكبر.

الآن، لنتحدَّث عن المؤتمر. قرَّرت أن أبدأ بنقدٍ لمسودة البرنامج فيما يتعلَّق بكافة القضايا التي نعارض فيها القادة الرسميين. وآلت بيَ الأمور إلىٰ كتيِّبٍ من 175 صفحة. وبشكلٍ عام، لخَّصت نتاجَ عملنا الجماعي خلال الخمسة أعوام الأخيرة، بعدما تقاعَدَ لينين عن قيادة الحزب وتولَّت قيادة الصف الثاني الكسيحة دفَّته، ليعيشوا علىٰ تراثه في البداية، ثم ليهدروا هذا التراث نفسه سريعًا.

وبخصوص الدعوة للمؤتمر، تلقيت عشراتٍ من الخطابات والبرقيات. لم تُصنَّف الأصوات بعد، لكن علىٰ أية حال، من ضمن

أكثر من مائة صوت، هناك ثلاثة فقط جاءت لصالح أطروحات بريوبراجنسكي.

من المُحتَمَل جدًا أن يحافظ تكتل ستالين مع بوخارين وريكوف علىٰ مظهر الوحدة في المؤتمر، في محاولةٍ بائسةٍ أخيرة لإسدال الستار علينا. لكن هذه المحاولة الجديدة نفسها، وحتمية فشلها، قد تعجِّل من تطوُّر الشقاقِ داخل هذا التكتل، إذ سيُطرح سؤال "ماذا بعد؟"، في اليوم التالي علىٰ انتهاء أعمال المؤتمر، بأكبرِ وضوحٍ علىٰ الإطلاق. ما الإجابة التي سيقدمونها إذن؟ بعد إهدار الفرصة الثورية في ألمانيا عام 1923، لم نشهد إلا التذبذبات اليسارية المُتطرِّفة في 1924 و1925. السياسة اليسارية المُتطرِّفة لزينوفيف نمت من نفس الخميرة - النضال ضد الصناعيين، والانسجام الرومانسي مع لافوليت والأممية الفلاحية والكومنتانج، وغيرهم. وحين حطَّمَت سياسة اليساريين المُتطرِّفين رأسها، بزغت السياسة اليمينية من نفسِ الخميرةِ اليمينية.

أما فرصة تكرار ذلك بصورةٍ أوسع في مرحلةٍ جديدةٍ ما، فليست منعدمة؛ أي مرحلة جديدة من التطرف اليساري المبنيّ علىٰ نفس المقدمات الانتهازية.

لكن القوىٰ الاقتصادية الكامنة قد تحطِّم هذا النزوع اليساري المُتطرِّف، وتلوي عصا هذه السياسة بالتحديد إلىٰ اليمين".

وفي أغسطس، كتبت إلىٰ عديدٍ من الرفاق:

"بالطبع لاحظتم أن صحفنا لم تُعِد بالقطع نشر أي تعليقاتٍ من الصحافة الأمريكية والأوروبية عن الأحداث في حزبنا. هذا وحده يثبت الشك بأن مثل هذه التعليقات لا تتوافق مع متطلبات "السياسة الجديدة". والآن صار ما كان في الماضي تخمينًا دليلًا قاطعًا بموجب هذه التعليقات. أرسل لي الرفيق أندرييتشين صفحةً من عددٍ فبراير من الصحيفة الأمريكية "ذا ناشين". وبعد تلخيصٍ سريع للأحداث السريعة لدينا، قالت الصحيفة اليسارية الديمقراطية:

"تضع الأحداث سؤالًا هامًا في الصدارة: من يمثِّل استمرار البرنامج البلشفي في روسيا؟ وما هو رد الفعل الحتمي إزاءه؟ بالنسبة للقارئ الأمريكي، يبدو كما لو أن لينين وتروتسكي يمثِّلان نفس الشيء، وأن الصحافة المُحافِظة والمُتحدِّثين الرسميين يتبنون نفس أطروحاتهما.

وهكذا كانت صحيفة نيويورك تايمز مُبتهجةً ليلة رأس السنة بطرد تروتسكي من الحزب الشيوعي، معلنةً بشكلٍ قاطعٍ أن "المعارضة المطرودة تدافع عن تخليد الأفكار والظروف التي فصلت روسيا عن الحضارة الغربية". وعلىٰ غرار ذلك كتبت أيضًا أغلبية الصحف الأوروبية. جاء علىٰ لسان السير تشامبرلان، أثناء مؤتمر جينيف، أن إنجلترا لم تتمكَّن من إجراءِ محادثاتٍ مع روسيا لسببٍ بسيط هو أن "تروتسكي لا يزال حيًا". لابد أنه سعيدٌ الآن بنفي تروتسكي. علىٰ أيةِ حال، يعبِّر لسان حال الرجعية في أوروبا عن استنتاجهم النهائي الذي

يتلخَّص في أن تروتسكي، وليس ستالين، هو عدوهم الشيوعي الرئيسي (صحيفة ذا ناشين - 1 فبراير 1928)".

هذا بليغٌ بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟".

وها هي بعض البيانات الإحصائية من مذكراتِ ابني:

"في الفترة من أبريل حتىٰ أكتوبر 1928، أرسلنا من ألما آتا حوالي 800 خطابًا سياسيًا، من ضمنهم خطابات قليلة كبيرة نسبيًا. أما البرقيات فبلغت حوالي 550 برقية. تلقينا حوالي 1000 خطابًا سياسيًا، بين الطويل والقصير، وما يقرب من 700 برقية، أغلبها من مجموعاتٍ من الأشخاص. كانت بعض الخطابات تشق طريقها إلىٰ داخل روسيا. ومن الرسائل التي أُرسلَت إلينا، لم نتلق فعليًا، حتىٰ في أفضل الأشهر، أكثر من نصفها. لكن، بالإضافة إلىٰ ذلك، تلقينا ثماني أو تسع رسائل سرية من موسكو؛ خطابات سرية نتلقاها من رُسُلٍ سريين. ونفس العدد من الرسائل تقريبًا بعثنا بها بنفسِ الطريقةِ إلىٰ موسكو. أخبرتنا مثل هذه الرسائل بكل ما يجري هناك، ومكَّنتنا، رغم الكثير من التأخير، من الرد بتعليقاتنا حول أهم الأحداث.

وبحلول الخريف، ساءت صحتي بشكلٍ أكبر. ووصلت الشائعات إلىٰ موسكو، فبدأ العمال يطرحون الموضوع في اجتماعاتهم، فقرَّرَ الصحفيون الرسميون أن الطريقة المُثلىٰ للتعامل مع الأمر هو أن يصوِّروا صحتي في أحسنِ حالة".

وفي 20 سبتمبر، أرسلت زوجتي نص الخطاب التالي إلىٰ أوجلانوف، الذي كان آنذاك أمينًا عامًا لمنظمة الحزب في موسكو:

"في كلمتك أمام الجلسة العامة للجنة موسكو تحدَّثت عن أن مرض زوجي، ليف دافيدوفيتش، ليس إلا زيفًا. وردًا علىٰ احتجاجاتِ الكثير من الرفاق، صحت فيهم ساخطًا: "هذه هي الأداءات التي تلجأون إليها". أنت اعتبرت أن ما تتحدَّث عنه من أداءاتٍ غير لائقةٍ لا يصدر من الرجال الذين أطاحوا بمعاوني لينين واستبعدوهم، بل من أولئك الذين يحتجون ضد ذلك. علىٰ أي أساسٍ وبأي حقٍ تُخبِر الحزب، والعمال، والعالم أجمع، بأن التقارير الواردة بخصوص مرض ليف دافيدوفيتش زائفة؟

في الحقيقة أنت بذلك تخدع الحزب، إذ تتضمَّن أراشيف اللجنة المركزية بعضًا من التقارير التي أعدَّها أفضل أطبائنا حول حالة ليف دافيدوفيتش الصحية، علاوة علىٰ أن الكثير من الاستشارات الطبية كان قد أُجرِيَت تحت إشراف فلاديمير إيليتش نفسه، وهو الذي كان يُظهِر اهتمامًا بالغًا بصحة ليف دافيدوفيتش. وتفيد هذه الاستشارات، التي أُجرِيَ بعضها حتىٰ بعد وفاة فلاديمير إيليتش، بأن ليف دافيدوفيتش يعاني من التهاب القولون والنقرس. وربما تعلم أن في مايو 1926 خضع ليف دافيدوفيتش لعمليةٍ جراحيةٍ في برلين للتخلُّصِ من الحرارةِ المرتفعة التي عذَّبته لسنواتٍ طوال، لكنها لم تُخفِّف عنه العذاب.

التهاب القولون والنقرس ليسا من الأمراضِ التي يمكن الشفاءُ منها، خاصةً في ألما آتا. ومع مرورِ السنين، تتدهور الأمور إلىٰ الأسوأ.

لا يمكن الحفاظ علىٰ الصحةِ عند مستوىٰ معين إلا فقط من خلال نظامٍ صحيٍ سليم وتلقي نوعية العلاج الصحيح، لكن من المستحيل الحصول علىٰ أيٍّ منهما في ألما آتا. ولكي تفهم ما هو هذا النظام الصحي وهذا العلاج الصحيح، الضروريَّين من أجله، لعل من الأنسب أن تسأل مُفوَّض الشعب لشئون الصحة، سيماشكو، الذي شارَكَ عدة مراتٍ في الاستشارات التي أمَرَ بها فلاديمير إيليتش. وبالإضافةِ إلىٰ ذلك، سَقَطَ ليف دافيدوفيتش هنا ضحيةً للملاريا، التي تؤثِّر بطبيعة الحال علىٰ التهاب القولون والنقرس، وغالبًا ما تُسبِّب صداعًا شديدًا. وبمجرد أن تتحسَّن صحته لأسابيع أو أشهرٍ قليلة، تتبعها المزيد من الأسابيع والأشهر التي يتدهور فيها في مرضٍ شديد.

لقد نفيتم ليف دافيدوفيتش بموجبِ المادة 8، باعتبار أنه "مناهضٌ للثورة". لعل من المفهوم أن تقول إن صحة ليف دافيدوفيتش لا تعنيك في شيء. في هذه الحالة، ستبدو متسقًا مع نفسك بذلك الاتساق الخطير الذي ما لم يوضع له حدٌّ فسيؤدي ليس فقط إلىٰ هلاكِ أفضل الثوريين، بل ربما أيضًا إلىٰ هلاكِ الحزبِ والثورةِ نفسها. لكن الآن من الواضح أنك، تحت ضغطِ الرأي العام للعمال، تفتقر إلىٰ الشجاعة اللازمة لهذا الاتساق. وبدلًا من القول أن لا شأن لك بمرضِ تروتسكي، تُنكِر

ببساطة أنه مريضٌ لأن ذلك يعفيك من الكثير من التفكيرِ والردِّ والكتابة.

يتصرَّف كالينين ومولوتوف وغيرهم بنفسِ الطريقةِ في بياناتهم وتصريحاتهم العلنية. وحقيقةُ أنك مُلزَمٌ الآن بالردِّ على تساؤلات الجماهير، وأنك تحاول التملُّص بهذا الأسلوب غير اللائق، تثبت أن الطبقة العاملة لا تُصدِّق التشهير السياسي بتروتسكي، ولن تُصدِّق أكاذيبك حول حالته الصحية".

ناتاليا إيفانوفا سيدوفا تروتسكايا".

الفصل الرابع والأربعون

الترحيل

في أكتوبر، حدث تغيُّرٌ حادٌ في وضعنا. توقفت المراسلات مع أصدقائنا الشخصيين والسياسيين، وحتىٰ مع أقاربنا في موسكو فجأة، إذ لم تكن تصلنا أية برقيات أو خطابات. وكما علمنا من مصادر خاصة، فقد راكَمَ مكتب التلغراف مئاتٍ عديدةً من البرقيات المُرسَلَة إليّ، بالأخص البرقيات المُرسَلَة في ذكرىٰ ثورة أكتوبر. كان الخناق يضيق علينا أكثر فأكثر.

خلال العام 1928، كانت المعارضة تنمو وتتوسَّع، رغم القمع المسعور الواقع عليها، خاصةً في المنشآت الصناعية الكبرىٰ. وكان من شأن ذلك أن يُصعِّد من الإجراءات الانتقامية المُتخذة ضد المعارضة، بما يتضمن إيقاف المراسلات بين المنفيين أنفسهم. بالطبع توقَّعنا إجراءاتٍ مشابهةً أن تحدث في المستقبل، ولم يَحِد هذا التوقُّع عن الصواب.

في 16 ديسمبر، أبلغني ممثلٌ خاص من الشرطة السرية، قادمًا من موسكو، بإنذارٍ أخير بأن أتوقف تمامًا عن توجيه المعارضة، وإن لم أفعل فستُتخَذ إجراءاتٌ "لعزلي عن الحياة السياسية". إلا أن مسألة ترحيلي خارج البلاد لم تكن مطروحة حتىٰ ذلك الوقت، فكما فهمت

كانت الإجراءات التي هم بصدد اتخاذها ذات طابع محلي ليس إلا. وللرد على ذلك الإنذار، أرسلت خطابًا للجنة المركزية للحزب والمجلس الرئاسي للأممية الشيوعية. وأعتقد أن من الضروري أن أقتبس هنا النقاط الأساسية من هذا الخطاب:

"اليوم، 16 ديسمبر، جاء إليّ ممثلٌ عن الشرطة السرية يُدعىٰ فولينسكي، وبالنيابةِ عن المؤسسةِ أبلغني هذا الإنذار الشفهي، حرفيًا تقريبًا: "إن نشاط متعاطفيك السياسيين في البلاد صار مؤخرًا يتخذ، بلا ريب، طابعًا مناهضًا للثورة، والظروف التي علىٰ خلفيتها تظل أنت هنا في ألما آتا تتيح لك فرصةً كاملةً لتوجيه هذا النشاط. وفي ضوءِ ذلك، قرَّرَت هيئة الشرطة السرية مطالبتك بوعدٍ قاطع بالتوقف عن نشاطك. وحال عدم توقفك عن ذلك، ستجد الهيئة نفسها مُلزمةً بتغيير شروط وظروف وجودك هنا إلىٰ حدٍّ عزلك تمامًا عن الحياة السياسية. وفي هذا الصدد، ستُطرَح مسألة تغيير مكان إقامتك".

أخبرت مُمَثِّل الشرطة السرية بأنني قد أسلِّمه ردًا مكتوبًا فقط إذا استلمت منه بيانًا مكتوبًا بإنذار الشرطة السرية. جاء رفضي تقديم أي ردٍّ شفهي بناءً علىٰ اعتقادي - بصرف النظر عن خبراتي السابقة - بأن ما سأقوله سيتعرَّض لتشويهٍ فج لتضليل الجماهير العاملة في الاتحاد السوفييتي وبقية العالم.

لكن، بصرف النظر أيضًا عن الإجراءات الإضافية التي ستتخذها الشرطة السرية – والتي في هذه الحالة لا تتصرَّف بشكلٍ مستقلٍ، بل أن كل ما تقوم به هو تفعيلٌ للقرار القديم لزمرة ستالين الضيقة، وأنا أعلم هذا القرار عن ظهرِ قلبٍ منذ أمد – أعتقد أن من الضروري هنا أن ألفت انتباه اللجنة المركزية للحزب الشيوعي لعامة الاتحاد السوفييتي، واللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية، إلىٰ ما يلي:

إن مطالبتي بالتوقف عن النشاط السياسي لهي مطالبةٌ بأن أتخلَّىٰ عن النضال من أجل مصالح البروليتاريا العالمية، ذلك النضال الذي ما انفككت عن شنِّهِ طوال اثنىٰ وثلاثين عامًا، أي علىٰ مدار حياتي الواعية بأسرها. أما محاولة تصوير نشاطي باعتباره "مناهضًا للثورة"، فيأتي من جانب أولئك الذين أتهمهم، أمام البروليتاريا العالمية، بتدنيس الأسس المبدئية لتعاليم ماركس ولينين، وبالتعدي الواضح علىٰ المصالح التاريخية للثورة العالمية، وبالتخلي عن تراث ومبادئ ثورة أكتوبر، وبالتجهيز للترميدور دون وعيٍ، وهو الأمر الأكثر تهديدًا.

إن إحجامي عن النشاط السياسي لهو بمثابةِ إنهاءٍ للنضال ضد العمىٰ الذي يقود الحزب الشيوعي في اتجاهه الراهن، مما يضيف إلىٰ الصعوبات الموضوعية في العمل من أجل تأسيس

الاشتراكية معوِّقاتٍ سياسيةٍ متزايدةٍ يخلقها العجز الانتهازي عن تطبيق السياسة البروليتارية علىٰ نطاقٍ تاريخي.

إنه بمثابة التخلي عن النضال ضد نظام الحزب الخانق الذي يعكس ضغطًا متناميًا من الطبقات المعادية علىٰ طليعة البروليتاريا. إنه بمثابة الإذعان السلبي للسياسة الاقتصادية للانتهازية، تلك السياسة التي تزعزِع ركائز ديكتاتورية البروليتاريا، وتقوِّض التقدُّم المادي والثقافي لهم، وفي الوقت نفسه تُسدِّد ضرباتٍ قاسية لوحدةِ العمال والفلاحين الكادحين الذين تشب سلطة السوفييت علىٰ كواهلهم.

لقد تحمَّل جناح لينين داخل الحزب وابلًا من الضربات منذ العام 1923، أي منذ الانهيار منقطع النظير للثورة الألمانية. وتزيد قوة هذه الضربات مع المزيد من الهزائم التي تُمنَىٰ بها البروليتاريا العالمية والسوفييتية بسببِ القيادة الانتهازية.

إن الاستدلال النظري والخبرة السياسية يشهدان بأن فترةً من الارتداد أو النكوص التاريخي قد تتبع ليس فقط ثورةً برجوازية، بل ثورةً بروليتارية أيضًا. ونحن الآن نعيش، منذ ست سنوات، في ظل ردةٍ رجعيةٍ ضد أكتوبر، وبالتالي في ظلِّ تمهيد الطريق للترميدور.

والتعبير الأوضح والأكمل عن هذه الردةِ الرجعية داخل الحزب إنما هو القمع الوحشي والتنكيل بالجناح اليساري في منظمة الحزب.

وفي محاولتها الأخيرة لمقاومة الترميدوريين حتىٰ النخاع، تعيش زمرة ستالين علىٰ فتات وبقايا أفكار المعارضة. إنهم عاجزون بصورةٍ عجيبة، والنضال ضد اليسار يحرمهم من الثبات والاستقرار. إنها ليست إلا سياسةً عملية، ما مِن عمودٍ فقريٍ لها، لذا فهي خاطئة، ومتناقضة، ولا يمكن الاعتماد عليها. أما الحملة التي تملأ الدنيا ضجيجًا ضد الخطر المُحدِق الآتي من جانب اليمين، فثلاث أرباعها زيف، بل إنها تقوم، في المقامِ الأول، بدورِ الغشاء الذي يغطي حرب الإبادة الحقيقية ضد البلاشفة اللينينيين أمام الجماهير. باركت البرجوازية العالمية، والمنشفية العالمية علىٰ حدٍّ سواء، هذه الحرب؛ أولئك الذين يرتدون ثوب القضاة ليحكموا بأن "صوابية التاريخ" تقف إلىٰ جوار ستالين.

لكن، بالنسبة لهذه السياسة العمياء والجبانة والحمقاء تمامًا من التكيُّف مع البيروقراطية والبرجوازية الصغيرة، سيكون وضع الجماهير العاملة في العام الثاني عشر من الديكتاتورية أكثر ملاءمةً بصورةٍ لا محدودة، والدفاع العسكري أقوىٰ وأوثق، وستقف الأممية الشيوعية علىٰ درجٍ أعلىٰ، بدلًا من

التراجع خطوةً فخطوة أمام الاشتراكية الديمقراطية الغادرة الخائنة.

يكمن الضعف المستعصي للردةِ الرجعيةِ التي يتصدًّرها جهاز الحزب، رغم قوتها البادية، في حقيقة أنهم "لا يدركون ما يفعلونه". إنهم ينفِّذون أوامر الطبقات العليا. ما مِن لعنةٍ تاريخيةٍ أكبر من تلك التي تُصَب علىٰ فصيلٍ حزبي ينهض من الثورةِ ليجهضها الآن.

أما القوة التاريخية الكبرىٰ للمعارضة، رغم ضعفها البادي، فتكمن في حقيقة أنها تُبقي أصابعها علىٰ نبض العملية التاريخية العالمية، أي أنها ترىٰ ديناميكيات القوىٰ الطبقية، وتتوخَّىٰ الغد وتستعد إليه بوعي. وإحجامي عن النشاط السياسي إنما يعني عزوفي عن الاستعداد للغد.

إن التهديد بتغيير ظروف حياتي، وعزلي عن النشاط السياسي، يُظهِر وكأنني لست منفيًا بالفعل علىٰ مسافة 400 كيلومتر من موسكو، و250 كيلومتر من خط السكك الحديدية، علىٰ حدود أقاليم الصحراء الغربية للصين، تلك المنطقة التي تسودها الملاريا الخبيثة، والجذام والطاعون. يبدو وكأن زمرة ستالين، التي تُعد الشرطة السرية جهازها الرئيسي، فقد فعلت كل ما في إمكانها لعزلي عن الحياة السياسية، وعن أي

حياةٍ أخرىٰ. تستغرق صحف موسكو من عشرة أيام إلىٰ شهرٍ كامل حتىٰ تصل هنا. وباستثناءات قليلة، تأتيني الخطابات بعد أن تقضي شهرًا، أو اثنين أو حتىٰ ثلاثة، في أدراج الشرطة السرية وأمانة اللجنة المركزية.

أُلقيَ القبض علىٰ اثنين من معاونيني من أيام الحرب الأهلية؛ الرفيقين سيرموكس وبوزنانسكي، اللذين غامرا من تلقاءِ نفسيهما بمرافقتي إلىٰ منفاي، بعد وصولهما علىٰ الفور، وزُجَّ بهما في زنزانةٍ مع جنائيين، ثم نُفِيا إلىٰ مناطق بعيدةٍ في الريف الشمالي. واستغرق خطابٌ أرسلته لي ابنتي، التي كانت حينها طريحة الفراش تصارع الموت، والتي طردتموها من الحزب وفصلتموها من عملها، سبع وثلاثين يومًا ليصلني من المستشفىٰ في موسكو، لذا لم يصلها ردي إلا وكانت في عدادِ الموتىٰ. وخطابٌ آخر عن الحالة الصحية الحرجة لابنتي الأخرىٰ، التي طردتموها هي الأخرىٰ من الحزب وفصلتموها أيضًا من عملها، لم يصلني إلا بعد شهرٍ كامل من إرساله، بعد ثلاثة وأربعين يومًا من رحيلي عن موسكو. والبرقيات التي كانت تُرسل للسؤال عن صحتي، في أغلب الأحيان لم تكن تصل أصلًا.

الآلاف من البلاشفة اللينينيين الذين لا غبار عليهم، والذين أدوا خدماتٍ للثورة وللبروليتاريا العالمية تفوق بمراحل ما

قدَّمه أولئك الذين يسجنوهم وينفوهم خارج البلاد، يُعانون نفس المعاناة، أو أسوأ.

وفي التخطيط لمزيدٍ من الانتقام ضد المعارضة، تزعم زمرة ستالين - الذي وَصَفَه لينين في "وصيته" بـ"الوقاحة والفظاظة والغدر"، في وقتٍ لم تكن هذه السمات قد أظهرت أكثر من واحد بالمائة منها حاليًا - أن هناك اتصالًا بين المعارضة وأعداء ديكتاتورية البروليتاريا، وتشاركها الشرطة السرية في هذا الزعم، بل وتساعدها في ذلك. وفي داخل حلقتهم الضيقة الصغيرة، يقول القادة الحاليين: "هذا ضروري للجماهير"، وأحيانًا علىٰ نحوٍ أكثر سخريةٍ: "هذا ضروري للحمقىٰ".

أُلقيَ القبض علىٰ معاوني الأقرب، جورجي فاسيليفيتش بوتوف، الذي تولىٰ أمانة اللجنة العسكرية الثورية للجمهورية السوفييتية طيلة سنوات الحرب الأهلية، واحتُجِزَ في ظروفٍ لا تُحتَمَل. هذا الرجل النقي المتواضع، العامل الحزبي الذي لا عيب فيه ولا نقص، لفَّقوا له اعترافًا، بروح الفبركة الترميدوري، تهمًا معروف مُسبَّقًا أنها مُلَفقةٌ وزائفة. وجاء رد بوتوف بطوليًا أن دخل في إضرابٍ عن الطعام استمر خمسين يومًا، وفي سبتمبر هذا العام وافته المنية في محبسه. عنفٌ وضربٌ وتعذيب - جسدي ومعنوي علىٰ حدٍّ سواء - كان يُصَب علىٰ أفضل العمال البلاشفة لرسوخهم علىٰ تعاليم

أكتوبر. هذه هي الظروف العامة التي، بحسبِ كلماتِ هيئة الشرطة السرية، "لا تمثِّل أي عقبةٍ" في الوقت الحالي أمام النشاط السياسي للمعارضة بشكلٍ عام، ولي بشكلٍ خاص.

إن التغيير المؤسف للظروف بالنسبةِ لي بغية المزيد من عزلي، ليس إلا قرارًا اتخذته زمرة ستالين باستبدال المنفىٰ بالسجن. هذا القرار، كما ذكرت آنفًا، لا يثير أية دهشةٍ أو عجب، إذا كان قد اتُخِذَ بالفعل من قبل في العام 1924، ووُضِعَ قيد التنفيذ التدريجي، خطوةً بعد أخرىٰ، حتىٰ يعتاد الحزب المقموع والمخدوع، بصورةٍ تدريجية، علىٰ أساليب ستالين، الذي اكتَمَلَ غدره ووقاحته بالتضليل البيروقراطي المسموم.

في "البيان" المُرسَل للمؤتمر السادس - وكأنني أتنبأ بالإنذار الذي تلقيته اليوم - كتبت حرفيًا:

"إن مطالبة ثوري بالتخلي عن نشاطه السياسي، ذلك النشاط الذي يصب في خدمة الحزب والثورة العالمية، لن تكون ممكنة إلا فقط لموظفٍ رسميٍ فاسدٍ تمامًا. المرتدون الحقيرون فقط هم القادرون علىٰ الوعد بمثل ذلك الأمر".

لن أغيِّر في أيٍ من هذه الكلمات... المُستَحَقَّة لكم جميعًا. أنتم تريدون الاستمرار في تنفيذِ سياساتٍ مُستَلهَمةٍ من قوىٰ

طبقية معادية للبروليتاريا. أما نحن، فنعرف واجبنا، وسنواصله حتىٰ النهاية".

ليون تروتسكي

16 ديسمبر 1928 – ألما آتا".

بعد هذا الرد، مضىٰ شهرٌ دون تغيير. كان تواصلنا مع العالم الخارجي لا يزال منقطعًا تمامًا، بما في ذلك مراسلاتنا السرية مع موسكو. وكلما كتبنا أكثر عن النضال ضد اليمين، توقعنا توجيه ضربةٍ أقوىٰ ضد اليسار. هذا هو أسلوب ستالين.

ظلَّ مبعوث الشرطة السرية، فولينسكي، في ألما آتا في انتظار التعليمات. وفي 20 يناير، جاء برفقةِ عناصر مُسلَّحة من الشرطة السرية، وأغلقوا مدخل البيت ومخارجه، ثم سلَّموني المُقتطف التالي من قرار هيئة الشرطة السرية في 18 يناير 1929:

"الموضوع: قضية المواطن ليف دافيدوفيتش تروتسكي، بموجب المادة 58/ 10 من القانون الجنائي، بتهمة النشاط المناهض للثورة الذي يعبِّر عن نفسه في تنظيمِ حزبٍ غير شرعي مناهضٍ للسوفييتات، وجَّهَ نشاطه مؤخرًا نحو التحريضِ علىٰ أعمالٍ مناهضة للسوفييتات والتحضيرِ لكفاحٍ مُسلَّحٍ ضد السلطة السوفييتية.

القرار: ترحيل المواطن ليف دافيدوفيتش تروتسكي من الأراضي التابعة للاتحاد السوفييتي".

وحين طُلِبَ مني لاحقًا التوقيع على ورقةٍ بأنني أُحِطت علمًا بالقرار، كتبت: "أُعلِمت بقرار الشرطة السرية، الإجرامي في المضمون وغير الشرعي في الشكل.

20 يناير 1929 - تروتسكي".

وصفت القرار بـ"الإجرامي" لأنه يتضمَّن كذبةً مُتعمَّدة في اتهامي بالإعداد لكفاحٍ مُسلَّح ضد السلطة السوفييتية. وهذه الصيغة، الضرورية لستالين من أجلِ تبرير قرار الترحيل، هي في حدِّ ذاتها بمثابةِ محاولةٍ فجَّةٍ لتقويض سلطة السوفييت. إذا كان صحيحًا أن المعارضة، التي يرشدها منظِّمو ثورة أكتوبر وقادة الجمهورية السوفييتية والجيش الأحمر، تُعد العدة للإطاحة بسلطةِ السوفييت بقوةِ السلاح، فهذه وحده كافيًا بأن يُلقي بالبلادِ في التهلكة. لحُسن الحظ أن صيغة الشرطة السرية هنا ليست إلا كذبةً وقحة. نحن مقتنعون تمام الاقتناع بالحيوية العميقة والمرونة التي يتمتَّع بهما النظام السوفييتي، ومسارُنا هو مسار إصلاحٍ داخلي.

حين سألت كيف وأين سأُرحَّل، تلقيت إجابةً بأن مُمَثِّل الشرطة السرية سيخبرني بذلك في روسيا الأوروبية حين يلقاني هناك. استُغرِقَ اليوم التالي بأكمله في تعبئة أغراضنا وأمتعتنا، بالأخص الكتب

والمخطوطات. وبالمناسبة، ربما تَجدُر بي ذكر أنه لم تكن هناك أية إشارات عدائية تجاهي من قِبَلِ عناصر الشرطة السرية علىٰ الإطلاق، بل علىٰ العكس.

في فجر يوم 22 يناير، تحرَّكت مع زوجتي وابني مع الحرس إلىٰ حافلةٍ تحرَّكت بنا عبر طريقٍ سلسٍ وثابت من الثلوج إلىٰ سلسلة جبال كورداي. وفي ذروة رحلتنا، تساقَطَت ثلوجٌ كثيفة وهبَّت ريحٌ عاتية. غاص الجرَّار الضخم الذي كان يسحب السيارات عبر جبال كورداي في الثلوج حتىٰ أعلاه، وكذلك السيارات بالطبع. وخلال العواصف الثلجية العنيفة، تجمَّد سبعة رجال حتىٰ الموت، وكذلك الكثير من الأحصنة.

أجبرنا هذا الظرف العسير علىٰ استخدام الزلَّاجات. واستغرق منَّا الأمر حوالي سبع ساعاتٍ للتقدُّم نحو 30 كيلومترًا فقط. وعلىٰ طول الطريق المُغطىٰ بطبقاتٍ عاليةٍ من الثلوج، قابلنا علىٰ جانبي الطريق زلَّاجاتٍ ومهاوٍ، وموادًا لا حصرَ لها المُفترَض استخدامها في مدِّ خط السكة الحديدية التركستانية السيبيرية، والكثير من صهاريج الكيروسين، كلهم مدفونون في الثلوج. احتمىٰ الرجال والأحصنة من العواصف الثلجية التي ما انفكَّت تضربنا بمخيَّمات القرغيزيين الشتائية.

وعلىٰ الناحية الأخرىٰ من الجبال، استقللنا سيارةً، ثم قطارًا في بيشبك. كشفت الصحف، مما كانت تصل إليها أيدينا في الطريق، عن إعدادِ الرأي العام لترحيل قادة المعارضة إلا بلادٍ أجنبية. وفي مقاطعة أكتيوبنسك، أُرسِلَت برقيةٌ تقضي بأن موقع ترحيلي سيكون القسطنطينية. طالبت برؤية اثنين من أفرادِ عائلتي في موسكو؛ ابني الآخر سيروجا وزوجة ليوفا. أحضروهما إلىٰ محطة رياجسك، وفرضوا عليهما نفس ما فرضوا علينا من إجراءات. حاول المُمَثِّل الجديد للشرطة السرية، بولانوف، أن يقنعني بمميزات القسطنطينية، لكنني رفضت كل ما قال قطعًا وحسمًا. واصَلَ بولانوف محادثاته المباشرة مع موسكو، وهناك كل شيءٍ كان مُتوقَّعًا، فيما عدا رفضي أن أذهب إلىٰ الخارج طواعيةً.

تحرَّكَ قطارنا ببطء، منحرفًا عن الاتجاهِ الذي من كان من المُفترَض أن يسير فيه، ثم توقَّفَ علىٰ رصيفِ محطةٍ صامتةٍ كالقبر، وهناك دَخَلَ في سباتٍ عميق علىٰ القضبان. مرَّ يومٌ بعد آخر، والعلب الفارغة حول القطار تتزايد باطراد، وأسراب الغربان والعَقاعِق تأتي من كل حدبٍ وصوب احتفالًا بهذا العيد من المخلَّفات. نفاياتٌ.. وعزلة.

لم تكن ثمة أرانب برية حولنا، فقد قُضِيَ عليهم بحلول الخريف بعد أن تفشَّىٰ بينهم وباءٌ جامح، وبالتالي لم تكن هناك ثعالب أيضًا. كان محرِّك القطار يعمل بعربةٍ واحدةٍ فقط للذهاب إلىٰ محطةٍ أكبر لإحضار وجبات الغذاء والصحف. أما عربتنا نحن، فقد اجتاحتها

الأنفلونزا. أعدنا قراءة أعمال أناتول فرانس، وكليوتشيفسكي عن تاريخ روسيا. وهناك تعرَّفت لأولِ مرةٍ علىٰ أعمال إستراتي[28]. وصلت الحرارة إلىٰ أقل من عشرِ درجاتٍ تحت الصفر، وظلَّ المحرَّك يروح ذهابًا ومجيئًا علىٰ القضبان كي لا يتجمَّد. علمنا فيما بعد من كثيرين أنهم كانوا يسألون عبر الأثير عن موقعنا، لكن وقتها لم ينم إلىٰ علمنا شيءٌ كهذا، فقد كنَّا منشغلين بلعب الشطرنج. وحتىٰ إن سمعنا شيئًا، فلم نكن لنجيب، لأننا وصلنا ليلًا وحقًا لم نكن نعلم أين نحن.

وهكذا قضينا اثنىٰ عشر يومًا وليلة. وعلمنا من الصحف عن حملةٍ جديدةٍ من الاعتقالات شملت المئات، من بينهم 150 شخصًا ممن أُطلِقَ عليهم "المركز التروتسكي". وتضمنَّت الأسماء المنشورة كلًا من كافتارادزه، الرئيس السابق لمجلس مفوَّضي الشعب في جورجيا، ومديفاني، المُمَثِّل التجاري السابق للاتحاد السوفيتي في باريس، وفورونسكي، ناقدنا الأدبي الأفضل علىٰ الإطلاق، وآخرين – وكلهم أعضاءٌ قدامىٰ بالحزب، وقادة لثورةِ أكتوبر.

---

[28] رغم أن الكاتب والروائي الروماني بانيت إستراتي (1884 – 1935) لم يكن يؤمن بأفكار الكاتب، ولم يكن يعرفه كذلك، إلا أن آراءه المعارِضة لتوجهات ستالين، والتي لخَّصها عام 1929 في كتابه "اعترافات فاشل" بعد زيارته للاتحاد السوفيتي، جعلت أصدقاءه الشيوعيين القدامى يصفونه بـ"التروتسكي"، و.. "الفاشي". (المترجم)

وفي 8 فبراير، أخبرني بولانوف أن "رغم كل الجهود التي تبذلها موسكو، رفضت الحكومة الألمانية بصورةٍ قاطعة قبولك في ألمانيا. التعليمات الأخيرة لديّ الآن هي أن أصل بك إلىٰ القسطنطينية".

فقلت له: "لكنني لن أذهب إلىٰ هناك طواعيةً، وسأقول ذلك علىٰ الحدود التركية".

فقال: "لن يغيِّر هذا من الأمرِ شيئًا، سأذهب بك إلىٰ تركيا في كل الأحوال".

فسألته: "إذن فقد عقدتم صفقةً مع الشرطة التركية لترحيلي القسري إلىٰ هناك؟".

فردَّ بإيماءةٍ مُراوغةٍ للتملُّص من الإجابة: "نحن فقط ننفِّذ الأوامر".

بعد توقفٍ دام اثنىٰ عشر يومًا، بدأ قطارنا الصغير يتحرَّك بعدما اكتظَّ بعددٍ كبيرٍ من الحرَّاس. وطوال رحلتنا، حتىٰ منذ أن استقللنا القطار في بيشبك، لم يكن مسموحًا لنا مغادرة عربتنا. الآن، نسير بأقصىٰ سرعةً نحو الجنوب، نتوقف فقط في المحطات الصغيرة لنتزوَّد بالماءِ والوقود. وجاءت كل تلك المحاذير القصوىٰ علىٰ خلفية ذكريات مظاهرة موسكو التي نُفِيت علىٰ إثرها في يناير 1928. كانت وقتذاك الحملة الجديدة ضد التروتسكيين تتردَّد أصداؤها بين سطور الصحف التي تلقيناها في الطريق. كانت تلك الصحف تنضح بصراعٍ

جليّ في المجموعات العليا إزاء قضية ترحيلي. كانت زمرة ستالين في عجلةٍ من أمرها، وبالطبع كان وراء ذلك سببٌ وجيه، إذ لم يكن عليهم تجاوز العقبات السياسية، بل عقبات التواجد الجسدي نفسه أيضًا.

خُصِّصَت الباخرة "كالينين" لتُقلّنا من أوديسا، لكنها تجمَّدت في الجليد، وباءت كافة الجهود لتحطيم الجليد من حولها بالفشل. لكن القيادة في موسكو كانت علىٰ خط التلغراف وتلحّ علىٰ إنجاز الأمر سريعًا، فبدأت الباخرة "إيليتش" في العمل بالأمر المباشر العاجل. كان قطارنا قد وصل بالفعل إلىٰ أوديسا ليلة 10 فبراير، وكنت أسترق النظر من النافذة علىٰ الأماكن المألوفة التي قضيت بينها أعوامًا سبعة من حياتي المدرسية في هذه المدينة. استقللنا سيارة توقَّفَت بنا أمام الباخرة بالضبط. كان البرد قارسًا، ورغم تأخُّر الساعة، كان رصيف الميناء مُحاصَرًا بقواتٍ وعناصر من الشرطة السرية. وهنا، ودَّعت ابني الأصغر وزوجته. وبينما كنَّا نُطِل من النافذة علىٰ الباخرة التي في انتظارنا، تذكَّرنا تلك الباخرة التي كانت، هي الأخرىٰ، تُقِلَّنا إلىٰ غيرِ مقصدنا. كان ذلك في مارس 1917، في هاليفاكس، حين حمَلَني رجال الشرطة البحرية البريطانية علىٰ أكتافهم، أمام أعين حشدٍ من الرُكَّاب، علىٰ متن الباخرة النرويجية "كريستيانيافجورد". كانت عائلتنا هي نفسها في ذلك الوقت؛ فقط أصغر بإثنىٰ عشر عامًا.

أبحرت الباخرة إيليتش، التي لم تكن تحمل أي شحناتٍ بضائع أو رُكَّاب، في الواحدة صباحًا. ضَرَبَتنا العاصفة التي كانت تلوح في الأفق بأجنحتها الضارية. وفي 12 فبراير، وصلنا مضيق البوسفور. وحين صَعَدَ رجال الشرطة التركية علىٰ متن الباخرة في بويوكدير لتفتيش الرُكَّاب (لم يكن معي وعائلتي وعملاء الشرطة السرية أي رُكَّابٍ علىٰ الإطلاق)، سلَّمتهم البيان التالي ليبعثوه إلىٰ رئيس الجمهورية التركية، كمال باشا:

"السيد كمال باشا،

علىٰ أبوابِ القسطنطينية، أتشرَّف بأن أُخبركم أنني لم أصل هنا إلىٰ الحدودِ التركيةِ بإرادتي، وأنني سأعبر هذه الحدود فقط بعد خضوعي لما فُرِضَ عليّ من قوةٍ.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

ليون تروتسكي

12 فبراير 1929".

لم يسفر بياني هذا عن أيٍّ نتيجة. واصلت الباخرة مسيرها حتىٰ الميناء. وبعد رحلةٍ استمرت 22 يومًا، قطعنا خلالها 600 كيلومترًا، وجدنا أنفسنا أخيرًا في القسطنطينية.

الفصل الخامس والأربعون

كوكبٌ بلا تأشيرة

ا

هكذا وجدنا أنفسنا في القسطنطينية؛ أولًا في مبنىٰ القنصلية، ثم بعد ذلك في شقةٍ خاصة. إليكم بضع سطورٍ من مذكرات زوجتي تتناول فيهم الفترة الأولىٰ لنا هناك:

"ربما من غير المجدي الخوض في مغامراتنا الصغيرة خلال فترةٍ مكوثنا في القسطنطينية. سأكتفي هنا بتفاصيل فصلٍ واحدٍ من هذه الفترة. كنَّا لا نزال علىٰ متنِ القطار في الطريق إلىٰ أوديسا. وكان مُمَثِّل الشرطة السرية، بولانوف، يضع شتىٰ أشكال الاعتبارات، عديمة الجدوىٰ تمامًا، المتعلِّقة بسلامتنا بالخارج، فقاطعه ليف دافيدوفيتش بهذه الكلمات: "كان من الأفضل أن تسمحوا لمعاونيَّ، سييرموكس وبوزنانسكي، بالذهاب معي. كان هذا الأمر هو الوحيد الذي يمكن أن يجدي نفعًا". بَعَثَ بولانوف بهذه العبارة علىٰ الفور إلىٰ موسكو. وفي إحدىٰ المحطات، جاء لنا زاهيًا، وكأنه حقَّقَ نصرًا مبينًا، وقال إن هيئة الشرطة السرية بعثت برقيةً توافق فيها علىٰ الطلب – بعد موافقة المكتب السياسي للحزب. ضحك ليف دافيدوفيتش قائلًا: "سوف تخدعوننا علىٰ أيةِ

حال". فحَملَقَ بولانوف، الذي بدت هذه الكلمة جارحةً له حقًا، وقال: "إذن يمكنك أن تدعوني وغدًا".

فردَّ ليف دافيدوفيتش: "ولماذا أهينك؟ ليس أنت من سيخدعنا، بل ستالين". ولدىٰ وصولنا إلىٰ القسطنطينية، استفسَرَ ليف دافيدوفيتش عن سييرموكس وبوزنانسكي، وبعد بضعةِ أيامٍ، جاء مُمَثِّلٌ من القنصلية ببرقيةِ ردٍّ من موسكو: "لن يُطلق سراحهما، والأمر نفسه ينطبق علىٰ آخرين".

فور وصولنا إلىٰ القسطنطينية، غمرنا تيارٌ هائلٌ من الشائعات والافتراضات والاختلاقات البيِّنة، من خلال الصحف، حول مصيرنا. ولِمَ لا؟ فالصحف تصدر علىٰ الدوام، لا تقبل أية ثغراتٍ في المعلومات التي تقدِّمها، وإن وُجِدَت، تملأها بما تختلق من شائعات. الطبيعة نفسها تنثر أكوامًا من البذور في تيارات الريح كي تنمو بذرةٌ واحدة، والصحافة تعمل علىٰ نفس النهج. إنها تلتقط الشائعات وتنشرها، وبذلك تضاعفها إلىٰ ما لا نهاية. وتندثر المئات والآلاف من التقارير قبل أن تترسخ التقارير الحقيقية وتفرض نفسها. أحيانًا لا يحدث ذلك إلا بعد سنواتٍ طوال. لكن، أحيانًا أيضًا، لا تظهر الحقيقة أبدًا.

لكن الأمر المذهل هنا، في بعض الحالات التي تمس الرأي العام بعمق، هو قدرة المرء على الكذب. وما أقوله هنا ليس مدفوعًا بامتعاضٍ أخلاقي، بل ببساطة بقول الحقيقة. إن الدافع وراء الكذب، والاعتياد عليه، يعكس في الحقيقة التناقضات الكامنة في حياتنا. يمكن للمرء أن يقول إن الصحف تخبرنا بالحقيقة فقط كاستثناءٍ عن القاعدة. ولا أقصد بذلك الإساءة إلى الصحفيين، فهم ليسوا مختلفين تمامًا عن غيرهم من الناس، لكنهم أبواقًا هائلة تعبِّر عنهم وعمًّا بينهم من تناقضات.

كتب زولا ذات مرة عن الصحافة المالية الفرنسية أنه يمكن تقسيمها إلى فئتين: الأولى مرتشية، والثانية يمكن تسميتها بـ"العفيفة"، التي تبيع نسخها فقط في حالاتٍ استثنائية وبأسعارٍ مرتفعةٍ للغاية. شيءٌ من هذا القبيل ينطبق كذلك على كذب الصحافة بشكلٍ عام. الصحف الصفراء تكذب بطبيعة الحال، دون أي تردُّد، ودون حتى أن تنظر وراء ظهرها. أما صحفٌ مثل "ذا تايمز" أو "لو تيمب"، فتذكر الحقيقة بالفعل، لكن فقط في الأحداث الهامشية وغير الهامة، لتضليل الجمهور إذا تطلَّب الأمر.

نشرت "ذا تايمز" مؤخرًا تقارير تفيد بأنني وصلت إلى القسطنطينية بتدبيرٍ من ستالين من أجل الإعداد لغزوٍ عسكريٍ لبلدان الشرقِ الأدنى. وهكذا يصوِّرون ست سنواتٍ من الصراع بيني وبين رجال الصف الثاني ككوميديا يتوقَّعون فيها الفصول المقبلة من هذا

الصراع. لعل بعض المتفائلين يتساءلون: "من قد يصدِّق ذلك؟". لكنهم مخطئون؛ الكثيرون سيصدِّقون. ربما لن يصدِّق تشيرشل صحيفته، لكن كلاينس بكل تأكيد سيصدِّقها بالكامل، أو علىٰ الأقل نصف ما تنقله علىٰ صفحاتها. هذا ما يشكِّل آليات عمل الديمقراطية الرأسمالية، أو، كي أتحرَّىٰ الدقة، أحد أعمدتها الرئيسية. هذا فقط بشكلٍ عابر، وسنأتي لاحقًا لمناقشة أمر كلاينس.

وبعد فترةٍ قصيرةٍ من وصولي إلىٰ القسطنطينية، قرأت في واحدةٍ من صحفِ برلين خطبة رئيس الرايخستاج[29] الذي ألقاها بمناسبة الذكرىٰ العاشرة لانعقاد جمعية فايمر الوطنية، وقد اختتمها بالعبارة التالية: "ربما علينا حتىٰ أن نمنح السيد تروتسكي الحق الديمقراطي في اللجوء (تصفيقٌ عاصفٌ من الأغلبية)".

فاجئتني هذه الكلمات بشدة، إذ كان كلُّ شيءٍ من قبل قد وفَّر لي ما يكفي من الأسباب لأعتقد أن الحكومة الألمانية قرَّرَت عدم قبولي علىٰ أراضيها. بالطبع لم يكن هذا ما قاله لي عملاء الحكومة السوفييتية. وفي 15 فبراير، دعوت مُمثِّل الشرطة السرية الذي رافقني إلىٰ القسطنطينية، وقلت له: "لابد لي أن أستنتج أن المعلومات التي قلتها لي كانت زائفة. ألقىٰ رئيس الرايخستاج كلمته هذه في 6 فبراير، أما نحن فأبحرنا من أوديسا إلىٰ تركيا في ليلة 10 فبراير، في حين كانت

---

[29] البرلمان الألماني. (المترجم)

موسكو علىٰ علمٍ بهذه الخطبة في ذلك الوقت. أطالبك بأن ترسل علىٰ الفور برقيةً إلىٰ موسكو تقترح فيها بموجب خطبة رئيس الرايخستاج أن يطلبوا من برلين أن تمنحني تأشيرةً لعبورِ حدودها. سيكون ذلك أقل خزيًا من الدسيسة التي من الواضح أن ستالين قد حاكها حول مسألة قبولي في ألمانيا".

وبعد يومين، أرسل لي مُمَثِّل الشرطة السرية الرد التالي: "في ردٍّ علىٰ برقيتي إلىٰ موسكو، تلقيت تأكيدًا علىٰ أن الحكومة الألمانية قد رفضت بالقطع المبين أن تصدر لك تأشيرةً حتىٰ في بداية فبراير، وبالتالي فإن طلبًا جديدًا لن يجدي أي نفع؛ وما وَرَدَ علىٰ لسانِ رئيس الرايخستاج لم يكن إلا كلماتٍ غير مسئولة. إذا أردت أن تتحقَّق من ذلك، يمكنك التقديم علىٰ تأشيرةٍ بنفسك".

لكن هذه الرواية لم تبدُ لي قابلةً للتصديق، فلقد اعتبرت أن رئيس الرايخستاج في وضعٍ أفضل، بطبيعة الحال، من عملاء الشرطة السرية ليعرف نوايا حزبه وحكومته. وفي اليومِ التالي، أرسلت لرئيس الرايخستاج لأخبره بأنني، بموجب ما صَدَرَ منه، تقدَّمت للقنصلية الألمانية بطلبِ تأشيرةٍ لدخول بلاده. أما الصحافة الديمقراطية والاشتراكية الديمقراطية، فقد وجدت لذةً خبيثة في الإشارةِ إلىٰ حقيقةِ أن أحد المؤمنين بالديكتاتورية الثورية قد أُجبِرَ علىٰ طلبِ اللجوءِ لبلدٍ ديمقراطي. بعضهم حتىٰ تمادىٰ ليعبِّر عن أمله في أن من شأنِ هذا الدرس أن يُعلِّمني، علىٰ نحوٍ أفضل، أن أفي مؤسسات الديمقراطية

حقها في التقدير. لكن، لم يبق شيءٌ أمامي سوىٰ أن أنتظر لأرىٰ كيف سيثبت هذا الدرس نفسه حقًا.

لابد أن الحق الديمقراطي في اللجوء السياسي ليس مُتضمَّنًا لدىٰ حكومةٍ تُظهِر كرم ضيافتها لأناسٍ يحملون رؤىٰ شبيهةً برؤاها، وليس مُتضمَّنًا كذلك حتىٰ في الديمقراطيات التي تقبل المنفيين فقط بإذنٍ من ذات الحكومة التي نفتهم، بل إنه يتمثَّل - فقط علىٰ الورق - في أن تقدِّم حكومةٌ الملاذ حتىٰ لخصومها، شريطة أن يحترموا تشريعاتها وقوانينها. وبالطبع لم أكن لأدخل ألمانيا إلا كخصمٍ عنيدٍ للحكومة الاشتراكية الديمقراطية هناك.

في حواري مع مُمَثِّلي الصحافة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية الذين دعوني لأجل هذا الغرض، قدَّمت لهم ما طلبوه من تفسيراتٍ ضرورية أقتبس منها هنا تمامًا كما دوَّنتها علىٰ الفور بعدما فرغت من المقابلة:

"إنني إذ أتقدَّم الآن بطلبٍ لقبولي في ألمانيا، التي يُشكِّل الاشتراكيون الديمقراطيون أغلبية حكومتها، أرغب بالأساس في توضيح موقفي تجاه الاشتراكية الديمقراطية. لم يتغيَّر شيءٌ في هذا الصدد. موقفي تجاه الاشتراكية الديمقراطية هو نفسه كما كان في السابق. أضيفوا إلىٰ ذلك أن نضالي ضد الفصيل الوسطي الذي يمثِّله ستالين ليس إلا انعكاسًا لنضالي

العام ضد الاشتراكية الديمقراطية. لست بحاجةٍ إلىٰ أي قدرٍ من الإبهامِ أو الغموض، ولا أنتم كذلك.

تجاول بعض الإصدارات الاشتراكية الديمقراطية أن تكشف تناقضًا بين موقفي من مسألة الديمقراطية وطلبي للقبول في ألمانيا. لكن ليس ثمة تناقض في الأمر. نحن لا "ندين" الديمقراطية أبدًا كما "يدينها" الفوضويون شفهيًا. للديمقراطية البرجوازية مميزاتٌ يمكن استنباطها من مقارنتها بأشكال الدولة التي سبقتها. لكنها ليس أبدية. لابد أن تفضي إلىٰ مجتمعٍ اشتراكي. وديكتاتورية البروليتاريا هي الجسر الذي يعبر إلىٰ المجتمع الاشتراكي.

في كل البلدانِ الرأسمالية، يشارك الشيوعيون في الصراعات البرلمانية. وليس ثمة فرقٌ في المبدأ بين استخدام الحق في اللجوء، واستخدام الحق في الاقتراع، وحرية الصحافة، والتجمع، وهكذا".

وبقدرِ ما أتذكَّر، لم يُنشر هذا الحوار مطلقًا. وليس هناك ما يدعو للدهشة في الأمر. في هذه الأثناء، تتعالىٰ الأصوات في الصحافة الاشتراكية الديمقراطية للإصرار علىٰ ضرورة منحي الحق في اللجوء. وتقدَّم أحد المحامين الاشتراكيين الديمقراطيين، وهو الدكتور روزنفيلد، بمبادرةٍ فرديةٍ، ليتولَّىٰ بنفسه مهمة التوسُّط نيابةً عني بغرضِ

تأمين قُبولي في ألمانيا. لكنه في نهاية المطاف واجه الكثير من المصاعب، وأرسل لي برقيةً بعد أيامٍ معدودات ليسألني عن القيود التي أقبل الخضوع لها أثناء بقائي في ألمانيا. فرددت قائلًا: "أنتوي العيشَ في عزلةٍ تامة خارج برلين، مع عدم التحدُّث في اجتماعاتٍ عامة، وأن أحصر نفسي في العمل الأدبي ضمن حدود القوانين الألمانية".

إذن، فالأمر لا يتعلَّق هنا بالحق "الديمقراطي" في اللجوء، بل بالحق في الإقامة في ألمانيا "وفق شروطٍ استثنائية". وهكذا آل الدرس الذي ودَّ خصومي تلقيني إياه في الديمقراطية، في نهايةِ المطاف، إلىٰ تفسير هذه القيود وتلك. لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فبعد بضعةِ أيام تلقيت برقيةً بالاستفسار التالي: "هل تقبل المجيء إلىٰ ألمانيا فقط بغرضِ الاستشفاء الطبي؟". فجاء ردي: "أطالب بمنحي علىٰ الأقل إمكانية البقاء في ألمانيا لتلقي دورةٍ علاجية ذات ضرورة قصوىٰ لصحتي".

وهكذا انكمش الحق في اللجوء السياسي في هذه المرحلة إلىٰ "الحق في العلاج". أعددت قائمةً بعددٍ من الأطباء الألمان المعروفين الذين تلقيت علىٰ أيديهم العلاج خلال العقد الماضي، والذين أحتاج مساعدتهم أكثر من أي وقتٍ مضىٰ.

ومع اقترابِ عيد الفصح، تردَّدَت أصداءُ نغمةٍ جديدةٍ في الصحافة الألمانية، ففي أروقة الحكومة صار الرأي السائد هو أن تروتسكي ليس مريضًا للغاية هكذا كي يكون في حاجةٍ لمساعدة أطباء ألمان أو لأن يمكث في منتجعٍ علاجي. وفي 31 مارس، راسلت الدكتور روزنفيلد قائلًا:

"وفقًا لتقاريرِ الصحف، فإن مرضي ليس ميئوسًا منه إلىٰ هذه الدرجة التي تتطلَّب حصولي علىٰ قبولٍ في الأراضي الألمانية. لذا فسؤالي هو: هل عَرَضَ عليّ رئيس الرايخستاج "الحق في اللجوء"، أم "الحق في الدفن"؟

أنا مستعدٌ لأن أخضع لأي فحصٍ طبي أمام أي لجنةٍ طبية. وأتعهَّد بأن أرحل عن ألمانيا مع انتهاء موسم المنتجع العلاجي".

وهكذا، بهذه الطريقة، مُزِّقَ المبدأ الديمقراطي إربًا لثلاث مرات في غضونِ أسابيع قليلة. اختُزِلَ حق اللجوء السياسي أولًا إلىٰ الحق في الإقامة بشروطٍ تقييدية خاصة، ثم إلىٰ الحق في العلاج، وفي النهاية اقتصر علىٰ الحق في الدفن. لكن هذا يعني أنني لن أفي الديمقراطية كامل تقديرها إلا وأنا جثةٌ هامدة.

لم أتلق أي ردٍّ علىٰ برقيتي. وبعد انتظارٍ دام بضعة أيام، أرسلت برقيةً أخرىٰ إلىٰ برلين: "غياب الرد هو شكلٌ غادرٌ للرفض". وفقط

بعد ذلك، في 12 أبريل، أي بعد شهرين كاملين، تلقيت ردًا يفيد بأن الحكومة الألمانية رفضت طلبي للقبول في أراضيها، فلم يبق أمامي شيءٌ سوىٰ أن أراسل رئيس الرايخستاج: "أشعر بالندم علىٰ عدم إتاحة الفرصة لي كي أتعلَّم عمليًا مزايا الحق الديمقراطي في اللجوء. تروتسكي". كان هذا سردًا مُختَصَرًا لمحاولتي الأولىٰ للحصول علىٰ تأشيرةٍ "ديمقراطية" إلىٰ أوروبا.

بالطبع من المفهوم أنه إذا كان حق اللجوء قد مُنِحَ لي، فإن هذا في حدِّ ذاته لا يعني دحضًا للنظرية الماركسية للدولة الطبقية. إن نظام الديمقراطية، الذي لا ينبع من المبادئ، بل من المتطلبات الحقيقية للطبقة المُهيمِنة، يتضمَّن في داخله، بدفعٍ من منطقه الداخلي، الحق في اللجوء السياسي. وتوفير الملاذ لبروليتاري ثوري لا يتناقض علىٰ أيةِ حال مع الطابع البرجوازي للديمقراطية. لكن لا مجال لمثل هذه المجادلة الآن، إذ ليس ثمة حقٌّ في اللجوء السياسي يمكن إيجاده في ألمانيا الديمقراطية تحت زعامة الاشتراكيين الديمقراطيين.

أشاع ستالين في 16 ديسمبر، عن طريق جهاز الشرطة السرية، أنني تخليت عن نشاطي السياسي. وأثناء النقاشات التي دارت في الصحافة حول مسألة الحق في اللجوء السياسي، طُرِحَ الأمر نفسه من قِبَل الألمان وكأنه مُسلَّمٌ به. وهذا يعني أن حكومة ميلر وستريسمان تعتبر الأفكار التي يحاربها ستالين وتالمان علىٰ نفسِ القدرِ من الخطورةِ والضرر. لقد طالَبَ ستالين، بوسائل الديبلوماسية، وتالمان،

بالتحريض المباشر، بأن ترفض الحكومة الاشتراكية الديمقراطية قبولي في ألمانيا - بافتراضٍ أن ذلك باسم مصالح الثورة البروليتارية. علىٰ الجانب الآخر، طالَبَ تشامبرلاين والكونت ويستارب، ومن علىٰ شاكلتهما، بأن تُرفَض تأشيرتي - باسم مصالح النظام الرأسمالي. وهكذا صار بإمكان هيرمان مولر أن يرضي شركاءه علىٰ اليمين واليسار علىٰ حدٍّ سواء، وهكذا أيضًا صارت الحكومة الاشتراكية الديمقراطية الألمانية جسرًا يربط هذه الجبهة العالمية المُوحَّدة ضد الماركسية الثورية. ومن أجل رسمِ صورةٍ واضحةٍ لهذه الجبهة العالمية، لا يحتاج المرء سوىٰ أن يعود إلىٰ السطورِ الأولىٰ من البيان الشيوعي لماركس وإنجلز: "شبحٌ ينتاب أوروبا - شبح الشيوعية. ضد هذا الشبح اتحدت في طراد رهيب قوىٰ أوروبا العجوز كلها: البابا والقيصر، ومترنيخ، وغيزو، والراديكاليون الفرنسيون، والبوليس الألماني". الأسماء مختلفة، لكن المضمون لا يزال هو نفسه. وكون الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان اليوم هم من يضطلعون بدور البوليس الألماني، فهذا لا يغيِّر من الوضع إلا قليلًا، فبالأساس هم يحمون نفس الشيء الذي يحميه البوليس الهوهنزلرني.

أما مجموعة الأسباب التي تدفع الديمقراطيات لرفض منحي تأشيرةِ سفرٍ، فهي عظيمة. الحكومة النرويجية، إذا سمحتم لي بإعطاء هذا المثال، تنطلق من اعتباراتٍ مُتعلِّقةٍ بسلامتي الشخصية. لم أتصوَّر قط أنني أحظىٰ بكل هذا العدد من الأصدقاء المُعتبَرين في مراتب عليا

في أوسلو. هذه الحكومة النرويجية نفسها تحافظ علىٰ الحق في اللجوء السياسي، دون تحفظٍ، شأنها في ذلك شأن حكوماتِ ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وغيرهم. إن الحق في اللجوء هو، كما يعلم الجميع، حقٌّ مُقدَّسٌ ومبدأ لا يدحضه شيء. لكن، بالنسبةِ لمنفيٍ مثلي، عليه في المقامِ الأول أن يقدِّم لأوسلو شهادةً تضمن أنه لن يقتله أحد. في هذه الحالة فقط، يمكنهم أن يشملوه بضيافتهم - بالطبع إن لم تظهر أيٌّ عقباتٍ أخرىٰ.

إن المناقشتان اللتين جرتا في السورثينج[30] حول تأشيرتي يُشكِّلان سويًا وثيقةً سياسية لا مثيل لها، وقراءتها قد عوَّضتني، علىٰ الأقل جزئيًا، عن رفض التأشيرةِ التي كان أصدقائي في النرويج يحاولون أن أحصل عليها. أولًا، ناقَشَ رئيس الوزراء النرويجي بالطبع أمر تأشيرتي مع رئيس الشرطة السرية، الذي كانت كفاءته في صيانة المبادئ الديمقراطية لا غبار عليها. اقترَحَ رئيس الشرطة السرية الأمر الأكثر حكمةً وحصافة بأن يدعوا أعداء تروتسكي لأن يقضوا عليه خارج الأراضي النرويجية. لم يعرب عن ذلك بهذه الدرجة من الدقة، لكن كان هذا ما يعنيه. ومن جانبه، أوضح وزير العدل أمام السورثينج أن كُلفة حماية تروتسكي ستكون كبيرةً للغاية علىٰ ميزانية الدولة. وبالتالي فإن مبدأ اقتصاد الدولة - الذي هو الآخر يُعد واحدًا من

30 البرلمان النرويجي. (المترجم)

المبادئ الديمقراطية التي لا جدال فيها – أثبت هذه المرة تعارضه العنيد مع الحق في اللجوء. على أيةِ حال، فإن الاستنتاج الوحيد من كل ذلك هو أن الشخص الذي بحاجةٍ إلى اللجوء يظلُّ هو صاحب أقل فرصة في الحصول عليه.

الأكثر ظرافةً من كل هؤلاء هي الحكومة الفرنسية، التي أشارت إلى أن قرار طردي من فرنسا، الذي أصدره مالفي في خريف 1916، لم يُبطَل بعد. يا لها من عقبةٍ في طريقِ الديمقراطية يستحيل التغلُّب عليها! كنت قد أشرت من قبل في هذا الكتاب إلى أنه، بعد طردي من فرنسا، ورغم قرار مالفي الذي "لم يُبطَل"، كانت الحكومة الفرنسية على استعدادٍ لأن تضع ضباطًا تابعين لها تحت تصرُّفي، وأن عددًا من النواب والسفراء الفرنسيين قد جاءوا لزيارتي. لكن من الواضح أن كلتا العمليتين كانتا تسيران في خطَّين منفصلين لا يلتقيان. وهكذا بات الوضع في الوقتِ الراهن: يُمنَح حق اللجوء السياسي في فرنسا لي بلا شك، إن لم يكن هناك في أراشيف الشرطة الفرنسية قرارٌ بطردي من الأراضي الفرنسية بطلبٍ من الديبلوماسية القيصرية. من المعروف أن قرارًا أصدرته الشرطة هو شيءٌ مثل النجم القطبي؛ من المستحيل إبطاله أو محوه.

وهكذا فقد أُلغيَ حق اللجوء السياسي في فرنسا هي الأخرى. أين إذن تلك البلد التي لا تزال تحفظ هذا الحق؟ ربما إنجلترا؟

في 5 يونيو 1929، أرسل لي حزب العمال المستقل، الذي يُعد رامساي ماكدونالد عضوًا فيه، دعوةً رسمية بمبادرةٍ منه للقدوم إلىٰ إنجلترا لتقديم محاضرةٍ في مدرسة الحزب. وجاء في الدعوة المُوقَّعة من الأمانة العامة للحزب: "مع تشكيل حكومة حزب العمال هنا، لا نعتقد أن ثمة عقباتٍ قد تظهر فيما يخص زيارتك لإنجلترا لهذا الغرض". إلا أن الكثير من المصاعب قد ظهرت بالفعل، فلم يكن مسموحًا لي بتقديم المحاضرة، ولا بزيارة الأطباء الإنجليز. رُفِضَ طلبي للتأشيرةِ بشكلٍ قاطع. وقد دافَعَ كلاينس، وزير الداخلية المنتمي لحزب العمال، عن هذا الرفض أمام مجلس العموم البريطاني موضحًا المعنىٰ الفلسفي للديمقراطية بطريقةٍ لا تليقِ إلا بوزيرٍ في عهدِ تشارلز الثاني قبل قرونٍ مضت. وفقًا لكلاينس، فإن الحق في اللجوءِ لا يعني حق المنفي للمطالبةِ باللجوء، بل حق الدولة لرفض الطلب. إن هذا التعريف الذي أدلىٰ به كلاينس أعتبره مُميَّزًا فقط في جانبٍ واحد منه، ألا وهو أنه يدمِّر كل أسسِ ما تُسمىٰ بالديمقراطية بضربةٍ واحدة. لكن الحق في اللجوء، وفق هذا النمط الكلاينسي كان موجودًا في روسيا القيصرية علىٰ الدوام. حين فشل شاه بلاد فارس في شنق كافة الثوريين الإيرانيين، واضطر لترك بلاده الحبيبة، لم يمد له نيقولا الثاني حق اللجوءِ فحسب، بل قد زوَّده أيضًا بكل وسائل الراحة والرفاهية للعيش في أوديسا. ولم يحدث قط أن طلب أيٌّ من الثوريين الأيرلنديين اللجوءِ في روسيا القيصرية، حيث يتأسَّس الدستور

بالكامل علىٰ المبدأ الذي شرحه كلاينس آنفًا، والذي يتلخَّص من الناحية الشكلية في أن علىٰ المواطنين أن يرضوا ويقنعوا بما تمنحهم سلطات الدولة وما تسلبهم منهم. وقد مَنَحَ موسوليني حق اللجوءِ لملك أفغانستان باتساقٍ تامٍ مع هذا المبدأ نفسه.

لابد أن السيد الورِع كلاينس يعرف علىٰ الأقل أن الديمقراطية قد ورثت حق اللجوءِ هذا من الكنيسة المسيحية، والتي ورثته بدورها من الوثنية. كان يكفي لأي مجرمٍ مُطارَد أن يشق طريقه إلىٰ معبدٍ، وأحيانًا حتىٰ فقط أن يلمس حلقة الباب، كي يأمن الملاحقة ويلوذ بنفسه من الاعتقال. وهكذا اعتبرت الكنيسة حق اللجوءِ حقًا للمُضطهَد في إيجاد ملاذٍ يأوي إليه، وليس ممارسةً استبداديةً في يد الرهبان المسيحيين أو الوثنيين. حتىٰ قبل قليل، كنت أتصوَّر أن سادة حزب العمال الأتقياء الورِعين، الذين لا يعرفون إلا القليل عن الاشتراكية، علىٰ الأقل ضليعون متفقِّهون في تراث الكنيسة وتقاليدها. لكنني أدركت الآن أنهم ليسوا كذلك حتىٰ.

لكن، لماذا إذن توقَّفَ كلاينس فقط عند السطورِ الأولىٰ من نظريته حول قانون الدولة؟ يا له من أمرٍ مثيرٍ للشفقة. إن الحق في اللجوءِ لا يمثل إلا مكوِّنًا واحدًا من نظام الديمقراطية بشكلٍ عام. ولا يختلف هذا الحق، لا في أصله التاريخي، ولا طبيعته القانونية، عن الحق في حرية التعبير، وحرية التجمع، إلخ. ومن المأمولِ أن يتوصَّل السيد كلاينس قريبًا إلىٰ الاستنتاج بأن الحق في حرية التعبير لا يتعلَّق

بحق المواطنين في التعبير عن أفكارهم، أيًا ما قد تكون، بل بحق الدولة في حظرِ هذه الأفكار عن تناول شئونها. وفيما يتعلَّق بالحق في الإضراب، فالاستنتاج هنا جاسدٌ وماثلٌ في القانون البريطاني بالفعل.

لسوء طالع كلاينس، كان عليه أن يفسِّر إجراءاته علىٰ الملأ، إذ كان أعضاءٌ من كتلة حزب العمال في البرلمان قد طرحوا عليه أسئلةً محترمةً، لكن غير مريحةٍ بالنسبةِ له. رئيس الوزراء النرويجي وجد نفسه كذلك في نفس الموقف غير السار. أما الحكومة الألمانية، فقد كانت في حِلٍّ من هذا الحرج، إذ لم يكن في الرايخستاج بأسره ثمة نائبٌ واحد يكترث بمسألة الحق في اللجوء. وتكتسب هذه الحقيقة أهميةً خاصة حين نتذكَّر أن رئيس الرايخستاج قد وَعَدَ، في خطبةٍ قوبِلَت بتصفيقٍ عاصف من أغلبية النوَّاب، أن يمنحني حق اللجوء، في وقتٍ لم أكن حتىٰ قد طالبت بهذا الحق فيه.

لم تنادِ ثورة أكتوبر بالمبادئ المُجرَّدة للديمقراطية، ولا بالمبدأ المجرَّد للحقِ في اللجوء، بل لقد تأسَّسَت الدولة السوفييتية جهرًا أمام العالم كله علىٰ حق الديكتاتورية الثورية. لكن هذا لم يمنع فاندرفالدي، أو غيره من الاشتراكيين الديمقراطيين، من المجيء إلىٰ الجمهورية السوفييتية، أو حتىٰ من الظهورِ علىٰ الملأ في موسكو، للدفاع عن أشخاصٍ مدينين بعملياتٍ إرهابية تستهدف حياة قادة الثورة أنفسهم.

بعضٌ من الوزراء البريطانيين الحاليين كانوا من ضمن زوَّارنا أيضًا. لا أتذكَّر بالضبط من جاء لزيارتنا، فليست كل البيانات والمعلومات بين يديَّ الآن، لكن ما أتذكَّره هو أن السيد والسيدة سنودن كانا من بينهم. لابد أن ذلك يعود إلىٰ العام 1920. استقبلناهم ليس ببساطة كسياحٍ، بل كضيوف، مما يحمل المسألةَ برمتها إلىٰ حدٍّ أبعد. أتذكَّر في هذا الصدد واقعةً صغيرةً ربما تكون جديرة بالسرد هنا. وصلت إلىٰ موسكو قادمًا من الجبهة، ولم يكن أولئك الضيوف البريطانيون في خاطري علىٰ الإطلاق، ففي الحقيقة لم أكن وقتها أعرف حتىٰ من هم علىٰ وجه التحديد، إذ كنت منغمسًا حتىٰ أذناي في أمورٍ أخرىٰ ولم أكن أقرأ الصحف إلا لمامًا. كانت اللجنة المُكلَّفة باستقبال السيد والسيدة سنودن، وإن لم أكن مخطئًا، برتراند راسل وويليامز أيضًا، علاوة علىٰ عددٍ من الآخرين، يترأسها لوزوفسكي الذي اتصل بي هاتفيًا ليخبرني بأن اللجنة تطلب حضوري إلىٰ المسرح الكبير حيث يجلس الضيوف الإنجليز. حاولت الاعتذار عن ذلك، لكن لوزوفسكي أصرَّ علىٰ أن لجنته قد مُنِحَت سلطةً كاملةً من قِبَل المكتب السياسي، وأن من واجبي أن أقدِّم مثالًا للالتزام يحتذي به الآخرون. ذهبت إلىٰ هناك علىٰ غير إرادتي، فوجدت أكثر من عشرةٍ من الضيوف البريطانيين. كان المسرح مُكتظًا بأكثرِ من قدرته علىٰ الاستيعاب. في ذلك الوقت كنَّا نحقِّق انتصاراتٍ علىٰ الجبهة، وأخذ الحضورُ في تصفيقٍ عنيفٍ احتفاءً بتلك الانتصارات. أحاطني

الضيوف البريطانيون وأخذوا يصفِّقون هم أيضًا. كان السيد سنودن من بينهم. واليوم، لابد أنه يشعر بشيءٍ من الخزي بسبب هذه المغامرة التي من المستحيل محوها من الذاكرة. إلا أنني، علىٰ الأقل من ناحيتي، لم أكن سعيدًا بذلك "الاختلاط الودي" مع سادة حزب العمال الذين جاءوا لزيارتنا، الأمر الذي لم يكن مجرد خطأٍ، بل زلة سياسية. وبمجرد أن تمكَّنت من الإفلات منهم، ذهبت لمقابلة لينين. كان منزعجًا للغاية، وقال: "هل فعلًا ظهرت في المسرح مع أولئك الناس؟" (استخدَمَ لينين كلمةً أخرىٰ غير "الناس"). تحجَّجت بلوزوفسكي، وباللجنة المُكلَّفة من المكتب السياسي، وبالالتزام، وبأنني علىٰ وجه الأخص لم يكن لديّ أدنىٰ فكرة عَمَّن يكون أولئك الضيوف. كان لينين يستشيط غضبًا من لوزوفسكي، ومن اللجنةِ بشكلٍ عام، ولوقتٍ طويلٍ لم أغفر لنفسي هذا العمل الطائش الذي صَدَرَ مني.

أحد الوزراء البريطانيين الحاليين جاء لزيارة موسكو عدة مرات، وأتذكَّر أنه قضىٰ فترةٍ من الوقت في الجمهورية السوفيتية، وبقىٰ في القوقاز وطَلَبَ مقابلتي. كان ذلك هو السيد لانسبوري. آخر مرة قابلته فيها كانت في كيسلوفودسك. ألَحَّ عليّ في مقابلتي، فمررت باستراحةِ كان بعض أعضاء الحزب يجلسون فيها مع بعض الزوَّار الأجانب. كان عددٌ منهم يجلسون إلىٰ مائدةٍ كبيرة. هكذا جرت العادة في المآدب المتواضعة. ولدىٰ وصولي، عَرَضَ أن يقدِّم نخبًا، ثم أخذ في

الغناء: "يا له من رفيقٍ طيبٍ مرِح". كان ذلك هو شعور لانسبوري تجاهي آنذاك في القوقاز. أما اليوم، فربما يودُّ الرجل إسقاط الأمر برمته من ذاكرته.

حين قدَّمت علىٰ التأشيرة، أرسلت عدة برقياتٍ لسنودن ولانسبوري، مُذكِّرًا إياهما بكرم الضيافة الذي شهداه من قِبَل السوفييتات ومني. لكن هذه البرقيات لم يكن لها تأثيرٌ يُذكر. ففي السياسة، الذكريات كالمبادئ الديمقراطية؛ لا وزن لهما.

زارني مؤخرًا السيد والسيدة سيدني ويب في مايو 1929 حين كنت في جزيرة برينكيبو. تحدَّثنا عن احتماليةِ حلولِ حزب العمال في السلطة. وتذكَّرت بشكلٍ عابرٍ أن بعد تشكيل حكومة ماكدونالد علىٰ الفور، تقدَّمت بطلبِ تأشيرةٍ، وعبَّر السيد ويب عن أن الحكومة قد لا تجد نفسها بالقوةِ الكافية للاستجابة لهذا الطلب، وبسبب اعتمادها علىٰ الليبراليين قد لا تجد نفسها حرةً بما فيه الكفاية أيضًا. رددت علىٰ ذلك بأن حزبًا ليس قويًا بما فيه الكفاية لتبريرِ قراراته ليس جديرًا بالسلطة. لم تكن اختلافاتنا، التي لا يمكن التوفيق بينها، بحاجةٍ إلىٰ اختبارٍ جديدٍ لإثباتها. اعتلىٰ السيد ويب السلطة، وتقدَّمت بطلبِ تأشيرة، فرفضت حكومة ماكدونالد طلبي، ليس لأن الليبراليين منعوهم من اتباع قناعاتهم الديمقراطية، بل علىٰ العكس؛ رفضت حكومة حزب العمال طلب التأشيرة بالرغم من اعتراضات

الليبراليين. لم يكن ذلك ليرتأيه السيد ويب. ولابد من الإشارة هنا أنه وقتذاك لم يَصِر بعد لورد باسفيلد.

بعض هؤلاء الرجال أعرفهم شخصيًا، بينما آخرون لا أحكم عليهم إلا من علىٰ السطح، لكنني أظن أن تقييمي لهم صائب. لقد نشأوا علىٰ النمو التلقائي لمنظماتِ حزبِ العمال، خاصةً منذ بداية الحرب العالمية، وكذلك تربوا علىٰ الإنهاك السياسي لليبرالية. لقد تخلوا تمامًا عن المثالية التي كان لدىٰ بعضهم منذ 25 أو 30 سنة مضت، وفي المقابل اعتادوا علىٰ روتين سياسي في اختيارِ الوسائل بانعدامٍ كاملٍ للضمير. لكن، في منظورهم العام، ظلوا كما هم دون تغيير - برجوازيين صغار جبناءَ مُتردِّدين تتخلَّف أنماط تفكيرهم إلىٰ الوراء كثيرًا من أساليب الإنتاج في صناعة الفحم البريطانية. واليوم، ما يثير قلقهم هو رفض النبلاء وكبار الرأسماليين أن يأخذوهم علىٰ محملِ الجد. ولا عجب في ذلك علىٰ الإطلاق. والآن وهم علىٰ رأسِ السلطة، صاروا أكثر إدراكًا لضعفهم الحاد من أي وقتٍ مضىٰ. إنهم حتىٰ لا يتمتَّعون بالسمات التي طالما تمتَّعت بها المجموعات الحاكمة، والتي كانت تنتقل بها تقاليد وعادات الحكم من جيلٍ إلىٰ جيل، وغالبًا ما كانت كامنةً في الموهبة والذكاء. بل إنهم حتىٰ لا يستندون إلىٰ مصدرِ قوتهم الحقيقي - الإيمان بالجماهير وبقدرتهم علىٰ النهوض والوقوف علىٰ أقدامهم. إنهم يخشون الجماهير التي رفعتهم إلىٰ ما هم فيه الآن من مكانةٍ، بنفس القدر الذي يخشون به

الأندية المحافظة التي ترتعب مخيلاتهم الهزيلة من أبهتها. ولتبرير مجيئهم للسلطة، لابد عليهم أن يُظهِروا للطبقات الحاكمة القديمة أنهم ليسوا مجرد ثوريين مُحدثين والعياذُ بالله! كلا، إنهم جديرون بالثقة لأنهم مخلصون بولاءٍ تام للكنيسة، والملك، ولمجلس اللوردات، وللنظامِ ككل، أي أنهم مخلصون ليس لمجرد الحق القدوس في الملكية الخاصة، بل لقمامات العصور الوسطىٰ. إنها حقًا لفرصةٍ سعيدة بالنسبةِ إليهم ليرفضوا مُقدَّمًا طلبَ تأشيرةٍ من ثوري، كي يؤكدوا ثانيةً علىٰ احترامهم وولائهم. أنا سعيدٌ بأنني منحتهم مثل هذه الفرصة. سيؤخذ ذلك في الاعتبار في الوقتِ المناسب، إذ أنه، في السياسة كما في الطبيعة، ما مِن شيءٍ يذهب سُدىٰ.

لا يحتاج المرء لخيالٍ واسعٍ كي يتصوَّر حوار السيد كلاينس مع مرؤوسه، رئيس البوليس السياسي. خلال هذا الحوار، شَعَرَ السيد كلاينس كما لو كان خاضعًا لاختبار يخشىٰ ألا يبدو فيه صارمًا، أو ربما مُحافِظًا أو رجلَ دولةٍ، بما فيه الكفاية أمام من يختبره. لذا، يتطلب الأمر بعض الإبداع من جانبِ رئيس البوليس السياسي ليحث السيد كلاينس علىٰ اتخاذِ قرارٍ يحظىٰ بقبولٍ واستحسانٍ من الصحف المُحافِظة في اليومِ التالي. لكن الصحافة المُحافِظة لا تكتفي بالثناء، بل أنها تقتل بنفس هذا الثناء. إنها صحافةٌ متهورةٌ وساخرة، لا تتحمَّل عناء إخفاء ازدرائها لمن يسعون بتواضعٍ لنيل استحسانها. لن يقول أحدٌ إن صحيفة دايلي إكسبريس، مثلًا، تنتمي لواحدةٍ من أكثر

المؤسسات ذكاءً في العالم. إلا أنها تستخدم كلماتٍ لاذعة للتعبير عن قبولها لحكومة حزب العمال، كي تشمل السيد "ماكدونالد الحسَّاس" بعنايتها وحمايتها من الرقباء الثوريين وراء ظهره.

هل هؤلاء هم من يُلقىٰ علىٰ عاتقهم أسس مجتمعٍ بشريٍ جديد؟ كلا، إنهم فقط المصدر قبل الأخير للمجتمع القديم. وأقول "قبل الأخير" لأن الأخير هو القمع الجسدي المباشر. لابد أن أعترف أن طابور الديمقراطيات الأوروبية الذي اصطف أمام مسألة الحق في اللجوء قد منحني، إلىٰ جانبِ أشياءٍ أُخرىٰ، بضع دقائقٍ من المرح. بدا الأمرُ في كثيرٍ من الأحيان وكأنني أحضر عرضًا أوروبيًا كوميديًا واحدًا علىٰ موضوع مبادئ الديمقراطية، كُتِبَ نصه بيد برنارد شو، بعدما امتزج السائلُ الفابي الذي يسري في عروقه بخمسةٍ في المائة من دمِ الشاعر الساخر جوناثان سويفت. لكن أيًّا من كان كاتب النص، يظلُّ العرضُ ذا دلالةٍ، وقد يحمل عنوان "أوروبا بلا تأشيرة". لا حاجةَ هنا لذِكر أمريكا. ليست الولايات المتحدة الدولة الأقوىٰ فحسب، بل أيضًا الأكثر ذعرًا في العالم بأسره. كان هوفر يشرح مؤخرًا شغفه بالصيد مشيرًا إلىٰ الطابع الديمقراطي لهذه الهواية. إذا كان الأمر كذلك، رغم أنه مدعاةٌ للشك بالنسبةِ لي، فلابد علىٰ أيةِ حال أن بعضًا من الديمقراطية قد نجا بنفسه هناك. إلا أن الحق في اللجوء ظلَّ غائبًا هناك منذ أمدٍ طويل. "أوروبا وأمريكا بلا تأشيرة".

لكن هاتين القارتين تمتلكان بالفعل القارات الثلاث الأخرىٰ. وهذا يعني أنه كوكبٌ بلا تأشيرة.

لطالما شَرَحَ لي كثيرون أن أجسم آثامي إنما يكمن في كفري بالديمقراطية. كم من المقالاتِ، وحتىٰ الكتبِ، أُريقت فيها الأحبار عن ذلك؟ بينما حين أطلب درسًا ماديًا مختصرًا في الديمقراطية، لا أجد ثمة متطوعًا. أثبت الكوكب أن ما مِن تأشيرةٍ يمكن الحصول عليها فيه. لماذا إذن أظن أن القضية الأهم؛ التضاد بين الأغنياء والفقراء، سيُفصَل فيها تحت إشرافِ طقوسِ وشعائرِ الديمقراطية؟

وهل أسفرت الديكتاتورية الثورية عن النتائج المرجوَّة منها؟ هذا سؤالٌ تردَّدَ علىٰ مسامعي. يمكن الإجابة علىٰ هذا السؤال فقط بفتحِ حسابِ خبرة ثورة أكتوبر ومحاولة استطلاع آفاقها المستقبلية. لكن السيرة الذاتية ليست مجالًا مناسبًا لذلك، فسأحاول الإجابة علىٰ هذا السؤال في كتابٍ خاص بدأت العمل فيه بالفعل منذ فترة مكوثي في آسيا الوسطىٰ. لكنني لا يمكنني إنهاء قصة حياتي دون أن أوضِّح، ولو في سطورٍ معدودة، لماذا لازلت متمسكًا بكل ما في قدرتي بمساري القديم.

ما جرىٰ في ذاكرةِ جيلي، والذي بات الآن ناضجًا بما يكفي لما مرَّ عليه من زمن، يمكن وصفه تسلسليًا كما يلي: خلال عقودٍ طويلة - من نهاية القرن الماضي إلىٰ بداية القرن الحالي - خضع السكان

الأوروبيون لانضباطٍ شديد بفعل الصناعة. وقعت كلُ مراحل التعليم الاجتماعي تحت هيمنة مبدأ إنتاجية العمل. وقد أسفر ذلك عن نتائج هائلة، وبدا أنه فتح بابَ إمكانياتٍ جديدةٍ لهم. لكنه حقًا لم يؤدِ إلا إلىٰ الحرب. وكانت البشرية، خلال الحرب، قادرةً علىٰ إقناع نفسها بأنها لا تنحدر نحو التفسُّخ والانحطاط، بل علىٰ العكس؛ تملؤها الحياةُ، والقوةُ، والجرأةُ، والشجاعة. وخلال نفس الحرب، أدركت البشرية قدراتها التكنولوجية غير مسبوقةِ القوة. بدا الأمر وكأن رجلًا أراد أن يثبت لنفسه أن أوعيته التنفسية والدموية تعمل بكفاءةٍ في مكانها الصحيح، فبدأ يُمزِّق حلقه بموسىٰ أمام المرآة.

بعد انتهاء العمليات العسكرية في 18 - 1914، أُعلِنَ منذ هذه اللحظة أن الواجب الأخلاقي الأعلىٰ هو الاعتناء بالجرحىٰ، الأمر الذي كان بالفعل واجبًا أخلاقيًا أعلىٰ خلال السنوات الأربعة السابقة علىٰ ذلك. أُعيدَت الصناعة إلىٰ ما كانت عليه، وجرىٰ ما يُسمىٰ بـ"إعادة الإعمار" تحت إشرافِ نفسِ الطبقات والأحزاب، وحتىٰ الأشخاص، الذين جاء علىٰ أيديهم كل هذا الدمار. وحين تحقَّقَ التغيير السياسي، كما في ألمانيا مثلًا، صار أولئك الذين اضطلعوا بأدوارٍ قياديةٍ في توجيهِ عمليات إعادة الإعمار هم أنفسهم الذين يقودون التدمير للمرةِ الثانية والثالثة. هذا هو، علىٰ وجه التحديد، التغيير الوحيد.

اكتسحت الحربُ جيلًا كاملًا، كما لو أنها تهدف لإحداثِ صدعٍ في ذاكرة الجماهير، ولمنع الجيل الجديد من أن يلاحظ أنه يعكف بالفعل علىٰ تكرارِ ما جرىٰ في الماضي، لكن هذه المرة علىٰ مستوىٰ تاريخي أعلىٰ يحمل عواقب أخطر وأكثر تهديدًا.

أما الطبقة العاملة في روسيا، تحت قيادة البلاشفة، فقد حاولت وضع إعادة إعمار الحياة برمتها قيد التنفيذ بحيث تستبعد احتمالية أن تُساق البشريةُ مرةً أخرىٰ إلىٰ هذه النوبات الدورية من الجنونِ المُطلَق، ولترسيخ أسسِ ثقافةٍ جديدةٍ أسمىٰ. كان ذلك هو منطق ثورة أكتوبر وروحها. بالتأكيد لم تصل المشكلة التي تواجهها بعد إلىٰ حل، لكن الوصول إلىٰ حلٍّ لهذه المشكلة في جوهرها يستلزم عقودًا من الزمن. أضيفوا إلىٰ ذلك أن ثورة أكتوبر ينبغي اعتبارها فقط كنقطةِ انطلاقٍ لتاريخٍ جديدٍ للبشريةِ بأسرها.

بحلول نهاية حرب الثلاثة عشر عامًا، لابد أن الإصلاح الألماني بدا نتاجَ جهودِ رجالٍ خرجوا لتوهم من مصحةٍ للأمراض العقلية. وإلىٰ حدٍّ مُعينٍ، بدا الأمر وكأن البشرية الأوروبية قد خرجت لتوها من دير القرون الوسطىٰ الموحش. لم تكن ألمانيا، وإنجلترا، والولايات المتحدة، والعالم الحديث برمته، ممكنًا لولا ذلك الإصلاح وضحاياه الذين يصعب حصرهم. وإذا كان من المأذون به أن تقع ثمة ضحايا - لكن مِمَّن نطلب هذا الإذن؟ - لكانت بالتأكيد هذه هي الضحايا التي تدفع البشرية للأمام.

الأمر نفسه ينطبق على الثورة الفرنسية. يتصوَّر الرجعيون المتحذلقون ضيقو الأفق أنهم توصَّلوا لاكتشافٍ عميق حين يقولون إنه، بعد إعدام لويس السادس عشر بسنواتٍ قليلة، صار الفرنسيون أفقر وأتعس مما كانوا عليه في ظل النظامِ القديم. لكن مربط الفرس في الأمر برمته أن أحداثًا كبرىٰ مثل الثورة الفرنسية العظمىٰ لا يمكن رؤيتها في نطاق "سنواتٍ قليلة". دون هذه الثورة، لما كانت فرنسا الجديدة برمتها موجودةً اليوم، وكان هؤلاء أنفسهم ليظلوا موظفين في خدمةِ هذا أو ذاك من سماسرة النظام القديم، ولما كانت الأبواب قد فُتِحَت أمامهم لتولي وظائفهم الجديدة.

إن منظورًا تاريخيًا أوسع لا يزال ضروريًا اليوم لرؤية ثورة أكتوبر. فقط البلداء الحمقىٰ هم من يُسوِّقون الدليل ضدها بأنها، بعد إثنىٰ عشر عامًا، لم تخلق بعد رخاءً عامًا، ولم ترسي بعد سلامًا شاملًا. لكن، إذا استخدمنا نفس المنظور في تناولِ كلٍّ من الإصلاح الألماني والثورة الفرنسية، اللذين يمثِّلان مرحلتين مختلفتين، تفصلهما ثلاثة قرون، من تطوُّرِ المجتمع البرجوازي، فلابد أن يُعرِب المرء عن دهشته من أن روسيا المتأخرة المعزولة تمكَّنت، فقط في إثنىٰ عشر عامًا، من أن تضمن للجماهير مستوىٰ معيشي أعلىٰ مما كانوا عليه في ذروةِ الحرب. هذا وحده معجزةٌ فريدةٌ من نوعها. لكن بالطبع لا تكمن أهمية ثورة أكتوبر في ذلك. إن الثورة هي تجربةٌ لنظامٍ اجتماعيٍ جديد، تجربةٌ قد تجري الكثير من التغييرات، وقد تبدأ من جديد من

أساساتها ذاتها. ستتخذ الثورة طابعًا جديدًا بالكامل علىٰ أساس الإنجازات التكنولوجية الحديثة. وسينظر النظام الاجتماعي الجديد، بعد بضعة عقودٍ أو قرون، إلىٰ ثورة أكتوبر، كما ينظر النظام البرجوازي اليوم إلىٰ الإصلاح الألماني أو الثورة الفرنسية. ومن الواضح تمامًا، من الواضح بما لا يدع مجالًا للشك، أن حتىٰ أساتذة التاريخ سيفهمون ذلك، لكن بعد سنواتٍ طويلة.

وماذا عن مصيرك الشخصي؟ هذا سؤالٌ آخر يتردَّد علىٰ مسامعي، سؤالٌ يمتزج فيه الفضولُ بالسخرية. وهنا، ليس بوسعي أن أضيف الكثير علىٰ ما قلته بالفعل في هذا الكتاب. ليس بوسعي أن أحدِّد مسار العملية التاريخية بمقياس مصيري الشخصي. بل علىٰ العكس؛ إنني أقدِّر قدري موضوعيًا، وأعيشه ذاتيًا، تمامًا كما هو مرتبطٌ بصورةٍ متشابكة ومُعقَّدة بمسار التطوُّرِ الاجتماعي.

منذ أن نُفِيت إلىٰ الخارج، وقد قرأت في الصحف أكثر من مرةٍ موادًا مسليةً حول "المأساة" التي ألمَّت بي. لم أشهد أيةَ مأساةٍ شخصية. كل ما شهدته هو الانتقالِ من فصلٍ إلىٰ آخر في الثورة. ذات مرة، ذيَّلَت صحيفةٌ أمريكية مقالًا نشرته لي بملاحظة تقول فيها إن رغم الضربات التي تلقاها الكاتب لا يزال يحافظ، كما هو مُثبتٌ في هذا المقال، علىٰ سلامةِ ووضوح عقله. لا يمكنني إلا أن أعبِّر عن دهشتي من هذه المحاولة الحمقاء لاختلاقِ رابطٍ بين قوة العقل والمنصب الحكومي، بين توازن الذهن والوضع الراهن. لا أعرف،

ولم أشهد قط في حياتي، مثل هذا الرابط. في السجن، شعرت بنفسِ الرضا العميق الذي أحلَّ في نفسي في خضم الاجتماعات الجماهيرية للثورة، حين كانت يدي تقع علىٰ كتابٍ أو قلم. أما في السلطة، فلم أشعر بذلك الرضا الروحي، بل بعبءٍ محتومٍ لا مفرَّ منه.

ربما يكون من المفيد هنا اقتباسِ بضع كلماتٍ طيبة علىٰ لسان شخصٍ آخر. في 26 يناير 1917، كتبت روزا لكسمبورج لإحدىٰ صديقاتها من السجن:

"أن يفقد المرء نفسه تمامًا وسط ابتذالات الحياة اليومية، فهذا أمرٌ لا أفهمه ولا أحتمله مطلقًا. انظري، مثلًا، كيف ارتقىٰ جوتة فوق الأمور المادية بسموٍّ هادئ. فكِّري فقط فيما خاضه في الحياة: الثورة الفرنسية العظمىٰ، التي لابد أنها بدت، من منظورٍ ضيِّق، مهزلةً دموية لا نفع منها ولا نافع، ثم من 1793 حتىٰ 1815؛ سلسلةً متصلةً من الحروب. لا أطالبك هنا بأن تكتبي مثلما كتب جوتة من أشعار، لكن انظري إلىٰ رؤيته للحياة، وموسوعية اهتماماته، والانسجام الداخلي للرجل، تلك الأمور التي بإمكان الجميع أن يخلقوها لأنفسهم أو يسعوا للوصول إليها. إن كنتِ تقولين إن جوته لم يكن مناضلًا سياسيًا، فأنا أؤكد لكِ أن هذا علىٰ

وجهِ التحديدِ هو المناضل الذي لابد وأن يحاول الارتقاءِ فوق كلِّ شيء، وإلا سوف يُقحِم نفسه في كلِّ أنواع القمامات – بالطبع، في هذه الحالة، أنا أفكِّر في مناضلٍ من الطرازِ الأعظم".

يا لها من كلماتٍ شجاعة! قرأتها للمرةِ الأولىٰ منذ فترةٍ قريبة، لترسم صورة شخص روزا لكسمبورج علىٰ نحوٍ أوضح، ولتجعلها أغلىٰ وأعزَّ إلىٰ نفسي أكثر من أيِّ وقتٍ مضىٰ.

أما برودون، روبنسون كروزو[31] الاشتراكية هذا، الذي أعتَبِر رؤاه، وشخصيته، ومنظوره للعالم، غريبين عني، فقد كان يتمتَّع بطباعٍ قتاليةٍ، ولامبالاةٍ روحية، وقدرةٍ علىٰ احتقارِ الرأي العام الرسمي، وفضولٍ متعدِّد الجوانب لا تخبو جذوته. كل ذلك مكَّنه من الارتقاء علىٰ حياته الشخصية، بكل نجاحاتها وإخفاقاتها، كما رفعه متساميًا فوق الحقائق المعاصرة.

في 26 أبريل 1852، كتب برودون من السجن لصديقٍ له:

"رغم أن الحركة دون شكٍّ ملتوية وغير منتظمة، لكن ميلها لا يزال ثابتًا. وما تفعله كلُّ حكومةٍ في المقابل لصالح الثورة

---

[31] بطل رواية كلاسيكية كتبها الروائي الإنجليزي دانييل ديفو، نُشرَت للمرةِ الأولى في 1719، الذي رغم ما يتعرَّض له فيها من أهوالٍ على يدِ القراصنة وآكلي لحوم البشرِ وغيرهم، يشكر الله على مصيره. (المترجم)

صار مُحرَّمًا، أما ما تحاول فعله ضدها فيمر كسحابةٍ عابرة. أستمتع برؤية هذا المشهد، الذي أدرك فيه كل صورةٍ، وأراقب فيه كل تغيُّرٍ جارٍ في حياةِ العالم كما لو كنت أتلقىٰ وحيه من أعلىٰ؛ ما يقهر الآخرين يسمو بي أكثر فأكثر، يلهمني ويُحصِّن روحي، فكيف لك إذن أن تطلب مني أن أتهم القدر، أن أشكو الناسَ وأصبُّ لعناتي عليهم؟ القدر، لا يستحق مني إلا السخرية. أما الناس، فهم جهولون للغاية، مُستَعبَدون للغاية كي أنزعج منهم".

رغم المسحة الطفيفة من البلاغة الكنسية علىٰ هذه الكلمات، لكنها رائعة، ولها مني كل التأييد.

مُلحَق: مع تروتسكي في كايوويكان

جوزيف هانسن

سمعت مرارًا عن مشاريع لإنتاج فيلمٍ عن حياة تروتسكي، أو علىٰ الأقل عن سنواته الأخيرة في المكسيك. عُرِضَت محاولةٌ من هذا القبيل في برنامج تلفزيوني عن الاغتيال. كان برنامجًا بائسًا؛ افترائيًا أكثر منه صادقًا. وعرفت أن متعهِّد إنتاجٍ من هوليوود قضىٰ فترةً في المكسيك لدراسة المنطقة ولجمع مادة لازمة لإنتاج عرضٍ مشابه. طُلِبَ مني ثلاث مرات أن أقدِّم معلوماتٍ تساعد في إنتاجٍ مُحتمَل يجري التخطيط له. فشلت حالتان من الثلاث، وربما تلقىٰ الحالة الثالثة المصير نفسه غير مأسوفٍ عليها. بدأ المُنتِجون بتصوُّراتهم المُسبَّقة لما يمكن أن تتألَّف منه المادة الدرامية وكيفية تطويع تروتسكي وفقًا لهذه التصوُّرات. لم يكن أيٌّ منهم مهتمًا بتصوير الدوافع الداخلية الحقيقية لدىٰ تروتسكي وكذلك التزاماته المركزية وأهدافه في الحياة. لابد أن الجمهور الذي فكَّروا فيه لن يجد في ذلك تسليةً جيِّدة في الأمسيات.

يتطلَّب إنتاج فيلم أمين عن تروتسكي اعتباره شخصيةً سياسية، لكن ليس من النوع السائد في العالم البرجوازي اليوم. لقد كان من نوعٍ مختلف - ملتزمًا، كفنانٍ عظيم، بتقديم انعكاسٍ أمينٍ لعصره، أو بالأحرىٰ عالِمًا راسخ الإيمان بأن المشكلة الرئيسية التي تواجه

البشرية هي تغيير إطار العصر، وإنهاء هذا العهد المكروب بالطبقات المتحاربة وإحلال عهدٍ جديدٍ محله؛ مجتمعٍ جديد قائمٍ علىٰ اقتصادٍ مُخطَّطٍ بعقلانية. يمكن تصويره أيضًا كمناضلٍ شرس، ومقاتلٍ منشغلٍ ببناء التنظيم الذي لا غنىٰ عنه لإرساء الاشتراكية علىٰ المستوىٰ العالمي.

إن إنتاجَ فيلمٍ عن تروتسكي يتجاهل كل ذلك لهو أشبه بتقديم بيير وماري كوري دون إظهار ما بذلاه من أجل الكشف عن سرِّ النشاط الإشعاعي، أو كدحهما في تجزئة كمياتٍ ضخمةٍ من المعادن من أجل فصل المادتين الغامضتين، ألا وهما البولونيوم والراديوم، أو تقديمِ عملٍ دراميٍ حول لويس باستور دون التركيز علىٰ اهتمامه الشغوف بعلمِ البكتيريا وعمله المضني الذي كَدَحَ فيه في المختبرات ضد نصيحةِ أصدقائه - حسني النوايا - الذين سعوا لإقناعه بعدم إهدار وقته في مشكلاتٍ وهمية لا حلَّ لها.

أليس هذا واضحًا بما فيه الكفاية؟ إلا أن شخصًا ثاقب الفِكرِ مثل إسحق دويتشر لم يتبصَّر ذلك. حتىٰ دويتشر صوَّرَ انخراط تروتسكي في بناء حزبٍ عالميٍ للثورة الاشتراكية كـ"نقطةِ ضعف".

تروتسكي، الذي كان علىٰ درايةٍ تامة بأعمال فرويد، فَهِمَ نفسه جيدًا. في الكثيرِ من المواضع كان يوضِّح بأجلىٰ صورةٍ كيف كانت أهدافه الواعية هي ما ترشده، مُحدِّدًا هذه الأهداف بوضوح.

في مقدمة "حياتي"، يقول تروتسكي: "باستثناء سنوات الحرب الأهلية، كان العمل الأدبي والحزبي هو المكوِّن الأساسي لحياتي"، و"قضيت ثُلث قرنٍ من حياتي الواعية في نضالٍ ثوريٍ متواصل، وإذا قُدِّرَ لي أن أعيشه من جديد لكنت بلا تردُّد سأتخذ نفس المسار".

وفي السنوات الإحدىٰ عشرة اللاحقة في حياته بعد أن كتب سيرته الذاتية، واصَلَ تروتسكي ما كان يفعله سابقًا خلال ثلاثة عقودٍ كاملة. كان ترتيب أولوياته مختلفًا عن الكثير من المُثقَفين الذين أُعجَبوا بعبقريته. وضعوا في المقامِ الأول كتبه الأشهر، مثل "الأدب والثورة"، و"تاريخ الثورة الروسية"، و"الثورة المغدورة"، و"ستالين". ثم جاءوا في القائمة بعد ذلك بكتيباتٍ وكراساتٍ ومقالاتٍ غزيرة له عن الفاشية الألمانية، والثورة الإسبانية، والأزمة المُعمَّقة في فرنسا، وعن المسار المضطرب للأحداث بينما يسير العالمُ باتجاهِ الحرب العالمية الثانية.

قليلون هم من انجذبوا نحو إسهامات تروتسكي في النقاشات الداخلية للأممية الرابعة. وهٰذا مفهومٌ إلىٰ حدٍّ كبير، إذ من يُقدِّر هذه الكتابات حقًا هم فقط كوادر يقفون علىٰ أرضيةٍ ماركسيةٍ صلبة. وبالنسبة لأنشطته "الحزبية"، خاصةً في الأحد عشر عامًا الأخيرة من حياته، فقد كان المثقفون - في أفضل الأحوال - غير عابئين بها.

إلا أن تروتسكي نفسه كان له موقفٌ مختلف. في يومياته، التي احتفظ بها لفترةٍ من الزمن في فرنسا والنرويج، كَتَبَ الأفكار الكاشفة التالية في 25 مارس 1933:

"لفترةٍ طويلة حتىٰ الآن، لم تُتَح لي الفرصة لإشباع حاجتي في تبادل الأفكار ومناقشة المشكلات مع أي شخصٍ آخر. حُصِرت فقط في التحاور مع الصحف التي أقرأها، أو بالأحرىٰ مع الحقائق والآراء عبر هذه الصحف.

ولازلت أرىٰ أن العمل الذي أنخرط فيه الآن، رغم عدم كفايته وطبيعته المُفتَّتة، هو الأهم علىٰ الإطلاق في حياتي بأسرها - وهذا يعني أنه أهم مما قمت به في العام 1917، وأهم كذلك من فترة الحرب الأهلية أو أي فترةٍ أخرىٰ.

ولتوضيح الأمر، سأصيغ الفكرة علىٰ النحو التالي. إن لم أكن حاضرًا في العام 1917 في سان بطرسبورج، لكانت ثورة أكتوبر قد انتصرت - شريطة تواجد لينين وقيادته. وإن لم يكن أيٌّ منَّا - لينين وأنا - موجودَين في سان بطرسبورج، لما كانت هناك ثورة في أكتوبر؛ كانت قيادة الحزب البلشفي لتمنع اندلاعها، وليس لديّ أيُّ شكٍّ في هذا. إن لم يكن لينين موجوداً في سان بطرسبورج، أشك فيما إذا كنت سأقدر حينها علىٰ تجاوز مقاومة القادة البلاشفة. في هذه الحالة، كان

النضال ضد "التروتسكية" (أي ضد الثورة البروليتارية) ليبدأ في مايو 1917، وبناءً عليه سيكون مصير الثورة في موضعِ شك. لكنني أكرِّر أن وجود لينين كان ليضمن لثورة أكتوبر نصرها على أية حال. يمكن قول الأمر نفسه فيما يخص الحرب الأهلية، رغم أن لينين كان قد انتابه التردُّد وحاصرته الشكوك في أثناء المرحلةِ الأولى منها، خاصةً مع سقوط سيمبرسك وقازان. لكن تلك بلا شك كانت حالةً مزاجيةً عابِرة ربما لم يُطلِع عليها أحدًا غيري (لابد أن أحكي عن هذا الأمر لاحقًا بمزيدٍ من التفاصيل).

وهكذا لا يمكنني أن أتحدَّث عن "لزومية" عملي، أو ضرورته القصوى التي لم يكن ممكنًا الاستغناء عنها، حتى في الفترةِ من 1917 وحتى 1921. لكن عملي الآن "لازمًا"، ولا غنى عنه، في إطار الصورة الكاملة التي يبدو بها العالم اليوم. وما مِن غرورٍ في هذه الادعاء على الإطلاق. لقد طرح انهيار الأمميتين مشكلةً لم يكن أيٌّ من قادة هاتين الأمميتين مُجهَّزًا لحلها. ولقد واجهتني التقلُّبات التي لحقت بمصيري الشخصي بهذه المشكلة، وسلَّحتني بالخبرة الضرورية للتعامل معها. والآن، ما مِن أحدٍ غيري يضطلع بمهمةِ تسليح جيلٍ جديدٍ بالمنهاج الثوري رغم أنف قادة الأمميتين الثانية والثالثة. أتفق تمام الاتفاق مع لينين، أو بالأحرى مع

تورجينيف[32]، في أن النقيصة الأكبر هنا هي أن يناهز المرء الخامسة والخمسين من عمره! أحتاج لخمس سنواتٍ إضافية من العمل المتواصل كي أضمن تتابع هذا الإرث".

كان أمام حياة تروتسكي خمس سنوات، أو ربما أكثر، لكن العمل خلالها لم يكن متواصلًا. خلال تلك السنوات عاش في ظل غيابٍ كاملٍ للأمان، حيث استهداف الرجعية له، سواء تمثَّلت في الفاشيين النرويجيين أو السفَّاحين في الشرطة السرية الستالينية. إلا أن تروتسكي فعل ما في وسعه لتمرير ما يمكن تمريره من خبرته.

لم يتحدَّث تروتسكي مباشرةً عن هذه المشكلة مع الشباب الأصغر سنًا الذين جاءوا ليعيشوا معه وناتاليا في السنوات الأخيرة من منفاه. لكننا شعرنا بها بالتأكيد. ومع مرور الأيام، صارت حياة كلٍّ من في المنزل مُنصبَّةً كلها في الانخراط لتأسيس الأممية الرابعة. صارتْ أهمية الاستمرارية في البرنامج، وفي المنهاج، وفي بناء الكوادر، جزءًا أساسيًا من تفكيره. وأصبحنا جميعًا ملتزمين، بل مُكرَّسين، لهذا العمل كإعدادٍ ضروري للفرص الثورية المقبلة التي من المُؤكَّد أن التاريخ سيمنحنا إياها. كل شيءٍ فعله تروتسكي كان مُوجَّهًا لخدمة هذا الهدف.

---

[32] إيفان سيرجييفيتش تورجينيف (1818 – 1883): روائي ومسرحي روسي. (المترجم)

إذا كانت ثمة رومانسية يمكن الاعتقاد بأنها تشوب هذا الشأن، فلابد أن يكون هذا الانطباع خاطئًا. علىٰ صعيد الممارسة، كان هذا العمل شاقًا، وفي الوقت نفسه كان يعلِّمنا كيف نتعاطىٰ مع التفاصيل ونتابعها بدقة، دون أن نفقد بوصلتنا تجاه الهدف النهائي. وما يفصل هذا النوع من البناء الحزبي عن أي مشروعٍ سياسيٍ، مهما كان مستمرًا ومهما بلغت صعوبته، هو غايته وهدفه اللذان يتلخَّصان في ضمان نجاة الجنس البشري وتمدُّد الحضارة علىٰ أسسٍ إنسانية حقيقية.

في مقالةٍ قصيرة له عن روزا لوكسمبورج والأممية الرابعة، في يونيو 1935، وَضَعَ تروتسكي الأمر علىٰ هذا النحو، مجادلًا لصالح نظرية الحزب اللينيني ضد نظرية العفوية الجماهيرية:

"بدون أقل قدر من المبالغة يمكننا القول إن وضع العالم كله يمكن تحديده بواسطة الأزمة الخاصة بالقيادة البروليتارية".

وفي موضعٍ آخر في نفس المقالة:

"إن أزمة القيادة البروليتارية لا يمكن، بالطبع، التغلُّب عليها بواسطة صيغة مُجرَّدة. فهي مسألة تتعلَّق بعمليةٍ رتيبةٍ إلىٰ حدٍّ بعيد، ولكنها لا تتعلَّق بعملية "تاريخية" محضة، وهكذا، بالمُقدِّمات المنطقية الموضوعية لنشاط واعٍ، ولكن بسلسلةٍ متصلةٍ من المقاييس الأيديولوجية والسياسية والتنظيمية بهدف إدماجهم ببعضهم إلي الحدِّ الأقصىٰ. إن أكثر العناصر

وعيًا من البروليتاريا العالمية هي دون مستوىٰ الشعارات النظيفة، هذه العناصر التي يجب عليها أن تزيد باستمرار من أعدادها وثقتها بنفسها، كما يجب تطوير وتعميق اتصالها بالقطاعات العريضة من البروليتاريا، وبكلمة واحدة: أن يعيدوا إلي البروليتاري، في ظلّ ظروفٍ جديدة وصعبة إلىٰ حدٍّ بعيد وأيضًا شاقة، قيادته التاريخية".

حين وافق تروتسكي، في منتصف صيف 1937، علىٰ الاقتراح المُقدَّم من قيادة الحركة الأمريكية بأن أنضم إلىٰ طاقم السكرتارية والحرَّاس الصغير الخاص به، كانت أول مهمة كُلِّفت بها هي أن أجلب سيارة دودج من أوهايو إلىٰ المكسيك. جاء معي ماكس سترلينج، زوج راي شبيجل، السكرتيرة الروسية لتروتسكي في ذلك الوقت. وصلنا ميكسيكو سيتي بعد حلول الظلام، وكان عليّ أن أنتظر حتىٰ الصباح للذهاب إلىٰ كايوويكان. أما ماكس، فقد ذهب إلىٰ هناك من قبل ويعرف الشوارع جيدًا، وكان شغوفًا لرؤية راي التي كانت غالبًا في المنزل.

كان حي أفينيدا لوندرز مظلمًا. كانت الجدران عالية ومُزيَّنةً بقطعٍ من الزجاج المكسور الذي يتألَّق في ضوء أعمدة الشارع، فيما كانت النوافذ المُغلَقة بقضبانٍ حديدية، وفق التقليد الإسباني، فبدا المشهد كله لا يوحي بالترحاب. أخذت الكلاب تنبح حين مررنا بها، وكلابٌ أخرىٰ ترد النداء من علىٰ بُعد. اضطررنا للانتظار لفترةٍ طويلةٍ في

الشارع المهجور حتىٰ يرد أحدهم جرس الباب. كان صوت ماكس مألوفًا، وفُتِحَ الباب أخيرًا. كان ذلك هو جان فان هيجينورت الذي قضىٰ مع تروتسكي عددًا من السنين. اتضح أن جان يمكث في شقةٍ في المدينة، فاقترح ماكس أن نعود في الصباح.

تردَّد أمامي اسم تروتسكي لأولِ مرةٍ حين كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري. كان ذلك بعد الحرب العالمية الأولىٰ، في بلدة زراعية ذات ثلاثة آلاف نسمة آنذاك بولاية يوتا الأمريكية، حيث كان أبي يعمل خياطًا. حتىٰ في هذه البلدة، كانت الثورة الروسية، التي أطاحت بالقيصرية، لها اعتبارها، وكانت تُناقش كثيرًا، علىٰ الأقل بين المهاجرين الذين جاء معظمهم من إسكندنافيا. كانت السياسات السائدة في البلدة خليطًا رجعيًا من الجمهورية والمورمونية[33]، وحتىٰ الصحيفة الأسبوعية المحلية، "ريتشفيلد ريبر"، كانت مناهضة للبلشفية، رغمَ أن المُحرِّر، الذي كان منبوذًا بقدرٍ كبير، كان ديمقراطيًا بعض الشيء. لازلت أتذكَّر العناوين الرئيسية التي تمحوَرَت حول الهزيمة الوشيكة لتروتسكي والجيش الأحمر. كانت مثل هذه العناوين تتكرَّر كثيرًا. وبالنسبةِ لطفلٍ اندفع مبكرًا في اتجاه التمرُّد، كان من الطبيعي أن يُفضِّل تروتسكي وجيشه الأحمر.

---

[33] عقيدة مسيحية انبثقت من حركة قديسي الأيام الأخيرة، تأسَّست عام 1820. (المترجم)

بدأت أهتم بالسياسة، وبالحملات والنقاشات المتعلِّقة بها، حين كنت في العاشرة. كان ذلك في عام الانتخابات التي نهض فيها كوكس لمناطحة هاردينج[34]، تلك الانتخابات التي أتذكَّرها جيدًا، فقد قرأت عنها في المكتبةِ العامة كتيبًا ربما دسَّه واحدٌ من المهاجرين يُدعىٰ ووبلي. وكان حينها دانيال دي ليون هو من كَشَفَ أمر التعريفة الجمركية، والتي كانت قضيةً جوهريةً في يوتا، الشهيرة بصناعة سكر الشمندر. استخدَمَ دي ليون قضية السكر الكوبي منخفض التكلفة ليدفع برؤاه الاشتراكية ضد التعريفة. ردَّدَت هذه الفكرة في ساحة المدرسة، فكان درسًا لم أنسه مطلقًا منذ ذلك الحين في سهولة اكتسابِ سمْعة سيئة وصعوبة تطهير هذه السمعة مما لحق بها.

وبينما صرت معروفًا بأنني "اشتراكي"، وفي مقولةٍ أخرىٰ "قاذف قنابل"، لم أكن قد تعرَّضت جديًا لدراسة الماركسية، والتيارات المختلفة في الحركات الجذرية، إلا فقط حين دخلت جامعة يوتا، في أثناء كارثة الكساد الكبير. وبعد عامين من ذلك، مررت بكافة هذه التيارات إلىٰ أن انضممت للتروتسكيين، المُنظَّمين في ذلك الوقت في "العصبة الشيوعية الأمريكية". تحفَّظت علىٰ بعض الأمور، بالأخص ما بدا لي أنه طريقةٌ غامضةٌ في عرض بعض القضايا في الصحافة التروتسكية، لكن أمانة وتدقيق ووضوح هذه الصحافة، وكذلك

---

[34] الانتخابات الرئاسية الأمريكية 1920. (المترجم)

طبيعتها البحثية ومنطقها وبرهانها في القضايا الكبرىٰ، كانت مُقنعةً لي تمام الإقناع. والطريقة التي اقتحم بها الستالينيون اجتماعًا كان ماكس شاختمان من نيويورك يتحدَّث فيه عن الأحداث الألمانية ودور ستالين في تعبيد الطريق أمام هتلر، فقد أسهمت أيضًا في انجذابي نحو الحركة التروتسكية.

كان ذلك في العام 1934، في مدينة سولت ليك، عاصمة ولاية يوتا. كان تروتسكي حينها في فرنسا، حيث حظيٰ بلجوءٍ مؤقت، وقدرٍ أكبر من الأمان عمَّا كان في برينكيبو التي تقع تحت جناح الاتحاد السوفييتي والشرطة السرية الستالينية. وسرعان ما استجابت الحكومة الفرنسية للضغوط السوفييتية، وكذلك لمخاوفها هي نفسها من تأثير تروتسكي علىٰ المشهد السياسي الذي يموج بالأزمات، مما جعل لجوءه فيها غير محتَمَلٍ، ومن ثم ألغت هذا اللجوء وطردته خارج البلاد.

كان وضع تروتسكي بائسًا. أما بالنسبةِ لنا، نحن الشباب الثائر آنذاك الذي انتهج مسيره، فقد كنَّا شغوفين بالتحرُّك من أجله، وكان من المؤلم أن نقف مكتوفي الأيدي غير قادرين علىٰ فعلِ الكثير.

ثم جاء دور النرويج لتمنح ذلك الرجل علىٰ الـ"الكوكب بلا تأشيرة" لجوءًا فيها. لكن هذا أيضًا لم يكن إلا ملاذًا مؤقتًا، بعد أن مارَسَ ستالين ضغوطه علىٰ النقل البحري النرويجي وصادرات

منتجات الأسماك التي تعتمد عليها النرويج. وُضِعَ تروتسكي فعليًا تحت الإقامة الجبرية حين بدأت المرحلة الأولىٰ من محاكمات موسكو الصورية "الكبرىٰ" في العام 1936، بعد أن حُكِمَ عليه هو وابنه ليون سيدوف غيابيًا بالإعدام باعتبارهما المُتهمَين الرئيسيَّين. بدا لبعضِ الوقت أن تروتسكي قد يُرحَّل من النرويج، أو بعبارةٍ أخرىٰ أن يُسلَّم لجلّادي ستالين.

وهنا، منحت الحكومة المكسيكية تروتسكي حق اللجوء تمامًا في الوقتِ المناسب. اتخذ الرئيس المكسيكي آنذاك، لازارو كارديناس، قراره بقبول تروتسكي في بلاده، لأنه كان مؤمنًا حقًا بالديمقراطية البرجوازية، ولأن الفنان المكسيكي الرائد، دييجو ريفيرا، والذي كان من أتباع تروتسكي، جاء إليه شخصيًا طلبًا لذلك. أظهر القرار أيضًا أن تراث الثورة المكسيكية في 1910 كان لا يزال حيًا.

الآن وصل تروتسكي مدينة كايوويكان. إلىٰ متىٰ سيستمر بقاؤه هناك حتىٰ يجد سفَّاحي ستالين إليه سبيلًا؟

كان كل ذلك يدور في خلدي. من وجهة نظري، يُعد تروتسكي واحدًا من عمالقة التاريخ، رمزًا هائلًا يلوح في الأفق بعيدًا في عصرٍ آخر. لكن أناسًا علىٰ اطلاعٍ كانوا قد حذَّروني سابقًا أن من الصعب البقاء جنبًا إلىٰ جنبٍ مع تروتسكي.

في شمس الصباح المُشرِقة، بدت كايوويكان مختلفةً عمّا كانت في الليلة السابقة. أشجار الكينا العالية كانت تسمو أعلىٰ من الجدران التي تسلّق عليها نبتة الجهنمية الأرجوانية. وفي الباحات كانت شجيرات الغرنوق منتشرة. كانت رائحة الفحم المُحترِق من أكواخ الفقراء بمثابة عطرٍ يبعث علىٰ السرور. كانت كايوويكان فاتنة، لم تتغيّر منذ أيام كورتيس. وكانت الجدران الزرقاء لبيت فريدا كاهلو، الذي انتقل إلىٰ عائلة تروتسكي، تحتضن حديقةً لم يُكدِّر غبار الشارع غير المرصوف صفوها.

في باحة البيت، كانت هناك الكثير من شجيراتِ الورد، وشجرةٌ برتقاليةٌ متألِّقةٌ تنضح بالحياة. صعدنا الدرجات الأربع المؤدية إلىٰ الممشىٰ ذي الدرابزين الرابط بين الغرف التي تحيط بالباحةِ من ثلاث جهات.

هناك رأيت تروتسكي لأولِ مرة. خَرَجَ من غرفة السكرتارية المتصلة بغرفة نومه هو وناتاليا. لم يكن تروتسكي طويلًا كما توقّعت. كانت مشيته نشيطة بينما كان يتقدَّم نحوي. كان مسرورًا، كما بدا علىٰ وجهه علىٰ الأقل، واحتضننا بلطفٍ ومودة.

سألنا عن رحلتنا وحال الرفاق في نيويورك. استرخيت علىٰ الفور دون تكلُّفٍ، لأنه رحَّبَ بنا هكذا لتسهيل الأمور علينا.

يُعد المصدر الأساسي اليوم للمعلومات عن حياة تروتسكي في كايوويكان هو المجلد الثالث والأخير من سيرة إسحق دويتشر[35] عن تروتسكي، والذي حَمَلَ عنوان "النبي المنبوذ". اعتمد دويتشر، حصريًا في الأغلب، علىٰ كل ما وصلت إليه يده في هارفارد. وأتاحت له ناتاليا الفرصة ليتفحَّص الأقسام المُغلَقة، مما مكَّنه من قراءةِ مواد ليست مُتاحة بعد للجمهور. ولقد أورد بالفعل بعضًا مما توصَّل إليه في هذا المجلد المُشار إليه، ليمدنا بحقائق جديدة وقيِّمة ذات طبيعةٍ شخصية. لكن الكثير من المعاني الكامنة وراء هذه الحقائق كانت مجرد تخمينٍ من دويتشر. وبالإضافة إلىٰ ذلك، هناك أيضًا أسبابٌ أخرىٰ للإشارةِ إلىٰ بعض التحفُّظات لديّ حول هذا المجلد.

قرَّرَ دويتشر ألا يسعىٰ وراء المعلومات من بعض معاوني تروتسكي في تلك الفترة، الذين كانوا لا يزالون علىٰ قيدِ الحياة وقت كتابة المجلد. وعلاوة علىٰ ذلك، لم يزر المكسيك، ورغم أنه سافر إلىٰ الولايات المتحدة، لم يتواصل مع حزب العمال الاشتراكي، الذي اضطلع قادته بدورٍ خاصٍ في السنواتِ الأخيرة من حياة تروتسكي.

---

[35] إسحق دويتشر (1907 – 1967): كاتب وسياسي وصحفي ماركسي بولندي الأصل، انتقل إلى المملكة المتحدة مع اندلاع الحرب العالمية الثانية. معروفٌ بالسيرة التي كتبها عن ليون تروتسكي في ثلاث مجلدات: "النبي المسلَّح"، و"النبي الأعزل"، و"النبي المنبوذ". (المترجم)

ولاحقًا في لندن، عَرَضَ عليّ دويتشر هذا المجلد فقط في مسودته النهائية. وجدته ممتازًا بشكلٍ عام، لكن يتضمَّن الكثير من الأمور غير الدقيقة، فيما لم يكن من السهل تصحيح وتدقيق كل ذلك آنذاك. وبالطبع لم يكن بوسع دويتشر أن يفعل الكثير بأي معلوماتٍ جديدة. ومثالٌ علىٰ صعوبة إدخال تعديلاتٍ علىٰ المسودة هو الوصف المذكور للصور في مواجهة الصفحة رقم 480: "منظوران لـ"القلعة الصغيرة" في كايوويكان". لكن، في الواقع، لم تكن الصورتان لمنزلٍ واحد، بل لمنزلين مختلفَين أقام تروتسكي فيهما، واحدًا بعد الآخر. لم يكن دويتشر علىٰ درايةٍ بذلك.

أما بخصوص الأمور المُتعلِّقة بتفسيرات دويتشر لتلك الفترة في حياةِ تروتسكي، تلك الأمور التي تُعد أهم في الحقيقة، فكان من العبث أن أدخل في المزيد من المجادلات حولها، فلقد تناقشت مع دويتشر بإيجازٍ، ومن ثم تركت الأمور التي كنًّا "مختلفَين" فيها تأخذ مجراها.

تلخَّصَت الصورة التي رسمها دويتشر لسنواتِ كايوويكان في كربٍ لا يزول. يُصوِّر دويتشر الحياة في بيت تروتسكي وكأنها معركةٌ يائسة دائمة ضد جلَّادي الكرملين. وليس هكذا كانت تجري الأمور.

ظلَّ النضالُ جاريًا، لكن في خلفية المشهد، جزءٌ من الحياة اليومية، ولم يكن يتطفَّل كثيرًا إلىٰ الصدارة. في الحقيقة، كانت إحدىٰ المشكلات تتمثَّل في الحفاظ علىٰ درجةٍ من الحرص والانتباه. سار

ذلكَ علىٰ الجميع دون استثناء. وحتىٰ ناتاليا كان صبرها ينفذ في بعضِ الأوقاتِ بمعايير الأمن التي تطلَّبَت أن يبقوا ملاصقين لها في كل خطوة. كان قرار ستالين بأن يُقتَل تروتسكي بأي ثمن معروفًا ومفهومًا للجميع في البيت، لكن أيًا منًا لم يدرك بأية وسيلة قد تسعىٰ الشرطة السرية السوفييتية لفعلِ ذلك. وبغض النظر عن القواعد والضوابط التي وُضِعَت لتلبي المُتطلبات الأمنية، اعتاد "النزلاء"، كما اعتدنا أن نُطلِق علىٰ أنفسنا، عليها كجزءٍ دائمٍ من الحياة اليومية، أو بالأحرىٰ كروتينٍ لا ينقطع إلىٰ درجةٍ صار فيها غير ملحوظٍ بالنسبةِ لنا. حاولنا مرارًا كسر هذا الروتين بأساليب من هذا النوع أو ذاك، وأحيانًا كانت الأمور تسير من دون معارضةٍ تُذكَر. الحياة في ظلِّ الاعتياد والروتين، أي الحياة هكذا بالقصور الذاتي، تُعد مشكلةً كبيرةً حتىٰ بالنسبةِ لمجموعةٍ صغيرة شديدة الإخلاص وعلىٰ استعدادٍ لتقديم تضحيات – ناهيكم أنها كانت مجموعةً من الثوريين.

الحقيقة أن تركيز تروتسكي الرئيسي لم يكن مُنصبًّا علىٰ هذه المعركة الخاصة ذات الطبيعة القتالية، رغم أنه كان المُستهدَف المركزي فيها. لقد شارَكَ في هذه المعركة كبلشفيٍ مُنضبط وكرجلٍ عسكري، لكنها لم تكن شغله الشاغل بالطبع. لقد صبَّ تروتسكي جمَّ تركيزه علىٰ الأممية الرابعة، ولا مجال للشكِّ في هذا. لقد امتصَّته الأممية الرابعة ووَهَبَها طاقةً ونشاطًا لا محدودَين.

كانت مقالات الصحافة العامة تُكتَب علىٰ مضضٍ دون حماس، وحين تَشِح الأموال – وفي بعض الأحيان كانت شحيحة للغاية – كان يكتب غالبًا كما لو كانت مجرد ارتزاقٍ لا أكثر، نادمًا علىٰ الوقتِ المُهدَر فيها. ومن ثم يستلم شيكًا من الناشر، وبأمواله يعيش فترةً أخرىٰ، وهكذا. كان موقفه من تأليفِ كتبٍ تهتم بها دور النشر هو نفس موقفه من كتابةِ المقالات. وقد وافق علىٰ كتابةِ سيرةٍ لستالين فقط بعد معارضةٍ قويةٍ من جانبه، وفقط بعدما تجاوَزَ معاونوه هذه الاعتراضات بأن أقنعوه بإمكانية إدراج مادةٍ ذات أهميةٍ خاصة بالنسبةِ للأممية الرابعة. جادلته، علىٰ سبيل المثال، بأنه قد يستخدم ستالين كستارٍ ينطلق بعده إلىٰ سرد تاريخ الحزب البلشفي، وبأن لهذا أهميةً كبيرةً للجيل الذي أنتمي إليه. وعلاوة علىٰ ذلك، كان دائمَ التأجيل للعمل علىٰ سيرة لينين لأنه كان مُستغرَقًا تمامًا في التطوُّرات الداخلية للأممية الرابعة.

لكن دويتشر صوَّرَ انشغال تروتسكي بالأممية الرابعة كنقطةِ ضعفٍ مؤسِفةٍ لا كعبقريةٍ بارزة. أما نحن الذين كنَّا نعيش معه، فقد اعتبرنا هذا الانشغال دليلًا علىٰ وحدةِ هدفه وسطوعِ غرضه وقدرته علىٰ أن يضع هذا العمل علىٰ رأس أولويات مشاريعه.

بالنسبة لطاقم الحرَّاس والسكرتارية، كانت كايوويكان مدرسةً للأممية الرابعة. كان كلٌّ منَّا يتبع دراساته الخاصة، وكنَّا ندرك أن تروتسكي يريد أن يوصينا بهذه الدراسات، لكن دون تدخُّلٍ مباشرٍ أو

فرضها علينا - كان مثلًا يمرُّ علينا في حجراتنا بشكلٍ غير مُتوقَّعٍ ويسأل عن كتابٍ وما إذا كان أحدُنا قرأه في وقتٍ مضىٰ. كنَّا نعقد محاضراتٍ نتناول فيها مواضيع شتىٰ، بما في ذلك تدريس الإسبانية للحرَّاس الأميركيين. وكان تروتسكي يستغل كلَّ ما يفعله، بما في ذلك تنظيم دفاعاتنا، وتأسيس علاقاتنا بالخارج، والتوصُّل إلىٰ القرارات السياسية، والرد علىٰ المراسلات الطويلة، وحتىٰ المقالات التي كان يكتبها، من أجل أن يُمرِّر لنا كل ما يستطيع من إرث الماضي. بدا أن ما مِن أسلوبٍ تربويٍ مُتعمَّدٍ في ذلك، بل كان ذلك هو الطريقة التي نوقشت وقُرِّرَت ونُفِّذَت وفقها كل الأمور.

كان يراقب أعمالنا بصرامة، فسرعان ما صارت الحياة بائسةً بالنسبةِ لأولئك الذين وجدوا صعوبةً في التخلُّصِ من العادات البوهيمية، أو أولئك الذين وجدوا طريقهم وعرًا بحيث لم يمكنهم اجتيازه إلىٰ الدقة والإحكام والدأب.

كانت أفضل الأيام هي تلك التي جاءتنا فيها أنباءٌ عن تطوُّراتٍ مُبشِّرةٍ في واحدٍ أو أكثر من قطاعات الأممية الرابعة، في حين كانت النجاحاتُ بصورةٍ عامة متواضعة. وأكبر المناسبات كانت حين يزورنا أعضاءٌ من الأممية الرابعة من بلدانٍ أخرىٰ. وهذا في حدِّ ذاته كان يعني الكثير من الاجتماعات والنقاشات، والجدالات القوية في بعض الأحيان - إذ لم يكن أيٌّ من أتباع تروتسكي، أيٌّ من أولئك الذين تشرَّبوا بروحه، يتردَّد في التعبير عن اختلافاته إن وُجِدَت.

وبعد أسابيع لاحقة، تأتي زيارةٌ أخرىٰ، وهو ما كان يُعد مؤشرًا علىٰ أن مراسلات تروتسكي كانت تؤتي ثمارًا.

ومن ثم جاءت زيارة جيمس كانون وغيره من قادة حزب العمال الاشتراكي، تلك الزيارة التي كتب فيها تروتسكي الوثيقة الرئيسية للمؤتمر التأسيسي اللاحق للأممية الرابعة في العام 1938، وهي "احتضار الرأسمالية ومهام الأممية الرابعة"، وقد جاءت تحت اسم "البرنامج الانتقالي" لتضطلع بدورٍ رئيسي في المفاهيم البرنامجية للعالم في الحركة التروتسكية.

لم تُسجَّل المناقشات التي ألهمت تروتسكي بكتابة هذه الوثيقة – أجهزة التسجيل كانت لا تزال في علمِ الغيب. لكن دُوِّنَت الأجزاءُ الهامة في هذه المناقشات علىٰ عجالةٍ بخطِ اليد بواسطة طاقم سكرتارية تروتسكي، ومخطوطات الملاحظات مُتاحة الآن بالإنجليزية – كانت المناقشات تُجرىٰ بهذه اللغة. وتُقدِّم هذه المخطوطات صورةً جيدةً عن طبيعة الاجتماعات مع تروتسكي في فترةِ كايوويكان.

ولعلَّ تبادل الآراء قد امتد لفترةٍ أطول مما قد يظن القارئ لدىٰ اطلاعه علىٰ المخطوطات. استمرت المناقشات، إن كانت ذاكرتي دقيقةً، لعشرةِ أيامٍ أو أكثر. وتضمَّنت المناقشات أيضًا بعض الأمور الشخصية الصرفة. وتعرض هذه المخطوطات أكثر المناقشات حريةً

في شتىٰ أنواع المشكلات التي تواجهها الأممية الرابعة. وبصرف النظر عن كيفية بدء المناقشات، حتىٰ وإن بطريقةٍ غير رسمية، فقد كانت تصب دائمًا في السياسة، خاصةً سياسات الأممية الرابعة.

كانت هناك أوقاتٌ احتفاليةٌ أيضًا في كايوويكان. وفي أيِّ وقتٍ كان أحد الحرَّاس، أو أحد أفراد طاقم السكرتارية يعود إلىٰ وطنه، كنَّا ننظِّم حفلةَ توديعٍ تليق به. وفي 7 نوفمبر من كل عام، كنَّا نحتفل بهذا العيد[36] مرتدين أزهارًا حمراء أو قرنفلًا أحمر.

وفي العام 1937، احتفلنا بالذكرىٰ العشرين لثورة أكتوبر. جاء دييجو ريفيرا وفريدا كاهلو جالبين معهما باقة كبيرة من القرنفل الأحمر وزيَّنوا بها الطاولة الطويلة التي جَلَسَ إليها كلُّ من في المنزل لتناولِ الطعام، فيما عدا الحرَّاس في أثناء تأدية خدمتهم.

كان دييجو وفريدا يقصُّون رؤوس القرنفل، وأمضيا ساعاتٍ طوال في ترتيبهم علىٰ المفرش الأبيض الذي غطَّىٰ مقدمة الطاولة، حيث جَلَسَ ليف دافيدوفيتش وناتاليا. في البداية، عملت فريدا عليها بعض الوقت، ودييجو كان ينظر إليها بنظرته المعتادة ووجهه الذي يشع البهجة. كانت فريدا في صورةٍ رائعة، بزيِّها المكسيكي الشعبي وضفائرها المُشرِقة السوداء الكثيفة الملفوفة علىٰ رأسها. بدأت الأمر

36 يوافق هذا اليوم منتصف الخريف في النصف العلوي من الكرة الأرضية، ومنتصف الربيع في نصفها السفلي. (المترجم)

كله من جديد بعد أن كان دييجو هو من يتولّاه، ثم بعد ذلك انشغل بالقرنفل وأخذت فريدا تراقبه. شكّلوا بالأزهارِ رقم 4 علىٰ الطاولة وإلىٰ جوارها كلمة "الأممية"، ثم أعادوا كل ما فعلوه مرةً أخرىٰ بأبعادٍ مختلفة. وفي النهاية، استقر الأمر علىٰ كلمة "الرابعة - La Cuarta". كانت رائعة.

وفي الفجر، بدأت فرقة الماريمبا، التي استأجرها دييجو وفريدا، في العزفِ أمام نافذةِ غرفةِ ليف دافيدوفيتش وناتاليا. لا أتذكَّر أي مقطوعةٍ عزفتها الفرقة أولًا، إذ كان الأمر كله مفاجأة. علىٰ أيةِ حال، كانت تلك طريقةً لطيفة للاستيقاظ في المكسيك في يومِ ذكرىٰ ثورة أكتوبر، والذي كان أيضًا عيد ميلاد ليف دافيدوفيتش.

وخلال اليوم، امتلأت باحة المنزل بالناس القادمين للاحتفال. كان أغلبهم من فقراء المدينة ومن أعضاء النقابات التي نَشَطَ فيها أنصار تروتسكي. جلبوا معهم أطعمةً، علىٰ سبيل المهاداة، منها دجاجاتٌ مربوطةٌ سيقانها، وعبواتٌ لمشروباتٍ بنكهةِ الشيكولاتة، وغير ذلك. كان الرجال يرتدون سراويلَ بيضاء وقمصان، بينما النساء تنورات فضفاضة من تلك الغامقة المنتشرة في المكسيك في ذلك الوقت. كانوا يرتدون صنادل جلدية في أقدامهم، فبدا الحضور تحت الشمس الساطعة تمامًا كحشدٍ من الطبقة العاملة. أما الطلاب، فكانت ملابسهم أكثر أناقة.

دُعِيَ تروتسكي بالطبع لإلقاء كلمةٍ، لكنني لاحظت أنه بدا متردِّدًا في قبولِ ذلك؛ لا شك أنه فضَّلَ تجنُّبَ الأمرِ برمته. فقد وَصَلَ إلىٰ المكسيك فقط في يناير السابق، وكان لابد من إلقاء الكلمةِ بالإسبانية. ورغم عزوفه، لم يكن أمامه مفر.

شجَّعَ نفسه، كما لو أنه كان يأخذ نفسًا عميقًا. وتقدَّمَ إلىٰ الدرابزين، وصار جاهزًا. وبمجرد صعوده، أسَرَ انتباهَ الجميع وأخذ يتحدَّث كما لو كان يفعل شيئًا طبيعيًا يقوم به يوميًا. اهتَزَّ صوته، وارتفع في مراتٍ في أثناء الحديث حتىٰ يُسمَع بسهولةٍ من علىٰ مسافةٍ أبعد.

تركَّزَ ما قاله علىٰ كلماتِ شكرٍ وتقدير، وبضع كلماتٍ أخرىٰ عن الثورة الروسية ومعانيها، علاوة علىٰ تعبيره عن امتنانه من استضافة المكسيك له ودفء الشعب المكسيكي.

لم تستغرق كلمته سوىٰ بضع دقائق، لكنه منحني لمحةً عنه كمُتحدِّثٍ رائع. كان من الواضح أنه أتقن فن الخطابة حتىٰ صار بالنسبة له سلسًا دون جُهدٍ يُذكَر. وقطعًا لم يكن من تلك المدرسة التي يتحدَّث روَّادها وكأنهم يقرأون محاضرةً أمام الجمهور وكوب الماء في اليد ويظلون ملتصقين بالمنصة.

وفي النهاية، استجاب الحضور لكلمة تروتسكي بالتعاطف والهتاف.

ومن موقعه الذي ظلَّ يراقب منه الأحداث في كايوويكان، ولع تروتسكي أكثر فأكثر بالمشهد السياسي الأمريكي. وكان من شأن التيار الهائل من الزوَّار، الذين كانوا يأتون إليه من كل شكلٍ ولون، أن يُوسِّع مداركه المعرفية من جوانب عديدة.

وذات مرة، ظَهَرَ مُدرِّسٌ شاب، كان من المتعاطفين المُلتفِّين حول الحزب الاشتراكي، ولم يكن يعلم عن التروتسكية إلا القليل. وكغيره من الأشخاص الذين لا يظهرون إلا عارضًا، قرَّر أنه يريد التحدُّث مع تروتسكي. اتضح أنه من أصلٍ فلاحي، لكن الأمرَ كان مُبهمًا بقدرٍ ما، وكان يُفكِّر في التخلي عن التدريسِ كمهنةٍ له. وبعد بضعة أيام، أخذني تروتسكي جانبًا وقال لي: "ألا يصلح لأن يكون حارسًا جيدًا؟".

فوجئت بهذا السؤال، بالأخص لأنني اكتشفت أنه محايدٌ من دعاة السلام.

قال: "ألا يمكنك إقناعه بأن يصبح حارسًا؟".

اعترضت علىٰ ذلك، فقد عرفنا عنه أنه من مكانٍ ما في الغرب الأوسط، وهذه ليست ضمانة للاعتماد عليه.

فقال تروتسكي: "إنه فلاحي أمريكي حقيقي".

اتضح فيما بعد لماذا أراد تروتسكي أن نضمه إلىٰ الطاقم. لم تتسن لتروتسكي أية فرصةٍ من قبل لدراسة الفلاحين الأمريكيين عن كثب، والآن صار لديه واحدٌ منهم في مُتناوَلِ يده.

وتجَّلىٰ لنا أن هذا الفلاح الأمريكي ليس إلا شخصًا لا نفع من ورائه. المشكلة الوحيدة معه كانت أنه لم يرد قتل أي كائن، والبشر بالطبع في المقامِ الأول. إلا أنه، في هذا الصدد علىٰ الأخص، وافق علىٰ إطلاق النار إذا تعرَّضنا للهجوم.

لكنه، مع ذلك، كان يعلم جيدًا كيف يعمل. كان خبيرًا في البناء، وكانت لديه الكثير من التصوُّرات حول ذلك. وكانت الدراسة هي أحد أسبابه للذهاب إلىٰ المكسيك. وفي النهاية، انضم بالفعل إلىٰ طاقم الحرَّاس، وجنَّدناه إلىٰ الحزب.

في الولايات المتحدة آنذاك، كان تهديد الفاشية قد صار واقعًا بالفعل. كان جناحٌ من الحركة الفاشية مرتبطًا بالفعل بالهتلرية، لكن القطاع الأغلب فيها كان تنوُّعًا دمويًا ساخطًا مُتطرِّفًا في وطنيته. وكان الديماجوجيون الفاشيون، كالأب جافلين[37]، قد التصق بهم صيتٌ

[37] المقصود هنا هو الأب تشارلز إدوارد جافلين (1891 - 1979)، وهو أحد قيادات الحركة الفاشية في الثلاثينيات في الولايات المتحدة. كان كنديًا - أمريكيًا، وهو من أوائل القادة السياسيين الذين استخدموا الراديو في الدعاية السياسية، وتشير بعض التقديرات إلى أن ما يقرب من 30 مليون مواطن أمريكي كانوا يستمعون إلى خطبه السياسية إلى أن أُوقِفَ عن البث في العام 1939. (المترجم)

سيءٌ علىٰ مستوىٰ البلاد. وكان تروتسكي قد لفت الانتباه إلىٰ هذا الرمز المشئوم، الذي لم يكن من السهل آنذاك تصنيفه كفاشي، ألا وهو هيج[38]، عمدة مدينة جيرسي، بولاية نيوجيرسي الأمريكية، وهو زعيمٌ سياسيٌ بالحزب الديمقراطي.

كان الزوَّار من أعضاء حزب العمال الاشتراكي الذين أتوا إلينا في كايوويكان يجلبون معهم آخر أخبار النضال ضد الفاشية في الولايات المتحدة. وقد انشغَلَ تروتسكي بهذا الأمر كثيرًا، حتىٰ أنه كان يقدِّم ما يلزم من التوصيات والمُقترحات من أجل نضالٍ أكثر فاعليةً في مواجهة هذا الخطر. وانعكس ذلك في الكثير من كتاباته في ذلك الوقت، بالأخص في البرنامج الانتقالي، لكن يبدو مُؤكَّدًا أن درجة انخراط تروتسكي في جوانب هذا العمل كانت غير معلومةٍ لدىٰ إسحق دويتشر.

علىٰ سبيل المثال، بخصوص إعداد طاقم الحرَّاس، اكتسب حزب العمال الاشتراكي الكثير من تروتسكي، مع أنه كان قد راكَمَ بالفعل مخزونًا قيِّمًا من الخبرة عبر عقودٍ من نضالات الإضرابات العمالية التي انخرطت فيها كوادره.

---

38 المقصود هنا هو فرانك هيج (1876 – 1956)، وقد تولَّى منصب عمدة مدينة جيرسي منذ مايو 1917 إلى يونيو 1947. (المترجم)

وفي النضال ضِد الفاشية، رأىٰ تروتسكي فرصًا لبناء حزب اشتراكي ثوري جماهيري علىٰ "الساحة الأمريكية". وبحيويته المُمَيِّزة له في مثل هذه القضايا الهامة، كان يضغط من أجل استثمار كافة الفرص المُتاحة.

أدرك تروتسكي تمامًا أن الحزب يُبنَىٰ عبر مراكمة وتثقيف الكوادر. وبصرف النظر عن الزوار الرسميين من الأحزاب، كان تروتسكي يولي اهتمامًا كبيرًا بالزائرين الشباب - وببعضٍ ممن هم ليسوا شبابًا - وكان يُردِّد بشأنهم السؤالين التاليين: هل من الممكن تجنيدهم؟ وإن لم يكن ذلك ممكنًا، هل من الممكن أن يسهموا بتبرعاتٍ ماليةٍ للحركة؟ لديّ الكثير لأقوله فيما يتعلَّق بهؤلاء الزائرين من واقع العمل القريب إلىٰ تروتسكي. حين كان أحدهم يُجنَّد للحزب أو يسهم بتبرعٍ مالي مُعتبَر، أو أن يجمع بين الاثنين معًا، لم يكن تروتسكي يخفي سعادته بذلك.

وبالنسبةِ لنا، نحن المُنخرطين في أعمال تروتسكي وأنشطته، كان من الطبيعي للغاية أن نراه يعطي الأولوية القصوىٰ للمعركة الداخلية في حزب العمال الاشتراكي في العام 1939. لم تتضمَّن هذه المعركة القضايا السياسية والنظرية الأهم بخصوص مصير الثورة الروسية والدولة العمالية الأولىٰ فحسب، بل لقد انخرطت في هذه المعركة القطاعات الأكبر آنذاك في الأممية الرابعة، ومعها كافة كوادرها علىٰ المستوىٰ العالمي. ولم يشعر أيٌّ منّا بأيِّ اندهاشٍ من تنحية تروتسكي

كافة القضايا الأخرىٰ جانبًا ومنحه الأولوية للتطوُّرات علىٰ هذا الصعيد بالذات.

ما كتبه تروتسكي وقتذاك كان مُوجَّهًا خصيصًا لجمهورٍ مُحدَّدٍ ومحدود، وهو الجمهور الذي يحمل التراث البلشفي، ذلك الذي كمَنَت فيه الاستمرارية الحية للحركة الماركسية الثورية. وفي الكتابة لهذا الجمهور بالذات، لم يكن تروتسكي يُهدِر أي وقتٍ علىٰ الإطلاق؛ كان يعمل مباشرةً من أجل هدفٍ واحدٍ، وهو تأمين جيلٍ جديد يحمل هذا التراث. وبغرضِ توجيه كل طاقته للأممية الرابعة، لم يسمح حتىٰ للاعتداء الذي وَقَعَ علىٰ منزله بالبنادق الآلية في مايو 1940 بالتشويش علىٰ جهوده. أما بالنسبة للكوادر، كانت تلك الإسهامات الأخيرة لتروتسكي تُمثِّل بعضًا من أهم ما كتبه علىٰ الإطلاق.

كان التروتسكيون المكسيكيون يمدون الطاقم بانتظام بحارسٍ أو اثنين يشاركان في المراقبة الليلية أو خلال العطلات الأسبوعية. ومن بين هؤلاء كان المُعلِّم فرنانديس، الذي كان في الخمسينيات من عمره وله ثلاثة أبناء: أوكتافيو، وكارلوس، وماريو. كانت هذه العائلة أيضًا وثيقةَ الصلةِ بسكان المنزل. وفي بعض الأوقات، أثناء جولةٍ بالسيارة، كنَّا نزورهم في منزلهم المتواضع بمقاطعة تاكوبا. وسرعان ما كانت

كل زيارةٍ تتحوَّل علىٰ الفور إلىٰ حفلةٍ غير معدٍ لها، حيث كانت زوجته تجلب لنا البلكي[39] الذي أعدته بنكهاتِ فواكه مختلفة، ثم تُرسِل أصغر أبنائها ليجلب المزيد من البلكي والجعة. أما الفتاتان الصغيرتان، جارسيلا وأوفيليا، فكانتا رشيقتين وجميلتين بصورةٍ استثنائية، وكانتا كبقيةِ أفراد العائلة، ترقصان برشاقةٍ وخفة، وتلحَّان علىٰ الحرَّاس، الذين يميلان عادةً إلىٰ الحرج، لينضموا إليهما في الرقصة الشعبية المكسيكية التي اعتادتا عليها. وإن لم يكن أحد الحرَّاس يعرف كيف يرقصها، فكان يتعلَّمها منهما بسهولة. أما تروتسكي، فكان يأخذ صف الفتاتين في الضغط علىٰ الحرَّاس لمشاركتهما الرقص، رغم أنه وزوجته لم يحاولا الرقص قط. فالرقص للشباب، وكذلك البلكي والجعة.

كان بعض أعضاء طاقم الحرَّاس مُدقعي الفقر؛ أتوا مرتدين صنادل بالية من قطعٍ مُمَزَّقةٍ من إطارات السيارات، ومعاطف السيرابي الرمادية التي يمكن رؤيتها في المناطق الأفقر في المكسيك. كان تروتسكي يُقدِّر مشاركتهم في الطاقم بإجلالٍ بالغ. بعضهم كان يقطع مسافةً طويلةً بعد يومِ عملٍ شاق للمشاركة في الحراسة. وقد أتاحت مشاركتهم لتروتسكي الفرصة للتحدُّث مباشرةً مع مُمَثِّلين عن هذه الطبقة من السُكَّان. كان يستمتع بصورةٍ خاصة بالحديث مع رفيقٍ

---

[39] مشروبٌ كحولي شعبي في المكسيك. (المترجم)

كان أميًّا، وكانت كل محادثةٍ بينهما تمتد نحو ساعةٍ أو أكثر تحت الأضواء الخافتة في الباحة. كان ذلك العامل المكسيكي يجلس عاقدًا ذراعيه تحت السيرابي، فيما لم تكن تظهر علىٰ وجهه أية إيماءات، حتىٰ بدا متبلِّدًا بارد الطبع..لكنه، في الحقيقة، كان واسع المعرفة بشكلٍ مُدهِش، ولم يكن يتردَّد في التعبير عن آرائه.

جذبت المكسيك اهتمام تروتسكي بقوة. وكما أخبرنا، كان حلوله علىٰ بلدٍ لاتيني تجربةً تثقيفيةً في المقامِ الأول. أتذكَّر ملاحظتَين أبداهما لنا حول ما تعلَّمه من هذا البلد؛ الأولىٰ كانت قدرة البرجوازية الساخطة في بعضِ الأوقات علىٰ الاضطلاعِ بدورٍ مستقلٍ نسبيًا في علاقتها بالإمبريالية. كانت البرجوازية المكسيكية، بزعامة كارديناس، قادرةً إلىٰ حدٍّ بعيد علىٰ تعبئة العمال كقوةٍ داعمةٍ لها بغرض نيل بعض التنازلات من الإمبريالية. وبعد تأميمها صناعة النفط، وضعت الحكومة إدارة هذه الصناعة في أيدي العمال. لكن تروتسكي، في تناوله للطريقة التي تحشد بها البرجوازية المكسيكية العمال حولها، لم يكن لديه أي أوهام بشأن دورٍ "مستقلٍ" تمامًا للبرجوازية في الثورة علىٰ الكولونيالية، إذ – كما ذَكَرَ هو بنفسه – في اللحظةِ التي بدأ فيها العمال والفلاحين جديًا في طرح مطالبهم الخاصة، قلَبَت هذه البرجوازية نفسها موقفها رأسًا علىٰ عقب والتحقت بالإمبريالية في وأدِ الحركة الأوَّلية تجاه الثورة الاشتراكية. أما الملاحظة الثانية فكانت حول أهمية الأرستقراطية العمالية في بلدٍ كالمكسيك. كانت هذه

الشريحة رفيعةً بشكلٍ استثنائي، وكان مستوىٰ معيشتها أدنىٰ كثيرًا من مثيلاتها في البلدانِ الصناعيةِ المُتقدِّمة. لكن، مع ذلك، كان وضع هذه الشريحة، بالنسبةِ إلىٰ بقية العمال، مُتميِّزًا كثيرًا عن وضع الأرستقراطية العمالية في البلدان المُتقدِّمة بالنسبة إلىٰ بقية العمال هناك. وبالتالي شكَّلَت تلك الشريحة قوةً شديدة المُحافَظة، ما يجعلها عقبةً كبيرةً في طريق الثورة الاشتراكية.

اهتم تروتسكي بالقطاع المكسيكي من الأممية الرابعة، لكنه لم يستطع المشاركة في أنشطته بسبب شروط اللجوء. وكغيره من القطاعات حديثة النشأة في الأممية الجديدة، واجهت الحركة المكسيكية مشكلاتٍ في النمو ازدادت تعقيدًا بسبب نقص الخبرة، وهذا ما جَعَلَ الرفاق المكسيكيين يسعون لمشورة تروتسكي.

لكن أحيانًا كانت المنظمة تتخذ خطواتٍ تضر بتروتسكي نفسه. فمثلًا، تحت تأثير أحد المهاجرين من الثورة الإسبانية المهزومة، وهو جرانديزو مونيس، طَبَعَ القطاع المكسيكي في الأممية مُلصَقًا ضخمًا كان من المُفترَض أن يُنشَر علىٰ الحوائط بغرضِ التأثير علىٰ أحد الإضرابات من خارجه. وحَمَلَ المُلصَق كلمةً واحدةً بحروفٍ ضخمة: "التخريب".

بالطبع من المشكوك فيه أن تكون الدعوة للتخريب قد حظت بتأثيرٍ علىٰ مسار الإضراب. ومع ذلك، كان لهذه الخطوة اليسارية

المُتطرِّفة أثرٌ كبير. وقد ثار الرجل العجوز غضبًا من هذا الافتقار الواضح إلىٰ الفكر السياسي.

لابد هنا من توضيحِ أن مونيس كان تروتسكيًا مخلصًا؛ قاتَلَ في الحرب الأهلية الإسبانية، وبعد رحيل تروتسكي قام بدورٍ هام لسنواتٍ عديدة في مساندة ناتاليا ودعمها. وكان لذلك تأثيرٌ يؤسَف عليه فيما يتعلَّق ببعض القرارات السياسية لناتاليا. ولاحقًا، انتقل مونيس إلىٰ فرنسا، ومن هناك سرًا إلىٰ إسبانيا حين بدا أن انتفاضةً جماهيريةً علىٰ وشكِ أن تندلع. ومن ثم ألقت شرطة فرانكو السياسية القبض عليه وقضىٰ سنواتٍ طوالٍ في السجن.

ظَهَرَ تأثير تروتسكي علىٰ القطاع المكسيكي علىٰ نحوٍ مختلفٍ في تعاونه الأدبي في مجلة "كلاف" (وتعني "المفتاح")، التي بدأت تصدر في أكتوبر 1938 كمجلةٍ شهريةٍ للفكر الماركسي. تألَّفت هيئة تحريرها من أدولفو زامورا، وخوسيه فيريل، ودييجو ريفييرا، فيما كان أوكتافيو فيرنانديز مديرًا للتحرير. كان تروتسكي منجذبًا بشدةٍ لهذا المشروع، حتىٰ أنه صار ينخرط في أدق التفاصيل. وحين صَدَرَ العددُ الأول، وَجَدَ تروتسكي نسخةً منه موضوعةً علىٰ مكتبه، فأمسك بقلمٍ رصاص ليدوِّن ملاحظاته. كانت كلمة "كلاف" مطبوعةً علىٰ الغلاف بين قوسَين منصوصَين، فشَطَبَ تروتسكي علىٰ كلا القوسَين، وفي العدد التالي ظَهَرَ الاسم دون القوسَين.

ومن بين الأصدقاء الأقرب لأهل البيت في العام 1937 كان دييجو وفريدا، وقد كانا يترددان علىٰ البيت كثيرًا، وبالمثل كان تروتسكي وناتاليا يزوانهما في منزلهما في سان أنجل غير البعيدة عن كايوويكان. وامتدت تلك العلاقة الوثيقة إلىٰ أعضاء طاقم السكرتارية والحرَّاس، الذين كانت فريدا وأختها كريستين أقرب إليهم، إذ أنهم جميعًا ينتمون إلىٰ نفسِ الجيلِ الأصغر. أما دييجو، الذي كان في مطلع الخمسينيات من عمره آنذاك، فكان أقرب إلىٰ جيلِ ليف دافيدوفيتش وناتاليا.

كان دييجو هو من يُعد للرحلات إلىٰ الريف، علىٰ سبيل الاستجمام، إذ كان يريد أن يعرض المكسيك التي يعرفها أمام أصدقائه. وأحيانًا كانت مواكب هذه الرحلات تتألَّف من أربع أو خمس سيارات لمسافاتٍ بعيدةٍ علىٰ طرقٍ جبليةٍ وعرة.

كان تروتسكي مُنجذِبًا بشدة نحو دييجو، لخياله وسحره وشفافيته وحرارته كفنانٍ عظيم. أما من جانب دييجو وفريدا، فكان القاطنون بالمنزل مصدرَ إلهامٍ لهما، نظرًا لما مثَّلته المحادثات معهم من تحفيزٍ فكري؛ سواء مع ليف دافيدوفيتش وناتاليا، أو مع أفراد طاقم السكرتارية والحرَّاس، أو الزوَّار القادمين من بلدانٍ شتىٰ.

في النهاية، كما هو معروف، انقطعت هذه العلاقة. وعلىٰ المستوىٰ الشخصي، لم تكن ناتاليا مُنزَّهةً عن الخطأ في ذلك. أحيانًا ما كان

التوتُّر الرهيب الذي عايشته، والضربات البربرية التي لطالما تلقتها، بل وتوقُّعها بأخرىٰ جديدةٍ علىٰ الدوام، يظهر في صورةٍ من الضيق والانزعاج. كانت ناتاليا علىٰ درايةٍ بذلك، وحرصت علىٰ السيطرة علىٰ هذه الحالة كما قالت لي في رحلتنا من مكسيكو سيتي إلىٰ نيفو لاريدو حيث عبرت الحدود من أجل إعادة تسجيل السيارة الدودج. لكنها لم تنجح دائمًا في ذلك، وأحيانًا ما كنت تنفجر. والكثير مِمَّن كانوا في المنزل شهدوا مواقف كهذه. لم يلقوا بلائمةٍ علىٰ ناتاليا تقديرًا منهم لما تعايشه، لكنهم رغم ذلك كانوا يسمحون لأنفسهم أحيانًا بإصدارِ ردودٍ غاضبة. كان من الصعب للغاية علىٰ بعض الرفيقات - وهن المتمردات الثوريات - ألا يردون بنوعٍ من الدفاع عن كرامتهن. وبعد كلماتها القاسية، كانت ناتاليا، بندمٍ عميق، تحاول إصلاح الأمر علىٰ نحوٍ يكاد يكون مُفرِطًا. وفي بعض المواقف، كان بعضهن يشعرن بدهشةٍ من فرط ندمها أكبر من دهشتهن من قسوتها السابقة، التي بدت من علىٰ السطحِ غير مُبَرَّرةٍ ولا داع لها.

حدث هذا مع فريدا، فانسحبت غاضبةً مُرتبِكة. وبتعبيرٍ طغىٰ عليه الحزن، حكت لي ما حدث وكيف شعرت آنذاك. للأسف، لم يكن بالإمكان فعل الكثير لإعادة العلاقات لما كانت عليه.

الأمر الأهم من ذلك هو انخراط دييجو في دعم مُرشَّحٍ برجوازي في إحدىٰ الانتخابات. وعلىٰ أيةِ حال، كان من السهل علىٰ الستالينيين أن يستغلوا موقف دييجو هذا ليبدو أن تروتسكي هو من دفع دييجو

ليتخذه، وأن هذه الخطوة مُوجَّهة بالأساس ضد كارديناس. كان علىٰ تروتسكي أن يتبرأ علنًا من هذه الخطوة كي يُظهِر أن لا شأن له بها، وهي التي تُعد انتهاكًا لشرط لجوئه - ألا يتدخَّل في السياسة الداخلية في المكسيك - وكذلك انتهاكًا لمبادئه الرئيسية. باختصار، كان علىٰ تروتسكي أن يقطع صلته السياسية بدييجو.ريفيرا.

لا أعتقد أن تقدير تروتسكي الشخصي لدييجو قد تغيَّر البتة. فقد ظلَّ احترامه واعتزازه به كما هو، وكان حديثه عنه دائمًا يوحي بأن صداقتهما لم تُمَس. ولم يكن تروتسكي يرىٰ دييجو متماسكًا ومسئولًا تمامًا في السياسة، بل أن خياله وروحه هما ما اتسقا معه.

وفي فبراير 1938، كانت علاقة دييجو وفريدا مع تروتسكي وزوجته لا تزال وثيقة. وكان دييجو هو من دعانا بعد ظهيرةِ أحد الأيام ليسألنا عمَّا إذا كان نما إلىٰ علمِ أيٍّ منَّا أن ليون سيدوف قد توفي في مستشفىٰ في باريس. لم نكن نعلم أنه كان في مستشفىٰ حتىٰ، وقال دييجو إن الخبر مُؤكَّدٌ حتىٰ الآن، لكنه سيفعل كل ما في وسعه للتأكُّد التام ولو حتىٰ بالاتصال بباريس.

كانت ناتاليا في غرفتها، بينما لم يكن تروتسكي في أيٍّ من أرجاء المنزل. وخلال الأسابيع السابقة، شنَّ الستالينيون حملةً ضد تروتسكي في الصحافة. وقد اعتبرنا هذه الحملةِ مؤشرًا، ضمن غيره من المؤشرات، علىٰ أنهم يستعدون للإجهازِ علىٰ حياته. وعليه، رفعنا

من احتياطاتنا. وفي الحقيقة، صرنا مقتنعين بأن محاولةً أخرىٰ قيد الإعداد لاغتيال تروتسكي، مما جعلنا نتخذ تدابير خاصة. هرَّبناه من المنزل إلىٰ فيلا مملوكةٍ لأحد المتعاطفين حيث يختفي عن الأنظار هناك لبعض الوقت. وفي حالةِ وقوعِ أي هجومٍ علىٰ المنزل، لن يجد المُعتدون تروتسكي هناك.

وفي ظلِّ هذه الظروف، قرَّرنا ألا نُخبِر ناتاليا عن التقريرِ الذي نُقِلَ إلىٰ دييجو. وفي وقتٍ مبكرٍ من الليل، جاء دييجو إلىٰ المنزل ليحمل لنا الخبر الأليم.

كان دييجو مُقرَّبًا إلينا جميعًا. كان مُتأثِّرًا ومرتبكًا للغاية، مثلنا كلنا، إزاء إخبار ناتاليا وليف دافيدوفيتش بما حدث. واعتقدنا أن الطريقة الأمثل هي ألا نُخبِر ناتاليا بل نُفصِح عن الخبر أولًا لليف دافيدوفيتش. أما بشأن تحديدِ مَن مِنَّا سيتولَّىٰ هذه المهمة، فقد مالَ الجميع في بادئ الأمر ناحيتي. وبعد تفكيرٍ في الأمر، ارتأيت أن أفضل من ينقل الخبر لتروتسكي هو دييجو نفسه، فقد كان الأخير من نفسِ جيله، وربما كان أقرب إلىٰ نفسه من أيٍّ منَّا نحن الذي كنَّا في أواخر العشرينات من العُمر. فكَّر دييجو في الأمر، ثم وافَقَ "طالما أنك ترىٰ أن هذه هي أفضل طريقة".

قدت السيارةَ إلىٰ الفيلا التي كانت بعيدةً بعض الشيء، وخَرَجَ دييجو بجسده الضخم منها نحو البوابة. سمعنا الجرس بمجرد أن

ضَغَطَ دييجو علىٰ الزر. رأينا ضوءًا كهربيًا ينبعث من الباب الذي فتحه خادمٌ وأدخَلَ دييجو إلىٰ الفيلا. وبعد نصف ساعةٍ أو ما يزيد، عاد دييجو وكان تروتسكي معه. ودون أن ينطق بكلمةٍ واحدة، دَخَلَ السيارةَ وجَلَسَ في المقعدِ الخلفي.

تنحنح دييجو قليلًا، وقال بالإنجليزية: "سنعود إلىٰ المنزل". جَلَسَ بجوارِ تروتسكي وأغلَقَ الباب. وطوال الطريق، لم ينبس أحدٌ ببنتِ شفة.

وفي المنزل، كان الحرَّاس يقظين. وحين وصلنا، فتحوا لنا الباب ذا المصراعين كالمعتاد كي ندخل مباشرةً دون أن نتوقَّف، مما يصعِّب الأمر علىٰ أي قنَّاصٍ قد يكون في المحيط، خرج تروتسكي علىٰ الفور من السيارة، وترجَّل عبر باحة الحرس إلىٰ الباحة الرئيسية ثم ذهب إلىٰ ناتاليا.

كانت المعاناة ظاهرةً عليهما في الأيام التالية، وكان بالإمكان ملاحظتها بسهولة بالأخص علىٰ وجه ناتاليا الذي بدا مُنتفِخًا من كثرةِ البكاء حين كانت تخرج بين الحينِ والآخر من ظلمة غرفتهما. لم نر تروتسكي لأيامٍ طويلة.

كنت قلقًا عليهما للغاية. وخَطَرَ ببالي الأثر المُفجِع لانتحار بول ولورا لافارج (بنت ماركس) علىٰ الحركة الاشتراكية الثورية في 1911 حين قررا في سن السبعين أن نفعهما وَصَلَ إلىٰ نهايةٍ مؤكَّدة.

تحدَّثَ لينين في جنازتهما في باريس، وقالت كروبسكايا إن لينين قال لها وقتذاك: "إن لم أعد قادرًا علىٰ العمل من أجل الحزب، فلابد أن أواجه الحقيقة وأموت مثلهما".

ربما من الحكمة أن يسأل الجيل الجديد نفسه أي دورٍ سعىٰ للقيامِ به إجلالًا لهما. علىٰ أيةِ حال، ولَّدَ ذلك الانتحار حزنًا عميقًا داخل الحركة الاشتراكية في ذلك الوقت، وكانت أصداؤه لا تزال تتردَّد حين انضممت للحركة.

دفعت هذه الفكرة إلىٰ الوراء، وقلت لنفسي إنها لابد وأن نشأت من ردِّ فعلٍ غامضٍ في نفسي، أو أنها فقط كانت تعكس قناعاتٍ سمعت آخرين يعربون عنها. ثم جاء راي، الذي كان قريبَ الصلة بناتاليا، والذي كانت مهمته هي أن يضمن وصول الوجبات إليهما وتوفير أي شيءٍ يحتاجانه علىٰ الفور، وأفصَحَ لي عن نفس التخوُّفات. لكن الأمر الأكثر إثارةً للقلق بصورةٍ خاصة هو المسدس الآلي الصغير الذي كان ليف دافيدوفيتش يضعه علىٰ مكتبه كثقلٍ يضعه علىٰ الأوراق. قرَّرنا إبعاده عن المكتب، وكان في المقامِ الأول يحتاج بعض التنظيف والتزييت.

وبعد عدة أيام، حين خرجت في جولةٍ تفقُّديةٍ في الباحة، رأيت باب غرفة النوم الخاصة بليف دافيدوفيتش ينفتح، ويخرج هو منه دافعًا منضدةً صغيرة في ضوء الشمس خارج الغرفة. جَلَسَ إلىٰ المنضدةِ

يكتب، وظلَّ جالسًا هكذا حتىٰ حلول الليل يعمل تحت ضوء مصباحٍ أعدَّه في مكانه لاستكمال عمله. راقبته لفترةٍ من الوقت، وكانت جبهته العريضة مُضاءةً في الباحة التي تكتنفها الظلمة. الأمر واضحٌ إذن؛ كان يعمل علىٰ مخطوطةٍ جديدة حتىٰ وقتٍ متأخر.

في الحقيقة، ما كان يكتبه العجوز هو مرثية لابنه: "ليون سيدوف: الابن والصديق والمقاتل".

لم يندمل الجرح بعد وفاةِ ليون لفترةٍ من الوقت. وحتىٰ الأمور البسيطة كانت تُقابَل بردودِ فعلٍ مُتفجِّرة. ترجمة المرثية، علىٰ سبيل المثال، جلبت لنا توبيخًا من ليف دافيدوفيتش، حتىٰ أن نصفها تُرجِمَ في كايوويكان والنصف الآخر في نيويورك نتيجةً لإصراره علىٰ سرعة إنجاز هذا الأمر. لكن أيًا من النصين لم يلق استحسانًا من جانبه، إذ لم يرق إلىٰ توقُّعاته. وكان مُحقًا في ذلك بلا شك، فالترجمة الإنجليزية لم تراع الفوارق الدقيقة في النص الأصلي بالروسية بالصورةِ التي أرادها.

بعض التغيُّرات البسيطة الأخرىٰ كان بالإمكان ملاحظتها. قبل وفاة ليون، كان العجوز وزوجته يجلسان أغلب الوقت في غرفة الطعام، يقرءان علىٰ أنغام الموسيقىٰ الكلاسيكية التي تبثها محطة راديو محلية. توقفا عن هذه العادة، ولم أكن أعرف السبب، في حين كانت ناتاليا تُقدِّر الموسيقىٰ أكثر من ليف دافيدوفيتش.

وبعد بعض الوقت، انتبهت إلىٰ تغييرٍ ملحوظٍ بدا علىٰ العجوز. كان من الصعب تحديد ماهية هذا التغيير علىٰ وجه الدقة، والتعبير الذي طرأ في بالي لتوصيف هذا التغيير، ألا وهو الطراوة، ربما لم يكن صحيحًا تمامًا. بدا أن ليف دافيدوفيتش لا يدفع الآخرين بالشدة التي كان قد اعتاد عليها من قبل. شعرت أنه كان يضع في اعتباره مواطن الضعف البادية علىٰ معاونيه. وقد دفع ذلك عنصرًا جديدًا في العلاقة بين قاطني المنزل. ربما يمكن الكشف عن هذا العنصر في النبرة التي كُتِبَت بها بعض الأجزاء التي انتهىٰ منها تروتسكي في سيرة ستالين قبل أن يرديه قاتله صريعًا.

ولم يزال الكربُ يُخيِّم علىٰ المنزل إثر وفاة سيدوف، حتىٰ أخذ ستالين خطوةً جديدةً خطيرة. في 23 فبراير، مرَّرَ الاتحاد النقابي في المكسيك، الذي هيمن عليه الحزب الشيوعي المكسيكي من خلال لومباردو توليدانو[40]، قرارًا مشينًا ضد تروتسكي يرمي إلىٰ الضغط علىٰ حكومة كارديناس لإلغاء حق تروتسكي في اللجوء وترحيله.

لم يكن هناك بديلٌ سوىٰ الرد الفوري. وهٰذا ما فعله تروتسكي في اليومِ التالي.

---

[40] لومباردو توليدانو (1894 - 1968): أحد أهم رموز الحركة النقابية في المكسيك. أسَّسَ اتحاد العمال المكسيكيين في العام 1936. (المترجم)

وما لم يكن معلومًا لنا ولا للرأي العام، آنذاك، هو أن في نفس اليوم الذي مرَّرَ فيه توليدانو هذا القرار عبر الاتحاد النقابي، وقَّعَ أندريه فيشينسكي، المدعي العام في الاتحاد السوفييتي، لائحة اتهاماتٍ ضد 21 شخصًا. وأُعلِنَ ذلك في موسكو في 27 فبراير، وافتُتِحَت المحاكمة في 2 مارس.

ومن بين المُتهَمين، كان هناك بعض الأسماء البارزة والمعروفة عالميًا، مثل نيقولاي بوخارين وأليكسي ريكوف. وكذلك تضمَّنَت قائمة المُتَّهَمين واحدًا من أخلص معاوني ستالين، وهو ياجودا، الرئيس السابق للبوليس السياسي السري ومهندس المحاكمة "الكبرىٰ" الأولىٰ في العام 1936، والتي راح فيها زينوفيف وكامينيف وآخرون منهم الصديق الصدوق لليف دافيدوفيتش وناتاليا لفترةٍ مديدةٍ من الزمن، ألا وهو كريستيان راكوفسكي.

وكما في المحاكمات السابقة، كان المُتَّهَم الرئيسي بالطبع هو تروتسكي، الذي حدَّدَه المُدعي العام بأنه المتآمر والمُدبِّر الرئيسي.

ورغم أن ستالين قد استغرق عامًا كاملًا في إعداد المخطوطة، لم تكن لديه أيُّ نيةٍ من أيِّ نوعٍ لإطالة العرض. ويُشار إلىٰ ذلك من خلال الإعلان الذي جاء فجأةً من ناحية، والوقت القصير الذي مُنِحَ للمُتَّهَمين قبل أن تبدأ المحاكمات من ناحيةٍ أخرىٰ. وكان غرض ستالين من الإسراع الشديد في هذا الشأن هو ألا يتيح مساحةً من

الوقتِ للدول الأخرىٰ كي تمارس ضغطًا من أجلِ محاكماتٍ عادلة. وكان من السهل توقُّع أن الدراما الدائرة في غرف المحاكمات ستكون وجيزةً خاطفة، وأن المُتَّهَمين - أو علىٰ الأقل أغلبهم - سيُعدَمون علىٰ الفور. وربما اعتمد ستالين علىٰ إنهاء الأمر برمته، بما في ذلك دفن الضحايا، قبل أن يتمكَّن تروتسكي من فضحِ صورية هذه المحاكمات. لكن القائد الثوري المنفي، وحفنة المعاونين المُلتفين حوله، حاولوا تجاوز ماكينة الدعاية العالمية الثقيلة للكومنترن والتي تدعمها القوىٰ الهائلة للدولة السوفييتية.

عقدنا اجتماعنا التشاوري الأول ربما في أول الليل، في نفس اليوم الذي تلقينا فيه هذه الأنباء. وفي كايوويكان، بالإضافة إلىٰ اجتماعاتنا ذات الطبيعة التثقيفية أو النقاشية حول الموضوعات السياسية المطروحة، كان طاقم السكرتارية والحرَّاس يعقد اجتماعاتٍ دوريةٍ - أحيانًا كان شهرٌ كاملٌ يفصل بين الاجتماع والآخر - لمناقشة جدول أعمالٍ يقتصر علىٰ مسائل تنظيمية تخص المنزل ونظام الحراسة. وغالبًا ما كان ليف دافيدوفيتش يحضر هذه الجلسات، لكنه بالكاد كان يتزعَّم بعضها. وفي حالاتٍ كانت الاختلافات تبلغ ذروة حدَّتِها، كان يتجنَّب الاضطلاع بدورِ الحكم بين المختلفين. لكن في هذا الاجتماع بالتحديد، أمسك تروتسكي بزمامِ الأمور منذ البداية.

وَضَعَ تروتسكي يده علىٰ المشكلة وحدَّدَها بدقة. لم يكن بوسعنا أن نعرف إلىٰ متىٰ ستمتد هذه المحاكمات، ربما تستمر فقط لبضعةِ

أيام. وخلال تلك الفترة، جذبت المحاكمات بالفعل الأنظار الدولية. وتعيَّن علينا أن نقول شيئًا علىٰ وجهِ السرع، بغض النظر عمَّا هو بالتحديد. كان التوقيت عاملًا حاسمًا بالنسبةِ لنا، وحتىٰ الساعات القليلة يمكن أن تُشكِّل فارقًا كبيرًا، وبالتالي كان علينا أن نستعد لبذلِ جهودٍ استثنائية.

لم يتحدَّث الرجل العجوز بأسلوبٍ درامي، لكن حديثه كان مُكثَّفًا. أما نحن، فكان ما يُحرِّكنا بقوةٍ هو ما شعرنا أنه يتحمَّله من مقتل ابنه إلىٰ هذا الهجوم الجديد من قِبَلِ خصمه الغادر والقاتل.

كنَّا نترقَّب ما علينا فعله، وكذلك نترقَّب أن ننجز بعض الأمور الهامة المقبلة. لكن مشكلتنا الأساسية كانت تكمن في كيفية الحصول علىٰ نص لائحة الاتهامات، أو علىٰ الأقل أغلبها بقدر الإمكان. وهذه يمكن الحصول عليها من مكتبةٍ في وسط مدينة مكسيكو سيتي تتلقىٰ حزمةً يوميةً من الرسائل عبر البريد الطائر. تمكَّن رفاقنا في نيويورك من إرسال بعض القصاصات لنا عن طريق البريد الطائر أيضًا. لا أتذكَّر بالتحديد من كان مصدرنا في الحصول علىٰ الوثيقة المطلوبة لأولِ مرةٍ، لكنني أحتفظ في ذاكرتي بما سأسرده توًّا بصورةٍ جلية.

في السابعة صباحًا، حين كانت الشمس مائلةً من زاويةٍ دنيا تنساب آشعتها عبر الأشجار لتضيء الجدار الأزرق في باحةِ المنزل، كان ليف دافيدوفيتش يسير بتؤدةٍ بين الغرفِ حولَ الباحة ممسكًا بصحيفةٍ يقرأ

منها لائحة الاتهامات. كان يرتدي معطفًا وقلنسوةً، إذ كان الهواء لا يزال باردًا في ذلك الوقتِ من العام وذلك الموقع المرتفع من المدينة. ولا يُنسىٰ هذا المشهد حين توقَّف لتدوينِ بعض النقاط، واقترب بنظارته ولحيته الصغيرة المُدبَّبة من الصحيفة.

ولاحقًا، تمكَّنت من أن أرىٰ بعيني دلائل الدقة التي كان يخوض بها تروتسكي أعماله الروتينية الرتيبة. كان دائمًا يكتب، في الهوامش هنا وهناك، كلمةً أو اثنتين بالروسية كملاحظاتٍ لنفسه بالأحمر أو الأزرق.

ثم بدأ العمل. وبدأت الدعوات تأتي باستمرارٍ من الصحف، ومكاتب البرق، والصحفيين المستقلين. وأيٌّ ما كان يقوله ليف دافيدوفيتش فيما يخص مهندسي المحاكمات الصورية في موسكو، كان يتصدَّر الصفحة الأولىٰ، إن لم يكن في العناوين الرئيسية، في كلِّ البلاد المُتحرِّرة من السلطات الشمولية.

بالكاد كان الرجل العجوز يغادر مكتبه؛ يأكل لمامًا وبشكلٍ خاطف، ولا يحلق لحيته. كان من جيل الكُتَّاب الذين سبقوا علىٰ الآلة الكاتبة. كان دائمًا يستخدم قلمَ رصاص أو حبر، وكان كاتبًا متأهِّبًا ومنشغلًا دومًا بالكتابة من هؤلاء الذين قلَّما نجد أمثالهم اليوم. وحين صار إصبعه أكثر حساسيةً، اعتاد أن يربط ضمادةً عليه في أثناء العمل.

كان ممتازًا في الإملاء، بحيث كان يؤقلم نفسه علىٰ سرعة الكاتب، الذي كان يتوقَّف في أوقاتٍ كثيرةٍ عند تشديداتٍ ومنعطفاتٍ يُعجَب بها في النص. لكن الإملاء كان أيضًا ذا نفعٍ له، إذ سَمَحَ له بأن يعيد النظر مرارًا في مخطوطاته. قال لي ذات مرةٍ: "أحيانًا، تبرز الفكرة بأوضح صورةٍ لها بعد الانتهاء من المسودة النهائية"، ومن ثم يُعاد العمل علىٰ هذه "المسودة النهائية".

كانت المخطوطات التي يسطرها ليف دافيدوفيتش بخطِ يده تُعاد إلىٰ مكتبه مرةً أخرىٰ، بعد كتابتها علىٰ الآلة الكاتبة، من أجل أن يُجري بعض التصحيحات عليها. وحين يصير من الصعب تتبُّع النصوص من كثرة ما أُدخِلَ عليها من تغييرات، تُكتَب من جديد علىٰ الآلة، ثم تخوض النسخة الجديدة نفس العملية مرةً أخرىٰ.

وتحت الضغط المُصاحِب لأيِّ ظرفٍ طارئ، مثلما كان في أثناء المحاكمات، كان العجوز يُقلِّل بصورةٍ كبيرةٍ من التعديلات التي يُجريها علىٰ نصوصه.

ومن المسودة الروسية، كان أعضاء السكرتارية يُصدرون النسخ الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، ويساعدون بعضهم خلال ذلك فيما يواجهونه من مصاعب في الترجمة. وأحيانًا ما كانت مشكلةٌ في الترجمة تدفع ليف دافيدوفيتش لإجراءِ تغييرٍ علىٰ الأصل الروسي. كان أحيانًا يطلب تغيير كلمةٍ أو إعادة تركيب عبارةٍ في الترجمة، وهناك

قليلٌ من الترجمات التي أُعِدَّت في كايوويكان لم يراجعها بنفسه بعد الانتهاء منها. لم تكن اختياراته في الإنجليزية مُوفَّقَة دائمًا، وعلىٰ أية حالٍ لم يكن يعتبر نفسه مُتقِنًا لهذه اللغة، لكنه لم يكن يحتمل الإهمال أو الغموضِ في أي شيء.

وبينما استمرت محاكمات موسكو، كان ليف دافيدوفيتش يتابع الصحافة عن كثب. كان كل يومٍ يكتب بيانًا طويلًا، يُترجَم، ويُنسَخ إلىٰ عددٍ من النسخ، ومن ثم يُرسَل إلىٰ مكاتب البرق والصحف اليومية في مكسيكو سيتي، ويُبعَث كذلك بالبريد الطائر إلىٰ الكثير من المُفكِّرين الذين عاونونا في العديد من البلدان عبر العالم. لم نكن نستخدم آلة النسخ، جزئيًا بسبب أنها تضيف خطوةً أخرىٰ في عمليةٍ كانت السرعة القصوىٰ فيها هي الأولوية المُطلَقة.

كان تروتسكي يعمل بلا هوادةٍ بما يقرُب من ثمانية عشر ساعة في اليوم في المرحلة التي بدأت خلالها محاكمات موسكو الصورية. وكان بعضنا ممن هم أصغر سنًا يعملون لمدةٍ أطول، ولم يحدث قط أن فوَّتنا موعدًا حددناه للانتهاء من أيِّ عملٍ كان.

وهكذا عملنا بمرونةٍ كفريقٍ، مع صغره، كان ذا كفاءةٍ عاليةٍ. وكان هذا بالتحديد التراث الذي رسَّخَته الأطقم التي عمل تروتسكي ضمنها في الماضي، ذلك التراث الذي انتقل من طاقم سكرتارية إلىٰ آخر. في روسيا، كان طاقم سكرتاريته مشهورًا، وقد سدَّدَ ستالين

ضرباتٍ خاصة لأعضاء هذا الطاقم ضمن محاولاته لإضعاف وعرقلة فاعلية تروتسكي. لم أحظ قط بلقاء هؤلاء الروس، فقد اختفوا في معسكرات العمل، أو في القبور بعدما نالت رصاصات الشرطة السرية من رؤوسهم. لكنني أعرف جيدًا كيف يبدو هؤلاء. كانوا ممن يستمتعون بالعمل، ولا يبالون بالضغوط الشديدة التي تحيط بهم في أثنائه، كان هؤلاء ذوي عقولٍ مستقلةٍ يتمتَّعون بمهاراتٍ رفيعةٍ في العديدِ من المجالات. عمل تروتسكي علىٰ قدمِ المساواة مِثل هؤلاء المعاونين من أجل الهدف السامي المُشترَك. وقد ألهمهم ذلك ببلوغِ ما هو أبعد من قدراتهم.

كان وقع بيانات تروتسكي بشأن محاكمات موسكو "الكبرىٰ" الثالثة هائلًا. وكان من شأن رده السريع علىٰ لائحة الاتهامات المُوجَّهة إليه، فاضحًا هذه المحاكمات الصورية، أن يُحوِّل الأمر برمته ضد ستالين، منذ اليوم الأول، في عين الرأي العام العالمي، وصارت الأمور بالنسبةِ لستالين تسوء يومًا بعد آخر. لقد نجح تروتسكي، وهو المُتَّهم الرئيسي آنذاك في هذه المحاكمات، في أن يقلب الطاولة علىٰ ستالين ليصبح هو من يُسدِّد الاتهام. ولقد ألقت لجنة جون ديوي في العام 1937، والتي برَّأت تروتسكي وليون سيدوف من التهم المُوجَّهة إليهما في المحاكمات الصورية السابقة، بستالين في "فجوةِ مصداقية" لم ينجح في الإفلاتِ منها قط.

كان العمل مع تروتسكي أمرًا جادًا، فلم يكن في السياسةِ هاويًا، بل لم يكن يحتمل الهواة في العمل السياسي. لكن العمل معه كان أيضًا مدرسةً استثنائية في قيمتها وفائدتها للكوادر الشباب ضمن طاقمه. والطريقة التي ردَّ بها علىٰ محاكمات موسكو، في مارس 1938، كانت بمثابة استعراضٍ نموذجي لأهمية التوقيت في ملاقاة أخطر التحديات وتحويلها إلىٰ فرصٍ حقيقية. كان العمل معه يعني تنحية كل شيءٍ آخر بأقوىٰ ما يمكن من الحزم، والسمو فوق المشكلات الشخصية، والتركيز علىٰ العمل القائم بأقصىٰ طاقةٍ وبكل ما في المُستطاع. كانت تلك فرصةً نادرةً لأولئك الذين رأوا تروتسكي في العشرينيات من عمرهم آنذاك كمناضلٍ سياسيٍ في معركةٍ وصلت إلىٰ ذروة حدَّتِها.

أكتوبر 1969

دليل بأبرز الأسماء الواردة بالكتاب

1. أدلر (ألفريد أدلر 1870 - 1937): أخصائي نفسي نمساوي شهير.
2. أدلر (فيكتور أدلر 1852 - 1918): أحد مؤسسي الاشتراكية الديمقراطية في النمسا.
3. أدلر (ماكس أدلر 1873 - 1937): من أبرز ممثّلي الماركسية النمساوية في النصف الأول من القرن العشرين.
4. أرماند (إينيسا فيودوروفنا أرماند 1874 - 1920): سياسية ونسوية بلشفية روسية من أصل فرنسي. بعد ثورة أكتوبر 1917، تولّت رئاسة مجلس موسكو الاقتصادي، وكانت عضوةً تنفيذيةً في سوفييت موسكو. ترأست هيئة الجينوتدل (وهي هيئة نسوية مُخصَّصة لدمج المرأة في شئون الثورة، جرى حلها عام 1930)، إلى أن توفيت في 24 سبتمبر 1920.
5. إستراتي (باينت إستراتي 1884 - 1935): كاتب وروائي روماني، لُقِّبَ بـ"مكسيم جوركي البلقان".
6. أكسيلورد (بافل بوريسوفيتش أكسيلورد 1850 - 1928): قيادي في حزب المناشفة، وأحد مؤسسي أول جماعة ماركسية في روسيا، "تحرير العمل"، مع بليخانوف وآخرين، وأحد الأعضاء الستة في هيئة تحرير الإيسكرا.
7. آل رومانوف: سلسلة قياصرة وأباطرة روسيا من العام 1613 إلى 1917، آخرهم القيصر نيقولا الثاني الذي أسقطته ثورة شعبية في فبراير 1917.
8. آل هوهنزلرن: سلالة ملوك بروسيا (1701 - 1918) وأباطرة ألمانيا (1871 - 1918).

9. أوجلانوف (نيقولاي أليكساندروفيتش أوجلانوف 1886 - 1937): بلشفي. الأمين العام لمنظمة موسكو بالحزب الشيوعي السوفييتي من أغسطس 1924 إلى نوفمبر 1928. أُلقيَ القبض عليه في أغسطس 1936 في إطار محاكمات موسكو، وحوكِمَ في 31 مايو 1937 وأُعدِمَ في نفس اليوم.

10. أوردجينيكيدزه (جريجوري كونستانتينوفيتش أوردجينيكيدزه، عُرِفَ باسم سيرجو 1886 - 1937): بلشفي جورجي. انضم للحزب البلشفي في 1903. عضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في 1926، لكنه عُزِلَ من المكتب السياسي في نفس العام، ليعود مرة أخرى في عضويته في 1930. عُيِّنَ مُفوَّضًا للشعب لشئون الصناعة في 1932.

11. أوسينسكي (فاليريان أوسينسكي 1887 - 1938): بلشفي. معروف باسم فاليريان أوبلينسكي. اقتصادي وبروفيسور في الأكاديمية الزراعية في موسكو. أُعدِمَ في محاكمات موسكو 1938.

12. أونشليشت (جوزيف ستانيسلافوفيتش أونشليشت 1879 - 1938): بلشفي. أسهم في تأسيس جهاز "التشيكا"، وهو الجهاز البوليسي الذي أُنشِئ في ديسمبر 1917 بغرض تتبُّع النبلاء والجنرالات وغيرهم من فلول القيصر سابقًا. أُلقيَ القبض عليه في 1937 ضمن المتهمين في محاكمات موسكو، وأُعدِمَ في العام التالي.

13. بارفوس (أليكساندر لفوفيتش بارفوس 1867 - 1924): مُنظِّر ماركسي وأحد زعامات الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني.

14. بارسي (رين بارسي): فنان إيطالي. صديق المؤلف قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى.

15. باور (أوتو باور 1882 - 1938): من زعماء الاشتراكية الديمقراطية النمساوية والأممية الثانية.

16. برنشتاين (إدوارد برنشتاين 1850 - 1932): اشتراكي ديمقراطي ألماني. وعلى عكس الماركسية، التي قام بمراجعتها فكريًا، رفض برنشتاين الثورة الاجتماعية كوسيلة لبناء المجتمع الاشتراكي، وآمن بإمكانية إصلاح الرأسمالية.

17. بريان (أريستيد بريان 1862 - 1932): سياسي وديبلوماسي فرنسي، تولّى رئاسة وزراء فرنسا ست مرات، أبرزها أثناء الحرب العالمية الأولى - من أكتوبر 1915 إلى مارس 1917.

18. بريوبراجنسكي (يفجيني أليكسييفيتش بريوبراجينسكي 1886 - 1937): اقتصادي بلشفي. عضو باللجنة المركزية للحزب البلشفي عشية ثورة أكتوبر. انضم للمعارضة التروتسكية وطَرِدَ من الحزب ونُفِيَ عام 1932، ثم حوكِمَ وأُعدَم عام 1937.

19. بليخانوف (جورجي فالينتينوفيتش بليخانوف 1856 - 1918): أول داعية للماركسية في روسيا، ومؤسّس أول جماعة ماركسية فيها (جماعة تحرير العمل). كان من أبرز قيادات حزب المناشفة منذ العام 1903.

20. بوبنوف (أندريه سيرجييفيتش بوبنوف 1883 - 1938): بلشفي. انتُخِبَ عضوًا باللجنة المركزية للحزب البلشفي في المؤتمر السادس للحزب، يوليو 1917، وعضوًا بالمكتب السياسي للحزب المؤلَّف من سبعة أعضاء.

عضو باللجنة العسكرية الثورية التي نظَّمت التحرُّكات العسكرية لثورة أكتوبر 1917. خَدَمَ في الجيش الأحمر في أثناء الحرب الأهلية الروسية. انضم للمعارضة اليسارية في الحزب الشيوعي السوفييتي بعد الحرب. طُرِدَ من الحزب في 1937، وأُعدِمَ في 1 أغسطس 1938.

21. بوتريسوف (أليكساندر نيقولايفيتش بوتريسوف 1869 - 1934): أحد قيادات المناشفة، كان عضوًا من الأعضاء الستة في هيئة تحرير الإيسكرا.

22. بوجدانوف (أليكساندر أليكساندروفيتش بوجدانوف 1873 - 1928): طبيب وفيلسوف واقتصادي وكاتب روسي. بلشفي قديم. قاد تيار "الاستدعائيين" في الحزب البلشفي وطُرِدَ مع أعضاء هذا التيار في 1909. شارك مع أناطولي لوناتشارسكي ومكسيم جوركي في إصدار صحيفة "فبريود". عمل أستاذًا في الاقتصاد في جامعة موسكو.

23. بوخارين (نيقولاي إيفانوفيتش بوخارين 1888 - 1938): مُنظِّر وسياسي بلشفي. عضو اللجنة المركزية للحزب البلشفي عشية ثورة أكتوبر 1917. طُرِدَ من الحزب عام 1937، وحُكِمَ عليه بالإعدام في العام التالي.

24. بوكانان (السير جورج ويليام بوكانان 1854 - 1924): ديبلوماسي بريطاني. شَغَلَ منصب السفير البريطاني لدى روسيا من 1910 إلى 1918.

25. بوكروفسكي (ميخائيل نيقولايفيتش بوكروفسكي 1868 - 1932): عضو بالحزب البلشفي منذ 1905. نائب مفوَّض الشعب لشئون التعليم في 1918.

26. بياتاكوف (جورجي ليونيدوفيتش بياتاكوف 1890 - 1937): بلشفي روسي منذ العام 1910. اشترك في حكومة أوكرانيا السوفييتية وشغل عددًا من المناصب المسئولة الأخرى.

27. بينوكار (ريموند بينوكار 1860 - 1934): تولى منصب رئيس وزراء فرنسا ثلاث مرات، ورئيس فرنسا في الفترة من 1913 إلى 1920. معروف بمواقفه المعادية لألمانيا. خلال رئاسته، زار روسيا مرتين لتوطيد علاقته الإستراتيجية مع القيصر نيقولا الثاني.

28. تالمان (إرنست تالمان 1886 - 1944): رئيس الحزب الشيوعي الألماني في أكتوبر 1925، وترشَّح لمنصب المستشار الألماني في نفس العام. أُلقيَ القبض عليه من قِبَلِ الجوستابو (الشرطة السرية في ألمانيا النازية) عام 1933، وقضى 11 عامًا في الحبس الانفرادي، إلى أن أُعدِمَ رميًا بالرصاص بأمرٍ من هتلر في 18 أغسطس 1944.

29. تسيريتللي (ايراكلي جورجييفيتش تسيريتللي 1882 - 1959): قيادي في حزب المناشفة. وزير البريد والبرق في الحكومة الانتقالية عام 1917 بزعامة كرينسكي.

30. تشخيدزه (نيقولاي سيميونوفيتش تشخيدزه 1864 - 1926): قيادي في حزب المناشفة. رئيس الجمعية التأسيسية في جورجيا قبل قيام السلطة التأسيسية هناك عام 1921.

31. تشيرشل (وينستون ليونارد تشيرشل 1874 - 1965): سياسي بريطاني، تولى منصب رئيس الوزراء من 1940 إلى 1945، ثم مرةً أخرى من 1951 إلى 1955.

32. تشيرنوف (فيكتور ميخائيلوفيتش تشيرنوف 1876 - 1952): قيادي في حزب الثوريين الاشتراكيين. وزير الزراعة في الحكومة الانتقالية عام 1917.

33. تشيشرين (جورجي أليكساندروف تشيشرين 1872 - 1936): ديلوماسي سوفييتي. شَغَلَ منصب مُفوَّض الشعب للشئون الخارجية من مارس 1918 إلى 1930. كان في بريطانيا في أثناء الحرب العالمية الأولى، وأُلقيَ القبض عليه عام 1917 وقضى بضعة أشهر في سجن بريكستون. تفاوَضَ البلاشفة في السلطة مع بريطانيا لاستعادته، ولدى عودته عُيِّنَ نائبًا لمفوَّض الشعب للشئون الخارجية آنذاك، تروتسكي، ثم حلَّ محله منذ مارس 1918.

34. تولستوي (ليو نيقولاييفيتش تولستوي 1828 - 1910): كاتب وأديب روسي.

35. تومسكي (ميخائيل بافلوفيتش تومسكي 1880 - 1936): عامل نقابي وقيادي بلشفي. رئيس المجلس المركزي الروسي للنقابات. شَغَلَ العديد من المناصب في الدولة السوفييتية. انتحر بعد إدراجه في قائمة المتهمين في محاكمات موسكو عام 1936.

36. جوتشكوف (أليكساندر إيفانوفيتش جوتشكوف 1862 - 1936): رأسمالي روسي كبير. زعيم حزب الأكتوبريين. تولَّى وزارة الحربية

والبحرية في أول حكومةٍ مؤقتةٍ بعد ثورة فبراير 1917. اشترك في عصيان كورنيلوف في أغسطس 1917.

37. جورج (لويد جورج 1863 - 1945): رئيس وزراء بريطانيا من 6 ديسمبر 1916 إلى 19 أكتوبر 1922، وزعيم الحزب الليبرالي من 14 أكتوبر 1926 إلى 4 نوفمبر 1931.

38. جوريس (جان ليو جوريس 1859 - 1914): قيادي اشتراكي فرنسي. اغتيل في 13 يوليو 1914 تزامنًا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

39. جوفري (جوزيف جاك سيزار جوفري 1852 - 1931): جنرال فرنسي والقائد العام للقوات الفرنسية على الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الأولى. اشتهر بحشده لجيوش الحلفاء المتراجعة وهزيمة الألمان في معركة المارن الأولى عام 1914.

40. جيسدي (جول باسيلي جيسدي 1845 - 1922): صحفي وسياسي فرنسي اشتراكي، وقيادي في الجناح الماركسي من الاشتراكية الفرنسية.

41. دان (فيودور إيليتش دان 1871 - 1947): قيادي في حزب المناشفة. عضو اللجنة التنفيذية لسوفييت بتروجراد.

42. دزرجينسكي (فيليكس إدموندوفيتش دزرجينسكي 1877 - 1926): عضو في اللجنة المركزية البلشفية عام 1917..تولى عددًا من المناصب في الدولة السوفييتية بعد ثورة أكتوبر.

43. دينيكين (أنطوان إيفانوفيتش دينيكين 1872 - 1947): جنرال في الجيش القيصري الروسي. شنَّ هجومًا عسكريًا على موسكو في صيف وخريف 1919.

44. راديك (كارل برنجاردوفيتش راديك 1885 - 1939): قيادي بلشفي. انضم إلى الحزب البلشفي في أكتوبر 1917. انضم إلى المعارضة التروتسكية وطُرِدَ من الحزب عام 1927. وقَّع وثيقةً تقضي بعدم معارضة سياسات ستالين في 1929. أسهم في كتابة الدستور السوفييتي عام 1936. حُكِمَ عليه بالأشغال الشاقة عام 1937، وقُتِلَ في معسكرٍ للعمل العبودي بعدها بعامين.

45. راسبوتين (جريجوري يفيموفيتش راسبوتين 1872 - 1916): رجل دين روسي ذو صلةٍ وثيقة بالقيصر نيقولا الثاني وزوجته أليكساندرة فيدوروفنا. كان له تأثيرٌ كبيرٌ في سياسات الدولة.

46. راكوفسكي (كريستيان جورجييفيتش راكوفسكي 1873 - 1941): طبيب وصحفي وكاتب وسياسي بلشفي ودبلوماسي سوفييتي من أصل بلغاري، ورئيس جمهورية أوكرانيا السوفييتية من 1919 إلى 1923. صديق ليون تروتسكي منذ 1903.

47. روزنبرج (هانس فون روزنبرج 1874 - 1937): سياسي ودبلوماسي ألماني. شَغَلَ منصبَ وزير الخارجية في حكومة ويلهلم كونو في 1922 - 23.

48. ريكوف (أليكسي إيفانوفيتش ريكوف 1881 - 1938): اشتراكي روسي. شَغَلَ عدة مناصب في السلطة السوفييتية منذ ثورة أكتوبر 1917،

منها رئيس مجلس الاقتصاد الوطني، ورئيس مجلس مُفوَّضي الشعب. طُرِدَ من الحزب البلشفي عام 1937. أُعدِمَ في مارس 1938.

49. رينر (كارل رينر 1870 - 1950): قيادي في الحزب الاشتراكي النمساوي. ترأس أول حكومة في الجمهورية النمساوية عام 1918.

50. زاسوليتش (فيرا إيفانوفا زاسوليتش 1849 - 1919): ماركسية روسية ساهمت مع بليخانوف وأكسيلورد في تأسيس جماعة تحرير العمل في 1883، ثم حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي في 1898.

51. زيتكين (كلارا زيتكين 1857 - 1933): مُنظِّرة ماركسية ألمانية ومُدافِعة عن حقوق المرأة. استقالت من الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني وانضمت إلى روزا لوكسمبورج في عصبة سبارتاكوس عام 1917، التي صارت في ما بعد الحزب الشيوعي الألماني. وَمثّلَت الحزب في الرايخستاج من 1920 حتى وفاتها.

52. زينا (زينايدا لفوفنا فولكافا 1901 - 1933): ماركسية روسية. ابنة المؤلف من زوجته الأولى (سكولوفسكايا). سُمِحَ لها بالسفر إلى والدها في جزيرة برينكيبو التركية في يناير 1931، وعاشت معه بصحبة ابنها من يناير إلى نوفمبر 1931. سافرت إلى ألمانيا للعلاج من السل، ولم يُسمَح بالعودة إلى الاتحاد السوفييتي. انتحرت في يناير 1933 بعد علمها بقرار طردها من برلين.

53. زينوفيف (جريجوري بافسييفيتش زينوفيف 1883 - 1936): بلشفي. انخرط في الحركة الاشتراكية الديمقراطية منذ العام 1901. عضو

باللجنة المركزية للحزب البلشفي عشية ثورة أكتوبر 1917. طُرِدَ من الحزب في 1934، وحُكِمَ عليه بالإعدام في 1936.

54. ساموبلو (أليكساندر أليكساندروفيتش ساموبلو 1869 - 1963): قائد سابق في الجيش القيصري الروسي خلال الحرب العالمية الأولى، وقائد في الجيش الأحمر على الجبهة الشرقية في مايو 1919. انضم للحزب الشيوعي السوفييتي عام 1944.

55. ستالين (جوزيف فيساريونوفيتش ستالين 1878 - 1953): بلشفي. عضو باللجنة المركزية للحزب البلشفي عشية ثورة أكتوبر 1917. الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي من 1922 إلى 1952.

56. ستوليبين (بيوتر أركاديفيتش ستوليبين 1862 - 1911): رئيس الوزراء ووزير الداخلية في روسيا القيصرية من 1906 إلى 1911.

57. سفيردلوف (يعقوب ميخائيلوفيتش سفيردلوف 1885 - 1919): بلشفي. عضو باللجنة المركزية للحزب البلشفي عشية ثورة أكتوبر 1917. رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات عامة روسيا من نوفمبر 1917 إلى أن توفي في مارس 1919.

58. سكليانسكي (إفرايم ماركوفيتش سكليانسكي 1892 - 1925): طبيب عسكري. انضم للحزب البلشفي خلال الحرب العالمية الأولى. نائب رئيس اللجنة العسكرية الثورية، آنذاك تروتسكي من 1918 إلى 1924.

59. سكوبيليف (ماتفيي إيفانوفيتش سكوبيليف 1885 - 1938): ماركسي روسي. عضو بحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي منذ 1903. حرَّر صحيفة البرافدا مع المؤلف في الفترة من 1908 إلى

1912. أيّد المناشفة منذ 1912. انتُخِبَ عضوًا بمجلس الدوما منذ 1912 حتى 1917. شغل منصب وزير العمل في ظل حكومة كرينسكي عام 1917.

60. سكولوفسكايا (أليكساندرا لفوفنا سكولوفسكايا 1872 - 1938): ماركسية روسية. زوجة المؤلف الأولى من 1899 إلى 1902، وأم بنتيه: زينا ونينا. أُلقيَ القبض عليها عام 1935 من قِبَل الشرطة السرية في عهد ستالين، ونُفِيَت إلى سيبيريا. كانت ناديجدا يوفي، أخت أدولف يوفي (الاسم رقم 125 في القائمة)، آخر من رآها في معسكر عمل في كوليما شرقي سيبيريا.

61. سميرنوف (فلاديمير ميخائيلوفيتش سميرنوف 1887 - 1937): بلشفي منذ العام 1907. عمل مُفوَّضًا سياسيًا في الجيش الأحمر، وعضوًا بالمجلس الأعلى للاقتصاد. انضم للمعارضة التروتسكية وطُرِدَ من الحزب الشيوعي السوفييتي عام 1927. أُلقيَ القبض عليه في يناير 1930. نُفِيَ إلى سيبيريا في نوفمبر 1934، وحوكِمَ في 26 مايو 1937 وأُعدِمَ في نفس اليوم.

62. سميلجا (إيفار تينيسوفيتش سميلجا 1892 - 1938): بلشفي منذ العام 1907. بعد ثورة أكتوبر 1917، شَغَلَ عدة مناصب في الجمهورية السوفييتية، منها عضو المجلس العسكري الثوري، ونائب رئيس المجلس الأعلى للاقتصاد. انضم للمعارضة التروتسكية، وطُرِدَ من الحزب في 1927. أُعيدَ للحزبِ مرةً أخرى في 1930، ثم حوكِمَ وأُعدِمَ في 1938.

63. سوزونوف (سيرجي ديمتريفيتش سوزونوف 1860 - 1927): وزير خارجية روسيا القيصرية من نوفمبر 1910 إلى يوليو 1916.

64. سويفت (جوناثان سويفت 1667 - 1745): كاتب وشاعر سياسي أيرلندي ساخر.

65. سيدني ويب (سيدني جيمس ويب - لورد باسفيلد 1859 - 1947): اشتراكي بريطاني، وواحدٌ من قدامى أعضاء الجماعة الفابية في بريطانيا مع جورج برنارد شو. عضوٌ بحزب العمال البريطاني. تولًى منصب وزير الدولة لشئون المستعمرات عام 1929 في حكومة حزب العمال الثانية برئاسة رامساي ماكدونالد.

66. سيدوفا (ناتاليا إيفانوفا سيدوفا 1882 - 1962): ماركسية روسية. زوجة المؤلف الثانية منذ 1903 حتى وفاته، وأم ولديه: ليوفا وسيروجا.

67. سيروجا (سيرجي لفوفيتش سيدوف 1908 - 1937): ابن المؤلِّف من زوجته الثانية. بروفيسور في الديناميكا الحرارية في معهد موسكو للتكنولوجيا. على عكس أبويه وأخيه، لم ينخرط في العمل السياسي، لكنه أُلقيَ القبض عليه في مطلع مطلع العام 1935، وحُكِمَ عليه بالنفي إلى سيبيريا لمدة 5 سنوات، لكنه أُرسِل بعد ذلك إلى معسكرٍ للعمل العبودي، وأُعدِمَ في 29 أكتوبر 1937 في محاكمات موسكو.

68. شو (جورج برنارد شو 1856 - 1950): مؤلف وكاتب مسرحي وناقد أيرلندي. أحد مفكِّري ومؤسِّسي الاشتراكية الفابية. حاز على جائزة نوبل في الأدب عام 1925.

69. فالينتينوف (نيقولاي فالينتينوف 1879 - 1964): صحفي واقتصادي اشتراكي روسي. عضو في حزب المناشفة حتى ثورة أكتوبر 1917. عُيِّنَ عضوًا غير حزبي في المجلس الأعلى للاقتصاد في الاتحاد السوفييتي، وكان من مهندسي السياسة الاقتصادية الجديدة بعد الحرب الأهلية الروسية.

70. فايان (ماري إدوارد فايان 1840 - 1915): اشتراكي فرنسي، هرب من فرنسا بعد موجة القمع التي تلت كوميونة باريس عام 1871. حُكِمَ عليه بالإعدام غيابيًا في يوليو 1872، ولم يعد إلى فرنسا إلى بعد العفو العام في 1880. عضو في الكتلة الفرنسية في الأممية العمالية.

71. فوروشيلوف (كليمنت يفريموفيتش فوروشيلوف 1881 - 1969): ضابط عسكري في الجيش الأحمر خلال الحرب الأهلية الروسية. عضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي منذ 1921 حتى 1961. عُيِّنَ مُفوَّضًا للشعب لشئون الجيش والبحرية ورئيس المجلس العسكري الثوري من 1925 حتى 1934.

72. فوروفسكي (فاستلاف فاستلافوفيتش فوروفسكي 1871 - 1923): بلشفي. من أوائل الديبلوماسيين السوفييت. اغتيلَ في مايو 1923 في مدينة لوزان السويسرية أثناء تمثيله الحكومة السوفييتية في مؤتمرٍ دولي هناك.

73. فورونسكي (أليكساندر كونستانتينوفا فورونسكي 1884 - 1937): كاتب ومُحرِّر وناقد ماركسي. لنضم للحزب البلشفي في 1904. انضم للمعارضة التروتسكية في العشرينيات. طُرِدَ من الحزب في 1935،

وأُلقيَ القبض عليه في 1 فبراير 1937، وحُكِمَ عليه بالإعدام في 13 أغسطس من نفس العام، وأُعدِمَ في نفسِ اليوم.

74. فولودارسكي (جولدشتاين موسى ماركوفيتش 1891 - 1918): بلشفي. عضو باللجنة المركزية للحزب البلشفي عشية ثورة أكتوبر 1917، وعضو هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات عامة روسيا. اغتيل في بتروجراد.

75. كاشين (مارسيل كاشين 1869 - 1958): أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الفرنسي في 1920. حضر الثورة الروسية؛ كان متعاطفًا في البداية مع حكومة كرينسكي الانتقالية، ثم أيَّد ثورة أكتوبر البلشفية.

76. كافتارادزه (سيرجي كافتارادزه 1885 - 1971): بلشفي جورجي. سياسي وديبلوماسي سوفييتي، ترأس حكومة جورجيا السوفييتية. أُلقيَ القبض عليه في أثناء محاكمات موسكو أواخر الثلاثينيات، لكنه خَرَجَ من السجن دون توجيه تهم له، وأعيدَ إلى الحزب الشيوعي السوفييتي ومن ثم شغَلَ منصب نائب وزير الخارجية، مولوتوف آنذاك، خلال الحرب العالمية الثانية.

77. كالينين (ميخائيل إيفانوفيتش كالينين 1875 - 1946): بلشفي. تولى عددًا من المناصب في الدولة السوفييتية منذ 1919.

78. كامينيف (ليف بوريسوفيتش كامينيف 1883 - 1936): بلشفي. شارك في الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية منذ العام 1901، وانضم للبلاشفة منذ 1903. عضو باللجنة المركزية للحزب البلشفية عشية ثورة

أكتوبر 1917. طُرِدَ من الحزب في 1934، وحُكِمَ عليه بالإعدام في 1936.

79. كاوتسكي (كارل كاوتسكي 1854 - 1938): قيادي بارز في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني.

80. كاوتسكي (لويز كاوتسكي 1864 - 1944): زوجة كارل كاوتسكي وصديقة مقرَّبة لروزا لكسمبورج.

81. كراسيكوف (بيوتر أنانييفيتش كراسيكوف 1870 - 1939): بلشفي قديم. تولَّى مُفوَّضية الشعب لشئون العدل عام 1918. أول مدعي عام في الاتحاد السوفييتي في الفترة من 1924 إلى 1933. ونائب رئيس المحكمة العليا من 1933 إلى 1938.

82. كراسين (ليونيد بوريسوفيتش كراسين 1870 - 1926): عضو في اللجنة المركزية البلشفية في أثناء ثورة 1905.

83. كرجيجانوفسكي (جليب ماكسيميليانوفيتش كرجيجانوفسكي 1872 - 1959): مهندس روسي وبلشفي قديم. من أوائل الماركسيين الروس. انقطع عن الحزب البلشفي بعد هزيمة 1905، ثم انضم إليه مُجدَّدًا بعد أن اعتلى السلطة، وعُيِّنَ رئيسًا للجنة كهربة روسيا ورئيسًا للجنة الدولة للتخطيط.

84. كروبسكايا (ناديجدا كونستانتينوفا كروبسكايا 1869 - 1939): سياسية بلشفية. تولَّت مُفوَّضية الشعب لشئون التعليم منذ 1929 حتى وفاتها. زوجة لينين منذ 1898 حتى وفاته في يناير 1924.

85. كريستنسكي (نيقولاي نيقولايفيتش كريستنسكي 1883 - 1938): بلشفي منذ العام 1903. انتُخِبَ للجنة المركزية للحزب البلشفي في 3 أغسطس 1917. عضو المكتب السياسية للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي منذ مارس 1919 إلى مارس 1921، وعُيِّنَ سفيرًا للاتحاد السوفييتي لدى ألمانيا منذ ذلك الحين. انضم للمعارضة التروتسكية، وحوكِمَ في 12 مارس 1938 وأُعدِمَ في نفس اليوم.

86. كرينسكي (أليكساندر فيودوروفيتش كرينسكي 1881 - 1970): محام وقيادي في حزب الثوريين الاشتراكيين. ترأس الحكومة المؤقتة بعد إسقاط القيصر ابتداءً من يوليو 1917.

87. كلاينس (جون روبرت كلاينس 1869 - 1949): سياسي ونقابي بريطاني، عضو بالبرلمان لمدة 35 عامًا، وقيادي بارز بحزب العمال البريطاني في أوائل العشرينات.

88. كلمنصو (جورج بنجامين كلمنصو 1841 - 1929): طبيب وصحفي ورجل دولة فرنسي. رئيس مجلس الوزراء في فرنسا بين عامي 1906 و1909، ومرة أخرى بين عامي 1917 و1920.

89. كوب (فيكتور كوب 1880 - 1930): بلشفي، وديبلوماسي سوفييتي. عمل في سفارة الاتحاد السوفييتي لدى ألمانيا في الفترة من 1918 حتى 1921، كما عمل سفيرًا سوفييتيًا لدى السويد.

90. كورداي (ماري آن شارلوت دي كورداي 1768 - 1793): متعاطفة مع الجيرونديين في الثورة الفرنسية العظمى. اغتالت الصحفي الثوري جان بول مارا طعنًا.

91. كورنيلوف (لافر جورجيفيتش كورنيلوف 1870 - 1918): جنرال في الجيش القيصري الروسي. قاد محاولة انقلاب على الحكومة الانتقالية برئاسة كرينسكي في أغسطس 1917.

92. كولتشاك (أليكساندر فاسيليفيتش كولتشاك 1873 - 1920): أميرال في الأسطول القيصري قبل ثورة أكتوبر 1917، وبعدها جنرال بالجيش الأبيض. قاد الهجوم على الجمهورية السوفييتية واقترب جيشه من نهر الفولجا عام 1919.

93. كولونتاي (أليكساندرا ميخائيلوفيتش كولونتاي 1872 - 1952): بلشفية نسوية روسية منذ العام 1915، كانت قبل ذلك عضوةً في حزبِ المناشفة. تولَّت مُفوَّضية الشعب لشئون الرعاية الاجتماعية بعد ثورة أكتوبر 1917، وبذلك تكون أول وزيرة في التاريخ. تولَّت رئاسة هيئة الجينوتدل بعد وفاة رئيستها إينيسا أرماند في سبتمبر 1920، إلى أن جرى حل الهيئة في 1930. سفيرة الاتحاد السوفييتي لدى النرويج منذ عام 1923.

94. كوهلمان (ريتشارد فون كوهلمان 1873 - 1948): ديبلوماسي ألماني، شغل منصب وزير الشئون الخارجية لألمانيا من أغسطس 1917 إلى يوليو 1918. قاد الوفد الألماني في مفاوضات بريست ليتوفسك التي انسحبت فيها روسيا من الحرب العالمية الأولى.

95. لابريولا (أنطونيو لابريولا 1843 - 1904): كاتب وفيلسوف ماركسي إيطالي.

96. لاشيفيتش (ميخائيل ميخائيلوفيتش لاشيفيتش 1884 - 1928): قيادي بلشفي وقائد بالجيش الأحمر الروسي في أثناء الحرب الأهلية الروسية.

انضم للحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية في 1901. طُرِدَ من الحزب الشيوعي السوفييتي عام 1927 إثر معارضته لقيادة الحزب، وأُعيدَ إليه مرةً أخرى في 1928.

97. لكسمبورج (روزا لكسمبورج 1871 - 1919): ماركسية واقتصادية ألمانية من أصلٍ بولندي يهودي. انفصلت عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني على خلفية تأييده لدخول الحكومة الألمانية الحرب العالمية الأولى، وأسَّسَت عصبة سبارتاكوس مع كارل ليبكنيخت وكلارا زيتكين وآخرين. اغتيلت في 15 يناير 1919.

98. لوزوفسكي (سولومون لوزوفسكي 1878 - 1952): بلشفي. شَغَلَ العديد من المناصب في الحكومة السوفييتية بعد ثورة أكتوبر 1917، من بينها عضو اللجنة الرئاسية للمجلس المركزي لنقابات عامة روسيا، ونائب مُفوَّض الشعب للشئون الخارجية في ظل فيتشيسلاف مولوتوف.

99. لوناتشارسكي (أناطولي فاسيليفيتش لوناتشارسكي 1875 - 1933): كاتب سياسي وأدبي. مفوَّض الشعب لوزير التعليم من أكتوبر 1917 إلى 1929.

100. لونجيت (جان تشارلز لونجيت 1876 - 1938): نائب برلماني فرنسي. حفيد كارل ماركس من ابنته جيني.

101. ليبكنيخت (كارل ليبكنيخت 1871 - 1919): ماركسي ألماني. أسَّسَ مع روزا لكسمبورج وفرانس مهرينج وآخرين عصبة سبارتاكوس، اغتيل في 15 يناير 1919.

102. ليوبولد (ليوبولد ماكسميليان جوزيف ماريا أرنولف 1846 - 1930): أمير في بافاريا. وُلِدَ في ميونيخ. قاد القوات الألمانية والنمساوية المجرية على الجبهة الشرقية في الحرب العالمية الأولى.

103. ليوفا (ليف لفوفيتش سيدوف 1906 - 1938): ابن المؤلِّف من زوجته الثانية، سيدوفا. انتقل مع والديه إلى المنفى. انضم للمعارضة التروتسكية. انتقل إلى ألمانيا 1931، وتمكَّن من الانتقال إلى باريس قبيل صعود هتلر للسلطة في 1933، وصار بعد ذلك قياديًا في الحركة التروتسكية في فرنسا.

104. مارتوف (تسيديرباوم يولي أوسيبوفيتش مارتوف 1873 - 1923): كاتب وقيادي في حزب المناشفة. كان عضوًا من الأعضاء الستة في هيئة تحرير الإيسكرا.

105. ماكدونالد (جيمس رامساي ماكدونالد 1866 - 1937): رئيس حكومة حزب العمال البريطانية الأولى في 1924، والثانية من 1929 إلى 1931.

106. مالفي (لويس جان مالفي 1875 - 1949): وزير داخلية فرنسا من مارس 1914 إلى أغسطس 1917. اتُّهِمَ بالخيانة في العام 1918 ونُفِيَ خارج البلاد لخمس سنوات.

107. مديفاني (بوليكارب جورجينوفيتش مديفاني 1877 - 1937): بلشفي جورجي قديم، شارك في الثورة الروسية وفي الحرب الأهلية في روسيا. قاد المعارضة الشيوعية الجورجية ضد ستالين. أُلقيَ القبض عليه في الثلاثينات بتهمة تأييد المعارضة التروتسكية، وأُعدِمَ في 19 يوليو 1937.

108. مهرينج (فرانس إردمان مهرينج 1846 - 1919): مفكر وسياسي ومؤرخ ماركسي ألماني، انفصل عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني مع روزا لكسمبورج وكارل ليبكنيخت وآخرين، وأسسوا "عصبة سبارتاكوس" عام 1916.

109. مورالوف (نيقولاي إيفانوفيتش مورالوف 1877 - 1937): بلشفي قديم. قائد مقاطعة موسكو العسكرية في أثناء الحرب الأهلية الروسية، ثم تولّى منصب المفتش العام في الجيش الأحمر. انضم للمعارضة التروتسكية. حوكِمَ وأُعدَم في 1937.

110. مولوتوف (فيتشيسلاف ميخائيلوفيتش مولوتوف 1890 - 1986): بلشفي. سياسي وديبلوماسي روسي. رئيس مجلس مفوَّضي الشعب بين عامي 1930 و1941، ووزير الخارجية من 1939 إلى 1949، ثم من 1953 إلى 1956. تقاعَدَ عن العملِ السياسي عام 1961.

111. ميجلوك (إيفان إيفانوفيتش ميجلوك 1891 - 1938): بلشفي منذ العام 1918. خَدَمَ في الجيش الأحمر في أثناء الحرب الأهلية الروسية. تولّى منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي التركماني. أول رئيس لاتحاد التركمان السوفييتي. أُلقيَ القبض عليه، وأخيه فاليري ميجلوك الذي ترأس لجنة التخطيط التابعة للدولة من 1934 حتى 1937، في 3 ديسمبر 1937، وحُكِمَ عليهما بالإعدام في 25 أبريل 1938، ونُفِّذَ الحُكم في نفسِ اليوم.

112. ميليوكوف (بافل نيقولايفيتش ميليوكوف 1859 - 1943): مؤرِّخ وسياسي ليبرالي روسي. مؤسِّس وزعيم حزب الكاديت الليبرالي. وزير الخارجية في الحكومة المؤقتة في روسيا بعد ثورة فبراير 1917.

113. مينجينسكي (فياتشيسلاف رودوفلوفيتش مينجينسكي 1874 - 1934): بلشفي روسي من أصل بولندي. ترأس جهاز الشرطة السرية من 1926 حتى وفاته.

114. نينا (نينايدا لفوفنا فولكافا 1902 - 1928): ابنة المؤلِّف من زوجته الأولى، سكولوفسكايا. انضمت للمعارضة التروتسكية داخل روسيا. ماتت في موسكو مريضةً بالسل بينما كان والدها في المنفى.

115. هيريوت (إدوارد ماري هيريوت 1872 - 1957): رئيس وزراء فرنسا لثلاث مرات: منذ يونيو 1923 إلى أبريل 1925، ثم من 19 إلى 23 يوليو 1926، ثم من يونيو إلى ديسمبر 1932.

116. ويت (سيرجي يوليفيتش ويت 1849 - 1915): كونت روسي تولى رئاسة الوزراء في روسيا القيصرية في أكتوبر 1905، واستقال قبل انعقاد مجلس الدوما الأول.

117. فيلهلم (القيصر فيلهلم الثاني 1859 - 1941): قيصر ألماني ينحدر من سلالة هوهنزلرن القيصرية. تُوِّجَ قيصرًا بعد وفاة والده فريدريش الثالث عام 1888، وأُجبِرَ على التنحي في 1918 ثم نُفِيَ إلى هولندا.

118. هوجلوند (زيث هوجلوند 1884 - 1956): سياسي وصحفي سويدي. اشتراكي ديمقراطي سابق، ومؤسس الحزب الشيوعي السويدي لاحقًا. انتُخِبَ في اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية عام 1922.

119. هوفمان (كارل أدولف ماكسميليان هوفمان 1869 - 1927): جنرال ألماني. رئيس أركان أثناء الحرب العالمية الأولى. شارك في مفاوضات بريست ليتوفسك لانسحاب روسيا السوفييتية من الحرب.

120. هيس (هوجو هيس 1863 - 1919): اشتراكي ديمقراطي ألماني. ترأس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني من 1911 إلى 1916. ثم انفصل عنه ليؤسس الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل ويترأسه من 1917 إلى 1919.

121. هيلفردينج (رودولف هيلفردينج 1877 - 1941): طبيب وكاتب واقتصادي اشتراكي من أصل نمساوي. قيادي بارز في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني.

122. ياروسلافسكي (يميليان ميخائيلوفيتش ياروسلافسكي 1878 - 1943): صحفي ومؤرخ بلشفي. قيادي في التيار الشيوعي اليساري داخل الحزب الشيوعي السوفييتي خلال الأشهر اللاحقة على ثورة أكتوبر 1917. عضو أمانة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي من 1921 حتى 1923.

123. يوريتسكي (موسيي سولومونوفيتش يوريتسكي 1873 - 1918): بلشفي منذ يوليو 1917. انتُخِبَ فور انضمامه عضوًا باللجنة المركزية للحزب البلشفي. تولَّى رئاسة جهاز "التشيكا". اغتيل في 30 أغسطس 1918 أثناء خروجه من مقر التشيكا في بتروجراد.

124. يودينيتش (نيقولاي نيقولاييفيتش يودينيتش 1862 - 1933): جنرال في الجيش القيصري، وتولَّى القيادة العليا لجيش الحرس الأبيض في

الشمال الغربي لروسيا بعد ثورة أكتوبر 1917. حاول مرتين الاستيلاء على العاصمة بتروجراد.

125. يوفي (أدولف أبراموفيتش يوفي 1883 - 1927): سياسي بلشفي ودبلوماسي سوفييتي. صديق شخصي للمؤلف. انضم للحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية عام 1900. ترأس لجنة بتروجراد العسكرية الثورية التي أطاحت بالحكومة المؤقتة الروسية ليلة 25 أكتوبر 1917. شارك في الوفد الروسي في مفاوضات السلام في بريست ليتوفسك. انتحر في أواخر العام 1927

ملحق الصور

1- ديفيد برونشتاين، والد ليون تروتسكي

2- آنا برونشتاين، والدته ليون تروتسكي

3- ليف دافيدوفيتش في التاسعة من عمره - 1888

4- ليون تروتسكي يجلس أقصى يمين الصورة مع ثلاثة أصدقاء، وتظهر في الصورة أليكساندرا سوكولوفسكايا، التي ستصبح بعد ذلك زوجته، واقفةً خلفه - 1897

5- ليون تروتسكي شابًا في الثامنة عشر من عمره - 1897

6- صورة جانبية من التسجيل الجنائي من ملفات الشرطة السرية القيصرية بعد أن أُلقيَ القبض عليه – 1900

7- في المنفى الأول في سيبيريا - 1900

8- بعد الهرب من المنفى – 1902

9- تروتسكي مع أليكساندر بارفوس (يسار الصورة) في قلعة بطرس وبولص (سجن الحبس الاحتياطي) - 1906

10- في زنزانته بانتظار المحاكمة - 1906

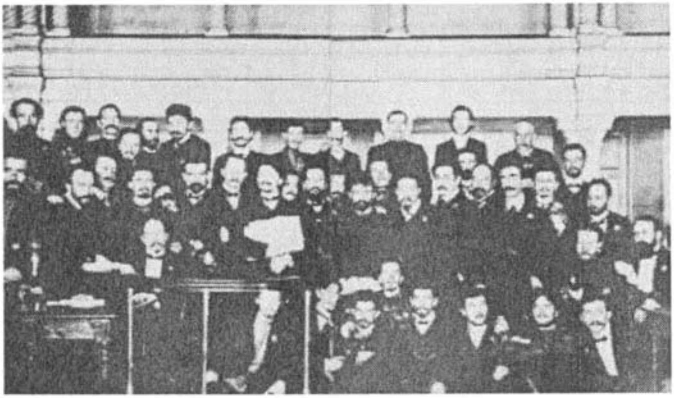

11- المتهمون والمحامون في محاكمة سوفييت سان بطرسبورج
(تروتسكي في وسط الصورة إلى اليسار قليلًا حاملًا حزمة أوراق)
- 1906

12- في فرنسا مع ابنته نينا - 1915

13- صورة من جواز سفره - 1915

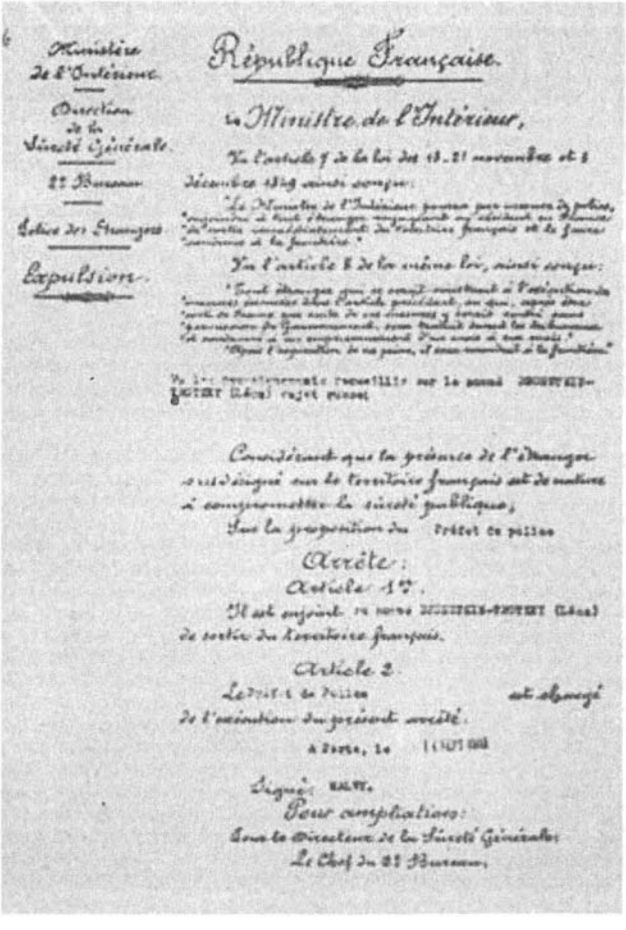
Ministère de l'Intérieur
Direction de la Sûreté Générale
2e Bureau
Police des Étrangers
Expulsion

République Française

Le Ministre de l'Intérieur,

Vu l'article 7 de la loi des 13-21 novembre et 3 décembre 1849 ainsi conçu:

[illegible]

Vu l'article 8 de la même loi, ainsi conçu:

[illegible]

[illegible]

Considérant que la présence de l'étranger sus désigné sur le territoire français est de nature à compromettre la sûreté publique,

Sur la proposition du Préfet de police

Arrête:

Article 1er.

Il est enjoint au nommé [illegible] (Léon) de sortir du territoire français.

Article 2.

Le Préfet de Police est chargé de l'exécution du présent arrêté.

A Paris, le [illegible]

Signé: [illegible]

Pour ampliation:

Pour le Directeur de la Sûreté Générale

Le Chef du 2e Bureau,

14- قرار طرده من فرنسا - 16 سبتمبر 1916

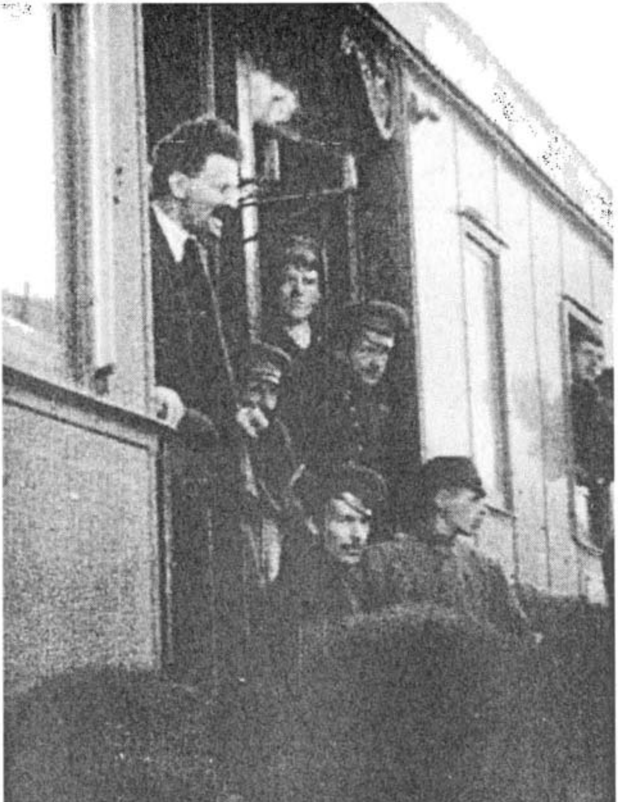

15- تروتسكي عائدًا إلى بتروجراد بالقطار - 4 مايو 1917

16- تروتسكي يتلقى التحية من ضباطٍ ألمان لدى وصوله إلى بريست ليتوفسك لإجراء مفاوضات إنهاء الحرب العالمية الأولى - 27 ديسمبر 1917

17- مع بعض أعضاء الوفد الروسي في مفاوضات بريست ليتوفسك (الثاني من اليسار)، ويظهر في الصورة كامينيف (أقصى يمين الصورة) - 1918

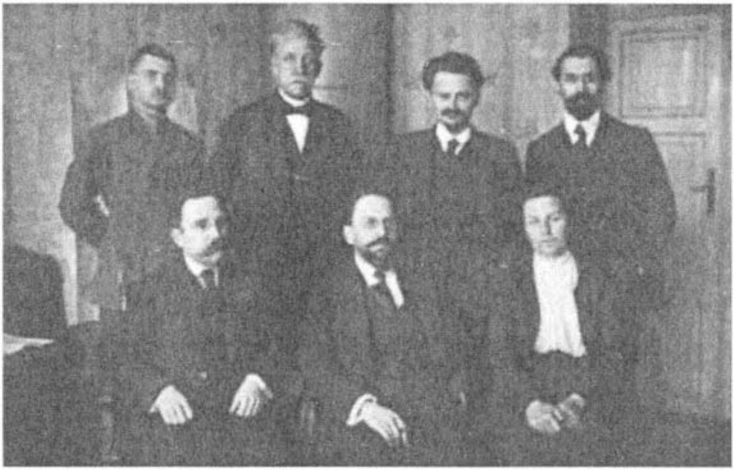

18- مع بعض أعضاء الوفد الروسي في المفاوضات، ويظهر في الصورة أدولف يوفي (جالسًا في المنتصف)، وكامينيف (جالسًا يسار الصورة) - 1918 .

19- على مكتبه في مفوضية الشعب لشئون الحرب - 1918

20- أمام حشدٍ من ضباط وجنود الجيش الأحمر، ويظهر خلفه يعقوب سفيردلوف (قصيرٌ بمعطفٍ أسود ونظارةٍ طبية) - 1918

21- مُلصَق دعائي في أثناء الحرب الأهلية - 1918

22- مع لينين في موسكو في أثناء إحياء الذكرى الثانية
للثورة البلشفية - أكتوبر 1919

23- مع لينين وكامينيف في ميدان سفيردلوفسك في موسكو - ٥ يناير 1920

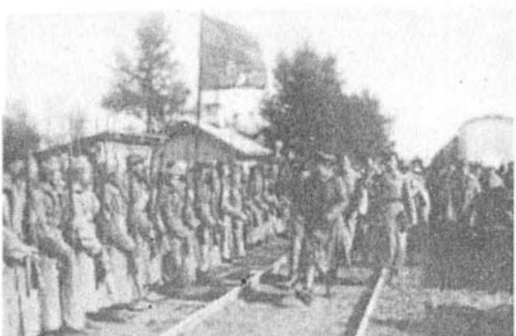

24- تروتسكي يحيي جنود الجيش الأحمر- 1920

25- تروتسكي في خطبةٍ أمام حشدٍ من الجنود - 1920

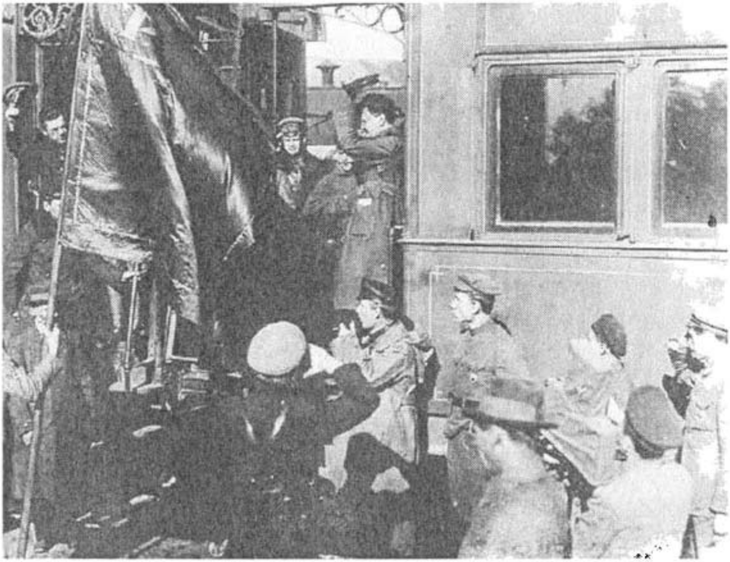

26- على متن قطاره الحربي في أثناء الحرب الأهلية - 1920

27- مع أحد أفراد طاقم القطار - 1920

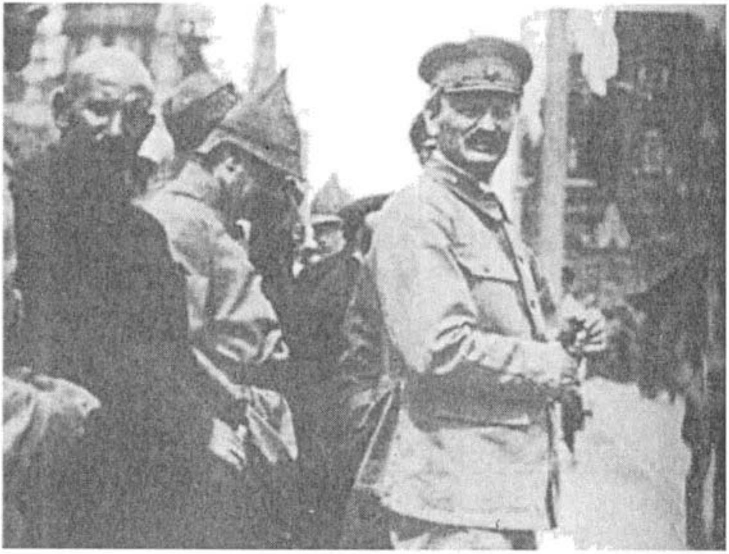

28- في إحياء الذكرى الثالثة للثورة البلشفية –
أكتوبر 1920

29- على سطح قطاره الحربي في إقليم القرم في أواخر الحرب الأهلية - 1921

30- يظهر في الصورة مع لينين وحشدٍ من جنود الجيش
الأحمر في بتروجراد - 1921

31- في المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية - 1921

32- ينتظر دوره لإلقاء خطبةٍ أمام حشدٍ في موسكو، ويظهر إلى يساره زينوفيف، كما يظهر على المنصة ريكوف (أقصى يمين الصورة) وستالين (خلف ريكوف) - 1921

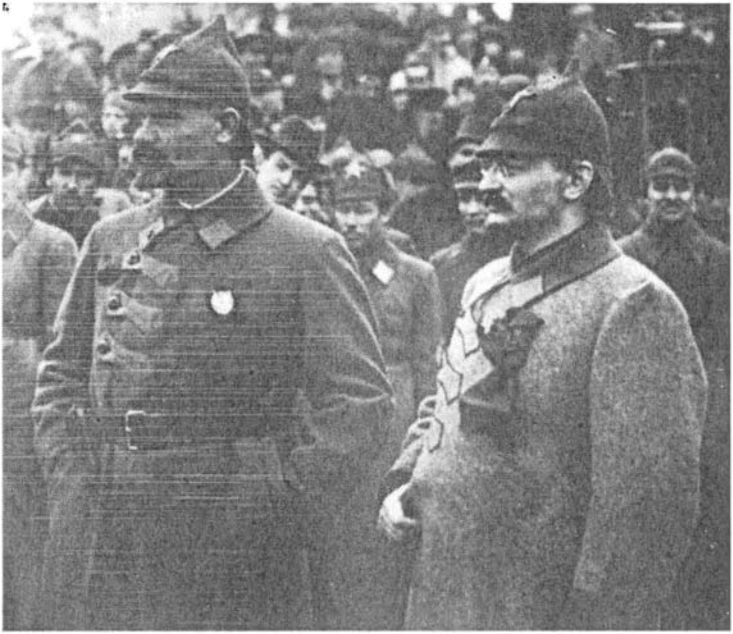

33- مع الجنرال مورالوف - أكتوبر 1923

34- في أثناء فترة نقاهته في رحلةٍ لصيد البط - 1924

35- مع كريستيان راكوفسكي - 1924

36- في جنازة فليكس دزرجينسكي، ويظهر في الصورة بوخارين (أقصى يمين الصورة)، وستالين (في المقدمة يمين الصورة)، وكالينين (في مقدمة الصورة)، وكامينيف (خلف تروتسكي مباشرةً)، وريكوف (أقصى يسار الصورة) - 1926

37- مع قادة المعارضة اليسارية، ويظهر في الصورة في الصف الأمامي من اليسار إلى اليمين: إستشينكو، ثم سميرنوف، ثم تروتسكي، ثم سميلجا، ثم ألسكي. والواقف خلفه مباشرةً هو إلستين، زوج ابنته نينا - موسكو 1927

38- مع زوجته وابنه وكلبهم في ألما آتا - كازاخستان 1928

39- في منفاه في جزيرة بربنكيبو - تركيا 1928

40- في أثناء خطبةٍ ألقاها في كوبنهاجن - نوفمبر 1932

41- على مكتبه يقرأ صحيفة "ذا ميليتانت" الأمريكية - 1936

42- في النرويج مع زوجته ناتاليا سيدوفا - 1936

43- تروتسكي يصل باريس - 1936

44- مع الشاعر والروائي والفيلسوف الفرنسي أندريه بريتون وزوجته الرسامة الفرنسية جاكلين لامبا - كايوويكان - المكسيك

45- مع الفنان المكسيكي دييجو ريفييرا وأندريه بريتون - كايوويكان 1938

46- مع زوجته ودييجو ريفييرا وفريدا كاهلو - كايوويكان

47- في كايوويكان وتظهر في الصورة زوجته أقصى اليسار وتجلس إلى جوارها فريدا كاهلو

48- مع سيدوفا - 1938

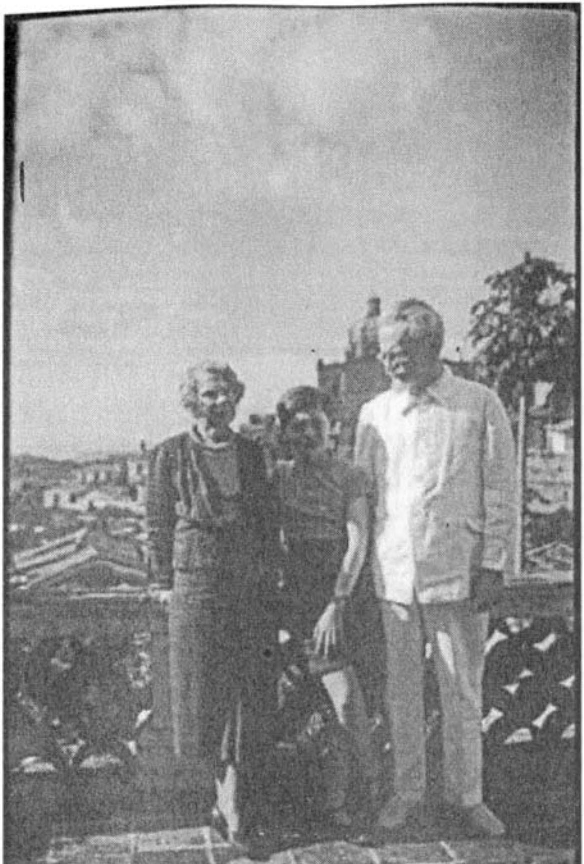

49- مع ناتاليا وحفيدهما ليفا فولكافا في كايوويكان –
المكسيك 1939

50- مع زوجته ومساعده الأمريكي جوزيف هانسن - كايوويكان

51- على فراش الموت خلال الـ24 التي قضاها حيًا بعد محاولة اغتياله - 21 أغسطس 1940

52- الفأس الذي استُخدِمَ في اغتياله

الفهرس

مقدمة المترجم: سيرة ذاتية للأمل............................3
"حياتي": محاولة في كتابة سيرة ذاتية مقدمة المؤلف..............25
الفصل الأول: يانوفكا............................37
الفصل الثاني: جيراننا ومدرستي الأولى............................73
الفصل الثالث: أوديسا: عائلتي ومدرستي............................95
الفصل الرابع: الكتب والصراعات الأولى............................125
الفصل الخامس: الريف والمدينة............................157
الفصل السادس :الانفصال............................181
الفصل السابع: منظمتي الثورية الأولى............................199
الفصل الثامن: سجوني الأولى............................217
الفصل التاسع: منفاي الأول............................233
الفصل العاشر: هروبي الأول............................249
الفصل الحادي عشر: هجرتي الأولى............................261
الفصل الثاني عشر: مؤتمر الحزب والانشقاق 275
الفصل الثالث عشر: العودة إلى روسيا............................301
الفصل الرابع عشر: العام 1905............................317
الفصل الخامس عشر: المحاكمة والمنفى والهروب............................337
الفصل السادس عشر: منفاي الثاني بالخارج: الاشتراكية الألمانية 363

الفصل السابع عشر: الإعداد لثورة جديدة........................ 391
الفصل الثامن عشر: بداية الحرب.. 413
الفصل التاسع عشر: باريس وزيمرفالد 429
الفصل العشرون: طردي من فرنسا.. 443
الفصل الحادي والعشرون: عبر إسبانيا.................................. 453
الفصل الثاني والعشرون: نيويورك.. 471
الفصل الثالث والعشرون: في معسكر الاعتقال......................... 485
الفصل الرابع والعشرون: في بتروجراد.................................. 497
الفصل الخامس والعشرون: حول الأكاذيب.............................. 517
الفصل السادس والعشرون: من يوليو إلى أكتوبر....................... 539
الفصل السابع والعشرون: ليلة الحسم 559
الفصل الثامن والعشرون: "التروتسكية" في 1917 573
الفصل التاسع والعشرون: في السلطة 581
الفصل الثلاثون: في موسكو 605
الفصل الحادي والثلاثون: مفاوضات بريست ليتوفسك 627
الفصل الثاني والثلاثون: السلام 655
الفصل الثالث والثلاثون: شهرٌ في سفيياجسك........................ 681
الفصل الرابع والثلاثون: القطار... 707
الفصل الخامس والثلاثون: الدفاع عن بتروجراد..................... 727

الفصل السادس والثلاثون: المعارضة العسكرية 749
الفصل السابع والثلاثون: خلافات حول إستراتيجية الحرب 777
الفصل الثامن والثلاثون: الانتقال إلى السياسة الاقتصادية الجديدة وعلاقتي بلينين.............................. 793
الفصل التاسع والثلاثون: مرض لينين.............................. 807
الفصل الأربعون: مؤامرة رجال الصف الثاني......................... 839
الفصل الحادي والأربعون: موت لينين وتحوُّل السلطة......... 861
الفصل الثاني والأربعون: الفصل الأخير من النضال داخل الحزب.. 889
الفصل الثالث والأربعون: المنفى.................................... 925
الفصل الرابع والأربعون: الترحيل.................................... 959
الفصل الخامس والأربعون: كوكبٌ بلا تأشيرة 977
مُلحَق: مع تروتسكي في كايوويكان.................................... 1007
دليل بأبرز الأسماء الواردة بالكتاب.................................... 1055
ملحق الصور.. 1079

حياتي – سيرة ذاتية

ليون تروتسكي

ترجمة: أشرف عمر

القاهرة – 2019

رقم الإيداع: 22746/ 2017

الترقيم الدولي: 6 – 358 – 751 – 977 - 978

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

القاهرة ج. م. ع

+2 01222235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

يتمتَّع هذا الكتاب بقيمةٍ أدبية رفيعة لما يتناوله من حياةِ ثوريٍّ برز اسمه في صدارة الكثير من الأحداث التاريخية التي غيَّرت وجه العالم في عصره. ويتميَّز كذلك بأسلوبٍ أدبي ممتع، ليس فقط لأن هذه سيرةٌ ذاتية هي بطبيعة الحال ضربٌ من ضروب الأدب، بل أيضًا لأن هكذا أسلوب هو ما اعتاد المؤلف الكتابة به في أغلب أعماله —التاريخية والسجالية علىٰ الأقل. نجد بين طيَّات هذا الكتاب الكثير من السرد التاريخي، والشروح الفلسفية، والرؤىٰ والتصوُّرات الشخصية والسياسية، والسجالات النظرية التي لا يخلو بعضها من حِدَّة. لكنه يظل مع ذلك كتاب سيرة ذاتية، إذ كانت هذه العناصر مُكوِّناتٍ رئيسية لحياة المؤلف الشخصية الواعية حتىٰ اغتياله عام 1940 علىٰ يد أحد عملاء الستالينية في المكسيك.

روافد للنشر والتوزيع
9789777513586